•(فهرسة الجزء السادس من تفسير الفخر الرازى)•

صحيفة

صحيفة

صحيفة

•(تمت)•

الجزء السادس من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمين

م

•(وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود)•

بسم الله الرحمن الرحيم

•(سورة طه مائة وثلاثون وخمس آيات)•

•(بسم الله الرحمن الرحيم)•

(طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) اعلم ان قوله طه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائى بكسر الطاء والهاء قال الزجاج وقرئ طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلان ما قبل الالف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فأمال الكسرة لان الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الامالة الى الكسرة (المسئلة الثانية) للمفسرين فيه قولان (أحدهما) انه من حروف التهجى والآخر انه كلمة مفيدة أما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه فى أول سورة البقرة والذى زادوه ههنا أمور (أحدها) قال الثعلبى طا شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار (وثانيها) يحكى عن جعفر الصادق عليه السلام الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم (وثالثها) يا مطمع الشفاعة للامة ويا هادى الخلق الى الملة (ورابعها) قال سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادى (وخامسها) الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل يا طاهرا من الذنوب ويا هاديا الى علام الغيوب (وسادسها) الطاء طول القراء والهاء هيبتهم

فى

•(سورة طه مكية وهى مائة وخمس وثلاثون آية)•

•(بسم الله الرحمن الرحيم)• (طه) فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الاصل والطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون وهو من الفواتح التى يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنه والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى الا انه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبى على لغة عك وقيل عكل وهى لغة يمانية قالوا ان صح فلعل أصله يا هذا اقتصر فوا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد من قول الشاعر

ان السفاهة طه فى خلائقكم
لا قدس الله أخلاق الملاعين

ليس بنص فى ذلك لجواز كونه قسما كما فى حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الاصل طأها بصيغة الامر من الوطء فقلبت الهمزة فى يطأ ألفا لانفتاح ما قبلها كما فى قول من قال لا هناك المرتع وها ضمير الارض على انه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الارض بقدميه لما كان يقوم فى تهجده على احدى

فى قلوب الكفار قال الله تعالى سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب (وسابعها) الطاء تسعة فى الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الاقوال لا يجب أن يعتمد عليها (القول الثانى) قول من قال انها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين (أحدهما) معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى رضى الله عنهم ثم قال سعيد بن جبير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشة وقال الكلبى بلغة عك وأنشد الكلبى لشاعرهم

ان السفاهة طه فى خلائقكم • لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين (الاول) انه بمعنى يا رجل فى اللغة محمول عليه لكنه لا يجوز ان ثبت على هذا المعنى الا فى لغة العرب اذ القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب فى هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التى حكيناها فأما على غير هذا الوجه فلا يحتمل ولا يصح (الثانى) قال صاحب الكشاف ان كان طه فى لغة عك بمعنى يا رجل فلعلهم تصرفوا فى يا هذا فقلبوا الياء طاء فقالوا طا واختصروا فى هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى يا هذا واعترض بعضهم عليه وقال لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طاها (وثانيهما) انه عليه السلام كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه فأمر أن يطأ الارض بقدميه معا وكان الاصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا هياك فى اياك وهرقت فى أرقت ويجوز أن يكون الاصل من وطئ على ترك الهمزة فيكون أصله طا يا رجل ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج • أما قوله تعالى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان جعلت طه تعديدا لاسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وان جعلتها اسما للسورة احتمل أن يكون قوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى خبرا عنها وهى فى موضع المبتدا والقرآن ظاهر اوقع موقع المضمر لانها قرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم (المسئلة الثانية) قرئ ما نزل عليك القرآن لتشقى (المسئلة الثالثة) ذكروا فى سبب نزول الآية وجوها (احدها) قال مقاتل ان أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الاسلام هو السلام وهذا القرآن هو السلام الى نيل كل فوز والسبب فى ادراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها (وثانيها) انه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى أيضا انه عليه السلام كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقال بعضهم كان يقوم

رجليه مبالغة فى المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأبى التفسير بيا رجل فان الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرئ طه اما على أن اصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى أمثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا كما مر ثم بنى منه الامر وألحق به هاء السكت واما على انه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال أو اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث انهما مسميان لاسميهما البقعاء معبرا عنهما بل من حيث انهما جزآن لهما قد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزآن للاسمين ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطر الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى انه اكتفى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقديرى كونه أمرا او كونه حرف نداء وها على تقديرى كونها كناية عن

على رجل واحدة وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله لتشقى ذلك قال القاضى هذا بعيد لانه عليه السلام ان فعل شيأ من ذلك فلابد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى واذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له ما أمرناك بذلك (وثانيها) قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ولا تعذبها بالاسف على كفر هؤلاء فانا انما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك الا البلاغ وهو كقوله تعالى لعلك باخع نفسك الآية ولا يحزنك قولهم (ورابعها) انك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بوكيل أى ليس عليك كفرهم اذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم (وخامسها) ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وفى ذلك الوقت كان عليه السلام مقهورا تحت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لا تظن انك تبقى على هذه الحالة أبدا بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل تصير معظما مكرما * وأما قوله تعالى الا تذكرة لمن يخشى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى كلمة الا ههنا قولان (أحدهما) انه استثناء منقطع بمعنى لكن (والثانى) التقدير ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ الا ليكون تذكرة كما يقال ما شافهناك بهذا الكلام لتتأذى الا ليعتبر بك غيرك (المسئلة الثانية) انما خص من يخشى بالتذكرة لانهم المنتفعون بها وان كان ذلك عاما فى الجميع وهو كقوله هدى للمتقين وقال سبحانه وتعالى تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقال لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون وقال وتنذر به قوما لدا وقال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (المسئلة الثالثة) وجه كون القرآن تذكرة انه عليه السلام كان يعظهم به وببيانه فيدخل تحت قوله لمن يخشى الرسول صلى الله عليه وسلم لانه فى الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل * وأما قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى نصب تنزيلا وجوها (أحدها) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الارض فنصب تنزيلا بمضمر (وثانيها) أن ينصب بأنزلنا لان معنى ما أنزلناه الا تذكرة أنزلناه تذكرة (وثالثها) أن ينصب على المدح والاختصاص (ورابعها) أن ينصب بيخشى مفعولا به أى أنزله الله تعالى تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن واعراب بين وقرئ تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف (المسئلة الثانية) فائدة الانتقال من لفظ التكلم الى لفظ الغيبة أمور (أحدها) ان هذه الصفات لا يمكن ذكرها الا مع الغيبة (وثانيها) انه قال أولا أنزلنا ففخم بالاسناد الى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة الى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه (المسئلة الثالثة) انه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه الى أنه تنزيل ممن خلق الارض وخلق السموات على علوها وانما قال ذلك لان تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وانما عظم القرآن ترغيبا فى تدبره والتأمل فى

الارض وكونها حرف تنبيه وعدل عن ذينك الشطرين فى التلفظ باسمهما فبين البطلان كيف وطاوها على ما ذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الاول أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الارض أو حرف تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كامر فالحق ما سلف من أنها من الفواتح اما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فانه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة الشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فان لها عليك حقا

معانيه وحقائقه وذلك معتاد فى الشاهد فانه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل اليه أقرب الى الامتثال (المسئلة الرابعة) يقال سماء عليا وسموات علا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها وبعد مرتقاها أما قوله تعالى الرحمن على العرش استوى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الرحمن مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن لانه اما أن يكون رفعا على المدح والتقدير هو الرحمن واما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه الى من خلق فان قيل الجملة التى هى على العرش استوى ما محلها اذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح قلنا اذا جررت فهو خبر مبتدا محذوف لا غير وان رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدا (المسئلة الثانية) المشبهة تعلقت بهذه الآية فى ان معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) انه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ولما خلق الخلق لم يحتج الى مكان بل كان غنيا عنه فهو بالصفة التى لم يزل عليها الا أن يزعم زاعم انه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) ان الجالس على العرش لابد وأن يكون الجزء الحاصل منه فى يمين العرش غير الحاصل فى يسار العرش فيكون فى نفسه مؤلفا مركبا وكل ما كان كذلك احتاج الى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) ان الجالس على العرش اما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك فان كان الاول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثا لامحالة وان كان الثانى كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن اذا شاء الحركة فى رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم (ورابعها) هو ان معبودهم اما أن يحصل فى كل مكان أو فى مكان دون مكان فان حصل فى كل مكان لزمهم أن يحصل فى مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل وان حصل فى مكان دون مكان افتقر الى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجا وهو على الله محال (وخامسها) ان قوله ليس كمثله شئ يتناول نفى المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شئ الا فى الجلوس والا فى المقدار والا فى اللون وصحة الاستثناء تقتضى دخول جميع هذه الامور تحته فلو كان جالسا لحصل من يماثله فى الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لان الخالق هو الذى يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسابعها) انه لو جاز أن يكون المستقر فى المكان الها فكيف يعلم ان الشمس والقمر ليس باله لان طريقنا الى نفى الهية الشمس والقمر انهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن الها فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح فى الهية الشمس والقمر (وثامنها) ان العالم كرة فالجهة التى هى فوق بالنسبة الينا هى تحت بالنسبة الى ساكنى ذلك الجانب الآخر من الارض وبالعكس

اى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وقيل ان أبا جهل والنضر بن الحرث قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك شقى حيث تركت دين آبائك وان القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا والاول هو الانسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا واما اسم للقرآن محله الرفع على انه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر أوقع موقع العائد الى المبتدا كأنه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أو النصب على اضمار فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الاول فانه لا يتسنى على ذلك التقدير لكن لا لان المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مقامه فان القرآن صادق على السورة لا محالة اما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض أو باعتبار الاندراج ان أريد به الكل بل لان نفى كون انزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على انزاله قطعا اما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب او بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولا ريب فى أن ذلك انما يتصور فى انزال ما أنزل قبل وأما انزال السورة الكـ[...] فليس مما يمكن ترتب الشقاء [...] عليه حتى يتصدى لنفـ[...]ـه أما

فلو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وان كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين و باتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الاشياء (وتاسعها) أجمعت الامة على ان قوله قل هو الله أحد من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذى منه يلى ماعلى يمينه غير الجانب الذى منه يلى ماعلى يساره فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحدا فى الحقيقة فيبطل قوله قل هو الله أحد (وعاشرها) ان الخليل عليه السلام قال لا أحب الآفلين ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبدا غائبا أبدا فكان يندرج تحت قوله لا أحب الآفلين فثبت بهذه الدلائل ان الاستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان (الاول) انا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالى عن بعض أصحاب الامام أحمد بن حنبل انه أول ثلاثة من الاخبار قوله عليه السلام الحجر الاسود يمين الله فى الارض وقوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن وقوله عليه السلام انى لاجد نفس الرحمن من قبل اليمن واعلم ان هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) انه ان قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الاستواء الجلوس وهذا هو التأويل وان لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقى شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى اللهم الا أن يقول انا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى مايشعر به ظاهره بل مراده به شئ آخر ولكنى لا أعين ذلك المراد خوفا من الخطا فهذا يكون قريبا وهو أيضا ضعيف لانه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ الا موضوعه فى لسان العرب واذا كان لا معنى للاستواء فى اللغة الا الاستقرار والاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار فوجب حمله على الاستيلاء والا لزم تعطيل اللفظ وانه غير جائز (والثانى) وهو دلالة قاطعة على انه لابد من المصير الى التأويل وهو ان الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار فاما أن نعمل بكل واحد من الدليلين واما أن نتركهما معا واما أن نرجح النقل على العقل واما ان نرجح العقل ونؤول النقل والاول باطل والا لزم أن يكون الشئ الواحد منزها عن المكان وحاصلا فى المكان وهو محال (والثانى) أيضا محال لانه يلزم رفع النقيضين معا وهو باطل (والثالث) باطل لان العقل أصل النقل فانه مالم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح فى العقل يقتضى القدح فى العقل والنقل معا فلم يبق الا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع فى المقصود اذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الاستواء الاستيلاء قال الشاعر

قد استوى بشر على العراق ● من غير سيف ودم مهراق

فان قيل هذا التأويل غير جائز لوجوه (أحدها) ان الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك فى حق الله تعالى محال (وثانيها) انه انما يقال فلان استولى على كذا اذا كان

باعتبار الاتحاد فظاهر وأما باعتبار الاندراج فلان ما آله أن يقال هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى ولا يخفى أن جعلها مخبرا عنها مع انه لا دخل لانزالها فى الشقاء السابق أصلا مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى (الا تذكرة) نصب على انه مفعول له لانزلنا لكن لا من حيث انه معلل بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب تبليغه الا تذكرة الآية كقولك ماضربتك للتأديب الا اشفاقا فانما انه يجب فى أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما فى المثال المذكور وفى قولك ماشافهتك بالسوء لتتأذى الا زجرا لغيرك فان التأديب فى الاول مسبب عن الاشفاق والتأذى فى الثانى سبب لزجر الغير وقد عرفت مابين الشقاء والتذكرة من التنافى ولا يجدى أن يراد به التعب فى الجملة المجامع للتذكرة لظهور أن لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وانما يتصور ذلك أن لو قيل مكان الا تذكرة الا تكثير الثواب فان الاجر بقدر التعب ولا من حيث انه بدل من محل لتشقى كما فى قوله تعالى مافعلوه الا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث انه معطوف عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب فى تبليغه ولكن

له منازع ينازعه وكان المستولى عليه موجودا قبل ذلك وهذا فى حق الله تعالى محال لان العرش انما حدث بتخليقه وتكوينه (وثالثها) الاستيلاء حاصل بالنسبة الى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة والجواب انا اذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل الا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على البلد يريدون ملك وان لم يقعد على السرير البتة وانما عبروا عن حصول الملك بذلك لانه أصرح وأقوى فى الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة بمعنى انه جواد وبخيل لافرق بين العبارتين الا فيما قلت حتى ان من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة لانه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد ومنه قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم أى هو بخيل بل يداه مبسوطتان أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط والتفسير بالنعمة والتمحل للتسمية من ضيق العطن وأقول انا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فانهم أيضا يقولون المراد من قوله فاخلع نعليك الاستغراق فى خدمة الله تعالى من غير تصور فعل وقوله يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم المراد منه تخليص ابراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة وكذا القول فى كل ما ورد فى كتاب الله تعالى بل القانون انه يجب حمل كل لفظ ورد فى القرآن على حقيقته الا اذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه وليت من لم يعرف شيأ لم يخض فيه فهذا تمام الكلام فى هذه الآية ومن أراد الاستقصاء فى الآيات والاخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس وبالله التوفيق ● أما قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى فاعلم انه سبحانه لما شرح ملكه بقوله الرحمن على العرش استوى والملك لا ينتظم الا بالقدرة والعلم لا جرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم أما القدرة فهى هذه الآية والمراد انه سبحانه مالك لهذه الاقسام الاربعة فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى فان قيل الثرى هو السطح الاخير من العالم فلا يكون تحته شئ فكيف يكون الله مالكا له قلنا الثرى فى اللغة التراب الندى فيحتمل أن يكون تحته شئ وهو اما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات أما العلم فقوله تعالى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى وفيه قولان (أحدهما) ان قوله وأخفى بناء المبالغة وعلى هذا القول نقول انه تعالى قسم الاشياء الى ثلاثة أقسام الجهر والسر والاخفى فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذى يجهر به وقد يسر فى النفس وان ظهر البعض وقد يسر ولا يظهر على ما قال بعضهم ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالاخفى ما ليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين انه يعلم السر الذى لا يسمع وما هو اخفى منه فكيف لا يعلم الجهر والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح

تذكرة (لمن يخشى) وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا لفاعل الفعل المعلل أى لمن من شانه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى انه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لانهم المنتفعون بها وقوله تعالى (تنزيلا) مصدر مؤكد لمضمر مستأنف مقرر لما قبله أى نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستثنائية فانها متضمنة لان يقال أنزلناه للتذكرة والاول هو الانسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أى يخشى تنزيلا من الله تعالى وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما فى قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على انه مفعول له لانزلنا اذ لا يعلل الشئ بنفسه ولا بنوعه بل على انه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف فى عليك أو من القرآن ولا مساغ له الا بان يكون قيد الانزلنا بعد تقييده بالقيد الاول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرئ تنزيل على انه خبر لمبتدا محذوف ومن فى قوله تعالى (ممن خلق الارض والسموات العلى) متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفة له

ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة فعلى هذا الوجه
ينبغى أن يحمل السر والاخفى على ما فيه ثواب أو عقاب والسر هو الذى يسره المرء فى
نفسه من الامور التى عزم عليها والاخفى هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ويحتمل أن يفسر
الاخفى بما عزم عليه وما وقع فى وهمه الذى لم يعزم عليه ويحتمل ما لم يقع فى سره بعد فيكون
أخفى من السر ويحتمل أيضا ما سيكون من قبل الله تعالى من الامور التى لم تظهر وان كان
الاقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب (القول الثانى) ان أخفى فعل يعنى انه
يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه وهو كقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
بشئ من علمه فان قيل كيف يطابق الجزاء الشرط قلنا معناه ان تجهر بذكر الله تعالى من
دعاء أو غيره فاعلم انه غنى عن جهرك واما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله واذكر ربك
فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما تعليما للعباد ان الجهر ليس لاستماع
الله تعالى وانما هو لغرض آخر واعلم ان الله تعالى لذاته عالم وانه عالم بكل المعلومات فى كل
الاوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون
موصوفا بالحدوث أو الامكان والعبد لا يشارك الرب الا فى السدس الاول وهو أصل العلم
ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضا نصفان لخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له
والنصف الواحد لجملة عباده ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة
الكروبية والملائكة الروحانية وحملة العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة
وملائكة العذاب وكذا جميع الانبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم
وعليهم أجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم فى علومهم الضرورية والكسبية والحرف
والصناعات وجميع الحيوانات فى ادراكاتها وشعوراتها والاهتداء الى مصالحها فى
أغذيتها ومضارها ومنافعها والحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة ثم انك بتلك
الذرة عرفت أسرار الهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة فاذا كنت بهذه الذرة
عرفت هذه الاسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف أفلا يعلم بذلك العلم أسرار
عبوديتك فهذا تحقيق قوله وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى بل الحق ان الدينار
بتمامه له لان الذى علمته فانما علمته بتعليمه على ما قال أنزله بعلمه وقال ألا يعلم من خلق ولهذا
مثال وهو الشمس فان ضوءها يجعل العالم مضيئا ولا ينتقص البتة من ضوئها شئ فكذا
ههنا فكيف لا يكون عالما بالسر والاخفى فان من تدبيراته فى خلق الاشجار وأنواع
النبات انها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء فلا جرم أصولها مركوزة فى الارض تمتص
بها الغذا فيتأدى ذلك الغذاء الى الاغصان ومنها الى العروق ومنها الى الاوراق ثم انه تعالى
جعل عروقها كالاطناب التى بها يمكن ضرب الخيام وكما انه لا بد من مد الطنب من كل
جانب لتبقى الخيمة واقفة كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة ثم لو
نظرت الى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها ليصل الغذاء منها الى كل

جانب

مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة
الذاتية بالفخامة الاضافية ونسبة
التنزيل الى الموصول بطريق
الالتفات الى الغيبة بعد نسبته الى
نون العظمة لبيان فخامته تعالى
بحسب الافعال والصفات اثر بيانها
بحسب الذات بطريق الابهام ثم
التفسير لزيادة تحقيق وتقرير
وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن
المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما
كما يفصح عنه قوله تعالى له ما فى
السموات وما فى الارض الآية
لاصالتهما واستتباعهما لما عداهما
وتقديم الارض لكونه أقرب الى
الحس وأظهر عنده ووصف السموات
بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الاعلى
لتأكيد الفخامة مع ما فيه من
مراعاة الفواصل وكل ذلك الى قوله
تعالى له الاسماء الحسنى مسوق لتعظيم
شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم
شأن المنزل الداعى الى تربية المهابة
وادخال الروعة المؤدية الى استنزال
المتمردين عن رتبة العتو والطغيان
واستمالتهم نحو الخشية المفضية الى
التذكرة والايمان (الرحمن) رفع على
المدح أى هو الرحمن وقد عرفت فى
صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا
فى حكم الصفة الجارية على ما قبله
وان لم يكن تابعا له فى الاعراب ولذلك
التزموا حذف المبتدا ليكون فى صورة
متعلق من متعلقاته وقد قرئ بالجر
على انه صفة صريحة للموصول وما
قيل من أن الاسماء الناقصة لا يوصف
منها الا الذى وحده مذهب الكوفيين

جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا تتمزق سريعا وهى شبه العروق المخلوقة
فى بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن ثم انظر الى الاشجار
فان أحسنها فى المنظر الدلب والخلاف ولا حاصل لهما وأقبحها شجرة التين والعنب
وانظر الى منفعتهما فهذه الاشياء واشباهها تظهر انه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى
السموات ولا فى الارض ❊ اما قوله تعالى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى فالكلام فيه
على قسمين (الاول) فى التوحيد اعلم أن دلائل التوحيد ستأتى ان شاء الله فى تفسير قوله
تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وانما ذكره ههنا ليبين ان الموصوف بالقدرة
وبالعلم على الوجه الذى تقدم واحد لا شريك له وهو الذى يستحق العبادة دون غيره
ولنذكر ههنا نكتا متعلقة بهذا الباب وهى ابحاث (البحث الاول) اعلم أن مراتب
التوحيد أربع (أحدها) الاقرار باللسان (والثانى) الاعتقاد بالقلب (والثالث)
تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة (والرابع) أن يصير العبد مغمورا فى بحر التوحيد بحيث
لا يدور فى خاطره شئ غير عرفان الاحد الصمد (أما الاقرار باللسان) فان وجد خاليا
عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق (وأما الاعتقاد) بالقلب اذا وجد خاليا عن
الاقرار باللسان ففيه صور (الصورة الاولى) ان من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات
قبل ان يمضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فقال قوم انه لا يتم ايمانه والحق
انه يتم لانه أدى ما كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطبا ورأيت فى الكتب ان ملك
الموت مكتوب على جبهته لا اله الا الله لكى اذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه
ذلك التذكر عن الذكر (الصورة الثانية) ان من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه
التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه قال الشيخ الغزالى يحتمل أن يقال اللسان ترجمان القلب
فاذا حصل المقصود فى القلب كان امتناعه من التلفظ جاريا مجرى امتناعه من الصلاة
والزكاة وكيف يكون من أهل النار وقد قال عليه السلام يخرج من النار من كان فى
قلبه مثقال ذرة من الايمان وقلب هذا الرجل مملوء من الايمان وقال آخرون الايمان
والكفر أمور شرعية نحن نعلم ان الممتنع من هذه الكلمة كافر (الصورة الثالثة) من
أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف فى صحة ايمانه مشهور
(أما المقام الثالث) وهو اثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بينا فى تفسير قوله تعالى
لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا انه يمكن اثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية
واستقصينا القول فيها هنالك (أما المقام الرابع) وهو الفناء فى بحر التوحيد فقال
المحققون العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن فى جميع صفات هى من
صفات الحق للذات المريدة بالصدق منتبه الى الواحد القهار ثم وقوف هذه الكلمات
محيطة باقصى نهايات درجات السائرين الى الله تعالى (البحث الثانى) فى الاخبار الواردة
فى التهليل (أولها) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل

وأيا ما كان فوصفه بالرحمانية اثر
وصفه بخالقية السموات والارض
للاشعار بأن خلقهما من آثار
رحمته تعالى كما أن قوله تعالى رب
السموات والارض وما بينهما
الرحمن للايذان بأن ربوبيته تعالى
بطريق الرحمة وفيه اشارة الى أن
تنزيل القرآن أيضا من أحكام
رحمته تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى
الرحمن علم القرآن أو رفع على
الابتداء واللام للعهد والاشارة
الى الموصول والخبر قوله تعالى
(على العرش استوى) وجعل
الرحمة عنوان الموضوع الذى
شأنه أن يكون معلوم الثبوت
للموضوع عند المخاطب للايذان
بأن ذلك أمر بين لا سترة به غنى عن
الاخبار به صريحا وعلى متعلقة
باستوى قدمت عليه لمراعاة
الفواصل والجار والمجرور على
الاول خبر مبتدا محذوف كما فى
قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبرا

الدعاء استغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (وثانيها) قال عليه السلام ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل ان خلق السموات والارض وهو يقول أشهد أن لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله عز وجل (وثالثها) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال عليه السلام مازلت اشفع الى ربى ويشفعنى واشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله قال يا محمد هذه ليست لك ولا لاحد وعزتى وجلالى لا أدع أحدا فى النار قال لا اله الا الله (ورابعها) قال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله جل ذكره بحكمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله (وخامسها) ان عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قام فى السوق فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب له الله ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا فى الجنة (البحث الثالث) فى النكت (أحدها) ينبغى لاهل لا اله الا الله ان يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرية فهو فاجر (وثانيها) قال بعضهم قوله ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انه لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما أعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله (وثالثها) ان موسى بن عمران عليه السلام قال يارب علمنى شيأ اذكرك به قال قل لا اله الا الله قال كل عبادك يقولون لا اله الا الله فقال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيأ تخصنى به قال ياموسى لو أن السموات السبع ومن فيهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله (البحث الرابع) فى اعرابه قالوا كلمة لاههنا دخلت على الماهية فانتفت الماهية واذا انتفت الماهية انتفت كل افراد الماهية وأما الله فانه اسم علم للذات المعينة اذ لو كان اسم معنى لكان كليا محتملا للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد فقالوا الا استحقت عمل ان لمشابهتها لها من وجهين (أحدهما) ملازمة الاسماء والآخر تناقضهما فان أحدهما لتأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفى ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر فى الحكم اذا ثبت هذا فنقول لما قالوا ان زيدا ذاهب كان يجب أن يقولوا لا رجلا ذاهب الا أنهم بنوا الامع مادخل عليه

بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير أصلا والمراد بيان تعلق ارادته الشريفة بايجاد الكائنات وتدبير أمرها وقوله تعالى (له مافى السموات ومافى الارض) سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما (ومابينهما) من الموجودات الكائنة فى الجو دائما كالهواء والسحاب أو اكثريا كالطير أى له وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالا كل ماذكر ملكا وتصرفا واحياء واماتة وايجادا واعداما (وماتحت الثرى) أى ماوراء التراب وذكره مع دخوله تحت مافى الارض لزيادة التقرير روى عن محمد بن كعب انه ماتحت الارضين السبع وعن السدى أن الثرى هو الصخرة التى عليها

من الاسم المفرد على الفتح أما البناء فلشدة اتصال حرف النفى بمادخل عليه كأنهما صارا اسما واحدا وأما الفتح فلانهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقا بين الدليل الموجب للاعراب والدليل الموجب للبناء (الثانى) خبره محذوف والاصل لا اله فى الوجود ولا حول ولا قوة الا بالله وهذا يدل على ان الوجود زائد على الماهية (البحث الخامس) قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب فان السلب مالم يضف الى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدم ههنا السلب على الثبوت وجوابه انه لما كان هذا السلب من مؤكدات الثبوت لاجرم قدم عليه (القسم الثانى) من الكلام فى الآية البحث عن أسماء الله تعالى وفيه ابحاث (البحث الاول) قال عليه السلام اذا كان يوم القيامة نادى مناد أيها الناس انا جعلت لكم نسبا وأنتم جعلتم لانفسكم نسبا انا جعلت أكرمكم عندى أتقاكم وأنتم جعلتم اكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبى وأضع نسبكم أين المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون واعلم ان الاشياء فى قسمة العقول على ثلاثة أقسام كامل لا يحتمل النقصان وناقص لا يحتمل الكمال وثالث يقبل الامرين أما الكامل الذى لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك فى حقه بالوجوب الذاتى وبعده الملائكة فان من كمالهم انهم لا يعصون الله ما أمرهم ومن صفاتهم انهم عباد مكرمون ومن صفاتهم انهم يستغفرون للذين آمنوا وأما الناقص الذى لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم واما الذى يقبل الامرين جميعا فهو الانسان تارة يكون فى الترقى بحيث يخبر عنه بأنه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وتارة فى التسفل بحيث يقال ثم رددناه أسفل سافلين واذا كان كذلك استحال أن يكون الانسان كاملا لذاته ومالا يكون كاملا لذاته استحال أن يصير موصوفا بالكمال الى أن يصير منتسبا الى الكامل لذاته لكن الانتساب قسمان قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال أما الذى يكون يعرض للزوال فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال وأما الذى لا يكون يعرض للزوال فعبوديتك لله تعالى فانه كما يمتنع زوال صفة الالهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لا تقبل الزوال والمنتسب اليه وهو الحق سبحانه لا يقبل الخروج عن صفة الكمال ثم اذا كنت من بلد أو منتسبا الى قبيلة فانك لا تزال تبالغ فى مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضى فلان تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتى كان أولى فلهذا قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى (البحث الثانى) فى تقسيم اسماء الله تعالى اعلم ان اسم كل شئ اما أن يكون واقعا عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الامور الخارجة عن ذاته (أما القسم الاول) فقد اختلفوا فى انه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسئلة مبنية على ان حقيقة الله تعالى هل هى معلومة للبشر أم لا فمن قال انها غير معلومة للبشر قال ليس لذاته المخصوصة اسم لان المقصود من الاسم أن يشار به الى المسمى واذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت

الارض السابعة (وان تجهر بالقول) بيان لاحاطة علمه تعالى بجميع الاشياء اثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أى وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم انه تعالى غنى عن جهرك (فانه يعلم السر وأخفى) أى ما أسررته الى غيرك وشيأ أخفى من ذلك وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ما أسررته لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتى وتنكيره للمبالغة فى الخفاء وهذا اما نهى عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما ارشاد للعباد الى أن الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وهضمها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى (الله) خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق

الاشارة العقلية اليها فامتنع وضع الاسم لها وقد تكلمنا فى تحقيق ذلك فى تفسير اسم الله وأما الاسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته فذلك محال لانه ليس لذاته شئ من الاجزاء لان كل مركب ممكن وواجب الوجود لا يكون ممكنا فلا يكون مركبا وأما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته فالصفات اما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية اضافية أو سلبية أو ثبوتية مع اضافية أو ثبوتية مع سلبية أو اضافية مع سلبية أو ثبوتية واضافية وسلبية ولما كانت الاضافات الممكنة غير متناهية وكذا السلوب غير متناهية أمكن أن يكون للبارى تعالى أسماء متباينة لا مترادفة غير متناهية فهذا هو التنبيه على المأخذ (البحث الثالث) يقال ان لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لا يعلمها الا الله تعالى وألف لا يعلمها الا الله والملائكة وألف لا يعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابع فان المؤمنين يعلمونه فثلثمائة منها فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة (البحث الرابع) الاسماء الواردة فى القرآن منها ما ليس بانفراده ثناء ومدحا كقوله جاعل وخالق وصانع فاذا قيل فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا صار مدحا وأما الاسم الذى يكون مدحا فقد ما اذا قرن بغيره صار أبلغ نحو قولنا حى فاذا قيل الحى القيوم أو الحى الذى لا يموت كان أبلغ وأيضا قولنا بديع فانك اذا قلت بديع السموات والارض ازداد المدح ومن هذا الباب ما كان اسم مدح ولكن لا يجوز افراده كقولك دليل وكاشف فاذا قيل يا دليل المتحيرين ويا كاشف الضر والبلوى جاز ومنه ما يكون اسم مدح مفردا أو مقرونا كقولنا الرحمن الرحيم (البحث الخامس) من الاسماء ما يكون مقارنتها أحسن كقولك الاول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى فى حكاية قول المسيح ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وبقية الابحاث قد تقدمت فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم (البحث السادس) فى النكت رأى بشر الحافى كاغدا مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك وبلعه فرأى فى النوم قائلا يقول يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك فى الدنيا والآخرة (وثانيها) قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى وليس حسن الاسماء لذواتها لانها ألفاظ وأصوات بل حسنها الحسن معانيها ثم ليس حسن أسماء الله حسنا يتعلق بالصورة والخلقة فان ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع الى معنى الاحسان مثلا اسم الستار والغفار والرحيم انما كانت حسناء لانها دالة على معنى الاحسان وروى ان حكيما ذهب اليه قبيح وحسن والتمسا الوصية فقال للحسن أنت حسن والحسن لا يليق به الفعل القبيح وقال للآخر انت قبيح والقبيح اذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه فنقول الهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلا تظهر لنا من تلك الاسماء الحسنة والصفات الحسنة الا الاحسان الهنا يكفينا قبح أفعالنا وسيرتنا فلا تضم اليه قبح العقاب ووحشة العذاب (وثالثها) قوله عليه السلام اطلبوا الحوائج عند حسان

لبيان أن ما ذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أى ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى (لا اله الا هو) تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ما قبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ما أسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى (له الاسماء الحسنى) بيان لكون ما ذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فانه روى أن المشركين حين سمعوا النبى عليه الصلاة والسلام يقول يا الله يا رحمن قالوا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الها آخر والحسنى تأنيث الاحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كما رب أخرى وآياتنا الكبرى

الوجوه الهنا حسن الوجه عرضى أما حسن الصفات والاسماء فذاتى فلا تردنا عن احسانك خائبين خاسرين (ورابعها) ذكر ان صيادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها فى الماء وقالت انها ما وقعت فى الشبكة الا لغفلتها الهنا تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى فى البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة ابليس وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها والقنا فى بحار رحمتك مرة أخرى (وخامسها) ذكرت من الاسماء خمسة فى الفاتحة وهى الله والرب والرحمن والرحيم والملك فذكرت الالهية وهى اشارة الى القهارية والعظمة فعلم أن الارواح لا تطيق ذلك القهر والعلو فذكرت بعده أربعة اسماء تدل على اللطف الرب وهو يدل على التربية والمعتاد ان من ربى أحدا فانه لا يهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية فى اللطف والرأفة ثم ختم الامر بالملك والملك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز ولان عائشة قالت لعلى عليه السلام ملكت فاسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء الضعفاء (وسادسها) عن محمد بن كعب القرظى قال موسى عليه السلام الهى أى خلقك أكرم عليك قال الذى لا يزال لسانه رطبا من ذكرى قال فأى خلقك أعلم قال الذى يلتمس الى علمه علم غيره قال فأى خلقك أعدل قال الذى يقضى على نفسه كما يقضى على الناس قال فأى خلقك أعظم جرما قال الذى يتهمنى وهو الذى يسألنى ثم لا يرضى بما قضيته له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا (وسابعها) قال الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادى مناد أين الحامدون الله على كل حال ثم تكون التبعة والحساب على من بقى الهنا فنحن حمدناك واثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك ومن أراد الاستقصاء فى الاسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البينات فى الاسماء والصفات وبالله التوفيق ۞ قوله تعالى (وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى يا موسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى) اعلم انه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه أتبع ذلك بما يقوى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام تقوية لقلبه فى الابلاغ كقوله وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ويصبره على تحمل المكاره فقال وهل أتاك حديث موسى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله وهل أتاك يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من امر موسى عليه السلام فقال وهل أتاك أى لم

(وهل أتاك حديث موسى) استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد الذى اليه انتهى مساق الحديث وبيان انه أمر مستمر فيما بين الانبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له انى أنا الله لا اله الا انا وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله حيث قال انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبى عليه الصلاة والسلام فى الائتساء بموسى عليه الصلاة والسلام فى تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب فى تبليغ أحكام الرسالة فيأباه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام من اقتحام المشاق وقوله تعالى (اذ رأى نارا) ظرف للحديث وقيل لمضمر مؤخر أى حين رأى نارا كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أى اذكر وقت رؤيته نارا روى انه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام فى الخروج الى أمه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشأم فلما وافى وادى طوى وهو بالجانب الغربى من الطور ولد له ولد فى ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده

يأتك الى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له وهذا قول الكلبى ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك فى الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس

(المسئلة الثانية) قوله وهل أتاك وان كان على لفظ الاستفهام الذى لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب فى قلبه وهذه الصيغة أبلغ فى ذلك كما يقول المرء لصاحبه هل بلغك خبر كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومى اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبى عليه السلام لا من قبل الله تعالى

(المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذ رأى نارا أى هل أتاك حديثه حين رأى نارا قال المفسرون استأذن موسى عليه السلام شعيبا فى الرجوع الى والدته فأذن له فخرج فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيأ فبينا هو فى مزاولة ذلك اذ نظر نارا من بعيد عن يسار الطريق قال السدى ظن انها نار من نيران الرعاة وقال آخرون انه عليه السلام رآها فى شجرة وليس فى لفظ القرآن ما يدل على ذلك واختلفوا فقال بعضهم الذى رآه لم يكن نارا بل تخيله نارا والصحيح انه رأى نارا ليكون صادقا فى خبره اذ الكذب لا يجوز على الانبياء قيل النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهى نار الشجر لقوله تعالى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهى نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضا النار على أربعة أقسام (أحدها) نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام (وثانيها) حرقة بلا نور وهى نار جهنم (وثالثها) الحرقة والنور وهى نار الدنيا (ورابعها) لا حرقة ولا نور وهى نار الاشجار فلما أبصر النار توجه نحوها فقال لاهله امكثوا فيجوز أن يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذى معها ويجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وأيضا فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيما أى أقيموا فى مكانكم انى آنست نارا أى أبصرت والايناس الابصار البين الذى لا شبهة فيه ومنه انسان العين فانه يبين به الشئ والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو أيضا ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان متنفيا حقيقة لهم أتى بكلمة انى لتوطين أنفسهم ولما كان الايناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول انى آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والنكتة فيه ان قوما قالوا كذب ابراهيم للمصلحة وهو محال لان موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول انى آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة فى رأس عود أو فتيلة أو غيرهما أو أجد على النار هدى والهدى ما يهتدى به وهو اسم مصدر فكأنه قال أجد على النار ما أهتدى به من دليل أو علامة ومعنى الاستعلاء على النار أن أهل

فبينما هو فى ذلك اذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) أى أقيموا مكانكم أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب الى النار كما هو المعتاد لا لئلا ينتقلوا الى موضع آخر فانه مما لا يخطر بالبال والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع اما لظاهر لفظ الاهل أو للتفخيم كما فى قول من قال

• وان شئت حرمت النساء سواكم •

(انى آنست نارا) أى أبصرتها ابصارا بينا لا شبهة فيه وقيل الايناس خاص بابصار ما يؤنس به والجملة تعليل للامر أو المأمور به (لعلى آتيكم منها) أى اجيئكم من النار (بقبس) أى بشعلة مقتبسة من معظم النار وهى المرادة بالجذوة فى سورة القصص وبالشهاب القبس (أو أجد على النار هدى) هاديا يدلنى على الطريق على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذا هداية أو على انه اذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل هاديا يهدينى الى أبواب الدين فان أفكار الابرار مغمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والاول هو الاظهر لان مساق النظم الكريم لتسلية أهل وقد نص عليه فى سورة القصص

النار يستعلون المكان القريب منها ولان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها فلما أتاها أى أتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار فسمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب فظن موسى عليه السلام انها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن أسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى بنظره الى فرعها فاذا خضرته ساطعة فى السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودى يا موسى قال القاضى الذى يروى من ان الزند ما كان يورى فهذا جائز وأما الذى يروى من ان النار كانت تتأخر عنه فان كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك والا فهو ممتنع الا أن يكون معجزة لغيره من الانبياء عليهم السلام وفى قوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى دلالة على ان فى هذه الحالة أوحى الله اليه وجعله نبيا وعلى هذا الوجه يبعد ما ذكروه من تأخر النار عنه وبين فساد ذلك قوله تعالى فلما أتاها نودى يا موسى وان كانت تتأخر عنه حالا بعد حال لما صح ذلك ولما بقى لفاء التعقيب فائدة قلنا القاضى انما بنى هذا الاعتراض على مذهبه فى ان الارهاص غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله وأما التمسك بفاء التعقيب فقريب لان تخلل الزمان القليل فيما بين المجئ والنداء لا يقدح فى فاء التعقيب

(المسئلة الرابعة) قرأ أبو عمرو وابن كثير انى بالفتح أى نودى بأنى انا ربك والباقون بالكسر أى نودى فقيل يا موسى أو لان النداء ضرب من القول فعومل معاملته

(المسئلة الخامسة) قال الاشعرى ان الله تعالى اسمعه الكلام القديم الذى ليس بحرف ولا صوت وأما المعتزلة فانهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا انه سبحانه خلق ذلك النداء فى جسم من الاجسام كالشجرة أو غيرها لان النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله وأما أهل السنة من أهل ما وراء النهر فقد اثبتوا الكلام القديم الا أنهم زعموا أن الذى سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى فى الشجرة واحتجوا بالآية على ان المسموع هو الصوت المحدث قالوا انه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث

(المسئلة السادسة) اختلفوا فى ان موسى عليه السلام كيف عرف ان المنادى هو الله تعالى فقال أصحابنا يجوز ان يخلق الله تعالى له علما ضروريا بذلك ويجوز أن يعرفه بالمعجزة قالت المعتزلة أما العلم الضرورى فغير جائز لانه لو حصل العلم الضرورى بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضرورى بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوما له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفا لان حصول العلم الضرورى ينافى التكليف

حيث قيل لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة الآية وكلمة أو فى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى على النار أن اهل النار يستعلون المكان القريب منها أو لانها عند الاصطلاء يكتنفونها قياما وقعودا فيشرفون عليها ولما كان الاتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى اما علة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الامر بالمكث والاخبار بايناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم واما حال من فاعله أى فاذهب اليها لآتيكم أو كى آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها بقبس الآية وقد مر تحقيق ذلك مفصلا فى تفسير قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (فلما أتاها) أى النار التى آنسها قال ابن عباس رضى الله عنهما رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها الى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها قالوا النار أربعة أصناف صنف يأكل ولا يشرب وهى نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهى نار الشجر الاخضر وصنف يأكل ويشرب

وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا ان الله تعالى عرّفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا
فى ذلك المعجز على وجوه (أولها) منهم من قال نعلم قطعا أنّ الله تعالى عرّفه ذلك بواسطة
المعجز ولا حاجة بنا الى ان نعرف ذلك المعجز ماهو (وثانيها) يروى ان موسى عليه السلام
لما شاهد النور الساطع من الشجرة الى السماء وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه
فنودى ياموسى فقال لبيك انى أسمع صوتك ولا أراك فأين أنت قال أنا معك وامامك
وخلفك ومحيط بك وأقرب اليك منك ثم ان ابليس اخطر بباله هذا الشك وقال مايدريك
أنك تسمع كلام الله فقال لانى أسمعه من فوقى ومن تحتى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى
كما أسمعه من قدامى فعلمت انه ليس بكلام المخلوقين ومعنى اطلاقه هذه الجهات انى أسمعه
بجميع أجزائى وابعاضى حتى كان كل جارحة منى صارت اذنا (وثالثها) لعله سمع النداء
من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزا (ورابعها) انه رأى النار فى الشجرة الخضراء
بحيث ان تلك الخضرة ما كانت تطفئ تلك النار وتلك النار ما كانت تضر تلك الخضرة
وهذا لا يقدر عليه أحد الا الله سبحانه (المسئلة السابعة) قالوا ان تكرير الضمير فى انى
أنا ربك كان لتوكيد الدلالة وازالة الشبهة (المسئلة الثامنة) ذكروا فى قوله فاخلع نعليك
وجوها (أحدها) كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أمر بخلعهما صيانة للوادى المقدّس
ولذلك قال عقيبه انك بالوادى المقدّس طوى وهذا قول على عليه السلام وقول مقاتل
والكلبى والضحاك وقتادة والسدى (والثانى) انما أمر بخلعهما لينال قدميه بركة
الوادى وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد (وثالثها) أن يحمل ذلك على تعظيم
البقعة من ان يطأها الا حافيا ليكون معظما لها وخاضعا عند سماع كلام ربه والدليل عليه
أنه تعالى قال عقيبه انك بالوادى المقدّس وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى اخلع
نعليك لانك بالوادى المقدّس طوى وأما أهل الاشارة فقد ذكروا فيها وجوها (أحدها)
ان النعل فى النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله اخلع نعليك اشارة الى ان لا يلتفت خاطره
الى الزوجة والولد وأن لا يبقى مشغول القلب بأمرهما (وثانيها) المراد بخلع النعلين ترك
الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه أمره بان يصير مستغرق القلب بالكلية فى معرفة الله
تعالى ولا يلتفت بخاطره الى ماسوى الله تعالى والمراد من الوادى المقدّس قدس جلال
الله تعالى وطهارة عزته يعنى انك لما وصلت الى بحر المعرفة فلا تلتفت الى المخلوقات
(وثالثها) ان الانسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه أن يتوصل اليه الا بمقدمتين
مثل أن يقول العالم المحسوس محدث أو ممكن وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع
وهاتان المقدمتان يشبهان النعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من
النظر فى الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتا
الى تينك المقدمتين لان بقدر الاشتغال بالغير يبقى محروما عن الاستغراق فيه فكأنه قيل
له لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فانك وصلت الى الوادى المقدّس

وهى نار جهنم وصنف لا يأكل ولا
يشرب وهى نار موسى عليه
الصلاة والسلام وقالوا أيضا هى
أربعة أنواع نوع له نور واحراق
وهى نار الدنيا ونوع لا نور له ولا
احراق وهى نار الاشجار ونوع له
نور بلا احراق وهى نار موسى
عليه الصلاة والسلام ونوع له
احراق بلا نور وهى نار جهنم
روى أن الشجرة كانت عوسجة
وقيل كانت سمرة (نودى
ياموسى) أى نودى فقيل ياموسى
(انى أنا ربك) أو عومل النداء
معاملة القول لكونه ضربا منه
وقرئ بالفتح أى بانى وتكرير
الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق
المعرفة واماطة الشبهة روى انه
لما نودى ياموسى قال عليه الصلاة
والسلام من المتكلم فقال الله
عز وجل أنا ربك فوسوس اليه
ابليس لعلك تسمع كلام
شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام
الله تعالى بانى أسمعه من جميع
الجهات بجميع الاعضاء قلت
وذلك لان سماع ماليس من شأنه
ذلك من الاعضاء ليس الا من آثار
قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس
وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام
كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم
تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل الى
الحس المشترك فانتقش به من غير
اختصاص بعضو وجهة (فاخلع
نعليك) أمر عليه الصلاة والسلام

الذى هو بحر معرفة الله تعالى ولجة ألوهيته (المسئلة التاسعة) استدلت المعتزلة بقوله
اخلع نعليك على انّ كلام الله تعالى ليس بقديم اذ لو كان قديما لكان الله قائلا قبل وجود
موسى اخلع نعليك ياموسى ومعلوم ان ذلك سفه فان الرجل فى الدار الخالية اذا قال يازيد
افعل وياعمرو لا تفعل مع انّ زيدا وعمرا لا يكونان حاضرين يعدّ ذلك جنونا وسفها فكيف
يليق ذلك بالاله سبحانه وتعالى وأجاب أصحابنا عنه من وجهين (الاوّل) انّ كلامه تعالى
وان كان قديما الا أنه فى الازل لم يكن أمرا ولا نهيا (والثانى) انه كان أمرا بمعنى انه وجد
فى الازل شئ لما استمرّ الى ما لا يزال صار الشخص به مأمورا من غير وقوع التغير فى ذلك
الشئ كما ان القدرة تقتضى صحة الفعل ثم انها كانت موجودة فى الازل من غير هذه الصحة
فلما استمرت الى ما لا يزال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق
(المسئلة العاشرة) ليس فى الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف فى النعل والصحيح
عدم الكراهة وذلك لانا ان عللنا الامر بخلع النعلين بتعظيم الوادى وتعظيم كلام الله كان
الامر مقصورا على تلك الصورة وان عللناه بأن النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز
ان يكون قد كان محظورا لبس جلد الحمار الميت وان كان مدبوغا فان كان كذلك فهو
منسوخ بقوله عليه السلام أيما اهاب دبغ فقد طهر وقد صلى النبى صلى الله عليه وسلم
فى نعليه ثم خلعهما فى الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال مالكم خلعتم نعالكم قالوا
خلعت فخلعنا قال فان جبريل أخبرنى ان فيهما قذرا فلم يكره النبى صلى الله عليه وسلم
الصلاة فى النعل وأنكر على الخالعين خلعهما وأخبرهم بأنه انما خلعهما لما فيهما من
القذر (المسئلة الحادية عشر) قرئ طوى بالضم والكسر منصرفا وغير منصرف فمن نونه
فهو اسم الوادى ومن لم ينونه ترك صرفه لانه معدول عن طاوى فهو مثل عمر المعدول عن
عامر ويجوز أن يكون اسما للبقعة (المسئلة الثانية عشرة) فى طوى وجوه (الاوّل) انه
اسم للوادى وهو قول عكرمة وابن زيد (والثانى) معناه مرتين نحو مثنى أى قدس الوادى
مرتين أو نودى موسى عليه السلام نداءين يقال ناديته طوى أى مثنى (والثالث) طوى
أى طيا قال ابن عباس رضى الله عنهما انه مرّ بذلك الوادى ليلا فطواه فكان المعنى
بالوادى المقدّس الذى طويته طيا أى قطعته حتى ارتفعت الى أعلاه ومن ذهب الى هذا
قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال طويته طوى كما يقال هدى يهدى هدى والله
أعلم ﴿قوله تعالى (وانا اخترتك فاستمع لما يوحى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة
لذكرى)﴾ قرأ حمزة وانا اخترناك وقرأ أبىّ بن كعب وانى اخترتك وههنا مسائل (المسئلة
الاولى) معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذى خصصتك به وهذه الآية تدل على انّ النبوّة
لا تحصل بالاستحقاق لان قوله وأنا اخترتك يدل على ان ذلك المنصب العلىّ انما حصل لان
الله تعالى اختاره له ابتداء لا لانه استحقه على الله تعالى (المسئلة الثانية) قوله فاستمع لما
يوحى فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل

بذلك لان الحفوة أدخل فى
التواضع وحسن الادب ولذلك
كان السلف الصالحون يطوفون
بالكعبة حافين وقيل ليباشر
الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما
أن نعليه كانا من جلد حمار غير
مدبوغ وقيل معناه فرّغ قلبك
من الاهل والمال والفاء لترتيب
الامر على ماقبلها فان ربوبيته
تعالى له عليه الصلاة والسلام من
موجبات الامر ودواعيه وقوله
تعالى (انك بالواد المقدس) تعليل
لوجوب الخلع المأمور به وبيان
لسبب ورود الامر بذلك من شرف
البقعة وقدسها روى انه عليه
الصلاة والسلام خلعهما
وألقاهما وراء الوادى (طوى)
بضم الطاء غير منوّن وقرئ منوّنا
وقرئ بالكسر منوّنا وغير منوّن
فمن نوّنه أوّله بالمكان دون البقعة
وقيل هو كثنى من الطى مصدر
لنودى أو المقدس أى نودى
نداءين أو قدس مرّة بعد أخرى
(وأنا اخترتك) أى اصطفيتك للنبوّة
والرسالة وقرئ وانا اخترناك
بالفتح والكسر والفاء فى قوله
(فاستمع) لترتيب الامر أو المأمور
به على ماقبلها فان اختياره عليه
السلام لما ذكر من موجبات
الاستماع والامر به واللام فى قوله
تعالى (لما يوحى) متعلقة باستمع
وما موصولة أو مصدرية أى

عقلك وخاطرك مصروفا اليه فقوله وأنا اخترتك يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله فاستمع
يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثانى نهاية الخوف (المسئلة
الثالثة) قوله انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى يدل على ان علم الاصول مقدم على علم الفروع
لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وأيضا الفاء فى قوله فاعبدنى تدل
على ان عبادته انما لزمت لالهيته وهذا هو تحقيق العلماء ان الله هو المستحق للعبادة
(المسئلة الرابعة) انه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد أولا ثم بالعبادة ثانيا أمره بالصلاة ثالثا
احتج أصحابنا بهذه الآية على ان تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين (الاول)
انه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت انه يجوز ورود المجمل منفكا عن
البيان (الثانى) انه قال وأقم الصلاة لذكرى ولم يبين كيفية الصلاة قال القاضى لا يمتنع ان
موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التى تعبد الله تعالى بها شعيبا عليه السلام وغيره من
الانبياء فصار الخطاب متوجها الى ذلك ويحتمل انه تعالى بين له فى الحال وان كان المنقول
فى القرآن لم يذكر فيه الاهذا القدر والجواب أما العذر الاول فانه لا يتوجه فى قوله تعالى
فاعبدنى وأيضا فحمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على أمر
معلوم لان موسى عليه السلام ما كان يشك فى وجوب الصلاة التى جاء بها شعيب عليه
السلام فلو حملنا قوله وأقم الصلاة على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب العظيم فائدة زائدة
أما لو حملناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة قوله لعل الله تعالى بينه فى ذلك الموضع
وان لم يحكه فى القرآن قلنا لا شك ان البيان أكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكورا لكان
أولى بالحكاية (المسئلة الخامسة) فى قوله لذكرى وجوه (أحدها) لذكرى يعنى لتذكرنى
فان ذكرى أن أعبد ويصلى لى (وثانيها) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الاذكار عن
مجاهد (وثالثها) لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها (ورابعها) لان أذكرك بالمدح والثناء
واجعل لك لسان صدق (وخامسها) لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى (وسادسها)
لاخلاص ذكرى وطلب وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر (وسابعها) لتكون
لى ذاكرا غير ناس فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى لا تلهيهم تجارة
ولا بيع عن ذكر الله (وثامنها) لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله تعالى ان الصلاة
كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (وتاسعها) أقم الصلاة حين تذكرها اى انك اذا نسيت
صلاة فاقضها اذا ذكرتها روى قتادة عن انس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك ثم قرأ وأقم الصلاة لذكرى
قال الخطابى يحتمل هذا الحديث وجهين (أحدهما) انه لا يكفرها غير قضائها والآخر انه
لا يلزم فى نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة فى ترك صوم رمضان من غير عذر وكما
يلزم المحرم اذا ترك شيأ من نسكه فدية من اطعام أودم وانما يصلى ما ترك فقط فان قيل حق
العبارة أن يقول أقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام فليصلها اذا ذكرها قلنا قوله

لذكرى

فاستمع للذى يوحى اليك أو للوحى
لا باخترتك كما قيل لكن لا لما
قيل من انه من باب التنازع
واعمال الاول فلا بد حينئذ من
اعادة الضمير مع الثانى بل لان قوله
تعالى (اننى أنا الله لا اله الا انا)
بدل من ما يوحى ولا ريب فى أن
اختياره عليه الصلاة والسلام
ليس لهذا الوحى فقط والفاء فى
قوله تعالى (فاعبدنى) لترتيب
المأمور به على ما قبلها فان
اختصاص الالوهية به سبحانه
وتعالى من موجبات تخصيص
العبادة به عز وجل (وأقم الصلاة)
خصت الصلاة بالذكر وأفردت
بالامر مع اندراجها فى الامر
بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر
العبادات بما نيطت به من ذكر
المعبود وشغل القلب واللسان
بذكره وذلك قوله تعالى (لذكرى)

لذكرى معناه للذكر الحاصل بخلقى أو بتقدير حذف المضاف أى لذكر صلاتى (المسئلة
السادسة) لو فاتته صلوات يستحب أن يقضيها على ترتيب الاداء فلو ترك الترتيب فى قضائها
جاز عند الشافعى رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظر ان كان فى الوقت
سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وان ضاق الوقت بحيث لو بدأ
بالفائتة فات الوقت يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع
فى صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال
أبو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب فى قضاء الفوائت ما لم تزد على صلاة يوم وليلة حتى قال
لو تذكر فى خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضى الفائتة
ثم يعيد صلاة الوقت الا أن يكون الوقت ضيقا فلا تبطل حجة أبى حنيفة رحمه الله الآية
والخبر والاثر والقياس أما الآية فقوله تعالى أقم الصلاة لذكرى أى لتذكرها واللام
بمعنى عند كقوله أقم الصلاة لدلوك الشمس أى عند دلوكها فمعنى الآية أقم الصلاة
المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضى رعاية الترتيب وأما الخبر فقوله عليه السلام من نسى
صلاة فليصلها اذا ذكرها والفاء للتعقيب وأيضا روى جابر بن عبد الله قال جاء عمر بن
الخطاب رضى الله عنهما الى النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش
ويقول يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبى صلى الله
عليه وسلم وأنا والله ما صليتها بعد قال فنزل الى البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس
ثم صلى المغرب بعدها وهذا الحديث مذكور فى الصحيحين قالت الحنفية والاستدلال به
من وجهين (أحدهما) انه عليه الصلاة والسلام قال صلوا كما رأيتمونى أصلى فلما صلى
الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك (والثانى) ان فعل النبى صلى الله عليه وسلم اذا خرج
مخرج البيان للمجمل كان حجة وهذا الفعل خرج بيانا لمجمل قوله تعالى أقيموا الصلاة ولهذا
قلنا ان الفوائت اذا كانت فى حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها واذا دخلت فى حد الكثرة
يسقط الترتيب وأما الاثر فما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه قال من فاتته صلاة فلم
يذكرها الا فى صلاة الامام فليمض فى صلاته فاذا قضى صلاته مع الامام يصلى ما فاته ثم ليعد
التى صلاها مع الامام وقد روى هذا مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم وأما القياس
فهو انهما صلاتان فريضتان جمعهما وقت واحد فى اليوم والليلة فاشبهتا صلاتى عرفة
والمزدلفة فلما لم يجب اسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم
والليلة كذلك حجة الشافعى رحمه الله انه روى فى حديث أبى قتادة انهم لما ناموا عن صلاة
الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم
صلاها ولو كان وقت التذكر معينا للصلاة لما جاز ذلك فعلمنا ان ذلك الوقت وقت لتقرر
الوجوب عليه لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع اذا ثبت هذا فنقول ايجاب
قضاء الفوائت وايجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجرى مجرى التخيير بين الواجبين

أى لتذكرنى فان ذكرى كما ينبغى
لا يتحقق الا فى ضمن العبادة
والصلاة أو لتذكرنى فيها
لاشتمالها على الاذكار أو لذكرى
خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو
لاخلاص ذكرى وابتغاء وجهى
لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا
آخر أو لتكون ذاكرا لى غير ناس
وقيل لذكرى اياها وأمرى بها
فى الكتب أو لان أذكرك بالمدح
والثناء وقيل لاوقات ذكرى وهى
مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتى
لما روى انه عليه الصلاة والسلام
قال من نام عن صلاة أو نسيها
فليصلها اذا ذكرها ان الله تعالى
يقول وأقم الصلاة لذكرى وقرئ
لذكرى بألف التأنيث وللذكرى
معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير
وقوله تعالى

فوجب أن يكون المكلف مخيرا فى تقديم أيهما شاء ولانه لو كان الترتيب فى الفوائت شرطا لما سقط بالنسيان ألا ترى انه اذا صلى الظهر والعصر بعرفة فى يوم غيم ثم تبين انه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فانه يعيدهما جميعا ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطا فيهما فههنا ايضا لو كان شرطا فيهما لما كان يسقط بالنسيان ۞ قوله تعالى

(ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) اعلم انه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى أتبعه بقوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله لذكرى أى لاذكرك بالامانة والكرامة فقال عقيب ذلك ان الساعة آتية لانها وقت الاثابة ووقت المجازاة ثم قال أكاد أخفيها وفيه سؤالات (السؤال الاول) هو ان كاد نفيه اثبات واثباته نفى بدليل قوله وما كادوا يفعلون أى وفعلوا ذلك فقوله أكاد أخفيها يقتضى انه ما أخفاها وذلك باطل لوجهين (أحدهما) قوله ان الله عنده علم الساعة (والثانى) ان قوله لتجزى كل نفس بما تسعى انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار والجواب من وجوه (أحدها) ان كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفى والاثبات فقوله أكاد أخفيها معناه قرب الامر فيه من الاخفاء وأما انه هل حصل ذلك الاخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله لتجزى كل نفس بما تسعى فان ذلك انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار (وثانيها) ان كاد من الله واجب فمعنى قوله أكاد أخفيها أى أنا أخفيها عن الخلق كقوله عسى أن يكون قريبا أى هو قريب قاله الحسن (وثالثها) قال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد أى ولا أريد أن أفعله (ورابعها) معناه أكاد أخفيها من نفسى وقيل انها كذلك فى مصحف أبى وفى حرف ابن مسعود أكاد أخفيها من نفسى فكيف أعلنها لكم قال القاضى هذا بعيد لان الاخفاء انما يصح فيمن يصلح له الاظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لان كل معلوم معلوم له فالاظهار والاسرار منه مستحيل ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعنى لو صح منى اخفاؤه على نفسى لاخفيته عنى والاخفاء وان كان محالا فى نفسه الا أنه لا يمتنع أن يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة فى عدم اطلاع الغير عليه قال قطرب هذا على عادة العرب فى مخاطبة بعضهم بعضا يقولون اذا بالغوا فى كتمان الشئ كتمته حتى من نفسى فالله تعالى بالغ فى اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب فى مثله (وخامسها) أكاد صلة فى الكلام والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه • فما ان يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما ان يتنفس قرنه (وسادسها) قال أبو الفتح الموصلى أكاد أخفيها تأويله أكاد أظهرها وتلخيص هذه اللفظة أكاد أزيل عنها اخفاءها لان أفعل قد يأتى بمعنى السلب والنفى كقولك أعجمت الكتاب وأشكلته أى أزلت عجمته واشكاله واشكيته أى أزلت

(ان الساعة آتية) تعليل لوجوب العبادة واقامة الصلاة أى كائنة لا محالة وانما عبر عن ذلك بالاتيان تحقيقا لحصولها بابرازها فى معرض امر محقق متوجه نحو المخاطبين (اكاد أخفيها) أى لا أظهرها بأن أقول انها آتية ولولا أن ما فى الاخبار بذلك من اللطف وقطع الاعذار لما فعلت أو اكاد أظهرها بايقاعها من أخفاه اذا أظهره بسلب خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الاضداد يجئ بمعنى الاظهار والستر وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) متعلق بآتية وما بينهما اعتراض أو بأخفيها على المعنى الاخير وما مصدرية أى لتجزى كل نفس بسعيها فى تحصيل ماذكر من الامور المأمور بها وتخصيصه فى معرض الغاية لاتيانها مع أنه لجزاء كل نفس بما صدر عنها سواء كان سعيا فيما ذكر أو تقاعدا عنه بالمرة أو سعيا فى تحصيل ما يضاده للايذان بأن المراد بالذات من اتيانها هو الاثابة بالعبادة وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به فى قوة الوجوب والساعة فى شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى فى الامتثال بالامر وتجد فى تحصيل ما ينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصى وعليه مدار الامر

شكواه (وسابعها) قرئ أخفيها بفتح الالف أى أكاد أظهرها من خفاه اذا أظهره أى قرب اظهارها كقوله اقتربت الساعة قال امرؤ القيس

فان تدفنوا الداء لا نخفه • وان تمنعوا الحرب لا نقعد

أى لا نظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لان معنى أكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها (وثامنها) أراد أن الساعة آتية أكاد وانقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الاول الى أن الاولى الاخفاء لتجزى كل نفس بما تسعى وهذا الوجه بعيد والله أعلم (السؤال الثانى) ما الحكمة فى اخفاء الساعة واخفاء وقت الموت الجواب لان الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية الى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية وانه لا يجوز أما قوله لتجزى كل نفس بما تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما حكم بمجئ يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو انه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصى والمحسن عن المسئ وذلك غير جائز وهو الذى عناه الله تعالى بقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بهذه الآية على ان الثواب مستحق على العمل لان الباء للالصاق فقوله بما تسعى يدل على أن المؤثر فى ذلك الجزاء هو ذلك السعى (المسئلة الثالثة) احتجوا بها على ان فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لان الآية صريحة فى اثبات سعى العبد ولو كان الكل مخلوقا لله تعالى لم يكن للعبد سعى البتة أما قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها فالصد المنع وههنا مسائل (المسئلة الاولى) فى هذين الضميرين وجهان (أحدهما) قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أى عن الصلاة التى أمرتك بها من لا يؤمن بها أى بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثانى الى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه (وثانيهما) قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الايمان بمجيئها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة قال القاضى وهذا أولى لان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورين وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم فانما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا (المسئلة الثانية) الخطاب فى قوله فلا يصدنك يحتمل ان يكون مع موسى عليه السلام وان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم والاقرب انه مع موسى لان الكلام أجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج انه ليس بمراد وانما أريد به غيره وذلك لانه ظن ان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الايمان بالساعة لم يجز أن يكون مخاطبا بذلك وليس الامر كما ظن لانه اذا كان مكلفا بأن لا يقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادرا على ذلك جاز أن يخاطب به ويكون المراد هو وغيره ويحتمل أيضا أن يكون المراد بقوله فلا يصدنك عنها النهى له عن الميل اليهم ومقاربتهم (المسئلة الثالثة) المقصود نهى موسى عليه السلام عن التكذيب

فى قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط قد علق بالاخيرين لما ذكر من أن المقصود الاصلى من ابداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على اتم الوجوه الرائقة واكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد احد عن سننه المستبين بل يهتدى كل فرد الى ما يرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم فى مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الاعراض عن ذلك والوقوع فى مهاوى الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم فى سلك الغاية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير مصحح له او مسوغ هذا ويجوز أن يراد بالسعى مطلق العمل (فلا يصدنك عنها) أى عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والاول هو الاليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وان كان النهى بطريق التهييج والالهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى (من لا يؤمن بها) لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا

بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضى نهى من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان (أحدهما) ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب (والثانى) ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله لا ارينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته فكذا ههنا كأنه قيل لا تكن رخوا بل كن فى الدين شديدا صلبا (المسئلة الرابعة) الآية تدل على ان تعلم علم الاصول واجب لان قوله فلا يصدنك يرجع معناه الى صلابته فى الدين وتلك الصلابة ان كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المحق فلا بد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه قويا فى تقرير الدلائل وازالة الشبهات حتى لا يتمكن الخصم من ازالته عن الدين بل هو يكون متمكنا من ازالة المبطل عن بطلانه (المسئلة الخامسة) قال القاضى قوله فلا يصدنك يدل على ان العباد هم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لافعالهم لكان هو الصاد دونهم فدل ذلك على بطلان القول بالجبر والجواب المعارضة بمسئلة العلم والداعى والله أعلم أما قوله تعالى واتبع هواه فالمعنى ان منكر البعث انما أنكره اتباعا للهوى لا للدليل وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لان المقلد متبع للهوى لا للحجة أما قوله فتردى فهو يعنى ولا يصدنك فتردى وان صدوك وقبلت فليس الا الهلاك بالنار واعلم ان المتوغلين فى أسرار المعرفة قالوا المقام مقامان (أحدهما) مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى (والثانى) مقام البقاء بالله والاول مقدم على الثانى لان من أراد أن يكتب شيأ فى لوح مشغول بكتابة اخرى فلا سبيل له اليه الا بازالة الكتابة الاولى ثم بعد ذلك يمكن اثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن فى هذا الباب لانه قال لموسى عليه السلام أولا فاخلع نعليك وهو اشارة الى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل ما يجب تحصيله واصول هذا الباب ترجع الى ثلاثة علم المبدا وعلم الوسط وعلم المعاد فعلم المبدا هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله اننى أنا الله لا اله الا أنا وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الامر الذى يجب أن يشتغل الانسان به فى هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ثم فى هذا أيضا لطيفة لان قوله فاعبدنى اشارة الى الاعمال الجسمانية وقوله لذكرى اشارة الى الاعمال الروحانية والعبودية أولها الاعمال الجسمانية وآخرها الاعمال الروحانية وأما علم المعاد فهو قوله ان الساعة آتية اكاد أخفيها ثم انه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله انى انا ربك واختتمها بمحض القهر وهو قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى تنبيها على ان رحمته سبقت غضبه واشارة الى أن العبد لا بد له فى العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف ان هذا الترتيب هو النهاية فى الحسن والجودة وان ذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات ۞ قوله تعالى (وماتلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش

أخرىتبقى النفس مستشرفة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولان فى المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكافر عن صد موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه فى الحقيقة نهى له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على ابلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية من أصلها كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم الخ فان صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهى عنه نهيا بأصله وموجبه وابطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهى عن المسبب وارادة النهى عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن اظهار لين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم اياه عليه الصلاة والسلام كما فى قوله لا أرينك ههنا فان المراد به نهى المخاطب عن الحضور لديه الموجب لرؤيته (واتبع هواه) أى ماتهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية (فتردى) أى فتهلك فان الاغفال عنها وعن تحصيل ما ينجى عن اهوالها مستتبع للهلاك لا محالة وهو فى محل النصب على جواب النهى أو فى محل الرفع على انه خبر مبتدا محذوف أى فأنت تردى (وماتلك بيمينك ياموسى) شروع

بها

بها على غنمى ولى فيها مآرب اخرى قال ألقها ياموسى فألقاها فاذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى) اعلم ان قوله وماتلك بيمينك لفظتان فقوله وماتلك اشارة الى العصا وقوله بيمينك اشارة الى اليد وفى هذا نكت (احداها) انه سبحانه لما أشار اليهما جعل كل واحد منهما معجزا قاهرا وبرهانا باهرا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين نظرة الى قلب العبد فاى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى سعادة الطاعة ونور المعرفة (وثانيها) ان بالنظر الواحد صار الجماد ثعبانا يبتلع سحر السحرة فاى عجب لو صار القلب بمدد النظر الالهى بحيث يبتلع سحر النفس الامارة بالسوء (وثالثها) كانت العصا فى يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة فأى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعى الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية ثم ههنا سؤالات (الاول) قوله وماتلك بيمينك ياموسى سؤال والسؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه والجواب فيه فوائد (احداها) ان من أراد أن يظهر من الشئ الحقير شيأ شريفا فانه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم هذا ما هو فيقولون هذا هو الشئ الفلانى ثم انه بعد اظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذوا منه كذا وكذا فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية وكضربه البحر حتى انفلق وفى الحجر حتى انفجر منه الماء عرضه أولا على موسى فكأنه قال له ياموسى هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك وانه خشبة لا تضر ولا تنفع ثم انه قلبه ثعبانا عظيما فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث انه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الاشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله وماتلك بيمينك ياموسى (وثانيها) انه سبحانه لما أطلعه على تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ثم انه مزج اللطف بالقهر فلاطفه أولا بقوله وأنا اخترتك ثم قهره بايراد التكاليف الشاقة عليه والزامه علم المبدا والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقيل له وماتلك بيمينك ياموسى ليعرف موسى عليه السلام ان يمينه هى التى فيها العصا أولانه لما تكلم معه أولا بكلام الالهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة والنكتة فيه انه لما غلبت الدهشة على موسى فى الحضرة أراد رب العزة ازالتها فسأله عن العصا وهو أمر لا يقع الغلط فيه كذلك المؤمن اذا مات ووصل الى حضرة ذى الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسألونه عن الامر الذى لم يغلط فيه فى الدنيا وهو التوحيد فاذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه (وثالثها) انه تعالى لما عرف موسى كمال الالهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا

فى حكاية ما كلف به عليه الصلاة والسلام من الامور المتعلقة بالخلق اثر حكاية ما أمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فما استفهامية فى حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره او بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب وبيمينك متعلق بمضمر وقع حالا أى وماتلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما فى قوله عز وعلا وهذا بعلى شيخا وقيل تلك موصولة أى ما التى هى بيمينك وأياما كان فالاستفهام ايقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه (قال هى عصاى) نسبها الى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيدا لما يعقبه من الافاعيل المنسوبة اليه عليه الصلاة والسلام وقرئ عصى على لغة هذيل (أتوكأ عليها) أى أعتمد عليها عند الاعياء أو الوقوف على رأس القطيع (وأهش بها) أى اخبط بها الورق وأسقطه (على غنمى) وقرئ أهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش اذا انكسر لهشاشته وقرئ بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمين معنى الانحاء والاقبال أى ازجرها منحيا ومقبلا عليها (ولى فيها مآرب أخرى) أى حاجات أخر من هذا الباب مثل ما روى أنه عليه الصلاة والسلام

فذكر بعضها فعرّفه الله تعالى ان فيها منافع أعظم مما ذكر تنبيها على ان العقول قاصرة عن معرفة صفات الشئ الحاضر فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول الى معرفة اجل الاشياء وأعظمها (ورابعها) فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده انه خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها (السؤال الثانى) قوله وما تلك بيمينك ياموسى خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد الجواب من وجهين (الاول) انه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمدا عليه السلام فى قوله فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الفرق بينهما ان الذى ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذى ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يستأهل له أحد من الخلق (والثانى) ان كان موسى تكلم معه وهو مع موسى فأمة محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبون الله فى كل يوم مرات على ما قال صلى الله عليه وسلم المصلى يناجى ربه والرب يتكلم مع آحاد امة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم فى قوله سلام قولا من رب رحيم (السؤال الثالث) ما اعراب قوله وما تلك بيمينك ياموسى الجواب قال صاحب الكشاف تلك بيمينك كقوله وهذا بعلى شيخا فى انتصاب الحال بمعنى الاشارة ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا وصلته بيمينك قال الزجاج معناه وما التى بيمينك قال الفراء معناه ما هذه التى فى يمينك واعلم انه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك اجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال (الاول) قوله هى عصاى قرأ ابن أبى اسحق هى عصىّ ومثلها يا بشرىّ وقرأ الحسن هى عصاى بسكون الياء والنكت ههنا ثلاثة (أحدها) انه قال هى عصاى فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا فى بحر معرفة الحق ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت الى شئ ما زاغ البصر وما طغى ولما قيل له امدحنا قال لا أحصى ثناء عليك ثم نسى نفسه ونسى ثناءه فقال أنت كما أثنيت على نفسك (وثانيها) لما قال عصاى قال الله سبحانه وتعالى ألقها فلما ألقاها فاذا هى حية تسعى ليعرف ان كل ما سوى الله فالالتفات اليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك ولهذا قال الخليل عليه السلام فانهم عدو لى الا رب العالمين وفى الحديث يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذى لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع الحديث بتمامه (وثالثها) انه قال هى عصاى فقد تم الجواب الا انه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض (الثانى) قوله اتوكأ عليها والتوكى والاتكاء واحد كالتوقى والاتقاء معناه اعتمد عليها اذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئا على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اتكئ على رحمتى بقوله تعالى يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال والله يعصمك من الناس فان قيل أليس قوله ومن اتبعك من المؤمنين يقتضى

كان اذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب ونحوها واذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل به واذا قصر الرشاء وصله بها واذا تعرضت لغنمه السباع قاتل بها قيل ومن جملة المآرب انها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا اراد كسره لواه بالشعبتين وكأنه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى اذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم انها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى أنها من جنس العصى مستتبعة لمنافع بنات جنسها ليطابق جوابه الغرض الذى فهمه من سؤال العليم الخبير (قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عز وجل فقيل قال (ألقها ياموسى) لترى من شأنها ما لم يخطر ببالك من الامور وتكرير النداء لتأكيد التنبيه (فألقاها) على الارض (فاذا هى حية تسعى) روى انه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء فى غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فلذلك

كون محمد متوكأ على المؤمنين قلنا قوله ومن اتبعك من المؤمنين معطوف على الكاف فى قوله حسبك الله والمعنى الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين (الثالث) قوله وأهش بها على غنمى أى أخبط بها فاضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمى فتأكله وقال أهل اللغة هش على غنمه يهش بضم الهاء فى المستقبل وهششت الرجل أهش بفتح الهاء فى المستقبل وهش الرغيف يهش بكسر الهاء قاله ثعلب وقرأ عكرمة وأهس بالسين غير المنقوطة والهس زجر الغنم واعلم ان غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه فى قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته فى قوله وأهش بها على غنمى فكذلك فى القيامة يبدأ بنفسه فيقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل فى الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بامته فيقول امتى امتى (والرابع) قوله ولى فيها مآرب اخرى أى حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها وحكى ابن الاعرابى وقطرب بكسر الراء أيضا والارب بفتح الراء والاربة بكسر الالف وسكون الراء الحاجة وانما قال أخرى لان المآرب فى معنى جماعة فكأنه قال جماعة من الحاجات أخرى ولو جاءت اخر لكان صوابا كما قال فعدة من أيام اخر ثم ههنا نكت (احداها) انه لما سمع قول الله تعالى وما تلك بيمينك عرف ان الله فيه أسرارا عظيمة فذكر ما عرف وعبر عن البواقى التى ما عرفها اجمالا لا تفصيلا بقوله ولى فيها مآرب اخرى (وثانيها) ان موسى عليه السلام أحس بانه تعالى انما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة فقال موسى الهى ما هذه العصا الا كغيرها لكنك لما سألت عنها عرفت أن لى فيها مآرب أخرى ومن جملتها أنك كلمتنى بسببها فوجدت هذا الامر العظيم الشريف بسببها (وثالثها) ان موسى عليه السلام أجمل رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك (ورابعها) انه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره فأجمل مرة أخرى ثم قال وهب كانت ذات شعبتين كالمحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا حاول كسره لواه بالشعبتين اذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها أدواته من القوس والكنانة والثياب واذا كان فى البرية ركزها وألقى كساءه عليها فكانت ظلا وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ويصيران شمعتين فى الليالى واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فاورقت واثمرت وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بالقاء العصا فقال ألقها ياموسى وفيه نكت (احداها) انه عليه السلام لما قال ولى فيها مآرب اخرى أراد الله أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائر مآربه فقال ألقها ياموسى فألقاها فاذا هى حية تسعى (وثانيتها) كان فى رجله شئ وهو النعل وفى يده شئ وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد

شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا اخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من أول الامر ثعبانا وهو الاليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل فاذا هى ثعبان مبين وانما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لا فى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اما صفة لحية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة (قال) استئناف كما سبق (خذها ولا تخف) عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شئ من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الاهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الامر اشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) مع كونه استئنافا مسوقا لتعليل الامتثال بالامر

آلة الطلب فقال اوّلا اخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال ألقها ياموسى وهو اشارة
الى ترك الطلب كأنه سبحانه قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا
بنفسك وطالبا لحظك فلا تكون خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصا
لى (وثالثها) أن موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال منقبته لما وصل الى الحضرة
ولم يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى امكنه الوصول الى الحضرة فأنت
مع ألف وقر من المعاصى كيف يمكنك الوصول الى جنابه (ورابعها) أن محمدا صلى الله
عليه وسلم كان مجردا عن الكل مازاغ البصر فلاجرم وجد الكل لعمرك أما موسى لما
بقى معه تلك العصا لاجرم أمره بالقاء العصا واعلم ان الكعبى تمسك به فى أن الاستطاعة
قبل الفعل فقال القدرة على القاء العصا اما أن توجد والعصا فى يده أو خارجة من يده
فان أتته القدرة وهى فى يده فذاك قولنا وان الله ليس بظلام للعبيد واذا أتته وليست
فى يده وانما استطاع أن يلقى من يده ماليس فى يده فذلك محال أما قوله فالقاها فاذا هى حية
تسعى ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الحكمة فى قلب العصا حية فى ذلك الوقت الجواب
فيه وجوه (أحدها) انه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة
نفسه وذلك لانه عليه السلام الى هذا الوقت ماسمع الا النداء والنداء وان كان مخالفا
للعادات الا أنه لم يكن معجزا لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلاجرم
قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا والعجب أن موسى عليه السلام قال أتوكأ
عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له (وثانيها) ان النداء كان
اكراما له فقلب العصا حية مزيدا فى الكرامة لكون توالى الخلع والكرامات سببا لزوال
الوحشة عن قلبه (وثالثها) أنه عرض عليه ليشاهده أولا فاذا شاهده عند فرعون لايخافه
(ورابعها) أنه كان راعيا فقيرا ثم انه نصب للمنصب العظيم فلعله بقى فى قلبه تعجب من ذلك
فقلب العصا حية تنبيها على انى لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد منى نصرة مثلك فى
اظهار الدين (وخامسها) أنه لما قال هى عصاى أتوكأ عليها الى قوله ولى فيها مآرب
اخرى فقيل له ألقها فلما القاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له
ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب اخرى فلم تفر منها تنبيها على سر قوله ففروا الى الله
وقوله قل الله ثم ذرهم (السؤال الثانى) قال ههنا حية وفى موضع آخر ثعبان وجان أما
الحية فاسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما
تناف لان الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان (أحدهما) أنها
كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا فاريد
بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها (والثانى) انها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة
الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان (السؤال الثالث) كيف كانت
صفة الحية الجواب كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا وابتلعت

والنهى فان اعادتها الى ما كانت
عليه من موجبات أخذها وعدم
الخوف منها عدة كريمة باظهار معجزة
اخرى على يده عليه الصلاة
والسلام وايذان بكونها مسخرة
له عليه الصلاة والسلام ليكون على
طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة
تزلزل عند محاجة فرعون أى
سنعيدها بعد الاخذ الى حالتها
الاولى التى هى الهيئة العصوية
قبل بلغ عليه الصلاة والسلام عند
ذلك من الثقة وعدم الخوف الى
حيث كان يدخل يده فى فيها ويأخذ
بلحييها والسيرة فعلة من السير
تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها
على نزع الجار أى الى سيرتها أو على
أن اعاد منقول من عاده بمعنى عاد
اليه أو على الظرفية أى سنعيدها
فى طريقتها أو على تقدير فعلها
وابقاعها حالا من المفعول أى
سنعيدها عصا كما كانت من قبل
تسير سيرتها الاولى أى سائرة سيرتها
الاولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع
من قبل

كل مامرت به من الصخور والاشجار حتى سمع موسى صرير الحجر فى فيها وجوفها أما قوله
تعالى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ففيه سؤالات (السؤال الاول) لما
نودى موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق
فلم خاف (والجواب من وجوه أحدها) ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه
السلام ماشاهد مثل ذلك قط وأيضا فهذه الاشياء معلومة بدلائل العقول وعند الفزع
الشديد قد يذهل الانسان عنه قال الشيخ أبو القاسم الانصارى رحمه الله تعالى وذلك
الخوف من أقوى الدلائل على صدقه فى النبوة لان الساحر يعلم أن الذى أتى به تمويه فلا
يخافه البتة (وثانيها) قال بعضهم خافها لانه عليه السلام عرف مالقى آدم منها (وثالثها)
ان مجرد قوله لا تخف لايدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لايدل
على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن
ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام
أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة
فى الجنة ولا النفرة عن النار (السؤال الثانى) متى أخذها بعد انقلابها عصا أو قبل
ذلك (والجواب) روى انه أدخل يده بين اسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه أيضا
بقوله سنعيدها سيرتها الاولى وذلك يقع فى الاستقبال وأيضا فهذا أقرب للكرامة لانه
كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك ادخال يده فى فيها من غير ضرر معجزة وانقلابها
خشبا معجز آخر فيكون فيه توالى المعجزات فيكون أقوى فى الدلالة (السؤال الثالث)
كيف أخذه أمع الخوف أو بدونه (والجواب) روى مع الخوف ولكنه بعيد لان بعد توالى
الدلائل يبعد ذلك واذا علم موسى عليه السلام انه تعالى عند الاخذ سيعيدها سيرتها
الاولى فكيف يستمر خوفه وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه لا تخف
بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه الى أن أدخل يده فى فيها وأخذ بلحييها (السؤال
الرابع) مامعنى سيرتها الاولى (والجواب) قال صاحب الكشاف السيرة من السير كالركبة
من الركوب يقال سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت الى معنى المذهب والطريقة
(السؤال الخامس) علام انتصب سيرتها (الجواب فيه وجهان أحدهما) بنزع الخافض
يعنى الى سيرتها (وثانيهما) أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى انها
كانت أولا عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أى
تسير سيرتها الاولى يعنى سنعيدها سائرة بسيرتها الاولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها
المآرب التى عرفتها ۞ قوله تعالى (واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء
آية اخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى) اعلم أن هذا هو المعجزة
الثانية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه
وجناحا الانسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر لانه يجنحهما عند الطيران

(واضمم يدك الى جناحك) أمر عليه
الصلاة والسلام بذلك بعدما أخذ
الحية وانقلبت عصا كما كانت أى
أدخلها تحت عضدك فان جناحى
الانسان جنباه كما أن جناحى
العسكر ناحيتاه مستعار من جناحى
الطائر وقد سميا جناحين لانه
يجنحهما أى يميلهما عند الطيران
وقوله تعالى (تخرج) جواب الامر
وقوله تعالى (بيضاء) حال من الضمير
فيه وقوله تعالى (من غير سوء)
متعلق بمحذوف هو حال من الضمير
فى بيضاء أى كائنة من غير عيب وقبح
كنى به عن البرص كما كنى بالسوأة
عن العورة لما أن الطباع تعافه
وتنفر عنه روى انه عليه الصلاة
والسلام كان آدم فأخرج يده من
مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع
الشمس تعشى البصر (آية اخرى)
أى معجزة أخرى غير العصا وانتصابها
على الحالية اما من الضمير فى تخرج
على انها بدل من الحال الاولى
واما من الضمير فى بيضاء وقيل
من الضمير فى الجار والمجرور وقيل
هى منصوبة بفعل مضمر نحو خذ
أو دونك

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما الى جناحك الى صدرك والاول أولى لان يدى الانسان يشبهان جناحى الطائر لانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى واعلم ان معنى ضم اليد الى الجناح ما قال فى آية أخرى وأدخل يدك فى جيبك لانه اذا أدخل يده فى جيبه كان قد ضم يده الى جناحه والله أعلم (المسئلة الثانية) السوء الرداءة والقبح فى كل شئ فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شئ الى العرب فكان جديرا بأن يكنى عنه يروى أنه عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا أدخل يده اليمنى فى جيبه وأدخلها تحت ابطه الايسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول بلا نور (المسئلة الثالثة) بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفى نصب آية وجه آخر وهو أن يكون باضمار نحو خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أى خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصا لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك فان قيل الكبرى من نعت الآيات فلم يقل الكبر قلنا بل هى نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا فى قوله مآرب اخرى والاسماء الحسنى (المسئلة الرابعة) قال الحسن اليد أعظم فى الاعجاز من العصا لانه تعالى ذكر لنريك من آياتنا الكبرى عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لانه ليس فى اليد الا تغير اللون وأما العصا ففيه تغير اللون وخلق الزيادة فى الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم عاد عصا بعد ذلك فقد وقع التغير مرة اخرى فى كل هذه الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله لنريك من آياتنا الكبرى فقد بينا انه عائد الى الكل وانه غير مختص باليد (المسئلة الخامسة) انه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الآية عقبها بأن أمره بالذهاب الى فرعون وبين العلة فى ذلك وهى أنه طغى وانما خص فرعون بالذكر مع ان موسى عليه السلام كان مبعوثا الى الكل لانه ادعى الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره أولى قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامى واحفظ وصيتى وانطلق برسالتى فانك بعينى وسمعى وان معك يدى وبصرى وأنى ألبستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى أبعثك الى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وانى أقسم بعزتى لولا الحجة والعذر الذى وضعت بينى و بين خلقى لبطشت به بطشة جبار ولكن هان على وسقط من عينى فبلغه عنى رسالتى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقل له قولا لينا لا يغترن بلباس الدنيا فان ناصيته بيدى لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمى فى كلام طويل قال فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك بعبده

وقوله تعالى (لنريك من آياتنا الكبرى) متعلق بمضمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا ما فعلنا من الامر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ما هى كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعا وأما تعلقه بما دل عليه آية أى دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم أو بقوله تخرج أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدى الى عراء آية العصا عن وصف الكبر فتدبر (اذهب الى فرعون) تخلص الى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذانا بأصالته أى اذهب اليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه الى عبادتى وحذره نقمتى وقوله تعالى (انه طغى) تعليل للامر أو لوجوب المأمور به أى جاوز الحد فى التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية

قوله تعالى (قال رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى اشدد به ازرى واشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا) اعلم ان الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون وكان ذلك تكليفا شاقا فلا جرم سأل ربه أمورا ثمانية ثم ختمها بما يجرى مجرى العلة لسؤال تلك الاشياء (المطلوب الاول) قوله رب اشرح لى صدرى واعلم انه يقال شرحت الكلام أى بينته وشرحت صدره أى وسعته والاول يقرب منه لان شرح الكلام لا يحصل الا ببسطه والسبب فى هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه فى موضع آخر وهو قوله ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة وقال رب اشرح لى صدرى فافهم عنك ما أنزلت على من الوحى وقيل شجعنى لاجترئ به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بامور (أحدها) فائدة الدعاء وشرائطه (وثانيها) ما السبب فى ان الانسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى الا الرب (وثالثها) ما معنى شرح الصدر (ورابعها) بماذا يكون شرح الصدر (وخامسها) كيف كان شرح الصدر فى حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم (وسادسها) صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحا أو لم يكن منشرحا فان كان منشرحا كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال وان لم يكن منشرحا فهو باطل من وجهين (الاول) انه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالاديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر فى باب الدين فقد حصل ثم انه سبحانه تلطف له بقوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله وما تلك بيمينك يا موسى ثم أظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة ثم أعطاه منصب الرسالة بعد ان كان فقيرا وكل ما يتعلق به لاعزاز والاكرام فقد حصل ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لادون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها للكليم الله تعالى يستحيل أن لا يصير منشرح الصدر (والثانى) انه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الاشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة اليه فان من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام لا يقضى القاضى وهو غضبان فكيف يصلح للنبوة التى أقل مراتبها القضاء فهذا مجموع الامور التى لا بد من البحث عنها فى هذه الآية (أما البحث الاول) وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم فى تفسير قوله ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا الا أنه نذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول اعلم ان للكمال مراتب ودرجات واعلاها أن يكون كاملا فى ذاته مكملا لغيره أما كونه كاملا فى ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته وكل ما كان كذلك كان كاملا فى الازل ولكنه يستحيل أن يكون مكملا فى الازل لان التكميل عبارة عن جعل الشئ كاملا وذلك لا يتحقق الا عند عدم الكمال فانه لو كان حاصلا فى الازل لاستحال التأثير فيه

(قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الامر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعينا بربه عز وجل (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع الى ربه عز وجل وأظهر عجزه بقوله

فان تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلا جرم انه سبحانه وان كان كاملا
فى الازل الا أنه يصير مكملا فيما لا يزال فان قيل اذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث
لم يكن مكملا فى الازل فقد كان عاريا عن صفات الكمال فيكون ناقصا وهو محال قلنا
النقصان انما يلزم لو كان ذلك ممكنا فى الازل لكنا بينا ان الفعل الازلى محال فالتكميل
الازلى محال فعدمه لا يكون نقصانا كما أن قولنا انه لا يقدر على تكوين مثل نفسه
لا يكون نقصانا لانه غير ممكن الوجود فى نفسه وكقولنا انه لا يعلم عددا مفصلا لحركات
أهل الجنة لان كل ماله عدد مفصل فهو متناه وحركات اهل الجنة غير متناهية فلا يكون له
عدد مفصل فامتنع ذلك لا لقصور فى العلم بل لكونه فى نفسه ممتنع الحصول اذا ثبت هذا
فنقول انه سبحانه وتعالى لما قصد الى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين
لان الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على
التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فاجلس على هذه المائدة بعض المعدومات دون
البعض لاسباب (أحدها) أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة
الوجود لدخل ما لا نهاية له فى الوجود (وثانيها) انه لو أوجد الكل لما بقى بعد ذلك قادرا
على الايجاد لان ايجاد الموجود محال فكان ذلك وان كان كمالا للناقص لكنه يقتضى
نقصان الكامل فانه ينقلب القادر من القدرة الى العجز (وثالثها) انه لو دخل الكل
فى الوجود لما بقى فيه تمييز فلا يتميز القادر عن الموجب والقدرة كمال والايجاب بالطبع
نقصان فلهذه الاسباب أخرج بعض الممكنات الى الوجود فان قيل عليه سؤالان
(أحدهما) ان الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولا نسبة للمتناهى الى غير
المتناهى فتكون أيضا الضيافة ضيافة للاقل وأما الحرمان فانه عدم لما لا نهاية له وهذا
لا يكون وجودا (الثانى) ان البعض الذى خصه بهذه الضيافة ان كان لاستحقاق حصل
فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل وان كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثا
وهو محال كما قيل * يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما * وانه لا يليق بأكرم الاكرمين والجواب
عن الكل ان هذه الشبهات انما تدور فى العقول والخيالات لان الانسان يحاول قياس
فعله على فعلنا وذلك باطل لانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون اذا عرفت هذا فهذا الوجود
الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو
المراد من قوله ورحمتى وسعت كل شئ ثم ان الموجودات انقسمت الى الجمادات والى
الحيوانات ولا شك ان الجماد بالنسبة الى الحيوان كالعدم بالنسبة الى الوجود لان الجماد
لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة اليه كالعدم وعدمه كالوجود وأما الحيوان فهو
الذى يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة اليه ولان الجماد بالنسبة الى الحيوان
آلة لان الحيوانات تستعمل الجمادات فى اغراض أنفسها ومصالحها وهى كالعبد المطيع
المسخر والحيوان كالمالك المستولى فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما أن احسان

ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى
وسأله تعالى أن يوسع صدره
ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤن
الحق وأحوال الخلق حليما حمولا
يستقبل ما عسى يرد عليه من
الشدائد والمكاره بجميل الصبر
وحسن الثبات ويتلقاها بصدر
فسيح وجاش رابط

الله

الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا
وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض فلا جرم جعل بعض الموجودات أحياء
دون البعض والحياة بالنسبة الى الجمادية كالنور بالنسبة الى الظلمة والبصر بالنسبة الى
العمى والوجود بالنسبة الى العدم فعند ذلك صار بعض الموجودات حيا مدركا للمنافى
والملائم واللذة والالم والخير والشر فمن ثم قالت الاحياء عند ذلك يارب الارباب انا وان
وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك لكن ازدادت الحاجة لانا حال العدم
وحال الجمادية ما كنا نحتاج الى الملائم والموافق وما كنا نخاف المنافى والمؤذى ولما حصل
الوجود والحياة احتجنا الى طلب الملائم ودفع المنافى فان لم تكن لنا قدرة على الهرب
والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفا
لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التى بها نتمكن من الطلب تارة
والهرب أخرى فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الاحياء بالقدرة كما اقتضت
تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود فقال القادرون
عند ذلك الهنا الجواد الكريم ان الحياة والقدرة بلا عقل لا تكون الا لاحد القسمين
اما للمجانين المقيدين بالسلاسل والاغلال واما للبهائم المستعملة فى حمل الاثقال وكل ذلك
من صفات النقصان وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان الى أوج الكمال فأفض علينا
من العقل الذى هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذى شرفته بقولك بك أهين وبك
أثيب وبك أعاقب حتى نفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فأعطاهم
العقل وبعث فى أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع
الاربعة الوجود والحياة والقدرة والعقل فالعقل خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون
أفضل ألا ترى ان رسولنا صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين كان أفضل الانبياء عليهم
الصلاة والسلام والانسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها فكذلك العقل
لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذى الجلال كان أفضل الخلع وأكملها ثم نظر
العقل فى نفسه فرأى نفسه كالخزنة المملوءة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوءة من
الكواكب الزاهرة وهى العلوم الضرورية البديهية المركوزة فى بدائه العقول وصرائح
الاذهان وكما ان الكواكب المركوزة فى السموات علامات يهتدى بها فى ظلمات البر
والبحر فكذلك الجواهر المركوزة فى سماء العقل كواكب زاهرة يهتدى بها السائرون
فى ظلمات عالم الاجسام الى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها فلما نظر
العقل الى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك
الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الارقام على راقم وبتلك النقوش على
ناقش وعند ذلك عرف ان النقاش بخلاف النقش والبانى بخلاف البناء فانفتح له من
أعلى سماء عالم المحدثات روازن الى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم القدم الازلية

وأن يسهل عليه مع ذلك أمره
الذى هو أجل الامور وأعظمها
وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق
الاسباب ورفع الموانع وفى زيادة
كلمة لى مع انتظام الكلام بدونها
تأكيد لطلب الشرح والتيسير
بابهام المشروح والميسر أولا
وتفسيرهما ثانيا وفى تقديمها
وتكريرها اظهار مزيد اعتناء

والجلال وكان العقل انما نظر الى أضواء عالم الازلية من ظلمات عالم الحدوث
والامكان فغلبته دهشة أنوار الازلية فعميت عيناه فبقي متحيرا فالتجأ بطبعه الى مفيض
الانوار فقال رب اشرح لى صدرى فان البحار عميقة والظلمات متكاثفة وفى الطريق
قطاع من الاعداء الداخلة والخارجة وشياطين الانس والجن كثيرة فان لم تشرح لى
صدرى ولم تكن لى عونا فى كل الامور انقطعت وصارت هذه الخلع سببا لنيل الآفات
لا للفوز بالدرجات فهذا هو المراد من قوله رب اشرح لى صدرى ثم قال ويسر لى أمرى
وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فما لم يصر
العبد مريدا له استحال أن يصير فاعلا له فهذه الارادة صفة محدثة ولا بد لها من فاعل
وفاعلها ان كان هو العبد افتقر فى تحصيل تلك الارادة الى ارادة أخرى ولزم التسلسل
بل لا بد من الانتهاء الى ارادة يخلقها مدبر العالم فيكون فى الحقيقة هو الميسر للامور وهو
المتمم لجميع الاشياء وتمام التحقيق ان حدوث الصفة لا بد له من قابل وفاعل فعبر عن
استعداد القابل بقوله رب اشرح لى صدرى وعبر عن حصول الفاعل بقوله ويسر لى
أمرى وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعطى القابل قابليته والفاعل فاعليته
ولهذا كان السلف رضى الله عنهم يقولون يا مبتدئا بالنعم قبل استحقاقها ومجموع هذين
الكلامين كالبرهان القاطع على ان جميع الحوادث فى هذا العالم واقعة بقضائه وقدره
وحكمته وقدرته ويمكن أن يقال أيضا كأن موسى عليه السلام قال الهى لا أكتفى
بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الامر وتحصيل الغرض فلهذا قال ويسر لى
أمرى أو يقال انه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الاربع وهى الوجود والحياة والقدرة
والعقل فكأنه قال له يا موسى أعطيتك هذه الخلع الاربع فلا بد فى مقابلتها من خدمات
أربع لتقابل كل نعمة بخدمة فقال موسى عليه السلام ما تلك الخدمات فقال وأقم
الصلاة لذكرى فان فيها أنواعا أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود
فاذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة ثم انه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهى
خلعة الرسالة قال رب اشرح لى صدرى حتى أعرف أنى بأى خدمة أقابل هذه النعمة
فقيل له بأن تجتهد فى أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يا رب ان هذا لا يتأتى
منى مع عجزى وضعفى وقلة آلاتى وقوة خصمى فاشرح لى صدرى ويسر لى أمرى (الفصل
الثانى) فى قوله رب اشرح لى صدرى اعلم ان الدعاء سبب القرب من الله تعالى وانما
اشتغل موسى بهذا الدعاء طلبا للقرب فنفتقر الى بيان أمرين الى بيان ان الدعاء سبب
القرب ثم الى بيان ان موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء أما بيان ان الدعاء سبب
القرب فيدل عليه وجوه (الاول) ان الله تعالى ذكر السؤال والجواب فى كتابه فى
عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية أما الاصولية فأولها فى البقرة يسئلونك عن
الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج (وثانيها) فى بنى اسرائيل ويسئلونك عن الروح

بشان كل من المطلوبين وفضل
اهتمام باستدعاء حصولهما لا
واختصاصهما به (واحلل عقدة
من لسانى) روى انه كان فى لسانه
عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة
أدخلها فاه فى صغره وذلك أن
فرعون حمله ذات يوم فأخذ لحيته
فنتفها لما كان فيها من الجواهر

قل

قل الروح من أمر ربى (وثالثها) ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا (ورابعها)
يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وأما الفروعية فستة منها فى البقرة على التوالى
(أحدها) يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين (وثانيها)
يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير (وثالثها) يسئلونك عن الخمر
والميسر قل فيهما اثم كبير (ورابعها) ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو (وخامسها)
ويسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير (وسادسها) ويسئلونك عن المحيض قل هو
أذى (وسابعها) يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول (وثامنها) ويسئلونك عن
ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (وتاسعها) ويستنبئونك أحق هو قل اى وربى انه
لحق (وعاشرها) يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة (والحادية عشر) واذا سألك
عبادى عنى فانى قريب اذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الاسئلة والاجوبة على صور
مختلفة فالاغلب فيها انه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل
وفى صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفى صورة ثالثة ذكر السؤال
ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وفى صورة رابعة
ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى
قريب ولا بد لهذه الاشياء من الفائدة فنقول أما الاجوبة الواردة بلفظ قل فلا اشكال
فيها لان قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد فى ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف
المحدد فى كونه مخاطبا من الله تعالى باداء الوحى والتبليغ وأما الصورة الثانية وهى قوله
فقل ينسفها ربى نسفا فالسبب ان قولهم ويسئلونك عن الجبال سؤال اما عن قدمها أو عن
وجوب بقائها وهذه المسئلة من أمهات مسائل أصول الدين فلا جرم أمر الله تعالى محمدا
صلى الله عليه وسلم ان يجيب بلفظ الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن
هذا السؤال فى الحال ولا تقتصر فان الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الامر لئلا يقعوا فى
الشك والشبهة ثم كيفية الجواب انه قال فقل ينسفها ربى نسفا ولا شك ان النسف ممكن
لانه ممكن فى حق كل جزء من اجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكنا فى حق
كل الجبل وذلك يدل على انه ليس بقديم ولا واجب الوجود لان القديم لا يجوز عليه التغير
والنسف فان قيل انهم قالوا أخبرنا عن الهك أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال قل هو الله
أحد ولم يقل فقل هو الله أحد مع ان هذه المسئلة من المهمات قلنا انه تعالى لم يحك فى هذا
الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعى سبق كلام فلما لم يوجد ترك
الفاء بخلاف ههنا فانه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء (وأما
الصورة الثالثة) فانه تعالى لم يذكر الجواب فى قوله يسئلونك عن الساعة أيان مرساها
فالحكمة فيه ان معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التى شرحناها فيما
سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على ان من الاسئلة ما لا يجاب عنها

فغضب وأمر بقتله فقالت آسية
انه صبى لا يفرق بين الجمر
والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ
الجمرة فوضعها فى فيه قيل
واحترقت يده فاجتهد فرعون فى
علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال
الى أى رب تدعونى قال الى الذى
أبرأ يدى وقد عجزت عنه واختلف
فى زوال العقدة بكمالها فمن قال به
تمسك بقوله تعالى قد أوتيت سؤلك

(وأما الصورة الرابعة) وهي قوله فاني قريب ولم يذكر في جوابه قل ففيه وجوه (أحدها) ان
ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وانه من اعظم العبادات فكأنه سبحانه قال يا عبدى أنت انما
تحتاج الى الواسطة فى غير الدعاء أما فى مقام الدعاء فلا واسطة بينى وبينك يدل عليه ان كل
قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم تلك القصة
كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها
واذكر فى الكتاب موسى واذكر فى الكتاب اسمعيل واذكر فى الكتاب ادريس ونبئهم عن
ضيف ابراهيم ثم قال فى قصة يوسف نحن نقص عليك أحسن القصص وفى أصحاب الكهف
نحن نقص عليك نبأهم بالحق وماذاك الا لما فى هاتين القصتين من العجائب والغرائب
والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال يا محمد اذا سئلت عن غيرى فكن أنت المجيب واذا
سئلت عنى فاسكت أنت حتى أكون انا القائل (وثانيها) ان قوله واذا سألك عبادى عنى
يدل على ان العبد له وقوله فانى قريب يدل على ان الرب قريب من العبد (وثالثها) لم يقل
فالعبد منى قريب بل قال انا منه قريب وهذا فيه سر نفيس فان العبد ممكن الوجود فهو من
حيث هو هو فى مركز العدم وحضيض الفناء فكيف يكون قريبا بل القريب هو الحق
سبحانه وتعالى فانه بفضله واحسانه جعله موجودا وقربه من نفسه فالقرب منه لا من
العبد فلهذا قال فانى قريب (ورابعها) ان الداعى مادام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى
فانه لا يكون داعيا لله تعالى فاذا فنى عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الاحد الحق
امتنع أن يبقى فى مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات الى غير الله تعالى فلا جرم رفعت
الواسطة من البين فما قال فقل انى قريب بل قال فانى قريب فثبت بما تقرر فضل الدعاء وانه
من اعظم القربات ثم من شأن العبد اذا اراد أن يتحف مولاه ان لا يتحفه الا بأحسن
التحف والهدايا فلا جرم أول ما اراد موسى ان يتحف الحضرة الالهية بتحف الطاعات
والعبادات اتحفها بالدعاء فلا جرم قال رب اشرح لى صدرى (والوجه الثانى) فى بيان فضل
الدعاء قوله عليه السلام الدعاء مخ العبادة ثم ان أول شئ أمر الله تعالى به موسى عليه
السلام العبادة لان قوله اننى انا الله اخبار وليس بأمر انما الامر قوله فاعبدنى فلما كان
أول ما أورد على موسى من الاوامر هو الامر بالعبادة لا جرم أول ما تحف به موسى عليه
السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال رب اشرح لى صدرى
(والوجه الثالث) وهو ان الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما انه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة
والصوم فكذلك امر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب
أجيب وقال ربكم ادعونى استجب لكم وادعوه خوفا وطمعا ادعوا ربكم تضرعا وخفية
هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن واذكر ربك
فى نفسك تضرعا وخيفة وقال صلى الله عليه وسلم ادعوا بياذا الجلال والاكرام فبهذه
الآيات عرفنا ان الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه

ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى
هو أفصح منى وقوله تعالى ولا يكاد
يبين وأجاب عن الاول بأنه لم يسأل
حل عقدة لسانه بالكلية بل حل
عقدة تمنع الافهام ولذلك نكرها
ووصفها بقوله من لسانى أى عقدة
كائنة من عقد لسانى وجعل قوله
تعالى (يفقهوا قولى) جواب
الامر وغرضا من الدعاء فبعلها
فى الجملة يتحقق ايتاء سؤله عليه
الصلاة والسلام

(احدها)

(أحدها) انه علام الغيوب يعلم ما فى الانفس وما تخفى الصدور فأى حاجة بنا الى الدعاء
(وثانيها) ان المطلوب ان كان معلوم الوقوع فلا حاجة الى الدعاء وان كان معلوم
اللاوقوع فلا فائدة فيه (وثالثها) الدعاء يشبه الامر والنهى وذلك من العبد فى حق المولى
سوء أدب (ورابعها) المطلوب بالدعاء ان كان من المصالح فالحكيم لا يهمله وان لم يكن من
المصالح لم يجز طلبه (وخامسها) فقد جاء ان اعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله
تعالى وقد ندب اليه والدعاء ينافى ذلك لانه اشتغال بالالتماس والطلب (وسادسها) قال
عليه السلام رواية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته افضل ما أعطى
السائلين فدل على ان الاولى ترك الدعاء والآيات التى ذكرتموها تقتضى وجوب الدعاء
(وسابعها) ان ابراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله حسبى من سؤالى علمه
بحالى استحق المدح العظيم فدل على أن الاولى ترك الدعاء والجواب عن الاول انه ليس
الغرض من الدعاء الاعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات (وعن الثانى) انه يجرى
مجرى أن نقول للجائع والعطشان ان كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة الى الاكل
والشرب وان كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وعن الثالث) ان الصيغة وان كانت
صيغة الامر الا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك (وعن الرابع) يجوز أن يصير
مصلحة بشرط سبق الدعاء (وعن الخامس) انه اذا دعا اظهارا للتضرع ثم رضى بما قدره
الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية اذا ثبت انه من العبادات ثم انه
تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمرا وردمجملا لاجرم شرع فى أجل العبادات وهو الدعاء
(الوجه الرابع) فى فضل الدعاء انه سبحانه لم يقتصر فى بيان فضل الدعاء على الامر به بل بين
فى آية أخرى انه يغضب اذا لم يسئل فقال فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم
وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وقال عليه السلام لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى ان
شئت ولكن يجزم فيقول اللهم اغفر لى فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب
اشرح لى صدرى (الوجه الخامس) فى فضل الدعاء قوله تعالى وقال ربكم ادعونى استجب
لكم وفيه كرامة عظيمة لامتنا لان بنى اسرائيل فضلهم الله تفضيلا عظيما فقال فى حقهم
وأنى فضلتكم على العالمين وقال أيضا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ثم مع هذه الدرجة
العظيمة قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يبين لنا ما هى وان الحواريين مع جلالتهم
فى قولهم نحن انصار الله سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم
انه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة فى امتنا فقال مخاطبا لهم من غير واسطة ادعونى
استجب لكم وقال واسألوا الله من فضله فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الامة
وكان موسى عليه السلام قد عرفها لاجرم قال اللهم اجعلنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم
فلا جرم رفع يديه ابتداء فقال رب اشرح لى صدرى واعلم انه تعالى قال واذا سألك عبادى
عنى فانى قريب ثم انه تعالى جعل العباد على سبعة اقسام (أحدها) عبد العصمة ان عبادى

والحق أن ما ذكر لا يدل على بقائها
فى الجملة أما قوله تعالى هو أفصح
منى فلانه عليه الصلاة والسلام
قاله قبل استدعاء الحل كما ستعرفه
على ان أفصحيته منه عليهما الصلاة
والسلام لا تستدعى بقاءها أصلا
بل تستدعى عدم البقاء لما أن
الافصحية توجب ثبوت أصل
الفصاحة فى المفضول أيضا وذلك
مناف للعقدة رأسا وأما قوله تعالى

ليس لك عليهم سلطان وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد العصمة واصطنعتك لنفسى فلاجرم طلب زوائد العصمة فقال رب اشرح لى صدرى (وثانيها) عبد الصفوة وسلام على عباده الذين اصطفى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد الصفوة ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فلاجرم اراد مزيد الصفوة فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) عبد البشارة فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى فاراد مزيد البشارة فقال رب اشرح لى صدرى (ورابعها) عبد الكرامة ياعبادى لاخوف عليكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك لاتخافا اننى معكما فاراد الزيادة عليها فقال رب اشرح لى صدرى (وخامسها) عبد المغفرة نبئ عبادى أنى انا الغفور الرحيم وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك رب اغفر لى فغفر له فاراد الزيادة فقال رب اشرح لى صدرى (وسادسها) عبد الخدمة اعبدوا ربكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك واصطنعتك لنفسى فطلب الزيادة فيها فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) عبد القربة واذا سالك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعانى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بالقرب وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا فاراد كمال القرب فقال رب اشرح لى صدرى (الفصل الثالث) فى قوله رب اشرح لى صدرى وفيه وجوه (أحدها) انه تعالى لما خاطبه بالاشياء الستة (أحدها) معرفة التوحيد اننى انا الله لا اله الا انا (وثانيها) أمره بالعبادة والصلاة فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى (وثالثها) معرفة الآخرة ان الساعة آتية (ورابعها) حكمة أفعاله فى الدنيا وما تلك بيمينك ياموسى (وخامسها) عرض المعجزات الباهرة عليه لنريك من آياتنا الكبرى (وسادسها) ارساله الى اعظم الناس كفرا وعتوا فكانت هذه التكاليف الشاقة سببا للقهر فاراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرفه ان كل من سأله قرب منه فقال رب اشرح لى صدرى فاراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال رب اشرح لى صدرى أو يقال خاف شياطين الانس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء الى مقام القرب فيصير مامونا من غوائل شياطين الجن والانس (وثانيها) ان المراد انه أراد الذهاب الى فرعون وقومه فاراد ان يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف ان من دعا ربه قربه له وقربه اليه فحينئذ تنقطع الاطماع بالكلية فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ماسوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شئ هالك الا وجهه فالكل كانهم فى ظلمات العدم واظلال عالم الاجسام والامكان فقال رب اشرح لى صدرى حتى يجلس قلبى فى بهى ضوء المعرفة ووسادة شرح الصدر والجالس فى الضوء لايرى من كان جالسا فى الظلمة فمن جلس فى ضوء شرح الصدر لايرى أحدا فى الوجود فلهذا اعقبه بقوله ويسر لى أمرى فان العبد فى مقام الاستغراق لايتفرغ لشئ من

ولايكاد يبين نحن باب غلوا للعين فى العتو والطغيان والادلال على عدم زوالها أصلا وتنكيرها انما يفيد قلتها فى نفسها الاقلتها باعتبار كونها بعضا من الكثير وتعلق كلمة من فى قوله تعالى من لسانى بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فان الحلول اذا كان متعلقا بشئ ومتصلا به

المهمات (ورابعها) رب اشرح لى صدرى فان عين العقل ضعيفة فأطلع يا الهى شمس التوفيق حتى أرى كل شئ كما هو وهذا فى معنى قول محمد صلى الله عليه وسلم ارنا الاشياء كما هى واعلم ان شرح الصدر مقدمة لسطوع الانوار الالهية فى القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهى قوله فاستمع لما يوحى فلاجرم نسج موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الاخرى فقال رب اشرح لى صدرى ولما آل الامر الى محمد صلى الله عليه وسلم قيل له وقل رب زدنى علما والعلم هو المقصود فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم أعطى المقدمة ولما كان محمد كالمقصود لاجرم أعطى المقصود فسبحانه ماأدق حكمته فى كل شئ (وسادسها) الداعى له صفتان (احداهما) أن يكون عبد الرب واذا سألك عبادى عنى فانى قريب (وثانيتهما) أن يكون الرب له وقال ربكم ادعونى استجب لكم أضاف نفسه الينا وما اضافنا الى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فاراد موسى عليه السلام أن يرتع فى هذا البستان فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) ان موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله وقربناه نجيا فكان موسى عليه السلام قال الهى لما قلت وقربناه نجيا صرت قريبا منك ولكن اريد قربك منى فقال ياموسى أما سمعت قولى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب فاشتغل بالدعاء حتى اصير قريبا منك فعند ذلك قال رب اشرح لى صدرى (وثامنها) قال موسى عليه السلام رب اشرح لى صدرى وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ألم نشرح لك صدرك ثم انه تعالى ماتركه على هذه الحالة بل قال وسراجا منيرا فانظر الى التفاوت فان شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلا للنور والسراج المنير هو أن يعطى النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت بين الآخذ والمعطى ثم نقول الهنا ان ديننا وهو كلمة لا اله الا الله نور والوضوء نور والصلاة نور والقبر نور والجنة نور فبحق أنوارك التى أعطيتنا فى الدنيا لاتحرمنا أنوار فضلك واحسانك يوم القيامة (الفصل الرابع) فى قوله رب اشرح لى صدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذف فى القلب فقيل وما أمارته فقال التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول ويدل على ان شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واعلم ان الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور (أحدها) وصف ذاته بالنور الله نور السموات والارض (وثانيها) الرسول قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (وثالثها) القرآن واتبعوا النور الذى انزل معه (ورابعها) الايمان يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم (وخامسها) عدل الله وأشرقت الارض بنور ربها (وسادسها) ضياء القمر وجعل القمر فيهن نورا (وسابعها) النهار وجعل الظلمات والنور (وثامنها) البينات انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور (وتاسعها) الانبياء نور على نور (وعاشرها)

فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشئ أيضا باعتبار ازالته عنه أو ابتداء حصوله منه (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون اخى) أى موازرا يعاوننى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل او ملجأ أعتصم برأيه على انه من الوزر وهو الملجا وقيل أصله أزر من الازر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس

المعرفة مثل نوره كمشكاة فيها مصباح اذا ثبت هذا فنقول كأن موسى عليه السلام قال
رب اشرح لى صدرى بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك (وثانيها) رب اشرح لى صدرى
بالتخلق بأخلاق رسلك وانبيائك (وثالثها) رب اشرح لى صدرى باتباع وحيك وامتثال
أمرك ونهيك (ورابعها) رب اشرح لى صدرى بنور الايمان والايقان بالهيتك
(وخامسها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على اسرار عدلك فى قضائك وحكمك
(وسادسها) رب اشرح لى صدرى بالانتقال من نور شمسك وقمرك الى انوار جلال عزتك كما
فعله ابراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس الى حضرة العزة
(وسابعها) رب اشرح لى صدرى من مطالعة نهارك وليلك الى مطالعة نهار فضلك وليل
عدلك (وثامنها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك فى
أرضك وسمواتك (وتاسعها) رب اشرح لى صدرى فى ان أكون خلف صور الانبياء
المتقدمين ومتشبها بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين (وعاشرها) رب اشرح لى صدرى
بان تجعل سراج الايمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح واعلم ان شرح الصدر عبارة
عن ايقاد النور فى القلب حتى يصير القلب كالسراج وذلك النور كالنار ومعلوم ان من
أراد ان يستوقد سراجا احتاج الى سبعة اشياء زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة
وفتيلة ودهن فالعبد اذا طلب النور الذى هو شرح الصدر افتقر الى هذه السبعة (فأولها)
لابد من زند المجاهدة والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (وثانيها) حجر التضرع ادعوا
ربكم تضرعا وخفية (وثالثها) حراق منع الهوى ونهى النفس عن الهوى (ورابعها)
كبريت الانابة وانيبوا الى ربكم ملطخا رؤس تلك الخشبات بكبريت توبوا الى الله
(وخامسها) مسرجة الصبر واستعينوا بالصبر والصلاة (وسادسها) فتيلة الشكر لئن شكرتم
لازيدنكم (وسابعها) دهن الرضا واصبر لحكم ربك أى ارض بقضاء ربك فاذا اصلحت هذه
الادوات فلا تعول عليها بل ينبغى ان لا تطلب المقصود الا من حضرته ما يفتح الله للناس
من رحمة فلا ممسك لها ثم اطلبها بالخشوع والخضوع وخشعت الاصوات للرحمن فلا
تسمع الا همسا فعند ذلك ترفع يد التضرع وتقول رب اشرح لى صدرى فهنالك تسمع قد
أوتيت سؤلك ياموسى ثم نقول هذا النور الروحانى المسمى بشرح الصدر أفضل من
الشمس الجسمانية لوجوه (أحدها) الشمس تحجبها غمامة وشمس المعرفة لا يحجبها
السموات السبع اليه يصعد الكلم الطيب (وثانيها) الشمس تغيب ليلا وتعود نهارا قال
ابراهيم عليه السلام لا احب الآفلين أما شمس المعرفة فلا تغيب ليلا ان ناشئة الليل هى
أشد وطأ والمستغفرين بالاسحار بل أكمل الخلع الروحانية تحصل فى الليل سبحان الذى
اسرى بعبده ليلا (وثالثها) الشمس تفنى اذا الشمس كورت وشمس المعرفة لا تفنى سلام
قولا من رب رحيم (ورابعها) الشمس اذا قابلها القمر انكسفت أما ههنا فشمس المعرفة
وهى معرفة أشهد ان لا اله الا الله ما لم يقابلها قمر أشهد ان محمدا رسول الله لم يصل نوره الى

قلبت همزته واوا كقلبها فى موازر
ونصبه على انه مفعول ثان لاجعل
قدم على الاول الذى هو قوله
تعالى هرون اعتناء بشأن الوزارة
ولى صلة للجعل أو متعلق بمحذوف
هو حال من وزيرا اذ هو صفة
له فى الاصل ومن أهلى اما صفة
لوزيرا أو صلة لاجعل وقيل
مفعولا هلى وزيرا وهرون عطف
بيان للوزير ومن أهلى كما مر من
الوجهين

عالم

عالم الجوارح (وخامسها) الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها يوم تبيض وجوه وتسود
وجوه (وسادسها) الشمس تحرق والمعرفة تنجى من الحرق جز يامؤمن فان نورك قد
اطفأ لهبى (وسابعها) الشمس تصدع والمعرفة تصعد اليه يصعد الكلم الطيب (وثامنها)
الشمس منفعتها فى الدنيا والمعرفة منفعتها فى العقبى والباقيات الصالحات خير (وتاسعها)
الشمس فى السماء زينة لاهل الارض والمعرفة فى الارض زينة لاهل السماء (وعاشرها)
الشمس فوقانى الصورة تحتانى المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر والمعارف الالهية
تحتانية الصورة فوقانية المعنى وذلك يدل على التواضع مع الشرف (وحادى عشرها)
الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب الى الخالق (وثانى عشرها) الشمس
تقع على الولى والعدو والمعرفة لا تحصل الا للولى فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه
الصفات النفيسة لا جرم قال موسى رب اشرح لى صدرى وأما النكت (فاحداها)
الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء كل من عليها فان والمعرفة استوقدها للبقاء
فالذى خلقها للفناء لو قرب الشيطان منها لاحترق شهابا رصدا والمعرفة التى خلقها للبقاء
كيف يقرب منها الشيطان رب اشرح لى صدرى (وثانيتها) استوقد الله الشمس فى السماء
وانها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك واوقد شمس المعرفة فى قلبك أفلا تزيل ظلمة
المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك (وثالثتها) من استوقد سراجا فانه لا يزال يتعهده
ويمده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة ولكن الله حبب اليكم الايمان افلا يمده وهو
معنى قوله رب اشرح لى صدرى (ورابعتها) اللص اذا رأى السراج يوقد فى البيت
لا يقرب منه والله قد أوقد سراج المعرفة فى قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال
رب اشرح لى صدرى (وخامستها) المجوس أوقدوا نارا فلا يريدون اطفاءها والملك القدوس
أوقد سراج الايمان فى قلبك فكيف يرضى باطفائه واعلم انه سبحانه وتعالى أعطى قلب
المؤمن تسع كرامات (أحدها) الحياة أو من كان ميتا فاحييناه فلما رغب موسى عليه
السلام فى الحياة الروحانية قال رب اشرح لى صدرى ثم النكتة انه عليه السلام قال من
أحيا أرضا ميتة فهى له فالعبد لما أحيا أرضا فهى له فالرب لما خلق القلب واحياه بنور
الايمان فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب قل الله ثم ذرهم وكما أن الايمان حياة
القلب فالكفر موته أموات غير أحياء وما يشعرون (وثانيها) الشفاء ويشف صدور قوم
مؤمنين فلما رغب موسى فى الشفاء رفع الايدى قال رب اشرح لى صدرى والنكتة انه
تعالى لما جعل الشفاء فى العسل بقى شفاء أبدا فههنا لما وضع الشفاء فى الصدر فكيف
لا يبقى شفاء أبدا (وثالثها) الطهارة أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى فلما رغب
موسى عليه السلام فى تحصيل طهارة التقوى قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان
الصائغ اذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لا يدخله فى النار فههنا لما امتحن الله قلب المؤمن
فكيف يدخله النار ثانيا ولكن الله يدخل فى النار قلب الكافر ليميز الله الخبيث من الطيب

واخى فى الوجهين بدل من هرون
أو عطف بيان آخر وقيل هما
وزيرا من أهلى ولى تبيين كما فى
قوله تعالى ولم يكن له كفوا
أحد ورد بأن شرط المفعولين فى
باب النواسخ صحة انعقاد الجملة
الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا
مبتدأ و يخبر عنه بما بعده (اشدد به
أزرى وأشركه فى أمرى) كلاهما
على صيغة الدعاء

(ورابعها) الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة أن الرسول يهدى نفسك والقرآن يهدى روحك والمولى يهدى قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لا جرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لا تحصل يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فانها لا تزول لان الهادى لا يزول ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم (وخامسها) الكتابة أولئك كتب فى قلوبهم الايمان فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال رب اشرح لى صدرى وفيه نكت (الاولى) ان الكاغدة ليس لها خطر عظيم واذا كتب فيها القرآن لم يجز احراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم احراقه (الثانية) بشر الحافى اكرم كاغدا فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فاكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك (والثالثة) كاغد ليس فيه خط اذا كتب فيه اسم الله الاعظم عظم قدره حتى انه لا يجوز للجنب والحائض ان يمسه بل قال الشافعى رحمه الله تعالى ليس له ان يمس جلد المصحف وقال الله تعالى لا يمسه الا المطهرون فالقلب الذى فيه اكرم المخلوقات ولقد كرمنا بنى آدم كيف يجوز للشيطان الخبيث ان يمسه والله اعلم (وسادسها) السكينة هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان أبا بكر رضى الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان خائفا فلما نزلت السكينة عليه قال لا تحزن فلما نزلت سكينة الايمان فرحوا أن يسمعوا خطاب ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأيضا لما نزلت السكينة صار من الخلفاء وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض أى ان يصير واخلفاء الله فى ارضه (وسابعها) المحبة والزينة ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والنكتة ان من ألقى حبة فى أرض فانه لا يفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة فى أرض القلب فكيف يحرقها (وثامنها) وألف بين قلوبكم والنكتة ان محمدا صلى الله عليه وسلم ألف بين قلوب أصحابه ثم انه ما تركهم غيبة ولا حضورا اسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فالرحيم كيف يتركهم (وتاسعها) الطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب وموسى طلب الطمأنينة فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما فى العالم من الاجسام فانه لا يكفيه لان حاجته غير متناهية والاجسام متناهية والمتناهى لا يصير مقابلا لغير المتناهى بل الذى يكفى فى الحاجة الغير المتناهية الكمال الذى لا نهاية له وما ذاك الا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه (أحدها) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (وثانيها) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم

(وثالثها)

أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف

(وثالثها) فى قلوبهم مرض (ورابعها) جعلنا قلوبهم قاسية (وخامسها) انا جعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه (وسادسها) ختم الله على قلوبهم (وسابعها) أم على قلوب أقفالها (وثامنها) كلا بل ران على قلوبهم (وتاسعها) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم الهنا وسيدنا بفضلك واحسانك اغلق هذه الابواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا باحسانك وافتح لنا تلك الابواب التسعة من احسانك بفضلك ورحمتك انك على ما تشاء قدير (الفصل الخامس) فى حقيقة شرح الصدر ذكر العلماء فيه وجهين (الاول) أن لا يبقى للقلب التفات الى الدنيا الا بالرغبة ولا بالرهبة أما الرغبة فهى أن يكون متعلق القلب بالاهل والولد وتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم وأما الرهبة فهى أن يكون خائفا من الاعداء والمنازعين فاذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا فى عين همته فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة اليها ولا تمنعه رهبة عنها فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى فان القلب فى المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فاذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فاما اذا انصب الكل فى موضع واحد قوى فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورا عنها فاذا حصلت النفرة توجه الى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية (الثانى) ان موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج الى تكاليف شاقة منها ضبط الوحى والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها اصلاح العالم الجسدانى فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين والالتفات الى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر ألا ترى ان المشتغل بالابصار يصير ممنوعا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعا عن الابصار والخيال فهذه القوى متجاذبة متنازعة وان موسى عليه السلام كان محتاجا الى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة (المثال الاول) اعلم ان البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذى يجلب النعم الى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذى يشتغل بالضرب والتأديب أبدا والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم ان الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الاخلاق الذميمة جنوده فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج فى مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو الى الله تعالى والهوى يدعو الى الشيطان ثم ان الروح أخرج الفطنة اعانة للعقل فأخرج الشيطان فى مقابلة الفطنة الشهوة فالفطنة توقفك على

أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف

(كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) غاية للادعية الثلاثة الاخيرة فان فعل كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه أيضا

معايب الدنيا والشهوة تجرك الى لذات الدنيا ثم ان الروح أمد الفطنة بالفكرة لتقوى
الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعايب على ما قال عليه السلام تفكر
ساعة خير من عبادة سنة فاخرج الشيطان في مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم
والثبات فان العجلة ترى الحسن قبيحا والقبيح حسنا والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا
فاخرج الشيطان في مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام ما دخل الرفق في
شئ الا زانه ولا الخرق في شئ الا شانه ولهذا خلق السموات والارض في ستة أيام ليتعلم منه
الرفق والثبات فهذه هي الخصومة الواقعة بين الصنفين وقلبك وصدرك هو القلعة ثم ان
لهذا الصدر الذي هو القلعة خندقا وهو الزهد في الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو
الرغبة في الآخرة ومحبة الله تعالى فان كان الخندق عظيما والسور قويا عجز عسكر
الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وان كان خندق الزهد
غير عميق وسور حب الآخرة غير قوى قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها
ويبيت فيها جنود من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة
والغيبة فينحصر الملك في القصر ويضيق الامر عليه فاذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا
العسكر من القلعة انفسح الامر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت
أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله رب اشرح لي صدري (المثال الثاني) اعلم
ان معدن النور هو القلب واشتغال الانسان بالزوجة والولد والرغبة في مصاحبة الناس
والخوف من الاعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب الى فضاء الصدر فاذا
قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم في الدارين صغروا في عينه ولا
شك في أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه فلا يزال العبد
يتأمل فيما سوى الله تعالى الى أن يشاهد انهم عدم محض فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه
وبين أنوار جلال الله تعالى واذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح
الصدر (الفصل السادس) في الصدر اعلم أنه يجئ والمراد منه القلب أفمن شرح الله
صدره للاسلام رب اشرح لي صدري وحصل ما في الصدور يعلم خائنة الاعين وما تخفى
الصدور وقد يجئ والمراد الفضاء الذي فيه الصدر فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى
القلوب التي في الصدور واختلف الناس في ان محل العقل هل هو القلب أو الدماغ
وجمهور المتكلمين على انه القلب وقد شرحنا هذه المسئلة في سورة الشعراء في تفسير قوله
نزل به الروح الامين على قلبك وقال بعضهم المواد أربعة الصدر والقلب والفؤاد واللب
فالصدر مقر الاسلام أفمن شرح الله صدره للاسلام والقلب مقر الايمان ولكن الله
حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم والفؤاد مقر المعرفة ما كذب الفؤاد ما رأى ان
السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا واللب مقر التوحيد انما يتذكر أولو
الالباب واعلم أن القلب اول ما بعث الى هذا العالم بعث خاليا عن النقوش كاللوح

بسبب تقويته وتأييده اذ ليس
المراد بالتسبيح والذكر ما يكون
منهما بالقلب أو في الخلوات حتى
لا يتفاوت حاله عند التعدد
والانفراد بل ما يكون منهما في
تضاعيف أداء الرسالة ودعوة

السائح وهو في عالم البدن كاللوح المحفوظ ثم انه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل
ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد
الى آخر قيام القيامة لهذا العالم الاصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ثم ان
العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها في بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل
من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الادبار أخرى فربما وصلت
سفينة النظر الى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الالهية ويتخلص العقل عن
ظلمات الضلالات وربما توغلت السفينة في جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحينما
تكون السفينة في ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة الى التماس الانوار
والهدايات فيقول هنالك رب اشرح لي صدري واعلم ان العقل اذا أخذ في الترقي من
سفل الامكان الى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارفة المجردات
والمفارقات ومعلوم ان كل ماهية فهي اما هي معه أو هي له فان كانت هي معه امتلأت
البصيرة من أنوار جلال العزة الالهية فلا يبقى هنالك مستطاع لمطالعة سائر الانوار
فيضمحل كل ما سواه من بصر وبصيرة وان وقعت المطالعة لما هو له حصلت هنالك حالة
عجيبة وهي انه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك
الشعاع الى موضع معين فذلك الموضع الذي اليه تنعكس الشعاعات يحترق فجميع
الماهيات الممكنة كالبلور الصافي الموضوع في مقابلة شمس القدس ونور العظمة
ومشرق الجلال فاذا وقع للقلب التفات اليها حصلت للقلب نسبة اليها بأسرها فينعكس
شعاع كبرياء الالهية عن كل واحد منها الى القلب فيحترق القلب ومعلوم أنه كلما كان
المحرق أكثر كان الاحتراق أتم فقال رب اشرح لي صدري حتى أقوى على ادراك
درجات الممكنات فاصل الى مقام الاحتراق بأنوار الجلال وهذا هو المراد بقوله عليه
السلام أرنا الاشياء كما هي فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال لا أحصى ثناء عليك
(الفصل السابع) في بقية الابحاث انما قال رب اشرح لي صدري ولم يقل رب اشرح صدري
ليظهر ان منفعة ذلك الشرح عائدة الى موسى عليه السلام لا الى الله وأما كيفية شرح
صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام
فنذكره ان شاء الله في تفسير قوله ألم نشرح لك صدرك والله أعلم بالصواب (المطلوب الثاني)
قوله ويسر لي امرى والمراد منه عند أهل السنة خلقها وعند المعتزلة تحريك الدواعي
والبواعث بفعل الالطاف المسهلة فان قيل كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى
فأى فائدة في هذا السؤال قلنا يحتمل أن يكون هنالك من الالطاف ما لا يحسن فعلها الا بعد
هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الالطاف (المطلوب الثالث) قوله واحلل
عقدة من لساني يفقهوا قولي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان النطق فضيلة عظيمة
ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان ولم يقل وعلمه البيان لانه

المردة العتاة الى الحق وذلك مما
لا ريب في اختلاف حاله في حالتي
التعدد والانفراد فان كلا منهما
يصدر عنه بتأييد الآخر من اظهار
الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله في
حال الانفراد وكثيرا في الموضعين

لوعطفه عليه لكان مغايراله أما اذا ترك الحرف العاطف صار قوله علمه البيان كالتفسير
لقوله خلق الانسان كانه انما يكون خالقا للانسان اذا علمه البيان وذلك يرجع الى الكلام
المشهور من ان ماهية الانسان هى الحيوان الناطق (وثانيها) اتفاق العقلاء على تعظيم
أمر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده • فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقال على ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة والمعنى انا لو أزلنا الادراك
الذهنى والنطق اللسانى لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل فى البهائم وقالوا المرء بأصغريه
قلبه ولسانه وقال صلى الله عليه وسلم المرء مخبوء تحت لسانه (وثالثها) ان فى مناظرة آدم
مع الملائكة ماظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم
بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض (ورابعها) ان الانسان
جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد ابدا صور
المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الاجسام وواسطته فى
تلك الاستفادة هى الفكر الذهنى وواسطته فى هذه الافادة هى النطق اللسانى فكما ان
تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فكذلك الواسطة
فى الافادة يجب أن تكون أشرف الاعضاء فقوله رب اشرح لى صدرى اشارة الى طلب
النور الواقع فى الروح وقوله ويسر لى أمرى اشارة الى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل
وعند ذلك يحصل الكمال فى تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعد هذا الا المقام البيانى
وهو افاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون الا باللسان فلهذا قال واحلل عقدة من
لسانى (وخامسها) وهو ان العلم أفضل المخلوقات على ما ثبت والجود والاعطاء أفضل
الطاعات وليس فى الاعضاء أفضل من اليد فاليد لما كانت آلة فى العطية الجسمانية قيل
اليد العليا خير من اليد السفلى فالعلم الذى هو خير من المال لما كانت آلة اعطائه اللسان
وجب أن يكون أشرف الاعضاء ولاشك ان اللسان هو الآلة فى اعطاء المعارف فوجب
أن يكون أشرف الاعضاء ومن الناس من مدح الصمت لوجوه (أحدها) قوله عليه
السلام الصمت حكمة وقليل فاعله ويروى ان الانسان تفكر أعضاؤه اللسان ويقلن اتق
الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (وثانيها) ان الكلام على
أربعة أقسام منه ماضرره خالص أو راجح ومنه مايستوى الضرر والنفع فيه ومنه ما نفعه
راجح ومنه ماهو خالص النفع أما الذى ضرره خالص أو راجح فواجب الترك والذى يستوى
الامران فيه فهو عبث فبقى القسمان الاخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر
فالاولى ترك الكلام (وثالثها) ان مامن موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم
أو موهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفى فان كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه
اللسان بحق أو باطل وهذه خاصية لا توجد فى سائر الاعضاء فان العين لا تصل الى غير

نعت لمصدر محذوف أو زمان
محذوف أى تنزهك عما لا يليق بك
من الصفات والافعال التى من
جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية
ويقبله منه فئته الباغية من ادعاء
الشركة فى الالوهية ونصفك بما

الالوان

الالوان والصور والاذان لا تصل الا الى الاصوات والحروف واليد لا تصل الى غير
الاجسام وكذا سائر الاعضاء بخلاف اللسان فانه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حد فله
فى الخير مجال رحب وله فى الشر مجر سحب وانه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر
المعاصى فانه يحتاج فيها الى مؤن كثيرة لا يتيسر تحصيلها فى الاكثر فلذلك كان الاولى ترك
الكلام (ورابعها) قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والانصات
والاصاخة فأما الصمت فهو أعمها لانه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لا يقوى عليه
ولهذا يقال مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام
والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له انصات قال تعالى
فاستمعوا له وأنصتوا والاصاخة استماع الى ما يصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان
البعيد واعلم ان الصمت عدم ولا فضيلة فيه بل النطق فى نفسه فضيلة والرذيلة فى محاورته
ولولا ما سأل كليم الله ذلك فى قوله تعالى واحلل عقدة من لسانى (المسئلة الثانية)
اختلفوا فى تلك العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السلام على قولين (الاول) كان
ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى ازالته (الثانى) السبب فيه انه عليه السلام
حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذى يزول ملكى على
يده فقالت آسية انه صبى لا يعقل وعلامته ان تقرب منه التمرة والجمرة فقرب اليه فأخذ الجمرة
فجعلها فى فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لان اليد آلة أخذ
العصا وهى الحجة واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولان ابراهيم عليه السلام لم يحترق بنار
نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقى فى التنور فكيف يحترق هناك ومنهم من قال
احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة (الثالث) احترق اللسان
دون اليد لان الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت (والرابع) احترقا
معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى انه عليه السلام لم طلب حل
تلك العقدة على وجوه (أحدها) لئلا يقع فى أداء الرسالة خلل البتة (وثانيها) لازالة التنفير
لان العقدة فى اللسان قد تفضى الى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات اليه (وثالثها)
اظهارا للمعجزة فكما ان حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا فى حقه
فكذا اطلاق لسان موسى عليه السلام معجز فى حقه (ورابعها) طلب السهولة لان ايراد
مثل هذا الكلام على مثل فرعون فى جبروته وكبره عسر جدا فاذا انضم اليه تعقد اللسان
بلغ العسر الى النهاية فسأل ربه ازالة تلك العقدة تخفيفا وتسهيلا (المسئلة الرابعة) قال
الحسن رحمه الله ان تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى
وهو ضعيف لانه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لسانى بل قال واحلل عقدة من
لسانى فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله والحق انه انحل أكثر العقد وبقى منها
شئ قليل لقوله حكاية عن فرعون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين أى يقارب

يليق بك من صفات الكمال ونعوت
الجمال والجلال تنزيها كثيرا
أو زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة
فرعون وأوان المحاجة معه وأما
ما قيل من أن المعنى كى نصلى لك
كثيرا ونحمدك ونثنى عليك فلا
يساعده المقام (انك كنت بنا

أن لايبين وفى ذلك دلالة على انه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد فى لسانه وأجيب عنه من وجهين (أحدهما) المراد بقوله ولا يكاد يبين أى لا يأتى ببيان ولا حجة (والثانى) ان كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللسانى لكان معناه أنه لا يقارب البيان فكان فيه نفى البيان بالكلية وذلك باطل لانه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفى البيان أصلا بل انما قال ذلك تمويها ليصرف الوجوه عنه قال أهل الاشارة انما قال واحلل عقدة من لسانى لان حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن فلما كان ذلك حقا ليتيم أبى طالب لا جرم ما دار حوله والله أعلم (المطلوب الرابع) قوله واجعل لى وزيرا من أهلى واعلم ان طلب الوزير اما أن يكون لانه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الامر فطلب المعين أو لانه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة فى امر الدعاء الى الله ولذلك قال عيسى بن مريم من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال عليه السلام ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل واللذان فى الارض أبو بكر وعمر وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الوزير من الوزر لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر وهو الجبل الذى يتحصن به لان الملك يعتصم برأيه فى رعيته ويفوض اليه أموره أو من الموازرة وهى المعاونة والموازرة مأخوذة من ازار الرجل وهو الموضع الذى يشده الرجل اذا استعد لعمل أمر صعب قاله الاصمعى وكان القياس أزيرا فقلبت الهمزة الى الواو (المسئلة الثانية) قال عليه السلام اذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان نوى خيرا أعانه وان أراد شرا كفه وكان أنوشروان يقول لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير (المسئلة الثالثة) ان قيل الاستعانة بالوزير انما يحتاج اليها الملوك أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحى من الله تعالى الى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير وأيضا فانه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكا له فى النبوة فقال وأشركه فى أمرى فكيف يكون وزيرا والجواب عن الاول ان التعاون على الامر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة فى تأثير الدعاء الى الله تعالى فكان موسى عليه السلام واثقا بأخيه هرون فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل فى الابلاغ (المطلوب الخامس) أن يكون ذلك الوزير من أهله أى من أقاربه (المطلوب السادس) أن يكون الوزير الذى من أهله هو أخوه هرون وانما سأل ذلك لوجهين (احدهما) ان التعاون على الدين منقبة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله أو لان كل واحد منهما كان فى غاية المحبة لصاحبه والموافقة له وقوله هرون فى انتصابه وجهان (أحدهما) انه مفعول الجعل على تقدير اجعل هرون أخى

وزيرا

بصيرا) أى عالما بأحوالنا وبان ما دعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا فى تحقق ما كلفته من اقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الردء فى اداء ما أمرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل

وزيرا لى (والثانى) على البدل من وزيرا وأخى نعت لهرون أو بدل واعلم ان هرون عليه السلام كان مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ومنها انه كان فيه رفق قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ومنها انه كان أكبر سنا منه (المطلوب السابع) قوله اشدد به أزرى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة العامة اشدد به وأشركه على الدعاء وقرأ ابن عامر وحده اشدد وأشركه على الجزاء والجواب حكاية عن موسى عليه السلام أى أنا أفعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الامر ان يجعل أخى مرفوعا على الابتداء واشدد به خبره ويوقف على هرون (المسئلة الثانية) الازر القوة وآزره قواه قال تعالى فآزره أى أعانه قال أبو عبيدة أزرى أى ظهرى وفى كتاب الخليل الازر الظهر (المسئلة الثالثة) انه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصرا له لانه لا اعتماد على القرابة (المطلوب الثامن) قوله وأشركه فى أمرى والامر ههنا النبوة وانما قال ذلك لانه عليه السلام علم انه يشد به عضده وهو أكبر منه سنا وأفصح منه لسانا ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وان يكون بالاعتقاد وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك ان النفى مقدم على الاثبات أما قوله تعالى انك كنت بنا بصيرا ففيه وجوه (أحدها) انك عالم بأنا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحدا سواك (وثانيها) كنت بنا بصيرا الآن هذه الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى فى النبوة اليها (وثالثها) انك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا وانما قيد الدعاء بهذا اجلالا لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضا للامر بالكلية اليه ❁ قوله تعالى (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد مننا

عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه

اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى اذ تمشى

أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت

نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى

واصطنعتك لنفسى اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى اذهبا الى فرعون

انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) اعلم ان السؤال هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول واعلم ان موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الامور التمانية وكان من المعلوم ان قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل الا باجابته اليها لا جرم أجابه الله تعالى اليها ليكون أقدر على الابلاغ على الحد الذى كلف فقال قد أوتيت سؤلك يا موسى وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال ولقد مننا عليك مرة أخرى فنبه بذلك على أمور (أحدها) كأنه تعالى قال انى راعيت

(قال قد أوتيت سؤلك) أى أعطيت سؤلك فعل بمعنى مفعول كالخبز والاكل بمعنى المخبوز والمأكول والايتاء عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره اياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الامر وشد الازر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى (يا موسى) تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب اثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى (ولقد مننا عليك) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان انه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى وبالله لقد أنعمنا (مرة أخرى) أى فى وقت غير هذا الوقت لأن ذلك مؤخر عن هذا فان أخرى تأنيث آخر بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من افراد ماله أفراد متجددة متعددة فصار علما فى ذلك حتى جعل معيارا

مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال (وثانيها) انى كنت قد ربيتك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى (وثالثها) انا لما أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك من حالة نازلة الى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب وههنا سؤالان (السؤال الاول) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع ان هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف (والجواب) انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصلت اليه ما كان مستحقا لشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والاحسان (السؤال الثانى) لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة والجواب لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير واعلم ان المنن المذكورة ههنا ثمانية (المنة الاولى) قوله اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له أما قوله اذ أوحينا فقد اتفق الاكثرون على ان أم موسى عليه السلام ما كانت من الانبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحى هو الوحى الواصل الى الانبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة بل عند الشافعى رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم وهذا صريح فى الباب وأيضا فالوحى قد جاء فى القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى فأوحى ربك الى النحل وقال واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه (أحدها) المراد رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده اليها (وثانيها) ان المراد عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع اليه ظهر له الرأى الذى هو أقرب الى الخلاص ويقال لذلك الخاطر انه وحى (وثالثها) المراد منه الالهام لكنا متى بحثنا عن الالهام كان معناه خطور رأى بالبال وغلبة على القلب فيصير هذا هو الوجه الثانى وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثانى والجواب لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان افضاء الالقاء فى البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون (ورابعها) انه أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض عليه بأن الامر لو كان كذلك لما لحقها من أنواع الخوف ما لحقها والجواب ان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع ان الله تعالى كان يأمره بالذهاب اليه مرارا (وخامسها) لعل الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا

بذلك

لما فى معناها من سائر الاشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها الكرة والتارة والدفعة والمراد بها ههنا الوقت الممتد الذى وقع فيه ما سيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) ظرف لمننا والمراد بالايحاء اما الايحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى واذ أوحيت الى الحواريين الآية واما الايحاء بواسطة الملك لا على وجه النبوة كما أوحى الى مريم واما الالهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل وأما الاراءة فى المنام والمراد بما يوحى ما سيأتى من الامر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أبهم أولا تهويلا له وتفخيما لشانه ثم فسر ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ما ينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به وقيل ما لا يعلم الا بالوحى وفيه انه لا يلائم المعنيين الاخيرين للوحى اذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون مما لا يعلم الا بالالهام أو بالاراءة فى المنام وأن فى قوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت) مفسرة لان الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها الباء أى بأن اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى (فاقذفيه فى اليم) فالالقاء وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت (فليلقه اليم بالساحل) لما كان القاء البحر اياه بالساحل أمرا واجب الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعل البحر

بذلك وانتهى ذلك الخبر الى تلك المرأة (وسادسها) لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله ما يوحى فمعناه وأوحينا الى أمك ما يجب أن يوحى وانما وجب ذلك الوحى لان الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل الى معرفة المصلحة فيها الا بالوحى فكان الوحى واجبا أما قوله تعالى أن اقذفيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) أن هى المفسرة لان الوحى بمعنى القول (المسئلة الثانية) القذف مستعمل فى معنى الالقاء والوضع ومنه قوله تعالى وقذف فى قلوبهم الرعب (المسئلة الثالثة) روى أنها اتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية اذ تابوت يجىء به الماء فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجوارى باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه وسيأتى تمام القصة فى سورة القصص قال مقاتل ان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون (المسئلة الرابعة) اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم (المسئلة الخامسة) قال الكسائى الساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لان الماء يسحله أى يقذفه الى أعلاه (المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف الضمائر كلها راجعة الى موسى عليه السلام ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يؤدى الى تنافر النظم فان قيل المقذوف فى البحر هو التابوت وكذلك الملقى الى الساحل قلنا لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام فى جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر (المسئلة السابعة) لما كان تقدير الله تعالى أن يجرى ماء اليم ويلقى بذلك التابوت الى الساحل سلك فى ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الامر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل أما قوله يأخذه عدو لى وعدو له ففيه أبحاث (البحث الاول) قوله يأخذه جواب الامر أى اقذفيه يأخذه (البحث الثانى) فى كيفية الاخذ قولان (أحدهما) ان امرأة فرعون كانت بحيث تستسقى الجوارى فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فيكون المراد من أخذ فرعون التابوت قبوله له واستحبابه اياه (الثانى) ان البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر الى بركة فرعون فلما رآه أخذه (البحث الثالث) قوله يأخذه عدو لى وعدو له فيه اشكال وهو ان موسى عليه السلام لم يكن فى ذلك الوقت بحيث يعادى وجوابه اما كونه عدوا لله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدوا لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث انه لو ظهر له حاله لقتله ويحتمل انه من حيث يؤول أمره الى ما آل اليه من العداوة (المنة الثانية) قوله وألقيت عليك محبة منى وفيه قولان (الاول) وألقيت عليك محبة هى منى قال الزمخشرى منى لا يخلو اما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على انى أحببتك ومن أحبه الله أحبته

كأنه ذو تمييز مطيع أمر بذلك وأخرج الجواب مخرج الامر والضمائر كلها لموسى عليه السلام والمقذوف فى البحر والملقى بالساحل وان كان هو التابوت أصالة لكن لما كان المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك (يأخذه عدو لى وعدو له) جواب للامر بالالقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالامر والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى الى المحبة فان الامر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى وقيل الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ بل ما يقابل الوسط وهو ما يلى الساحل من البحر بحيث يجرى ماؤه الى نهر فرعون لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته وألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء اليه فأتى به الى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا ثمة مع آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فاذا هو صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدو الله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) كلمة من متعلقة بمحذوف هو صفة لمحبة مؤكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدو الله وآله وقيل هى

متعلقة بألقيت أي أحببتك ومن أحبه ٥٠ الله تعالى أحبته القلوب لامحالة وقوله تعالى (ولتصنع على عيني) متعلق
بألقيت معطوف على علة له
مضمرة أي ليتعطف عليك ولتربى
بالحنو والشفقة بمراقبتي وحفظي
أو بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله
من القاء المحبة والجملة مبتدأة
أي ولتصنع على عيني فعلت ذلك
وقرئ ولتصنع على صيغة الامر
بسكون اللام وكسرها وقرئ
بفتح التاء والنصب أي وليكون
عملك على عين مني لئلا يخالف به
عن أمري (اذ تمشي أختك) ظرف
لتصنع على أن المراد به وقت وقع
فيه مشيها الى بيت فرعون وما
ترتب عليه من القول والرجع
الى أمها وتربيتها له بالبر والحنو
وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع
على عيني اذ لاشفقة أعظم من
شفقة الام وصنعها على موجب
مراعاته تعالى وقيل هو بدل من
اذ أوحينا على أن المراد به زمان
متسع متباعد الاطراف وهو
الانسب بما سيأتي من قوله تعالى
فنجيناك من الغم الخ فان جميع
ذلك من المنن الالهية ولا تعلق لشئ
منها بالصنع المذكور وأما كونه
ظرفا لالقيت كما جوزه بعضهم فيأباه
أن القاء المحبة لم يحصل قبل ذلك
ولا ريب في أن معظم آثار القائها
ظهر عند فتح التابوت (فتقول)
أي لفرعون وآسية حين رأتهما
يطلبان له عليه السلام مرضعة
يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا
وصيغة المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية (هل أدلكم على من يكفله) أي يضمه الى نفسه ويربيه وذلك انما
من

القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثاني ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة أي وألقيت عليك محبة حاصلة مني واقعة بخلقي فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت قرة عين لي ولك لاتقتلوه يروى انه كانت على وجهه مسحة جمال وفي عينيه ملاحة لايكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا قال القاضي هذا الوجه أقرب لانه في حال صغره لايكاد يوصف بمحبة الله تعالى التي ظاهرها من جهة الدين لان ذلك انما يستعمل في المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد ان ما ذكرنا من كيفيته في الخلقة يستحلي ويغتبط به فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما في التربية مالامزيد عليه ويمكن أن يقال بل الاحتمال الاول أرجح لان الاحتمال الثاني يحوج الى الاضمار وهو أن يقال وألقيت عليك محبة حاصلة مني وواقعة بخلقي وعلى التقدير الاول لاحاجة الى هذا الاضمار بقي قوله انه حال صباه لايحصل له محبة الله تعالى قلنا لانسلم فان محبة الله تعالى يرجع معناها الى ايصال النفع الى عباده وهذا المعنى كان حاصلا في حقه في حال صباه وعلم الله تعالى أن ذلك يستمر الى آخر عمره فلاجرم أطلق عليه لفظ المحبة (المنة الثالثة) قوله ولتصنع على عيني قال القفال لتربى على عيني أي على وفق ارادتي ومجاز هذا ان من صنع لانسان شيأ وهو حاضر ينظر اليه صنعه له كما يحب ولايمكنه أن يفعل مايخالف غرضه فكذا ههنا وفي كيفية المجاز قولان (الاول) المراد من العين العلم أي ترى على علم مني ولما كان العالم بالشئ يحرسه عن الآفات كما ان الناظر اليه يحرسه عن الآفات أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه (الثاني) المراد من العين الحراسة وذلك لان الناظر الى الشئ يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فاطلق اسم السبب على المسبب مجازا وهو كقوله تعالى انني معكما أسمع وأرى ويقال عين الله عليك اذا دعا لك بالحفظ والحياطة قال القاضي ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله ولتصنع على عيني الحفظ والحياطة كقوله تعالى اذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولاتحزن فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له (بقي ههنا بحثان الاول) الواو في قوله ولتصنع على عيني فيه ثلاثة أوجه (أحدها) كأنه قيل ولتصنع على عيني ألقيت عليك محبة مني ثم يكون قوله اذ تمشي أختك متعلقا بأول الكلام وهو قوله ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى واذ تمشي أختك (وثانيها) يجوز أن يكون قوله ولتصنع على عيني متعلقا بما بعده وهو قوله اذ تمشي وذكرنا مثل هذين الوجهين في قوله وليكون من الموقنين (وثالثها) يجوز أن تكون الواو مقحمة أي وألقيت عليك محبة مني لتصنع وهذا ضعيف (الثاني) قرئ ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على انه أمر وقرئ ولتصنع بفتح التاء والنصب أي وليكون عملك وتصرفك على علم مني (المنة الرابعة) قوله اذ تمشي أختك واعلم ان العامل في اذ تمشي ألقيت أو تصنع يروى انه لما فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما في النيل وكان لايرتضع ١

يكون بقبوله ثديها يروى انه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما في النيل ٥١ لايرتضع ثدي امرأة واضطروا الى تتبع
النساء فخرجت أخته مريم لتعرف
خبره فجاءتهم متنكرة فقالت
ما قالت وقالوا ما قالوا فجاءت بأمه
فقبل ثديها فالفاء في قوله تعالى
(فرجعناك الى أمك) فصيحة
معربة عن محذوف قبلها يعطف
عليه ما بعدها أي فقالوا دلينا
عليها فجاءت بامك فرجعناك
اليها (كي تقر عينها) بلقائك
(ولا تحزن) أي لا يطرأ عليها
الحزن بفراقك بعد ذلك والا
فزوال الحزن مقدم على السرور
المعبر عنه بقرة العين فان التخلية
متقدمة على التحلية وقيل ولا
تحزن أنت بفقد اشفاقها (وقتلت
نفسا) هي نفس القبطي الذي
استغاثه الاسرائيلي عليه (فنجيناك
من الغم) أي غم قتله خوفا من
عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن
اقتصاص فرعون بالانجاء منه
بالمهاجرة الى مدين (وفتناك
فتونا) أي ابتليناك ابتلاء أو
فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن
أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء
كحجوز في حجزة وبدور في بدرة أي
خلصناك مرة بعد أخرى وهو
اجمال ما ناله في سفره من الهجرة
عن الوطن ومفارقة الالاف والمشي
راجلا وفقد الزاد وقد روى أن
سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس
رضي الله عنهما فقال خلصناك
من محنة بعد محنة ولد في عام كان
يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه في البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق

من ثدي كل امرأة يؤتى بها لان الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه اضطروا الى تتبع النساء فلما رأت ذلك اخت موسى جاءت اليهم متنكرة فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ثم جاءت بالام فقبل ثديها فرجع الى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير أما قوله تعالى فرجعناك الى أمك أي رددناك وقال في موضع آخر فرددناه الى أمه وهو كقوله قال رب ارجعون أي ردوني الى الدنيا أما قوله كي تقر عينها ولاتحزن فالمراد ان المقصود من ردك اليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها فان قيل لو قال كي لاتحزن وتقر عينها كان الكلام مفيدا لانه لايلزم من نفي الحزن حصول السرور لها وأما لما قال أولا كي تقر عينها كان قوله بعد ذلك ولاتحزن فضلا لانه متى حصل السرور وجب زوال الغم لامحالة قلنا المراد انه تقر عينها بسبب وصولك اليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها الى باطنك (والمنة الخامسة) قوله وقتلت نفسا فنجيناك من الغم فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفسا وهو الرجل الذي قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الاسرائيلي عليه وكان قبطيا فحصل له الغم من وجهين (أحدهما) من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه على ما حكى الله تعالى عنه فأصبح في المدينة خائفا يترقب والآخر من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين أما من فرعون فحين وفق له المهاجرة الى مدين وأما من عقاب الآخرة فلانه سبحانه وتعالى غفر له ذلك (المنة السادسة) قوله وفتناك فتونا وفيه ابحاث (البحث الاول) في قوله فتونا وجهان (أحدهما) انه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقا وذلك على مذهبهم في تأكيد الاخبار بالمصادر كقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما (والثاني) انه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور في حجزة وبدرة أي فتناك ضروبا من الفتن وههنا سؤالان (السؤال الاول) أن الله تعالى عدد أنواع منته على موسى عليه السلام في هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله وفتناك فتونا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله فالزلزلة المذكورة في الآية ومس البأساء والضراء هي الفتنة والفتون ولما كان التشديد في المحنة مما يوجب كثرة الثواب لاجرم عده الله تعالى من جملة النعم (وثانيها) فتناك فتونا أي خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب من الفضة اذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال نستأنف له نهارا يا ابن جبير ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الواردة في شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره

ثذكر قصة فرعون وقتله أولاد بنى اسرائيل ثم قصة القاء موسى عليه السلام فى اليم والتقاط آل فرعون اياه وامتناعه من الارتضاع من الاجانب ثم قصة ان موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة فى فيه ثم قصة قتل القبطى ثم هربه الى مدين وصيرورته أجير الشعيب عليه السلام ثم عوده الى مصر وأنه أخطأ الطريق فى الليلة المظلمة واستئناسه بالنار من الشجرة وكان عند تمام كل واحدة منها يقول هذا من الفتون يا ابن جبير (السؤال الثانى) هل يصح اطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقا من قوله وفتناك فتونا والجواب لا لانه صفة ذم فى العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لاسيما فيما يوهم مالا ينبغى (المنة السابعة) قوله تعالى فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى واعلم ان التقدير وفتناك فتونا فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم أما مدة اللبث فقال أبو مسلم انها مشروحة فى قوله تعالى ولما توجه تلقاء مدين الى قوله فلما قضى موسى الاجل وهى اما عشرة واما ثمان لقوله تعالى على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته والآية تدل على انه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفى الزيادة على العشر واعلم ان قوله فلبثت سنين فى أهل مدين بعد قوله وفتناك فتونا كالدلالة على ان لبثه فى مدين من الفتون وكذلك كان فانه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة واحتاج الى ان آجر نفسه أما قوله تعالى ثم جئت على قدر ياموسى فلابد من حذف فى الكلام لانه على قدر أمر من الامور وذكروا فى ذلك المحذوف وجوها (أحدها) انه سبق فى قضائى وقدرى أن أجعلك رسولا لى فى وقت معين عينته لذلك فما جئت الا على ذلك القدر لا قبله ولا بعده ومنه قوله انا كل شئ خلقناه بقدر (وثانيها) على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء وهو رأس أربعين سنة (وثالثها) ان القدر هو الموعد فان ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيبا عليه السلام أو غيره من الانبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد فان قيل كيف ذكر الله تعالى مجئ موسى عليه السلام فى ذلك الوقت من جملة مننه عليه قلنا لانه لولا توفيقه له لما تهيأ له شئ من ذلك (المنة الثامنة) قوله تعالى واصطنعتك لنفسى والاصطناع اتخاذ الصنعة وهى افتعال من الصنع يقال اصطنع فلان فلانا أى اتخذه صنيعة فان قيل انه تعالى غنى عن الكل فما معنى قوله لنفسى والجواب عنه من وجوه (الاول) ان هذا تمثيل لانه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه اهلا لان يكون أقرب الناس منزلة اليه وأشدهم قربا منه (وثانيها) قالت المعتزلة انه سبحانه وتعالى اذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم ومن جملة الالطاف ما لا يعلم الا سمعا فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقى فى عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه فى اداء ما وجب على الله تعالى فصح أن يقول ١

وتفرق عنه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند ٥٢ كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذى يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد اجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام الى مدين بقضية الفاء فى قوله تعالى (فلبثت سنين فى أهل مدين) اذ لا ريب فى أن الاجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول اليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله اليهم الى جميع ما قاساه عليه السلام فى تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأى فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثمانى مراحل من مصر (ثم جئت) الى المكان الذى أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفى كلمة التراخى ايذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق وتفرق الغنم فى الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك (على قدر) أى تقدير قدرته لان أكلمك وأستنبئك فى وقت قد عينته لذلك فما جئت الا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء عليهم السلام وهو رأس اربعين سنة وقوله تعالى (ياموسى) تشريف له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الاخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولا وقوله تعالى (واصطنعتك لنفسى) تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لارساله عليه السلام الى فرعون واصطنعتك

واصطنعتك لنفسى قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلانا اذا أحسن اليه حتى يضاف اليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسى أى لاصرفك فى أوامرى لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو اقامة حجتى وتبليغ رسالتى وأن تكون فى حركاتك وسكناتك لى لا لنفسك ولا لغيرك واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية فى مقابلة تلك الالتماسات الثمانية رتب على ذكر ذلك أمرا ونهيا أما الامر فهو انه سبحانه وتعالى أعاد الامر بالاول فقال اذهب أنت وأخوك بآياتى واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال واصطنعتك لنفسى عقبه بذكر ما له اصطنعه وهو الابلاغ والاداء ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) الباء ههنا بمعنى مع وذلك لانهما لو ذهبا اليه بدون آية معهما لم يلزمه الايمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد (المسئلة الثانية) اختلفوا فى الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال (أحدها) انها اليد والعصا لانهما اللذان جرى ذكرهما فى هذا الموضع وفى سائر المواضع التى اقتص الله تعالى فيها حديث موسى عليه السلام فانه تعالى لم يذكر فى شئ منها انه عليه السلام قد أوتى قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقى فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى عنه قال فأت بآية ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وقال فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه فاذا قيل لهؤلاء كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين أجابوا بوجوه (الاول) ان العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فان انقلاب العصا حيوانا آية ثم انها فى أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم ان موسى عليه السلام كان يدخل يده فى فيها فما كانت تضر موسى عليه السلام فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية أخرى فصح انهما كانتا آيات كثيرة لا آيتان (الثانى) هب ان العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة لان انقلابها حية يدل على وجود اله قادر على الكل عالم بالكل حكيم ويدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيوانا فهذه آيات كثيرة ولذلك قال ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا الى قوله فيه آيات بينات مقام ابراهيم فاذا وصف الشئ الواحد بان فيه آيات فالشيئان أولى بذلك (الثالث) من الناس من قال أقل الجمع اثنان على ما عرفت فى أصول الفقه (القول الثانى) ان قوله اذهبا بآياتى معناه انى أمدكما بآياتى وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فان آياتى معكما كما يقال اذهب فان جندى معك أى انى أمدك بهم متى احتجت (القول الثالث) ان الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك ايضا معجز فكانت الآيات ثلاثة هذا هو شرح الامر أما النهى فهو قوله تعالى ولا تنيا فى ذكرى الونى الفتور والتقصير وقرئ ولا تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع

مؤيدا باخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابغة السابقة تأكيدا لوثوقه ٥٣ عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى وفتناك ونظائره السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه أدخل فى تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أى اصطفيتك برسالاتى وبكلامى وقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك) أى وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع (بآياتى) أى بمعجزاتى التى أريتكها من اليد والعصا فانهما وان كانتا اثنتين لكن فى كل منهما آيات شتى كما فى قوله تعالى فيه آيات بينات مقام ابراهيم فان انقلاب العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لا يقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده فى فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها فى نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها الى حالتها الاولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية اذ المراد ذهابهما الى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها فى اجراء أحكام الرسالة واكمال أمر الدعوة لا مجرد اذهابها وايصالها اليه (ولا تنيا) لا تفترا ولا تقصرا وقرئ لا تنيا بكسر التاء للاتباع (فى ذكرى) اى بما يليق بى

من الصفات الجليلة والافعال الجميلة عند ٥٤ تبليغ رسالتى والدعاء الى وقيل المعنى لاتنيا فى تبليغ رسالتى فان الذكر يقع على
جميع العبادات وهو أجلها وأعظمها

ثم قيل فيه أقوال (أحدها) المعنى لاتنيا بل اتخذا ذكرى آلة لتحصيل المقاصد واعتقدا ان أمرا من الامور لايتمشى لاحد الا بذكرى والحكمة فيه ان من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدا ولان من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف فى المقصود ولان ذاكر الله تعالى لابد وأن يكون ذاكرا لاحسانه وذاكر احسانه لايفتر فى اداء أوامره (وثانيها) المراد بالذكر تبليغ الرسالة فان الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديرا بان يطلق عليه اسم الذكر (وثالثها) قوله ولاتنيا فى ذكرى عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكرا لفرعون وقومه ان الله تعالى لايرضى منهم بالكفر ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب (ورابعها) ان يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع احسانه اليه ثم قال بعد ذلك اذهبا الى فرعون انه طغى وفيه سؤالان (الاول) ما الفائدة فى ذلك بعد قوله اذهب أنت وأخوك باياتى قال القفال فيه وجهان (أحدهما) ان قوله اذهب أنت وأخوك باياتى يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا ان المراد منه ان يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به هرون دون موسى (والثانى) ان قوله اذهب أنت وأخوك باياتى أمر بالذهاب الى كل الناس من بنى اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده (السؤال الثانى) قوله اذهبا الى فرعون خطاب مع موسى وهرون عليهما السلام وهذا مشكل لان هرون عليه السلام لم يكن حاضرا هناك وكذا فى قوله تعالى قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو ان يطغى أجاب القفال عنه من وجوه (أحدها) أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فالخطاب فى تلك الحالة وان كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما فى قوله واذ قتلتم نفسا وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وحكى ان القائل هو عبد الله بن أبى وحده (وثانيها) يحتمل ان الله تعالى لما قال قد أوتيت سؤلك ياموسى سكت حتى لقى اخاه ثم ان الله تعالى خاطبهما بقوله اذهبا الى فرعون (وثالثها) انه حكى انه فى مصحف ابن مسعود وحفصة قال ربنا اننا نخاف أى قال موسى أنا وأخى نخاف فرعون أما قوله تعالى فقولا له قولا لينا ففيه سؤالان (الاول) لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد الجواب لوجهين (الاول) انه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الابوين (الثانى) ان من عادة الجبابرة اذا أغلظ لهم فى الوعظ ان يزدادوا عتوا وتكبرا والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق (السؤال الثانى) كيف كان ذلك الكلام اللين الجواب ذكروا فيه وجوها (أحدها) ما حكى الله تعالى بعضه فقال هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى وذكر

وقيل لاتنسيانى حيثما تقلبتما واستمدا بذكرى العون والتأييد واعلما أن أمرا من الامور لايتأتى ولايتسنى الا بذكرى (اذهبا الى فرعون) جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون اذ ذاك للتغليب وكذا الحال فى صيغة النهى روى انه أوحى الى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه (انه طغى) تعليل لموجب الامر والفاء فى قوله تعالى (فقولا له قولا لينا) لترتيب مابعدها على طغيانه فان تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضى الله عنهما لاتعنفا فى قولكما وقيل القول اللين مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فانها دعوة فى صورة عرض ومشورة ويرده ماسيجىء من قوله تعالى فقولا انا رسولا ربك الآية وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى ابو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لايهرم ويبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لايزول الا بالموت وقرئ لينا (لعله يتذكر) بما بلغتماه من ذكرى ويرغب فيما رغبتماه فيه (أو يخشى) عقابى ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أى فقولا له قولا لينا راجيين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لمنع الخلو أى باشرا الامر مباشرة من يرجو ويطمع فى أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه وهو ايضا

يجتهد بطوقه ويحتشد بأقصى وسعه وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بحاله ٥٥ الزام الحجة وقطع المعذرة (قالا ربنا) أسند

أيضا فى هذه السورة بعض ذلك فقال فأتياه فقولا انا رسولا ربك الى قوله والسلام على من اتبع الهدى (وثانيها) ان تعداه شبابا لايهرم بعده وملكا لاينزع منه الا بالموت وان يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته (وثالثها) كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغنى ان فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام ان أطعتنى عمرت مثل ما عمرت فاذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الاخيرة (أما الاول) فقيل لو حصلت له هذه الامور الثلاثة فى هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالالجاء الى معرفة الله تعالى وذلك لايصح مع التكليف (وأما الثانى) فلان خطابه بالكنية أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله فقولا له قولا لينا بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد (وأما الثالث) فالاعتراض عليه كما فى الاول أما قوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى فاعلم انه ليس المراد أنه تعالى كان شاكا فى ذلك لان ذلك محال عليه تعالى وانما المراد فقولا له قولا لينا على أن تكونا راجيين لان يتذكر هو أو يخشى واعلم أن أحوال القلب ثلاثة (أحدها) الاصرار على الحق (وثانيها) الاصرار على الباطل (وثالثها) التوقف فى الامرين وان فرعون كان مصرا على الباطل وهذا القسم اردأ الاقسام فقال تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى فيرجع من انكاره الى الاقرار بالحق وان لم ينتقل من الانكار الى الاقرار لكنه يحصل فى قلبه الخوف فيترك الانكار وان كان لا ينتقل الى الاقرار فان هذا خير من الاصرار على الانكار واعلم أن هذا التكليف لايعلم سره الا الله تعالى لانه تعالى لما علم انه لايؤمن قط كان ايمانه ضد ذلك العلم الذى يمتنع زواله فيكون سبحانه عالما بامتناع ذلك الايمان واذا كان عالما بذلك فكيف أمر موسى عليه السلام بذلك الرفق وكيف بالغ فى ذلك الامر بتلطيف دعوته الى الله تعالى مع علمه استحالة حصول ذلك منه ثم هب ان المعتزلة ينازعون فى هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة فى هذا السؤال ولكنهم سلموا انه كان عالما بانه لايحصل ذلك الايمان وسلموا ان فرعون لايستفيد ببعثة موسى عليه السلام الا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به أن يدفع سكينا الى من علم قطعا انه يمزق بها بطن نفسه ثم يقول انى ما أردت بدفع السكين اليه الا الاحسان اليه ياأخى العقول قاصرة عن معرفة هذه الاسرار ولا سبيل فيها الا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان ويروى عن كعب انه قال والذى يحلف به كعب انه لمكتوب فى التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسى قلبه فلا يؤمن ۞ قوله تعالى

(قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى قال لاتخافا اننى معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى انا قد أوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى)

اعلم ان قوله قالا ربنا اننا نخاف فيه أسئلة (السؤال الاول) قوله قالا ربنا يدل على ان المتكلم بذلك موسى

القول اليهما مع ان القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب ايذانا باصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له فى كل ما يأتى ويذر ويجوز أن يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية كما فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فان هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب الا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف باجتماعهم فى الخطاب (اننا نخاف أن يفرط علينا) أى يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر الى اتمام الدعوة واظهار المعجزة من فرط اذا تقدم ومنه الفارط وفرس فارط يسبق الخيل وقرئ يفرط من افرطه اذا حمله على العجلة أى نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب (أو أن يطغى) أى يزداد طغيانا الى أن يقول فى شأنك مالا ينبغى لكمال جراءته وقساوته واطلاقه من حسن الادب واظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لاظهار كمال الاعتناء بالامر والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما (قال) استئناف مبنى على السؤال الناشئ من النظم الكريم ولعل اسناد الفعل الى ضمير الغيبة للاشعار بانتقال الكلام من مساق الى مساق آخر فان ما قبله من الافعال

الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ماسياتى من قوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى فان ماقبله
أيضا وارد بطريق الحكاية لرسول
الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل
فماذا قال لهما ربهما عند تضرعهما
اليه فقيل قال (لا تخافا) ما توهمتما
من الامرين وقوله تعالى (اننى
معكما) تعليل لموجب النهى ومزيد
تسلية لهما والمراد بالمعية كمال
الحفظ والنصرة كما ينبئ عنه قوله
تعالى (أسمع وأرى) أى ما يجرى
بينكما وبينه من قول وفعل فافعل
فى كل حال ما يليق بها من دفع
ضر وشر وجلب نفع وخير
ويجوز أن لا يقدر شئ على معنى
اننى حافظكما سميعا بصيرا والحافظ
الناصر اذا كان كذلك فقد تم
وبلغت النصرة غايتها (فأتياه)
أمر باتيانه الذى هو عبارة عن
الوصول اليه بعد ما أمر بالذهاب
اليه فلا تكرار وهو عطف على
لا تخافا باعتبار تعلله بما بعده (فقولا
انا رسولا ربك) أمرا بذلك تحقيقا
للحق من أول الامر ليعرف
الطاغية شأنهما ويبنى جوابه
عليه وكذا التعرض لربوبيته تعالى
له والفاء فى قوله تعالى (فأرسل
معنا بنى اسرائيل) لترتيب ما بعدها
على ما قبلها فان كونهما رسولى
ربه مما يوجب ارساله معهما
والمراد بالارسال اطلاقهم من
الاسر والقسر واخراجهم من تحت
يده العادية لا تكليفهم أن يذهبوا
معهما الى الشأم كما ينبئ عنه قوله
تعالى (ولا تعذبهم) أى بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الاعمال هو

وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضرا هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم
(السؤال الثانى) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى فأجابه الله تعالى بقوله
قد أوتيت سؤلك ياموسى وهذا يدل على انه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال
بعده اننا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر والجواب ان شرح
الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهى وحفظ تلك الشرائع على وجه
لا يتطرق اليه السهو والتحريف وذلك شئ آخر غير زوال الخوف (السؤال الثالث) اما علم
موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة انه تعالى يؤمنهما من القتل الذى هو مقطعة
عن الاداء (الجواب) قد أمنا ذلك وان جوزا أن ينالهما السوء من قبل تمام الاداء
أو بعده وأيضا فانهما استظهرا بان سألا ربهما ما مازيد فى ثبات قلبهما على دعائه وذلك
بان ينضاف الدليل النقلى الى العقلى زيادة فى الطمأنينة كما قال ولكن ليطمئن قلبى
(السؤال الرابع) لما تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف
هل يدل على المعصية (الجواب) لو اقتضى الامر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على
المعصية لاسيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وازالة الغم ولكن
ليس الامر على الفور فزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل على ان الامر لا يقتضى
الفور اذا ضممت اليه ما يدل على ان المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى أن يفرط
علينا أو أن يطغى فاعلم ان فى أن يفرط وجوها (احدها) فرط سبق وتقدم ومنه الفارط
الذى يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف ان يعجل علينا بالعقوبة
(وثانيها) انه مأخوذ من أفرط غيره اذا حمله على العجلة فكان موسى وهرون عليهما السلام
خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو اما الشيطان أو ادعاؤه
للربوبية أو حبه للرياسة أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم قال الملأ
من قومه (وثالثها) يفرط من الافراط فى الاذية أما قوله أو أن يطغى فالمعنى يطغى بالتخطى
الى أن يقول فيك مالا ينبغى لجراءته عليك واعلم ان من أمر بشئ يحاول دفعه باعذار
يذكرها فلابد وأن يختم كلامه بما هو الاقوى وهذا كما ان الهدهد ختم عذره بقوله
وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فكذا ههنا بدأ موسى بقوله ان يفرط
علينا وختم بقوله أو أن يطغى لما أن طغيانه فى حق الله تعالى أعظم من افراطه فى حق موسى
وهرون عليهما السلام أما قوله قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى فالمراد لا تخافا مما
عرض فى قلبكما من الافراط والطغيان لان ذلك هو المفهوم من الكلام بين ذلك انه تعالى
لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله اننى معكما فهو
عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك
بقوله أسمع وأرى فان من يكون مع الغير وناصرا له وحافظا يجوز أن لا يعلم كل ما يناله
وانما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى انه معهما بالحفظ والعلم فى جميع ما ينالهما وذلك

الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الاحجار وغيرهما من الامور الشاقة ويقتلون ذكور أولادهم عاما دون عام ويستخدمون
نساءهم وتوسط حكم الارسال بين
بيان رسالتهما وبين ذكر المجئ باية
دالة على صحتها لاظهار الاعتناء به
مع ما فيه من تهوين الامر على
فرعون فان ارسالهم معهما من
غير تعرض لنفسه وقومه بفنون
التكاليف الشاقة كما هو حكم
الرسالة عادة ليس مما يشق عليه
كل المشقة ولان فى بيان مجئ
الآية نوع طول كما ترى فتأخير
ذلك عنه مخل بتجاوب أطراف
النظم الكريم وأما ماقيل من
أن ذلك دليل على أن تخليص
المؤمنين من الكفرة أهم من
دعوتهم الى الايمان فكلا (قد
جئناك باية من ربك) تقرير لما
تضمنه الكلام السابق من دعوى
الرسالة وتعليل لوجوب الارسال
فان مجيئهما بالآية من جهته تعالى
مما يحقق رسالتهما ويقررها ويوجب
الامتثال بأمرهما واظهار اسم
الرب فى موضع الاضمار مع الاضافة
الى ضمير المخاطب لتأكيد ماذكر
من التقرير والتعليل وتوحيد
الآية مع تعددها لان المراد اثبات
الدعوى ببرهانها لابيان تعدد الحجة
وكذلك قوله تعالى قد جئتكم ببينة
وقوله تعالى أولو جئتك بشئ مبين
وأما قوله تعالى فأت باية ان كنت
من الصادقين فالظاهر أن المراد بها
آية من الآيات (والسلام)
المستتبع لسلامة الدارين من
الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين (على من اتبع الهدى) بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق

هو النهاية فى ازالة الخوف قال القفال قوله أسمع وأرى يحتمل أن يكون مقابلا لقوله ان
يفرط علينا وان يطغى والمعنى يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بان يقتلنا فقال الله
تعالى اننى معكما أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا اتركه حتى يفعل
بكما ما تكرهانه واعلم ان هذه الآية تدل على أن كونه تعالى سميعا وبصيرا صفتان زائدتان
على العلم لان قوله اننى معكما دل على العلم فقوله أسمع وارى لو دل على العلم لكان ذلك تكريرا
وهو خلاف الاصل ثم انه سبحانه اعاد ذلك التكليف فقال فأتياه لانه سبحانه وتعالى قال
فى المرة الاولى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون وفى الثانية اذهب أنت وأخوك
وفى الثالثة قال اذهبا الى فرعون وفى الرابعة قال ههنا فأتياه فان قيل انه تعالى أمرهما
فى المرة الثانية بأن يقولا له قولا لينا وفى هذه المرة الرابعة أمرهما أن يقولا انا رسولا ربك
فأرسل معنا بنى اسرائيل وفيه تغليظ من وجوه (أحدها) ان قوله انا رسولا ربك فيه
ايجاب (البحث الاول) انقياده اليهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع
(البحث الثانى) قوله فأرسل معنا بنى اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا
اليهم فيما يريده من الاعمال من بناء أو غيره (البحث الثالث) قوله ولا تعذبهم (البحث
الرابع) قوله قد جئناك باية من ربك فما الفائدة فى التليين أولا والتغليظ ثانيا قلنا لان
الانسان اذا ظهر لجاجه فلابد له من التغليظ فان قيل أليس كان من الواجب أن يقولا
انا رسولا ربك قد جئناك باية فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا
بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه قلنا بل هذا أولى من تأخيره عنه لانهم ذكروا مجموع
الدعاوى ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة أما قوله قد جئناك باية من ربك ففيه
سؤال وهو انه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال اذهب أنت وأخوك باياتى
وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا جئناك باية وهذا يدل على انها كانت واحدة
فكيف الجمع أجاب القفال بأن معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنه قال قد
جئناك ببيان من عند الله ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججا كثيرة وأما قوله
والسلام على من اتبع الهدى فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال فقولا
انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى وقال آخرون بل كلام الله تعالى
قد تم عند قوله قد جئناك باية من ربك فقوله بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى
وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة والسلام بمعنى
السلامة كما يقال رضاع ورضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال لهم اللعنة ولهم
سوء الدار على معنى عليهم وقال تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وفى موضع
آخر ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها أما قوله انا قد أوحى الينا ان العذاب
على من كذب وتولى فاعلم ان هذه الآية من أقوى الدلائل على ان عقاب المؤمن لا يدوم
وذلك لان الالف واللام فى قوله العذاب تفيد الاستغراق أو تفيد الماهية وعلى

وفيه من ترغيبه في اتباعهما على ألطف ٥٨ وجه ما لا يخفى (انا قد أوحي الينا) من جهة ربنا (أن العذاب) الدنيوي والاخروي
(على من كذب) أي بآياته تعالى
(وتولى) أي أعرض عن قبولها
وفيه من التلطيف في الوعيد حيث
لم يصرح بحلول العذاب به ما لا
مزيد عليه (قال) أي فرعون بعد
ما أتياه وبلغاه ما أمرا به وانما طوى
ذكره للايجاز والاشعار بانهما كما
أمرا بذلك سارعا الى الامتثال به
من غير تلعثم وبأن ذلك من الظهور
بحيث لا حاجة الى التصريح به
(فمن ربكما يا موسى) لم يضف الرب
الى نفسه ولو بطريق حكاية ما في
قوله تعالى انا رسولا ربك وقوله
تعالى قد جئناك بآية من ربك
لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه
اليهما لما أن المرسل لا بد أن يكون
ربا للرسول اولانهما قد صرحا
بربوبيته تعالى للكل بأن قالا انا
رسول رب العالمين كما وقع في سورة
الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر
ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته
فيما هو المقصود والفاء لترتيب
السؤال على ما سبق من كونهما
رسولي ربهما أي اذا كنتما رسولي
ربكما فأخبرا من ربكما الذى
أرسلكما وتخصيص النداء بموسى
عليه السلام مع توجيه الخطاب
اليهما لما أنه الاصل في الرسالة
وهرون وزيره واما ما قيل من أن
ذلك لانه قد عرف أن له عليه
الصلاة والسلام رتة فاراد أن
يفحمه فيرده ما شاهده منه عليه
الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأما قوله ولا يكاد يبين فمن غلوه في الخبث والدعارة كما كان

التقدير بن يقتضي انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى فوجب في غير المكذب المتولى
ان لا يحصل هذا الجنس اصلا وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأنه لا يعاقب أحدا
من المؤمنين بترك العمل به في بعض الاوقات فوجب ان يبقى على أصله في نفي الدوام لان
العقاب المتناهي اذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية صار ذلك العقاب كأنه
لا عقاب فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال انه لا عقاب وأيضا فقوله والسلام
على من اتبع الهدى وقد فسرنا السلام بالسلامة فظاهره يقتضي حصول السلامة
لكل من اتبع الهدى والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة

﴿ قوله تعالى (قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال فما
بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذى جعل لكم
الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى
كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها
نخرجكم تارة أخرى) اعلم انهما عليهما السلام لما قالا انا رسولا ربك قال لهما فمن ربكما
يا موسى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير
العسكر ثم ان موسى عليه السلام لما دعاه الى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والايذاء بل
خرج معه في المناظرة لما أنه لو شرع أولا في الايذاء لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف
من ذلك وشرع أولا في المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير الحجة شئ ما كان يرتضيه
فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم ثم ان فرعون لما
سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل باقامة الدلالة على
وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين
يقولون نستفيد معرفة الاله من قول الرسول لان موسى عليه السلام اعترف ههنا بان
معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول وتدل على فساد قول الحشوية
الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة (المسئلة الثانية) تدل الآية
على انه يجوز حكاية كلام المبطل لانه تعالى حكى كلام فرعون في انكاره الاله وحكى شبهات
منكري النبوة وشبهات منكري الحشر الا أنه يجب انك متى اوردت السؤال فاقرنه
بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى في هذه المواضع (المسئلة الثالثة) دلت الآية
على ان المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير ايذاء ولا ايحاش كما فعل
موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما أمر الله تعالى رسوله في قوله ادع الى سبيل ربك
بالحكمة والموعظة الحسنة وقال وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام
الله (المسئلة الرابعة) اختلف الناس في ان فرعون هل كان عارفا بالله تعالى فقيل انه كان
عارفا الا انه كان يظهر الانكار تكبرا وتجبرا وزورا وبهتانا واحتجوا عليه بستة أوجه
(أحدها) قوله لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض فتى نصبت التاء في علمت

(قال) أي موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له (ربنا) اما مبتدأ وقوله تعالى (الذى ٥٩ أعطى كل شئ خلقه) خبره أو هو خبر لمبتدا
محذوف والموصول صفته وأياما
كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما
فقط حسبما اراد اللعين بل جميع
المخلوقات تحقيقا للحق وردا عليه
كما يفصح عنه ما في حيز الصلة أي
هو ربنا الذى اعطى كل شئ من
الاشياء خلقه أي صورته وشكله
اللائق بما نيط به من الخواص
والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل
شئ تحتاج هي اليه وترتفق به
وتقديم المفعول الثاني للاهتمام
به أو أعطى كل حيوان نظيره
في الخلق والصورة حيث زوج
الحصان بالحجر والبعير بالناقة
والرجل بالمرأة ولم يزوج شيأ من
ذلك بخلاف جنسه وقرئ خلقه
على صيغة الماضي على أن الجملة
صفة للمضاف أو المضاف اليه
وحذف المفعول الثاني اما
للاقتصار على الاول أي كل شئ
خلقه الله تعالى لم يحرمه من
عطائه وانعامه أو للاختصار من
كونه منويا مدلولا عليه بقرينة
الحال أي أعطى كل شئ
خلقه الله تعالى ما يحتاج اليه
(ثم هدى) أي الى طريق الانتفاع
والارتفاق بما اعطاه وعرفه كيف
يتوصل الى بقائه وكماله اما
اختيارا كما في الحيوانات او طبعا
كما في الجمادات والقوى الطبيعية
النباتية والحيوانية ولما كان
الخلق الذى هو عبارة عن تركيب
الاجزاء وتسوية الاجسام متقدما على الهداية التي هي عبارة عن ايداع القوى المحركة والمدركة في تلك الاجسام وسط

كان ذلك خطابا من موسى عليه السلام مع فرعون فدل ذلك على ان فرعون كان عالما بذلك
وكذا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا (وثانيها) انه كان عاقلا والا لم
يجز تكليفه وكل من كان عاقلا قد علم بالضرورة انه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر
الى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر (وثالثها) قول موسى
عليه السلام ههنا ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وكلمة الذى تقتضي وصف المعرفة
بجملة معلومة فلا بد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له (ورابعها) قوله في سورة
القصص في صفة فرعون وقومه وظنوا انهم الينا لا يرجعون فذلك يدل على انهم كانوا
عالمين بالمبدا الا أنهم كانوا منكرين للمعاد (وخامسها) ان ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم
يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام الى مدين قال له شعيب لا تخف نجوت من القوم
الظالمين فمع هذا كيف يعتقد انه اله العالم (وسادسها) انه لما قال وما رب العالمين قال
موسى عليه السلام رب السموات والارض وما بينهما قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم
لمجنون يعني انا اطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف فهو لم ينازع موسى في الوجود بل
طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه باصل الوجود ومن الناس من قال انه كان جاهلا
بربه واتفقوا على ان العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه انه خالق هذه السموات والارضين
والشمس والقمر وانه خالق نفسه لانه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة انها كانت
موجودة قبله فيحصل العلم الضروري بأنه ليس موجدها ولا خالقها واختلفوا
في كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل انه كان دهريا نافيا للمؤثر أصلا ويحتمل انه كان فلسفيا
قائلا بالعلة الموجبة ويحتمل انه كان من عبدة الكواكب ويحتمل انه كان من الحلولية
المجسمة وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى انه يجب عليهم طاعته والانقياد له وعدم
الاشتغال بطاعة غيره (المسئلة الخامسة) انه سبحانه حكى عنه في هذه السورة انه قال فمن
ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء وما رب العالمين فالسؤال ههنا عن وهو عن الكيفية
وفي سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والاقرب
أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول اني أنا الله والرب فقال فمن
ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف انه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام
لظهوره وجلائه عدل الى المقام الثاني وهو طلب الماهية وهذا أيضا مما ينبه على
انه كان عالما بالله لانه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام
الصعب لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (المسئلة السادسة) انما قال فمن ربكما ولم
يقل فمن الهكما لانه أثبت نفسه ربا في قوله ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين
فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال له انا ربك فلم تدعي ربا آخر وهذا الكلام شبيه بكلام
نمرود لان ابراهيم عليه السلام لما قال ربي الذى يحيي ويميت قال نمرود له أنا أحيي وأميت
ولم يكن الاحياء والاماتة التي ذكرهما ابراهيم عليه السلام هما الذى عارضه بهما نمرود

الا فى اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده انى انا الرب لانى ربيتك ومعلوم ان الربوبية التى ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية فى المعنى وانه لا مشاركة بينهما الا فى اللفظ (المسئلة السابعة) اعلم ان موسى عليه السلام استدل على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وهذه الدلالة هى التى ذكرها الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قوله سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى وقال ابراهيم عليه السلام فانهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين وان موسى عليه السلام فى أكثر الامور يعول على دلائل ابراهيم عليه السلام وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الشعراء ان شاء الله تعالى واعلم انه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والابدان والهداية عبارة عن ابداع القوى المدركة والمحركة فى تلك الاجسام وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدما على الهداية ولذلك قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فالتسوية راجعة الى القالب ونفخ الروح اشارة الى ابداع القوى وقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى أن قال ثم انشأناه خلقا آخر فظهر ان الخلق مقدم على الهداية والشروع فى بيان عجائب حكمة الله تعالى فى الخلق والهداية شروع فى بحر لا ساحل له ولنذكر منه أمثلة تقريبية الى الافهام (أحدها) ان الطبيعى يقول الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الاشياء ثقلا الارض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والارض أسفلها ثم انه سبحانه قلب هذا الترتيب فى خلقة الانسان فجعل اعلى الاشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما فى البدن وهما بمنزلة الارض ثم جعل تحته الدماغ الذى هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذى هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التى فى القلب التى هى بمنزلة النار فجعل مكان الارض من البدن الاعلى وجعل مكان النار من البدن الاسفل ليعرف ان ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) انك اذا نظرت الى عجائب النحل فى تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال البق والبعوض فى اهتدائها الى مصالح أنفسها لعرفت أن ذلك لا يمكن الا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) انه تعالى هو الذى أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح ثم هداهم الى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلى من البحار ويركبون الادوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الاشياء المختلفة فيستخرجون لذات الاطعمة فثبت انه سبحانه هو الذى خلق كل الاشياء ثم أعطاهم العقول التى بها يتوصلون الى كيفية الانتفاع بها وهذا غير مختص بالانسان بل عام فى جميع الحيوانات فأعطى الانسان انسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدى الاولاد لثدى الامهات بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل فى اعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الاخذ وخلق الرجل على

بينهما كلمة التراخى ولقد ساق عليه ٦٠ الصلاة والسلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين انه تعالى عالم قادر

بالذات خالق لجميع الاشياء منعم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضل وضمنه أن ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هداياته تعالى اياه بعد أن هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة (قال فما بال القرون الاولى) لما شاهد اللعين ما نظمه عليه الصلاة والسلام فى سلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقية مقالاته عليه الصلاة والسلام وبطلان خرافات نفسه ظهورا بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه الى ما لا يعنيه من الامور التى لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك الى أن يدعى بين يدى قومه نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والامم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فأجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وانما علمها عند الله عز وجل وأما ما قيل من انه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى (قال علمها عند ربى) فان معناه انه من الغيوب التى لا يعلمها الا الله تعالى وانما انا عبد لا أعلم منها الا ما علمنيه من الامور المتعلقة ٠ تركيب

تركيب خاص وأودع فيها قوة المشى وكذا العين والاذن وجميع الاعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الانسان واعلم ان دلالة هذه الاشياء على وجود الصانع سبحانه لان اتصاف كل جسم من هذه الاجسام بتلك الصفة اعنى التركيب والقوة والهداية اما ان يكون واجبا أو جائزا والاول باطل لانا نشاهد تلك الاجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على ان ذلك جائز والجائز لا بد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الانسان ولا أبواه لان فعل ذلك يستدعى قدرة عليه وعلما بما فيه من المصالح والمفاسد والامران منتفيان عن الانسان لانه بعد كمال عقله يعجز عن تغير شعرة واحدة وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الاعضاء ومصالحها الا القدر القليل فلا بد أن يكون المتولى لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسما لان الاجسام متساوية فى الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لا بد وأن يكون جائزا وان كان جائزا افتقر الى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلا بد من الانتهاء فى سلسلة الحاجة الى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسمانى ثم تأثير ذلك المؤثر اما أن يكون بالذات أو بالاختيار والاول محال لان الموجب لا يميز مثلا عن مثل وهذه الاجسام متساوية فى الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية فثبت ان المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الافعال العجيبة الا اذا كان عالما ثم ان هذا المدبر الذى ليس بجسم ولا جسمانى لا بد وأن يكون واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته والا لافتقر الى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال واذا كان واجب الوجود فى قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب يكون عالما بكل ما صح أن يكون معلوما وقادرا على كل ما صح أن يكون مقدورا فظهر بهذه الدلالة التى تمسك بها موسى عليه السلام ونبه على تقريرها استناد العالم الى مدبر ليس بجسم ولا جسمانى وهو واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى (المسئلة الثامنة) ان فرعون خاطب الاثنين بقوله فمن ربكما ثم وجه النداء الى أحدهما وهو موسى عليه السلام لانه الاصل فى النبوة وهرون وزيره وتابعه واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التى فى لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التى فى لسان موسى عليه السلام ويدل عليه قوله أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين (المسئلة التاسعة) فى قوله الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وجهان (أحدهما) التقديم والتأخير أى اعطى خلقه كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به (وثانيهما) أن يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال أعطى كل شئ الشكل الذى يطابق منفعته ومصلحته وقرئ خلقه صفة للمضاف أو المضاف اليه والمعنى أن كل شئ خلقه الله

بما أرسلت به ولو كان المسؤل عنه ما ذكر من الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان ٦١ ان من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن

تولى فقد عذب حسبما نطق به قوله تعالى والسلام الآيتين (فى كتاب) أى مثبت فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره فى علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى (لا يضل ربى ولا ينسى) أى لا يخطئ ابتداء ولا يذهب علمه بقاء بل هو ثابت ابدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الاول لبيان أن اثباته فى اللوح ليس لحاجته تعالى اليه فى العلم به ابتداء أو بقاء واظهار ربى فى موقع الاضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير والاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضى عدم الضلال والنسيان حتما ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع انه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤونه تعالى ثم تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتى من الالتفات (الذى جعل لكم الارض مهدا) على أن الموصول اما مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبر مبتدا محذوف أى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها او ذات مهد وهو مصدر سمى به المفعول وقرئ مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أى جعل كل موضع منها مهدا لكل واحد منكم (وسلك لكم فيها سبلا) اى حصل لكم طرقا ووسطها

لم يخله من اعطائه وانعامه وأما قوله تعالى قال فما بال القرون الاولى فاعلم ان فى ارتباط هذا الكلام بما قبله وجوها (أحدها) ان موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدا والمعاد قال فرعون ان كان اثبات المبدا فى هذا الحد من الظهور فما بال القرون الاولى ما اثبتوه وتركوه فكان موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على اثبات الصانع قدح فرعون فى تلك الدلالة بقوله ان كان الامر فى قوة هذه الدلالة على ماذكرت وجب على أهل القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد (وثانيها) ان موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولا فى قوله انا قد أوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى فقال فرعون فما بال القرون الاولى فانها كذبت ثم انهم ما عذبوا (وثالثها) وهو الاظهر ان فرعون لما قال فمن ربكما يا موسى فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهرا وبرهانا باهرا على هذا المطلوب فقال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى فخاف فرعون ان يزيد فى تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فاراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال فما بال القرون الاولى فلم يلتفت موسى عليه السلام الى ذلك الحديث بل قال علمها عند ربى فى كتاب ولا يتعلق غرضى بأحوالهم فلا اشتغل بها ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وايراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وهذا الوجه هو المعتمد فى صحة هذا النظم ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله علمها عند ربى فى كتاب فان العلم الذى يكون عند الرب كيف يكون فى الكتاب وتحقيقه هو ان علم الله تعالى صفته وصفة الشئ قائمة به فاما أن تكون صفة الشئ حاصلة فى كتاب فذلك غير معقول فذكروا فيه وجهين (الاول) معناه انه سبحانه أثبت تلك الاحكام فى كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم فى الاستدلال على انه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة ولقائل أن يقول قوله فى كتاب يوهم احتياجه سبحانه وتعالى فى ذلك العلم الى ذلك الكتاب وهذا وان كان غير واجب لا محالة ولكنه لا أقل من انه يوهمه فى أول الامر لاسيما للكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون فى وقت الدعوة (الوجه الثانى) ان تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات فى علمه سبحانه كبقاء المكتوب فى الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن اسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شئ منها عن علمه وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك لا يضل ربى ولا ينسى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى قوله لا يضل ربى ولا ينسى فقال بعضهم معنى اللفظين واحد أى لا يذهب عليه شئ ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والاكثرون على الفرق بينهما ثم ذكروا وجوها (أحدها) وهو الاحسن ما قاله القفال لا يضل عن الاشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه فاللفظ الاول اشارة الى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثانى وهو قوله ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو اشارة الى نفى التغير (وثانيها) قال مقاتل لا يخطئ ذلك

بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من قطر الى قطر لتقضوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها (وأنزل من السماء ماء) هو المطر (فأخرجنا به) اى بذلك الماء وهو عطف على أنزل داخل تحت الحكاية وانما التفت الى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والايذان بأنه لا يتأتى الا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لامره وتذعن لمشيئته الاشياء المختلفة كما فى قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وقوله تعالى امن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة خلا أن ما قبل الالتفات هنالك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فأخرجنا به هو المحكى مع كون ما قبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم (ازواجا) أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض (من نبات) بيان أو صفة لازواجا أى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى (شتى) أى متفرقة جمع شتيت ويجوز أن يكون صفة لنبات لما انه فى الاصل

الكتاب ربى ولا ينسى ما فيه (وثالثها) قال الحسن لا يخطئ وقت البعث ولا ينساه (ورابعها) قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لا يغيب عن شئ ولا يغيب عنه شئ (وخامسها) قال ابن جرير لا يخطئ فى التدبير فيعتقد فى غير الصواب كونه صوابا واذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الاول (المسئلة الثالثة) انه لما سأله عن الاله وقال فمن ربكما يا موسى وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى ولما سأله عن شأن القرون الاولى وكان ذلك مما سبيله الاخبار ولم يأته فى ذلك خبر وكله الى عالم الغيوب واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة الاولى وهى دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الانسان وسائر الحيوانات وأنوع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهى ثلاثة (اولها) قوله تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا وفيه ابحاث (البحث الاول) قرأ أهل الكوفة ههنا وفى الزخرف مهدا والباقون قروا مهادا فيهما قال أبو عبيدة الذى اختاره مهادا وهو اسم والمهد اسم الفعل وقال غيره المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش اجاب أبو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل وقال المفضل هما مصدران لمهد اذا وطأه فراشا يقال مهده مهدا ومهادا وفرش فرشا وفراشا (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف الذى جعل مرفوع لانه خبر مبتدا محذوف أو لانه صفة لربى أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه واعلم انه يجب الجزم بكونه خبر المبتدا المحذوف اذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى على ما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى (البحث الثالث) المراد من كون الارض مهدا انه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرناه مستقصى فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء (وثانيها) قوله تعالى وسلك لكم فيها سبلا قال صاحب الكشاف سلك من قوله ما سلككم فى سقر كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين أى جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والاودية والبرارى (وثالثها) قوله وأنزل من السماء ماء والكلام فيه قد مر فى سورة البقرة أما قوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فأخرجنا فيه وجوه (أحدها) أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربى الذى جعل لكم كذا وكذا فاخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى (وثانيها) ان عند قوله وأنزل من السماء ماء تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلا بالكلام الاول بقوله فاخرجنا به ثم يدل على هذا الاحتمال قوله كلوا وارعوا أنعامكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف انتقل فيه من لفظ الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع للايذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لامره ومثله قوله تعالى وهو الذى أنزل من

مصدر يستوى فيه الواحد والجمع بمعنى انها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الانعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) حال من ضمير فأخرجنا على ارادة القول أى أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معديها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين فى ذلك (ان فى ذلك) اشارة الى ما ذكر من شؤنه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى (لآيات) للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤن الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام (لاولى النهى) جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الاباطيل التى من جملتها ما يدعيه الطاغية ويقبله منه فئته الباغية وتخصيص كونها ايات

السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شئ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة واعلم ان قوله فاخرجنا اما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى والاول باطل لان قوله بعد ذلك كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم لا يليق بموسى عليه السلام وأيضا فقوله فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى لا يليق بموسى لان أكثر ما فى قدرة موسى عليه السلام صرف المياه الى سقى الاراضى وأما اخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت ان هذا كلام الله تعالى ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى لان الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق الا أن يقال ان كلام موسى عليه السلام تم عند قوله لا يضل ربى ولا ينسى ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله الذى جعل لكم الارض مهدا ويكون التقدير هو الذى جعل لكم الارض مهدا فيكون الذى خبر مبتدا محذوف ويكون الانتقال من الغيبة الى الخطاب التفاتا (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه انما يخرج النبات من الارض بواسطة انزال الماء فيكون للماء فيه اثر وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح فى شئ من أصول الاسلام لانه سبحانه وتعالى هو الذى أعطاها هذه الخواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لا تأثير له فيه البتة (المسئلة الثالثة) قوله تعالى أزواجا أى أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض شتى صفة للازواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمى به النابت كما سمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعنى انها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله كلوا وارعوا أنعامكم فهو حال من الضمير فى أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين فى الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها وقد تضمن قوله كلوا سائر وجوه المنافع فهو كقوله ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وقوله ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما وقوله كلوا أمر اباحة ان فى ذلك أى فيما ذكرت من هذه النعم لآيات اى لدلالات لذوى النهى أى العقول والنهية العقل قال أبو على الفارسى النهى يجوز أن يكون مصدرا كالهدى ويجوز أن يكون جمعا أما قوله منها خلقناكم فاعلم أنه سبحانه لما ذكر منافع الارض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال منها خلقناكم وفيه سؤالان (السؤال الاول) ما معنى قوله منها خلقناكم مع انه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على ما بين ذلك فى سائر الآيات والجواب من وجهين (الاول) انه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ما قال كمثل آدم خلقه من تراب لاجرم أطلق ذلك علينا (الثانى) ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم

بهم مع انها ايات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها (منها خلقناكم) أى فى ضمن خلق ابيكم ادم عليه الصلاة والسلام منها فان كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه الصلاة والسلام اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام منها خلقا للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الارض بوسايط وقيل ان الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة (وفيها نعيدكم) بالاماتة وتفريق الاجزاء وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (ومنها نخرجكم تارة اخرى) بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الارواح اليها وكون هذا الاخراج تارة اخرى باعتبار أن خلقهم من الارض اخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الاصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم اطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة

الطمث وهما يتولدان من الاغذية والغذاء اما حيوانى أو نباتى والحيوانى ينتهى الى النبات والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافى كوننا مخلوقين من النطفة (والثالث) ذكرنا فى قوله تعالى هو الذى يصوركم فى الارحام خبر ابن مسعود ان الله يامر ملك الارحام أن يكتب الاجل والرزق والارض التى يدفن فيها وانه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها فى الرحم (السؤال الثانى) ظاهر الآية يدل على أن الشئ قد يكون مخلوقا من الشئ وظاهر قول المتكلمين يأباه والجواب ان كان المراد من خلق الشئ من الشئ ازالة صفة الشئ الاول عن الذات واحداث صفة الشئ الثانى فيه فذلك جائز لانه لا منافاة فيه أما قوله تعالى وفيها نعيدكم فلا شبهة فى ان المراد الاعادة الى القبور حتى تكون الارض مكانا وظرفا لكل من مات الا من رفعه الله الى السماء ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد اليها أيضا بعد ذلك أما قوله تعالى ومنها نخرجكم تارة أخرى ففيه وجوه (أحدها) وهو الاقرب ومنها نخرجكم يوم الحشر والبعث (وثانيها) ومنها نخرجكم ترابا وطينا ثم نحييكم بعد الاخراج وهذا مذكور فى بعض الاخبار (وثالثها) المراد عذاب القبر عن البراء قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الانصار فذكر عذاب القبر وما يخاطب به المؤمن والكافر وانه ترد روحه فى جسده ويرد الى الارض وأنه تعالى يقول عند اعادتهم الى الارض انى وعدتهم انى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى واعلم ان الله تعالى عدد فى هذه الآيات منافع للارض وهى انه تعالى جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التى منها أقواتهم وعلف دوابهم وهى أصلهم الذى منه يتفرعون ثم هى كفاتهم اذا ماتوا ومن ثم قال عليه السلام بروا بالارض فانها بكم برة ✻ قوله تعالى (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى) اعلم انه تعالى بين انه أرى فرعون الآيات كلها ثم انه لم يقبلها واختلفوا فى المراد بالآيات فقال بعضهم أراد كل الادلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة أما التوحيد فما ذكر فى هذه السورة من قوله ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله الذى جعل لكم الارض مهدا الآية وما ذكر فى سورة الشعراء قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض الآيات وأما النبوة فهى الآيات التسع التى خص الله بها موسى عليه السلام وهى العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل وعلى هذا التقدير يعنى أريناه عرفناه صحتها وأوضحناه وجه الدلالة فيها ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهى هذه المعجزات وانما أضاف الآيات الى نفسه سبحانه وتعالى مع ان المظهر لها موسى عليه السلام لانه أجراها على يديه كما اضاف نفخ الروح الى نفسه فقال فنفخنا فيها من روحنا مع ان النفخ كان من جبريل عليه السلام فان قيل

(ولقد أريناه) حكاية اجمالية لما جرى بين موسى عليه الصلاة والسلام وبين فرعون اثر حكاية ما ذكره عليه الصلاة والسلام بجلائل نعمائه الداعية له الى قبول الحق والانقياد له وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها واسناد الاراءة الى نون العظمة نظرا الى الحقيقة لا الى موسى نظرا الى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها واظهار كمال شناعة اللعين وتماديه فى المكابرة والعناد أى وبالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه (آياتنا) حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما فى تضاعيفهما من بدائع الامور التى كل منها آية بينة لقوم يعقلون حسبما بين فى تفسير قوله تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتى وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل واحد منها داهية دهياء فانه روى انه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلبت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك الا أخذته

قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لان من جملة الآيات ما أظهرها على الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا لفظ الكل وان كان للعموم لكن قد يستعمل في الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذى يلزم ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه انه كذب وأبى قال القاضى الاباء الامتناع وانه لا يوصف به الامن تمكن من الفعل والترك ولان الله تعالى ذمه بأنه كذب وبأنه أبى ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح واعلم ان هذا السؤال مر فى سورة البقرة فى قوله الا ابليس أبى واستكبر والجواب مذكور هنالك ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهى قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لانه ألقى فى مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدا وهو قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا وذلك لان هذا مما يشق على الانسان فى النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساويا للقتل فى قوله ان اقتلوا أنفسكم او اخرجوا من دياركم ثم لما صار وافى نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة فى نبوته عليه السلام وهى ان ما جئتنا به سحر لا معجز ولما علم ان المعجز انما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال فلنأتينك بسحر مثله أما قوله تعالى فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت فاعلم ان الموعد يجوز أن يكون مصدرا ويجوز أن يكون اسما للمكان الوعد كقوله وان جهنم لموعدهم أجمعين وأن يكون اسما للزمان الوعد كقوله ان موعدهم الصبح والذى فى هذه الآية بمعنى المصدر أى اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه لان الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف اما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك ومما يؤكد ذلك ان الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يطابق المكان والزمان وانما نصب مكانا لانه هو المفعول الثانى للجعل والتقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى أما قوله سوى فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر سوى بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى وقرئ أيضا منونا وغير منون وذكروا فى معناه وجوها (أحدها) قال أبو على مكانا تستوى مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفا بيننا (وثانيها) قال ابن زيد سوى أى مستويا لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الاول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود أنهم طلبوا موضعا مستويا لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجرى (وثالثها) مكانا يستوى حالنا فى الرضا به (ورابعها) قال الكلبى مكانا سوى هذا المكان الذى نحن فيه الآن ❁ قوله تعالى

(قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال

١

لهم

فأخذه فعاد عصا وروى انها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول ياموسى مرنى بما شئت ويقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده من جيبه فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى (كلها) كانه قيل أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتهما وتفاصيلهما قصدا الى بيان انه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما انها انما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولا ريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ما جعل لاهلاكهم لا لارشادهم الى الايمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى اسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا ان يعد منها الآيات الظاهرة على يد الانبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون فى حكم اظهارها بين يديه وارائته اياها

لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) اعلم أن فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل أن قوله تعالى قال موعدكم أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام قال القاضى والاول أظهر لانه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام وعندى الاظهر انه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (أحدها) انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا (وثانيها) وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضى اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذى يعرف ان اليد له لا بالمبطل الذى يعرف أنه ليس معه الا التلبيس (وثالثها) ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون الى موسى وهرون لزم اما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على ان أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أما لو جعلناه من موسى عليه السلام الى فرعون وقومه استقام الكلام (المسئلة الثانية) يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج اذا رفع فعلى خبر المبتدا والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله وأن يحشر الناس ضحى معناه موعدكم حشر الناس ضحى فموضع أن يكون رفعا ويجوز فيه الخفض عطفا على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل ألستم قلتم فى تفسير قوله اجعل بيننا وبينك موعدا ان التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان قلنا هو مطابق معنى وان لم يطابق لفظا لانهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة فى مكان معين مشهور باجتماع الناس فى ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان (المسئلة الثالثة) ذكر المفسرون فى يوم الزينة وجوها (أحدها) انه يوم عيد لهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء وانما قال يحشر فانهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم وقرئ وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يافرعون وأن يحشر اليوم ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة اما على العادة التى تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله موعدكم وجعل ضمير يحشر لفرعون وانما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤس الاشهاد فى المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الامر العجيب فى كل بدو وحضر ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر قال القاضى انه عين اليوم بقوله يوم الزينة ثم عين من اليوم وقتا معينا بقوله وأن يحشر الناس ضحى أما قوله فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى فاعلم ان التولى قد يكون اعراضا وقد يكون انصرافا والظاهر ههنا انه بمعنى الانصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذى تواعدوا للاجتماع قال مقاتل فتولى أى أعرض وثبت على اعراضه عن الحق ودخل

لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون مما لم يجر ذكره ههنا على أن ما سيأتى من حمل ما أظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدى للمعارضة بالمثل يأباه اباء بينا وينطق بأن المراد بها ما ذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات (فكذب) موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ما شاهد فى يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا (وأبى) الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيأ منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى (قال أجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك ياموسى) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وابائه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجئ اما على حقيقته او بمعنى الاقبال على الامر والتصدى له أى أجئتنا من مكانك الذى كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما اظهرته من السحر فان ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال وانما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام

تحت قوله جمع كيده السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر اليهم وكان طول القبة سبعين ذراعا ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شئ الوعيد والتحذير عما قالوه وأقدموا عليه فقال ويلكم لا تفتروا على الله كذبا بأن تزعموا بأن الذى جئت به ليس بحق وأنه سحر فيمكنكم معارضتى قال الزجاج يجوز فى انتصاب ويلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله ويلا ان افتروا على الله كذبا ويجوز على النداء كقوله يا ويلنا أألدوأنا عجوز يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا وقوله فيسحتكم بعذاب أى يعذبكم عذابا مهلكا مستأصلا وقرأ حمزة وعاصم والكسائى برفع الياء من الاسحات والباقون بفتحها من السحت والاسحات لغة أهل نجد وبنى تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكأنه تعالى قال من افترى على الله كذبا حصل له أمران (أحدهما) عذاب الاستئصال فى الدنيا أو العذاب الشديد فى الآخرة وهو المراد من قوله فيسحتكم بعذاب (والثانى) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله وقد خاب من افترى ثم بين سبحانه وتعالى انه لما قال موسى عليه السلام ذلك أعرضوا عن قوله وتنازعوا أمرهم بينهم وفى تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا ليستقروا على شئ واحد (والثانى) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل فى التنازع فرعون وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس فى الظاهر ما يدل على الترجيح وذكروا فى قوله وأسروا النجوى وجوها (أحدها) انهم أسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان نجواهم قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه (والثانى) قال قتادة ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر (الثالث) قال وهب لما قال ويلكم الآية قالوا ما هذا بقول ساحر (القول الثانى) انهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم وهو قول السدى (الوجه الثالث) انهم أسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضا وكان نجواهم انهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصى وعلى أى وجه يجب اظهارها فيكون أوقع فى القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الضحاك ۞ قوله تعالى (قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المشهورة ان هذان لساحران ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا وجوها أخر (أحدها) قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمران هذين لساحران وقالوا هى قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضى الله عنه واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله

عنها

بأبرازان مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بنى اسرائيل من أيديهم بل اخراج القبط من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه الى اتباعه أحد ويبالغوا فى المدافعة والمخاصمة وسمى ما أظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى انه يعارضه بمثل ما أتى به عليه الصلاة والسلام فقال (فلنأتينك بسحر مثله) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام جواب قسم محذوف كأنه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أى وعدا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى (لا نخلفه) فانه المناسب لا المكان والزمان أى لا نخلف ذلك الوعد (نحن ولا أنت) وانما فوض اللعين أمر الوعد الى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة واراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الامد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفى بينهما للايذان بمسارعته الى عدم الاخلاف وأن عدم اخلافه لا يوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد النفى بتكرير حرفه وانتصاب

عنها انها سئلت عن قوله ان هذان لساحران وعن قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى فى المائدة وعن قوله لكن الراسخون فى العلم منهم الى قوله والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة فقالت يا ابن أخى هذا خطأ من الكاتب وروى عن عثمان انه نظر فى المصحف فقال أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها وعن أبى عمرو انه قال انى لاستحى ان أقرأ ان هذان لساحران (وثانيها) قرأ ابن كثير ان هذان بتخفيف ان وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص عن عاصم ان هذان بتخفيف النونين (ورابعها) قرأ عبد الله بن مسعود وأسروا النجوى أن هذان ساحران بفتح الالف وجزم نونه ساحران بغير لام (وخامسها) عن الاخفش ان هذان لساحران خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى تكون فى معنى ما (وسادسها) روى عن أبى بن كعب ما هذان الا ساحران وروى عنه أيضا ان هذان الا ساحران وعن الخليل مثل ذلك وعن أبى أيضا ان ذان الا ساحران فهذه هى القراآت الشاذة المذكورة فى هذه الآية واعلم ان المحققين قالوا هذه القراآت لا يجوز تصحيحها لانها منقولة بطريق الآحاد والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر اذ لو جوزنا اثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن لانه لما جاز فى هذه القراآت انها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك فثبت أن تجويز كون هذه القراآت من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير الى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه وأما الطعن فى القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه (أحدها) انه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن وذلك يفضى الى القدح فى التواتر والى القدح فى كل القرآن وانه باطل واذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) ان المسلمين أجمعوا على ان ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما ان فيه لحنا وغلطا (وثالثها) قال ابن الانبارى ان الصحابة هم الائمة والقدوة فلو وجدوا فى المصحف لحنا لما فوضوا اصلاحه الى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم فى الاتباع حتى قال بعضهم اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم فثبت انه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها (الوجه الاول) وهو الاقوى ان هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هى لغة بلحارث بن كعب والزجاج نسبها الى كنانة وقطرب نسبها الى بلحارث ابن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ونسبها ابن جنى الى بعض بنى ربيعة أيضا وأنشد الفراء على هذه اللغة

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى • مساغا لناباه الشجاع لصمما

(مكانا سوى) بفعل يدل عليه المصدر لا به فانه موصوف أو بانه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة) من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الاول أو وعدكم وعد يوم الزينة وقرئ يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا واليك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرئ بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد (وأن يحشر الناس ضحى) عطف على يوم أو الزينة وقرئ على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون وبالياء على أن الضمير له على سنن الملوك أو لليوم (فتولى فرعون) أى انصرف عن المجلس (فجمع كيده) أى ما يكاد به من السحرة وأدواتهم (ثم أتى) أى الموعد ومعه

وأنشد غيره   تزوّد منا بين أذناه ضربة * دعته الى هابى التراب عقيم

قال الفرّاء وحكى بعض بنى أسد انه قال هذا خط يدا أخى اعرفه وقال قطرب هؤلاء يقولون رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بنى ضبة جاهلى

أعرف منه الجيد والعينانا * ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين على اللغة الفاشية وماوراء ذلك على لغة هؤلاء وقال آخر

طاروا علاهنّ فطر علاها * واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر   كانّ صريف ناباه اذاما * أمرّهما صرير الاخطبان

قال بعضهم الاخطبان ذكر الصردان فصيرهما واحدا فبقى الاستدلال بقوله صريف ناباه قال وانشدنى يونس لبعض بنى الحرث

كانّ عينا حبل ومصبغه * مراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا أيضا   انّ أباها وأبا أباها * قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال ابن جنى روينا عن قطرب

هنالك أن تبكى بشعثان * رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفرّاء وذلك وان كان قليلا أقيس لانّ ماقبل حرف التثنية مفتوح فينبغى أن يكون مابعده ألفا ولو كان مابعده ياء ينبغى أن تنقلب ألفا لانفتاح ماقبلها وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فرارا الى الالف التى هى أخف حروف المدّ هذا أقوى الوجوه فى هذه الآية ويمكن أن يقال أيضا الالف فى هذا من جوهر الكلمة والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لايجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لانّ مابالذات لايزول بالعرض فهذا الدليل يقتضى أن لايجوز أن يقال ان هذين فلما جوّزناه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال ان هذان (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال ان ههنا بمعنى نعم قال الشاعر

ويقلن شيب قد علا * ك وقد كبرت فقلت انه

أى فقلت نعم فالهاء فى انه هاء السكت كما فى قوله تعالى هلك عنى سلطانيه وقال أبوذؤيب

شاب المفارق انّ من البلى * شيب القذال مع العذار الواصل

أى نعم انّ من البلى فصار كأنه قال نعم هذان لساحران واعترضوا عليه فقالوا اللام لاتدخل فى الخبر على الاستحسان الا اذا كانت انّ داخلة فى المبتدا فأما اذا لم تدخل انّ على المبتدا فمحل اللام المبتدا اذ يقال لزيد أعلم من عمرو ولا يقال زيد لأعلم من عمرو وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين (الاوّل) لانسلم انّ اللام لايحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله

أم الحليس لعجوز شهربه * ترضى من اللحم بعظم الرقبه

وقال آخر   خالى لانت ومن جرير خاله * ينل العلاء ويكرم الاخوالا

وأنشد قطرب   ألم تكن حلفت بالله العلى * ان مطاياك لمن خير المطى

ماجمعه من كيده وفى كلمة التراخى ايماء الى أنه لم يسارع اليه بل أتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى (قال لهم موسى) الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس الا ماصدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام وأما اتيانه اوّلا فأمر محقق غنىّ عن التصريح به كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه الصلاة والسلام عند اتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة (ويلكم لاتفتروا على الله كذبا) بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدى سحرا كما فعل فرعون (فيسحتكم) أى يستأصلكم بسببه (بعذاب) هائل لايقادر قدره وقرئ يسحتكم من الثلاثى على لغة اهل الحجاز والاسحات لغة بنى تميم ونجد (وقد خاب من افترى) أى على الله كائنا من كان بأىّ وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا اوّليا أو وقد خاب فرعون المفترى فلاتكونوا امثاله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها (فتنازعوا) أى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كانّ ذلك غاظهم فتنازعوا (امرهم) الذى أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا (بينهم) فى كيفية المعارضة

وان

وان رويت انّ بالكسر لم يبق الاستدلال الا انّ قطربا قال سمعناه مفتوح الهمزة وأيضا فقد أدخلت اللام فى خبر امسى قال ابن جنى أنشدنا أبو على

مرّوا عجالى فقالوا كيف صاحبكم * فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول أراك لمسالمى والى رأيته لشيخا وزيد والله لواثق بك وقال كثير

ومازلت من ليلى لدن أن عرفتها * لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر * ولكننى من حبها لعميد * وقال المعترض هذه الاشعار من الشواذ وانما جاءت كذا لضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى من الضرورة وانما تقرر هذا الكلام اذا بينا انّ المبتدأ اذا لم يدخل عليه انّ وجب ادخال اللام عليه لاعلى الخبر وتحقيقه انّ اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدا بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدا وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدا لانّ العلة الموجبة لحكم فى محل لابدّ وأن تكون مختصة بذلك المحل لايقال هذا مشكل بما اذا دخلت انّ على المبتدا فانّ ههنا يجب ادخال اللام على الخبر مع انّ ماذكرتموه حاصل فيه لانا نقول ذلك لاجل الضرورة وذلك لانّ كلمة انّ للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا انّ لزيدا قائم لكنا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر ادخالها على المبتدا لاجرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة وأما اذا لم يدخل حرف انّ على المبتدا كانت هذه الضرورة زائلة فوجب ادخال اللام على المبتدا لايقال اذا جاز ادخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله

ماان رأيت ولا سمعت به * كاليوم طالبى أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفى فلم لايجوز ادخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الاثبات لانا نقول الفرق بين البابين انّ قولك زيد قائم يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام فاذا قلت انّ زيدا قائم فكلمة انّ تفيد تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكدا آخر مع كلمة ان صار عبثا أما لوقلت رأيت فلانا فهذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفى أفاد حرف النفى معنى النفى ولا يفيد التأكيد لانه مستقل بافادة الاصل فكيف يفيد الزيادة فاذا ضممت اليه حرف نفى آخر صار الحرف الثانى مؤكدا للاوّل فلا يكون عبثا فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندى ضعيف لان الكل اتفقوا على انه اذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ولانّ هذه العلل فى نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر (الوجه الثانى) فى الجواب عن قولهم اللام لايحسن دخولها على الخبر الا اذا دخلت كلمة انّ على المبتدا كما ذكره الزجاج فقال ان وقعت موقع نعم واللام فى موقعها والتقدير نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدا الا على الخبر قال وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى اسمعيل ابن اسحق فارتضياه وذكرا أنه أجود ماسمعناه فى هذا قال ابن جنى هذا القول غير صحيح

ونجاذبوا أهداب القول فى ذلك (واسرّوا النجوى) أى من موسى عليه الصلاة والسلام لئلا يقف عليه فيدافعه وكان نجواهم مانطق به قوله تعالى (قالوا) أى بطريق التناجى والاسرار (ان هذان لساحران) الخ فانه تفسير له ونتيجة لتنازعهم وخلاصة مااستقرّت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وانّ مخففة من انّ قد أهملت عن العمل واللام فارقة وقرئ بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى الا أى ماهذان الا ساحران وقرئ انّ بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث ابن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل انّ بمعنى نعم ومابعدها جملة من مبتدا وخبر وفيهما أنّ اللام لاتدخل خبر المبتدا وقيل أصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لايليق به الحذف وقرئ ان هذين لساحران وهى قراءة واضحة (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) أى ارض مصر بالاستيلاء عليها (بسحرهما) الذى أظهراه من قبل (ويذهبا بطريقتكم المثلى) أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها باظهار مذهبهما واعلاء دينهما يريدون به ماكان عليه قوم فرعون لاطريقة السحر فانهم ما كانوا يعتقدونه دينا وقيل

لوجوه (الوجه الاول) ان الاصل ان المبتدا انما يجوز حذفه لو كان أمرا معلوما جليا ولولا ذلك لكان فى حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب واذا كان معروفا فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لان التأكيد انما يحتاج اليه حيث لم يكن العلم به حاصلا (الوجه الثانى) ان الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الاطناب فالجمع بينهما غير جائز ولان ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن فى العقول من العكس (الوجه الثالث) امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدا فى نحو قولك زيد ضربت فلا يجيزون زيد ضربت نفسه على أن يجعل النفس توكيدا للهاء المؤكدة المقدرة فى ضربت أى ضربته لان الحذف لا يكون الا بعد التحقيق والعلم به واذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا (الوجه الرابع) ان جميع النحويين حملوا قول الشاعر أم الحليس لعجوز شهربه على ان الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ولو كان ماذهب اليه الزجاج جائزا لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار اذا وجدوا له وجها ظاهرا ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى بأنه انما حسن حذف المبتدا لان فى اللفظ مايدل عليه وهو قوله هذان أما لو حذف التأكيد فليس فى اللفظ مايدل عليه فلاجرم كان حذف المبتدا أولى من حذف التأكيد وأما امتناعهم من تأكيد الضمير فى قولهم زيد ضربت نفسه فذلك انما كان لان اسناد الفعل الى المظهر أولى من اسناده الى المضمر فاذا قال زيد ضربت نفسه كان قوله نفسه مفعولا فلا يمكن جعله تأكيدا للضمير فتأكيد المحذوف انما امتنع ههنا لهذه العلة لا لان تأكيد المحذوف مطلقا ممتنع وأما قوله النحويون حملوا قول الشاعر أم الحليس لعجوز شهربه على ان الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ماقاله الزجاج لما عدل عنه النحويون فهذا اعتراض فى نهاية السقوط لان ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لا يقتضى كونه باطلا فما أكثر ماذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر فهذا تمام الكلام فى شرح هذا (الوجه الثالث) فى الجواب ان كلمة ان ضعيفة فى العمل لانها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة فى العمل واذا ضعفت جاز بقاء المبتدا على اعرابه الاصلى وهو الرفع (المقدمة الاولى) انها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة فى اللفظ والمعنى أما اللفظ فلانها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الاسماء كالافعال وأما المعنى فلانها تفيد حصول معنى فى الاسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما أنك اذا قلت قام زيد فقولك قام أفاد حصول معنى فى الاسم (المقدمة الثانية) انها لما أشبهت الافعال وجب ان تشبهها فى العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران (المقدمة الثالثة) انها لم تنصب الاسم وترفع الخبر فتقريره ان يقال انها لما صارت عاملة فاما ان ترفع المبتدا والخبر معا أو تنصبهما معا أو ترفع المبتدا وتنصب الخبر أو بالعكس والاول باطل لان المبتدا والخبر كانا قبل دخول ان عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما

أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه الصلاة والسلام أرسل معنا بنى اسرائيل وكانوا أرباب علم فيما بينهم وبأباه أن اخراجهم من أرضهم انما يكون بالاستيلاء عليها تمكنا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بنى اسرائيل الى الشأم وحمل الاخراج على اخراج بنى اسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن هذه المقالة منهم للاغراء بالمبالغة فى المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلابد أن يكون الانذار والتحذير باشد المكاره وأشقها عليهم ولاريب فى أن اخراج بنى اسرائيل من بينهم والذهاب بهم الى الشأم وهم آمنون فى ديارهم ليس فيه كثير محذور وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لما انهم قدوة لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص الاذهاب بهم مما لامزية فيه وقوله تعالى (فاجمعوا كيدكم) تصريح بالمطلوب اثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة أى اذا كان الامر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ماذكر من الاخراج والاذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لايتخلف عنه واحد منكم وارموا عن قوس واحدة وقرئ فاجمعوا من الجمع ويعضده قوله تعالى فجمع كيده أى فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى (ثم ائتوا صفا)

لما ظهر له أثر البتة ولانها أعطيت عمل الفعل والفعل لا يرفع الاسمين فلا معنى للاشتراك (والقسم الثانى) أيضا باطل لان هذا أيضا مخالف لعمل الفعل لان الفعل لا ينصب شيأ مع خلوه عما يرفعه (والقسم الثالث) أيضا باطل لانه يؤدى الى التسوية بين الاصل والفرع فان الفعل يكون عمله فى الفاعل أولا بالرفع وفى المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الاصل والفرع ولما بطلت الاقسام الثلاثة تعين القسم الرابع وهو انها تنصب الاسم وترفع الخبر وهذا انما ينبه على ان هذه الحروف دخيلة فى العمل لا أصلية لان تقديم المنصوب على المرفوع فى باب العمل عدول عن الاصل فذلك يدل على ان العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الاصالة بل بطريق عارض (المقدمة الرابعة) لما ثبت ان تأثيرها فى نصب الاسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع أيضا وذلك لان كون الاسم مبتدا يقتضى الرفع ودخول ان على المبتدا لا يزيل عنه وصف كونه مبتدا لانه يفيد تأكيدها كان لا زوال ما كان اذا ثبت هذا فنقول وصف كونه مبتدا يقتضى الرفع وحرف ان يقتضى النصب ولكن المقتضى الاول أولى بالاقتضاء من وجهين (أحدهما) ان وصف كونه مبتدا صفة أصلية للمبتدا ودخول ان عليه صفة عرضية والاصل راجح على العارض (والثانى) ان اقتضاء وصف المبتدا للرفع أصلى واقتضاء حرف ان للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الاول أولى فثبت بمجموع ماقررنا ان الرفع أولى من النصب فان لم تحصل الاولوية فلا أقل من أصل الجواز ولهذا السبب اذا جئت بخبر ان ثم عطفت على الاسم اسما آخر جاز فيه الرفع والنصب معا (الوجه الرابع) فى الجواب قال الفراء هذا أصله ذا زيدت الهاء لان ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت الالف للتثنية فصارت هذا ان فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج الى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الاصل لان أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص فحذف ألف التثنية لان النون يدل عليه فلاجرم لم تعمل ان لان عملها فى ألف التثنية وقال آخرون الالف الباقى اما ألف الاصل أو ألف التثنية فان كان الباقى ألف الاصل لم يجز حذفها لان العامل الخارجى لا يتصرف فى ذات الكلمة وان كان الباقى ألف التثنية فلا شك انهم أبقوها مناب ألف الاصل وعوض الاصل أصل لا محالة فهذا الالف أصل فلا يجوز حذفه ويرجع حاصل هذا الى الجواب الاول (الوجه الخامس) فى الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين ان الهاء ههنا مضمرة والتقدير انه هذان لساحران وهذه الهاء كناية عن الامر والشان فهذا ماقيل فى هذا الموضع فأما من خفف فقرأ ان هذان لساحران فهو حسن فان مابعد الخفيفة رفع واللام بعدها فى الخبر لازمة واجبة وان كانت فى ان الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين ان المؤكدة وان النافية قال الشاعر

وان مالك للمرتجى ان تضعضعت • رحا الحرب أو دارت على خطوب

أى مصطفين أمروا بذلك لانه أهيب فى صدور الرائين وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفا مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه اقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل وقيل تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقيل خمسة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين ألفا والله اعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر فى قطر من أقطاره وتنازعوا امرهم فى قطر آخر منه ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الاعياد والصلوات ووجه صحته أن يكون علما لموضع معين من المكان الموعود وأما ارادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا وقوله تعالى (وقد أفلح اليوم من استعلى) اعتراض تذييلى من قبلهم مؤكد لما قبله من الامرين أى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ماوعدهم فرعون من الاجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال نعم وانكم لمن المقربين ومن غلب انفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون اومن غلب منهم حثا لهم على بذل

وقال آخر

ان القوم والحى الذى أنا منهم * لاهل مقامات وشاء وجامل

الجامل جمع جمل ثم من العرب من يعمل ان ناقصة كما يعملها تامة اعتبارا بكان فانها ما تعمل وان نقصت فى قولك لم يكن لبقاء معنى التأكيد وان زال الشبه اللفظى بالفعل لان العبرة للمعنى وهذه اللغة تدل على ان العبرة فى باب الاعمال الشبه المعنوى بالفعل وهو اثبات التوكيد دون الشبه اللفظى كما ان التعويل فى باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلا محضا وأما اللغة الظاهرة وهى ترك اعمال ان المخففة دالة على ان الشبه اللفظى فى ان الثقيلة أحد جزأى العلة فى حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل بخلاف الكون فانه عامل بمعناه لكونه فعلا محضا ولا عبرة للفظه (المسئلة الثانية) انه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه (فأحدها) قولهم هذان لساحران وهذا طعن منهم فى معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة فى التنفير عنه لما ان كل طبع سليم يقتضى النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر ومن حيث ان الانسان يعلم ان السحر لا بقاء له فاذا اعتقدوا فيه السحر قالوا كيف نتبعه فانه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه (وثانيها) قوله يريدان أن يخرجاكم من أرضكم وهذا فى نهاية التنفير لان المفارقة عن المنشا والمولد شديدة على القلوب وهذا هو الذى حكاه الله تعالى عن فرعون فى قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى وكان السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها (وثالثها) قوله ويذهبا بطريقتكم المثلى وهذا أيضا له تأثير شديد فى القلب فان العدو اذا جاء واستولى على جميع المناصب والاشياء التى يرغب فيها فذلك يكون فى نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة فى التنفير عن موسى والترغيب فى دفعه وابطال امره وههنا بحثان (البحث الاول) قال القراء الطريقة الرجال الاشراف الذين هم قدوة لغيرهم يقال هم طريقة قومهم ويقال للواحد أيضا هو طريقة قومه وجعل الزجاج الآية من باب حذف المضاف أى ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى وعلى التقديرين فالمراد انهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى وهرون عليهما السلام يريدان ان يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه السلام أرسل معنا بنى اسرائيل واغاعموا بنى اسرائيل بذلك لانهم كانوا أكثر القوم يومئذ عددا وأموالا ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالذين سمواديتهم بالطريقة المثلى وكل حزب بما لديهم فرحون ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة (البحث الثانى) المثلى مؤنثة لتأنيث الطريقة واختلفوا فى انه لم سمى الافضل بالامثل فقال بعضهم الامثل الاشبه بالحق وقيل الامثل الاوضح والاظهر ثم انه تعالى لما حكى عنهم مبالغتهم فى التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب فى ابطال أمره حكى عنهم انهم قالوا فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا قرأ أبو عمرو بوصل الالف

وفتح

المجهود فى المغالبة هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم وقد قيل كان نجواهم أن قالوا حين سمعوا مقالة موسى عليه الصلاة والسلام ماهذا بقول ساحر وقيل كان ذلك أن قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل كان ذلك قولهم ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر فيكون اسرارهم حينئذ من فرعون وملئه ويحمل قولهم ان هذان لساحران الخ على انهم اختلفوا فيما بينهم على الاقاويل المذكورة ثم رجعوا عن ذلك بعد التنازع والتناظر واستقرت آراؤهم على ذلك وأبوا الا المناصبة للمعارضة وأما جعل ضمير قالوا لفرعون وملئه على انهم قالوا ذلك للسحرة ردا لهم عن الاختلاف وامر وهم بالاجماع والازماع واظهار الجلادة بالاتيان على وجه الاصطفاف فمخل بجزالة النظم الكريم كما يشهد به الذوق السليم (قالوا) استئناف مبنى على سؤال ناشئ من حكاية ماجرى بين السحرة من المقاولة كأنه قيل فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا فقيل قالوا (ياموسى) وانما لم يتعرض لاجماعهم واتيانهم بطريق الاصطفاف اشعارا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان (اما أن تلقى) أى ماتلقيه أولا على أن المفعول محذوف لظهوره أو تفعل الالقاء أولا على أن الفعل منزل منزلة اللازم (واما أن نكون

وفتح الميم من أجمعوا يعنى لاتدعوا شيأ من كيدكم الا جئتم به دليله قوله فجمع كيده وقرأ الباقون بقطع الالف وكسر الميم وله وجهان (أحدهما) قال القراء الاجماع الاحكام والعزيمة على الشئ يقال أجمعت على الخروج مثل أزمعت (والثانى) بمعنى الجمع وقد مضى الكلام فى هذا عند قوله فأجمعوا أمركم وشركاءكم قال الزجاج ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعا عليه لاتختلفوا ثم ائتوا صفا ذكر أبو عبيدة والزجاج وجهين (أحدهما) ان الصف موضع الجمع والمعنى ائتوا الموضع الذى تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم والمعنى ائتوا مصلى من المصليات أو كان الصف علما للمصلى بعينه فأمروا بان يأتوه (والثانى) أن يكون الصف مصدرا والمعنى ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكى يكون أنظم لامركم وأشد لهيبتكم وهذا قول عامة المفسرين وقوله وقد أفلح اليوم من استعلى اعتراض يعنى وقد فاز من غلب فكانوا يقرون بذلك أنفسهم فيما اجتمعوا عليه من اظهار مايظهرونه من السحر ۞ قوله تعالى (قالوا ياموسى اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لاتخف انك أنت الاعلى وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى) اعلم انه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة وتقدم ايضا قوله ثم ائتوا صفا صار ذلك مغنيا عن قوله فحضروا هذا الموضع وقالوا اما أن تلقى لدلالة ماتقدم عليه وقوله اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى معناه اما أن تلقى ما معك قبلنا واما ان نلقى مامعنا قبلك وهذا التخيير مع تقديمه فى الذكر حسن أدب منهم وتواضع له فلا جرم رزقهم الله تعالى الايمان ببركته ثم ان موسى عليه السلام قابل أدبهم بادب فقال بل ألقوا أما قوله بل ألقوا ففيه سؤالان (السؤال الاول) كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فيأمرهم بما هو سحر وكفر لانهم اذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفرا والجواب من وجوه (أحدها) لانسلم ان نفس الالقاء كفر ومعصية لانهم اذا ألقوا وكان غرضهم ان يظهر الفرق بين ذلك الالقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى كان ذلك الالقاء ايمانا وانما الكفر هو القصد الى تكذيب موسى وهو عليه السلام انما أمر بالالقاء لا بالقصد الى التكذيب فزال السؤال (وثانيها) ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين أى ان كنتم قادرين (وثالثها) انه لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار ذلك جائزا وهذا كالمحق اذا علم ان فى قلب واحد شبهة وانه لولم يطالبه بذكرها وتقريرها باقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة فى قلبه ويخرج بسببها عن الدين فان للمحق ان يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه ويكون غرضه من ذلك ان يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه فطالبته بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا (ورابعها) أن لا يكون ذلك أمرا بل يكون معناه انكم ان أردتم

أول من ألقى) ما يلقيه أو أول من يفعل الالقاء خيروه عليه الصلاة والسلام بما ذكر مراعاة للادب لما رأوا منه عليه الصلاة والسلام ما رأوا من مخايل الخير ورزانة الرأى واظهارا للجلادة بارائة انه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير وأن مع مافى حيزها منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية مبتدا محذوف أى اختر القاءك أولا أو القاءنا أو الامر اما القاؤك أو القاؤنا (قال) استئناف كما سلف ناشئ من حكاية تخيير السحرة اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام فقيل قال (بل ألقوا) أنتم أولا مقابلة للادب بأحسن من ادبهم حيث بت القول بالقائهم أولا واظهارا لعدم المبالاة بسحرهم ومساعدة لما أوهموه من الميل الى البدء وليبرزوا مامعهم ويستفرغوا أقصى جهدهم ويستنفدوا قصارى وسعهم ثم يظهر الله عز وجل سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه لما علم أن ما سيظهر بيده سيلقف مايصنعون من مكايد السحر (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) الفاء فصيحة معربة عن مسارعتهم الى الالقاء كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فألقوا فاذا حبالهم وهى للمفاجأة والتحقيق انها أيضا ظرفية تستدعى

فعله فلا مانع منه حسالكي ينكشف الحق (وخامسها) ان موسى عليه السلام لاشك انه كان كارها لذلك ولاشك انه نهاهم عن ذلك بقوله ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب واذا كان الامر كذلك استحال أن يكون قوله أمرا لهم بذلك لان الجمع بين كونه ناهيا وآمرا بالفعل الواحد محال فعلمنا ان قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الاشكال (السؤال الثانى) لم قدمهم فى الالقاء على نفسه مع ان تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز وكذا تقديم ايراد الشبهة على ايراد الحجة وجب أن لا يجوز لاحتمال انه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لادراك الحجة بعده فيبقى حينئذ فى الكفر والضلال وليس لاحد أن يقول ان ذلك كان بسبب انهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بان قدمهم على نفسه لان أمثال ذلك انما يحسن فيما يرجع الى حظ النفس فأما ما يرجع الى الدليل والشبهة فغير جائز والجواب انه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة الى اظهارها مرة أخرى والقوم انما جاؤا لمعارضته فقال عليه السلام لو انى بدأت باظهار المعجزة أولا لكنت كالسبب فى اقدامهم على اظهار السحر وقصد ابطال المعجزة وذلك غير جائز ولكنى أفوض الامر اليهم حتى انهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم أنا أظهر المعجز الذى يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سببا لازالة الشبهة وأما على التقدير الاول فانه يكون سببا لوقوع الشبهة فكان ذلك أولى أما قوله فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضى الله عنهما ألقوا حبالهم وعصيهم ميلا من هذا الجانب وميلا من هذا الجانب فخيل الى موسى عليه السلام ان الارض كلها حيات وانها تسعى فخاف فلما قيل له ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ألقى موسى عصاه فاذا هى أعظم من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادى ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا فى الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فاذا هى عصى كما كانت ونظرت السحرة فاذا هى لم تدع من حبالهم وعصيهم شيأ الا أكلته فعرفت السحرة انه ليس بسحر وقالوا أين حبالنا وعصينا لو لم تكن سحرا لبقيت فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون (المسئلة الثانية) اختلفوا فى عدد السحرة قال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا مع كل واحد عصا وحبل وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين ألفا مع كل واحد عصا وحبل وقال وهب كانوا خمسة عشر ألفا وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال الكلبى كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان منهم من القبط وسبعون من بنى اسرائيل أكرههم فرعون على ذلك واعلم ان الاختلاف والتفاوت واقع فى عدد كثير وظاهر القرآن لا يدل على شئ منه والاقوال اذا تعارضت

متعلقا بنصبها وجملة تضاف اليها لكنها خصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل اليه سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك انهم كانوا لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه انها تتحرك وقرئ تخيل بالتاء على اسناده الى ضمير الحبال والعصى وابدال انها تسعى منه بدل اشتمال وقرئ يخيل باسناده اليه تعالى وقرئ تخيل بحذف احدى التاءين من تتخيل (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى أضمر فيها بعض خوف من مفاجأته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل (قلنا لا تخف) أى ما توهمت (انك أنت الاعلى) تعليل لما يوجبه النهى من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبئ عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل (وألق ما فى يمينك) أى عصاك كما وقع فى سورة الاعراف وانما أوثر الابهام تهويلا لامرها وتفخيما لشأنها وايذانا بانها

ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر افراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الامر فى موضع آخر لا يستدعى عدم مراعاتها عند وقوع المحكى هذا وحمل الابهام على التحقير بان يراد لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك فانه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا ما فعلت وهى على هيئتها الاصلية وقد كان منها ما كان وقوله تعالى (تلقف ما صنعوا) بالجزم جوابا للامر من لقفه اذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ما عبارة عن العصا أى تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصى التى خيل اليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والايذان بالتمويه والتزوير وقرئ تلقف بتشديد القاف واسقاط احدى التاءين من تتلقف وقرئ بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الامرية معطوفة على النهى متممة بما فى حيزها التعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه فان ابتلاع عصاه لاباطيلهم التى منها أوجس فى نفسه ما أوجس مما يقلع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح فى أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام والا لعلل بما يزيله من الوعد

تساقطت (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يقال فى اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق فيها انها اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها خصت فى بعض المواضع بان تكون ناصبا فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير فتقدير قوله تعالى فاذا حبالهم وعصيهم ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه السعى اه (المسئلة الرابعة) قرئ عصيهم بالضم وهو الاصل والكسر اتباع نحو دلى ودلى وقسى وقسى وقرئ تخيل بالتاء المنقوطة من فوق باسناد الفعل الى الحبال والعصى وقرئ بالضم بالياء المنقطة من تحت باسناد الفعل الى الكيد والسحر وقال القراء أى يخيل اليه سعيها (المسئلة الخامسة) الهاء فى قوله يخيل اليه كناية عن موسى عليه السلام والمراد انهم بلغوا فى سحرهم المبلغ الذى صار يخيل الى موسى عليه السلام انها تسعى كسعى ما يكون حيا من الحيات لا أنها كانت حية فى الحقيقة ويقال انهم حشوها بما اذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن انها تسعى فأما ما روى عن وهب انهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى فلما ألقوا سحروا أعين الناس وبقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فهذا غير جائز لان ذلك الوقت وقت اظهار المعجزة والادلة وازالة الشبهة فلو صار بحيث لا يميز الموجود عن الخيال الفاسد لم يتمكن من اظهار المعجزة فحينئذ يفسد المقصود فاذن المراد انه شاهد شيأ لولا علمه بانه لا حقيقة لذلك الشئ لظن فيها انها تسعى أما قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة موسى فالايجاس استشعار الخوف أى وجد فى نفسه خوفا فان قيل انه لا مزيد فى ازالة الخوف على ما فعله الله تعالى فى حق موسى عليه السلام فانه كلمه أولا وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد ثم انه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كاعظم ثعبان ثم انه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما أعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كله اننى معكما أسمع وأرى فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف فى قلبه والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان ذلك الخوف انما كان لما طبع الآدمى عليه من ضعف القلب وان كان قد علم موسى عليه السلام انهم لا يصلون اليه وان الله ناصره وهذا قول الحسن (وثانيها) انه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا انهم قد ساووا موسى عليه السلام ويشتبه ذلك عليهم وهذا التاويل متأكد بقوله لا تخف انك أنت الاعلى وهذا قول مقاتل (وثالثها) انه خاف حيث بدؤا وتأخر القاؤه ان ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يلقيه فيدوموا على اعتقاد الباطل (ورابعها) لعله عليه السلام كان مامورا بان لا يفعل شيأ الا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف ان لا ينزل عليه الوحى فى ذلك الوقت فيبقى فى الخجالة (وخامسها) لعله عليه السلام خاف من انه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعل فرعون قد أعد اقواما

آخرين فما أتيه بهم فيحتاج مرة أخرى الى ابطال سحرهم وهكذا من غير ان يظهر له مقطع وحينئذ لا يتم الامر ولا يحصل المقصود ثم انه تعالى أزال ذلك الخوف بالاجمال أولا وبالتفصيل ثانيا أما الاجمال فقوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى ودلالته على ان خوفه كان لامر يرجع الى ان أمره لا يظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله انك انت الاعلى وفيه أنواع من المبالغة (أحدها) ذكر كلمة التأكيد وهي ان (وثانيها) تكرير الضمير (وثالثها) لام التعريف (ورابعها) لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وأما التفصيل فقوله وألق ما فى يمينك وفيه سؤال وهو انه لم يقل وألق عصاك والجواب جاز أن يكون تصغيرا لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذى بيمينك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجائز أن يكون تعظيما لها أى لا تحتفل بهذه الاجرام الكثيرة فان فى يمينك شيأ أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شئ عندها فألقه يتلقفها باذن الله تعالى ويمحقها أما قوله تلقف أى فانك اذا ألقيتها فانها تلقف ما صنعوا قراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد أى فالقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أى ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف أى تأخذ بفيها ابتلاعا بسرعة واللقف والتلقف جميعا يرجعان الى هذا المعنى وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا وزوروا والعرب تقول فى الكذب هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله تلقف انه اذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت ما صنعوا وفى قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على انه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ما صنعوه وفى التلقف دلالة على ان جميع ما ألقوه تلقفته وذلك لا يكون الا مع عظم جسدها وشدة قوتها وقد حكى عن السحرة انهم عند التلقف أيقنوا بان ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه (أحدها) ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة (وثانيها) زيادة عظمه على وجه لا يتم ذلك بالحيلة (وثالثها) ظهور الاعضاء عليه من العين والمنخرين والفم وغيرها ولا يتم ذلك بالحيلة (ورابعها) تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك لا يتم بالحيلة (وخامسها) عوده خشبة صغيرة كما كانت وشئ من ذلك لا يتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى ان ما صنعوا كيد ساحر والمعنى ان الذى معك يا موسى معجزة الهية والذى معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى ان ما موصولة ومن نصب فعلى انها كافة وقرئ كيد سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر أوهم لتوغلهم فى سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته أو بين الكيد لانه يكون سحرا وغير سحر كما يبين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو بقى سؤالات (السؤال الاول) لم وحد الساحر ولم يجمع الجواب لان القصد فى هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع تخيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى أى هذا الجنس (السؤال الثانى) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا

بما يوجب ايمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (ان ما صنعوا) الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ما صنعوا وما اما موصولة أو موصوفة أى ان الذى صنعوه أو ان شيأ صنعوه (كيد ساحر) بالرفع على انه خبر لان اى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به الى تنكير ما أضيف اليه للتحقير وقرئ بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرئ كيد سحر على أن الاضافة للبيان كما فى علم فقه أو على معنى ذى سحر أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى (ولا يفلح الساحر) أى هذا الجنس (حيث أتى) أى حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة الهية مع ما فى ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور أمرها والفاء فى قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا) كما فى فصيحة معربة عن محذوفين ينساق اليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالامر واستحالة عدم وقوع اللقف الموعود أى فألقاه عليه السلام فوقع ما وقع من اللقف فألقى السحرة سجدا لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وانما هى آية من آيات الله عز وجل روى أن رئيسهم قال كنا نغالب الناس وكانت الآلات تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فاين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر العالم وبظهور ذلك على يد موسى عليه

الجواب

الجواب كأنه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ (السؤال الثالث) قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى يدل على ان الساحر لا يحصل له مقصوده بالسحر خيرا كان أو شرا وذلك يقتضى نفى السحر بالكلية الجواب الكلام فى السحر وحقيقته قد تقدم فى سورة البقرة فلا وجه للاعادة والله أعلم ۞ قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) اعلم ان فى قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على انه ألقى ما فى يمينه وصار حية وتلقف ما صنعوا وظهر الامر خروا عند ذلك سجدا وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا ما فعله موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى فلا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود أما قوله تعالى فألقى السحرة سجدا فليس المراد منه انهم أجبروا على السجود والا لما كانوا محمودين بل التأويل فيه ما قال الاخفش وهو انهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا وقال صاحب الكشاف ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وروى انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة قال القاضى هذا بعيد لانه تعالى لو أراهم عيانا لصاروا ملجئين وذلك لا يليق به قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وجوابه لما جاز لابراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفورا له أن يقول والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى فلم لا يجوز مثله فى حق السحرة واعلم ان هذه القصة تنبه على اسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الالهى وقدره فى جملة المحدثات وذلك لان ظهور تلك الادلة كانت بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جليا ظاهرا وهو انه حدثت أمور فلا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضرورى وذلك المؤثر اما الخلق واما غيرهم والاول بديهى البطلان لان كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه انه لا يقدر على ايجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت فى العقل أفادت القطع بانه لا بد من مدبر لهذا العالم فماذا يقول ألا ترى ان أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا فى نهاية البعد لانا بينا ان كل واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه واذا عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لانفسهم وأحبوا تحصيل الجهل

الصلاة والسلام على صحة رسالته لا جرم ألقاهم ما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لان كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم (قالوا) استئناف كما مر غير مرة (آمنا برب هرون وموسى) تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلامهم أيضا هكذا اما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام واما للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فى صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الامر أن مرادهم فرعون (قال) أى فرعون للسحرة (آمنتم له) أى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرئ على الاستفهام التوبيخى (قبل أن آذن لكم) أى من غير أن آذن لكم فى الايمان له كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن اذنه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع (انه) يعنى موسى عليه الصلاة والسلام (لكبيركم) أى فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم (الذى علمكم السحر) فتواطأتم على ما فعلتم أو فعلكم شيأ دون شئ فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين

وألقاها على قومه وأراهم أن أمر الايمان منوط باذنه فلما كان ايمانهم بغير اذنه لم يكن معتدا به وانهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلا عبرة بما أظهره كالاعبرة

بما أظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الايمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال (فلأقطعن) أى فوالله لأقطعن (أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضو العضو فان المبتدئ من المعروض مبتدئ من العارض أيضا وهى مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية أى لأقطعنها مختلفات وتعيين تلك الحال للايذان بتحقيق الامر وايقاعه لا محالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لا لأنها أفظع من غيرها (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى عليها وايثار كلمة فى للدلالة على ابقائهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف فى الظرف المشتمل عليه قالوا وهو أول من صلب وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف (ولتعلمن أينا) يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم واللام مع الايمان فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا اما لقصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لانه لم يكن من التعذيب فى شئ واما لاراءة أن ايمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضا وقيل يريد

وموسى

والشقاوة لانفسهم ما أرى ان عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط فلم يبق الا أن يقال العقل والدليل لا يكفى بل لا بد من مدبر يخلق هذه المقدمات فى القلوب ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة حتى انه متى فعل ذلك حصلت النتائج فى القلوب وذلك يدل على ان الكل بقضائه وقدره فانه لا اعتماد على العقول والقلوب فى مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر الى أحوال نفسه فى مجارى افكاره وانظاره ازداد وثوقا بما ذكرناه أما قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى فاعلم ان التعليمية احتجوا بهذه الآية وقالوا انهم آمنوا بالله الذى عرفوه من قبل هرون وموسى فدل ذلك على ان معرفة الله لا تستفاد الا من الامام وهذا القول ضعيف بل فى قولهم آمنا برب هرون وموسى فائدتان سوى ماذكروه (الفائدة الاولى) وهى ان فرعون ادعى الربوبية فى قوله أنا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم من اله غيرى فلو أنهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لا بغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل عليه انهم قدموا ذكر هرون على موسى لان فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه فى قوله ألم نربك فينا وليدا فالقوم لما احترزوا عن ايهامات فرعون لا جرم قدموا ذكر هرون على موسى قطعا لهذا الخيال (الفائدة الثانية) وهى انهم لما شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لا جرم قالوا رب هرون وموسى لاجل ذلك ثم ان فرعون لما شاهد منهم السجود والاقرار خاف أن يصير ذلك سببا لاقتداء سائر الناس بهم فى الايمان بالله تعالى وبرسوله ففى الحال ألقى شبهة أخرى فى البين فقال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا الكلام مشتمل على شبهتين (احداهما) قوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وتقريره ان الاعتماد على الخاطر الاول غير جائز بل لا بد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر فلما لم تفعلوا شيأ من ذلك بل فى الحال آمنتم له دل ذلك على ان ايمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر (وثانيهما) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر يعنى انكم تلامذته فى السحر فاصطلحتم على ان تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لامره وتفخيما لشأنه ثم بعد ايراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم عن الايمان وتنفيرا لغيرهم عن الاقتداء بهم فى ذلك فقال لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف قرئ لأقطعن ولأصلبن بالتخفيف والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين خلاف الآخر فان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله من خلاف فى محل النصب على الحال أى لأقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال ولأصلبنكم فى جذوع النخل فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشئ الموعى فى وعائه فلذلك قال فى جذوع النخل والذى يقال فى المشهور ان فى بمعنى على فضعيف ثم قال ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى أراد بقوله اينا نفسه لعنه الله لان قوله أينا يشعر بانه أراد نفسه

به رب موسى الذى آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى (أشد عذابا وأبقى)

أى أدوم (قالوا) غير مكترثين بوعيده (لن نؤثرك) لن نختارك بالايمان والاتباع (على ما جاءنا) من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام (من البينات) من المعجزات الظاهرة فان ما ظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها (والذى فطرنا) أى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ما جاءنا وتأخيره لان ما فى ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة وايراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للاشعار بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم ايثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أى وحق الذى فطرنا لا نؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب أيضا لما أن القسم لا يجاب بلن الا على شذوذ وقوله تعالى (فاقض ما أنت قاض) جواب عن تهديده بقوله لأقطعن الخ أى فاصنع ما أنت صانعه أو فاحكم ما أنت حاكم به وقوله تعالى (انما تقضى هذه الحياة الدنيا) مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد

مما سبق من الامر بالقضاء أى انما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب وما لنا

وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له وفيه تصلف باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به لان موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب فى شئ فان قيل ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية بتلك العظمة التى شرحتموها وذكرتم انها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الامر الى ان استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل ان يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى عليه السلام فى قوله أينا أشد عذابا وأبقى قلنا لم لا يجوز أن يقال انه كان فى أشد الخوف فى قلبه الا أنه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره ومن استقرى أحوال أهل العالم علم ان العاجز قد يفعل أمثال هذه الاشياء ومما يدل على صحة ذلك ان كل عاقل يعلم بالضرورة ان عذاب الله أشد من عذاب البشر ثم انه أنكر ذلك وأيضا فقد كان عالما بكذبه فى قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر لانه علم ان موسى عليه السلام ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعرف من سحرته ان أستاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه مع ذلك كان يقول هذه الاشياء فثبت ان سبيله فى كل ذلك ما ذكرناه وقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخره شهداء ۞ قوله تعالى (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) اعلم انه تعالى لما حكى تهديد فرعون لاولئك المؤمنين حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم فى أصول الدين فقالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات وذلك يدل على ان فرعون طلب منهم الرجوع عن الايمان والا فعل بهم ما أوعدهم فقالوا لن نؤثرك جوابا لما قاله وبينوا العلة وهى ان الذى جاءهم بينات وأدلة والذى يذكره فرعون محض الدنيا ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها أما قوله والذى فطرنا ففيه وجهان (الاول) ان التقدير لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات وعلى الذى فطرنا أى وعلى طاعة الذى فطرنا وعلى عبادته (الوجه الثانى) يجوز أن يكون خفضا على القسم واعلم انهم لما علموا انهم متى أصروا على الايمان فعل فرعون ما أوعدهم به فقالوا اقض ما أنت قاض لا على معنى انهم أمروه بذلك لكن أظهروا ان ذلك الوعيد لا يزيلهم البتة عن ايمانهم وعما عرفوه من الحق علما وعملا ثم بينوا ما لاجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا انما تقضى هذه الحياة الدنيا وقرئ تقضى هذه الحياة الدنيا ووجههما ان الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك فى صمت يوم الجمعة صيم يوم الجمعة والمعنى ان

من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التى اقترفناها فيها من الكفر
والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر بما أوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى (وما أكرهتنا عليه من السحر) عطف على خطايانا أى ويغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه الصلاة والسلام باكراهك وحشرك ايانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى خطاياهم اظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الاكراه للايذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى ان رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى اسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل انه أكرههم على المعارضة حيث روى انهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون (والله خير) أى فى حد
ذاته وهو ناظر الى قولهم والذى فطرنا (وأبقى) أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أو خير ثوابا وأبقى عذابا وقوله تعالى (انه) لايموت

قضاءك وحكمك انما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى كيف كانت فانية وانما مطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية والعقل يقتضى تحمل الضرر الفانى المتوصل به الى السعادة الباقية ثم قالوا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ولما كان أقرب خطاياهم عهدا ما اظهروه من السحر قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وذكروا فى ذلك الاكراه وجوها (أحدها) ان الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثا ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لاجل ذلك أى كان فى التعلم أولا والتعليم ثانيا مكرهين قاله ابن عباس (وثانيها) ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بساحر الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه (وثالثها) قال الحسن ان السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين فى الحضور وربما كانوا مكرهين أيضا فى اظهار السحر (ورابعها) قال عمرو بن عبيد دعوة السلطان اكراه وهذا ضعيف لان دعوة السلطان اذا لم يكن معها خوف لم تكن اكراها ثم قالوا والله خير ثوابا لمن أطاعه وأبقى عقابا لمن عصاه وهذا جواب لقوله ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى قال الحسن سبحان الله القوم كفار وهم أشد الكافرين كفرا ثبت فى قلوبهم الايمان فى طرفة عين فلم يتعاظم عندهم ان قالوا اقض ما أنت قاض فى ذات الله تعالى والله ان أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عاما ثم انه يبيع دينه بثمن حقير ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين فى عرصة القيامة فقالوا فى المجرمين انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولا يحيى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الهاء فى قوله انه ضمير الشأن يعنى ان الامر والشأن كذا وكذا (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى القطع على وعيد أصحاب الكبائر قالوا صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فان له جهنم لقوله انه من يأت ربه مجرما وكلمة من فى معرض الشرط تفيد العموم بدليل انه يجوز استثناء كل واحد منها والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام فقال لانسلم ان صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه انه تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فانه قال فى هذه الآية ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات وقال ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وأيضا فانه قال فان له جهنم لايموت فيها ولا يحيى والمؤمن صاحب الكبيرة وان عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف وفى الخبر الصحيح يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان واعلم ان هذه الاعتراضات ضعيفة أما قوله ان الله تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا انما ينفع لو ثبت ان صاحب الكبيرة مؤمن ومذهب المعتزلة انه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط قوله ثانيا انه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال فى حقه ان له جهنم

الى آخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وأبقى جزاء وتحقيق له وابطال لما ادعاه فرعون
وتصديرهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما لان مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع ما فيه من زيادة التقرير فان الضمير لا يفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى (من يأت ربه مجرما) بأن مات على الكفر والمعاصى (فان له جهنم لايموت فيها) فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ما شاهدناه (قد عمل الصالحات) الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لا تذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الاعمال بدليل العقل والنقل (فأولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات (لهم) بسبب ايمانهم وأعمالهم الصالحة (الدرجات العلى) أى المنازل الرفيعة وليس فيه ما يدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى
استتباع الثواب لان ما نيط بالايمان المقرون بالاعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الا فيه

لايموت فيها ولا يحيى قلنا لانسلم فان عذاب جهنم فى غاية الشدة قال تعالى ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وأما الحديث فمقال القرآن متواتر فلا يعارضه خبر الواحد ويمكن أن يقال ثبت فى أصول الفقه انه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد وللخصم أن يجيب فيقول ذلك يفيد الظن فيجوز الرجوع اليه فى العمليات وهذه المسئلة ليست من العمليات بل من الاعتقادات فلا يجوز المصير اليها ههنا فان اعترض انسان آخر وقال أجمعنا على ان هذه الآية مشروطة بنفى التوبة وبأن لا يكون عقابه محبطا بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو ان لا يوجد ما يحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط للعقاب وعندنا ان المجرم الذى لا يوجد فى حقه العفو لابد وأن يدخل جهنم واعلم ان هذا الاعتراض أيضا ضعيف أما شرط نفى التوبة فلا حاجة اليه لانه قال من يأت ربه مجرما أى حال كونه مجرما والتائب لا يصدق عليه انه أتى ربه حال كونه مجرما وأما صاحب الصغيرة فلأنه لا يسمى مجرما لان المجرم اسم للذم فلا يجوز اطلاقه على صاحب الصغيرة بل الاعتراض الصحيح أن نقول عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى وكلامنا فيمن أتى بالايمان والاعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر فان قيل عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة قلنا لا يجوز أن يقال ثواب الايمان يدفع عقاب المعصية فان قالوا لو كان كذلك لوجب ان لا يجوز لعنه واقامة الحد عليه قلنا أما اللعن فغير جائز عندنا وأما اقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما فى حق التائب وقد تكون على سبيل التنكيل قالت المعتزلة قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله فالله تعالى نص على انه يجب عليه اقامة الحد على سبيل التنكيل وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقا للمدح والتعظيم واذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا فدلنا ذلك على ان عقاب الكبيرة أولى بازالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة هذا منتهى كلامهم فى مسئلة الوعيد قلنا حاصل الكلام يرجع الى ان النص الدال على اقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضا للنصوص الدالة على كونه مستحقا للثواب فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس وذلك لان المؤمن كان ينقسم الى السارق وغير السارق فالسارق ينقسم الى المؤمن والى غير المؤمن فلم يكن لاحدهما مزية على الآخر فى العموم والخصوص فاذا تعارضا تساقطا ثم نقول لانسلم ان كلمة من فى افادة العموم قطعية بل ظنية ومسئلتنا قطعية فلا يجوز التعويل على ما ذكرته وتمام الكلام فيه مذكور فى كتاب المحصول فى الاصول (المسئلة الثالثة) تمسكت المجسمة بقوله انه من يأت ربه مجرما فقالوا الجسم انما يأتى ربه لو كان الرب فى المكان وجوابه ان الله تعالى جعل اتيانهم موضع الوعد اتيانا الى الله مجازا كقول ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى سيهدين (المسئلة الرابعة) الجسم الحى لابد وان يبقى اما حيا

أو بصيرا مبينا لخلوه عن الوصفين محال فعناه فى الآية انه يكون فى جهنم بأسوأ حال لايموت موتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ثم ذكر حال المؤمنين فقال ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى واعلم ان قوله قد عمل الصالحات يقتضى أن يكون آتيا بكل الصالحات وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن فينبغى أن يحمل ذلك على اداء الواجبات ثم ذكر ان من أتى بالايمان والاعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ثم فسرها فقال جنات عدن تجرى من تحتها الانهار وفى الآية تنبيه على حصول العفو لاصحاب الكبائر لانه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالايمان والاعمال الصالحة فسائر الدرجات التى هى غير عالية لابد وأن تكون لغيرهم وماهم الا العصاة من أهل الايمان أما قوله وذلك جزاء من تزكى فقال ابن عباس يريد من قال لا اله الا الله وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هى جزاء من تزكى أى تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب ان الدرجات التى لاتكون عالية أن لاتكون جزاء من تزكى فهى لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصى وعفا الله بفضله ورحمته عنهم واعلم انه ليس فى القرآن ان فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك فى الاخبار ﴿قوله تعالى

(ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى)

اعلم ان فى قوله ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى دلالة على ان موسى عليه السلام فى تلك الحالة كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسرى بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله فان قيل ما الحكمة فى أن يسرى بهم ليلا قلنا الوجوه (أحدها) أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم فى ذلك (وثانيها) ليكون عائقا عن طلب فرعون ومتبعيه (وثالثها) ليكون اذا تقارب العسكران لايرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم أما قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ففيه وجهان (الاول) أى فاجعل لهم من قولهم ضرب له فى ماله سهما وضرب اللبن عمله (والثانى) بين لهم طريقا فى البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق فعدى الضرب الى الطريق والحاصل انه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبسا ثم بين تعالى ان جميع أسباب الامن كان حاصلا فى ذلك الطريق (أحدها) انه كان يبسا قرئ يبسا ويبسا بفتح الباء وتسكين الباء فمن قال يبسا ذ جعله بمعنى الطريق ومن قال يبسا بتحريك الباء فاليبس واليابس شئ واحد والمعنى طريقا ايبس ومن قال يبسا بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس والمراد انه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء (وثانيها) قوله لاتخاف دركا ولاتخشى أى لاتخاف أن يدركك فرعون فانى أحول بينك وبينه بالتأخير قال سيبويه قوله لاتخاف رفعه على وجهين (أحدهما) على الحال كقولك غير خائف ولا خاش (والثانى) على الابتداء أى أنت لاتخاف

(جنات عدن) بدل من الدرجات العلى أو بيان وقد مر أن عدنا علم لمعنى الاقامة أو لارض الجنة فقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) حال من الجنات وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الاشارة (وذلك) اشارة الى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم (جزاء من تزكى) أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والاعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة الى بيان اشدية عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذابا وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الاخبار (ولقد أوحينا الى موسى) حكاية اجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ماجرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعدما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الاعراف وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى (أن أسر بعبادى) اما مفسرة لان الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباده تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل وهذا

وهذا قول الفراء قال الاخفش والزجاج المعنى لاتخاف فيه كقوله واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس أى لاتجزى فيه نفس وقرأ حمزة لاتخف وفيه وجهان (أحدهما) انه نهى (والثانى) قال أبو على جعله جواب الشرط على معنى ان تضرب لاتخف وعلى هذه القراءة ذكروا فى قوله ولا تخشى ثلاثة أوجه (أحدها) ان يستأنف كأنه قيل وأنت لاتخشى أى ومن شأنك انك آمن لاتخشى (وثانيها) أن لاتكون الالف هى الالف المنقلبة عن الياء التى هى لام الفعل ولكن زائدة للاطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى وأضلونا السبيلا وتظنون بالله الظنونا (وثالثها) أن يكون مثل قوله * كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا * (وثالثها) قوله ولا تخشى والمعنى انك لاتخاف ادراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء أما قوله فأتبعهم فرعون بجنوده قال أبو مسلم زعم رواة اللغة ان أتبعهم وتبعهم واحد وذلك جائز ويحتمل أن تكون الباء زائدة والمعنى أتبعهم فرعون جنوده كقوله تعالى لاتأخذ بالحق ولا برأسى أسرى بعبده وقال الزجاج قرئ فاتبعهم فرعون وجنوده أى ومعه جنوده وقرئ بجنوده ومعناه الحق جنوده بهم ويجوز أن يكون بمعنى معهم أما قوله فغشيهم فالمعنى علاهم وسترهم وما غشيهم تعظيم للامر أى غشيهم ما لايعلم كنهه الا الله تعالى وقرئ فغشاهم من اليم ما غشيهم وفاعل غشاهم اما الله سبحانه وتعالى أو ما غشيهم أو فرعون لانه الذى ورط جنوده وتسبب فى هلاكهم أما قوله وأضل فرعون قومه وما هدى فاحتج القاضى به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال وأضل فرعون قومه بل وجب أن يقال الله تعالى أضلهم ولان الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقا للكفر لان من ذم غيره بشئ لابد وأن يكون هو غير فاعل لذلك الفعل والا لاستحق ذلك الذم وقوله وما هدى تهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد ولنذكر القصة وما فيها من المباحث قال ابن عباس رضى الله عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام وبنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد اليهم عند موته ان يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يخرجوا بها فتحير القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فأخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمى فقالت أكون معك فى الجنة وذكر ابن عباس أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم الا عنز فذبحوها لهما فقال عليه السلام اذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعل الله يرزقك منه خيرا فلما سمع بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم أتاه مع امرأته فقال أتعرفنى قال نعم عرفتك فقال له احتكم فقال ثمانون ضائنة فأعطاه اياها وقال له أما ان عجوز بنى اسرائيل خير منك وخرج فرعون فى طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام للبحر انفرق

وفعل بهم من فنون الظلم مافعل أى وبالله لقد أوحينا اليه عليه الصلاة والسلام أن أسر بعبادى الذين أرسلتك لانقاذهم من ملكة فرعون أى سر بهم من مصر ليلا (فاضرب لهم) أى فاجعل أو فاتخذ لهم (طريقا فى البحر يبسا) أى يابسا على انه مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرئ يبسا وهو اما مخفف منه أو وصف كصعب أو جمع يابس كصحب وصف به الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الاسباط (لاتخاف دركا) حال من المأمور أى آمنا من ان يدرككم العدو أو صفة أخرى لطريقا والعائد محذوف وقرئ لاتخف جوابا للامر (ولا تخشى) عطف على لاتخاف داخل فى حكمه أى ولا تخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لاتخشى أو عطف عليه والالف للاطلاق كما فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة الى ازاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا انا لمدركون (فأتبعهم فرعون بجنوده) أى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم أى تبعتهم وذلك اذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده انه قرئ فاتبعهم من الافتعال وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم فرعون جنوده أى ساقهم خلفهم وأياما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وايذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام الى الامتثال بالامر أى ففعل ما أمر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فأتبعهم

فأبى فأوحى الله اليه ان اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام ادخلوا فيه فقالوا كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر فاقبل فرعون الى تلك الطرق فقال قومه له ان موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على فرس حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبريل عليه السلام بين يدى فرعون وأبصر الحصان الفرس الحجر فاقتحم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة فى الناس الحقوا الملك حتى اذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو اسرائيل خفقة البحر عليهم فقالوا ما هذا يا موسى قال قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا اليهم فقالوا يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فدعا فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس ان جبريل عليه السلام قال يا محمد لو رأيتنى وانا ادس فرعون فى الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله فغشيهم من اليم ما غشيهم وفى القصة ابحاث (البحث الاول) روى فى الاخبار ان موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقا يابسا يتهيأ طروقه وبقى الماء قائما بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل فأخذ كل سبط من بنى اسرائيل فى طريق من هذه الطرق ومنهم من قال بل حصل طريق واحد وحجة القول الاول الاخبار ومن القرآن قوله تعالى فصار كل فرق كالطود العظيم وذلك لا يحصل الا اذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم وحجة القول الثانى ظاهر قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا وذلك يتناول الطريق الواحد وان أمكن حمله على الطرق نظرا الى الجنس (البحث الثانى) روى ان بنى اسرائيل بعد أن أظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا نريد أن يرى بعضنا بعضا وهذا كالبعيد وذلك ان القوم لما أبصروا مجىء فرعون صاروا فى نهاية الخوف والخائف اذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتعنت البارد (البحث الثالث) ان فرعون كان عاقلا بل كان فى نهاية الدهاء فكيف اختار القاء نفسه الى التهلكة فانه كان يعلم من نفسه ان انفلاق البحر ليس بأمره فعند هذا ذكروا وجهين (أحدهما) أن جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون وللقائل أن يقول هذا بعيد لانه يبعد أن يكون خوض الملك فى أمثال هذه المواضع مقدما على خوض جميع العسكر وما ذكروه انما يتم اذا كان الامر كذلك وأيضا فلو كان الامر على ما قالوه لكان فرعون فى ذلك الدخول كالمجبور وذلك مما يزيده خوفا ويحمله على الامساك فى أن لا يدخل وأيضا فأى حاجة لجبريل عليه السلام الى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذه مع قومه ويرميه فى الماء ابتداء بل الاولى أن يقال انه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وما غرقوا فغلب على ظنه السلامة فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى (البحث الرابع) ان الذى نقل عن جبريل

فرعون بجنوده برا وبحرا روى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فأخبر فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة الف فقص أثرهم فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الاسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده (فغشيهم من اليم ما غشيهم) أى علاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الامر الهائل الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ما سمعت قصته وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود الفهم والوصف لا سماع قصته وقرئ فغشاهم من اليم ما غشاهم أى غطاهم ما غطاهم والفاعل هو الله عز وعلا أو ما غشاهم وقيل فرعون لانه الذى ورطهم للهلكة ويأباه الاظهار فى قوله تعالى (وأضل فرعون قومه) أى سلك بهم مسلكا أداهم الى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معا حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الاخروى وقوله تعالى (وما هدى) أى ما أرشدهم قط الى طريق موصل الى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية تقرير لاضلاله وتأكيد له اذ رب مضل قد يرشد من يضله الى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد فان نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك انما يتصور فى حقه

عليه السلام انه كان يدسه فى الماء والطين خوفا من أن يؤمن فبعيد لان المنع من الايمان لا يليق بالملائكة والانبياء عليهم السلام (البحث الخامس) الذى روى ان موسى عليه السلام كلم البحر وقال له انفلق لى لاعبر عليك فقال البحر لا يعبر على رجل عاص فهو غير ممتنع على أصولنا لان عندنا البنية ليست شرطا للحياة وعند المعتزلة ان ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال والله أعلم ۞ قوله تعالى (يا بنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) اعلم انه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكرهم اياها ولا شك ان ازالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على ايصال المنفعة ولا شك أن ايصال المنفعة الدينية أعظم فى كونه نعمة من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ الله تعالى بقوله أنجيناكم من عدوكم وهو اشارة الى ازالة الضرر فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والاخراج والاتعاب فى الاعمال ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهى قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن ووجه المنفعة فيه انه أنزل فى ذلك الوقت عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهى قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم زجرهم عن العصيان بقوله ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ثم بين ان من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله بقوله وانى لغفار لمن تاب وهذا بيان المقصود من الآية ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى قد أنجيتكم وواعدتكم الى قوله من طيبات ما رزقتكم كلها بالتاء الا قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى فانها بالنون وقرأ الباقون كلها بالنون وقرأ نافع وعاصم وواعدناكم وقرأ حمزة والكسائى وواعدتكم (المسئلة الثانية) قال الكلبى لما جاوز موسى عليه السلام ببنى اسرائيل البحر قالوا له أليس وعدتنا ان تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والاحكام قال بلى ثم تعجل موسى الى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم ان يأتيهم الى أربعين ليلة من يوم انطلق وانما قال وواعدناكم لانه انما واعد موسى أن يؤتيه التوراة لاجلهم وقال مقاتل انما قال واعدناكم لان الخطاب له وللسبعين المختارة والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال المفسرون ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد ان طور سيناء عن يمين من انطلق من مصر الى الشام وقرئ الايمن بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب وانتفاع القوم بذلك اما لان الله تعالى أنزل التوراة عليهم وفيها شرح دينهم واما لان الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم (المسئلة الرابعة) قوله كلوا ليس أمر ايجاب بل أمر اباحة كقوله واذا حللتم فاصطادوا (المسئلة الخامسة) فى الطيبات قولان (أحدهما) اللذائذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة (والثانى) وهو قول الكلبى ومقاتل الحلال لانه شئ أنزله الله تعالى اليهم ولم تمسه يد الآدميين ويجوز الجمع بين الوجهين لان بين المعنيين معنى مشتركا

بطريق التهكم وحمل الاضلال والهداية على ما يختص بالدينى منهما يأباه مقام بيان سوقه بجنوده الى مساق الهلاك الدنيوى وجعلهما عبارة عن الاضلال فى البحر والانجاء منه مما لا يقبله العقل السليم (يا بنى اسرائيل) حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون وقومه وانجائهم منهم لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو انشاء خطاب للذين كانوا منهم فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام على معنى انه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبعا ويرده ما سيأتى من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أى وقلنا يا بنى اسرائيل (قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وقرئ نجيناكم ونجيتكم (وواعدناكم جانب الطور الايمن) بالنصب على انه صفة للمضاف وقرئ بالجر للجوار أى واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان جانبه الايمن نظرا الى السالك من مصر الى الشام أى اتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وانزال التوراة عليه ونسبت المواعدة اليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا الى ملابستها اياهم وسراية منفعتها اليهم وايفاء لمقام الامتنان حقه كما فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق

وتمام القول فى هذه القصة تقدّم فى سورة البقرة (المسئلة السادسة) فى قوله تعالى ولا تطغوا فيه وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تطغوا أى لا يظلم بعضكم بعضا فيأخذه من صاحبه (وثانيها) قال مقاتل والضحاك لا تظلموا فيه أنفسكم بأن تجاوزوا حد الاباحة (وثالثها) قال الكلبى لا تكفروا النعمة أى لا تستعينوا بنعمتى على مخالفتى ولا تعرضوا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال الى الحرام (المسئلة السابعة) قرأ الاعمش والكسائى فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الاعمش عن أصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر فى الكلمتين اما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى حتى يبلغ الهدى محله والمضموم فى معنى النزول وقوله فقد هوى أى شقى وقيل فقد وقع فى الهاوية يقال هوى يهوى هويا اذا سقط من علو الى سفل (المسئلة الثامنة) اعلم ان الله تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والامر أما انه وصف نفسه بكونه غافرا فقوله غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله وربك الغفور ذو الرحمة وأما كونه غفارا فقوله وانى لغفار لمن تاب وأما الغفران فقوله غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله وان ربك لذو مغفرة للناس واما صيغة الماضى فقوله فى حق داود عليه السلام فغفرنا له ذلك وأما صيغة المستقبل فقوله ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله وأما لفظ الاستغفار فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وفى حق نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا وفى الملائكة ويستغفرون لمن فى الارض واعلم ان الانبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة أما آدم عليه السلام فقال وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وأما نوح عليه السلام فقال والا تغفر لى وترحمنى وأما ابراهيم عليه السلام فقال والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين وطلبها لابيه سأستغفر لك ربى وأما يوسف عليه السلام فقال فى اخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وأما موسى عليه السلام ففى قصة القبطى رب اغفر لى ولاخى وأما داود عليه السلام فاستغفر ربه وأما سليمان عليه السلام رب اغفر لى وهب لى ملكا وأما عيسى عليه السلام وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وأما الامة فقوله والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا واعلم ان بسط الكلام ههنا أن نبين أولا حقيقة المغفرة ثم نتكلم فى كونه تعالى غافرا وغفورا وغفارا ثم نتكلم فى أن مغفرته عامة ثم نبين ان مغفرته فى حق الانبياء عليهم السلام كيف تعقل مع انه لا ذنب لهم ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا فى اثبات العفو وتقريره ان الذنب اما أن يكون صغيرا أو كبيرا بعد التوبة أو قبل التوبة والقسمان الاولان يقبح من الله عذابهما ويجب عليه التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفرانا

والتصوير الى المخاطبين مع ان المخلوق المصور بالذات هو ادم عليه الصلاة والسلام وقرئ واعدتكم ووعدناكم (ونزلنا عليكم المن والسلوى) أى الترنجبين والسمانى حيث كان ينزل عليهم المن وهم فى التيه مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه كامر مرارا (كلوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان اباحة ما ذكر لهم واتماما للنعمة عليهم (من طيبات ما رزقناكم) أى من لذائذه أو حلالاته وقرئ رزقتكم وفى البدء بنعمة الانجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم ولطف الترتيب ما لا يخفى (ولا تطغوا فيه) أى فيما رزقناكم بالاخلال بشكره والتعدى لما حدّ لكم فيه كالسرف والبطر والمنع من المستحق (فيحل عليكم غضبى) جواب للنهى أى فتلزمكم عقوبتى وتجب لكم من حل الدين اذا وجب اداؤه (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى تردّى وهلك وقيل وقع فى الهاوية وقرئ فيحل بضم الحاء من حل يحل اذا نزل (وانى لغفار لمن تاب) من الشرك والمعاصى التى من جملتها الطغيان فيما ذكر (وآمن) بما يجب الايمان به (وعمل صالحا) أى عملا صالحا مستقيما عند الشرع والعقل وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والايمان وقوله تعالى (ثم اهتدى) أى استقام على الهدى اشارة الى أن من لم يستمر عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخى الرتبى

فتعين أن لا يتحقق الغفران الا فى القسم الثالث وهو المطلوب فان قيل هذا يناقض صريح الآية لانه أثبت الغفران فى حق من استجمع أمورا أربعة التوبة والايمان والعمل الصالح والاهتداء قلنا ان من تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائبا ومؤمنا وآتيا بالعمل الصالح ومهتديا ومع ذلك يكون مذنبا فحينئذ يستقيم كلامنا وههنا نكتة وهى ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام فالظالم فنهم ظالم لنفسه والظلوم انه كان ظلوما جهولا والظلام اذا كثر ذلك منه ولله فى مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى يقول ان كنت ظالما فانا غافر وان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت ظلاما فانا غفار وانى لغفار لمن تاب وآمن (المسئلة التاسعة) كثر اختلاف المفسرين فى قوله تعالى ثم اهتدى وسبب ذلك ان من تاب وآمن وعمل صالحا فلا بد وأن يكون مهتديا فما معنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الاشياء والوجوه الملخصة فيه ثلاثة (أحدها) المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة اذ المهتدى فى الحال لا يكفيه ذلك فى الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه فى المستقبل ويموت عليه ويؤكده قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وكلمة ثم للتراخى فى هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال الاتيان بالتوبة والايمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة فى ذلك انما الصعوبة فى المداومة على ذلك والاستمرار عليه (وثانيها) المراد من قوله ثم اهتدى أى علم ان ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقى مستعينا بالله فى ادامة ذلك من غير تقصير عن ابن عباس (وثالثها) المراد من الايمان الاعتقاد المبنى على الدليل والعمل الصالح اشارة الى أعمال الجوارح بقى بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الاخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة فى لسان الصوفية ثم انكشاف حقائق الاشياء له وهو المسمى بالحقيقة فى لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله ثم اهتدى (المسئلة العاشرة) منهم من قال تجب التوبة عن الكفر أولا ثم الاتيان بالايمان ثانيا واحتج عليه بهذه الآية فانه تعالى قدم التوبة على الايمان واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان العمل الصالح غير داخل فى الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه ﴿ قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على اثرى وعجلت اليك رب لترضى) اعلم ان فى قوله وما أعجلك عن قومك ياموسى دلالة على انه قد تقدم قومه فى المسير الى المكان ويجب أن يكون المراد ما نبه عليه فى قوله تعالى وواعدناكم جانب الطور الايمن فى هذه السورة وفى سائر السور كقوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة يريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله وما أعجلك استفهام وهو على الله محال الجواب انه انكار فى صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه (السؤال الثانى) ان موسى عليه السلام لا يخلو اما أن يقال انه كان ممنوعا عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعا عنه فان كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية

(وما أعجلك عن قومك ياموسى) حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعدة المذكورة أى وقلنا له أى شئ أعجلك منفردا عن قومك وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لانكار انفراده عنهم لما فى ذلك بحسب الظاهر من مخايل اغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورا باستصحابهم واحضارهم معه لا لانكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للعزم اللائق بأولى العزم ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفى الانفراد المنافى للاستصحاب والمعية حيث (قال هم أولاء على اثرى) يعنى انهم معى وانما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت أنها لا تخل بالمعية ولا تقدح فى الاستصحاب فان ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلا وبعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام أن تقدمه ذلك ليس لامر منكر ذكر أنه لامر مرضى حيث قال (وعجلت اليك رب لترضى) عنى بمسارعتى الى الامتثال بأمرك واعتنائى بالوفاء بعهدك وزيادة رب لمزيد الضراعة والابتهال رغبة فى قبول العذر (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر فى وروده على صيغة الغائب لا انه التفات من التكلم الى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم

من الانبياء وان قلنا انه ما كان ممنوعا كان ذلك الانكار غير جائز من الله تعالى (والجواب) لعله عليه السلام ما وجد نصا فى ذلك الا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ فى ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب (السؤال الثالث) قال وعجلت والعجلة مذمومة (والجواب) انها ممدوحة فى الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة (السؤال الرابع) قوله لترضى يدل على انه عليه السلام انما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين (أحدهما) انه يلزم تجدد صفة لله تعالى والآخر أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال انه تعالى ما كان راضيا عن موسى لان تحصيل الحاصل محال ولما لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام (الجواب) المراد تحصيل دوام الرضا كما ان قوله ثم اهتدى المراد دوام الاهتداء (السؤال الخامس) قوله وعجلت اليك يدل على انه ذهب الى الميعاد قبل الوقت الذى عينه الله تعالى له والا لم يكن ذلك تعجيلا ثم ظن ان مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلا عن كليم الله تعالى (والجواب) ما ذكرنا ان ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه (السؤال السادس) قوله اليك يقتضى كون الله فى الجهة لان الى لانتهاء الغاية (الجواب) توافقنا على ان الله تعالى لم يكن فى الجبل فالمراد الى مكان وعدك (السؤال السابع) ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلبت زيادة رضاك والشوق الى كلامك وأما قوله هم أولاء على أثرى فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين (الاول) ان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين (أحدهما) انكار نفس العجلة (والثانى) السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الامرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثانى فقال لم يوجد منى الا تقدم يسير لا يحتفل به فى العادة وليس بينى وبين من سبقته الا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال وعجلت اليك رب لترضى (الثانى) انه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام واعلم ان فى قوله وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على انه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين واختلفوا فى المراد بالقوم فقال بعضهم هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه الى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا الى ربه وقال آخرون القوم جملة بنى اسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هرون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له الى أن يرجع هو مع السبعين فقال هم أولاء على أثرى يعنى بالقرب منى ينتظرونى وعن أبى عمرو ويعقوب اثرى بالكسر وعن عيسى بن عمر أثرى بالضم وعنه أيضا أولى بالقصر والاثر أفصح من الاثر وأما الاثر فمسموع فى فرند السيف وهو بمعنى الاثر غريب ۞ قوله تعالى (قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد

كأنه قيل من جهة السامعين فماذا قال له ربه حينئذ فقيل قال (فانا قد فتنا قومك من بعدك) أى ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هرون عليه الصلاة والسلام وكانوا ستمائة ألف ما نجا منهم من عبادة العجل الا اثنا عشر ألفا والفاء لترتيب الاخبار بما ذكر من الابتلاء على اخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن لا لان الاخبار بها سبب موجب للاخبار به بل لما بينهما من المناسبة المصححة للانتقال من أحدهما الى الآخر من حيث ان مدار الابتداء المذكور عجلة القوم فانه روى انهم اقاموا على ما وصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا أثر (وأضلهم السامرى) حيث كان هو المدبر فى الفتنة فقال لهم انما أخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ما كان فاخباره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام اما باعتبار تحققها فى علمه تعالى ومشيئته واما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما فى قوله تعالى ونادى أصحاب الجنة ونظائره أو لان السامرى كان قد عزم على ايقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مبانيها

ام

أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى أفلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) اعلم انه تعالى لما قال لموسى وما أعجلك عن قومك وقال موسى فى جوابه وعجلت اليك رب لترضى عرفه الله تعالى ما حدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان يبعد أن يحدث لو كان معهم فقال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لا يجوز أن يكون المراد ان الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين (الوجه الاول) الدلائل العقلية الدالة على انه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك (الثانى) انه قال وأضلهم السامرى ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامرى فيه أثر وكان يبطل قوله وأضلهم السامرى وأيضا فلان موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه ان الله خلقه فينا لا ما ذكرت فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضا فقال أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله فتنا معنى آخر وذلك لان الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان يقال فتنت الذهب بالنار اذا امتحنته بالنار لكى تميز الجيد من الردىء فههنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لان السامرى لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بان يستدلوا بحدوث جملة العالم والاجسام على ان لها الها ليس بجسم وحينئذ يعرفون ان العجل لا يصلح للالهية فكان هذا التعبد تشديدا فى التكليف فكان فتنة والتشديد فى التكليف موجود قال تعالى أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون هذا تمام كلام المعتزلة قال الاصحاب ليس فى ظهور صوت عن عجل متخذ من الذهب شبهة أعظم مما فى الشمس والقمر والدليل الذى ينفى كون الشمس والقمر الها أولى بأن ينفى كون ذلك العجل الها فحينئذ لا يكون حدوث ذلك العجل تشديدا فى التكليف فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم قولهم أضاف الاضلال الى السامرى قلنا أليس ان جميع المسببات العادية تضاف الى أسبابها فى الظاهر وان كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وأيضا قرئ وأضلهم السامرى أى وأشدهم ضلالا السامرى وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ثم الذى يحسم مادة الشغب التمسك بفصل الداعى على ما سبق تقريره فى هذا الكتاب مرارا كثيرة (المسئلة الثانية) المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هرون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفا (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية سعيد بن جبير كان السامرى علجا من أهل كرمان وقع الى مصر وكان من

وتمهيد مباديها فكانت الفتنة واقعة عند الاخبار بها وقرئ واضلهم السامرى على صيغة التفضيل اى اشدهم ضلالا لانه ضال ومضل والسامرى منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا قد أظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى الى قومه) عند رجوعه المعهود أى بعد ما استوفى الاربعين وأخذ التوراة لا عقيب الاخبار بالفتنة فسببية ما قبل الفاء لما بعدها انما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى (غضبان أسفا) لا باعتبار نفسه وان كانت داخلة عليه حقيقة فان كون الرجوع بعد تمام الاربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم الى كونه عند الاخبار بالفتنة كما اذا قلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فان أحدا لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم اثر الدعاء وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع والاسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال) استئناف مبنى على سؤال ناشئ من حكاية رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال (يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) بان يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى والهمزة لانكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أى وعدكم بحيث لا سبيل لكم الى

أوعدكم ذلك فطال زمان الانجاز فأخطأتم بسببه (أم أردتم أن يحل) أى يجب (عليكم غضب) شديد لا يقادر قدره كائن (من ربكم) أى من مالك أمركم على الاطلاق (فأخلفتم موعدى) أى وعدكم اياى بالثبات على ما أمرتكم به الى أن أرجع من الميقات على اضافة المصدر الى مفعوله للقصد الى زيادة تقبيح حالهم فان اخلافهم الوعد الجارى فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث اضافته اليه عليه السلام أشنع منه من حيث اضافته اليهم والفاء لترتيب ما بعدها على كل واحد من شقى الترديد على سبيل البدل كأنه قيل أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا وأما جعل الموعد مضافا الى فاعله وحمل اخلافه على معنى وجدان الخلف فيه أى فوجدتم الخلف فى موعدى لكم بالعود بعد الاربعين فمما لا يساعده السباق ولا السياق أصلا (قالوا ما أخلفنا موعدك) أى وعدنا اياك الثبات على ما أمرتنا به وايثاره على أن يقال موعدنا على اضافة المصدر الى فاعله لما مر آنفا (بملكنا) أى بأن ملكنا أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامرى ما سوله مع مساعدة بعض الاحوال لما أخلفناه وقرئ بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات فى مصدر ملكت الشئ

قوم يعبدون البقر والذى عليه الاكثرون انه كان من عظماء بنى اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس بل كان رجلا من القبط جارا لموسى عليه السلام وقد آمن به (المسئلة الرابعة) روى فى القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه فانا قد فتنا قومك من بعدك من وجهين (الاول) انه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته (الثانى) ان السامرى شرع فى تدبير الامر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على اضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قدر الفتنة موجودة (المسئلة الخامسة) انما رجع موسى عليه السلام بعد ما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة (المسئلة السادسة) ذكروا فى الاسف وجوها (أحدها) انه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لا يلزم التكرار لان قوله غضبان يفيد أصل الغضب وقوله أسفا يفيد كماله (وثانيها) قال الاكثرون حزنا وجزعا يقال أسف يأسف أسفا اذا حزن فهو آسف (وثالثها) قال قوم الآسف المغتاظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب ارادة الاضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح الا على الاجسام كالضحك والبكاء ثم ان الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه عاتبهم بعد رجوعه اليهم قالت المعتزلة وهذا يدل على انه ليس المراد من قوله فانا قد فتنا قومك من بعدك أنه تعالى خلق الكفر فيهم والا لما عاتبهم بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الاصحاب وقد فعل ذلك بقوله ان هى الا فتنتك ومجموع تلك المعاتبات أمور (أحدها) قوله يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا وفيه سؤالان (السؤال الاول) قوله ألم يعدكم ربكم هذا الكلام انما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين باله آخر سوى العجل أما لما اعتقدوا أنه لا اله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم انهم قالوا هذا الهكم واله موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام (الجواب) انهم كانوا معترفين بالاله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذى يذكره عبدة الاصنام (السؤال الثانى) ما المراد بذلك الوعد الحسن (الجواب) ذكروا وجوها (أحدها) ان المراد ما وعدهم من انزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرائع والاحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس وهو الذى ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن (وثانيها) ان الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات (وثالثها) الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى الى قوله ثم اهتدى والدليل عليه قوله بعد ذلك أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فكأنه قال أفنسيتم ذلك الذى قال الله لكم ولا تطغوا فيه (ورابعها) الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعدا حسنا فى منافع الدين وأن يكون

حملنا احمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها اليهم عند الخروج مخافة أن يقفوا على أمرهم وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فأخذوها ولعل تسميتهم لها أوزارا لانها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحل حينئذ (فقذفناها) أى فى النار رجاء الخلاص عن ذنبها (فكذلك) أى مثل ذلك القذف (ألقى السامرى) أى ما كان معه منها وقد كان أراهم انه أيضا يلقى ما كان معه من الحلى فقالوا ما قالوا على زعمهم وانما كان الذى ألقاه التربة التى أخذها من أثر الرسول كما سيأتى روى أنه قال لهم انما تأخر موسى عنكم لما معكم من الاوزار فالرأى أن نحفر حفيرة ونسجر فيها نارا ونقذف فيها كل ما معنا ففعلوا (فأخرج) أى السامرى (لهم) للقائلين (عجلا) من تلك الحلى المذابة وتأخيره مع كونه مفعولا صريحا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم فان قوله تعالى (جسدا) أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح له بدل منه وقوله تعالى (له خوار) أى صوت عجل نعت له (فقالوا) أى السامرى ومن

فى منافع الدنيا أما منافع الدين فهو الوعد بانزال الكتاب الشريف الهادى الى الشرائع والاحكام والوعد بحصول الثواب العظيم فى الآخرة وأما منافع الدنيا فهو انه تعالى قبل اهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم وقد فعل ذلك ثم قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فالمراد أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم المعصية واعلم ان طول العهد يحتمل أمورا (أحدها) أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من انجائه اياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة فى أوائل سورة البقرة وهذا كقوله فطال عليهم الامد فقست قلوبهم (وثانيها) يروى انهم عرفوا ان الاجل أربعون ليلة فجعلوا كل يوم بازاء ليلة وردوه الى عشرين قال القاضى هذا ركيك لان ذلك لا يكاد يشتبه على أحد (وثالثها) ان موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليلة فلما زاد الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد وأما قوله أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فهذا لا يمكن اجراؤه على الظاهر لان أحدا لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واحتج العلماء بذلك على ان الغضب من صفات الافعال لا من صفات الذات لان صفة ذات الله تعالى لا تنزل فى شئ من الاجسام أما قوله فأخلفتم موعدى فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجئ على أثره (والثانى) ما وعدوه من الاقامة على دينه الى أن يرجع اليهم من الطور فعند هذا قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا وفى ان قائل هذا الجواب من هو وجهان (الاول) انهم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا انا ما أخلفنا موعدك بملكنا أى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان الفاعل لذلك آباءهم لاهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة (الوجه الثانى) ان هذا قول عبدة العجل والمراد ان غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب ومخلف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة العجل الذى يعرف فسادها بالضرورة ثم ان مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده اليهم قلنا هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس واعلم ان فى بملكنا ثلاث قراآت قرأ حمزة والكسائى بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر اما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل وأما الضم فهو السلطان ثم ان القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم قرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن

افتتن به أول ماراه (هذا الهكم واله موسى فنسى) أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى

فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا الى زيادة تقريرها ثم ترتيب الانكار عليها الامن جهة القائلين والالقيل فاخرج لنا وا لحمل على أن عدولهم الى ضمير الغيبة لبيان أن الاخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع انه مخل باعتذارهم فان مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم بتسويله مع كون الاخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفته للمعتذرين فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأماماقيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وان نسبة الاخلاف الى أنفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ماوجد الاختلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى مافعل فأخرج لهم ماأخرج وقال ماقال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة فيقضى بفساده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (أفلا يرون) الخ انكار وتقبيح من جهته تعالى لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لايشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذه الها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام

عام حملنا مشددة فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من القوم ومن قرأ بالتشديد ففيه وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام حملهم على ذلك أى أمرهم باستعارة الحلى والخروج بها فكأنه ألزمهم ذلك (وثانيها) جعلنا كالضامن لها الى أن نؤديها الى حيث يأمرنا الله (وثالثها) ان الله تعالى حملهم ذلك على معنى انه ألزمهم فيه حكم المغنم أما الاوزار فهى الاثقال ومن ذلك سمى الذنب وزرا لانه ثقل ثم فيه احتمالات (أحدها) انه لكثرتها كانت أثقالا (وثانيها) ان المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالا (وثالثها) المراد بالاوزار الآثام والمعنى حملنا آثاما روى فى الخبر ان هرون عليه السلام قال انها نجسة فتطهروا منها وقال السامرى ان موسى عليه السلام انما احتبس عقوبة بالحلى فيجوز أن يكونوا أرادوا هذا القول وقد يقول الانسان للشئ الذى يلزمه رده هذا كله اثم وذنب (ورابعها) ان ذلك الحلى كان القبط يتزينون به فى مجامع لهم يجرى فيها الكفر لاجرم انها وصفت بكونها أوزارا كما يقال مثله فى آلات المعاصى أما قوله فقذفناها فذكروا فيه وجوها فى انهم أين قذفوها (الوجه الاول) قذفوها فى حفرة كان هرون عليه السلام أمرهم بجمع الحلى فيها انتظار العود موسى عليه السلام (والوجه الثانى) قذفوها فى موضع أمرهم السامرى بذلك (والوجه الثالث) فى موضع جمع فيه النار ثم قالوا فكذلك ألقى السامرى أى فعل السامرى مثل مافعلنا أما قوله فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فاختلفوا فى انه هل كان ذلك الجسد حيا أم لا فالقول الاول لا لانه لايجوز اظهار خرق العادة على يد الضال بل السامرى صور صورة على شكل العجل وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل (والقول الثانى) انه صار حيا وخار كما يخور العجل واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) قوله فقبضت قبضة من أثر الرسول ولو لم يصر حيا لما بقى لهذا الكلام فائدة (وثانيها) انه تعالى سماه عجلا والعجل حقيقة فى الحيوان وسماه جسدا وهو انما يتناول الحى (وثالثها) أثبت له الخوار وأجابوا عن حجة الاولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعى الالهية جائز لانه لايحصل الالتباس وههنا كذلك فوجب أن لايمتنع وروى عكرمة عن ابن عباس ان هرون عليه السلام مر بالسامرى وهو يصنع العجل فقال ماتصنع فقال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى فقال اللهم أعطه ماسأل فلما مضى هرون قال السامرى اللهم انى أسألك أن يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون ذلك معجزا للنبى أما قوله فقالوا هذا الهكم واله موسى ففيه اشكال وهو ان القوم ان كانوا فى الجهالة بحيث اعتقدوا ان ذلك العجل المعمول فى تلك الساعة هو الخالق للسموات والارض فهم مجانين وليسوا بمكلفين ولان مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وان لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا هذا الهكم واله موسى وجوابه لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الاله أو حلول صفة من صفاته فى ذلك الجسم وان كان ذلك أيضا فى غاية البعد لان ظهور

١

اى ألا يتفكرون فلا يعلمون (أن لا يرجع اليهم قولا) اى انه لا يرجع اليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه اله

وقرئ يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فان أن الناصبة لاتقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه اليهم قولا من الاقوال وتعليق الابصار بما ذكر مع كونه أمرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) عطف على لا يرجع داخل معه فى حيز الرؤية أى أفلا يرون انه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا أو لا يقدر على أن يضرهم ان لم يعبدوه أو ينفعهم ان عبدوه (ولقد قال لهم هرون من قبل) جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول اثر بيان مكابرتهم لقضية العقول اى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الامر من قبل رجوع موسى عليه السلام اليهم وخطابه اياهم بما ذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام أول ماأبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع الى تحذيرهم وقال لهم (ياقوم انما فتنتم به) أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم به على توجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالقياس الى مقابله الذى يدعيه القوم لا الى قيده المذكور

الخوار لا يناسب الالهية ولكن لعل القوم كانوا فى نهاية البلادة والجلافة وأما قوله فنسى ففيه وجوه (الاول) انه كلام الله تعالى كأنه أخبر عن السامرى انه نسى الاستدلال على حدوث الاجسام وان الاله لا يحل فى شئ ولا يحل فيه شئ ثم انه سبحانه بين المعنى الذى يجب الاستدلال به وهو قوله أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أى لم يخطر ببالهم ان من لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع لا يكون الها ولا يكون للاله تعلق به فى الحالية والمحلية (الوجه الثانى) ان هذا قول السامرى وصف به موسى عليه السلام والمعنى أن هذا الهكم واله موسى فنسى موسى ان هذا هو الاله فذهب يطلبه فى موضع آخر وهو قول الاكثرين (الوجه الثالث) فنسى وقت الموعد فى الرجوع أما قوله أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فهذا استدلال على عدم الهيتها بانها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر وهذا يدل على ان الاله لابد وأن يكون موصوفا بهذه الصفات وهو كقوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وان موسى عليه السلام فى اكثر الامر لا يعول الا على دلائل ابراهيم عليه السلام بقى ههنا بحثان (البحث الاول) قال الزجاج الاختيار أن لا يرجع بالرفع بمعنى أنه لا يرجع وهذا كقوله وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا بمعنى أنه لا تكون وقرئ بالنصب أيضا على أن أن هذه هى الناصبة للافعال (البحث الثانى) هذه الآية تدل على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى وقال فى آية أخرى ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا وهو قريب فى المعنى من قوله فى ذم عبدة الاصنام ألهم أرجل يمشون بها وليس المقصود من هذا ان العجل لو كان يكلمهم لكان الها لان الشئ يجوز أن يكون مشروطا بشروط كثيرة ففوات واحد منها يقتضى فوات المشروط ولكن حصول الواحد فيها لا يقتضى حصول المشروط (الثالث) قال بعض اليهود لعلى عليه السلام مادفنتم نبيكم حتى اختلفتم فقال انما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه وأنتم ماجفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا الها كما لهم آلهة ﴿قوله تعالى (ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) اعلم ان هرون عليه السلام انما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلانه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأمورا من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى عليه السلام وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون انى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار فقال انهم لم يغضبوا لغضبى وقال ثابت البنانى قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله فى شئ ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن الشعبى

عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وقال أبو على الحسن الغورى كنت فى بعض المواضع فرأيت زورقا فيها دنان مكتوب عليها لطف فقلت للملاح ايش هذا فقال أنت صوفى فضولى وهذه خمور المعتضد فقلت له اعطنى ذلك المدرى فقال لغلامه اعطه حتى نبصر ايش يعمل فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت أكسر دنا دنا والملاح يصيح حتى بقى واحد فامسكت فجاء صاحب السفينة فأخذنى وحملنى الى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره على قال من أنت قلت المحتسب قال من ولاك الحسبة قلت الذى ولاك الخلافة قال لم كسرت هذه الدنان قلت شفقة عليك اذ الم تصل يدى الى دفع مكروه عنك قال فلم أبقيت هذا الواحد قلت انى لما كسرت هذه الدنان فانى انما كسرتها حمية فى دين الله فلما وصلت الى هذا اعجبت فامسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته فقال اخرج ياشيخ فقد وليتك الحسبة فقلت كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطيا وأما الشفقة على المسلمين فلان الانسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقا على أبناء جنسه وأى شفقة أعظم من أن يرى جمعا يتهافتون على النار فيمنعهم منها وعن أبى سعيد الخدرى عنه عليه السلام يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فانى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها فى القاسية قلوبهم فان فيهم غضبى وعن عبد الله بن أبى أوفى قال خرجت أريد النبى صلى الله عليه وسلم فاذا أبو بكر وعمر معه فجاء صغير فبكى فقال لعمر ضم الصبى اليك فانه ضال فأخذه عمر فاذا امرأة تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادرك المرأة فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكى والصبى فى حجرها فالتفتت فرأت النبى صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يارسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذى نفسى بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها وروى انه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه اذ نظر الى شاب على باب المسجد فقال من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا فسمع الشاب ذلك فولى فقال الهى وسيدى هذا رسولك يشهد على بأنى من أهل النار وأنا أعلم انه صادق فاذا كان الامر كذلك فأسألك أن تجعلنى فداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتشعل النار بى حتى تبر يمينه ولا تشعل النار باحد آخر فهبط جبريل عليه السلام وقال يا محمد بشر الشاب بأنى قد انقذته من النار بتصديقه لك وفدائه أمتك بنفسه وشفقته على الخلق اذا ثبت ذلك فاعلم ان الامر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب ثم ان هرون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال ياقوم انما فتنتم به الآية وههنا دقيقة وهى ان الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلى أنت منى بمنزلة هرون من موسى ثم ان هرون مامنعته التقية فى مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح

بالحق

وقوله تعالى (وان ربكم الرحمن) بكسر ان عطفا على انما ارشاد لهم الى الحق اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق كما أن التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى ان ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء فى قوله تعالى (فاتبعونى) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين أى اذا كان الامر كذلك فاتبعونى فى الثبات على الدين (وأطيعوا أمرى) هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه (قالوا) فى جواب هرون عليه السلام (لن نبرح عليه) على العجل وعبادته (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) جعلوا رجوعه عليه السلام اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك انه عليه السلام لا يرجع بشئ مبين نعو بلا على مقالة السامرى روى انهم لما قالوه اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى

بالحق ودعا الناس الى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطا لكان يجب على على عليه السلام أن يفعل ما فعله هرون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول فاتبعونى وأطيعوا أمرى فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الامة كانوا على الصواب واعلم أن هرون عليه السلام سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله تعالى ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى معرفة النبوة بقوله فاتبعونى ثم دعاهم الى الشرائع رابعا بقوله وأطيعوا أمرى وهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد قبل كل شئ من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هى الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه وانما قال وان ربكم الرحمن فخص هذا الموضع باسم الرحمن لانه كان ينبئهم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو الرحمن الرحيم ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ثم انهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى كأنهم قالوا لا نقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى وعادة المقلد ليس الا ذلك ۞ قوله تعالى (قال ياهرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمرى قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى) اعلم ان الطاعنين فى عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام اما أن يكون قد أمر هرون باتباعه أو لم يأمره فان أمره به فاما أن يكون هرون قد اتبعه أو لم يتبعه فان اتبعه كانت ملامة موسى لهرون معصية وذنبا لان ملامة غير المجرم معصية وان لم يتبعه كان هرون تاركا للواجب فكان فاعلا للمعصية وأما ان قلنا ان موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته اياه بترك الاتباع معصية فثبت أن على جميع التقديرات يلزم اسناد المعصية اما الى موسى أو الى هرون (وثانيها) قول موسى عليه السلام أفعصيت أمرى استفهام على سبيل الانكار فوجب أن يكون هرون قد عصاه وأن يكون ذلك العصيان منكرا والا لكان موسى عليه السلام كاذبا وهو معصية فاذا فعل هرون ذلك فقد فعل المعصية (وثالثها) قوله يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى وهذا معصية لان هرون عليه السلام قد فعل ما قدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر فان كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة وبعد أن علم أن هرون قد فعل ما قدر عليه كان الاخذ برأسه ولحيته معصية وان فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك أيضا معصية (ورابعها) ان هرون عليه السلام قال لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى فان كان الاخذ بلحيته وبرأسه جائزا كان قول هرون لا تأخذ منعا له عما كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية وان لم يكن ذلك الاخذ جائزا كان موسى عليه السلام فاعلا للمعصية فهذه أسئلة لطيفة فى هذا الباب والجواب عن الكل انا بينا فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى فازلهما

(ياهرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل وبلغوا من المكابرة الى ان شافهوك بتلك المقالة الشنعاء (ان لا تتبعن) أى أن تتبعنى على أن لا مزيدة وهو مفعول ثان للمنع وهو عامل فى اذ أى أى شئ منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعنى فى الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ما حملك على أن لا تتبعنى فان المنع عن الشئ مستلزم للحمل على مقابله وقيل مامنعك ان تلحقنى وتخبرنى بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه أن نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجرهم مفارقته اياهم عنه أولى والاعتذار بأنهم اذا علموا أنه يلحقه ويخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجروا عن ذلك بمعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه الى حين رجوعه عليه السلام (أفعصيت أمرى) أى بالصلابة فى الدين والمحاماة عليه فان قوله له عليهما السلام اخلفنى متضمن للامر بهما حتما فان الخلافة لا تتحقق الا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره المستخلف لو كان حاضرا والهمزة للانكار التوبيخى والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم تتبعنى أو أخالفتنى فعصيت أمرى (قال يا ابن ام) خص الام بالاضافة استعطافا واستحقاقا بحقها وترقيقا لقلبه لا لما قيل من انه كان أخاه لام فان الجمهور على انهما كانا شقيقين (لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى ولا بشعر رأسى روى انه عليه

السلام أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديدا متصلبا فى كل شئ فلم يتمالك
حين رآهم يعبدون العجل ففعل مافعل ٩٨ وقوله تعالى (انى خشيت) الخ استئناف سيق لتعليل موجب النهى ببيان الداعى
الى ترك المقاتلة وتحقيق انه غير عاصر لامره بل ممتثل به أى انى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا (ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل) برأيك مع كونهم أبناء واحد كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق مايستتبعه القتال من التفريق الذى لا يرجى بعده الاجتماع (ولم ترقب قولى) يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى وأصلح الخ يعنى انى رأيت أن الاصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم الى أن ترجع اليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للامر حسبما رأيت لاسيما وقد كانوا فى غاية القوة ونحن على القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى (قال) استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ماسلف من اعتذار القوم باسناد الفساد الى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماذا صنع موسى عليه السلام بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامرى فقيل قال موبخا له هذا شأنهم (فما خطبك ياسامرى) أى ما شأنك وما مطلوبك مما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ويفعل به وبما

الشيطان عنها أنواعا من الدلائل الجلية فى أنه لا يجوز صدور المعصية من الانبياء وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة مايبعد عن التأويل بما يتسارع اليه التأويل غير جائز اذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم أن لنا فى الجواب عن هذه الاشكالات وجوها (أحدها) انا وان اختلفنا فى جواز المعصية على الانبياء لكن اتفقنا على جواز ترك الاولى عليهم واذا كان كذلك فالفعل الذى يفعله أحدهما ويمنعه الآخر وأعنى بهما موسى وهرون عليهما السلام لعله كان أحدهما أولى والآخر كان ترك الاولى فلذلك فعله أحدهما وتركه الآخر فان قيل هذا التأويل غير جائز لان كل واحد منهما كان جازما فيما يأتى به فعلا كان أو تركا وفعل المندوب وتركه لا يجزم به قلنا تقييد المطلق بالدليل غير ممتنع فنحن نحمل ذلك الجزم فى الفعل والترك على أن المراد افعل ذلك أواتركه ان كنت تريد الاصلح وقد يترك ذلك الشرط اذا كان تواطؤهما على رعايته معلوما مقررا (وثانيها) ان موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه وجره اليه كما يفعل الانسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فان الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه ويفتل أصابعه ويقبض على لحيته فاجرى موسى عليه السلام أخاه هرون مجرى نفسه لانه كان أخاه وشريكه فصنع به مايصنع الرجل بنفسه فى حال الفكر والغضب فاما قوله لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى فلا يمتنع أن يكون هرون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنو اسرائيل من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له ثم أخذ فى شرح القصة فقال انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل (وثالثها) ان بنى اسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى ان هرون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام أنت قتلته فلما وعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له فى الالواح من كل شئ ثم رجع فرأى فى قومه مارأى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة فخاف هرون عليه السلام أن يسبق الى قلوبهم مالا أصل له فقال اشفاقا على موسى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى لئلا يظن القوم مالا يليق بك (ورابعها) قال صاحب الكشاف كان موسى عليه السلام رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شئ شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى من بعد مارأوا من الآيات العظام ان ألقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فأقبل عليه اقبال العدو المكاشر واعلم ان هذا الجواب ساقط لانه يقال هب انه كان شديد الغضب ولكن مع ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى عاقلا مكلفا أم لا فان بقى عاقلا مكلفا فالاسئلة باقية بتمامها أكثر ما فى الباب انك ذكرت انه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصى فقد زدت اشكالا آخر فان قلتم بأنه فى ذلك الغضب لم يبق عاقلا ولا مكلفا فهذا مما لا يرتضيه مسلم البتة فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك فى سقوط السؤال والله أعلم أما قوله مامنعك

صنعه من العقاب مايكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الامم (قال) أى السامرى مجيبا له عليه السلام اذ
(بصرت بما لم يبصروا به) بضم الصاد فيهما وقرئ بكسرها فى الاول وفتحها فى الثانى وقرئ بالتاء على الوجهين على خطاب

موسى عليه السلام وقومه أى علمت مالم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت مالم يروه وهو الانسب بما سيأتى من قوله
وكذلك سولت لى نفسى لاسيما على القراءة بالخطاب فان ادعاء علم مالم يعلمه ٩٩ موسى عليه السلام جراءة عظيمة لا تليق بشأنه ولا
بمقامه بخلاف ادعاء رؤية مالم يره عليه السلام فانها انما يقع بحسب مايتفق وقد كان رأى أن جبريل عليه السلام جاء راكب فرس وكان كلما رفع الفرس يديه أورجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات فى الحال فعرف أن له شأنا فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى (فقبضت قبضة من اثر الرسول) وقرئ من أثر فرس الرسول أى من تربة موطئ فرس الملك الذى أرسل اليك ليذهب بك الى الطور ولعل ذكره بعنوان الرسالة للاشعار بوقوفه على مالم يقف عليه القوم من الاسرار الالهية تأكيدا لما صدر به مقالته والتنبيه على وقت اخذه أخذه والقبضة المرة من القبض اطلقت على المقبوض مرة وقرئ بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرئ فقبصت قبصة بالصاد المهملة والاول للاخذ بجميع الكف والثانى بأطراف الاصابع ونحوهما الخضم والقضم (فنبذتها) أى فى الحلى المذابة فكان ما كان (وكذلك سولت لى نفسى) أى مافعلته من القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل الكاف فى الاصل النصب على انه مصدر تشبيهى اى نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت

اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعنى ففيه وجهان (الاول) ان لا صلة والمراد مامنعك أن تتبعنى (والثانى) أن يكون المراد مادعاك الى ان لا تتبعنى فأقام منعك مقام دعاك وفى الاتباع قولان (أحدهما) مامنعك من اتباعى بمن أطاعك واللحوق بى وترك المقام بين أظهرهم وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء (والثانى) ان تتبعنى فى وصيتى اذ قلت لك اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال أفعصيت أمرى ومعناه ظاهر وهذا يدل على ان تارك المأمور به عاص والعاصى مستحق للعقاب لقوله ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ولقوله ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها فمجموع الآيتين يدل على ان الامر للوجوب فأجاب هرون عليه السلام وقال يا ابن أم قيل انما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه وقيل كان أخاه لامه لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى واعلم انه ليس فى القرآن دلالة على انه فعل ذلك فان النهى عن الشئ لا يدل على كون المنهى فاعلا للمنهى عنه كقوله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله لئن أشركت ليحبطن عملك والذى فيه انه أخذ برأس أخيه يجره اليه وهذا القدر لا يدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الاغراض على ماينباه ومن الناس من يقول انه أخذ ذؤابتيه بيمينه ولحيته بيساره ثم قال انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى ولقائل أن يقول ان قول موسى عليه السلام مامنعك أن لا تتبعنى أفعصيت أمرى يدل على انه أمره بشئ فكيف يحسن فى جوابه أن يقال انما امتثل قولك خوفا من أن تقول ولم ترقب قولى فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل (والجواب) لعل موسى عليه السلام انما أمره بالذهاب اليه بشرط أن لا يؤدى ذلك الى فساد فى القوم فلما قال موسى مامنعك أن لا تتبعنى قال لانك انما أمرتنى باتباعك اذا لم يحصل الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقبا لقولك • قال الامام أبو القاسم الانصارى الهداية أنفع من الدلالة فان السحرة كانوا أجانب عن الايمان وما رأوا الا آية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد فى الدنيا ولم يرجعوا عن الايمان وأما قومه فانهم رأوا انقلاب العصا ثعبانا والتقم كل ماجمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وانه أمر الهى ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا انفراق البحر اثنى عشر طريقا وان الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم ثم ان هؤلاء مع ماشاهدوا من هذه الآيات كما خرجوا من البحر ورأوا قوما يعبدون البقر قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ولما سمعوا صوتا من عجل عكفوا على عبادته وذلك يدل على انه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية قرأ حمزة والكسائى يا ابن أم بكسر الميم والاضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره يا ابن أماه والله أعلم

قوله تعالى (قال فما خطبك ياسامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة ان تقول لا مساس

لى نفسى تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لافادة تأكيد ما أفاده اسم
الاشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لا نعتا له أى ذلك التزيين البديع زينت لى نفسى مافعلته لا تزيينا أدنى منه ولذلك

فعلته وحاصل جوابه أن مافعله انما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الامارة بالسوء واغوائها الا بشئ آخر من البرهان العقلى
أو الالهام الالهى فعند ذلك (قال) عليه السلام (فاذهب) أى من بين الناس وقوله تعالى (فان لك

وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما)

اعلم ان موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هرون عليه السلام وعرف العذر له فى التأخير أقبل على السامرى ويجوز أن يكون قد كان حاضرا مع هرون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هرون أخذ فى التكلم مع السامرى ويجوز أن يكون بعيدا ثم حضر السامرى من بعد أو ذهب اليه موسى ليخاطبه فقال موسى عليه السلام ماخطبك يا سامرى والخطب مصدر خطب الامر اذا طلبه فاذا قيل لمن يفعل شيأ ماخطبك معناه ماطلبك له والغرض منه الانكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكر السامرى عذره فى ذلك فقال بصرت بما لم يبصروا به وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر وقرأ حمزة والكسائى بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء أى بما لم يبصر به بنو اسرائيل (المسئلة الثانية) فى الابصار قولان قال أبو عبيدة علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم رجل بصير أى عالم وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال الزجاج فى تقريره أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيرا عالما وقال آخرون رأيت مالم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأراد انه رأى دابة جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قبضة بضم القاف وهى اسم للمقبوض كالغرفة والمضغة وأما القبضة فالمرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرئ أيضا فقبصت قبصة بالصاد والصاد فالضاد بجميع الكف والصاد باطراف الاصابع ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه قرأ ابن مسعود من أثر فرس الرسول (المسئلة الثانية) عامة المفسرين قالوا المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد بأثره التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا انه متى رآه فقال الاكثرون انما رآه يوم فلق البحر وعن على عليه السلام ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام الى الطور أبصره السامرى من بين الناس واختلفوا فى أن السامرى كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبى انما عرفه لانه رآه فى صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بنى اسرائيل فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامرى ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه فى فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به بمعنى رأيت مالم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال أبو مسلم الاصفهانى ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى

فى الحياة) الخ تعليل لموجب الامر وفى متعلقة بالاستقرار فى لك أى ثابت لك فى الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار فى الظرف المذكور لاعتماده على ماهو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى (أن تقول لامساس) لمكان أن أى ثابت لك كائنا فى الحياة أى مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجئ اليها وذلك انه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس أحدا أو يمسه أحد كائنا من كان الا حم من ساعته حمى شديدة فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجئ الى الحرم ومن الوحش النافر فى البرية ويقال ان قومه باق فيهم تلك الحالة الى اليوم وقرئ لامساس كفجار وهو علم للمسة واعل السر فى مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة مابينهما من مناسبة التضاد فانه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التى هى من أسباب موت الاحياء (وان لك موعدا) اى فى الآخرة (لن تخلفه) أى لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعدما عاقبك فى الدنيا وقرئ بكسر اللام والاظهر أنه من أخلفت الموعد أى وجدته خلفا وقرئ بالنون على حكاية قوله ذكره

عز وجل (وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا) أى ظللت مقيما على عبادته فحذفت اللام الاولى تخفيفا وقرئ بكسر الظاء بنقل حركة اللام اليها

ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير ان موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى باب العجل فقال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيأ من سنتك ودينك فقذفته أى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة وانما أورد بلفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له مايقول الامير فى كذا وبماذا يأمر الامير وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا بالانزال واعلم ان هذا القول الذى ذكره أبو مسلم ليس فيه الا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل عليه السلام كأنه تكليف بعلم الغيب (وثانيها) انه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والاضمار خلاف الاصل (وثالثها) انه لا بد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف ان لتراب حافر فرسه هذا الاثر والذى ذكروه من ان جبريل عليه السلام هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى عليه السلام نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ماعرفه حال البلوغ فأى منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياله حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة (ورابعها) انه لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول فلعل موسى عليه السلام اطلع على شئ آخر يشبه ذلك فلاجله أتى بالمعجزات ويرجع حاصله الى سؤال من يطعن فى المعجزات ويقول لم لا يجوز أن يقال انهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الادوية التى لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية أما قوله وكذلك سولت لى نفسى فالمعنى فعلت مادعتنى اليه نفسى وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم يدعنى الى مافعلته أحد غيرى بل اتبعت هواى فيه ثم ان موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامرى أجابه بأن بين حاله فى الدنيا والآخرة وبين حال الهه أما حاله فى الدنيا فقوله فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس وفيه وجوه (أحدها) ان المراد انى لا أمس ولا أمس قالوا واذا مسه أحد حم الماس والممسوس فكان اذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفا من الحمى وقال لامساس (وثانيها) ان المراد بقوله لامساس المنع من أن يخالط أحدا أو يخالطه أحد وقال مقاتل ان موسى عليه السلام أخرجه من محلة بنى اسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك طريدا الى البرارى

الظاء بنقل حركة اللام اليها (لنحرقنه) جواب قسم محذوف أى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الاحراق وقيل بالمبرد على انه مبالغة فى حرق اذا برد بالمبرد ويعضده قراءة لنحرقنه (ثم لننسفنه) أى لنذرينه وقرئ بضم السين (فى اليم) رمادا أو مبرودا كأنه هباء (نسفا) بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الامر بالنظر وانما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين (انما الهكم الله) استئناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه الى الكل أى انما معبودكم المستحق للعبادة الله (الذى لا اله) فى الوجود لشئ من الاشياء (الا هو) وحده من غير أن يشاركه شئ من الاشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها أحكام الالوهية وقرئ الله لا اله الا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى (وسع كل شئ علما) أى وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل انما الهكم الله الذى وسع كل شئ علما لا غيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أوليا وقرئ وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما على المفعولية لانه على القراءة الاولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل الى التعدية الى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول كأنه قيل وسع علمه كل شئ وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير

أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته وقوله تعالى (كذلك نقص عليك) كلام مستأنف خوطب به النبي عليه

• اعترض الواحدى عليه فقال الرجل اذا صار مهجورا فلا يقول هو لامساس وانما يقال له ذلك وهذا الاعتراض ضعيف لان الرجل اذا بقى طريدا فريدا فاذا قيل له كيف حالك فله أن يقول لامساس اى لايماسنى أحد ولا أماس أحدا والمعنى انى اجعلك ياسامرى فى المطرودية بحيث لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل الا انه لامساس وهذا الوجه أحسن وأقرب الى نظم الكلام من الاول (وثالثها) ماذكره أبو مسلم وهو أنه يجوز فى حمله ما أريد مسى النساء فيكون من تعذيب الله اياه انقطاع نسله فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتى الدنيا اللتين ذكرهما بقوله المال والبنون زينة الحياة الدنيا وقرئ لامساس بوزن فجار وهو اسم علم للمرة الواحدة من المس وأما شرح حاله فى الآخرة فهو قوله وان لك موعدا لن تخلفه والموعد بمعنى الوعد أى هذه عقوبتك فى الدنيا ثم لك الوعد بالمصير الى عذاب الآخرة فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين قرأ أهل المدينة والكوفة لن تخلفه بفتح اللام أى لن تخلف ذلك الوعد أى سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام أى تجئ اليه ولن تغيب عنه ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبي عبيد كأنه قال موعدا حقا لاخلف فيه وعن ابن مسعود لن نخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه فى قوله لأهب لك واما شرح حال الهه فهو قوله وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا قال المفضل فى ظلت انه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك فظلتم تفكهون وأصله ظللت فحذفت اللام الاولى وذلك انما يكون اذا كانت اللام الثانية ساكنة تستحب العرب طرح الاولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة اليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون فى المضاعف يقولون مسته ومسته ثم قال لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا وفى قوله لنحرقنه وجهان (أحدهما) المراد احراقه بالنار وهذا أحد ما يدل على انه صار لحما ودما لأن الذهب لايمكن احراقه بالنار وقال السدى أمر موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف رماده وفى حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه (وثانيهما) لنحرقنه أى لنبردنه بالمبرد يقال حرقه يحرقه اذا برده وهذه القراءة تدل على انه لم ينقلب لحما ولا دما فان ذلك لايصح أن يبرد بالمبرد ويمكن أن يقال انه صار لحما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار وقرأ أبو جعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء مخففة يعنى لنبردنه واعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من ابطال ماذهب اليه السامرى عاد الى بيان الدين الحق فقال انما الهكم أى المستحق للعبادة والتعظيم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شئ علما قال مقاتل يعلم من يعبده ومن لايعبده ۞ قوله تعالى

(كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ فى الصور ونحشر

١

الصلاة والسلام بطريق الوعد الجميل بتنزيل امثال مامر من انباء الامم السالفة وذلك اشارة الى اقتصاص حديث موسى عليه السلام ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل ومحل الكاف النصب على انه نعت لمصدر مقدر أى نقص عليك (من أنباء ماقد سبق) من الحوادث الماضية الجارية على الامم الخالية قصا مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن فى قوله تعالى من أنباء فى حيز النصب اما على انه مفعول نقص باعتبار مضمونه واما على انه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما فى قوله تعالى ومنا دون ذلك أى جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض أنباء ماقد سبق أو بعضا كائنا من انباء ماقد سبق وقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتأخيره عن عليك لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى مثل ذلك القص البديع الذى سمعته نقص عليك ماذكر من الانباء لاقصا ناقصا عنه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من امتك (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) اى كتابا منطويا على هذه الاقاصيص والاخبار حقيقا بالتفكر والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك وتنكير ذكرا للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما ان مرجع

المجرمين

المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما) اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا أتبعه بقوله كذلك نقص عليك من سائر اخبار الامم وأحوالهم تكثيرا لشأنك وزيادة فى معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها فى الدين وقد آتيناك من لدنا ذكرا يعنى القرآن كما قال تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وانه لذكر لك والقرآن ذى الذكر ما يأتيهم من ذكر يأتيهم الذى نزل عليه الذكر ثم فى تسمية القرآن بالذكر وجوه (أحدها) انه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم (وثانيها) أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ (وثالثها) فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال وانه لذكر لك ولقومك واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكرا فقال فاسئلوا اهل الذكر وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه (أولها) قوله من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها الذى يثقل على الحامل وينقض ظهره أولانه جزاء الوزر وهو الاثم وقرئ يحمل ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين (أحدهما) انه يكون مخلدا مؤبدا (والثانى) قوله وساء لهم يوم القيامة حملا أى وما أسوأ هذا الوزر حملا أى محمولا وحملا منصوب على التمييز (وثانيها) يوم ينفخ فى الصور فالمراد بيان ان يوم القيامة هو يوم ينفخ فى الصور وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو ننفخ بفتح النون كقوله ونحشر وقرأ الباقون ينفخ على مالم يسم فاعله ونحشر بالنون لان النافخ ملك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى وقرئ يوم ينفخ بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لاسرافيل عليه السلام وأما يحشر المجرمين فلم يقرأ به الا الحسن وقرئ فى الصور بفتح الواو جمع صورة (المسئلة الثانية) فى الصور قولان (أحدهما) انه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس الى المحشر (والثانى) انه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه ويدل عليه قراءة من قرأ الصور بفتح الواو والاول أولى لقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور والله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ماشوهد فى الدنيا ومن عادة الناس النفخ فى البوق عند الاسفار وفى العساكر (المسئلة الثالثة) المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لان قوله بعد ذلك ونحشر المجرمين يومئذ زرقا كالدلالة على ان النفخ فى الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا أما قوله ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة قوله المجرمين يتناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله الها آخر وقد تقدم هذا الكلام (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بالزرقة على وجوه (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى زرق العيون سود الوجوه وهى زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك فان قيل أليس ان الله تعالى أخبر انهم

جامعا لكل كمال لا كون ذلك الذكر مؤتى من لدنه عز وجل مع مافيه من نوع طول بما بعده من الصفة فتقديمه يذهب برونق النظم الكريم (من اعرض عنه) عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين وقبل عن الله عز وجل ومن اما شرطية أو موصولة وايا ما كانت فالجملة صفة لذكرا (فانه) اى المعرض عنه (يحمل يوم القيامة وزرا) أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا اما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره اولانها جزاء الوزر وهو الاثم والاول هو الانسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى (خالدين فيه) اى فى الوزر أو فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر الى معنى من لما ان الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع اهلها كما ان الافراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر الى لفظها (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم واعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الامر (يوم ينفخ فى الصور) بدل من يوم القيامة أو منصوب باضمار اذكر أو ظرف لمضمر قد حذف للايذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم

يجمع الله الرسل وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقرئ ننفخ بالنون على اسناد النفخ الى الآمر به تعظيما له وبالياء
المفتوحة على ان ضميره لله عز وجل أو لاسرافيل ١٠٤ عليه السلام وان لم يجر ذكره لشهرته (ونحشر المجرمين يومئذ) أى يوم اذ

ينفخ فى الصور وذكره صريحا مع تعين أن الحشر لا يكون الا يومئذ للتهويل وقرئ ويحشر المجرمون (زرقا) أى حال كونهم زرق العيون وانما جعلوا كذلك لان الزرقة اسوأ ألوان العين وأبغضها الى العرب فان الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميالان حدقة الاعمى تزرق وقوله تعالى (يتخافتون بينهم) أى يخفضون أصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف لبيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال أخرى من المجرمين أى يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة (ان لبثتم) أى ما لبثتم فى الدنيا (الا عشرا) أى عشر ليال استقصار المدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا انهم استحقوها على اضاعتها فى قضاء الاوطار واتباع الشهوات أو فى القبر وهو الانسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذى كانوا ينكرونه فى الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقا لسرعة وقوعه كأنهم قالوا قد بعثتم وما لبثتم فى القبر الا مدة يسيرة والاخبالهم أقطع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها (نحن أعلم بما يقولون) وهو مدة لبثهم وان (اذ يقول امثلهم طريقة) أى أعدلهم رأيا أو عملا (ان لبثتم الا يوما) ونسبة هذا القول الى أمثلهم استرجاح منه تعالى له لكن

يحشرون عميا فكيف يكون أعمى وأزرق قلنا لعله يكون أعمى فى حال وأزرق فى حال (وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبى زرقا أى عميا قال الزجاج يخرجون بصراء فى أول مرة ويعمون فى المحشر وسواد العين اذا ذهب تزرق فان قيل كيف يكون أعمى وقد قال تعالى انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار وشخوص البصر من الاعمى محال وقد قال فى حقهم اقرأ كتابك والاعمى كيف يقرأ فالجواب ان أحوالهم قد تختلف (وثالثها) قال أبو مسلم المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والازرق شاخص لانه لضعف بصره يكون محدقا نحو الشئ يريد ان يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار (ورابعها) زرقا عطاشا هكذا رواه ثعلب عن ابن الاعرابى قال لانهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هذا التفسير قوله تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الاعرابى قال طامعين فيما لا ينالونه (الصفة الثالثة) من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يتخافتون أى يتسارون يقال خفت يخفت وخافت مخافتة والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى فلا تسمع الا همسا وانما يتخافتون لانه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لانهم صاروا بسبب الخوف فى نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان المراد بقوله ان لبثتم اللبث فى الدنيا أو فى القبر فقال قوم أرادوا به اللبث فى الدنيا وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك واحتجوا عليه بقوله تعالى قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين فان قيل اما أن يقال انهم نسوا قدر لبثهم فى الدنيا أو ما نسوا ذلك والاول غير جائز اذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الانسان خمسين سنة فى بلد ثم ينساه والثانى غير جائز لانه كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لا سيما وهذا الكذب لا فائدة فيه قلنا فيه وجوه (أحدها) لعلهم اذا حشروا فى أول الامر وعاينوا تلك الاهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا وما ذكروا الا القليل فقالوا لبثنا ما عشنا الا تلك الايام القليلة فى الدنيا حتى لا تقع فى هذه الاهوال والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الاشياء وتمام تقريره مذكور فى سورة الانعام فى قوله ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (وثانيها) انهم عالمون بمقدار عمرهم فى الدنيا الا أنهم لما قابلوا أعمارهم فى الدنيا بأعمار الآخرة وجدوها فى نهاية القلة فقال بعضهم ما لبثنا فى الدنيا الا عشرة أيام وقال أعقلهم بل ما لبثنا الا يوما واحدا أى قدر لبثنا فى الدنيا بالقياس الى قدر لبثنا فى الآخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعدم وانما خص العشرة والواحد بالذكر لان القليل فى أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه الا بالعشرة والواحد (وثالثها) انهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لان أيام السرور قصار (ورابعها) ان أيام الدنيا قد انقضت وأيام الآخرة مستقبلة والذاهب

لا لكونه أقرب الى الصدق بل لكونه أدل على شدة الهول (ويسألونك عن الجبال) أى عن مآل أمرها وقد سأل عنه
رجل من ثقيف وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء (فقل ينسفها ربى نسفا) ١٠٥ أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح

فتفرقها والفاء للمسارعة الى الزام السائلين (فيذرها) الضمير اما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى مقارها ومراكزها أى فيذر ما انبسط منها وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الارض بعد نسف ما نتأ منها ونشز واما للارض المدلول عليها بقرينة الحال لانها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل (قاعا صفصفا) لان الجبال اذا سويت وجعل سطحها مساويا لسطوح سائر أجزاء الارض فقد جعل الكل سطحا واحدا والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الارض وقيل المستوى الصلب منها وقيل ما لا نبات فيه ولا بناء والصفصف الارض المستوية الملساء كأن أجزاءها صف واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب او هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا اما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى (لا ترى فيها) أى فى مقار الجبال او فى الارض على ما مر من التفصيل (عوجا) بكسر العين أى اعوجاجا ما كأنه لغاية خفائه من قبيل ما فى المعانى أى لا تدركه ان تأملت بالمقاييس الهندسية (ولا أمتا) أى نتوأ يسيرا استئناف مبين

وان طالت مدته قليل بالقياس الى الآتى وان قصرت مدته فكيف والامر بالعكس ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ فى التقليل فقال اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما (القول الثانى) ان المراد منه اللبث فى القبر ويعضده قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فأما من جوز الكذب على أهل القيامة فلا اشكال له فى الآية أما من لم يجوز قال ان الله تعالى لما أحياهم فى القبر وعذبهم ثم أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا أن قدر لبثهم فى القبر كم كان فخطر ببال بعضهم انه فى تقدير عشرة أيام وقال آخرون انه يوم واحد فلما وقعوا فى العذاب مرة أخرى تمنوا زمان الموت الذى هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب (المسئلة الثالثة) الاكثرون على ان قوله ان لبثتم الا عشرا أى عشرة ايام فيكون قول من قال ان لبثتم الا يوما أقل وقال مقاتل ان لبثتم الا عشرا أى عشر ساعات كقوله كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وعلى هذا التقدير يكون اليوم اكثر والله اعلم واعلم انه سبحانه وتعالى بين بهذا القول عظم ما نالهم من الحيرة التى دفعوا عندها الى هذا الجنس من التخافت ﴿قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) اعلم انه تعالى لما وصف أمر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال ويسألونك عن الجبال وفى تقرير هذا السؤال وجوه (أحدها) ان قوله يتخافتون وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك فكأنهم قالوا كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت (وثانيها) قال الضحاك نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء (وثالثها) لعل قومه قالوا يا محمد انك تدعى ان الدنيا ستنقضى فلو صح ما قلته لوجب أن تبتدى أولا بالنقصان ثم تنتهى الى البطلان لكن أحوال العالم باقية كما كانت فى أول الامر فكيف يصح ما قلته من خراب الدنيا وهذه شبهة تمسك بها جالينوس فى ان السموات لا تفنى قال لانها لو فنيت لابتدأت فى النقصان أولا حتى ينتهى نقصانها الى البطلان فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا ان القول بالبطلان باطل ثم أمر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال وضم الى الجواب أمورا أخر فى شرح أحوال القيامة واهوالها (الصفة الاولى) قوله فقل ينسفها ربى نسفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل مع فاء التعقيب لان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر فلا جرم أمره بالجواب مقرونا بفاء التعقيب لان تأخير البيان فى مثل هذه المسئلة

١٤ - را س لكيفية ما سبق من القاع الصفصف او حال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتأتى منه الرؤية وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من طول

لم يحتمل تقديمه بجاوب أطراف النظم الكريم (يومئذ) أى يوم اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى (يتبعون الداعى) وقيل ١٠٦ بدل من يوم القيامة وليس بذاك أى يتبع الناس داعى الله عز وجل الى المحشر وهو اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب الى صوبه (لا عوج له) لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه (وخشعت الاصوات للرحمن) أى خضعت لهيبته (فلا تسمع الا همسا) أى صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت أخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها الى المحشر (يومئذ) أى يوم اذ يقع ما ذكر من الامور الهائلة (لا تنفع الشفاعة) من الشفعاء أحدا (الا من أذن له الرحمن) أن يشفع له (ورضى له قولا) أى ورضى لاجله قول الشافع فى شأنه أو رضى قوله لاجله وفى شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وان فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين فالاستثناء كما ترى من أعم المفاعيل وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل اليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هى عنه أصلا كما فى قوله تعالى لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فالاخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم امكان صدورها عمن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم وأما قوله تعالى ولا يقبل

الاصولية غير جائز أما فى المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر هناك قل من غير حرف التعقيب (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله ينسفها عائد الى الجبال والنسف التذرية أى تصير الجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية فاذا زالت الجبال زالت الحوائل فيعلم صدق قوله يتخافتون قال الخليل ينسفها أى يذهبها ويطيرها أما الضمير فى قوله فيذرها فهو عائد الى الارض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما فى عادة الناس من الاخبار عنها بالاضمار كقولهم ما عليها أكرم من فلان وقال تعالى ما ترك على ظهرها من دابة وانما قال فيذرها قاعا صفصفا ليبين أن ذلك النسف لا يزيل الاستواء لئلا يقدر انها لما زالت من موضع الى موضع آخر صارت هناك حائلة هذا كله اذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كيفية المخافتة أما لو كان الغرض من السؤال ما ذكرنا من انه لا نقصان فيها فى الحال فوجب أن لا ينتهى أمرها الى البطلان كان تقرير الجواب ان بطلان الشئ قد يكون بطلانا يقع توليدا فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلانا يقع دفعة واحدة وههنا لا يجب تقديم النقصان على البطلان فبين الله تعالى انه يفرق تركيبات هذا العالم الجسمانى دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة ههنا الى تقديم النقصان على البطلان (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف الارض ذلك الوقت بصفات (احداها) كونها قاعا وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء (وثانيها) الصفصف وهو الذى لا نبات عليه وقال أبو مسلم القاع الارض الملساء المستوية وكذلك الصفصف (وثالثها) قوله لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقال صاحب الكشاف قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج بالكسر فى المعانى والعوج بالفتح فى الاعيان فان قيل الارض عين فكيف صح فيها المكسور العين قلنا اختيار هذا اللفظ له موقع بديع فى وصف الارض بالاستواء ونفى الاعوجاج وذلك لانك لو عمدت الى قطعة أرض فسويتها وبالغت فى التسوية فاذا قابلتها المقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعا من العوج خارجة عن الحس البصرى قال فذلك القدر من الاعوجاج لما لطف جدا ألحق بالمعانى فقيل فيه عوج بالكسر واعلم أن هذه الآية تدل على أن الارض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لان المضلع لا بد وأن يتصل بعض سطوحه بالبعض لا على الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية (ورابعها) الامت النتوء اليسير يقال مد حبله حتى ما فيه أمت وتحصل من هذه الصفات الاربع أن الارض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف والاعوجاج (الصفة الثانية) ليوم القيامة قوله يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وفى الداعى قولان (الاول) ان ذلك الداعى هو النفخ فى الصور وقوله لا عوج له أى لا يعدل عن أحد بدعائه بل يحشر الكل (الثانى) انه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادى ويقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى ربك للحساب والجزاء فيسمعون صوت الداعى فيتبعونه ويقال انه اسرافيل عليه السلام يضع قدمه على

١

الصخرة

منها شفاعة فمعناه عدم الاذن فى الشفاعة لا عدم قبولها بعد وقوعها (يعلم ما بين أيديهم) أى ما تقدمهم من الاحوال وقيل من أمر الدنيا (وما خلفهم) وما بعدهم مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة ١٠٧ (ولا يحيطون به علما) أى لا تحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لاحد الموصولين أو لمجموعهما فانهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى ذلت وخضعت خضوع العناة أى الاسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان ما لاجله عنت وجوههم أو اعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلما فقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات) الخ قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما أنه كذلك على الوجه الاول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من أنباء ما قد سبق (وهو مؤمن) فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات (فلا يخاف ظلما) أى منع ثواب مستحق بموجب الوعد (ولا هضما) ولا كسرا منه بنقص أو لا يخاف جزاء ظلم وهضم اذ لم يصدر عنه ظلم ولا هضم حتى يخافهما وقرئ فلا يخف على النهى (وكذلك) عطف على كذلك نقص وذلك اشارة الى انزال ما سبق من

الصخرة فان قيل هذا الدعاء يكون قبل الاحياء أو بعده قلنا ان كان المقصود بالدعاء اعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الاحياء لان دعاء الميت عبث وان لم يكن المقصود اعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل أن يكون لطفا للملائكة ومصلحة لهم فذلك جائز قبل الاحياء (الصفة الثالثة) قوله وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا وفيه وجوه (أحدها) خشعت الاصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع الا همسا وهو الذكر الخفى قال أبو مسلم وقد علم الانس والجن بأن لا مالك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاما يفهم بتحريك الشفتين لضعفه وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد الهمس وطء الاقدام فالمعنى انه لا تسمع الا خفق الاقدام ونقلها الى المحشر (الصفة الرابعة) قوله يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا قال صاحب الكشاف من يصلح أن يكون مرفوعا ومنصوبا فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف اليه أى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن والنصب على المفعولية وأقول الاحتمال الثانى أولى لوجوه (الاول) ان الاول يحتاج فيه الى الاضمار وتغيير الاعراب والثانى لا يحتاج فيه الى ذلك (والثانى) ان قوله تعالى لا تنفع الشفاعة يراد به من يشفع بها والاستثناء يرجع اليهم فكأنه قال لا تنفع الشفاعة أحدا من الخلق الا شخصا مرضيا (والثالث) وهو أن من المعلوم بالضرورة ان درجة الشافع درجة عظيمة فهى لا تحصل الا لمن أذن الله له فيها وكان عند الله مرضيا فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى ايضاح الواضحات أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك ايضاح الواضحات فكان ذلك أولى اذا ثبت هذا فنقول المعتزلة قالوا الفاسق غير مرضى عند الله تعالى فوجب أن لا يشفع الرسول فى حقه لان هذه الآية دلت على ان المشفوع له لا بد وأن يكون مرضيا عند الله واعلم ان هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة فى حق الفساق لان قوله ورضى له قولا يكفى فى صدقه أن يكون الله تعالى قد رضى له قولا واحدا من أقواله والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولا واحدا من اقواله وهو شهادة ان لا اله الا الله فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لان الاستثناء من النفى اثبات فان قيل انه تعالى استثنى عن ذلك النفى بشرطين (أحدهما) حصول الاذن (والثانى) أن يكون قد رضى له قولا فهب ان الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو انه تعالى قد رضى له قولا لكن لم قلتم انه أذن فيه وهذا أول المسئلة قلنا هذا القيد وهو انه رضى له قولا كاف فى حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فاكتفى هناك بهذا القيد ودلت هذه الآية على انه لا بد من الاذن فظهر من مجموعهما انه اذا رضى له قولا يحصل الاذن فى الشفاعة واذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود (الصفة الخامسة) قوله يعلم

الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة واهوالها أى مثل ذلك الانزال (انزلناه) أى القرآن كله واضماره
من غير سبق ذكره للايذان بنباهة شانه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الاذهان (قرآنا عربيا) ليفهمه العرب
ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز
الدال على كونه خارجا عن طوق
البشر نازلا من عند خلاق
القوى والقدر (وصرفنا فيه من
الوعيد) أى كررنا فيه بعض
الوعيد أو بعضا من الوعيد
حسبما أشير اليه آنفا (لعلهم
يتقون) أى كى يتقوا الكفر
والمعاصى بالفعل (او يحدث لهم
ذكرا) اتعاظا واعتبارا مؤديا
بالآخرة الى الاتقاء (فتعالى الله)
استعظام له تعالى ولشؤنه التى
يصرف عليها عباده من الاوامر
والنواهى والوعد والوعيد وغير
ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن
مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته
وأفعاله وأحواله (الملك) النافذ
أمره ونهيه الحقيق بان يرجى
وعده ويخشى وعيده (الحق) فى
ملكوته وألوهيته لذاته او الثابت
فى ذاته وصفاته (ولا تعجل
بالقرآن من قبل أن يقضى اليك)
أى يتم (وحيه) كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا ألقى اليه
جبريل عليهما السلام الوحى يتبعه
عند تلفظ كل حرف وكل كلمة
لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ
فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال
بطريق الاستطراد لما أن استقرار
الالفاظ فى الاذهان تابع لاستقرار
معانيها فيها وربما يشغل التلفظ
بكلمة عن سماع ما بعدها وأمر
باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل (وقل) أى فى نفسك (رب زدنى علما) أى سل الله عز وجل زيادة ١ فقوله
العلم فانه الموصل الى طلبتك دون الاستعجال وقيل انه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ

ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله
بين ايديهم عائد الى الذين يتبعون الداعى ومن قال ان قوله لمن اذن له الرحمن المراد به
الشافع قال ذلك الضمير عائد اليه والمعنى لا تنفع شفاعة الملائكة والانبياء الا لمن اذن له
الرحمن فى ان تشفع له الملائكة والانبياء ثم قال يعلم ما بين أيديهم يعنى ما بين ايدى الملائكة
كما قال فى آية الكرسى وهذا قول الكلبى ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا
له قال مقاتل يعلم ما كان قبل ان يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم (المسئلة الثانية)
ذكروا فى قوله تعالى يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم وجوها (أحدها) قال الكلبى ما بين ايديهم
من أمر الآخرة وما خلفهم من أمر الدنيا (وثانيها) قال مجاهد ما بين ايديهم من أمر الدنيا
والاعمال وما خلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب (وثالثها) قال الضحاك يعلم
ما مضى وما بقى ومتى تكون القيامة (المسئلة الثالثة) ذكروا فى قوله ولا يحيطون به علما
وجهين (الاول) انه تعالى بين انه يعلم ما بين ايدى العباد وما خلفهم ثم قال ولا يحيطون به
علما أى العباد لا يحيطون بما بين ايديهم وما خلفهم علما (الثانى) المراد ولا يحيطون بالله علما
والاول أولى لوجهين (أحدهما) ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات والاقرب
ههنا قوله ما بين ايديهم وما خلفهم (وثانيهما) انه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم ان سائر
ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى (الصفة السادسة) قوله وعنت
الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومعناه ان ذلك اليوم تعنو الوجوه أى تذل
ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ومن لفظ العنو أخذوا العانى وهو الاسير يقال عنا
يعنو عناء اذا صار أسيرا وذكر الله تعالى الوجوه وأراد به المكلفين أنفسهم لان قوله وعنت
من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وهو كقوله وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية
وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يبين وفيها يظهر وتفسير الحى القيوم قد تقدم
وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا اسم الله الاعظم
فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الراوى فوجدنا المشترك فى السور
الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم فبين تعالى على وجه التحذير ان ذلك اليوم لا يصح
الامتناع عما ينزل بالمرء من المجازاة وان حاله مخالفة لحال الدنيا التى يختار فيها المعاصى
ويمتنع من الطاعات أما قوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما فالمراد بالخيبة الحرمان أى حرم
الثواب من حمل ظلما والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية
فى المنع من العفو فقالوا قوله وقد خاب من حمل ظلما يعم كل ظالم وقد حكم الله تعالى فيه
بالخيبة والعفو ينافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مرارا واعلم انه تعالى لما
شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال ومن يعمل من
الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما يعنى ومن يعمل شيأ من الصالحات والمراد
به الفرائض فكان عمله مقرونا بالايمان وهو كقوله ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات

المجمل وتلاوته قبل البيان مما لاريب فى صحته ومشروعيته (ولقد عهدنا الى ادم) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من
تصريف الوعيد فى القرآن وبيان أن أساس بنى آدم على العصيان وعرقه راسخ فى النسيان مع ما فيه من انجاز الموعود
فى قوله تعالى كذلك نقص
عليك من أنباء ما قد سبق يقال
عهد اليه الملك وعزم عليه وأوعز
اليه وتقدم اليه اذا أمره ووصاه
والمعهود محذوف يدل عليه
ما بعده واللام جواب قسم
محذوف أى وأقسم او وبالله
او والله لقد أمرناه ووصيناه (من
قبل) أى من قبل هذا الزمان
(فنسى) أى العهد ولم يعتن به حتى
غفل عنه اوترك ترك المنسى عنه
وقرئ فنسى أى نساه الشيطان
(ولم نجد له عزما) تصميم رأى
وثبات قدم فى الامور اذ لو كان
كذلك لما ازله الشيطان ولما
استطاع أن يغره وقد كان ذلك
منه عليه السلام فى بدء أمره من
قبل أن يجرب الامور ويتولى
حارها وقارها ويذوق شريها
وأريها وعن النبى عليه الصلاة
والسلام لو وزنت أحلام بنى آدم
بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى
ولم نجد له عزما وقيل عزما على الذنب
فانه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى
ولم نجد ان كان من الوجود
العلمى فله عزما مفعولاه قدم
الثانى على الاول لكونه ظرفا
وان كان من الوجود المقابل
للعدم وهو الانسب لان مصب
الفائدة هو المفعول وليس فى
الاخبار بكون العزم المعدوم
له مزيد مزية فله متعلق به قدم على
مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له
عزما وقوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) شروع فى بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه واذ منصوب

فقوله فلا يخاف فى موضع جزم لكونه فى موضع جواب الشرط والتقدير فهو لا يخاف
ونظيره ومن عاد فينتقم الله منه فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وقرأ ابن كثير
فلا يخف على النهى وهو حسن لان المعنى فليأمن والنهى عن الخوف أمر بالامن والظلم
هو أن يعاقب لا على جريمة أو يمنع من الثواب على الطاعة والهضم أن ينقص من ثوابه
والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح أى ضامر البطن ومنه طلعها هضيم أى لازق
بعضه ببعض ومنه انهضم طعامى وقال أبو مسلم الظلم أن ينقص من الثواب والهضم أن
لا يوفى حقه من الاعظام لان الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثوابا الا اذا قارنه
التعظيم وقد يدخل النقص فى بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى
عن المؤمنين كلا الامرين ﴿ قوله تعالى (وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من
الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل
ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما) اعلم ان قوله وكذلك عطف على قوله كذلك
نقص أى ومثل ذلك الانزال وعلى نهجه أنزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين
(أحدهما) كونه عربيا لتفهمه العرب فيقفوا على اعجازه ونظمه وخروجه عن جنس
كلام البشر (والثانى) قوله وصرفنا فيه من الوعيد أى كررناه وفصلناه ويدخل تحت
الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضى بيان الاحكام
فلذلك قال لعلهم يتقون والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره
فى سورة البقرة فى قوله والذين من قبلكم لعلكم تتقون أما قوله أو يحدث لهم ذكرا ففيه
وجهان (الاول) أن يكون المعنى انا انما أنزلنا القرآن لاجل أن يصيروا متقين أى
محترزين عما لا ينبغى أو يحدث القرآن لهم ذكرا يدعوهم الى الطاعات وفعل ما ينبغى وعليه
سؤالات (السؤال الاول) القرآن كيف يكون محدثا للذكر (الجواب) لما حصل الذكر عند
قراءته اضيف الذكر اليه (السؤال الثانى) لم اضيف الذكر الى القرآن وما اضيفت التقوى
اليه (الجواب) ان التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح وذلك استمرار على العدم الاصلى
فلم يجز اسناده الى القرآن أما حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجازت اضافته الى
القرآن (السؤال الثالث) كلمة أو للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح
الاتقاء الا مع الذكر فما معنى كلمة أو (الجواب) هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين
أى لا تكن خاليا منهما فكذا ههنا (الوجه الثانى) أن يقال انا أنزلنا القرآن ليتقوا فان
لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكرا وشرفا وصيتا حسنا فعلى هذين
التقديرين يكون انزاله تقوى ثم انه تعالى لما عظم أمر القرآن اردفه بان عظم نفسه فقال
فتعالى الله الملك الحق تنبيها على ما يلزم خلقه من تعظيمه وانما وصفه بالحق لان ملكه
لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به فلهذا وصف بذلك وتعالى
تفاعل من العلو وقد ثبت ان علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت

على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام أى واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير
ما وقع فيه من الحوادث لما مر مرارا ١١٠ من المبالغة فى ايجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الامور الواقعة فيه

فالامر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فاذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة فى ذهن المخاطب بوجوداتها العينية أى اذكر ما وقع فى ذلك الوقت منا ومنه حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه (فسجدوا الا ابليس) قد سبق الكلام فيه مرارا (أبى) جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كأنه قيل ما باله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى اما محذوف أى أبى السجود كما فى قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين او غير منوى رأسا بتنزيله منزلة اللازم أى فعل الاباء وأظهره (فقلنا) عقيب ذلك اعتناء بنصحه (يا آدم ان هذا) الذى رأيت ما فعل (عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما) أى لا يكونن سببا لاخراجكما (من الجنة) والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان الى اخراجهما منها بالطريق البرهانى كما فى قولك لا أرينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهى على عداوته لهما او على الاخبار بها (فتشقى) جواب للنهى واسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعلق الاخراج الموجب له بهما معا لأصالته فى الامور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب فى تحصيل مبادى المعاش وذلك من وظائف الرجال (ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) تعليل لما يوجبه النهى

الجلال وانه لا تكيفه الاوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى انما أنزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغى وليقدموا على ما ينبغى وانه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم فالطاعات انما تقع بتوفيقه وتيسيره والمعاصى انما تقع عدلا منه وكل ميسر لما خلق له أما قوله ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلقه بما قبله وجهان (الوجه الاول) قال أبو مسلم ان من قوله ويسألونك عن الجبال الى ههنا ينتهى الكلام وينقطع ثم قوله ولا تعجل بالقرآن خطاب مستأنف فكأنه قال ويسألونك ولا تعجل بالقرآن (الوجه الثانى) روى انه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شئ فيقرأ مع الملك فأمره بان يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد فراغه فى القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين انه سبحانه متعال عن كل ما لا ينبغى وانه موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى واذا حصل الامان عن السهو والنسيان قال ولا تعجل بالقرآن (المسئلة الثانية) قوله ولا تعجل بالقرآن يحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته فى نفسك ويحتمل أن لا تعجل فى تأديته الى غيرك ويحتمل فى اعتقاد ظاهره ويحتمل فى تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره وأما قوله من قبل أن يقضى اليك وحيه فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى اليك تمامه ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى اليك بيانه لان هذين الامرين لا يمكن تحصيلهما الا بالوحى ومعلوم انه عليه السلام لا ينهى عن قراءته لكى يحفظه ويؤديه فالمراد اذن ان لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحى تمامه أو بيانه أو هما جميعا لانه يجب التوقف فى معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق فى تفسير الآية ولنذكر أقوال المفسرين (أحدها) ان هذا كقوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له لا تعجل به الى ان يستتم وحيه فيكون أخذك اياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهما وعلما وهذا قول مقاتل والسدى ورواه عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) ولا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى اليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة (وثالثها) قال الضحاك ان أهل مكة وأسقف نجران قالوا يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلا ثلاثة أيام فأبطأ الوحى عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمدا فأنزل الله تعالى هذه الآية ولا تعجل بالقرآن أى بنزوله من قبل أن يقضى اليك وحيه من اللوح المحفوظ الى اسرافيل ومنه الى جبريل ومنه اليك وقل رب زدنى علما (ورابعها) روى الحسن أن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت زوجى لطم وجهى فقال بينكما القصاص فنزل قوله ولا تعجل بالقرآن فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصاص

حتى

فان اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى الى الخروج
عنها والعدول عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من ١١١ المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس

البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى الى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو لتذكير تلك الامور المنكرة والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى اليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر فى موضع آخر واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى أن لا تجوع فيها الخ أن لا يصيبه شئ من الامور الاربعة أصلا فان الشبع والرى والكسوة والكن قد تحصل بعد عروض أضدادها باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الامر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل الى شئ من الامور المذكورة تمتع به من غير أن يصل الى حد الضرورة ووجه افراده عليه السلام بما ذكر ما مر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع فى الذكر مع تجانسهما وتقارنهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالاشارة الى أن نفى كل واحد من تلك الامور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ لربما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على

حتى نزل قوله تعالى الرجال قوامون على النساء وهذا بعيد والاعتماد على التفصيل الاول أما قوله تعالى وقل رب زدنى علما فالمعنى انه سبحانه وتعالى أمره بالفزع الى الله سبحانه فى زيادة العلم التى تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه (المسئلة الثالثة) الاستعجال الذى نهى عنه ان كان فعله بالوحى فكيف نهى عنه (الجواب) لعله فعله بالاجتهاد وكان الاولى تركه فلهذا نهى عنه ﴿ قوله تعالى (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) اعلم ان هذا هو المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام فى القرآن أولها فى سورة البقرة ثم فى الاعراف ثم فى الحجر ثم فى الاسراء ثم فى الكهف ثم ههنا واعلم ان فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها (أحدها) انه تعالى لما قال كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ثم انه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة انجازا للوعد فى قوله كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق (وثانيها) انه لما قال وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال ان طاعة بنى آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فانا عهدنا الى آدم من قبل أى من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا فى تنبيهه حيث قلنا له ان هذا عدو لك ولزوجك ثم انه مع ذلك نسى وترك ذلك العهد فأمر البشر فى ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم (وثالثها) انه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب زدنى علما ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فانه بعد ما عهد الله اليه وبالغ فى تجديد العهد وتحذيره من العدو نسى فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ الى الاستعانة بربه فى ان يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان (ورابعها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه دل على انه كان فى الجد فى أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالافراط وصف آدم بالتفريط فى ذلك فانه تساهل فى ذلك ولم يتحفظ حتى نسى فوصف الاول بالتفريط والآخر بالافراط ليعلم ان البشر لا ينفك عن نوع زلة (وخامسها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل ضاق قلبه وقال فى نفسه لولا انى أقدمت على ما لا ينبغى والا لما نهيت عنه فقيل له ان كنت فعلت ما نهيت عنه فانما فعلته حرصا منك على العبادة وحفظا لاداء الوحى وان أباك أقدم على ما لا ينبغى للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره أما قوله تعالى ولقد عهدنا الى آدم من قبل فلا شك ان المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهى منه كما يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم اشار الملك اليه وعهد اليه قال المفسرون عهدنا اليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها وفى قوله تعالى من قبل وجوه (أحدها) من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد فى القرآن (وثانيها) قال ابن عباس من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا اليه أن لا يأكل منها

أن نفى كل واحد من الامور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لا أن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية
لنفى بعض آخر كما عسى يتوهم ١١٢ لو جمع بين كل من المتجانسين وقرئ انك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على

(وثالثها) أى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن أما قوله نسى فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة ونعيد ههنا منه شيأ قليلا وفى النسيان قولان (أحدهما) المراد ماهو نقيض الذكر وانما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة فى الضبط حتى تولد منه النسيان وكان الحسن رحمه الله يقول والله ماعصى قط الا بنسيان (والثانى) أن المراد بالنسيان الترك وانه ترك ماعهد اليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقرئ فنسى أى فنساه الشيطان وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال أقدم على المعصية من غير تأويل وأن يقال أقدم عليها مع التأويل والكلام فيه قد تقدم فى سورة البقرة وأما قوله ولم نجد له عزما ففيه ابحاث (الاول) الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزما وأن يكون نقيض العدم كأنه قال وعدمنا له عزما (البحث الثانى) العزم هو التصميم والتصلب ثم قوله ولم نجد له عزما يحتمل ولم نجد له عزما على القيام على المعصية فيكون الى المدح أقرب ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزما على ترك المعصية أولم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة أولم نجد له عزما على الاحتياط فى كيفية الاجتهاد اذا قلنا انه عليه السلام انما أخطأ بالاجتهاد وأما قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فهذا يشتمل على مسائل (احداها) أن المأمورين كل الملائكة أو بعضهم (وثانيتها) انه مامعنى السجود (وثالثتها) ان ابليس هل كان من الملائكة أم لا وان لم يكن فكيف صح الاستثناء وباى شئ صار مأمورا بالسجود (ورابعتها) ان هذا هل يدل على ان آدم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم ام لا (وخامستها) ان قوله فى صفة ابليس انه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الاباء وانه هل كان كافرا ابتداء أو كفر بسبب ذلك واعلم ان هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة أما قوله فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ففيه سؤالات (الاول) ماسبب تلك العداوة الجواب من وجوه (أحدها) أن ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله تعالى فى حق آدم عليه السلام حسده فصار عدوا له (وثانيها) ان آدم كان شابا عالما لقوله وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم (وثالثها) ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (السؤال الثانى) لم قال فلا يخرجنكما من الجنة مع أن المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى الجواب لما كان بوسوسته هو الذى فعل ماترتب عليه الخروج صح ذلك (السؤال الثالث) لم أسند الى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما فى الفعل الجواب من وجهين (أحدهما) ان فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما ان فى ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة (الثانى) أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة وروى انه أهبط

أن لاتجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بأن المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى افادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة ولا اجتماع فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما فى حيزهما بخلاف مالو وقعت خبرا لها فان اتحاد المناط حينئذ مما لاريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبريتها مافيها من الحكم الايجابي اوالسلبي وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لاثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وانما لم يجوزوا أن يقال ان أن زيدا قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا ان عندى أن زيدا قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وان كانت نائبة عن
المكسورة التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى افضاء معناها واجراء أحكامها الى
على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها

الى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه أما قوله ان لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ وانك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على ان لا تجوع فيها فان قيل ان لاتدخل على ان فلا يقال ان ان زيدا منطلق والواو نائبة عن ان وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها قلنا الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن ان انما هى نائبة عن كل عامل فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع ان وان (المسئلة الثانية) الشبع والرى والكسوة والاكتنان فى الظل هى الاقطاب التى يدور عليها أمر الانسان فذكر الله تعالى حصول هذه الاشياء له فى الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لاضدادها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحى ليطرق سمعه شيأ من أصناف الشقوة التى حذره منها حتى يبالغ فى الاحتراز عن السبب الذى يوقعه فيها وهذه الاشياء كلها كانها تفسير الشقاء المذكور فى قوله فتشقى ﴿﴾ قوله تعالى (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) واعلم انه سبحانه بين انه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجودا للملائكة وبين انه عرفه شدة عداوة ابليس له ولزوجه وانه لعداوته يدعوهم الى المعصية التى اذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها ثم انه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الاقدام على الزلة ما اتفق والعجب ماروى عن أبى أمامة الباهلى قال لو ان أحلام بنى آدم لى قيام الساعة وضعت فى كفة ميزان ووضع حلم آدم فى الاخرى لرجح حلمه باحلامهم ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتنعة واعلم ان واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لاتجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لايبلى فكان الشئ الذى رغب الله آدم فيه هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه وأعلمه بأن ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربى ومن تأمل فى هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لادافع لقضاء الله ولا مانع منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لايحصل النفع به الا اذا قضى الله تعالى ذلك وقدره وأما قوله فوسوس اليه الشيطان فقد تقدم فى سورة البقرة انه كيف وسوس وبماذا وسوس فان قيل كيف عدى وسوس تارة باللام فى قوله فوسوس لهما الشيطان وأخرى بالى قلنا قوله فوسوس له

على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى ان لك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظما خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظما والضحو مطلقا كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض أن المفيدة له كأنه قيل أن لك فيها عدم ظمئك على التحقيق (فوسوس اليه الشيطان) أى أنهى اليه وسوسته أو أسرها اليه (قال) أما بدل من وسوس أو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (وملك لايبلى) أى لايزول ولا يختل بوجه من الوجوه (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قد مر تفسيره فى سورة الاعراف (وعصى آدم ربه) بما ذكر من أكل الشجرة (فغوى) ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرئ فغوى من غوى

الفصيل اذا انفطم من اللبن وفى
وصفه عليه السلام بالعصيان
والغواية مع صغر زلته تعظيم لها
وزجر بليغ لاولاده عن أمثالها
(ثم اجتباه ربه) أى اصطفاه
وقرّبه اليه بالحمل على التوبة
والتوفيق لها من اجتبى الشئ
بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك
اجتمعته أو من جبى الى كذا
فاجتبيته مثل جليت على العروس
فاجتليتها وأصل الكلمة الجمع
وفى التعرض لعنوان الربوبية
مع الاضافة الى ضميره عليه السلام
مزيد تشريف له عليه السلام
(فتاب عليه) أى قبل توبته حين
تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا
أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا
لنكونن من الخاسرين وافراده
عليه السلام بالاجتباء وقبول
التوبة قدمر وجهه (وهدى) أى
الى الثبات على التوبة والتمسك
بأسباب العصمة (قال) استئناف
مبنى على سؤال نشأ من الاخبار
بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه
قيل فماذا أمره تعالى بعد ذلك
فقيل قال له ولزوجته (اهبطا منها
جميعا) أى انزلا من الجنة الى
الارض وقوله تعالى (بعضكم لبعض
عدو) حال من ضمير المخاطب فى
اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية
ومنشأ الاولاد أى متعادين فى أمر
المعاش كما عليه الناس من
التجاذب والتحارب (فاما يأتينكم
منى هدى) من كتاب ورسول (فمن
اتبع هداى) وضع الظاهر موضع

معناه لاجله وقوله وسوس اليه معناه أنهى اليه الوسوسة كقوله حدّث له وأسرّ اليه ثم بين ان تلك الوسوسة كانت بتطميعه فى أمرين (أحدهما) قوله هل أدلك على شجرة الخلد أضاف الشجرة الى الخلد وهو الخلود لان من أكل منها صار مخلدا بزعمه (الثانى) قوله وملك لا يبلى أى من أكل من هذه الشجرة دام ملكه قال القاضى ليس فى الظاهر ان آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون ادم عليه السلام نبيا لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه لانه لابد وأن تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت وبالمعنى فآدم لما كان نبيا امتنع أن لا يعلم ذلك قلنا لا نسلم بأنه لابد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ولم لا يجوز أن يقال لا حاجة الى الفترة أصلا وان كان ولابد فيكفى حصول الفترة بغشى أو نوم خفيف ثم ان كان ولابد من حصول الفترة بالموت فلم قلت النبى لابد وأن يعلم ذلك أليس قوم منكم يقولون ان موسى عليه السلام انما سأل الرؤية لانه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فاذا جاز ذلك الجهل فلم لا يجوز هذا الجهل ثم ما الدليل على ان آدم كان نبيا فى ذلك الوقت فان مذهبنا ان واقعة الزلة انما حصلت قبل رسالته لا بعدها ثم ان الذى يدل على ان آدم قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم زنى ماعز فرجم وسها رسول الله فسجد فان هذه الفاء تدل على أن الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك ههنا يجب أن يكون الاكل كالمعلل باستماع قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وانما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه فانه لورد قوله لما أقدم على الاكل بناء على قوله فثبت أن آدم عليه السلام قبل ذلك من ابليس ثم انه سبحانه بين انهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع فقيل سوآتهما كما قال صغت قلوبكما فان قيل هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما قلنا لا شك ان ذلك كالمعلق على ذلك الاكل لكن يحتمل أن لا يكون عقابا عليه بل انما ترتب عليه لمصلحة أخرى أما قوله وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ففيه ابحاث (الاول) قال صاحب الكشاف طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وحكمها حكم كاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينها وبينه مسافة قصيرة وهى للشروع فى أول الامر وكاد لمقاربته والدنو منه (البحث الثانى) قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف أى يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين أما قوله وعصى آدم ربه فغوى فمن الناس من تمسك بهذا فى صدور الكبيرة عنه من وجهين (الاول) ان العاصى اسم للذم فلا يطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله نارا خالدا فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه (والوجه الثانى) ان الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشد ومثل هذا الاسم لا يتناول الا الفاسق المنهمك

المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى
لتشريفه والمبالغة فى ايجاب
اتباعه (فلا يضل) فى الدنيا (ولا
يشقى) فى الآخرة (ومن أعرض
عن ذكرى) أى عن الهدى الذاكر
لى والداعى الىّ (فان له) فى الدنيا
(معيشة ضنكا) ضيقا مصدر
وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر
والمؤنث وقرئ ضنكى كسكرى
وذلك لان مجامع همته ومطامح نظره
مقصورة على أعراض الدنيا وهو
متهالك على ازديادها وخائف من
انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب
للآخرة مع انه قد يضيق الله
تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة
الايمان كما قال تعالى وضربت
عليهم الذلة والمسكنة وقال تعالى
ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا
لفتحنا عليهم بركات من السماء
والارض وقال تعالى ولو أن أهل
الكتاب آمنوا الى قوله تعالى
لاكلوا من فوقهم ومن تحت
أرجلهم وقيل هو الضريع والزقوم
فى النار وقيل عذاب القبر
(ونحشره) وقرئ بسكون الهاء
على لفظ الوقف وبالجزم عطفا
على محل فان له معيشة ضنكا لانه
جواب الشرط (يوم القيامة
أعمى) فاقد البصر كما فى قوله تعالى
ونحشرهم يوم القيامة على
وجوههم عميا وبكما وصما لا أعمى
عن الحجة كما قيل (قال) استئناف
كما مر (رب لم حشرتنى أعمى وقد
كنت بصيرا) أى فى الدنيا وقرئ
أعمى بالامالة فى الموضعين وفى

فى فسقه أجاب قوم عن الكلام الاول فقالوا المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب والندب فانهم يقولون أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى واذا كان الامر كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض بأنا بينا ان ظاهر القرآن يدل على أن العاصى مستحق للعقاب والعرف يدل على انه اسم ذم فوجب تخصيص اسم العاصى بتارك الواجب ولانه لو كان تارك المندوب عاصيا لوجب وصف الانبياء بأسرهم بأنهم عصاة فى كل حال لانهم لا ينفكون من ترك المندوب فان قيل وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد قلنا لما سلمت كونه مجازا فالاصل عدمه أما قوله أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى قلنا لا نسلم ان هذا الاستعمال مروى عن العرب ولئن سلمنا ذلك ولكنهم انما يطلقون ذلك اذا جزموا على المستشير بأنه لابد وأن يفعل ذلك الفعل وانه لا يجوز الاخلال بذلك الفعل وحينئذ يكون معنى الايجاب حاصلا وان لم يكن الوجوب حاصلا وذلك يدل على ان لفظ العصيان لا يجوز اطلاقه الا عند تحقق الايجاب لكنا اجمعنا على ان الايجاب من الله تعالى يقتضى الوجوب فيلزم أن يكون اطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام انما كان لكونه تاركا للواجب ومن الناس من سلم ان الآية تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم ان المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر وهذا قول عامة المعتزلة وهو أيضا ضعيف لانا بينا ان اسم العاصى اسم للذم ولان ظاهر القرآن يدل على انه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة وأجاب أبو مسلم الاصفهانى بأنه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذلك القول فى غوى وهذا أيضا بعيد لان مصالح الدنيا تكون مباحة ومن يفعله لا يوصف بالعصيان الذى هو اسم للذم ولا يقال فدلاهما بغرور وأما التمسك بقوله تعالى فغوى فأجابوا عنه من وجوه (أحدها) انه خاب من نعيم الجنة وذلك لانه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائما ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل انه غوى وتحقيقه ان الغى ضد الرشد والرشد هو أن يتوصل بشئ الى شئ يوصل الى المقصود فمن توصل بشئ الى شئ فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غيا (وثانيها) قال بعضهم غوى أى بشم من كثرة الاكل قال صاحب الكشاف هذا وان صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا فيقول فى فنى وبقى فنا وبقا وهم بنو طى فهو تفسير خبيث واعلم أن الاولى عندى فى هذا الباب والاحسم للشغب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك فى سورة البقرة وههنا بحث لا بد منه وهو ان ظاهر القرآن وان دل على ان آدم عصى وغوى لكن ليس لاحد أن يقول ان آدم كان عاصيا غاويا ويدل على صحة قولنا أمور (أحدها) قال العتبى يقال للرجل قطع ثوبا وخاطه قد قطعه وخاطه ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاودا لذلك الفعل معروفا به ومعلوم ان هذه الزلة لم تصدر عن ادم عليه السلام الا مرة واحدة

فوجب أن لا يجوز اطلاق هذا الاسم عليه (وثانيها) ان على تقدير أن تكون هذه الواقعة
انما وقعت قبل النبوّة لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوّة اطلاق هذا
الاسم عليه كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر انه كافر بمعنى انه كان كافرا بل و بتقدير أن يقال
هذه الواقعة وقعت بعد النبوّة لم يجز أيضا أن يقال ذلك لانه عليه السلام تاب عنها وكما ان
الرجل المسلم اذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك انه شارب خمر
أو زان فكذا ههنا (وثالثها) ان قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصيا في أكثر الاشياء
وغاويا عن معرفة الله تعالى ولم تردها تان اللفظتان في القرآن مطلقتين بل مقرونتين
بالقصة التي عصى فيها فكأنه قال عصى في كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذى
ذكرناه (ورابعها) انه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره كما يجوز للسيد في عبده وولده
عند معصيته من اطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده أما قوله ثم اجتباه ربه
فتاب عليه وهدى فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه أي عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده
حتى رجع الى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم انه
قال لو جمع بكاء أهل الدنيا الى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ولو جمع كل ذلك الى بكاء نوح لكان
بكاء نوح أكثر وانما سمى نوحا لنوحه على نفسه ولو جمع كل ذلك الى بكاء آدم لكان بكاء
آدم على خطيئته أكثر وقال وهب انه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى اليه وأمره بأن يقول
لا اله الا أنت سبحانك و بحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت خير الغافرين
فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك و بحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي
فارحمني انك أنت أرحم الراحمين ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك و بحمدك عملت سوأ
وظلمت نفسي فتب عليّ انك أنت التوّاب الرحيم قال ابن عباس رضى الله عنهما هذه
الكلمات هي التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه ﴿ قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعا
بعضكم لبعض عدوّ فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض
عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد
كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف
ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى) اعلم ان على أوّل هذه الآية سؤالا وهو
ان قوله اهبطا اما أن يكون خطابا مع شخصين أو أكثر فان كان خطابا لشخصين فكيف
قال بعده فاما يأتينكم مني هدى وهو خطاب الجمع وان كان خطابا لاكثر من شخصين
فكيف قال اهبطا وذكروا في جوابه وجوها (أحدها) قال أبو مسلم الخطاب لآدم ومعه
ذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله اهبطا ولاجل اشتمال كل واحد
من الجنسين على الكثرة صح قوله فاما يأتينكم (ثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان
آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر
أنفسهم فخوطبا مخاطبتهم فقال فاما يأتينكم على لفظ الجماعة أما قوله بعضكم لبعض عدوّ ١

فقال

الاول فقط لكونه جديرا بالتغيير
لكونه رأس الآية ومحل الوقف
(قال كذلك) أي مثل ذلك فعلت
أنت ثم فسره بقوله تعالى (أتتك
آياتنا) واضحة نيرة بحيث لا تخفى
على أحد (فنسيتها) أي عميت عنها
وتركتها ترك المنسي الذى لا يذكر
أصلا (وكذلك) ومثل ذلك
النسيان الذى كنت فعلته في الدنيا
(اليوم تنسى) تترك في العمى
والعذاب جزاء وفاقا لكن لا أبدا
كما قيل بل الى ما شاء الله ثم يزيله عنه
فيرى أهوال القيامة ويشاهد
مقعده من النار ويكون ذلك له
عذابا فوق العذاب وكذا البكم
والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم
أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا
(وكذلك) أي مثل ذلك الجزاء
الموافق للجناية (نجزي من أسرف)
بالانهماك في الشهوات (ولم يؤمن
بآيات ربه) بل كذبها وأعرض
عنها (ولعذاب الآخرة) على
الاطلاق أو عذاب النار (أشدّ
وأبقى) اى من ضنك العيش أو منه
ومن الحشر على العمى (أفلم يهد
لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون)
كلام مستأنف مسوق لتقرير
ما قبله من قوله تعالى وكذلك نجزي
الآية والهمزة للانكار والتوبيخ
والفاء للعطف على مقدر يقتضيه
المقام واستعمال الهداية باللام
اما لتنزيلها منزلة اللازم فلا حاجة
الى المفعول أو لانها بمعنى التبيين
والمفعول محذوف وأياما كان

فقال القاضي يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون ابليس والشياطين أعداء للناس
والناس أعداء لهم فاذا انضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في
الكلام وقوله فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فيه دلالة على أن المراد الذرية وقد
اختلفوا في المراد بالهدى فقال بعضهم الرسل و بعضهم قال الآيات والادلة و بعضهم قال
القرآن والتحقيق ان الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك وفي قوله فلا يضلّ
ولا يشقى دلالة على انّ المراد بالهدى الذى ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الادلة واتباعها
لا يتكامل الا بأن يستدل بها و بأن يعمل بها ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن
لا يضلّ ولا يشقى وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة
(وثانيها) لا يضلّ ولا يشقى في الآخرة لانه تعالى يهديه الى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها)
لا يضلّ ولا يشقى في الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا قلنا المراد
لا يضلّ في الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس ولما وعد
تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض فقال ومن أعرض عن ذكرى والذكر
يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه و يحتمل أن يراد به الادلة وقوله
فان له معيشة ضنكا فالضنك أصله الضيق والشدّة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال منزل
ضنك وعيش ضنك فكأنه قال معيشة ذات ضنك واعلم انّ هذا الضيق المتوعد به اما أن
يكون في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين أو في كل ذلك أو أكثره (أما الاوّل)
فقال به جمع من المفسرين وذلك لانّ المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشا طيبا كما
قال فلنحيينه حياة طيبة والكافر بالله يكون حريصا على الدنيا طالبا للزيادة أبدا فعيشته
ضنك وحالته مظلمة وأيضا من الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى
وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله
وقال ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن
تحت أرجلهم وقال تعالى ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء
والارض وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم
بأموال وبنين وقال وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (واما الثاني) وهو
عذاب القبر فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس ورفعه
أبو هريرة الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان عذاب القبر للكافر قال والذى نفسي بيده
انه ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنينا قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت الآية في
الاسود بن عبد العزى المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيها اضلاعه (وأما الثالث)
وهو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم فيها الضريع والزقوم وشرابهم الحميم
والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وهذا قول الحسن وقتادة والكلبيّ (وأما الرابع)
وهو الضيق في أحوال الدين فقال ابن عباس رضى الله عنهما المعيشة الضنك هي أن

فالفاعل هو الجملة بمضمونها
ومعناها وضمير لهم للمشركين
المعاصرين لرسول الله صلى الله
عليه وسلم والمعنى أغفلوا فلم يفعل
الهداية لهم أو فلم يبين لهم مآل
أمرهم كثرة اهلاكنا للقرون
الاولى وقد مرّ في قوله عز وجلّ
أولم يهد للذين يرثون الارض من
بعد أهلها الآية وقيل الفاعل
الضمير العائد الى الله عز وجلّ
ويؤيده القراءة بنون العظمة
وقوله تعالى كم أهلكنا الخ اما معلق
للفعل سادّ مسدّ مفعوله أو مفسر
لمفعوله المحذوف هكذا قيل
والاوجه أن لا يلاحظ له مفعول
كأنه قيل أفلم يفعل الله تعالى لهم
الهداية ثم قيل بطريق الالتفات
كم أهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية
ومن القرون في محل النصب على
انه وصف لمميز كم أي كم قرنا كائنا
من القرون وقوله تعالى (يمشون
في مساكنهم) حال من القرون
أو من مفعول أهلكنا أي أهلكناهم
وهم في حال أمن وتقلب في ديارهم
أو من الضمير في لهم مؤكد
للانكار والعامل يهد والمعنى أفلم
يهد لهم اهلاكنا للقرون السالفة
من أصحاب الحجر وثمود وقريات
قوم لوط حال كونهم ماشين في
مساكنهم اذا سافروا الى الشأم
مشاهدين لآثار هلاكهم مع أنّ
ذلك مما يوجب ان يهتدوا الى الحق

تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشئ منها سئل الشبلى عن قوله عليه السلام اذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية فقال أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى الى أنفسهم وأى معيشة أضيق وأشد من أن يرد الانسان الى نفسه وعن عطاء قال المعيشة الضنك هى معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب (وأما الخامس) وهو أن يكون المراد الضيق فى كل ذلك أو أكثره فروى عن على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر فى الشدة وأن لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله تعالى أما قوله تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى ففيه وجوه (أحدها) هذا مثل قوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وكما فسرت الزرقة بالعمى ثم قيل انه يحشر بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمى والكلام فيه وعليه قد تقدم فى قوله زرقا (وثانيها) قال مجاهد والضحاك ومقاتل يعنى أعمى عن الحجة وهى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال القاضى هذا القول ضعيف لان فى القيامة لا بد أن يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه حتى يتميز لهم الحق من الباطل ومن هذا حاله لا يوصف بذلك الا مجازا والمراد به انه كان من قبل ذلك كذلك ولا يليق بهذا قوله وقد كنت بصيرا ولم يكن كذلك فى حال الدنيا أقول ومما يؤكد هذا الاعتراض انه تعالى علل ذلك العمى بما ان المكلف نسى الدلائل فى الدنيا فلو كان العمى الحاصل فى الآخرة عين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر كما أنه ما كان له فى الدنيا بسبب ذلك ضرر واعلم ان تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من أمر آخر وهو أن الارواح الجاهلة فى الدنيا المفارقة عن أبدانها على جهالتها تبقى على تلك الجهالة فى الآخرة وان تلك الجهالة تصير هنالك سببا لاعظم الآلام الروحانية وبين هذه الطريقة وبين طريقة القاضى المبنية على أصول الاعتزال بون شديد (وثالثها) قال الجبائى المراد من حشره أعمى انه لا يهتدى يوم القيامة الى طريق ينال منه خيرا بل يبقى واقفا متحيرا كالاعمى الذى لا يهتدى الى شئ أما قوله قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ففى تقرير هذا الجواب وجهان (أحدهما) انه تعالى انما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والاعراض عنه (والثانى) هو أن الارواح البشرية اذا فارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية فلهذا علل الله تعالى حصول العمى فى الآخرة بالاعراض عن الدلائل فى الدنيا ومن فسر المعيشة الضنك بالضيق فى الدنيا قال انه تعالى بين ان من أعرض عن ذكره فى الدنيا فله المعيشة الضنك فى الدنيا والعمى فى الآخرة أما قوله وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه فقد اختلفوا فيه فبعضهم قال أشرك وكفر وبعضهم قال أسرف فى أن عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله ولم يؤمن بآيات ربه لان ذلك كالتفسير لقوله أسرف وبين انه يجزى من هذا

فيعتبروا لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك وقرئ يمشون على البناء للمفعول أي يمكنون من المشى (ان فى ذلك) تعليل للانكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك اشارة الى مضمون قوله تعالى كم أهلكنا الخ وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلو شأنه فى بابه (لآيات) كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فاذن هو هاد وأى هاد ويجوز أن تكون كلمة فى تجريدية فافهم (لاولى النهى) لذوي العقول الناهية عن القبائح التى من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامى عنها وغير ذلك من فنون المعاصي وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع ما يشعر به قوله تعالى أفلم يهد لهم الآية من أن يصيبهم مثل ما أصاب القرون المهلكة أى ولولا الكلمة السابقة وهى العدة بتأخير عذاب هذه الامة الى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه (لكان) عقاب جناياتهم (لزاما) أى لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل بأولئك الغابرين وفى التعرض لعنوان

حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك ان عذاب الآخرة أشد وأبقى أما الاشد فلعظمه وأما الابقى فلانه غير منقطع ﴿ قوله تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى) اعلم انه تعالى لما بين ان من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة أتبعه بما لا يعتبر المكلف من الاحوال الواقعة فى الدنيا بمن كذب الرسل فقال أفلم يهد لهم والقراءة العامة أفلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله كم أهلكنا قال القفال جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم كما جعل مثل ذلك واعظا لهم وزاجرا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى أفلم نهد لهم بالنون قال الزجاج يعنى أفلم نبين لهم بيانا يهتدون به لو تدبروا وتفكروا وأما قوله كم أهلكنا فالمراد به المبالغة فى كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله يمشون فى مساكنهم ان قريشا يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم وما حل بهم من ضروب الهلاك وللمشاهدة فى ذلك من الاعتبار ما ليس لغيره وبين ان فى تلك الآيات آيات لاولى النهى أى لاهل العقول والاقرب ان للنهية مزية على العقل والنهى لا يقال الا فيمن له عقل ينتهى به عن القبائح كما أن لقولنا أولو العزم مزية على أولوا الحزم فلذلك قال بعضهم أهل الورع وأهل التقوى ثم بين تعالى الوجه الذى لاجله لا ينزل العذاب معجلا على من كذب وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى وفيه تقديم وتأخير والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ولا شبهة فى أن الكلمة هى اخبار الله تعالى ملائكته وكتبه فى اللوح المحفوظ ان أمته عليه السلام وان كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال واختلفوا فيما لاجله لم يفعل ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لانه علم ان فيهم من يؤمن وقال آخرون علم ان فى نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك وقال آخرون المصلحة فيه خفية لا يعلمها الا هو وقال أهل السنة له بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة ان كانت قديمة لزم قدم الفعل وان كانت حادثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل فلهذا قال أهل التحقيق كل شئ صنعه لا لعلة وأما الاجل المسمى ففيه قولان (أحدهما) ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر (والثانى) ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا أقرب ويكون المراد ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب الى الآخرة كقوله بل الساعة موعدهم لكان العقاب لازما لهم فى الحال بما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له ثم انه تعالى لما أخبر نبيه بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ولا شبهة فى أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم فيحتمل

الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تلويح بان ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبئ عنه قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم واللزام اما مصدر لازم وصف به مبالغة واما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم (وأجل مسمى) عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لاعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة الى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد الى الاخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الاخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كدأب عاد وثمود وأضرابهم ولم ينفرد الاجل المسمى دون الاخذ العاجل (فاصبر على ما يقولون) أى اذا كان الامر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وأنه لازم لهم البتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فان علمه عليه السلام بأنهم معذبون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر (وسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك الى كمالك على هدايته وتوفيقه أو نزهه تعالى عما ينسبونه

أن يكون ذلك قول بعضهم انه ساحر أو مجنون أو شاعر الى غير ذلك ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ويحتمل أيضا تركهم القبول منه لان كل ذلك مما يغمه ويؤذيه فرغبه تعالى فى الصبر وبعثه على الادامة على الدعاء الى الله تعالى وابلاغ ما حمل من الرسالة وأن لا يكون ما يقدمون عليه صارفا له من ذلك ثم قال الكلبى ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم قال فسبح بحمد ربك وهو نظير قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) بحمد ربك فى موضع الحال أى وأنت حامد لربك على ان وفقك للتسبيح وأعانك عليه (المسئلة الثانية) انما أمر عقيب الصبر بالتسبيح لان ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة اذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى التسبيح على وجهين فالاكثرون على أن المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه (أحدها) ان الآية تدل على ان الصلوات الخمس لا أزيد ولا أنقص فقال ابن عباس رضى الله عنهما دخلت الصلوات الخمس فيه فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر وقبل غروبها هو الظهر والعصر لانهما جميعا قبل الغروب ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الاخيرة ويكون قوله وأطراف النهار كالتوكيد للصلاتين الواقعتين فى طرفى النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت فى قوله والصلاة الوسطى بالتوكيد (القول الثانى) ان الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة أما دلالتها على الصلوات الخمس فلان الزمان اما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان فى هاتين العبارتين فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما بقى قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى وأطراف النهار للنوافل (القول الثالث) انها تدل على أقل من الخمس فقوله قبل طلوع الشمس للفجر وقبل غروبها للعصر ومن آناء الليل للمغرب والعتمة فيبقى الظهر خارجا والقول الاول أقوى وبالاعتبار أولى هذا كله اذا حملنا التسبيح على الصلاة قال أبو مسلم لا يبعد حمله على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى فى هذه الاوقات وهذا القول أقرب الى الظاهر والى ما تقدم ذكره وذلك لانه تعالى صبره أولا على ما يقولون من تكذيبه ومن اظهار الشرك والكفر والذى يليق بذلك ان يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائما مظهرا لذلك وداعيا اليه فلذلك قال ما يجمع كل الاوقات (المسئلة الرابعة) أفضل الذكر ما كان بالليل لان الجمعية فيه أكثر وذلك لسكون الناس وهدء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الاعمال ولذلك قال سبحانه وتعالى ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا وقال أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ولان الليل وقت السكون والراحة فاذا صرف الى العبادة كانت على النفس أشق وللبدن اتعب فكانت ادخل فى استحقاق الاجر والفضل (المسئلة الخامسة) لقائل أن يقول النهار له طرفان فكيف قال واطراف النهار بل الاولى أن يقول كما قال وأقم الصلاة طرفى النهار وجوابه من الناس من قال أقل الجمع

الله مما لا يليق بشانه الرفيع حامدا له على ما ميزك بالهدى معترفا بأنه مولى النعم كلها والاول هو الاظهر المناسب لقوله تعالى (قبل طلوع الشمس) الخ فان توقيت التنزيه غير معهود فالمراد صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعنى صلاتى الظهر والعصر لانهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل صلاة العصر (ومن آناء الليل) أى من ساعاته جمع انى بالكسر والقصر وأناء بالفتح والمد (فسبح) أى فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما أجمع والنفس الى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا (وأطراف النهار) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ايذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لامن الالباس كقول من قال

ظهراهما مثل ظهور الترسين

أو أمر بصلاة الظهر فانه نهاية النصف الاول من النهار وبداية النصف الاخير وجمعه باعتبار النصفين أو لان النهار جنس أو أمر بالتطوع فى أجزاء النهار (لعلك ترضى) متعلق بسبح أى سبح فى هذه الاوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك وقرئ ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أى يرضيك ربك

اثنان فسقط السؤال ومنهم من قال انما جمع لانه يتكرر فى كل نهار ويعود أما قوله تعالى لعلك ترضى ففيه وجوه (أحدها) أن هذا كما يقول الملك الكبير يا فلان اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به ويكون المراد الى أوصلك الى درجة عالية فى النعمة وهو اشارة الى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (وثانيها) لعلك ترضى ما تنال من الثواب (وثالثها) لعلك ترضى ما تنال من الشفاعة وقرأ الكسائى وعاصم لعلك ترضى بضم التاء والمعنى لا يختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه ﴿قوله تعالى (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم

زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها

لا نسئلك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة

ما فى الصحف الاولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا

رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من

أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) اعلم انه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على ما يقولون وأمره بان يعدل الى التسبيح أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه الى ما متع به القوم فقال تعالى ولا تمدن عينيك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله ولا تمدن عينيك وجهان (أحدهما) المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا امد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور اليه واعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم حتى واجههم أولوا العلم والايمان بقولهم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك كما اذا نظر الانسان الى شئ مرة ثم غض ولما كان النظر الى الزخارف كالمركوز فى الطباع قيل ولا تمدن عينيك أى لا تفعل ما أنت معتاد له واقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن ابنية الظلمة وعدد الفسقة فى اللباس والمركوب وغير ذلك لانهم اتخذوا هذه الاشياء عيون النظارة فالناظر اليها محصل لغرضهم وكالمقوى لهم على اتخاذها (القول الثانى) قال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أى لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا (المسئلة الثانية) قال أبو رافع نزل ضيف بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى لبيع أو سلف فقال والله لا أفعل ذلك الا برهن فأخبرته بقوله فأمرنى ان أذهب بدرعه اليه فنزل قوله تعالى ولا تمدن عينيك وقال عليه السلام ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم والى اعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذ كم لها عبيدا وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلاطين يتلو هذه الآية وقال الصلاة يرحمكم الله أما قوله عز وجل الى ما متعنا به اى ألذذنا به والامتاع

(ولا تمدن عينيك) أى لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل (الى ما متعنا به) من زخارف الدنيا وقوله تعالى (أزواجا منهم) اى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول منهم أى الى الذى متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم على أنه معنى من التبعيضية أو بعضا منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا (زهرة الحيوة الدنيا) منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا اى أعطينا أو به على تضمين معناه أو بالبدلية من محله أو من أزواجا بتقدير مضاف او بدونه او بالذم وهى الزينة والبهجة وقرئ زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة او جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهر والدنيا لتنعمهم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد (لنفتنهم فيه) متعلق بمتعنا جئ به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلا اثر اظهار بهجته حالا أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه (ورزق ربك) أى ما ادخر لك فى الآخرة او ما رزقك فى الدنيا من النبوة والهدى (خير) مما منحهم فى الدنيا لانه مع كونه فى نفسه اجل ما يتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف ما منحوه (وأبقى) فانه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدا كما عليه زهرة الدنيا (وأمر أهلك بالصلوة) أمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من امته بالصلاة بعد ما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر

المعيشة ولا يلتفتوا لفت ارباب الثروة ١٣٢ (واصطبر عليها) وثابر عليها غير مشتغل بامر المعاش (لانسألك رزقا) أي لانكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك (نحن نرزقك) واياهم ففرغ بالك بامر الآخرة (والعاقبة) الحميدة (للتقوى) أي لاهل التقوى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على أن ملاك الامر هو التقوى روى انه عليه السلام كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التي أمر عليه السلام بالصبر عليها أي هلا يأتينا بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة أو بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد الى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء وقوله تعالى (أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى) أي التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان القرآن الكريم الذي هو أم الآيات وأس المعجزات واعظمها وأبقاها لان حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من الامور الخارقة للعادات أي أمر كان ولا ريب في أن العلم أجل الامور وأعلاها اذ هو أصل الاعمال ومبدأ الافعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الاولين والآخرين على يد أمي لم يمارس شيأ من العلوم ولم يدارس

الالتذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح يقال أمتعه امتاعا ومتعه تمتيعا والتفعيل يقتضي التكثير أما قوله أزواجا منهم أي أشكالا وأشباها من الكفار وهي من المزاوجة بين الاشياء وهي المشاكلة وذلك لانهم أشكال في الذهاب عن الصواب وقال ابن عباس رضي الله عنهما أصنافا منهم وقال الكلبي والزجاج رجالا منهم أما قوله زهرة الحياة الدنيا ففي انتصابه أربعة أوجه (أحدها) على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعنا معنى أعطينا وكونه مفعولا ثانيا له أو على ابداله من محل الجار والمجرور أو على ابداله من أزواجا على تقدير ذوي فان قيل ما معنى الزهرة فيمن حركها قلنا معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة قرئ أرنا الله جهرة وأن يكون جمع زاهر وصفا لهم بانهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الالوان والتقشف في الثياب أما قوله لنفتنهم فيه فذكروا فيه وجوها (أحدها) لنعذبهم به كقوله فلا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما لنضلهم (وثالثها) قال الكلبي ومقاتل تشديدا في التكليف عليهم لان الاعراض عن الدنيا عند حضورها والاقبال الى الله أشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء الى خدمة الله تعالى والتضرع اليه أكثر من تضرع الاغنياء ولان على من أوتي الدنيا ضروبا من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولان القادر على المعاصي يكون الاجتناب عن المعاصي أشق عليه من العاجز الفقير فمن هذه الجهات تكون الزيادة في الدنيا تشديدا في التكليف ثم قال لرسوله ورزق ربك خير وأبقى والاظهر أن المراد أن مطلوبك الذي تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى لانه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من الدنيا ويحتمل أن يكون المراد ما أوتيته من يسير الدنيا اذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى فذكر الرزق في الدنيا ووصفه بحسن عاقبته اذا رضي به وصبر عليه ويحتمل ان يكون المراد ما اعطي من النبوة والدرجات الرفيعة واما قوله وأمر أهلك بالصلاة فمنهم من حمله على اقاربه ومنهم من حمله على كل اهل دينه وهذا أقرب وهو كقوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وان احتمل ان يكون المراد من يضمه المسكن اذا التنبيه على الصلاة والامر بها في اوقاتها ممكن فيهم دون سائر الامة يعني كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت قومك بها أما قوله واصطبر عليها فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلي عليهما السلام كل صباح ويقول الصلاة وكان يفعل ذلك أشهرا ثم بين تعالى انه انما يأمرهم بذلك لمنافعهم وانه متعال عن المنافع بقوله لا نسألك رزقا نحن نرزقك وفيه وجوه (احدها) قال ابو مسلم المعنى انه تعالى انما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد منه

أحدا من أهلها أصلا فاي معجزة ترا د بعد وروده وأي آية ترام مع وجوده ١٣٣ وفي ايراده بعنوان كونه بينة لما في الصحف الاولى من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية أي شاهدا بحقية ما فيها من العقائد الحقة وأصول الاحكام التي أجمعت عليها كافة الرسل وبصحة ما تنطق به من أنباء الامم من حيث انه غني باعجازه عما يشهد بحقيته حقيق باثبات حقية غيره ما لا يخفى من تنويه شأنه وانارة برهانه ومزيد تقرير وتحقيق لاتيانه واسناد الاتيان اليه مع جعلهم اياه ما تسابه للتنبيه على اصالته فيه مع ما فيه من المناسبة للبينة والهمزة لانكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل ألم يأتهم سائر الآيات ولم تأتهم خاصة بينة ما في الصحف الاولى تقريرا لاتيانه وايذانا بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم انكاره أصلا وان اجترؤا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرئ أولم يأتهم بالياء التحتانية وقرئ الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب) الى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن انكارها ببيان انهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لو أنا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصل (من قبله) متعلق بأهلكنا أو بمحذوف هو صفة لعذاب اي بعذاب كائن من قبل اتيان البينة أو من قبل محمد عليه الصلاة والسلام (لقالوا) أي يوم القيامة (ربنا لولا أرسلت الينا) في الدنيا (رسولا) مع كتاب

منه ان يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج وهو كقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (وثانيها) لانسألك رزقا لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ففرغ بالك لامر الآخرة وفي معناه قول الناس من كان في عمل الله كان الله في عمله (وثالثها) المعنى انا لما أمرناك بالصلاة فليس ذلك لانا ننتفع بصلاتك فعبر عن هذا المعنى بقوله لانسألك رزقا بل نحن نرزقك في الدنيا بوجوه النعم وفي الآخرة بالثواب قال عبد الله بن سلام كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا نزل باهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية واعلم أنه ليس في الآية رخصة في ترك التكسب لانه تعالى قال في وصف المتقين رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله أما قوله والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لاهل التقوى يعني تقوى الله تعالى ثم انه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم فكأنه من تمام قوله فاصبر على ما يقولون وهي قولهم لولا يأتينا بآية من ربه أوهموا بهذا الكلام انه يكلفهم الايمان من غير آية وقالوا في موضع آخر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وأجاب الله تعالى عنه بقوله أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى وفيه وجوه (أحدها) ان ما في القرآن اذا وافق ما في كتبهم مع ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالدراسة والتعلم وما رأى استاذا البتة كان ذلك اخبارا عن الغيب فيكون معجزا (وثانيها) ان بينة ما في الصحف الاولى ما فيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته وبعثته (وثالثها) ذكر ابن جرير والقفال والمعنى أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى من أنباء الامم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك وانما أتاهم هذا البيان في القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه بينة ما في الصحف الاولى واعلم انه انما ذكر الضمير الراجع الى البينة لانها في معنى البرهان والدليل ثم بين انه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة في التكليف فقال ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذرا لهم فأما الآن وقد أرسلناك وبينا على لسانك لهم ما عليهم وما لهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة عليهم ومعنى من قبله يحتمل من قبل ارساله ويحتمل من قبل ما أظهره من البينات فان قيل فما معنى قوله ولو أنا أهلكناهم لقالوا والهالك لا يصح أن يقول قلنا المعنى لكان لهم أن يقولوا ذلك يوم القيامة ولذلك قال من قبل أن نذل ونخزى وذلك لا يليق الا بعذاب الآخرة روى ان أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال عليه السلام يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة الهالك في الفترة يقول لم يأتني رسول والا كنت أطوع خلقك لك وتلا قوله لولا أرسلت الينا رسولا والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لي عقلا انتفع به ويقول الصبي كنت صغيرا لا اعقل فترفع لهم نار ويقال لهم ادخلوها فيدخلها من كان في علم الله تعالى أنه شقي ويبقى من في علمه انه سعيد فيقول الله تعالى لهم عصيتم اليوم فكيف برسلي لو أتوكم والقاضي طعن

في الخبر وقال لا يحسن العقاب على من لا يعقل واعلم أن في هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الجبائي هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف اذ المراد انه يجب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن وهلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وان كان في المعلوم أنهم لا يؤمنون ولو بعث اليهم الرسول لم يكن في ذلك حجة فصح انه انما يكون حجة لهم اذا كان في المعلوم انهم يؤمنون عنده اذا أطاعوه (المسئلة الثانية) قال الكعبي قوله لولا أرسلت الينا رسولا أوضح دليل على انه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده وانه ليس قوله لا يسئل عما يفعل كما ظنه أهل الجبر من ان ما هو جور منا يكون عدلا منه بل تأويله انه لا يقع منه الا العدل فاذا ثبت انه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمر وا به لكان لهم فيه أعظم حجة (المسئلة الثالثة) قال أصحابنا الآية تدل على أن الوجوب لا يتحقق الا بالشرع اذ لو تحقق العقاب قبل مجيء الشرع لكان العقاب حاصلا قبل مجيء الشرع والآية تنفي تحقق العقاب قبل مجيء الشرع ثم انه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال قل كل متربص أي كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت اما بسبب الامر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة ويحتمل ان يكون بالموت فان كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه ويحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب فانه يتميز في الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى وعلى المبطل من أنواع اهانته فستعلمون عند ذلك من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى اليه وليس هو بمعنى الشك والترديد بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار والله أعلم

(سورة الانبياء عليهم السلام مائة واثنتا عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) اعلم أن قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فيه مسائل (المسئلة الاولى) القرب لا يعقل الا في المكان والزمان والقرب المكاني ههنا ممتنع فتعين القرب الزماني والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام الجواب من ثلاثة أوجه (أحدها) انه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (وثانيها) أن كل آت قريب وان طالت أوقات ترقبه وانما البعيد هو الذي انقرض قال الشاعر

فلا زال ما تهواه أقرب من غد • ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

(فنتبع اياتك) التى جاءنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب فى الدنيا (ونخزى) بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ (قل) لاولئك الكفرة المتمردين (كل) أى كل واحد منا ومنكم (متربص) منتظر لما يؤل اليه أمرنا وأمركم (فتربصوا) وقرئ فتمتعوا (فستعلمون) عن قريب (من أصحاب الصراط السوى) أى المستقيم قرئ السواء أى الوسط الجيد وقرئ السوء والسوءى والسوى تصغير السوء (ومن اهتدى) من الضلالة ومن فى الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها ما بعدها والجملة سادة مسد مفعولى العلم او مفعوله ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الاولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب اوعلى الصراط وقيل العائد فى الاولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط • عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار وقال لا يقرأ أهل الجنة من القرآن الا سورة طه ويس

• سورة الانبياء مكية وهى مائة واثنتا عشرة آية •

• (بسم الله الرحمن الرحيم) •

(اقترب للناس حسابهم) مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد

(وثانيها)

(وثانيها) ان المعاملة اذا كانت مؤجلة الى سنة ثم انقضى منها شهر فانه لا يقال اقترب الاجل اما اذا كان الماضي أكثر من الباقي فانه يقال اقترب الاجل فعلى هذا الوجه قال العلماء ان فيه دلالة على قرب القيامة ولهذا الوجه قال عليه السلام بعثت أنا والساعة كهاتين ولهذا الوجه قيل انه عليه السلام ختم به النبوة كل ذلك لاجل ان الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي (المسئلة الثالثة) انما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب الى تلافي الذنوب والتحرز عنها خوفا من ذلك والله أعلم (المسئلة الرابعة) انما لم يعين الوقت لاجل أن كتمانه أصلح كما أن كتمان وقت الموت أصلح (المسئلة الخامسة) الفائدة في تسمية يوم القيامة يوم الحساب ان الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم (المسئلة السادسة) يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل في الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له ثم قال ابن عباس المراد بالناس المشركون وهذا من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين أما قوله تعالى وهم في غفلة معرضون فاعلم انه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والاعراض أما الغفلة فالمعنى انهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء ثم اذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم أما قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن أبي عبلة محدث بالرفع صفة للمحل (المسئلة الثانية) انما ذكر الله تعالى ذلك بيانا لكونهم معرضين وذلك لان الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتا فوقتا ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون فما يزيدهم ذلك الا لعبا واستسخارا (المسئلة الثالثة) المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث بيان ان القرآن ذكر قوله تعالى في صفة القرآن ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وانه لذكر لك ولقومك وقوله ص والقرآن ذي الذكر وقوله انا نحن نزلنا الذكر وقوله ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقوله وهذا ذكر مبارك أنزلناه وبيان ان الذكر محدث قوله في هذا الموضع ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله في سورة الشعراء ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ثم قالوا فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص في ان القرآن محدث والجواب من وجهين (الاول) ان قوله ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وهذا ذكر مبارك اشارة الى المركب من الحروف والاصوات فاذا ضممنا اليه قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لزم حدوث المركب من الحروف والاصوات وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة وانما النزاع في قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر (الثاني) ان قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لا يدل على حدوث كل ما كان ذكرا بل على ذكر ما محدث كما ان قول القائل لا يدخل هذه البلدة رجل فاضل الا

بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه ما بعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة واسناد الاقتراب اليه لا الى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الاحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام الى بيان غفلتهم عنه واعراضهم عما يذكرهم ذلك واللام متعلقة بالفعل وتقديمها على الفاعل للمسارعة الى ادخال الروعة فان نسبة الاقتراب اليهم من أول الامر مما يسوءهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب كما أن تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح فى قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض لتعجيل المسرة لما أن بيان كون الخلق لاجل المخاطبين مما يسرهم ويزيدهم رغبة فيما خلق لهم وشوقا اليه وجعلها تأكيدا للاضافة على أن الاصل المتعارف فيما بين الاوساط اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم مع انه تعسف تام بمعزل عما يقتضيه المقام وانما الذى يستدعيه حسن النظام ما قدمناه والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب وفى اسناد الاقتراب المنبئ عن التوجه نحوهم الى الحساب مع امكان العكس بأن يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شئ مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه فى كل ساعة من ساعات الزمان أقرب اليهم منه فى الساعة السابقة هذا

يغضونه فانه لا يدل على ان كل رجل يجب أن يكون فاضلا بل على ان فى الرجال من هو
فاضل واذا كان كذلك فالآية لا تدل الا على ان بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا
القرآن ذكر وبعض الذكر محدث وهذا لا ينتج شيأ كما ان قول القائل الانسان حيوان
و بعض الحيوان فرس لا ينتج شيأ فظهر ان الذى ظنوه قاطعا لا يفيد ظنا ضعيفا فضلا عن
القطع أما قوله الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان
ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله لان الانتفاع بما يسمع لا يكون الا بما يرجع الى
القلب من تدبر وتفكر واذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذى قد
تشارك البهيمة فيه الانسان ثم أكد تعالى ذمهم بقوله لاهية قلوبهم واللاهية من لهى عنه
اذا ذهل وغفل وانما ذكر اللعب مقدما على اللهو كما فى قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب
ولهو تنبيها على ان اشتغالهم باللعب الذى معناه السخرية والاستهزاء معلل باللهو الذى
معناه الذهول والغفلة فانهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق والله أعلم
بالصواب (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان
مترادفان أو متداخلان ومن قرألاهية بالرفع فالحال واحدة لان لاهية قلوبهم خبر بعد خبر
لقوله وهم أما قوله وأسروا النجوى الذين ظلموا ففيه سؤالان (الاول) النجوى وهى اسم
من التناجى لا تكون الا خفية فما معنى قوله وأسروا النجوى (الجواب) معناه بالغوا فى
اخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم (السؤال الثانى) لم قال وأسروا النجوى
الذين ظلموا (الجواب) ابدل الذين ظلموا من أسروا اشعارا بانهم هم الموسومون بالظلم
الفاحش فيما اسروا به أو جاء على لغة من قال أكلونى البراغيث او هو منصوب المحل على الذم
أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع المظهر
موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بانه ظلم أما قوله هل هذا الا بشر مثلكم افتأتون السحر وأنتم
تبصرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف هذا الكلام كله فى محل
النصب بدلا من النجوى أى وأسروا هذا الحديث ويحتمل أن يكون التقدير وأسروا
النجوى وقالوا هذا الكلام (المسئلة الثانية) انما أسروا هذا الحديث لوجهين (أحدهما)
انه كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق الى هدم أمره وعادة
المتشاورين أن يجتهدوا فى كتمان سرهم عن أعدائهم (الثانى) يجوز ان يسروا نجواهم
بذلك ثم يقولوا للرسول والمؤمنين ان كان ما تدعونه حقا فاخبرونا بما أسررناه (المسئلة
الثالثة) انهم طعنوا فى نبوته بأمرين (أحدهما) انه بشر مثلهم (والثانى) ان الذى أتى به
سحر وكلا الطعنين فاسد (اما الاول) فلان النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل لا على
الصور اذ لو بعث الملك اليهم لما علم كونه نبيا لصورته وانما كان يعلم بالعلم فاذا ظهر ذلك
على من هو بشر فيجب ان يكون نبيا بل الاولى أن يكون المبعوث الى البشر بشرا لان
المرء الى القبول من اشكاله اقرب وهو به آنس (واما الثانى) وهو ان ما اتى به الرسول

نحن فيه من الاقتراب المستفاد من
صيغة الماضى ولا حاجة اليه فى
تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه
عرفا كونه قريبا فى نفسه أيضا فيصار
حينئذ الى التوجيه بالوجه الاول
دون الاخيرين أما الثانى فلا سبيل
الى اعتباره ههنا لان قربه بالنسبة
اليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد
والتفاوت حتما وانما اعتباره فى
قوله تعالى لعل الساعة قريب
ونظائره مما لا دلالة فيه على
الحدوث وأما الثالث فلا دلالة
فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة
الى شئ آخر (وهم فى غفلة) أى
فى غفلة تامة منه ساهون عنه
بالمرة لانهم غير مبالين به مع
اعترافهم باتيانه بل منكرون له
كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن
الاعمال لا بد لها من الجزاء
(معرضون) أى عن الآيات
والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة
وهما خبران للضمير وحيث كانت
الغفلة أمرا جبليا لهم جعل الخبر
الاول ظرفا منبئا عن الاستقرار
بخلاف الاعراض والجملة حال
من الناس وقد جوز كون
الظرف حالا من المستكن فى
معرضون (ما يأتيهم من ذكر) من
طائفة نازلة من القرآن تذكرهم
ذلك اكمل تذكير وتنبههم عن
الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر
ومن فى قوله تعالى (من ربهم)
لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأياما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة ما فعلوا به عليه

١

عليه السلام سحر وانهم يرون كونه سحرا فجهل ايضا لان كل ما اتى به الرسول من القرآن
وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالا
بعد حال مدة من الزمان وهم ارباب الفصاحة والبلاغة وكانوا فى نهاية الحرص على ابطال
امره وأقوى الامور فى ابطال امره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع ان
لا يأتوا بها لان الفعل عند توفر الدواعى وارتفاع الصارف واجب الوقوع فلما لم يأتوا بها
دلنا ذلك على انه فى نفسه معجزة وانهم عرفوا حاله فكيف يجوز ان يقال انه سحر والحال على
ما ذكرناه وكل ذلك يدل على انهم كانوا عالمين بصدقه الا انهم كانوا يموّهون على ضعفائهم بمثل
هذا القول وان كانوا فيه مكابرين ﴿ قوله تعالى (قال ربى يعلم القول فى السماء والارض

وهو السميع العليم بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل

الاولون ما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها أفهم يؤمنون) اما قوله قال ربى يعلم القول فى
السماء والارض وهو السميع العليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قال ربى حكاية
لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة حمزة والكسائى وحفص عن عاصم وقرأ
الباقون قل بضم القاف وحذف الالف وسكون اللام (المسئلة الثانية) انه تعالى لما
اورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكانه قال انكم
وان أخفيتم قولكم وطعنكم فان ربى عالم بذلك وانه من وراء عقوبته فتوعدوا بذلك لكى
لا يعودوا الى مثله (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فان قلت فهلا قيل يعلم السر
لقوله وأسروا النجوى قلت القول عام يشمل السر والجهر فكان فى العلم به العلم بالسر
وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر كما ان قوله تعالى
يعلم السر آكد من أن يقول يعلم سرهم فان قلت فلم ترك الآكد فى سورة الفرقان فى قوله
قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض قلت ليس بواجب أن يجئ بالآكد فى
قوله فى كل موضع ولكن يجئ بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى ثم الفرق انه قدم ههنا
انهم أسروا النجوى فكأنه أراد أن يقول ان ربى يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك
للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بان قال أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض فهو
كقوله علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة (المسئلة الرابعة) انما قدم
السميع على العليم لانه لا بد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه أما قوله بل قالوا
اضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فاعلم انه تعالى عاد الى
حكاية قولهم المتصل بقوله هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر ثم قال بل قالوا أضغاث
أحلام بل افتراه بل هو شاعر لحكى عنهم ثم هذه الاقوال الخمسة نترتيب كلامهم كأنهم
قالوا ندعى ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى سلمنا انه غير مانع ولكن لا نسلم ان
هذا القرآن معجز ثم اما ان يساعد على ان فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر قلنا لم
لا يجوز أن يكون ذلك سحرا وان لم يساعد عليه فان ادعينا كونه فى نهاية الركاكة قلنا انه

بحسب اقتضاء الحكمة وقوله
تعالى (الا استمعوه) استثناء
مفرغ محله النصب على انه حال
من مفعول يأتيهم باضمار قد أو
بدونه على الخلاف المشهور وقوله
تعالى (وهم يلعبون) حال من فاعل
استمعوه وقوله تعالى (لاهية
قلوبهم) اما حال أخرى منه أو من
واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر
من ربهم محدث فى حال من
الاحوال الا حال استماعهم اياه
لاعبين مستهزئين به لاهين عنه
او لاعبين به حال كون قلوبهم
لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط
اعراضهم عن النظر فى الامور
والتفكر فى العواقب وقرئ لاهية
بالرفع على انه خبر بعد خبر (وأسروا
النجوى) كلام مستأنف مسوق
لبيان جناية خاصة اثر حكاية
جناياتهم المعتادة والنجوى اسم
من التناجى ومعنى اسرارها مع
أنها لا تكون الا سرا أنهم بالغوا فى
اخفائها او اسروا نفس التناجى
بحيث لم يشعر أحد بانهم متناجون
وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من
واو أسروا منبئ عن كونهم
موصوفين بالظلم الفاحش فيما
اسروا به أو هو مبتدأ خبره أسروا
النجوى قدم عليه اهتماما به
والمعنى هم أسروا النجوى فوضع
الموصول موضع الضمير تسجيلا
على فعلهم بكونه ظلما أو منصوب
على الذم وقوله تعالى (هل هذا الا بشر مثلكم) الخ فى حيز النصب على انه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ عما قبله

كأنه قيل ماذا قالوا في نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ او بدل من أسروا أو معطوف عليه او على أنه بدل من النجوى اى

اسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفي والهمزة في قوله تعالى (أفتأتون السحر) للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (وأنتم تبصرون) حال من فاعل تأتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ما هذا الا بشر مثلكم أى من جنسكم وما أتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وأنتم تعاينون انه سحر قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون الا ملكا وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم أن ارسال البشر الى عامة البشر هو الذي تقتضيه الحكمة التشريعية قاتلهم الله أنى يؤفكون وانما أسروا ذلك لانه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادى الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد في هدم أمر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون (قال ربي يعلم القول في السماء والارض) حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعدما أوحى اليه احوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهاني مع ما فيه من الايذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما في علوم الخلق

أضغاث أحلام وان ادعينا انه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا انه افتراه وان ادعينا انه كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لا يثبت كونه معجزا ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فالمراد أنهم طلبوا آية جلية لا يتطرق اليها شئ من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام ثم ان الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الاخير بقوله ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون والمعنى انهم في العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فاهلكهم الله فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثا قال الحسن رحمه الله تعالى انهم لم يجابوا لان حكم الله تعالى ان من كذب بعد الاجابة الى ما اقترحه من الآيات فلا بد من أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه في امة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم

﴿ قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) اعلم انه تعالى اجاب عن سؤالهم الاول وهو قولهم ما هذا الا بشر مثلكم بقوله وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فبين ان هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولم يمنع ذلك من كونهم رسلا للآيات التي ظهرت عليهم فاذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلا مقال عليه في كونه بشرا أما قوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر فالمعنى انه تعالى أمرهم أن يسئلوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم ان رسل الله الموحى اليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة وانما أحالهم على هؤلاء لانهم كانوا يتابعون المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا فان قيل اذا لم يوثق باليهود والنصارى فكيف يجوز أن يأمرهم بان يسألوهم عن الرسل قلنا اذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك كما قد يعمل بخبر الكفار اذا تواتر مثل ما يعمل بخبر المؤمنين ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لانهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم فاما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية في ان للعامي أن يرجع الى فتيا العلماء وفي ان للمجتهد ان يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لان هذه الآية خطاب مشافهة وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين ثم بين تعالى انه لم يجعل الرسل قبله جسدا لا يأكلون الطعام وفيه ابحاث (الاول) قوله لا يأكلون الطعام صفة جسد والمعنى وما جعلنا الانبياء ذوي جسد غير طاعمين (الثاني) وحد الجسد لارادة الجنس كأنه قال ذوي ضرب من الاجساد (الثالث) انهم كانوا يقولون ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا فاجاب الله بقوله وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام فبين تعالى ان هذه

عادة

وقرئ قل ربي الخ وقوله تعالى في السماء والارض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أي كائنا في السماء والارض وقوله تعالى

(وهو السميع العليم) أى المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أسروه من النجوى فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد (بل قالوا أضغاث أحلام) اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق الى حكاية قول آخر مضطرب في مسالك البطلان أى لم يقتصروا على أن يقولوا في حقه عليه السلام هل هذا الا بشر وفي حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم انه سحر بل قالوا تخاليط الاحلام ثم أضربوا عنه فقالوا (بل افتراه) من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا (بل هو شاعر) وما أتى به شعر يخيل الى السامع معاني لا حقيقة لها وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد فالاضراب الاول كما ترى من جهته تعالى والثاني والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا عن قولهم هو سحر الى انه تخاليط أحلام ثم الى انه كلام مفترى ثم الى أنه قول شاعر ولا ريب في انه كان ينبغي حينئذ ان يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل

 قوله تعالى هل هذا الا بشر الخ كأنه قيل واسروا النجوى قالوا هل هذا الى قوله بل أضغاث أحلام وانما صرح بقالوا

عادة الله تعالى في الرسل من قبل وانه لم يجعلهم جسدا لا يأكلون بل جسدا يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا بل يموتون كغيرهم ونبه بذلك على ان الذي صاروا به رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة في التبليغ أما قوله تعالى ثم صدقناهم الوعد فقال صاحب الكشاف هو مثل قوله واختار موسى قومه سبعين رجلا والاصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال ومن نشاء هم المؤمنون قال المفسرون المراد منه انه تقدم وعده جل جلاله بأنه اهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم وجعل الوفاء بما وعد صدقا من حيث يكشف عن الصدق ومعنى وأهلكنا المسرفين أى بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لانه اخبار عما مضى وتقدم ثم بين تعالى بقوله لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم عظيم نعمته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا فلذلك قال فيه ذكركم وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ذكركم شرفكم وصيتكم كما قال وانه لذكر لك ولقومك (وثانيها) المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد كما قال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (وثالثها) المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة اذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل وقوله أفلا تعقلون كالبعث على التدبر في القرآن لانهم كانوا عقلاء لان الخوض من لوازم العقلاء والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم العقل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل

﴿ قوله تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لان شرائط الاعجاز لما تمت في القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا وعند ذلك ظهر ان اشتغالهم بايراد تلك الاعتراضات كان لاجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال وكم قصمنا من قرية قال صاحب الكشاف القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وانها ظالمة وأراد أهلها توسعا لدلالة العقل على انها لا تكون ظالمة ولا مكلفة ولدلالة قوله تعالى وأنشأنا بعدها قوما آخرين فالمعنى أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين وقال فلما أحسوا بأسنا الى قوله قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين وكل ذلك لا يليق الا بأهلها الذين كلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم ولولا هذه الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لانه يكون ذلك موهما للكذب واختلفوا في هذا الاهلاك فقال ابن عباس المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهي وسحول قريتان باليمن ينسب اليهما الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين وروى حضوريين بعث الله اليهم نبيا فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه

بعذبل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة ١٣٠ التنزيل عن امثاله (فليأتنا باية) جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل

وان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا باية (كما أرسل الاولون) أى مثل الآية التى أرسل بها الاولون كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على انها صفة لآية ويجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على انها مصدر تشبيهي أى نعت لمصدر محذوف أى فليأتنا باية اتيانا كائنا مثل ارسال الاولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالآية من فروع الارسال بها أى مثل اتيان مترتب على الارسال ويجوز ان يحمل النظم الكريم على انه أريد كل واحد من الاتيان والارسال فى كل واحد من طرفى التشبيه لكنه ترك فى جانب المشبه ذكر الارسال وفى جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر فى كل موطن عما ترك فى الموطن الآخر حسبما مر فى آخر سورة يونس عليه السلام (ما آمنت قبلهم من قرية) كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما ينبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمنى بالايمان كما أشير اليه وبيان انهم فى اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظلفه وأن فى ترك الاجابة اليه ابقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا ما اقترحوا مع عدم ايمانهم قطعا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عزوجل فى الامم السالفة على أن المقترحين اذا اعطوا ما اقترحوه

على اهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى انه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يالثارات الانبياء فندموا واعترفوا بالخطا وقال الحسن المراد عذاب الاستئصال واعلم ان هذا أقرب لان اضافة ذلك الى الله تعالى أقرب من اضافته الى القاتل ثم بتقدير أن يحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور بانها احدى القرى التى أرادها الله تعالى بهذه الآية وأما قوله تعالى فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون فالمعنى لما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا فى ديارهم والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه قوله تعالى اركض برجلك فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن يشبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين أما قوله لا تركضوا فقال صاحب الكشاف القول محذوف فان قلت من القائل قلنا يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين أو يكونوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم فى دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم أما قوله وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم أى من العيش والرفاهية والحال الناعمة والاتراف ابطار النعمة وهى الترفه أما قوله تعالى لعلكم تسئلون فهو تهكم بهم وتوبيخ ثم فيه وجوه (أحدها) أى ارجعوا الى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة (وثانيها) ارجعوا كما كنتم فى مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين (وثالثها) تسألكم الناس فى أنديتكم لتعاونوهم فى نوازل الخطوب ويستشيرونكم فى المهمات ويستعينون بآرائكم (ورابعها) يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم اما لانهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم وتوبيخا الى توبيخ أما قوله تعالى فما زالت تلك دعواهم فقال صاحب الكشاف تلك اشارة الى ياويلنا لانها دعوى كأنه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فان قلت لم سميت دعوى قلت لانهم كانوا دعوا بالويل فقالوا ياويلنا أى ياويل احضر فهذا وقتك وتلك مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا وكذلك دعواهم قال المفسرون لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا أما قوله حتى جعلناهم حصيدا خامدين فالحصيد الزرع المحصود أى جعلناهم مثل الحصيد شبههم به فى استئصالهم كما تقول جعلناهم رمادا أى مثل الرماد فان قيل كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل قلت حكم الاثنين الاخيرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين والمراد انهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما يجف الحصيد وخمدوا كما تخمد النار ﴿قوله تعالى (وما خلقنا

السماء

ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى ١٣١ ان هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال

فقوله من قرية أى من أهل قرية فى محل الرفع على الفاعلية ومن مزيدة لتأكيد العموم وقوله تعالى (أهلكناها) أى باهلاك أهلها لعدم ايمانهم بعد مجئ ما اقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة فى قوله تعالى (أفهم يؤمنون) لانكار الوقوع والفاء للعطف اما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت انكار وقوع ايمانهم ونفيه عقيب عدم ايمان الاولين فالمعنى انه لم تؤمن أمة من الامم المهلكة عند اعطاء ما اقترحوه من الآيات أهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا الى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوا مع كونهم اعتى منهم وأطغى واما على ما آمنت على أن الفاء متقدمة على الهمزة فى الاعتبار مفيدة لترتيب انكار وقوع ايمانهم على عدم ايمان الاولين وانما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وقوله عز وجل (وما أرسلنا قبلك الا رجالا) جواب لقولهم هل هذا الا بشر الخ المتضمن لرد ما دسوا تحت قولهم كما أرسل الاولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا باية ولانهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بد من المسارعة الى رده وابطاله كما مر فى تفسير قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين وقوله تعالى ما ننزل الملائكة

السماء والارض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) اعلم ان فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى لما بين اهلاك أهل القرية لاجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه ومجازاة على ما فعلوا فقال وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين أى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفروشهم للهو واللعب وانما سويناها للفوائد الدينية والدنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التى لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا وقوله ما خلقناهما الا بالحق (والثانى) ان الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لانه أظهر المعجزة عليه فان كان محمد كاذبا كان اظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفى عنه وان كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن (المسئلة الثانية) قال القاضى عبد الجبار دلت الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى اذ لو كان كذلك لكان لاعبا فان اللاعب فى اللغة اسم لفاعل اللعب فنفى الاسم الموضوع للفعل يقتضى نفى الفعل (والجواب) يبطل ذلك بمسئلة الداعى على ما مر غير مرة أما قوله لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين فاعلم أن قوله لاتخذناه من لدنا معناه من جهة قدرتنا وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا أى من الملائكة لا من الانس ردا لمن قال بولادة المسيح وعزير أما قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فاعلم ان قوله بل اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحانا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لابطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه فأما قوله تعالى ولكم الويل مما تصفون يعنى من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب القرآن الى انه سحر وأضغاث أحلام الى غير ذلك من الاباطيل وهو الذى عناه بقوله مما تصفون ﴿قوله تعالى (وله من فى السموات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفى اللعب لا يصح الا بنفى الحاجة ونفى الحاجة لا يصح الا بالقدرة التامة لا جرم عقب تلك الآية بقوله وله من فى السموات والارض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة (الثانى) وهو الاقرب انه تعالى لما حكى كلام الطاعنين فى النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين فى هذه الآية انه تعالى منزه عن طاعتهم لانه هو

الا بالحق وما كانوا اذا منظرين ولاتّ فى هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم والحق أن

المالك لجميع المحدثات والمخلوقات ولاجل ان الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه (المسئلة الثانية) قوله وله من فى السموات والارض معناه ان كل المكلفين فى السماء والارض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه (المسئلة الثالثة) دلالة قوله ومن عنده لايستكبرون عن عبادته على ان الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها فى سورة البقرة (المسئلة الرابعة) قوله ومن عنده المراد بهم الملائكة باجماع الامة ولانه تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكانه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لايستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (المسئلة الخامسة) قال الزجاج ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال صاحب الكشاف فان قلت الاستحسار مبالغة فى الحسور فكان الابلغ فى وصفهم ان ينفى عنهم أدنى الحسور قلت فى الاستحسار بيان أن ماهم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وانهم أحقاء لتلك العبادات الشاقة بان يستحسروا فيما يفعلون أما قوله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون فالمعنى ان تسبيحهم متصل دائم فى جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر روى عن عبد الله بن الحرث بن نوفل قال قلت لكعب أرأيت قول الله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون ثم قال جاعل الملائكة رسلا أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وأيضا قال أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح أجاب كعب الاحبار فقال التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الاعمال فان قيل هذا القياس غير صحيح لان الاشتغال بالتنفس انما لم يمنع من الكلام لان آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال (والجواب) أى استبعاد فى أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبحون الله وببعضها يلعنون أعداء الله او يقال معنى قوله لا يفترون انهم لا يفترون عن العزم على ادائه فى أوقاته اللائقة به كما يقال ان فلانا مواظب على الجماعات لا يفتر عنها لا يراد به انه أبدا مشتغل بها بل يراد به انه مواظب على العزم على ادائها فى أوقاتها ❁ قوله تعالى (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) اعلم ان الكلام من أول السورة الى ههنا كان فى النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا وأما هذه الآيات فانها فى بيان التوحيد ونفى الاضداد والانداد أما قوله

ما اتخذوه سببا للتكذيب موجب للتصديق فى الحقيقة لان مقتضى الحكمة أن يرسل الى البشر البشر والى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فان عامة البشر بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لتوقفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك منهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب آخر وقوله تعالى (نوحى اليهم) استئناف مبين لكيفية الارسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد الى خصوصه والمعنى وما أرسلنا الى الامم قبل ارسالك الى أمتك الا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحى اليهم بواسطة الملك ما نوحى من الشرائع والاحكام وغيرهما من القصص والاخبار كما نوحى اليك من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى وحقيقة مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين الى قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما كما لا فرق بينك وبينهم ۰ تعالى

في البشرية فالهم لا يفهمون المشاركة بدعا من الرسل وأن ما أوحى اليك ليس مخالفا لما أوحى اليهم فيقولون

تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أم ههنا هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد آذنت بالاضراب عما قبلها والانكار لما بعدها والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الارض ينشرون الموتى ولعمرى ان من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات فان قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا فى نهاية البعد عن هذه الدعوى فانهم كانوا مع اقرارهم بالله وبانه خالق السموات والارض منكرين للبعث ويقولون من يحيى العظام وهى رميم فكيف يدعونه للجماد الذى لا يوصف بالقدرة البتة قلت لانهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هى الثواب فاقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الاقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل يعنى اذا كانوا غير قادرين على ان يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا فاى عقل يجوز اتخاذهم آلهة (المسئلة الثانية) قوله من الارض كقولك فلان من مكة أو من المدينة تريد مكى أو مدنى اذ معنى نسبتها الى الارض الايذان بانها الاصنام التى تعبد فى الارض لان الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الارض لانها اما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الارض (المسئلة الثالثة) النكتة فى هم ينشرون معنى الخصوصية كانه قيل أم اتخذوا آلهة من الارض لا يقدر على الانشار الاهم وحدهم (المسئلة الرابعة) قرأ الحسن ينشرون وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أما قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال أهل النحو الا ههنا بمعنى غير أى لو كان يتولاهما ويدبر أمورهما شئ غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لانا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم انه لو كان فيهما آلهة معهم الله ان لا يحصل الفساد وذلك باطل لانه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت ان المراد ما ذكرناه (المسئلة الثانية) قال المتكلمون القول بوجود الهين يفضى الى المحال فوجب أن يكون القول بوجود الهين محالا انما قلنا انه يفضى الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه فلو فرضنا ان أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أولا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك محال أيضا لوجهين (أحدهما) انه لو كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لا بد وأن

ما يقولون وقرئ يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بتعين الفاعل وقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الانيقة وأما الوقوف عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم أمروا بذلك لان اخبار الجم الغفير يوجب العلم لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورونهم فى أمره عليه السلام ففيه من الدلالة على كمال وضوح الامر وقوة شأن النبى عليه السلام ما لا يخفى (وما جعلناهم جسدا) بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية اثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية

والجسد جسم الانسان والجن والملائكة ونصبه اما على انه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد أن لم يكن كذلك

كما هو المشهور من معنى التصغير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل
كما مرّ فى قوله تعالى وجعلنا آية
النهار مبصرة واما حال من الضمير
والجعل ابداعى وافراده لارادة
الجنس المنتظم للكثير أيضا وقيل
بتقدير المضاف أى ذوى جسد وقوله
تعالى (لا يأكلون الطعام) صفة له
أى وما جعلناهم جسدا مستغنيا
عن الاكل والشرب بل محتاجا
الى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل
منه (وما كانوا خالدين) لان مآل
التحلل هو الفناء لا محالة وفى ايثار
ما كانوا على ما جعلناهم تنبيه على
أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم
التى أشير اليها بقوله تعالى وما
جعلناهم الخ لا بالجعل المستأنف
والمراد بالخلود اما المكث المديد كما
هو شأن الملائكة أو الابدية
وهم معتقدون انهم لا يموتون
والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية
صائرة الى الموت بالآخرة على
حسب آجالهم لا ملائكة
ولا أجسادا مستغنية عن الاغذية
مصونة عن التحلل كالملائكة فلم
يكن لها خلود كخلودهم فالجملة
مقررة لما قبلها من كون الرسل
السالفة عليهم السلام بشرا لا ملكا
مع ما فى ذلك من الرد على قولهم
مال هذا الرسول يأكل الطعام
وقوله تعالى (ثم صدقناهم الوعد)
عطف على ما يفهم من حكاية
وحيه تعالى اليهم على الاستمرار
التجددى كأنه قيل أوحينا اليهم
ما أوحينا ثم صدقناهم فى الوعد الذى وعدناهم فى تضاعيف الوحى باهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) من المؤمنين وهذه

يستويا فى القدرة واذا استويا فى القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثانى والا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح (وثانيهما) انه اذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذى وقع مراده يكون قادرا والذى لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الله محال فان قيل الفساد انما يلزم عند اختلافهما فى الارادة وأنتم لا تدعون وجوب اختلافهما فى الارادة بل أقصى ما تدعونه ان اختلافهما فى الارادة ممكن فاذا كان الفساد مبنيا على الاختلاف فى الارادة وهذا الاختلاف ممكن والمبنى على الممكن ممكن فكان الفساد ممكنا لا واقعا فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد قلنا الجواب من وجهين (أحدهما) لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث ان الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب (والثانى) وهو الاقوى ان نبين لزوم الفساد لا من الوجه الذى ذكرناه بل من وجه آخر فنقول لو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضى الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لان استناد الفعل الى الفاعل لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة فى مسئلة التوحيد فنقول القول بوجود الالهين يفضى الى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما واذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا أو نقول لو قدرنا الهين فاما ان يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشئ الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان اختلفا فاما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال فثبت ان الفساد لازم على كل التقديرات فان قلت لم لا يجوز ان يتفقا على الشئ الواحد ولا يلزم الفساد لان الفساد انما يلزم لو اراد كل واحد منهما أن يوجده هو وهذا اختلاف أما اذا أراد كل واحد منهما ان يكون الموجد له أحدهما بعينه فهنالك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين قلت كونه موجدا له اما أن يكون نفس القدرة والارادة أو نفس ذلك الاثر أو أمرا ثالثا فان كان الاول لزم الاشتراك فى القدرة والارادة والاشتراك فى الموجد وان كان الثانى فليس وقوع ذلك الاثر بقدرة أحدهما وارادته أولى من وقوعه بقدرة الثانى لان لكل واحد منهما ارادة مستقلة بالتأثير وان كان الثالث وهو أن يكون الموجد له أمرا ثالثا فذلك الثالث ان كان قديما استحال كونه متعلق الارادة وان كان حادثا فهو نفس الاثر ويصير هذا القسم هو القسم الثانى الذى ذكرناه واعلم انك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما فى هذا العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى بل وجود كل واحد من الجواهر والاعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذى بيناه

وغيرهم ممن تستدعى الحكمة ابقاءه كمن سيؤمن هو أو بعض فروعه بالآخرة وهو السر فى حماية العرب من عذاب
الاستئصال (وأهلكنا المسرفين)
أى المجاوزين للحدود فى الكفر
والمعاصى (لقد أنزلنا اليكم) كلام
مستأنف مسوق لتحقيق حقية
القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر
السورة الكريمة اعراض الناس
عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به
وتسميتهم تارة سحرا وتارة أضغاث
أحلام وأخرى مفترى وشعرا وبيان
علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله
عليه وسلم ببيان أنه كسائر الرسل
الكرام عليهم الصلاة والسلام
قد صدر بالتوكيد القسمى اظهارا
لمزيد الاعتناء بمضمونه وايذانا
بكون المخاطبين فى أقصى مراتب
النكير أى والله لقد أنزلنا اليكم
يا معشر قريش (كتابا) عظيم
الشان نير البرهان وقوله تعالى
(فيه ذكركم) صفة لكتابا مؤكدة
لما أفاده التنكير التفخيمى من
كونه جليل المقدار بأنه جليل
الآثار مستجلب لهم منافع جليلة
أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله
تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقيل
ما تحتاجون اليه فى أمور دينكم
ودنياكم وقيل فيه ما تطلبون به
حسن الذكر من مكارم الاخلاق
وقيل فيه موعظتكم وهو
الانسب بسباق النظم الكريم
وسياقه فان قوله تعالى (أفلا
تعقلون) انكار توبيخى فيه بعث لهم
على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل
فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب

وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى فى مواضع من كتابه واعلم ان ههنا ادلة أخرى على وحدانية الله تعالى (أحدها) وهو الاقوى أن يقال لو فرضنا موجودين واجبى الوجود لذاتيهما فلا بد وأن يشتركا فى الوجود ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه وكل مركب فهو مفتقر الى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خلف فاذن واجب الوجود ليس الا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر اليه وكل مفتقر فى وجوده الى الغير فهو محدث فكل ما سوى الله تعالى محدث ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيرا لهذه الآية لانا لما دللنا على انه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شئ منهما واجبا واذا لم يوجد الواجب لم يوجد شئ من هذه الممكنات وحينئذ يلزم الفساد فثبت انه يلزم من وجود الهين وقوع الفساد فى كل العالم (وثانيها) انا لو قدرنا الهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر فى الالهية ولا بد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما والا لما حصل التعدد فما به الممايزة اما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فان كان صفة كمال فالخالى عنه يكون خاليا عن الكمال فيكون ناقصا والناقص لا يكون الها وان لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لا يكون صفة كمال فيكون ناقصا ويمكن أن يقال ما به الممايزة ان كان معتبرا فى تحقق الالهية فالخالى عنه لا يكون الها وان لم يكن معتبرا فى الالهية لم يكن الاتصاف به واجبا فيفتقر الى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج (وثالثها) أن يقال لو فرضنا الهين لكان لا بد وأن يكونا بحيث يمكن الغير من التمييز بينهما لكن الامتياز فى عقولنا لا يحصل الا بالتباين فى المكان أو فى الزمان أو فى الوجوب والامكان وكل ذلك على الاله محال فيمتنع حصول الامتياز (ورابعها) ان أحد الالهين اما أن يكون كافيا فى تدبير العالم أو لا يكون فان كان كافيا كان الثانى ضائعا غير محتاج اليه وذلك نقص والناقص لا يكون الها (وخامسها) ان العقل يقتضى احتياج المحدث الى الفاعل ولا امتناع فى كون الفاعل الواحد مدبرا لكل العالم فأما ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضى ذلك الى وجود أعداد لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال (وسادسها) ان أحد الالهين اما أن يقدر على ان يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره أو لا يقدر عليه والاول محال لان دليل الصانع ليس الا المحدثات وليس فى حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثانى والثانى محال لانه يفضى الى كونه عاجزا عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون الها (وسابعها) ان أحد الالهين اما ان يقدر على أن يستر شيأ من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر فان قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلا وان لم يقدر لزم كونه عاجزا (وثامنها) لو قدرنا الهين لكان مجموع قدرتيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده فيكون كل واحد من

عليه الكلام أي ألا تتفكرون فلا تعقلون ١٣٦ أن الامر كذلك أولا تعقلون شيأ من الاشياء التي من جملتها ما ذكر وقوله تعالى

(وكم قصمنا من قرية) نوع تفصيل لاجمال قوله تعالى وأهلكنا المسرفين وبيان لكيفية اهلاكهم وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على انها مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بابانة أجزاء المكسور وازالة تالفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى وقوله تعالى (كانت ظالمة) في محل الجر على أنها صفة لقرية بتقدير مضاف ينبئ عنه الضمير الآتي أي وكثيرا قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم (وأنشأنا بعدها) أي بعد اهلاكها (قوما آخرين) أي ليسوا منهم نسبا ولا دينا ففيه تنبيه على استئصال الاولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر في تقديم حكاية انشاء هؤلاء على حكاية مبادى اهلاك أولئك بقوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا) أي أدركوا عذابنا الشديد ادراكا تاما كأنه ادراك المشاهد المحسوس (اذا هم منها يركضون) يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو مشبهين بهم في فرط الاسراع (لا تركضوا) أي قيل لهم بلسان الحال او بلسان المقال من الملك او ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لا تركضوا (وارجعوا الى ما اترفتم فيه) من التنعم والتلذذ والاتراف ابطار النعمة

القدرتين متناهيا والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهيا (وتاسعها) العدد ناقص لاحتياجه الى الواحد والواحد الذي يوجد من جنسه عدد ناقص لان العدد أزيد منه والناقص لا يكون الها فالاله واحد لا محالة (وعاشرها) انا لو فرضنا معدوما ممكن الوجود ثم قدرنا الهين فان لم يقدروا احد منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزا والعاجز لا يكون الها وان قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر يكون الها وان قدرا جميعا فاما ان يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجا الى اعانة الآخر وان قدر كل واحد على ايجاده بالاستقلال فاذا أوجده أحدهما فاما أن يبقى الثاني قادرا عليه وهو محال لان ايجاد الموجود محال وان لم يبق فحينئذ يكون الاول قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهورا تحت تصرفه فلا يكون الها فان قيل الواحد اذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز قلنا الواحد اذا أوجده فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة لا يكون عجزا أما الشريك فانه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة البتة بل زالت قدرته بسبب قدرة الاول فيكون تعجيزا (الحادي عشر) ان نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو أن نعين جسما ونقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون وبالعكس فان لم يقدر كان عاجزا وان قدر فنسوق الدلالة الى ان نقول اذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون فالاول أزال قدرة الثاني وعجزه فلا يكون الها وهذان الوجهان يفيدان العجز نظرا الى قدرتيهما والدلالة الاولى انما تفيد العجز بالنظر الى ارادتيهما (وثاني عشرها) انهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقا بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لاحد المثلين قابلة للمثل الآخر فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعي مخصصا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبدا فقيرا ناقصا (وثالث عشرها) ان الشركة عيب ونقص في الشاهد والفردانية والتوحد صفة كمال وترى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المختصر أشد الكراهية وترى انه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد فاظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه فان قدر عليه كان المغلوب فقيرا عاجزا فلا يكون الها وان لم يقدر عليه كان في أشد الغم والكراهة فلا يكون الها (ورابع عشرها) انا لو قدرنا الهين لكان اما ان يحتاج كل واحد منهما الى الآخر أو يستغني كل واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما الى الآخر والآخر يستغني عنه فان كان الاول كان كل واحد منهما ناقصا لان المحتاج ناقص وان كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنيا عنه والمستغنى عنه ناقص ألا ترى ان البلد اذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم اليه ومن غير التفات منهم اليه عد ذلك الرئيس ناقصا فالاله هو الذي يستغنى به ولا يستغنى عنه وان احتاج احدهما الى الآخر من غير عكس كان

الحتاج

(ومساكنكم) التي كنتم تفتخرون بها (لعلكم تسئلون) تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل أو تتفقدون اذا رئيت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها ١٣٧ أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم (قالوا) لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب (يا ويلنا) أي هلاكنا (انا كنا ظالمين) أي مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم) أي فما زالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى أي دعوة لان المولول كأنه يدعو الويل قائلا يا ويل تعال فهذا أوانك (حتى جعلناهم حصيدا) أي مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع (خامدين) أي ميتين من خمدت النار اذا اطفئت وهو مع حصيدا في حيز المفعول الثاني للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب في جعلناهم أو من المستكن في حصيدا أو صفة لحصيدا لتعدده معنى لانه في حكم جعلناهم أمثال حصيد (وما خلقنا السماء والارض) اشارة اجمالية الى أن تكوين العالم وابداع بني آدم مؤسس على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ما حكي من العذاب الهائل والعقاب النازل باهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء

المحتاج ناقصا والمحتاج اليه هو الاله واعلم ان هذه الوجوه ظنية اقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة أما الدلائل السمعية فمن وجوه (أحدها) قوله تعالى هو الاول والآخر والظاهر والباطن فالاول هو الفرد السابق ولذلك لو قال أول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى أولا عبدين لم يحنث لان شرط الاول أن يكون فردا وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحدا لم يحنث أيضا لان شرط الفرد أن يكون سابقا وهذا ليس بسابق فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فردا سابقا فوجب أن لا يكون له شريك (وثانيها) قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فالنص يقتضي أن لا يكون أحد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص (وثالثها) ان الله تعالى صرح بكلمة لا اله الا هو في سبعة وثلاثين موضعا من كتابه وصرح بالوحدانية في مواضع نحو قوله والهكم اله واحد وقوله قل هو الله أحد وكل ذلك صريح في الباب (ورابعها) قوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه حكم بهلاك كل ما سواه ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديما ومن لا يكون قديما لا يكون الها (وخامسها) قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وهو كقوله ولعلا بعضهم على بعض وقوله اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا (وسادسها) قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ولو كان له شريك لكان ذلك الشريك جالبا للنفع ودافعا للضر فبطل الحصر المذكور في الآية وقال في آية اخرى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وقال في آية اخرى قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته (وسابعها) قوله تعالى قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به وهذا الحصر يدل على نفي الشريك (وثامنها) قوله تعالى الله خالق كل شيء فلو وجد الشريك لم يكن خالقا فلم يكن فيه فائدة واعلم ان كل مسئلة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فانه يمكن اثباتها بالسمع والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فلا جرم يمكن اثباتها بالدلائل السمعية واعلم ان من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بان المراد لو كان في السماء والارض آلهة تقول بالهيتها عبدة الاوثان لزم فساد العالم لانها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا أولى لانه تعالى حكى عنهم قوله ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وبالله التوفيق أما قوله تعالى فسبحان الله رب العرش عما يصفون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده فسبحان الله رب العرش عما يصفون أي هو منزه لاجل هذه الادلة عن وصفهم بأن معه الها وهذا تنبيه على ان الاشتغال بالتسبيح انما ينفع بعد اقامة الدلالة على كونه تعالى منزها وعلى ان طريقة التقليد طريقة مهجورة (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول

أعمالهم اياه وأن المخاطبين المقتدين با ثارهم ذنوبهم ذنوبا مثل ذنوبهم اى ماخلقناهما (ومابينهما) من المخلوقات التى لاتحصى
أجناسها وأفرادها ولاتحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والاسلوب المنيع خالية عن الحكم
والمصالح وانما عبر عن ذلك باللعب
واللهو حيث قيل (لاعبين) لبيان
كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى
عن الحكمة بتصويره بصورة
مالا يرتاب أحد فى استحالة
صدوره عنه سبحانه بل انما
خلقناهما ومابينهما لتكون
مبدأ لوجود الانسان وسببا
لمعاشه ودالا يقوده الى تحصيل
معرفتنا التى هى الغاية القصوى
بواسطة طاعتنا وعبادتنا كما
ينطق به قوله تعالى وهو الذى
خلق السموات والارض فى ستة
أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم
أيكم أحسن عملا وقوله تعالى
وما خلقت الجن والانس الا
ليعبدون وقوله تعالى (لو أردنا
أن نتخذ لهوا) استئناف مقرر
لماقبله من انتفاء اللعب واللهو
أى لو أردنا أن نتخذ مايتلهى به
ويلعب (لاتخذناه من لدنا) أى
من جهة قدرتنا أو من عندنا مما
يليق بشأننا من المجردات لامن
الاجسام المرفوعة والاجرام
الموضوعة كديدن الجبابرة فى
رفع العروش وتحسينها وتسوية
الفروش وتزيينها لكن يستحيل ارادتنا
له لمنافاته الحكمة فيستحيل اتخاذنا
له قطعا وقوله تعالى (ان كنا
فاعلين) جوابه محذوف ثقة بدلالة
ماقبله عليه أى ان كنا فاعلين
لاتخذناه وقيل ان نافية أى ما كنا
فاعلين أى لاتخاذ اللهو لعدم ارادتنا اياه فيكون بيانا لانتفاء التالى لانتفاء المقدم أو لارادة اتخاذه

أى فائدة لقوله فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم لم يكتف بقوله فسبحان الله عما يصفون وجوابه ان هذه المناظرة انما وقعت مع عبدة الاصنام الا أن الدليل الذى ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين ثم انه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الاصنام وهى انه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذى لايعقل ولايحس شريكا فى الالهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والارضين ومدبر الخلائق من النور والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين أما قوله تعالى لايسأل عما يفعل وهم يسألون فاعلم انه مشتمل على بحثين (أحدهما) ان الله تعالى لايسأل عن شئ من أفعاله ولا يقال له لم فعلت (والثانى) ان الخلائق مسؤلون عن افعالهم أما البحث الاول ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذه الآية بماقبلها ان عمدة من أثبت لله شريكا ليست الا طلب اللمية فى أفعال الله تعالى وذلك لان الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا رأينا فى العالم خيرا وشرا ولذة وألما وحياة وموتا وصحة وسقما وغنى وفقرا وفاعل الخير خير وفاعل الشر شرير ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيرا وشريرا معا فلابد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير والآخر فاعلا للشرور ويرجع حاصل هذه الشبهة الى أن مدبر العالم لو كان واحدا لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى وخص ذلك بالموت والالم والفقر فيرجع حاصله الى طلب اللمية فى أفعال الله تعالى فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية لاجرم انه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ماهو النكتة الاصلية فى الجواب عن شبهة القائلين بالشريك لان الترتيب الجيد فى المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ثم يذكر بعده ماهو الجواب عن شبهة الخصم (المسئلة الثانية) فى الدلالة على انه سبحانه لايسأل عما يفعل أما أهل السنة فانهم استدلوا عليه بوجوه (أحدها) انه لو كان كل شئ معللا بعلة لكانت علية تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلابد فى قطع التسلسل من الانتهاء الى مايكون غنيا عن العلة وأولى الاشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته وكما ان ذاته منزهة عن الافتقار الى المؤثر والعلة وصفاته مبرأة عن الافتقار الى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الاستناد الى الموجب والمؤثر (وثانيها) ان فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة اما أن تكون واجبة أو ممكنة فان كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا وحينئذ يكون موجبا بالذات لافاعلا بالاختيار وان كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلا لله تعالى أيضا فتفتقر فاعليته لتلك العلة الى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال (وثالثها) ان علة فاعلية الله تعالى للعالم ان كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وان كانت محدثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل (ورابعها) ان من فعل فعلا لغرض فاما أن يكون متمكنا من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أولا يكون متمكنا منه فان

فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالى وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولايخفى
بعده (بل نقذف بالحق على الباطل) اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن ارادته كأنه قيل لكنا لانريده بل شأننا أن نغلب
الحق الذى من جملته الجد على
الباطل الذى من قبيله اللهو
وتخصيص شأنه هذا من بين سائر
شؤنه تعالى بالذكر للتخلص الى
ماسيأتى من الوعيد (فيدمغه)
اى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل
القرى المحكية وقد استعير لايراد
الحق على الباطل القذف الذى
هو الرمى الشديد بالجرم الصلب
كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ
الذى هو كسر الشئ الرخو
الاجوف وهو الدماغ بحيث يشق
غشاءه المؤدى الى زهوق الروح
تصويرا له بذلك وقرئ فيدمغه
بالنصب وهو ضعيف وقرئ
فيدمغه بضم الميم (فاذا هو زاهق)
أى ذاهب بالكلية وفى اذا
الفجائية والجملة الاسمية من
الدلالة على كمال المسارعة فى
الذهاب والبطلان مالايخفى
فكأنه زاهق من الاصل (ولكم
الويل مما تصفون) وعيد لقريش
بأن لهم أيضا مثل مالاولئك من
العذاب والعقاب ومن تعليلية
متعلقة بالاستقرار الذى تعلق به
الخبر أو بمحذوف هو حال من
الويل أو من ضميره فى الخبر وما اما
مصدرية أو موصولة أو موصوفة
أى واستقر لكم الويل والهلاك
من أجل وصفكم له سبحانه بما
لايليق بشأنه الجليل أو بالذى
تصفونه أو بشئ تصفونه به من
الولد أو كائنا مما تصفونه تعالى به (وله من فى السموات والارض) استئناف مقرر لماقبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة

كان متمكنا منه كان توسط تلك الواسطة عبثا وان لم يكن متمكنا منه كان عاجزا والعجز على الله تعالى محال أما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالاغراض وكل ذلك فى حق الله تعالى محال (وخامسها) انه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض اما أن يكون عائدا الى الله تعالى أو الى العباد والاول محال لانه منزه عن النفع والضر واذا بطل ذلك تعين ان الغرض لابد وان يكون عائدا الى العباد ولاغرض للعباد الا حصول اللذات وعدم حصول الآلام والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شئ من الوسايط واذا كان كذلك استحال أن يفعل شيأ لاجل شئ (وسادسها) هو انه لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة اليه اما أن يكون على السواء أولا يكون فان كان على السواء استحال أن يكون غرضا وان لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصا بذاته كاملا بغيره وذلك محال فان قلت وجود ذلك الغرض وعدمه وان كان بالنسبة اليه على السواء اما بالنسبة الى العباد فالوجود أولى من العدم قلنا تحصيل تلك الاولوية للعبد وعدم تحصيلها له اما أن يكون بالنسبة اليه على السوية أولا على السوية ويعود التقسيم الاول (وسابعها) وهو ان الموجود اماهو سبحانه أو ملكه وملكه ومن تصرف فى ملك نفسه لايقال له لم فعلت ذلك (وثامنها) وهو ان من قال لغيره لم فعلت ذلك فهذا السؤال انما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسؤل منه عن فعله وذلك من العبد فى حق الله تعالى محال فانه لو فعل أى فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك اما بأن يهدده بالعقاب والايلام وذلك على الله تعالى محال أو بأن يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفاهة على مايقوله المعتزلة وذلك أيضا محال لان استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور ذاتية له وماثبت للشئ لذاته يستحيل أن يتبدل لاجل تبدل الصفات العرضية الخارجية فثبت بهذه الوجوه انه لايجوز أن يقال لله فى افعاله لم فعلت هذا الفعل فان كل شئ صنعه ولاعلة لصنعه وأما المعتزلة فانهم سلموا انه لايجوز أن يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر وهو انه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنيا عنها ومن كان كذلك فانه يستحيل أن يفعل القبيح واذا عرفنا ذلك عرفنا اجمالا ان كل مايفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب واذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا (أما البحث الثانى) وهو قوله تعالى وهم يسألون فهذا يدل على كون المكلفين مسؤلين عن أفعالهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الكلام فى هذا السؤال اما فى الامكان العقلى أو فى الوقوع السمعى أما الامكان العقلى فالخلاف فيه مع منكرى التكاليف واحتجوا على قولهم بوجوه (أحدها) قالوا التكليف اما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته الى الفعل والترك أو حال رجحان أحدهما على الآخر والاول محال لان حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف بالترجيح تكليفا بالمحال والثانى محال لان حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوح ممتنع الوقوع

بالغة ونظام كامل وأنه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أى له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا واحياء واماتة وتعذيبا واثابة من غير أن يكون لاحد فى ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا (ومن عنده) وهم الملائكة عليهم السلام عبر عنهم بذلك اثر ما عبر عنهم بمن فى السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره (لا يستكبرون عن عبادته) أى لا يتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبيرا (ولا يستحسرون) ولا يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة فى الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون لا لافادة نفى المبالغة فى الحسور مع ثبوت أصله فى الجملة كما أن نفى الظلامية فى قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفى المبالغة فى الظلم مع ثبوت أصل الظلم فى الجملة وقيل من عنده معطوف على من الاولى وافرادهم بالذكر مع دخولهم فى من فى السموات والارض للتعظيم كما فى قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله تعالى لا يستكبرون حينئذ حال من من الثانية (يسبحون الليل والنهار) أى ينزهونه فى جميع الاوقات ويعظمونه ويمجدونه دائما وهو استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون فى عباداتهم أو كيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله تعالى (لا يفترون) أى لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا

والتكليف بايقاع ما يكون واجب الوقوع عبث وبايقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق (وثانيها) قالوا كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثا وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع فيكون التكليف به تكليفا بما لا يطاق (وثالثها) قالوا سؤال العبد اما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة فان كان لفائدة فتلك الفائدة ان عادت الى الله تعالى كان محتاجا وهو محال وان عادت الى العبد فهو محال لان سؤاله لما كان سببا لتوجيه العقاب عليه لم يكن هذا نفعا عائدا الى العبد بل ضررا عائدا اليه وان لم يكن فى السؤال فائدة كان عبثا وهو غير جائز على الحكيم بل كان اضرارا وهو غير جائز على الرحيم والجواب عنها من وجهين (الاول) ان غرضكم من ايراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تلزمونا نفى التكليف فكأنكم تكلفونا بنفى التكليف وهو متناقض (والثانى) وهو ان مدار كلامكم فى هذه الشبهات على حرف واحد وهو ان التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق فلا يجوز من الحكيم أن يوجبها على العباد فيرجع حاصل هذه الشبهات الى انه يقال له تعالى لم كلفت عبادك الا انا قد بينا انه سبحانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فظهر بهذا ان قوله لا يسأل عما يفعل كالاصل والقاعدة لقوله وهم يسألون فتأمل فى هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من اسرار علم القرآن وأما الوقوع السمعى فلقائل أن يقول ان قوله وهم يسألون وان كان متأكدا بقوله فوربك لنسألنهم أجمعين وبقوله وقفوهم انهم مسؤلون الا انه يناقضه قوله فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان والجواب ان يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والايجاب الى مقام آخر دفعا للتناقض (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة فيه وجوه (أحدها) انه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسأل عما يفعل بل كان يذم بما حقه الذم كما يحمد بما حقه المدح (وثانيها) انه كان يجب أن لا يسأل عن الامور اذا كان لا فاعل سواه (وثالثها) انه كان لا يجوز أن يسألوا عن عملهم اذ لا عمل لهم (ورابعها) ان أعمالهم لا يمكنهم أن يعدلوا عنها من حيث خلقها وأوجدها فيهم (وخامسها) انه تعالى صرح فى كثير من المواضع بأنه يقبل حجة العباد عليه كقوله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا يقتضى ان لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل وقال ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على ان حجة العبد متوجهة على الله تعالى (وسادسها) قال ثمامة اذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى ما حملك على معصيتى فيقول على مذهب الجبر يارب انك خلقتنى كافرا وأمرتنى بما لا أقدر عليه وحلت بينى وبينه ولا شك انه على مذهب الجبر يكون صادقا وقال الله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له ومن يدعه يقول هذا الكلام او يحتج فقال ثمامة أليس اذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم انه منعه مما لو لم يمنعه منه

لانقطع

بفراغ أو بشغل آخر (ام اتخذوا آلهة) حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن الى فن آخر من التوبيخ اثر تحقيق الحق ببيان انه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم قاطبة تحت ملكوته وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل ما لا يليق بشأنه من الامور التى من جملتها الانداد ومعنى الهمزة فى أم المنقطعة انكار الوقوع لا انكار الواقع وقوله تعالى (من الارض) متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأيا ما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص وقوله تعالى (هم ينشرون) أى يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذى يدور عليه الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لا محالة أى بل اتخذوا آلهة من الارض هم خاصة مع حقارتهم وجماديتهم ينشرون الموتى كلا فان ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا لها الالهية فكأنهم ادعوا لها الانشار ضرورة أنه من الخصائص الالهية حتما ومعنى التخصيص فى تقديم الضمير ما أشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار الموجبة لمزيد الانكار كما فى قوله تعالى أفى الله شك وقوله تعالى أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن فان تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لان يشك فيه ويستهزأ به ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لان الالوهية مقتضية للاستقلال بالابداء والاعادة فحيث ادعوا للاصنام الالهية

لانقطع فى يده وهذا نهاية الانقطاع (والجواب) عن هذه الوجوه انها معارضة بمسئلة الداعى ومسئلة العلم ثم بالوجوه الثمانية التى بينا فيها انه يستحيل طلب لمية أفعال الله تعالى وأحكامه وأما قوله تعالى أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم فاعلم انه سبحانه كرر قوله أم اتخذوا من دونه آلهة استعظاما لكفرهم أى وصفتم الله بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك اما من جهة العقل أو من جهة النقل فانه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولا وقرر الاصل الذى عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيا أخذ يطالبهم بذكر شبههم ثالثا أما قوله تعالى هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى تفسيره وفيه أقوال (أحدها) هذا ذكر من معى أى هذا هو الكتاب المنزل على من معى وهذا ذكر من قبلى أى الكتاب المنزل على من تقدمنى من الانبياء وهو التوراة والانجيل والزبور والصحف وليس فى شئ منها أنى أذنت بأن تتخذوا الها من دونى بل ليس فيها الا أنى أنا الله لا اله الا أنا كما قال بعد هذا وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج (والثانى) وهو قول سعيد ابن جبير وقتادة ومقاتل والسدى ان قوله وذكر من قبلى صفة للقرآن فانه كما يشتمل على أحوال هذه الامة فكذا يشتمل على أحوال الامم الماضية (الثالث) ما ذكره القفال وهو ان المعنى قل لهم هذا الكتاب الذى جئتكم به قد اشتمل على بيان أحوال من معى من المخالفين والموافقين وعلى بيان أحوال من قبلى من المخالفين والموافقين فاختاروا لانفسكم كان الغرض منه التهديد (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما وهو الاصل والاضافة من اضافة المصدر الى المفعول كقوله غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون وقرئ من معى ومن قبلى بكسر ميم من على ترك الاضافة فى هذه القراءة وادخال الجار على مع غريب والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد فدخل من عليه كما يدخل على اخواته وقرئ ذكر معى وذكر قبلى وأما قوله بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين انه لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع ذكر بعده أن وقوعهم فى هذا المذهب الباطل ليس لاجل دليل ساقهم اليه بل ذلك لان عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ثم ترتب على عدم العلم الاعراض عن استماع الحق وطلبه (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ الحق بالرفع على توسط التوكيد بين السبب والمسبب والمعنى ان اعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل أما قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون فاعلم ان يوحى ونوحى قراءتان مشهورتان وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد

قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم

فكأنهم ادّعوا لها الاستقلال بالانشار كما أنهم جعلوا بذلك مدعين لاصل الانشار (لو كان فيهما آلهة الا الله)
ابطال لتعدد الاله باقامة البرهان على ١٤٢ انتفائه بل على استحالته وايراد الجمع لوروده اثر انكار اتخاذ الا لهة
لالان للجمعية مدخلا فى
الاستدلال وكذا فرض كونها
فيهما والا بمعنى غير على أنها صفة
لآلهة ولا مساغ للاستثناء
لاستحالة شمول ماقبلها لما بعدها
وافضائه الى فساد المعنى لدلالته
حينئذ على أن الفساد لكونها
فيهما بدونه تعالى ولا للرفع على
البدل لانه متفرع على الاستثناء
ومشروط بأن يكون فى كلام
غير موجب أى لو كان فى
السموات والارض آلهة غير الله
كما هو اعتقادهم الباطل (لفسدتا)
أى لبطلتا بما فيهما جميعا وحيث
انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا
بيان الملازمة أن الالهية مستلزمة
للقدرة على الاستبداد بالتصرف
فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا
وايجادا واعداما واحياء واماتة
فبقاؤهما على ما هما عليه اما
بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة
وقوع المعلول المعين بعلل متعددة
واما بتأثير واحد منها فالبواقى
بمعزل من الالهية قطعا واعلم أن
جعل التالى فسادهما لا عدم
وجودهما لما أنه اعتبر فى المقدم
تعدد الآلهة فيهما والا فالبرهان
يقضى باستحالة التعدد على
الاطلاق فانه لو تعدد الاله فان
توافق الكل فى المراد تطاردت
عليه القدر وان تخالفت تعاوقت
فلا يوجد موجود أصلا وحيث
انتفى التالى تعين انتفاء المقدم والفاء فى قوله تعالى (فسبحان الله) لترتيب ما بعدها على ما قبلها

الله

بامره يعملون يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته
مشفقون ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) اعلم انه
سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف ذلك
ببراءته عن اتخاذ الولد فقال وقالوا اتخذ الرحمن ولدا نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة
بنات الله وأضافوا الى ذلك انه تعالى صاهر الجن على ماحكى الله تعالى عنهم فقال وجعلوا
بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لان الولد لا بد
وان يكون شبيها بالوالد فلو كان لله ولد لاشبهه من بعض الوجوه ثم لا بد وان يخالفه من
وجه آخر ومابه المشاركة غير مابه الممايزة فيقع التركيب فى ذات الله سبحانه وتعالى وكل
مركب ممكن فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنا غير واجب وذلك يخرجه عن حد الالهية
ويدخله فى حد العبودية ولذلك نزه نفسه عنه أما قوله بل عباد مكرمون فاعلم انه سبحانه لما
نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة الا أنهم مكرمون مفضلون
على سائر العباد وقرئ مكرمون لا يسبقونه من سابقته فسبقته أسبقه والمعنى انهم يتبعونه
فى قوله ولا يقولون شيأ حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم
أيضا كذلك مبنى على أمره لا يعملون عملا مالم يؤمروا به ثم انه سبحانه ذكر ما يجرى مجرى
السبب لهذه الطاعة فقال يعلم مابين أيديهم وماخلفهم والمعنى انهم لما علموا كونه سبحانه
عالما بجميع المعلومات علموا كونه عالما بظواهرهم وبواطنهم فكان ذلك داعيا لهم الى نهاية
الخضوع وكمال العبودية وذكر المفسرون فيه وجوها (أحدها) قال ابن عباس يعلم ماقدموا
وما أخروا من أعمالهم (وثانيها) مابين أيديهم الآخرة وماخلفهم الدنيا وقيل على عكس
ذلك (وثالثها) قال مقاتل يعلم ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم وحقيقة المعنى
انهم يتقلبون تحت قدرته فى ملكوته وهو محيط بهم واذا كانت هذه حالتهم فكيف
يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدى الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له ثم
كشف عن هذا المعنى فقال ولا يشفعون الا لمن ارتضى أى لمن هو عند الله مرضى وهم من
خشيته مشفقون أى من خشيتهم منه فاضيف المصدر الى المفعول ومشفقون خائفون
ولا يأمنون مكره وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة
المعراج ساقطا كالحلس من خشية الله تعالى ونظيره قوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له
الرحمن أما قوله تعالى ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم فالمعنى أن كل من
يقول من الملائكة ذلك القول فانا نجازى ذلك القائل بهذا الجزاء وهذا لا يدل على انهم
قالوا ذلك أو ما قالوه وهو قريب من قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وههنا مسائل
(المسئلة الاولى) هذه الصفات تدل على العبودية وتنافى الولادة لوجوه (أحدها) انهم لما
بالغوا فى الطاعة الى حيث لا يقولون قولا ولا يعملون عملا الا بامره فهذه صفات للعبيد
لا صفات الاولاد (وثانيها) انه سبحانه لما كان عالما باسرار الملائكة وهم لا يعلمون أسرار

من ثبوت الوحدانية بالبرهان أى فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الامور التى من جملتها ان يكون له
شريك فى الالوهية وايراد الجلالة فى موقع الاضمار للاشعار ١٤٣ بعلة الحكم فان الالوهية مناط لجميع
صفات كماله التى من جملتها تنزهه
تعالى عما لا يليق به ولتربية المهابة
وادخال الروعة وقوله تعالى (رب
العرش) صفة للاسم الجليل
مؤكدة لتنزهه عز وجل (عما
يصفون) متعلق بالتسبيح أى
فسبحوه عما يصفونه من ان يكون
من دونه آلهة (لا يسئل عما يفعل)
استئناف ببيان انه تعالى لقوة
عظمته وعزة سلطانه القاهر
بحيث ليس لاحد من مخلوقاته
أن يناقشه ويسأله عما يفعل من
أفعاله اثر بيان أن ليس له شريك
فى الالهية (وهم) اى العباد
(يسئلون) عما يفعلون نقيرا
وقطميرا الا انهم مملوكون له تعالى
مستعبدون ففيه وعيد للكفرة (أم
اتخذوا من دونه آلهة) اضراب
وانتقال من اظهار بطلان
كون ما اتخذوه آلهة حقيقة
باظهار خلوها عن خصائص
الالهية التى من جملتها الانشار
واقامة البرهان القاطع على
استحالة تعدد الاله على الاطلاق
وتفرده سبحانه بالالوهية الى
اظهار بطلان اتخاذهم تلك
الآلهة مع عرائها عن تلك
الخصائص بالسرة مشركا لله عز
سلطانه وتبكيتهم بالجائهم الى
اقامة البرهان على دعواهم
الباطلة وتحقيق أن جميع
الكتب السماوية ناطقة بحقية
التوحيد و بطلان الاشراك والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا
متجاوزين اياه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرده بالالوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الالوهية بالكلية

الله تعالى وجب أن يكون الاله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هى
نفس ماذكره عيسى عليه السلام فى قوله تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك (وثالثها)
انهم لا يشفعون الا لمن ارتضى ومن يكن الها أو ولد الا له لا يكون كذلك (ورابعها) انهم
على نهاية الاشفاق والوجل وذلك ليس الا من صفات العبيد (وخامسها) نبه تعالى بقوله
ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم على ان حالهم حال سائر العبيد المكلفين
فى الوعد والوعيد فكيف يصح كونهم آلهة (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بقوله تعالى
ولا يشفعون الا لمن ارتضى على ان الشفاعة فى الآخرة لا تكون لاهل الكبائر لانه لا يقال
فى أهل الكبائر ان الله يرتضيهم (والجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك
الا لمن ارتضى أى لمن قال لا اله الا الله واعلم ان هذه الآية من اقوى الدلائل لنا فى اثبات
الشفاعة لاهل الكبائر وتقريره هو ان من قال لا اله الا الله فقد ارتضاه تعالى فى ذلك ومتى
صدق عليه انه ارتضاه الله تعالى فى ذلك فقد صدق عليه انه ارتضاه الله لان المركب متى
صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه واذا ثبت ان الله قد ارتضاه وجب
اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذى ذكرناه ان هذه الآية من أقوى الدلائل لنا
على ماقرره ابن عباس رضى الله عنهما (المسئلة الثالثة) هذه الآية تدل على أمور ثلاثة
(أحدها) تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال لا يسبقونه بالقول وهم بامره
يعملون وهم من خشيته مشفقون ومن حيث الوعيد (وثانيها) تدل أيضا على ان
الملائكة معصومون لانه قال وهم بأمره يعملون (وثالثها) قال القاضى عبد الجبار قوله
كذلك نجزى الظالمين يدل على ان كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك
يوجب القطع على انه تعالى لا يغفر لاهل الكبائر فى الآخرة (والجواب) أقصى مافى الباب
ان هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعمومات الوعد ﴿ قوله تعالى (أولم ير الذين
كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى
أفلا يؤمنون وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون
وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذى خلق الليل والنهار
والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) اعلم انه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة
على وجود الصانع وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه منزها عن الشريك لانها دالة على
حصول الترتيب العجيب فى العالم ووجود الالهين يقتضى وقوع الفساد فهذه الدلائل
تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم وفيها أيضا رد على عبدة
الاوثان من حيث ان الاله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز فى العقل
أن يعدل عن عبادته الى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها
واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكرههنا ستة أنواع من الدلائل (النوع الاول) قوله أولم ير الذين

(قل) لهم بطريق التبكيت والقام الحجر (هاتوا برهانكم) على ماتدعونه من جهة العقل والنقل فانه لاصحة لقول لادليل عليه فى الامور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير ومافى اضافة البرهان الى ضميرهم من الاشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) انارة لبرهانه واشارة الى أنه مما نطقت به الكتب الالهية قاطبة وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم على اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم وذكر الامم السالفة قد أقته فاقيموا أنتم أيضا برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على أمتى وهذا كتاب أنزل على أمم الانبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقرئ بالتنوين والاعمال كقوله تعالى أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما وبه وبمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وقوله تعالى (بل أكثرهم لايعلمون الحق) اضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الامر بتبكيتهم بمطالبة البرهان الى بيان أنه لاينجع فيهم المحاجة باظهار حقية الحق وبطلان الباطل فان أكثرهم لايفهمون الحق ولايميزون بينه وبين الباطل (فهم) لاجل ذلك (معرضون) أى مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول لايرعوون عماهم عليه من الغى والضلال وان كررت عليهم البينات والحجج أو معرضون عما ألقى عليهم من البراهين العقلية والنقلية

كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير ألم ير بغير الواو والباقون بالواو وادخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه قال صاحب الكشاف قرئ رتقا بفتح التاء وكلاهما فى معنى المفعول كالخلق والنفض أى كانتا مرتوقتين فان قلت الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لانه مصدر فمابال الرتق قلت هو على تقدير موصوف أى كانتا شيأ رتقا (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول المراد من الرؤية فى قوله تعالى أولم ير الذين كفروا اما الرؤية واما العلم والاول مشكل أما أولا فلان القوم مارأوهما كذلك البتة وأما ثانيا فلقوله سبحانه وتعالى ما أشهدتهم خلق السموات والارض وأما العلم فمشكل لان الاجسام قابلة للفتق والرتق فى أنفسها فالحكم عليها بالرتق أولا وبالفتق ثانيا لاسبيل اليه الا السمع والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال (والجواب) المراد من الرؤية هو العلم وماذكروه من السؤال فدفعه من وجوه (أحدها) انانثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله ثم نجعله دليلا على حصول النظام فى العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة فى التوحيد (وثانيها) ان يحمل الرتق والفتق على امكان الرتق والفتق والعقل يدل عليه لان الاجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعى مخصصا (وثالثها) ان اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فانه جاء فى التوراة أن الله تعالى خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق السموات والارض منها وفتق بينهما وكان بين عبدة الاوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على انهم يقبلون قول اليهود فى ذلك (المسئلة الثالثة) انما قال كانتا رتقا ولم يقل كن رتقا لان السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس قال الاخفش السموات نوع والارض نوع ومثله ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ومرت بنا غنمان أسودان لان هذا القطيع غنم وذلك غنم (المسئلة الرابعة) الرتق فى اللغة السد يقال رتقت الشئ فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين الملتصقين قال الزجاج الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتى رتق قال المفضل انما لم يقل كانتا رتقين كقوله وماجعلناهم جسدا لاياكلون الطعام لان كل واحد جسد كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق (المسئلة الخامسة) اختلف المفسرون فى المراد من الرتق والفتق على أقوال (أحدها) وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم ان المعنى كانتا شيأ واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وهذا القول يوجب ان خلق الارض مقدم على خلق السماء لانه تعالى لما فصل بينهما ترك الارض حيث هى وأصعد الاجزاء السماوية قال كعب خلق الله السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقهما بها (وثانيها) وهو قول أبى صالح ومجاهد

وقرئ الحق بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف وسط بين السبب والمسبب تاكيدا للسببية وقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الالهية وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرئ يوحى على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأيا ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) حكاية لجناية فريق من المشركين جىء بها لاظهار بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق وهم حى من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدى أن قريشا وبعض أجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الرحمانية المنبئة عن كون جميع ماسواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة أو منعما عليه لابراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (سبحانه) أى تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان مصدر من سبح أى بعد أو أسبحه تسبيحه على أنه علم للتسبيح وهو مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى (بل عباد) اضراب وابطال لما قالوه كأنه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى (مكرمون) مقربون عنده وقرئ مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشا غلط القوم

ومجاهد ان المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات وكذلك الارضون (وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين ان السموات والارض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والارض بالنبات والشجر ونظيره قوله تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك وجعلنا من الماء كل شئ حى وذلك لايليق الا وللماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك الا اذا كان المراد ماذكرنا فان قيل هذا الوجه مرجوح لان المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهى سماء الدنيا قلنا انما أطلق عليه لفظ الجمع لان كل قطعة منها سماء كما يقال ثوب اخلاق وبرمة اعشار واعلم ان على هذا التأويل يجوز حمل الرؤية على الابصار (ورابعها) قول أبى مسلم الاصفهانى يجوز أن يراد بالفتق الايجاد والاظهار كقوله فاطر السموات والارض وكقوله قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن فأخبر عن الايجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الايجاد بلفظ الرتق أقول وتحقيقه أن العدم نفى محض فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة بل كأنه أمر واحد متصل متشابه فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود (وخامسها) ان الليل سابق على النهار لقوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وكانت السموات والارض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى باظهار النهار المبصر فان قيل فأى الاقاويل أليق بالظاهر قلنا الظاهر يقتضى ان السماء على ماهى عليه والارض على ماهى عليه كانتا رتقا ولايجوز كونهما كذلك الا وهما موجودان والرتق ضد الفتق فاذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحا ويصير الوجه الاول اولى الوجوه ويتلوه الوجه الثانى وهو ان كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بان جعل كل واحد منهما سبعا ويتلوه الثالث وهو انهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ففتقهما لينزل المطر من السماء ويظهر النبات على الارض (المسئلة السادسة) دلالة هذه الوجوه على اثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة لان أحدا لايقدر على مثل ذلك والاقرب انه سبحانه خلقهما رتقا لما فيه من المصلحة للملائكة ثم لما أسكن الله الارض أهلها جعلهما فتقا لما فيه من منافع العباد (النوع الثانى من الدلائل) قوله تعالى وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قوله وجعلنا لايخلو اما ان يتعدى الى واحد او اثنين فان تعدى الى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله خلق الانسان من عجل وان تعدى الى اثنين فالمعنى صيرنا كل شئ حى بسبب من الماء لابد له منه ومن هذا نحو من فى قوله عليه السلام ما أنا من دد ولا الدد منى وقرئ حيا وهو المفعول الثانى

وقوله تعالى (لايسبقونه بالقول) صفة أخرى ١٤٦ لعباده منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لامره تعالى أى لايقولون
شيأ حتى يقوله تعالى أو يأمرهم
به وأصله لايسبق قولهم قوله
تعالى فاسند السبق اليهم
منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق
قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم اياه
تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك
وللتنبيه على غاية استهجان السبق
المعرض به للذين يقولون مالا يقوله
الله تعالى وجعل القول محلا
للسبق واداة له ثم أنيب اللام عن
الاضافة للاختصار والتجافى عن
التكرار وقرئ لايسبقونه بضم
الباء من سابقته فسبقته أسبقه
وفيه مزيد استهجان للسبق
واشعار بأن من سبق قوله قوله
تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى
السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله
تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم
ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة
بعد المغالبة فانى يتوهم صدوره
عنهم (وهم بأمره يعملون) بيان
لتبعيتهم له تعالى فى الاعمال اثر
بيان تبعيتهم له تعالى فى الاقوال
فان نفى سبقهم له تعالى بالقول
عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كانه
قيل هم بامره يقولون وبأمره
يعملون لابغير امره أصلا فالقصر
المستفاد من تقديم الجار معتبر
بالنسبة الى غير أمره لا الى أمر
غيره (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم)
استئناف وقع تعليلا لما قبله
وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم
باحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الاقوال والاعمال لايزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون

(المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان وقد قال والجان خلقناه من قبل من نار السموم وجاء فى الاخبار ان الله تعالى خلق الملائكة من النور وقال تعالى فى حق عيسى عليه السلام واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وقال فى حق آدم خلقه من تراب (والجواب) اللفظ وان كان عاما الا أن القرينة المخصصة قائمة فان الدليل لابد وأن يكون مشاهدا محسوسا ليكون أقرب الى المقصود وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام لان الكفار لم يروا شيأ من ذلك (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله كل شئ حى الحيوان فقط وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لانه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر وهذا القول أليق بالمعنى المقصود كانه تعالى قال ففتقنا السماء لانزال المطر وجعلنا منه كل شئ فى الارض من النبات وغيره حيا حجة القول الاول ان النبات لايسمى حيا قلنا لانسلم والدليل عليه قوله تعالى كيف يحيى الارض بعد موتها أما قوله تعالى أفلا يؤمنون فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الادلة فيعلموا بها الخالق الذى لايشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك (النوع الثالث) قوله تعالى وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الاولى وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك فى قوله لئلا يعلم أهل الكتاب (المسئلة الثانية) الرواسى الجبال والراسى هو الداخل فى الارض (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الارض بسطت على الماء فكانت تتكفأ بأهلها كما تتكفأ السفينة لانها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال (النوع الرابع) قوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع فان قلت فى الفجاج معنى الوصف فمالها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا قلت لم تقدم وهى صفة ولكنها جعلت حالا كقوله لعزة موحشا طلل قديم والفرق من جهة المعنى ان قوله سبلا فجاجا اعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقا واسعة وأما قوله فجاجا سبلا فهو اعلام بانه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة فهذه الآية بيان لما أبهم فى الآية الاولى (المسئلة الثانية) فى قوله فيها قولان (أحدهما) انها عائدة الى الجبال أى وجعلنا فى الجبال التى هى رواسى فجاجا سبلا أى طرقا واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجا وجعل فيها طرقا (الثانى) انها عائدة الى الارض أى وجعلنا فى الارض فجاجا وهى المسالك والطرق وهو قول الكلبى (المسئلة الثالثة) قوله لعلهم يهتدون معناه لكى يهتدوا اذ الشك لايجوز على الله تعالى (المسئلة الرابعة) فى يهتدون قولان (الاول) ليهتدوا الى البلاد (والثانى) ليهتدوا الى وحدانية الله تعالى بالاستدلال قالت المعتزلة وهذا التأويل

يدل

على قول أو عمل بغير امره تعالى (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) أن يشفع له مهابة منه ١٤٧ تعالى (وهم) مع ذلك (من خشيته)
عزوجل (مشفقون) مرتعدون
وأصل الخشية الخوف مع التعظيم
ولذلك خص بها العلماء والاشفاق
الخوف مع الاعتناء فعند تعديته
بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر
وعند تعديته بعلى ينعكس الامر
(ومن يقل منهم) أى من
الملائكة اذ الكلام فيهم وفى
كونهم بمعزل عما قالوا فى حقهم
(انى اله من دونه) متجاوزا اياه
تعالى (فذلك) الذى فرض قوله
فرض محال (نجزيه جهنم) كسائر
المجرمين ولايغنى عنهم ماذكر من
صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية
وفيه من الدلالة على قوة ملكوته
تعالى وعزة جبروته واستحالة كون
الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم
ماتوهمه أولئك الكفرة مالايخفى
(كذلك نجزى الظالمين) مصدر
تشبيهى مؤكد لمضمون ماقبله أى
مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى
الذين يضعون الاشياء فى غير
مواضعها ويتعدون أطوارهم
والقصر المستفاد من التقديم معتبر
بالنسبة الى النقصان دون الزيادة
أى لاجزاء أنقص منه (أولم ير الذين
كفروا) تجهيل لهم بتقصيرهم فى
التدبر فى الآيات التكوينية
الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية
وكون جميع ماسواه مقهورا
تحت ملكوته والهمزة للانكار
والواو للعطف على مقدر وقرئ
بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (ان السموات والارض كانتا) أى جماعتا السموات والارضين كما فى قوله

يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء والكلام عليه قد تقدم وفيه قول ثالث وهو ان الاهتداء الى البلاد والاهتداء الى وحدانية الله تعالى يشتركان فى مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للامرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا فى مفهوميه معا (النوع الخامس) قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) سمى السماء سقفا لانها للارض كالسقف للبيت (المسئلة الثانية) فى المحفوظ قولان (أحدهما) انه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجرى مثلهما على سائر السقوف كقوله ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه وقال ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره وقال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا وقال ولا يؤده حفظهما (الثانى) محفوظا من الشياطين قال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم ثم ههنا قولان (أحدهما) انه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثانى) انه محفوظ بالنجوم من الشياطين والقول الاول أقوى لان حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما لانه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثانى لانه لايخاف على السماء من استراق سمع الجن (المسئلة الثالثة) قوله تعالى وهم عن آياتها معرضون معناه عما وضع الله تعالى فيها من الادلة والعبر فى حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة (المسئلة الرابعة) قرئ عن آيتها على التوحيد والمراد الجنس أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الارض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون (النوع السادس) قوله تعالى وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه سبحانه لما قال وهم عن آياتها معرضون فصل تلك الآيات ههنا لانه تعالى لو خلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل انما يكون ذلك بسبب حركاتها فى أفلاكها فلهذا قال كل فى فلك يسبحون وتقريره أن نقول قد ثبت بالارصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة وههنا حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة واستدلوا عليه بانا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة اذا قارن ماهو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جدا فانه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الى أن يقابلها على

قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته فى ممر البروج يزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا أدركه ستره بطرفه الشرقى وتنكشف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب الى المشرق هذا ما قالوه ونحن خالفناهم فيه وقلنا ان ذلك محال لان الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من المغرب الى المشرق حركة بطيئة ولا شك انها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب الى المشرق لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين الى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لان الحركة الى الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل اليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة الى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال فان قيل لم لا يجوز أن يقال الشمس حال حركتها الى الجانب الشرقى تنقطع حركتها الى الجانب الغربى وبالعكس وأيضا فاذكرتموه منتقض بحركة الرحى الى جانب والنملة التى تكون عليها تتحرك الى خلاف ذلك الجانب قلنا أما الاول فلا يستقيم على أصولكم لان حركات الافلاك مصونة عن الانقطاع عندكم وأما الثانى فهو مثال محتمل وما ذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان أما الذى احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب الى المشرق فهو ضعيف فانه يقال لم لا يجوز أن يقال ان جميع الكواكب متحركة من المشرق الى المغرب الا أن بعضها أبطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك الى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الاعظم استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة الا مقدار ثانية فيظن ان فلك الثوابت تحرك من الجهة الاخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لانه تخلف بمقدار ثانية وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا الى أن ينتهى الى فلك القمر فهو أبطأ الافلاك حركة وهذا الذى قلناه مع ما يشهد له البرهان المذكور فهو أقرب الى ترتيب الوجود فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الاعظم ونهاية السكون الجرم الذى هو فى غاية البعد وهو الارض ثم ان كل ما كان أقرب الى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا ما نقوله فى حركات الافلاك فى أطوالها وأما حركاتها فى عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها الى الشمال والجنوب اذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه وكان الذى يقرب منه متشابه الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة أفنت الرطوبات فأحالتها كلها الى النارية وبالجملة فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط

المتوسط

تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا (رتقا) الرتق الضم والالتصام والمعنى اما على حذف المضاف أو هو بمعنى المفعول أى كانتا ذواتى رتق أو مرتوقتين وقرئ رتقا أى شيأ رتقا أى مرتوقا (ففتقناهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيأ واحدا ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وقال مجاهد والسدى كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين ان السموات كانت رتقا مستوية صلبة لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق أو السموات جميعا على أن لها مدخلا فى الامطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لا سترة به وأما بالمعانى الاول فهم وان لم يعلموها لكنهم متمكنون من علمهما اما بطريق النظر والتفكر

المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون فى موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية وكان الكوكب يتحرك بطيأ لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الافراط وكان يعرض قريبا مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت وأما اذا كان هناك ميل يحفظ الحركة فى جهة مدة ثم ينتقل الى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى فى كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصونا عن طرفى الافراط والتفريط وبالجملة فالعقول لا تقف الا على القليل من اسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية (المسئلة الثانية) انه لا يجوز أن يقول وكل فى فلك يسبحون الا ويدخل فى الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وان لم تكن مذكورة أولا كأنها مذكورة لعود هذا الضمير اليها والله أعلم (المسئلة الثالثة) الفلك فى كلام العرب كل شئ دائر وجمعه أفلاك واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك وقال الاكثرون بل هى أجسام تدور النجوم عليها وهذا أقرب الى ظاهر القرآن ثم اختلفوا فى كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه وقال الكلبى ماء مجموع تجرى فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لا تكون الا فى الماء قلنا لا نسلم فانه يقال فى الفرس الذى يمد يديه فى الجرى سابح وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة انها أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول فأما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور فى الكتب اللائقة به والحق انه لا سبيل الى معرفة صفات السموات الا بالخبر (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه اما أن يكون الفلك ساكنا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك فى الماء الراكد واما أن يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه أيضا اما مخالفا لجهة حركته أو موافقا لجهته اما بحركة مساوية لحركة الفلك فى السرعة والبطء أو مخالفة واما أن يكون الفلك متحركا والكوكب ساكنا أما الرأى الاول فقالت الفلاسفة انه باطل لانه يوجب خرق الافلاك وهو محال وأما الرأى الثانى فحركة الكواكب ان فرضت مخالفة لحركة الفلك فذاك أيضا يوجب الخرق وان كانت حركتها الى جهة الفلك فان كانت مخالفة لها فى السرعة والبطء لزم الانخراق وان استويا فى الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضا لازم لان الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق الا القسم الثالث وهو أن يكون الكوكب مغروزا فى الفلك واقفا فيه والفلك يتحرك فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك واعلم ان مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الافلاك وهو باطل بل الحق ان الاقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذى يدل عليه لفظ

فان الفتق عارض مفتقر الى مؤثر قديم واما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب (وجعلنا من الماء كل شئ حى) أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء وذلك لانه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه اليه وانتفاعه به أو صيرنا كل شئ حى من الماء أى بسبب منه لا بد له من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين فى الاصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدا فان ذلك مصحح محض لا مرجح وقرئ حيا على أنه صفة كل أو مفعول ثان والظرف كما فى الوجه الاول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق الى المؤخر (أفلا يؤمنون) انكار لعدم ايمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والانفسية الدالة على تفرده عز وجل بالالوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون (وجعلنا فى الارض رواسى) أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشئ اذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لا ريب فى صحته كقوله تعالى أشهر معلومات وأياما معدودات (أن تميد بهم) أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالباس (وجعلنا فيها) أى فى الارض وتكرير الفعل لاختلاف

القرآن أن تكون الافلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة فى الماء (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف كل التنوين فيه عوض عن المضاف اليه أى كلهم فى فلك يسبحون والله أعلم (المسئلة السادسة) احتج أبو على بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله يسبحون قال والجمع بالواو والنون لا يكون الا للعقلاء وبقوله تعالى والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين والجواب انما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت الجملة ما محلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر أو لا محل لها لاستئنافها فان قلت لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون فى فلك قلت هذا كقوله كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا أى كل واحد منهم ۞ قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الاهزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما استدل بالاشياء الستة التى شرحناها فى الفصل المتقدم وكانت تلك الاشياء من اصول النعم الدنيوية أتبعه بما نبه به على ان هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان ولكى يتوصل بها الى الآخرة التى هى دار الخلود فاما قوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) قال مقاتل ان ناسا كانوا يقولون ان محمدا صلى الله عليه وسلم لا يموت فنزلت هذه الآية (وثانيها) كانوا يقدرون انه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أى قضى الله تعالى أن لا يخلد فى الدنيا بشرا فلا أنت ولا هم الا عرضة للموت أفان مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفى معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا • سيلقى الشامتون كما لقينا

(وثالثها) يحتمل انه لما ظهر انه عليه السلام خاتم الانبياء جاز أن يقدر مقدر انه لا يموت اذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على ان حاله كحال غيره من الانبياء عليهم السلام فى الموت أما قوله تعالى كل نفس ذائقة الموت ففيه ابحاث (الاول) ان هذا العموم مخصوص فانه تعالى نفس لقوله تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك مع ان الموت لا يجوز عليه وكذا الجمادات لها نفوس وهى لا تموت والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الاشياء وذلك يبطل قول الفلاسفة فى أن الارواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لا تموت (والثانى) الذوق ههنا لا يمكن اجراؤه على ظاهره لان الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق ادراك خاص فيجوز جعله مجازا عن أصل الادراك وأما الموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لان الموت قبل دخوله فى الوجود يمتنع ادراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتا والميت لا يدرك شيأ (والثالث) الاضافة فى ذائقة الموت فى تقدير الانفصال لانه لما يستقبل كقوله غير محلى الصيد وهديا

على قوله تعالى (سبلا) وهو وصف لسبل حالا فيفيد أنه تعالى حين خلقها خلقها كذلك أو ليبدل منها سبلا فيدل ضمنا على انه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد (لعلهم يهتدون) أى الى مصالحهم ومهماتهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) من الوقوع بقدرتنا القاهرة أو من الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا أو من استراق السمع بالشهب (وهم عن آياتها) الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وارادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة (معرضون) لا يتدبرون فيها فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر) اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده (كل) أى كل واحد منهما على أن التنوين عوض عن المضاف اليه (فى فلك يسبحون) أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الجنس كقولك كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لان السباحة حالهم (وما جعلنا لبشر من

بالغ الكعبة أما قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الابتلاء لا يتحقق الا مع التكليف فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على انه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وان كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين (أحدهما) ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات (والثانى) ما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر فى المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (المسئلة الثانية) انما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لانه فى صورة الاختبار (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فتنة مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (المسئلة الرابعة) احتجت التناسخية بقوله والينا ترجعون فان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه (والجواب) انه مذكور مجازا (المسئلة الخامسة) المراد من قوله والينا ترجعون أنهم يرجعون الى حكمه ومحاسبته ومجازاته فيبين بذلك بطلان قولهم فى نفى البعث والمعاد واستدلت التناسخية بهذه الآية وقالوا ان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه وقد كنا موجودين قبل دخولنا فى هذا العالم واستدلت المجسمة بان الاجسام فرجوعنا الى الله تعالى يقتضى كون الله تعالى جسما والجواب عنه قد تقدم فى مواضع كثيرة أما قوله تعالى واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الاهزوا قال السدى ومقاتل نزلت هذه الآية فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم وكان أبو سفيان مع أبى جهل فقال أبو جهل لابى سفيان هذا نبى بنى عبد مناف فقال أبو سفيان وما تنكر أن يكون نبيا فى بنى عبد مناف فسمع النبى صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لابى جهل ما أراك تنتهى حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة وأما أنت يا أبا سفيان فانما قلت ما قلت حمية فنزلت هذه الآية ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله أهذا الذى يذكر آلهتكم والذكر يكون بخير وبخلافه فاذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك للرجل سمعت فلانا يذكرك فان كان الذاكر صديقا فهو ثناء وان كان عدوا فهو ذم ومنه قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم والمعنى انه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها وأما قوله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون فالمعنى انهم يعيبون عليه ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء مع انهم بذكر الرحمن الذى هو المنعم الخالق المحيى المميت كافرون ولا فعل أقبح من ذلك فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لا يشعرون ويحتمل أن يراد بذكر الرحمن القرآن والكتب والمعنى فى اعادة هم ان الاولى اشارة الى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل والثانية ابانة لاختصاصهم به وأيضا فان فى اعادتها تأكيدا وتعظيما لفعلهم ۞ قوله تعالى (خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم

حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه انكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فان الشماتة بما يعتريه ايضا مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل كانه قيل أفان مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى ذائقة مرارة مفارقتها جسدها برهان على ما أنكر من خلودهم (ونبلوكم) الخطاب اما للناس كافة بطريق التلوين او للكفرة بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم (بالشر والخير) بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أولا (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (والينا ترجعون) لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الاعمال فهو على الاول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض وفيه ايماء الى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرئ يرجعون بالياء على الالتفات (واذا رآك الذين كفروا) أى المشركون (ان يتخذونك الاهزوا) أى ما يتخذونك الا مهزوا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كانه قيل ما يفعلون

بل الاتخاذ له هزوا وقدمر تحقيقه في ١٥٢ قوله تعالى ان أتبع الا مايوحى الى في سورة الانعام (أهذا الذي يذكر آلهتكم)

ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولاهم ينظرون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) أما قوله تعالى خلق الانسان من عجل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في المراد من الانسان قولان (أحدهما) انه النوع (والثاني) انه شخص معين (أما القول الاول) فتقريره انهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة الى العلم والاقرار ويقولون متى هذا الوعد فأراد زجرهم عن ذلك فقدم أولا ذم الانسان على افراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال لا يبعد منكم أن تستعجلوا فانكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم فان قيل مقدمة الكلام لابد وأن تكون مناسبة للكلام وكون الانسان مخلوقا من العجل يناسب كونه معذورا فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله فلا تستعجلون قلنا لان العائق كلما كان أشد كانت القدرة على مخالفته أكمل فكأنه سبحانه نبه بهذا على ان ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها (أما القول الثاني) وهو ان المراد شخص معين فهذا فيه وجهان (أحدهما) ان المراد آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي والكلبي ومقاتل والضحاك وروى ابن جريج وليث بن أبي سليم عن مجاهد قال خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شئ من آخر نهار الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال يارب استعجل خلقي قبل غروب الشمس قال ليث فذلك قوله تعالى خلق الانسان من عجل وعن السدي لما نفخ فيه الروح فدخل في رأسه عطس فقالت له الملائكة قل الحمد لله فقال ذلك فقال الله له يرحمك ربك فلما دخل الروح في عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه الى ثمار الجنة وهذا هو الذي أورث أولاده العجلة (وثانيهما) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث والمراد بالانسان هو واعلم ان القول الاول أولى لان الغرض ذم القوم وذلك لا يحصل الا اذا حملنا لفظ الانسان على النوع (المسئلة الثانية) من المفسرين من أجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها أما الاولون فلهم فيها أقوال (أحدها) قول المحققين وهو أن قوله خلق الانسان من عجل اى خلق عجولا وذلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكي هو نار تشتعل والعرب قد تسمى المرء بما يكثر منه فتقول ما أنت الا أكل ونوم وما هو الا اقبال وادبار قال الشاعر

أما اذا ذكرت حتى اذا غفلت ● فانما هي اقبال وادبار

وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى وكان الانسان عجولا قال المبرد خلق الانسان من عجل أي من شأنه العجلة كقوله خلقكم من ضعف أي ضعفاء (وثانيها) قال أبو عبيدة العجل الطين بلغة حمير وأنشدوا ● والنخل ينبت بين الماء والعجل ● (وثالثها) قال الاخفش من عجل أي من تعجيل من الامر وهو قوله كن (ورابعها) من عجل أي من ضعف عن الحسن أما الذين قلبوها فقالوا المعنى خلق العجل من الانسان كقوله ويوم يعرض الذين كفروا

١

على ارادة القول أي و يقولون أو قائلين ذلك أي يذكرهم بسوء كما في قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم الخ وقوله تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) في حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى انهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتكم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بارشاد الخلق بارسال الرسل وانزال الكتب أو بالقرآن كافرون فهم أحقاء بالعيب والانكار فالضمير الاول مبتدأ خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثاني تأكيد لفظي للاول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول (خلق الانسان من عجل) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الاخلاق منزلة ما طبع منه من الاركان ايذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجاله بالوعيد روى انها نزلت في النضر ابن الحرث حين استعجل العذاب بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر الآية وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان المراد بالانسان آدم عليه السلام وانه حين بلغ الروح صدره ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم وروى انه لما دخل

على

الروح في عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل جوفه اشتهى الطعام ١٥٣ وقيل خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب

على النار أي تعرض النار عليهم والقول الاول أقرب الى الصواب وأبعد الاقوال هذا القلب لانه اذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على انه مقلوب وأيضا فان قوله خلقت العجلة من الانسان فيه وجوه من المجاز فالفائدة في تغيير النظم الى ما يجري مجرى المجاز (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة قلنا استعجالهم على هذا الوجه أدخل في الذم لانه اذا ذم المرء على استعجال الامر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان أولى وأيضا فان استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين في الحقيقة أما قوله تعالى سأريكم آياتي فلا تستعجلون فقد اختلفوا في المراد بالآيات على أقوال (أحدها) أنها هي الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة ولذلك قال فلا تستعجلون أي انها ستأتي لا محالة في وقتها (وثانيها) انها أدلة التوحيد وصدق الرسول (وثالثها) انها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والاول أقرب الى النظم أما قوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين فاعلم ان هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب فبين تعالى انهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم انه سبحانه ذكر في دفع هذا الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهين (الاول) بأن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون قال صاحب الكشاف جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أي لو يعلمون الوقت الذي يسألون عنه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون أيضا ناصرا ينصرهم لقوله تعالى فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذي هونه عليهم وانما حسن حذف الجواب لان ما تقدم يدل عليه وهذا أبلغ ومثله ولو يرى الذين ظلموا ولو ترى اذ وقفوا الذين كفروا ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وانما خص الوجوه والظهور لان مس العذاب لهما أعظم موقعا ولكثرة ما يستعمل ذكرهما في دفع المضرة عن النفس ثم انه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين ان وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا للامر بها مستعدين فتبهتهم أي تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة في ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفا ولاهم ينظرون أي لا يمهلون لتوبة ولا معذرة واعلم ان الله تعالى انما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لان المرء مع كتمان ذلك أشد حذرا وأقرب الى التلافي ثم انه سبحانه ذكر الوجه الثاني في دفع الحزن عن قلب رسوله فقال ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم

الشمس فأسرع في خلقه قبل غيبتها فالمعنى خلق الانسان خلقا ناشئا من عجل فذكره لبيان انه من دواعي عجلته في الامور والاظهر أن المراد به الجنس وان كان خلقه عليه السلام ساريا الى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى (سأريكم آياتي) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أي سأريكم نقماتي في الآخرة كعذاب النار وغيره (فلا تستعجلون) بالاتيان بها والنهي عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها (ويقولون متى هذا الوعد) أي وقت مجئ الساعة التي كانوا يوعدون وانما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والانكار كما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقته بطريق الالزام كما في سورة الملك (ان كنتم صادقين) أي في وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة عن مجئ الساعة وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف في مثل قوله تعالى فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين فان قولهم متى هذا الوعد استبطاء منهم للموعود وطلب لاتيانه بطريق العجلة فان ذلك في قوة الامر بالاتيان عجلة كأنه قيل فليأتنا بسرعة ان كنتم صادقين

ما كانوا به يستهزؤن والمعنى ولقد استهزئ برسل من قبلك يا محمد كما استهزأ بك قومك فحاق أى نزل وأحاط بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن أى عقوبة استهزائهم وحاق وحق بمعنى كزال وزل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم ۞ قوله تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) اعلم انه تعالى لما بين ان الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم فى الدنيا أيضا لولا ان الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال لرسوله قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزؤن ويغترون بما هم عليه من يكلؤكم بالليل والنهار وهذا كقول الرجل لمن حصل فى قبضته ولا مخلص له منه الى أين مفرك منى هل لك محيص عنى والكالئ الحافظ وأما قوله من الرحمن ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى معناه وجوه (أحدها) من يكلؤكم من الرحمن أى مما يقدر على انزاله بكم من عذاب تستحقونه (وثانيها) من بأس الله فى الآخرة (وثالثها) من القتل والسبى وسائر ما أباحه الله لكفرهم فبين سبحانه انه لا حافظ لهم ولا دافع عن هذه الامور لو أنزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما تمتعوا بالدنيا (المسئلة الثانية) انما خص ههنا اسم الرحمن بالذكر تلقينا للجواب حتى يقول العاقل أنت الكالئ يا الهنا لكل الخلائق برحمتك كما فى قوله ما غرك بربك الكريم انما خص اسم الكريم بالذكر تلقينا للجواب (المسئلة الثالثة) انما ذكر الليل والنهار لان لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل اذا نمتم وبالنهار اذا تصرفتم فى معايشكم أما قوله بل هم عن ذكر ربهم معرضون فالمعنى انه تعالى مع انعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذى هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون فى شئ منها ليعرفوا انه لا كالئ لهم سواه ويتركوا عبادة الاصنام التى لا حظ لها فى حفظهم ولا فى الانعام عليهم أما قوله تعالى أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون فاعلم ان الميم صلة يعنى ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا والتقدير ألهم آلهة من دوننا تمنعهم وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال لا يستطيعون نصر أنفسهم وهذا خبر مبتدا محذوف أى فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات وحماية النفس أولى من حماية الغير فاذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها وفى قوله ولاهم منا يصحبون قولان (الاول) قال المازنى أصحبت الرجل اذا منعته فقوله ولاهم منا يصحبون من ذلك لا من الصحبة (والثانى) ان الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلاهما سواء فى المعنى يقال صحبك الله ونصرك الله ويقال للمسافر فى صحبة الله وفى حفظ الله فالمعنى ولاهم منا فى نصرة ولا اعانة والحاصل ان من لا يكون

١

(لو يعلم الذين كفروا) استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم انما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وايثار صيغة المضارع فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم العلم فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن الى لشكرتك فان المعنى ان انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان لا لانتفاء استمرار الاحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى (حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه واضافته الى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب أيضا مع انكار الكفرة لذلك للايذان بانه من الظهور بحيث لا حاجة له الى الاخبار به وانما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أى لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما الاحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها

قادرا

قادرا على دفع الآفات ولا يكون مصحوبا من الله بالاعانة كيف يقدر على شئ ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر يعنى ما حملهم على الاعراض الا الاغترار بطول المهلة يعنى طالت أعمارهم فى الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا واغتروا بذلك أما قوله تعالى أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا فى اتيان الارض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة ونزيدها فى ملك محمد صلى الله عليه وسلم ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا وننقص من الشرك باهلاك أهله أما كان لهم فى ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من أمر الله وارادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم قال أفهم الغالبون أى فهؤلاء هم الغالبون أم نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام فى هذه الآية فى سورة الرعد وفى تفسير النقصان وجوه (أحدها) قال ابن عباس ومقاتل والكلبى رضى الله عنهم ننقصها بفتح البلدان (وثانيها) قال ابن عباس فى رواية أخرى يريد نقصان أهلها وبركتها (وثالثها) قال عكرمة تخريب القرى عند موت أهلها (ورابعها) بموت العلماء وهذه الرواية ان صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعدل عنها والا فالاظهر من الاقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال أفهم الغالبون والذى يليق بذلك انه ننقصها عنهم ونزيدها فى بلاد الاسلام قال القفال نزلت هذه الآية فى كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى ان كل ذلك من العبر التى لو استعملوا عقلهم فيها لا عرضوا عن جهلهم ۞ قوله تعالى (قل انما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) اعلم انه سبحانه لما كرر فى القرآن الادلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله قل انما أنذركم بالوحى أى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا أن ذلك من قبلى بل الله آتيكم به وأمرنى بانذاركم فاذا اقت بما ألزمنى ربى فلم يقع منكم القبول والاجابة فالوبال عليكم يعود ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من انذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون اصلا اذ الغرض بالانذار ليس السماع بل التمسك به فى اقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق فاذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع قال صاحب الكشاف قرئ ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء والياء أى لا تسمع أنت أو لا يسمع رسول الله أو لا يسمع الصم من أسمع فان قلت الصم لا تسمع دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قال اذا ما ينذرون قلت اللام فى الصم اشارة الى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس والاصل ولا يسمعون الدعاء اذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم

بانفسهم من جانب من جوانبهم (ولاهم ينصرون) من جهة الغير فى دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال ويجوز أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره الى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال (بل تأتيهم) عطف على لا يكفون أى لا يكفونها بل تأتيهم أى العدة أو النار أو الساعة (بغتة فتبهتهم) أى تغلبهم أو تحيرهم وقرئ الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين وكذا الهاء فى قوله تعالى (فلا يستطيعون ردها) بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة ويجوز عوده الى النار وقيل الى البغتة أى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية (ولاهم ينظرون) أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لامهالهم فى الدنيا (ولقد استهزئ برسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بانه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أى وبالله لقد استهزئ برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه (فحاق) أى أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك

أسماعهم اذا أنذروا أى هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامم عن آيات الانذار ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير الى أن يصيروا بحيث اذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون وهذا هو المراد بقوله ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين وأصل النفح من الريح اللينة والمعنى ولئن مسهم شئ قليل من عذاب الله كالرائحة من الشئ دون جسمه لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم قال صاحب الكشاف فى المس والنفحة ثلاث مبالغات لفظ المس وما فى النفح من معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح يسير ونفحه بعطية رضخه ولفظ المرة ثم بين سبحانه وتعالى ان جميع ما ينزل بهم فى الآخرة لا يكون الا عدلا فيهم وان ظلموا أنفسهم فى الدنيا فان يظلموا فى الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى ونضع الموازين القسط وصفها الله تعالى بذلك لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين ان تلك الموازين تجرى على حد العدل والقسط وأكد ذلك بقوله فلا تظلم نفس شيأ وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى وضعها احضارها قال الفراء القسط صفة الموازين وان كان موحدا وهو كقولك للقوم أنتم عدل وقال الزجاج ونضع الموازين ذوات القسط وقوله ليوم القيامة قال الفراء فى يوم القيامة وقيل لاهل يوم القيامة (المسئلة الثانية) فى وضع الموازين قولان (أحدهما) قال مجاهد هذا مثل والمراد بالموازين العدل ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم فى الاعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه يعنى ان حسناته تذهب بسيئاته ومن أحاطت سيئاته بحسناته فقد خفت موازينه أى ان سيئاته تذهب بحسناته حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما (الثانى) وهو قول أئمة السلف انه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الاعمال وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد جبريل عليه السلام ويروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشى عليه فلما أفاق قال يا الهى من الذى يقدر أن يملأ كفته حسنات فقال ياداود انى اذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة ثم على هذا القول فى كيفية وزن الاعمال طريقان (أحدهما) أن توزن صحائف الاعمال (والثانى) يجعل فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل أهل القيامة اما أن يكونوا عالمين بكونه سبحانه وتعالى عادلا غير ظالم أولا يعلمون ذلك فان علموا ذلك كان مجرد حكمه كافيا فى معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيئات فلا يكون فى وضع الميزان فائدة البتة وان لم يعلموا لم تحصل الفائدة فى وزن الصحائف لاحتمال انه سبحانه جعل احدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلما فثبت ان وضع الميزان على كلا التقديرين خال عن الفائدة وجوابه على قولنا قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وأيضا ففيه ظهور حال الولى من العدو فى مجمع الخلائق فيكون لاحد القبيلين فى ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم

فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل الا فى الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى (بالذين سخروا منهم) أى من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى (ما كانوا به يستهزؤن) للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد اليها والجار متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أى فاحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لاجله واما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ الى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل ايثاره على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد واحد منهم عليهم السلام لا جزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو كل فقط أى فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب ايذانا بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم ان أريد بذلك العذاب الاخروى بناء على تجسم الاعمال فان الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح وعلى ذلك بنى الوزن وقد مر تفصيله فى سورة الاعراف وفى قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم الآية الى آخرها (قل) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسليته بما ذكر من مصير أمرهم الى الهلاك وأمر له عليه السلام بان يقول لاولئك

ويكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره اذا ثبت هذا فنقول الدليل على وجود الموازين الحقيقية ان حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة غير جائز لاسيما وقد جاءت الاحاديث الكثيرة بالاسانيد الصحيحة فى هذا الباب (المسئلة الثالثة) قال قوم ان هذه الآية يناقضها قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا والجواب انه لا يكرمهم ولا يعظمهم (المسئلة الرابعة) انما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو جمع تفخيم ويجوز أن يرجع الى الموزونات أما قوله تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها فالمعنى انه لا ينقص من احسان محسن ولا يزاد فى اساءة مسئ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ مثقال حبة على كان التامة كقوله تعالى وان كان ذو عسرة وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما آتينا بها وهى مفاعلة من الاتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب وفى حرف ابى جئنا بها (المسئلة الثانية) لم أنث ضمير المثقال قلنا لاضافته الى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه (المسئلة الثالثة) زعم الجبائى ان من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزأ من الثواب فهذا الاقل ينحبط بالاكثر ويبقى الاكثر كما كان واعلم ان هذه الآية تبطل قوله لان الله تعالى تمدح بان اليسير من الطاعة لا يسقط ولو كان الامر كما قال الجبائى لسقطت الطاعة من غير فائدة (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة قوله فلا تظلم نفس شيأ فيه دلالة على ان مثل ذلك لو ابتدأه الله تعالى لكان قد ظلم فدل هذا الوجه على انه تعالى لا يعذب من لا يستحق ولا يفعل المضار فى الدنيا الا للمنافع والمصالح (والجواب) الظلم هو التصرف فى ملك الغير وذلك فى حق الله تعالى محال لانه المالك المطلق ثم الذى يدل على استحالة الظلم عليه عقلا ان الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحالين على الله تعالى ومستلزم المحال محال فالظلم على الله تعالى محال وأيضا فان الظالم سفيه خارج عن الالهية فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الالهية فحينئذ يكون كونه الها من الجائزات لا من الواجبات وذلك يقدح فى الهيته (المسئلة الخامسة) ان قيل الحبة أعظم من الخردلة فكيف قال حبة من خردل قلنا الوجه فيه أن تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار والغرض المبالغة فى ان شيأ من الاعمال صغيرا كان أو كبيرا غير ضائع عند الله تعالى أما قوله تعالى وكفى بنا حاسبين فالغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لا يعجز عن شئ حقيق بالعاقل أن يكون فى أشد الخوف منه ويروى عن الشبلى رحمه الله تعالى انه رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال

حاسبونا فدققوا * ثم منوا فأعتقوا

قوله تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون) اعلم انه سبحانه لما تكلم فى دلائل التوحيد

المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت (من يكلؤكم) اى يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن أى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا أو نهارا وتقديم الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا وفى التعرض لعنوان الرحمانية ايذان بان كالئهم ليس الا رحمته العامة وبعدما أمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لانهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بان يكلفوا الاعتراف بذلك فيوبخوا على ما هم عليه من الاشراك أضرب عن ذلك بقوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى أنهم لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه ويعدوا ما كانوا عليه من الامن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالئ على طريقة قول من قال

عوجوا لخبو النعمى دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤى وأحجار

وفى تعليق الاعراض بذكره تعالى وايراد اسم الرب المضاف الى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى مالا يخفى وكلمة أم فى قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عما قبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى اياهم لعدم خوفهم الناشئ عن اعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية

الى توبيخهم باعتقادهم على الهتهم واسنادهم ١٥٨ الحفظ اليها والهمزة لانكار ان يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم

والنبوة والمعاد شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر ههنا منها قصصا (القصة الاولى) قصة موسى عليه السلام ووجه الاتصال انه تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول انما أنذركم بالوحى أتبعه بان هذه عادة الله تعالى فى الانبياء قبله فقال ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين واختلفوا فى المراد بالفرقان على أقوال (أحدها) انه هو التوراة فكان فرقانا اذ كان يفرق به بين الحق والباطل وكان ضياء اذ كان لغاية وضوحه يتوصل به الى طرق الهدى وسبل النجاة فى معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع وكان ذكرى أى موعظة أو ذكر ما يحتاجون اليه فى دينهم ومصالحهم أو الشرف أما الواو فى قوله وضياء فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى للمتقين والمعنى انه فى نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى (القول الثانى) ان المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه (أحدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما الفرقان هو النصر الذى أوتى موسى عليه السلام كقوله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يعنى يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الاديان الباطلة (وثانيها) هو البرهان الذى فرق به دين الحق عن الاديان الباطلة عن ابن زيد (وثالثها) فلق البحر عن الضحاك (ورابعها) الخروج عن الشبهات قال محمد بن كعب واعلم انه تعالى انما خص الذكرى بالمتقين لما فى قوله هدى للمتقين أما قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب فقال صاحب الكشاف محل الذين جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه وفى معنى الغيب وجوه (أحدها) يخشون عذاب ربهم فيأتمرون باوامره وينتهون عن نواهيه وايمانهم بالله غيبى استدلالى فالعباد يعملون لله فى الغيب والله لا يغيب عنه شئ عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها (وثالثها) يخشون ربهم فى الخلوات اذا غابوا عن الناس وهذا هو الاقرب والمعنى ان خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم الا أن ذلك مما يظهرونه فى الملا دون الخلا وهم من عذاب الساعة وسائر ما يجرى فيها من الحساب والسؤال مشفقون فيعدلون بسبب ذلك الاشفاق عن معصية الله تعالى ثم قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك وهو معنى قوله وهذا ذكر مبارك بركته كثرة منافعه وغزارة علومه وقوله أفأنتم له منكرون فالمعنى انه لا انكار فى انزاله وفى عجائب ما فيه فقد آتينا موسى وهرون التوراة ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الادلة العقلية وبيان الشرائع فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم انكاره

• القصة الثانية لابراهيم عليه السلام ﴿ قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل

الهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا أو حفظنا أو من عذاب كائن من عندنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها وفى توجيه الانكار والنفى الى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا الى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع ما لا يخفى وقوله عز وعلا (لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) استئناف مقرر لما قبله من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم أى هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم وقوله تعالى (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) اضراب عما توهموا ببيان أن الداعى الى حفظهم تمتيعنا اياهم بما قدر لهم من الاعمار أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقب بما يدل على انه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل (أفلا يرون) أى ألا ينظرون فلا يرون (انا نأتى الارض) أى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) فكيف يتوهمون انهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخربه الله عزوجل من ديارهم على أيدى المسلمين وكا

١

و بضمها الى دار الاسلام (أفهم الغالبون) على رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٥٩ والمؤمنين والفاء لانكار ترتيب الغالبية

وكنا به عالمين اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين)

اعلم ان قوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده فيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الرشد قولان (الاول) انه النبوة واحتجوا عليه بقوله وكنا به عالمين قالوا لانه تعالى انما يخص بالنبوة من يعلم من حاله انه فى المستقبل يقوم بحقها ويجتنب ما لا يليق بها ويحترز عما ينفر قومه من القبول (والثانى) انه الاهتداء لوجوه الصلاح فى الدين والدنيا قال تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم وفيه قول ثالث وهو ان تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد اذ لا يجوز أن يبعث نبى الا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا فى ان الايمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فانه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم أجاب الكعبى بان هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمره ورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه فيقال أغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ولا يقال مثله فيمن ضيع (والجواب عنه) هذا الجواب لا يتم الا اذا جعلنا قبوله جزأ من مسمى الرشد وذلك باطل لان المسمى اذا كان مركبا من جزأين ولا يكون أحدهما مقدورا للفاعل لم يجز اضافة ذلك المسمى الى ذلك الفاعل فكان يلزم أن لا يجوز اضافة الرشد الى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهو قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده صريح فى أن ذلك الرشد انما حصل من الله تعالى فبطل ما قالوه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ رشده كالعدم والعدم ومعنى اضافته اليه انه رشد مثله وانه رشد له شان أما قوله تعالى من قبل ففيه وجوه (أحدها) آتينا ابراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جرير (وثانيها) فى صغره قبل بلوغه حين كان فى السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء والا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل (وثالثها) يعنى حين كان فى صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك أما قوله تعالى وكنا به عالمين فالمراد انه سبحانه علم منه أحوالا بديعة وأسرارا عجيبة وصفات قد رضيها حتى أهله لان يكون خليلا له وهذا كقولك فى رجل كبير أنا عالم بفلان فان هذا الكلام فى الدلالة على تعظيمه أدل مما اذا شرحت جلال كماله أما قوله تعالى اذ قال لابيه وقومه فقال صاحب الكشاف اذ اما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف أى اذكر من أوقات رشده هذا الوقت أما قوله ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) التمثال اسم للشئ المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى وأصله من مثلت الشئ بالشئ اذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال (المسئلة الثانية) ان القوم كانوا عبادا أصنام على صور

على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها كأنه قيل أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم كما مر فى قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء وفى التعريف تعريض بان المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون بها (قل انما أنذركم) بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول ما يستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر عليه السلام بان يقول لهم انما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة (بالوحى) الصادق الناطق باتيانها وفظاعة ما فيها من الاهوال أى انما شأنى أن انذركم بالاخبار بذلك لا بالاتيان بها فانه مزاحم للحكمة التكوينية والتشريعية اذ الايمان برهانى لا عيانى وقوله تعالى (ولا يسمع الصم الدعاء) اما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر عليه السلام بان يقوله لهم توبيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما أوليا أو للعهد فوضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم

بالتصام وتقييد نفى السماع بقوله تعالى (اذا ما ينذرون) مع أن الصم لا يسمعون الكلام انذارا كان أو تبشيرا لبيان كمال

مخصوصة كصورة الانسان أو غيره فحمل عليه السلام هذا القول منهم ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف لم ينولها كفين مفعولا وأجراه مجرى مالا يتعدى كقولك فاعلون للعكوف أو واقفون لها قال فان قلت هلا قيل عليها عاكفون كقوله يعكفون على أصنام لهم قلت لو قصد التعدية لعداه بصلته التى هى على أما قوله قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين فاعلم ان القوم لم يجدوا فى جوابه الا طريقة التقليد الذى يوجب مزيد النكير لانهم اذا كانوا على خطا من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطا ان آباءهم أيضا سلكوا هذا الطريق فلا جرم أجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين فبين ان الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصا ورأوه ثابتا على الانكار قوى القلب فيه وكانوا يستبعدون أن يجرى مثل هذا الانكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمذهبهم فعند ذلك قالوا له أجئتنا بالحق ام أنت من اللاعبين موهمين بهذا الكلام انه يبعد أن يقدم على الانكار عليهم جادا فى ذلك فعنده عدل صلى الله عليه وسلم الى بيان التوحيد ۞ قوله تعالى (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) اعلم ان القوم لما أوهموا انه انما يمازح بما خاطبهم به فى أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به انه مجد فى اظهار الحق الذى هو التوحيد وذلك بالقول أولا ثم بالفعل ثانيا أما الطريقة القولية فهى قوله بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذى خلقها لمنافع العباد هو الذى يحسن أن يعبد لان من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع فى الدار الآخرة بالعقاب والثواب فيرجع حاصل هذه الطريقة الى الطريقة التى ذكرها لأبيه فى قوله يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ قال صاحب الكشاف الضمير فى فطرهن للسموات والارض أو للتماثيل وكونه للتماثيل أدخل فى الاحتجاج عليهم أما قوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ففيه وجهان (الاول) ان المقصود منه المبالغة فى التأكيد والتحقيق كقول الرجل اذا بالغ فى مدح أحد أو ذمه أشهد أنه كريم أو ذميم (والثانى) انه عليه السلام عنى بقوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ادعاء انه قادر على اثبات ماذكره بالحجة وانى لست مثلكم فأقول مالا أقدر على اثباته بالحجة كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم وأما الطريقة الفعلية فهى قوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فان القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل الى أن أراهم عدم الفائدة فى عبادتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه وبالله وقرئ تولوا بمعنى تتولوا

شدة الصمم كما أن ايشار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار عادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم فى غاية لا غاية وراءها واما من جهته تعالى على طريقة قوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون ويؤيده القراءة على خطاب النبى عليه الصلاة والسلام من الاسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل قل لهم ذلك وأنت بمعزل من اسماعهم وقرئ بالياء أيضا على أن الفاعل هو عليه السلام وقرئ على البناء للمفعول أى لا يقدر أحد على اسماع الصم وقوله تعالى (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) بيان لسرعة تأثرهم من مجىء نفس العذاب اثر بيان عدم تأثرهم من مجىء خبره على نهج التوكيد القسمى أى وبالله لئن أصابهم أدنى اصابة أدنى شىء من عذابه تعالى كما ينبئ عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فان أصل النفح هبوب رائحة الشىء (ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين) ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى (ونضع الموازين القسط) بيان لما سيقع عند اتيان ما أنذروه أى نقيم الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الاعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال وقدمر تفصيل مافيه من الكلام فى سورة الاعراف

ويقو بها

ويقويها قوله فتولوا عنه مدبرين فان قلت ما الفرق بين الباء والتاء قلت ان الباء هى الاصل والتاء بدل من الواو المبدل منها وان التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لان ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته (المسئلة الثانية) ان قيل لماذا قال لأكيدن أصنامكم والكيد هو الاحتيال على الغير فى ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى فى الاصنام (وجوابه) قال ذلك توسعا لما كان عندهم ان الضرر يجوز عليها وقيل المراد لأكيدنكم فى أصنامكم لانه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم (المسئلة الثالثة) فى كيفية أول القصة وجهان (أحدهما) قال السدى كانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان هذا الوقت قال آزر لابراهيم عليه السلام لو خرجت معنا فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم اشتكى رجلى فلما مضوا وبقى ضعفاء الناس نادى وقال تالله لأكيدن أصنامكم واحتج هذا القائل بقوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم (وثانيها) قال الكلبى كان ابراهيم عليه السلام من اهل بيت ينظرون فى النجوم وكانوا اذا خرجوا الى عيدهم لم يتركوا الا مريضا فلما هم ابراهيم بالذى هم به من كسر الاصنام نظر قبل يوم العيد الى السماء فقال لاصحابه ارانى أشتكى غدا فذلك قوله فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم وأصبح من الغد معصوبا رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال أما والله لأكيدن أصنامكم وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم ان ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر ذلك فى جماعة فلذلك قال تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم واعلم ان كلا الوجهين ممكن ثم تمام القصة ان ابراهيم عليه السلام لما دخل بيت الاصنام وجد سبعين صنما مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان فى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفأس فى يده حتى لم يبق الا الكبير ثم علق الفأس فى عنقه أما قوله تعالى فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قيل لم قال فجعلهم جذاذا وهذا جمع لا يليق الا بالناس (جوابه) من حيث اعتقدوا فيها انها كالناس فى انهم تعظم ويتقرب اليها ولعله كان فيهم من يظن انها تضر وتنفع (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف جذاذا قطعا من الجذ وهو القطع وقرئ بالكسر والفتح وقرئ جذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة (المسئلة الثالثة) ان قيل ما معنى الا كبيرا لهم قلنا يحتمل الكبير فى الخلقة ويحتمل فى التعظيم ويحتمل فى الامرين وأما قوله لعلهم اليه يرجعون فيحتمل رجوعهم الى ابراهيم عليه السلام ويحتمل رجوعهم الى الكبير (أما الاول) فتقريره من وجهين (الاول) ان المعنى انهم لعلهم يرجعون الى مقالة ابراهيم ويعدلون عن الباطل (والثانى) انه غلب على ظنه انهم لا يرجعون الا اليه لما تسامعوه من انكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فيبكتهم بما أجاب به من قوله بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم أما اذا قلنا الضمير راجع الى الكبير ففيه وجهان (الاول) ان المعنى لعلهم

وافراد القسط لانه مصدر وصف به مبالغة (ليوم القيامة) التى كانوا يستعجلونها أى لجزائه أو لاجل أهله أو فيه كما فى قولك جئت لخمس خلون من الشهر (فلا تظلم نفس) من النفوس (شيأ) حقا من حقوقها أو شيأ ما من الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين (وان كان) أى العمل المدلول عليه بوضع الموازين (مثقال حبة من خردل) أى مقدار حبة كائنة من خردل أى وان كان فى غاية القلة والحقارة فان حبة الخردل مثل فى الصغر وقرئ مثقال حبة بالرفع على أن كان تامة (أتينا بها) أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لاضافته الى الحبة وقرئ آتينا بها أى جازينا بها من الايتاء بمعنى المجازاة والمكافأة او المؤاتاة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرئ أثبنا من الثواب وقرئ جئنا بها (وكفى بنا حاسبين) اذ لا مزيد على علمنا وعدلنا (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم الى قوله تعالى وأهلكنا المسرفين واشارة الى كيفية انجائهم واهلاك أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمى

يرجعون اليه كما يرجع الى العالم فى حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحا والفاس على عاتقك وهذا قول الكلبى وانما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تجيب وتتكلم (والثانى) انه عليه السلام قال ذلك مع علمه انهم لا يرجعون اليه استهزاء بهم وان قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع اليه فى حل المشكلات (المسئلة الرابعة) ان قيل أولئك الاقوام اما أن يقال انهم كانوا عقلاء أو ما كانوا عقلاء فان كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة ان تلك الاصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر فأى حاجة فى اثبات ذلك الى كسرها أقصى ما فى الباب أن يقال القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب وكسرها لا يقدح فى كونها معظمة من هذا الوجه وان قلنا انهم ما كانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل اليهم (والجواب) انهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة انها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تماثيل الكواكب وانها طلسمات موضوعة بحيث ان كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد ثم ان ابراهيم عليه السلام كسرها مع انه ما ناله منها البتة ضرر فكان فعله دالا على فساد مذهبهم من هذا الوجه أما قوله تعالى قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين أى من فعل هذا الكسر والحطم لشديد الظلم معدود فى الظلمة اما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والاعظام واما لانهم رأوا افراطا فى كسرها وتماديا فى الاستهانة بها أما قوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج ارتفع ابراهيم على وجهين (أحدهما) على معنى يقال هو ابراهيم (والثانى) على النداء على معنى يقال له يا ابراهيم قال صاحب الكشاف والصحيح انه فاعل يقال لان المراد الاسم دون المسمى (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على أن القائلين جماعة لا واحد فكانهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله فى آلهتهم فغلب على قلوبهم انه الفاعل ولو لم يكن الا قوله ماهذه التماثيل الى غير ذلك لكفى ۞ قوله تعالى (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) اعلم ان القوم لما شاهدوا كسر الاصنام وقيل ان فاعله ابراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم فأتوا به على أعين الناس قال صاحب الكشاف على أعين الناس فى محل الحال أى فأتوا به مشاهدا أى بمرأى منهم ومنظر فان قلت ما معنى الاستعلاء فى على قلت هو وارد على طريق المثل أى يثبت اتيانه فى الاعين ثبات الراكب على المركوب أما قوله تعالى لعلهم يشهدون ففيه وجهان (أحدهما) انهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فارادوا أن يجيئوا به على أعين الناس لعلهم

يشهدون

لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر أى وبالله لقد آتيناهما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لانهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكر ما يحتاجون اليه من الشرائع والاحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والاول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الالهية لاسيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولان فلق البحر هو الذى اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقرئ ضياء بغير واو على انه حال من الفرقان وقوله تعالى (الذين يخشون ربهم) أى عذابه مجرور المحل على انه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح (بالغيب) حال من المفعول أى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالانذار ما لم يشاهدوا ما أنذروه وقيل من الفاعل (وهم من الساعة مشفقون) أى خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم

يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل وهذا قول الحسن وقتادة والسدى وعطاء وابن عباس رضى الله عنهم (وثانيهما) وهو قول محمد بن اسحق أى يحضرون فيبصرون ما يصنع به فيكون ذلك زاجرا لهم عن الاقدام على مثل فعله وفيه قول ثالث وهو قول مقاتل والكلبى ان المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه أما قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا فاعلم ان فى الكلام حذفا وهو فأتوا به وقالوا أأنت فعلت طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على ايذائه فظهر منه ما انقلب الامر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال بل فعله كبيرهم هذا وقد علق الفاس على رقبته لكى يورد هذا القول فيظهر جهلهم فى عبادة الاوثان فان قيل قوله بل فعله كبيرهم كذب (والجواب) للناس فيه قولان (أحدهما) وهو قول كافة المحققين انه ليس بكذب وذكروا فى الاعتذار عنه وجوها (أحدها) ان قصد ابراهيم عليه السلام لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا وصاحبك أمى لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للامى أو المخرمش لان اثباته والامر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به واثبات للقادر (وثانيها) ان ابراهيم عليه السلام غاظته تلك الاصنام حين أبصرها مصطفة مزينة وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لانه هو السبب فى استهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه (وثالثها) أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كانه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها ان يقدر على هذا وأشد منه وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف (ورابعها) انه كناية عن غير مذكور أى فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائى انه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا (وخامسها) انه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسئلوهم والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لان الانسان أكبر من كل صنم (وسادسها) أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير كانه قال بل فعله كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فاسئلوهم فتكون اضافة الفعل الى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع ان يكونوا فاعلين (وسابعها) قرأ محمد بن السميقع فعله كبيرهم أى فلعل الفاعل كبيرهم (القول الثانى) وهو قول طائفة من أهل الحكايات ان ذلك كذب واحتجوا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلها فى ذات الله تعالى قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هى أختى وفى خبر آخر ان أهل الموقف اذا سألوا ابراهيم الشفاعة قال انى كذبت ثلاث كذبات ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب

منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الاطلاق للايذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وايثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الاشفاق ودوامه (وهذا) أى القرآن الكريم أشير اليه بهذا ايذانا بغاية وضوح أمره (ذكر) يتذكر به من يتذكر وصف بالوصف الاخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لما مر فى صدر السورة الكريمة (مبارك) كثير الخير غزير النفع يتبرك به (أنزلناه) اما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر (أفأنتم له منكرون) انكار لانكارهم بعد ظهور كون انزاله كايتاء التوراة كانه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة فى الايتاء والايحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له أصلا (ولقد آتينا ابراهيم رشده) أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحى والاقتدار على اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية وقرئ رشده وهما لغتان كالحزن والحزن (من قبل) أى من قبل ايتاء موسى وهرون التوراة وتقديم ذكر ايتائهما لما بينه وبين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من

ليس قبيحا اذا انه قال النبي عليه السلام اذا هرب من ظالم واختفى في دار انسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه واذا كان كذلك فأي بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها الا هو واعلم ان هذا القول مرغوب عنه أما الخبر الاول وهو الذي رووه فلان يضاف الكذب الى رواته أولى من أن يضاف الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام والدليل القاطع عليه انه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة الى كلها ثم ان ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب فأما قوله تعالى اني سقيم فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه وأما قوله بل فعله كبيرهم فقد ظهر الجواب عنه أما قوله لسارة انها أختي فالمراد انها أخته في الدين واذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب الى الانبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب اليهم الا زنديق أما قوله تعالى فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ففيه وجوه (الاول) ان ابراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم تنبهوا فعلموا ان عبادة الاصنام باطلة وانهم على غرور وجهل في ذلك (والثاني) قال مقاتل فرجعوا الى أنفسهم فلاموها وقالوا انكم أنتم الظالمون لابراهيم حيث تزعمون انه كسرها مع ان الفاس بين يدي الصنم الكبير (وثالثها) المعنى انكم أنتم الظالمون لانفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزئ بكم في الجواب والاقرب هو الاول أما قوله تعالى ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فقال صاحب الكشاف نكسه قلبه فجعل أسفله أعلاه وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في المعنى وجوه (أحدها) ان المراد استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا المجادلة بالباطل وان هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة (وثانيها) قلبوا على رؤسهم حقيقة لفرط اطراقهم خجلا وانكسارا وانخذالا عما بهتهم به ابراهيم فما أحاروا جوابا الا ما هو حجة عليهم (وثالثها) قال ابن جرير ثم نكسوا على رؤسهم في الحجة عليهم لابراهيم حين جادلهم أي قلبوا في الحجة واحتجوا على ابراهيم بما هو الحجة لابراهيم عليهم فقالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فأقروا بهذه للحيرة التي لحقتهم قال والمعنى نكست حجتهم فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم (المسئلة الثانية) قرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما لم يسم فاعله أي نكسوا أنفسهم على رؤسهم وهي قراءة رضوان بن عبد المعبود أما قوله تعالى قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فالمعنى ظاهر قال صاحب الكشاف أف صوت اذا صوت به علم ان صاحبه متضجر وأن ابراهيم عليه السلام أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل

قبل استنبائه او قبل بلوغه ويأباه المقام (وكنا به عالمين) أي بأنه اهل لما آتيناه وفيه من الدليل على انه تعالى عالم بالجزئيات مختار في أفعاله ما لا يخفى (اذ قال لابيه وقومه) ظرف لآتينا على انه وقت متسع وقع فيه الايتاء وما ترتب عليه من أفعاله وأقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أي اذكر وقت قوله لهم (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) لتقف على كمال رشده وغاية فضله والتمثال اسم لشيء مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بما التي يطلب بها بيان الحقيقة أو شرح الاسم كأنه لا يعرف أنها ماذا مع احاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذي هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الاغراض قصدا الى تحقيرها واذلالها وتوبيخا لهم على اجلالها واللام في لها للاختصاص دون التعدية والا لجيء بكلمة على والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها وقد جوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى (قالوا وجدنا اباءنا لها عابدين) أجابوا بذلك لما أن مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفه

فتأففبهم ثم يحتمل انه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله ويحتمل انه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وان لم يعقلوا وهذا هو الاقرب لقوله أفتعبدون ولقوله أفلا تعقلون ۞ قوله تعالى

(قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين)

اعلم انه تعالى لما بين ما أظهره ابراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وابطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل أتبعه بما يدل على جهلهم وانهم قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ليس في القرآن من القائل لذلك والمشهور أنه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقال مجاهد سمعت ابن عمر يقول انما أشار بتحريق ابراهيم عليه السلام رجل من الكرد من اعراب فارس وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائي قال ان الذي قال حرقوه رجل اسمه هيزن فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة (المسئلة الثانية) أما كيفية القصة فقال مقاتل لما اجتمع نمروذ وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه في بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة وذلك قوله قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى ان المرأة لو مرضت قالت ان عافاني الله لاجمعن حطبا لابراهيم ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوما فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصى الهواء لاحترق ثم أخذوا ابراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا ووضعوه فيه مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة الا الثقلين صيحة واحدة أي ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غير ابراهيم وانه يحرق فيك فأذن لنا في نصرته فقال سبحانه ان استغاث بأحد منكم فأغيثوه وان لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فلما أرادوا القاءه في النار أتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار في الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة بي اليكم ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الارض ليس في الارض أحد يعبدك غيري حسبنا الله ونعم الوكيل وقيل انه حين ألقي في النار قال لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم وضعوه في المنجنيق ورموا به النار فأتاه جبريل عليه السلام وقال يا ابراهيم هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالي علمه بحالي فقال الله تعالى يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وقال السدي انما قال ذلك جبريل عليه السلام قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية مجاهد ولو لم يتبع بردا سلاما لمات ابراهيم من بردها قال ولم يبق يومئذ في الدنيا نار الا طفئت ثم قال السدي فأخذت الملائكة بضبعي ابراهيم وأقعدوه في الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وقال المنهال بن عمرو أخبرت ان ابراهيم عليه السلام لما ألقي في النار كان فيها اما أربعين يوما أو خمسين يوما وقال ما كنت أياما أطيب عيشا مني

عليه السلام اياهم بالعكوف لها كأنه قال ما هي هل تستحق ما تصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجؤا الى التقليد فابطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمي حيث (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم) الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة (في ضلال) عجيب لا يقادر قدره (مبين) أي ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضي الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أي والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده الى دليل ما والتقليد انما يجوز فيما يحتمل الحقية في الجملة (قالوا) لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ما هم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام اياهم بطريق التوكيد القسمي وترددا في كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد (أجئتنا بالحق) أي بالجد (أم أنت من اللاعبين) فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح وفي ايراد الشق الاخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ايذان برجحانه عندهم (قال) عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناما فنظل لها

اذ كنت فيها وقال ابن اسحق بعث الله ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يونسه وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وقال يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لا تضر أحبابى ثم نظر نمروذ من صرح له وأشرف على ابراهيم فرآه جالسا فى روضة ورأى الملك قاعدا الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه نمروذ يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال قم فاخرج فقام يمشى حتى خرج منها فلما خرج قال له نمروذ من الرجل الذى رأيته معك فى صورتك قال ذاك ملك الظل أرسله ربى ليونسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى ربك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فانى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال ابراهيم عليه السلام لا يقبل الله منك ما دمت على دينك فقال نمروذ لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبحها له ثم ذبحها له وكف عن ابراهيم عليه السلام وروبت هذه القصة على وجه آخر وهى انهم بنوا لابراهيم بنيانا وألقوه فيه ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ثم أطبقوا عليه ثم فتحوا عليه من الغد فاذا هو غير محترق يعرق عرقا فقال لهم هاران أبو لوط ان النار لا تحرقه لانه سحر النار ولكن اجعلوه على شئ وأوقدوا تحته فان الدخان يقتله فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته فطارت شرارة فوقعت فى لحية أبى لوط فأحرقته (المسئلة الثالثة) انما اختاروا المعاقبة بالنار لانها أشد العقوبات ولهذا قيل ان كنتم فاعلين أى ان كنتم تنصرون آلهتكم نصرا شديدا فاختاروا أشد العقوبات وهى الاحراق أما قوله تعالى قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال أبو مسلم الاصفهانى فى تفسير قوله تعالى قلنا يا نار كونى بردا المعنى انه سبحانه جعل النار بردا وسلاما لا ان هناك كلاما كقوله أن يقول له كن فيكون أى يكونه وقد احتج عليه بان النار جماد فلا يجوز خطابه والاكثرون على انه وجد ذلك القول ثم هؤلاء لهم قولان (أحدهما) وهو قول السدى ان القائل هو جبريل عليه السلام (والثانى) وهو قول الاكثرين ان القائل هو الله تعالى وهذا هو الاليق الاقرب بالظاهر وقوله النار جماد فلا يكون فى خطابها فائدة قلنا لم لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الامر مصلحة عائدة الى الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان النار كيف بردت على ثلاثة أقوال (أحدها) ان الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والاحراق وأبقى ما فيها من الاضاءة والاشراق والله على كل شئ قدير (وثانيها) ان الله تعالى خلق فى جسم ابراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار اليه كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة وكما انه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار (وثالثها) انه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار اليه قال المحققون والاول أولى لان ظاهر قوله يا نار كونى بردا ان نفس النار صارت باردة حتى سلم ابراهيم من تأثيرها لا ان النار بقيت كما كانت فان قيل النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة فاذا كانت الحرارة جزأ من مسمى النار امتنع كون النار باردة فاذا

وجب

عاكفين كأنه قيل ليس الامر كذلك (بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) وقيل هو اضراب عن كونه لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه وضمير هن للسموات والارض وصفه تعالى بايجادهن اثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية أى أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ورجع الضمير الى التماثيل ادخل فى تضليلهم وأظهر فى الزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون ما يعبدونه من جملة المخلوقات (وأنا على ذلكم) الذى ذكرته من كون ربكم رب السموات والارض فقط دون ما عداه كائنا ما كان (من الشاهدين) أى العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فان الشاهد على الشئ من تحققه وحققه وشهادته على ذلك ادلاؤه بالحجة عليه واثباته بها كأنه قال وأنا ابين ذلك وأبرهن عليه (وتالله) وقرئ بالباء وهو الاصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الاصل وفيها تعجب (لأكيدن أصنامكم) أى لاجتهدن فى كسرها وفيه ايذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه على استعمال الحيل وانما قاله عليه السلام

لسر او قبل معه رجل واحد (بعد أن تولوا مدبرين) من عبادتها الى عيدكم وقرئ تولوا من التولى بحذف احدى

وجب أن يقال المراد من النار الجسم الذى هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين قلنا المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفى المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا أولى أما قوله تعالى كونى بردا وسلاما على ابراهيم فالمعنى ان البرد اذا افرط أهلك كالحر بل لا بد من الاعتدال ثم فى حصول الاعتدال ثلاثة أوجه (أحدها) انه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذى لا يؤثر (وثانيها) ان بعض النار صار بردا وبقى بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد (وثالثها) انه تعالى جعل فى جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ ثم ههنا سؤالات (السؤال الاول) أوكل النار زالت وصارت بردا الجواب ان النار هو اسم الماهية فلا بد وأن يحصل هذا البرد فى الماهية ويلزم منه عمومه فى كل افراد الماهية وقيل بل اختص بتلك النار لان الغرض انما تعلق ببرد تلك النار وفى النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها والمراد خلاص ابراهيم عليه السلام لا ايصال الضرر الى سائر الخلق (السؤال الثانى) هل يجوز ما روى عن الحسن من انه سلام من الله تعالى على ابراهيم عليه السلام (الجواب) الظاهر كانه جعل النار بردا جعلها سلاما عليه حتى يخلص فالذى قاله يبعد وفيه تشتيت الكلام المرتب (السؤال الثالث) أفيجوز ما روى من انه لو لم يقل وسلاما لأتى البرد عليه (والجواب) ذلك بعيد لان برد النار لم يحصل منها وانما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز أن يقال كان البرد يعظم لولا قوله سلاما (السؤال الرابع) أفيجوز ما قيل من انه كان فى النار أنعم عيشا منه فى سائر أحواله (والجواب) لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها ويجوز أن يكون انما صار أنعم عيشا هناك لعظم ما ناله من السرور بخلاصه من ذلك الامر العظيم ولعظم سروره بظفره باعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى أما قوله تعالى وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين أى أرادوا أن يكيدوه فما كانوا الا مغلوبين غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة ثم عدلوا الى القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم ثم انه سبحانه أتم النعمة عليه بان نجاه ونجى لوطا معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وفى الاخبار ان هذه الواقعة كانت فى حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة الى الارض المباركة ثم قيل انها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والسبب فى بركتها أما فى الدين فلان أكثر الانبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها وأما فى الدنيا فلان الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش وقيل ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس ﴿ قوله تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) اعلم انه تعالى بعد ذكره لانعامه على ابراهيم وعلى لوط بان

التاءين وبعضدها قوله تعالى فتولوا عنه مدبرين والفاء فى قوله تعالى (فجعلهم) فصيحة أى فولوا فجعلهم (جذاذا) أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر وقرئ بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرئ بالفتح وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيد لهم فبدؤا ببيت الاصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا الى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقى ابراهيم عليه السلام فنظر الى الاصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق الا الكبير وعلق الفأس فى عنقه وذلك قوله تعالى (الا كبيرا لهم) أى للاصنام (لعلهم اليه) أى الى ابراهيم عليه السلام (يرجعون) فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم ويبكتهم وقيل يرجعون الى الكبير فيسألونه عن الكاسر لان من شان المعبود أن يرجع اليه فى الملمات وقيل يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم (قالوا) أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا (من فعل هذا بآلهتنا)

نجاهما الى الارض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم وانما جمع بينهما الان فى كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة فى النبوة مزيد انعام ثم انه سبحانه ذكر النعم التى أفاضها على ابراهيم عليه السلام ثم النعم التى أفاضها على لوط اما الاول ففى وجوه (أحدها) ووهبناله اسحق ويعقوب نافلة واعلم ان النافلة العطية خاصة وكذلك النفل ويسمى الرجل الكثير العطايا نوفلا ثم للمفسرين ههنا قولان (الاول) انه ههنا مصدر من وهبناله مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك وبين قوله ووهبناله هبة أى وهبناه له عطية وفضلا من غير أن يكون جزاء مستحقا وهذا قول مجاهد وعطاء (والثانى) وهو قول أبى ابن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج ان ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولدا قال رب هب لى من الصالحين فأجاب الله دعاءه ووهب له اسحق وأعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك نافلة كالشئ المتطوع به من الآدميين فكأنه قال ووهبناله اسحق اجابة لدعائه ووهبناله يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التى هى زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة (والوجه الاول) أقرب لانه تعالى جمع بينهما ثم ذكر قوله نافلة فاذا صلح أن يكون وصفا لهما فهو أولى (النعمة الثانية) قوله تعالى وكلا جعلنا صالحين أى وكلا من ابراهيم واسحق ويعقوب أنبياء مرسلين هذا قول الضحاك وقال آخرون عاملين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه والوجه الثانى أقرب لان لفظ الصلاح يتناول الكل لانه سبحانه قال بعد هذه الآية وأوحينا اليهم فعل الخيرات فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله وكلا جعلنا صالحين يدل على ان ذلك الصلاح من قبله أجاب الجبائى بانه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين وبكونهم أئمة وبكونهم عابدين ولما مدحهم بذلك ولما أثنى عليهم واذا ثبت ذلك فلا بد من التأويل وهو من وجهين (الاول) أن يكون المراد انه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به (والثانى) أن يكون المراد انه سماهم بذلك كما يقال زيد فسق فلانا وضلله وكفره اذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس وكما يقال فى الحاكم زكى فلانا وعدله وجرحه اذا حكم بذلك واعلم ان هذه الوجوه مختلة اما اعتمادهم على المدح والذم (فالجواب) المعهود ان نعارضه بمسئلتى الداعى والعلم وأما الحمل على اللطف فباطل لان فعل الالطاف عام فى المكلفين فلا بد فى هذا التخصيص من مزيد فائدة وأيضا فلان قوله جعلته صالحا كقوله جعلته متحركا فحمله على تحصيل شئ سوى الصلاح ترك للظاهر وأما الحمل على التسمية فهو أيضا مجاز أقصى ما فى الباب انه قد يصار اليه عند الضرورة فى بعض المواضع وههنا لا ضرورة الا أن يرجعوا مرة أخرى الى فصل المدح والذم فحينئذ نرجع أيضا الى مسئلتى الداعى والعلم (النعمة الثالثة) قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وفيه قولان (أحدهما) أى جعلناهم أئمة يدعون الناس الى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا واذننا (والثانى) قول ١

على طريقة الانكار والتوبيخ والتشنيع ١٦٨ وانما عبروا عنها بذا كرولم يشيروا اليها بهؤلاء وهى بين أيديهم مبالغة فى التشنيع وقوله تعالى (انه لمن الظالمين) استئناف مقرر لما قبله وقيل من موصولة وهذه الجملة فى حيز الرفع على أنها خبر لها والمعنى الذى فعل هذا الكسر والحطم بالهتنا انه معدود من جملة الظلمة اما لجرأته على اهانتها وهى حقيقة بالاعظام أو لافراطه فى الكسر والحطم وتماديه فى الاستهانة بها أو بتعريض نفسه للهلكة (قالوا) أى بعض منهم مجيبين للسائلين (سمعنا فتى يذكرهم) أى يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم اما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين أو صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا اذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وان كانوا قد سمعوا من الناس انه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة الى المصحح (يقال له ابراهيم) صفة أخرى لفتى أى يطلق عليه هذا الاسم (قالوا) أى السائلون (فأتوا به على أعين الناس) أى بمرأى منهم بحيث يكون نصب أعينهم فى مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد (لعلهم يشهدون) أى يحضرون عقوبته وقيل لعلهم يشهدون بفعله أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فماذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوا به أولا فقيل أتوا به ثم قالوا

أبى

أبى مسلم ان هذه الامامة هى النبوة والاول أولى لئلا يلزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على أمرين (أحدهما) على خلق الافعال بقوله وجعلناهم أئمة وتقريره ما مضى (والثانى) على ان الدعوة الى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز الا بأمر الله تعالى لان الامر لو لم يكن معتبرا لما كان فى قوله بأمرنا فائدة (النعمة الرابعة) قوله تعالى وأوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من أعظم النعم على الاب قال الزجاج حذف الهاء من اقامة الصلاة لان الاضافة عوض عنه وقال غيره الاقام والاقامة مصدر قال أبو القاسم الانصارى الصلاة أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى والزكاة أشرف العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله واعلم انه سبحانه وصفهم أولا بالصلاح لانه أول مراتب السائرين الى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالامامة ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحى واذا كان الصلاح الذى هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على ان الانبياء معصومون فان المحروم عن أول المراتب أولى بان يكون محروما عن النهاية ثم انه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال وكانوا لنا عابدين كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية فى الاحسان والانعام فهم أيضا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة (القصة الثالثة) قصة لوط عليه السلام ۞ قوله تعالى (ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وادخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين) اعلم انه سبحانه بعد بيان ما أنعم به على ابراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الواو فى قوله ولوطا قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج انه عطف على قوله وأوحينا اليهم (والثانى) قول أبى مسلم انه عطف على قوله آتينا ابراهيم رشده ولا بد من ضمير فى قوله ولوطا فكأنه قال وآتينا لوطا فضمر ذكره (المسئلة الثانية) فى أصناف النعم وهى أربعة وجوه (أحدها) الحكم أى الحكمة وهى التى يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هى النبوة (وثانيها) العلم واعلم ان ادخال التنوين عليهما يدل على علو شان ذلك العلم وذلك الحكم (وثالثها) قوله ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث والمراد أهل القرية لانهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولان الهلاك بهم نزل قضاء الله تعالى من ذلك ثم بين سبحانه وتعالى بقوله انهم كانوا قوم سوء فاسقين ما اراد بالخبائث وأمرهم فيه كانوا يأتون مما هو ظاهر (ورابعها) قوله وادخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين وفى تفسير الرحمة قولان (الاول) انه النبوة أى انه لما كان صالحا للنبوة ادخله الله فى رحمته اكرامه بقوم بمقتضاه عن مقاتل (الثانى) انه الثواب عن ابن عباس والضحاك ويحتمل أن يقال انه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جاه الهوى وفتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الالهية وهى

(أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم) اقتصارا على حكاية مخاطبتهم اياه عليه السلام للتنبيه على ان اتيانهم به ومسارعتهم الى ذلك أمر محقق غنى عن البيان (قال بل فعله كبيرهم هذا) مشيرا الى الذى لم يكسره سلك عليه السلام مسلكا تعريضيا يؤديه الى مقصده الذى هو الزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما ابرزه فى ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد اسناده اليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الاصنام غاظته عليه السلام حين ابصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه باعتبار أنه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على ما هو أشد من ذلك ويحكى انه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبرها فيكون تمثيلا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادته الاصنام وأما ما قيل من انه عليه

بحر لا ساحل له وهى الرحمة فى الحقيقة (القصة الرابعة) قصة نوح عليه السلام ﴿قوله تعالى (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم اجمعين) أما قوله تعالى اذ نادى من قبل ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لا شبهة فى ان المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الاجمال وهو قوله فدعا ربه انى مغلوب فانتصر وتارة على التفصيل وهو قوله وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ويدل عليه أيضا ان الله تعالى أجابه بقوله فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وهذا الجواب يدل على ان الانجاء المذكور فيه كان هو المطلوب فى السؤال فدل هذا على ان نداءه ودعاءه كان بان ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الاذى بالتكذيب والرد عليه وبان ينصره عليهم وأن يهلكهم فلذلك قال بعده ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا (المسئلة الثانية) أجمع المحققون على ان ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لانه لو لم يكن بامره لم يؤمن ان يكون الصلاح أن لا يجاب اليه فيصير ذلك سببا لنقصان حال الانبياء ولان الاقدام على امثال هذه المطالب لو لم يكن بالامر لكان ذلك مبالغة فى الاضرار وقال آخرون انه عليه السلام لم يكن ماذونا له فى ذلك وقال أبو أمامة لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح فحسرة آدم على قبول وسوسة ابليس وحسرة نوح على دعائه على قومه فأوحى الله تعالى اليه أن لا تتحسر فان دعوتك وافقت قدرى أما قوله تعالى فنجيناه وأهله من الكرب العظيم فالمراد بالاهل ههنا أهل دينه وفى تفسير الكرب وجوه (أحدها) انه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين (وثانيها) انه تكذيب قومه اياه وما لقى منهم من الاذى (وثالثها) انه مجموع الامرين وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وهو الاقرب لانه عليه السلام كان قد دعاهم الى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند اعلام الله تعالى اياه انه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضا على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذى يتخلص من الغرق ومن الذى يغرق فازال الله تعالى عنه الكرب العظيم بان خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه أما قوله تعالى ونصرناه من القوم فقراءة أبى بن كعب ونصرناه على القوم ثم قال المبرد تقديره ونصرناه من مكروه القوم وقال تعالى فمن ينصرنا من بأس الله أى يعصمنا من عذابه قال أبو عبيدة من بمعنى على وقال صاحب الكشاف انه نصر الذى مطاوعه انتصر وسمعت هذليا يدعو على سارق اللهم انصرهم منه أى اجعلهم منتصرين منه أما قوله تعالى انهم كانوا قوم سوء فالمعنى انهم كانوا قوم سوء لاجل ردهم عليه وتكذيبهم له فاغرقناهم أجمعين فبين ذلك الوجه الذى به خلصه منهم (القصة الخامسة) قصة داود وسليمان عليهما السلام ﴿قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها

السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم بل انما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على اسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل لذلك بما لو قال لك أمى فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل أنت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لا نفيها عنك واثباتها له فبمعزل من التحقيق لان خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الامر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولا ريب فى ان مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال اصنامهم كما ينبئ عنه قوله (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) اى ان كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وانما لم يقل عليه السلام ان كانوا يسمعون او يعقلون مع ان السؤال موقوف على السمع والعقل ايضا لما ان نتيجة السؤال هو الجواب وان عدم نطقهم اظهر وتبكيتهم بذلك ادخل وقد حصل ذلك اولا حسبما نطق به قوله تعالى (فرجعوا الى انفسهم) اى

سليمان

سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ولسليمان الريح عاصفة تجرى بامره الى الارض التى باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) اعلم ان قوله تعالى وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون كله نسق على ما تقدم من قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ومن قوله ولوطا آتيناه حكما وعلما واعلم ان المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولا النعمة المشتركة بينهما ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم أما النعمة المشتركة فهى القصة المذكورة وهى قصة الحكومة ووجه النعمة فيها ان الله تعالى زينهما بالعلم والفهم فى قوله وكلا آتينا حكما وعلما ثم فى هذا تنبيه على ان العلم أفضل الكمالات وأعظمها وذلك لان الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن واذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الاشياء فما ظنك بغيرها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت النفش ان تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع وهذا قول جمهور المفسرين وعن الحسن انه يجوز ذلك ليلا ونهارا (المسئلة الثانية) أكثر المفسرين على ان الحرث هو الزرع وقال بعضهم هو الكرم والاول اشبه بالعرف (المسئلة الثالثة) احتج من قال أقل الجمع اثنان بقوله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين مع ان المراد داود وسليمان (جوابه) ان الحكم كما يضاف الى الحاكم فقد يضاف الى المحكوم له فاذا أضيف الحكم الى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين وقرئ وكنا لحكمهما شاهدين (المسئلة الرابعة) فى كيفية القصة وجهان (الاول) قال اكثر المفسرين دخل رجلان على داود عليه السلام (أحدهما) صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث ان غنم هذا دخلت حرثى وما أبقت منه شيأ فقال داود عليه السلام اذهب فان الغنم لك فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فاخبراه فقال لو كنت انا القاضى لقضيت بغير هذا فاخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال كيف كنت تقضى بينهما فقال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى اذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم الى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه (الثانى) قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهما الله ان راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الاغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم فذهب صاحب الكرم من الغد الى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لانه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكما فاخبراه به فقال غير هذا أرفق بالفريقين فاخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له بحق الابوة والبنوة الا أخبرتنى بالذى هو ارفق بالفريقين فقال تسلم الغنم الى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها ويعمل الراعى فى اصلاح الكرم حتى يصير كما كان ثم ترد الغنم الى صاحبها فقال

راجعوا عقولهم وتذكروا ان ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل ان يقدر على دفع مضرة عن غيره او جلب منفعة له فكيف يستحق ان يكون معبودا (فقالوا) اى قال بعضهم لبعض فيما بينهم (انكم انتم الظالمون) اى بهذا السؤال لانه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة او بعبادة الاصنام لا من ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين او انتم الظالمون بعبادتها لا من كسرها (ثم نكسوا على رؤسهم) اى انقلبوا الى المجادلة بعد ما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم الى الباطل بصيرورة اسفل الشئ اعلاه وقرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل اى نكسوا انفسهم (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) على ارادة القول اى قائلين والله لقد علمت ان ليس من شأنهم النطق فكيف تامرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لا نفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع (قال) مبكتا لهم (افتعبدون) أى أتعلمون ذلك فتعبدون (من دون الله) أى متجاوزين عبادته تعالى (ما لا ينفعكم شيأ) من النفع (ولا يضركم) فان العلم بحاله المنافية للالوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعا (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) تضجر منه عليه السلام من اصرارهم على الباطل البين واظهار الاسم

داود عليه السلام انما القضاء ما قضيت وحكم بذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما حكم سليمان بذلك وهو ابن احدى عشرة سنة وههنا أمور لا بد من البحث عنها (السؤال الاول) هل فى الآية دلالة على انهما عليهما السلام اختلفا فى الحكم أم لا فان أبا بكر الاصم قال انهما لم يختلفا البتة وانه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام (الجواب) الصواب انهما اختلفا والدليل اجماع الصحابة والتابعين رضى الله عنهم على ما رويناه وأيضا فقد قال الله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين ثم قال ففهمناها سليمان والفاء للتعقيب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقا على هذا التفهيم وذلك الحكم السابق اما أن يقال اتفقا فيه أو اختلفا فيه فان اتفقا فيه لم يبق لقوله ففهمناها سليمان فائدة وان اختلفا فيه فذلك هو المطلوب (السؤال الثانى) سلمنا انهما اختلفا فى الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد (الجواب) الامران جائزان عندنا وزعم الجبائى انهما كانا صادرين عن النص ثم انه تارة يبنى ذلك على ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء وأخرى على ان الاجتهاد وان كان جائزا منهم فى الجملة ولكنه غير جائز فى هذه المسئلة (أما المأخذ الاول) فقد تكلمنا فيه فى الجملة فى كتابنا المسمى بالمحصول فى الاصول ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين احتج الجبائى على ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء عليهم السلام بامور (أحدها) قوله تعالى قل ما يكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى وقوله تعالى وما ينطق عن الهوى (وثانيها) ان الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على ادراكه يقينا فلا يجوز مصيره الى الظن كالمعاين للقبلة لا يجوز له ان يجتهد (وثالثها) ان مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومخالفة المظنون والمجتهدات لا توجب الكفر (ورابعها) لو جاز أن يجتهد فى الاحكام لكان لا يقف فى شئ منها ولما وقف فى مسئلة الظهار واللعان الى ورود الوحى دل على ان الاجتهاد غير جائز عليه (وخامسها) أن الاجتهاد انما يجوز المصير اليه عند فقد النص لكن فقدان النص فى حق الرسول كالممتنع فوجب أن لا يجوز الاجتهاد منه (وسادسها) لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضا من جبريل عليه السلام وحينئذ لا يحصل الامان بان هذه الشرائع التى جاء بها أهى من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل (والجواب) عن الاول ان قوله تعالى قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى لا يدل على قولكم لانه وارد فى ابدال آية بآية لانه عقيب قوله قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ولا مدخل للاجتهاد فى ذلك وأما قوله تعالى وما ينطق عن الهوى فبعيد لان من يجوز له الاجتهاد يقول ان الذى اجتهد فيه هو عن وحى على الجملة وان لم يكن كذلك على التفصيل وان الآية واردة فى الاداء عن الله تعالى لا فى حكمه الذى يكون بالعقل (والجواب) عن الثانى ان الله تعالى اذا قال له اذا غلب على ظنك كون الحكم معللا فى الاصل بكذا ثم غلب على ظنك

قيام

الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح ما فعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحا ونتنا واللام لبيان المتأفف له (أفلا تعقلون) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم (قالوا) أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا ديدن المبطل المحجوج اذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لا يبقى له مفزع الا المناصبة (حرقوه) فانه أشد العقوبات (وانصروا آلهتكم) بالانتقام لها (ان كنتم فاعلين) أى للنصر أو لشئ يعتد به قيل القائل نمروذ بن كنعان بن السنجاريب ابن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الارض روى انهم لما أجمعوا على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الانباط وذلك قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوما فاوقدوا نارا عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحد حتى ان كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام فيها فاتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الاكراد فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ثم عمدوا الى

قيام ذلك المعنى فى صورة اخرى فاحكم بذلك فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل فى طريقه (والجواب) عن الثالث انا لا نسلم ان مخالفة المجتهدات جائزة مطلقا بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها عن غير المعصوم والدليل عليه انه يجوز على الامة أن يجمعوا اجتهادا ثم يمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد (والجواب) عن الرابع انه عليه السلام كان ممنوعا من الاجتهاد فى بعض الانواع أو كان مأذونا مطلقا لكنه لم يظهر له فى تلك الصورة وجه الاجتهاد فلا جرم انه توقف (والجواب) عن الخامس لم لا يجوز أن يحبس النص عنه فى بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد (والجواب) عن السادس ان هذا الاحتمال مدفوع باجماع الامة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين والذى يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه (أحدها) انه عليه السلام اذا غلب على ظنه ان الحكم فى الاصل معلل بمعنى ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى فى صورة اخرى فلا بد وان يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى الاصل وعنده مقدمة يقينية وهى ان مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون وعند هذا اما أن يقدم على الفعل والترك معا وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين أو يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل او يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس وهذه النكتة هى التى عليها التعويل فى العمل بالقياس وهى قائمة أيضا فى حق الانبياء عليهم السلام وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام (وثانيها) قوله تعالى فاعتبروا أمر للكل بالاعتبار فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لانه امام المعتبرين وأفضلهم (وثالثها) ان الاستنباط أرفع درجات العلماء فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل والا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه فى هذا الباب فان قيل هذا انما يلزم لو لم تكن درجة اعلى من الاعتبار وليس الامر كذلك لانه كان يستدرك الاحكام وحيا على سبيل اليقين فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذى ليس قصاراه الا الظن قلنا لا يمتنع أن لا يجد النص فى بعض المواضع فلو لم يتمكن من الاجتهاد لكان أقل درجة من المجتهد الذى يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الاجتهاد وأيضا فقد بينا أن الله تعالى لما أمره بالاجتهاد كان ذلك مفيدا للقطع بالحكم (ورابعها) قال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء فوجب أن يثبت للانبياء درجة الاجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك هذا تمام القول فى هذه المسئلة (وخامسها) انه تعالى قال عفا الله عنك لم اذنت لهم فذلك الاذن ان كان باذن الله تعالى استحال أن يقول لم أذنت لهم وان كان بهوى النفس فهو غير جائز وان كان بالاجتهاد فهو المطلوب (المأخذ الثانى) قال الجبائى لو جوزنا الاجتهاد من الانبياء عليهم السلام ففى هذه المسئلة يجب أن لا يجوز لوجوه (أحدها) أن الذى وصل الى صاحب الزرع من در الماشية ومن منافعها مجهول المقدار فكيف يجوز فى الاجتهاد

ابراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك قوله تعالى (قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) أى كونى ذات برد وسلام أى ابردى بردا غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطاوعة واقامة كونى ذات برد مقام ابردى ثم حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقيل نصب سلاما بفعله أى وسلمنا سلاما عليه روى أن الملائكة أخذوا بضبعى ابراهيم وأقعدوه على الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وروى انه عليه السلام مكث فيها أربعين يوما أو خمسين وقال ما كنت أطيب عيشا منى اذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد الى جنبه يؤنسه فنظر نمروذ من صرحه فأشرف عليه فرآه جالسا فى روضة مونقة ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة والنار محيطة به فناداه يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشى فخرج منها فاستقبله نمروذ وعظمه وقال من الرجل الذى رأيته معك قال ذلك ملك الظل

بجعل احدهما عوضا عن الآخر (وثانيها) ان اجتهاد داود عليه السلام ان كان صوابا لزم أن لا ينقض لان الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد وان كان خطأ وجب أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الانبياء عليهم السلام فلما مدحهما بقوله وكلا آتينا حكما وعلما دل على انه لم يقع الخطأ من داود (وثالثها) لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هنالك ظنا لا علما لان الله تعالى قال وكلا آتينا حكما وعلما (ورابعها) كيف يجوز أن يكون عن اجتهاد مع قوله ففهمناها سليمان (والجواب) عن الاول ان الجهالة فى القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجعالات وحكم المصراة (وعن الثانى) لعله كان خطأ من باب الصغائر (وعن الثالث) بينا ان من تمسك بالقياس فالظن واقع فى طريق اثبات الحكم فاما الحكم فمقطوع به (وعن الرابع) انه اذا تامل واجتهد فاداه اجتهاده الى ما ذكرنا كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك فهذا جملة الكلام فى بيان انه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام فى ذلك الحكم انما كان بسبب الاجتهاد وأما بيان انه لا يمتنع أيضا أن يكون اختلافهما فيه بسبب النص فطريقه أن يقال ان داود عليه السلام كان مأمورا من قبل الله تعالى فى هذه المسئلة بالحكم الذى حكم به ثم انه سبحانه نسخ ذلك بالوحى الى سليمان عليه السلام خاصة وأمره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعا فقوله ففهمناها سليمان أى أوحينا اليه فان قيل هذا باطل لوجهين (الاول) لما أنزل الله تعالى الحكم الاول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضا على داود لا على سليمان (الثانى) ان الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن فى فهمه كثير مدح انما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة فى الاستنباط (السؤال الثالث) اذا أثبتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لاجل النص وأن يكون لاجل الاجتهاد فأى القولين اولى (والجواب) الاجتهاد أرجح لوجوه (احدها) انه روى فى الاخبار الكثيرة ان داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ان غير ذلك أولى وفى بعضها ان داود عليه السلام ناشده لكى يورد ما عنده وكل ذلك لا يليق بالنص لانه لو كان نصا لكان يظهره ولا يكتمه (السؤال الرابع) بينوا انه كيف كان طريق الاجتهاد (الجواب) ان وجه الاجتهاد فيه ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما من ان داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساويا لقيمة الغنم فكان عنده ان الواجب فى ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وأما سليمان عليه السلام فان اجتهاده أدى الى انه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فاما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائز لانه يقتضى الحيف والجور ولعل منافع الغنم فى تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به كما قال الشافعى رضى الله عنه فيمن غصب عبدا فابق من يده انه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من

منافع

أرسله ربى ليونسنى فقال انى مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لا يقبل الله منك ما دمت على دينك هذا قال لا استطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان اذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من ابدع المعجزات فان انقلاب النار هواء طيبا وان لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما ترى فى السمندل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على ابراهيم (وأرادوا به كيدا) مكرا عظيما فى الاضرار به (فجعلناهم الاخسرين) أى أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم فى اطفاء نور الحق برهانا قاطعا على انه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لاشد العذاب (ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين) أى من العراق الى الشام وبركاته العامة أن اكثر الانبياء بعثوا فيه فانتشرت فى العالمين شرائعهم التى هى مبادى الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم والخصب الغالب روى انه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة

منافع العبد فاذا ظهر تراد (السؤال الخامس) على تقدير ان ثبت قطعا ان تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد فهل تدل هذه القصة على ان المصيب واحد أو الكل مصيبون (الجواب) أما القائلون بان المصيب واحد فمنهم من استدل بقوله تعالى ففهمناها سليمان قال ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة وأما القائلون بان الكل مصيبون فمنهم من استدل بقوله وكلا آتينا حكما وعلما ولو كان المصيب واحدا ومخالفه مخطئا لما صح أن يقال وكلا آتينا حكما وعلما واعلم ان الاستدلالين ضعيفان (أما الاول) فلان الله تعالى لم يقل انه فهمه الصواب فيحتمل انه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لانه لم يبلغه وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به على ان أكثر ما فى الآية انها دالة على ان داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب أن يكون الامر كذلك فى شرعنا (وأما الثانى) فلانه تعالى لم يقل ان كلا آتيناه حكما وعلما بما حكم به بل يجوز أن يكون اتيناه حكما وعلما بوجوه الاجتهاد وطرق الاحكام على انه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيبا فى شرعهم أن يكون الامر كذلك فى شرعنا (السؤال السادس) لو وقعت هذه الواقعة فى شرعنا ما حكمها (الجواب) قال الحسن البصرى هذه الآية محكمة والقضاة بذلك يقضون الى يوم القيامة واعلم ان كثيرا من العلماء يزعمون انه منسوخ بالاجماع ثم اختلفوا فى حكمه فقال الشافعى رحمه الله ان كان ذلك بالنهار لا ضمان لان لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه وان كان ليلا يلزمه الضمان لان حفظها بالليل عليه وقال أبو حنيفة رحمه الله لا ضمان عليه ليلا كان او نهارا اذا لم يكن متعديا بالارسال لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار واحتج الشافعى رحمه الله بما روى عن البراء بن عازب انه قال كانت ناقة ضارية فدخلت حائطا فافسدته فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى ان حفظ الحوائط بالنهار على أهلها وان حفظ الماشية بالليل على أهلها وان على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل وهذا تمام القول فى هذه الآية ثم ان الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التى خص بها داود عليه السلام أمرين (الاول) قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذا التسبيح وجهان (أحدهما) ان الجبال كانت تسبح ثم ذكروا وجوها (أحدها) قال مقاتل اذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه (وثانيها) قال الكلبى اذا سبح داود أجابته الجبال (وثالثها) قال سليمان بن حيان كان داود عليه السلام اذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطا واشتياقا (القول الثانى) وهو اختيار بعض أصحاب المعانى انه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده وتخصيص داود عليه السلام بذلك انما كان بسبب انه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينا وتعظيما

يوم وليلة (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة) أى عطية فهى حال منهما او ولد ولد أو زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة (وكلا) أى كل واحد من هؤلاء الاربعة لا بعضهم دون بعض (جعلنا صالحين) بأن وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم فى أمور الدين اجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتى (يهدون) أى الامة الى الحق (بأمرنا) لهم بذلك وارسالنا اياهم حتى صاروا مكملين (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل الى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى (واقام الصلاة وايتاء الزكاة) وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله واناقته وحذفت تاء الاقامة المعوضة من احدى الالفين لقيام المضاف اليه مقامه (وكانوا لنا) خاصة دون غيرنا (عابدين) لا يخطر ببالهم غير عبادتنا (ولوطا) قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (آتيناه) أى وآتينا لوطا وقيل باذكر (حكما) أى حكمة او نبوة او فصلا بين الخصوم بالحق (وعلما) بما ينبغى علمه للانبياء عليهم السلام (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) أى اللواطة وصفت بصفة اهلها

واقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء فاسقين)

والقول الاول أقرب لانه لا ضرورة في صرف اللفظ عن ظاهره وأما المعتزلة فقالوا الوصل الكلام من الجبل لحصل اما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه (والاول) محال لان بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة ومالا يكون حيا عالما قادرا يستحيل منه الفعل (والثانى) أيضا محال لان المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا للكلام فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل فثبت انه لا يمكن اجراؤه على ظاهره فعند هذا قالوا فى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ومثله قوله تعالى ياجبال أوبى معه معناه تصرفى معه وسيرى بأمره ويسبحن من السبح الذى هو السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولو لم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه أى يسيرى وهو كقوله ان لك فى النهار سبحا طويلا أى تصرفا ومذهبا اذا ثبت هذا فنقول ان سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ما تنزه عنه واعلم ان مدار هذا القول على ان بنية الجبل لا تقبل الحياة وهذا ممنوع وعلى أن التكلم من فعل الله وهو أيضا ممنوع (المسئلة الثانية) أما الطير فلا امتناع فى أن يصدر عنها الكلام ولكن أجمعت الامة على ان المكلفين اما الجن أو الانس أو الملائكة فيمتنع فيها أن تبلغ فى العقل الى درجة التكليف بل تكون على حالة كحال الطفل فى أن يؤمر وينهى وان لم يكن مكلفا فصار ذلك معجزة من حيث جعلها فى الفهم بمنزلة المراهق وأيضا فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لا يجوز فيكون القول فيه كالقول فى الجبال (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يسبحن حال بمعنى مسبحات أو استئناف كان قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن والطير اما معطوف على الجبال واما مفعول معه فان قلت لم قدمت الجبال على الطير قلت لان تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل فى الاعجاز لانها جماد والطير حيوان ناطق اما قوله وكنا فاعلين فالمعنى انا قادرون على ان نفعل هذا وان كان عجبا عندكم وقيل نفعل ذلك بالانبياء عليهم السلام (الانعام الثالث) قوله تعالى وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللبوس اللباس قال البس لكل حالة لبوسها (المسئلة الثانية) لتحصنكم قرئ بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى أو لداود أو اللبوس (المسئلة الثالثة) قال قتادة أول من صنع الدرع داود عليه السلام وانما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حلقا ذكر الحسن ان لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه فقال الصمت حكمة وقليل فاعله قالوا ان الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كأنه طين (المسئلة الرابعة) البأس ههنا الحرب وان وقع على السوء كله والمعنى ليمنعكم ويحرسكم من بأسكم أى من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح (المسئلة الخامسة) فيه دلالة على ان أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه

واسندت اليها على حذف المضاف فانه كالتعليل له (وأدخلناه فى رحمتنا) أى فى أهل رحمتنا اوفى جنتنا (انه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى (ونوحا) أى اذكر نوحا أى خبره وقوله تعالى (اذ نادى) أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر أى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه (من قبل) أى من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى من جملته قوله انى مغلوب فانتصر (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو الطوفان وقيل اذية قومه وأصل الكرب الغم الشديد (ونصرناه) نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) وحمله على فانتصر يأباه ما ذكر من دعائه عليه السلام فان ظاهره يوجب اسناد الانتصار اليه تعالى مع ما فيه من تهويل الامر قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء) تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى (فأغرقناهم أجمعين) فان الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الاهلاك قطعا (وداود وسليمان) اما عطف على نوحا معمول لعامله واما المضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى (اذ يحكمان) ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما

فتوارث الناس عنه ذلك فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق الى آخر الدهر فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال فهل أنتم شاكرون أى اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة واعلم انه سبحانه لما ذكر النعم التى خص داود بها ذكر بعده النعم التى خص بها سليمان عليه السلام وقال قتادة ورث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين (الانعام الاول) قوله تعالى ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره أى جعلناها طائعة منقادة له بمعنى انه ان أرادها عاصفة كانت عاصفة وان أرادها لينة كانت لينة والله تعالى مسخرها فى الحالتين فان قيل العاصف الشديدة الهبوب وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة فى قوله رخاء حيث أصاب فكيف يكون الجمع بينهما (والجواب) من وجهين (الاول) انها كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال غدوها شهر ورواحها شهر وكانت جامعة بين الامرين رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم آية الى آية ومعجزة الى معجزة (الثانى) انها كانت فى وقت رخاء وفى وقت عاصفا لاجل هبوبها على حكم ارادته (المسئلة السادسة) قرئ الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال فان قيل قال فى داود وسخرنا مع داود الجبال وقال فى حق سليمان ولسليمان الريح فذكره فى حق داود عليه السلام بكلمة مع وفى حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضا فى قوله ياجبال أوبى معه والطير وقال فسخرنا له الريح تجرى بأمره فما الفائدة فى تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع وسليمان باللام قلنا يحتمل ان الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف فما أضيف اليه بلام التمليك أما الريح فلم يصدر عنه الا ما يجرى مجرى الخدمة فلا جرم أضيف الى سليمان بلام التمليك وهذا اقناعى أما قوله الى الارض التى باركنا فيها للعالمين أى الى المضى الى بيت المقدس قال الكلبى كانت تسير من اصطخر الى الشام يركب عليها سليمان وأصحابه أما قوله وكنا بكل شئ عالمين أى لعلمنا بالاشياء صح منا أن ندبر هذا التدبير فى رسلنا وفى خلقنا وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة (الانعام الثانى) قوله تعالى ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد انهم يغوصون له فى البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك الى الاعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون (المسئلة الثانية) قوله ومن الشياطين من يغوصون له يعنى وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له فيكون فى موضع النصب نسقا على الريح قال الزجاج ويجوز أن يكون فى موضع رفع من وجهين (احدهما) النسق على الريح وأن يكون المعنى ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين ويجوز أن يكون رفعا على

(فى الحرث) أى فى حق الزرع اوالكرم المتدلى عناقيده كما قيل أو بدل اشتمال منهما وقوله تعالى (اذ نفشت) أى تفرقت وانتشرت (فيه غنم القوم) ليلا بلا راع فرعته وأفسدته ظرف للحكم (وكنا لحكمهم) أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين اليهما فان الاضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرئ لحكمهما (شاهدين) حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه (ففهمناها سليمان) عطف على يحكمان فانه فى حكم الماضى وقرئ فأفهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما ان غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فأفسدته فقضى له بالغنم فخرجا فمرا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق النبوة والابوة الا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم الى صاحب الارض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها والحرث الى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود الى ما كان ثم يترادا فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فان قول سليمان عليه

الابتداء ويكون له هو الخبر (المسئلة الثالثة) يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذى يعمل سائر الاعمال ويحتمل انهم فرقة أخرى ويكون الكل داخلين فى لفظة من وان كان الاول هو الاقرب (المسئلة الرابعة) ليس فى الظاهر الا أنه سخرهم لكنه قد روى انه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الاقرب من وجهين (أحدهما) اطلاق لفظ الشياطين (والثانى) قوله وكنا لهم حافظين فان المؤمن اذا سخر فى أمر لا يجب أن يحفظ لئلا يفسد وانما يجب ذلك فى الكافر (المسئلة الخامسة) فى تفسير قوله وكنا لهم حافظين وجوه (أحدها) انه تعالى وكل بهم جمعا من الملائكة أو جمعا من مؤمنى الجن (وثانيها) سخرهم الله تعالى بان حبب اليهم طاعته وخوفهم من مخالفته (وثالثها) قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء فان قيل وعن أى شئ كانوا محفوظين قلنا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) انه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا ويتركوه (وثانيها) قال الكلبى كان يحفظهم من أن يهيجوا أحدا فى زمانه (وثالثها) كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم انهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه فى الليل (المسئلة السادسة) سأل الجبائى نفسه وقال كيف يتأتى لهم هذه الاعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل وانما يمكنهم الوسوسة وأجاب بانه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد فى عظمهم ليكون ذلك معجزا لسليمان عليه السلام فلما مات سليمان ردهم الله الى الخلقة الاولى لانه لو بقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس ولو ادعى متنبى النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فلذا ردهم الى خلقتهم الاولى واعلم ان هذا الكلام ساقط من وجوه (أحدها) لم قلت ان الجن من الاجسام ولم لا يجوز وجود محدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم فان قلت لو كان الامر كذلك لكان مثلا للبارى تعالى قلت هذا ضعيف لان الاشتراك فى اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك فى الملزومات فكيف اللوازم السلبية سلمنا انه جسم لكن لم لا يجوز حصول القدرة على هذه الاعمال الشاقة فى الجسم اللطيف وكلامه بناء على ان البنية شرط وليس فى يده الا الاستقراء الضعيف سلمنا انه لا بد من تكثيف أجسامهم لكن لم قلت بأنه لا بد من ردها الى الخلقة الاولى بعد موت سليمان عليه السلام فان قال لئلا يفضى الى التلبيس قلنا التلبيس غير لازم لان المتنبى اذا جعل ذلك معجزة لنفسه فللمدعو ان يقول لم لا يجوز أن يقال ان قوة أجسادهم كانت معجزة لنبى آخر قبلك ومع قيام هذا الاحتمال لا يمكن المتنبى من الاستدلال به واعلم ان أجسام هذا العالم اما كثيفة أو لطيفة أما الكثيف فأكثف الاجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام فأنطق الحجر ولين الحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر لانه لما قدر على احياء الحجارة فأى بعد فى احياء العظام الرميمة واذا قدر على أن يجعل فى اصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الاصبع فى نهاية اللطافة فأى بعد فى ان يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا والعطف

السلام غير هذا ارفق بالفريقين ثم قوله أرى أن تدفع الخ صريح فى انه ليس بطريق الوحى والا لبت القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لاظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بدأ وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم ان رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبئ عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبى حنيفة الى المجنى عليه أو يفديه ويبيعه فى ذلك أو يفديه عند الشافعى وقد روى أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث الى أن يزول الضرر الذى أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعى فيمن غصب عبدا فأبق منه انه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من المنافع فاذا ظهر الآبق ترادا وفى قوله تعالى ففهمناها سليمان دليل على رجحان قوله ورجوع داود عليه السلام اليه مع أن الحكم المبنى

الاشياء فى هذا العالم الهواء والنار وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام أما الهواء فقوله تعالى فسخرنا له الريح وأما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى فكان يأمرهم بالغوص فى المياه والنار تنطفئ بالماء وهم ما كان يضرهم ذلك وذلك يدل على قدرته على اظهار الضد من الضد * (القصة السادسة) قصة أيوب عليه السلام

قوله تعالى (وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) اعلم ان فى امر أيوب عليه السلام ما ذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفى غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس فى غيره لانه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفا لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها ويجتهد فى القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتى الضراء والسراء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب بن انوص وكان من ولد عيص بن اسحق وكانت أمه من ولد لوط وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيا وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظا وافرا من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان رحيما بالمساكين وكان يكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله قال وهب وان لجبريل عليه السلام بين يدى الله تعالى مقاما ليس لاحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة وهو الذى يتلقى الكلام فاذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين فاذا شاع ذلك فيهم يصلون عليه ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الارض وكان ابليس لم يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد ومن هناك وصل الى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع فكان يصعد بعد ذلك الى ثلاث الى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فحجب عند ذلك عن جميع السموات الا من استرق السمع قال فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فادركه الحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال يارب انك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض الملعون حتى وقع الى الارض وجمع عفاريت الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى سلطت على مال أيوب قال عفريت أعطيت من القوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار فأحرقت كل شئ آتى عليه فقال ابليس فأت الابل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها شئ الا احترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها فذهب ابليس على شكل بعض أولئك الرعاة الى أيوب فوجده قائما يصلى فلما

على الاجتهاد لا ينقض باجتهاد آخر وان كان أقوى منه لما أن ذلك من خصائص شريعتنا على انه ورد فى الاخبار أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع وأما حكم المسئلة فى شريعتنا فعند أبى حنيفة رحمه الله لا ضمان ان لم يكن معها سائق أو قائد وعند الشافعى يجب الضمان ليلا لا نهارا وقوله تعالى (وكلا آتينا حكما وعلما) لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أى وكل واحد منهما آتينا حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده وهذا انما يدل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فى كونه مجتهدا وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لاظهار ما تفضل عليه فى صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن احدى عشرة سنة (وسخرنا مع داود الجبال) شروع فى بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى اثر بيان كرامته العامة لهما (يسبحن) أى يقدسن الله عز وجل معه بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير

فرغ من الصلاة قال يا أيوب هل تدرى ما صنع ربك الذى اخترته بابلك ورعاتها فقال أيوب
انها ماله اعارنيه وهو أولى به اذا شاء نزعه قال ابليس فان ربك أرسل عليها نارا من السماء
فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها فمن قائل يقول ما كان
أيوب يعبد شيأ وما كان الا فى غرور ومن قائل يقول لو كان اله أيوب يقدر على شئ لمنع من
وليه ومن قائل آخر يقول بل هو الذى فعل ما فعل ليشمت عدوه به ويفجع به صديقه فقال
أيوب عليه السلام الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا
أعود فى التراب وعريانا أحشر الى الله تعالى ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك
مع تلك الارواح وصرت شهيدا وآجرنى فيك ولكن الله علم منك شرا فأخرك فرجع ابليس
الى أصحابه خاسئا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت صحت صوتا لا يسمعه
ذو روح الا خرجت روحه فقال ابليس فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات
رعاؤها فخرج ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب فقال له القول الاول ورد عليه أيوب
الرد الاول فرجع ابليس صاغرا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت تحولت
ريحا عاصفة أقلع كل شئ أتيت عليه قال فاذهب الى الحرث والثيران فأتاهم فأهلكهم ثم
رجع ابليس متمثلا حتى جاء أيوب وهو يصلى فقال مثل قوله الاول فرد عليه أيوب الرد
الاول فجعل ابليس يصيب أمواله شيأ فشيأ حتى أتى على جميعها فلما رأى ابليس صبره على
ذلك وقف الموقف الذى كان يقفه عند الله تعالى وقال يا الهى هل انت مسلطى على ولده
فانها الفتنة المضلة فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فأتى أولاد أيوب فى
قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ثم جاء الى أيوب متمثلا بالمعلم وهو
جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه فقال لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين
على رؤسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب
عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه فاغتنم ذلك ابليس ثم
لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد ابليس ووقف موقفه وقال
يا الهى انما يهون على أيوب خطر المال والولد لعلمه انك تعيد له المال والولد فهل أنت
مسلطى على جسده وانى لك زعيم لو ابتليته فى جسده ليكفرن بك فقال تعالى انطلق فقد
سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعا فوجد
أيوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فأتاه من قبل الارض فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها
جسده وخرج به من فرقه الى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها وكان يحك
بأظفاره حتى سقطت أظفاره ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم حكها بالفخار والحجارة ولم يزل
يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا
ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح
أموره ثم ان وهبا طول فى الحكاية الى ان قال ان أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى

وقيل بالتسبيح وهو بعيد (والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل (وكنا فاعلين) أى من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وان كان بديعا عندكم (وعلمناه صنعة لبوس) أى عمل الدرع وهو فى الاصل اللباس قال قائلهم

البس لكل حالة لبوسها
اما نعيمها واما بوسها

وقيل كانت صفائح فخلقها وسردها (لكم) متعلق بعلمنا أو بمحذوف هو صفة لبوس (لتحصنكم) أى اللبوس بتأويل الدرع وقرئ بالتذكير على ان الضمير لداود عليه السلام أو للبوس وقرئ بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم (من بأسكم) قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم (فهل أنتم شاكرون) أمر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع (ولسليمان الريح) أى وسخرنا له الريح وايراد اللام ههنا دون الاول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت فان تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال بأمره ونهيه والمقهورية

مستغيثا متضرعا اليه فقال يا رب لاى شئ خلقتنى يا ليتنى كنت حيضة القتنى أمى ويا ليتنى
كنت عرفت الذنب الذى أذنبته والعمل الذى عملت حتى صرفت وجهك الكريم عنى
ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللارملة قيما الهى أنا عبد ذليل ان
أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتى جعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وسلطت
على ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله الهى تقطعت أصابعى وتساقطت لهواتى وتناثر
شعرى وذهب المال وصرت أسأل اللقمة فيطعمنى من يمن بها على ويعيرنى بفقرى
وهلاك أولادى قال الامام أبو القاسم الانصارى رحمه الله وفى جملة هذا الكلام ليتك
لو كرهتنى لم تخلقنى ثم قال ولو كان ذلك صحيحا لاغتنمه ابليس فان قصده ان يحمله على
الشكوى وأن يخرجه عن حلية الصابرين والله تعالى لم يخبر عنه الا قوله انى مسنى الضر
وأنت ارحم الراحمين ثم قال انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب واختلف العلماء فى
السبب الذى قال لاجله انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين وفى مدة بلائه (فالرواية
الاولى) روى ابن شهاب عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
أيوب عليه السلام بقى فى البلاء ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد الا رجلين من
اخوانه كانا يغدوان ويروحان اليه فقال أحدهما للآخر ذات يوم والله لقد أذنب أيوب
ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وما ذاك فقال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه
الله تعالى ولم يكشف ما به فلما راحا الى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لايوب عليه السلام
فقال أيوب ما أدرى ما تقولان غير ان الله تعالى يعلم انى كنت أمر على الرجلين يتنازعان
فيذكران الله عز وجل فارجع الى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله الا فى حق وفى
رواية أخرى ان الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحا فقالا لو كان لايوب عند الله خير ما بلغ
الى هذه الحالة قال فما شق على أيوب شئ مما ابتلى به أشد مما سمع منهما فقال اللهم ان كنت
تعلم انى لم ابت شبعانا وأنا أعلم بمكان جائع فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ثم خر أيوب عليه
السلام ساجدا ثم قال اللهم انى لا أرفع رأسى حتى تكشف ما بى قال فكشف الله ما به
(الرواية الثانية) قال الحسن رحمه الله مكث أيوب عليه السلام بعدما ألقى على الكناسة
سبع سنين وأشهرا ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت
تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب وكان أيوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء
عليه والصبر على ما ابتلاه فصرخ ابليس صرخة جزعا من صبر أيوب فاجتمع جنوده من
أقطار الارض وقالوا له ما خبرك قال أعيانى هذا العبد الذى سألت الله أن يسلطنى عليه
وعلى ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد بذلك الا صبرا وحمدا لله تعالى ثم سلطت على
جسده فتركته ملقى فى كناسة وما يقربه الا امرأته وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله
فاستعنت بكم لتعينونى عليه فقالوا له أين مكرك أين عملك الذى أهلكت به من مضى قال
بطل ذلك كله فى أيوب فأشيروا على قالوا أدليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته

تحت ملكوته وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا (عاصفة) حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أى وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث انها كانت تبعد بكرسيه فى مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب ارادته عليه السلام وقرئ الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدا فى الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وقرئ الرياح نصبا ورفعا (تجرى بأمره) بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاولى أو حال من ضميرها (الى الارض التى باركنا فيها) وهى الشام رواحا بعد ما سارت به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر الى الشام والى حيث شاء ثم يعود الى منزله (وكنا بكل شئ عالمين) فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة (ومن الشياطين) أى وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) فى البحار ويستخرجون له من نفائسها وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والاول هو الاظهر (ويعملون عملا دون ذلك) أى غير ما ذكر من بناء المدن والقصور

قال من قبل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فانه لا يستطيع أن يعصيها الا انه لا يقربه أحد غيرها قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها في صورة رجل فقال أين بعلك يا أمة الله قالت هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده فلما سمعها طمع أن يكون ذلك كلمة جزع فوسوس اليها وذكرها ما كان لها من النعم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه قال الحسن رحمه الله فصرخت فلما صرخت علم انها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح هذه لي أيوب ويبرأ قال فجاءت تصرخ الى أيوب يا أيوب حتى متى يعذبك ربك الا يرحمك أين المال أين الماشية أين الولد أين الصديق أين اللون الحسن أين جسمك الذي قد بلي وصار مثل الرماد وتردد فيه الدواب اذبح هذه السخلة واسترح فقال أيوب عليه السلام أتاك عدو الله ونفخ فيك فاجبته ويلك أترين ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أعطانا ذلك قالت الله قال فكم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك والله ما أنصفت ربك ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفاني الله لاجلدنك مائة جلدة أمرتيني ان أذبح لغير الله وحرام علي ان أذوق بعد هذا شيأ من طعامك وشرابك الذي تأتيني به فطردها فذهبت فلما نظر أيوب في شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق وقد ذهبت امرأته خر ساجدا وقال رب اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فقال ارفع رأسك فقد استجيبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه دابة الا سقطت منه ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء الا خرج وقام صحيحا وعاد اليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان ثم كسي حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيأ مما كان له من الاهل والولد والمال الا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان حتى ذكر ان الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب قال فجعل يضمه بيده فأوحى الله اليه يا أيوب ألم أغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم ان امرأته قالت هب انه طردني أفأتركه حتى يموت جوعا وتأكله السباع لارجعن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال واذا بالامور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب عليه السلام وهابت صاحب الحلة ان تأتيه وتسأله عنه فأرسل اليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة فقال لها أيوب عليه السلام ما كان منك فبكت وقالت بعلي فقال اتعرفينه اذا رأيتيه قالت وهل يخفى على أحد يراه فتبسم وقال انا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال انك أمرتيني ان أذبح سخلة لابليس واني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد علي ما ترين (الرواية الثالثة) قال الضحاك ومقاتل بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه

الله

واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية وهؤلاء اما الفرقة الاولى أو غيرها والعموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد ما رشح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى (وكنا لهم حافظين) أي من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة وجمعا من مؤمني الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار (وأيوب) الكلام فيه كما مر في قوله تعالى وداود وسليمان أي واذكر خبر أيوب (اذ نادى ربه أني) أي بأني (مسني الضر) وقرئ بالكسر على اضمار القول أو تضمين النداء معناه والضر شائع في كل ضرر وبالضم خاص بما في النفس من مرض وهزال ونحوهما (وأنت أرحم الراحمين) وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا في السؤال وكان عليه السلام روميا من ولد عيص بن اسحق استنبأه الله تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض في بدنه ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة

الله بقي في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب ابليس لعنه الله ذهب ابليس الى امرأته على هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها أنت صاحبة أيوب قالت نعم قال فهل تعرفيني قالت لا قال انا اله الارض انا صنعت بأيوب ما صنعت وذلك انه عبد اله السماء وتركني فاغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع ما لكما من مال وولد فان ذلك عندي قال وهب وسمعت انه قال لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله تعالى لعوفي مما هو فيه من البلاء وفي رواية أخرى بل قال لها لو شئت فاسجدي لي سجدة واحدة حتى ارد عليك المال والولد واعافي زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها فقال لها أيوب أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم لئن عافاني الله لاجلدنك مائة جلدة وقال عند ذلك مسني الضر يعني من طمع ابليس في سجودي له وسجود زوجتي ودعائه اياها واياي الى الكفر (الرواية الرابعة) قال وهب كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيأ من الطعام فلم تجد شيأ فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته بذلك فحينئذ قال مسني الضر (الرواية الخامسة) قال اسمعيل السدي لم يقل أيوب مسني الضر الا لاشياء ثلاث (أحدها) قول الرجلين له لو كان عملك الذي كان يرى لله تعالى لما أصابك الذي أصابك (وثانيها) كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت الى احداها وقطعتها وباعتها فاعطوها بذلك خبزا ولحما فجاءت الى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا فقالت كل فانه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيأ فباعت الثانية وكذلك فعلت في اليوم الثالث وقالت كل فانه حلال فقال لا آكل ما لم تخبريني فاخبرته فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم وقيل انما باعت ذوائبها لان ابليس تمثل لقوم في صورة بشر وقال لئن تركتم أيوب في قريتكم فاني أخاف أن يعدي اليكم ما به من العلة فأخرجوه الى باب البلد ثم قال لهم ان امرأته تدخل في بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدي اليكم علته فحينئذ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها (وثالثها) حين قالت له امرأته ما قالت فحينئذ دعا (الرواية السادسة) قيل سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها الى موضعها وقال قد جعلني الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة فقال مسني الضر فأوحى الله تعالى اليه لولا اني جعلت تحت كل شعرة منك صبرا لما صبرت (المسئلة الثانية) اعلم ان المعتزلة قد طعنوا في هذه القصة من وجوه (أحدها) قال الجبائي ذهب بعض الجهال الى أن ما كان به من المرض كان فعلا للشيطان سلطه الله عليه لقوله تعالى حكاية عنه مسني الشيطان بنصب وعذاب وهذا جهل أما أولا فلانه لو قدر على احداث الامراض والاسقام وضدهما من العافية لتهيأ له فعل الاجسام ومن هذا حاله يكون الها وأما ثانيا فلان الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بانه قال وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي والواجب تصديق خبر الله تعالى دون الرجوع الى

سنة أو سبعا وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات روى أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام أو رحمة بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحي من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي وروى ان ابليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا اله الارض فعلت بزوجك ما فعلت لانه تركني وعبد اله السماء فلو سجد لي سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما وفي رواية لو سجدت لي سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت الى أيوب وكان ملقى في الكناسة لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافاني الله عز وجل لاضربنك مائة سوط وحرام علي أن أذوق بعد هذا شيأ من طعامك وشرابك فطردها فبقي طريحا في الكناسة لا يحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استجيبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله

ما روى عن وهب بن منبه رضى الله عنه واعلم ان هذا الاعتراض ضعيف لان المذكور فى الحكاية أن الشيطان نفخ فى منخره فوقعت الحكة فيه فلم قلتم ان القادر على النفخة التى تولد مثل هذه الحكة لابد وأن يكون قادرا على خلق الاجسام وهل هذا الامحض التحكم وأما التمسك بالنص فضعيف لانه انما يقدم على هذا الفعل متى علم انه لو أقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه وهذه الحالة لم تحصل الافى حق أيوب عليه السلام على ما دلت الحكاية عليه من انه استأذن الله تعالى فاذن له فيه ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة (وثانيها) قالوا ما روى انه عليه السلام لم يسأل الا عند أمور مخصوصة فبعيد لان الثابت فى العقل انه يحسن من المرء أن يسأل فى ذلك ربه ويفزع اليه كما يحسن منه المداواة واذا جاز أن يسأل ربه عند الغم عمايراه من اخوانه وأهله جاز أيضا أن يسأل ربه من قبل نفسه فان قيل أفلا يجوز انه تعالى تعبده بان لا يسأل الكشف الا فى آخر أمره قلنا يجوز ذلك بان يعلمه بان انزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لا محالة فعلم عليه السلام انه لا وجه للمسئلة فى هذا الامر الخلاص فاذا قرب الوقت جاز أن يسأل ذلك من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقطع (وثالثها) قالوا انتهاء ذلك المرض الى حد التنفير عنه غير جائز لان الامراض المنفرة من القبول غير جائزة على الانبياء عليهم السلام فهذا جملة ما قيل فى هذه الحكاية (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قوله تعالى أنى مسنى الضر أى ناداه بانى مسنى الضر وقرئ انى بالكسر على اضمار القول أو لتضمين النداء معناه والضر بالفتح الضرر فى كل شئ وبالضم الضرر فى النفس من مرض وهزال (المسئلة الرابعة) انه عليه السلام ألطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فان قيل أليس أن الشكوى تقدح فى كونه صابرا (الجواب) قال سفيان بن عيينة رحمه الله من شكا الى الله تعالى فانه لا يعد ذلك جزعا اذا كان فى شكواه راضيا بقضاء الله تعالى اذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله أما قوله وأنت أرحم الراحمين فالدليل على انه سبحانه أرحم الراحمين أمور (أحدها) ان كل من رحم غيره فاما أن يرحمه طلبا للثناء فى الدنيا أو الثواب فى الآخرة أو دفعا للرقة الجنسية عن الطبع وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه أما الحق سبحانه فانه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه ومن غير أن يعود اليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال فكان سبحانه ارحم الراحمين (وثانيها) ان كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك الا بمعونة رحمة الله تعالى لان من أعطى غيره طعاما أو ثوبا أو دفع عنه بلاء فلولا انه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والادوية والاغذية والالما قدر أحد على اعطاء ذلك الشئ ثم بعد وصول تلك العطية اليه فلولا انه سبحانه جعله سببا للراحة لما حصل النفع بذلك فاذا رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة

ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيأ مما كان له من الاهل والمال الا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان ثم ان امرأته قالت فى نفسها هب انه طردنى أفأتركه حتى يموت جوعا وتأكله السباع لأرجعن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الامور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأل عنه فارسل اليها أيوب ودعاها فقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة قال لها ما كان منك فبكت وقالت بعلى قال أتعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أنا ذلك فعرفته بضحكه فاعتنقته (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أى آتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب أو لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم أيوب وذكرنا اياهم بالاحسان وعدم نسياننا لهم (واسمعيل وادريس وذا الكفل) أى واذكرهم وذو الكفل الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمى به لانه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل منه أو ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجئ بمعنى النصيب والكفالة والضعف

فى البحر فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين (وثالثها) ان الله تعالى لو لم يخلق فى قلب العبد تلك الدواعى والارادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه فكان الراحم هو الحق سبحانه من حيث انه هو الذى أنشأ تلك الداعية فثبت انه أرحم الراحمين فان قيل كيف يكون أرحم الراحمين مع انه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والاسقام والامراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والايذاء وكان قادرا على أن يغنى كل واحد عن ايلام الآخر وايذائه (والجواب) ان كونه سبحانه ضارا لا ينافى كونه نافعا بل هو الضار النافع فاضراره ليس لدفع مشقة وانفاعه ليس لجلب منفعة بل لا يسأل عما يفعل أما قوله تعالى فاستجبنا له فانه يدل على انه دعا ربه لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعا منه على سبيل التعريض كما يقال ان رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وان كان الاليق بالادب وبدلالة الآية هو الاول ثم انه سبحانه بين انه كشف ما به من ضر وذلك يقتضى اعادته الى ما كان فى بدنه وأحواله وبين الله تعالى انه آتاه أهله ويدخل فيه من ينسب اليه من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان (أحدهما) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبى وكعب رضى الله عنهم ان الله تعالى أحيا له أهله يعنى أولاده باعيانهم (والثانى) روى الليث رضى الله عنه قال أرسل مجاهد الى عكرمة وسأله عن الآية فقال قيل له ان أهلك لك فى الآخرة فان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الآخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا والقول الاول أولى لان قوله وآتيناه أهله يدل بظاهره على انه تعالى أعادهم فى الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضا وأما قوله وذكرى للعابدين ففيه دلالة على انه تعالى فعل ذلك لكى يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين فى الصبر والاحتساب وانما خص العابدين بالذكر لانهم يختصون بالانتفاع بذلك (القصة السابعة) ﴿قوله تعالى﴾ (واسمعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم فى رحمتنا انهم من الصالحين) اعلم انه تعالى لما ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه اليه أتبعه بذكر هؤلاء فانهم كانوا أيضا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة أما اسمعيل عليه السلام فلانه صبر على الانقياد للذبح وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء وصبر فى بناء البيت فلا جرم أكرمه الله تعالى وأخرج من صلبه خاتم النبيين وأما ادريس عليه السلام فقد تقدمت قصته فى سورة مريم عليها السلام قال ابن عمر رضى الله عنهما بعث الى قومه داعيا لهم الى الله تعالى فأبوا فأهلكهم الله تعالى ورفع ادريس الى السماء الرابعة وأما ذو الكفل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيها بحثان (الاول) قال الزجاج الكفل فى اللغة الكساء الذى يجعل على عجز البعير والكفل أيضا النصيب واختلفوا فى أنه لم سمى بهذا الاسم على وجوه (أحدها) وهو قول المحققين انه كان له ضعف عمل الانبياء عليهم السلام فى زمانه وضعف ثوابهم (وثانيها) قال ابن عباس

(كل) أى كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) أى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم (وأدخلناهم فى رحمتنا) أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة (انهم من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لا يحوم حوله شائبة الفساد وهم الانبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام (اذ ذهب مغاضبا) أى مراغما لقومه لما برم من طول دعوته اياهم وشدة شكيمتهم وتمادى اصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المبالغة للمبالغة أو لانه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرئ مغضبا (فظن أن لن نقدر عليه) أى لن نضيق عليه أو لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده أنه قرئ مشددا أو لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن ان لن نقدر عليه أى نعامله معاملة من يظن ان لن نقدر عليه فى مراغمته قومه من غير انتظار لامرنا كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده أى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للمبالغة وقرئ بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول (فنادى) الفاء فصيحة أى فكان ما كان

من المساهمة والتقام الحوت فنادى (فى الظلمات) أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة أو فى ظلمات بطن الحوت والبحر

رضى الله عنهما فى رواية ان نبيا من أنبياء بنى اسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله اليه انى أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بنى اسرائيل فمن تكفل لك أنه يصلى بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ويقضى بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك اليه فقام ذلك النبى فى بنى اسرائيل وأخبرهم بذلك فقام شاب وقال أنا أتكفل لك بهذا فقال فى القوم من هو أكبر منك فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال أتكفل لك بهذه الثلاث فدفع اليه ملكه ووفى بما ضمن فحسده ابليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل فقال انى لى غريما قد مطلنى حقى وقد دعوته اليك فأبى فأرسل معى من يأتيك به فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد الى صلاته وصلى ليله الى الصباح ثم أتاه من الغد عند القيلولة فقال ان الرجل الذى استأذنتك له هو فى موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به فذهب وبقى هو منتظرا حتى فاتته القيلولة ثم أتاه فقال له هرب منى فمضى ذو الكفل الى صلاته فصلى ليلته حتى أصبح فأتاه ابليس وعرفه نفسه وقال له حسدتك على عصمة الله اياك فاردت أن أخرجك حتى لا تفى بما تكفلت به فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه فسمى ذا الكفل وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة (وثالثها) قال مجاهد لما كبر اليسع عليه السلام قال لو انى استخلفت رجلا على الناس فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس وقال من يتقبل منى حتى استخلفه ثلاثا يصلى بالليل ويصوم بالنهار ويقضى فلا يغضب وذكر على كرم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضى الله عنه من فعل ابليس وتفويته عليه القيلولة ثلاثة أيام وزاد أن ذا الكفل قال للبواب فى اليوم الثالث قد غلب على النعاس فلا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فانى قد شق على النعاس فجاء ابليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة فى البيت وتسورفيها فاذا هو يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وعاتب البواب فقال أما من قبلى فلم تؤت فقام الى الباب فاذا هو مغلق وابليس على صورة شيخ معه فى البيت فقال له أتنام والخصوم على الباب فعرفه فقال أنت ابليس قال نعم أعييتنى فى كل شئ ففعلت هذه الافعال لاغضبك فعصمك الله منى فسمى ذا الكفل لانه قد وفى بما تكفل به (المسئلة الثانية) قال أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا وقال الحسن والاكثرون انه من الانبياء عليهم السلام وهذا أولى لوجوه (أحدها) ان ذا الكفل يحتمل أن يكون لقبا وأن يكون اسما والاقرب أن يكون مفيدا لان الاسم اذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب اذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر ان الله تعالى انما سماه بذلك على سبيل التعظيم فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو انما سمى بذلك لان عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان فى زمنه أنبياء على ما روى ومن ليس بنبى لا يكون أفضل من الانبياء (وثانيها) انه تعالى قرن ذكره بذكر اسمعيل وادريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته (وثالثها) ان

والليل وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل (أن لا اله الا أنت) أى بأنه لا اله الا أنت على أن أن مخففة من أن وضمير الشان محذوف أو أى لا اله الا أنت على أنها مفسرة (سبحانك) أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شئ أو أن يكون ابتلائى بهذا بغير سبب من جهتى (انى كنت من الظالمين) لانفسهم بتعريضها للهلكة حيث بادرت الى المهاجرة (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له (ونجيناه من الغم) بان قذفه الحوت الى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة (وكذلك) أى مثل ذلك الانجاء الكامل (ننجى المؤمنين) من غموم دعوا الله تعالى فيها بالاخلاص لا انجاء أدنى منه وفى الامام نجى فلذلك أخفى الجماعة النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرئ بتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت الثانية كما حذفت التاء فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فان الداعى الى الحذف اجتماع المثلين

السورة

مع تعذر الادغام وامتناع الحذف فى تتجافى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير

السورة ملقبة بسورة الانبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبى (المسئلة الثالثة) قيل ان ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل الياس ثم قالوا خمسة من الانبياء سماهم الله تعالى باسمين اسرائيل ويعقوب الياس وذو الكفل عيسى والمسيح يونس وذو النون محمد وأحمد وأما قوله تعالى كل من الصابرين أى على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الاذى فى نصرة دينه وقوله وأدخلناهم فى رحمتنا قال مقاتل الرحمة النبوة وقال آخرون بل يتناول جميع أعمال البر والخير (القصة الثامنة) قصة يونس عليه السلام ﴿ قوله تعالى (وذا النون

اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى

كنت من الظالمين فاستجبناله ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) اعلم ان ههنا مسائل (المسئلة الاولى) انه لا خلاف فى ان ذا النون هو يونس عليه السلام لان النون هو السمكة وقد ذكرنا ان الاسم اذا دار بين أن يكون لقبا محضا وبين أن يكون مفيدا فحمله على المفيد أولى خصوصا اذا علمت الفائدة التى يصلح لها ذلك الوصف (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان وقوعه عليه السلام فى بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى أو بعده (أما القول الاول) فقال ابن عباس رضى الله عنه كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فأوحى الله تعالى الى شعيب النبى عليه السلام أن اذهب الى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبيا قويا أمينا فانى ألقى فى قلوب أولئك أن يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الانبياء فقال يونس بن متى فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل أمرك الله باخراجى قال لا قال فهل سمانى لك قال لا قال فههنا أنبياء غيرى فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوما هيؤا سفينة فركب معهم فلما لججت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا فقال الملاحون ههنا رجل عاص أو عبد آبق لان السفينة لا تفعل هذا من غير ريح الا وفيها رجل عاص ومن رسمنا انا اذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه فى البحر ولان يغرق احد خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام فقال أنا الرجل العاصى والعبد الآبق وألقى نفسه فى البحر فجاء حوت فابتلعه فأوحى الله تعالى الى الحوت لا تؤذ منه شعرة فانى جعلت بطنك سجنا له ولم أجعله طعاما لك ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد فانبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون حيث لم تذهب اليهم ولم تطلب راحتهم ثم أوحى الله اليه وأمره أن يذهب اليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام وقال لملكهم ان الله تعالى ارسلنى

المصدر وسكن آخره تخفيفا ورد بأنه لا يسند الى المصدر والمفعول مذكور والماضى لا يسكن آخره (وزكريا) أى واذكر خبره (اذ نادى ربه) وقال (رب لا تذرنى فردا) أى وحيدا بلا ولد يرثنى (وأنت خير الوارثين) فحسبى أنت ان لم ترزقنى وارثا (فاستجبناله) أى دعاءه (ووهبناله يحيى) وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة فى سورة مريم (وأصلحناله زوجه) أى أصلحناها للولادة بعد عقرها أو أصلحناها له بالمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات) تعليل لما فصل من فنون احسانه تعالى المتعلقة بالانبياء المذكورين أى كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير وهو السر فى ايثار كلمة فى على كلمة الى المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة (ويدعوننا رغبا ورهبا) ذوى رغب ورهب أو راغبين فى الثواب راجين للاجابة أو فى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب (وكانوا لنا خاشعين) أى مخبتين متضرعين أو دائمى الوجل والمعنى انهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة (والتى أحصنت فرجها) أى اذكر خبر التى أحصنته على الاطلاق من الحلال

الملك أن يرسل معي بني اسرائيل فقالوا ما نعرف ما تقول ولو علمنا انك صادق لفعلنا ولقد
أتيناكم في دياركم وسبيناكم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم فطاف ثلاثة أيام يدعوهم الى
ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى اليه قل لهم ان لم تؤمنوا جاءكم العذاب فأبلغهم فأبوا
فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم ذكروا
أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا في دينهم فقالوا انظروا واطلبوه في المدينة فان كان
فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شئ وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم انه
خرج العشي فلما أيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن
ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح رأوا العذاب
ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها وصاح الصبيات وثغت
الاغنام والبقر فرفع الله تعالى عنهم العذاب فبعثوا الى يونس عليه السلام فآمنوا به
وبعثوا معه بني اسرائيل فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه
الحوت ودليل هذا القول قوله تعالى في سورة الصافات فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا
عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وفي هذا القول رواية أخرى
وهي ان جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام انطلق الى أهل نينوى وأنذرهم
ان العذاب قد حضرهم فقال يونس عليه السلام التمس دابة فقال الامر أعجل من ذلك
فغضب وانطلق الى السفينة وباقي الحكاية كما مرت الى أن التقمه الحوت فانطلق الى أن
وصل الى نينوى فألقاه هناك (أما القول الثاني) وهو ان قصة الحوت كانت بعد دعائه
أهل نينوى وتبليغه رسالة الله اليهم قالوا انهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب فلما كشف
العذاب عنهم بعد ما توعدهم به خرج منهم مغاضبا ثم ذكروا في سبب الخروج والغضب
أمورا (أحدها) انه استحى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب (وثانيها) أنه كان
من عادتهم قتل الكاذب (وثالثها) انه دخلته الانفة (ورابعها) لما لم ينزل العذاب بأولئك
وأكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضبا بعد أن
ارسله الله تعالى اليهم وبعد رفع العذاب عنهم (المسئلة الثالثة) احتج القائلون بجواز
الذنب على الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان أكثر المفسرين على
أنه ذهب يونس مغاضبا لربه ويقال هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبي
وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فاذا كان كذلك فيلزم ان
مغاضبته لله تعالى من اعظم الذنوب ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل
كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضا كان محظورا لان الله تعالى قال فاصبر لحكم
ربك ولا تكن كصاحب الحوت وذلك يقتضي ان ذلك الفعل من يونس كان محظورا
(وثانيها) قوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه وذلك يقتضي كونه شاكا في قدرة الله تعالى
(وثالثها) قوله اني كنت من الظالمين والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى ألا لعنة الله على

الظالمين

والحرام والتعبير عنهما بالموصول
لتفخيم شأنهما وتنزيههما عما زعموه
في حقهما آثر ذي اثير (فنفخنا
فيها) أي أحيينا عيسى في جوفها
(من روحنا) من الروح الذي هو
من أمرنا وقيل فعلنا النفخ فيها
من جهة روحنا جبريل عليه
السلام (وجعلناها وابنها) أي
قصتهما أو حالهما (آية للعالمين)
فان من تأمل حالهما تحقق كمال
قدرته عز وجل فالمراد بالآية
ما حصل بهما من الآية التامة
مع تكاثر آيات كل واحد منهما
وقيل أريد بالآية الجنس الشامل
لما لكل واحد منهما من
الآيات المستقلة وقيل المعنى
وجعلناها آية وابنها آية فحذفت
الاولى لدلالة الثانية عليها (ان
هذه) أي ملة التوحيد والاسلام
أشير اليها بهذه تنبيها على كمال
ظهور أمرها في الصحة والسداد
(أمتكم) أي ملتكم التي يجب
ان تحافظوا على حدودها
وتراعوا حقوقها ولا تخلوا بشئ
منها والخطاب للناس قاطبة
(أمة واحدة) نصب على الحالية
من أمتكم أي غير مختلفة فيما بين
الانبياء عليهم السلام اذ لا مشاركة
لغيرها في صحة الاتباع ولا احتمال
لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع
المتبدلة حسب تبدل الامم
والاعصار وقرئ أمتكم بالنصب
على البدلية من اسم ان وأمة

الظالمين (ورابعها) أنه لو لم يصدر منه الذنب فلم عاقبه الله بأن ألقاه في بطن الحوت
(وخامسها) قوله تعالى في آية أخرى فالتقمه الحوت وهو مليم والمليم هو ذو الملامة ومن كان
كذلك فهو مذنب (سادسها) قوله ولا تكن كصاحب الحوت فان لم يكن صاحب الحوت
مذنبا لم يجز النهي عن التشبه به وان كان مذنبا فقد حصل الغرض (وسابعها) انه قال ولا
تكن كصاحب الحوت وقال فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل فلزم أن لا يكون يونس من
أولي العزم وكان موسى من أولي العزم ثم قال في حقه لو كان ابن عمران حيا ما وسعه الا
اتباعي وقال في يونس لا تفضلوني على يونس بن متى وهذا خارج عن تفسير الآية (والجواب)
عن الاول انه ليس في الآية من غاضبه لكنا نقطع على انه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه
لان ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للامر والنهي والجاهل بالله لا يكون مؤمنا فضلا
عن أن يكون نبيا وأما ما روى أنه خرج مغاضبا لامر يرجع الى الاستعداد وتناول النفل
فمما يرتفع حال الانبياء عليهم السلام عنه لان الله تعالى اذا أمرهم بشئ فلا يجوز أن يخالفوه
لقوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من
أمرهم وقوله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الى قوله ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجا مما قضيت فاذا كان في الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم واذا ثبت انه
لا يجوز صرف هذه المغاضبة الى الله تعالى وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضبا لغير الله
والغالب انه انما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعا ومعنى
مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها وقرأ أبو شرف
مغضبا أما قوله مغاضبة القوم أيضا كانت محظورة لقوله تعالى ولا تكن كصاحب الحوت
قلنا لا نسلم أنها كانت محظورة فان الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة اليهم وما أمره بان
يبقى معهم أبدا فظاهر الامر لا يقتضي التكرار فلم يكن خروجه من بينهم معصية وأما
الغضب فلا نسلم انه معصية وذلك لانه لما لم يكن منهيا عنه قبل ذلك فظن ان ذلك جائز من
حيث أنه لم يفعله الا غضبا لله تعالى وأنفة لدينه وبغضا للكفر وأهله بل كان الاولى له
أن يصابر وينتظر الاذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم ولهذا قال تعالى ولا تكن كصاحب
الحوت كان الله تعالى أراد لمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل المنازل وأعلاها (والجواب) عن
الشبهة الثانية وهي التمسك بقوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه أن نقول من ظن عجز الله
تعالى فهو كافر ولا خلاف انه لا يجوز نسبة ذلك الى آحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء عليهم
السلام فاذن لا بد فيه من التأويل وفيه وجوه (أحدها) فظن أن لن نقدر عليه أي لن
نضيق عليه وهو كقوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي يضيق ومن
قدر عليه رزقه أي ضيق وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أي ضيق ومعناه أن لن نضيق
عليه واعلم ان على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا وذلك لان يونس عليه السلام ظن انه

واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا
بالرفع على انهما خبران (وأنا
ربكم) لا اله لكم غيري (فاعبدون)
خاصة لا غير وقوله تعالى (وتقطعوا
أمرهم بينهم) التفات الى الغيبة
لينعى عليهم ما أفسدوه من التفرق
في الدين وجعل أمره قطعا موزعة
وينهى قبائح أفعالهم الى
الآخرين كأنه قيل ألا ترون الى
عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله
الذي أجمعت عليه كافة الانبياء
عليهم السلام (كل) أي كل
واحدة من الفرق المتقطعة أو كل
واحد من آحاد كل واحدة من
تلك الفرق (الينا راجعون)
بالبعث لا الى غيرنا فنجازيهم
حينئذ بحسب أعمالهم وايراد
اسم الفاعل للدلالة على الثبات
والتحقق وقوله تعالى (فمن يعمل
من الصالحات) الخ تفصيل للجزاء
أي فمن يعمل بعض الصالحات
أو بعضا من الصالحات (وهو
مؤمن) بالله ورسله (فلا كفران
لسعيه) أي لا حرمان لثواب عمله
ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذي
هو ستر النعمة وجحودها لبيان
كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره
بصورة ما يستحيل صدوره عنه
تعالى من القبائح وابراز الاثابة
في معرض الامور الواجبة عليه
تعالى ونفى نفي الجنس للمبالغة في
التنزيه وعبر عن العمل بالسعي
لاظهار الاعتداد به (وانا له) أي

مخبران شاء أقام وان شاء خرج وأنه تعالى لا يضيق عليه فى اختياره وكان فى المعلوم ان الصلاح فى تأخر خروجه وهذا من الله تعالى بيان لما يجرى مجرى العذر له من حيث خرج لا على تعمد المعصية لكن لظنه ان الامر فى خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر وكان الصلاح خلاف ذلك (وثانيها) أن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه فى خروجه من قومه من غير انتظار لامر الله تعالى (وثالثها) ان تفسر القدرة بالقضاء فالمعنى فظن أن لن نقضى عليه بشدة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبى ورواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهم واختيار الفراء والزجاج قال الزجاج نقدر بمعنى نقدّر يقال قدر الله الشئ قدرا وقدّره تقديرا فالقدر بمعنى التقدير وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى فظن أن لن نقدر عليه بضم النون والتشديد من التقدير وقرأ عبيد بن عمر بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب يقدر عليه بالتخفيف على المجهول وروى انه دخل ابن عباس رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال معاوية لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا بك فقال وماهى قال يظن نبى الله أن لن يقدر الله عليه فقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا من القدر لا من القدرة (ورابعها) فظن أن لن نقدر أى فظن أن لن نفعل لان بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازا عن الآخر (وخامسها) انه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه عن ابن زيد (وسادسها) ان على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلا قبل الرسالة ولا يبعد فى حق غير الانبياء والرسل أن يسبق ذلك الى وهمه بوسوسة الشيطان ثم انه يرده بالحجة والبرهان (والجواب) عن الثالث وهو التمسك بقوله انى كنت من الظالمين فهو أن نقول انا لو حملناه على ماقبل النبوة فلا كلام ولو حملناه على ما بعدها فهى واجبة التأويل لانا لو أجريناها على ظاهرها لوجب القول بكون النبى مستحقا للعن وهذا لا يقوله مسلم واذا وجب التأويل فنقول لا شك انه كان تاركا للافضل مع القدرة على تحصيل الافضل فكان ذلك ظلما (والجواب) عن الرابع انا لانسلم أن ذلك كان عقوبة اذ الانبياء لا يجوز أن يعاقبوا بل المراد به المحنة لكن كثير من المفسرين يذكرون فى كل مضرة تفعل لاجل ذنب انها عقوبة (والجواب) عن الخامس ان الملامة كانت بسبب ترك الافضل (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف فى الظلمات أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجونهم من النور الى الظلمات ومنهم من اعتبر أنواعا مختلفة من الظلمات فان كان النداء فى الليل فهناك ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت وان كان فى النهار أضيف اليه ظلمة أمعاء الحوت أو أن حوتا ابتلع الحوت الذى هو فى بطنه أولان الحوت اذا عظم غوصه فى قعر البحر كان ما فوقه من البحر ظلمة فى ظلمة أما قول من قال ان الحوت الذى ابتلعه غاص فى الارض السابعة فان

لعه (كاتبون) أى مثبتون فى صحائف أعمالهم لانغادر من ذلك شيأ (وحرام على قرية) اى ممتنع على أهلها غير متصوّر منهم وقرئ حرم وهى لغة كالحل والحلال (أهلكناها) قدرنا هلاكها أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى (أنهم لا يرجعون) فى حيز الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسدّ خبره والجملة لتقرير مضمون ماقبلها من قوله تعالى كل الينا راجعون ومافى أن من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لا فى المنفى أى ممتنع البتة عدم رجوعهم الينا للجزاء لان عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل حسبما نطق به قوله تعالى كل الينا راجعون لانهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم الى التوبة على أن لا صلة وقرئ انهم لا يرجعون بالكسر على انه استئناف تعليلى لما قبله فحرام خبر مبتدأ محذوف أى حرام عليها ذلك وهو ماذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالايمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى انهم لا يرجعون عما هم عليه من الكفر فكيف لا يمتنع ذلك ويجوز حمل المفتوحة

ثبت ذلك بخبر فلا كلام وان قيل بذلك لكى يقع نداؤه فى الظلمات فما قدمناه يغنى عن ذلك أما قوله ان لا اله الا أنت فالمعنى بانه لا اله الا أنت أو بمعنى أى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه الله تعالى الا باقراره على نفسه بالظلم أما قوله سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز وهذا يدل على انه ما كان مراده من قوله فظن أن لن نقدر عليه انه ظن العجز وانما قال سبحانك لان تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جورا أو شهوة للانتقام أو عجزا عن تخليصى عن هذا الحبس بل فعلته بحق الالهية وبمقتضى الحكمة أما قوله انى كنت من الظالمين فالمعنى ظلمت نفسى بفرارى من قومى بغير اذنك كأنه قال كنت من الظالمين وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عنى المحنة يدل عليه قوله فاستجبنا له وفيه وجه آخر وهو انه عليه السلام وصفه بقوله لا اله الا أنت بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله انى كنت من الظالمين بضعف البشرية والقصور فى أداء حق الربوبية وهذا القدر يكفى فى السؤال على ما قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة • سكوتى كلام عندها وخطاب

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما أراد الله حبس يونس عليه السلام أوحى الى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فاخذه وهوى به الى أسفل البحر فسمع يونس عليه السلام حسا فقال فى نفسه ماهذا فأوحى الله اليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا مثله وأما قوله فنجيناه من الغم أى من غمه بسبب كونه فى بطن الحوت وبسبب خطيئته وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس اذ دعانا كذلك ننجى المؤمنين من كربهم اذا استغاثوا بنا روى سعد بن ابى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين مادعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب الا استجاب الله دعاءه قال صاحب الكشاف قرئ ننجى ونجى ونجى والنون لا تدغم فى الجيم ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين فارسل الياء وأسنده الى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء فمتعسف بارد التعسف • (القصة التاسعة) قصة زكريا عليه السلام

قوله تعالى (وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) اعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام الى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائما مقامه بعد موته فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بانه قادر على ذلك وان انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره الى اليأس من ذلك بحكم العادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان سنه مائة وسن زوجته تسعا وتسعين أما قوله وأنت خير الوارثين ففيه وجهان (أحدهما) انه عليه السلام انما

أيضا على هذا المعنى بحذف اللام عنها أى لانهم لا يرجعون وحتى فى قوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) الخ هى التى يحكى بعدها الكلام وهى على الاول غاية لما يدل عليه ماقبلها كأنه قيل يستمرون على ماهم عليه من الهلاك حتى اذا قامت القيامة يرجعون الينا ويقولون ياويلنا الخ وعلى الثانى غاية للحرمة أى يستمر امتناع رجوعهم الى التوبة حتى اذا قامت القيامة يرجعون اليها حين لا تنفعهم التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أى لا يرجعون عنه حتى اذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدّها على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرئ فتحت بالتشديد (وهم) أى يأجوج ومأجوج وقيل الناس (من كل حدب) أى نشز من الارض وقرئ جدث وهو القبر (ينسلون) أى يسرعون واصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرئ بضم السين (واقترب الوعد الحق) عطف على فتحت والمراد به مابعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة

ذكره فى جملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن علمه بان مآل الامور الى الله تعالى
(والثانى) كأنه عليه السلام قال ان لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فانك خير وارث وأما قوله
تعالى فاستجبنا له أى فعلنا ما اراده لاجل سؤاله وفى ذلك اعظام له فلذلك تقول العلماء
بان الاستجابة ثواب لما فيه من الاعظام وأما قوله تعالى ووهبنا له يحيى فهو كالتفسير
للاستجابة وفى تفسير قوله وأصلحنا له زوجه ثلاثة أقوال (أحدها) أصلحها للولادة بان
أزال عنها المانع بالعادة وهذا أليق بالقصة (والثانى) انه أصلحها فى أخلاقها وقد كانت
على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه وجعل ذلك من نعمه عليه (والثالث) أنه
سبحانه جعلها مصلحة فى الدين فان صلاحها فى الدين من أكبر أعوانه فى كونه داعيا الى
الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والاهل جميعا وهذا
كأنه أقرب الى الظاهر لانه اذا قيل أصلح الله فلانا فالاظهر فيه ما يتصل بالدين واعلم
ان قوله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه يدل على ان الواو لا تفيد الترتيب لان اصلاح
الزوج مقدم على هبة الولد مع انه تعالى أخره فى اللفظ وبين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال
انهم كانوا يسارعون فى الخيرات وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه
وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون فى الخيرات والمسارعة
فى طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لانه يدل على حرص عظيم على الطاعة أما قوله
تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا قرئ رغبا ورهبا وهو كقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه
والمعنى انهم ضموا الى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين (أحدهما) الفزع الى الله
تعالى لمكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه (والثانى) الخشوع وهو المخافة الثابتة فى
القلب فيكون الخاشع هو الحذر الذى لا ينبسط فى الامور خوفا من الاثم * (القصة
العاشرة) قصة مريم عليها السلام ۞ قوله تعالى (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من
روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) اعلم ان التقدير واذكر التى أحصنت فرجها ثم فيه
قولان (أحدهما) انها أحصنت فرجها احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت
ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا (والثانى) من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من
جيب درعها قبل أن تعرفه والاول أولى لانه الظاهر من اللفظ وأما قوله فنفخنا فيها من
روحنا فلقائل أن يقول نفخ الروح فى الجسد عبارة عن احيائه قال تعالى فاذا سويته
ونفخت فيه من روحى أى أحييته واذا ثبت ذلك كان قوله فنفخنا فيها من روحنا ظاهر
الاشكال لانه يدل على احياء مريم عليها السلام (والجواب) من وجوه (أحدها) معناه
فنفخنا الروح فى عيسى فيها أى أحييناه فى جوفها كما يقول الزمار نفخت فى بيت فلان أى
فى المزمار فى بيته (وثانيها) فعلنا النفخ فى مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل
عليه السلام لانه نفخ فى جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها ثم بين تعالى باخصر الكلام
ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال وجعلناها وابنها آية للعالمين

الاولى (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) جواب الشرط واذا للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كما فى قوله تعالى اذا هم يقنطون فاذا دخلتها الفاء تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط والضمير للقصة أو مبهم يفسره ما بعده (يا ويلنا) على تقدير قول وقع حالا من الموصول أى يقولون يا ويلنا تعال فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط (قد كنا فى غفلة) تامة (من هذا) الذى دهمنا من البعث والرجوع اليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق (بل كنا ظالمين) اضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أو ظالمين لانفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الاجمال مبالغة فى الانذار وازاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن أصنامهم لانها التى يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية قال له ابن الزبعرى خصمتك ورب

أما مريم فآياتها كثيرة (أحدها) ظهور الحبل فيها لا من ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة
عن العادة (وثانيها) ان رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى أنى لك
هذا قالت هو من عند الله (وثالثها ورابعها) قال الحسن انها لم تلتقم ثديا يوما قط وتكلمت
هى أيضا فى صباها كما تكلم عيسى عليه السلام وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم
بيانها فبين سبحانه انه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات ويستدلون به
على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى فان قيل هلا قيل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار
آيتين قلنا لان حالهما بمجموعهما آية واحدة وهى ولادتها اياه من غير فحل وههنا آخر
القصص ۞ قوله تعالى (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم
بينهم كل الينا راجعون) قال صاحب الكشاف الامة الملة وهو اشارة الى ملة الاسلام
أى ان ملة الاسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها يشار اليها ملة واحدة غير
مختلفة وأنا الهكم اله واحد فاعبدون ونصب الحسن أمتكم على البدل من هذه ورفع
أمة خبرا وعنه رفعهما جميعا خبرين أو نوى للثانى مبتدأ أما قوله تعالى وتقطعوا أمرهم
بينهم والاصل وتقطعتم الا أن الكلام صرف الى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل
عنهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب
هؤلاء والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما تتوزع الجماعة الشئ ويقسمونه فيصير
لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى أما قوله
تعالى كل الينا راجعون فقد توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو
محاسبهم ومجازيهم وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال تفرقت بنو اسرائيل
على احدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة وان امتى ستفترق على اثنين
وسبعين فرقة فتهلك احدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة قالوا يا رسول الله من تلك
الفرقة الناجية قال الجماعة الجماعة فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى وأن هذه
أمتكم الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى فى هذه السورة من التوحيد والنبوات وأن
فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى الناجية انها الجماعة اشارة الى أن هذه أشار بها الى
أمة الاجماع والا كان قوله فى تعريف الفرقة الناجية انها الجماعة لغوا اذ لا فرقة تمسكت
بباطل أو بحق الا وهى جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم فى صحة هذا الخبر فقال ان
أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الاديان فلم يبلغ هذا القدر وان أراد الفروع فانها
تتجاوز هذا القدر الى أضعاف ذلك وقيل أيضا قد روى ضد ذلك وهو انها كلها ناجية
الا فرقة واحدة (والجواب) المراد ستفترق أمتى فى حال ما وليس فيه دلالة على افتراقها
فى سائر الاحوال لا يجوز أن يزيد وينقص ۞ قوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات وهو
مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون حتى
اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هى

الكعبة أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة رد عليه بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل ولا يعارضه ما روى أنه عليه السلام رده بقوله بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك ولا ما روى أن ابن الزبعرى قال هذا شئ لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال عليه السلام بل لكل من عبد من دون الله تعالى اذ ليس شئ منهما نصا فى عموم كلمة ما كما أن الاول نص فى خصوصها وشمول حكم النص لا يقتضى شموله بطريق العبارة بل يكفى فى ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة فى المعبودية من دون الله تعالى فلعله عليه السلام بعد ما بين مدلول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين فى حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضا تأكيدا للرد والالزام وتكريرا للتبكيت والافحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فان اخراج بعض المعبودين عن حكم منبئ عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة فى عبادته فى الجملة بل بتحقيق الحق وبيان أنهم ليسوا من المعبودية فى شئ حتى يتوهم دخولهم فى الحكم المذكور دلالة

قوله لاشترا كهم الخ كذا فى النسخ ولعله سقطت منه كلمة مع والاصل لاشترا كهم مع الاصنام اه

شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين) اعلم انه سبحانه لما ذكر أمر الامة من قبل وذكر تفرقهم وانهم أجمع راجعون الى حيث لا أمر الا له أتبع ذلك بقوله فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه بين ان من جمع بين أن يكون مؤمنا وبين أن يعمل الصالحات فيدخل فى الاول العلم والتصديق بالله ورسوله وفى الثانى فعل الواجبات وترك المحظورات فلا كفران لسعيه أى لابطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا فالكفران مثل فى حرمان الثواب والشكر مثل فى اعطائه وقوله فلا كفران المراد نفى الجنس ليكون فى نهاية المبالغة لان نفى الماهية يستلزم نفى جميع افرادها وأما قوله تعالى وانا له كاتبون فالمراد وانا لسعيه كاتبون فقيل المراد حافظون لنجازى عليه وقيل كاتبون اما فى أم الكتاب أو فى الصحف التى تعرض يوم القيامة والمراد بذلك ترغيب العباد فى التمسك بطاعة الله تعالى أما قوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون فاعلم ان قوله وحرام خبر فلا بد له من مبتدا وهو اما قوله أنهم لا يرجعون أو شئ آخر أما الاول فالتقدير ان عدم رجوعهم حرام أى ممتنع واذا كان عدم رجوعهم ممتنعا كان رجوعهم واجبا فهذا الرجوع اما أن يكون المراد منه الرجوع الى الآخرة أو الى الدنيا (أما الاول) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الحياة فى الدار الآخرة واجب ويكون الغرض منه ابطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تقدم انه لا كفران لسعى أحد فانه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل أبي مسلم بن بحر (وأما الثانى) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الدنيا واجب لكن المعلوم انهم لم يرجعوا الى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين (الاول) ان الحرام قد يجيء بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر أما الآية فقوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ وترك الشرك واجب وليس بمحرم وأما الشعر فقول الخنساء

وان حراما لا أرى الدهر باكيا • على شجوه الا بكيت على عمرو

يعنى وان واجبا وأما الاستعمال فلان تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها اذا ثبت هذا فالمعنى انه واجب على أهل كل قرية أهلكناها انهم لا يرجعون ثم ذكروا فى تفسير الرجوع أمرين (أحدهما) انهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتحولون عنه وهو قول مجاهد والحسن (وثانيهما) لا يرجعون الى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل (الوجه الثانى) أن يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل لا فى قوله لا يرجعون صلة زائدة كما انه صلة فى قوله ما منعك أن لا تسجد والمعنى وحرام على قرية أهلكناها رجوعهم الى الدنيا وهو كقوله فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون أو يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الايمان وهذا قول طائفة من المفسرين هذا كله اذا جعلنا قوله وحرام خبرا لقوله أنهم لا يرجعون أما اذا جعلناه خبرا

بموجب شركتهم للاصنام فى المعبودية من دون الله تعالى وانما معبودهم الشياطين التى أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية فهم الداخلون فى الحكم المذكور لاشترا كهم الاصنام فى المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه فى التوفيق بين الاخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضا وجعل ما سيأتى من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بيانا للتجوز أو التخصيص فما لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم والحصب ما يرمى به وتهيج به النار من حصبه اذا رماه بالحصباء وقرئ بسكون الصاد وصفا له بالمصدر للمبالغة (أنتم لها واردون) استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لاجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا (لو كان هؤلاء) أى أصنامهم (آلهة) كما يزعمون (ما وردوها) وحيث تبين ورودهم اياها تعين امتناع كونها آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بما يعبدون هى الاصنام لان المراد اثبات نقيض ما يدعونه وهم انما يدعون الهية الاصنام لا الهية الشياطين حتى

لشئ آخر فالتقدير وحرام على قرية أهلكناها ذاك وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور ثم علل فقال انهم لا يرجعون عن الكفر فكيف لا يمتنع ذلك هذا على قراءة انهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها أيضا على هذا أى انهم لا يرجعون أما قوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان حتى متعلقة بحرام فاما على تأويل أبى مسلم فالمعنى ان رجوعهم الى الآخرة واجب حتى ان وجوبه يبلغ الى حيث انه اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا والمعنى انهم يكونون أول الناس حضورا فى محفل القيامة فحتى متعلقة بحرام وهى غاية له ولكنه غاية من جنس الشئ كقولك دخل الحاج حتى المشاة وحتى ههنا هى التى يحكى بعدها الكلام والكلام المحكى هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعنى قوله اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فهنالك يتحقق شخوص أبصار الذين كفروا فان قيل الشرط هو مجموع فتح يأجوج ومأجوج واقتراب الوعد الحق والجزاء هو شخوص أبصار الذين كفروا وذلك غير جائز لان الشرط انما يحصل فى آخر أيام الدنيا والجزاء انما يحصل فى يوم القيامة والشرط والجزاء لا بد وأن يكونا متقاربين قلنا التفاوت القليل يجرى مجرى المعدوم وأما على التأويلات الباقية فالمعنى ان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة (المسئلة الثانية) قوله حتى اذا فتحت المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وادخلت علامة التأنيث فى فتحت لما حذف المضاف لان يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين وقيل حتى اذا فتحت جهة يأجوج (المسئلة الثالثة) هما قبيلتان من جنس الانس يقال الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد (المسئلة الرابعة) قيل السد يفتحه الله تعالى ابتداء وقيل بل اذا جعل الله تعالى الارض دكا زالت الصلابة عن اجزاء الارض فحينئذ ينفتح السد أما قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون فحشو فى أثناء الكلام والمعنى اذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت أبصار الذين كفروا والحدب النشز من الارض ومنه حدبة الظهر وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما من كل جدث ينسلون اعتبارا بقوله فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون وقرئ بضم السين ونسل وعسل أسرع ثم فيه قولان قال أكثر المفسرين انه كناية عن يأجوج ومأجوج وقال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين أى يخرجون من قبورهم من كل موضع فيحشرون الى موقف الحساب والاول هو الوجه والا لتفكك النظم وأن يأجوج ومأجوج اذا كثروا على ما روى فى الخبر فلا بد من ان ينتشروا فيظهر اقبالهم على الناس من كل موضع مرتفع أما قوله تعالى واقترب الوعد الحق فلا شبهة أن الوعد المذكور هو يوم القيامة أما قوله فاذا هى فاعلم ان اذا ههنا للمفاجأة

يجيح بورودها النار على عدم الهيتها وأما ما وقع فى الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام اليه عند بيان ما سيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الاول بما يوهم الرخصة فى عبادتهم فى الجملة لانهم المعبودون عندهم أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطين وأنهم داخلون فى حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين (وكل) أى من العبدة والمعبودين (فيها خالدون) لا خلاص لهم عنها (لهم فيها زفير) أى أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من أفعال العبدة أضيف الى الكل للتغليب ويجوز أن يكون الضمير للعبدة لعدم الالتباس وكذا فى قوله تعالى (وهم فيها لا يسمعون) أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون ما يسرهم من الكلام (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) شروع فى بيان حال المؤمنين اثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وايراد الترغيب مع الترهيب أى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال وهى السعادة وقيل التوفيق

فسمى الموعد وعدا تجوزا وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هى شاخصة أو فهى شاخصة كان سديدا أما الفظة هى فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون كناية عن الابصار والمعنى فاذا ابصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الابصار ثم أظهر (والثانى) أن تكون عمادا ويصلح فى موضعها هو فيكون كقوله انه أنا الله ومثله فانها لا تعمى الابصار وجاز التأنيث لان الابصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد وهو قول الفراء وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعنى ان القصة ان أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ومعنى الكلام ان القيامة اذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الاهوال فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ومن توقع ما يخافونه ويقولون يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا يعنى فى الدنيا حيث كذبناه وقلنا انه غير كائن بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعبادة الأوثان واعلم أنه لا بد قبل قوله يا ويلنا من حذف والتقدير يقولون يا ويلنا ۞ قوله تعالى

(انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون)

اعلم أن قوله انكم خطاب لمشركى مكة وعبدة الاوثان أما قوله تعالى وما تعبدون من دون الله روى انه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية فأقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة ثم روى فى ذلك روايتان (احداهما) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية هذا قول ابن عباس (الرواية الثانية) انه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فانزل الله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية يعنى عزيرا والمسيح والملائكة واعلم ان سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه (أحدها) أن قوله انكم خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركى مكة وهم كانوا يعبدون الاصنام فقط (وثانيها) انه لم يقل ومن تعبدون بل قال وما تعبدون وكلمة ما لا تتناول العقلاء أما قوله تعالى والسماء وما بناها وقوله لا أعبد ما تعبدون فهو محمول على الشئ وتقديره ههنا أن يقال انكم والشئ الذى تعبدون من دون الله لكن

الطاعة أوسبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الأدخل الاظهر فى الحمل عليها لما أن الاولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع ما بعدها تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون كما أن ما قبلها من قوله تعالى انكم وما تعبدون الخ تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وحرام الخ (أولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجليل (عنها) أى عن جهنم (مبعدون) لانهم فى الجنة وشتان بينها وبين النار وما روى أن عليا رضى الله تعالى عنه خطب يوما فقرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول (لا يسمعون حسيسها) ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة والحسيس صوت يحس به أى لا يسمعون صوتها سمعا ضعيفا كما هو المعهود عند كون المصوت

لفظ الشئ لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى (وثالثها) ان من عبد الملائكة لا يدعى انهم آلهة وقال سبحانه لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها (ورابعها) هب انه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية فى حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصى ووعد الله اياهم بكل مكرمة وهذا هو المراد من قوله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (وخامسها) الجواب الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو انهم كانوا يعبدون الشياطين فان قيل الشياطين عقلاء ولفظ ما لا يتناولهم فكيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قلنا كأنه عليه السلام قال لو ثبت لكم انه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضا غير لازم من هذا الوجه وأما ما قيل انه عليه السلام سكت عند ايراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لانه لا أقل من انه عليه السلام كان يتنبه لهذه الاجوبة التى ذكرها المفسرون لانه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن فكيف يجوز أن تظهر هذه الاجوبة لغيره ولا يظهر شئ منها له عليه السلام فان قيل جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظارا للبيان قلنا لما كان البيان حاضرا معه لم يجز عليه السكوت لكى لا يتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال ان الله تعالى يصور لهم فى النار ملكا على صورة من عبدوه وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم ان هذا ضعيف من وجهين (الاول) أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وانما عبدوا شيأ آخر لم يحصل معهم فى النار (الثانى) وهو أن الملك لا يصير حصب جهنم فى الحقيقة وان صح أن يدخلها فان خزنة النار يدخلونها مع انهم ليسوا حصب جهنم (المسئلة الثانية) الحكمة فى أنهم قرنوا بآلهتهم أمور (أحدها) انهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة لانهم ما وقعوا فى ذلك العذاب الا بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب (وثانيها) ان القوم قدروا انهم يشفعون لهم فى الآخرة فى دفع العذاب فاذا وجدوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (وثالثها) ان القاءها فى النار يجرى مجرى الاستهزاء بعبادها (ورابعها) قيل ما كان منها حجرا أو حديدا يحمى ويلزق بعبادها وما كان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها أما قوله تعالى حصب جهنم فالمراد يقذفون فى نار جهنم فشبههم بالحصباء التى يرمى بها الشئ فلما رمى بهم كرمى الحصباء جعلهم حصب جهنم تشبيها قال صاحب الكشاف الحصب الرمى وقرئ بسكون الصاد وصفا بالمصدر وقرئ حطب وحضب بالضاد المنقوطة متحركا وساكنا أما قوله تعالى أنتم لها واردون فانما جاز مجئ اللام فى لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب كقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم والذين هم لفروجهم أى أنتم فيها داخلون والمعنى انه لا بد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها أما قوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها فاعلم ان قوله انكم وما تعبدون من دون الله بالاصنام أليق لدخول لفظة ما وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد الشياطين والاصنام فيغلب

بعيدا وان كان صوته فى غاية الشدة لا أنهم لا يسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون أو حال من ضميره سوقة للمبالغة فى انقاذهم منها وقوله تعالى (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) بيان لفوزهم بالمطالب اثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب أى دائمون فى غاية التنعم وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) بيان لنجاتهم من الافزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار لانهم اذا لم يحزنهم أكبر الافزاع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة عن الحسن رضى الله عنه انه الانصراف الى النار وعن الضحاك حين يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش أملح وقيل النفخة الاخيرة لقوله تعالى ففزع من فى السموات ومن فى الارض وليس بذلك فان الآمن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله الا من شاء الله لا جميع المؤمنين الموصوفين بالاعمال الصالحة على أن الاكثرين على أن ذلك فى النفخة الاولى دون الاخيرة كما سيأتى فى سورة النمل (وتتلقاهم الملائكة) أى تستقبلهم مهنئين لهم (هذا يومكم) على ارادة القول أى قائلين هذا اليوم يومكم (الذى كنتم توعدون) فى الدنيا وتبشرون

بأن يذكروا بعبارة العقلاء ونبه الله تعالى على ان من يرمى الى النار لا يمكن أن يكون الها وههنا سؤال وهو ان قوله لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة وهذه الحجة اما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره فان ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لانه كان عالما بأنها ليست آلهة وان ذكرها لغيره فاما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته فان ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة الى هذه الحجة لان كل من صدق بنبوته لم يقل بالهية هذه الاصنام وان ذكرها لمن كذب بنبوته فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه فى ذلك فكان ذكر هذه الحجة ضائعا كيف كان وأيضا فالقائلون بالهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم والا لكانوا مجانين بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء وذلك لا يمنع من دخولها فى النار وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا المعنى لو كان هؤلاء يعنى الاصنام آلهة على الحقيقة ما وردوها أى ما دخل عابدوها النار ثم انه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة (أحدها) الخلود فقال وكل فيها خالدون يعنى العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله انكم وما تعبدون من دون الله (وثانيها) قوله لهم فيها زفير قال الحسن الزفير هو اللهيب أى يرتفعون بسبب لهب النار حتى اذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا الى أسفلها سبعين خريفا قال الخليل الزفير أن يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس قال أبو مسلم وقوله لهم عام لكل معذب فنقول لهم زفير من شدة ما ينالهم والضمير فى قوله وهم فيها لا يسمعون يرجع الى المعبودين أى لا يسمعون صراخهم وشكواهم ومعناه انهم لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حمده أى أجاب الله دعاءه (وثالثها) قوله وهم فيها لا يسمعون وفيه وجهان (أحدهما) أنه محمول على الاصنام خاصة على ما حكيناه عن أبى مسلم (والثانى) انها محمولة على الكفار ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) ان الكفار يحشرون صما كما يحشرون عميا زيادة فى عذابهم (وثانيها) انهم لا يسمعون ما ينفعهم لانهم انما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة (وثالثها) قال ابن مسعود ان الكفار يجعلون فى توابيت من نار والتوابيت فى توابيت أخر فلذلك لا يسمعون شيأ والاول ضعيف لان أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى فى سورة الاعراف ۞ قوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) اعلم أن من الناس من زعم ان ابن الزبعرى لما أورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقى ساكتا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لان هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا ان سؤاله لم يكن واردا وانه لا حاجة فى دفع سؤاله الى نزول هذه الآية واذا ثبت هذا لم يبق ههنا الا أحد أمرين

(الاول)

بما فيه من فنون المثوبات على الايمان والطاعات وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بالذين سبقت لهم الحسنى كافة المؤمنين الموصوفين بالايمان والاعمال الصالحة لا من ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل (يوم نطوى السماء) بنون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لا يحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير المحذوف فى توعدون والطى ضد النشر وقيل المحو وقرئ يطوى بالياء والتاء والبناء للمفعول (كطى السجل) وهى الصحيفة أى طيا كطى الطومار وقرئ السجل كلفظ الدلو وبالكسر والسجل على وزن العتل وهما لغتان واللام فى قوله تعالى (للكتب) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى كطى السجل كائنا للكتب أو الكائن للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض اجزائها وبه يتعلق الطى حقيقة وقرئ للكتاب وهو اما مصدر واللام للتعليل أى كما يطوى الطومار للكتابة أو اسم كالامام فاللام كما ذكر أولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب أعمال بنى آدم اذا رفعت اليه وقيل هو

(الاول) ان يقال ان عادة الله تعالى انه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الابرار فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك الآية فهى عامة فى حق كل المؤمنين (الثانى) ان هذه الآية نزلت فى تلك الواقعة لتكون كالتأكيد فى دفع سؤال ابن الزبعرى ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها لا أن الآية مختصة بهم ومن قال العبرة بخصوص السبب خصص قوله ان الذين بهؤلاء فقط أما قوله تعالى سبقت لهم منا الحسنى فقال صاحب الكشاف الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تأنيث الاحسن وهى اما السعادة واما البشرى بالثواب واما التوفيق للطاعة والحاصل ان مثبتى العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكرى العفو حملوه على وعد الثواب ثم انه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أمورا خمسة (أحدها) قوله أولئك عنها مبعدون فقال أهل العفو معناه أولئك عنها مخرجون واحتجوا عليه بوجهين (الاول) قوله وان منكم الا واردها أثبت الورود وهو الدخول فدل على أن هذا الابعاد هو الاخراج (الثانى) ان ابعاد الشئ عن الشئ لا يصح الا اذا كانا متقاربين لانهما لو كانا متباعدين استحال ابعاد أحدهما عن الآخر لان تحصيل الحاصل محال واحتج القاضى عبد الجبار على فساد هذا القول الاول بامور (أحدها) أن قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى يقتضى ان الوعد بثوابهم قد تقدم فى الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لو صح ذلك (وثانيها) أنه تعالى قال أولئك عنها مبعدون وكيف يدخل فى ذلك من وقع فيها (وثالثها) قوله تعالى لا يسمعون حسيسها وقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر يمنع من ذلك (والجواب) عن الاول لا نسلم أن المراد من قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم ولم لا يجوز أن يكون المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو وسلمنا ان المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب لكن لم قلتم ان الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فان عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب (وعن الثانى) انا بينا أن قوله أولئك عنها مبعدون لا يمكن اجراؤه على ظاهره الا فى حق من كان فى النار (وعن الثالث) أن قوله لا يسمعون حسيسها مخصوص بما بعد الخروج أما قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر فالفزع الاكبر هو عذاب الكفار وهذا بطريق المفهوم يقتضى أنهم يحزنهم الفزع الاصغر فان لم يدل عليه فلا أقل من أن لا يدل على ثبوته ولا على عدمه (الوجه الثانى) فى تفسير قوله أولئك عنها مبعدون ان المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لا يدخلون النار ولا يقربونها البتة وعلى هذا القول بطل قول من يقول ان جميع الناس يردون النار ثم يخرجون الى الجنة لان هذه الآية مانعة منه وحينئذ يجب التوفيق بينه وبين قوله وان منكم الا واردها وقد تقدم (الصفة الثانية) قوله تعالى لا يسمعون حسيسها والحسيس الصوت الذى يحس وفيه سؤالان (الاول) أى وجه فى أن

كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى نعيد ما خلقناه مبتدأ اعادة مثل بدئنا اياه فى كونها ايجادا بعد العدم أو جمعا من الاجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدا لشمول الامكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وما كافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا أو لفعل يفسره نعيده أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده أى نعيد مثل الذى بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف (وعدا) مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده أو منتصب به لانه عدة بالاعادة (علينا) أى علينا انجازه (انا كنا فاعلين) لما ذكر لا محالة (ولقد كتبنا فى الزبور) هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما أنزل على الانبياء عليهم السلام (من بعد الذكر) أى التوراة وقيل اللوح المحفوظ أى وبالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد ما كتبنا فى التوراة أو كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا فى اللوح المحفوظ (أن الارض يرثها عبادى الصالحون) أى عامة المؤمنين بعد اجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى باظهار الدين واعزاز أهله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن

لايسمعوا حسيسها من البشارة ولو سمعوه لم يتغير حالهم قلنا المراد تأكيد بعدهم عنها الان من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها (السؤال الثانى) أليس ان أهل الجنة يرون أهل النار فكيف لا يسمعون حسيس النار (الجواب) اذا حملناه على التأكيد زال هذا السؤال (الصفة الثالثة) قوله وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون والشهوة طلب النفس للذة يعنى نعيمها مؤبد قال العارفون للنفوس شهوة وللقلوب شهوة وللارواح شهوة وقال الجنيد سبقت العناية فى البداية فظهرت الولاية فى النهاية (الصفة الرابعة) قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر وفيه وجوه (أحدها) انها النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض (وثانيها) انه الموت قالوا اذا استقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت فى صورة كبش أملح فيقول لاهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادى يا أهل الجنة خلود ولا موت أبدا وكذلك لاهل النار واحتج هذا القائل بان قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر انما ذكر بعد قوله وهم فيها خالدون فلا بد وأن يكون لاحدهما تعلق بالآخر والفزع الاكبر الذى هو ينافى الخلود هو الموت (وثالثها) قال سعيد بن جبير هو اطباق النار على أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة قال القاضى عبد الجبار الاولى فى ذلك انه الفزع من النار عند مشاهدتها الانه لا فزع أكبر من ذلك فاذا بين تعالى أن ذلك لا يحزنهم فقد صح ان المؤمن آمن من أهوال يوم القيامة وهذا ضعيف لان عذاب النار على مراتب فعذاب الكفار أشد من عذاب الفساق واذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة فلا يلزم من نفى الفزع الاكبر نفى الفزع من النار (الصفة الخامسة) قوله وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون قال الضحاك هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم ويقولون لهم مبشرين هذا يومكم الذى كنتم توعدون ❁ قوله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) اعلم ان التقدير لا يحزنهم الفزع الاكبر يوم نطوى السماء أو وتتلقاهم الملائكة يوم نطوى السماء وقرئ يوم تطوى السماء على البناء للمفعول والسجل بوزن العتل والسجل بوزن الدلو وروى فيه الكسر وفى السجل قولان (أحدهما) انه اسم للطومار الذى يكتب فيه والكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه للمكتوبات أى لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة فيكون معنى طى السجل للكتاب كون السجل ساترا لتلك الكتابة ومخفيا لها لان الطى ضد النشر الذى يكشف والمعنى نطوى السماء كما يطوى الطومار الذى يكتب فيه (القول الثانى) أنه ليس اسما للطومار ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما السجل اسم ملك يطوى كتب بنى آدم اذا رفعت اليه وهو مروى عن على عليه

المراد أرض الجنة كما ينبئ عنه قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقيل الارض المقدسة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ان فى هذا) أى فيما ذكر فى السورة الكريمة من الاخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة (لبلاغا) أى لكفاية أو سبب بلوغ الى البغية (لقوم عابدين) أى لقوم همهم العبادة دون العادة (وما أرسلناك) بما ذكر وبامثاله من الشرائع والاحكام وغير ذلك من الامور التى هى مناط لسعادة الدارين (الا رحمة للعالمين) هو فى حيز النصب على انه استثناء من أعم العلل أو من أعم الاحوال أى ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة أو ما أرسلناك فى حال من الاحوال الا حال كونك رحمة لهم فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشأتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط فى نفسه وحرمه حقه لا انه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة فى حق الكفار أمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم

السلام وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما انه اسم كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بعيد لان كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين وليس فيهم من سمى بهذا وقال الزجاج هو الرجل بلغة الحبشة وعلى هذه الوجوه فهو على نحو ما يقال كطى زيد الكتاب واللام فى للكتاب زائدة كما فى قوله ردف لكم واذا قلنا المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطى مضاف الى المفعول والفاعل محذوف والتقدير كطى الطاوى السجل وهذا الاخير هو قول الاكثرين أما قوله تعالى كما بدأنا أول خلق نعيده ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الفراء انقطع الكلام عند قوله الكتاب ثم ابتدأ فقال كما بدأنا ومنهم من قال انه تعالى لما قال وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون عقبه بقوله يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب فوصف اليوم بذلك ثم وصفه بوصف آخر فقال كما بدأنا أول خلق نعيده (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف رحمه الله أول خلق مفعول نعيد الذى يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيها للاعادة بالابتداء فان قلت ما بال خلق منكرا قلت هو كقولك أول رجل جاءنى زيد تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى كيفية الاعادة فمنهم من قال ان الله تعالى يفرق أجزاء الاجسام ولا يعدمها ثم انه يعيد تركيبها فذلك هو الاعادة ومنهم من قال انه تعالى يعدمها بالكلية ثم انه يوجدها بعينها مرة أخرى وهذه الآية دالة على هذا الوجه لانه سبحانه شبه الاعادة بالابتداء ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الاجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال فى الاعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الاول بقوله تعالى والسموات مطويات بيمينه فدل هذا على ان السموات حال كونها مطوية تكون موجودة وبقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض وهذا يدل على ان اجزاء الارض باقية لكنها جعلت غير الارض أما قوله تعالى وعدا علينا ففيه قولان (أحدهما) ان وعدا مصدر مؤكد لان قوله نعيده عدة للاعادة (الثانى) أن يكون المراد حقا علينا بسبب الاخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله انا كنا فاعلين أى سنفعل ذلك لا محالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد أما قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة بضم الزاى والباقون بفتحها يعنى المزبور كالحلوب والركوب يقال زبرت الكتاب أى كتبته والزبور بضم الزاى جمع زبر كقشر وقشور ومعنى القراءتين واحد لان الزبر هو الكتاب (المسئلة الثانية) فى الزبور والذكر وجوه (أحدها) وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبى ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذى هو أم الكتاب فى السماء لان فيها كتابة كل ما سيكون

(قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد) اى ما يوحى الى الا انه لا اله لكم الا اله واحد لانه المقصود الاصلى من البعثة وأما ما عداه من الاحكام المتفرعة عليه فانما الاولى لقصر الحكم على الشئ كقولك انما يقوم زيد أى ما يقوم الا زيد والثانية لقصر الشئ على الحكم كقولك انما زيد قائم أى ليس له الا صفة القيام (فهل أنتم مسلمون) أى مخلصون العبادة لله تعالى مخصصون لها به تعالى والفاء للدلالة على أن ما قبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية تصح أن يكون طريقها السمع

اعتبارا للملائكة وكتب الانبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تنسخ (وثانيها) الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة وهو قول قتادة والشعبى (وثالثها) الزبور زبور داود عليه السلام والذكر هو الذى يروى عنه عليه السلام قال كان الله تعالى ولم يكن معه شئ ثم خلق الذكر وعندى فيه وجه رابع وهو أن المراد بالذكر العلم اى كتبنا ذلك فى الزبور بعد أن كنا عالمين علما لا يجوز السهو والنسيان علينا فان من كتب شيأ والتزمه ولكنه يجوز السهو عليه فانه لا يعتمد عليه اما من لم يجز عليه السهو والخلف فاذا التزم شيأ كان ذلك الشئ واجب الوقوع أما قوله تعالى أن الارض يرثها عبادى الصالحون ففيه وجوه (أحدها) الارض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى فالمعنى ان الله تعالى كتب فى كتب الانبياء عليهم السلام وفى اللوح المحفوظ انه سيورث الجنة من كان صالحا من عباده وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى وأبى العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور (اما أولا) فقوله تعالى وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (وأما ثانيا) فلانها الارض التى يختص بها الصالحون لانها لهم خلقت وغيرهم اذا حصل معهم فى الجنة فعلى وجه التبع فاما أرض الدنيا فلانها للصالح وغير الصالح (وأما ثالثا) فلان هذه الارض مذكورة عقيب الاعادة وبعد الاعادة الارض التى هذا وصفها لا تكون الا الجنة (وأما رابعا) فقد روى فى الخبر انها أرض الجنة فانها بيضاء نقية (وثانيها) أن المراد من الارض أرض الدنيا فانه سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين فى الدنيا وهو قول الكلبى وابن عباس فى بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه وعد الله الذين آمنوا الى قوله ليستخلفنهم فى الارض وقوله تعالى قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده (وثالثها) هى الارض المقدسة يرثها الصالحون ودليله قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها ثم بالآخرة يورثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام أما قوله تعالى ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين فقوله هذا اشارة الى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وما تبلغ به البغية وقيل فى العابدين انهم العالمون وقيل بل العاملون والاولى انهم الجامعون بين الامرين لان العلم كالشجر والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن أما قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه عليه السلام كان رحمة فى الدين وفى الدنيا أما فى الدين فلانه عليه السلام بعث والناس فى جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم فبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل الى الفوز والثواب فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الثواب وشرع لهم الاحكام وميز الحلال من

الحرام.

(فان تولوا) عن الاسلام ولم يلتفتوا الى ما يوجبه من الوحى (فقل) لهم (آذنتكم) أى اعلمتكم ما أمرت به او حربى لكم (على سواء) كائنين على سواء فى الاعلام به لم أطوه عن أحد منكم أو مستوين به أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به أو فى المعاداة أو ايذانا على سواء وقيل أعلمتكم أنى على سواء أى عدل واستقامة رأى بالبرهان النير (وان أدرى) أى ما أدرى (أقريب أم بعيد ما توعدون) من غلبة المسلمين وظهور الدين او الحشر مع كونه آتيا لا محالة

الحرام ثم انما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن الى التقليد ولا الى العناد والاستكبار وكان التوفيق قرينا له قال الله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء الى قوله وهو عليهم عمى واما فى الدنيا فلانهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه فان قيل كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الاموال قلنا (الجواب) من وجوه (أحدها) انما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم ثم هو منتقم من العصاة وقال وأنزلنا من السماء ماء مباركا ثم قد يكون سببا للفساد (وثانيها) ان كل نبى قبل نبينا كان اذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق وانه تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا الى الموت أو الى القيامة قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم لا يقال أليس أنه تعالى قال قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وقال تعالى ليعذب الله المنافقين والمنافقات لانا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه (وثالثها) أنه عليه السلام كان فى نهاية حسن الخلق قال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال أبو هريرة رضى الله عنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع على المشركين قال انما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا وقال فى رواية حذيفة انما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة (ورابعها) قال عبد الرحمن بن زيد الا رحمة للعالمين يعنى المؤمنين خاصة قال الامام أبو القاسم الانصارى والقولان يرجعان الى معنى واحد لما بينا أنه كان رحمة للكل لو تدبروا فى آيات الله وآيات رسوله فأما من أعرض واستكبر فانما وقع فى المحنة من قبل نفسه كما قال وهو عليهم عمى (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة لو كان الله تعالى أراد من الكافرين الكفر ولم يرد منهم القبول من الرسول بل ما أراد منهم الا الرد عليه وخلق ذلك فيهم ولم يخلقهم الا كذلك كما يقوله اهل السنة لوجب أن يكون ارساله نقمة وعذابا عليهم لا رحمة وذلك على خلاف هذا النص لا يقال ان رسالته عليه السلام رحمة للكفار من حيث لم يعجل عذابهم فى الدنيا كما عجل عذاب سائر الامم لانا نقول ان كونه رحمة للجميع على حد واحد وما ذكرتموه للكفار فهو حاصل للمؤمنين أيضا فاذا يجب أن يكون رحمة للكافرين من الوجه الذى صار رحمة للمؤمنين وأيضا فان الذى ذكروه من نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كحصولها بعده بل كانت نعمهم فى الدنيا قبل بعثته أعظم لان بعد بعثته نزل بهم الغم والخوف منه ثم أمر بالجهاد الذى فنى أكثرهم فيه فلا يجوز أن يكون هذا هو المراد (والجواب) أن نقول لما علم الله سبحانه وتعالى ان أبا لهب لا يؤمن البتة وأخبر عنه انه لا يؤمن كان أمره اياه بالايمان أمرا يقلب علمه جهلا وخبره الصدق كذبا وذلك محال فكان قد أمره بالمحال وان كانت البعثة مع هذا القول رحمة فلم لا يجوز أن يقال البعثة رحمة مع انه خلق الكفر فى الكافر ولان قدرة الكافر ان لم تصلح الا للكفر فقط فالسؤال عليهم لازم وان كانت صالحة للضدين توقف الترجيح على مرجح من قبل الله تعالى

(انه يعلم الجهر من القول) أى ما تجاهرون به من الطعن فى الاسلام وتكذيب الآيات التى من جملتها ما نطق بمجئ الموعود (ويعلم ما تكتمون) من الاحن والاحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه نقيرا وقطميرا (وان أدرى لعله فتنة لكم) أى ما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم أو امتحان لكم لينظر كيف تعملون (ومتاع الى حين) أى وتمتيع لكم الى أجل مقدر تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم

قطع التسلسل وحينئذ يعود الالزام ثم نقول لم لا يجوز أن يكون رحمة للكافر بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه قوله أولا لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب أن يكون رحمة للكفار من الوجه الذي كان رحمة للمؤمنين قلنا ليس في الآية أنه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد أو باعتبارين مختلفين فدعواك بكون الوجه واحدا تحكم قوله نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار من قبل قلنا نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب فلما اندفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة في حق الكفار (المسئلة الثالثة) تمسكوا بهذه الآية في أنه أفضل من الملائكة قالوا لان الملائكة من العالمين فوجب بحكم هذه الآية أن يكون عليه السلام رحمة للملائكة فوجب أن يكون أفضل منهم (والجواب) انه معارض بقوله تعالى في حق الملائكة ويستغفرون للذين آمنوا وذلك رحمة منهم في حق المؤمنين والرسول عليه السلام داخل في المؤمنين وكذا قوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبي ﷺ قوله تعالى (قل انما

يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وان ادرى

أقريب أم بعيد ماتوعدون انه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون وان أدرى لعله فتنة

لكم ومتاع الى حين قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) اعلم أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج في ان لا اله سواه من الوجوه التي تقدم ذكرها وبين أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بما يكون اعذارا وانذارا في مجاهدتهم والاقدام عليهم فقال قل انما يوحى الى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف انما يقصر الحكم على شئ أو يقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم أو انما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على اثبات وحدانية الله تعالى وفي قوله فهل أنتم مسلمون أن الوحى الوارد على هذا السنن يوجب أن تخلصوا التوحيد له وأن تتخلصوا من نسبة الانداد وفيه أنه يجوز اثبات التوحيد بالسمع فان قيل لو دلت انما على الحصر لزم أن يقال انه لم يوح الى الرسول شئ الا التوحيد ومعلوم ان ذلك فاسد قلنا المقصود منه المبالغة أما قوله فان تولوا فقل آذنتكم على سواء فقال صاحب الكشاف آذن منقول من اذن اذا علم ولكنه كثر استعماله في الجرى مجرى الانذار ومنه قوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله اذا عرفت هذا فنقول المفسرون ذكروا فيه وجوها (أحدها) قال أبو مسلم الايذان على السواء الدعاء الى الحرب مجاهرة لقوله تعالى فانبذ اليهم على سواء وفائدة ذلك أنه كان يجوز أن يقدر على من أشرك من قريش أن حالهم مخالف لسائر الكفار في المجاهدة فعرفهم بذلك انهم كالكفار في ذلك (وثانيها) ان المراد فقد أعلمتكم ماهو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على سواء فلم أفرق في الابلاغ والبيان بينكم لانى بعثت معلما والغرض منه ازاحة

(قال رب احكم بالحق) حكاية لدعائه عليه الصلاة والسلام وقرئ قل رب على صيغة الامر أى اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر أى تعذيب وقرئ رب احكم بضم الباء وربى أحكم على صيغة التفضيل وربى أحكم من الاحكام (وربنا الرحمن) مبتدأ وخبر أى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى (المستعان) أى المطلوب منه المعونة خبر آخر للمبتدا واضافة الرب فيما سبق الى ضميره عليه السلام خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه السلام كما أن اضافته ههنا الى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضا لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم

العذر

العذر لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا (وثالثها) على سواء على اظهار واعلان (ورابعها) على مهل والمراد انى لا أعاجل بالحرب الذى آذنتكم به بل أمهل وأؤخر رجاء الاسلام منكم أما قوله وان أدرى أقريب أم بعيد ماتوعدون ففيه وجهان (أحدهما) أقريب أم بعيد ماتوعدون من يوم القيامة ومن عذاب الدنيا ثم قيل نسخه قوله واقترب الوعد الحق يعنى منهم فان مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه (وثانيهما) المراد ان الذى آذنتهم فيه من الحرب لايدرى هو قريب أم بعيد لئلا يقدر انه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذى يوحى اليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت فلذلك امره أن يقول انه لا يعلم قربه أم بعده تبين بذلك ان السورة مكية وكان الامر بالجهاد بعد الهجرة (وثالثها) أن ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لامحالة ولابد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون وذلك لان الله تعالى لم يطلعنى عليه أما قوله تعالى انه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون فالمقصود منه الامر بالاخلاص وترك النفاق لانه تعالى اذا كان عالما بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ في الاخلاص أما قوله تعالى وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ففيه وجوه (أحدها) لعل تأخير العذاب عنكم (وثانيها) لعل ابهام الوقت الذى ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أى بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعا عن كفركم أم لا (وثالثها) قال الحسن لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار (ورابعها) لعل تأخير الجهاد فتنة لكم اذا أنتم دمتم على كفركم لان ما يؤدى الى الضرر العظيم يكون فتنة وانما قال لا أدرى لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة (وخامسها) أن يكون المراد وان أدرى لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم لانه زيادة في عذابكم ان لم تؤمنوا لان المعرض عن الايمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد واذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه أما قوله تعالى قال رب احكم بالحق ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قل رب احكم بالحق على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم وربى أحكم على أفعل التفضيل وربى أحكم من الاحكام (المسئلة الثانية) رب احكم بالحق فيه وجوه (أحدها) أى ربى اقض بينى وبين قومى بالحق أى بالعذاب كأنه قال اقض بينى وبين من كذبنى بالعذاب وقال قتادة أمره الله تعالى ان يقتدى بالانبياء في هذه الدعوة وكانوا يقولون ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر (وثانيها) افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرنى عليهم أما قوله تعالى وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون ففيه وجهان (أحدهما) أى من الشرك والكفر وماتعارضون به دعوتى من الاباطيل والتكذيب كأنه سبحانه قال قل داعيا الى رب احكم بالحق وقل متوعدا للكفار وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت أى قل لاصحابك المؤمنين وربنا الرحمن المستعان على مايصف

(على ماتصفون) من الحال فانهم كانوا يقولون ان الشوكة تكون لهم وان راية الاسلام تخفق ثم تركد وان المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم الى غير ذلك مما لاخير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله عليه السلام فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فاصابهم يوم بدر ما أصابهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقرئ يصفون بالياء التحتانية وعن النبى عليه السلام من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه في القرآن

الكفار من الاباطيل أى من العون على دفع اباطيلهم (وناتها) كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم قال القاضى انما ختم الله هذه السورة بقوله قل رب احكم بالحق لانه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفا ان المقصود مصلحتهم فاذا أبوا الا التمادى فى كفرهم فعليك بالانقطاع الى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق اما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره واما بتأخير ذلك فان أمرهم وان تأخر فما هو كائن قريب وما روى انه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه كالدلالة على انه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للامر بمجاهدتهم وبالله التوفيق وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وسلم تسليما آمين

● (سورة الحج سبعون وست آيات وهى مكية الا ثلاث آيات هذان خصمان الى قوله صراط الحميد) ●

● (بسم الله الرحمن الرحيم) ●

(يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) اعلم انه تعالى أمر الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتقى كل محرم ويتقى ترك كل واجب وانما دخل فيه الامران لان المتقى انما يتقى ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لاجله المحرم ويفعل لاجله الواجب ولا يكاد يدخل فيه النوافل لان المكلف لا يخاف بتركها العذاب وانما يرجو بفعلها الثواب فاذا قال اتقوا ربكم فالمراد اتقوا عذاب ربكم أما قوله ان زلزلة الساعة شئ عظيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الزلزلة شدة حركة الشئ قال صاحب الكشاف ولا تخلو الساعة من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هى التى تزلزل الاشياء على المجاز الحكمى فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع فى الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله اذا زلزلت الارض زلزالها (المسئلة الثانية) اختلفوا فى وقتها فعن علقمة والشعبى ان هذه الزلزلة تكون فى الدنيا وهى التى يكون معها طلوع الشمس من مغربها وقيل هى التى تكون معها الساعة وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الصور انه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة القيام لرب العالمين وان عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة وتكون الارض كالسفينة تضربها الامواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح وقال مقاتل وابن زيد هذا فى أول يوم من أيام الآخرة واعلم انه ليس فى اللفظ دلالة على شئ من هذه الاقسام لان هذه

● (سورة الحج مكية الا ست ايات من هذان خصمان الى صراط الحميد وهى ثمان وسبعون آية) ●

● (بسم الله الرحمن الرحيم) ●

(يا أيها الناس اتقوا ربكم) خطاب يعم حكمه المكلفين عند النزول ومن سينتظم فى سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك الى يوم القيامة وان كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق الاول على الوجه الذى مر تقريره فى مطلع سورة النساء ولفظ الناس ينتظم الذكور والاناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكر فواردة على نهج التغليب لعدم تناولها للاناث حقيقة الا عند الحنابلة والمأمور به مطلق التقوى الذى هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ويندرج فيه الايمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجا أوليا والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأييد الامر وتأكيد ايجاب الامتثال به ترهيبا وترغيبا اى احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم وقوله تعالى (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) تعليل لموجب الامر بذكر بعض عقوباته الهائلة فان ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هى من مباديه ومقدماته من الاحوال والاهوال التى لا ملجأ منها سوى التدرع

الاضافة تصح وان كانت الزلزلة قبلها وتكون من اماراتها واشراطها وتصح اذا كانت فيها ومعها كقولنا آيات الساعة وأمارات الساعة (المسئلة الثالثة) روى ان هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم فلم ير باكيا أكثر من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور والناس بين باك وجالس حزين متفكر فقال عليه السلام أتدرون أى ذلك اليوم هو قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ولدك فيقول آدم وما بعث النار يعنى من كم كم فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى فكبر ذلك على المؤمنين وبكوا وقالوا من ينجو يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام أبشروا وسددوا وقاربوا فان معكم خليقتين ما كانتا فى قوم الا كثرتاه يأجوج ومأجوج ثم قال انى لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال انى لارجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ثم قال انى لارجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة ان أهل الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون منها أمتى وما المسلمون فى الكفار الا كالشامة فى جنب البعير أو كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود ثم قال ويدخل من أمتى سبعون ألفا الى الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم فقال أنت منهم فقام رجل من الانصار فقال مثل قوله فقال سبقك بها عكاشة فخاض الناس فى السبعين ألفا فقال بعضهم هم الذين ولدوا على الاسلام وقال بعضهم هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا فقال هم الذين لا يكتوون ولا يكوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون (المسئلة الرابعة) انه سبحانه أمر الناس بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة والمعنى التقوى تقتضى دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب فيلزم أن تكون التقوى واجبة (المسئلة الخامسة) احتجت المعتزلة بقوله تعالى ان زلزلة الساعة شئ عظيم وصفها بانها شئ مع أنها معدومة واحتجوا أيضا بقوله ان الله على كل شئ قدير فالشئ الذى قدر الله عليه اما ان يكون موجودا أو معدوما والاول محال والا لزم كون القادر قادرا على ايجاد الموجود واذا بطل هذا ثبت ان الشئ الذى قدر الله عليه معدوم فالمعدوم شئ واحتجوا أيضا بقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا أطلق اسم الشئ فى الحال على ما يصير مفعولا غدا والذى يصير مفعولا غدا يكون معدوما فى الحال فالمعدوم شئ والله أعلم (والجواب) عن الاول ان الزلزلة عبارة عن الاجسام المتحركة وهى جواهر قامت بها أعراض وتحقق ذلك فى المعدوم محال فالزلزلة يستحيل أن تكون شيأ حال عدمها فلا بد

بلباس التقوى مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة والزلزلة التحريك الشديد والازعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الاشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها واضافتها الى الساعة اما اضافة المصدر الى فاعله على المجاز الحكمى كأنها هى التى تزلزل الاشياء أو اضافته الى الظرف اما باجرائه مجرى المفعول به اتساعا أو بتقدير فى كما فى قوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها عن الحسن انها تكون يوم القيامة وعن ابن عباس رضى الله عنهما زلزلة الساعة قيامها وعن علقمة والشعبى أنها قبل طلوع الشمس من مغربها فاضافتها الى الساعة حينئذ لكونها من اشراطها وفى التعبير عنها بالشئ ايذان بان العقول قاصرة عن ادراك كنهها والعبارة ضيقة لا تحيط بها الا على وجه الابهام وقوله تعالى (يوم ترونها) منتصب بما بعده قدم عليه اهتماما به والضمير للزلزلة أى وقت رؤيتكم اياها ومشاهدتكم لهول مطلعها (تذهل كل مرضعة) أى مباشرة للارضاع (عما أرضعت) أى تغفل وتذهل مع دهشة عما هى بصدد ارضاعه من طفلها الذى ألقمته ثديها والتعبير عنه بما دون من لتأكيد

من التاويل بالاتفاق ويكون المعنى انها اذا وجدت صارت شيأ وهذا هو الجواب عن البواقى (المسئلة السادسة) وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولا عظيم أعظم مما عظمه الله تعالى ما قوله تعالى يوم ترونها فهو منصوب بتذهل أى تذهل فى ذلك اليوم والضمير فى ترونها يحتمل ان يرجع الى الزلزلة وأن يرجع الى الساعة لتقدم ذكرهما والاقرب رجوعه الى الزلزلة لان مشاهدتها هى التى توجب الخوف الشديد واعلم انه سبحانه وتعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أمورا ثلاثة (أحدها) قوله تذهل كل مرضعة عما أرضعت أى تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الامر مع دهشة فان قيل لم قال مرضعة دون مرضع قلت المرضعة هى التى فى حال الارضاع وهى ملقمة ثديها الصبى والمرضع شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به فقيل مرضعة ليدل على ان ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة وقوله عما أرضعت أى عن ارضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل فتكون ما بمعنى من على هذا التاويل (وثانيها) قوله وتضع كل ذات حمل حملها والمعنى انها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل على ان هذه الزلزلة انما تكون قبل البعث قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وألقت الحوامل ما فى بطونها لغير تمام وقال القفال يحتمل أن يقال من ماتت حاملا أو مرضعة بعثت حاملا أو مرضعة تضع حملها من الفزع ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله يوم يجعل الولدان شيبا (وثالثها) قوله وترى الناس سكارى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ وترى بالضم تقول أريتك قائما ورأيتك قائما والناس بالنصب والرفع اما النصب فظاهر وأما الرفع فلانه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله وأنثه على تأويل الجماعة وقرئ سكرى وسكارى وهو نظير جوعى وعطشى فى جوعان وعطشان سكارى وسكارى نحو كسالى وعجالى وعن الاعمش سكرى وسكرى بالضم وهو غريب (المسئلة الثانية) المعنى وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذى أذهب عقولهم وطير تمييزهم وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب فان قلت لم قيل أولا ترون ثم قيل ترى على الافراد قلنا لان الرؤية أولا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها وهى معلقة آخرا بكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم (المسئلة الثالثة) ان قيل اتقولون ان شدة ذلك تحصل لكل أحد أو لاهل النار خاصة قلنا قال قوم ان الفزع الاكبر وغيره يختص بأهل النار وان أهل الجنة يحشرون وهم آمنون وقيل بل يحصل للكل لانه سبحانه لا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله وليس لاحد عليه حق قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير) وفيه مسائل (المسئلة

الاولى)

الذهول وكونه بحيث لا يخطر ببالها انه ماذا الا أنها تعرف شيئته لكن لا تدرى من هو بخصوصه وقيل ما مصدرية أى تذهل عن ارضاعها والاول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج وقرئ تذهل من الاذهال مبنيا للمفعول أو مبنيا للفاعل مع نصب كل أى تذهلها الزلزلة (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تلقى جنينها لغير تمام كما أن المرضعة تذهل عن ولدها لغير فطام وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبى وأما على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فقد قيل انه تمثيل لتهويل الامر وفيه أن الامر حينئذ أشد من ذلك وأعظم وأهول مما وصف واطم وقيل ان ذلك يكون عند النفخة الثانية فانهم يقومون على ما صعقوا فى النفخة الاولى فتقوم المرضعة على ارضاعها والحامل على حملها ولا ريب فى أن قيام الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلها حتى يتصور ما ذكر (وترى الناس) بفتح التاء والراء على خطاب كل أحد من المخاطبين برؤية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والافراد لما أن المرئى فى الاول هى الزلزلة التى يشاهدها الجميع وفى الثانى حال من عدا المخاطب منهم فلا بد من افرادها لمخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فان المراد بيان تأثير الزلزلة فى المرئى

الاولى) فى كيفية النظم وجهان (الاول) اخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس الى تقوى الله ثم بين فى هذه الآية قوما من الناس الذين ذكروا فى الاول وأخبر عن مجادلتهم (الثانى) انه تعالى بين انه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها فان من الناس من يجادل فى الله بغير علم ثم فى قوله ومن الناس وجهان (الاول) انهم الذين ينكرون البعث ويدل عليه قوله أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة الى آخر الآية وأيضا فان ما قبل هذه الآية فى وصف البعث وما بعدها فى الدلالة على البعث فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة فى البعث (والثانى) انها نزلت فى النضر بن الحرث كان يكذب بالقرآن ويزعم انه أساطير الاولين ويقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما (المسئلة الثانية) هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة لان تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على ان المجادلة مع العلم جائزة فالمجادلة الباطلة هى المراد من قوله ما ضربوه لك الا جدلا والمجادلة الحقة هى المراد من قوله وجادلهم بالتى هى أحسن (المسئلة الثالثة) فى قوله ويتبع كل شيطان مريد قولان (أحدهما) يجوز أن يريد شياطين الانس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم الى الكفر (والثانى) أن يكون المراد بذلك ابليس وجنوده قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس يقال صخرة مرداء أى ملساء ويجوز أن يستعمل فى غير الشيطان اذا جاوز حد مثله أما قوله كتب عليه ففيه وجهان (أحدهما) ان الكتبة عليه مثل أى كأنما كتب اضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك فى حاله (والثانى) كتب عليه فى أم الكتاب واعلم ان هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان يحتمل أن يكون راجعا الى كل واحد منهما فان رجع الى من يجادل فانه يرجع الى لفظه الذى هو موحد فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه الى النار وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله انه يصير أهلا لهذا الوعيد فان رجع الى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو فى ضلال وعلى هذا الوجه أيضا يكون زجرا عن اتباعه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى عبد الجبار اذا قيل المراد بقوله كتب عليه قضى عليه فلا جائز أن يرد الا الى من يتبع الشيطان لانه تعالى لا يجوز أن يقضى على الشيطان أنه يضل ويجوز أن يقضى على من يقبله بقوله قد أضله عن الجنة وهداه الى النار قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان لا وقوعه محالا (المسئلة الثانية) دلت الآية على ان المجادل فى الله ان كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب فيدل على أن المعارف ليست ضرورية (المسئلة الثالثة) قال القاضى فيه دلالة على ان المجادلة فى الله ليست من خلق الله تعالى

لا فى الرائى باختلاف مشاعره لان مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها كأنه قيل ويصير الناس سكارى الخ وانما أوثر عليه ما فى التنزيل للايذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم وبلوغها من الجلاء الى حد لا يكاد يخفى على أحد أى يراهم كل أحد (سكارى) أى كأنهم سكارى (وما هم بسكارى) حقيقة (ولكن عذاب الله شديد) فيرهقهم هوله ويطير عقولهم ويسلب تمييزهم فهو الذى جعلهم كما وصفوا وقرئ ترى بضم التاء وفتح الراء مسندا الى المخاطب من أريتك قائما أو رؤيتك قائما والناس منصوب أى تظنهم سكارى وقرئ برفع الناس على اسناد الفعل المجهول اليه والتأنيث على تأويل الجماعة وقرئ ترى بضم التاء وكسر الراء أى ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى وقرئ سكرى وسكرى كعطشى وجوعى اجراء للسكر مجرى العلل (ومن الناس) كلام مبتدأ جئ به اثر بيان عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانا لحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتداء اما بحمله على المعنى أو بتقدير ما يتعلق به كما مر مرارا أى وبعض الناس أو وبعض كائن من الناس (من يجادل فى الله) أى فى شأنه تعالى ويقول فيه ما لا خير فيه من الاباطيل وقوله تعالى (بغير علم) حال من ضمير يجادل موضحة

وبارادته والالما كانت مضافة الى اتباع الشيطان وكان لا يصح القول بان الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد أضله (والجواب) المعارضة بمسئلة العلم وبمسئلة الداعى (المسئلة الرابعة) قرئ أنه بالفتح والكسر فمن فتح فلان الاول فاعل كتب والثانى عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام كما يقول كتبت ان الله هو الغنى الحميد أو على تقدير قيل أو على أن كتب فيه معنى القول ۞ قوله تعالى

(يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بان الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)

القراءة قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الحلب والطرد فى الحلب وفى الطرد ومخلقة وغير مخلقة بجر التاء والراء وقرأ ابن أبى عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون فى قوله لنبين وفى قوله ونقر وفى قوله ثم نخرجكم طفلا ابن أبى عبلة بالياء فى هذه الثلاثة أما القراءة بالنون ففيها وجوه (أحدها) القراءة المشهورة (وثانيها) روى السيرافى عن داود عن يعقوب ونقر بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء اذا صبه وفى رواية أخرى عنه كذلك الا أنه بنصب الراء (وثالثها) ونقر ونخرجكم بنصب الراء والجيم أما القراءة بالياء ففيها وجوه (أحدها) يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم (وثانيها) يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم (وثالثها) بفتح الياء وكسر القاف وضم الراء أبو حاتم ومنكم من يتوفى بفتح الياء أى يتوفاه الله تعالى ابن عمرة والاعمش العمر باسكان الميم القراءة المعروفة ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر وفى حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخا بغير القراءة المعروفة وربت أبو جعفر وربأت أى ارتفعت وروى العمرى عنه بتليين الهمزة وقرئ وأنه باعث ⊙ المعانى اعلم أنه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم فى اثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين (أحدهما) الاستدلال بخلقة الحيوان أولا وهو موافق لما أجمله فى قوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وقوله فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فكأنه سبحانه وتعالى قال ان كنتم فى ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا فى خلقتكم الاولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه ذكر من مراتب الخلقة الاولى أمورا سبعة (المرتبة الاولى) قوله فانا خلقناكم من تراب وفيه وجهان (أحدهما) انا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب لقوله كمثل آدم خلقه من تراب وقوله منها خلقناكم (والثانى) ان خلقة الانسان من المنى ودم

لما يشعر بها المجادلة من الجهل أى ملابسا بغير علم روى انها نزلت فى النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الاولين ولا بعث بعد الموت وهى عامة له ولاضرابه من العتاة المتمردين (ويتبع) أى فيما يتعاطاه من المجادلة أو فى كل ما يأتى وما يذر من الامور الباطلة التى من جملتها ذلك (كل شيطان مريد) عات متمرد متجرد للفساد وأصله العرى المنبئ عن التمحض له كالتشمر ولعله مأخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس والمراد ما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم الى الكفر واما ابليس وجنوده وقوله تعالى (كتب عليه) أى على الشيطان صفة أخرى له وقوله تعالى (أنه) فاعل كتب والضمير للشان أى رقم به لظهور ذلك من حاله أن الشأن (من تولاه) أى اتخذه وليا وتبعه (فانه يضله) بالفتح على أنه خبر مبتدا محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب الشرط ان جعلت من شرطية وخبرها ان جعلت موصولة متضمنة لمعنى الشرط أى من تولاه فشأنه أنه يضله عن طريق الجنة أو طريق الحق او فحق أنه يضله قطعا وقيل فأنه معطوف على أنه وفيه من التعسف ما لا يخفى وقيل وقيل مما لا يخلو عن التمحل والتأويل

الطمث وهما انما يتولدان من الاغذية والاغذية اما حيوان أو نبات وغذاء الحيوان ينتهى قطعا للتسلسل الى النبات والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله انا خلقناكم من تراب (المرتبة الثانية) قوله ثم من نطفة والنطفة اسم للماء القليل أى ماء كان وهو ههنا ماء الفحل فكأنه سبحانه يقول أنا الذى قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفا مع انه لا مناسبة بينهما البتة (المرتبة الثالثة) قوله ثم من علقة والعلقة قطعة الدم الجامدة ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة (المرتبة الرابعة) قوله ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء فالمضغة اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ والمخلقة المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود اذا سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء ثم للمفسرين فيه أقوال (أحدها) أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم كأنه سبحانه قسم المضغة الى قسمين (أحدهما) تامة الصور والحواس والتخاطيط (وثانيهما) الناقصة فى هذه الامور فبين ان بعد ان صيره مضغة منه ما خلقه انسانا تاما بلا نقص ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة والضحاك فكان الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم (وثانيها) المخلقة الولد الذى يخرج حيا وغير المخلقة السقط وهو قول مجاهد (وثالثها) المخلقة المصورة وغير المخلقة أى غير المصورة وهو الذى يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال اذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكا وقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة مجتها الارحام دما وان قال مخلقة قال يا رب فما صفتها أذكر أم أنثى ما رزقها ما أجلها أشقى أم سعيد فيقول الله سبحانه انطلق الى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفتها (ورابعها) قال القفال التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الاطوار وتواردت عليه الخلق بعد الخلق فذلك هو المخلق لتتابع الخلق عليه فما تم فهو المخلق وما لم يتم فهو غير المخلق لانه لم يتوارد عليه التخليقات والقول الاول أقرب لانه تعالى قال فى أول الآية فانا خلقناكم واشار الى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير انسانا وذلك يبعد فى السقط لانه قد يكون سقطا ولم يتكامل فيه الخلقة فان قيل هلا حملتم ذلك على السقط لاجل قوله ونقر فى الارحام ما نشاء وذلك كالدلالة على أن فيه ما لا يقره فى الرحم وهو السقط قلنا ان ذلك لا يمنع من صحة ما ذكرنا فى كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لانه بعد أن تم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يتكامل ذلك بل فيه ما يقره الله فى الرحم وفيه ما لا يقره وان كان قد أظهر فيه خلقة الانسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط أما قوله تعالى لنبين لكم ففيه وجهان (أحدهما) لنبين لكم ان تغيير

وقرئ فانه بالكسر على انه خبر لمن أو جواب لها وقرئ بالكسر فيهما على حكاية المكتوب كما هو مثل ما فى قولك كتبت ان الله يأمر بالعدل والاحسان أو على اضمار القول أو تضمين الكتب معناه على رأى من يراه (ويهديه الى عذاب السعير) بحمله على مباشرة ما يؤدى اليه من السيآت (يا أيها الناس) اثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم وأشير الى ما يؤول اليه أمرهم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه من البعث (ان كنتم فى ريب من البعث) من امكانه وكونه مقدورا له تعالى أو من وقوعه وقرئ من البعث بالتحريك كالجلب فى الجلب والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب مع التنكير المنبئ عن القلة مع أنهم جازمون باستحالته وايراد كلمة الشك مع تقرر حالهم فى ذلك وايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال ان ارتبتم فى البعث فقد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا (فانا خلقناكم) أى فانظروا الى مبدا خلقكم ليزول ريبكم فانا خلقناكم أى خلقنا كل فرد منكم (من تراب) فى ضمن خلق آدم منه خلقا اجماليا فان خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا

المضغة الى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار ولولا ملما صار بعضه مخلقا وبعضه غير مخلق (وثانيها) التقدير ان كنتم فى ريب من البعث فانا أخبرنا كم انا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب فى أمر بعثكم فان القادر على هذه الاشياء كيف يكون عاجزا عن الاعادة أما قوله تعالى ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى فالمراد منه من يبلغه الله تعالى حد الولادة والاجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر أو تسعة أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فان كتب ذلك صار أجلا مسمى (المرتبة الخامسة) قوله ثم نخرجكم طفلا وانما وحد الطفل لان الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلا كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير (المرتبة السادسة) قوله ثم لتبلغوا أشدكم والاشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة فى غير شئ واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع والمراد والله أعلم ثم نسهل فى تربيتكم وأغذيتكم أمورا لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الاحوال التى بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الاشد ويكون بين الحالتين وسايط وذكر بعضهم انه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الاشد واسطة حتى جوز أن يبلغ فى السن ويكون طفلا كما يكون غلاما ثم يدخل فى الاشد (المرتبة السابعة) قوله ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ والمعنى أن منكم من يتوفى على قوته وكماله ومنكم من يرد الى أرذل العمر وهو الهرم والخرف فيصير كما كان فى أول طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم فان قيل كيف قال لكيلا يعلم من بعد علم شيأ مع انه يعلم بعض الاشياء كالطفل قلنا المراد انه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيأ لان مثل ذلك قد يذكر فى النفى لاجل المبالغة ومن الناس من قال هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو ضعيف لان معنى قوله ثم رددناه أسفل سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجرى مجرى العقوبة ولذلك قال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث (الوجه الثانى) الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى وترى الارض هامدة وهمودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد يقال اهتز فلان لكبت وكبت الا اذا كان الامر من المحاسن والمنافع فقوله اهتزت وربت أى تحركت بالنبات وانتفخت أما قوله وأنبتت من كل زوج بهيج فهو مجاز لان الارض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك لكنه يضاف اليها توسعا ومعنى من كل زوج بهيج من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس والبهجة حسن الشئ ونضارته والبهيج بمعنى المبهج قال المبرد وهو الشئ المشرق الجميل ثم انه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أمورا خمسة (أحدها) قوله ذلك بأن الله هو الحق والحق هو

على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه كما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أى ثم خلقنا كم خلقا تفصيليا من نطفة أى من منى من النطف الذى هو الصب (ثم من علقة) أى قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى (ثم من مضغة) أى قطعة من اللحم متكونة من العلقة وهى فى الاصل مقدار ما يمضغ (مخلقة) بالجر صفة مضغة أى مستبينة الخلق مصورة (وغير مخلقة) أى لم يستبن خلقها وصورتها بعد والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولا قطعة لم يظهر فيها شئ من الاعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيأ فشيأ وكان مقتضى الترتيب السابق المبنى على التدرج من المبادى البعيدة الى القريبة أن يقدم غير المخلقة على المخلقة وانما أخرت عنها لانها عدم الملكة هذا وقد فسرتا بالمسواة وغير المسواة وبالتامة والساقطة وليس بذاك وفى جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لا لخلق ما بعدها من المراتب كما فى قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الآية مزيد دلالة على عظيم قدرته تعالى وكسر لسورة استبعادهم (لنبين لكم) متعلق بخلقنا وترك المفعول

الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين ان هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع الى ان حدوث هذه الاعراض المتنافية وتواردها على الاجسام يدل على وجود الصانع (وثانيها) قوله تعالى وأنه يحيى الموتى فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الاله ايجاد هذه الاشياء فكيف يستبعد منه اعادة الاموات (وثالثها) قوله وأنه على كل شئ قدير يعنى ان الذى يصح منه ايجاد هذه الاشياء لا بد وأن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات ومن كان كذلك فانه لا بد وأن يكون قادرا على الاعادة (ورابعها) قوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور والمعنى انه لما أقام الدلائل على ان الاعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرا على الاعادة فى نفسها واذا ثبت الامكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه واعلم ان تحرير هذه الدلالة على الوجه النظرى أن يقال الاعادة فى نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها أما بيان الامكان فالدليل عليه ان هذه الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التى كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة والبارئ سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضى القطع بامكان الاعادة لما قلنا ان تلك الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات لانها لو لم تكن قابلة لها فى وقت لما كانت قابلة لها فى شئ من الاوقات لان الامور الذاتية لا تزول ولو لم تكن قابلة لها فى شئ من الاوقات لما كانت حية عاقلة فى شئ من الاوقات لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبدا لهذه الصفات وأما ان البارئ سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلانه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالما بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادرا على كل الممكنات فيكون قادرا على ايجاد تلك الصفات فى تلك الذوات فثبت ان الاعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فثبت ان الاعادة ممكنة فى نفسها فاذا أخبر الصادق عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها فهذا هو الكلام فى تقرير هذا الاصل فان قيل فأى منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات فى هذه الدلالة قلنا انها تدل على انه سبحانه قادر على كل الممكنات وعالم بكل المعلومات ومتى صح ذلك فقد صح كون الاعادة ممكنة فان الخصم لا ينكر المعاد الا بناء على انكار أحد هذين الاصلين ولذلك فان الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث فى كتابه ذكر معه كونه قادرا عالما كقوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم فقوله قل يحييها الذى أنشأها بيان للقدرة وقوله وهو بكل خلق عليم بيان للعلم والله أعلم ۞ قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) القراءة ثانى عطفه بكسر العين الحسن وحده بفتح العين ليضل قرئ بضم الياء وفتحها القراءة المعروفة ونذيقه بالنون وقرأ زيد بن

لتفخيمه كما وكيفا أى خلقناكم على هذا النمط البديع لنبين لكم بذلك ما لا تحصره العبارة من الحقائق والدقائق التى من جملتها سر البعث فان من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجى تأملا حقيقيا جزم جزما ضروريا بان من قدر على خلق البشر أولا من تراب لم يشم رائحة الحياة قط وانشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصريفه فى أطوار الخلقة وتحويله من حال الى حال مع ما بين تلك الاطوار والاحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على اعادته بل هو أهون فى القياس نظرا الى الفاعل والقابل وقرئ ليبين بطريق الالتفات وقوله تعالى (ونقر فى الارحام ما نشاء) استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وعدم نظم هذا وما عطف عليه فى سلك الخلق المعلل بالتبيين مع كونهما من متمماته ومن مبادى التبيين أيضا لما أن دلالة الاول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات التى من جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر أى ونحن نقر فى الارحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع وأدناه ستة أشهر وأقصاه سنتان وقيل أربع سنين وفيه اشارة الى أن بعض ما فى الارحام لا يشاء الله تعالى اقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه والتعرض للازلاق

لا يناسب المقام لان الكلام فيما جرى عليه أطوار الخلق وهذا صريح فى أن المراد بغير المخلقة ليس من ولد ناقصا أو معيبا وأن ما فصل الى هنا هى الاطوار المتواردة على المولود قبل الولادة وقرئ يقر بالياء ونقر ويقر بضم القاف من قررت الماء اذا صببته (ثم نخرجكم) أى من بطون أمهاتكم بعد اقراركم فيها عند تمام الاجل المسمى (طفلا) أى حال كونكم أطفالا والافراد باعتبار كل واحد منهم أو بارادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد وقرئ يخرجكم بالياء وقوله تعالى (ثم لتبلغوا أشدكم) علة لنخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيأ فشيأ ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل والتمييز وقيل التقدير ثم نمهلكم لتبلغوا الخ وما قيل انه معطوف على نبين مخل بجزالة النظم الكريم هذا وقد قرئ ما قبله من الفعلين بالنصب حكاية وغيبة فهو حينئذ عطف على نبين مثلهما والمعنى خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين مترتبتين عليه احداهما أن نبين شؤننا والثانية أن نقركم فى الارحام ثم نخرجكم صغارا ثم لتبلغوا أشدكم وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للايذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات

على وأذيقه المعانى فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى أن المراد بقوله ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد من هم على وجوه (أحدها) قال أبو مسلم الآية الاولى وهى قوله ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد واردة فى الاتباع المقلدين وهذه الآية واردة فى المتبوعين المقلدين فان كلا المجادلين جادل بغير علم وان كان أحدهما تبعا والآخر متبوعا وبين ذلك قوله ولا هدى ولا كتاب منير فان مثل ذلك لا يقال فى المقلد وانما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة فان قيل كيف يصح ماقلتم والمقلد لا يكون مجادلا قلنا قد يجادل تصويبا لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة اذا تمكن منها وان كان معتمده الاصلى هو التقليد (وثانيها) أن الآية الاولى نزلت فى النضر بن الحرث وهذه الآية فى أبى جهل (وثالثها) ان هذه الآية نزلت أيضا فى النضر وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وفائدة التكرير المبالغة فى الذم وأيضا ذكر فى الآية الاولى اتباعه للشيطان تقليدا بغير حجة وفى الثانية مجادلته فى الدين واضلاله غيره بغير حجة والوجه الاول أقرب لما تقدم (المسئلة الثانية) الآية دالة على ان الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على ما مر تقريره (المسئلة الثالثة) المراد بالعلم العلم الضرورى وبالهدى الاستدلال والنظر لانه يهدى الى المعرفة وبالكتاب المنير الوحى والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية وهو كقوله ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وقوله ائتونى بكتاب من قبل هذا أما قوله ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله فاعلم ان ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولى الجيد وقوله ليضل عن سبيل الله فاما القراءة بضم الياء فدلالة على أن هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكى يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر واضلال الغير وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنه لما أدى جداله الى الضلال جعل كأنه غرضه ثم انه سبحانه وتعالى شرح حاله فى الدنيا والآخرة اما فى الدنيا فيوم بدر وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى النضر بن الحرث وانه قتل يوم بدر وأما الذين لم يخصصوا هذه الآية بواحد معين قالوا المراد بالخزى فى الدنيا ما أمر المؤمنون بذمه ولعنه ومجاهدته وأما فى الآخرة فقوله ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ثم بين تعالى أن هذا الخزى المعجل وذلك العقاب المؤجل لاجل ما قدمت يداه قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مطالب (الاول) دلت الآية على أنه انما وقع فى ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقا لله تعالى لكان حين ما خلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه أن ينفك عنه وحين ما لا يخلقه الله تعالى استحال منه أن يتصف به فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فاذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص (الثانى) ان قوله بعد ذلك وأن الله ليس بظلام للعبيد دليل على أنه سبحانه انما لم يكن ظالما بفعل ذلك العذاب لاجل أن المكلف فعل فعلا استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على انه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته

لكان

واعادة اللام ههنا مع تجريد الاولين عنها للاشعار باصالته فى الغرضية بالنسبة ٢١٥ اليهما اذ عليه يدور التكليف المؤدى

الى السعادة والشقاوة وايثار البلوغ مسندا الى المخاطبين على التبليغ مسندا اليه تعالى كالافعال السابقة لانه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئية الآثار والافعال والاشد من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد كالاسدة والقتود وكأنها حين كانت شدة فى غير شئ بنيت على لفظ الجمع (ومنكم من يتوفى) أى بعد بلوغ الاشد أو قبله وقرئ يتوفى مبنيا للفاعل أى يتوفاه الله تعالى (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) وهو الهرم والخرف وقرئ بسكون الميم وايراد الرد والتوفى على صيغة المبنى للمفعول الجرى على سنن الكبرياء لتعين الفاعل (لكيلا يعلم من بعد علم) أى علم كثير (شيأ) أى شيأ من الاشياء أو شيأ من العلم مبالغة فى انتقاص علمه وانتكاس حاله أى ليعود الى ما كان عليه فى أوان الطفولية من ضعف البنية وسخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه وفيه من التنبيه على صحة البعث ما لا يخفى (وترى الارض هامدة) حجة أخرى على صحة البعث والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهى بصرية

وهامدة حال من الارض أى ميتة يابسة من همدت النار اذا صارت رمادا (فاذا أنزلنا عليها الماء) أى المطر (اهتزت) تحركت

لكان ظالما وهذا يدل على انه لا يجوز تعذيب الاطفال بكفر آبائهم (الثالث) أنه سبحانه تمدح بانه لا يفعل الظلم فوجب أن يكون قادرا عليه خلاف ما يقوله النظام وان يصح ذلك منه خلاف ما يقوله أهل السنة (الرابع) وهو أن لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على أنه تعالى لا يظلم لان عندهم صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم موقوفة على نفى الظلم فلو أثبتنا ذلك بالدليل السمعى لزم الدور (والجواب) عن الكل المعارضة بالعلم والداعى ۞ قوله تعالى

(ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير)

القراءة قرئ خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على انه خبر مبتدا محذوف وفى حرف عبد الله من ضره بغير لام واعلم انه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجادلين فيه على ما ذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال ومن الناس من يعبد الله على حرف وفى تفسير الحرف وجهان (الاول) ما قاله الحسن وهو أن المرء فى باب الدين معتمده القلب واللسان فهما حرفا الدين فاذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل فى الدين واذا أظهر بلسانه الدين لبعض الاغراض وفى قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم يعبد الله على حرف (الثانى) قوله على حرف أى على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة كالذى يكون على طرف من العسكر فان أحس بغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه وهذا هو المراد فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه لان الثبات فى الدين انما يكون لو كان الغرض منه اصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه فاما اذا كان غرضه الخير المعجل فانه يظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضراء فلا يكون الا منافقا مذموما وهو مثل قوله تعالى مذبذبين بين ذلك وكقوله فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم (المسئلة الثانية) قال الكلبى نزلت هذه الآية فى أعراب كانوا يقدمون على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته رضى به واطمأن اليه وان أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له ما جاءتك هذه الشرور الا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقتادة (وثانيها) وهو قول الضحاك نزلت فى المؤلفة قلوبهم منهم عيينة بن بدر والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض ندخل فى دين محمد فان أصبنا خيرا عرفنا انه حق وان أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل (وثالثها) قال أبو سعيد الخدرى أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فقال يا رسول الله أقلنى فانى لم أصب من دينى هذا خيرا ذهب بصرى وولدى

بالنبات (وربت) انتفخت وازدادت وقرئ ربأت اى ارتفعت (وانبتت من كل زوج) اى صنف (بهيج) حسن رائق يسر ناظره (ذلك بان الله هو الحق) كلام مستأنف جيء به اثر تحقيق حقية البعث واقامة البرهان عليه من العالمين الانساني والنباتي لبيان ان ذلك من آثار الوهية تعالى وأحكام شؤنه الذاتية والوصفية والفعلية وأن ما ينكرون وجوده بل امكانه من اتيان الساعة والبعث من أسباب تلك الآثار العجيبة التي يشاهدونها في الانفس والآفاق ومبادي صدورها عنه تعالى وفيه من الايذان بقوة الدليل واصالة المدلول في التحقق واظهار بطلان انكاره مالا يخفى فان انكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضي ببطلانه بديهة العقول والمراد بالحق هو الثابت الذي يحق ثبوته لا محالة لكونه لذاته لا الثابت مطلقا وذلك اشارة الى ماذكر من خلق الانسان على أطوار مختلفة وتصريفه في أحوال متباينة واحياء الارض بعد موتها ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الكمال وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور أي ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله المحقق لما سواه من الاشياء (وأنه يحيي الموتى) أي شأنه وعادته احياؤها

وما لى فقال صلى الله عليه وسلم ان الاسلام لا يقال ان الاسلام ليسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية وأما قوله وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ففيه سؤالات (الاول) كيف قال وان أصابته فتنة انقلب على وجهه والخير أيضا فتنة لانه امتحان وقال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (والجواب) مثل هذا كثير في اللغة لان النعمة بلاء وابتلاء لقوله فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ولكن انما يطلق اسم البلاء على ما يثقل على الطبع والمنافق ليس عنده الخير الا الخير الدنيوي وليس عنده الشر الا الشر الدنيوي لانه لا دين له فلذلك وردت الآية على ما يعتقدونه وان كان الخير كله فتنة لكن أكثر ما يستعمل فيما يشتد ويثقل (السؤال الثاني) اذا كانت الآية في المنافق فما معنى قوله انقلب على وجهه وهو في الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد (والجواب) المراد انه أظهر بلسانه خلاف ما كان أظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب في الحقيقة (السؤال الثالث) قال مقاتل الخير هو ضد الشر فلما قال فان أصابه خير اطمأن به كان يجب أن يقول وان أصابه شر انقلب على وجهه (الجواب) لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وان أصابه شر بل وصفه بما لا يفيد فيه القبح أما قوله تعالى خسر الدنيا والآخرة فذلك لانه يخسر في الدنيا العز والكرامة واصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والامامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصونا وأما في الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم وذلك هو الخسران المبين أما قوله تعالى يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه فالاقرب انه المشرك الذي يعبد الاوثان وهذا كالدلالة على أن الآية لم ترد في اليهودي لانه ليس ممن يدعو من دون الله الاصنام والاقرب انها واردة في المشركين الذين انقطعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه النفاق وبين تعالى أن ذلك هو الضلال البعيد وأراد به عظم ضلالهم وكفرهم ويحتمل أن يعني بذلك بعد ضلالهم عن الصواب لان جميعه وان كان يشترك في أنه خطأ فبعضه أبعد من الحق من البعض واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضالا فطالت وبعدت مسافة ضلاله أما قوله تعالى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في تفسيره على وجهين (أحدهما) ان المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون اليهم لانه يصح منهم أن يضروا وحجة هذا القول ان الله تعالى بين في الآية الاولى ان الاوثان لا تضرهم ولا تنفعهم وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضارا نافعا فلو كان المذكور في هذه الآية هو الاوثان لزم التناقض (القول الثاني) ان المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور (أحدها) انها لا تضر ولا تنفع بانفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في اضافة الضرر اليها كقوله تعالى رب انهن أضللن كثيرا من الناس فأضاف الاضلال اليهم من حيث كانوا سببا للضلال فكذا ههنا نفى الضرر عنهم في الآية الاولى بمعنى كونها فاعلة واضاف الضرر اليهم في هذه الآية بمعنى ان عبادتها سبب الضرر (وثانيها)

وحاصله انه تعالى قادر على احيائها بدأ واعادة والا لما احيا النطفة والارض الميتة مرارا بعد مرار وما تفيده صيغة المضارع من التجدد انما هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها لا باعتبار نفسها (وأنه على كل شيء قدير) أى مبالغ في القدرة والا لما أوجد هذه الموجودات الفائتة للحصر التي من جملتها ماذكر وأما الاستدلال على ذلك بان قدرته تعالى لذاته الذي نسبته الى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على احياء بعض الاموات لزم اقتداره على أحياء كلها فشؤه الغفول عما سيق له النظم الكريم من بيان كون الآثار الخاصة المذكورة من فروع القدرة العامة التامة ومسبباتها وتخصيص احياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الاشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع في نحور المنكرين وتقديمه لابراز الاعتناء به (وان الساعة آتية) أى فيما سيأتي وايثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقق اتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة اياه لا محالة وتعليله بان التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه مبني على ماذكر من الغفول وقوله تعالى (لا ريب فيها) اما خبر ثان لان أو حال من ضمير الساعة في الخبر ومعنى نفي الريب عنها انها في ظهور أمرها ووضوح دلائلها التكوينية والتنزيلية بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب في اتيانها حسبما مر في مطلع سورة البقرة والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها

كأنه سبحانه وتعالى بين في الآية الاولى انها في الحقيقة لا تضر ولا تنفع ثم قال في الآية الثانية لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها أكثر من نفعها (وثالثها) كان الكفار اذا انصفوا علموا انه لا يحصل منها نفع ولا ضرر في الدنيا ثم انهم في الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها فكأنهم يقولون لها في الآخرة ان ضرركم اعظم من نفعكم (المسئلة الثانية) اختلف النحويون في اعراب قوله لمن ضره أقرب أما قوله لبئس المولى ولبئس العشير فالمولى هو الولي والناصر والعشير الصاحب والمعاشر واعلم ان هذا الوصف بالرؤساء أليق لان ذلك لا يكاد يستعمل في الاوثان فبين تعالى انهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذي يجمع خير الدنيا والآخرة الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء ثم ذم الرؤساء بقوله لبئس المولى والمراد ذم من انتصر بهم والتجأ اليهم ۞ قوله تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد) اعلم انه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم بين في هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذي لا يمكن صوابه وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم يعطيهم اعظم المنافع وهو الجنة ثم بين كمال الجنة التي تجمع بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الانهار وبين تعالى انه يفعل ما يريد بهم من انواع الفضل والاحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله واحتج أصحابنا في خلق الافعال بقوله سبحانه ان الله يفعل ما يريد قالوا أجمعنا على انه سبحانه يريد الايمان ولفظة ما للعموم فوجب أن يكون فاعلا للايمان لقوله ان الله يفعل ما يريد أجاب الكعبي عنه بان الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله لا ما يريد أن يفعله غيره (والجواب) ان قوله ما يريد أعم من قولنا ما يريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص أما قوله من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فالهاء الى ماذا يرجع فيه وجهان (الاول) وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي واختيار الفراء والزجاج انه يرجع الى محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن من ظن ان لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم في الدنيا باعلاء كلمته واظهار دينه وفي الآخرة باعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول صلى الله عليه وسلم وان لم يجر له ذكر في الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان في قوله ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله فيجب البحث ههنا عن أمرين (أحدهما) انه من الذي كان يظن ان الله تعالى لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم (والثاني) انه ما معنى قوله فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع أما الاول فذكروا فيه وجوها (أحدها) كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد

الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية (وثانيها) قال مقاتل نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لا ينصر محمدا فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا (وثالثها) ان حساده واعداءه كانوا يتوقعون ان لا ينصره الله وان لا يعليه على اعدائه فتى شاهدوا ان الله نصره غاظهم ذلك (وأما البحث الثاني) فاعلم ان في لفظ السبب قولين (أحدهما) أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا في السماء فمنهم من قال هو سماء البيت ومنهم من قال هو السماء في الحقيقة فقالوا المعنى من كان يظن ان لن ينصره الله ثم يغيظه انه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه في ازالة ما يغيظه بان يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا الى سماء بيته فاختنق فلينظر أنه ان فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه وعلى هذا القول اختلفوا في القطع فقال بعضهم سمى الاختناق قطعا لان المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه وسمى فعله كيدا لانه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره أو على سبيل الاستهزاء الا أنه لم يكد به محسوده وانما كاد به نفسه والمراد ليس في يده الا ما ليس بمذهب لما يغيظ وهذا قول الكلبي ومقاتل وقال ابن عباس رضي الله عنه يشد الحبل في عنقه وفي سقف البيت ثم ليقطع الحبل حتى يختنق و يهلك هذا كله اذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين وقال آخرون المراد منه نفس السماء فانه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو أولى من حمله على سماء البيت لان ذلك لا يفهم منه الا مقيدا ولان الغرض ليس الامر بان يفعل ذلك بل الغرض أن يكون ذلك صارفا له عن الغيظ الى طاعة الله تعالى واذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الامكان كان أولى بان يكون هو المراد ومعلوم ان مد الحبل الى سماء الدنيا والاختناق به أبعد في الامكان من مده الى سقف البيت لان ذلك ممكن أما الذين قالوا السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين (الاول) كأنه قال فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع بذلك السبب المسافة ثم لينظر فانه يعلم ان مع تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كأن لم يفعل شيأ وهو قول أبي مسلم (والثاني) كأنه قال فليطلب سببا يصل به الى السماء فليقطع نصر الله لنبيه ولينظر هل يتهيأ له الوصول الى السماء بحيلة وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله فاذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة واعلم ان المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فانه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه وهو في معنى قوله فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء مبينا بذلك انه لا حيلة له في الآيات التي اقترحوها (القول الثاني) ان الهاء في قوله ان لن ينصره الله راجع الى من في أول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية ان ترجع الى مذكور اذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق وقال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بني بكر فقال من ينصرني نصره الله أي من يعطيني أعطاه الله فكأنه قال من كان يظن ان لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم كما وصفه تعالى

من الجملتين داخلة مثلهما في حيز السببية وكذا قوله عزوجل (وان الله يبعث من في القبور) لكن لا من حيث ان اتيان الساعة وبعث الموتى مؤثران فيما ذكر من أفاعيله تعالى تأثير القدرة فيها بل من حيث ان كلا منهما سبب داع له عزوجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة الى ما ذكر من خلقهم ومن احياء الارض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على امكانهما ليتأملوا في ذلك ويستدلوا به على وقوعهما لا محالة ويصدقوا بما ينطق بهما من الوحي المبين وينالوا به السعادة الابدية ولولا ذلك لما فعل تعالى ما فعل بل لما خلق العالم رأسا وهذا كما ترى من أحكام حقيته تعالى في أفعاله وابتنائها على الحكم الباهرة كما أن ما قبله من أحكام حقيته تعالى في صفاته وكونها في غاية الكمال وقد جعل اتيان الساعة وبعث من في القبور لكونهما من روادف الحكمة كناية عن كونه تعالى حكيما كأنه قيل ذلك بسبب أنه تعالى قادر على احياء الموتى وعلى كل مقدور وأنه حكيم لا يخلف ميعاده وقد وعد بالساعة والبعث فلا بد أن يفي بما وعد وأنت خبير بان ما سلف من الاستدلال بحكمته تعالى على اتيان الساعة والبعث وليس الكلام في ذلك بل انما هو في سببيتهما لما ذكر من خلق الانسان واحياء الارض فتأمل وكن على الحق المبين وقيل قوله تعالى وأن الساعة آتية ليس معطوفا على المجرور بالباء ولا داخلا في حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير في

والامر أن الساعة آتية وأن الثانية معطوفة على الاولى وقيل

في قوله وان أصابته فتنة انقلب على وجهه فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يغلب القسمة ويجعله مرزوقا أما قوله وكذلك أنزلناه آيات بينات فمعناه ومثل ذلك الانزال انزلنا القرآن كله آيات بينات أما قوله وأن الله يهدي من يريد فقد احتج أصحابنا به فقالوا المراد من الهداية اما وضع الادلة أو خلق المعرفة والاول غير جائز لانه تعالى فعل ذلك في حق كل المكلفين ولان قوله يهدي من يريد دال على ان الهداية غير واجبة عليه بل هي معلقة بمشيئته سبحانه ووضع الادلة عند الخصم واجب فبقي أن المراد منه خلق المعرفة قال القاضي عبد الجبار في الاعتذار هذا يحتمل وجوها (أحدها) يكلف من يريد لان من كلف أحدا شيأ فقد وصفه له وبينه له (وثانيها) ان يكون المراد يهدي الى الجنة والاثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحا (وثالثها) ان يكون المراد أن الله تعالى يلطف بمن يريد ممن علم انه اذا زاده هدى ثبت على ايمانه كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وهذا الوجه هو الذي اشار الحسن اليه بقوله ان الله يهدي من قبل لا من لم يقبل والوجهان الاولان ذكرهما أبو علي (والجواب) عن الاول ان الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الادلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف وأما الوجهان الاخيران فمدفوعان لانهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله يهدي من يريد يقتضي عدم الوجوب ۞ قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل ما يشاء) القراءة قرئ حق بالضم وقرئ حقا أي حق عليه العذاب حقا وقرئ مكرم بفتح الراء بمعنى الاكرام واعلم انه تعالى لما قال وأن الله يهدي من يريد أتبعه في هذه الآية ببيان من يهديه ومن لا يهديه واعلم ان المخالفين في المسائل الاصولية الاطبقات ثلاثة (أحدها) الطبقة المشاركة له في نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية في خلق الافعال البشرية والخلاف بين مثبتي الصفات والرؤية ونفاتها (وثانيها) الذين يخالفونه في النبوة ولكن يشاركونه في الاعتراف بالفاعل المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى وموسى عليهما السلام (وثالثها) الذين يخالفونه في الاله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون في الحقائق والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر في العالم والفلاسفة الذين يثبتون مؤثرا موجبا لا مختارا فاذا كانت الاختلافات الواقعة في اصول الاديان محصورة في هذه الاقسام الثلاثة ثم لا يشك ان اعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الاخير منها وهذا القسم الاخير باقسامه الثلاثة لا يوجدون في العالم المتظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل يكونون مستترين أما القسم الثاني وهو الاختلاف الحاصل بسبب الانبياء عليهم السلام فتقسيمه أن يقال القائلون بالفاعل المختار اما أن يكونوا معترفين بوجود

المعنى ذلك لتعلموا ان الله هو الحق الآية (ومن الناس من يجادل في الله) هو أبو جهل بن هشام حسبما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل هو من يتصدى لاضلال الناس واغوائهم كائنا من كان كما أن الاول من يقلدهم على أن الشيطان عبارة عن المضل المغوي على الاطلاق (بغير علم) متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير يجادل اي كائنا بغير علم والمراد بالعلم العلم الضروري كما أن المراد بالهدى في قوله تعالى (ولا هدى) هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادي الى المعرفة (ولا كتاب منير) وحي مظهر للحق أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة نظرية ولا ببرهان سمعي كما في قوله تعالى ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وأما ما قيل من أن المراد به المجادل الاول والتكرير للتأكيد والتمهيد لما بعده من بيان انه لا سند له من الاستدلال أو من الوحي فلا يساعده النظم الكريم كيف لا وان وصفه باتباع كل شيطان موصوف بما ذكر ينبئ عن وصفه بالمراء عن الدليل العقلي والسمعي (ثاني عطفه) حال أخرى من فاعل يجادل أي عاطفا لجانبه وطاويا كشحه معرضا متكبرا فان ثني العطف كناية عن التكبر وقرئ بفتح العين أي مانعا لتعطفه (ليضل عن سبيل الله) متعلق بيجادل فان غرضه الاضلال عنه وان لم يعترف بأنه اضلال والمراد به اما الاخراج

الانبياء أولا يكونوا معترفين بذلك أما المعترفون بذلك فاما أن يكونوا اتباعا لمن كان نبيا في الحقيقة أو لمن كان متنبئا أما اتباع الانبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون وأما اتباع المتنبي فهم المجوس وأما المنكرون للانبياء على الاطلاق فهم عبدة الاصنام والاوثان وهم المسمون بالمشركين ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم فثبت ان الاديان الحاصلة بسبب الاختلافات في الانبياء عليهم السلام هي هذه الستة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية قال قتادة ومقاتل الاديان ستة واحد لله تعالى وهو الاسلام وخمسة للشيطان وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في سورة البقرة أما قوله ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج هذا خبر لقول الله تعالى ان الذين آمنوا كما تقول ان اخاك ان الدين عليه لكثير قال جرير

ان الخليفة ان الله سربله • سربال ملك به ترجى الخواتيم

(المسئلة الثانية) الفصل مطلق فيحتمل الفصل بينهم في الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل يفصل بينهم يقضي بينهم أما قوله تعالى ان الله على كل شئ شهيد فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف أما قوله سبحانه وتعالى ألم تر أن الله يسجد له ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الرؤية ههنا (الجواب) انها العلم أي ألم تعلم ان الله يسجد له من في السموات ومن في الارض وانما عرف ذلك بخبر الله لا انه رآه (السؤال الثاني) ما السجود ههنا قلنا فيه وجوه (أحدها) قال الزجاج أجود الوجوه في سجود هذه الامور انها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين أن نقول له كن فيكون وان منها لما يهبط من خشية الله وان من شئ الا يسبح بحمده وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والمعنى ان هذه الاجسام لما كانت قابلة لجميع الاعراض التي يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة اشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فان قيل هذا التأويل يبطله قوله وكثير من الناس فان السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فاسناده الى كثير منهم يكون تخصيصا من غير فائدة والجواب من وجوه (أحدها) ان السجود بالمعنى الذي ذكرناه وان كان عاما في حق الكل الا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر فهذا الشخص وان كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره أما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره فلاجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر (وثانيها) أن نقطع قوله وكثير من الناس عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه (الاول) أن نقول تقدير الآية ولله يسجد من في السموات ومن في الارض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الاول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة وانما فعلنا ذلك لانه قامت الدلالة على انه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنيه

من الهدى الى الضلال فالمفعول واما التثبيت على الضلال او الزيادة عليه مجازا فالمفعول هم الكفرة خاصة وقرئ بفتح الياء وجعل ضلاله غاية لجداله من حيث ان المراد به الضلال المبين الذي لا هداية له بعده مع تمكنه منها قبل ذلك (له في الدنيا خزي) جملة مستأنفة مسوقة لبيان نتيجة ما سلكه من الطريقة أي يثبت له في الدنيا بسبب ما فعله خزي وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) أي النار المحرقة (ذلك) أي ما ذكر من العذاب الدنيوي والاخروي وما فيه من معنى البعد للايذان بكونه في الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بما قدمت يداك) أي بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي واسناده الى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالايدي والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد ومحل أن في قوله عز وعلا (وأن الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي والامر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا لما مر تحقيقه في سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أن محل أن هو الجر بالعطف

جمعا

جمعا (الثاني) أن يكون قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لان خبر مقابله يدل عليه وهو قوله حق عليه العذاب (والثالث) أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب (وثالثها) أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعا يقول المراد بالسجود في حق الاحياء العقلاء العبادة وفي حق الجمادات الانقياد ومن ينكر ذلك يقول ان الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين فعنى بها في حق العقلاء الطاعة وفي حق الجمادات الانقياد (السؤال الثالث) قوله ولله يسجد من في السموات ومن في الارض لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة اخرى وكثير من الناس (الجواب) لو اقتصر على ما تقدم لاوهم ان كل الناس يسجدون كما أن كل الملائكة يسجدون فبين ان كثيرا منهم يسجدون طوعا دون كثير منهم فانه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب (القول الثاني) في تفسير السجود أن كل ما سوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه الا عند الانتهاء الى الواجب لذاته كما قال وان الى ربك المنتهى وكما أن الامكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره الى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه وهذا الافتقار الذاتي اللازم للماهية ادل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الارض فان ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتي وقد يتطرق اليها الصدق والكذب أما نفس الافتقار الذاتي فانه يمتنع التغير والتبدل فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى لله تعالى أي خاضعة متذللة معترفة بالفاقة اليه والحاجة الى تخليقه وتكوينه وعلى هذا تأولوا قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وهذا قول القفال رحمه الله (القول الثالث) ان سجود هذه الاشياء سجود ظلها كقوله تعالى يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون وهو قول مجاهد وأما قوله كثير من الناس وكثير حق عليه العذاب فقال ابن عباس في رواية عطاء وكثير من الناس يوحده وكثير حق عليه العذاب ممن لا يوحده وروى عنه أيضا انه قال وكثير من الناس في الجنة وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا أن قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وقال آخرون الوقف على قوله وكثير من الناس ثم استأنف فقال وكثير حق عليه العذاب أي وجب باباته وامتناعه من السجود وأما قوله تعالى ومن يهن الله فما له من مكرم فالمعنى ان الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على ازالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرما لهم ثم بين بقوله ان الله يفعل ما يشاء انه الذي يصح منه الاكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب والله أعلم ﴿﴾ قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار

على ما قدمت فقد عرفت حاله في سورة الانفال (ومن الناس من يعبد الله على حرف) شروع في بيان حال المذبذبين اثر بيان حال المجاهرين أي ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذي ينحرف الى طرف الجيش فان أحس بظفر قر والا فر (فان أصابه خير) أي دنيوي من الصحة والسعة (اطمأن به) أي ثبت على ما كان عليه ظاهرا الا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنيهم عاطف (وان أصابته فتنة) أي شئ يفتتن به من مكروه يعتريه في نفسه أو أهله أو ماله (انقلب على وجهه) روي انها نزلت في أعاريب قدموا المدينة وكان أحدهم اذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا وولدت امرأته ولدا سويا وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا الا خيرا واطمأن وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا وانقلب وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان يهوديا أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فأتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال أقلني فقال عليه السلام ان الاسلام لا يقال فنزلت وقيل نزلت في المؤلفة قلوبهم (خسر الدنيا والآخرة) فقدهما

يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد) القراءة روى عن الكسائى خصمان بكسر الخاء وقرئ قطعت بالتخفيف كان الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة قرأ الاعمش كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم ردوا فيها الحسن يصهر بتشديد الهاء للمبالغة وقرئ ولؤلؤا بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤا كقوله وحورا عينا ولولوا بقلب الهمزة الثانية واوا واعلم انه سبحانه لما بين ان الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكرههنا كيفية اختصامهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج من قال اقل الجمع اثنان بقوله هذان خصمان اختصموا (والجواب) الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل هذان فوجان أو فريقان يختصمان فقوله هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسير الخصمين وجوها (أحدها) المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وان كل الكفار يدخلون فى ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما يرجع الى أهل الاديان الستة فى ربهم أى فى ذاته وصفاته (وثانيها) روى ان أهل الكتاب قالوا نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم فى ربهم (وثالثها) روى قيس بن عبادة عن أبى ذر الغفارى رحمه الله انه كان يحلف بالله ان هذه الآية نزلت فى ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وقال على عليه السلام أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الله تعالى يوم القيامة (ورابعها) قال عكرمة هما الجنة والنار قالت النار خلقنى الله لعقوبته وقالت الجنة خلقنى الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك والاقرب هو الاول لان السبب وان كان خاصا فالواجب حمل الكلام على ظاهره وقوله هذان كالاشارة الى من تقدم ذكره وهم أهل الاديان الستة وأيضا ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته ممن حق عليه العذاب فوجب أن يكون رجوع ذلك اليهما فمن خص به مشركى العرب أو اليهود من حيث قالوا فى كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد أخطأ وهذا هو الذى يدل على أن قوله ان الله يفصل بينهم أراد به الحكم لان ذكر التخاصم يقتضى ان الواقع بعده يكون حكما فبين الله تعالى حكمه فى الكفار وذكر من احوالهم امورا ثلاثة (أحدها) قوله قطعت لهم ثياب من نار والمراد بالثياب احاطة النار بهم كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش عن أنس وقال سعيد بن جبير من نحاس أذيب بالنار أخذا من قوله تعالى سرابيلهم من قطران واخرج الكلام بلفظ الماضى كقوله تعالى ونفخ فى الصور وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لان ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع (وثانيها) قوله يصب من فوق

وضعه ما بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد وقرئ خاسر بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصا على خسرانه او على انه خبر مبتدا محذوف (ذلك) أى ما ذكر من الخسران وما فيه من معنى البعد للايذان بكونه فى غاية ما يكون (هو الخسران المبين) الواضح كونه خسرانا اذ لا خسران مثله (يدعو من دون الله) استئناف مبين لعظم الخسران أى يعبد متجاوزا عبادة الله تعالى (ما لا يضره) اذا لم يعبده (وما لا ينفعه) ان عبده أى جمادا ليس من شأنه الضر والنفع كما يلوح به تكرير كلمة ما (ذلك) الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والهدى مستعار من ضلال من أبعد فى التيه ضالا عن الطريق (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) استئناف مسوق لبيان مآل دعائه المذكور وتقرير كونه ضلالا بعيدا مع ازاحة ما عسى يتوهم من نفى الضرر عن معبوده بطريق المباشرة نفيه عنه بطريق التسبيب أيضا فالدعاء بمعنى القول واللام داخلة على الجملة الواقعة مقولا له ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان خبره أقرب والجملة صلة للمبتدا الاول وقوله تعالى (لبئس المولى ولبئس

رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود الحميم الماء الحار قال ابن عباس رضى الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها يصهر أى يذاب أى اذا صب الحميم على رؤسهم كان تأثيره فى الباطن نحو تأثيره فى الظاهر فيذيب امعاءهم واحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم (وثالثها) قوله ولهم مقامع من حديد المقامع السياط وفى الحديث لو وضعت مقمعة منها فى الارض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها وأما قوله كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها فاعلم ان الاعادة لا تكون الا بعد الخروج والمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا اعيدوا فيها ومعنى الخروج ما يروى عن الحسن ان النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى اذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق والحريق الغليظ من النار العظيم الاهلاك ثم انه سبحانه ذكر حكمه فى المؤمنين من أربعة أوجه (أحدها) المسكن وهو قوله ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار (وثانيها) الحلية وهو قوله يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير فبين تعالى انه يوصلهم فى الآخرة الى ما حرمه عليهم فى الدنيا من هذه الامور وان كان من أحله لهم أيضا شاركهم فيه لان الحلال للنساء فى الدنيا يسير بالاضافة الى ما يحصل لهم فى الآخرة (وثالثها) الملبوس وهو قوله ولباسهم فيها حرير (ورابعها) قوله وهدوا الى الطيب من القول وفيه وجوه (احدها) أن شهادة أن لا اله الا الله هو الطيب من القول لقوله ومثل كلمة طيبة وقوله اليه يصعد الكلم الطيب وهو صراط الحميد لقوله وانك لتهدى الى صراط مستقيم (وثانيها) قال السدى وهدوا الى الطيب من القول هو القرآن (وثالثها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء هو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده (ورابعها) أنهم اذا صاروا الى الدار الآخرة هدوا الى البشارات التى تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام وهو معنى قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وعندى فيه وجه خامس وهو أن العلاقة البدنية جارية مجرى الحجاب للارواح البشرية فى الاتصال بعالم القدس فاذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الانوار الالهية وظهور تلك الانوار هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد والتعبير عنها هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول ۞ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) اعلم انه تعالى بعد ان فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت وعظم كفر هؤلاء فقال ان الذين كفروا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد لانهم كانوا يأتون ذلك وفيه اشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله ويصدون عن سبيل الله على الماضى وهو

العشير) جواب القسم مقدر هو وجوابه خبر للمبتدا الاول وايثار من على ما مع كون معبوده جمادا وايراد صيغة التفضيل مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة فى تقبيح حاله والامعان فى ذمه أى يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثر النفع أصلا لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس الناصر هو ولبئس الصاحب هو فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية ويجوز أن يكون يدعو الثانى اعادة للاول لا تأكيدا له فقط بل وتمهيدا لما بعده من بيان سوء حال معبوده اثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى ذلك هو الضلال البعيد كأنه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادته لما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس المولى ولبئس العشير فكلمة من وصيغة التفضيل للتهكم به وقيل اللام زائدة ومن مفعول يدعو ويؤيده القراءة بغير لام أى يعبد من ضره أقرب من نفعه وايراد كلمة من وصيغة التفضيل تهكم به أيضا والجملة القسمية مستأنفة (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات) استئناف جئ به لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وأن الله عز وجل يتفضل عليهم بما لا غاية وراءه من أجل

قوله كفروا (والجواب) عنه من وجهين (الاول) انه يقال فلان يحسن الى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه في جميع ازمنته واوقاته فكأنه قيل ان الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله (وثانيهما) قال أبو علي الفارسي التقدير ان الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه انهم يفعلون ذلك في الحال والمستقبل أما قوله والمسجد الحرام يعني ويصد وهم أيضا عن المسجد الحرام قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في ابي سفيان بن حرب واصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن المسجد الحرام عن ان يحجوا او يعتمروا وينحروا الهدى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم وكان محرما بعمرة ثم صالحوه على أن يعود في العام القابل أما قوله الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابو علي الفارسي اى جعلناه للناس منسكا ومتعبدا وقوله سواء العاكف فيه والباد رفع على انه خبر مبتدأ مقدم أي العاكف والبادي فيه سواء وتقدير الآية المسجد الحرام الذي جعلناه للناس منسكا فالعاكف والبادي فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب سواء بالنصب بايقاع الجعل عليه لان الجعل يتعدى الى مفعولين والله أعلم (المسئلة الثانية) العاكف المقيم به الحاضر والبادي الطارئ من البدو وهو النازع اليه من غربته وقال بعضهم يدخل في العاكف القريب اذا جاور ولزمه للتعبد وان لم يكن من أهله (المسئلة الثالثة) اختلفوا في أنهما في أي شيء يستويان قال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات انهما يستويان في سكنى مكة والنزول بها فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من الآخر الا أن يكون واحد سبق الى المنزل وهو قول قتادة وسعيد بن جبير ومن مذهب هؤلاء ان كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية والخبر أما الآية فهي هذه قالوا ان أرض مكة لا تملك فانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي فلما استويا ثبت ان سبيله سبيل المساجد وأما الخبر فقوله عليه السلام مكة مباح لمن سبق اليها وهذا مذهب ابن عمر وعمر بن عبد العزيز ومذهب ابي حنيفة واسحق الحنظلي رضي الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله لان اطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام وههنا قد دل الدليل وهو قوله العاكف لان المراد منه المقيم واقامته لا تكون في المسجد بل في المنازل فيجب أن يقال ذكر المسجد واراد مكة (القول الثاني) المراد جعل الله الناس في العبادة في المسجد سواء ليس للمقيم أن يمنع البادي وبالعكس قال عليه السلام يا بني عبد مناف من ولي منكم من أمور الناس شيأ فلا يمنعن أحدا طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار وهذا قول الحسن ومجاهد وقول من أجاز بيع دور مكة وقد جرت مناظرة بين الشافعي واسحق الحنظلي بمكة وكان اسحق لا يرخص في كراء بيوت مكة واحتج

المنافع وأعظم الخيرات اثر بيان
غاية سوء حال الكفرة وما لهم من
فريق المجاهرين والمذبذبين وأن
معبودهم لا يجديهم شيأ من النفع
بل يضرهم مضرة عظيمة وأنهم
يعترفون بسوء ولايته وعشرته
ويذمونه مذمة تامة وقوله تعالى
(تجرى من تحتها الانهار) صفة
لجنات فان أريد بها الاشجار
المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان
الانهار من تحتها ظاهر وان
اريد بها الارض فلا بد من تقدير
مضاف أى من تحت اشجارها
وان جعلت عبارة عن مجموع
الارض والاشجار فاعتبار التحتية
بالنظر الى الجزء الظاهر المصحح
لاطلاق اسم الجنة على الكل كما
مر تفصيله في اوائل سورة البقرة
وقوله تعالى (ان الله يفعل ما يريد)
تعليل لما قبله وتقرير له بطريق
التحقيق أى يفعل البتة كل ما
يريده من الافعال المتقنة اللائقة
المبنية على الحكم الرائقة التي
من جملتها اثابة من آمن به وصدق
رسوله صلى الله عليه وسلم وعقاب
من أشرك به وكذب برسوله عليه
السلام ولما كان هذا من آثار
نصرته تعالى له عليه السلام عقب
بقوله عز وعلا (من كان يظن أن
لن ينصره الله في الدنيا والآخرة)
تحقيقا لها وتقريرا لثبوتها على أبلغ
وجه وآكده وفيه ايجاز بارع
واختصار رائع والمعنى انه تعالى
ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالة

الشافعي رحمه الله بقوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق فاضيفت الدار الى مالكها والى غير مالكها وقال عليه السلام يوم فتح مكة من أغلق بابه فهو آمن وقال صلى الله عليه وسلم هل ترك لنا عقيل من ربع وقد اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دار السجن أترى أنه اشتراها من مالكها أو من غير مالكها قال اسحق فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركت قولي أما الذي قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله العاكف فضعيف لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام أو في الاكثر فلا يلزم ما ذكروه ويحتمل ان يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات أما قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يرد بفتح الياء من الورود ومعناه من أتى فيه بالحاد وعن الحسن ومن يرد الحاده بظلم والمعنى ومن يرد ايقاع الحاد فيه فالاضافة صحيحة على الاتساع في الظرف كمكر الليل والنهار ومعناه ومن يرد أن يلحد فيه ظالما (المسئلة الثانية) الالحاد العدول عن القصد وأصله الحاد الحافر وذكر المفسرون في تفسير الالحاد وجوها (أحدها) انه الشرك يعني من لجأ الى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى وهو احدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن ابي رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبي صلى الله عليه وسلم فارتد مشركا وفي قيس بن ضبابة وقال مقاتل نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الانصاري وهرب الى مكة كافرا فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافرا (وثالثها) قتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد (ورابعها) دخول مكة بغير احرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم (وخامسها) أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير (وسادسها) المنع من عمارته (وسابعها) عن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر انه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال كنا نحدث أن من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله (وثامنها) وهو قول المحققين ان الالحاد بظلم عام في كل المعاصي لان كل ذلك صغر أم كبر يكون هنالك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لو أن رجلا بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت اذاقه الله عذابا أليما وقال مجاهد تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات فان قيل كيف يقال: للشمع ان قوله نذقه من عذاب أليم غير لائق بكل المعاصي قلنا لا نسلم فان كل عذاب يكون أليما الا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية (المسئلة الثالثة) الباء في قوله بالحاد فيه قولان (أحدهما) وهو الاولى وهو اختيار صاحب الكشاف ان قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نذقه من عذاب أليم يعني ان الواجب على من كان فيه ان يضبط نفسه ويسلك طريق

من غير صارف يلويه ولا عاطف
يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه
وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى
بسبب مدافعته بعض الامور
ومباشرة ما يرومه من المكايد فليبالغ
في استفراغ المجهود وليجاوز في
الجد كل حد معهود فقصارى
أمره وعاقبة مكره أن يختنق حنقا
مما يرى من ضلال مساعيه وعدم
انتاج مقدماته ومباديه (فليمدد
بسبب الى السماء) فليمدد حبلا الى
سقف بيته (ثم ليقطع) أى ليختنق
من قطع اذا اختنق لانه يقطع نفسه
بحبس مجاريه وقيل ليقطع الحبل
بعد الاختناق على أن المراد به
فرض القطع وتقديره كما أن المراد
بالنظر في قوله تعالى (فلينظر هل
يذهبن كيده ما يغيظ) تقدير النظر
وتصويره أى فليصور في نفسه النظر
هل يذهبن كيده ذلك الذي هو
أقصى ما انتهت اليه قدرته في باب
المضادة والمضارة ما يغيظه من
النصرة كلا ويجوز أن يراد فلينظر
الآن أنه ان فعل ذلك هل يذهب
ما يغيظه وقيل المعنى فليمدد حبلا
الى السماء المظلة وليصعد عليه ثم
ليقطع الوحي وقيل ليقطع المسافة
حتى يبلغ عنانها فيجتهد في دفع نصره
ويأباه أن مساق النظم الكريم
بيان أن الامور المفروضة على
تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من
اذهاب ما يغيظ ومن البين أن
لا معنى لفرض وقوع الامور
الممتنعة وترتيب الامر بالنظر عليه
لا سيما قطع الوحي فان فرض وقوعه

السداد والعدل فى جميع مايهم به ويقصده (الثانى) قال أبو عبيدة مجازه ومن يرد فيه الحادا والباء من حروف الزوائد (المسئلة الرابعة) لما كان الالحاد بمعنى الميل من أمر الى أمر بين الله تعالى ان المراد بهذا الالحاد مايكون ميلا الى الظلم فلهذا قرن الظلم بالالحاد لانه لامعصية كبرت أم صغرت الا وهو ظلم ولذلك قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم أما قوله تعالى نذقه من عذاب أليم فهو بيان الوعد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من قال الآية نزلت فى ابن خطل قال المراد بالعذاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله يوم الفتح ولا وجه للتخصيص اذا امكن التعميم بل يجب أن يكون المراد العذاب فى الآخرة لانه من أعظم مايتوعد به (المسئلة الثانية) ان هذه الآية تدل على ان المرء يستحق العذاب بارادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه (المسئلة الثالثة) ذكروا قولين فى خبر ان المذكور فى أول الآية (الاول) التقدير ان الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بالحاد نذقه من عذاب فهو عائد الى كلتا الجملتين (الثانى) أنه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك ﴿ قوله تعالى (واذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيأ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) اعلم ان قوله واذ بوّأنا أى واذكر حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة أى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وكان قد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى ابراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها فكشفت ماحوله فبناه على وضعه الاول وقيل أمر ابراهيم بان يأتى موضع البيت فيبنى فانطلق فخفى عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام فى العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال يا ابراهيم ابن على قدرى وحيالى فأخذ فى البناء وذهبت السحابة وههنا سؤالات (السؤال الاول) لاشك أن أن هى المفسرة فكيف يكون النهى عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (الجواب) انه سبحانه لما قال جعلنا البيت مرجعا لابراهيم فكأنه قيل مامعنى كون البيت مرجعا له فأجيب عنه بأن معناه أن يكون بقلبه موحدا لرب البيت عن الشريك والنظير وبقالبه مشتغلا بتنظيف البيت عن الاوثان والاصنام (السؤال الثانى) ان ابراهيم لما لم يشرك بالله فكيف قال أن لا تشرك بى (الجواب) المعنى لا تجعل فى العبادة لى شريكا ولا تشرك بى غرضا آخر فى بناء البيت (السؤال الثالث) البيت ما كان معمورا قبل ذلك فكيف قال وطهر بيتى (الجواب) لعل ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون اليها الاقذار فأمر ابراهيم ببناء البيت فى ذلك المكان وتطهيره من الاقذار أو كانت معمورة

فكانوا

محل بالمرام قطعا وقيل كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ماوعد الله ورسوله عليه الصلاة والسلام من النصر وآخرون من المشركين يريدون اتباعه عليه السلام ويخشون أن لا يثبت أمره فنزلت وقد فسر النصر بالرزق فالمعنى ان الارزاق بيد الله تعالى لاتنال الا بمشيئته تعالى فلابد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لايغلب القسمة ولا يرده مرزوقا (وكذلك) أى مثل ذلك الانزال البديع المنطوى على الحكم البالغة (أنزلناه) أى القرآن الكريم كله وقوله تعالى (آيات بينات) أى واضحات الدلالة على معانيها الرائقة حال من الضمير المنصوب مبينة لما أشير اليه بذلك (وأن الله يهدى) به ابتداء أو يثبت على الهدى أو يزيد فيه (من يريد) هدايته أو تثبيته أو زيادته فيها ومحل الجملة اما الجر على حذف الجار المتعلق بمحذوف مؤخر أى ولان الله يهدى من يريد أنزله كذلك أو الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف أى والامر أن الله يهدى من يريد هدايته (ان الذين آمنوا) اى بما ذكر من الآيات البينات بهداية الله تعالى أو بكل مايجب أن يؤمن به فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا (والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس) قيل هم قوم

فكانوا قد وضعوا فيها أصناما فأمره الله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الاوثان أو يقال المراد انك بعد أن تبنيه فطهره عما لا ينبغى من الشرك وقول الزور وأما قوله للطائفين والقائمين فقال ابن عباس رضى الله عنهما للطائفين بالبيت من غير أهل مكة والقائمين أى المقيمين بها والركع السجود أى من المصلين من الكل وقال آخرون القائمون هم المصلون لان المصلى لابد وأن يكون فى صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود والله أعلم أما قوله تعالى وأذن فى الناس بالحج ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن محيصن وآذن بمعنى أعلم (المسئلة الثانية) فى المأمور قولان (أحدهما) وعليه أكثر المفسرين انه هو ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه وأذن فى الناس بالحج قال يارب ومايبلغ صوتى قال عليك الاذان وعلى البلاغ فصعد ابراهيم عليه السلام الصفا وفى رواية أخرى أباقبيس وفى رواية أخرى على المقام قال ابراهيم كيف أقول قال جبريل عليه السلام قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفى رواية أخرى انه صعد الصفا فقال ياأيها الناس ان الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه مابين السماء والارض فما بقى شىء سمع صوته الا أقبل يلبى يقول لبيك اللهم لبيك وفى رواية أخرى ان الله يدعوكم الى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويخرجكم من النار فأجابه يومئذ من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر أو شجر ومدر أو أكمة أو تراب قال مجاهد فما حج انسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة الا وقد أسمعه ذلك النداء فمن أجاب مرة حج مرة ومن أجاب مرتين أو أكثر فالحج مرتين أو أكثر على ذلك المقدار وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما أمر ابراهيم عليه السلام بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى قال القاضى عبد الجبار يبعد قولهم انه أجابه الصخر والمدر لان الاعلام لايكون الا لمن يؤمر بالحج دون الجماد فأما من يسمع من أهل المشرق والمغرب نداءه فلا يمتنع اذا قواه الله تعالى ورفع الموانع ومثل ذلك قد يجوز فى زمان الانبياء عليهم السلام (القول الثانى) ان المأمور بقوله وأذن هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختيار أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ماجاء فى القرآن وأمكن حمله على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى وتقدم قوله واذ بوّأنا لابراهيم مكان البيت لايوجب أن يكون قوله وأذن يرجع اليه اذ قد بينا أن معنى قوله واذ بوّأنا أى واذكر يامحمد اذ بوّأنا فهو فى حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فاليه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا فى تفسير قوله تعالى وأذن وجوها (أحدها) ان الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يعلم الناس بالحج (وثانيها) قال الجبائى أمره الله تعالى أن يعلن التلبية فيعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه قال وفى قوله يأتوك دلالة على ان المراد أن يحج فيقتدى به (وثالثها) انه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم أما قوله يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق فقد

يعبدون النار وقيل الشمس والقمر وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المسوح وقيل أخذوا من دين النصارى شيأ ومن دين اليهود شيأ وهم القائلون بان للعالم أصلين نورا وظلمة (والذين أشركوا) هم عبدة الاصنام وقوله تعالى (ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) فى حيز الرفع على أنه خبر لان السابقة وتصدير طرفى الجملتين بحرف التحقيق لزيادة التقرير والتأكيد أى يقضى بين المؤمنين وبين الفرق الخمس المتفقة على ملة الكفر باظهار المحق من المبطل وتوفية كل منهما حقه من الجزاء باثابة الاول وعقاب الثانى بحسب استحقاق أفراد كل منهما وقوله تعالى (ان الله على كل شئ شهيد) تعليل لما قبله من الفصل أى عالم بكل شئ من الاشياء ومراقب لاحواله ومن قضيته الاحاطة بتفاصيل ماصدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة واجراء جزائه اللائق به عليه وقوله تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض) الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من اعمال الفرق المذكورة مع الاشارة الى كيفيته وكونه بطريق التعذيب والاثابة والاكرام والاهانة اثر بيان ما يوجبه من كونه تعالى شهيدا على جميع الاشياء التى من جملتها أحوالهم وأفعالهم والمراد بالرؤية العلم عبر عنه بها اشعارا بظهور المعلوم والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه

مسائل (المسئلة الاولى) الرجال المشاة واحدهم راجل كنيام ونائم وقرئ رجال بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجال كعجال عن ابن عباس رضى الله عنهما وقوله وعلى كل ضامر أى ركبانا والضمور الهزال ضمر يضمر ضمورا والمعنى ان الناقة صارت ضامرة لطول سفرها وانما قال يأتين أى جماعة الابل وهى الضوامر لان قوله وعلى كل ضامر معناه على ابل ضامرة فجعل الفعل بمعنى كل ولو قال يأتى على اللفظ صح وقرئ يأتون صفة للرجال والركبان والفج الطريق بين الجبلين ثم يستعمل فى سائر الطرق اتساعا والعميق البعيد قرأ ابن مسعود معيق يقال بئر بعيدة العمق والمعق (المسئلة الثانية) المعنى وأذن ليأتوك رجالا وعلى كل ضامر أى وأذن لـيأتوك على هاتين الصفتين أو يكون المراد وأذن فانهم يأتوك على هاتين الصفتين (المسئلة الثالثة) بدأ الله بذكر المشاة تشريفا لهم وروى سعيد ابن جبير باسناده عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشى سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال الحسنة بمائة ألف حسنة (المسئلة الرابعة) انما قال يأتوك رجالا لانه هو المنادى فمن أتى مكة حاجا فكأنه أتى ابراهيم عليه السلام لانه يجيب نداءه أما قوله ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما أمر بالحج فى قوله وأذن فى الناس بالحج ذكر حكمة ذلك الامر فى قوله ليشهدوا منافع لهم واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهى أن يتجروا فى أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهى العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو الاولى (المسئلة الثانية) انما نكر المنافع لانه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادات (المسئلة الثالثة) كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى لان أهل الاسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه اذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على ان الغرض الاصلى فيما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى وان يخالف المشركين فى ذلك فانهم كانوا يذبحونها للنصب والاوثان قال مقاتل اذا ذبحت فقل بسم الله والله أكبر اللهم منك واليك وتستقبل القبلة وزاد الكلبى فقال ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين قال القفال وكأن المتقرب بها وباراقة دمائها متصور بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلبا لمرضاة الله تعالى واعترافا بأن تقصيره كاد يستحق مهجته (المسئلة الرابعة) أكثر العلماء صاروا الى أن الايام المعلومات عشر ذى الحجة والمعدودات ايام التشريق وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعى وأبى حنيفة رحمهم الله واحتجوا بانها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج فى آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت منها وهو يوم النحر وقال ابن عباس فى رواية عطاء انها يوم النحر

وثلاثة

الرؤية بناء على انه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد والمراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهه بأكمل أفعال المكلف فى باب الطاعة ايذانا بكونه فى أقصى مراتب التسخر والتذلل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة من عامة لغيرهم أيضا وهو الانسب بالمقام لافادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية منهما فيكون قوله تعالى (والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) افرادا لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها عادة أو جعلت خاصة بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلهم حسبما ينبئ عنه قوله تعالى (وكثير من الناس) فانه مرتفع بفعل مضمر يدل عليه المذكور أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ومن قضيته انتفاء ذلك من بعضهم وقيل هو مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب والاول هو الاولى لما فيه من الترغيب فى السجود والطاعة وقد جوز أن يكون من الناس خبرا له أى من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون وأن يكون قوله تعالى (وكثير) معطوفا على كثير الاول للايذان بغاية الكثرة ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب كأنه قيل

وثلاثة ايام بعده وهو اختيار أبى مسلم قال لانها كانت معروفة عند العرب بعدها وهى أيام النحر وهو قول أبى يوسف ومحمد رحمهما الله أما قوله بهيمة الانعام فقال صاحب الكشاف البهيمة مبهمة فى كل ذات أربع فى البر والبحر فبينت بالانعام وهى الابل والبقر والضأن والمعز أما قوله تعالى فكلوا منها فمن الناس من قال انه أمر وجوب لان أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها ترفعا على الفقراء فأمر المسلمون بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع وقال الاكثرون انه ليس على الوجوب ثم قال العلماء من أهدى أو ضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ومنهم من قال يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث ومذهب الشافعى رحمه الله ان الاكل مستحب والاطعام واجب فان أطعم جميعها أجزأه وان أكل جميعها لم يجزه هذا فيما كان تطوعا فأما الواجبات كالنذور والكفارات والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الاساءة ودماء القلم والحلق فلا يأكل منها أما قوله وأطعموا البائس الفقير فلا شبهة فى انه أمر ايجاب والبائس الذى أصابه بؤس أى شدة والفقير الذى أضعفه الاعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر قال ابن عباس البائس الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه والفقير الذى لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غنى أما قوله ثم ليقضوا تفثهم قال الزجاج ان أهل اللغة لا يعرفون التفث الا من التفسير وقال المبرد أصل التفث فى كلام العرب كل قاذورة تلحق الانسان فيجب عليه نقضها والمراد ههنا قص الشارب والاظفار ونتف الابط وحلق العانة والمراد من القضاء ازالة التفث وقال القفال قال نفطويه سألت أعرابيا فصيحا ما معنى قوله ثم ليقضوا تفثهم فقال ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك ثم قال القفال وهذا أولى من قول الزجاج لان القول قول المثبت لا قول النافى أما قوله وليوفوا نذورهم فقرئ بتشديد الفاء ثم يحتمل ذلك ما أوجبه الدخول فى الحج من أنواع المناسك ويحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذى هو القول وهذا القول هو الاقرب فان الرجل اذا حج أو اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدى وغيره ما لولا ايجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك أما قوله وليطوفوا بالبيت العتيق فالمراد الطواف الواجب وهو طواف الافاضة والزيارة اما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمى الجمار والحلق ثم هو فى يوم النحر أو بعده ففيه تفصيل وسمى البيت بالعتيق لوجوه (أحدها) العتيق القديم لانه أول بيت وضع للناس عن الحسن (وثانيها) لانه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قصده ابرهة فعل به ما فعل فان قيل فقد تسلط الحجاج عليه (فالجواب) قلنا ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه (وثالثها) لم يملك قط عن ابن عيينة (ورابعها) أعتق من الغرق عن مجاهد (وخامسها) بيت

وكثير وكثير من الناس (حق عليه العذاب) أى بكفره واستعصائه وقرئ حق بالضم وحقا أى حق عليه العذاب حقا (ومن يهن الله) بان كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره الى الشر (فما له من مكرم) يكرمه بالسعادة وقرئ بفتح الراء على أنه مصدر ميمى (ان الله يفعل ما يشاء) من الاشياء التى من جملتها الاكرام والاهانة (هذان) تعيين لطرفى الخصام وازاحة لما عسى يتبادر الى الوهم من كونه بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقى وتحرير لمحله أى فريق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم الى الفرق الخمس (خصمان) اى فريقان مختصمان وانما قيل (اختصموا فى ربهم) حملا على المعنى أى اختصموا فى شأنه عز وجل وقيل فى دينه وقيل فى ذاته وصفاته والكل من شؤنه تعالى فان اعتقاد كل من الفريقين بحقية ما هو عليه وبطلان ما عليه صاحبه وبناء أقواله وأفعاله عليه خصومة للفريق الآخر وان لم يجر بينهما التحاور والخصام وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقالت اليهود نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله منكم امنا بمحمد وبنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وانتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسدا فنزلت (فالذين كفروا) تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت لهم) أى

كريم من قولهم عتاق الطير والخيل واعلم ان اللام فى ليقضوا وليوفوا وليطوفوا لام الامر وفى قراءة ابن كثير ونافع والاكثرين تخفيف هذه اللامات وفى قراءة أبى عمرو تحريكها بالكسر ﴿قوله تعالى (ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه واحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) قال صاحب الكشاف ذلك خبر مبتدا محذوف أى الامر والشان ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كلامه فى بعض المعانى فاذا أراد الخوض فى معنى آخر قال هذا وقد كان كذا والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عاما فى جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمشعر الحرام وقال المتكلمون ولا تدخل النوافل فى حرمات الله تعالى فهو خير له عند ربه أى فالتعظيم خير له للعلم بانه يجب القيام بمراعاتها وحفظها وقوله عند ربه يدل على الثواب المدخر لانه لا يقال عند ربه فيما قد حصل من الخيرات قال الاصم فهو خير له من التهاون بذلك ثم انه تعالى عاد الى بيان حكم الحج فقال وأحلت لكم الانعام فقد كان يجوز أن يظن ان الاحرام اذا حرم الصيد وغيره فالانعام أيضا تحرم فبين الله تعالى ان الاحرام لا يؤثر فيها فهى محللة واستثنى منه ما يتلى فى كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور فى سورة المائدة وهو قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم وقوله حرمت عليكم وقوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ثم انه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها اتبعه بالامر باجتناب الاوثان وقول الزور لان توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات وانما جمع الشرك وقول الزور فى سلك واحد لان الشرك من باب الزور لان المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله ولا تقربوا منه شيأ لتمادية فى القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان وسمى الاوثان رجسا لا للنجاسة لكن لان وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس ولان عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات ثم قال الاصم انما وصفها بذلك لان عادتهم فى المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل انه انما وصفها بذلك استحقارا واستخفافا وهذا أقرب وقوله من الاوثان بيان للرجس وتمييز له كقوله عندى عشرون من الدراهم لان الرجس لما فيه من الابهام يتناول كل شئ فكأنه قال فاجتنبوا الرجس الذى هو الاوثان وليس المراد أن بعضها ليس كذلك والزور من الزور والازورار وهو الانحراف كما أن الافك من أفكه اذا صرفه والمفسرون ذكروا فى قول الزور وجوها (أحدها) أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم (وثانيها) شهادة الزور عن النبى صلى الله عليه وسلم

قدرت على مقادير جثثهم وقرئ بالتخفيف (ثياب من نار) اى نيران هائلة تحيط بهم احاطة الثياب بلابسها (يصب من فوق رؤسهم الحميم) أى الماء الحار الذى انتهت حرارته قال ابن عباس رضى الله عنهما لو قطرت قطرة منها على جبال الدنيا لاذابتها والجملة مستأنفة أو خبر ثان للموصول أو حال من ضمير لهم (يصهر به) اى يذاب (ما فى بطونهم) من الامعاء والاحشاء وقرئ يصهر بالتشديد (والجلود) عطف على ما وتأخيره عنه اما لمراعاة الفواصل أو للاشعار بغاية شدة الحرارة بايهام أن تأثيرها فى الباطن أقدم من تأثيرها فى الظاهر مع أن ملابستها على العكس والجملة حال من الحميم (ولهم) للكفرة أى لتعذيبهم وأجلهم (مقامع من حديد) جمع مقمعة وهى آلة القمع (كلما ارادوا أن يخرجوا منها) أى أشرفوا على الخروج من النار ودنوا منه حسبما روى أنها تضربهم بلهيبها فترفعهم حتى اذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا (من غم) أى من غم شديد من غمومها وهو بدل اشتمال من الهاء باعادة الجار والرابط محذوف كما أشير اليه أو مفعول له للخروج (اعيدوا فيها) أى فى قعرها بان ردوا من أعاليها الى أسافلها من غير ان يخرجوا منها (وذوقوا) على تقدير قول معطوف على أعيدوا أى وقيل لهم ذوقوا (عذاب الحريق) أى الغليظ من النار

انه

انه صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه وقال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله وتلا هذه الآية (وثالثها) الكذب والبهتان (ورابعها) قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك أما قوله تعالى حنفاء لله فقد تقدم ذكر تفسيره ذلك وأنه الاستقامة على قول بعضهم والميل الى الحق على قول البعض والمراد فى هذا الموضع ما قيل من أنه الاخلاص فكأنه قال تمسكوا بهذه الامور التى أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه اشراك غير الله به ولذلك قال غير مشركين به وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوى بما يأتيه من العبادة الاخلاص فبين تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما فى بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها وهو قوله ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق قال صاحب الكشاف ان كان هذا تشبيها مركبا فكأنه قيل من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس وراءه هلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت اجزاؤه فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وان كان تشبيها مفرقا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء والذى ترك الايمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والاهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى يطرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر الفاء مع كسرهما وهى قراءة الحسن وأصلها تختطفه وقرئ الرياح ثم انه سبحانه أكد ما تقدم فقال ذلك ومن يعظم شعائر الله واختلفوا فقال بعضهم يدخل فيه كل عبادة وقال بعضهم بل المناسك فى الحج وقال بعضهم بل المراد الهدى خاصة والاصل فى الشعائر الاعلام التى بها يعرف الشئ فاذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين (أحدهما) أن يختارها عظام الاجرام حسانا جساما سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس فى شرائها فقد كانوا يتغالون فى ثلاثة ويكرهون المكاس فيهن الهدى والاضحية والرقبة روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن أبيه انه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى أنفه برة من ذهب (والوجه الثانى) فى تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى فى التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم أمر عظيم لا بد وأن يحتفل به ويتسارع فيه فانها من تقوى القلوب أى فان تعظيمها من افعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديرها لانه لا بد من راجع من الجزاء الى من ارتبط به وانما ذكرت القلوب لان المنافق قد يظهر التقوى من نفسه ولكن لما كان قلبه خاليا عنها لا جرم لا يكون مجدا فى أداء الطاعات اما المخلص الذى تكون التقوى متمكنة فى قلبه فانه يبالغ فى أداء الطاعات على سبيل الاخلاص فان قال قائل ما الحكمة فى أن الله تعالى بالغ فى تعظيم

المنتشر العظيم الاهلاك (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) بيان لحسن حال المؤمنين اثر بيان سوء حال الكفرة وقد غير الاسلوب فيه باسناد الادخال الى الله عز وجل وتصدير الجملة بحرف التحقيق ايذانا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة واظهار المزيد العناية بامر المؤمنين ودلالة على تحقق مضمون الكلام (يحلون فيها) على البناء للمفعول بالتشديد من التحلية وقرئ بالتخفيف من الاحلاء بمعنى الالباس أى يحليهم الملائكة بأمره تعالى وقرئ يحلون من حليت المرأة اذا لبست حليتها ومن فى قوله تعالى (من أساور) اما للتبعيض أى بعض أساور وهى جمع اسورة جمع سوارا أو للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبئ عن الحلى المبهم وقيل زائدة وقيل نعت لمفعول محذوف ليحلون فانه بمعنى يلبسون (من ذهب) بيان للاساور (ولؤلؤا) عطف على محل من أساور أو على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمر يدل عليه يحلون أى يؤتون وقرئ بالجر عطفا على أساور وقرئ لولؤا بقلب الهمزة الثانية واوا ولوليا بقلبها ياء بعد قلبهما واوا وليليا بقلبهما ياء (ولباسهم فيها حرير) غير الاسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا لكن لا للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل

ذبح الحيوانات هذه المبالغة فابواب ۞ قوله تعالى (لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) أعلم ان قوله تعالى لكم فيها منافع الى أجل مسمى لا يليق الا بأن تحمل الشعائر على الهدى الذى فيه منافع الى وقت النحر ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها أى فى التمسك بها منافع الى أجل ينقطع التكليف عنده والاول هو قول جمهور المفسرين ولا شك انه أقرب وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والاوبار وركوب ظهورها فاما قوله الى أجل مسمى ففيه قولان (أحدهما) ان لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم الى أن تسموها ضحية وهديا فاذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون لكم فيها أى فى البدن منافع مع تسميتها هدايا بان تركبوها ان احتجتم اليها وأن تشربوا ألبانها اذا اضطررتم اليها الى أجل مسمى يعنى الى أن تنحروها هذه هى الرواية الثانية عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو اختيار الشافعى وهذا القول أولى لانه تعالى قال لكم فيها منافع أى فى الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديا وروى أبو هريرة انه عليه السلام مر برجل يسوق بدنة وهو فى جهد فقال عليه السلام اركبها فقال يا رسول الله انها هدى فقال اركبها ويلك وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اركبوا الهدى بالمعروف حتى تجدوا ظهرا واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بان لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الاجارة عليها كمنافع سائر المملوكات وهذا ضعيف لان أم الولد لا يمكنه بيعها ويمكنه الانتفاع بها فكذا ههنا أما قوله تعالى ثم محلها الى البيت العتيق فالمعنى ان لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها الى البيت العتيق أى وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية الى البيت كقوله هديا بالغ الكعبة وبالجملة فقوله محلها يعنى حيث يحل نحرها وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله ودليله قوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا أى الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة ولكنها تنزهت عن الدماء الى منى ومنى من مكة قال عليه السلام كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر قال القفال هذا انما يختص بالهدايا التى بلغت منى فاما الهدى المتطوع به اذا عطب قبل بلوغ مكة فان محله موضعه أما قوله تعالى ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله فالمعنى شرعنا لكل أمة من الامم السالفة من عهد ابراهيم عليه السلام الى من بعده ضربا من القربان وجعل العلة فى ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك وما كانت العرب تذبحه للصنم يسمى العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة وقرأ أهل الكوفة الا عاصما منسكا بكسر السين وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع

بل الايذان بان ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان اذ لا يمكن عراؤهم عنه وانما المحتاج الى البيان أن لباسهم ماذا بخلاف الاساور واللؤلؤ فانها ليست من اللوازم الضرورية فجعل بيان تحليتهم بها مقصودا بالذات ولعل هذا هو الباعث الى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس (وهدوا الى الطيب من القول) وهو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة الآية (وهدوا الى صراط الحميد) أى المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية الى القول المذكور المتأخر عن دخول الجنة المتأخر عن الهداية الى طريقها لرعاية الفواصل وقيل المراد بالحميد الحق المستحق لذاته لغاية الحمد وهو الله عز وجل وصراطه الاسلام ووجه التأخير حينئذ أن ذكر الحمد يستدعى ذكر المحمود (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) ليس المراد به حالا ولا استقبالا وانما هو استمرار الصد ولذلك حسن عطفه على الماضى كما فى قوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وقيل هو حال من فاعل كفروا أى وهم يصدون وخبر ان محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه فان من ألحد فى الحرم حيث عوقب بالعذاب الأليم فلأن يعاقب من جمع له الكفر والصد عن سبيل الله باشد من ذلك أحق وأولى (والمسجد الحرام)

اما قوله تعالى فالهكم اله واحد ففى كيفية النظم وجهان (أحدهما) ان الاله واحد وانما اختلفت التكاليف باختلاف الازمنة والاشخاص لاختلاف المصالح (الثانى) فالهكم اله واحد فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله فله اسلموا أى اخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه اشراك البتة والمراد الانقياد لله تعالى فى جميع تكاليفه ومن انقاد له كان مخبتا فلذلك قال بعده وبشر المخبتين والمخبت المتواضع الخاشع قال أبو مسلم حقيقة المخبت من صار فى خبت من الارض يقال أخبت الرجل اذا صار فى الخبت كما يقال انجد وأشأم واتهم والخبت هو المطمئن من الارض وللمفسرين فيه عبارات (أحدها) المخبتين المتواضعين عن ابن عباس وقتادة (وثانيها) المجتهدين فى العبادة عن الكلبى (وثالثها) المخلصين عن مقاتل (ورابعها) المطمئنين الى ذكر الله تعالى والصالحين عن مجاهد (وخامسها) هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا عن عمرو بن أوس ثم وصفهم الله تعالى بقوله الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله ثم لذلك الوجل أثران (أحدهما) الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله والصابرين على ما أصابهم وعلى ما يكون من قبل الله تعالى لانه الذى يجب الصبر عليه كالامراض والمحن والمصائب فاما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب بل ان أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة (والثانى) الاشتغال بالخدمة وأعز الاشياء عند الانسان نفسه وماله أما الخدمة بالنفس فهى الصلاة وهو المراد بقوله والمقيمى الصلاة وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله ومما رزقناهم ينفقون قرأ الحسن والمقيمى الصلاة بالنصب على تقدير النون وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الاصل ۞ قوله تعالى (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين) اعلم أن قوله تعالى والبدن فيه مسائل (المسئلة الاولى) البدن جمع بدنة كخشب وخشبة سميت بذلك اذا أهديت للحرم لعظم بدنها وهى الابل خاصة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق البقر بالابل حين قال البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ولانه قال فاذا وجبت جنوبها وهذا يختص بالابل فانها تنحر قائمة دون البقر وقال قوم البدن الابل والبقر التى يتقرب بها الى الله تعالى فى الحج والعمرة لانه انما سمى بذلك لعظم البدن فالاولى دخولها فيه أما الشاة فلا تدخل وان كانت تجوز فى النسك لانها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة (المسئلة الثانية) قرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر فى جمع ثمرة وابن أبى اسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف وقرئ بالنصب والرفع كقوله والقمر قدرناه منازل والله أعلم (المسئلة الثالثة) اذا قال لله على بدنة هل يجوز له نحرها فى غير مكة قال أبو حنيفة

عطف على سبيل الله قيل المراد بها مكة بدليل وصفه بقوله تعالى (الذى جعلناه للناس) أى كائنا من كان من غير فرق بين مكى وآفاقى (سواء العاكف فيه والباد) أى المقيم والطارئ وسواء أى مستويا مفعول ثان لجعلناه والعاكف مرتفع به واللام متعلق به ظرف له وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادة تشنيع الصادين عنه وقرئ سواء بالرفع على أنه خبر مقدم والعاكف مبتدأ والجملة مفعول ثان للجعل وقرئ العاكف بالجر على انه بدل من الناس (ومن يرد فيه) مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد فيه مرادا ما (بالحاد) بعدول عن القصد (بظلم) بغير حق وهما حالان مترادفان أو الثانى بدل من الاول باعادة الجار أو صلة له أى ملحدا بسبب الظلم كالاشراك واقتراف الآثام (نذقه من عذاب أليم) جواب لمن (واذ بوأنا) يقال بوأه منزلا أى أنزله فيه ولما لزمه جعل الثانى مباءة للاول قيل (لابراهيم مكان البيت) وعليه مبنى قول ابن عباس رضى الله عنهما جعلناه أى اذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام أى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه غير مرة وقيل اللام زائدة

ومحمد رحمهما الله يجوز وقال أبو يوسف رحمه الله لا يجوز الا بمكة واتفقوا فيمن نذر هديا ان عليه ذبحه بمكة ولو قال لله على جزور انه يذبحه حيث شاء وقال أبو حنيفة رحمه الله البدنة بمنزلة الجزور فوجب أن يجوز له نحرها حيث يشاء بخلاف الهدى فانه تعالى قال هديا بالغ الكعبة فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدى واحتج أبو يوسف رحمه الله بقوله تعالى والبدن جعلناها لكم من شعائر الله فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدى أجاب أبو حنيفة رحمه الله بانه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فان الاضحية قربة وهى جائزة فى سائر الاماكن أما قوله تعالى جعلناها لكم فاعلم انه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن تهدى فى الحج جاز أن يقول جعلناها لكم من شعائر الله أما قوله لكم فيها خير فالكلام فيه ما تقدم فى قوله لكم فيها منافع واذا كان قوله لكم فيها خير كالترغيب فالاولى أن يراد به الثواب فى الآخرة وما أخلق العاقل بالحرص على شئ شهد الله تعالى بان فيه خيرا وبان فيه منافع أما قوله فاذكروا اسم الله عليها ففيه حذف أى اذكروا اسم الله على نحرها قال المفسرون هو أن يقال عند النحر أو الذبح بسم الله والله أكبر اللهم منك واليك أما قوله صواف فالمعنى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرئ صوافن من صفون الفرس وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافى أى خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله فى التسمية على نحرها أحدا كما كان يفعله المشركون وعن عمرو بن عبيد صوافنا بالتنوين عوضا عن حرف الاطلاق عند الوقف وعن بعضهم صوافى نحو قول العرب أعط القوس باريها ولا يبعد أن تكون الحكمة فى اصطفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا وأقرب الى ظهور التكبير واعلاء اسم الله وشعائر دينه وأما قوله فاذا وجبت جنوبها فاعلم ان وجوب الجنوب وقوعها على الارض من وجب الحائط وجبة اذا سقط ووجبت الشمس وجبة اذا غربت والمعنى اذا سقطت على الارض وذلك عند خروج الروح منها فكلوا منها وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها وأطعموا القانع والمعتر القانع السائل يقال قنع يقنع قنوعا اذا سأل قال أبو عبيد هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه قال الفراء والمعنى الثانى القانع هو الذى لا يسأل من القناعة يقال قنع يقنع قناعة اذا رضى بما قسم له وترك السؤال أما المعتر فقيل انه المتعرض بغير سؤال وقيل انه المتعرض بالسؤال قال الازهرى قال ابن الاعرابى يقال عروت فلانا وأعررته وعروته واعتريته اذا أتيته تطلب معروفه ونحوه قال أبو عبيد والاقرب ان القانع هو الراضى بما يدفع اليه من غير سؤال والحاح والمعتر هو الذى يتعرض ويطلب ويعتريهم حالا بعد حال فيفعل ما يدل على انه لا يقنع بما يدفع اليه أبدا وقرأ الحسن والمعترى وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضى لا غير يقال قنع فهو قنع وقانع أما قوله

كذلك

ومكان ظرف كما فى أصل الاستعمال أى أنزلناه فيه قبل رفع البيت الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى ابراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها الخجوج كنست ما حوله فبناه على أسه القديم روى أن الكعبة الكريمة بنيت خمس مرات احداها بناء الملائكة وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفعت أيام الطوفان والثانية بناء ابراهيم عليه السلام والثالثة بناء قريش فى الجاهلية وقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البناء والرابعة بناء ابن الزبير والخامسة بناء الحجاج وقد أوردناها فى هذا الشأن من الاقاويل فى تفسير قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وأن فى قوله تعالى (أن لا تشرك بى شيأ) مفسرة اوّأ ما من حيث انه متضمن لمعنى تعبدنا لان التبوئة للعبادة أو مصدرية موصولة بالنهى وقد مر تحقيقه فى أوائل سورة هود أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى فى العبادة شيأ (وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) أى وطهر بيتى من الاوثان والاقذار لمن يطوف به ويصلى فيه ولعل التعبير عن الصلاة باركانها للدلالة على ان كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعت وقرئ يشرك بالياء (وأذن فى الناس) أى نادفيهم وقرئ آذن (بالحج)

كذلك سخرناها لكم فالمعنى انها أجسم وأعظم وأقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه فالله تعالى جعل الابل والبقر بالصفة التى يمكننا تصريفها على ما نريد وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى فى الدين والدنيا ثم لما بين تعالى هذه النعمة قال بعده لعلكم تشكرون والمراد لكى تشكروا قالت المعتزلة هذا يدل على انه سبحانه أراد من جميعهم أن يشكروا فدل هذا على انه يريد كل ما أمر به ممن أطاع وعصى لا كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لم يرد ذلك الا من المعلوم انه يطيع والكلام عليه قد تقدم غير مرة أما قوله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) لما كانت عادة الجاهلية على ما روى فى القربان انهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بين تعالى ما هو القصد من النحر فقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم فبين أن الذى يصل اليه تعالى ويرتفع اليه من صنع المهدى من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم ومعلوم ان شيأ من الاشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك الى حيث يكتب يدل عليه قوله اليه يصعد الكلم الطيب (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أمور (أحدها) ان الذى ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذى ينتفع بنحره (وثانيها) انه سبحانه غنى عن كل ذلك وانما المراد أن يجتهد العبد فى امتثال أوامره (وثالثها) انه لما لم ينتفع بالاجسام التى هى اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلا له والا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم (ورابعها) انه لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب أن لا يكون عمله مقبولا وانه لا ثواب له (والجواب) اما الاولان فحقان وأما الثالث فمعارض بالداعى والعلم وأما الرابع فصاحب الكبيرة وان لم يكن متقيا مطلقا ولكنه متق فيما أتى به من الطاعة على سبيل الاخلاص فوجب أن تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم (المسئلة الثالثة) كلهم قرؤا ينال الله ويناله بالياء الا يعقوب فانه قرأ بالتاء فى الحرفين فمن أنث فقد رده الى اللفظ ومن ذكر فللحائل بين الاسم والفعل ثم قال كذلك سخرها لكم والمراد انه انما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم بما نفعله عند النحر وقبله وبعده على ما هدانا ودلنا عليه وبينه لنا ثم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره وبشر المحسنين كما قال من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك به فيصير محسنا الى نفسه بتوفير الثواب عليه ۞ قوله تعالى (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) اعلم انه تعالى لما بين

بدعوة الحج والامر به روى انه عليه السلام صعد أبا قبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فاسمعه الله تعالى من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى أن يحج وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بذلك فى حجة الوداع ويأباه كون السورة مكية (يأتوك) جواب للامر (رجالا) أى مشاة جمع راجل كقيام بجمع قائم وقرئ بضم الراء وتخفيف الجيم وتشديده ورجالى كعجالى (وعلى كل ضامر) عطف على رجالا أى وركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة فهزله أوزاد هزاله (يأتين) صفة لضامر محمولة على المعنى وقرئ يأتون على أنه صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير للناس (من كل فج) طريق واسع (عميق) بعيد وقرئ معيق يقال بئر بعيدة العمق وبعيدة المعق بمعنى كالجذب والجبذ (ليشهدوا) متعلق بيأتوك لا بأذن أى ليحضروا (منافع) عظيمة الخطر كثيرة العدد أو نوعا من المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه العبادة واللام فى قوله تعالى (لهم) متعلق بمحذوف هو صفة لمنافع أى منافع كائنة لهم (ويذكروا اسم الله) عند اعداد الهدايا والضحايا وذبحها وفى جعله غاية للاتيان ايذان بانه الغاية القصوى دون غيره وقيل

مايلزم في الحج ومناسكه ومافيه من منافع الدنيا والآخرة وقد ذكرنا من قبل ان الكفار صدوهم أتبع ذلك ببيان مايزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال ان الله يدافع عن الذين آمنوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بالالف ومثله ولولا دفع الله وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف فيهما وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ان الله يدافع بالالف ولولا دفع بغير ألف فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم وقال الخليل يقال دفع الله المكروه عنك دفعا ودافع عنك دفاعا والدفاع أحسنهما (المسئلة الثانية) ذكر ان الله يدافع عن الذين آمنوا ولم يذكر مايدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم وان كان في الحقيقة انه يدافع بأس المشركين فلذلك قال بعده ان الله لا يحب كل خوان كفور فنبه بذلك على انه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته (المسئلة الثالثة) قال مقاتل ان الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتلهم سرا فنهاهم (المسئلة الرابعة) هذه الآية بشارة للمؤمنين باعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهي كقوله لن يضروكم الا أذى وقوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا وقال انهم لهم المنصورون وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب أما قوله تعالى ان الله لا يحب كل خوان كفور فالمعنى انه سبحانه جعل العلة في انه يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب ضدهم وهو الخوان الكفور أي خوان في امانة الله كفور لنعمته ونظيره قوله لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم قال مقاتل أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأي خيانة أعظم من هذا • أما قوله تعالى أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم في رواية حفص أذن بضم الالف والباقون بفتحها أي أذن الله لهم في القتال وقرأ أهل المدينة وعاصم يقاتلون بنصب التاء وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي أذن بنصب الالف ويقاتلون بكسر التاء قال الفراء والزجاج يعني أذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين في المستقبل ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال (المسئلة الثانية) في الآية محذوف والتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه أما قوله بأنهم ظلموا فالمراد انهم أذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فاني لم أومر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية وقيل نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن في مقاتلتهم أما قوله وان الله على نصرهم لقدير فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره ان أطعتني فأنا قادر على مجازاتك لا يعني بذلك القدرة بل يريد انه سيفعل ذلك أما قوله تعالى الذين أخرجوا من

هو كناية عن الذبح لانه لا ينفك عنه (في أيام معلومات) هي أيام النحر كما ينبئ عنه قوله تعالى (على مارزقهم من بهيمة الانعام) فان المراد بالذكر ماوقع عند الذبح وقيل هي عشر ذي الحجة وقد علق الفعل بالمرزوق وبين بالبهيمة تحريضا على التقرب وتنبيها على الذكر (فكلوا منها) التفات الى الخطاب والفاء فصيحة عاطفة لمدخولها على مقدر قد حذف للاشعار بانه أمر محقق غير محتاج الى التصريح به كما في قوله تعالى فانفجرت أي فاذكروا اسم الله على ضحاياكم فكلوا من لحومها والامر للاباحة وازاحة ما كانت عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه أو للندب الى مواساة الفقراء ومساواتهم (وأطعموا البائس) أي الذي أصابه بؤس وشدة (الفقير) المحتاج وهذا الامر للوجوب وقد قيل به في الاول أيضا (ثم ليقضوا تفثهم) أي ليؤدوا ازالة وسخهم أو ليحكموها بقص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال (وليوفوا نذورهم) ماينذرون من البر في حجهم وقيل مواجب الحج وقرئ بفتح الواو وتشديد الفاء (وليطوفوا) طواف الركن الذي به يتم التحلل فانه قرينة قضاء التفث وقيل طواف الوداع (بالبيت العتيق) أي القديم فانه أول بيت وضع للناس أو المعتق من تسلط الجبابرة فكأين من

ديارهم بغير حق فاعلم انه تعالى لما بين انهم انما أذنوا في القتال لاجل انهم ظلموا فبين ذلك الظلم بقوله الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين (أحدهما) انهم أخرجوهم من ديارهم (والثاني) انهم أخرجوهم بسبب انهم قالوا ربنا الله وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم فان قيل كيف استثنى من غير حق قولهم ربنا الله وهو من الحق قلنا تقدير الكلام انهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الاقرار والتمكين لا موجب الاخراج والتسيير ومثله هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ثم بين سبحانه بقوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت ان عادته جل جلاله أن يحفظ دينه بهذا الامر قرأ نافع لهدمت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما المراد بهذا الدفاع الذي أضافه الى نفسه (الجواب) هو اذنه لاهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين من حيث يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الاديان وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة ولكنه دفع عن هؤلاء بان أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وان كانت لغير أهل الاسلام وذكر المفسرون وجوها أخر (أحدها) قال الكلبي يدفع الله بالنبيين عن المؤمنين وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد (وثانيها) روى ابو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال يدفع الله بالمحسن عن المسيء وبالذي يصلي عن الذي لا يصلي وبالذي يتصدق عن الذي لا يتصدق وبالذي يحج عن الذي لا يحج وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه ثم تلا هذه الآية (وثالثها) قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما يدفع بدين الاسلام وباهله عن أهل الذمة (ورابعها) قال مجاهد يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص (السؤال الثاني) لماذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عبادة المسلمين (الجواب) لاجل ماسألت عنه اختلفوا على وجوه (أحدها) قال الحسن المراد بهذه المواضع أجمع مواضع المؤمنين وان اختلفت العبارات عنها (وثانيها) قول الزجاج ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلي فيه فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه وفي زمن عيسى الصوامع وفي زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المساجد فعلى هذا انما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ (وثالثها) بل المراد لهدمت هذه الصوامع في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لانها على كل حال يجري فيها ذكر الله تعالى فليست بمنزلة عبادة الاوثان (السؤال الثالث) ما الصوامع والبيع والصلوات والمساجد (الجواب) ذكروا فيها وجوها (أحدها) الصوامع للنصارى والبيع لليهود والصلوات للصابئين والمساجد

بجبار سار اليه ليهدمه فقصمه الله عز وجل وأما الحجاج الثقفي فانما قصد اخراج ابن الزبير رضي الله عنهما منه لا التسلط عليه (ذلك) أي الامر ذلك وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهي كلام واحد (ومن يعظم حرمات الله) أي أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه وقيل الحرم وما يتعلق بالحج من التكاليف وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام (فهو خير له) أي فالتعظيم خير له ثوابا (عند ربه) أي في الآخرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره من لتشريفه والاشعار بعلة الحكم (وأحلت لكم الانعام) وهي الازواج الثمانية على الاطلاق فقوله تعالى (الا مايتلى عليكم) أي الا مايتلى عليكم آية تحريمه استثناء متصل منها على أن ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى والجملة اعتراض جيء به تقريرا لما قبله من الامر بالاكل والاطعام ودفعا لما عسى يتوهم أن الاحرام يحرمه كما يحرم الصيد وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القبيل بحمل الانعام على ماذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة لئلا يحتاج الى الاستثناء المذكور اذ ليس فيها ما حرم لعارض قطعا لمراعاة حسن التخلص الى مابعده

للمسلمين عن أبى العالية رضى الله عنه (وثانيها) الصوامع للنصارى وهى التى بنوها فى الصحارى والبيع لهم أيضا وهى التى يبنونها فى البلد والصلوات لليهود قال الزجاج وهى بالعبرانية صلوتا (وثالثها) الصوامع للصابئين والبيع للنصارى والصلوات لليهود عن قتادة (ورابعها) أنها بأسرها أسماء المساجد عن الحسن أما الصوامع فلان المسلمين قد يتخذون الصوامع وأما البيع فاطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه وأما الصلوات فالمعنى انه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات وخربت المساجد (السؤال الرابع) الصلوات كيف تهدم خصوصا على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين (الجواب) من وجوه (أحدها) المراد بهدم الصلاة ابطالها واهلاك من يفعلها كقولهم هدم فلان احسان فلان اذا قابله بالكفر دون الشكر (وثانيها) بل المراد مكان الصلوات لانه الذى يصح هدمه كقوله واسئل القرية أى أهلها (وثالثها) لما كان الاغلب فيما ذكر مما يصح أن يهدم جاز ضم ما لا يصح أن يهدم اليه كقولهم متقلدا سيفا ورمحا وان كان الرمح لا يتقلد (السؤال الخامس) قوله يذكر فيها اسم الله كثيرا مختص بالمساجد أو عائد الى الكل (الجواب) قال الكلبى ومقاتل عائد الى الكل لان الله تعالى يذكر فى هذه المواضع كثيرا والاقرب انه مختص بالمساجد تشريفا لها بان ذكر الله يحصل فيها كثيرا (السؤال السادس) لم قدم الصوامع والبيع فى الذكر على المساجد (الجواب) لانها أقدم فى الوجود وقيل أخرها فى الذكر كما فى قوله ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ولان أول الفكر آخر العمل فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمته خير الامم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام نحن الآخرون السابقون أما قوله تعالى ولينصرن الله من ينصره فقال بعضهم من ينصره يتلقى الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى وقال آخرون بل المراد من يقوم بسائر دينه وانما قالوا ذلك لان نصرة الله على الحقيقة لا تصح وانما المراد من نصرة الله نصرة دينه كما يقال فى ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفى قوله ولينصرن الله من ينصره وعد بالنصر لمن هذه حاله ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائما بايضاح الادلة والبينات ويكون بالاعانة على المعارف والطاعات وفيه ترغيب فى الجهاد من حيث وعدهم النصر ثم بين تعالى انه قوى على هذه النصرة التى وعدها المؤمنين وانه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله عزيز لان العزيز هو الذى لا يضام ولا يمنع عما يريده ثم انه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم فى القتال فى الآية الاولى فقال الذين ان مكناهم فى الارض والمراد من هذا التمكين السلطنة ونفاذ القول على الخلق لان المتبادر الى الفهم من قوله مكناهم فى الارض ليس الا هذا ولانا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الامور الاربعة المذكورة عليه فى معرض الجزاء لانه ليس كل من كان قادرا على الفعل أتى بهذه الاشياء اذا ثبت هذا فنقول المراد بذلك هم المهاجرون لان قوله الذين ان مكناهم صفة لمن تقدم وهو

من قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) فانه مترتب على ما يفيده قوله تعالى ومن يعظم حرمات الله من وجوب مراعاتها والاجتناب عن هتكها ولما كان بيان حل الانعام من دواعى التعاطى لا من مبادى الاجتناب عقب بما يوجب الاجتناب عنه من المحرمات ثم أمر بالاجتناب عما هو أقصى المحرمات كأنه قيل ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والانعام ليست من المحرمات فانها محللة لكم الا ما يتلى عليكم آية تحريمه فانه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الامور التى يجب الاجتناب عنها وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور وكأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بانه حكم بذلك وقيل شهادة الزور لما روى انه عليه السلام قال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله تعالى ثلاثا وتلا هذه الآية والزور من الزور وهو الانحراف كالافك المأخوذ من الافك الذى هو القلب والصرف فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل هو قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك (حنفاء لله) مائلين عن كل دين

قوله الذين أخرجوا من ديارهم والانصار ما أخرجوا من ديارهم فيصير معنى الآية ان الله تعالى وصف المهاجرين بانه ان مكنهم من الارض وأعطاهم السلطنة فانهم أتوا بالامور الاربعة وهى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكن قد ثبت ان الله تعالى مكن الائمة الاربعة من الارض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الامور الاربعة واذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على امامة الاربعة ولا يجوز حمل الآية على على عليه السلام وحده لان الآية دالة على الجمع وفى قوله ولله عاقبة الامور دلالة على ان الذى تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة ثم ان الامور ترجع الى الله تعالى بالعاقبة فانه سبحانه هو الذى لا يزول ملكه أبدا وهو أيضا يؤكد ما قلناه ۞ قوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) اعلم انه تعالى لما بين فيما تقدم اخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن فى مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين ان لله عاقبة الامور أردفه بما يجرى مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الامم أنبياءهم وذكر الله سبعة منهم فان قيل ولم قال وكذب موسى ولم يقل قوم موسى (فالجواب) من وجهين (الاول) ان موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو اسرائيل وانما كذبه غير قومه وهم القبط (الثانى) كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره أما قوله تعالى فأمليت للكافرين يعنى أمهلتهم الى الوقت المعلوم عندى ثم أخذتهم بالعقوبة فكيف كان نكير استفهام تقرير أى فكيف كان انكارى عليهم بالعذاب أليس كان واقعا قطعا ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتا وبالعمارة خرابا ألست أعطيت الانبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم فى الارض فينبغى أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم فانه تعالى انما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضا والتسليم وان شق ذلك على القلب واعلم ان بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام فكيف بذلك مع منزلته لكنه فى كل وقت يصل اليه من جهتهم ما يزيده غما فاجرى الله عادته بان يصبره حالا بعد حال وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأى جنس من عذاب الاستئصال هلكوا وههنا بحث وهو ان هذه الآية تدل على انه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم الا عذاب الاستئصال فانه لا يفعله بقوم

زائغ الى الدين الحق مخلصين لله تعالى (غير مشركين به) أى شيأ من الاشياء فيدخل فى ذلك الاوثان دخولا أوليا وهما حالان من واو فاجتنبوا (ومن يشرك بالله) جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب عن الاشراك واظهار الاسم الجليل لاظهار كمال قبح الاشراك (فكأنما خر من السماء) لانه سقط من أوج الايمان الى حضيض الكفر (فتخطفه الطير) فان الاهواء المردية توزع أفكاره وقرئ فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء وبكسر الخاء والطاء وبكسر التاء مع كسرهما وأصلهما تختطفه (أو تهوى به الريح) أى تسقطه وتقذفه (فى مكان سحيق) بعيد فان الشيطان قد طوح به فى الضلالة وأو للتخيير كما فى أو كصيب أو للتنويع ويجوز أن يكون من باب التشبيه المركب فيكون المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكا شبيها بهلاك أحد الهالكين (ذلك) أى الامر ذلك أو امتثلوا ذلك (ومن يعظم شعائر الله) أى الهدايا فانها من معالم الحج وشعائره تعالى كما ينبئ عنه والبدن جعلناها لكم من شعائر الله وهو الاوفق لما بعده وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأن يختارها حسانا سمانا غالية الاثمان روى أنه عليه الصلاة والسلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى

أنفسه برة من ذهب وأن عمر رضى الله عنه ٢٤٠ أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار (فانها) أى فان تعظيمها (من تقوى
القلوب) أى من أفعال ذوى تقوى
القلوب فحذفت هذه المضافات
والعائد الى من أو فان تعظيمها ناشئ
من تقوى القلوب وتخصيصها
بالاضافة لانها مراكز التقوى
التى اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر
أثرها فى سائر الاعضاء (لكم فيها)
أى فى الهدايا (منافع) هى درّها
ونسلها وصوفها وظهرها (الى
أجل مسمى) هو وقت نحرها
والتصدق بلحمها والاكل منه (ثم
محلها) أى وجوب نحرها أو وقت
نحرها منتهية (الى البيت العتيق)
اى الى ما يليه من الحرم وثم
للتراخى الزمانى أو الرتبى أى
لكم فيها منافع دنيوية الى وقت
نحرها ثم منافع دينية أعظمها فى
النفع محلها اى وجوب نحرها
أو وقت وجوب نحرها الى البيت
العتيق أى منتهية اليه هذا وقد
قيل المراد بالشعائر مناسك الحج
ومعالمه والمعنى لكم فيها منافع
بالاجر والثواب فى قضاء المناسك
واقامة شعائر الحج الى أجل
مسمى هو انقضاء أيام الحج ثم محلها
أى محل الناس من احرامهم الى
البيت العتيق أى منتهاه بأن
يطوفوا به طواف الزيارة يوم النحر
بعد قضاء المناسك فاضافة المحل
اليها لادنى ملابسة (ولكل أمة)
اى لكل أهل دين (جعلنا منسكا)
أى متعبدا أو قربانا يتقربون به الى
الله عز وجل وقرئ بكسر السين أى
موضع نسك وتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص أى لكل أمة من الامم جعلنا منسكا لا لبعض منهم دون بعض

محمد صلى الله عليه وسلم وان كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وثبتهم قال الحسن السبب فى تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الامة ان ذلك العذاب مشروط بامرين (أحدهما) ان عند الله حدا من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه (والثانى) ان الله لا يعذب قوما حتى يعلم ان أحدا منهم لا يؤمن فاما اذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله ان أحدا منهم لا يؤمن فحينئذ يأمر الانبياء فيدعون على أممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله حتى اذا استيأس الرسل أى من اجابة القوم وقوله لنوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن واذا عذبهم الله تعالى فانه ينجى المؤمنين لقوله فلما جاء أمرنا أى بالعذاب نجينا هودا واعلم ان الكلام فى هذه المسئلة قد تقدم فلا فائدة فى الاعادة فان قيل كيف يوصف ما ينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بانه نكير قلنا اذا كان رادعا لغيره وصارفا له عن مثل ما أوجب ذلك صار نكيرا أما قوله فكأين من قرية أهلكناها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم المراد من قوله فكأين فكم على وجه التكثير وقيل أيضا معناه ورب قرية والاول أولى لانه أوكد فى الزجر فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وانه عجل اهلاكهم أتبعه بما دل على ان لذلك أمثالا وان لم يذكره مفصلا (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأهل الكوفة والمدينة أهلكناها بالنون وقرأ أبو عمرو ويعقوب أهلكتها وهو اختيار أبى عبيد لقوله فى الآية الاولى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم (المسئلة الثالثة) قوله أهلكناها أى أهلها ودل بقوله وهى ظالمة على ما ذكرنا ويحتمل أن يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحت اهلاكها اهلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل به اهلاك من فيها وان كان الاول أقرب أما قوله وهى خاوية على عروشها ففيه سؤالان (السؤال الاول) ما معنى هذه اللفظة فقال صاحب الكشاف كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة فهو عرش والخاوى الساقط من خوى النجم اذا سقط أو الخالى من خوى المنزل اذا خلا من أهله فان فسرنا الخاوى بالساقط كان المعنى انها ساقطة على سقوفها أى خرت سقوفها على الارض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف وان فسرناه بالخالى كان المعنى انها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها قال ويمكن أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هى خاوية وهى على عروشها بمعنى ان السقوف سقطت على الارض فصارت فى قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهى مشرفة على السقوف الساقطة وبالجملة فالآية دالة على انها بقيت محلا للاعتبار (السؤال الثانى) ما محل هاتين الجملتين من الاعراب أعنى وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها الجواب (الاولى) فى محل النصب على الحال (والثانية) لا محل لها لانها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل قال أبو مسلم المعنى فكأين من قرية أهلكناها وهى كانت ظالمة وهى الآن خاوية أما قوله وبئر معطلة وقصر مشيد

241

(اليذكروا اسم الله) خاصة دون
غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه
الكريم علل الجعل به تنبيها على
أن المقصود الاصلى من المناسك
تذكر المعبود (على ما رزقهم من
بهيمة الانعام) عند ذبحها وفيه
تنبيه على أن القربان يجب أن
يكون من الانعام والخطاب فى
قوله تعالى (فالهكم اله واحد)
للكل تغليبا والفاء لترتيب
ما بعدها على ما قبلها فان جعله
تعالى لكل أمة من الامم منسكا مما
يدل على وحدانيته تعالى وانما قيل
اله واحد ولم يقل واحد لما أن
المراد بيان أنه تعالى واحد فى ذاته
كما أنه واحد فى الهيته للكل
والفاء فى قوله تعالى (فله أسلموا)
لترتيب ما بعدها من الامر بالاسلام
على وحدانيته تعالى وتقديم الجار
والمجرور على الامر للقصر أى فاذا
كان الهكم الها واحدا فأخلصوا
له التقرب أو الذكر واجعلوه
لوجهه خاصة ولا تشوبوه بالشرك
(وبشر المخبتين) تجريد للخطاب
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
أى المتواضعين او المخلصين فان
الاخبات من الوظائف الخاصة
بهم (الذين اذا ذكر الله وجلت
قلوبهم) هيبة منه تعالى لاشراق
اشعة جلاله عليها (والصابرين
على ما أصابهم) من مشاق
التكاليف ومؤنات النوائب
(والمقيمى الصلوة) فى أوقاتها
وقرئ بنصب الصلاة على تقدير

مشيد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن معطلة من أعطله بمعنى معطلة ومعنى المعطلة انها عامرة فيها الماء ويمكن الاستقاء منها الا انها عطلت أى تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وفى المشيد قولان (أحدهما) انه المجصص لان الجص بالمدينة يسمى الشيد (والثانى) انه المرفوع المطول والمعنى انه تعالى بين ان القرية مع تكامل بنائهم لها واغتباطهم بها خربت لاجل كفرهم بهذا الوصف وكذلك البئر التى كانوها وصارت شربهم صارت معطلة بلا شارب ولا وارد والقصر الذى أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهرا خاليا بلا ساكن وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر وفيه دلالة على أن تفسير على بمع أولى لان التقدير وهى خاوية مع عروشها ومعلوم أنها اذا كانت كذلك كانت أدخل فى الاعتبار وهو كقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين والله أعلم بالصواب (المسئلة الثانية) روى أبو هريرة رضى الله عنه ان هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات ثم وثم بلدة عند البئر اسمها حاضورا بناها قوم صالح وأمروا عليهم جلهس بن جلاس وجعلوا وزيره سنحاريب وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما وأرسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه فى السوق فأهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم قال الامام أبو القاسم الانصارى وهذا عجيب لانى زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها عكة فكيف يقال انه بحضرموت أما قوله تعالى أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار لان الرؤية لها حظ عظيم فى الاعتبار وكذلك استماع الاخبار فيه مدخل ولكن لا يكمل هذان الامران الا بتدبر القلب لان من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع البتة ولو تفكر فيما سمع لانتفع فلهذا قال فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور كأنه قال لا عمى فى ابصارهم فانهم يرون بها لكن العمى فى قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه وههنا سؤالات (السؤال الاول) قوله أفلم يسيروا فى الارض هل يدل على الامر بالسفر (الجواب) يحتمل أنهم ما سافروا فحثهم على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا (السؤال الثانى) ما معنى الضمير فى قوله فانها لا تعمى الابصار (والجواب) هذا الضمير ضمير القصة والشان يجيء مؤنثا ومذكرا وفى قراءة ابن مسعود فانه ويجوز أن يكون ضميرا مبهما يفسره الابصار (السؤال الثالث) أى فائدة فى ذكر الصدور مع ان كل أحد يعلم ان القلب لا يكون الا فى الصدر (الجواب) ان المتعارف ان العمى مكانه الحدقة فلما أريد اثباته للقلب على خلاف المتعارف احتيج الى زيادة بيان كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذى بين فكيك فقولك الذى بين فكيك تقرير

لما دعته للسان وتثبت لان محل المضاء هو هو لا غير وكانك قلت ما نفيت المضاء عن السيف واثبته للسانك سهوا ولكنى تعمدته على اليقين وعندى فيه وجه آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب وعند قوم ان محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين ان محل ذلك هو الصدر (السؤال الرابع) هل تدل الآية على ان العقل هو العلم وعلى ان محل العلم هو القلب (الجواب نعم) لان المقصود من قوله قلوب يعقلون بها العلم وقوله يعقلون بها كالدلالة على ان القلب آلة لهذا التعقل فوجب جعل القلب محلا للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لان الجاهل لكونه متحيرا يشبه الاعمى قوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين) اعلم انه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزؤن باستعجال العذاب فقال ويستعجلونك بالعذاب وفى ذلك دلالة على انه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب ان استمروا على كفرهم ولان قولهم لوما تأتينا بالملائكة يدل على ذلك فقال تعالى ولن يخلف الله وعده لان الوعد بالعذاب اذا كان فى الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين ان العاقل لا ينبغى أن يستعجل عذاب الآخرة فقال وان يوما عند ربك يعنى فيما ينالهم من العذاب وشدته كالف سنة لو بقى وعذب فى كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه وهذا قول أبى مسلم وهو أولى الوجوه (الوجه الثانى) ان المراد طول أيام الآخرة فى المحاسبة ويرجع معناه الى قريب مما تقدم وذلك ان الايام القصيرة اذا مرت فى الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الايام المستطيلة اذا مرت فى الشدة ثم ان العذاب الذى يكون طول أيامها الى هذا الحد لا ينبغى للعاقل أن يستعجله (والوجه الثالث) ان اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة اليه على السواء لانه القادر الذى لا يعجزه شئ فاذا لم يستبعدوا امهال يوم فلا يستبعدوا أيضا امهال ألف سنة أما قوله وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة فالمراد وكم من قرية أخرت اهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذتهم بان أنزلت العذاب بهم ومع ذلك فعذابهم مدخر اذا صاروا الى وهو تفسير قوله والى المصير فان قيل فلم قال فيما قبل فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة وقال ههنا وكأين من قرية أمليت لها الاولى بالفاء وهذه بالواو قلنا الاولى وقعت بدلا عن قوله فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعنى قوله ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون أما قوله قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين فالمعنى انه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والانذار وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن ادامة التخويف والانذار وأن يقول لهم انما بعثت للانذار فاستهزاؤكم بذلك

لا

النون وقرئ والمقيمى الصلاة على الاصل (ومما رزقناهم ينفقون) فى وجوه الخيرات (والبدن) بضم الباء وسكون الدال وقرئ بضمها وهما جمعا بدنة وقيل الاصل ضم الدال كخشب وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرئ بتشديد النون على لفظ الوقف وانما سميت بها الابل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة وحيث شاركها البقرة فى الاجزاء عن سبعة بقوله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة جعلا فى الشريعة جنسا واحدا وانتصابه بفعل يفسره (جعلناها لكم) وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ والجملة خبره وقوله تعالى (من شعائر الله) أى من أعلام دينه التى شرعها الله تعالى مفعول ثان للجعل ولكم ظرف لغو متعلق به وقوله تعالى (لكم فيها خير) أى منافع دينية ودنيوية جملة مستأنفة مقررة لما قبلها (فاذكروا اسم الله عليها) بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا اله الا الله والله أكبر اللهم منك واليك (صواف) أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرئ صوافن من صفن الفرس اذا قام على ثلاث وعلى طرف سنبك الرابعة لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافنا بابدال التنوين من حرف الاطلاق عند الوقف وقرئ صوافى أى خوالص لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من

لا يعنى منه ❁ قوله تعالى (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) اعلم انه تعالى لما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يجب أن يقول لهم أنا نذير مبين أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم لان الرسول انما يكون منذرا بذكر الوعد للمطيعين والوعيد للعاصين فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فجمع بين الوصفين وهذا دليل على ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان وبه يبطل قول المعتزلة ويدخل فى الايمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان ويدخل فى العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور ثم بين سبحانه ان من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم أما المغفرة فاما أن تكون عبارة عن غفران الصغائر أو عن غفران الكبائر بعد التوبة أو عن غفرانها قبل التوبة والاولان واجبان عند الخصم وأداء الواجب لا يسمى غفرانا فبقى الثالث وهو دلالته على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة وأما الرزق الكريم فهو اشارة الى الثواب وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية وهو ان الانسان هناك يستغنى عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها وأن يكون للصفات الثبوتية وهو أن يكون رزقا كثيرا دائما خالصا عن شوائب الضرر مقرونا بالتعظيم والتبجيل والاولى جعل الكريم دالا على كل هذه الصفات فهذا شرح حال المؤمنين وأما حال الكفار فقال والذين سعوا فى آياتنا معاجزين والمراد اجتهدوا فى ردها والتكذيب بها حيث سموها سحرا وشعرا وأساطير الاولين ويقال لمن بذل جهده فى أمر انه سعى فيه توسعا من حيث بلغ فى بذل الجهد النهاية كما اذا بلغ الماشى نهاية طاقته فيقال له سعى وذكر الآيات وأراد التكذيب بها مجازا قال صاحب الكشاف يقال سعى فى أمر فلان اذا أصلحه أو أفسده بسعيه أما المعاجز فيقال عاجزته أى طمعت فى اعجازه واختلفوا فى المراد هل معاجزين لله أو للرسول وللمؤمنين والاقرب هو الثانى لانهم ان أنكروا الله استحال منهم أن يطمعوا فى اعجازه وان أثبتوه فيبعد أن يعتقدوا انهم يعجزونه ويغلبونه ويصح منهم أن يظنوا ذلك فى الرسول بالحيل والمكايد أما الذين قالوا المراد معاجزين لله فقد ذكروا وجوها (أحدها) المراد بمعاجزين مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث (وثانيها) انهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب (وثالثها) يعجزون الله بادخال الشبه فى قلوب الناس (والجواب) عن الاول ان من جحد أصل الشئ لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشئ ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده انهم ظنوا مغالبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يقوله من أمر الحشر والنشر (والجواب) عن الثانى والثالث أن المغالبة فى الحقيقة ترجع الى الرسول والامة لا الى الله تعالى أما قوله تعالى أولئك أصحاب الجحيم فالمراد انهم يدومون فيها وشبههم من حيث الدوام بالصاحب فان قيل انه عليه السلام فى هذه الآية بشر

يسكن الياء على الاطلاق كما فى قوله
• لعلى أرى باق على الحدثان •
(فاذا وجبت جنوبها) سقطت على الارض وهو كناية عن الموت (فكلوا منها وأطعموا القانع) أى الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسئلة ويؤيده أنه قرئ القنع أو السائل من قنع اليه قنوعا اذا خضع له فى السؤال (والمعتر) أى المتعرض للسؤال وقرئ المعترى يقال عره وعراه واعتره واعتراه (كذلك) مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى صواف (سخرناها لكم) مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصى عليكم حتى تاخذونها منقادة فتعقلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون فى لباتها (لعلكم تشكرون) لتشكروا انعامنا عليكم بالتقرب والاخلاص (لن ينال الله) أى لن يبلغ مرضاته ولن يقع منه موقع القبول (لحومها) المتصدق بها (ولا دماؤها) المهراقة بالنحر من حيث انها لحوم ودماء (ولكن يناله التقوى منكم) ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التى تدعوكم الى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرب اليه والاخلاص له وقيل كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قرابينهم فهم به المسلمون فنزلت (كذلك سخرها لكم) تكرير للتذكير والتعليل بقوله تعالى (لتكبروا الله) أى لتعرفوا

المؤمنين أولا وانذرا الكافرين ثانيا فكان للناس أن يقال قل يا أيها الناس انما أنا لكم
بشير ونذير فلنا الكلام مسوق الى المشركين ويا أيها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم
يسيروا فى الارض ووصفوا بالاستعجال وانما ألحق ذكر المؤمنين وثوابهم فى البين زيادة
لغيظهم وايذائهم قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى
الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل
ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق
بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهادى
الذين آمنوا الى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة
أو يأتيهم عذاب يوم عقيم الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى
جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) أما قوله تعالى وما
أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ففيه مسائل (المسئلة
الاولى) من الناس من قال الرسول هو الذى حدث وأرسل والنبى هو الذى لم يرسل ولكنه
ألهم أو رأى فى النوم ومن الناس من قال ان كل رسول نبى وليس كل نبى يكون رسولا
وهو قول الكلبى والفراء وقالت المعتزلة كل رسول نبى وكل نبى رسول ولا فرق بينهما
واحتجوا على فساد القول الاول بوجوه (أحدها) هذه الآية فانها دالة على ان النبى قد
يكون مرسلا وكذا قوله تعالى وما أرسلنا فى قرية من نبى (وثانيها) ان الله تعالى خاطب
محمدا مرة بالنبى ومرة بالرسول فدل على انه لا منافاة بين الامرين وعلى القول الاول المنافاة
حاصلة (وثالثها) انه تعالى نص على أنه خاتم النبيين (ورابعها) ان اشتقاق لفظ النبى اما
من النبأ وهو الخبر أو من قولهم نبا اذا ارتفع والمعنيان لا يحصلان الا بقبول الرسالة
(أما القول الثانى) فاعلم ان شيأ من تلك الوجوه لا يبطله بل هذه الآية دالة عليه لانه
عطف النبى على الرسول وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص وقال
فى موضع آخر وكم أرسلنا من نبى فى الاولين وذلك يدل على انه كان نبيا فجعله الله مرسلا
وهو يدل على قولنا وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كم المرسلون فقال ثلثمائة وثلاثة
عشر فقيل وكم الانبياء فقال مائة ألف واربعة وعشرون ألفا الجم الغفير اذا ثبت هذا
فنقول ذكروا فى الفرق بين الرسول والنبى أمورا (أحدها) ان الرسول من الانبياء من
جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبى غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وانما أمر أن
يدعو الى كتاب من قبله (والثانى) ان من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ
شرع من قبله فهو الرسول ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبى غير الرسول
وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا اسحق ويعقوب وأيوب ويونس وهرون وداود وسليمان رسلا
لانهم ما جاؤا بكتاب ناسخ (والثالث) ان من جاءه الملك ظاهرا وأمره بدعوة الخلق فهو
الرسول ومن لم يكن كذلك بل رأى فى النوم كونه رسولا أو أخبره أحد من الرسل بانه

عظمته باقتداره على ما لا يقدر
عليه غيره فتوحدوه بالكبرياء وقيل
هو التكبير عند الاحلال او الذبح
على ما هداكم) أى أرشدكم الى
طريق تسخيرها وكيفية التقرب
بها وما مصدرية أو موصولة أى
على هدايته اياكم أو على ما هداكم
اليه وعلى متعلقة بتكبروا
لتضمنه معنى الشكر (وبشر
المحسنين) أى المخلصين فى كل
ما يأتون وما يذرون فى أمور
دينهم (ان الله يدافع عن الذين
آمنوا) كلام مستأنف مسوق
لتوطين قلوب المؤمنين ببيان ان
الله تعالى ناصرهم على أعدائهم
بحيث لا يقدرون على صدهم
من الحج ليتفرغوا الى أداء
مناسكه وتصديره بكلمة التحقيق
لابراز الاعتناء التام بمضمونه
وصيغة المفاعلة اما للمبالغة
أو للدلالة على تكرر الدفع فانها
قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر
من الجانبين فيبقى تكرره كما فى
الممارسة أى يبالغ فى دفع غائلة
المشركين وضررهم الذى من
جملته الصد عن سبيل الله مبالغة
من يغالب فيه او يدفعها عنهم مرة
بعد أخرى حسبما يتجدد منهم
القصد الى الاضرار بالمسلمين كما فى
قوله تعالى كلما أوقدوا نارا للحرب
أطفأها الله وقرئ يدفع والمفعول
محذوف وقوله تعالى (ان الله
لا يحب كل خوان كفور) تعليل
لما فى ضمن الوعد الكريم من

رسول

رسول الله فهو النبى الذى لا يكون رسولا وهذا هو الاولى (المسئلة الثانية) ذكر المفسرون
فى سبب نزول هذه الآية ان الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى اعراض قومه عنه وشق
عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى فى نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين
قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم فى ناد من أندية قريش كثير أهله واحب
يومئذ أن لا يأتيه من الله شئ ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى
فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة
الاخرى ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فلما سمعت
قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته فقرأ السورة كلها
فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من فى المسجد من المشركين فلم يبق فى المسجد
مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبى أحيحة سعيد بن العاصى فانهما أخذا
حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها الى جبهتيهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين
كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا
باحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا
صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك فحزن رسول الله صلى الله
عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما حتى نزل قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك
من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته الآية هذا رواية عامة المفسرين
الظاهريين أما اهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن
والسنة والمعقول أما القرآن فوجوه (أحدها) قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل
لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (وثانيها) قوله قل ما يكون لى ان أبدله من تلقاء
نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى (وثالثها) قوله وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى
فلو انه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى فى الحال
وذلك لا يقوله مسلم (ورابعها) قوله تعالى وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك
لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الامر
كذلك مع انه لم يحصل (وخامسها) قوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا
وكلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل
(وسادسها) قوله كذلك لنثبت به فؤادك (وسابعها) قوله سنقرئك فلا تنسى وأما السنة
فهى ما روى عن محمد بن اسحق بن خزيمة انه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من
الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال الامام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى هذه القصة غير ثابتة
من جهة النقل ثم أخذ يتكلم فى ان رواة هذه القصة مطعون فيهم وايضا فقد روى البخارى
فى صحيحه ان النبى عليه السلام قرأ سورة والنجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والانس
والجن وليس فيه حديث الغرانيق وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة

الوعيد للمشركين وايذان بان
دفعهم بطريق القهر والخزى ونفى
المحبة كناية عن البغض أى ان
الله يبغض كل خوان فى أماناته
تعالى وهى أوامره ونواهيه أو
فى جميع الامانات التى هى معظمها
كفور لنعمته وصيغة المبالغة
فيهما لبيان أنهم كذلك لا لتقييد
البغض بغاية الخيانة والكفر أو
للمبالغة فى نفى المحبة على اعتبار
النفى أولا وايراد معنى المبالغة
ثانيا (أذن) أى رخص وقرئ على
البناء للفاعل أى اذن الله تعالى
(للذين يقاتلون) أى يقاتلهم
المشركون والمأذون فيه
محذوف لدلالة المذكور عليه
فان مقاتلة المشركين اياهم دالة
على مقاتلتهم اياهم دلالة نيرة وقرئ
على صيغة المبنى للفاعل أى
يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما
سيأتى ويحرصون عليه فدلالته
على المحذوف أظهر (بانهم ظلموا)
أى بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب
النبى صلى الله عليه وسلم ورضى
عنهم كان المشركون يؤذونهم
وكانوا يأتونه عليه السلام بين
مضروب ومشجوج ويتظلمون اليه
فيقول عليه السلام لهم اصبروا
فانى لم أومر بالقتال حتى هاجروا
فأنزلت وهى أول آية نزلت فى القتال
بعدما نهى عنه فى نيف وسبعين
آية (وان الله على نصرهم لقدير)
وعد لهم بالنصر وتأكيد لما مر
من العدة الكريمة بالدفع وتصريح

حديث الغرانيق وأما المعقول فمن وجوه (أحدها) ان من جوّز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان أعظم سعيه كان فى نفى الاوثان (وثانيها) انه عليه السلام ما كان يمكنه فى أول الامر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا اذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم اليه وانما كان يصلى اذا لم يحضروها ليلا أوفى أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم (وثالثها) ان معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الامر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدا مع انه لم يظهر عندهم موافقته لهم (ورابعها) قوله فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لان احكام الآيات بازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول اقوى من نسخه بهذه الآيات التى تبقى الشبهة معها فاذا أراد الله احكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى (وخامسها) وهو اقوى الوجوه انا لو جوزنا ذلك ارتفع الامان عن شرعه وجوزنا فى كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق فى العقل بين النقصان عن الوحى وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الاجمال ان هذه القصة موضوعة اكثر ما فى الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة ولنشرع الآن فى التفصيل فنقول التمنى جاء فى اللغة لامرين (أحدهما) تمنى القلب (والثانى) القراءة قال الله تعالى ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى أى الا قراءة لان الامى لا يعلم القرآن من المصحف وانما يعلمه قراءة وقال حسان

تمنى كتاب الله أول ليله • وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل انما سميت القراءة أمنية لان القارئ اذا انتهى الى آية رحمة تمنى حصولها واذا انتهى الى آية عذاب تمنى ان لا يبتلى بها وقال أبو مسلم التمنى هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الانسان فى الوقت الذى قدره الله تعالى ومنّ الله لك أى قدر لك وقال رواة اللغة الامنية القراءة واحتجوا ببيت حسان وذلك راجع الى الاصل الذى ذكرناه فان التالى مقدر للحروف يذكرها شيأ فشيأ فالحاصل من هذا البحث أن الامنية اما القراءة واما الخاطر أما اذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان (الاول) انه تعالى اراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى (الثانى) المراد منه وقوع هذه الكلمة فى قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه (الاول) ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة والنجم اشتبه

الامر

بان المراد به ليس مجرد تخليصهم من ايدى المشركين بل تغليبهم واظهارهم عليهم والاخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سنن الكبرياء وتأكيده بكلمة التحقيق واللام لمزيد تحقيق مضمونه وزيادة توطين نفوس المؤمنين وقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) فى حيز الجر على انه صفة للموصول لاول أو بيان له أو بدل منه اوفى محل النصب على المدح أوفى محل الرفع باضمار مبتدا والجملة مرفوعة على المدح والمراد بديارهم مكة المعظمة (بغير حق) متعلق بأخرجوا أى أخرجوا بغير ما يوجب اخراجهم وقوله تعالى (الا أن يقولوا ربنا الله) بدل من حق اى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى ان يكون موجبا للاقرار والتمكين دون الاخراج والتسيير لكن لا على الظاهر بل على طريقة قول النابغة

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

وقيل الاستثناء منقطع (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان وقرئ دفاع (لهدمت) لخربت باستيلاء المشركين على اهل الملل وقرئ هدمت بالتخفيف (صوامع) للرهابنة (وبيع) للنصارى (وصلوات) أى وكنائس لليهود

الامر على الكفار فحسبوا بعض الفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب اليه جماعة وهو ضعيف لوجوه (أحدها) أن التوهم فى مثل ذلك انما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه (وثانيها) أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فان العادة مانعة من اتفاق الجمع العظيم فى الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد فى المحسوسات (وثالثها) لو كان كذلك لم يكن مضافا الى الشيطان (الوجه الثانى) قالوا ان ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بان تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه فى درج تلك التلاوة فى بعض وقفاته ليظن انه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذى يؤكده أنه لا خلاف فى أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتى الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات فى أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فاذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصا آخر ظن الحاضرون انه كلام الرسول ثم هذا لا يكون قادحا فى النبوة لما لم يكن فعلا له وهذا أيضا ضعيف فانك اذا جوزت أن يتكلم الشيطان فى أثناء كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقى هذا الاحتمال فى كل ما يتكلم به الرسول فيفضى الى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فان قيل هذا الاحتمال قائم فى الكل ولكنه لو وقع لوجب فى حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما فى هذه الواقعة ازالة للتلبيس قلنا لا يجب على الله ازالة الاحتمالات كما فى المتشابهات واذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل (الوجه الثالث) أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الانس وهم الكفرة فانه عليه السلام لما انتهى فى قراءة هذه السورة الى هذا الموضع وذكر اسماء آلهتهم وقد علموا من عادته انه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الامر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه واخفاء قراءته ولعل ذلك كان فى صلاته لانهم كانوا يقربون منه فى حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها وقيل انه عليه السلام كان اذا تلا القرآن على قريش توقف فى فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام فى تلك الوقفات فتوهم القوم انه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم اضاف الله تعالى ذلك الى الشيطان لانه بوسوسته يحصل أولا ولانه سبحانه جعل ذلك المتكلم فى نفسه شيطانا وهذا أيضا ضعيف لوجهين (أحدهما) انه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم ازالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل واظهار ان هذه الكلمة منه صدرت (وثانيهما) لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل فان قيل انما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لانه كان قد أدى السورة بكمالها الى الامة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا الى التلبيس كما لم يؤد سهوه فى الصلاة بعد

سمعت بها الانها يصلى فيها وقيل أصلها صلوثا بالعبرية فعربت (ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) أى ذكرا كثيرا أو وقتا كثيرا صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها وقيل صفة للاربع وليس كذلك فان بيان ذكر الله عز وجل فى الصوامع والبيع والكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام ولا يرتضيه الافهام (ولينصرن الله من ينصره) أى وبالله لينصرن الله من ينصر أولياءه أو من ينصر دينه ولقد أنجز الله عز سلطانه وعده حيث سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب واكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم (ان الله لقوى) على كل ما يريده من مراداته التى من جملتها نصرهم (عزيز) لا يمانعه شئ ولا يدافعه (الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) وصف من الله عز وجل للذين أخرجوا من ديارهم بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى اياهم فى الارض واعطائه اياهم زمام الاحكام منبئ عن عدة كريمة على أبلغ وجه وألطفه وعن عثمان رضى الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أنه تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا قالوا وفيه

أن وصفها الى اللبس قلنا ان القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة فى زمان حياته لانه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسورة فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال اللبس وأيضا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على مارواه القوم (الوجه الرابع) هو ان المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فانه اما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا او اختيارا (أما الوجه الاول) وهو انه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما يروى عن قتادة ومقاتل انهما قالا انه عليه السلام كان يصلى عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من فى المسجد وفرح المشركون بما سمعوه واتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه فلما انتهى الى الغرانيق قال لم آتك بهذا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضا لوجوه (أحدها) انه لو جاز هذا السهو لجاز فى سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع (وثانيها) ان الساهى لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الالفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها فانا نعلم بالضرورة ان واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر فى وزنها ومعناها وطريقتها (وثالثها) هب انه تكلم بذلك سهوا فكيف لم يتنبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر (أما الوجه الثانى) وهو انه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذى قال قوم ان الشيطان أجبر النبى صلى الله عليه وسلم على ان يتكلم بهذا فهذا أيضا فاسد لوجوه (أحدها) ان الشيطان لو قدر على ذلك فى حق النبى عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز فى أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك باجبار الشياطين (وثانيها) ان الشيطان لو قدر على هذا الاجبار لارتفع الامان عن الوحى لقيام هذا الاحتمال (وثالثها) انه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيا عن الشيطان وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم وقال تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه وقال الا عبادك منهم المخلصين ولاشك انه عليه السلام كان سيد المخلصين (أما الوجه الثالث) وهو انه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فههنا وجهان (أحدهما) أن نقول ان هذه الكلمة باطلة (والثانى) أن نقول انها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الاول فذكروا فيه طريقين (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء ان شيطانا يقال له الابيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ الى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه أتانى آت على صورتك فالقاها على لسانى (الطريق الثانى) قال بعض الجهال انه عليه السلام لشدة حرصه على

دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين لانه تعالى لم يعط التمكين ونفاذ الامر مع السيرة العادلة غيرهم من المهاجرين لاحظ فى ذلك للانصار والطلقاء وعن الحسن رحمه الله هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذين بدل من قوله من ينصره (ولله) خاصة (عاقبة الامور) فان مرجعها الى حكمه وتقديره فقط وفيه تأكيد للوعد باظهار أوليائه واعلاء كلمته (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم متضمنة للوعد الكريم باهلاك من يعاديه من الكفرة وتعيين لكيفية نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى ولينصرن الله من ينصره وبيان لرجوع عاقبة الامور اليه تعالى وصيغة المضارع فى الشرط مع تحقق التكذيب لما ان المقصود تسليته عليه السلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أى وان تحزن على تكذيبهم اياك فاعلم انك لست باوحدى فى ذلك فقد كذبت قبل تكذيب قومك اياك قوم نوح (وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين) أى رسلهم عن ذكر ومن لم يذكر وانما حذف لكمال ظهور المراد أو لان المراد نفس الفعل أى فعلت التكذيب قوم نوح الى آخره

ايمان

ايمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم البتة لان الاول يقتضى انه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثانى يقتضى انه كان خائنا فى الوحى وكل واحد منهما خروج عن الدين (أما الوجه الثانى) وهو ان هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضا طرق (الاول) أن يقال الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنا منزلا فى وصف الملائكة فلما توهم المشركون انه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته (الثانى) ان يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الانكار فكانه قال أشفاعتهن ترتجى (الثالث) أن يقال انه ذكر الاثبات وأراد النفى كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أى لا تضلوا كما قد يذكر النفى ويريد به الاثبات كقوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ والمعنى أن تشركوا وهذان الوجهان الاخيران يعترض عليهما بانه لو جاز ذلك بناء على هذا التاويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر فى جملة القرآن أو فى الصلاة بناء على هذا التأويل ولكن الاصل فى الدين أن لا يجوز عليهم شئ من ذلك لان الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن فى ذلك أو ينفر ومثل ذلك فى التنفير أعظم من الامور التى جنبه الله تعالى على تركها كنحو الفظاظة والكتابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة فى قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها فهذا كله اذا فسرنا التمنى بالتلاوة وأما اذا فسرناها بالخاطر وتمنى القلب فالمعنى ان النبى صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ما يتمناه من الامور وسوس الشيطان اليه بالباطل ويدعوه الى ما لا ينبغى ثم ان الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه الى ترك الالتفات الى وسوسته ثم اختلفوا فى كيفية تلك الوسوسة على وجوه (أحدها) انه تمنى ما يتقرب به الى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا انه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك فى نفسه فعندما لحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت فى نفسه وهذا أيضا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم (وثانيها) ما قال مجاهد من انه عليه السلام كان تمنى انزال الوحى عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بان انزال ذلك بحسب المصالح فى الحوادث والنوازل وغيرها (وثالثها) يحتمل انه عليه السلام عند نزول الوحى كان يتفكر فى تأويله ان كان مجملا فيلقى الشيطان فى جملته ما لم يرده فبين تعالى انه ينسخ ذلك بالابطال ويحكم ما أراده الله تعالى بادلته وآياته (ورابعها) معنى الآية اذا تمنى اذا أراد فعلا مقربا الى الله تعالى ألقى الشيطان فى فكره ما يخالفه فيرجع الى الله تعالى فى ذلك وهو كقوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وكقوله واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومن الناس من قال لا يجوز حمل الامنية على تمنى القلب لانه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية

(وكذب موسى) غير النظم الكريم بذكر المفعول وبناء الفعل له لا لان قومه بنو ٢٤٩ اسرائيل وهم لم يكذبوه وانما كذبه القبط لما أن ذلك انما يقتضى عدم ذكرهم بعنوان كونهم قوم موسى لا بعنوان آخر على أن بنى اسرائيل أيضا قد كذبوه مرة بعد أخرى حسبما ينطق به قوله تعالى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ونحو ذلك من الآيات الكريمة بل للايذان بان تكذيبهم له كان فى غاية الشناعة لكون آياته فى كمال الوضوح وقوله تعالى (فامليت للكافرين) أى أمهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم والفاء لترتيب امهال كل فريق من فرق المكذبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب امهال الكل على تكذيب الكل ووضع الظاهر موضع الضمير العائد الى المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبى موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل صريحا (ثم أخذتهم) أى أخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة املائه وامهاله (فكيف كان نكير) أى انكارى عليهم بالاهلاك أى فكان ذلك فى غاية ما يكون من الهول والفظاعة وقوله تعالى (فكأين من قرية) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أهلكناها) أى فاهلكنا كثيرا من القرى باهلاك أهلها والجملة بدل من قوله تعالى فكيف كان نكير أو مرفوع على الابتداء وأهلكناها خبره أى فكثير من القرى أهلكناها وقرئ أهلكتها على وفق قوله تعالى فأمليت للكافرين

قلوبهم (والجواب) لايبعد انه اذا قوى التمنى اشتغل الخاطر به فحصل السهو فى الافعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول فى هذه المسئلة (المسئلة الثالثة) يرجع حاصل البحث الى ان الغرض من هذه الآية بيان ان الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وان عصمهم عن الخطاء مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان بل حالهم فى جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب أن لا يتبعوا الافيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم وقال أبو مسلم معنى الآية انه لم يرسل نبيا الا اذا تمنى كانه قيل وما أرسلنا الى البشر ملكا وما أرسلنا اليهم نبيا الا منهم وما أرسلنا نبيا خلا عند تلاوته الوحى من وسوسة الشيطان وأن يلقى فى خاطره مايضاد الوحى ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبى على الوحى وعلى حفظه ويعلمه صواب ذلك وبطلان مايكون من الشيطان قال وفيما تقدم من قوله قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين انا نذير لكم لكنى من البشر لا من الملائكة ولم يرسل الله تعالى مثلى ملكا بل أرسل رجالا فقد يوسوس الشيطان اليهم فان قيل هذا انما يصح لو كان السهو لايجوز على الملائكة قلنا اذا كانت الملائكة أعظم درجة من الانبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الانبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة واعلم انه سبحانه لما شرح حال هذه الوسوسة أردف ذلك ببحثين (الاول) كيفية ازالتها وذلك هو قوله تعالى فينسخ الله مايلقى الشيطان فالمراد ازالته وازالة تأثيره فهو النسخ اللغوى لا النسخ الشرعى المستعمل فى الاحكام أما قوله ثم يحكم الله آياته فاذا حمل التمنى على القراءة فالمراد به آيات القرآن والا فيحمل على احكام الادلة التى لايجوز فيها الغلط (البحث الثانى) انه تعالى بين أثر تلك الوسوسة ثم انه سبحانه شرح أثرها فى حق الكفار أولا ثم فى حق المؤمنين ثانيا أما فى حق الكفار فهو قوله ليجعل مايلقى الشيطان فتنة والمراد به تشديد التعبد لان عند مايظهر من الرسول صلى الله عليه وسلم الاشتباه فى القرآن سهوا يلزمهم البحث عن ذلك ليميزوا السهو من العمد وليعلموا ان العمد صواب والسهو قد لايكون صوابا أما قوله للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ففيه سؤالان (السؤال الاول) لم قال فتنة للذين فى قلوبهم مرض ولم خصهم بذلك (الجواب) لانهم مع كفرهم يحتاجون الى ذلك التدبر وأما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون الى التدبر (السؤال الثانى) مامرض القلب (الجواب) انه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال فى قلوبهم مرض وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهرا وباطنا * اما قوله تعالى وان الظالمين لفى شقاق بعيد يريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وانهم فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والمعاداة والمباعدة سواء وأما فى حق المؤمنين فهو قوله وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك وفى الكناية ثلاثة أوجه (أحدها) انها عائدة الى نسخ ما ألقاه الشيطان عن الكلبى (وثانيها) انه الحق أى

ثم أخذتهم فكيف كان نكير (وهى ظالمة) جملة حالية من مفعول أهلكنا وقوله تعالى (فهى خاوية) عطف على أهلكناها لا على وهى ظالمة لانها حال والاهلاك ليس فى حال خوائها فعلى الاول لامحل له من الاعراب كالمعطوف عليه وعلى الثانى فى محل الرفع لعطفه على الخبر والخواء اما بمعنى السقوط من خوى النجم اذا سقط فالمعنى فهى ساقطة حيطانها (على عروشها) أى سقوفها بان تعطل بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف واسناد السقوط على العروش اليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه واما بمعنى الخلو من خوى المنزل اذا خلا من أهله فالمعنى فهى خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فتكون على بمعنى مع ويجوز أن يكون على عروشها خبرا بعد خبر أى فهى خالية وهى على عروشها أى قائمة مشرفة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت الى الارض وبقيت الحيطان قائمة فهى مشرفة على السقوف الساقطة واسناد الاشراف الى الكل مع كونه حال الحيطان لما مر آنفا (وبئر معطلة) عطف على قرية أى وكم بئر عامرة فى البوادى تركت لايستقى منها لهلاك أهلها وقرئ بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله (وقصر مشيد) مرفوع البنيان أو مجصص أخليناه عن ساكنيه وهذا يؤيد كون معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء عروشها وقيل المراد بالبئر بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم

القرآن

القرآن عن مقاتل (وثالثها) ان تمكن الشيطان من ذلك الالقاء هو الحق أما على قولنا فلانه سبحانه وتعالى أى شئ فعل فقد تصرف فى ملكه وملكه فكان حقا وأما على قول المعتزلة فلانه سبحانه حكيم فتكون كل أفعاله صوابا فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم أى تخضع وتسكن لعلمهم بان المقضى كائن وكل ميسر لما خلق له وان الله لهادى الذين آمنوا الى أن يتأولوا مايتشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا لما أشكل منه من المجمل الذى تقتضيه الاصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة وقرئ لهاد الذين آمنوا بالتنوين ولما بين سبحانه حال الكافرين أولا ثم حال المؤمنين ثانيا عاد الى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال ولايزال الذين كفروا فى مرية منه أى من القرآن أو من الرسول وذلك يدل على ان الاعصار الى قيام الساعة لاتخلو عن هذا وصفه أما قوله تعالى حتى تأتيهم الساعة بغتة أى فجأة من دون أن يشعروا ثم جعل الساعة غاية لكفرهم وانهم يؤمنون عند اشراط الساعة على وجه الالجاء واختلف فى المراد باليوم العقيم وفيه قولان (أحدهما) انه يوم بدر وانما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة (أحدها) ان أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن (وثانيها) ان المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فاذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز (وثالثها) هو الذى لاخير فيه يقال ريح عقيم اذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا (ورابعها) انه لامثل له فى عظم أمره وذلك لقتال الملائكة فيه (القول الثانى) انه يوم القيامة وانما وصف بالعقيم لوجوه (أحدها) انهم لايرون فيه خيرا (وثانيها) انه لاليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة (وثالثها) ان كل ذات حمل تضع حملها فى ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه وهذا القول أولى لانه لايجوز أن يقول الله تعالى ولايزال الذين كفروا ويكون المراد يوم بدر لان من المعلوم انهم فى مرية بعد يوم بدر فان قيل لما ذكر الساعة فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار قلنا ليس كذلك لان الساعة من مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم وعلى ان الامر لو كان كما قاله لم يكن تكرارا لان فى الاول ذكر الساعة وفى الثانى ذكر عذاب ذلك اليوم ويحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد وبعذاب يوم عقيم القيامة أما قوله الملك يومئذ لله فمن أقوى مايدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم وأراد بذلك انه لامالك فى ذلك اليوم سواه فهو بخلاف أيام الدنيا التى ملك الله الامور غيره وبين انه الحاكم بينهم لاحاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بين كيف يحكم بينهم وانه يصير المؤمنين الى جنات النعيم والكافرين فى العذاب المهين وقد تقدم وصف الجنة والنار فان قيل التنوين فى يومئذ عن أى جملة ينوب قلنا تقديره الملك يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم لقوله تعالى ولايزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة ۞ قوله تعالى (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه

حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما (أفلم يسيروا فى الارض) حث لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم وان كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار جعلوا غير مسافرين فحثوا على ذلك والفاء لعطف مابعدها على مقدر يقتضيه المقام أى أغفلوا فلم يسيروا فيها (فتكون لهم) بسبب ماشاهدوه من مواد الاعتبار ومظان الاستبصار (قلوب يعقلون بها) مايجب أن يعقل من التوحيد (أو آذان يسمعون بها) مايجب أن يسمع من الوحى أو من أخبار الامم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فانهم أعرف منهم بحالهم (فانها لاتعمى الابصار) الضمير للقصة أو مبهم يفسره الابصار وفى تعمى ضمير راجع اليه وقد أقيم الظاهر مقامه (ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) أى ليس الخلل فى مشاعرهم وانما هو فى عقولهم باتباع الهوى والانهماك فى الغفلة وذكر الصدور للتأكيد ونفى توهم التجوز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيق ليس المتعارف الذى يختص بالبصر قيل لما نزل قوله تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى قال ابن أم مكتوم يارسول الله أنا فى الدنيا أعمى أفأ كون فى الآخرة أعمى فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) كانوا منكرين لمجئ العذاب المتوعد به أشد الانكار وانما كانوا يستعجلون به استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجيزا له على زعمهم فحكى عنهم ذلك بطريق

التخطئة والاستكبار فقوله تعالى (ولن يخلف الله وعده) ۲۵۲ اما جملة حالية جىء بها لبيان بطلان انكارهم لمجيئه فى ضمن

وان الله لعليم حليم ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وان الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وان مايدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلى الكبير) اعلم انه تعالى لما ذكر ان الملك له يوم القيامة وانه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين وأفردهم بالذكر تفخيما لشأنهم فقال عز من قائل والذين هاجروا واختلفوا فيمن أريد بذلك فقال بعضهم من هاجر الى المدينة طالبا لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقربا الى الله تعالى وقال آخرون بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو فى سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده ومنهم من حمله على الامرين واختلفوا من وجه آخر فقال قوم المراد قوم مخصوصون روى مجاهد أنها نزلت فى طوائف خرجوا من مكة الى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم وظاهر الكلام للعموم ثم انه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم أما الرزق فقوله تعالى ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لاشبهة فى ان الرزق الحسن هو نعيم الجنة وقال الاصم انه العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام ورزقنى منه رزقا حسنا فهذا فى الدنيا وفى الآخرة الجنة وقال الكلبى رزقا حسنا حلالا وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان لانه تعالى جعله جزاء على هجرتهم فى سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون الا نعيم الجنة (المسئلة الثانية) لابد من شرط اجتناب الكبائر فى كل وعد فى القرآن لان هذا المهاجر لو ارتكب كبيرة لكان حكمه فى المشيئة على قولنا ولخرج عن أن يكون أهلا للجنة قطعا على قول المعتزلة فان قيل فما فضله على سائر المؤمنين فى الوعد ان كان كما قلتم قلنا فضلهم يظهر لان ثوابهم أعظم وقد قال تعالى لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل فمعلوم أن من هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفارق دياره وأهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين وعلى هذا الوجه عظم محل الانصار حتى صار ذكرهم والثناء عليهم تاليا لذكر المهاجرين لما آووه ونصروه (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى معنى قوله وان الله لهو خير الرازقين مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه (أحدها) التفاوت انما كان بسبب انه سبحانه مختص بان يرزق مالا يقدر عليه غيره (وثانيها) أن يكون المراد أنه الاصل فى الرزق وغيره انما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى (وثالثها) أن غيره ينقل الرزق من يده الى يد غيره لا أنه يفعل نفس الرزق (ورابعها) ان غيره اذا رزق فانما يرزق لانتفاعه به اما لاجل أن يخرج عن الواجب واما لاجل أن يستحق به حمدا أو ثناء واما لاجل دفع الرقة الجنسية فكان الواحد منا اذا رزق فقد طلب العوض أما الحق سبحانه فان كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شئ كمالا زائدا فكان الرزق الصادر منه لمحض الاحسان (وخامسها) أن غيره انما يرزق لو حصل فى قلبه

استعجالهم به واظهار خطئهم فيه كأنه قيل كيف ينكرون مجىء العذاب الموعود والحال أنه تعالى لايخلف وعده أبدا وقد سبق الوعد فلابد من مجيئه حتما أو اعتراضية مبينة لما ذكر وقوله تعالى (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) جملة مستأنفة ان كانت الاولى حالية ومعطوفة عليها ان كانت اعتراضية سيقت لبيان خطئهم فى الاستعجال المذكور ببيان كمال سعة حلمه تعالى ووقاره واظهار غاية ضيق عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مددا طوالا عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ولذلك يرون مجيئه بعيدا ويتخذونه ذريعة الى انكاره ويجترؤن على الاستعجال به ولا يدرون أن معيار تقدير الامور كلها وقوعا واخبارا ماعنده تعالى من المقدار وقراءة يعدون على صيغة الغيبة أى يعده المستعجلون أوفق لهذا المعنى وقد جعل الخطاب فى القراءة المشهورة لهم أيضا بطريق الالتفات لكن الظاهر أنه للرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين وقيل المراد بوعده تعالى ماجعل لهلاك كل أمة من موعد معين وأجل مسمى كما فى قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب فتكون الجملة الاولى حالية كانت أو اعتراضية مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل ارادة

وقته الموعود والجملة الاخيرة بيانا لبطلانه ببيان ابتنائه على استطالة ۲۵۳ ماهو قصير عنده تعالى على الوجه الذى مر

ارادة ذلك الفعل وتلك الارادة من الله فالرازق فى الحقيقة هو الله تعالى (وسادسها) أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملا من منة الغير فكان هو خير الرازقين (وسابعها) أن الغير اذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الانسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به ورزق الغير لابد وأن يكون مسبوقا برزق الله وملحوقا به حتى يحصل الانتفاع وأما رزق الله تعالى فانه لاحاجة به الى رزق غيره فثبت انه سبحانه خير الرازقين (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) أن الله تعالى قادر (وثانيها) أن غير الله يصح منه أن يرزق ويملك ولولا كونه قادرا فاعلا لما صح ذلك (وثالثها) أن الرزق لايكون الا حلالا لان قوله خير الرازقين دلالة على كونهم ممدوحين (والجواب) لانزاع فى كون العبد قادرا فان عندنا القدرة مع الداعى مؤثرة فى الفعل بمعنى الاستلزام وأما الثالث فبحث لفظى وقد سبق الكلام فيه (المسئلة الخامسة) لما قال تعالى ثم قتلوا أو ماتوا فسوى بينهما فى الوعد ظن قوم أن حال المقتول فى الجهاد والميت على فراشه سواء وهذا ان أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه لان الجمع بينهما فى الوعد لايدل على تفضيل ولا تسوية كما أن الجمع بين المؤمنين لايدل على ذلك وان أخذوه من دليل آخر فهو حق فانه روى أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المقتول فى سبيل الله تعالى والمتوفى فى سبيل الله بغير قتل هما فى الخير والاجر شريكان ولفظ الشركة مشعر بالتسوية والا فلا يبق لتخصيصهما بالذكر فائدة وروى أيضا ان طوائف من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يارسول الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل على التسوية لانهم لما طلبوا مقدار الاجر فلولا التسوية لم يكن الجواب مفيدا أما المسكن فقوله تعالى ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ مدخلا بضم الميم وهو من الادخال ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع (المسئلة الثانية) قيل فى المدخل الذى يرضونه انه خيمة من درة بيضاء لافصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع وقال أبو القاسم القشيرى هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم وقال ابن عباس رضى الله عنهما انما قال يرضونه لانهم يرون فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولا ونظيره قوله تعالى ومساكن ترضونها وقوله فى عيشة راضية وقوله ارجعى الى ربك راضية مرضية وقوله ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر (المسئلة الثالثة) ان قيل مامعنى وان الله لعليم حليم وما تعلقه بما تقدم قلنا يحتمل انه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم ويحتمل أن يكون المراد انه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك فى الجنة وأما الحليم فالمراد انه لحلمه لايعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة أما

بيانه فلا يكون فى النظم الكريم حينئذ تعرض لانكارهم الذى دسوه تحت الاستعجال بل يكون الجواب مبنيا على ظاهر مقالهم ويكتفى فى رد انكارهم ببيان عاقبة من قبلهم من أمثالهم هذا وحمل المستعجل به على عذاب الآخرة وجعل اليوم عبارة عن يوم العذاب المستطال لشدته أو عن أيام الآخرة الطويلة حقيقة أو المستطالة لشدة عذابها مما لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه فان كلا منهما ناطق بان المراد هو العذاب الدنيوى وأن الزمان الممتد هو الذى مر عليهم قبل حلوله بطريق الاملاء والامهال لا الزمان المقارن له ألا يرى الى قوله تعالى (وكأين من قرية) الخ فانه كما سلف من قوله تعالى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم صريح فى أن المراد هو الاخذ العاجل الشديد بعد الاملاء المديد أى وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فى الاعراب ورجع الضمائر والاحكام مبالغة فى التعميم والتهويل (أمليت لها) كما أمليت لهؤلاء حتى أنكروا مجىء ماوعدوا من العذاب واستعجلوا به استهزاء برسلهم كما فعل هؤلاء (وهى ظالمة) جملة حالية مفيدة لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين أى أمليت لها والحال انها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء

قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور فقيه
مسائل (المسئلة الاولى) قوله ذلك قد مضى الكلام فيه فى هذه الآية فى هذه السورة
وقال الزجاج أى الامر ما قصصنا عليك من انجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا
(المسئلة الثانية) قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه معناه قاتل من كان
يقاتله ثم كان المقاتل مبغيا عليه بان اضطر الى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدئ بالقتال
قال مقاتل نزلت فى قوم من المشركين لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فقال
بعضهم لبعض ان أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم
المسلمون ان يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر فابوا وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت
المسلمون لهم فنصروا عليهم فوقع فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام ما وقع
فانزل الله تعالى هذه الآية وعفا عنهم وغفر لهم وههنا سؤالات (السؤال الاول) أى
تعلق لهذه الآية بما قبلها (الجواب) كأنه سبحانه وتعالى قال مع اكرامى لهم فى الآخرة
بهذا الوعد لا ادع نصرتهم فى الدنيا على من بغى عليهم (السؤال الثانى) هل يرجع ذلك الى
المهاجرين خاصة أو اليهم والى المؤمنين (الجواب) الاقرب انه يعود الى الفريقين فانه
تقدم ذكرهما وبين ذلك قوله تعالى لينصرنه الله وبعد القتل والموت لا يمكن ذلك فى الدنيا
(السؤال الثالث) ما المراد بالعقوبة المذكورة (الجواب) فيه وجهان (أحدهما)
المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم ورد بعضهم الى غير ذلك
فبين تعالى ان من عاقب هؤلاء الكفار بمثل ما فعلوا فينصره عليهم وهذه النصرة
المذكورة تقوى تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص لان ظاهر النص
لا يليق الا بذلك (والجواب الثانى) ان هذه الآية فى القصاص والجراحات وهى آية
مدنية عن الضحاك (السؤال الرابع) لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة (الجواب) أطلق اسم
العقوبة على الاول للتعلق الذى بينه و بين الثانى كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها
يخادعون الله وهو خادعهم (السؤال الخامس) أى تعلق لقوله وان الله لعفو غفور
بما تقدم (الجواب) فيه وجوه (أحدها) ان الله تعالى ندب المعاقب الى العفو عن
الجانى بقوله فمن عفا وأصلح فأجره على الله وان تعفوا أقرب للتقوى ولمن صبر وغفر
ان ذلك لمن عزم الامور فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع اساءة فكأنه سبحانه قال انى
قد عفوت عن هذه الاساءة وغفرتها فانى أنا الذى أذنت لك فيه (وثانيها) انه سبحانه وان
ضمن له النصر على الباغى لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح
بذكر هاتين الصفتين (وثالثها) انه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على انه قادر على
العقوبة لانه لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده (السؤال السادس) أى تعلق لقوله
ذلك بان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل بما قبله (والجواب) من وجهين
(أحدهما) ذلك أى ذلك النصر بسبب انه قادر ومن آيات قدرته البالغة كونه خالقا

لليل

(ثم أخذتهم) بالعذاب والنكال بعد
طول الاملاء والامهال وقوله
تعالى (والى المصير) اعتراض
تذييلى مقرر لما قبله ومصرح
بما أفاده ذلك بطريق التعريض
من أن مآل أمر المستعجلين أيضا
ما ذكر من الاخذ الوبيل أى الى
حكمى مرجع الكل جميعا لا الى
أحد غيرى لا استقلالا ولا شركة
فافعل بهم ما أفعل مما يليق باعمالهم
(قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير
مبين) أنذركم انذارا بينا بما
أوحى من أنباء الامم المهلكة من
غير أن يكون لى دخل فى اتيان
ما توعدونه من العذاب حتى
تستعجلونى به والاقتصار على
الانذار مع بيان حال الفريقين
بعد لما أشير اليه من أن مساق
الحديث للمشركين وعقابهم
وانما ذكر المؤمنون وثوابهم زيادة
فى غيظهم (فالذين آمنوا وعملوا
الصالحات لهم مغفرة) لما ندر منهم
من الذنوب (ورزق كريم) هى
الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع
فضائله ويحوز كمالاته (والذين
سعوا فى آياتنا معاجزين) أى
سابقين أو مسابقين فى زعمهم
وتقديرهم طامعين أن كيدهم
للاسلام يتم لهم وأصله من عاجزه
وعجزه فاعجزه اذا سابقه فسبقه
لان كلا من المتسابقين يريد
اعجاز الآخر عن اللحاق به وقرئ
معجزين أى مثبطين الناس عن

لليل والنهار ومتصرفا فيهما فوجب أن يكون قادرا عالما بما يجرى فيهما واذا كان كذلك
كان قادرا على النصر مصيبا فيه (وثانيها) المراد انه سبحانه مع ذلك النصر ينعم فى الدنيا
بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما فى الآخر (السؤال السابع) ما معنى
ايلاج الليل فى النهار وايلاج النهار فى الليل (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) يحصل
ظلمة هذا فى مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس وضياء ذلك فى مكان ظلمة هذا بطلوعها
كما يضىء البيت بالسراج ويظلم بفقده (وثانيهما) انه سبحانه يزيد فى أحدهما ما ينقص
من الآخر من الساعات (السؤال الثامن) أى تعلق لقوله وان الله سميع بصير بما تقدم
(الجواب) المراد انه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره فكذلك يدرك المسموع والمبصر
ولا يجوز المنع عليه ويكون ذلك كالتحذير من الاقدام على ما لا يجوز فى المسموع والمبصر
(السؤال التاسع) ما معنى قوله ذلك بان الله هو الحق وأى تعلق له بما تقدم (الجواب)
فيه وجهان (أحدهما) المراد ان ذلك الوصف الذى تقدم ذكره من القدرة على هذه
الامور انما حصل لاجل ان الله هو الحق أى هو الموجود الواجب لذاته الذى يمتنع عليه
التغير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد (وثانيهما) ان ما يفعل من عبادته هو الحق
وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة
(السؤال العاشر) أى تعلق لقوله وأن الله هو العلى الكبير بما تقدم (والجواب) معنى
العلى القاهر المقتدر الذى لا يغلب فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر
من يعبد مرغبا بذلك فى عبادته زاجرا عن عبادة غيره فأما الكبير فهو العظيم فى قدرته
وسلطانه وذلك أيضا يفيد كمال القدرة (المسئلة الثالثة) قوله لينصرنه الله اخبار عن
الغيب فانه وجد مخبره كما أخبر فكان من المعجزات (المسئلة الرابعة) قال الشافعى رحمه
الله من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه وقال أبو حنيفة رحمه الله بل يقتل بالسيف واحتج
الشافعى رحمه الله بهذه الآية فان الله تعالى جوز للمظلوم أن يعاقب بمثل ما عوقب به
ووعده النصر عليه (المسئلة الخامسة) قرأ نافع وابن عامر تدعون بالتاء ههنا وفى لقمان
وفى المؤمنين وفى العنكبوت وقرأ ابن كثير وأبو عمرو كلها بالياء على الخبر والعرب
قد تنصرف من الخطاب الى الاخبار ومن الاخبار الى الخطاب ۞ قوله تعالى (ألم تر
أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير له ما فى السموات
وما فى الارض وان الله لهو الغنى الحميد ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض والفلك
تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف
رحيم وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور) اعلم انه تعالى لما دل
على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل فى النهار ونبه به على نعمه أتبعه بانواع أخر
من الدلائل على قدرته ونعمته وهى ستة (أولها) قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء
ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا

الايمان على انه حال مقدرة
(أولئك) الموصوفون بما ذكر من
السعى والمعاجزة (أصحاب الجحيم)
أى ملازموا النار الموقدة وقيل
هو اسم دركة من دركاتها (وما
أرسلنا من قبلك من رسول ولا
نبى) الرسول من بعثه الله تعالى
بشريعة جديدة يدعو الناس اليها
والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير
شريعة سابقة كانبياء بنى
اسرائيل الذين كانوا بين موسى
وعيسى عليهم الصلاة والسلام
ولذلك شبه عليه السلام علماء أمته
بهم فالنبى أعم من الرسول ويدل
عليه أنه عليه الصلاة والسلام
سئل عن الانبياء فقال مائة ألف
وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم
الرسل منهم فقال ثلثمائة وثلاثة
عشر جما غفيرا وقيل الرسول
من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه
والنبى غير الرسول من لا كتاب له
وقيل الرسول من يأتيه الملك
بالوحى والنبى يقال له ولمن يوحى
اليه فى المنام (الا اذا تمنى) أى هيأ
فى نفسه ما يهواه (ألقى الشيطان
فى أمنيته) فى تشهيه ما يوجب
اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام
وانه ليغان على قلبى فاستغفر الله
فى اليوم سبعين مرة (فينسخ الله
ما يلقى الشيطان) فيبطله ويذهب
به بعصمته عن الركون اليه
وارشاده الى ما يزيحه (ثم يحكم الله
آياته) أى يثبت آياته الداعية الى
الاستغراق فى شؤن الحق وصيغة

في قوله ألم تر وجوها ثلاثة (أحدها) أن المراد هو الرؤية الحقيقية قالوا لان الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الارض مرئى واذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى (وثانيها) ان المراد ألم تخبر على سبيل الاستفهام (وثالثها) المراد ألم تعلم والقول الاول ضعيف لان الماء وان كان مرئيا الا أن كون الله منزلا له من السماء غير مرئى اذا ثبت هذا وجب حمله على العلم لان المقصود من تلك الرؤية هو العلم لان الرؤية اذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل (المسئلة الثانية) قرئ مخضرة كمبقلة ومسبعة أى ذات خضرة وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال فتصبح الارض ولم يقل فأصبحت (الجواب) لنكتة فيه وهى افادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم على فلان عام كذا فأروح واغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع (السؤال الثانى) لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (والجواب) لو نصب لاعطى عكس ما هو الغرض لان معناه اثبات الاخضرار فينقلب بالنصب الى نفى الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك ألم ترانى أنعمت عليك فتشكر وان نصبته فأنت ناف لشكره شاك لتفريطه وان رفعته فأنت مثبت للشكر (السؤال الثالث) لم أورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الاعادة كما قال أبو مسلم (الجواب) يحتمل ذلك ويحتمل انه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمه (السؤال الرابع) ما تعلق قوله ان الله لطيف خبير بما تقدم (الجواب) من وجوه (أحدها) أراد انه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به لان الارض اذا أصبحت مخضرة والسماء اذا أمطرت كان ذلك سببا لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع ومعنى خبير انه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان (وثانيها) قال ابن عباس لطيف بأرزاق عباده خبير بما فى قلوبهم من القنوط (وثالثها) قال الكلبى لطيف فى أفعاله خبير بأعمال خلقه (ورابعها) قال مقاتل لطيف باستخراج النبت خبير بكيفية خلقه (الدلالة الثانية) قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض وان الله لهو الغنى الحميد والمعنى ان كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غنى عن الاشياء كلها وعن حمد الحامدين أيضا لانه كامل لذاته والكامل لذاته غنى عن كل ما عداه فى كل الامور ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد فى الحكمة من قطر ونبات فخلق هذه الاشياء رحمة للحيوانات وانعاما عليهم لا لحاجة به الى ذلك واذا كان كذلك كان انعامه خاليا عن غرض عائد اليه فكان مستحقا للحمد فكأنه قال انه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله الا للاحسان ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا فلهذا قال وان الله لهو الغنى الحميد (الدلالة الثالثة) قوله ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض أى ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها من حيث الاكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر اليها فلولا ان سخر الله تعالى الابل والبقر مع

المضارع فى الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددى واظهار الجلالة فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بان الالوهية من موجبات أحكام آياته الباهرة (والله عليم) مبالغ فى العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفعل عمدا أو خطأ (حكيم) فى كل ما يفعل والاظهار ههنا أيضا لما ذكر مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت وقيل تمنى لحرصه على ايمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم اليه واستمر به ذلك حتى كان فى ناديهم فنزلت عليه سورة النجم فأخذ يقرؤها فلما بلغ ومناة الثالثة الاخرى وسوس اليه الشيطان حتى سبق لسانه سهوا الى أن قال تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد فى آخرها بحيث لم يبق فى المسجد مؤمن ولا مشرك الا سجد ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم به فعزاه الله عزوجل بهذه الآية وهو مردود عند المحققين ولئن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الايمان عن المتزلزل فيه وقيل تمنى بمعنى قرأ كقوله

تمنى كتاب الله أول ليلة
تمنى داود الزبور على رسل

قوتهما

وأمنيته قراءته والقاء الشيطان فيها أن يتكلم بذلك رافعا صوته بحيث ظن السامعون انه من قراءة النبى عليه السلام وقد رد بانه أيضا يخل بالوثوق بالقرآن ولا يندفع بقوله تعالى فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته لانه أيضا يحتمله وفى الآية

قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس و يتمكن منهما لما كان ذلك نعمة (الدلالة الرابعة) قوله تعالى والفلك تجرى فى البحر بأمره والاقرب ان المراد وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها ولولا صفتهما على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب فنبه تعالى على نعمه بذلك وبان خلق ما تعمل منه السفن وبان بين كيف تعمل وانما قال بأمره لانه سبحانه لما كان هو المجرى لها بالرياح نسب ذلك الى أمره توسعا لان ذلك يفيد تعظيمه بأكثر مما يفيد لو أضافه الى فعله بناء على عادة الملوك فى مثل هذه اللفظة (الدلالة الخامسة) قوله تعالى ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم واعلم ان النعم المتقدمة لا تكمل الا بهذه لان السماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلبا ووجب أن يكون ثقيلا وما كان كذلك فلا بد له من الهوى لولا مانع يمنع منه وهذه الحجة مبنية على ظاهر الاوهام وقوله تعالى أن تقع قال الكوفيون كى لا تقع وقال البصريون كراهية أن تقع وهذا بناء على مسئلة كلامية وهى أن الارادات والكراهات هل تتعلق بالعدم فمن منع من ذلك صار الى التأويل الاول والمعنى أنه أمسكها لكى لا تقع فتبطل النعم التى أنعم بها أما قوله تعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم فالمعنى ان المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين قد بلغ الغاية فى الاحسان والانعام فهو اذن رؤف رحيم (الدلالة السادسة) قوله وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور والمعنى ان من سخر له هذه الامور وأنعم عليه بها فهو الذى أحياه فنبه بالاحياء الاول على انعام الدنيا علينا بكل ما تقدم ونبه بالاماتة والاحياء الثانى على نعم الدين علينا فانه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة والا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى يبين ذلك انه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوان وذبحها الى غير ذلك معنى بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقى وانما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به فى باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال ان الانسان لكفور وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده ثم يقول ان الولد لكفور لنعم الوالد زجرا له عن الكفران وبعثا له على الشكر فلذلك أورد تعالى ذلك فى الكفار فبين أنهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها ونظيره قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وقال ابن عباس رضى الله عنهما الانسان ههنا هو الكافر وقال أيضا هو الاسود بن عبد الاسد وأبو جهل والعاص وأبى ابن خلف والاولى تعميمه فى كل المنكرين ﴿ قوله تعالى (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الامر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) اعلم انه تعالى لما قدم ذكر نعمه وبين انه رؤف رحيم بعباده وان كان منهم من يكفر ولا يشكر أتبعه بذكر نعمه بما كلف فقال لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما حذف

دلالة على جواز السهو من الانبياء عليهم السلام وتطرق الوسوسة اليهم (ليجعل ما يلقى الشيطان) علة لما ينبئ عنه ما ذكر من القاء الشيطان من تمكينه تعالى اياه من ذلك فى حق النبى عليه السلام خاصة كما يعرب عنه سياق النظم الكريم لما أن تمكينه تعالى اياه من الالقاء فى حق سائر الانبياء عليهم السلام لا يمكن تعليله بما سيأتى وفيه دلالة على أن ما يلقيه أمر ظاهر يعرفه المحق والمبطل (فتنة للذين فى قلوبهم مرض) أى شك ونفاق كما فى قوله تعالى فى قلوبهم مرض الآية (والقاسية قلوبهم) أى المشركين (وان الظالمين) أى الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم مع ما وصفوا به من المرض والقساوة (لفى شقاق بعيد) أى عداوة شديدة ومخالفة تامة ووصف الشقاق بالبعد مع أن الموصوف به حقيقة هو معروضه للمبالغة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله (وليعلم الذين أوتوا العلم انه) أى القرآن (الحق من ربك) أى هو الحق النازل من عنده تعالى وقيل ليعلموا أن تمكين الشيطان من الالقاء هو الحق المتضمن للحكمة البالغة والغاية الجميلة لانه مما جرت به عادته فى جنس الانس من لدن آدم عليه السلام فحينئذ لا حاجة الى تخصيص التمكين فيما سبق بالالقاء فى حقه عليه السلام لكن يأباه قوله تعالى (فيؤمنوا به) أى بالقرآن أى يثبتوا على الايمان به أو يزدادوا ايمانا بردّ ما يلقى الشيطان (فتخبت له قلوبهم) بالانقياد

والخشية والاذعان لما فيه من الاوامر والنواهى وترجيع الضميرين لاسيما الثانى الى تمكين الشيطان من الالقاء مما لا وجه له (وان الله لهادى الذين آمنوا) أى فى الامور الدينية ٢٥٨ خصوصا فى المداحض والمشكلات التى من جملتها ما ذكر (الى صراط مستقيم) هو النظر الصحيح الموصل الى الحق الصريح والجملة اعتراض مقرر لما قبله (ولا يزال الذين كفروا فى مرية) أى فى شك وجدال (منه) أى من القرآن وقيل من الرسول صلى الله عليه وسلم والاول هو الاظهر بشهادة ما سبق من قوله تعالى ثم يحكم الله آياته وقوله تعالى انه الحق من ربك فيؤمنوا به وما لحق من قوله تعالى وكذبوا بآياتنا وأما تجويز كون الضمير لما ألقى الشيطان فى امنيته فمما لا مساغ له لان ذلك ليس من هناتهم التى تستمر الى الامد المذكور بل انما هى مريتهم فى شان القرآن ولا يجدى حمل من على السببية دون الابتدائية لما أن مريتهم المستمرة كما أنها ليست مبتدأة من ذلك ليست ناشئة منه ضرورة أنها مستمرة منهم من لدن نزول القرآن الكريم (حتى تأتيهم الساعة) أى القيامة نفسها كما يؤذن به قوله تعالى (بغتة) أى فجأة فانها الموصوفة بالاتيان كذلك لا أشراطها وقيل الموت (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) أى يوم لا يوم بعده كأن كل يوم يلد ما بعده من الايام فما لا يوم بعده يكون عقيما والمراد به الساعة أيضا كأنه قيل أو يأتيهم عذابها فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل ولا سبيل الى حمل الساعة على أشراطها لما عرفته وأما ما قيل من أن المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر سمى به لان أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لان المقاتلين أبناء الحرب فاذا قتلوا صارت عقيما أى ثكلى فوصف اليوم بوصفها اتساعا أو لانه لا خير لهم فيه

الواو فى قوله لكل أمة لانه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله فلا جرم حذف العاطف (المسئلة الثانية) فى المنسك أقوال (أحدها) قال ابن عباس عيدا يذبحون فيه (وثانيها) قربانا وافقا المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد (وثالثها) مألفا يألفونه اما مكانا معينا أو زمانا معينا لاداء الطاعات (ورابعها) المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء واختيار القفال وهو الاقرب لقوله تعالى لكل أمة جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولان المنسك ماخوذ من النسك وهو العبادة واذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص فان قيل هلا حملتموه على الذبح لان المنسك فى العرف لا يفهم منه الا الذبح وهلا حملتموه على موضع العبادة أو على وقتها (الجواب) عن الاول لا نسلم أن المنسك فى العرف مخصوص بالذبح والدليل عليه ان سائر ما يفعل فى الحج يوصف بانه مناسك ولاجله قال عليه السلام خذوا عنى مناسككم (وعن الثانى) ان قوله هم ناسكوه أليق بالعبادة منه بالوقت والمكان (المسئلة الثالثة) زعم قوم ان المراد من قوله هم ناسكوه من كان فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متمسكا بشرع كاليهود والنصارى ولا يمتنع أن يريد كل من تعبد من الامم سواء بقيت آثارهم أو لم تبق لان قوله هم ناسكوه كالوصف للامم وان لم يتعبدوا فى الحال أما قوله تعالى فلا ينازعنك فى الامر فقرئ فلا ينزعنك أى اثبت فى دينك ثباتا لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه واما قوله فلا ينازعنك ففيه قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج انه نهى لهم عن منازعتهم كما تقول لا يضاربنك فلان أى لا تضاربه (والثانى) أن المراد أن عليهم اتباعك وترك مخالفتك وقد استقر الامر الآن على شرعك وعلى انه ناسخ لكل ما عداه فكأنه تعالى نهى كل امة بقيت منها بقية أن تستمر على تلك العادة وألزمها أن تتحول الى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فلذلك قال وادع الى ربك أى لا تخص بالدعاء امة دون امة فكلهم أمتك فادعهم الى شرعك فانك على هدى مستقيم والهدى يحتمل نفس الدين ويحتمل أدلة الدين وهو أولى كأنه قال ادعهم الى هذا الدين فانك من حيث الدلالة على طريقة واضحة ولهذا قال وان جادلوك والمعنى فان عدلوا عن النظر فى هذه الادلة الى طريقة المراء والتمسك بالعادة فقد بينت وأظهرت ما يلزمك فقل الله اعلم بما تعملون لانه ليس بعد ايضاح الادلة الا هذا الجنس الذى يجرى مجرى الوعيد والتحذير من حكم يوم القيامة الذى يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وانكر فقال الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون فتعرفون حينئذ الحق من الباطل والله أعلم

قوله تعالى (الم تعلم ان الله يعلم ما فى السماء والارض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) اعلم انه تعالى لما قال من قبل الله يحكم بينكم يوم القيامة أتبعه بما به يعلم انه سبحانه عالم بما يستحقه

كل

ومنه الريح العقيم لما لم ينشئ مطرا ولم يلقح شجرا أو لانه لا مثل له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه فمما لا يساعده سياق النظم الكريم أصلا كيف لا وان تخصيص الملك والتصرف الكلى فيه بالله ٢٥٩ عز وجل ثم بيان ما يقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الاخرويين يقضى بأن المراد به يوم القيامة قضاء بينا لا ريب فيه (الملك) أى السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الاطلاق (يومئذ لله) وحده بلا شريك أصلا بحيث لا يكون فيه لاحد تصرف من التصرفات فى أمر من الامور لا حقيقة ولا مجازا ولا صورة ولا معنى كما فى الدنيا فان للبعض فيها تصرفا صوريا فى الجملة وليس التنوين نائبا عما تدل عليه الغاية من زوال مريتهم كما قيل ولا عما يستلزمه ذلك من ايمانهم كما قيل لما أن القيد المعتبر مع اليوم حيث وسط بين طرفى الجملة يجب أن يكون مدارا لحكمها أعنى كون الملك لله عز وجل وما يتفرع عليه من الاثابة والتعذيب ولا ريب فى أن ايمانهم أو زوال مريتهم ليس مما له تعلق بما ذكر فضلا عن المدارية له فلا سبيل الى اعتبار شئ منهما مع اليوم قطعا وانما الذى يدور عليه ما ذكر اتيان الساعة التى هى منتهى تصرفات الخلق ومبدأ ظهور أحكام الملك الحق جل جلاله فاذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غاية لمريتهم فالمعنى الملك يوم اذ تأتيهم الساعة أو عذابها لله تعالى وقوله تعالى (يحكم بينهم) جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الاخبار بكون الملك يومئذ لله كأنه قيل فماذا يصنع بهم حينئذ فقيل يحكم بين فريقى المؤمنين به والممارين فيه بالمجازاة وقوله تعالى (فالذين آمنوا) الخ تفسير للحكم المذكور وتفصيل له أى فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يماروا فيه (وعملوا الصالحات) امتثالا لما أمر وانتهاء عما نهى عنه (فى جنات

كل أحد منهم فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والارض وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله ألم تعلم هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والوعد له وايعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينسى (المسئلة الثانية) الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد سائر العباد ولان الرسالة لا تثبت الا بعد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات اذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق فحينئذ لا يكون اظهار المعجز دليلا على الصدق واذا كان كذلك استحال أن لا يكون الرسول عالما بذلك فثبت ان المراد أن يكون خطابا مع الغير أما قوله ان ذلك فى كتاب ففيه قولان (أحدهما) وهو قول أبى مسلم ان معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال كتبت المزادة اكتبها اذا خرزتها فحفظت بذلك ما فيها ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس حفظ ما يتعاملون به فالمراد من قوله ان ذلك فى كتاب انه محفوظ عنده (والثانى) وهو قول الجمهور ان كل ما يحدثه الله فى السموات والارض فقد كتبه فى اللوح المحفوظ قالوا وهذا أولى لان القول الاول وان كان صحيحا نظرا الى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف ومعلوم ان الكتاب هو ما تكتب فيه الامور فكان حمله عليه أولى فان قيل فقد يوهم ذلك ان علمه مستفاد من الكتاب وأيضا فأى فائدة فى ذلك الكتاب (والجواب) عن الاول ان كتبه تلك الاشياء فى ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من ادل الدلائل على انه سبحانه غنى فى علمه عن ذلك الكتاب (وعن الثانى) ان الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة فى الوجود على وفقه فصار ذلك دليلا لهم زائدا على كونه سبحانه عالما بكل المعلومات أما قوله ان ذلك على الله يسير فمعناه ان كتبه جملة الحوادث مع انها من الغيب مما يتعذر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير وان كان هذا الوصف لا يستعمل الا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الامور وتعالى الله عن ذلك ثم بين سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه ووضوح دلائله فقال ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم فبين ان عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعى وهو المراد من قوله ما لم ينزل به سلطانا ولا عن دليل عقلى وهو المراد من قوله وما ليس لهم به علم واذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل او شبهة فوجب فى كل قول هذا شأنه أن يكون باطلا فمن هذا الوجه يدل على ان الكافر قد يكون كافرا وان لم يعلم كونه كافرا ويدل أيضا على فساد التقليد أما قوله وما للظالمين من نصير ففيه وجهان (أحدهما) أنهم ليس لهم أحد ينتصر لهم من الله كما قد تتفق النصرة فى الدنيا (والثانى) ما لهم فى كفرهم ناصر بالحجة فان الحجة ليست الا للمحق واحتجت المعتزلة بهذه الآية فى نفى الشفاعة والكلام عليه معلوم أما قوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات يعنى من تقدم ذكره وهذه الآيات هى القرآن ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة

النعيم) أى مستقرون فيها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى اصروا على ذلك واستمروا (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر

والتكذيب وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب وهو مبتدأ وقوله تعالى (لهم عذاب) جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبر الاولئك أولهم خبر لاولئك وعذاب مرتفع على الفاعلية بالاستقرار فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدا وأولئك مع خبره على الوجهين خبر للموصول وتصديره بالفاء للدلالة على أن تعذيب الكفار بسبب أعمالهم السيئة كما أن تجريد خبر الموصول الاول عنها للايذان بان اثابة المؤمنين بطريق التفضل لا لايجاب الاعمال الصالحة اياها وقوله تعالى (مهين) صفة لعذاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة وفيه من المبالغة من وجوه شتى ما لا يخفى (والذين هاجروا فى سبيل الله) أى فى الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى (ثم قتلوا او ماتوا) أى فى تضاعيف المهاجرة ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى (ليرزقنهم الله) جواب لقسم محذوف والجملة خبره ومن منع وقوع الجملة القسمية وجوابها خبرا للمبتدأ اضمر قولا هو الخبر والجملة محكية به وقوله تعالى (رزقا حسنا) اما مفعول ثان على أنه من باب الرعى والذبح أى مرزوقا حسنا أو مصدر مؤكد والمراد به ما لا ينقطع أبدا من نعيم الجنة وانما سوى بينهما فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل على أن مراتب الحسن متفاوتة فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الارزاق الحسنة وروى أن بعض أصحاب النبى عليه السلام قالوا يا نبى الله هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله قد علمنا

للدلائل العقلية وبيان الاحكام فبين انهم مع جهلهم اذا نبهوا على الادلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر فى وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب قال صاحب الكشاف المنكر الفظيع من التجهم والفجور والنشوز والانكار كالمكرم بمعنى الاكرام وقرئ تعرف على ما لم يسم فاعله وللمفسرين فى المنكر عبارات (احداها) قال الكلبى تعرف فى وجوههم الكراهية للقرآن (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما التجبر والترفع (وثالثها) قال مقاتل أنكروا أن يكون من الله تعالى أما قوله تعالى يكادون يسطون فقال الخليل والفراء والزجاج السطو شدة البطش والوثوب والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لانكار ما خوطبوا به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الانبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بان يقابلهم بالوعيد فقال قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار قال صاحب الكشاف قوله من ذلكم أى من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم فقوله من ذلكم فيه وجهان (أحدهما) المراد ان الذى ينالكم من النار التى تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم (والثانى) أن يكون المراد بشر من ذلكم ما تهمون به فيمن يحاجكم فان أكبر ما يمكنكم فيه الاهلاك ثم بعده مصيرهم الى الجنة وأنتم تصيرون الى النار الدائمة التى لا فرج لكم عنها وأما النار فقال صاحب الكشاف قرئ النار بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف كان قائلا يقول ما شر من ذلك فقيل النار أى هو النار وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر ثم بين سبحانه انه وعدها الذين كفروا اذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير قال صاحب الكشاف وعدها الله استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرا ﴿ قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز) اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل انهم يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم فيه ولا علم ذكر فى هذه الآية ما يدل على ابطال قولهم أما قوله تعالى ضرب مثل ففيه سؤالات (السؤال الاول) الذى جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا (والجواب) لما كان المثل فى الاكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلا (السؤال الثانى) قوله ضرب يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام ابتداء (الجواب) اذا كان ما يورد من الوصف معلوما من قبل جاز ذلك فيه ويكون ذكره بمنزلة اعادة أمر قد تقدم أما قوله فاستمعوا له أى تدبروه حق تدبره لان نفس السماع لا ينفع وانما ينفع التدبر واعلم أن الذباب لما كان فى غاية الضعف احتج الله تعالى به على ابطال قولهم من وجهين (الاول) قوله ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له قرئ يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنيا للمفعول ولن أصل فى نفى المستقبل الا أنه ينفيه نفيا مؤكدا فكأنه سبحانه

قال

فما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فنزلت وقيل نزلت فى طوائف خرجوا من مكة الى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم (وان الله لهو خير الرازقين)

فانه يرزق بغير حساب مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد غيره والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وقوله تعالى (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) بدل من قوله تعالى ليرزقنهم الله أو استئناف مقرر لمضمونه ومدخلا اما اسم مكان أريد به الجنة فهو مفعول ثان للادخال او مصدر ميمى أكد به فعله قال ابن عباس رضى الله عنهما انما قيل يرضونه لما أنهم يرون فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه (وان الله لعليم) بأحوالهم وأحوال معاديهم (حليم) لا يعاجلهم بالعقوبة (ذلك) خبر مبتدأ محذوف أى الامر ذلك والجملة لتقرير ما قبله والتنبيه على أن ما بعده كلام مستأنف (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) أى لم يزد فى الاقتصاص وانما سمى الابتداء بالعقاب الذى هو جزاء الجناية للمشاكلة أو لكونه سببا له (ثم بغى عليه) بالمعاودة الى العقوبة (لينصرنه الله) على من بغى عليه لا محالة (ان الله لعفو غفور) أى مبالغ فى العفو والغفران فيعفو عن المنتصر ويغفر له ما صدر عنه من ترجيح الانتقام على العفو والصبر المندوب اليهما بقوله تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك أى ما ذكر من الصبر والمغفرة لمن عزم الامور فان فيه حثا بليغا على العفو والمغفرة فانه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك وتنبيها على أنه تعالى قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده (ذلك) اشارة الى النصر وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى بسبب

قال ان هذه الاصنام وان اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا فقوله ولو اجتمعوا له نصب على الحال كأنه قال يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم (والثانى) ان قوله وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه كأنه سبحانه قال اترك أمر الخلق والايجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه فان الذباب ان سلب منها شيأ فهى لا تقدر على استنقاذ ذلك الشئ من الذباب واعلم ان الدلالة الاولى صالحة لان يتمسك بها فى نفى كون المسيح والملائكة آلهة أما الثانية فلا فان قيل هذا الاستدلال اما ان يكون لنفى كون الاوثان خالقة عالمة حية مدبرة أو لنفى كونها مستحقة للتعظيم (والاول) فاسد لان نفى كونها كذلك معلوم بالضرورة فاى فائدة فى اقامة الدلالة عليه (وأما الثانى) فهذه الدلالة لا تفيده لانه لا يلزم من نفى كونها حية أن لا تكون معظمة فان جهات التعظيم مختلفة فالقوم كانوا يعتقدون فيها انها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب أو انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين وكانوا يعظمونها على ان تعظيمها يوجب تعظيم الملائكة وأولئك الانبياء المتقدمين (والجواب) اما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها الاضرار والانتفاع فهو يبطل بهذه الدلالة فانها لما لم تنفع نفسها فى هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة فلان لا تنفع غيرها أولى وأما انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين فقد تقرر فى العقل ان تعظيم غير الله تعالى ينبغى أن يكون أقل من تعظيم الله تعالى والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم وحينئذ كان يلزم التسوية بينها وبين الخالق سبحانه فى التعظيم فمن ههنا صاروا مستوجبين للذم والملام أما قوله تعالى ضعف الطالب والمطلوب ففيه قولان (أحدهما) المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث انه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب (الثانى) ان الطالب من عبد الصنم والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها وهذا أقرب لان كون الصنم طالبا ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير أما ههنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لان الوثن لا يصح أن يكون ضعيفا لان الضعف لا يجوز الا على من يصح ان يقوى وههنا وجه ثالث وهو أن يكون معنى قوله ضعف لا من حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب كما يقال للمرء عند المناظرة ما أضعف هذا المذهب وما أضعف هذا الوجه أما قوله ما قدروا الله حق قدره أى ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا هذه الاصنام على نهاية خساستها شريكة له فى المعبودية وهذه الكلمة مفسرة فى سورة الانعام وهو قوى لا يتعذر عليه فعل شئ وعزيز لا يقدر أحد على مغالبته فاى حاجة الى القول بالشريك قال الكلبى فى هذه الآية ونظيرها فى سورة الانعام انها نزلت فى جماعة من اليهود وهم مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله حيث قالوا انه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والارض أعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا

أنه تعالى من شانه وسنته تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الاشياء المتضادة وعبر عن ذلك بادخال أحد الملوين فى الآخر بان يزيد فيه ما ينقص عن الآخر أو بتحصيل أحدهما فى مكان الآخر لكونه أظهر المواد وأوضحها (وان الله سميع) بكل المسموعات التى من جملتها قول المعاقب (بصير) بجميع المبصرات ومن جملتها أفعاله (ذلك) أى الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم وما فيه من معنى البعد لما مر آنفا وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بان الله هو الحق) الواجب لذاته الثابت فى نفسه وصفاته وأفعاله وحده فان وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبدأ لكل ما يوجد من الموجودات عالما بكل المعلومات أو الثابت الهيته فلا يصلح لها الا من كان عالما قادرا (وأن ما يدعون من دونه) الها وقرئ على البناء للمفعول على أن الواو لما فانه عبارة عن الآلهة وقرئ بالتاء على خطاب المشركين (هو الباطل) أى المعدوم فى حد ذاته أو الباطل الوهيته (وان الله هو العلى) على جميع الاشياء (الكبير) عن أن يكون له شريك لاشئ أعلى منه شانا وأكبر سلطانا (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استفهام تقرير كما يفصح عنه الرفع فى قوله تعالى (فتصبح الارض مخضرة) بالعطف على انزل وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بتجدد أثر الانزال واستمراره أو لاستحضار صورة الاخضرار (ان الله لطيف) يصل لطفه أو علمه الى كل ما جل ودق (خبير) بما يليق من التدابير الحسنة ظاهرا وباطنا (له ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا وتصرفا (وان الله لهو الغنى) عن كل شئ (الحميد) المستوجب للحمد على صفاته وأفعاله (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض) أى جعل ما فيها من الاشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف

اهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب واعلم ان منشأ هذه الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الافعال أعنى الغرض والداعى واستحقاق المدح والذم خلاف ما تقوله المعتزلة قال الامام أبو القاسم الانصارى رحمه الله فهو سبحانه جبار النعت عزيز الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره والعقول لا تمثله والازمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده صمدى الذات سرمدى الصفات ﴿قوله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والى الله ترجع الامور) اعلم انه سبحانه لما قدم ما يتعلق بالالهيات ذكر ههنا ما يتعلق بالنبوات قال مقاتل قال الوليد بن المغيرة أأنزل عليه الذكر من بيننا فانزل الله تعالى هذه الآية وههنا سؤالان (السؤال الاول) كلمة من للتبعيض فقوله الله يصطفى من الملائكة رسلا يقتضى أن تكون الرسل بعضهم لا كلهم وقوله جاعل الملائكة رسلا يقتضى كون كلهم رسلا فوقع التناقض (والجواب) جاز أن يكون المذكور ههنا من كان رسلا الى بنى آدم وهم أكابر الملائكة كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم وأما كل الملائكة فبعضهم رسل الى البعض فزال التناقض (السؤال الثانى) قال فى سورة الزمر لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء فدل على ان ولده يجب أن يكون مصطفى وهذه الآية دلت على ان بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين فيلزم بمجموع الآيتين اثبات الولد (والجواب) ان قوله لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى يدل على ان كل ولد مصطفى ولا يدل على ان كل مصطفى ولد فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولدا وفى هذه الآية وجه آخر وهو ان المراد تبكيت من عبد غير الله تعالى من الملائكة كانه سبحانه أبطل فى الآية الاولى قول عبدة الاوثان وفى هذه الآية أبطل قول عبدة الملائكة فبين ان علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة بل لان الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم فكانه تعالى بين انهم ما قدروا الله حق قدره ان جعلوا الملائكة معبودين مع الله ثم بين سبحانه بقوله ان الله سميع بصير انه يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ولذلك أتبعه بقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم فقال بعضهم ما تقدم فى الدنيا وما تأخر وقال بعضهم ما بين أيديهم أمر الآخرة وما خلفهم أمر الدنيا ثم أتبعه بقوله والى الله ترجع الامور فقوله يعلم ما بين أيديهم اشارة الى العلم التام وقوله والى الله ترجع الامور اشارة الى القدرة التامة والتفرد بالالهية والحكم ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الاقدام على المعصية ﴿قوله تعالى

(يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون

وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم

ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء

شئتم فلا أصلب من الحجر ولا أشد من الحديد ولا أهيب من النار وهى مسخرة لكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم لتعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر (والفلك) عطف على ما أو على اسم أن وقرئ بالرفع على الابتداء (تجرى فى البحر بأمره) حال من الفلك على الاول وخبر على الاخيرين (ويمسك السماء أن تقع على الارض) أى من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على هيئة متداعية الى الاستمساك (الا باذنه) أى بمشيئته وذلك يوم القيامة وفيه رد لاستمساكها بذاتها فانها مساوية فى الجسمية لسائر الاجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها (ان الله بالناس لرؤف رحيم) حيث هيأ لهم أسباب معاشهم وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية (وهو الذى أحياكم) بعد أن كنتم جمادا عناصر ونطفا حسبما فصل فى مطلع السورة الكريمة (ثم يميتكم) عند مجئ آجالكم (ثم يحييكم) عند البعث (ان الانسان لكفور) أى لجحود للنعم مع ظهورها وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده (لكل أمة) كلام مستأنف جئ به لزجر معاصريه عليه السلام من أهل الاديان السماوية عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع واظهار خطئهم فى النظر أى لكل أمة معينة من الامم الخالية والباقية (جعلنا) أى وضعنا وعينا (منسكا) أى شريعة خاصة لا لامة أخرى منهم على معنى عينا كل شريعة لامة معينة من الامم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها الى شريعة أخرى لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى (هم ناسكوه) صفة لمنسكا مؤكدة للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها أى تلك الامة المعينة ناسكوه

على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم

النصير) اعلم انه سبحانه لما تكلم فى الالهيات ثم فى النبوات أتبعه بالكلام فى الشرائع وهو من أربعة أوجه (أولها) تعيين المأمور (وثانيها) أقسام المأمور به (وثالثها) ذكر ما يوجب قبول تلك الاوامر (ورابعها) تأكيد ذلك التكليف (أما النوع الاول) وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا وفيه قولان (أحدهما) المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمنا أو كافرا لان التكليف بهذه الاشياء عام فى كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك (والثانى) ان المراد بذلك المؤمنون فقط أما أولا فلان اللفظ صريح فيه وأما ثانيا فلان قوله بعد ذلك هو اجتباكم وقوله هو سماكم المسلمين وقوله وتكونوا شهداء على الناس كل ذلك لا يليق الا بالمؤمنين أقصى ما فى الباب أن يقال لما كان ذلك واجبا على الكل فاى فائدة فى تخصيص المؤمنين لكنا نقول تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفى ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الاشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها ويمكن أن يقال فائدة التخصيص انه لما جاء الخطاب العام مرة بعد أخرى ثم انه ما قبله الا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم فى ذلك الاقرار والتخصيص (أما النوع الثانى) وهو المأمور به فقد ذكر الله أمورا أربعة (الاول) الصلاة وهو المراد من قوله اركعوا واسجدوا وذلك لان أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هى المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضى الله عنهما أن الناس فى أول اسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية (الثانى) قوله واعبدوا ربكم وذكروا فيه وجوها (احدها) اعبدوه ولا تعبدوا غيره (وثانيها) واعبدوا ربكم فى سائر المأمورات والمنهيات (وثالثها) افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لانه لا يكفى أن يفعل فانه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع فى باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود (الثالث) قوله تعالى وافعلوا الخير قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد به صلة الرحم ومكارم الاخلاق والوجه عندى فى هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير لان فعل الخير ينقسم الى خدمة المعبود الذى هو عبارة عن التعظيم لامر الله والى الاحسان الذى هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكانه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات أما قوله تعالى لعلكم تفلحون فقيل معناه لتفلحوا والفلاح الظفر بنعيم الآخرة وقال الامام أبو القاسم الانصارى لعل كلمة للترجية فان الانسان قلما يخلو فى أداء فريضة من تقصير

والعاملون به لا أمة أخرى فالامة التى كانت من مبعث موسى عليه السلام الى مبعث عيسى عليه السلام منسكهم التوراة هم ناسكوها والعاملون بها لا غيرهم والتى كانت ٢٦٤ من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما السلام منسكهم الانجيل هم ناسكوه والعاملون به لا غيرهم وأما الامة الموجودة عند مبعث النبى عليه السلام ومن بعدهم من الموجودين الى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم الفرقان ليس الا كما مر فى تفسير قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا والفاء فى قوله تعالى (فلا ينازعنك فى الامر) لترتيب النهى أو موجبه على ماقبلها فان تعيينه تعالى لكل أمة من الامم التى من جملتهم هذه الامة شريعة مستقلة بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم منازعتهم اياه فى أمر الدين زعما منهم أن شريعتهم ماعين لآبائهم الاولين من التوراة والانجيل فانهما شريعتان لمن مضى من الامم قبل انتساخهما وهؤلاء أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد فحسب والنهى اما على حقيقته أو كناية عن نهيه عليه السلام عن الالتفات الى نزاعهم المبنى على زعمهم المذكور وأما جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم فلا يساعده المقام وقرئ فلا ينزعنك على تهييجه عليه السلام والمبالغة فى تثبيته وأياما كان فمحل النزاع ماذكرناه وتخصيصه بأمر النسائك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين وغيرهم للمسلمين مالكم تأكلون ماقتلتم ولا تأكلون ماقتله الله تعالى مما لاسبيل اليه أصلا كيف لا وانه يستدعى أن يكون أكل الميتة وسائر ماقيدينونه من الاباطيل من جملة المناسك التى جعلها الله تعالى لبعض الامم ولا يرتاب فى بطلانه عاقل (وادع) أى وادعهم

وليس هو على يقين من أن الذى أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى والعواقب أيضا مستورة وكل ميسر لما خلق له (الرابع) قوله تعالى وجاهدوا فى الله حق جهاده قال صاحب الكشاف فى الله أى فى ذات الله ومن اجله يقال هو حق عالم وجد عالم أى عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وههنا سؤالات (السؤال الاول) ماوجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال وجاهدوا فى الله حق جهاده (والجواب) الاضافة تكون بادنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الاضافة اليه (السؤال الثانى) ماهذا الجهاد (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أن المراد قتال الكفار خاصة ومعنى حق جهاده أن لا يفعل الا عبادة لا رغبة فى الدنيا من حيث الاسم أو الغنيمة (والثانى) أن يجاهدوا آخرا كما جاهدوا أولا فقد كان جهادهم فى الاول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر روى عن عمر رضى الله عنه انه قال لعبد الرحمن بن عوف أما علمت انا كنا نقرأ وجاهدوا فى الله حق جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتموه فى أوله فقال عبد الرحمن ومتى ذلك يا أمير المؤمنين قال اذا كانت بنو أمية الامراء وبنو المغيرة الوزراء واعلم انه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن والا لنقل كنقل نظائره ولعله ان صح ذلك عن الرسول فانما قاله كالتفسير للآية وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ وجاهدوا فى الله حق جهاده كما جاهدتم أول مرة فقال عمر من الذى أمرنا بجهاده فقال قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس فقال صدقت (والثالث) قال ابن عباس حق جهاده لا تخافوا فى الله لومة لائم (والرابع) قال الضحاك واعملوا لله حق عمله (والخامس) استفرغوا وسعكم فى احياء دين الله واقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع مايمكن وردوا أنفسكم عن الهوى والميل (والوجه السادس) قال عبد الله بن المبارك حق جهاده مجاهدة النفس والهوى ولما رجع رسول الله صلى الله عليه من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر والاولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف فكل ماامر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد (السؤال الثالث) هل يصح مانقل عن مقاتل والكلبى ان هذه الآية منسوخة بقوله فاتقوا الله مااستطعتم كما ان قوله اتقوا الله حق تقاته منسوخ بذلك (الجواب) هذا بعيد لان التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها فكيف يقول الله وجاهدوا فى الله على وجه لا تقدرون عليه وكيف وقد كان الجهاد فى الاول مضيقا حتى لا يصح أن يفر الواحد من عشرة ثم خففه الله بقوله الآن خفف الله عنكم أفيجوز مع ذلك أن يوجبه على وجه لا يطاق حتى يقال انه منسوخ (النوع الثالث) بيان مايوجب قبول هذه الاوامر وهو ثلاثة (الاول) قوله هو اجتباكم ومعناه ان التكليف تشريف من الله تعالى للعبد فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم باعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته فاى رتبة أعلى من هذا وأى سعادة فوق هذا ويحتمل فى اجتباكم

أو وادع الناس كافة على أنهم داخلون فيهم دخولا أوليا (الى ربك) الى توحيده وعبادته حسبما بين لهم فى منسكهم وشريعتهم (انك لعلى هدى مستقيم) أى طريق موصل الى الحق سوى ٢٦٥ والمراد به اما الدين والشريعة أو أدلتها (وان جادلوك) بعد ظهور الحق بما ذكر من التحقيق ولزوم الحجة عليهم (فقل) لهم على سبيل الوعيد (الله أعلم بما تعملون) من الاباطيل التى من جملتها المجادلة (الله يحكم بينكم) يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين (يوم القيامة) بالثواب والعقاب كما فصل فى الدنيا بالحجج والآيات (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين (ألم تعلم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله والاستفهام للتقرير أى قد علمت (أن الله يعلم مافى السماء والارض) فلا يخفى عليه شئ من الاشياء التى من جملتها مايقوله الكفرة وما يعملونه (ان ذلك) أى مافى السماء والارض (فى كتاب) هو اللوح قد كتب فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له (ان ذلك) أى ماذكر من العلم والاحاطة به واثباته فى اللوح أو الحكم بينكم (على الله يسير) فان علمه وقدرته مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شئ ولا يعسر عليه مقدور (ويعبدون من دون الله) حكاية لبعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم من بناء أمر دينهم على غير مبنى من دليل سمعى أو عقلى واعراضهم عما ألقى عليهم من سلطان بين هو أساس الدين وقاعدته أشد اعراض أى يعبدون متجاوزين عبادة الله (مالم ينزل به) ٣٤ را س أى بجواز عبادته (سلطانا) أى حجة (وماليس لهم به) اى بجواز عبادته (علم) من ضرورة العقل أو استدلاله (وما للظالمين) أى الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم الذى يقضى ببطلانه وكونه ظلما بديهة العقول (من نصير)

خصكم بالهداية والمعونة والتيسير أما قوله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو ان التكليف وان كان تشريفا واجبا كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس فاجاب الله تعالى عنه بقوله وما جعل عليكم فى الدين من حرج روى أن أبا هريرة رضى الله عنه قال كيف قال الله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج مع انه منعنا عن الزنا والسرقة فقال ابن عباس رضى الله عنهما بلى ولكن الاصر الذى كان على بنى اسرائيل وضع عنكم وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحرج فى أصل اللغة (الجواب) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لبعض هذيل ماتعدون الحرج فيكم قال الضيق وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الضيق (السؤال الثانى) ما المراد من الحرج فى الآية (الجواب) قيل هو الاتيان بالرخص فمن لم يستطع أن يصلى قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع ذلك فليوم وأباح للصائم الفطر فى السفر والقصر فيه وأيضا فانه سبحانه لم يبتل عبده بشئ من الذنوب الا وجعل له مخرجا منها اما بالتوبة أو بالكفارة وعن ابن عمر رضى الله عنهما انه من جاءته رخصة فرغب عنها كلف يوم القيامة أن يحمل ثقل تنين حتى يقضى بين الناس وعن النبى صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع أمران فاحبهما الى الله تعالى أيسرهما وعن كعب أعطى الله هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا للانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال ادعونى أستجب لكم (السؤال الثالث) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من تكليف مالا يطاق فقالوا لما خلق الله الكفر والمعصية فى الكافر والعاصى ثم نهاهما عنهما كان ذلك من أعظم الحرج وذلك منفى بصريح هذا النص (والجواب) لما أمره بترك الكفر وترك الكفر يقتضى انقلاب علمه جهلا فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلا وذلك من أعظم الحرج ولما استوى القدمان زال السؤال (الموجب الثانى) لقبول التكليف قوله ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى نصب الملة وجهان (أحدهما) وهو قول الفراء انها منصوبة بمضمون ماتقدمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ابراهيم ثم حذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (والثانى) أن يكون منصوبا على المدح والتعظيم أى أعنى بالدين ملة أبيكم ابراهيم واعلم ان المقصود من ذكره التنبيه على ان هذه التكاليف والشرائع هى شريعة ابراهيم عليه الصلاة والسلام والعرب كانوا محبين لابراهيم عليه السلام لانهم من أولاده فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال ملة أبيكم ابراهيم ولم يدخل فى الخطاب المؤمنون الذين كانوا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكن من ولده (والجواب) من وجهين (أحدهما) لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك (وثانيهما) وهو قول الحسن ان الله تعالى جعل حرمة ابراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده ومنه قوله تعالى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فجعل حرمته

كرمة الوالد على الولد وحرمة شأنه كحرمة الوالدة على ما قال تعالى وأزواجه أمهاتهم (السؤال الثانى) هذا يقتضى أن تكون ملة محمد كملة ابراهيم عليهما السلام سواء فيكون الرسول ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى أن اتبع ملة ابراهيم (الجواب) هذا الكلام انما وقع مع عبدة الاوثان فكأنه تعالى قال عبادة الله وترك الاوثان هى ملة ابراهيم فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع (السؤال الثالث) ما معنى قوله تعالى هو سماكم المسلمين من قبل (الجواب) فيه قولان (أحدهما) ان الكناية راجعة الى ابراهيم عليه السلام فان لكل نبى دعوة مستجابة وهو قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد صلى الله عليه وسلم وروى انه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سيبعث محمدا على ملته وانه ستسمى أمته بالمسلمين (والثانى) ان الكناية راجعة الى الله تعالى فى قوله هو اجتباكم فروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال ان الله سماكم المسلمين من قبل أى فى كل الكتب وفى هذا أى فى القرآن وهذا الوجه أقرب لانه تعالى قال ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فبين انه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله ويدل عليه أيضا قراءة أبى بن كعب الله سماكم والمعنى انه سبحانه فى سائر الكتب المتقدمة على القرآن وفى القرآن أيضا بين فضلكم على الامم وسماكم بهذا الاسم الاكرم لاجل الشهادة المذكورة فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه وهذا هو العلة الثالثة الموجبة لقبول التكليف وأما الكلام فى انه كيف يكون الرسول شهيدا علينا وكيف تكون أمته شهداء على الناس فقد تقدم فى سورة البقرة وبينا انه أخذ منه ما يدل على ان الاجماع حجة (النوع الرابع) شرح ما يجرى مجرى المؤكد لما مضى وهو قوله فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ويجب صرفها الى المفروضات لانها هى المعهودة واعتصموا بالله أى بدلائله العقلية والسمعية وألطافه وعصمته قال ابن عباس سلوا الله العصمة عن كل المحرمات وقال القفال اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم سيدكم والمتصرف فيكم فنعم المولى ونعم النصير فكأنه سبحانه قال أنا مولاك بل أنا ناصرك وحسبك واعلم ان المعتزلة احتجوا بهذه الآيات من وجوه (أحدها) ان قوله لتكونوا شهداء على الناس يدل على انه سبحانه أراد الايمان من الكل لانه تعالى لا يجعل الشهيد على عباده الا من كان عدلا مرضيا فاذا أراد أن تكونوا شهداء على الناس فقد أراد أن تكونوا جميعا صالحين عدولا وقد علمنا أن منهم فاسقا فدل ذلك على ان الله تعالى أراد من الفاسق كونه عدلا (وثانيها) قوله واعتصموا بالله وكيف يمكن الاعتصام به مع ان الشر لا يوجد الا منه (وثالثها) قوله فنعم المولى لانه لو كان كما يقوله أهل السنة من انه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى بل كان لا يوجد من شرار الموالى أحد الا وهو شر منه فكان يجب أن يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل

يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم أو بدفع العذاب الذى يعتريهم بسبب ظلمهم (واذا تتلى عليهم آياتنا) عطف على يعبدون وما بينهما اعتراض وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد (بينات) أى حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقة والاحكام الصادقة أو على بطلان ما هم عليه من عبادة الاصنام أو على كونها من عند الله عز وجل (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) أى الانكار كالمكرم بمعنى الاكرام أو الفظيع من التجهم والبسور أو الشر الذى يقصدونه بظهور مخايله من الاوضاع والهيئات وهو الانسب بقوله تعالى (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لاباطيل أخذوها تقليدا وهل جهالة أعظم وأطم من أن يعبدوا ما لا يوهم صحة عبادته شيئا ما أصلا بل يقضى ببطلانها العقل والنقل ويظهروا لمن يهديهم الى الحق البين بالسلطان المبين مثل هذا المنكر الشنيع كلا ولهذا وضع الذين كفروا موضع الضمير (قل) ردا عليهم واقناطا مما يقصدونه من الاضرار بالمسلمين (أفأنبئكم) أى أأخاطبكم فأخبركم (بشر من ذلكم) الذى فيكم من غيظكم على التالين وسطوتكم بهم أو مما تبغونهم من الغوائل أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوه عليكم (النار) أى هو النار على أنه جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ما هو وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى (وعدها الله الذين كفروا) وقرئ النار بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلا من شر فتكون الجملة الفعلية استئنافا كالوجه الاول أو حالا من النار باضمار قد (وبئس المصير) النار على .

(يا أيها الناس ضرب مثل) أى بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلا وتسير فى الامصار والاعصار

على انه سبحانه ما أراد من جميعهم الا الصلاح فان قيل لم لا يجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما انه نعم النصير لهم خاصة قلنا انه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعا فيجب أن يقال انه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين فان ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والاجماع وصرحوا بشتم الله تعالى (ورابعها) ان قوله سماكم المسلمين من قبل يدل على اثبات الاسماء الشرعية وانها من قبل الله تعالى لانها لو كانت لغة لما أضيفت الى الله تعالى على وجه الخصوص (والجواب) عن الاول وهو قوله كونه تعالى مريدا لكونه شاهدا يستلزم كونه مريدا لكونه عدلا فنقول ان كانت ارادة الشئ مستلزمة لارادة لوازمه فارادة الايمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لارادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريدا لجهل نفسه وان لم يكن ذلك واجبا سقط الكلام وأما قوله واعتصموا بالله فيقال هذا أيضا وارد عليكم فانه سبحانه خلق الشهوة فى قلب الفاسق وأكدها وخلق المشتهى وقربه منه ورفع المانع ثم سلط عليه الشياطين من الانس والجن وعلم انه لا محالة يقع فى الفجور والضلال وفى الشاهد كل من فعل ذلك فانه يكون بئس المولى فان صح قياس الغائب على الشاهد فهذا لازم عليكم وان بطل سقط كلامكم بالكلية تم تفسير سورة الحج ويتلوه تفسير سورة المؤمنون والحمد لله رب العالمين

•(سورة المؤمنون مائة وثمان عشرة آية مكية)•

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) اعلم انه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمع الصفات سبع وقبل الخوض فى شرح تلك الصفات لا بد من بحثين (البحث الاول) ان قد نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهى الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (البحث الثانى) الفلاح الظفر بالمراد وقيل البقاء فى الخير وأفلح دخل فى الفلاح كأبشر دخل فى البشارة ويقال أفلحه صيره الى الفلاح وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على لغة أكلونى البراغيث أو على الابهام والتفسير (الصفة الاولى) قوله المؤمنون وقد تقدم القول فى الايمان فى سورة البقرة (الصفة الثانية) قوله الذين هم فى صلاتهم خاشعون واختلفوا فى الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من جمع بين الامرين وهو الاولى

أو جعل لله مثل أى مثل فى استحقاق العبادة وأريد بذلك ما حكى عنهم من عبادتهم للاصنام (فاستمعوا له) أى للمثل نفسه استماع تدبر وتفكر أو فاستمعوا لاجله ما أقول فقوله تعالى (ان الذين تدعون من دون الله) الخ بيان للمثل وتفسير له على الاول وتعليل لبطلان جعلهم الاصنام مثل الله سبحانه فى استحقاق العبادة على الثانى وقرئ بياء الغيبة مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول والراجع الى الموصول على الاولين محذوف (لن يخلقوا ذبابا) أى لن يقدروا على خلقه أبدا مع صغره وحقارته فان لن بما فيها من تأكيد النفى دالة على منافاة ما بين المنفى والمنفى عنه (ولو اجتمعوا له) أى لخلقه وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أى لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه ولو اجتمعوا له لن يخلقوه كما مر تحقيقه مرارا وهما فى موضع الحال كأنه قيل لن يخلقوا ذبابا على كل حال (وان يسلبهم الذباب شيأ) بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه أى ان يأخذ الذباب منهم شيأ (لا يستنقذوه منه) مع غاية ضعفه ولقد جهلوا غاية التجهيل فى اشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرد بايجاد كافة الموجودات تماثيل هى أعجز الاشياء وبين ذلك بأنها لا تقدر على أقل الاحياء وأذلها ولو اتفقوا عليه بل لا تقوى على مقاومة هذا الاقل الاذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه منها قيل كانوا يطيبونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله (ضعف الطالب والمطلوب) أى عابد الصنم ومعبوده أو الذباب الطالب لما يسلبه من الصنم من الطيب والصنم المطلوب منه ذلك أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف من الذباب بدرجات وعابده

أجهل من كل جاهل وأضل من كل ضال (ماقدروا الله حق قدره) أى ماعرفوه حق معرفته حيث اشركوا به وسموا باسمه ماهو أبعد
الاشياء عنه مناسبة (ان الله لقوى) على خلق الممكنات بأسرها وافناء الموجودات عن آخرها (عزيز) غالب على
جميع الاشياء وقد عرفت حال آلهتهم المقهورة لاذلها العجزة عن أقلها والجملة تعليل لما قبلها من نفى معرفتهم له تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا) يتوسطون بينه تعالى وبين الانبياء عليهم السلام بالوحى (ومن الناس) وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون الى جانب ولايعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل الى جناب الحق فيدعونهم اليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلمونهم شرائعه وأحكامه كانه تعالى لما قرر وحدانيته فى الالوهية ونفى أن يشاركه فيها شئ من الاشياء بين أن له عبادا مصطفين للرسالة يتوسل باجابتهم والاقتداء بهم الى عبادته عز وجل وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمن عداه من الموجودات تقريرا للنبوة وتزييفا لقولهم لوشاء الله لانزل ملائكة وقولهم مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى وقولهم الملائكة بنات الله وغير ذلك من الاباطيل (ان الله سميع بصير) عليم بجميع المسموعات والمبصرات فلا يخفى عليه شئ من الاقوال والافعال (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم والى الله ترجع الامور) لا الى أحد غيره لا اشتراكا ولا استقلالا (ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أى فى صلواتكم أمرهم بهما لما أنهم ما كانوا يفعلونهما أول الاسلام أو صلوا عبر عن الصلاة بهما لانهما أعظم أركانها أو اخضعوا لله تعالى وخروا له سجدا (واعبدوا ربكم) بسائر ما تعبدكم به (وافعلوا الخير) وتحروا ماهو خير وأصلح فى كل ماتأتون وماتذرون كنوافل الطاعات

فالخاشع فى صلاته لابد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الافعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ومن التروك أن لايكون ملتفت الخاطر الى شئ سوى التعظيم ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكنا مطرقا ناظرا الى موضع سجوده ومن التروك أن لايلتفت يمينا ولاشمالا ولكن الخشوع الذى يرى على الانسان ليس الامايتعلق بالجوارح فان مايتعلق بالقلب لايرى قال الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم الى السماء فى صلاتهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لايجاوز بصره مصلاه فان قيل فهل تقولون ان ذلك واجب فى الصلاة قلنا انه عندنا واجب ويدل عليه أمور (أحدها) قوله تعالى أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها والتدبر لايتصور بدون الوقوف على المعنى وكذا قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا معناه قف على عجائبه ومعانيه (وثانيها) قوله تعالى وأقم الصلاة لذكرى وظاهر الامر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما للصلاة لذكره (وثالثها) قوله تعالى ولاتكن من الغافلين وظاهر النهى للتحريم (ورابعها) قوله حتى تعلموا ماتقولون تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق المهتم بالدنيا (وخامسها) قوله عليه السلام انما الخشوع لمن تمسكن وتواضع وكلمة انما للحصر وقوله عليه السلام من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الابعدا وصلاة الغافل لاتمنع من الفحشاء وقال عليه السلام كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وما أراد به الا الغافل وقال أيضا ليس للعبد من صلاته الا ماعقل (وسادسها) قال الغزالى رحمه الله المصلى يناجى ربه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة وبيانه ان الانسان اذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه وهو كسر الحرص واغناء الفقير وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى التى هى عدوة الله تعالى فلا يبعد أن يحصل منه مقصوده مع الغفلة وكذا الحج أفعال شاقة وفيه من المجاهدة مايحصل به الابتلاء سواء كان القلب حاضرا أو لم يكن اما الصلاة فليس فيها الا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود أما الذكر فانه مناجاة مع الله تعالى فاما أن يكون المقصود منه كونه مناجاة أو المقصود مجرد الحروف والاصوات ولاشك فى فساد هذا القسم فان تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح فثبت ان المقصود منه المناجاة وذلك لايتحقق الا اذا كان اللسان معبرا عما فى القلب من التضرعات فأى سؤال فى قوله اهدنا الصراط المستقيم وكان القلب غافلا عنه بل أقول لوحلف انسان وقال والله لاشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ثم جرت الالفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى النوم لم يبر فى يمينه ولو جرى على لسانه فى ظلمة الليل وذلك الانسان حاضر وهو لايعرف حضوره ولايراه لايصير بارا فى يمينه ولايكون كلامه خطابا معه مالم يكن حاضرا بقلبه ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر فى بياض النهار الا أن المتكلم غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الافكار ولم يكن له قصد

وصلة الارحام ومكارم الاخلاق (لعلكم تفلحون) أى افعلوا هذه كلها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين بأعمالكم
والآية آية سجدة عند الشافعى رحمه الله لظاهر مافيها من الامر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام فضلت سورة الحج
بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأها (وجاهدوا فى الله) أى لله تعالى ولاجله أعداء دينه الظاهرة كاهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وعنه عليه الصلاة والسلام انه رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (حق جهاده) أى جهادا فيه حقا خالصا لوجهه فعكس وأضيف الحق الى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم وأضيف الجهاد الى الضمير اتساعا أو لانه مختص به تعالى من حيث انه مفعول لوجهه ومن أجله (هو اجتباكم) أى هو اختاركم لدينه ونصرته لا لغيره وفيه تنبيه على مايقتضى الجهاد ويدعو اليه (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى ضيق بتكليف مايشق عليكم اقامته اشارة الى أنه لامانع لهم عنه ولاعذر لهم فى تركه أو الى الرخصة فى اغفال بعض ما أمرهم به حيث يشق عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام اذا أمرتكم بشئ فأتوا منه مااستطعتم وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجا بأن رخص لهم فى المضايق وفتح لهم باب التوبة وشرع لهم الكفارات فى حقوقه والاروش والديات فى حقوق العباد (ملة أبيكم ابراهيم) نصب على المصدر بفعل دل عليه مضمون ماقبله بحذف المضاف أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاغراء أو على الاختصاص وانما جعله اباهم لانه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالاب لامته من حيث انه سبب لحياتهم الابدية ووجودهم على الوجه المعتدبه فى الآخرة أو لان أكثر العرب كانوا من ذريته عليه الصلاة والسلام فغلبوا على غيرهم (هو سماكم المسلمين من قبل) فى الكتب المتقدمة (وفى هذا) أى فى

توجيه الخطاب عليه عند نطقه لم يصر بارا فى يمينه ولاشك ان المقصود من القراءة والاذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى فاذا كان القلب محجوبا بحجاب الغفلة وكان غافلا عن جلال الله وكبريائه ثم ان لسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد ذلك عن القبول وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم ولوجاز أن يكون تعظيما لله تعالى مع أنه غافل عنه لجاز أن يكون تعظيما للصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه ولانه اذا لم يحصل التعظيم لم يبق الا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيهما من المشقة مايصير لاجله عماد الدين وفاصلا بين الكفر والايمان ويقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة ويجب القتل بسببه على الخصوص وبالجملة فكل عاقل يقطع بان مشاهدة الخواص العظيمة ليس أعمالها الظاهرة الا أن ينضاف اليها مقصود هذه المناجاة فدلت هذه الاعتبارات على ان الصلاة لابد فيها من الحضور (وسابعها) أن الفقهاء اختلفوا فيما ينويه بالسلام عند الجماعة والانفراد هل ينوى الحضور أو الغيبة والحضور معا فاذا احتيج الى التدبر فى معنى السلام الذى هو آخر الصلاة فلان يحتاج الى التدبر فى معنى التكبير والتسبيح التى هى الاشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الاولى واحتج المخالف بان اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجماع الفقهاء فلا يلتفت اليه (والجواب) من وجوه (أحدها) ان الحضور عندنا ليس شرطا للاجزاء بل شرط للقبول والمراد من الاجزاء أن لايجب القضاء والمراد من القبول حكم الثواب والفقهاء انما يبحثون عن حكم الاجزاء لاعن حكم الثواب وغرضنا فى هذا المقام هذا ومثاله فى الشاهد من استعار منك ثوبا ثم رده على الوجه الاحسن فقد خرج عن العهدة واستحق المدح ومن رماه اليك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة ولكنه استحق الذم كذا من عظم الله تعالى حال ادائه العبادة صار مقيما للفرض مستحقا للثواب ومن استهان بها صار مقيما للفرض ظاهرا لكنه استحق الذم (وثانيها) انا نمنع هذا الاجماع أما المتكلمون فقد اتفقوا على انه لابد من الحضور والخشوع واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة وللصنم كفر وكل واحد منهما يماثل الآخر فى ذاته ولوازمه فلابد من أمر لاجله صار السجود فى احدى الصورتين طاعة وفى الاخرى معصية قالوا وماذاك الا القصد والارادة والمراد من القصد ايقاع تلك الافعال لداعية الامتثال وهذه الداعية لايمكن حصولها الا عند الحضور فلهذا اتفقوا على انه لابد من الحضور أما الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث رحمه الله فى تنبيه الغافلين أن تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وان يقرأ بالتفكر وأما الغزالى رحمه الله فانه نقل عن أبى طالب المكى عن بشر الحافى انه قال من لم يخشع فسدت صلاته وعن الحسن رحمه الله كل صلاة لايحضر فيها القلب فهى الى العقوبة أسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متعمدا وهو فى الصلاة فلا صلاة له وروى أيضا مسندا قال عليه السلام ان العبد ليصلى الصلاة لايكتب له سدسها ولا عشرها وانما يكتب للعبد من

القرآن والضمير لله تعالى ويؤيده أنه قرئ الله سماكم أولا ابراهيم وتسميتهم بالمسلمين فى القرآن وان لم تكن منه عليه الصلاة
والسلام كانت بسبب تسميته من قبل فى قوله ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وقيل وفى هذا تقديره وفى هذا بيان تسميته

اياكم المسلمين (ليكون الرسول) يوم القيامة متعلق بسماكم (شهيدا عليكم) بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتمادا على عصمته أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى (وتكونوا شهداء على الناس) بتبليغ الرسل اليهم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى فتقربوا الى الله بأنواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر لانافتهما وفضلهما (واعتصموا بالله) أى ثقوا به فى مجامع أموركم ولا تطلبوا الاعانة والنصرة الا منه (هو مولاكم) ناصركم ومتولى أموركم (فنعم المولى ونعم النصير) هو اذ لا مثل له فى الولاية والنصرة بل لا ولى ولا نصير فى الحقيقة سواه عز وجل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطى من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى

●(سورة المؤمنون مكية)●

وهى عند البصريين مائة وتسع عشرة آية وعند الكوفيين مائة وثمانى عشرة آية

●(بسم الله الرحمن الرحيم)●

(قد أفلح المؤمنون) الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء فى الخير والافلاح الدخول فى ذلك كالابشار الذى هو الدخول فى البشارة وقد يجىء متعديا بمعنى

الادخال فيه وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول وكلمة قد ههنا لافادة ثبوت ما كان متوقع الثبوت لفروجهم
من قبل لا متوقع الاخبار به ضرورة أن المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح لهم لا الاخبار بذلك فالمعنى قد فازوا بكل خير

صلاته ما عقل منها وقال عبد الواحد بن زيد أجمعت العلماء على انه ليس للعبد من صلاته الا ما عقل وادعى فيه الاجماع اذا ثبت هذا فنقول ههنا ان الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز أليس الاصوليون وأهل الورع ضيقوا الامر فيها فهلا أخذت بالاحتياط قال بعض العلماء اختار الامامة فقيل له فى ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة أن يعاتبنى الشافعى وان قرأتها مع الامام أن يعاتبنى أبو حنيفة فاخترت الامامة طلبا للخلاص عن هذا الاختلاف والله أعلم (الصفة الثالثة) قوله تعالى والذين هم عن اللغو معرضون وفى اللغو أقوال (أحدها) انه يدخل فيه كل ما كان حراما أو مكروها أو كان مباحا ولكن لا يكون بالمرء اليه ضرورة وحاجة (وثانيها) انه عبارة عن كل ما كان حراما فقط وهذا التفسير أخص من الاول (وثالثها) انه عبارة عن المعصية فى القول والكلام خاصة وهذا أخص من الثانى (ورابعها) انه المباح الذى لا حاجة اليه واحتج هذا القائل بقوله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم فكيف يحمل ذلك على المعاصى التى لا بد فيها من المؤاخذة واحتج الاولون بأن اللغو انما سمى لغوا بما أنه يلغى وكل ما يقتضى الدين الغاءه كان أولى باسم اللغو فوجب أن يكون كل حرام لغوا ثم اللغو قد يكون كفرا لقوله لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد يكون كذبا لقوله لا تسمع فيها لاغية وقوله لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ثم انه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه وعلى هذا الوجه قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما واعلم انه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع فى الصلاة أتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الانفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم (الصفة الرابعة) قوله تعالى والذين هم للزكاة فاعلون وفى الزكاة قولان (أحدهما) قول أبى مسلم ان فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضى كقوله قد أفلح من تزكى وقوله فلا تزكوا أنفسكم ومن جملته ما يخرج من حق المال وانما سمى بذلك لانه تطهر من الذنوب لقوله تعالى تطهرهم وتزكيهم بها (والثانى) وهو قول الاكثرين انه الحق الواجب فى الاموال خاصة وهذا هو الاقرب لان هذه اللفظة قد اختصت فى الشرع بهذا المعنى فان قيل انه لا يقال فى الكلام الفصيح انه فعل الزكاة قلنا قال صاحب الكشاف الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى الفقير والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو الذى أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره لانه ما من مصدر الا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل يقال للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل الزكاة وعلى هذا الكلام كله يجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الاداء فان قيل ان الله تعالى هنالك لم يفصل بين الصلاة والزكاة فلم فصل ههنا بينهما بقوله والذين هم عن اللغو معرضون قلنا لان الاعراض عن اللغو من متممات الصلاة (الصفة الخامسة) قوله تعالى والذين هم

ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقعا من حالهم فان ايمانهم وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعى الفلاح
بموجب الوعد الكريم خلا أنه ان أريد بالافلاح حقيقة الدخول فى الفلاح الذى لا يتحقق الا فى الآخرة فالاخبار به

على صيغة الماضى للدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت وان أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضى فى محلها وقرئ أفلحوا على الابهام والتفسير أو على لغة أكلونى البراغيث وقرئ أفلح بضمة اكتفى بها عن الواو كما فى قول من قال ● ولو أن الاطبا كان حولى ● والمراد بالمؤمنين اما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها فقوله تعالى (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وما عطف عليه صفات مخصصة لهم وأما الآتون بفروعه أيضا كما ينبئ عنه اضافة الصلاة اليهم فهى صفات موضحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر فى حيز الصلة من المعانى مع الايمان اجمالا أو تفصيلا كما مر فى أوائل سورة البقرة والخشوع الخوف والتذلل أى خائفون من الله عز وجل متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم روى انه عليه الصلاة والسلام كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده وأنه رأى مصليا يعبث بلحيته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه (والذين هم عن اللغو) أى عما لا يعنيهم من الاقوال والافعال (معرضون) أى فى عامة أوقاتهم كما ينبئ عنه الاسم الدال على

الاستمرار فيدخل فى ذلك اعراضهم عنه حال اشتغالهم بالصلاة دخولا أوليا ومدار اعراضهم عنه ما فيهم من الحالة الداعية الى
الاعراض عنه لا مجرد الاشتغال بالجد فى أمور الدين كما قيل فان ذلك ربما يوهم أن لا يكون فى اللغو نفسه ما يزجرهم عن تعاطيه

لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم لم يقل الا عن أزواجهم (الجواب) قال الفراء معناه الا من أزواجهم وذكر صاحب الكشاف فيه ثلاثة أوجه (أحدها) انه فى موضع الحال أى الا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك كان فلان على فلانة ونظيره كان زياد على البصرة أى واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا والمعنى أنهم لفروجهم حافظون فى كافة الاحوال الا فى حال تزوجهم أو تسريهم (وثانيها) انه متعلق بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون الا على أزواجهم أى يلامون على كل مباشرة الا على ما أطلق لهم فانهم غير ملومين عليه وهو قول الزجاج (وثالثها) أن تجعله صلة لحافظين (السؤال الثانى) هلا قيل من ملكت (الجواب) لانه اجتمع فى السرية وصفان (أحدهما) الانوثة وهى مظنة نقصان العقل والآخر كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء (السؤال الثالث) هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما روى عن القاسم بن محمد (الجواب) نعم وتقريره انها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له وانما قلنا انها ليست زوجة له لانهما لا يتوارثان بالاجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ما ترك أزواجكم واذا ثبت انها ليست بزوجة له وجب أن لا تحل له لقوله تعالى الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وهو أعلم (السؤال الرابع) أليس لا يحل له فى الزوجة وملك اليمين الاستمتاع فى أحوال كحال الحيض وحال العدة وفى الامة حال تزويجها من الغير وحال عدتها وكذا الغلام داخل فى ظاهر قوله تعالى أو ما ملكت أيمانهم (والجواب) من وجهين (أحدهما) ان مذهب أبى حنيفة رحمه الله ان الاستثناء من النفى لا يكون اثباتا واحتج عليه بقوله عليه السلام لا صلاة الا بطهور ولا نكاح الا بولى فان ذلك لا يقتضى حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح بمجرد حصول الولى وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم معناه انه يجب حفظ الفروج عن الكل الا فى هاتين الصورتين فانى ما ذكرت حكمهما لا بالنفى ولا بالاثبات (الثانى) أنا ان سلمنا ان الاستثناء من النفى اثبات فغايته انه عام دخله التخصيص بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة أما قوله تعالى فأولئك هم العادون يعنى الكاملون فى العدوان المتناهون فيه (الصفة السادسة) قوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون قرأ نافع وابن كثير لامانتهم واعلم أنه يسمى الشئ المؤتمن عليه والمعاهد عليه امانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها وقال وتخونوا أماناتكم وانما تؤدى العيون دون المعانى فكان المؤتمن عليه الامانة فى نفسها والعهد ما عقده على نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله الذين قالوا ان الله عهد الينا والراعى القائم على الشئ لحفظ واصلاح كراعى الغنم وراعى الرعية

ويقال من راعى هذا الشئ أى متوليه واعلم ان الامانة تتناول كل ماتركه يكون داخلا في الخيانة وقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم فمن ذلك العبادات التى المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل فى ذلك لانها اما أن تخفى أصلا كالصوم وغسل الجنابة واسباغ الوضوء أو تخفى كيفية اتيانه بها وقال عليه السلام أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته وعن ابن مسعود رضى الله عنه أول ماتفقدون من دينكم الامانة وآخر ماتفقدون الصلاة ومن جملة ذلك مايلتزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود ومايتصل بهما ومن ذلك الاقوال التى يحرم بها العبيد والنساء لانه مؤتمن فى ذلك ومن ذلك ان يراعى امانته فلا يفسدها بغصب أو غيره وأما العهد فانه يدخل فيه العقود والايمان والنذور فبين سبحانه ان مراعاة هذه الامور والقيام بها معتبر فى حصول الفلاح (الصفة السابعة) قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون وانما أعاد تعالى ذكرها لان الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين فان الخشوع صفة للمصلى فى حال الاداء لصلاته والمحافظة انما تصح حال مالم يؤدها بكمالها بل المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على أركانها واتمامها حتى يكون ذلك دأبه فى كل وقت ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الامور قال أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم سمى مايجدونه من الثواب والجنة بالميراث مع انه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم فى قوله ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (الجواب) من وجوه (الاول) ماروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبين على مايقال فيه وهو أنه لا مكلف الا اعد الله له فى النار مايستحقه ان عصى وفى الجنة مايستحقه ان أطاع وجعل لذلك علامة فاذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صار منزل من لم يؤمن كالمنقول الى المؤمنين وصار مصيرهم الى النار الذى لابد معه من حرمان الثواب لكونهم فسمى ذلك ميراثا لهذا الوجه وقد قال الفقهاء انه لافرق بين ماملكه الميت وبين مايقدر فيه الملك فى انه يورث عنه كذلك قالوا فى الدية التى تجب بالقتل انها تورث مع انه ماملكها على التحقيق وذلك يشهد بما ذكرنا فان قيل انه تعالى وصف كل الذى يستحقونه ارثا وعلى ماقلتم يدخل فى الارث ما كان يستحقه غيرهم لو أطاع قلنا لا يمتنع انه تعالى جعل ماهو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع لانه عند ذلك كان يزيد فى المنازل فاذا آمن هذا عدل بذلك اليه (وثانيها) ان انتقال الجنة اليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال الى الوارث (وثالثها) ان الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام فاذا انتقلت الى أولاده صار ذلك شبيها بالميراث (السؤال الثانى) كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع انه تعالى ماتمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة (والجواب) ان قوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون يأتى على جميع الواجبات من الافعال والتروك كما قدمنا والطهارات دخلت فى جملة المحافظة

وهو أبلغ من أن يقال لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه واقامة الاعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأسا مباشرة وتسببا وميلا وحضورا فان أصله أن يكون فى عرض غير عرضه (والذين هم للزكوة فاعلون) وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ماتوجب المروءة اجتنابه وتوسيط حديث الاعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة والزكاة مصدر لانه الامر الصادر عن الفاعل لا المحل الذى هو موقعه ومعنى الفعل قد مر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف (والذين هم لفروجهم حافظون) ممسكون لها فالاستثناء فى قوله تعالى (الا على أزواجهم) من نفى الارسال الذى ينبئ عنه الحفظ أى لا يرسلونها على أحد الا على أزواجهم وفيه ايذان بان قوتهم الشهوية داعية لهم الى مالا يخفى وأنهم حافظون لها من استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ويجوز أن تكون على بمعنى من واليه ذهب الفراء كما فى قوله تعالى اذا اكتالوا على الناس أى حافظون لها من كل أحد الا من أزواجهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير حافظون أى حافظون لها فى جميع الاحوال الاحال كونهم والين او قوامين على أزواجهم وقيل بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون على كل مباشر الا على ما أطلق لهم فانهم غير ملومين وحمل الحفظ على القصر عليهن ليكون المعنى حافظون فروجهم على الازواج لا يتعداهن ثم يقال غير حافظين الا عليهن تأكيدا على تأكيد تكلف على تكلف

المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها (السؤال الثالث) أفيدل قوله تعالى أولئك هم الوارثون على انه لا يدخلها غيرهم (الجواب) ان قوله هم الوارثون يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به لانه ثبت ان الجنة يدخلها الاطفال والمجانين والولدان والحور العين ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو لقوله تعالى ويغفر مادون ذلك لمن يشاء (السؤال الرابع) أفكل الجنة هو الفردوس (الجواب) الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل بلسان الروم وروى أبو موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الفردوس مقصورة الرحمن فيها الانهار والاشجار وروى أبو أمامة عنه عليه السلام انه قال سلوا الله الفردوس فانها أعلى الجنان وان أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش (السؤال الخامس) هل تدل الآية على ان هذه الصفات هى التى لها ولاجلها يكونون مؤمنين أم لا (الجواب) ادعى القاضى ان الامر كذلك بناء على مذهبه ان الايمان اسم شرعى موضوع لاداء كل الواجبات وعندنا ان الآية لا تدل على ذلك لان قوله قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون مثل قد أفلح الناس الازكياء العدول فان هذا لا يدل على أن الزكاة والعدالة داخلان فى مسمى الناس فكذا ههنا (السؤال السادس) روى انه عليه الصلاة والسلام قال لما خلق الله تعالى جنة عدن قال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون وقال كعب خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده ثم قال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون وروى انه عليه السلام قال اذا أحسن العبد الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حافظت على وشفعت لصاحبها واذا أضاعها قالت أضاعك الله كما ضيعتنى وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها (الجواب) أما كلام الجنة فالمراد به انها أعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها وهو كقوله تعالى قالتا أتينا طائعين وأما انه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولى خلقها لا أنه وكله الى غيره وأما ان الصلاة تثنى على من قام بحقها فهو فى الجواز أبعد من كلام الجنة لان الصلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها أن تتصور وتتكلم فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل للمنعم ان احسانك الى ينطق بالشكر (السؤال السابع) هل تدل الآية على ان الفردوس مخلوقة (الجواب) قال القاضى دل قوله تعالى أكلها دائم على أنها غير مخلوقة فوجب تأويل هذه الآية كأنه تعالى قال اذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثا للمؤمنين أو واذا خلقها تقول على مثال ما تأولنا عليه قوله تعالى ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة وهذا ضعيف لانه ليس اضمار ماذكره فى هذه الآية أولى من ان يضمر فى قوله أكلها دائم ان أكلها دائم يوم القيامة واذا تعارض هذان الظاهران فنحن نتمسك فى ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين ۞ قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك

(أو ماملكت أيمانهم) أى سراريهم عبر عنهن بما اجراء لهن لمملوكيتهن مجرى غير العقلاء أو لانوثتهن المنبئة عن القصور وقوله تعالى (فانهم غير ملومين) تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم منهن أى فانهم غير ملومين على عدم حفظها منهن (فمن ابتغى وراء ذلك) الذى ذكر من الحد المتسع وهو أربع من الحرائر وماشاء من الاماء (فأولئك هم العادون) الكاملون فى العدوان المتناهون فيه وليس فيه مايدل حتما على تحريم المتعة حسبما نقل عن القاسم بن محمد فانه قال انها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له أما أنها ليست زوجة له فلانهما لا يتوارثان بالاجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ماترك أزواجكم فوجب أن لا تحل لقوله تعالى الا على أزواجهم لان لهم أن يقولوا انها زوجة له فى الجملة وأما ان كل زوجة ترث فهم لا يسلمونها واما ماقيل من أنه ان أريد لو كانت زوجة حال الحياة لم يفد وان أريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فليس له معنى محصل ثم لو عكس لكان له وجه (والذين هم لاماناتهم وعهدهم) لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق (راعون) أى قائمون عليها حافظون لها على وجه الاصلاح وقرئ لامانتهم (والذين هم على صلواتهم) المفروضة عليهم (يحافظون) يواظبون عليها ويؤدونها فى أوقاتها وافظ الفعل فيه لما فى الصلاة من التجدد والتكرر وهو السر فى جمعها وليس فيه تكرير لما أن الخشوع فى الصلاة غير المحافظة عليها وفصلهما للايذان بان كلا منهما فضيلة مستقلة على حيالها ولو قرنا فى الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة (أولئك) اشارة الى

المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وايثارها على الاضمار للاشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار اليه حسا ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد درجتهم فى الفضل والشرف أى أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (هم الوارثون) أى الاحقاء بان يسموا وراثا دون من عداهم ممن ورث رغائب الاموال والذخائر وكرائمهما (الذين يرثون الفردوس) بيان لما يرثونه وتقييد للوراثة بعد اطلاقها وتفسير لها بعد ابهامها تفخيما لشأنها ورفعا لمحلها وهى استعارة لاستحقاقهم الفردوس باعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه وقيل انهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم لانه تعالى خلق لكل انسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار (هم فيها) أى فى الفردوس والتأنيث لانه اسم للجنة أولطبقتها العليا وهو البستان الجامع لاصناف الثمر روى أنه تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان (خالدون) لايخرجون منها أبدا والجملة اما مستأنفة مقررة لما قبلها واما حال مقدرة من فاعل يرثون أومفعوله اذ فيها ذكر كل منهما ومعنى الكلام لايموتون ولا يخرجون منها (ولقد خلقنا الانسان) شروع فى بيان مبدأ خلق الانسان وتقلبه فى أطوار الخلقة وأدوار الفطرة بيانا اجماليا اثر بيان حال بعض أفراده السعداء واللام جواب قسم والواو ابتدائية وقيل عاطفة على ما قبلها والمراد بالانسان الجنس أى وبالله لقد خلقنا جنس الانسان فى ضمن خلق آدم عليه السلام

الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) اعلم انه سبحانه لما أمر بالعبادات فى الآية المتقدمة والاشتغال بعبادة الله تعالى لايصح الا بعد معرفة الاله الخالق لا جرم عقبها بذكر مايدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا (النوع الاول) الاستدلال بتقلب الانسان فى ادوار الخلقة واكوان الفطرة وهى تسعة (المرتبة الاولى) قوله سبحانه وتعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر فعالة وهو بناء يدل على القلة كالقلامة والقمامة واختلف أهل التفسير فى الانسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين ثم جعلنا الكناية راجعة الى الانسان الذى هو ولد آدم والانسان شامل لآدم عليه السلام ولولده وقال آخرون الانسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام والسلالة هى الاجزاء الطينية المبثوثة فى أعضائه التى لما اجتمعت وحصلت فى أوعية المنى صارت منيا وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وفيه وجه آخر وهو ان الانسان انما يتولد من النطفة وهى انما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك انما يتولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية والحيوانية تنتهى الى النباتية والنبات انما يتولد من صفو الارض والماء فالانسان بالحقيقة يكون متولدا من سلالة من طين ثم ان تلك السلالة بعد ان تواردت على اطوار الخلقة وادوار الفطرة صارت منيا وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه الى التكلفات (المرتبة الثانية) قوله تعالى ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ومعنى جعل الانسان نطفة انه خلق جوهر الانسان أولا طينا ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة فى أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع الى رحم المرأة فصار الرحم قرارا مكينا لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر أو لمكانتها فى نفسها لانها تمكنت من حيث هى وأحرزت (المرتبة الثالثة) قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة أى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفات العلقة وهى الدم الجامد (المرتبة الرابعة) قوله تعالى فخلقنا العلقة مضغة أى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم كأنها مقدار مايمضغ كالغرفة وهى مقدار مايغترف وسمى التحويل خلقا لانه سبحانه يفنى بعض اعراضها ويخلق اعراضا غيرها فسمى خلق الاعراض خلقا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها اجزاء زائدة (المرتبة الخامسة) قوله فخلقنا المضغة عظاما أى صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر عظما والمراد منه الجمع كقوله والملك صفا صفا (المرتبة السادسة) قوله تعالى فكسونا العظام لحما وذلك لان اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها (المرتبة السابعة) قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر أى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا

وكان

خلقا اجماليا حسبما تحققته فى سورة الحج وغيرها واما كونه مخلوقا من سلالات جعلت نطفا بعد أدوار وأطوار فبعيد (من سلالة) السلالة ماسل من الشئ واستخرج منه فان فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصودا منه كالخلاصة وأخرى غير مقصود منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الاول فانها مقصودة بالسل ومن ابتدائية متعلقة بالخلق ومن فى قوله تعالى (من طين) بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة أى خلقناه من سلالة كائنة من طين ويجوز أن تتعلق بسلالة على أنها بمعنى مسلولة فهى ابتدائية كالاولى وقيل المراد بالانسان آدم عليه السلام فانه الذى خلق من صفوة سلت من الطين وقد وقفت على التحقيق (ثم جعلناه) أى الجنس باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام أو جعلنا نسله على حذف المضاف إن أريد بالانسان آدم عليه السلام (نطفة) بان خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتأويل الجوهر أو المسلول أو الماء (فى قرار) أى مستقر وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة وقوله تعالى (مكين) وصف لها بصفة ما استقر فيها مثل طريق سائر أو بمكانتها فى نفسها فانها مكنت بحيث هى وأحرزت (ثم خلقنا النطفة علقة) أى دما جامدا بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) أى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها (فخلقنا المضغة) أى غالبها ومعظمها أوكلها (عظاما) بأن صلبناها وجعلناها عمودا للبدن على هيآت وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة (فكسونا العظام) المعهودة (لحما) من بقية المضغة أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا مما يصل اليها أى كسونا كل عظم من تلك العظام مايليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة

وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لايحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هو تصريف الله اياه بعد الولادة فى اطواره فى زمن الطفولية ومابعدها الى استواء الشباب وخلق الفهم والعقل ومابعده الى أن يموت ودليل هذا القول انه عقبه بقوله ثم انكم بعد ذلك لميتون وهذا المعنى مروى أيضا عن ابن عباس وابن عمر وانما قال أنشأناه لانه جعل انشاء الروح فيه واتمام خلقه انشاء له قالوا فى الآية دلالة على بطلان قول النظام فى ان الانسان هو الروح لا البدن فانه سبحانه بين ان الانسان هو المركب من هذه الصفات وفيها دلالة أيضا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون ان الانسان شئ لا ينقسم وانه ليس بجسم أما قوله فتبارك الله أى فتعالى الله فان البركة يرجع معناها الى الامتداد والزيادة وكل مازاد على الشئ فقد علاه ويجوز أن يكون المعنى والبركات والخيرات كلها من الله تعالى وقيل أصله من البروك وهو الثبات فكأنه قال والبقاء والدوام والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء وقوله أحسن الخالقين أى أحسن المقدرين تقديرا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لولا أن غير الله تعالى قد يكون خالقا لفعله اذا قدره لما جاز القول بانه أحسن الخالقين كما لو لم يكن فى عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين والخلق فى اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدرا لا على سهو وغفلة والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه قال الكعبى هذه الآية وان دلت على ان العبد خالق الا أن اسم الخالق لا يطلق على العبد الا مع القيد كما انه يجوز أن يقال رب الدار ولا يجوز أن يقال رب بلا اضافة ولا يقول العبد لسيده هو ربى ولا يقال انما قال الله تعالى ذلك لانه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بانه يخلق من الطين كهيئة الطير لانا نجيب عنه من وجهين (أحدهما) ان ظاهر الآية يقتضى انه سبحانه أحسن الخالقين الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح (الثانى) انه اذا صح وصف عيسى بانه يخلق صح وصف غيره من المصورين أيضا بأنه يخلق وأجاب أصحابنا بان هذه الآية معارضة بقول الله تعالى الله خالق كل شئ فوجب حمل هذه الآية على انه أحسن الخالقين فى اعتقادكم وظنكم كقوله تعالى وهو أهون عليه أى هو أهون عليه فى اعتقادكم وظنكم (والجواب) الثانى هو أن الخالق هو المقدر لان الخلق هو التقدير والآية تدل على انه سبحانه أحسن المقدرين والتقدير يرجع معناه الى الظن والحسبان وذلك فى حق الله سبحانه محال فتكون الآية من المتشابهات (والجواب الثالث) ان الآية تقتضى كون العبد خالقا بمعنى كونه مقدرا لكن لم قلت بانه خالق بمعنى كونه موجدا (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان كل ماخلقه حسن وحكمة وصواب والا لما جاز وصفه بانه أحسن الخالقين واذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقا للكفر والمعصية فوجب أن يكون

مناسبة له واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات وجمع العظام لاختلافها وقرئ على التوحيد فيهما اكتفاء
بالجنس و بتوحيد الاول فقط و بتوحيد (ثم أنشأناه خلقا آخر) هى صورة البدن أو الروح
أو القوى بنفخه فيه أو المجموع
و ثم لكمال التفاوت بين الخلقين
واحتج به أبو حنيفة رحمه الله على
أن من غصب بيضة فأفرخت عنده
لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لانه
خلق آخر (فتبارك الله) فتعالى
شانه فى علمه الشامل وقدرته
الباهرة والالتفات الى الاسم
الجليل لتربية المهابة وادخال
الروعة والاشعار بان ماذكر من
الافاعيل العجيبة من أحكام
الالوهية وللايذان بان حق كل
من سمع مافصل من آثار قدرته
عز وعلا أولاحظه أن يسارع
الى التكلم به اجلالا واعظاما
لشؤنه تعالى (احسن الخالقين)
بدل من الجلالة وقيل نعت له بناء
على ان الاضافة ليست لفظية
وقيل خبر مبتدا محذوف أى هو
أحسن الخالقين خلقا أى
المقدرين تقديرا حذف المميز
لدلالة الخالقين عليه كما حذف
المأذون فيه فى قوله تعالى أذن
للذين يقاتلون لدلالة الصلة عليه
أى أحسن الخالقين خلقا
فالحسن للخلق قيل نظيره قوله
عليه الصلاة والسلام ان الله
جميل يحب الجمال أى جميل فعله
فحذف المضاف وأقيم المضاف
اليه مقامه فانقلب مرفوعا
فاستكن روى أن عبد الله بن
أبى سرح كان يكتب لرسول الله
صلى الله عليه وسلم الوحى فلما انتهى عليه الصلاة والسلام الى قوله خلقا آخر سارع عبد الله الى النطق به قبل املائه عليه الصلاة والسلام فقال اكتبه هكذا نزلت فشك عبد الله فقال ان كان محمد يوحى اليه فانا كذلك فلحق بمكة كافرا والذى

العبد هو الموجد لهما (والجواب) من الناس من حمل الحسن على الاحكام والاتقان فى التركيب والتاليف ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا انه يحسن من الله تعالى كل الاشياء لانه ليس فوقه أمر ونهى حتى يكون ذلك مانعا له عن فعل شئ (المسئلة الثالثة) روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الى قوله تعالى خلقا آخر عجب من ذلك فقال فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فهكذا نزلت فشك عبد الله وقال ان كان محمد صادقا فيما يقول فانه يوحى الى كما يوحى اليه وان كان كاذبا فلا خير فى دينه فهرب الى مكة فقيل انه مات على الكفر وقيل انه أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا نزلت يا عمر وكان عمر يقول وافقنى ربى فى أربع فى الصلاة خلف المقام وفى ضرب الحجاب على النسوة وقولى لهن لتنتهن أو ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن والرابع قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فقال هكذا نزلت قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر وسبب الشقاوة لعبد الله كما قال تعالى يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا فان قيل فعلى كل الروايات قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك يقدح فى كونه معجزا كما ظنه عبد الله (والجواب) هذا غير مستبعد اذا كان قدره القدر الذى لا يظهر فيه الاعجاز فسقطت شبهة عبد الله (المرتبة الثامنة) قوله ثم انكم بعد ذلك لميتون قرأ ابن أبى عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت ان الميت كالحى صفة ثابتة وأما المائت فيدل على الحدوث تقول زيد ميت الآن ومائت غدا كقولك يموت ونحوهما ضيق وضائق فى قوله وضائق به صدرك (المرتبة التاسعة) قوله ثم انكم يوم القيامة تبعثون فالله سبحانه جعل الاماتة التى هى اعدام الحياة والبعث الذى هو اعادة ماينفيه وبعدمه دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الانشاء والاختراع وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحكمة فى الموت وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك فى الانعام أبلغ (والجواب) هذا كالمفسدة فى حق المكلفين لانه متى عجل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة فى الطاعات صار اتيانه بالطاعات لاجل تلك المنافع لا لاجل طاعة الله يبين ذلك انه لو قيل لمن يصلى ويصوم اذا فعلت ذلك أدخلتك الجنة فى الحال فانه لا ياتى بذلك الفعل الا لطلب الجنة فلا جرم أخره الله تعالى وبعده بالاماتة ثم الاعادة ليكون العبد عابدا لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع (السؤال الثانى) هذه الآية تدل على نفى عذاب القبر لانه قال ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون ولم يذكر بين الامرين الاحياء فى القبر والاماتة (والجواب) من وجهين (الاول) انه ليس فى ذكر الحياتين نفى الثالثة (والثانى) ان الغرض من ذكر هذه الاجناس الثلاثة الانشاء والاماتة والاعادة

ثم أسلم يوم الفتح وقيل مات على كفره وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما نزلت هذه الآية قال عمر رضى الله عنه فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا نزل يا عمر وكان رضى الله عنه يفتخر
بذلك ويقول وافقت ربى فى أربع
الصلاة خلف المقام وضرب
الحجاب على النسوة وقولى لهن
أو ليبدله الله خيرا منكن فنزل
قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن
أن يبدله الآية والرابع فتبارك
الله أحسن الخالقين انظر كيف
وقعت هذه الواقعة سببا لسعادة
عمر رضى الله عنه وشقاوة ابن
أبى سرح حسبما قال تعالى يضل
به كثيرا ويهدى به كثيرا لا يقال
فقد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم
القرآن وذلك قادح فى اعجازه لما
أن الخارج عن قدرة البشر
ما كان مقدار أقصر السور على
أن اعجاز هذه الآية الكريمة
منوط بما قبلها كما تعرب عنه
الفاء فانها اعتراض تذييلى مقرر
لمضمون ماقبله (ثم انكم بعد ذلك)
أى بعد ماذكر من الامور العجيبة
حسبما ينبئ عنه مافى اسم الاشارة
من معنى البعد المشعر بعلو رتبة
المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل
والكمال وكونه بذلك ممتازا منزلا
منزلة الامور الحسية (لميتون)
لصائرون الى الموت لا محالة كما
تؤذن به صيغة النعت الدالة على
الثبوت دون الحدوث الذى
تفيده صيغة الفاعل وقد قرئ
لمائتون (ثم انكم يوم القيامة)
أى عند النفخة الثانية (تبعثون)
من قبوركم للحساب والمجازاة
بالثواب والعقاب (ولقد خلقنا
فوقكم) بيان لخلق ما يحتاج اليه بقاؤهم اثر بيان خلقهم أى خلقنا فى جهة العلو من غير اعتبار فوقيتها لهم لان تلك النسبة انما تعرض لها بعد خلقهم (سبع طرائق) هى السموات السبع سميت بها لانها طورق بعضها فوق بعض مطارقة النعل فان كل

والذى تركه ذكره فهو من جنس الاعادة (النوع الثانى) من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات ﴿ وهو قوله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) فقوله سبع طرائق أى سبع سموات وانما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال طارق الرجل نعليه اذا أطبق نعلا على نعل وطارق بين ثوبين اذا لبس ثوبا فوق ثوب هذا قول الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج هو كقوله سبع سموات طباقا وقال على ابن عيسى سميت بذلك لانها طرائق للملائكة فى العروج والهبوط والطيران وقال آخرون لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه فى انعامه علينا بذلك انه تعالى جعلها موضعا الارزاقنا بانزال الماء منها وجعلها مقرا للملائكة ولانها موضع الثواب ولانها مكان ارسال الانبياء ونزول الوحى أما قوله وما كنا عن الخلق غافلين ففيه وجوه (أحدها) ما كنا غافلين بل كنا للخلق حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة وهو كقوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا (وثانيها) انما خلقناها فوقهم لتنزل عليهم الارزاق والبركات منها عن الحسن (وثالثها) انا خلقنا هذه الاشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بين كمال العلم بقوله وما كنا عن الخلق غافلين يعنى عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر (ورابعها) وما كنا عن خلق السموات غافلين بل نحن لها حافظون لئلا تخرج عن التقدير الذى أردنا كونها عليه كقوله تعالى ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت واعلم ان هذه الآية دالة على كثير من المسائل (احداها) انها دالة على وجود الصانع فان انقلاب هذه الاجسام من صفة الى صفة أخرى تضاد الاولى مع امكان بقائها على تلك الصفة يدل على انه لابد من محول ومغير (وثانيها) انها تدل على فساد القول بالطبيعة فان شيأ من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ولو قلت انما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة افتقرت تلك الطبيعة الى خالق وموجد (وثالثها) تدل على ان المدبر قادر عالم لان الموجب والجاهل لا يصدر عنه هذه الافعال العجيبة (ورابعها) تدل على انه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات (وخامسها) تدل على جواز الحشر والنشر نظرا الى صريح الآية ونظرا الى ان الفاعل لما كان قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات وجب أن يكون قادرا على اعادة التركيب الى تلك الاجزاء كما كانت (وسادستها) ان معرفة الله تعالى يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية والا لكان ذكر هذه الدلائل عبثا (النوع الثالث) الاستدلال بنزول الامطار وكيفية تأثيراتها فى النبات ﴿ قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض وانا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) اعلم ان الماء فى نفسه نعمة وانه مع ذلك سبب لحصول النعم فلا جرم ذكره الله تعالى أولا ثم ذكر مايحصل به من النعم ثانيا أما قوله تعالى وأنزلنا من السماء

مافوقه منزلة فهو طريقه اولانها طرائق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها (وما كنا عن الخلق) عن ذلك المخلوق الذي هو السموات أو عن جميع المخلوقات التي ٢٧٨ هي من جملتها أو عن الناس (غافلين) مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال

والاختلال وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ماقدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة ويصل الى مافي الارض منافعها كما ينبئ عنه قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء) هو المطر أو الانهار النازلة من الجنة قيل هي خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهرا العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها في الارض وجعل فيها منافع للناس في فنون معايشهم ومن ابتدائية متعلقة بأنزلنا وتقديمها على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والعدول عن الاضمار لان الانزال لا يعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو (بقدر) بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم (فأسكناه في الارض) أي جعلناه ثابتا قارا فيها (وانا على ذهاب به) أي ازالته بالافساد أو التصعيد أو التغوير بحيث يتعذر استنباطه (لقادرون) كما كنا قادرين على انزاله وفي تنكير ذهاب ايماء الى كثرة طرقه ومبالغة في الايعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله تعالى قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء

ماء بقدر فقد اختلفوا في السماء فقال الاكثرون من المفسرين انه تعالى ينزل الماء في الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله وفي السماء رزقكم وما توعدون وقال بعضهم المراد السحاب وسماه سماء لعلوه والمعنى ان الله تعالى أصعد الاجزاء المائية من قعر الارض الى البحار ومن البحار الى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد ثم ان تلك الذرات تأتلف وتتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة اليه ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها في قعر الارض ولا بماء البحار لملوحته ولانه لا حيلة في اجراء مياه البحار على وجه الارض لان البحار هي الغاية في العمق واعلم ان هذه الوجوه انما يتحملها من ينكر الفاعل المختار فأما من أقر به فلا حاجة به الى شيء منها أما قوله تعالى بقدر فمعناه بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون الى المنفعة في الزرع والغرس والشرب أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم أما قوله فأسكناه في الارض قيل معناه جعلناه ثابتا في الارض قال ابن عباس رضي الله عنهما أنزل الله تعالى من الجنة خمسة انهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع أيضا القرآن أما قوله وانا على ذهاب به لقادرون أي كما قدرنا على انزاله فكذلك نقدر على رفعه وازالته قال صاحب الكشاف وقوله على ذهاب به من أوقع النكرات وأحزها للفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه وفيه ايذان بكمال اقتدار المذهب وانه لا يعسر عليه شيء وهو أبلغ في الايعاد من قوله قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ثم انه سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب وانما ذكر تعالى النخيل والاعناب لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام ومقام الادام ومقام الفواكه رطبا ويابسا وقوله لكم فيها فواكه كثيرة أي في الجنات فكما ان فيها النخيل والاعناب ففيها الفواكه الكثيرة وقوله ومنها تأكلون قال صاحب الكشاف يجوز أن يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعملها يعنون انها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها تتعيشون أما قوله تعالى وشجرة تخرج من طور سيناء فهو عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أي ومما أنشأنا لكم شجرة قال صاحب الكشاف طور سيناء وطور سينين لا يخلو اما ان يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما ان يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن اضاف فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث لانها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن فتح لم يصرفه لان ألفه للتأنيث كصحراء وقيل هو جبل فلسطين وقيل بين مصر وأيلة ومنه نودي موسى عليه السلام وقرأ الاعمش سينا على القصر أما قوله تعالى تنبت بالدهن فهو في موضع الحال أي تنبت وفيها الدهن كما يقال

معين (فأنشأنا لكم به) أي بذلك الماء (جنات من نخيل وأعناب لكم فيها) في الجنات (فواكه كثيرة) ... تتفكهون بها (ومنها) من الجنات (تأكلون) تغذيا وترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز

ان يعود الضمير ان للنخيل والاعناب اي لكم في ثمراتهما أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه (وشجرة) بالنصب عطف على جنات وقرئ بالرفع على ٢٧٩ أنه مبتدأ خبره محذوف دل عليه ماقبله

أي ومما أنشئ لكم به شجرة وتخصيصها بالذكر من بين سائر الاشجار لاستقلالها بمنافع معروفة قيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقوله تعالى (تخرج من طور سيناء) وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وقيل بفلسطين ويقال له طور سينين فاما ان يكون الطور اسم الجبل وسيناء اسم البقعة أضيف اليها أو المركب منهما علم له كامرئ القيس ومنع صرفه على قراءة من كسر السين للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة لا للألف لانه فعلال كديماس من السناء بالمد وهو الرفعة أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعلال كعلباء من السين اذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف سيناء فانه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء اذ لا فعلال في كلامهم وقرئ بالكسر والقصر والجملة صفة لشجرة وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع أيضا لتعظيمها ولانه المنشأ الاصلي لها وقوله تعالى (تنبت بالدهن) صفة اخرى لشجرة والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا منها أي تنبت ملتبسة به ويجوز كونها صلة معدية أي تنبته بمعنى تتضمنه وتحصله فان النبات حقيقة صفة للشجرة لا للدهن وقرئ تنبت من الافعال وهو اما من الانبات بمعنى النبات كما في قول زهير

ركب الامير بجنده أي ومعه الجند وقرئ تنبت وفيه وجهان (أحدهما) ان أنبت بمعنى نبت قال زهير

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا أنبت البقل

(والثاني) ان مفعوله محذوف أي تنبت زيتونها وفيه الزيت قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منها تشعبت في البلاد وانتشرت ولان معظمها هنالك أما قوله وصبغ للآكلين فعطف على الدهن أي ادام للآكلين والصبغ والصباغ مايصطبغ به أي يصبغ به الخبز وجملة القول انه سبحانه وتعالى نبه على احسانه بهذه الشجرة لانها تخرج هذه الثمرة التي يكثر بها الانتفاع وهي طرية ومدخرة وبان تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به (النوع الرابع) الاستدلال باحوال الحيوانات ﴿ قوله تعالى (وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ان فيها عبرة مجملا ثم أردفه بالتفصيل من أربعة أوجه (أحدها) قوله نسقيكم مما في بطونها والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بألبانها ووجه الاعتبار فيه انها تجتمع في الضروع وتتخلص من بين الفرث والدم باذن الله تعالى فتستحيل الى طهارة والى لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته كان ذلك معدودا في النعم الدينية ومن انتفع به فهو في نعمة الدنيا وأيضا فهذه الالبان التي تخرج من بطونها الى ضروعها تجدها شرابا طيبا واذا ذبحتها لم تجد لها أثرا وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى قال صاحب الكشاف وقرئ تسقيكم بتاء مفتوحة أي تسقيكم الانعام (وثانيها) قوله ولكم فيها منافع كثيرة وذلك بيعها والانتفاع بأثمانها وما يجري مجرى ذلك (وثالثها) قوله ومنها تأكلون يعني كما تنتفعون بها وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بالاكل (ورابعها) قوله وعليها وعلى الفلك تحملون لان وجه الانتفاع بالابل في المحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك في البحر ولذلك جمع بين الوجهين في انعامه لكي يشكر على ذلك ويستدل به واعلم انه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي ههنا (القصة الاولى) قصة نوح عليه السلام ﴿ قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) قال قوم ان نوحا كان اسمه يشكر ثم سمي نوحا لوجوه (أحدها) لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فأهلكهم بالطوفان فندم على ذلك (وثانيها) لمراجعة ربه في شأن ابنه (وثالثها) انه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك فقال الله له أعبتني اذ خلقته أم عبت الكلب وهذه الوجوه متكلفة لما ثبت ان الاعلام لا تفيد صفة في

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا أنبت البقل أو على تقدير تنبت زيتونها ملتبسا بالدهن وقرئ على البناء للمفعول وهو كالاول وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتنبت بالدهان (وصبغ للآكلين) معطوف على الدهن جار على اعرابه

عطف احدوصفى الشىء على الآخر أى تنبت بالشىء الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسترج منه وكونه اداما يصبغ فيه الخبز أى
يغمس فيه للائتدام وقرئ وصباغ ٢٨٠ كدباغ فى دبغ (وان لكم فى الانعام لعبرة) بيان للنعم الفائضة عليهم من جهة
الحيوان اثر بيان النعم الواصلة
اليهم من جهة الماء والنبات وقد
بين أنها مع كونها فى نفسها نعمة
ينتفعون بها على وجوه شتى عبرة
لابد من أن يعتبروا بها ويستدلوا
باحوالها على عظيم قدرة الله
عزوجل وسابغ رحمته ويشكروه
ولا يكفروه وخص هذا بالحيوان
لما أن محل العبرة فيه أظهر مما فى
النبات وقوله تعالى (نسقيكم مما
فى بطونها) تفصيل لما فيها من
مواقع العبرة ومافى بطونها عبارة
اما عن الالبان فمن تبعيضية والمراد
بالبطون الجوف أوعن العلف
الذى يتكون منه اللبن فمن ابتدائية
والبطون على حقيقتها وقرئ بفتح
النون وبالتاء أى تسقيكم الانعام
(ولكم فيها منافع كثيرة) غير
ماذكر من أصوافها واشعارها
(ومنها تأكلون) فتنتفعون باعيانها
كما تنتفعون بما يحصل منها (وعليها)
أى على الانعام فان الحمل عليها
لا يقتضى الحمل على جميع أنواعها
بل يتحقق بالحمل على البعض
كالابل ونحوها وقيل المراد هى
الابل خاصة لانها هى المحمول عليها
عندهم والمناسب للفلك فانها
سفائن البر قال ذوالرمة
• سفينة بر تحت خدى زمامها •
فالضمير فيه كما فى قوله تعالى
وبعولتهن أحق بردهن (وعلى الفلك
تحملون) أى فى البر والبحر وفى
الجمع بينها وبين الفلك فى ايقاع الحمل
عليها مبالغة فى تحملها الحمل وهو الداعى الى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من المنافع الحاصلة منها عن ذكر منفعة
الاكل المتعلقة بعينها (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) شروع فى بيان اهمال الامم السابقة وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد

المسمى أما قوله اعبدوا الله فالمعنى انه سبحانه أرسله بالدعاء الى عبادة الله تعالى وحده
ولا يجوز ان يدعوهم الى ذلك الا وقد دعاهم الى معرفته أولا لان عبادة من لا يكون معلوما
غير جائزة وانما يجوز و يجب بعد المعرفة أما قوله مالكم من اله غيره فالمراد أن عبادة غير الله
لا تجوز اذ لا اله سواه ومن حق العبادة أن تحسن لمن أنعم بالخلق والاحياء ومابعدهما
فاذا لم يصح ذلك الا منه تعالى فكيف يعبد مالا يضر ولا ينفع وقرئ غيره بالرفع على المحل
وبالجر على اللفظ ثم انه لما لم ينفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم
بقوله أفلا تتقون لان ذلك زجر ووعيد باتقاء العقوبة لينصرفوا عما هم عليه ثم انه
سبحانه حكى عنهم شبههم فى انكار نبوة نوح عليه السلام (الشبهة الاولى) قولهم ماهذا
الا بشر مثلكم وهذه الشبهة تحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال انه لما كان مساويا
لسائر الناس فى القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولا لله
لان الرسول لابد وأن يكون عظيما عند الله تعالى وحبيباله والحبيب لابد وان يختص عن
غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعزة فلما فقدت هذه الاشياء علمنا انتفاء الرسالة (والثانى)
أن يقال هذا الانسان مشارك لكم فى جميع الامور ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية
فلم يجد اليهما سبيلا الا بادعاء النبوة فصار ذلك شبهة لهم فى القدح فى نبوته فهذا الاحتمال
متأكد بقوله تعالى خبرا عنهم يريد أن يتفضل عليكم أى يريد أن يطلب الفضل عليكم
ويرأسكم كقوله تعالى وتكون لكما الكبرياء فى الارض (الشبهة الثانية) قولهم ولوشاء
الله لانزل ملائكة وشرحه أن الله تعالى لوشاء ارشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق
الذى يكون أشد افضاء الى المقصود ومعلوم ان بعثة الملائكة أشد افضاء الى هذا المقصود
من بعثة البشر لان الملائكة لعلو شانهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم فالخلق ينقادون
اليهم ولا يشكون فى رسالتهم فلما لم يفعل ذلك علمنا انه ما أرسل رسولا البتة (الشبهة
الثالثة) قولهم ماسمعنا بهذا فى آبائنا الاولين وقوله بهذا اشارة الى نوح عليه السلام أو الى
ما كلمهم به من الحث على عبادة الله تعالى أى ماسمعنا بمثل هذا الكلام أو بمثل هذا الذى
يدعى وهو بشر أنه رسول الله وشرح هذه الشبهة انهم كانوا أقواما لا يعولون فى شئ من
مذاهبهم الا على التقليد والرجوع الى قول الآباء فلما لم يجدوا فى نبوة نوح عليه السلام
هذه الطريقة حكموا بفسادها قال القاضى يحتمل أن يريدوا بذلك كونه رسولا مبعوثا
لانه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة و يحتمل أن يريدوا بذلك دعاءهم
الى عبادة الله تعالى وحده لان آباءهم كانوا على عبادة الاوثان (الشبهة الرابعة) قولهم
ان هو الا رجل به جنة والجنة الجنون أو الجن فان جهال العوام يقولون فى المجنون زال
عقله بعمل الجن وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام فانه عليه الصلاة والسلام كان
يفعل افعالا على خلاف عاداتهم فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام انه مجنون ومن كان
مجنونا فكيف يجوز أن يكون رسولا (الشبهة الخامسة) قولهم فتربصوا به حتى حين وهذا

من النعم الفائتة للحصر وعدم تذكرهم بتذكيرها لهم وما حاق بهم لذلك من فنون العذاب تحذيرا للمخاطبين وتقديم قصة نوح
عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهه وفى ايرادها اثر قوله تعالى ٢٨١ وعلى الفلك تحملون من حسن الموقع مالا
يوصف والواو ابتدائية واللام
جواب قسم محذوف وتصدير
القصة به لاظهار كمال الاعتناء
بمضمونها أى وبالله لقد أرسلنا
نوحا الخ ونسبه الكريم وكيفية
بعثه وكمية لبثه فيما بينهم قدمر
تفصيله فى سورة الاعراف وسورة
هود (فقال) متعطفا عليهم
ومستميلا لهم الى الحق (ياقوم
اعبدوا الله) أى اعبدوه وحده
كما يفصح عنه قوله تعالى فى سورة
هود أن لا تعبدوا الا الله وترك
التقييد به للايذان بانها هى
العبادة فقط وأما العبادة
بالاشراك فليست من العبادة فى
شئ رأسا وقوله تعالى (مالكم من
اله غيره) استئناف مسوق لتعليل
العبادة المامور بها أو تعليل
الامر بها وغيره بالرفع صفة لاله
باعتبار محله الذى هو الرفع على أنه
فاعل أو مبتدأ خبره لكم
أو محذوف ولكم للتخصيص
والتبيين أى مالكم فى الوجود
أو فى العالم اله غيره تعالى وقرئ
بالجر باعتبار لفظه (أفلا تتقون)
أى أفلا تقون أنفسكم عذابه
الذى يستوجبه ما أنتم عليه
من ترك عبادته تعالى كما يفصح
عنه قوله تعالى انى أخاف عليكم
عذاب يوم عظيم وقوله تعالى
عذاب يوم أليم وقيل أفلا تخافون
أن ترفضوا عبادة الله الذى هو
ربكم الخ وليس بذاك وقيل أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه الخ وفيه مافيه والهمزة لانكار الواقع
واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أتعرفون ذلك أى مضمون قوله تعالى مالكم من اله غيره فلا تتقون عذابه

يحتمل أن يكون متعلقا بما قبله أى انه مجنون فاصبروا الى زمان حتى يظهر عاقبة أمره فان
أفاق والا فاقتلوه و يحتمل أن يكون كلاما مستأنفا وهو أن يقولوا لقومهم اصبروا فانه ان
كان نبيا حقا فالله ينصره ويقوى أمره فنحن حينئذ نتبعه وان كان كاذبا فالله يخذله ويبطل
أمره فحينئذ نستريح منه فهذه مجموع الشبه التى حكاها الله تعالى عنهم واعلم انه سبحانه
ماذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها وذلك لان كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير
رسولا الا لانه من جنس الملك وانما يصير كذلك بان يتميز من غيره بالمعجزات فسواء كان من
جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولا بل جعل
الرسول من جملة البشر اولى لما مر بيانه فى السور المتقدمة وهو أن الجنسية مظنة الالفة
والمؤانسة وأما قولهم يريد أن يتفضل عليكم فان أرادوا به ارادته لاظهار فضله حتى يلزمهم
الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول وان أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر
والتكبر والانقياد فالانبياء منزهون عن ذلك وأما قولهم ماسمعنا بهذا فهو استدلال بعدم
التقليد على عدم وجود الشئ وهو فى غاية السقوط لان وجود التقليد لا يدل على وجود
الشئ فعدمه من أين يدل على عدمه وأما قولهم به جنة فقد كذبوا لانهم كانوا يعلمون
بالضرورة كمال عقله وأما قولهم فتربصوا به فضعيف لانه ان ظهرت الدلالة على نبوته وهى
المعجزة وجب عليهم قبول قوله فى الحال ولا يجوز توقيف ذلك الى ظهور دولته لان الدولة لا
تدل على الحقية وان لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر ولما كانت
هذه الاجوبة فى نهاية الظهور لا جرم تركها الله سبحانه ۞ قوله تعالى (قال رب انصرنى
بما كذبون فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور
فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين
ظلموا انهم مغرقون فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من
القوم الظالمين وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ان فى ذلك لآيات وان كنا
لمبتلين) أما قوله رب انصرنى بما كذبون ففيه وجوه (أحدها) ان فى نصره اهلاكهم
فكأنه قال أهلكهم بسبب تكذيبهم اياى (وثانيها) انصرنى بدل ما كذبونى كما تقول
هذا بذاك أى بدل ذاك ومكانه والمعنى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم
(وثالثها) انصرنى بانجاز ماوعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم انى
أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ولما أجاب الله دعاءه قال فأوحينا اليه أن اصنع الفلك
باعيننا أى بحفظنا وكلائتنا كان معه من الله حافظا يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد
عليه مفسد عمله ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة وهذه الآية دالة على فساد قول
المشبهة فى تمسكهم بقوله عليه السلام ان الله خلق آدم على صورته لان ثبوت الاعين يمنع
من ذلك واختلفوا فى انه عليه السلام كيف صنع الفلك فقيل انه كان نجارا وكان عالما
بكيفية اتخاذها وقيل ان جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها

بسبب اشراككم به فى العبادة مالا يستحق الوجود لولا ايجاد الله تعالى اياه فضلا عن استحقاق العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه أو ألا تلاحظون ذلك ٢٨٢ فلا تتقونه فالمنكر كلا الامرين فالمبالغة حينئذ فى الكمية وفى الاول فى الكيفية (فقال الملأ) أى الاشراف (الذين كفروا من قومه) وصف الملأ بما ذكر مع اشتراك الكل فيه للايذان بكمال عراقتهم فى الكفر وشدة شكيمتهم فيه أى قالوا لعوامهم (ماهذا الابشر مثلكم) أى فى الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة فى وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة (يريد أن يتفضل عليكم) أى يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم وصفوه بذلك اغضابا للمخاطبين عليه عليه السلام واغراء لهم على معاداته عليه السلام وقوله تعالى (ولوشاء الله لأنزل ملائكة) بيان لعدم رسالة البشر على الاطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته عليه السلام أى لوشاء الله تعالى ارسال الرسول لارسل رسلا من الملائكة وانما قيل لانزل لان ارسال الملائكة لا يكون الا بطريق الانزال فمفعول المشيئة مطلق الارسال المفهوم من الجواب لانفس مضمونه كما فى قوله تعالى ولوشاء لهداكم ونظائره (ماسمعنا بهذا) أى بمثل هذا الكلام الذى هو الامر بعبادة الله خاصة وترك عبادة ما سواه وقيل بمثل نوح عليه السلام فى دعوى النبوة (فى آبائنا الاولين) أى الماضين قبل بعثته عليه السلام قالوه اما لكونهم وآباؤهم فى فترة متطاولة واما لفرط غلوهم فى التكذيب والعناد وانهماكهم فى الغى والفساد وأياما كان فقولهم هذا ينبغى أن يكون هو الصادر عنهم

وهذا هو الاقرب لقوله باعيننا ووحينا أما قوله فاذا جاء أمرنا فاعلم ان لفظ الامر كما هو حقيقة فى طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء فكذا هو حقيقة فى الشأن العظيم والدليل عليه انك اذا قلت هذا أمر بقى الذهن يتردد بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وتمام تقريره مذكور فى كتاب المحصول فى الاصول ومن الناس من قال انما جاء أمرا على سبيل التعظيم والتفخيم مثل قوله ثم قال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها أما قوله وفار التنور فاختلفوا فى التنور فالاكثرون على انه هو التنور المعروف روى انه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عليه السلام عمل السفينة فى وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند (والقول الثانى) أن التنور وجه الارض عن ابن عباس رضى الله عنهما (والثالث) انه أشرف موضع فى الارض أى أعلاه عن قتادة (والرابع) وفار التنور أى طلع الفجر عن على عليه السلام وقيل ان فوران التنور كان عند طلوع الفجر (والخامس) هو مثل قولهم حمى الوطيس (والسادس) انه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه عن الحسن رحمه الله والقول الاول هو الصواب لان العدول عن الحقيقة الى المجاز من غير دليل لا يجوز واعلم ان الله تعالى جعل فوران التنور علامة لنوح عليه السلام حتى يركب عنده السفينة طلبا لنجاته ونجاة من آمن به من قومه أما قوله فاسلك فيها أى ادخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلك غيره وأسلكه من كل زوجين اثنين أى من كل زوجين من الحيوان الذى يحضره فى الوقت اثنين الذكر والانثى لكى لا ينقطع نسل ذلك الحيوان وكل واحد منهما زوج لا كما تقوله العامة من ان الزوج هو الاثنان روى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض وقرئ من كل بالتنوين أى من كل أمة زوجين واثنين تاكيد وزيادة بيان أما قوله وأهلك الا من سبق عليه القول منهم أى وأدخل أهلك ولفظ على انما يستعمل فى المضار قال تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت واعلم ان هذه الآية تدل على أمرين (أحدهما) انه سبحانه أمره بادخال سائر من آمن به وان لم يكن من أهله وقيل المراد باهله من آمن دون من يتصل به نسبا أو سببا وهذا ضعيف والا لما جاز استثناء قوله الا من سبق عليه القول (والثانى) انه قال ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا يعنى كنعان فانه سبحانه لما أخبر باهلاكهم وجب أن ينهاه عن أن يسأله فى بعضهم لانه ان أجابه اليه فقد صير خبره الصدق كذبا وان لم يجبه اليه كان ذلك تحقيرا لشان نوح عليه السلام فلذلك قال انهم مغرقون أى الغرق نازل بهم لا محالة أما قوله فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك قال ابن عباس رضى الله عنهما كان فى السفينة ثمانون انسانا نوح وامرأته سوى التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان

وسبعون

فى مبادى دعوته عليه السلام كما تنبئ عنه الفاء فى قوله تعالى فقال الملأ الخ وقيل معناه ما سمعنا به عليه السلام أنه نبى فالمراد بآبائهم الاولين الذين مضوا قبلهم فى زمن نوح عليه السلام وقولهم المذكور هو الذى ٢٨٣ صدر عنهم فى أواخر أمره عليه السلام وهو المناسب لما بعده من حكاية دعائه عليه السلام وقولهم (ان هو) أى ماهو (الا رجل به جنة) أى جنون أو جن يخبلونه ولذلك يقول ما يقول (فتربصوا به) أى احتملوه واصبروا عليه وانتظروا (حتى حين) لعله يفيق عما فيه محمول حينئذ على ترامى أحوالهم فى المكابرة والعناد واضرابهم عما وصفوه عليه السلام به من البشرية وارادة التفضل الى وصفه عليه السلام بما ترى وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا وعلى الاول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله أنى يؤفكون (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلام الكفرة كأنه قيل فماذا قال عليه السلام بعدما سمع منهم هذه الاباطيل فقيل قال لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب وتمادوا فى الغواية والضلال حتى يئس من ايمانهم بالكلية وقد أوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (رب انصرنى) باهلاكهم بالمرة فانه حكاية اجمالية لقوله عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا الخ (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم اياى أو بدل تكذيبهم (فأوحينا اليه) عند ذلك (أن اصنع الفلك) أن مفسرة لما فى الوحى من معنى القول (باعيننا) متلبسا بحفظنا وكلاءتنا كأن معه عليه السلام منه عز وعلا حفاظا وحراسا يكلؤنه باعينهم من التعدى أو من الزيغ فى الصنعة (ووحينا) وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها والفاء فى قوله تعالى (فاذا جاء أمرنا) لترتيب

وسبعون انسانا فكل الخلائق نسل من كان فى السفينة • أما قوله فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل ولم يقل فقولوا لان نوحا كان نبيا لهم واماما لهم فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك أو نبى (المسئلة الثانية) قال قتادة علمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة بسم الله مجراها ومرساها وعند ركوب الدابة سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وعند النزول وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين قال الانصارى وقال لنبينا وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق وقال فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان كأنه سبحانه أمرهم أن لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به فى جميع أحوالهم غافلين (المسئلة الثالثة) هذه مبالغة عظيمة فى تقبيح صورتهم حيث أتبع النهى عن الدعاء لهم الامر بالحمد على اهلاكهم والنجاة منهم كقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وانما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق لانه سبحانه كان عرفه انه بذلك ينجيه ومن تبعه فيصح أن يقول نجانا من حيث جعله آمنا بهذا الفعل ووصف قومه بأنهم الظالمون لان الكفر منهم ظلم لانفسهم لقوله ان الشرك لظلم عظيم ثم انه سبحانه بعد أن أمره بالحمد على اهلاكهم أمره بان يدعو لنفسه فقال وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وقرئ منزلا بمعنى انزالا أو موضع انزال كقوله ليدخلنهم مدخلا يرضونه واختلفوا فى المنزل على قولين (أحدهما) ان المراد هو نفس السفينة فمن ركبها خلصته مما جرى على قومه من الهلاك (والثانى) ان المراد أن ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الارض منزلا مباركا والاول أقرب لانه أمر بهذا الدعاء فى حال استقراره فى السفينة فيجب أن يكون المنزل ذلك دون غيره ثم بين سبحانه بقوله وأنت خير المنزلين ان الانزال فى الامكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى وان كان هو سبحانه خير من أنزل لانه يحفظ من أنزله فى سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة ثم بين سبحانه ان فيما ذكر من قصة نوح وقومه لآيات ودلالات وعبرا فى الدعاء الى الايمان والزجر عن الكفر فان اظهار تلك المياه العظيمة ثم الاذهاب بها لا يقدر عليه الا القادر على كل المقدورات وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح عليه السلام يدل على المعجز العظيم وافناء الكفار وبقاء الارض لاهل الدين والطاعة من أعظم أنواع العبر أما قوله وان كنا لمبتلين فيمكن أن يكون المراد وان كنا لمبتلين فيما قبل ويحتمل أن يكون وان كنا لمبتلين فيما بعد وهذا هو الاقرب لانه كالحقيقة فى الاستقبال واذا حمل على ذلك احتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد المكلفين فى المستقبل أى فيجب فيمن كلفناه أن يعتبر بهذا الذى ذكرناه (وثانيها) أن يكون المراد لمعاقبين لمن سلك فى تكذيب الانبياء مثل طريقة قوم نوح (وثالثها) أن يكون المراد كما نعاقب من كذب بالغرق وغيره فقد نمتحن بالغرق من

مضمون مابعدها على تمام صنع الفلك والمراد بالامر العذاب كما فى قوله تعالى لاعاصم اليوم من امر الله لا الامر بالركوب كما قيل
وبمجيئه كمال اقترابه وابتداء ظهوره ٢٨٤ أى اذا جاء اثر تمام الفلك عذابنا وقوله تعالى (وفار التنور) عطف بيان لمجئ
الامر روى انه قيل له عليه السلام اذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار الى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء أخبرته امرأته فركبوا واختلف فى مكانه فقيل كان فى مسجد الكوفة أى فى موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم وقيل كان فى عين وردة من الشام وقد مر تفصيله فى تفسير سورة هود عليه السلام (فاسلك فيها) أى ادخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلكه فيه أى أدخله فيه ومنه قوله تعالى ماسلككم فى سقر (من كل) أى من كل أمة (زوجين) أى فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى (اثنين) فانه نص فى الفردين دون الجمعين أو الفريقين وقرئ بالاضافة على أن المفعول اثنين أى من كل أمتى زوجين وهما أمة الذكر وأمة الانثى كالجمال والنوق والحصن والرماك وهذا صريح فى ان الامر كان قبل صنعة الفلك وفى سورة هود حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين فالوجه أن يحمل اما على أنه حكاية لامر آخر تنجيزى ورد عند فوران التنور الذى نيط به الامر التعليقى اعتناء بشأن المور به أو على أن ذلك هو الامر السابق بعينه لكن
لما كان الامر التعليقى قبل تحقق المعلق به فى حق ايجاب المامور به بمنزلة العدم جعل كأنه انما حدث عند تحققه الكلام
فحكى على صورة التنجيز وقد مر فى تفسير قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (وأهلك) منصوب بفعل معطوف على

لم يكذب على وجه المصلحة لا على وجه التعذيب لكى لا يقدر ان كل الغرق يجرى على وجه واحد ﴿(القصة الثانية) قصة هود أو صالح عليهما السلام قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فارسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحيوة الدنيا ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيي ومانحن بمبعوثين ان هو الا رجل افترى على الله كذبا ومانحن له بمؤمنين قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فاخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين) اعلم ان هذه القصة هى قصة هود عليه السلام فى قول ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وبمجئ قصة هود عقيب قصة نوح فى سورة الاعراف وسورة هود والشعراء وقال بعضهم المراد بهم صالح وثمود لان قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة اما كيفية الدعوى فكما تقدم فى قصة نوح عليه السلام وههنا سؤالات (السؤال الاول) حق أرسل أن يتعدى بالى كاخواته التى هى وجه وانفذ وبعث فلم عدى فى القرآن بالى تارة وبفى أخرى كقوله تعالى كذلك أرسلناك فى أمة وما أرسلنا فى قرية فارسلنا فيهم رسولا أى فى عاد وفى موضع آخر والى عاد أخاهم هودا (الجواب) لم يعد بفى كما عدى بالى ولكن الامة أو القرية جعلت موضعا للارسال وعلى هذا المعنى جاء بعث فى قوله ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا (السؤال الثانى) هل يصح ماقاله بعضهم ان قوله أفلا تتقون غير موصول بالاول وانما قاله لهم بعد ان كذبوه وردوا عليه بعد اقامة الحجة عليهم فعند ذلك قال لهم مخوفا مما هم عليه أفلا تتقون هذه الطريقة مخافة العذاب الذى أنذرتكم به (الجواب) يجوز أن يكون موصولا بالكلام الاول بان رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الاوثان فدعاهم الى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب اقبالهم على عبادة الاوثان ثم اعلم ان الله تعالى حكى صفات أولئك القوم ثم حكى كلامهم أما الصفات فثلاثة هى شر الصفات (أولها) الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله كفروا (وثانيها) الكفر بيوم القيامة وهو المراد من قوله وكذبوا بلقاء الآخرة (وثالثها) الانغماس فى حب الدنيا وشهواتها وهو المراد من قوله وأترفناهم فى الحياة الدنيا أى نعمناهم فان قيل ذكر الله مقالة قوم هود فى جوابه فى سورة الاعراف وسورة هود بغير واو وقال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة قالوا ما نراك الا بشرا مثلنا وههنا مع الواو فاى فرق بينهما قلنا الذى بغير واو على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له كيت وكيت وأما الذى مع الواو فعطف لما قالوه على ماقاله ومعناه انه اجتمع فى هذه الواقعة هذا

فاسلك لا بالعطف على زوجين أو اثنين على القراءتين لادائه الى اختلال المعنى أى واسلك أهلك والمراد به امرأته وبنوه وتأخير
الامر بادخالهم عما ذكر من ادخال الازواج فيها لكونه عريقا فيما أمر به ٢٨٥ من الادخال فانه محتاج الى مزاولة الاعمال منه
عليه السلام بل الى معاونة من أهله وأتباعه وأما هم فانما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك ولان فى المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره فتقديمه يؤدى الى الاخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم (الا من سبق عليه القول منهم) أى القول باهلاك الكفرة وانما جئ بعلى لكون السابق ضارا كما جئ باللام فى قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى لكونه نافعا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) بالدعاء لانجائهم (انهم مغرقون) تعليل للنهى أو لما ينبئ عنه من عدم قبول الدعاء أى انهم مقضى عليهم بالاغراق لا محالة لظلمهم بالاشراك وسائر المعاصى ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف لا وقد أمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى (فاذا استويت أنت ومن معك) أى من أهلك وأشياعك (على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) على طريقة قوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (وقل رب انزلنى) فى السفينة أو منها (منزلا مباركا) أى انزالا أو موضع انزال يستتبع خيرا كثيرا وقرئ منزلا أى موضع نزول (وأنت خير المنزلين) أمر عليه السلام بان يشفع دعاءه بما
يطابقه من ثنائه عز وجل توسلا به الى الاجابة وافراده عليه السلام بالامر مع شركة الكل فى الاستواء والنجاة لاظهار فضله
عليه السلام والاشعار بان فى دعائه وثنائه مندوحة عما عداه (ان فى ذلك) الذى ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه (لآيات)

الكلام الحق وهذا الكلام الباطل ❊ وأما شبهات القوم فشيئان (أولهما) قولهم ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون وقد مر شرح هذه الشبهة فى القصة الاولى وقوله مما تشربون أى من مشروبكم أو حذف منه لدلالة ماقبله عليه وهو قوله ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون فجعلوا اتباع الرسول خسرانا ولم يجعلوا عبادة الاصنام خسرانا أى لئن كنتم أعطيتموه الطاعة من غير أن يكون لكم بازائها منفعة فذلك هو الخسران (وثانيهما) انهم طعنوا فى صحة الحشر والنشر ثم طعنوا فى نبوته بسبب اتيانه بذلك أما الطعن فى صحة الحشر فهو قولهم أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون معادون احياء للمجازاة ثم لم يقتصروا على هذا القدر حتى قرنوا به الاستبعاد العظيم وهو قولهم هيهات هيهات لما توعدون ثم أكدوا الشبهة بقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ولم يريدوا بقولهم نموت ونحيا الشخص الواحد بل أرادوا ان البعض يموت والبعض يحيا وانه لا اعادة ولا حشر فلذلك قالوا ومانحن بمبعوثين ولما فرغوا من الطعن فى صحة الحشر بنوا عليه الطعن فى نبوته فقالوا لما أتى بهذا الباطل فقد افترى على الله كذبا ثم لما قرروا الشبهة الطاعنة فى نبوته قالوا ومانحن له بمؤمنين لان القوم كالتبع لهم واعلم ان الله تعالى ما أجاب عن هاتين الشبهتين لظهور فسادهما (أما الشبهة الاولى) فقد تقدم بيان ضعفها (وأما الثانية) فلانهم استبعدوا الحشر ولا يستبعد الحشر لوجهين (الاول) انه سبحانه لما كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات وجب أن يكون قادرا على الحشر والنشر (والثانى) وهو انه لولا الاعادة لكان تسليط القوى على الضعيف فى الدنيا ظلما وهو غير لائق بالحكيم على ماقرره سبحانه فى قوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ثنى انكم للتوكيد وحسن ذلك الفصل مابين الاول والثانى بالظرف ومخرجون خبر عن الاول وفى قراءة ابن مسعود وكنتم ترابا وعظاما مخرجون (المسئلة الثانية) قرئ هيهات بالفتح والكسر كلها بتنوين وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف (المسئلة الثالثة) هى فى قوله ان هى الا حياتنا الدنيا ضمير لا يعلم مايعنى به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة الا حياتنا الدنيا ثم وضع هى موضع الحياة لان الخبر يدل عليه ومنه ❊ هى النفس ماحملتها تحمل ❊ والمعنى لا حياة الا هذه الحياة ولان ان النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى نفت مابعدها نفى الجنس واعلم أن ذلك الرسول لما يئس من قبول الاكابر والاصاغر فزع الى ربه وقال رب انصرنى بما كذبون وقد تقدم تفسيره فاجابه الله تعالى فيما سال وقال عما قليل ليصبحن نادمين والاقرب أن يكون المراد بان يظهر لهم علامات الهلاك فعند ذلك يحصل منهم الحسرة والندامة على ترك القبول ويكون الوقت وقت ايمان الياس فلا ينتفعون بالندامة وبين تعالى الهلاك الذى أنزله عليهم بقوله فاخذتهم الصيحة بالحق وذكروا

جملة يستدل بها أولو الأبصار ويعتبر بها ذوو الاعتبار (وان كنا لمبتلين) ان مخففة من ان واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشان محذوف اى وان الشان كنا مصيبين ٢٨٦ قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويتذكر كقوله تعالى ولقد تركناها آية فهل من مدكر (ثم أنشأنا من بعدهم) أى من بعد اهلاكهم (قرنا آخرين) هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعليه أكثر المفسرين وهو الاوفق لما هو المعهود فى سائر السور الكريمة من ايراد قصتهم اثر قصة قوم نوح وقيل هم ثمود (فارسلنا فيهم) جعلوا موضعا للارسال كما فى قوله تعالى كذلك أرسلناك فى أمة ونحوه لا غاية له كما فى مثل قوله تعالى ولقد أرسلنا نوحا الى قومه للايذان من أول الامر بان من أرسل اليهم لم يأتهم من غير مكانهم بل انما نشأ فيما بين أظهرهم كما ينبئ عنه قوله تعالى (رسولا منهم) أى من جملتهم نسبا فانهما عليهما السلام كانا منهم وأن فى قوله تعالى (أن اعبدوا الله) مفسرة لأرسلنا لتضمنه معنى القول أى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله تعالى وقوله تعالى (مالكم من اله غيره) تعليل للعبادة المأمور بها أو للامر بها أو لوجوب الامتثال به (أفلا تتقون) أى عذابه الذى يستدعيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصى والكلام فى العطف كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام (وقال الملأ من قومه) حكاية لقولهم الباطل اثر حكاية القول الحق الذى نطق به حكاية ارسال الرسول بطريق العطف على أن المراد حكاية مطلق تكذيبهم له عليه السلام اجمالا وهو لا حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم من المحاورة والمقاولة تفصيلا حتى يحكى بطريق الاستئناف المبنى على السؤال

فى الصيحة وجوها (أحدها) ان جبريل عليه السلام صاح بهم وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها (وثانيها) الصيحة هى الرجفة عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثالثها) الصيحة هى نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت دعى فأجاب عن الحسن (ورابعها) انه العذاب المصطلم قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الأذقان

والأول أولى لانه هو الحقيقة وأما قوله بالحق فمعناه أنه دمرهم بالعدل من قولك فلان يقضى بالحق اذا كان عادلا فى قضاياه وقال المفضل بالحق أى بما لا يدفع كقوله وجاءت سكرة الموت بالحق أما قوله فجعلناهم غثاء فالغثاء حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان ومنه قوله تعالى فجعله غثاء أحوى وأما قوله تعالى فبعدا للقوم الظالمين ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله بعدا وسحقا ودمرا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهى من جملة المصادر التى قال سيبويه نصبت بأفعال لا يستعمل اظهارها ومعنى بعدا بعدوا أى هلكوا يقال بعد بعدا وبعدا نحو رشد رشدا ورشدا والله أعلم (المسئلة الثانية) قوله بعدا بمنزلة اللعن الذى هو التبعيد من الخير والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والاهانة لهم وقد نزل بهم العذاب دالا بذلك على أن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم حالا ليكون ذلك عبرة لمن يجىء بعدهم

﴿ القصة الثالثة قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون) اعلم أنه سبحانه يقص القصص فى القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم وأخرى على سبيل الاجمال كههنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام فأما قوله ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين فالمعنى انه ما أخلى الديار من مكلفين أنشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم فى عمارة الدنيا أما قوله ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون فيحتمل فى هذا الاجل أن يكون المراد آجال حياتها وتكليفها ويحتمل آجال موتها وهلاكها وان كان الاظهر فى الاجل اذا أطلق أن يراد به وقت الموت فبين ان كل أمة لها آجال مكتوبة فى الحياة والموت لا يتقدم ولا يتأخر منبها بذلك على أنه عالم بالاشياء قبل كونها فلا توجد الا على وفق العلم ونظيره قوله تعالى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) قال أصحابنا هذه الآية تدل على ان المقتول ميت بأجله اذ لو قتل قبل أجله لكان قد تقدم الاجل أو تأخر وذلك ينافيه هذا النص (المسئلة الثانية) قال الكعبى المراد من قوله ما تسبق من أمة أى لا يتقدمون الوقت المؤقت لعذابهم ان لم يؤمنوا ولا يتأخرون عنه ولا يستأصلهم الا اذا علم منهم انهم لا يزدادون الا عنادا وانهم لا يلدون مؤمنا وانه لا نفع فى بقائهم لغيرهم ولا ضرر على أحد فى هلاكهم

كما ينبئ عنه ما سيأتى من حكاية سائر الامم أى وقال الاشراف من قومه (الذين كفروا) فى محل الرفع على أنه صفة للملا وصفوا بذلك ذما لهم وتنبيها على غلوهم فى الكفر وتأخيره عن من قومه لعطف ٢٨٧ قوله تعالى (وكذبوا بلقاء الآخرة) وما عطف عليه على الصلة الاولى أى كذبوا بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب أو بمعادهم الى الحياة الثانية بالبعث (وأترفناهم) ونعمناهم (فى الحياة الدنيا) بكثرة الاموال والاولاد أى قالوا لأعقابهم مضلين لهم (ما هذا الا بشر مثلكم) أى فى الصفات والأحوال وايثار مثلكم على مثلنا للمبالغة فى تهوين أمره عليه السلام وتوهينه (يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) تقرير للمماثلة وما خبرية والعائد الى الثانى منصوب محذوف أو مجرور قد حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) أى فيما ذكر من الاحوال والصفات أى ان امتثلتم باوامره (انكم اذا) أى على تقدير الاتباع (لخاسرون) عقولكم ومغبونون فى آرائكم حيث أذللتم أنفسكم انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذى يوصلهم الى سعادة الدارين خسرانا دون عبادة الاصنام التى لا خسران وراءها قاتلهم الله أنى يؤفكون واذا واقع بين اسم ان وخبرها لتأكيد مضمون الشرط والجملة جواب لقسم محذوف قبل ان الشرطية المصدرة باللام الموطئة أى وبالله لئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون (أيعدكم) استئناف مسوق لتقرير ما قبله من زجرهم عن اتباعه عليه السلام بانكار وقوع ما يدعوهم الى الايمان به واستبعاده (أنكم اذا متم) بكسر الميم من مات يمات وقرئ بضمها من مات يموت (وكنتم ترابا وعظاما) نخرة مجردة عن اللحوم والاعصاب أى كان بعض أجزائكم من اللحم ونظائره ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الاجزاء البادية أو كان متقدموكم ترابا صرفا

وهو كقول نوح عليه السلام انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا أما قوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى فالمعنى انه كما أنشأنا بعضهم بعد بعض أرسل اليهم الرسل على هذا الحد قرأ ابن كثير تترى منونة والباقون بغير تنوين وهو اختيار أكثر أهل اللغة لانها فعلى من المواترة وهى المتابعة وفعلى لا ينون كالدعوى والتقوى والتاء بدل من الواو فانه مأخوذ من الوتر وهو الفرد قال الواحدى تترى على القراءتين مصدر واسم أقيم مقام الحال لان المعنى متواترة أما قوله تعالى كلما جاء أمة رسولها كذبوه يعنى انهم سلكوا فى تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن أهلكه الله بالغرق والصيحة فلذلك قال فأتبعنا بعضهم بعضا أى بالهلاك وجعلناهم أحاديث يمكن أن يكون المراد جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى انه سبحانه بلغ فى اهلاكهم مبلغا صاروا معه أحاديث فلا يرى منهم عين ولا أثر ولم يبق منهم الا الحديث الذى يذكر ويعتبر به ويمكن أيضا أن يكون جمع أحدوثة مثل الاضحوكة والاعجوبة وهى ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا ثم قال فبعدا لقوم لا يؤمنون على وجه الدعاء والذم والتوبيخ ودل بذلك على انهم كما أهلكوا عاجلا فهلاكهم بالتعذيب آجلا على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد

﴿ (القصة الرابعة) قصة موسى عليه السلام قوله تعالى (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) اختلفوا فى الآيات فقال ابن عباس رضى الله عنهما هى الآيات التسع وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون ونقص من الثمرات وقال الحسن قوله بآياتنا أى بديننا واحتج بان المراد بالآيات لو كانت هى المعجزات والسلطان المبين أيضا هو المعجز لحينئذ يلزم عطف الشئ على نفسه والاقرب هو الاول لان لفظ الآيات اذا ذكر فى الرسل فالمراد منها المعجزات وأما الذى احتجوا به (فالجواب) عنه من وجوه (أحدها) ان المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لانه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارسا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوا ورشاء فلاجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله جبريل وميكال (وثانيها) يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت سائر آيات الانبياء فى كونها آيات فقد فارقتها فى قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام (وثالثها) أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم فى الاستدلال على وجود الصانع واثبات النبوة وانه ما كان يقيم لهم قدرا ولا وزنا واعلم ان الآية تدل على ان معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام

ومتأخوكم عظاما وقوله تعالى (أنكم) تأكيد للاول لطول الفصل بينه وبين خبره الذى هو قوله تعالى (مخرجون) أى من القبور أحياء كما كنتم وقيل أنكم مخرجون مبتدأ أو اذا متم ٢٨٨ خبره على معنى اخراجكم اذا متم ثم أخبر بالجملة عن أنكم وقيل رفع أنكم مخرجون بفعل هو جزاء الشرط كأنه قيل اذا متم وقع اخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبرا عن أنكم والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو الاول وقرئ أيعدكم اذا متم الخ (هيهات هيهات) تكرير لتأكيد البعد أى بعد الوقوع أو الصحة (لما توعدون) وقيل اللام لبيان المستبعد ما هو كما فى هيت لك كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لماذا هذا الاستبعاد فقيل لما توعدون وقيل هيهات بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره لما توعدون وقرئ بالفتح منونا للتنكير وبالضم منونا على أنه جمع هيهة وغير منون تشبيها بقبل وبالكسر على الوجهين وبالسكون على لفظ الوقف وابدال التاء هاء (ان هى الا حياتنا الدنيا) أصله ان الحياة الا حياتنا فاقيم الضمير مقام الاولى لدلالة الثانية عليها حذرا من التكرار واشعارا باغنائها عن التصريح كما فى هى النفس تحمل ما حملت وهى العرب تقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على الجنس كانت ان النافية بمنزلة لا النافية للجنس وقوله تعالى (نموت ونحيى) جملة مفسرة لما ادعوه من أن الحياة هى الحياة الدنيا أى يموت بعضنا ويولد بعض الى انقراض العصر (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت (ان هو) أى ما هو (الا رجل افترى على الله كذبا) فيما يدعيه من ارساله وفيما يعدنا من أن الله يبعثنا (وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين فيما يقوله (قال) أى هود عليه السلام عند يأسه من ايمانهم بعدما سلك فى دعوتهم كل مسلك متضرعا الى الله عز وجل (رب انصرنى) عليهم وانتقم لى منهم (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم اياى

أيضا وان النبوة كما انها كانت مشتركة بينهما فكذلك المعجزات ثم انه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم أما صفتهم فامران (أحدهما) الاستكبار والانفة (والثانى) انهم كانوا قوما عالين أى رفيعى الحال فى أمور الدنيا ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة وأما شبهتهم فهى قولهم أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون قال صاحب الكشاف لم يقل مثلينا كما قال انكم اذا مثلهم ولم يقل أمثالهم وقال كنتم خير أمة ولم يقل أخيار أمة كل ذلك لان الايجاز أحب الى العرب من الاكثار والشبهة مبنية على أمرين (أحدهما) كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه (والثانى) أن قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة العرب تسمى كل من دان للملك عابدا له ويحتمل أن يقال انه كان يدعى الالهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه انه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله فكذبوهما ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فان حصول الغرق لم يكن حاصلا عقيب التكذيب انما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك فى الوقت اللائق به أما قوله ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون فقال القاضى معناه انه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذى هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكى يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا واعترض صاحب الكشاف عليه فقال لا يجوز أن يرجع الضمير فى لعلهم الى فرعون وملائه لان التوراة انما أوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملائه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بل المعنى الصحيح ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها فذكر موسى والمراد آل موسى كما يقال هاشم وثقيف والمراد قومهما ﴿(القصة الخامسة) قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام قوله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين)﴾ اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بان خلقه من غير ذكر وأنطقه فى المهد فى الصغر وأجرى على يديه ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن تكلمت مريم فى صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلقم ثديا قط قال القاضى ان ثبت ذلك فهو معجزة لزكريا عليه السلام لانها لم تكن نبية قلنا القاضى انما قال ذلك لان عنده الارهاص غير جائز وكرامات الاولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة الى ما قال والاقرب انه جعلهما آية بنفس الولادة لانه ولد من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعا فى هذا الامر العجيب الخارق للعادة والذى يدل على ان هذا التفسير أولى وجهان (أحدهما) انه تعالى قال وجعلنا ابن

واصرارهم عليه (قال) تعالى اجابة لدعائه وعدة بالقبول (عما قليل) أى من زمان قليل وما مزيدة بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة كما زيدت فى قوله تعالى فبما رحمة من الله أو نكرة موصوفة أى عن شئ قليل ٢٨٩ (ليصبحن نادمين) على ما فعلوا من التكذيب وذلك عند معاينتهم للعذاب (فأخذتهم الصيحة) لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم أصيبوا فى تضاعيفها بصيحة هائلة أيضا وقد روى أن شداد بن عاد حين أتم بناء ارم سار اليها باهله فلما دنا منها بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا وقيل الصيحة نفس العذاب والموت وقيل هى العذاب المصطلم قال قائلهم

صاح الزمان بآل برمك صيحة
خروا لشدتها على الاذقان

(بالحق) متعلق بالاخذ أى بالامر الثابت الذى لا دفاع له أو بالعدل من الله تعالى أو بالوعد الصدق (فجعلناهم غثاء) أى كغثاء السيل وهو حميله (فبعدا للقوم الظالمين) اخبار أو دعاء وبعدا من المصادر التى لا يكاد يستعمل ناصبها والمعنى بعدوا بعدا أى هلكوا واللام لبيان من قيل له بعدا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل (ثم أنشأنا من بعدهم) أى بعد هلاكهم (قرونا آخرين) هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم (ما تسبق من أمة أجلها) أى ما تتقدم أمة من الامم المهلكة الوقت الذى عين لهلاكهم أى ما تهلك أمة قبل مجئ أجلها (وما يستأخرون) ذلك الاجل ساعة وقوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا) عطف على أنشأنا لكن لا على معنى أن ارسالهم متراخ عن انشاء القرون المذكورة جميعا بل على معنى أن ارسال كل رسول متأخر عن انشاء قرن مخصوص بذلك الرسول كأنه قيل ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا الى كل قرن منهم رسولا خاصا به والفصل بين المعطوفين

مريم وأمه آية لان نفس الاعجاز ظهر فيهما الا انه ظهر على يديهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التى ظهرت على يده نحو احياء الموتى وذلك لان الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك ان نطقا فى المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لانه آية فيه (الثانى) انه تعالى قال آية ولم يقل آيتين وحمل هذا اللفظ على الامر الذى لا يتم الا بمجموعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التى كان عيسى عليه السلام مستقلا بها أما قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار أى جعلنا مأواهما الربوة والربوة والرباوة فى رائها الحركات الثلاث وهى الارض المرتفعة ثم قال قتادة وأبو العالية هى ايليا أرض بيت المقدس وقال أبو هريرة رضى الله عنه انها الرملة وقال الكلبى وابن زيد هى بمصر وقال الاكثرون انها دمشق وقال مقاتل والضحاك هى غوطة دمشق والقرار المستقر من أرض مستوية مبسوطة وعن قتادة ذات ثمار وماء يعنى انه لاجل الثمار يستقر فيها ساكنوها والمعين الماء الظاهر الجارى على وجه الارض فنبه سبحانه على كمال نعمه عليهما بهذا اللفظ على اختصاره ثم فى المعين قولان (أحدهما) انه مفعول لانه لظهوره يدرك بالعين من عانه اذا أدركه بعينه وقال الفراء والزجاج ان شئت جعلته فعيلا من الماعون ويكون أصله من المعن والماعون فاعول منه قال أبو على والمعين السهل الذى ينقاد ولا يتعاصى والماعون ما سهل على معطيه ثم قالوا وسبب الايواء انها فرت بابنها عيسى الى الربوة وبقيت بها اثنتى عشرة سنة وانما ذهب بهما ابن عمها يوسف ثم رجعت الى أهلها بعد أن مات ملكهم وههنا آخر القصص والله أعلم ﴿قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم فى غمرتهم حتى حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون)﴾ اعلم ان ظاهر قوله يا أيها الرسل خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لان الرسل انما أرسلوا متفرقين فى أزمنة متفرقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب اليهم فلهذا لاشكال اختلفوا فى تأويله على وجوه (أحدها) ان المعنى الاعلام بأن كل رسول فهو فى زمانه نودى بهذا المعنى ووصى به ليعتقد السامع ان أمرا نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق بان يؤخذ به ويعمل عليه (وثانيها) ان المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لانه ذكر ذلك بعد انقضاء اخبار الرسل وانما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد أيها القوم كفوا عنى أذاكم ومثله الذين قال لهم الناس وهو نعيم بن مسعود كأنه سبحانه لما خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا الا بذلك ليعلم رسولنا ان هذا التثقيل ليس عليه فقط بل هو لازم على جميع الانبياء عليهم السلام (وثالثها) وهو قول محمد بن جرير ان المراد به عيسى عليه السلام لانه انما ذكر ذلك بعد ما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولانه روى ان عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه والقول الاول أقرب لانه أوفق للفظ

بالجملة المعترضة الناطقة بعدم تقدم الامم اجلها المضروب لهلاكهم للمسارعة الى بيان هلاكهم على وجه اجمالى (تترى) أى متواترين واحدا بعد واحد من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو كما فى تولج ويتقوا والالف للتأنيث باعتبار أن الرسل جماعة وقرئ بالتنوين على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا وقوله تعالى (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) استئناف مبين لمجئ كل رسول لامته ولما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة والمراد بالمجئ اما التبليغ واما حقيقة المجئ للايذان بانهم كذبوه فى أول الملاقاة واضافة الرسول الى الامة مع اضافة كلهم فيما سبق الى نون العظمة لتحقيق أن كل رسول جاء أمته الخاصة به لا أن كلهم جاؤا كل الامم والاشعار بكمال شناعتهم وضلالهم حيث كذبت كل واحدة منهم رسولها المعين لها وقيل لان الارسال لائق بالمرسل والمجئ بالمرسل اليهم (فأتبعنا بعضهم بعضا) فى الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضا فى مباشرة أسبابه التى هى الكفر والتكذيب وسائر المعاصى (وجعلناهم أحاديث) لم يبق منهم الا حكايات يعتبر بها المعتبرون وهو اسم جمع للحديث او جمع أحدوثة وهى ما يتحدث به تلهيا كأعاجيب جمع اعجوبة وهى ما يتعجب منه أى جعلناهم أحاديث يتحدث بها تلهيا وتعجبا (فبعدا لقوم لا يؤمنون) اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الايمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم اجمالا وأما القرون الأولون فحيث نقل عنهم ما مر من الغلو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان وصفوا بالظلم (ثم ارسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) هى الآيات التسع من اليد والعصا والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون ولا مساغ لعد فلق البحر منها اذ المراد هى الآيات التى كذبوها واستكبروا عنها (وسلطان

الآية ولانه روى عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس انها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها بمالى فاخذه ثم انها جاءته وقالت يا رسول الله لم رددته فقال عليه السلام بذلك أمرت الرسل أن لا يأكلوا الا طيبا ولا يعملوا الا صالحا أما قوله تعالى من الطيبات ففيه وجهان (الاول) انه الحلال وقيل طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذى لا يعصى الله فيه والصافى الذى لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل (والثانى) انه المستطاب المستلذ من المأكل والفواكه فبين تعالى انه وان ثقل عليهم بالنبوة وبما ألزمهم القيام بحقها فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح لغيرهم واعلم انه سبحانه كما قال للمرسلين يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فقال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واعلم أن تقديم قوله كلوا من الطيبات على قوله واعملوا صالحا كالدلالة على ان العمل الصالح لابد وان يكون مسبوقا بأكل الحلال فأما قوله انى بما تعملون عليم فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به واذا كان ذلك تحذيرا للرسل مع علو شأنهم فبأن يكون تحذيرا لغيرهم أولى أما قوله وأن هذه أمتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون فقد فسرناه فى سورة الانبياء وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى انه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والاعمال الصالحة فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى فان قيل لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدا قلنا المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأما الشرائع فان الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا فى الدين فكما يقال فى الحائض والطاهر من النساء ان دينهن واحد وان افترق تكليفهما فكذا ههنا ويدل على ذلك قوله وأنا ربكم فاتقون فكأنه نبه بذلك على ان دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع وان اختلفت فى ذلك (المسئلة الثانية) قرئ وان بالكسر على الاستئناف وان بمعنى ولان وان مخففة من الثقيلة وأمتكم مرفوعة معها أما قوله تعالى فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا فالمعنى فان أمم الانبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم وفى قوله فتقطعوا معنى المبالغة فى شدة اختلافهم والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين أما قوله زبرا فقرئ زبرا جمع زبور أى كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم أديانا وزبرا قطعا استعيرت من زبر الفضة والحديد وزبرا مخففة الباء كرسل فى رسل قال الكلبى ومقاتل والضحاك يعنى مشركى مكة والمجوس واليهود والنصارى أما قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون فمعناه ان كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه دينا لنفسه معجب به يرى الحق أنه الرابح وأن غيره المبطل الخاسر ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء فى دينهم أتبعه بالوعيد وقال فذرهم فى غمرتهم حتى حين والخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم يقول فدع هؤلاء الكفار فى جهلهم والغمرة الماء الذى يغمر القامة فكان

مبين) أى حجة واضحة ملزمة للخصم وهى اما العصا وافرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات لما أنها أم آياته عليه الصلاة والسلام وأولاها وقد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها ثعبانا وتلقفها لما افكته السحرة حسبما فصل فى تفسير سورة طه واما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وحراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء وغير ذلك مما ظهر منها من قبل ومن بعد فى غير مشهد فرعون وقومه فغير ملائم لمقتضى المقام وما فى الآيات كقوله * الى الملك القرم وابن الهمام * الخ عبر عنه بذلك على طريقة العطف تنبيها على جمعها العنوانين جليلين وتنزيلا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتى (الى فرعون وملائه) أى أشراف قومه خصوا بالذكر لان ارسال بنى اسرائيل منوطا بآرائهم لا بآراء أعقابهم (فاستكبروا) عن الانقياد وتمردوا (وكانوا قوما عالين) متكبرين متمردين (فقالوا) عطف على استكبروا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار أى كانوا قوما عادتهم الاستكبار والتمرد أى فقالوا فيما بينهم بطريق المناصحة (أنؤمن لبشرين مثلنا) ثنى البشر لانه يطلق على الواحد كقوله تعالى بشرا سويا كما يطلق على الجمع كما فى قوله تعالى فاما ترين من البشر أحدا ولم يثن المثل نظرا الى كونه فى حكم المصدر وهذه القصص كما ترى تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الانبياء على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤن الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها فى مراقى الكمال ومهاوى النقصان بحيث يكون بعضها فى أعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون الى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل

ما هم فيه من الجهل والحيرة صار غامرا ساترا لعقولهم وعن على عليه السلام فى غمراتهم حتى حين وذكروا فى الحين وجوها (أحدها) الى حين الموت (وثانيها) الى حين المعاينة (وثالثها) الى حين العذاب والعادة فى ذلك أن يذكر فى الكلام والمراد به الحالة التى تقترن بها الحسرة والندامة وذلك يحصل اذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم ويحصل أيضا عند المحاسبة فى الآخرة ويحصل عند عذاب القبر والمسألة فيجب أن يحمل على كل ذلك ولما كان القوم فى نعم عظيمة فى الدنيا جاز أن يظنوا أن تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم فبين سبحانه ان الامر بخلاف ذلك فقال أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات قرئ يمدهم ويسارع بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفى المعنى وجهان (أحدهما) ان هذا الامداد ليس الا استدراجا لهم فى المعاصى واستجرارا لهم فى زيادة الاثم وهم يحسبونه مسارعة فى الخيرات وبل للاستدراك لقوله أيحسبون يعنى بل هم أشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا فى ذلك أهو استدراج أم مسارعة فى الخير وهذه الآية كقوله ولا تعجبك أموالهم وأولادهم روى عن يزيد بن ميسرة اوحى الله تعالى الى نبى من الانبياء أيفرح عبدى أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له منى ويجزع ان أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له منى ثم تلا أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين وعن الحسن لما أتى عمر بسوار كسرى فأخذه ووضعه فى يد سراقة فبلغ منكبه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يصيب مالا لينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه نظرا ثم ان أبا بكر كان يحب ذلك اللهم لا يكن ذلك مكرا منك بعمر ثم تلا أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين (الوجه الثانى) وهو أنه سبحانه انما أعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغى البال متمكنين من الاشتغال بطلب الحق فاذا أعرضوا عن الحق والحالة هذه كان لزوم الحجة عليهم أقوى فلذلك قال بل لا يشعرون

* قوله تعالى (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) اعلم انه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ثم قال بل لا يشعرون بين بعده صفات من يسارع فى الخيرات ويشعر بذلك وهى أربعة (الصفة الاولى) قوله ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والاشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف فمنهم من قال جمع بينهما للتأكيد ومنهم من حمل الخشية على العذاب والمعنى الذين هم من عذاب ربهم مشفقون وهو قول الكلبى ومقاتل ومنهم من حمل الاشفاق على أثره وهو الدوام فى الطاعة والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون فى طاعته جادون فى طلب مرضاته والتحقيق أن من بلغ فى الخشية الى حد الاشفاق وهو كمال الخشية كان فى نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ومن عقابه آجلا فكان فى نهاية الاحتراز عن المعاصى

الى جناب الحق وبعضها فى أسفل سافلين كأولئك الجهلة الذين هم كالانعام بل هم أضل سبيلا (وقومهما) يعنون بنى اسرائيل (لنا عابدون) أى خادمون منقادون لنا ٢٩٢ كالعبيد وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما الصلاة والسلام وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام فى لنا متعلقة بعابدون قدمت عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل نؤمن مؤكدة لانكار الايمان لهما بناء على زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنية من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وجهلهم بان مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة ما ذكر من النعوت العلية واحراز الملكات السنية جبلة واكتسابا (فكذبوهما) أى فتموا على تكذيبهما وأصروا واستكبروا استكبارا (فكانوا من المهلكين) بالغرق فى بحر قلزم (ولقد آتينا) أى بعد اهلاكهم وانجاء بنى اسرائيل من هلكتهم (موسى الكتاب) أى التوراة وحيث كان ايتاؤه عليه الصلاة والسلام اياها لارشاد قومه الى الحق كما هو شأن الكتب الالهية جعلوا كأنهم أوتوها فقيل (لعلهم يهتدون) أى الى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والاحكام وقيل أريد آتينا قوم موسى فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه كما فى قوله تعالى على خوف من فرعون وملئهم اى من آل فرعون وملئهم ولا سبيل الى عود الضمير الى فرعون وقومه لظهور أن التوراة انما نزلت بعد اغراقهم لبنى اسرائيل وأما الاستشهاد على ذلك بقوله

(الصفة الثانية) قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون واعلم أن آيات الله تعالى هى المخلوقات الدالة على وجوده والايمان بها هو التصديق بها والتصديق بها ان كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة وصاحب هذا التصديق لا يستحق المدح وان كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع فذلك مما لا يتوصل اليه الا بالنظر والفكر وصاحبه لابد وأن يصير عارفا بوجود الصانع وصفاته واذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الاقرار باللسان ظاهرا وذلك هو الايمان (الصفة الثالثة) قوله والذين هم بربهم لا يشركون وليس المراد منه الايمان بالتوحيد ونفى الشريك لله تعالى لان ذلك داخل فى قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون بل المراد منه نفى الشرك الخفى وهو أن يكون مخلصا فى العبادة لا يقدم عليها الا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله اعلم (الصفة الرابعة) قوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة معناه يعطون ما اعطوا فدخل فيه كل حق يلزم ايتاؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى كالزكاة والكفارة وغيرهما او من حقوق الآدميين كالودائع والديون وأصناف الانصاف والعدل وبين ان ذلك انما ينفع اذا فعلوه وقلوبهم وجلة لان من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره واخلاله بنقصان أو غيره فانه يكون لاجل ذلك الوجل مجتهدا فى ان يوفيها حقها فى الاداء وسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى فقال عليه الصلاة والسلام لا يا ابنة الصديق ولكن هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى واعلم ان ترتيب هذه الصفات فى نهاية الحسن لان الصفة الاولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغى (والصفة الثانية) دلت على ترك الرياء فى الطاعات (والصفة الثالثة) دلت على ان المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول اليها فان قيل أفتقولون ان قوله وقلوبهم وجلة يرجع الى يؤتون أو يرجع الى كل ما تقدم من الخصال قلنا بل الاولى أن يرجع الى الكل لان العطية ليست بذلك أولى من سائر الاعمال اذ المراد أن يؤدى ذلك على وجل من تقصيره فيكون مبالغا فى توفيته حقه فاما اذا قرئ والذين يأتون ما أتوا فالقول فيه أظهر اذ المراد بذلك أى شئ أتوه وفعلوه من تحرز عن معصية واقدام على ايمان وعمل فانهم يقدمون عليه مع الوجل ثم انه سبحانه بين علة ذلك الوجل وهى علمهم بانهم الى ربهم راجعون أى للمجازاة والمساءلة ونشر الصحف وتتبع الاعمال وان هناك لا تنفع الندامة فليس الا الحكم القاطع من جهة مالك الملك ثم انه سبحانه لما ذكر هذه الصفات للمؤمنين المخلصين قال بعده أولئك يسارعون فى الخيرات وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاخترام (والثانى) انهم يتعجلون فى الدنيا أنواع النفع ووجوه

الاكرام

تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى فمما لا سبيل اليه ضرورة أن ليس المراد بالقرون الاولى ما يتناول قوم فرعون بل من قبلهم من الامم المهلكة خاصة كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح ٢٩٣ وقوم لوط كما سيأتى فى سورة القصص (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) واية آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد نسب اليهما أو جعلنا ابن مريم آية بأن تكلم فى المهد فظهرت منه معجزات جمة وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين وهما كونه عليه الصلاة والسلام ابنها وكونها أمه عليه الصلاة والسلام للايذان من أول الامر بحيثية كونهما آية فان نسبته عليه الصلاة والسلام اليها مع أن النسب الى الآباء دالة على أن لا أب له أى جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمه التى ولدته خاصة من غير مشاركة الاب آية وتقديمه عليه الصلاة والسلام لاصالته فيما ذكر من كونه آية كما أن تقديم أمه فى قوله تعالى وجعلناها وابنها آية للعالمين لاصالتها فيما نسب اليها من الاحصان والنفخ (وآويناهما الى ربوة) أى أرض مرتفعة قيل هى ايلياء أرض بيت المقدس فانها مرتفعة وانها كبد الارض وأقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا على ما روى عن كعب وقيل دمشق وغوطتها وقيل فلسطين والرملة وقيل مصر فان قراها على الربا وقرئ بكسر الراء وضمها ورباوة بالكسر والضم (ذات قرار) مستقر من أرض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها وقيل ذات ثمار وزروع لاجلها يستقر فيها ساكنوها (ومعين) أى وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء اذا جرى وأصله الابعاد فى المشى أو من الماعون وهو النفع لانه نفاع او مفعول من عانه اذا أدركه

الاكرام كما قال فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين لانهم اذا سورع لهم بها فقد سارعوا فى نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقا للآية المتقدمة لان فيه اثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين وقرئ يسرعون فى الخيرات أما قوله وهم لها سابقون فالمعنى فاعلون السبق لاجلها أو سابقون الناس لاجلها أو وهم لها سابقون أى ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم فى الدنيا ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر والمعنى وهم لها كما يقال أنت لها وهى لك ثم قال سابقون أى وهم سابقون ﴿ قوله تعالى (ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون) اعلم أنه سبحانه لما ذكر كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر حكمين من أحكام أعمال العباد (فالاول) قوله ولا نكلف نفسا الا وسعها وفى الوسع قولان (أحدهما) انه الطاقة عن المفضل (والثانى) انه دون الطاقة وهو قول المعتزلة ومقاتل والضحاك والكلبى واحتجوا عليه بأن الوسع انما سمى وسعا لانه يتسع عليه فعله ولا يصعب ولا يضيق فبين أن أولئك المخلصين لم يكلفوا اكثر مما عملوا قال مقاتل من لم يستطع أن يصلى قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع جالسا فليوم ايماء لانا لا نكلف نفسا الا وسعها واستدلت المعتزلة به فى نفى تكليف ما لا يطاق وقد تقدم القول فيه (الثانى) قوله ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ونظيره قوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها واعلم انه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرب بما فيه كما يعرب وينطق الناطق اذا كان محقا فان قيل هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب اما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه فان أحالوه عليه فانهم يصدقونه فى كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد وان جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم انه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة فى ذلك الكتاب قلنا يفعل الله ما يشاء وعلى انه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة وأما قوله وهم لا يظلمون فنظيره قوله ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا فقالت المعتزلة الظلم اما ان يكون بالزيادة فى العقاب أو بالنقصان من الثواب أو بان يعذب على ما لم يعمل أو بان يكلفهم ما لا يطيقون فتكون الآية دالة على كون العبد موجد الفعل والا لكان تعذيبه عليه ظلما ودالة على انه سبحانه لا يكلف ما لا يطاق (والجواب) انه لما كلف أبا لهب أن يؤمن والايمان يقتضى تصديق الله تعالى فى كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه ان ابا لهب لا يؤمن فقد كلفه بان يؤمن بانه لا يؤمن فيلزمكم كل ما ذكرتموه وأما قوله تعالى بل قلوبهم فى غمرة من هذا ففيه قولان (أحدهما) انه راجع الى الكفار وهم الذين يليق بهم قوله بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولا يليق ذلك بالمؤمنين اذ المراد فى غمرة من هذا الذى بيناه فى القرآن أو من هذا الكتاب الذى ينطق

بالعين فانه لظهوره يدرك بالعيون ووصف ماؤها بذلك للايذان بكونه جامعا لفنون المنافع من الشرب وسقي ما يسقى من الحيوان
والنبات بغير كلفة والتنزه بمنظره المونق ٢٩٤ (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الاجمال
لما خوطب به كل رسول في عصره جيء
بها اثر حكاية ايواء عيسى عليه السلام
وأمه الى الربوة ايذانا بأن ترتيب
مبادي التنعم لم يكن من خصائصه
عليه السلام بل اباحة الطيبات
شرع قديم جرى عليه جميع الرسل
عليهم السلام ووصوا به أي وقلنا
لكل رسول كل من الطيبات
واعمل صالحا فعبر عن تلك الاوامر
المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة
الجمع عند الحكاية اجمالا للايجاز
وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه
الرهابنة من رفض الطيبات ما لا
يخفى وقيل حكاية لما ذكر لعيسى
عليه السلام وامه عند ايوائهما
الى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول
ما رزقا وقيل نداء وخطاب له والجمع
للتعظيم وعن الحسن ومجاهد
وقتادة والسدي والكلبي رحمهم
الله تعالى أنه خطاب لرسول الله
صلى الله عليه وسلم وحده على دأب
العرب في مخاطبة الواحد بلفظ
الجمع وفيه ابانة لفضله وقيامه مقام
الكل في حيازة كمالاتهم والطيبات
ما يستطاب ويستلذ من مباحات
المآكل والفواكه حسبما ينبئ
عنه سياق النظم الكريم فالامر
للترفيه (واعملوا صالحا) أي عملا
صالحا فانه المقصود منكم والنافع
عند ربكم (اني بما تعملون) من
الاعمال الظاهرة والباطنة (عليم)
فاجازيكم عليه (وان هذه)
استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور مسوق لبيان أن ملة الاسلام
والتوحيد مما أمر به كافة الرسل عليهم السلام والامم وانما اشير اليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحة والسداد

بالحق أو من هذا الذي هو وصف المشفقين ولهم أي لهؤلاء الكفار أعمال من دون ذلك أي
أعمال سوى ذلك أي سوى جهلهم وكفرهم ثم قال بعضهم أراد أعمالهم في الحال وقال
بعضهم بل أراد المستقبل وهذا أقرب لان قوله هم لها عاملون الى الاستقبال أقرب وانما
قال هم لها عاملون لانها مثبتة في علم الله تعالى وفي حكم الله وفي اللوح المحفوظ فوجب أن
يعملوها ليدخلوا بها النار لما سبق لهم من الله من الشقاوة (القول الثاني) وهو اختيار
أبي مسلم أن هذه الآيات من صفات المشفقين كأنه سبحانه قال بعد وصفهم ولا نكلف نفسا
الا وسعها ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم
لا يظلمون بل نوفر عليهم ثواب كل اعمالهم بل قلوبهم في غمرة من هذا هو أيضا وصف لهم
بالحيرة كأنه قال وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة
ولهم اعمال من دون ذلك أي لهم أيضا من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه اما اعمالا
قد عملوها في الماضي أو سيعملونها في المستقبل ثم انه سبحانه رجع بقوله حتى اذا أخذنا
مترفيهم بالعذاب الى وصف الكفار واعلم ان قول أبي مسلم أولى لانه اذا أمكن رد الكلام
الى ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أولى من رده الى ما بعد منه خصوصا وقد يرغب المرء
في فعل الخير بأن يذكر أن أعماله محفوظة كما قد يحذر بذلك من الشر وقد يوصف المرء لشدة
فكره في أمر آخرته بان قلبه في غمرة ويراد انه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله أو رده
وفي أنه هل أداه كما يجب أو قصر فان قيل فما المراد بقوله من هذا وهو اشارة الى ماذا قلنا هو
اشارة الى اشفاقهم ووجلهم مع انهما مستوليان على قلوبهم أما قوله تعالى حتى اذا أخذنا
مترفيهم بالعذاب فقال صاحب الكشاف حتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام
الجملة الشرطية واعلم انه لا شبهة ان الضمير في مترفيهم راجع الى من تقدم ذكره من الكفار
لان العذاب لا يليق الا بهم وفي هذا العذاب وجهان (احدهما) اراد بالعذاب ما نزل بهم
يوم بدر (والثاني) انه عذاب الآخرة ثم بين سبحانه ان المنعمين منهم اذا نزل بهم العذاب
يجأرون أي يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه ويقال لهم على وجه
التبكيت لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون ولا يدفع عنكم ما يريد انزاله بكم دل بذلك
سبحانه على انهم سينتهون يوم القيامة الى هذه الدرجة من الحسرة والندامة وهو كالباعث
لهم في الدنيا على ترك الكفر والاقدام على الايمان والطاعة فانهم الآن ينتفعون بذلك

قوله تعالى (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون مستكبرين به
سامرا تهجرون أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين أم لم يعرفوا رسولهم
فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع
الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم
معرضون أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين) اعلم انه سبحانه لما بين فيما
قبل انه لا ينصر أولئك الكفار أتبعه بعلة ذلك وهي انه متى تليت آيات الله عليهم أتوا

بامور

وانتظامها بسبب ذلك في سلك الامور المشاهدة (امتكم) أي ملتكم وشريعتكم أيها الرسل (أمة واحدة) أي ملة وشريعة
متحدة في أصول الشرائع التي لا تتبدل بتبدل الاعصار ٢٩٥ وقيل هذه اشارة الى الامم المؤمنة للرسل
والمعنى ان هذه جماعتكم جماعة
واحدة متفقة على الايمان
والتوحيد في العبادة (وأنا ربكم)
من غير أن يكون لي شريك في
الربوبية وضمير المخاطب فيه وفي
قوله تعالى (فاتقون) أي في شق
العصا والمخالفة بالاخلال بمواجب
ما ذكر من اختصاص الربوبية بي
للرسل والامم جميعا على أن الامر
في حق الرسل للتهييج والالهاب
وفي حق الامم للتحذير والايجاب
والفاء لترتيب الامر أو وجوب
الامتثال به على ما قبله من
اختصاص الربوبية به تعالى
واتحاد الامة فان كلا منهما
موجب للاتقاء حتما وقرئ وأن
هذه بفتح الهمزة على حذف اللام
أي ولان هذه أمتكم أمة واحدة
وأنا ربكم فاتقون اي ان تتقوا
فاتقون كما مر في قوله تعالى واياي
فارهبون وقيل على العطف على
ما أي اني عليم بان أمتكم أمة الخ
وقيل على حذف فعل عامل فيه
أي واعلموا أن هذه أمتكم الخ
وقرئ وان هذه على انها مخففة
من أن (فتقطعوا أمرهم) حكاية
لما ظهر من أمم الرسل بعدهم
من مخالفة الامر وشق العصا
والضمير لما دل عليه الامة من
أربابها أولها على التفسيرين
والفاء لترتيب عصيانهم على الامر
لزيادة تقبيح حالهم أي تقطعوا أمر
دينهم مع اتحاده وجعلوه قطعا متفرقة وأديانا مختلفة (بينهم زبرا) أي قطعا جمع زبور بمعنى الفرقة ويؤيده قراءة زبرا بفتح
الباء جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من واو تقطعوا أو مفعول ثان له فانه متضمن لمعنى جعلوا وقيل كتبا فيكون مفعولا ثانيا

بأمور ثلاثة (أحدها) انهم كانوا على اعقابهم ينكصون وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن
الحق كل التباعد وهو قوله فكنتم على اعقابكم تنكصون أي تنفرون عن تلك الآيات
وعمن يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع الى ورائه (وثانيها) قوله مستكبرين
به والهاء في به الى ماذا تعود فيه وجوه (أولها) الى البيت العتيق أو الحرم كانوا
يقولون لا يظهر علينا أحد لانا أهل الحرم والذي يسوغ هذا الاضمار شهرتهم
بالاستكبار بالبيت وان لم يكن لهم مفخرة الا انهم ولاته والقائمون به (وثانيها) المراد
مستكبرين بهذا التراجع والتباعد (وثالثها) ان تتعلق الباء بسامرا أي يسمرون
بذكر القرآن وبالطعن فيه وهذا هو الامر الثالث الذي يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم
وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا
وشعرا وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهجرون والسامر نحو الحاضر في الاطلاق
على الجمع وقرئ سمرا وسامرا يهجرون من أهجر في منطقه اذا أفحش والهجر بالفتح
الهذيان والهجر بالضم الفحش أو من هجر الذي هو مبالغة في هجر اذا هذى ثم انه سبحانه
لما وصف حالهم رد عليهم بان بين أن اقدامهم على هذه الامور لابد وان يكون لاحد
امور اربعة (أحدها) ان لا يتأملوا في دليل نبوته وهو المراد من قوله أفلا يتدبرون
القرآن فبين ان القول الذي هو القرآن كان معروفا لهم وقد مكنوا من التأمل فيه من
حيث كان مباينا لكلام العرب في الفصاحة ومبرأ عن التناقض في طول عمره ومن حيث
ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية فلم لا يتدبرون فيه ليتركوا
الباطل ويرجعوا الى الحق (وثانيها) ان يعتقدوا ان مجيء الرسل أمر على خلاف العادة
وهو المراد من قوله أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين وذلك لانهم عرفوا بالتواتر أن الرسل
كانت تتواتر على الامم وتظهر المعجزات عليها وكانت الامم بين مصدق ناج وبين مكذب
هالك بعذاب الاستئصال أفما دعاهم ذلك الى تصديق الرسول (وثالثها) أن لا يكونوا
عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله أم لم يعرفوا رسولهم
فهم له منكرون نبه سبحانه بذلك على انهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه
في نهاية الامانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والاخلاق الذميمة فكيف كذبوه
بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالامين (ورابعها) ان يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا
انما حمله على ادعاء الرسالة جنونه وهو المراد من قوله أم يقولون به جنة وهذا أيضا
ظاهر الفساد لانهم كانوا يعلمون بالضرورة انه اعقل الناس والمجنون كيف يمكنه ان
يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة ولقد كان من المبغضين له عليه
السلام من رماه بذلك وفيه وجهان (أحدهما) انهم نسبوه الى ذلك من حيث كان
يطمع في انقيادهم له وكان ذلك من أبعد الامور عندهم فنسبوه الى الجنون لذلك
(والثاني) انهم قالوا ذلك ايهاما لعوامهم لكي لا ينقادوا له فاوردوا ذلك مورد الاستحقار

أرسلا من امرهم على تقدير المضاف أى مثل زبر وقرئ بتخفيف الباء كرسل فى رسل (كل حزب) من أولئك المتحزبين (بما لديهم) من الدين الذى اختاروه (فرحون)

معجبون معتقدون أنه الحق (فذرهم فى غمرتهم) شبه ماهم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها لاعبون بها وقرئ غمراتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب الامر بالترك على ماقبله من كونهم فرحين بما لديهم فان انهماكهم فيما هم فيه واصرارهم عليه من مخايل كونهم مطبوعا على قلوبهم أى اتركهم على حالهم (حتى حين) هو حين قتلهم او موتهم على الكفر أو عذابهم فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تاخيره وفى التنكير والابهام مالا يخفى من التهويل (أيحسبون أنما نمدهم به) أى نعطيهم اياه ونجعله مددا لهم فما موصولة وقوله تعالى (من مال وبنين) بيان لها وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه قد مر وجهه فى سورة الكهف لاخبر لأن وانما الخبر قوله تعالى (نسارع لهم فى الخيرات) على حذف الراجع الى الاسم أى أيحسبون أن الذى نمدهم به من المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم واكرامهم على أن الهمزة لانكار الواقع واستقباحه وقوله تعالى (بل لايشعرون) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى كلا لا نفعل ذلك بل هم لايشعرون بشئ أصلا كالبهائم لافطنة لهم ولاشعور ليتأملوا و يعرفوا أن ذلك الامداد استدراج لهم واستجرار الى زيادة الاثم وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات وقرئ يمدهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل أن يكون فيهما

الطريق

لم ثم انه سبحانه بعد أن عد هذه الوجوه ونبه على فسادها قال بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون من حيث تمسكوا بالتقليد ومن حيث علموا انهم لو اقروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لزالت مناصبهم ولاختلت رياساتهم فلذلك كرهوه فان قيل قوله وأكثرهم فيه دليل على ان اقلهم لايكرهون الحق قلنا كان فيهم من يترك الايمان أنفة من توبيخ قومه وان يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن أبى طالب ثم بين سبحانه ان الحق لايتبع الهوى بل الواجب على المكلف أن يطرح الهوى و يتبع الحق فبين سبحانه ان اتباع الهوى يؤدى الى الفساد العظيم فقال ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن وفى تفسيره وجوه (الاول) ان القوم كانوا يرون ان الحق فى اتخاذ آلهة مع الله تعالى لكن لو صح ذلك لوقع الفساد فى السموات والارض على ما قررناه فى دليل التمانع فى قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (والثانى) ان أهواءهم فى عبادة الاوثان وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وهما منشأ المفسدة والحق هو الاسلام فلو اتبع الاسلام قولهم لعلم الله حصول المفاسد عند بقاء هذا العالم وذلك يقتضى تخريب العالم وافنائه (والثالث) ان آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق أهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم عن القفال أما قوله بل أتيناهم بذكرهم فقيل انه القرآن والادلة وقيل بل شرفهم وفخرهم بالرسول وكلا القولين متقارب لان فى مجيء الرسول بيان الادلة وفى مجيء الادلة بيان الرسول فأحدهما مقرون بالآخر وقيل الذكر هو الوعظ والتحذير وقيل هو الذى كانوا يتمنونه ويقولون لو أن عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين وقرئ بذكراهم ثم بين سبحانه انه عليه الصلاة والسلام لايطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا للنفرة فقال أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وقرئ خراجا قال أبو عمرو ابن العلاء الخرج ماتبرعت به والخراج مالزمك أداؤه والوجه ان الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعنى أم تسألهم على هدايتهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير فنبه سبحانه بذلك على ان هذه التهمة بعيدة عنه فلا يجوز أن ينفروا عن قبول قوله لاجلها فنبه سبحانه بهذه الآيات على انهم غير معذورين البتة وانهم محجوجون من جميع الوجوه قال الجبائى دل قوله تعالى وهو خير الرازقين على ان أحدا من العباد لا يقدر على مثل نعمه ورزقه ولا يساويه فى الافضال على عباده ودل أيضا على ان العباد قد يرزق بعضهم بعضا ولولا ذلك لما جاز أن يقول وهو خير الرازقين ﴿ قوله تعالى

(وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما زيف طريقة القوم أتبعه ببيان صحة ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم لان مادل الدليل على صحته فهو فى باب الاستقامة أبلغ من

ضمير المقدم وقرئ يسارع مبنيا للمفعول (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) استئناف مسوق لبيان من له المسارعة فى الخيرات اثر اقناط الكفار عنها وابطال حسبانهم الكاذب أى من خوف عذابه

حذرون (والذين هم بآيات ربهم) المنصوبة والمنزلة (يؤمنون) بتصديق مدلولها (والذين هم بربهم لايشركون) شركا جليا ولاخفيا ولذلك أخر عن الايمان بالآيات والتعرض لعنوان الربوبية فى المواقع الثلاثة للاشعار بعليتها للاشفاق والايمان وعدم الاشراك (والذين يؤتون ما آتوا) أى يعطون ما أعطوه من الصدقات وقرئ يأتون ما أتوا أى يفعلون مافعلوه من الطاعات وأياما كان فصيغة الماضى فى الصلة الثانية للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع فى الاولى للدلالة على الاستمرار (وقلوبهم وجلة) حال من فاعل يؤتون أو يأتون أى يؤتون ما آتوه أو يفعلون من العبادات مافعلوه والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف (أنهم الى ربهم راجعون) أى من أن رجوعهم اليه عز وجل على أن مناط الوجل أن لايقبل منهم ذلك وأن لايقع على الوجه اللائق فيؤاخذوا به حينئذ لا لمجرد رجوعهم اليه تعالى وقيل لان مرجعهم اليه تعالى والموصولات الاربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر فى حيز صلاتها من الاوصاف الاربعة لا عن طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الاوصاف المذكورة كأنه قيل ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون وبآيات ربهم يؤمنون الخ وانما كرر الموصول ايذانا باستقلال كل واحد من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها (أولئك) اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بها وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد

الطريق المستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون أى لعادلون عن هذا الطريق لان طريق الاستقامة واحدة وما يخالفه فكثير اما قوله تعالى ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر ففيه وجوه (أحدها) المراد ضرر الجوع وسائر مضار الدنيا (وثانيها) المراد ضرر القتل والسبى (وثالثها) انه ضرر الآخرة وعذابها فبين انهم قد بلغوا فى التمرد والعناد المبلغ الذى لا مرجع فيه الى دار الدنيا وانهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه لشدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر أما قوله تعالى للجوا فى طغيانهم يعمهون فالمعنى لتمادوا فى ضلالهم وهم متحيرون ﴿ قوله تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون وهو الذى ذرأكم فى الارض واليه تحشرون وهو الذى يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون) اختلفوا فى قوله ولقد أخذناهم بالعذاب على وجوه (أحدها) انه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفى ولحق باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجيف فجاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين ثم قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فادع الله يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية والمعنى أخذناهم بالجوع فما أطاعوا (وثانيها) هو الذى نالهم يوم بدر من القتل والاسر يعنى ان ذلك مع شدته مادعاهم الى الايمان عن الاصم (وثالثها) المراد من عذب من الامم الخوالى فما استكانوا أى مشركو العرب لربهم عن الحسن (ورابعها) ان شدة الدنيا أقرب الى المكلف من شدة الآخرة فاذا لم تؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة كذلك وهذا يدل على انهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه أما قوله تعالى حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ففيه وجهان (أحدهما) حتى اذا فتحنا عليهم باب الجوع الذى هو أشد من القتل والاسر (والثانى) اذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون والابلاس اليأس من كل خير وقيل السكوت مع التحير وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما وزن استكان (الجواب) استفعل من الكون أى انتقل من كون الى كون كما قيل استحال اذا انتقل من حال الى حال ويجوز أن يكون افتعل من السكون اشبعت فتحة عينه (السؤال الثانى) لم جاء استكانوا بلفظ الماضى ويتضرعون بلفظ المستقبل (الجواب) لان المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة وما من عادة هؤلاء أن يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد وقرئ فتحنا (السؤال الثالث) العطف لا يحسن الا مع المجانسة فأى مناسبة بين قوله وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار وبين ماقبله (الجواب) كأنه سبحانه لما بين مبالغة اولئك الكفار فى الاعراض عن سماع الادلة ورؤية العبر والتأمل فى الحقائق قال للمؤمنين وهو الذى اعطاكم هذه الاشياء ووقفكم عليها تنبيها على ان من لم يستعمل

وتبيتهم في الفضل أي أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون غيرهم (يسارعون في الخيرات) أي في نيل الخيرات التي من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الاعمال الصالحة كما في قوله تعالى فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وقوله تعالى وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين فقد أثبت لهم ما نفي عن أضدادهم خلا انه غير الاسلوب حيث لم يقل أولئك نسارع لهم في الخيرات بل أسند المسارعة اليهم ايماء الى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم وايثار كلمة في على كلمة الى للايذان بانهم متقلبون في فنون الخيرات لا أنهم خارجون عنها متوجهون اليها بطريق المسارعة كما في قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الآية (وهم لها سابقون) أي اياها سابقون واللام لتقوية العمل كما في قوله تعالى هم لها عاملون أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا وقيل المراد بالخيرات الطاعات والمعنى يرغبون في الطاعات والعبادات أشد الرغبة وهم لاجلها فاعلون السبق أو لاجلها سابقون الناس والاول هو الاولى (ولا نكلف نفسا الا وسعها) جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي الى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة أي عادتنا جارية على أن لا نكلف نفسا من النفوس الا ما في وسعها على أن المراد استمرار النفي بمعونة المقام لا نفي الاستمرار كما مر مرارا أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده الا ما في وسعهم فان لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا

هذه الاعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله تنبيها على ان حرمان أولئك الكفار وجدان هؤلاء المؤمنين ليس الا من الله واعلم انه سبحانه بين عظيم نعمه من وجوه (أحدها) باعطاء السمع والابصار والافئدة وخص هذه الثلاثة بالذكر لان الاستدلال موقوف عليها ثم بين انه يقل منهم الشاكرون قال ابو مسلم وليس المراد ان لهم شكرا وان قل لكنه كما يقال للكفور الجاحد للنعمة ما أقل شكر فلان (وثانيها) قوله وهو الذي ذرأكم في الارض قيل في التفسير خلقكم قال أبو مسلم ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله تعالى ذرية من حملنا مع نوح فنقول هو الذي جعلكم في الارض متناسلين ويحشركم يوم القيامة الى دار لا حاكم فيها سواه فجعل حشرهم الى ذلك الموضع حشرا اليه لا بمعنى المكان (وثالثها) قوله وهو الذي يحيي ويميت أي نعمة الحياة وان كانت من أعظم النعم فهي منقطعة وانه سبحانه وان أنعم بها فالمقصود منها الانتقال الى دار الثواب (ورابعها) قوله وله اختلاف الليل والنهار ووجه النعمة بذلك معلوم ثم انه سبحانه حذر من ترك النظر في هذه الامور فقال أفلا تعقلون لان ذلك دلالة الزجر والتهديد وقرئ أفلا يعقلون قوله تعالى (بل قالوا مثل ما قال الاولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين) اعلم انه سبحانه لما أوضح القول في دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد فقال بل قالوا مثل ما قال الاولون في انكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على انهم انما أنكروا ذلك تقليدا للاولين وذلك يدل على فساد القول بالتقليد ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين (أحدهما) قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون وهو مشهور (وثانيهما) قولهم لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل كأنهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه عليه الصلاة والسلام فقد وقع قديما من سائر الانبياء ثم لم يوجد مع طول العهد فظنوا ان الاعادة تكون في دار الدنيا ثم قالوا لما كان كذلك فهو من أساطير الاولين والاساطير جمع اسطار والاسطار جمع سطر أي ما كتبه الاولون مما لا حقيقة له وجمع اسطورة أوفق قوله تعالى (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون الله قل فأنى تسحرون بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون) اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكري الاعادة وان يكون المقصود الرد على عبدة الاوثان وذلك لان القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا نعبد الاصنام لتقربنا الى الله زلفى ثم انه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة (أحدها) قوله قل لمن الارض ومن فيها ووجه الاستدلال به على الاعادة انه تعالى لما كان خالقا للارض ولمن فيها

وسعهم قال مقاتل من لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع القعود فليوم ايماء وقوله تعالى (ولدينا كتاب) الخ تتمة لما قبله ببيان أحوال ما كلفوه من الاعمال وأحكامها المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب والمراد بالكتاب صحائف الاعمال التي يقرؤنها عند الحساب حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ينطق بالحق) كقوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون أي عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل احد على ما هي عليه أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعا لأنه أثبت فيه أعمال الاولين وأهمل أعمال الآخرين ففيه قطع معذرتهم أيضا وقوله بالحق متعلق بينطق أي يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا ويبينه للناظر كما يبينه النطق ويظهره للسامع فيظهر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها ويرتب عليها أجزيتها ان خيرا فخير وان شرا فشر وقوله تعالى (وهم لا يظلمون) بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء اثر بيان لطفه في التكليف وكتب الاعمال أي لا يظلمون في الجزاء بنقص ثواب أو بزيادة عذاب بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلفوها ونطقت بها صحائفها بالحق وقد جوز أن يكون تقريرا لما قبله من التكليف وكتب الاعمال أي لا يظلمون بتكليف ما ليس في وسعهم ولا بعدم كتب بعض أعمالهم التي من جملتها أعمال المقتصدين بناء على قصورها عن درجة أعمال السابقين بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها والتعبير عما ذكر من الامور بالظلم مع أن شيأ منها ليس بظلم على ما تقرر من أن الاعمال الصالحة لا توجب أصل الثواب فضلا عن ايجاب مرتبة معينة منه حتى تعد الاثابة بما دونها نقصا وكذلك الاعمال السيئة لا توجب درجة معينة

من الاحياء وخالقا لحياتهم وقدرتهم وغيرها فوجب أن يكون قادرا على أن يعيدهم بعد ان أفناهم ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الاوثان من حيث ان عبادة من خلقكم وخلق الارض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع وقوله أفلا تذكرون معناه الترغيب في التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه (وثانيها) قوله من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ووجه الاستدلال على الامرين كما تقدم وانما قال أفلا تتقون تنبيها على ان اتقاء عذاب الله لا يحصل الا بترك عبادة الاوثان والاعتراف بجواز الاعادة (وثالثها) قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شئ اعلم انه سبحانه لما ذكر الارض أولا والسماء ثانيا عمم الحكم ههنا فقال من بيده ملكوت كل شئ ويدخل في الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة وقوله وهو يجير ولا يجار عليه يقال اجرت فلانا على فلان اذا أغثته منه ومنعته يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحدا أما قوله تعالى فأنى تسحرون فالمعنى أنى تخدعون عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى ثم بين تعالى بقوله بل أتيناهم بالحق انه قد بالغ في الحجاج عليهم بهذه الآيات وغيرها وهم مع ذلك كاذبون وذلك كالتوعد والتهديد وقرئ أتيتهم وأتيتهم بالضم والفتح وههنا سؤالات (السؤال الاول) قرئ قل لله في الجواب الاول باللام لا غير وقرئ الله في الاخيرين بغير اللام في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام وباللام في مصاحف أهل البصرة فما الفرق (الجواب) لا فرق في المعنى لان قولك من ربه ولمن هو في معنى واحد (السؤال الثاني) كيف قال ان كنتم تعلمون ثم حكى عنهم سيقولون الله وفيه تناقض (الجواب) لا تناقض لان قوله ان كنتم تعلمون لا ينفي علمهم بذلك وقد يقال مثل ذلك في الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بما يورد من ذلك قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون قل رب اما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) اعلم انه سبحانه ادعى أمرين (أحدهما) قوله ما اتخذ الله من ولد وهو كالتنبيه على ان ذلك من قول هؤلاء الكفار فان جماعة منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله (والثاني) قوله وما كان معه من اله وهو قولهم باتخاذ الاصنام آلهة ويحتمل ان يريد به ابطال قول النصارى والثنوية ثم انه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض والمعنى لانفرد على كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا عن ملك الآخر ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك والتغالب فاعلموا أنه اله واحد بيده ملكوت كل شئ فان قيل اذا لا يدخل الا على كلام

هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله لاذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل قلنا الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله وما كان معه من اله عليه ثم انه سبحانه نزه نفسه عن قولهم بقوله سبحان الله عما يصفون من اثبات الولد والشريك أما قوله عالم الغيب والشهادة فقرئ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدا محذوف والمعنى انه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة فغيره وان علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب والشهادة التي يعلمها لا يتكامل بها النفع الا مع العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم فلذلك قال فتعالى عما يشركون ثم أمره سبحانه بالانقطاع اليه وان يدعوه بقوله رب اما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين قال صاحب الكشاف ما والنون مؤكدتان أي ان كان ولا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة فلا تجعلني قرينا لهم ولا تعذبني بعذابهم فان قيل كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم قلنا يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم انه يفعله وان يستعيذ به مما علم انه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه وما أحسن قول الحسن في قول الصديق وليتكم ولست بخيركم مع الله كان يعلم انه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما ذكر رب مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة في التضرع أما قوله تعالى وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ففيه قولان (أحدهما) انهم كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم ان الله قادر على انجاز ما وعد ويحتمل عذابا في الدنيا مؤخرا عن أيامه عليه السلام فلذلك قال بعضهم هو في أهل البغي وبعضهم في الكفار الذين قوتلوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم (والثاني) ان المراد عذاب الآخرة أما قوله ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون فالمراد منه ان الاولى به عليه السلام أن يعامل به الكفار فأمر باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الاذى وان يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الادلة على أحسن الوجوه وبين له انه اعلم بحالهم منه عليه السلام وانه سبحانه لما لم يقطع نعمه عنهم فينبغي أن يكون هو عليه السلام مواظبا على هذه الطريقة قال صاحب الكشاف قوله ادفع بالتي هي أحسن السيئة أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل والمعنى الصفح عن اساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان حتى اذا اجتمع الصفح والاحسان وبذل الطاقة فيه كانت حسنة مضاعفة بازاء السيئة وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها ما لم تؤد الى نقصان دين أو مروءة ۞ قوله تعالى

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) اعلم انه سبحانه لما أدب رسوله بقوله ادفع بالتي هي أحسن السيئة أتبعه بما به يقوى على ذلك وهو الاستعاذة بالله من أمرين (أحدهما) من همزات

من العذاب حتى يعد التعذيب بما فوقها زيادة وكذا التكليف ما في الوسع وكتب الاعمال لبيان ما يجب عليه سبحانه حتى يعد تركها ما ظلما الكمال تنزيه ساحة السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتها باسمه وقوله تعالى (بل قلوبهم في غمرة من هذا) اضراب عما قبله والضمير للكفرة لا للكل كما قبله أي بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها من هذا الذي بين في القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق بالحق ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤس الاشهاد فيجزون بها كما ينبئ عنه ما سيأتي من قوله تعالى قد كانت آياتي تتلى عليكم الخ وقيل عما عليه أولئك الموصوفون بالاعمال الصالحة (ولهم أعمال) سيئة كثيرة (من دون ذلك) الذي ذكر من كون قلوبهم في غفلة عظيمة مما ذكر وهي فنون كفرهم ومعاصيهم التي من جملتها ما سيأتي من طعنهم في القرآن حسبما ينبئ عنه قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون وقيل متخطية لما وصف به المؤمنون من الاعمال الصالحة المذكورة وفيه انه لا مزية في وصف أعمالهم الخبيثة بالتخطي للاعمال الحسنة للمؤمنين وقيل متخطية عما هم عليه من الشرك ولا يخفى بعده لعدم جريان ذكره (هم لها عاملون) مستمرون عليها معتادون فعلها ضارون بها لا يكادون يبرحونها (حتى اذا أخذنا مترفيهم) أي متنعميهم وهم الذين أمدهم الله تعالى بما ذكر من المال والبنين وحتى مع كونها غاية لاعمالهم المذكورة مبتدأ لما بعدها من مضمون الشرطية أي لا يزالون يعملون أعمالهم الى حيث اذا أخذنا رؤساءهم (بالعذاب) قيل هو القتل والاسر يوم بدر وقيل هو الجوع الذي أصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله اللهم اشدد وطأتك على

الشياطين

الشياطين والهمزات جمع الهمزة وهو الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والاز ومنه مهماز الرائض وهمزاته هو كيده بالوسوسة ويكون ذلك منه في الرسول بوجهين (أحدهما) بالوسوسة والآخر بان يبعث أعداءه على ايذائه وكذلك القول في المؤمنين لان الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين ومعلوم ان من ينقطع الى الله تعالى ويسأله أن يعيذه من الشيطان فانه يجب أن يكون متذكرا متيقظا فيما يأتي ويذر فيكون نفس هذا الانقطاع الى الله تعالى داعية الى التمسك بالطاعة وزاجرا عن المعصية قال الحسن كان عليه السلام يقول بعد استفتاح الصلاة لا اله الا الله ثلاثا الله أكبر ثلاثا اللهم اني أعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه ونفخه فقيل يا رسول الله وما همزه قال الموتة التي تأخذ ابن آدم أي الجنون الذي يأخذ ابن آدم قيل فما نفثه قال الشعر قيل فما نفخه قال الكبر (وثانيها) قوله وأعوذ بك رب أن يحضرون وفيه وجهان (أحدهما) أن يحضرون عند قراءة القرآن لكي يكون متذكرا فيقل سهوه وقال آخرون بل استعاذ بالله من نفس حضورهم لانه الداعي الى وسوستهم كما يقول المرء أعوذ بالله من خصومتك بل أعوذ بالله من لقائك وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اشتكى اليه رجل ارقا يجده فقال اذا أردت النوم فقل أعوذ بالله وبكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون أما قوله حتى اذا جاء أحدهم الموت ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف حتى متعلق بيصفون أي لا يزالون على سوء الذكر الى هذا الوقت والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للاغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان ان يستزله عن الحلم والله أعلم (المسئلة الثانية) اختلفوا في قوله حتى اذا جاء أحدهم الموت فالاكثرون على انه راجع الى الكفار وقال الضحاك كنت جالسا عند ابن عباس فقال من لم يزك ولم يحج سأل الرجعة عند الموت فقال واحد انما يسأل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضي الله عنهما أنا أقرأ عليك به قرآنا وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حضر الانسان الموت جمع كل شيء كان يمنعه من حقه بين يديه فعنده يقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت والاقرب هو الاول اذا عرف المؤمن منزلته في الجنة فاذا شاهدها لا يتمنى أكثر منها ولولا ذلك لكان أدونهم ثوابا يغتم بفقد ما يفقد من منزلة غيره وأما ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من قوله وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فهو اخبار عن حال الحياة في الدنيا لا عن حال الثواب فلا يلزم على ما ذكرنا (المسئلة الثالثة) اختلفوا في وقت مسئلة الرجعة فالاكثرون على انه يسأل في حال المعاينة لانه عندها يضطر الى معرفة الله تعالى والى انه كان عاصيا ويصير ملجأ الى أنه لا يفعل القبيح بان يعلمه الله تعالى انه لو رامه لمنع منه ومن هذا حاله يصير كالممنوع من القبائح بهذا الالجاء فعند ذلك يسأل الرجعة ويقول رب

مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والاولاد والحق أنه العذاب الاخروي اذ هو الذي يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والاقناط عن النصر وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون فان المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والاسر حتما واما عذاب الجوع فان أبا سفيان وان تضرع فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لم يرد عليه بالاقناط حيث روي أنه عليه الصلاة والسلام قد دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك (اذا هم يجأرون) أي فاجؤا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل كقوله تعالى فاليه تجأرون وهو جواب الشرط وتخصيص مترفيهم بما ذكر من الاخذ بالعذاب ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم أيضا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم وكون ذلك أشق عليهم ولانهم مع كونهم ممتنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم حين لقوا ما لقوا من الحالة الفظيعة فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم (لا تجأروا اليوم) على اضمار القول مسوقا لردهم وتبكيتهم واقناطهم مما علقوا به أطماعهم الفارغة من الاغاثة والاعانة من جهته تعالى وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله والايذان بتفويتهم وقت الجؤار وقد جوز كونه جواب الشرط وأنت خبير بان المقصود الاصلي في الجملة الشرطية هو الجواب فيؤدي ذلك الى أن يكون مفاجأتهم الى الجؤار غير مقصود أصلي وقوله تعالى (انكم منا لا تنصرون) تعليل للنهي عن الجؤار ببيان عدم افادته ونفعه أي لا يلحقكم من جهتنا نصرة تنجيكم مما دهمكم وقيل لا تغاثون

ولا تمنعون منا ولا يساعده سياق النظم الكريم لان جؤارهم ليس الى غيره تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله
ولا سياقه فان قوله تعالى (قد كانت اياتى تتلى عليكم) ٣٠٢ الخ صريح فى أنه تعليل لما ذكرنا من عدم لحوق
النصر من جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفى متوهما من الغير لعلل بعجزه وذله أو بعزة الله تعالى وقوته أى قد كانت آياتى تتلى عليكم فى الدنيا (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى تعرضون عن سماعها أشد الاعراض فضلا عن تصديقها والعمل بها والنكوص الرجوع قهقرى (مستكبرين به) أى بالبيت الحرام أو بالحرم والاضمار قبل الذكر لاشتهار استكبارهم وافتخارهم بانهم خدامه وقوامه أو بكتابى الذى عبر عنه بآياتى على تضمين الاستكبار معنى التكذيب أو لان استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه ويجوز أن تتعلق الباء بقوله تعالى (سامرا) أى تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا والسامر كالحاضر فى الاطلاق على الجمع وقيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل وقرئ سمرا وسمارا وأن تتعلق بقوله تعالى (تهجرون) من الهجر بالفتح بمعنى الهذيان أو الترك أى تهذون فى شان القرآن أو تتركونه أو من الهجر بالضم وهو الفحش ويؤيده قراءة تهجرون من أهجر فى منطقه اذا فحش فيه وقرئ تهجرون من
هجر الذى هو مبالغة فى هجر اذا هذى (أفلم يدبروا القول) الهمزة لانكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من اعجاز وحده ·

ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت وقال آخرون بل يقول ذلك عند معاينة النار فى الآخرة ولعل هذا القائل انما ترك ظاهر هذه الآية لما أخبر الله تعالى فى كتابه عن أهل النار فى الآخرة انهم يسألون الرجعة لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة فى حال المعاينة والله تعالى يقول حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون فعلق قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة فلا وجه لترك هذا الظاهر (المسألة الرابعة) اختلفوا فى قوله سبحانه وتعالى ارجعون من المراد به فقال بعضهم الملائكة الذين يقبضون الارواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع وقال آخرون بل المراد هو الله تعالى لان قوله رب بمنزلة أن يقول يا رب وانما ذكر بلفظ الجمع للتعظيم كما يخاطب العظيم بلفظه فيقول فعلنا وصنعنا وقال الشاعر ● فان شئت حرمت النساء سواكم ● ومن يقول بالاول يجعل ذكر الرب للقسم فكأنه عند المعاينة قال بحق الرب ارجعون وههنا سؤالات (السؤال الاول) كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحة الدين بالضرورة ومن الدين ان لا رجعة (الجواب) انه وان كان كذلك فلا يمتنع ان يسألوه لان الاستعانة بهذا الجنس من المسألة تحسن وان علم انه لا يقع فأما ارادته للرجعة فلا يمتنع أيضا على سبيل ما يفعله المتمنى (السؤال الثانى) ما معنى قوله لعلى أعمل صالحا أفيجوز أن يسأل الرجعة مع الشك (الجواب) ليس المراد بلعل الشك فانه فى هذا الوقت باذل للجهد فى العزم على الطاعة ان أعطى ما سأل بل هو مثل من قصر فى حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول مكنونى من التدارك لعلى أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه جازما بانه سيتدارك ويحتمل أيضا ان الامر المستقبل اذا لم يعرفوه أوردوا الكلام الموضوع للترجى والظن دون اليقين فقد قال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (السؤال الثالث) ما المراد بقوله فيما تركت (الجواب) قال بعضهم فيما خلفت من المال ليصير عند الرجعة مؤديا لحق الله تعالى منه والمعقول من قوله تركت التركة وقال آخرون بل المراد اعمل صالحا فيما قصرت فيدخل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق وهذا أقرب كأنهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه ويطيعوا فى كل ما عصوا (السؤال الرابع) ما المراد بقوله كلا الجواب فيه قولان (أحدهما) انه كالجواب لهم فى المنع مما طلبوا كما يقال لطالب الامر المستبعد هيهات روى انه عليه السلام قال لعائشة رضى الله عنها اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى دار الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان لا بل قدوما على الله وأما الكافر فيقال له نرجعك فيقول ارجعون فيقال له الى أى شئ ترغب الى جمع المال أو غرس الغراس أو بناء البنيان أو شق الانهار فيقول لعلى أعمل صالحا فيما تركت فيقول الجبار كلا (الثانى) يحتمل أن يكون على وجه الاخبار بانهم يقولون ذلك وان هذا الخبر حق فكأنه قال حقا انها كلمة هو قائلها والاقرب الاول أما قوله انها كلمة هو قائلها ففيه وجهان (الاول) انه لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه (الثانى) انه قائلها

النظم وصحة المدلول والاخبار عن الغيب انه الحق من ربهم فيؤمنوا به فضلا عما فعلوا فى شانه من القبائح وأم فى قوله تعالى
(أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين) منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب ٣٠٣ والانتقال عن التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ
بآخر والهمزة لانكار الوقوع لا لانكار الواقع أى بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الاولين حتى استبدعوه واستبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال يعنى أن مجىء الكتب من جهته تعالى الى الرسل عليهم السلام سنة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنى انكاره وأن مجىء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه وقيل أم جاءهم من الأمن من عذابه تعالى ما لم يأت آباءهم الاولين كاسمعيل عليه السلام وأعقابه من عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقس والحرث ابن كعب وأسد بن خزيمة وتميم ابن مرة وتبع وضبة بن أد فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه (أم لم يعرفوا رسولهم) اضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر والهمزة لانكار الوقوع أيضا أى بل ألم يعرفوه عليه السلام بالامانة والصدق وحسن الاخلاق وكمال العلم مع عدم التعلم من أحد وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالانبياء عليهم السلام (فهم له منكرون) أى جاحدون بنبوته فجحودهم بها مترتب على عدم معرفتهم بشانه عليه السلام ومن ضرورة انتفاء المبنى بطلان ما بنى عليه أى فهم غير عارفين له عليه السلام فهو تبكيت لما قبله (أم
يقولون به جنة) انتقال الى توبيخ آخر والهمزة لانكار الواقع كالاولى أى بل أيقولون به جنة أى جنون مع أنه أرجح الناس عقلا وأثقبهم ذهنا وأتقنهم رأيا وأوفرهم رزانة ولقد روعى فى هذه التوبيخات الاربعة التى اثنان منها متعلقان بالقرآن

وحده ولا يجاب اليها ولا يسمع منه أما قوله تعالى ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون فالبرزخ هو الحاجز والمانع كقوله فى البحرين بينهما برزخ لا يبغيان أى فهؤلاء صائرون الى حالة مانعة من التلاقى حاجزة عن الاجتماع وذلك هو الموت وليس المعنى انهم يرجعون يوم البعث انما هو اقناط كلى لما علم انه لا رجعة يوم البعث الا الى الآخرة ۞ قوله تعالى

(فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) اعلم انه سبحانه لما قال ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ذكر أحوال ذلك اليوم فقال فاذا نفخ فى الصور وفيه ثلاثة أقوال (أحدها) ان الصور آلة اذا نفخ فيها ظهر صوت عظيم جعله الله تعالى علامة لخراب الدنيا ولاعادة الاموات روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قرن ينفخ فيه (وثانيها) ان المراد من الصور مجموع الصور والمعنى فاذا نفخ فى الصور أرواحها وهو قول الحسن فكان يقرأ بفتح الواو والفتح والكسر عن أبى رزين وهو حجة لمن فسر الصور بجمع صورة (وثالثها) ان النفخ فى الصور استعارة والمراد منه البعث والحشر والاول أولى للخبر وفى قوله ثم نفخ فيه أخرى دلالة على انه ليس المراد نفخ الروح والاحياء لان ذلك لا يتكرر وأما قوله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن المعلوم انه سبحانه اذا أعادهم فالانساب ثابتة لان المعاد هو الولد والوالد فلا يجوز أن يكون المراد نفى النسب فى الحقيقة بل المراد نفى حكمه وذلك من وجوه (أحدها) ان من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم كما يقال فى الدنيا اسئلك بالله والرحم أن تفعل كذا فنفى سبحانه ذلك من حيث ان كل أحد من أهل النار يكون مشغولا بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات الى النسب وهكذا الحال فى الدنيا لان الرجل متى وقع فى الامر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده (وثانيها) ان من حق النسب أن يحصل به التفاخر فى الدنيا وان يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض وفى الآخرة لا يتفرغون لذلك (وثالثها) ان يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرئ مشغول بنفسه عن بنيه وأخيه وفصيلته التى تؤويه فكيف بسائر الامور قال ابن مسعود رضى الله عنه يؤخذ العبد والامة يوم القيامة على رؤس الاشهاد وينادى مناد ألا ان هذا فلان فمن له عليه حق فليأت الى حقه فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حق على أمها أو أختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وعن قتادة لا شئ أبغض الى الانسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شئ ثم تلا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وعن الشعبى قال قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله أما نتعارف يوم القيامة أسمع الله تعالى يقول فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فقال عليه الصلاة والسلام ثلاث مواطن تذهل فيها كل نفس حين يرمى الى كل انسان كتابه وعند الموازين وعلى

والباقيان به عليه السلام الترقى من الادنى الى الاعلى حيث وبخوا أولا بعدم التدبر وذلك يتحقق مع كون القول غير متعرض له
بوجه من الوجوه ثم وبخوا بشئ لو اتصف به القول لكان سببا لعدم تصديقهم به ثم وبخوا بما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام
من عدم معرفتهم به عليه الصلاة والسلام ٣٠٤ وذلك يتحقق بعدم المعرفة بخير ولا شر ثم بما لو كان فيه عليه الصلاة والسلام
ذلك لقدح فى رسالته عليه الصلاة
والسلام (بل جاءهم بالحق) اضراب عما
يدل عليه ما سبق أى ليس الامر
كما زعموا فى حق القرآن والرسول
عليه الصلاة والسلام بل جاءهم عليه
الصلاة والسلام بالحق أى الصدق
الثابت الذى لا محيد عنه أصلا
ولا مدخل فيه للباطل بوجه من
الوجوه (وأكثرهم للحق) من
حيث هو حق أى حق كان
لا لهذا الحق فقط كما ينبئ عنه
الاظهار فى موقع الاضمار
(كارهون) لما فى جبلتهم من
الزيغ والانحراف المناسب
للباطل ولذلك كرهوا هذا الحق
الابلج وزاغوا من الطريق الانهج
وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف
لا يقتضى الا عدم كراهة الباقين
لكل حق من الحقوق وذلك
لا ينافى كراهتهم لهذا الحق المبين
فتأمل وقيل تقييد الحكم بالاكثر
لان منهم من ترك الايمان استنكافا
من توبيخ قومه أو لقلة فطنته
وعدم تفكره لا لكراهته الحق
وأنت خبير بان التعرض لعدم
كراهة بعضهم للحق مع اتفاق
الكل على الكفر به مما لا يساعده
المقام أصلا (ولو اتبع الحق
أهواءهم) استئناف مسوق لبيان
أن أهواءهم الزائغة التى ما كرهوا
الحق الا لعدم موافقته اياها
مقتضية للطامة أى لو كان ما كرهوه
من الحق الذى من جملته ما جاء به عليه السلام موافقا لاهوائهم الباطلة (لفسدت السموات والارض ومن
فيهن) وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية لان مناط النظام ليس الا ذلك وفيه من تنويه شأن الحق والتنبيه على سمو مكانه

جسر جهنم وطعن بعض الملحدة فقال قوله ولا يتساءلون وقوله ولا يسأل حميم حميما يناقض
قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقوله يتعارفون بينهم (الجواب) عنه من وجوه
(أحدها) ان يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ففيه أزمنة وأحوال مختلفة
فيتعارفون ويتساءلون فى بعضها ويتحيرون فى بعضها لشدة الفزع (وثانيها) انه اذا نفخ
فى الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل فاذا نفخ فيه أخرى أقبل بعضهم على
بعض وقالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن (وثالثها) المراد لا يتساءلون
بحقوق النسب (ورابعها) ان قوله لا يتساءلون صفة للكفار وذلك لشدة خوفهم وأما
قوله فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون فهو صفة أهل الجنة اذا دخلوها واعلم انه سبحانه قد
بين ان بعد النفخ فى الصور تكون المحاسبة وشرح أحوال السعداء والاشقياء وقيل لما
بين سبحانه انه ليس فى الآخرة الا ثقل الموازين وخفتها وجب أن يكون كل مكلف لابد
وأن يكون من أهل الجنة وأهل الفلاح أو من أهل النار فيبطل بذلك القول بان فيهم من
لا يستحق الثواب والعقاب أو من يتساوى له الثواب والعقاب ثم انه سبحانه شرح حال
السعداء بقوله فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون وفى الموازين أقوال (أحدها)
انه استعارة من العدل (وثانيها) ان الموازين هى الاعمال الحسنة فمن أتى بها له قدر وخطر
فهو الفائز الظافر ومن أتى بما لا وزن له كقوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة
يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ فهو خالد فى جهنم قال ابن عباس رضى الله
عنهما الموازين جمع موزون وهى الموزونات من الاعمال أى الصالحات التى لها وزن
وقدر عند الله تعالى من قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا أى قدرا (وثالثها) انه ميزان له
لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات فى أحسن صورة والسيآت فى أقبح صورة فمن ثقلت
حسناته سيق الى الجنة ومن ثقلت سيآته فالى النار وتمام الكلام فى هذا الباب قد
تقدم فى سورة الانبياء عليهم السلام وأما الاشقياء فقد وصفهم الله تعالى بامور أربعة
(أحدها) انهم خسروا أنفسهم قال ابن عباس رضى الله عنهما غبنوها بان صارت منازلهم
للمؤمنين وقيل امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم فى العذاب (وثانيها) قوله فى جهنم
خالدون ودلالته على خلود الكفار فى النار بينة قال صاحب الكشاف فى جهنم خالدون
بدل من خسروا أنفسهم أو خبر بعد خبر لاولئك أو خبر مبتدا محذوف (وثالثها) قوله
تلفح وجوههم النار قال ابن عباس رضى الله عنهما أى تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم
قال الزجاج اللفح والنفح واحد الا أن اللفح أشد تأثيرا (ورابعها) قوله وهم فيها كالحون
والكلوح أن تتقلص الشفتان ويتباعدا عن الاسنان كما ترى الرؤس المشوية وعن النبى
صلى الله عليه وسلم انه قال تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى
شفته السفلى حتى تبلغ سرته وقرئ كلحون ثم انه سبحانه لما شرح عذابهم حكى ما يقال لهم
عند ذلك تقريعا وتوبيخا وهو قوله تعالى ألم تكن آياتى تتلى عليكم ثم انكم كنتم تكذبون

مالا يخفى وأما ما قيل لو اتبع الحق الذى جاء به عليه السلام أهواءهم وانقلب شركا لجاء الله تعالى بالقيامة ولاهلك العالم ولم يؤخر
ففيه أنه لا يلائم فرض مجيئه عليه السلام به وكذا ما قيل لو كان ٣٠٥ فى الواقع الهان لا يناسب المقام وأما ما قيل
لو اتبع الحق أهواءهم لخرج
عن الالهية فمما لا احتمال له أصلا
(بل أتيناهم بذكرهم) انتقال من
تشنيعهم بكراهة الحق الذى به
يقوم العالم الى تشنيعهم بالاعراض
عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما
فيه خيرها والمراد بالذكر القرآن
الذى هو فخرهم وشرفهم حسبما
ينطق به قوله تعالى وانه لذكر لك
ولقومك أى بل أتيناهم بفخرهم
وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن
يقبلوا عليه أكمل اقبال (فهم)
بما فعلوا من النكوص (عن
ذكرهم) أى فخرهم وشرفهم خاصة
(معرضون) لا عن غير ذلك مما
لا يوجب الاقبال عليه والاعتناء
به وفى وضع الظاهر موضع الضمير
مزيد تشنيع لهم وتقريع والفاء
لترتيب ما بعدها من اعراضهم عن
ذكرهم على ما قبلها من ايتاء ذكرهم
لا لترتيب الاعراض على الايتاء
مطلقا فان المستتبع لكون
اعراضهم اعراضا عن ذكرهم هو
ايتاء ذكرهم لا الايتاء مطلقا وفى
اسناد الاتيان بالذكر الى نون
العظمة بعد اسناده الى ضميره عليه
الصلاة والسلام تنويه لشأن النبى
عليه الصلاة والسلام وتنبيه على كونه
بمثابة عظيمة منه عز وجل وفى ايراد
القرآن الكريم عند نسبته اليه
عليه السلام بعنوان الحقية
وعند نسبته اليه تعالى بعنوان
الذكر من النكتة السرية
٣٩ را س والحكمة العبقرية مالا يخفى فان التصريح بحقيته المستلزمة لحقية من جاء به هو الذى يقتضيه مقام
حكاية ما قاله المبطلون فى شأنه وأما التشريف فانما يليق به تعالى لاسيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد المشرفين وقيل المراد

بها مع وضوحها فلا جرم صرتم مستحقين لما أنتم فيه من العذاب الاليم قالت المعتزلة الآية
تدل على انهم انما وقعوا فى ذلك العذاب لسوء فعالهم ولو كان فعل العباد بخلق الله
تعالى لما صح ذلك (والجواب) ان القادر على الطاعة والمعصية ان صدرت المعصية عنه
لا لمرجح البتة كان صدورها عنه اتفاقيا لا اختياريا فوجب أن لا يستحق العقاب وان
كان لمرجح فذلك المرجح ليس من فعله والا لزم التسلسل فحينئذ يكون صدور تلك
الطاعة عنه اضطراريا لا اختياريا فوجب ان لا يستحق الثواب ۞ قوله تعالى (قالوا ربنا
غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسؤا
فيها ولا تكلمون انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون انى جزيتهم اليوم
بما صبروا انهم هم الفائزون) اعلم انه سبحانه لما قال ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها
تكذبون ذكروا ما يجرى مجرى الجواب عنه وهو من وجهين (الاول) قولهم ربنا غلبت
علينا شقوتنا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف غلبت علينا ملكتنا
من قولك غلبنى فلان على كذا اذا أخذه منك والشقاوة سوء العاقبة قرئ شقوتنا
وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما قال أبو مسلم الشقوة من الشقاء كجرية الماء والمصدر
الجرى وقد يجئ لفظ فعلة والمراد به الهيئة والحال فيقول جلسة حسنة وركبة وقعدة
وذلك من الهيئة وتقول عاش فلان عيشة طيبة ومات ميتة كريمة وهذا هو الحال والهيئة
فعلى هذا المراد من الشقوة حال الشقاء (المسئلة الثانية) قال الجبائى المراد ان طلبنا
اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا الى هذه الشقاوة فاطلق اسم المسبب على
السبب وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بان لا عذر لهم فيه ولكنه اعتراف بقيام حجة الله
تعالى عليهم فى سوء صنيعهم قلنا انك حملت الشقاوة على طلب تلك اللذات المحرمة وطلب
تلك اللذات حصل باختيارهم أو لا باختيارهم فان حصل باختيارهم فذلك الاختيار
محدث فان استغنى عن المؤثر فلم لا يجوز فى كل الحوادث ذلك وحينئذ ينسد عليك باب
اثبات الصانع وان افتقر الى محدث فمحدثه اما العبد أو الله تعالى فان كان هو العبد فذلك
باطل لوجوه (أحدها) ان قدرة العبد صالحة للفعل والترك فان توقف صدور تلك الارادة
عنها الى مرجح آخر عاد الكلام فيه ولزم التسلسل وان لم يتوقف على المرجح فقد جوزت
رجحان أحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح وذلك يسد باب اثبات الصانع (وثانيها) ان
العبد لا يعلم كمية تلك الافعال ولا كيفيتها والجاهل بالشئ لا يكون محدثا له والا لبطلت
دلالة الاحكام والاتقان على العلم (والثالث) ان أحدا فى الدنيا لا يرضى بأن يختار الجهل بل
لا يقصد الا تحصيل العلم فالكافر ما قصد الا تحصيل العلم فان كان الموجد لفعله هو فوجب
أن لا يحصل الا ما قصد ايقاعه لكنه لم يقصد الا العلم فكيف حصل الجهل فثبت ان
الموجد للدواعى والبواعث هو الله تعالى ثم ان الداعية ان كانت سائقة الى الخير كانت

بالذكر ماعنوه بقولهم لوأن عندنا ذكرا من الاولين وقيل وعظهم وأيد ذلك بأنه قرئ بذكراهم والتشنيع على الاولين أشد فان الاعراض عن وعظهم ليس فى مثابة اعراضهم عن شرفهم أوعن ذكرهم الذى يتمنونه فى الشناعة والقباحة (أم تسألهم) انتقال من توبيخهم بما ذكر من قوله أم يقولون به جنة الى التوبيخ بوجه آخر كأنه قيل أم يزعمون أنك تسألهم على اداء الرسالة (خرجا) أى جعلا فلاجل ذلك لايؤمنون بك وقوله تعالى (فخراج ربك خير) أى رزقه فى الدنيا وثوابه فى الآخرة تعليل لنفى السؤال المستفاد من الانكار أى لاتسألهم ذلك فان مارزقك الله تعالى فى الدنيا والعقبى خير لك من ذلك وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تعليل الحكم وتشريفه عليه الصلاة والسلام مالايخفى والخرج بازاء الدخل يقال لكل ماتخرجه الى غيرك والخراج غالب فى الضريبة على الارض وقيل الخرج ماتبرعت به والخراج مالزمك وقيل الخرج أخص من الخراج ففى النظم الكريم اشعار بالكثرة واللزوم وقرئ خرجا فخرج وخراجا فخراج (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) تشهد العقول السليمة باستقامته ليس فيه شائبة اعوجاج توهم اتهامهم لك بوجه من الوجوه ولقد ألزمهم الله عز وعلا وأزاح عللهم فى هذه الآيات حيث حصر أقسام مايؤدى الى الانكار والاتهام وبين انتفاءها ماعدا كراهتهم للحق وقلة فطنتهم (وان الذين لايؤمنون بالآخرة) وصفوا بذلك تشنيعا لهم بما هم عليه من الانهماك فى الدنيا وزعمهم أن لاحياة الا الحياة الدنيا واشعارا بعلة الحكم فان الايمان بالآخرة وخوف مافيها من الدواهى من أقوى الدواعى الى طلب

سعادة وان كانت سائقة الى الشر كانت شقاوة (الوجه الثانى) لهم فى الجواب قولهم وكنا قوما ضالين وهذا الضلال الذى جعلوه كالعلة فى اقدامهم على التكذيب ان كان هو نفس ذلك التكذيب لزم تعليل الشئ بنفسه ولما بطل ذلك لم يبق الا أن يكون ذلك الضلال عبارة عن شئ آخر ترتب عليه فعلهم وماذاك الا الخلق الداعى الى الضلال ثم ان القوم لما أوردوا هذين العذرين قال لهم سبحانه اخسؤا فيها ولاتكلمون وهذا هو صريح قولنا فى ان المناظرة مع الله تعالى غير جائزة بل لايسأل عما يفعل قال القاضى فى قوله ربنا غلبت علينا شقوتنا دلالة على انه لاعذر لهم الا الاعتراف فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبارادته وعلموا ذلك لكانوا بأن يذكروا ذلك أجدر والى العذر أقرب فنقول قد بينا ان الذى ذكروه ليس الا ذلك ولكنهم مقرون أن لاعذر لهم فلاجرم قال لهم اخسؤا فيها ولاتكلمون أما قوله ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فالمعنى أخرجنا من هذه الدار الى دار الدنيا فان عدنا الى الاعمال السيئة فانا ظالمون فان قيل كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا ان عقابهم دائم قلنا يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك فى أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه الغوث والاسترواح أما قوله اخسؤا فيها فالمعنى ذلوا فيها وانزجروا كما يزجر الكلاب اذا زجرت يقال خسأ الكلب وخسا بنفسه اما قوله ولاتكلمون فليس هذا نهيا لانه لاتكليف فى الآخرة بل المراد لاتكلمون فى رفع العذاب فانه لايرفع ولايخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لايفهمون ولايفهمون وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان لهم ست دعوات اذا دخلوا النار قالوا ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا فيجابون حق القول منى فينادون ألف سنة ثانية ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فيجابون ذلك بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم فينادون ألفا ثالثة يامالك ليقض علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون ألفا رابعة ربنا أخرجنا فيجابون أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال فينادون ألفا خامسة أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فينادون ألفا سادسة رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها ثم بين سبحانه وتعالى ان فزعهم بأمر يتصل بالمؤمنين وهو قوله انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا فوصف تعالى أحد مالاجله عذبوا وبعدوا من الخير وهو ماعاملوا به المؤمنين وفى حرف أبى أنه كان فريق بالفتح بمعنى لانه وقرأ نافع وأهل المدينة وأهل الكوفة عن عاصم بضم السين فى جميع القرآن وقرأ الباقون بالكسر ههنا وفى ص قال الخليل وسيبويه هما لغتان كدرى ودرى وقال الكسائى والفراء الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول والضم بمعنى السخرية قال مقاتل ان رؤساء قريش مثل أبى جهل وعتبة وأبى بن خلف كانوا يستهزؤن بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال وخباب وعمار وصهيب والمعنى اتخذتموهم هزوا حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم على

تلك

الحق وسلوك سبيله (عن الصراط) أى عن جنس الصراط (لناكبون) لعادلون فضلا عن الصراط المستقيم اوعن الصراط المستقيم الذى تدعوهم اليه والاول أدل على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم لما أنه ينبئ عن كون ماذهبوا اليه مما لايطلق عليه اسم الصراط ولوكان معوجا (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر) أى قحط وجدب (للجوا) لتمادوا (فى طغيانهم) افراطهم فى الكفر والاستكبار وعداوة الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (يعمهون) أى عامهين عن الهدى روى انه لما أسلم ثمامة بن اثال الحنفى ولحق باليمامة ومنع الميرة عن أهل مكة وأخذهم الله تعالى بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين قال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فنزلت والمعنى لو كشفنا عنهم ما أصابهم من القحط والهزال برحمتنا اياهم ووجدوا الخصب لارتدوا الى ما كانوا عليه من الافراط فى الكفر والاستكبار ولذهب عنهم هذا التملق والابلاس وقد كان كذلك وقوله تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب) استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون الشرطية والمراد بالعذاب مانالهم يوم بدر من القتل والاسر وما أصابهم من فنون العذاب التى من جملتها القحط المذكور واللام جواب قسم محذوف أى وبالله لقد أخذناهم بالعذاب (فما استكانوا لربهم) بذلك أى لم يخضعوا ولم يتذللوا على أنه اما استفعال من الكون لان الخاضع ينتقل من كون الى كون أو افتعال من السكون قد أشبعت فتحته كمنتزاح فى منتزح بل أقاموا على ما كانوا عليه من العتو والاستكبار وقوله تعالى (وما يتضرعون) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله اى وليس من عادتهم التضرع

تلك الصفة ذكرى وأكد ذلك بقوله وكنتم منهم تضحكون ثم بين سبحانه مايقتضى فيهم الاسف والحسرة بأن وصف ماجازى به اولئك المؤمنين فقال انى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون قرأ حمزة والكسائى انهم بالكسر والباقون بالفتح فالكسر استئناف أى قد فازوا حيث صبروا والجوز وابصبرهم أحسن الجزاء والفتح على انه فى موضع المفعول الثانى من جزيت ويجوز أن يكون نصبا باضمار الخافض أى جزيتهم الجزاء الوافر لانهم هم الفائزون ﴿قوله تعالى (قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم) اعلم ان فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف فى مصاحف أهل الكوفة قال وهو ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة وقل فى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام وهو ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار (المسئلة الثانية) الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ فقد كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة أصلا ولايعدون اللبث الا فى دار الدنيا ويظنون ان بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا فى النار وأيقنوا انها دائمة وهم فيها مخلدون سألهم كم لبثتم فى الارض تنبيها لهم على ان ماظنوه دائما طويلا فهو يسير بالاضافة الى ما أنكروه فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه فى الدنيا من حيث أيقنوا خلافه فليس الغرض السؤال بل الغرض ماذكرنا فان قيل فكيف يصح فى جوابهم أن يقولوا لبثنا يوما أو بعض يوم ولايقع من أهل النار الكذب قلنا لعلهم نسوا ذلك لكثرة ماهم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا فاسأل العادين قال ابن عباس رضى الله عنهما أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل مرادهم بقولهم لبثنا يوما أو بعض يوم تصغير لبثهم وتحقيره بالاضافة الى ماوقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب والله أعلم (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان السؤال عن أى لبث وقع فقال بعضهم لبثهم احياؤهم فى الدنيا ويكون المراد انهم أمهلوا حتى تمكنوا من العلم والعمل فأجابوا بأن قدر لبثهم كان يسيرا بناء على ان الله تعالى أعلمهم ان الدنيا متاع قليل وان الآخرة هى دار القرار وهذا القائل احتج على قوله بأنهم كانوا يزعمون ان لاحياة سواها فلما أحياهم الله تعالى فى النار وعذبوا سئلوا عن ذلك توبيخا لانه الى التوبيخ أقرب وقال آخرون بل المراد اللبث فى حال الموت واحتجوا على قولهم بأمرين (الاول) ان قوله فى الارض يفيد الكون فى القبر ومن كان حيا فالاقرب أن يقال انه على الارض وهذا ضعيف لقوله ولاتفسدوا فى الارض (الثانى) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ثم بين سبحانه انهم كذبوا فى ذلك وأخبر عن المؤمنين قولهم لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث (المسئلة الرابعة) احتج من أنكر عذاب القبر بهذه الآية فقال قوله كم لبثتم فى الارض يتناول زمان كونهم أحياء فوق الارض وزمان كونهم أمواتا

اليه تعالى (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) هو عذاب الآخرة كما ينبئ عنه التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة وقرئ فتحنا بالتشديد (اذا هم فيه مبلسون) ٣٠٨ أى متحيرون آيسون من كل خير أى محناهم بكل محنة من القتل

في بطن الارض فلو كانوا معذبين في القبر لعلموا ان مدة مكثهم في الارض طويلة فما كانوا يقولون لبثنا يوما أو بعض يوم (والجواب) من وجهين (أحدهما) ان الجواب لابد وأن يكون بحسب السؤال وانما سئلوا عن موت لا حياة بعده الا في الآخرة وذلك لا يكون الا بعد عذاب القبر (والثاني) يحتمل أن يكونوا سئلوا عن قدر اللبث الذي اجتمعوا فيه فلا يدخل في ذلك تقدم موت بعضهم على البعض فيصح أن يكون جوابهم لبثنا يوما أو بعض يوم عندنا فأما قوله فاسأل العادين ففيه وجوه (أحدها) المراد بهم الحفظة وانهم كانوا يحصون الاعمال وأوقات الحياة ويحسبون أوقات موتهم وتقدم من تقدم وتأخر من تأخر وهو معنى قول عكرمة فاسئل العادين أي الذين يحسبون (وثانيها) فاسئل الملائكة الذين يعدون أيام الدنيا وساعاتها (وثالثها) أن يكون المعنى سل من يعرف عدد ذلك فانا قد نسيناه (ورابعها) قرئ العادين بالتخفيف أي الظلمة فانهم يقولون مثل ما قلنا (وخامسها) قرئ العاديين أي القدماء المعمرين فانهم يستقصرونها فكيف بمن دونهم اما قوله ان لبثتم الا قليلا فالمعنى انهم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم على معنى انا لبثنا في الدنيا قليلا فكأنه قيل لهم صدقتم ما لبثتم فيها الا قليلا الا انها انقضت ومضت فظهر ان الغرض من هذا السؤال تعريف قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة فاما قوله تعالى لو انكم كنتم تعلمون فبين في هذا الوجه أنه أراد انه قليل لو علمتم البعث والحشر لكنكم لما أنكرتم ذلك كنتم تعدونه طويلا ثم بين تعالى ما هو في التوبيخ أعظم بقوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف عبثا حال أي عابثين كقوله لاعبين أو مفعول به أي ما خلقناكم للعبث (المسئلة الثانية) انه سبحانه لما شرح صفات القيامة ختم الكلام فيها باقامة الدلالة على وجودها وهي انه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي والصديق من الزنديق وحينئذ يكون خلق هذا العالم عبثا وأما الرجوع الى الله تعالى فالمراد الى حيث لا مالك ولا حاكم سواه لا انه رجوع من مكان الى مكان لاستحالة ذلك على الله تعالى ثم انه تعالى نزه نفسه عن العبث بقوله تعالى فتعالى الله الملك الحق والملك هو المالك للاشياء الذي لا يبيد ولا يزول ملكه وقدرته وأما الحق فهو الذي يحق له الملك لان كل شئ منه واليه وهو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه وبين انه لا اله سواه وان ما عداه فمصيره الى الفناء وما يفنى لا يكون الها وبين انه تعالى رب العرش الكريم قال أبو مسلم والعرش ههنا السموات بما فيها من العرش الذي تطوف به الملائكة ويجوز أن يعنى به الملك العظيم وقال الاكثرون المراد هو العرش حقيقة وانما وصفه بالكريم لان الرحمة تنزل منه والخير والبركة ولنسبته الى أكرم الاكرمين كما يقال بيت كريم اذا كان ساكنوه كراما وقرئ الكريم بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد ﴿ قوله تعالى (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) اعلم انه سبحانه لما بين انه هو الملك الحق لا اله الا هو أتبعه بأن

والاسر والجوع وغير ذلك فما روى منهم لين مقادة وتوجه الى الاسلام قط وأما ما أظهره أبو سفيان فليس من الاستكانة له تعالى والتضرع اليه تعالى في شئ وانما هو نوع خنوع الى أن يتم غرضه فحاله كما قيل اذا جاع ضغا واذا شبع طغا وأكثرهم مستمرون على ذلك الى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذ يبلسون وقيل المراد بالباب الجوع فانه أشد وأعم من القتل والاسر والمعنى أخذناهم أولا بما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجد منهم تضرع واستكانة حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أطم وأتم فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاءك أعتاهم وأشدهم شكيمة في العناد يستعطفك والوجه هو الاول (وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار) لتشاهدوا بهما الآيات التنزيلية والتكوينية (والافئدة) لتتفكروا بها فيما تشاهدونه وتعتبروا اعتبارا لائقا (قليلا ما تشكرون) أى شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لما أن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي في أنفسها نعم باهرة الى ما خلقت هي له وأنتم تخلون بذلك اخلالا عظيما (وهو الذي ذرأكم في الارض) أى خلقكم وبثكم فيها بالتناسل (واليه تحشرون) أى تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم لا الى غيره فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه (وهو الذي يحيي ويميت) من غير أن يشاركه في ذلك شئ من الاشياء (وله) من خاصة (اختلاف الليل والنهار) أى هو المؤثر في اختلافهما أى تعاقبهما أو اختلافهما ازديادا وانتقاصا أولا مره وقضائه

اختلافهما (أفلا تعقلون) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أو أتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل منا وان قدرتنا تعم جميع الممكنات التي من جملتها البعث وقرئ يعقلون على أن الالتفات ٣٠٩ الى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطبين

من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا من حيث لا برهان لهم فيه ونبه بذلك على ان كل ما لا برهان فيه لا يجوز اثباته وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد ثم ذكر ان من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله فانما حسابه عند ربه كأنه قال ان عقابه بلغ الى حيث لا يقدر أحد على حسابه الا الله تعالى وقرئ أنه لا يفلح بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول رب اغفر وارحم ويثني عليه بانه خير الراحمين وقد تقدم بيان انه سبحانه خير الراحمين فان قيل كيف تتصل هذه الخاتمة بما قبلها قلنا لانه سبحانه لما شرح أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر بالانقطاع الى الله تعالى والالتجاء الى دلائل غفرانه ورحمته فانهما هما العاصمان عن كل الآفات والمخافات وروى ان أول سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ باربع من آخرها فقد نجا وأفلح والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه وعترته وأهل بيته

(سورة النور مدنية كلها وهي ثنتان وقيل أربع وستون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون) قرأ العامة سورة بالرفع وقرأ طلحة بن مصرف بالنصب أما الذين قرؤا بالرفع فالجمهور قالوا الابتداء بالنكرة لا يجوز والتقدير هذه سورة أنزلناها ونقول سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أي فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ومن نصب فعلى معنى الفعل يعني اتبعوا سورة أو اتل سورة أو أنزلنا سورة وأما معنى السورة ومعنى الانزال فقد تقدم فان قيل الانزال انما يكون من صعود الى نزول فهذا يدل على انه تعالى في جهة قلنا (الجواب) من وجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام كان يحفظها من اللوح المحفوظ ثم ينزلها عليه صلى الله عليه وسلم فلهذا جاز أن يقال أنزلناها توسعا (وثانيها) ان الله تعالى أنزلها من أم الكتاب الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزلها بعد ذلك نجوما على لسان جبريل عليه السلام (وثالثها) معنى أنزلناها أي أعطيناها الرسول كما يقول العبد اذا كلم سيده رفعت اليه حاجتي كذلك يكون من السيد الى العبد الانزال قال الله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه أما قوله وفرضناها فالمشهور قراءة التخفيف وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد أما قراءة التخفيف فالفرض هو القطع والتقدير قال الله تعالى فنصف ما فرضتم أي قدرتم ان الذي فرض عليك القرآن أي قدرتم ان السورة لا يمكن فرضها الا انها قد دخلت في الوجود وتحصيل الحاصل محال فوجب أن يكون المراد وفرضنا ما بين فيها وانما قال ذلك

لغيرهم وقيل على أن الخطاب الاول لتغليب المؤمنين وليس بذاك (بل قالوا) عطف على مضمر يقتضيه المقام أي فلم يعقلوا بل قالوا (مثل ما قال الاولون) أى اباؤهم ومن دان بدينهم (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) تفسير لما قبله من المبهم وتفصيل لما فيه من الاجمال وقد مر الكلام فيه (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) أى البعث (من قبل) متعلق بالفعل من حيث اسناده الى ابائهم لا اليهم أى ووعد آباؤنا من قبل أو بمحذوف وقع حالا من آباؤنا أى كائنين من قبل (ان هذا) أى ما هذا (الا أساطير الاولين) أى أكاذيبهم التي سطروها جمع اسطورة كأحدوثة وأعجوبة وقيل جمع اسطار جمع سطر (قل لمن الارض ومن فيها) من المخلوقات تغليبا للعقلاء على غيرهم (ان كنتم تعلمون) جوابه محذوف ثقة بدلالة الاستفهام عليه أى ان كنتم تعلمون شيأ ما فأخبروني به فان ذلك كاف في الجواب وفيه من المبالغة في وضوح الامر وفي تجهيلهم ما لا يخفى أو ان كنتم تعلمون ذلك فأخبروني وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم ولذلك أخبر بجوابهم قبل ان يجيبوا حيث قيل (سيقولون لله) لان بديهة العقل تضطرهم الى الاعتراف بانه تعالى خالقها (قل) أى عند اعترافهم بذلك تبكيتا لهم (أفلا تذكرون) أى أتعلمون ذلك أو أتقولون ذلك فلا تتذكرون أن من فطر الارض وما فيها ابتداء قادر على اعادتها ثانيا فان البدء ليس بأهون من الاعادة بل الامر بالعكس في قياس العقول وقرئ تتذكرون على الاصل (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم

اعبد الرب* تنويه بالشان العرش ورفعا لمحله عن ان يكون تبعا للسموات وجودا وذكرا ولقد روعى فى الامر بالسؤال الترقى من
الادنى الى الاعلى (سيقولون لله) باللام نظرا الى معنى السؤال فان قولك من ربه ولمن هو فى معنى
واحد وقرئ هو وما بعده بغير لام
نظرا الى لفظ السؤال (قل) الخاما
لهم وتوبيخا (أفلا تتقون) أى
أتعلمون ذلك ولا تتقون أنفسكم
عقابه بعدم العمل بموجب العلم
حيث تكفرون به وتنكرون البعث
وتثبتون له شريكا فى الربوبية
(قل من بيده ملكوت كل شئ) مما
ذكر ومالم يذكر أى ملكه التام
القاهر وقيل خزائنه (وهو يجير)
أى يغيث غيره اذا شاء (ولا يجار
عليه) أى ولا يغيث أحد عليه أى
لا يمنع أحد منه بالنصر عليه (ان
كنتم تعلمون) أى شيئا ما أو ذلك
فاجيبونى على ما سبق (سيقولون
لله) أى لله ملكوت كل شئ وهو
الذى يجير ولا يجار عليه (قل فانى
تسحرون) أى فمن أين تخدعون
وتصرفون عن الرشد مع علمكم به
الى ما أنتم عليه من الغى فان من
لا يكون مسحورا مختل العقل
لا يكون كذلك (بل أتيناهم بالحق)
الذى لا محيد عنه من التوحيد
والوعد بالبعث (وانهم لكاذبون)
فيما قالوا من الشرك وانكار
البعث (ما اتخذ الله من ولد) كما
يقوله النصارى والقائلون ان
الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك
علوا كبيرا (وما كان معه من اله)
يشاركه فى الالوهية كما يقوله عبدة
الاوثان وغيرهم (اذن لذهب كل
اله بما خلق) جواب لمحاجتهم
وجزاء الشرط قد حذف لدلالة ما قبله
عليه أى لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك وساء
الآخرين ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجارى فيما بين الملوك (ولعلا بعضهم على بعض) فلم يكن بيده وحده ملكوت

لان أكثر ما فى هذه السورة من باب الاحكام والحدود فلذلك عقبها بهذا الكلام وأما قراءة
التشديد فقال الفراء التشديد للمبالغة والتكثير اما المبالغة فن حيث انها احدود وأحكام
فلا بد من المبالغة فى ايجابها ليحصل الانقياد لقبولها وأما التكثير فلوجهين (أحدهما)
ان الله تعالى بين فيها أحكاما مختلفة (والثانى) انه سبحانه وتعالى أوجبها على كل المكلفين
الى آخر الدهر أما قوله وأنزلنا فيها آيات بينات ففيه وجوه (أحدها) انه سبحانه ذكر فى أول
السورة أنواعا من الاحكام والحدود وفى آخرها دلائل التوحيد فقوله وفرضناها اشارة
الى الاحكام التى بينها أولا ثم قوله وأنزلنا فيها آيات بينات اشارة الى ما بين من دلائل
التوحيد والذى يؤكد هذا التأويل قوله لعلكم تذكرون فان الاحكام والشرائع
ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكرها أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم
لظهورها فأمروا بتذكرها (وثانيها) قال أبو مسلم يجوز أن تكون الآيات البينات ما ذكر
فيها من الحدود والشرائع كقوله رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال
سويا سأل ربه أن يفرض عليه عملا (وثالثها) قال القاضى ان السورة كما اشتملت على عمل
الواجبات فقد اشتملت على كثير من المباحات بأن بينها الله تعالى ولما كان بيانه سبحانه لها
مفصلا وصف الآيات بأنها بينات أما قوله تعالى لعلكم تذكرون فقرئ بتشديد الذال
وتخفيفها ومعنى لعل قد تقدم فى سورة البقرة قال القاضى لعل بمعنى كى وهذا يدل على انه
سبحانه أراد من جميعهم أن يتذكروا (والجواب) انه سبحانه لو أراد ذلك من الكل لما قوى
دواعيهم الى جانب المعصية ولو لم توجد تلك التقوية لزم وقوع الفعل لا لمرجح ولو جاز ذلك لما
جاز الاستدلال بالامكان والحدوث على وجود المرجح ويلزم نفى الصانع واذا كان كذلك
وجب حمل لعل على سائر الوجوه المذكورة فى سورة البقرة واعلم انه سبحانه ذكر فى هذه
السورة أحكاما كثيرة (الحكم الاول) قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد
منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر
وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) اعلم ان قوله تعالى الزانية والزانى رفعهما على
الابتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه على معنى فيما فرض الله عليكم الزانية
والزانى أى فاجلدوهما ويجوز ان يكون الخبر فاجلدوا وانما دخلت الفاء لكون الالف
واللام بمعنى الذى وتضمنه معنى الشرط تقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما كما تقول
من زنا فاجلدوه وقرئ بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ والزان بلا ياء واعلم ان
الكلام فى هذه الآية على نوعين (أحدهما) ما يتعلق بالشرعيات (والثانى) ما يتعلق
بالعقليات ونحن نأتى على البابين بقدر الطاقة ان شاء الله تعالى (النوع الاول) الشرعيات
واعلم ان الزنا حرام وهو من الكبائر ويدل عليه أمور (أحدها) ان الله تعالى قرنه بالشرك
وقتل النفس فى قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم
الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما وقال ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة

كل شئ وهو باطل لا يقول به عاقل قطعا قيام البرهان على استناد جميع الممكنات الى واجب الوجود واحد بالذات (سبحان الله عما
يصفون) أى يصفونه من أن يكون له أنداد وأولاد (عالم الغيب والشهادة) بالجر على أنه بدل من الجلالة وقيل
صفة لها وقرئ بالرفع على أنه خبر
مبتدا محذوف وأياما كان فهو
دليل آخر على انتفاء الشريك بناء
على توافقهم فى تفرده تعالى بذلك
ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى
(فتعالى عما يشركون) فان تفرده
تعالى بذلك موجب لتعاليه عن أن
يكون له شريك (قل رب اما تريني)
أى ان كان لا بد من أن تريني
(ما يوعدون) من العذاب الدنيوى
المستأصل وأما العذاب الاخروى
فلا يناسبه المقام (رب فلا تجعلنى
فى القوم الظالمين) أى قرينا لهم فيما
هم فيه من العذاب وفيه ايذان بكمال
فظاعة ما وعدوه من العذاب وكونه
بحيث يجب أن يستعيذ منه من
لا يكاد يمكن أن يحيق به ورده
لانكارهم اياه واستعجالهم به على
طريقة الاستهزاء به وقيل أمر به
عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه
وقيل لان شؤم الكفرة قد يحيق
بمن وراءهم كقوله تعالى واتقوا
فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم
خاصة وروى انه تعالى أخبر نبيه
عليه الصلاة والسلام بان له فى أمته
نقمة ولم يطلعه على وقتها فأمره
بهذا الدعاء وتكرير النداء
وتصدير كل من الشرط والجزاء به
لابراز كمال الضراعة والابتهال
(وانا على أن نريك ما نعدهم) من
العذاب (لقادرون) ولكنا نؤخره
لعلمنا بان بعضهم أو بعض أعقابهم
سيؤمنون أو لانا لا نعذبهم وأنت
فيهم وقيل قد أراه ذلك وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة ولا يخفى بعده فان المتبادر أن يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود
عذابا هائلا مستأصلا لا يظهر على يديه عليه الصلاة والسلام للحكمة الداعية اليه (ادفع بالتى هى أحسن السيئة) وهو الصفح عنها

وساء سبيلا (وثانيها) انه تعالى اوجب المائة فيها بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر
وشرع فيه الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة وأمر بشهود الطائفة للتشهير وأوجب كون
تلك الطائفة من المؤمنين لان الفاسق من صلحاء قومه أخجل (وثالثها) ما روى حذيفة عن
النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يا معشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى
الدنيا وثلاث فى الآخرة أما التى فى الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر
وأما التى فى الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله
قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اى
قال وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أى قال وأن تزنى بحليلة جارك فانزل
الله تعالى تصديقها والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله
الا بالحق ولا يزنون واعلم انه يجب البحث فى هذه الآية عن أمور (أحدها) عن ماهية الزنا
(وثانيها) عن أحكام الزنا (وثالثها) عن الشرائط المعتبرة فى كون الزنا موجبا لتلك
الاحكام (ورابعها) عن الطريق الذى به يعرف حصول الزنا (وخامسها) ان المخاطبين
بقوله فاجلدوهم من هم (وسادسها) ان الرجم والجلد المامور بهما فى الزنا كيف يكون
حالهما (البحث الاول) عن ماهية الزنا قال بعض أصحابنا انه عبارة عن ايلاج فرج فى فرج
مشتهى طبعا محرم قطعا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ان اللواطة هل ينطلق
عليها اسم الزنا أم لا فقال قائلون نعم واحتج عليه بالنص والمعنى اما النص فما روى أبو
موسى الاشعرى رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام قال اذا أتى الرجل الرجل فهما
زانيان وأما المعنى فهو ان اللواط مثل الزنا صورة ومعنى أما الصورة فلان الزنا عبارة عن
ايلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرم قطعا والدبر أيضا فرج لان القبل انما سمى فرجا لما
فيه من الانفراج وهذا المعنى حاصل فى الدبر أكثر ما فى الباب ان فى العرف لا تسمى
اللواطة زنا ولكن هذا لا يقدح فى أصل اللغة كما يقال هذا طبيب وليس بعالم مع ان الطب
علم وأما المعنى فلان الزنا قضاء للشهوة من محل مشتهى طبعا على جهة الحرام المحض وهذا
موجود فى اللواط لان القبل والدبر يشتهيان لانهما يشتركان فى المعانى التى هى متعلق
الشهوة من الحرارة واللين وضيق المدخل ولذلك فان من يقول بالطبائع لا يفرق بين المحلين
وانما المفرق هو الشرع فى التحريم والتحليل فهذا حجة من قال اللواط داخل تحت اسم
الزنا وأما الاكثرون من أصحابنا فقد سلموا ان اللواط غير داخل تحت اسم الزنا واحتجوا
عليه بوجوه (أحدها) العرف المشهور من ان هذا لواط وليس بزنا وبالعكس والاصل عدم
التغيير (وثانيها) لو حلف لا يزنى فلاط لا يحنث (وثالثها) ان الصحابة اختلفوا فى حكم
اللواط وكانوا عالمين باللغة فلو سمى اللواط زنا لاغناهم نص الكتاب فى حد الزنا عن
الاختلاف والاجتهاد وأما الحديث فهو محمول على الاثم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام
اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان وقال عليه الصلاة والسلام اليدان تزنيان والعينان

والأحسان فى مقابلتها الكن لابحيث يؤدّى الى وهن فى الدين وقيل هى كلمة التوحيد والسيئة الشرك وقيل هو الامر بالمعروف والسيئة المنكر وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل وتقديم الجار والمجرور

ترنيان وأما القياس فبعيد لان الفرج وان كان سمى فرجا لما فيه من الانفراج فلا يجب أن يسمى كل مافيه انفراج بالفرج والا لكان الفم والعين فرجا وأيضا فهم سموا النجم نجما لظهوره ثم ماسموا كل ظاهر نجما وسموا الجنين جنينا لاستتاره وماسموا كل مستتر جنينا واعلم ان للشافعى رحمه الله فى فعل اللواط قولان أصحهما عليه حد الزنا ان كان محصنا يرجم وان لم يكن محصنا يجلد مائة ويغرّب عاما (وثانيهما) يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أولم يكن محصنا لماروى ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام قال من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ثم فى كيفية قتله أوجه (أحدها) تحز رقبته كالمرتد (وثانيها) يرجم بالحجارة وهو قول مالك وأحمد واسحق (وثالثها) يهدم عليه جدار يروى ذلك عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه (ورابعها) يرمى من شاهق جبل حتى يموت يروى ذلك عن على عليه السلام وانما ذكروا هذه الوجوه لان الله تعالى عذب قوم لوط بكل ذلك فقال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل وعند أبى حنيفة رحمه الله لايحدّ اللوطى بل يعذر اما المفعول به فان كان عاقلا بالغا طائعا فان قلنا على الفاعل القتل فيقتل المفعول به على صفة قتل الفاعل للخبر وان قلنا على الفاعل حد الزنا فعلى المفعول به مائة جلدة وتغريب عام محصنا كان أوغير محصن وقيل ان كانت امرأة محصنة فعليها الرجم وليس بصحيح لانها لاتصير محصنة بالتمكين فى الدبر فلا يلزمها حد المحصنات كما لو كان المفعول به ذكرا حجة الشافعى رحمه الله على وجوب الحد من وجوه (الاول) ان اللواط اما أن يساوى الزنا فى الماهية أو يساويه فى لوازم هذه الماهية واذا كان كذلك وجب الحد (بيان الاول) قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان فاللفظ دل على كون اللائط زانيا واللفظ الدال بالمطابقة على ماهية دال بالالتزام على حصول جميع لوازمها ودلالة المطابقة والالتزام مشتركان فى أصل الدلالة فاللفظ الدال على حصول الزنا دال على حصول جميع اللوازم ثم بعد هذا ان تحقق مسمى الزنا فى اللواط دخل تحت قوله الزانية والزانى فاجلدوا وان لم يتحقق مسمى الزنا وجب أن يتحقق لوازم مسمى الزنا لما ثبت ان اللفظ الدال على تحقق ماهية دال على تحقق جميع تلك اللوازم ترك العمل به فى حق الماهية فوجب أن يبقى معمولا به فى الدلالة على جميع تلك اللوازم لكن من لوازم الزنا وجوب الحد فوجب أن يتحقق ذلك فى اللواط أكثر مافى الباب انه ترك العمل بذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان لكن لا يلزم من ترك العمل هناك تركه ههنا (الثانى) ان اللائط يجب قتله فوجب أن يقتل رجما (بيان الاول) قوله عليه السلام من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل منهما والمفعول به (وبيان الثانى) انه لما وجب قتله وجب أن يكون زانيا والا لما جاز قتله لقوله عليه السلام لايحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث وههنا لم يوجد كفر بعد ايمان ولا قتل نفس بغير حق فلو لم يوجد الزنا بعد الاحصان لوجب ان لا يقتل واذا ثبت انه وجد الزنا بعد

على المفعول فى الموضعين للاهتمام (نحن أعلم بما يصفون) اى بما يصفونك به أو بوصفهم اياك على خلاف ما أنت عليه وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وارشاد له عليه السلام الى تفويض أمره اليه تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) أى وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به من المحاسن التى من جملتها دفع السيئة بالحسنة وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم للناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على الاسراع أو الوثب والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف اليه (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أمر عليه السلام بان يعوذ به تعالى من حضورهم بعد ما أمر بالعوذ به من همزاتهم للمبالغة فى التحذير من ملابستهم واعادة الفعل مع تكرير النداء لاظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهاية الابتهال فى الاستدعاء أى أعوذ بك من أن يحضرونى ويحوموا حولى فى حال من الاحوال وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وحال حلول الاجل كما روى عن عكرمة رحمه الله لانها أحرى الاحوال بالاستعاذة منها (حتى اذا جاء أحدهم الموت) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بيصفون وما بينهما اعتراض مؤكد للاغضاء بالاستعاذة به تعالى من

الاحصان

الاحصان وجب الرجم لهذا الحديث (الثالث) نقيس اللواط على الزنا والجامع ان الطبع داع اليه لما فيه من الالتذاذ وهو قبيح فيناسب الزاجر والحد يصلح زاجرا عنه قالوا والفرق من وجهين (أحدهما) انه وجد فى الزنا داعيان فكان وقوعه أكثر فسادا فكانت الحاجة الى الزاجر أتم (الثانى) ان الزنا يقتضى فساد الانساب (والجواب) الغائط هما بوطء العجوز الشوهاء واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) اللواط ليس بزنا على ما تقدم فوجب أن لا يقتل لقوله عليه الصلاة والسلام لايحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث (وثانيها) ان اللواط لايساوى الزنا فى الحاجة الى شرع الزاجر ولا فى الجناية فلا يساويه فى الحد بيان عدم المساواة فى الحاجة ان اللواطة وان كانت يرغب فيها الفاعل لكن لايرغب فيها المفعول طبعا بخلاف الزنا فان الداعى حاصل من الجانبين وأما عدم المساواة فى الجناية فلان فى الزنا اضاعة النسب ولا كذلك اللواط اذا ثبت هذا فوجب أن لا يساويه فى العقوبة لان الدليل ينفى شرع الحد لكونه ضررا ترك العمل به فى الزنا فوجب أن يبقى فى اللواط على الاصل (وثالثها) ان الحد كالبدل عن المهر فلما لم يتعلق باللواط المهر فكذا الحد (والجواب) عن الاول ان اللواط وان لم يكن مساويا للزنا فى ماهيته لكنه يساويه فى الاحكام (وعن الثانى) ان اللواط وان كان لايرغب فيه المفعول لكن ذلك بسبب اشتداد رغبة الفاعل لان الانسان حريص على مامنع (وعن الثالث) انه لابد من الجامع والله أعلم (المسئلة الثانية) أجمعت الامة على حرمة اتيان البهائم وللشافعى رحمه الله فى عقوبته أقوال (أحدها) يجب به حد الزنا فيرجم المحصن ويجلد غير المحصن ويغرب (والثانى) انه يقتل محصنا كان أوغير محصن لماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه فقيل لابن عباس ماشأن البهيمة فقال ما أراه قال ذلك الا انه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل (والقول الثالث) وهو الاصح وهو قول أبى حنيفة ومالك والثورى وأحمد رحمهم الله ان عليه التعزير لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وهذا الفعل لاتميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس رضى الله عنهما لضعف اسناده وان ثبت فهو معارض بما روى انه عليه السلام نهى عن ذبح الحيوان الا لاكله (المسئلة الثالثة) السحق من النسوان واتيان الميتة والاستمناء باليد لايشرع فيها الا التعزير (البحث الثانى) عن أحكام الزنا واعلم انه كان فى أول الاسلام عقوبة الزانى الحبس الى الممات فى حق الثيب والاذى بالكلام فى حق البكر قال الله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب ولنذكر هاتين المسئلتين (المسئلة

الشياطين أن يزلوه عليه الصلاة والسلام عن الحلم ويغروه على الانتقام لكن لابمعنى أنه العامل فيه لفساد المعنى بل بمعنى أنه معمول لمحذوف يدل عليه ذلك وتعلقها بكاذبون فى غاية البعد لفظا ومعنى أى يستمرون على الوصف المذكور حتى اذا جاء أحدهم أى أحد كان الموت الذى لامرد له وظهرت له أحوال الآخرة (قال) تحسرا على مافرط فيه من الايمان والطاعة (رب ارجعون) أى ردنى الى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعنى كما قيل فى قفا نبك وتظائره (لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أى فى الايمان الذى تركته لم ينظمه فى سلك الرجاء كسائر الاعمال الصالحة بان يقول لعلى أومن فأعمل الخ للاشعار بانه أمر مقرر الوقوع غنى عن الاخبار بوقوعه قطعا فضلا عن كونه مرجو الوقوع أى لعلى أعمل فى الايمان الذى آتى به البتة عملا صالحا وقيل فيما تركته من المال أومن الدنيا وعنه عليه الصلاة والسلام اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أنرجعك الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدوما الى الله تبارك وتعالى وأما الكافر فيقول ارجعونى (كلا) ردع عن طلب الرجعة واستبعاد لهم (انها) أى قوله رب ارجعون الخ (كلمة هو قائلها) لامحالة لتسلط الحسرة عليه (ومن ورائهم) أى

الاولى) الخوارج انكروا الرجم واحتجوا فيه بوجوه (أحدها) قوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات فلو وجب الرجم على المحصن لوجب نصف الرجم على الرقيق لكن الرجم لا نصف له (وثانيها) ان الله سبحانه ذكر فى القرآن أنواع المعاصى من الكفر والقتل والسرقة ولم يستقص فى أحكامها كما استقصى فى بيان أحكام الزنا الا ترى أنه تعالى نهى عن الزنا بقوله ولا تقربوا الزنا ثم توعد عليه ثانيا بالنار كما فى كل المعاصى ثم ذكر الجلد ثالثا ثم خص الجلد بوجوب احضار المؤمنين رابعا ثم خصه بالنهى عن الرأفة عليه بقوله ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله خامسا ثم أوجب على من رمى مسلما بالزنا ثمانين جلدة سادسا ولم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر وهما أعظم منه ثم قال سابعا ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ثم ذكر ثامنا من رمى زوجته بما يوجب التلاعن واستحقاق غضب الله تعالى ثم ذكر تاسعا ان الزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ثم ذكر عاشرا ان ثبوت الزنا مخصوص بالشهود الاربعة فمع المبالغة فى استقصاء أحكام الزنا قليلا وكثيرا لا يجوز اهمال ما هو أجل أحكامها وأعظم آثارها ومعلوم ان الرجم لو كان مشروعا لكان أعظم الآثار فحيث لم يذكره الله تعالى فى كتابه دل على انه غير واجب (وثالثها) قوله تعالى الزانية والزانى فاجلدوا يقتضى وجوب الجلد على كل الزناة وايجاب الرجم على البعض بخبر الواحد يقتضى تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد وهو غير جائز لان الكتاب قاطع فى متنه وخبر الواحد غير قاطع فى متنه والمقطوع راجح على المظنون واحتج الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصن لما ثبت بالتواتر انه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك قال أبو بكر الرازى روى الرجم أبو بكر وعمر وعلى وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وبريدة الاسلمى وزيد بن خالد فى آخرين من الصحابة وبعض هؤلاء الرواة روى خبر رجم ماعز وبعضهم خبر اللخمية والغامدية وقال عمر رضى الله عنه لولا أن يقول الناس زاد عمر فى كتاب الله لاثبته فى المصحف (والجواب) عما احتجوا به أولا انه مخصوص بالجلد فان قيل فيلزم تخصيص القرآن بخبر الواحد قلنا بل بالخبر المتواتر لما بينا ان الرجم منقول بالتواتر وأيضا فقد بينا فى اصول الفقه ان تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز (والجواب) عن الثانى انه لا يستبعد تجدد الاحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح فلعل المصلحة التى تقتضى وجوب الرجم حدثت بعد نزول تلك الآيات (والجواب) عن الثالث انه نقل عن على عليه السلام انه كان يجمع بين الجلد والرجم وهو اختيار أحمد واسحق وداود واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) ان عموم هذه الآية يقتضى وجوب الجلد والخبر المتواتر يقتضى وجوب الرجم ولا منافاة فوجب الجمع (وثانيها) قوله عليه السلام البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة (وثالثها) روى أبو بكر الرازى فى أحكام القرآن عن ابن جريج عن ابن الزبير عن جابر ان رجلا زنى بامرأة فامر به النبى صلى الله عليه وسلم فجلد ثم أخبر النبى صلى الله عليه

وسلم

أمامهم والضمير لاحدهم والجمع باعتبار المعنى لانه فى حكم كلهم كما أن الافراد فى الضمائر الاول باعتبار اللفظ (برزخ) حائل بينهم وبين الرجعة (الى يوم يبعثون) يوم القيامة وهو اقناط كلى عن الرجعة الى الدنيا لما علم انه لا رجعة يوم البعث الى الدنيا وانما الرجعة يومئذ الى الحياة الاخروية (فاذا نفخ فى الصور) لقيام الساعة وهى النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور وقيل المعنى فاذا نفخ فى الاجساد أرواحها على أن الصور جمع الصورة لا القرن ويؤيده القراءة بفتح الواو وبه مع كسر الصاد (فلا انساب بينهم) تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وامه وأبيه وصاحبته وبنيه أولا انساب يفتخرون بها (يومئذ) كما هى بينهم اليوم (ولا يتساءلون) أى لا يسأل بعضهم بعضا لاشتغال كل منهم بنفسه ولا يناقضه قوله تعالى فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون لان هذا عند ابتداء النفخة الثانية وذلك بعد ذلك (فمن ثقلت موازينه) موزونات حسناته من العقائد والاعمال أى فمن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى (فاولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مهروب

وسلم انه كان محصنا فامر به فرجم (ورابعها) روى ان عليا عليه السلام جلد شراحة الهمدانية ثم رجمها وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم ان أكثر المجتهدين متفقون على ان المحصن يرجم ولا يجلد واحتجوا عليه بامور (أحدها) قصة العسيف فانه عليه السلام قال يا أنيس اغد الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها ولم يذكر الجلد ولو وجب الجلد مع الرجم لذكره (وثانيها) ان قصة ماعز رويت من جهات مختلفة ولم يذكر فى شىء منها مع الرجم جلد ولو كان الجلد معتبرا مع الرجم لجلده النبى عليه السلام ولو جلده لنقل كما نقل الرجم اذ ليس أحدهما بالنقل أولى من الآخر وكذا فى قصة الغامدية حين أقرت بالزنا فرجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن وضعت ولو جلدها لنقل ذلك (وثالثها) ما روى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال قال عمر رضى الله عنه قد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى وقد قرأنا الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمنا بعده فأخبر أن الذى فرضه الله تعالى هو الرجم ولو كان الجلد واجبا مع الرجم لذكره (أما الجواب) عن التمسك بالآية فهو أنها مخصوصة فى حق المحصن وتخصيص عموم القرآن بالخبر المتواتر غير ممتنع وأما قوله عليه السلام الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة فلعل ذلك كان قبل قوله يا أنيس اغد الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها وأما أنه عليه السلام جلد امرأة ثم رجمها فلعله عليه السلام ما علم احصانها فجلدها ثم لما علم احصانها رجمها وهو الجواب عن فعل على عليه السلام فهذا ما يمكن من التكلف فى هذه الاجوبة والله اعلم (المسئلة الثانية) قال الشافعى رحمه الله يجمع بين الجلد والتغريب فى حد البكر وقال أبو حنيفة رحمه الله يجلد وأما التغريب فمفوض الى رأى الامام وقال مالك يجلد الرجل ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب حجة الشافعى رحمه الله حديث عبادة انه عليه السلام قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ويدل أيضا عليه ما روى أبو هريرة رضى الله عنه وزيد بن خالد أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان ابنى كان عسيفا على هذا وزنى بامرأته فافتديت منه بوليدة ومائة شاة ثم أخبرنى أهل العلم ان على ابنى جلد مائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم فاقض بيننا فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لاقضين بينكما بكتاب الله أما الغنم والوليدة فرد عليك وأما ابنك فان عليه جلد مائة وتغريب عام ثم قال لرجل من أسلم اغد يا أنيس الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها واحتج أبو حنيفة رحمه الله على نفى التغريب بوجوه (أحدها) ان ايجاب التغريب يقتضى نسخ الآية ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز وقرروا النسخ من ثلاثة اوجه (الاول) انه سبحانه رتب الجلد على فعل الزنا بالفاء وحرف الفاء

(ومن خفت موازينه) أى ومن لم يكن له من العقائد والاعمال ماله وزن وقدر عنده تعالى وهم الكفار لقوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وقد مر تفصيل ما فى هذا المقام من الكلام فى تفسير سورة الاعراف (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) ضيعوها بتضييع زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها واسم الاشارة فى الموضعين عبارة عن الموصول وجمعه باعتبار معناه كما أن افراد الضميرين فى الصلتين باعتبار لفظه (فى جهنم خالدون) بدل من الصلة أو خبر ثان لاولئك (تلفح وجوههم النار) تحرقها واللفح كالنفح الا أنه أشد تأثيرا منه وتخصيص الوجوه بذلك لانها أشرف الاعضاء فبيان حالها أزجر عن المعاصى المؤدية الى النار وهو السر فى تقديمها على الفاعل (وهم فيها كالحون) من شدة الاحتراق والكلوح تقلص الشفتين عن الاسنان وقرئ كلحون (ألم تكن آياتى تتلى عليكم) على اضمار القول أى يقال لهم تعنيفا وتوبيخا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا (فكنتم بها تكذبون) حينئذ (قالوا ربنا غلبت علينا) أى ملكتنا (شقوتنا) التى اقترفناها بسوء اختيارنا كما ينبئ عنه اضافتها الى أنفسهم وقرئ شقاوتنا

للجزاء الا ان ائمة اللغة قالوا اليمين بغير الله ذكر شرط وجزاء وفسروا الشرط بالذى دخل عليه كلمة ان والجزاء بالذى دخل عليه حرف الفاء والجزاء اسم لما يقع به الكفاية مأخوذ من قولهم جازيناه أى كافاناه وقال عليه السلام تجزيك ولا تجزى أحدا بعدك أى تكفيك ومنه قول القائل اجتزت الابل بالعشب عن الماء وانما تقع الكفاية بالجلد اذا لم يجب معه شئ آخر فايجاب شئ آخر يقتضى نسخ كونه كافيا (الثانى) ان المذكور فى الآية لما كان هو الجلد فقط كان ذلك هو كمال الحد فلو جعلنا النفى معتبرا مع الجلد لكان الجلد بعض الحد لا كل الحد فيفضى الى نسخ كونه كل الحد (الثالث) ان بتقدير كون الجلد كمال الحد فانه يتعلق بذلك رد الشهادة ولو جعلناه بعض الحد لزال ذلك الحكم فثبت ان ايجاب التغريب يقتضى نسخ الآية (وثانيها) قال ابو بكر الرازى لو كان النفى مشروعا مع الجلد لوجب على النبى صلى الله عليه وسلم عند تلاوة الآية توقيف الصحابة عليه لئلا يعتقدوا عند سماع الآية ان الجلد هو كمال الحد ولو كان كذلك لكان اشتهاره مثل اشتهار الآية فلما لم يكن خبر النفى بهذه المنزلة بل كان وروده من طريق الآحاد علم انه غير معتبر (وثالثها) ماروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى الامة اذا زنت فاجلدوها فان زنت فاجلدوها فان زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بظفير وفى رواية اخرى فليجلدها الحد ولا تغريب عليه ووجه الاستدلال به انه لو كان النفى ثابتا لذكره مع الجلد (ورابعها) انه اما أن يشرع التغريب فى حق الامة او لا يشرع ولا جائز أن يكون مشروعا لانه يلزم منه الاضرار بالسيد من غير جناية صدرت منه وهو غير جائز ولانه قال صلى الله عليه وسلم بيعوها ولو بظفير ولو وجب نفيها لما جاز بيعها لان المكنة من تسليمها الى المشترى لا تبقى بالنفى ولا جائز ان لا يكون مشروعا لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (وخامسها) ان التغريب لو كان مشروعا فى حق الرجل لكان اما ان يكون مشروعا فى حق المرأة أو لا يكون والثانى باطل لان التساوى فى الجناية قد وجد فى حقهما وان كان مشروعا فى حق المرأة فاما أن يكون مشروعا فى حقها وحدها أو مع ذى محرم والاول غير جائز للنص والمعقول أما النص فقوله عليه السلام لا يحل لامرأة أن تسافر من غير ذى محرم وأما المعقول فهو أن الشهوة غالبة فى النساء والانزجار بالدين انما يكون فى الخواص من الناس فان الغالب انعدم الزنا من النساء بوجود الحفاظ من الرجال وحيائهن من الاقارب وبالتغريب تخرج المرأة من أيدى القرباء والحفاظ ثم يقل حياؤها لبعدها عن معارفها فينفتح عليها باب الزنا فربما كانت فقيرة فيشتد فقرها فى السفر فيصير مجموع ذلك سببا لفتح باب هذه الفاحشة العظيمة عليها ولا جائز أن يقال انا نغربها مع الزوج أو المحرم لان عقوبة غير الجانى لا تجوز لقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى (وسادسها) ماروى عن عمر أنه غرب ربيعة بن أمية بن خلف فى الخمر الى خيبر فلحق بهرقل فقال عمر لا اغرب

بالفتح وشقاوتنا أيضا بالفتح والكسر (وكنا) بسبب ذلك (قوما ضالين) عن الحق ولذلك فعلنا مافعلنا من التكذيب وهذا كما ترى اعتراف منهم بان ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ماكتب عليهم من الشقاوة الازلية فمع أنه باطل فى نفسه لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة الا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ضرورة أن العلم تابع للمعلوم يرده قوله تعالى (ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) أى أخرجنا من النار وارجعنا الى الدنيا فان عدنا بعد ذلك الى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى فانا متجاوزون الحد فى الظلم ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة الى الدنيا ولما وعدوا الايمان والطاعة بل قولهم فان عدنا صريح فى أنهم حينئذ على الايمان والطاعة وانما الموعود على تقدير الرجعة الى الدنيا الثبات عليهما لا احداثهما (قال اخسؤا فيها) أى اسكتوا فى النار سكوت هوان وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب اذا زجرت من خسأت الكلب اذا زجرته مستهينا أى انزجر (ولا تكلمون) أى باستدعاء الاخراج من النار والرجع الى الدنيا وقيل لا تكلمون فى رفع العذاب ويرده التعليل الآتى

بعدها

بعدها أحدا ولم ينف فى الزنا وروى عن على عليه السلام انه قال فى البكرين اذا زنيا يجلدان ولا ينفيان وان نفيهما من الفتنة وعن ابن عمر أن أمة له زنت فجلدها ولم ينفها ولو كان النفى معتبرا فى حد الزنا لما خفى ذلك على اكابر الصحابة (وسابعها) ماروى أن شيخا وجد على بطن جارية يحنث بها فى خربة فأتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال اجلدوه مائة فقيل انه أضعف من ذلك فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها وخلوا سبيله ولو كان النفى واجبا لنفاه فان قيل انما لم ينفه لانه كان ضعيفا عاجزا عن الحركة قلنا كان ينبغى أن يكترى له دابة من بيت المال ينفى عليها فان قيل كان عسى يضعف عن الركوب قلنا من قدر على الزنا كيف لا يقدر على الاستمساك (وثامنها) ان التغريب نظير القتل لقوله تعالى ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم فنزلهما منزلة واحدة فاذا لم يشرع القتل فى زنا البكر وجب أن لا يشرع أيضا نظيره وهو التغريب (والجواب) عن الاول انه ليس فى كلام الله تعالى الا ادخال حرف الفاء على الامر بالجلد فاما ان الذى دخل عليه هذا الحرف فانه يسمى جزاء فليس هذا من كلام الله ولا من كلام رسوله بل هو قول بعض الادباء فلا يكون حجة أما قوله ثانيا لو كان النفى مشروعا لما كان الجلد كل الحد فنقول لا نزاع فى انه زال امر ما لان اثبات كل شئ لا اقل من ان يقتضى زوال عدمه الذى كان الا أن الزائل ههنا ليس حكما شرعيا بل الزائل محض البراءة الاصلية ومثل هذه الازالة لا يمتنع اثباتها بخبر الواحد وانما قلنا ان الزائل محض العدم الاصلى وذلك لان ايجاب الجلد مفهوم مشترك بين ايجابا الجلد مع ايجاب التغريب وبين ايجابه مع نفى التغريب والقدر المشترك بين القسمين لا اشعار له بواحد من القسمين فاذن ايجاب الجلد لا اشعار فيه البتة لا بايجاب التغريب ولا بعدم ايجابه الا ان نفى التغريب كان معلوما بالعقل نظرا الى البراءة الاصلية فاذا جاء خبر الواحد ودل على وجوب التغريب فما أزال البتة شيأ من مدلولات اللفظ الدال على وجوب الجلد بل ازال البراءة الاصلية فأما كون الجلد وحده مجزيا وكونه وحده كمال الحد وتعلق رد الشهادة عليه فكل ذلك تابع لنفى وجوب الزيادة فلما كان ذلك النفى معلوما بالعقل جاز قبول خبر الواحد فيه كما ان الفروض لو كانت خمسا لتوقف على ادائها الخروج عن عهدة التكليف وقبول الشهادة ولو زيد فيها شئ آخر لتوقف الخروج عن العهدة وقبول الشهادة على أداء تلك الزيادة مع انه يجوز اثباته بخبر الواحد والقياس فكذا ههنا أما لو قال الله تعالى الجلد كمال الحد وعلمنا انه وحده متعلق رد الشهادة فلا يقبل ههنا فى اثبات الزيادة خبر الواحد لان نفى وجوب الزيادة ثبت بدليل شرعى متواتر (والجواب) عن الثانى انه لو صح ماذكره لوجب فى كل ما خصص آية عامة ان يبلغ فى الاشتهار مبلغ تلك الآية ومعلوم انه ليس كذلك (والجواب) عن الثالث ان قوله ثم بيعوها لا يفيد التعقيب فلعلها تنفى ثم بعد النفى تباع (والجواب) عن الرابع انه معارض بما روى الترمذى فى جامعه انه عليه السلام جلد وغرب وأن ابا بكر جلد وغرب

وقيل لا تكلمون رأسا وهو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلب لا يفهمون ولا يفهمون ويرده الخطابات الآتية قطعا وقوله تعالى (انه) تعليل لما قبله من الزجر عن الدعاء أى ان الشان وقرئ بالفتح أى لان الشان (كان فريق من عبادى) وهم المؤمنون وقيل هم الصحابة وقيل أهل الصفة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين (يقولون) فى الدنيا (ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) أى اسكتوا عن الدعاء بقولكم ربنا الخ لانكم كنتم تستهزؤن بالداعين بقولهم ربنا آمنا الخ وتتشاغلون باستهزائهم (حتى أنسوكم) أى الاستهزاء بهم (ذكرى) من فرط اشتغالكم باستهزائهم (وكنتم منهم تضحكون) وذلك غاية الاستهزاء وقوله تعالى (انى جزيتهم اليوم) استئناف لبيان حسن حالهم وانهم انتفعوا بما آذوهم به (بما صبروا) بسبب صبرهم على أذيتكم وقوله تعالى (انهم هم الفائزون) ثانى مفعولى الجزاء أى جزيتهم فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به وقرئ بكسر الهمزة على انه تعليل للجزاء وبيان لكونه فى غاية ما يكون من الحسن (قال) أى الله عز وجل أو الملك المأمور بذلك تذكيرا لما لبثوا فيما سألوا الرجوع اليه

(والجواب) عن الخامس ان للشافعى رحمه الله فى تغريب العبد قولين (أحدهما) لايغرب لانه عليه السلام قال اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولم يامر بالتغريب ولان التغريب للمعرة ولامعرة على العبد فيه لانه ينقل من يد الى يد ولان منافعه للسيد فنى نفيه اضرار بالسيد (والثانى) وهو الاصح انه يغرب لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ولا ينظر الى ضرر المولى كما يقتل العبد بسبب الردة ويجلد العبد فى الزنا والقذف وان تضرر به المولى فعلى هذا كم يغرب فيه قولان (أحدهما) يغرب نصف سنة لانه يقبل التنصيف كما يجلد نصف حد الاحرار (والثانى) يغرب سنة لان التغريب المقصود منه الايحاش وذلك معنى يرجع الى الطبع فيستوى فيه الحر والعبد كمدة الايلاء والعنة (والجواب) عن السادس ان المرأة لاتغرب وحدها بل مع محرم فان لم يتبرع المحرم بالخروج معها اعطى اجرته من بيت المال وان لم يكن لها محرم تغرب مع النساء الثقات كما يجب عليها الخروج الى الحج معهن قوله التغريب يفتح عليها باب الزنا قلنا لانسلم فان أكثر الزنا بالالف والموانسة وفراغ القلب وأكثر هذه الاشياء تبطل بالغربة فان الانسان يقع فى الوحشة والتعب والنصب فلا يتفرغ للزنا (والجواب) عن السابع أى استبعاد فى ان يكون الانسان الذى يعجز عن ركوب الدابة يقدر على الزنا (والجواب) عن الثامن انه ينتقض بالتغريب اذا وقع على سبيل التعزير والله أعلم (المسئلة الثالثة) اتفقت الامة على ان قوله سبحانه وتعالى الزانية والزانى يفيد الحكم فى كل الزناة لكنهم اختلفوا فى كيفية تلك الدلالة فقال قائلون لفظ الزانى يفيد العموم والمختار أنه ليس كذلك ويدل عليه أمور (أحدها) ان الرجل اذا قال لبست الثوب أو شربت الماء لايفيد العموم (وثانيها) انه لايجوز تأكيده بما يؤكد به الجمع فلا يقال جاءنى الرجل أجمعون (وثالثها) لاينعت بنعوت الجمع فلا يقال جاءنى الرجل الفقراء وتكلم الفقيه الفضلاء فاما قولهم أهلك الناس الدرهم البيض والدينار الصفر فمجاز بدليل انه لايطرد وأيضا فان كان الدينار الصفر حقيقة وجب أن يكون الدينار الاصفر مجازا كما ان الدنانير الصفر لما كانت حقيقة كان الدنانير الاصفر مجازا (ورابعها) ان الزانى جزئى من هذا الزانى فايجاب جلد هذا الزانى ايجاب جلد الزانى فلو كان ايجاب جلد الزانى ايجابا لجلد كل زان لزم أن يكون ايجاب جلد هذا الزانى ايجاب جلد كل زان ولما لم يكن كذلك بطل ما قالوه فان قيل لم لايجوز أن يقال اللفظ المطلق انما يفيد العموم بشرط العراء عن لفظ التعيين او يقال اللفظ المطلق وان اقتضى العموم الا ان لفظ التعيين يقتضى الخصوص قلنا اما الاول فباطل لان العدم لادخل له فى التأثير اما الثانى فلانه يقتضى التعارض وهو خلاف الاصل وخامسها ان يقال الانسان هو الضاحك فلو كان المفهوم من قولنا الانسان هو كل الانسان لنزل ذلك منزلة ما يقال كل انسان هو الضاحك وذلك متناقض لانه يقتضى حصر الانسانية فى كل واحد من الناس ومعنى الحصر هو أن يثبت فيه لا فى غيره فيلزم ان يصدق على كل

واحد .

من الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله اخسؤا فيها الخ وقرئ قل على الامر للملك (كم لبثتم فى الارض) التى تدعون أن ترجعوا اليها (عدد سنين) تمييز لكم (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصارا لمدة لبثهم فيها (فاسال العادين) أى المتمكنين من العد فانا بما دهمنا من العذاب بمعزل من ذلك أو الملائكة العادين لاعمار العباد وأعمالهم وقرئ العادين بالتخفيف أى المتعدين فانهم أيضا يقولون ما نقول كانهم الاتباع يسمون الرؤساء بذلك لظلمهم اياهم باضلالهم وقرئ العاديين أى القدماء المعمرين فانهم أيضا يستقصرون مدة لبثهم (قال) أى الله تعالى او الملك وقرئ قل كما سبق (ان لبثتم الا قليلا) تصديقا لهم فى ذلك (لو أنكم كنتم تعلمون) أى تعلمون شيأ أو لو كنتم من أهل العلم والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أى لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها كما علمتم اليوم ولعملتم بموجبه ولم تخلدوا اليها (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا) أى ألم تعلموا شيأ فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث فعبثا حال من نون العظمة أى عابثين أو مفعول له أى انما خلقناكم للعبث (وانكم الينا لاترجعون) عطف على انما فان خلقكم بغير بعث من قبيل العبث وانما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على اعمالكم وقرئ ترجعون بفتح

واحد من اشخاص الناس انه هو الضاحك لاغير واحتج المخالف بوجهين (الاول) انه يجوز الاستثناء منه لقوله تعالى ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل تحته (الثانى) ان الالف واللام للتعريف وليس ذلك لتعريف الماهية فان ذلك قد حصل باصل الاسم ولا لتعريف واحد بعينه فانه ليس فى اللفظ دلالة عليه ولا لتعريف بعض مراتب الخصوص فانه ليس بعض المراتب اولى من بعض فوجب حمله على تعريف الكل (والجواب) عن الاول أن ذلك الاستثناء مجاز بدليل انه لايصح أن يقال رأيت الانسان الا المؤمنين وعن الثانى انه يشكل بدخول الالف واللام على صيغة الجمع فان جعلتها هناك للتاكيد فكذا ههنا ومن الناس من قال ان قوله تعالى الزانية والزانى وان كان لا يفيد العموم بحسب اللفظ لكنه يفيده بحسب القرينة وذلك من وجهين (الاول) ان ترتيب الحكم على الوصف المشتق يفيد كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم لاسيما اذا كان الوصف مناسبا وههنا كذلك فيدل ذلك على ان الزنا علة لوجوب الجلد فيلزم أن يقال اينما تحقق الزنا يتحقق وجوب الجلد ضرورة ان العلة لاتنفك عن المعلول (الثانى) ان المراد من قوله الزانية والزانى اما أن يكون كل الزناة أو البعض فان كان الثانى صارت الآية مجملة وذلك يمنع من امكان العمل به لكن العمل به مأمور وما لايتم الواجب الا به فهو واجب فوجب حمله على العموم حتى يمكن العمل به والله اعلم (البحث الثالث) فى الشرائط المعتبرة فى كون الزنا موجبا للرجم تارة والجلد أخرى فنقول اجمعوا على ان كون الزنا موجبا لهذين الحكمين مشروط بالعقل وبالبلوغ فلا يجب الرجم والحد على الصبى والمجنون وهذان الشرطان ليسا من خواص هذين الحكمين بل هما معتبران فى كل العقوبات اما كونهما موجبين للرجم فلا بد مع العقل والبلوغ من أمور أخر (الشرط الاول) الحرية واجمعوا على ان الرقيق لايجب عليه الرجم البتة (الشرط الثانى) التزوج بنكاح صحيح فلا يحصل الاحصان بالاصابة بملك اليمين ولا بوطء الشبهة ولا بالنكاح الفاسد (الشرط الثالث) الدخول ولا بد منه لقوله عليه السلام الثيب بالثيب وانما تصير ثيبا بالوطء وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) هل يشترط أن تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل فيه وجهان (أحدهما) لايشترط حتى لو أصاب عبد أمة بنكاح صحيح أو فى حال الجنون والصغر ثم كمل حاله فزنى يجب عليه الرجم لانه وطء يحصل به التحليل للزوج الاول فيحصل به الاحصان كالوطء فى حال الكمال ولان عقد النكاح يجوز أن يكون قبل الكمال فكذلك الوطء (والثانى) وهو الاصح وهو ظاهر النص وقول أبى حنيفة رحمه الله يشترط أن تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل لانه لما شرط أكمل الاصابات وهو أن يكون بنكاح صحيح شرط أن يكون تلك الاصابة فى حال الكمال (المسئلة الثانية) هل يعتبر الكمال فى الطرفين أو يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه دون صاحبه فيه قولان (أحدهما) معتبر فى الطرفين حتى لو وطئ الصبى بالغة حرة

الناس من الرجوع (فتعالى الله) استعظام له تعالى ولشؤنه التى تصرف عليها عباده من البدء والاعادة والاثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله وعن خلو افعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة (الملك الحق) الذى يحق له الملك على الاطلاق ايجادا واعداما بدأ واعادة احياء واماتة عقابا واثابة وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكوته (لا اله الا هو) فان كل ما عداه عبيده (رب العرش الكريم) فكيف بما تحته ومحاط به من الموجودات كائنا ما كان ووصفه بالكرم اما لانه منه ينزل الوحى الذى منه القرآن الكريم او الخير والبركة والرحمة او لنسبته الى اكرم الاكرمين وقرئ الكريم بالرفع على انه صفة الرب كما فى قوله تعالى ذو العرش المجيد (ومن يدع مع الله الها آخر) يعبده افرادا او اشراكا (لا برهان له به) صفة لازمة لالها كقوله تعالى يطير بجناحيه جئ بها للتاكيد وبناء الحكم عليه تنبيها على أن التدين بما لادليل عليه باطل فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه أو اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من أحسن الى زيد لا احق منه بالاحسان فالله مثيبه (فانما حسابه عند ربه) فهو مجازله على

عاقلة فانه لايحصنها وهو قول أبى حنيفة ومحمد (والثانى) يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه وهو قول أبى يوسف رحمه الله (حجة القول الاول) انه وطء لايفيد الاحصان لاحد الوطئين فلا يفيد فى الآخر كوطء الامة (حجة القول الثانى) انه لا يشترط كونهما على صفة الاحصان وقت النكاح وكذا عند الدخول (الشرط الرابع) الاسلام ليس شرطا فى كون الزنا موجبا للرجم عند الشافعى رحمه الله وأبى يوسف وقال أبو حنيفة رحمه الله شرط احتج الشافعى بامور (أحدها) قوله عليه السلام فاذا قبلوا الجزية فاخبروهم ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ومن جملة ما على المسلم كونه بحيث يجب عليه الرجم عند الاقدام على الزنا فوجب أن يكون الذمى كذلك لتحصل التسوية (وثانيها) حديث مالك عن نافع عن ابن عمر أنه عليه السلام رجم يهوديا ويهودية زنيا فاما أن يقال انه عليه السلام حكم بذلك بشريعته أو بشريعة من قبله فان كان الاول فالاستدلال به بين وان كان الثانى فكذلك لانه صار شرعا له (وثالثها) ان زنا الكافر مثل زنا المسلم فيجب عليه مثل ما يجب على المسلم وذلك لان الزنا محرم قبيح فيناسب الزجر وايجاب الرجم يصلح زاجرا له ولا يبقى الا التفاوت بالكفر والايمان والكفر وان كان لا يوجب تغليظ الجناية فلا يوجب تخفيفها واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) التمسك بعموم قوله الزانية والزانى وجب العمل به فى حق المسلم ولا يجب فى الذمى لمعنى مفقود فى الذمى ووجه الفرق ان القتل بالاحجار عقوبة عظيمة فلا يجب الا بجناية عظيمة والجناية تعظم بكفران النعم فى حق الجانى عقلا وشرعا أما العقل فلان المعصية كفران النعمة وكلما كانت النعم أكثر وأعظم كان كفرانها أعظم وأقبح وأما الشرع فلان الله تعالى قال فى حق نساء النبى صلى الله عليه وسلم يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين فلما كانت نعم الله تعالى فى حقهن أكثر كان العذاب فى حقهن أكثر وقال فى حق الرسول لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات وانما عظمت معصيته لان النعمة فى حقه اعظم وهى نعمة النبوة ومن المعلوم أن نعم الله تعالى فى حق المسلم المحصن اكثر منها فى حق الذمى فكانت معصية المسلم أعظم فوجب أن تكون عقوبته أشد (وثانيها) ان الذمى لم يزن بعد الاحصان فلا يجب عليه القتل (بيان الاول) قوله عليه السلام من اشرك بالله طرفة عين فليس بمحصن (بيان الثانى) ان المسلم الذى لا يكون محصنا لا يجب عليه القتل لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث واذا كان المسلم كذلك وجب أن يكون الذمى كذلك لقوله عليه السلام اذا قبلوا عقد الجزية فاعلمهم ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين (وثالثها) أجمعنا على ان احصان القذف يعتبر فيه الاسلام فكذا احصان الرجم والجامع ماذكرنا من كمال النعمة (والجواب) عن الاول أنه خص عنه الثيب المسلم فكذا الثيب الذمى وماذكروه من حديث زيادة النعمة على المؤمنين فنقول نعمة الاسلام حصلت بكسب العبد فيصير ذلك كالخدمة الزائدة وزيادة الخدمة ان لم تكن سببا

للعذر

قدر ما يحققه (انه لايفلح الكافرون) اى ان الشان الخ وقرئ بالفتح على انه تعليل اوخبر ومعناه حسابه عدم الفلاح والاصل حسابه أنه لايفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير لان من يدع فى معنى الجمع وكذلك حسابه انه لايفلح فى معنى حسابهم انهم لايفلحون • بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين وختمت بنفى الفلاح عن الكافرين ثم امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار والاسترحام فقيل (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ايذانا بأنهما من أهم الامور الدينية حيث أمر به من قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تاخر فكيف بمن عداه • عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان وماتقر به عينه عند نزول ملك الموت وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لقد أنزلت على عشر ايات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر وروى ان أولها وآخرها من كنوز الجنة من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ باربع من آخرها فقد نجا وأفلح

للعذر فلا اقل من أن لا تكون سببا لزيادة العقوبة وعن الثانى لا نسلم ان الذمى مشرك سلمناه لكن الاحصان قد يراد به التزوج لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات وفى التفسير فاذا أحصن يعنى فاذا تزوجن اذا ثبت هذا فنقول الذمى الثيب محصن بهذا التفسير فوجب رجمه لقوله صلى الله عليه وسلم أو زنا بعد احصان رتب الحكم فى حق المسلم على هذا الوصف فدل على كون الوصف علة والوصف قائم فى حق الذمى فوجب كونه مستلزما للحكم بالرجم وعن الثالث ان حد القذف لدفع العار كرامة للمقذوف والكافر لا يكون محلا للكرامة وصيانة العرض بخلاف ماههنا والله اعلم أما ما يتعلق بالجلد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اتفقوا على ان الرقيق لا يرجم واتفقوا على انه يجلد وثبت بنص الكتاب ان على الاماء نصف ما على المحصنات من العذاب فلا جرم اتفقوا على ان الامة تجلد خمسين جلدة أما العبد فقد اتفق الجمهور على انه يجلد أيضا خمسين الا أهل الظاهر فانهم قالوا عموم قوله الزانية والزانى يقتضى وجوب المائة على العبد والامة الا أنه ورد النص بالتنصيف فى حق الامة فلو قسنا العبد عليها كان ذلك تخصيصا لعموم الكتاب بالقياس وانه غير جائز ومنهم من قال الامة اذا تزوجت فعليها خمسون جلدة واذا لم تتزوج فعليها المائة لظاهر قوله تعالى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة وذكروا ان قوله فاذا أحصن أى تزوجن فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (المسئلة الثانية) قال الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله الذمى يجلد وقال مالك رحمه الله لا يجلد لنا وجوه (أحدها) عموم قوله الزانية والزانى (وثانيها) قوله عليه السلام اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها وقوله أقيموا الحدود على ماملكت أيمانكم ولم يفرق بين الذمى والمسلم (وثالثها) انه عليه السلام رجم اليهوديين فذلك الرجم ان كان من شرع محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل المقصود وان كان من شرعهم فلما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم صار ذلك من شرعه وحقيقة هذه المسئلة ترجع الى ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (البحث الرابع) فيما يدل على صدور الزنا منه اعلم ان ذلك لا يحصل الا من أحد ثلاثة أوجه اما بان يراه الامام بنفسه أو بان يقر أو بان يشهد عليه الشهود أما الوجه (الاول) وهو ما اذا رآه الامام قال الامام محيى السنة فى كتاب التهذيب لا خلاف ان على القاضى أن يمتنع عن القضاء بعلم نفسه مثل ما اذا ادعى رجل على آخر حقا وأقام عليه بينة والقاضى يعلم انه قد أبرأه أو ادعى انه قتل أباه وقت كذا وقد رآه القاضى حيا بعد ذلك أو ادعى نكاح امرأة وقد سمعه القاضى طلقها لا يجوز أن يقضى به وان أقام عليه شهودا وهل يجوز للقاضى أن يقضى بعلم نفسه مثل ان ادعى عليه ألفا وقد رآه القاضى أقرضه أو سمع المدعى عليه أقر به فيه قولان أصحهما وبه قال أبو يوسف ومحمد والمزنى رحمهم الله انه يجوز له أن يقضى بعلمه لانه لما جاز له أن يحكم بشهادة الشهود وهو من قولهم على ظن فلان يجوز بما رآه وسمعه وهو منه على علم اولى قال الشافعى رحمه الله فى كتاب الرسالة أقضى بعلمى وهو أقوى من شاهدين أو بشاهدين وشاهد وامرأتين

•(سورة النور مدنية وهى اثنتان أواربع وستون آية)•

•(بسم الله الرحمن الرحيم)•

(سورة) خبر مبتدا محذوف أى هذه سورة وانما أشير اليها مع عدم سبق ذكرها لانها باعتبار كونها فى شرف الذكر فى حكم الحاضر المشاهد وقوله تعالى (أنزلناها) مع ماعطف عليه صفات لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات وأما كونها مبتدأ محذوف الخبر على أن يكون التقدير فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها فيأباه أن مقتضى المقام بيان شان هذه السورة الكريمة لا أن فى جملة ما أوحى الى النبى عليه الصلاة والسلام سورة شأنها كذا وكذا وحملها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم أن غيرها من السور الكريمة ليست على تلك الصفات وقرئ بالنصب على اضمار فعل يفسره أنزلناها فلا محل له حينئذ من الاعراب أو على تقدير اقرأ ونحوه أو دونك عند من يسوغ حذف أداة الاغراء فجعل أنزلنا النصب على الوصفية (وفرضناها) أى أوجبنا ما فيها من الاحكام ايجابا

وهو أقوى من شاهد ويمين او بشاهد ويمين وهو أقوى من النكول ورد اليمين (والقول الثانى) لا يقضى بعلمه وهو قول ابن أبى ليلى لان انتفاء التهمة شرط فى القضاء ولم يوجد هذا فى المال أما فى العقوبات فينظر ان كان ذلك من حقوق العباد كالقصاص وحد القذف هل يحكم فيه بعلم نفسه يرتب على المال ان قلنا هناك لا يقضى فههنا أولى والا فقولان والفرق ان مبنى حقوق الله تعالى على المساهلة والمسامحة ولا فرق على القولين أن يحصل العلم للقاضى فى بلد ولايته وزمان ولايته أو فى غيره وقال أبو حنيفة رحمه الله ان حصل له العلم فى بلد ولايته أو فى زمان ولايته له أن يقضى بعلمه والا فلا فنقول العلم لا يختلف باختلاف هذه الاحوال فوجب أن لا يختلف الحكم باختلافها والله اعلم (الطريق الثانى) الاقرار قال الشافعى رحمه الله الاقرار بالزنا مرة واحدة يوجب الحد وقال أبو حنيفة رحمه الله بل لابد من الاقرار أربع مرات فى أربع مجالس وقال أحمد لابد من الاقرار أربع مرات لكن لا فرق بين أن يكون فى أربع مجالس أو فى مجلس واحد حجة الشافعى رحمه الله أمران (الاول) قصة العسيف فانه قال عليه السلام فان اعترفت فارجمها وذلك دليل على ان الاعتراف مرة واحدة كاف (الثانى) انه لما أقر بالزنا وجب الحد عليه لقوله عليه السلام اقض بالظاهر والاقرار مرة واحدة يوجب الظهور لا سيما ههنا وذلك لان الصارف عن الاقرار بالزنا قوى لما أنه سبب العار فى الحال والالم الشديد فى المآل والصارف عن الكذب أيضا قائم وعند اجتماع الصارفين يقوى الانصراف فثبت انه انما أقدم على هذا الاقرار لكونه صادقا واذا ظهر اندرج تحت الحديث وتحت الآية أو نقيسه على الاقرار بالقتل والردة واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) قصة ماعز والاستدلال بها من وجوه (الاول) انه عليه السلام أعرض عنه فى المرة الاولى ولو وجب عليه الحد لم يعرض عنه لان الاعراض عن اقامة حد الله تعالى بعد كمال الحجة لا يجوز (الثانى) انه عليه السلام قال انك شهدت على نفسك أربع مرات ولو كان الواحد مثل الاربع فى ايجاب الحد كان هذا القول لغوا (والثالث) روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لماعز بعد ما اقر ثلاث مرات لو أقررت الرابعة لرجمك رسول الله (والرابع) عن بريدة الاسلمى قال كنا معشر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نقول لو لم يقر ماعز أربع مرات ما رجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثانيها) انهم قاسوا الاقرار على الشهادة فكما انه لا يقبل فى الزنا الا أربع شهادات فكذا فى الاقرار به والجامع السعى فى كتمان هذه الفاحشة (وثالثها) ان الزنا لا يثبت الا بأربع شهادات أو بأربع أيمان فى اللعان فجاز أيضا أن لا يثبت الا بالاقرار أربع مرات وبه يفارق سائر الحقوق فانها تثبت بيمين واحد فجاز أيضا أن يثبت باقرار واحد (والجواب) عن الاول انه ليس فى الحديث الا انه عليه السلام حكم بالشهادات الاربع وذلك لا ينافى جواز الحكم بالشهادة الواحدة (وعن الثانى) ان الفرق بينهما ان المقذوف

قطعيا وفيه من الايذان بغاية وكادة الفرضية ما لا يخفى وقرئ فرّضناها بالتشديد لتأكيد الايجاب أو لتعدد الفرائض أو لكثرة المفروض عليهم من السلف والخلف (وأنزلنا فيها) أى فى تضاعيف السورة (آيات بينات) ان أريد بها الآيات التى نيطت بها الاحكام المفروضة وهو الاظهر فكونها فى السورة ظاهر ومعنى كونها بينات وضوح دلالتها على أحكامها لا على معانيها على الاطلاق فانها اسوة لسائر الآيات فى ذلك وتكرير أنزلنا مع استلزام انزال السورة لانزالها لابراز كمال العناية بشأنها وان أريد جميع الآيات فالظرفية باعتبار اشتمال الكل على كل واحد من أجزائه وتكرير أنزلنا مع أن جميع الآيات عين السورة وانزالها عين انزالها لاستقلالها بعنوان رائق داع الى تخصيص انزالها بالذكر ابانة لخطرها ورفعا لمحلها كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ بعد قوله تعالى نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا (لعلكم تذكرون) بحذف احدى التاءين وقرئ بادغام الثانية فى الذال أى

لو أقر بالزنا مرة لسقط الحد عن القاذف ولولا أن الزنا ثبت لما سقط كما لو شهد اثنان بالزنا لا يسقط الحد عن القاذف حيث لم يثبت به الزنا والله اعلم (والطريق الثالث) الشهادة وقد أجمعوا على انه لابد من أربع شهادات ويدل عليه قوله تعالى فاستشهدوا عليهن أربعة منكم والكلام فيه سيأتى ان شاء الله تعالى فى قوله ثم لم يأتوا بأربعة شهداء (البحث الخامس) فى ان المخاطب بقوله تعالى فاجلدوا من هو أجمعت الامة على ان المخاطب بذلك هو الامام ثم احتجوا بهذا على وجوب نصب الامام قالوا لانه سبحانه أمر باقامة الحد وأجمعوا على أنه لا يتولى اقامته الا الامام وما لا يتم الواجب المطلق الا به وكان مقدورا للمكلف فهو واجب فكان نصب الامام واجبا وقد مر بيان هذه الدلالة فى قوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما بقى ههنا ثلاث مسائل (المسئلة الاولى) قال الشافعى رحمه الله السيد يملك اقامة الحد على مملوكه وهو قول ابن مسعود وابن عمر وفاطمة وعائشة وعند أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا يملك وقال مالك يحده المولى فى الزنا وشرب الخمر والقذف ولا يقطعه فى السرقة وانما يقطعه الامام وهو قول الليث واحتج الشافعى رحمه الله بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام أقيموا الحدود على ما ملكت ايمانكم وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال عليه السلام اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها وفى رواية أخرى فليجلدها الحد قال ابو بكر الرازى لا دلالة فى هذه الاخبار لان قوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم هو كقوله الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ومعلوم ان المراد منه رفعه الى الامام لاقامة الحد والمخاطبون باقامة الحد هم الائمة وسائر الناس مخاطبون برفع الامر اليهم حتى يقيموا عليهم الحدود فكذلك قوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم على هذا المعنى وأما قوله اذا زنت أمة احدكم فليجلدها فانه ليس كل جلد حدا لان الجلد قد يكون على وجه التعزير فاذا عزرناها فقد وفينا بمقتضى الحديث (والجواب) ان قوله أقيموا الحدود أمر باقامة الحد فحمل هذا اللفظ على رفع الواقعة الى الامام عدول عن الظاهر أقصى ما فى الباب انه ترك الظاهر فى قوله فاجلدوا لكن لا يلزم من ترك الظاهر هناك تركه ههنا أما قوله فليجلدها المراد هو التعزير فباطل لان الجلد المذكور عقيب الزنا لا يفهم منه الا الحد (وثانيها) ان السلطان لما ملك اقامة الحد عليه فسيده به أولى لان تعلق السيد بالعبد أقوى من تعلق السلطان به لان الملك أقوى من عقد البيعة وولاية السادة على العبيد فوق ولاية السلطان على الرعية حتى اذا كان للامة سيد وأب فان ولاية النكاح للسيد دون الاب ثم ان الاب مقدم على السلطان فى ولاية النكاح فيكون السيد مقدما على السلطان بدرجات فكان أولى ولان السيد يملك من التصرفات فى هذا المحل ما لا يملكه الامام فثبت ان المولى أولى (وثالثها) أجمعنا على ان السيد يملك التعزير فكذا الحد لان كل واحد نظير الآخر وان كان أحدهما مقدرا والآخر غير مقدر واحتج أبو بكر الرازى على مذهب أبى حنيفة بوجوه

تذكرونها فتعملون بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية الى اجراء أحكامها وفيه ايذان بان حقها أن تكون على ذكر منهم بحيث متى مست الحاجة اليها استحضروها (الزانية والزانى) شروع فى تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها والزانية هى المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المزنية كرها وتقديمها على الزانى لانها الاصل فى الفعل لكون الداعية فيها أوفر ولولا تمكينها منه لم يقع ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط اذ اللام بمعنى الموصول والتقدير التى زنت والذى زنى كما فى قوله تعالى واللذان يأتيانها منكم فآذوهما وقيل الخبر محذوف أى فيما أنزلنا أو فيما فرضنا الزانية والزانى أى حكمهما وقوله تعالى فاجلدوا الخ بيان لذلك الحكم وكان هذا عاما فى حق المحصن وغيره وقد نسخ فى حق المحصن قطعا ويكفينا فى تعيين الناسخ القطع بانه عليه الصلاة والسلام قد رجم ماعزا

(أحدها) قال قوله تعالى الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة لا شك انه
خطاب مع الائمة دون عامة الناس فالتقدير فاجلدوا أيها الائمة والحكام كل واحد منهما
مائة جلدة ولم يفرق في هذه الآية بين المحدودين من الاحرار والعبيد فوجب أن تكون
الائمة هم المخاطبون باقامة الحدود على الاحرار والعبيد دون الموالي (وثانيها) انه لو جاز
للمولى أن يسمع شهادة الشهود على عبده بالسرقة فيقطعه فلو رجعوا عن شهادتهم لوجب
أن يتمكن من تضمين الشهود لان تضمين الشهود يتعلق بحكم الحاكم بالشهادة لانه لو لم
يكن يحكم بشهادتهم لم يضمنوا شيأ فكان يصير حاكما لنفسه بايجاب الضمان عليهم وذلك
باطل لانه ليس لاحد من الناس ان يحكم لنفسه فعلمنا ان المولى لا يملك استماع البينة على
عبده بذلك ولا قطعه (وثالثها) ان المالك ربما لا يستوفي الحد بكماله لشفقته على ملكه واذا
كان متهما وجب أن لا يفوض اليه (والجواب) عن الاول ان قوله فاجلدوا ليس
بصريحه خطابا مع الامام لكن بواسطة انه لما انعقد الاجماع على ان غير الامام لا يتولاه
حملنا ذلك الخطاب على الامام وههنا لم ينعقد الاجماع على ان غير الامام لا يتولاه لانه عين
النزاع (والجواب) عن الثاني قال محيي السنة في كتاب التهذيب هل يجوز للمولى قطع
يد عبده بسبب السرقة أو قطع الطريق فيه وجهان أصحهما أنه يجوز نص عليه في
رواية البويطي لما روي عن ابن عمر أنه قطع عبدا له سرق وكان يجلده في الزنا وشرب الخمر
(والثاني) لا بل القطع الى الامام بخلاف الجلد لان المولى يملك جنس الجلد وهو التعزير
ولا يملك جنس القطع ثم قال وكل حد يقيمه المولى على عبده انما يقيمه اذا ثبت باعتراف العبد
فان كانت عليه بينة فهل يسمع المولى الشهادة فيه وجهان (أحدهما) يسمع لانه ملك
الاقامة بالاعتراف فيملك بالبينة كالامام (والثاني) لا يسمع بل ذاك الى الحكام
(والجواب) عن الثالث انه منقوض بالتعزير (المسئلة الثانية) اذا فقد الامام فليس
لآحاد الناس اقامة هذه الحدود بل الاولى أن يعينوا واحدا من الصالحين ليقوم به
(المسئلة الثالثة) الخارجي المتغلب هل له اقامة الحدود قال بعضهم له ذلك وقال آخرون
ليس له ذلك لان اقامة الحد من جهة من لم يلزمنا أن نزيل ولايته أبعد من ان نفوض ذلك
الى رجل من الصالحين (البحث السادس) في كيفية اقامة الحد أما الجلد فاعلم ان
المذكور في الآية هو الجلد وهذا مشترك بين الجلد الشديد والجلد الخفيف والجلد على
كل الاعضاء أو على بعض الاعضاء فحينئذ لا يكون في الآية اشعار بشئ من هذه القيود
بل مقتضى الآية أن يكون الآتي بالجلد كيف كان خارجا عن العهدة لانه اتى بما أمر به
فوجب أن يخرج عن العهدة قال صاحب الكشاف وفي لفظ الجلد اشارة الى أنه لا ينبغي
ان يتجاوز الالم الى اللحم ولان الجلد ضرب الجلد يقال جلده كقولك ظهره وبطنه
ورأسه الا أنا لما عرفنا ان المقصود منه الزجر والزجر لا يحصل الا بالجلد الخفيف لا جرم
تكلم العلماء في صفة الجلد على سبيل القياس ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) المحصن

يجلد

وغيره فيكون من باب نسخ الكتاب
بالسنة المشهورة وفي الايضاح
الرجم حكم ثبت بالسنة المشهورة
المتفق عليها فجازت الزيادة بها
على الكتاب وروى عن علي رضي
الله عنه جلدتها بكتاب الله ورجمتها
بسنة رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقيل نسخ بآية منسوخة
التلاوة هي الشيخ والشيخة اذا
زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله
والله عزيز حكيم ويأباه ما روى عن
علي رضي الله عنه (ولا تأخذكم
بهما رأفة) وقرئ بفتح الهمزة
وبالمد أيضا على فعالة أي رحمة
ورقة (في دين الله) في طاعته
واقامة حده فتعطلوه أو تسامحوا
فيه وقد قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت
محمد لقطعت يدها (ان كنتم
تؤمنون بالله واليوم الآخر) من
باب التهييج والالهاب فان الايمان
بهما يقتضي الجد في طاعته تعالى
والاجتهاد في اجراء أحكامه وذكر
اليوم الآخر لتذكير ما فيه من
العقاب في مقابلة المسامحة
والتعطيل (وليشهد عذابهما
طائفة من المؤمنين) أي لتحضره
زيادة في التنكيل فان التفضيح
قد ينكل اكثر مما ينكل التعذيب

يجلد مع ثيابه ولا يجرد ولكن ينبغي أن يكون بحيث يصل الالم اليه وينزع من ثيابه
الحشو والفرو روى أن ابا عبيدة بن الجراح أتي برجل في حد فذهب الرجل ينزع قميصه
وقال ما ينبغي لجسدي هذا المذنب أن يضرب وعليه قميص فقال أبو عبيدة لا تدعوه ينزع
قميصه فضربه عليه أما المرأة فلا خلاف في أنه لا يجوز تجريدها بل يربط عليها ثيابها حتى
لا تنكشف ويلي ذلك منها امرأة (المسئلة الثانية) لا يمد ولا يربط بل يترك حتى يتقي بيديه
ويضرب الرجل قائما والمرأة جالسة قال أبو يوسف رحمه الله ضرب ابن أبي ليلى المرأة
القاذفة قائمة فخطأه أبو حنيفة (المسئلة الثالثة) يضرب بسوط وسط لا جديد يجرح
ولا خلق لم يؤلم ويضرب ضربا بين ضربين لا شديد ولا واه روى أبو عثمان النهدي قال اتى
عمر برجل في حد ثم جيء بسوط فيه شدة فقال أريد ألين من هذا فأتي بسوط فيه لين فقال
أريد أشد من هذا فأتي بسوط بين السوطين فرضي به (المسئلة الرابعة) تفرق السياط
على أعضائه ولا يجمعها في موضع واحد واتفقوا على أنه يتقي المهالك كالوجه والبطن
والفرج ويضرب على الرأس عند الشافعي رحمه الله وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يضرب
على الرأس وهو قول علي حجة الشافعي رحمه الله قال أبو بكر اضرب على الرأس فان
الشيطان فيه وعن عمر انه ضرب صبيغ بن عسيل على رأسه حين سال عن الذاريات
على وجه التعنت حجة أبي حنيفة رحمه الله أجمعنا على انه لا يضرب على الوجه فكذا
الرأس والجامع الحكم والمعنى أما الحكم فلأن الشين الذي يلحق الرأس بتأثير الضرب
كالذي يلحق الوجه بدليل ان الموضحة وسائر الشجاج حكمها في الرأس والوجه واحد
وفارقا سائر البدن لان الموضحة فيما سوى الرأس والوجه انما يجب فيها حكومة ولا يجب
فيها أرش الموضحة الواقعة في الرأس والوجه فوجب استواء الرأس والوجه في وجوب
صونهما عن الضرب وأما المعنى فهو انما منع من ضرب الوجه لما كان فيه من الجناية على
البصر وذلك موجود في الرأس لان ضرب الرأس يظلم منه البصر وربما حدث منه الماء
في العين وربما حدث منه اختلاط العقل أجاب أصحابنا عنه بان الفرق بين الوجه والرأس
ثابت لان الضربة اذا وقعت على الوجه فعظم الجبهة رقيق فربما انكسر بخلاف عظم
القفا فانه في نهاية الصلابة وأيضا فالعين في نهاية اللطافة فالضرب عليها يورث العمى
وأيضا فالضرب على الوجه يكسر الانف لانه من غضروف لطيف ويكسر الاسنان لانها
عظام لطيفة ويقع على الخدين وهما لحمان قريبان من الدماغ والضربة عليهما في نهاية
الخطر لسرعة وصول ذلك الاثر الى جرم الدماغ وكل ذلك لم يوجد في الضرب على الرأس
(المسئلة الخامسة) لو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل أن يضرب كل يوم
سوطا أو سوطين لا يحسب وان ضرب كل يوم عشرين أو أكثر يحسب والاولى أن لا يفرق
(المسئلة السادسة) ان وجب الحد على الحبلى لا يقام حتى تضع روى عمران بن الحصين ان
امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حبلى من الزنا فقالت يا نبي الله

والطائفة فرقة يمكن أن تكون
حافة حول شئ من الطوف وأقلها
ثلاثة كما روى عن قتادة وعن ابن
عباس رضي الله عنهما أربعة الى
أربعين وعن الحسن عشرة
والمراد جمع يحصل به التشهير
والزجر (الزاني لا ينكح الا زانية
أو مشركة والزانية لا ينكحها
الا زان أو مشرك) حكم مؤسس
على الغالب المعتاد جيء به لزجر
المؤمنين عن نكاح الزواني بعد
زجرهم عن الزنا بهن وقد رغب
بعض من ضعفة المهاجرين في
نكاح موسرات كانت بالمدينة
من بغايا المشركين فاستأذنوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم في
ذلك فنفروا عنه ببيان أنه من
أفعال الزناة وخصائص المشركين
كأنه قيل الزاني لا يرغب الا في
نكاح احداهما والزانية لا يرغب
في نكاحها الا أحدهما فلا
تحوموا حوله كي لا تنتظموا في
سلكهما أو تتسموا بسمتهما فايراد
الجملة الاولى مع أن مناط التنفير
هي الثانية اما للتعريض بقصرهم
الرغبة عليهن حيث استأذنوا في
نكاحهن أو لتأكيد العلاقة
بين الجانبين مبالغة في الزجر
والتنفير وعدم التعرض في الجملة

أصبت حدا فاقمه على فدعا نبي الله وليها فقال أحسن اليها فاذا وضعت فائتني بها ففعل فأمر بها نبي الله صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ولان المقصود التأديب دون الاتلاف (المسئلة السابعة) ان وجب الجلد على المريض نظر فان كان به مرض يرجى زواله من صداع أو ضعف أو ولادة يؤخر حتى يبرأ كما لو أقيم عليه حد أو قطع لا يقام عليه حد آخر حتى يبرأ من الاول وان كان به مرض لا يرجى زواله كالسل والزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط فانه يموت وليس المقصود موته وذلك لا يختلف سواء كان زناه في حال الصحة ثم مرض أو في حال المرض بل يضرب بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام مائة جلدة كما قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وعند أبي حنيفة رحمه الله يضرب بالسياط دليلنا ماروى ان رجلا مقعدا أصاب امرأة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذوا مائة شمراخ فضربوه بها ضربة واحدة ولان الصلاة اذا كانت تختلف باختلاف حاله فالحد أولى بذلك (المسئلة الثامنة) يقام الحد في وقت اعتدال الهواء فان كان في حال شدة حر أو برد نظر ان كان الحد رجما يقام عليه كما يقام في المرض لان المقصود قتله وقيل ان كان الرجم ثبت عليه باقراره فيؤخر الى اعتدال الهواء وزوال المرض الذي يرجى زواله لانه ربما رجع عن اقراره في خلال الرجم وقد أثر الرجم في جسمه فتعين شدة الحر والبرد والمرض على اهلاكه بخلاف ما لو ثبت بالبينة لانه لا يسقط وان كان الحد جلدا لم يجز اقامته في شدة الحر والبرد كما لا يقام في المرض أما الرجم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الشافعي رحمه الله ومالك رحمه الله يجوز للامام أن يحضر رجمه وأن لا يحضر وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور وقال أبو حنيفة رحمه الله ان ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدؤا بالرجم ثم الامام ثم الناس وان ثبت باقراره بدأ الامام ثم الناس حجة الشافعي رحمه الله ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما (المسئلة الثانية) ان ثبت الزنا باقراره فمتى رجع ترك وقع به بعض الحد أو لم يقع وبه قال أبو حنيفة رحمه الله والثوري وأحمد واسحق وقال الحسن وابن أبي ليلى وداود لا يقبل رجوعه وعن مالك رحمه الله روايتان حجة القول الاول ان ماعزا لما مسته الحجارة وهرب فقال عليه السلام هلا تركتموه (المسئلة الثالثة) يحفر للمرأة الى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى اليها ولا يحفر للرجل لما روى أبو سعيد الخدري أن ماعزا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني أصبت فاحشة فأقم علي الحد فرده النبي عليه السلام مرارا ثم سأل قومه فقالوا لا نعلم به بأسا فأمرنا ان نرجمه فانطلقنا به الى بقيع الغرقد فما أوثقناه ولا حفرنا له قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة وانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكت وجه الاستدلال انه قال فما أوثقناه ولا حفرنا له ولانه هرب ولو كان في حفرة لما أمكنه ذلك (المسئلة الرابعة) اذا

الثانية للمشركة للتنبيه على أن مناط الزجر والتنفير هو الزنا لا مجرد الاشراك وانما تعرض لها في الاولى اشباعا في التنفير عن الزانية بنظمها في سلك المشركة (وحرم ذلك) أي نكاح الزواني (على المؤمنين) لما أن فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والتسبب لسوء المقالة والطعن في النسب واختلال أمر المعاش وغير ذلك من المفاسد ما لا يكاد يليق باحد من الاداني والاراذل فضلا عن المؤمنين ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة في الزجر وقيل النفي بمعنى النهي وقد قرئ به والتحريم على حقيقته والحكم اما مخصوص بسبب النزول أو منسوخ بقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم فانه متناول للمسافحات ويؤيده ماروى انه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال وما قيل من أن المراد بالنكاح هو الوطء بين البطلان (والذين يرمون المحصنات) بيان لحكم العفائف اذا نسبن الى الزنا بعد بيان حكم الزواني ويعتبر في الاحصان ههنا مع مدلوله الوضعي

مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين فهذا ما اردنا ذكره من بيان الاحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية (أما المباحث) العقلية فاعلم ان من الناس من قال لا شك ان البدن مركب من أجزاء كثيرة فاما أن يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة أو يقوم بكل الاجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة والثاني محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين الاول واذا كان كذلك كان كل جزء من اجزاء البدن حيا على حدة وعالما على حدة وقادرا على حدة واذا ثبت هذا فنقول الزاني هو الفرج لا الظهر فكيف يحسن من الحكيم ان يأمر بجلد الظهر ولانه ربما كان الانسان حال اقدامه على الزنا نحيفا نحيفا ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز ايلام تلك الاجزاء الزائدة مع انها كانت بريئة عن فعل الزنا فان قال قائل هذا مدفوع من وجهين (الاول) وهو أنه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلا على حدة وحيا على حدة وذلك محال بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحيية والعالمية والقادرية لمجموع الاجزاء فيكون المجموع حيا واحدا عالما واحدا قادرا واحدا وعلى هذا التقدير يزول السؤال (الثاني) أن يقال الذي هو الفاعل والمحرك والمدرك شئ ليس بجسم ولا جسماني وانما هو مدبر لهذا البدن وعلى هذا التقدير أيضا يزول السؤال (والجواب) أما الاول فضعيف وذلك لان العلم اذا قام بجزء واحد فاما أن يحصل لمجموع الاجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال أو يقوم بكل جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور وأما الثاني ففي نهاية البعد لانه اذا كان الفاعل للقبيح هو ذلك المباين فلم يضرب هذا الجسد واعلم ان المقصود من أحكام الشرع رعاية المصالح ونحن نعلم ان شرع الحد يفيد الزجر فكان المقصود حاصلا والله أعلم أما قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الرأفة الرقة والرحمة وقراءة العامة بسكون الهمزة وقرئ رأفة بفتح الهمزة ورآفة على فعالة (المسئلة الثانية) يحتمل أن يكون المراد أن لا تأخذكم رأفة بان يعطل الحد او ينقص منه والمعنى لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا اقامتها للشفقة والرحمة وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير واختيار الفراء والزجاج ويحتمل أن لا تأخذكم رأفة بان يخفف الجلد وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وقتادة ويحتمل كلا الامرين والاول أولى لان الذي تقدم ذكره الامر بنفس الجلد ولم يذكر صفته فما يعقبه يجب أن يكون راجعا اليه وكفى برسول الله اسوة في ذلك حيث قال لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ونبه بقوله في دين الله على ان الدين اذا أوجب أمرا لم يصح استعمال الرأفة في خلافه أما قوله تعالى ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فهو من باب التهييج والتهاب الغضب لله تعالى ولدينه قال الجبائي تقدير الآية ان كنتم مؤمنين فلا تتركوا اقامة الحدود وهذا يدل على ان الاشتغال باداء الواجبات من الايمان بخلاف ما تقوله المرجئة (والجواب) ان الرأفة

الذي هو العفة عن الزنا الحرية والبلوغ والاسلام وفي التعبير عن التفوه بما قالوا في حقهن بالرمي المنبئ عن صلابة الآلة وايلام المرمي وبعده عن الرامي ايذان بشدة تأثيره فيهن وكونه رجما بالغيب والمراد به رميهن بالزنا لا غير وعدم التصريح به للاكتفاء بايرادهن عقيب الزواني ووصفهن بالاحصان الدال بالوضع على نزاهتهن عن الزنا خاصة فان ذلك بمنزلة التصريح بكون رميهن به لا محالة ولا حاجة في ذلك الى الاستشهاد باعتبار الاربعة من الشهداء على أن فيه مؤنة بيان تأخر نزول الآية عن قوله تعالى فاستشهدوا عليهن أربعة ولا بعدم وجوب الحد بالرمي بغير الزنا على أن فيه شبهة المصادرة كأنه قيل والذين يرمون العفائف المنزهات عما رمين به من الزنا (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) يشهدون عليهن بما رموهن به وفي كلمة ثم اشعار بجواز تأخير الاتيان بالشهود كما أن في كلمة لم اشارة الى تحقق العجز عن الاتيان بهم وتقرره خلا أن اجتماع الشهود لا بد منه عند الاداء خلافا للشافعي رحمه الله تعالى فانه جوز التراخي بين الشهادات كما بين الرمي والشهادة ويجوز أن يكون

لاتحصل الا اذا احكم الانسان بطبعه ان الاولى أن لاتقام تلك الحدود وحينئذ يكون منكرا للدين فيخرج عن الايمان فى الحديث يؤتى بوال نقص من الحد سوطا فيقال له لم فعلت ذاك فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم بهم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقال له لم فعلت ذلك فيقول لينتهوا عن معاصيك فيقول أنت احكم به منى فيؤمر به الى النار أما قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة أمر وظاهره الوجوب لكن الفقهاء قالوا يستحب حضور الجمع والمقصود اعلان اقامة الحد لما فيه من مزيد الردع ولما فيه من رفع التهمة عمن يجلد وقيل أراد بالطائفة الشهود لانه يجب حضورهم ليعلم بقاؤهم على الشهادة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى أقل الطائفة على أقوال (أحدها) انه رجل واحد وهو قول النخعى ومجاهد واحتجا بقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (وثانيها) انه اثنان وهو قول عكرمة وعطاء واحتجا بقوله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين وكل ثلاثة فرقة والخارج من الثلاثة واحد أو اثنان والاحتياط يوجب الاخذ بالاكثر (وثالثها) انه ثلاثة وهو قول الزهرى وقتادة قالوا الطائفة هى الفرقة التى يمكن أن تكون حلقة كأنها الجماعة الحافة حول الشئ وهذه الصورة أقل مالابد فى حصولها هو الثلاثة (ورابعها) انه أربعة بعدد شهود الزنا وهو قول ابن عباس والشافعى رضى الله عنهم (وخامسها) انه عشرة وهو قول الحسن البصرى لان العشرة هى العدد الكامل (المسئلة الثالثة) تسميته عذابا يدل على انه عقوبة ويجوز ان يسمى عذابا لانه يمنع المعاودة كما سمى نكالا لذلك ونبه تعالى بقوله من المؤمنين على ان الذين يشهدون يجب أن يكونوا بهذا الوصف لانهم اذا كانوا كذلك عظم موقع حضورهم فى الزجر وعظم موقع اخبارهم عما شاهدوا فيخاف المجلود من حضورهم الشهرة فيكون ذلك أقوى فى الانزجار والله أعلم ۞ (الحكم الثانى) قوله تعالى (الزانى لاينكح الا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) قرئ لاينكح بالجزم على النهى وقرئ وحرم بفتح الحاء ثم ان فى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله الزانى لاينكح الا زانية أو مشركة ظاهره خبر ثم انه ليس الامر كما يشعر به هذا الظاهر لانا نرى ان الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف (السؤال الثانى) انه قال وحرم ذلك على المؤمنين وليس كذلك فان المؤمن يحل له التزوج بالمرأة الزانية (والجواب) اعلم ان المفسرين لاجل هذين السؤالين ذكروا وجوها (أحدها) وهو أحسنها ما قاله القفال وهو ان اللفظ وان كان عاما لكن المراد منه الاعم الاغلب وذلك لان الفاسق الخبيث الذى من شأنه الزنا والفسق لايرغب فى نكاح الصوالح من النساء وانما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله أو فى مشركة والفاسقة الخبيثة لايرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها وانما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين

احدهم زوج المقذوفة ثلاثا قاله أيضا وقرئ باربعة شهداء (فاجلدوهم ثمانين جلدة) لظهور كذبهم وافترائهم بعجزهم عن الاتيان بالشهداء لقوله تعالى فاذلم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ونصب جلدة على التمييز وتخصيص رميهن بهذا الحكم مع أن حكم رمى المحصنين أيضا كذلك لخصوص الواقعة وشيوع الرمى فيهن (ولا تقبلوا لهم شهادة) عطف على اجلدوا داخل فى حكمه تتمة له لما فيه من معنى الزجر لانه مؤلم للقلب كما أن الجلد مؤلم للبدن وقد اذى المقذوف بلسانه فعوقب باهدار منافعه جزاء وفاقا واللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة قدمت عليها لكونها نكرة ولو تأخرت عنها لكانت صفة لها وفائدتها تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن أهليتهم الثابتة لهم عند الرمى وهو السر فى قبول شهادة الكافر المحدود فى القذف بعد التوبة والاسلام لانها ليست ناشئة عن أهليته السابقة بل عن أهلية حدثت له بعد اسلامه فلا يتناولها الرد فتدبر ودع عنك ماقيل من أن المسلمين لايعبؤن بسب الكفار فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين

فهذا على الاعم الاغلب كما يقال لايفعل الخير الا الرجل التقى وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقى فكذا ههنا وأما قوله وحرم ذلك على المؤمنين فالجواب من وجهين (أحدهما) ان نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرم عليه لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة والتسبب لسوء المقالة فيه والغيبة ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزوانى والفجار (الثانى) وهو ان صرف الرغبة بالكلية الى الزوانى وترك الرغبة فى الصالحات محرم على المؤمنين لان قوله الزانى لاينكح الا زانية معناه ان الزانى لايرغب الا فى الزانية فهذا الحصر محرم على المؤمنين ولا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج بالزانية فهذا هو المعتمد فى تفسير الآية (الوجه الثانى) ان الالف واللام فى قوله الزانى وفى قوله وحرم ذلك على المؤمنين وان كان للعموم ظاهرا لكنه ههنا مخصوص بالاقوام الذين نزلت هذه الآية فيهم قال مجاهد وعطاء بن أبى رباح وقتادة قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين انفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ولكل واحدة منهن علامة على بابها كعلامة البيطار ليعرف انها زانية وكان لايدخل عليها الا زان أو مشرك فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن الى أن يغنينا الله عنهن فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فتقدير الآية أولئك الزوانى لاينكحون الا تلك الزانيات وتلك الزانيات لاينكحهن الا أولئك الزوانى وحرم نكاحهن باعيانهن على المؤمنين (الوجه الثالث) فى الجواب ان قوله الزانى لاينكح الا زانية وان كان خبرا فى الظاهر لكن المراد النهى والمعنى ان كل من كان زانيا فلا ينبغى أن ينكح الا زانية وحرم ذلك على المؤمنين وهكذا كان الحكم فى ابتداء الاسلام وعلى هذا الوجه ذكروا قولين (أحدهما) ان ذلك الحكم باق الى الآن حتى يحرم على الزانى والزانية التزوج بالعفيفة والعفيف وبالعكس ويقال هذا مذهب أبى بكر وعمر وعلى وابن مسعود وعائشة ثم فى هؤلاء من يسوى بين الابتداء والدوام فيقول كما لايحل للمؤمن أن يتزوج بالزانية فكذلك لايحل له اذا زنت تحته أن يقيم عليها ومنهم من يفصل لان فى جملة مايمنع من التزويج مالايمنع من دوام النكاح كالاحرام والعدة (والقول الثانى) ان هذا الحكم صار منسوخا واختلفوا فى ناسخه فعن الجبائى ان ناسخه هو الاجماع وعن سعيد بن المسيب انه منسوخ بعموم قوله تعالى فانكحوا ماطاب لكم من النساء وأنكحوا الايامى قال المحققون هذان الوجهان ضعيفان (أما الاول) فلانه ثبت فى أصول الفقه ان الاجماع لاينسخ ولا ينسخ به وأيضا فالاجماع الحاصل عقيب الخلاف لايكون حجة والاجماع فى هذه المسئلة مسبوق بمخالفة أبى بكر وعمر وعلى فكيف يصح وأما قوله تعالى فانكحوا ماطاب لكم فهو لايصلح ان يكون ناسخا لانه لابد من أن يشترط فيه أن لايكون هناك مانع من النكاح من سبب أو نسب أو غيرهما وللقائل أن يقول لايدخل

والشنار ما يلحقه بقذف المسلم فان ذلك بدون ماص من الاعتبار تعليل فى مقابلة النص ولا يخفى حاله فالمعنى لاتقبلوا منهم شهادة من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند الرمى (أبدا) أى مدة حياتهم وان تابوا وأصلحوا لما عرفت من أنه تتمة للحد كأنه قيل فاجلدوهم وردوا شهادتهم أى فاجمعوا لهم الجلد والرد فيبقى كأصله (وأولئك هم الفاسقون) كلام مستأنف مقرر لما قبله ومبين لسوء حالهم عند الله عزوجل ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد أى أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون فيه كأنهم هم المستحقون لاطلاق اسم الفاسق عليهم لاغيرهم من الفسقة وقوله تعالى (الا الذين تابوا) استثناء من الفاسقين كما ينبئ عنه التعليل الآتى ومحله النصب لانه عن موجب وقوله تعالى (من بعد ذلك) لتهويل المتوب عنه أى من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل (وأصلحوا) أى أصلحوا أعمالهم التى من جملتها مافرط منهم بالتلافى والتدارك ومنه الاستسلام للحد والاستحلال من المقذوف (فان الله غفور

فيه تزويج الزانية من المؤمن كما لا يدخل فيه تزويجها من الاخ وابن الاخ ونقول ان للزنا تأثيرا فى الفرقة ما ليس لغيره ألا ترى انه اذا قذفها بالزنا يتبعها بالفرقة على بعض الوجوه ولا يجب مثل ذلك فى سائر ما يوجب الحد ولان من حق الزنا ان يورث العار ويؤثر فى الفراش ففارق غيره ثم احتج هؤلاء الذين يدعون هذا النسخ بانه سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن رجل زنى بامرأة فهل له أن يتزوجها فاجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال (الوجه الرابع) أن يحمل النكاح على الوطء والمعنى ان الزانى لا يطأ حين يزنى الا زانية أو مشركة وكذا الزانية وحرم ذلك على المؤمنين أى وحرم الزنا على المؤمنين وعلى هذا تاويل أبى مسلم قال الزجاج هذا التاويل فاسد من وجهين (الاول) انه ما ورد النكاح فى كتاب الله تعالى الا بمعنى التزويج ولم يرد البتة بمعنى الوطء (الثانى) ان ذلك يخرج الكلام عن الفائدة لانا لو قلنا المراد ان الزانى لا يطأ الا الزانية فالاشكال عائد لانا نرى ان الزانى قد يطأ العفيفة حين يتزوج بها ولو قلنا المراد ان الزانى لا يطأ الا الزانية حين يكون وطؤه زنا فهذا الكلام لا فائدة فيه وهذا آخر الكلام فى هذا المقام (السؤال الثالث) أى فرق بين قوله الزانى لا ينكح الا زانية وبين قوله والزانية لا ينكحها الا زان (الجواب) الكلام الاول يدل على ان الزانى لا يرغب الا فى نكاح الزانية وهذا لا يمنع من أن يرغب فى نكاح الزانية غير الزانى فلا جرم بين ذلك بالكلام الثانى (السؤال الرابع) لم قدمت الزانية على الزانى فى الآية المتقدمة وههنا بالعكس (الجواب) سيقت تلك الآية لعقوبتهما على جنايتهما والمرأة هى المادة فى الزنا وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه هو الراغب والطالب (الحكم الثالث) القذف ❁ قوله تعالى

(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم)

اعلم ان ظاهر الآية لا يدل على الشئ الذى به رموا المحصنات وذكر الرمى لا يدل على الزنا اذ قد يرميها بسرقة وشرب خمر وكفر بل لا بد من قرينة دالة على التعيين وقد أجمع العلماء على ان المراد الرمى بالزنا وفى الآية اقوال تدل عليه (أحدها) تقدم ذكر الزنا (وثانيها) انه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على ان المراد بالرمى رميهن بضد العفاف (وثالثها) قوله ثم لم يأتوا باربعة شهداء يعنى على صحة ما رموهن به ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير مشروط الا فى الزنا (ورابعها) انعقاد الاجماع على انه لا يجب الجلد بالرمى بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمى بالزنا اذا عرفت هذا فالكلام فى هذه الآية يتعلق بالرمى والرامى والمرمى (البحث الاول) فى الرمى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فالصريح أن يقول يا زانية أو زنيت أو زنى قبلك أو دبرك ولو قال زنى بدنك ففيه وجهان (أحدهما) انه كناية كقوله زنى

يدل

رحيم) تعليل لما يفيده الاستثناء من العفو عن المؤاخذة بموجب الفسق كأنه قيل فحينئذ لا يؤاخذهم الله تعالى بما فرط منهم ولا ينظمهم فى سلك الفاسقين لانه تعالى مبالغ فى المغفرة والرحمة هذا وقد علق الشافعى رحمه الله الاستثناء بالنهى فحل المستثنى حينئذ الجر على البدلية من الضمير فى لهم وجعل الابد عبارة عن مدة كونه قاذفا فتنتهى بالتوبة فتقبل شهادته بعدها (والذين يرمون أزواجهم) بيان لحكم الرامين لازواجهم خاصة بعد بيان حكم الرامين لغيرهن لكن لا بان يكون هذا مخصصا للمحصنات بالاجنبيات ليلزم بقاء الآية السابقة ظنية فلا يثبت بها الحد فان من شرائط التخصيص أن لا يكون المخصص متراخى النزول بل يكونه ناسخا لعمومها ضرورة تراخى نزولها كما سيأتى فتبقى الآية السابقة قطعية الدلالة فيما بقى بعد النسخ لما تبين فى موضعه أن دليل النسخ غير معلل (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون بما رموهن به من الزنا وقرئ بتأنيث الفعل (الا أنفسهم) بدل من شهداء أو صفة لها على أن الا بمعنى غير جعلوا من جملة الشهداء ايذانا من أول الامر بعدم الغاء قولهم بالمرة ونظمه فى سلك الشهادة فى الجملة وبذلك

يدل لان حقيقة الزنا من الفرج فلا يكون من سائر البدن الا المعونة (والثانى) وهو الاصح انه صريح لان الفعل انما يصدر من جملة البدن والفرج آلة فى الفعل أما الكنايات فمثل أن يقول يا فاسقة يا فاجرة يا خبيثة يا مواجرة يا ابنة الحرام أو امرأتى لا ترد يد لامس وبالعكس فهذا لا يكون قذفا الا أن يريده وكذلك لو قال لعربى يا نبطى فهذا لا يكون قذفا الا أن يريده فان أراد به القذف فهو قذف لام المقول له والا فلا فان قال عنيت به نبطى الدار واللسان وادعت ام المقول له انه أراد القذف فالقول قوله مع يمينه أما التعريض فليس بقذف وان أراده وذلك مثل قوله يا ابن الحلال أما انا فما زنيت وليست امى زانية وهذا قول الشافعى وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد وزفر وابن شبرمة والثورى والحسن ابن صالح رحمهم الله وقال مالك رحمه الله يجب الحد فيه وقال أحمد واسحق هو قذف فى حال الغضب دون حال الرضا لنا ان التعريض بالقذف محتمل للقذف ولغيره فوجب أن لا يجب الحد لان الاصل براءة الذمة فلا يرجع عنه بالشك وأيضا فلقوله عليه السلام ادرؤا الحدود بالشبهات ولان الحدود شرعت على خلاف النص النافى للضرر والايذاء الحاصل بالتصريح فوق الحاصل بالتعريض واحتج المخالف بما روى الاوزاعى عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال كان عمر يضرب الحد فى التعريض وروى أيضا ان رجلين استبا فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال أحدهما للآخر والله ما أنا بزان ولا امى بزانية فاستشار عمر الناس فى ذلك فقال قائل مدح أباه وأمه وقال آخرون قد كان لابيه وأمه مدح غير هذا فجلده عمر ثمانين جلدة (والجواب) ان فى مشاورة عمر الصحابة فى حكم التعريض دلالة على انه لم يكن عندهم فيه توقيف وانهم قالوا رأيا واجتهادا (المسئلة الثانية) فى تعدد القذف اعلم انه اما أن يقذف شخصا واحدا مرارا أو يقذف جماعة فان قذف واحدا مرارا نظر ان كان أراد بالكل زنية واحدة بان قال زنيت بعمرو وقاله مرارا لا يجب الا حد واحد ولو أنشأ الثانى بعد ما حد للاول عزر للثانى وان قذفها بزنيات مختلفة بان قال زنيت بزيد ثم قال زنيت بعمرو فهل يتعدد الحد أم لا فيه قولان (أحدهما) يتعدد اعتبارا باللفظ ولانه من حقوق العباد فلا يقع فيه التداخل كالديون (والثانى) وهو الاصح يتداخل فلا يجب فيه الا حد واحد لانهما حدان من جنس واحد لمستحق واحد فوجب أن يتداخل كحدود الزنا ولو قذف زوجته مرارا فالاصح انه يكتفى بلعان واحد سواء قلنا يتعدد الحد أو لا يتعدد أما اذا قذف جماعة معدودين نظر ان قذف كل واحد بكلمة يجب عليه لكل واحد حد كامل وعند أبى حنيفة رحمه الله لا يجب عليه الا حد واحد واحتج أبو بكر الرازى على قول أبى حنيفة بالقرآن والسنة والقياس أما القرآن فهو قوله تعالى والذين يرمون المحصنات والمعنى ان كل أحد يرمى المحصنات وجب عليه الجلد وذلك يقتضى ان قاذف جماعة من المحصنات لا يجلد أكثر من ثمانين فمن أوجب على قاذف جماعة المحصنات أكثر من حد واحد فقد خالف

ازداد حسن اضافة الشهادة اليهم فى قوله تعالى (فشهادة أحدهم) أى شهادة كل واحد منهم وهو مبتدأ وقوله تعالى (أربع شهادات) خبره أى فشهادتهم المشروعة أربع شهادات (بالله) متعلق بشهادات لقربها وقيل بشهادة لتقدمها وقرئ أربع شهادات بالنصب على المصدر والعامل فشهادة على أنه اما خبر لمبتدا محذوف أى فالواجب شهادة أحدهم واما مبتدأ محذوف الخبر أى فشهادة أحدهم واجبة (انه لمن الصادقين) أى فيما رماها به من الزنا وأصله على أنه الخ فحذف الجار وكسرت ان وعلق العامل عنها للتأكيد (والخامسة) أى الشهادة الخامسة للاربع المتقدمة أى الجاعلة لها خمسا بانضمامها اليهن وافرادها عنهن مع كونها شهادة أيضا لاستقلالها بالفحوى ووكادتها فى افادة ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر واظهار الصدق وهى مبتدأ خبره (أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا فاذا لاعن الزوج حبست الزوجة حتى تعترف فترجم أو تلاعن (ويدرأ عنها العذاب) أى العذاب الدنيوى وهو الحبس المغيا على أحد الوجهين بالرجم

الآية وأما السنة فما روى عكرمة عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي عليه السلام البينة أو حد في ظهرك فلم يوجب النبي صلى الله عليه وسلم على هلال الاحد او احدا مع قذفه لامرأته وشريك بن سحماء الى أن نزلت آية اللعان فاقيم اللعان في الزوجات مقام الحد في الاجنبيات وأما القياس فهو ان سائر ما يوجب الحد اذا وجد منه مرارا لم يجب الاحد واحد كمن زنى مرارا أو شرب مرارا أو سرق مرارا فكذا ههنا والمعنى الجامع دفع مزيد الضرر (والجواب) عن الاول ان قوله والذين صيغة جمع وقوله المحصنات صيغة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل الفرد بالفرد فيصير المعنى كل من رمى محصنا واحدا وجب عليه الحد وعند ذلك يظهر وجه تمسك الشافعي رحمه الله بالآية ولان قوله والذين يرمون المحصنات فاجلدوهم يدل على ترتيب الجلد على رمي المحصنات وترتيب الحكم على الوصف لاسيما اذا كان مناسبا فانه مشعر بالعلية فدلت الآية على ان رمي المحصن من حيث انه هذا المسمى يوجب الجلد اذا ثبت هذا فنقول اذا قذف واحدا صار ذلك القذف موجبا للحد فاذا قذف الثاني وجب أن يكون القذف الثاني موجبا للحد أيضا ثم موجب القذف الثاني لا يجوز أن يكون هو الحد الاول لان ذلك قد وجب بالقذف الاول وايجاب الواجب محال فوجب أن يحد بالقذف الثاني حدا ثانيا أقصى ما في الباب أن يورد على هذه الدلالة حدود الزنا لكنا نقول ترك العمل هناك بهذا الدليل لان حد الزنا أغلظ من حد القذف وعند ظهور الفارق يتعذر الجمع وأما السنة فلا دلالة فيها على هذه المسئلة لانه قذفهما بلفظ واحد ولنا في هذه المسئلة تفصيل سيأتي ان شاء الله وأما القياس ففاسد لان حد القذف حق الآدمي بدليل انه لا يحد الا بمطالبة المقذوف وحقوق الآدمي لا تتداخل بخلاف حد الزنا فانه حق الله تعالى هذا كله اذا قذف جماعة كل واحد منهم بكلمة على حدة أما اذا قذفهم بكلمة واحدة فقال أنتم زناة أو زنيتم ففيه قولان (أصحهما) وهو قوله في الجديد يجب لكل واحد حد كامل لانه من حقوق العباد فلا يتداخل ولانه أدخل على كل واحد منهم معرة فصار كما لو قذفهم بكلمات وفي القديم لا يجب للكل الا حد واحد اعتبارا باللفظ فان اللفظ واحد والاول أصح لانه أوفق لمفهوم الآية فعلى هذا لو قال لرجل يا ابن الزانيين يكون قذفا لأبويه بكلمة واحدة فعليه حدان (المسئلة الثالثة) فيما يبيح القذف القذف ينقسم الى محظور ومباح وواجب وجملة الكلام انه اذا لم يكن ثم ولد يريد نفيه فلا يجب وهل يباح أم لا ينظران رآها بعينه تزني أو أقرت هي على نفسها ووقع في قلبه صدقها أو سمع ممن يثق بقوله أو لم يسمع لكنه استفاض فيما بين الناس ان فلانا يزني بفلانة وقد رآه الزوج يخرج من بيتها أو رآه معها في بيت فانه يباح له القذف لتأكد التهمة ويجوز أن يمسكها ويستر عليها لما روى ان رجلا قال يا رسول الله ان لي امرأة لا ترد يد لامس قال طلقها قال اني أحبها قال فامسكها أما اذا

الذي هو أشد العذاب (أن تشهد أربع شهادات بالله انه) أي الزوج (لمن الكاذبين) أي فيما رماني به من الزنا (والخامسة) بالنصب عطفا على أربع شهادات (أن غضب الله عليها ان كان) أي الزوج (من الصادقين) أي فيما رماني به من الزنا وقرئ والخامسة بالرفع على الابتداء وقرئ أن بالتخفيف في الموضعين ورفع اللعنة والغضب وقرئ أن غضب الله وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لما أنها مادة الفجور ولان النساء كثيرا ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقعه عن قلوبهن بخلاف غضبه تعالى روي أن آية القذف لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقام عاصم ابن عدي الانصاري رضي الله عنه فقال جعلني الله فداك ان وجد رجل مع امرأته رجلا فاخبر جلد ثمانين وردت شهادته وفسق وان ضربه بالسيف قتل وان سكت سكت على غيظ والى أن يجيء باربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى اللهم افتح وخرج فاستقبله هلال بن امية أو عويمر فقال ما وراءك قال شر وجدت على امرأتي خولة وهي بنت

سمعه ممن لا يوثق بقوله أو استفاض من بين الناس ولكن الزوج لم يره معها أو بالعكس لم يحل له قذفها لانه قد يذكره من لا يكون ثقة فينتشر ويدخل بيتها خوفا من قاصد أو لسرقة أو لطلب فجور فتأبى المرأة قال الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم أما اذا كان ثم ولد يريد نفيه نظر فان تيقن انه ليس منه بان لم يكن وطئها الزوج أو وطئها لكنها أتت به لاقل من ستة أشهر من وقت الوطء أو لاكثر من أربع سنين يجب عليه نفيه باللعان لانه ممنوع من استلحاق نسب الغير كما هو ممنوع من نفي نسبه لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ايما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولم يدخلها الله جنته فلما حرم على المرأة أن تدخل على قوم من ليس منهم كان الرجل أيضا كذلك أما ان احتمل أن يكون منه بان أتت به لاكثر من ستة أشهر من وقت الوطء ولدون أربع سنين نظر ان لم يكن قد استبرأها بحيضة او استبرأها وأتت به لدون ستة أشهر من وقت الاستبراء لا يحل له القذف والنفي وان اتهمها بالزنا قال النبي صلى الله عليه وسلم ايما رجل جحد ولده وهو ينظر اليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤس الاولين والآخرين فان استبرأها وأتت به لاكثر من ستة أشهر من وقت الاستبراء يباح له القذف والنفي والاولى ان لا يفعل لانها قد ترى الدم على الحبل وان أتت امرأته بولد لا يشبهه بان كانا ابيضين فاتت به اسود نظران لم يكن يتهمها بالزنا فليس له نفيه لما روى أبو هريرة رضي الله عنه ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان امرأتي ولدت غلاما اسود فقال هل لك من ابل قال نعم قال ما ألوانها قال حمر قال فهل فيها اورق قال نعم قال فكيف ذلك قال نزعه عرق قال فلعل هذا نزعه عرق وان كان يتهمها بزنا أو يتهمها برجل فأتت بولد يشبهه هل يباح له نفيه فيه وجهان (أحدهما) لا لان العرق ينزع (والثاني) له ذلك لان التهمة قد تأكدت بالشبهة (البحث الثاني) في الرامي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا قذف الصبي أو المجنون امرأته أو اجنبيا فلا حد عليهما ولا لعان لا في الحال ولا بعد البلوغ لقوله عليه الصلاة والسلام رفع القلم عن ثلاث ولكن يعزران للتاديب ان كان لهما تمييز فلو لم تتفق اقامة التعزير على الصبي حتى بلغ قال القفال يسقط التعزير لانه كان للزجر عن اساءة الادب وقد حدث زاجر اقوى وهو البلوغ (المسئلة الثانية) الاخرس اذا كانت له اشارة مفهومة او كتابة معلومة وقذف بالاشارة أو بالكتابة لزمه الحد وكذلك يصح لعانه بالاشارة والكتابة وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يصح قذف الاخرس ولا لعانه وقول الشافعي رحمه الله أقرب الى ظاهر الآية لان من كتب أو أشار الى القذف فقد رمى المحصنة وألحق العار بها فوجب اندراجه تحت الظاهر ولانا نقيس قذفه ولعانه على سائر الاحكام (المسئلة الثالثة) اختلفوا فيما اذا قذف العبد حرا فقال الشافعي وأبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر وعثمان البتي عليه أربعون جلدة روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه ان عليا عليه السلام قال يجلد العبد في القذف أربعين

عاصم شريك بن سحماء فقال والله هذا سؤالي ما أسرع ما ابتليت به فرجعا فاخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلم خولة فانكرت فنزلت فلاعن بينهما والفرقة الواقعة باللعان في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله ولا يتأبد حكمها حتى اذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك فقد جاز له أن يتزوجها وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رحمهم الله هي فرقة بغير طلاق توجب تحريما مؤبدا ليس لهما اجتماع بعد ذلك أبدا (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) التفات الى خطاب الرامين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه وجواب لولا محذوف لتهويله والاشعار بضيق العبارة عن حصره كأنه قيل ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لانه أعرف بحال زوجته وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما

وعن عبد الله بن عمر انه قال أدركت أبا بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم من الخلفاء وكلهم يضربون المملوك في القذف أربعين وقال الاوزاعي يجلد ثمانين وهو مروي عن ابن مسعود وروي انه جلد عمر بن عبد العزيز العبد في الفرية ثمانين ومدار المسئلة على حرف واحد وهو ان هذه الآية صريحة في ايجاب الثمانين فمن رد هذا الحد الى أربعين فطريقه ان الله تعالى قال فاذا أحصن فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فنص على ان حد الامة في الزنا نصف حد الحرة ثم قاسوا العبد على الامة في تنصيف حد الزنا ثم قاسوا تنصيف حد قذف العبد على تنصيف حد الزنا في حقه فرجع حاصل الامر الى تخصيص عموم الكتاب بهذا القياس (المسئلة الرابعة) اتفقوا على دخول الكافر تحت عموم قوله والذين يرمون المحصنات لان الاسم يتناوله ولا مانع فاليهودي اذا قذف المسلم يجلد ثمانين والله أعلم (البحث الثالث) في المرمي وهي المحصنة قال أبو مسلم اسم الاحصان يقع على المتزوجة وعلى العفيفة وان لم تتزوج لقوله تعالى في مريم والتي أحصنت فرجها وهو مأخوذ من منع الفرج فاذا تزوجت منعته الا من زوجها وغير المتزوجة تمنعه كل أحد ويتفرع عليه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهر الآية يتناول جميع العفائف سواء كانت مسلمة أو كافرة وسواء كانت حرة أو رقيقة الا ان الفقهاء قالوا شرائط الاحصان خمسة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا وانما اعتبرنا الاسلام لقوله عليه السلام من أشرك بالله فليس بمحصن وانما اعتبرنا العقل والبلوغ لقوله عليه السلام رفع القلم عن ثلاث وانما اعتبرنا الحرية لان العبد ناقص الدرجة فلا يعظم عليه التعيير بالزنا وانما اعتبرنا العفة عن الزنا لان الحد مشروع لتكذيب القاذف فاذا كان المقذوف زانيا فالقاذف صادق في القذف وكذلك اذا كان المقذوف وطئ امرأة بشبهة أو نكاح فاسد لان فيه شبهة الزنا كما فيه شبهة الحل فكما ان احدى الشبهتين اسقطت الحد عن الواطئ فكذا الاخرى تسقطه عن قاذفه أيضا ثم نقول من قذف كافرا أو مجنونا أو صبيا أو مملوكا أو من قد زني امرأة فلا حد عليه بل يعزر الا الذي حتى لو زنى في عنفوان شبابه مرة ثم تاب وحسن حاله وشاخ في الصلاح لا يحد قاذفه وكذلك لو زنى كافر أو رقيق ثم أسلم وعتق وصلح حاله فقذفه قاذف لا حد عليه بخلاف ما لو زنى في حال صغره أو جنونه ثم بلغ أو افاق فقذفه قاذف يحد لان فعل الصبي والمجنون لا يكون زنا ولو قذف محصنا فقبل أن يحد القاذف زنا المقذوف سقط الحد عن قاذفه لان صدور الزنا يورث ريبة في حاله فيما مضى لان الله تعالى كريم لا يهتك ستر عبده في أول ما يرتكب المعصية فبظهوره يعلم انه كان متصفا به من قبل روي ان رجلا زنى في عهد عمر فقال والله ما زنيت الا هذه فقال عمر كذبت ان الله لا يفضح عبده في أول مرة وقال المزني وأبو ثور الزنا الطارئ لا يسقط الحد عن القاذف (المسئلة الثانية) قال الحسن البصري قوله والذين يرمون المحصنات يقع على الرجال والنساء وسائر العلماء انكروا ذلك لان لفظ

في الفضاحة وبعد ما شرع لهم ذلك لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر لها ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتما دارئة لما توجه اليه من الغائلة الدنيوية وقد ابتلي الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما درأته عنه وأطم وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى أما على الصادق فظاهر وأما على الكاذب فهو امهاله والستر عليه في الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبئ عنه التعرض لعنوان توابيته سبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته (ان الذين جاؤا بالافك) أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الافك وهو القلب لانه مأفوك عن وجهه وسننه والمراد به ما أفك به الصديقة أم المؤمنين رضي الله عنها وفي لفظ المجيء اشارة الى أنهم اظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل وذلك أن رسول الله صلى

المحصنات جمع لمؤنث فلا يتناول الرجال بل الاجماع دل على انه لا فرق في هذا الباب بين المحصنين والمحصنات (المسئلة الثالثة) رمي غير المحصنات لا يوجب الحد بل يوجب التعزير الا أن يكون المقذوف معروفا بما قذف به فلا حد هناك ولا تعزير فهذا مجموع الكلام في تفسير قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات ٭ أما قوله سبحانه ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ففيه بحثان (البحث الاول) اعلم الله تعالى حكم في القاذف اذا لم يأت بأربعة شهداء بثلاثة أحكام (أحدها) جلد ثمانين (وثانيها) بطلان الشهادة (وثالثها) الحكم بفسقه الى أن يتوب واختلف أهل العلم في كيفية ثبوت هذه الاحكام بعد اتفاقهم على وجوب الحد عليه بنفس القذف عند عجزه عن اقامة البينة على الزنا فقال قائلون قد بطلت شهادته ولزمه سمة الفسق قبل اقامة الحد عليه وهو قول الشافعي والليث بن سعد وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر شهادته مقبولة ما لم يحد قال أبو بكر الرازي وهذا مقتضى قولهم انه غير موسوم بسمة الفسق ما لم يقع به الحد لانه لو لزمته سمة الفسق لما جازت شهادته اذ كانت سمة الفسق مبطلة لشهادة من وسم بها ثم احتج أبو بكر على صحة قول أبي حنيفة رحمه الله بأمور (أحدها) قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة فظاهر الآية يقتضي ترتب وجوب الحد على مجموع القذف والعجز عن اقامة الشهادة فلو علقناه هذا الحكم على القذف وحده قدح ذلك في كونه معلقا على الامرين وذلك بخلاف الآية وأيضا فوجوب الجلد حكم مرتب على مجموع أمرين فوجب أن لا يحصل بمجرد حصول أحدهما كما لو قال لامرأته ان دخلت الدار وكلمت فلانا فأنت طالق فأتت بأحد الامرين دون الآخر لم يوجد الجزاء فكذا ههنا (وثانيها) ان القاذف لا يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه واذا كان كذلك وجب أن لا ترد شهادته بمجرد القذف ٭ بيان الاول من ثلاثة أوجه (الاول) ان مجرد قذفه لو أوجب كونه كاذبا لوجب أن لا تقبل بعد ذلك بينته على الزنا اذ قد وقع الحكم بكذبه والحكم بكذبه في قذفه حكم ببطلان شهادة من شهد بصدقه في كون المقذوف زانيا ولما أجمعوا على قبول بينته ثبت انه لم يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه (الثاني) ان قاذف امرأته بالزنا لا يحكم بكذبه بنفس قذفه والا لما جاز ايجاب اللعان بينه وبين امرأته ولما امر بأن يشهد بالله انه لصادق فيما رماها به من الزنا مع الحكم بكذبه ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما لاعن بين الزوجين الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب فاخبر ان أحدهما بغير تعيين هو الكاذب ولم يحكم بكذب القاذف وفي ذلك دليل على ان نفس القذف لا يوجب كونه كاذبا (الثالث) قوله تعالى لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون فلم يحكم بكذبهم بنفس القذف فقط فثبت بهذه الوجوه ان القاذف غير محكوم عليه بكونه كاذبا بمجرد القذف واذا كان كذلك وجب أن لا تبطل شهادته بمجرد القذف لانه كان عدلا ثقة والصادر عنه غير معارض ولما كان يجب أن يبقى على

الله عليه وسلم كان اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها قالت عائشة رضي الله عنها فأقرع بيننا في غزوة غزاها قبل غزوة بني المصطلق فخرج سهمي فخرجت معه عليه السلام بعد نزول آية الحجاب فحملت في هودج فسرنا حتى اذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودي بالرحيل فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت الى رحلي فلمست صدري فاذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري وهم يحسبون أني فيه لخفتي فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدي بعد ما استمرت الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلي وظننت أني سيفقدونني ويعودون في طلبي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش فلما رآني عرفني فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فقمت اليها فركبتها وانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش

عدالته فوجب أن يكون مقبول الشهادة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدودا فى قذف أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ببقاء عدالة القاذف مالم يحد (ورابعها) ماروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة هلال بن أمية لما قذف امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله يجلد هلال وتبطل شهادته فى المسلمين فاخبر ان بطلان شهادته متعلق بوقوع الجلد به وذلك يدل على ان مجرد القذف لايبطل الشهادة (وخامسها) ان الشافعى رحمه الله زعم ان شهود القذف اذا جاؤا متفرقين قبلت شهادتهم فان كان القذف قد ابطل شهادته فواجب أن لا يقبلها بعد ذلك وان شهد معه ثلاثة لانه قد فسق بقذفه ووجب الحكم بكذبه وفى قبول شهادتهم اذا جاؤا متفرقين مايلزمه أن لاتبطل شهادتهم بنفس القذف وأما وجه قول الشافعى رحمه الله فهو ان الله تعالى رتب على القذف مع عدم الاتيان بالشهداء الاربعة أمورا ثلاثة معطوفا بعضها على بعض بحرف الواو وحرف الواو لا يقتضى الترتيب فوجب أن لا يكون بعضها مرتبا على البعض فوجب أن لا يكون رد الشهادة مرتبا على اقامة الحد بل يجب أن يثبت رد الشهادة سواء أقيم الحد عليه أو ما أقيم والله أعلم (البحث الثانى) فى كيفية الشهادة على الزنا قال الله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم وقال تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء وقال سعد بن عبادة يارسول الله أرأيت ان وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى آتى بأربعة شهداء قال نعم * ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين فيه قولان (أحدهما) لايثبت الا بأربعة كفعل الزنا (والثانى) يثبت بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه فاحتيط فيه باشتراط الاربع والاقرار أمر ظاهر فلا يغمض الاطلاع عليه (المسئلة الثانية) اذا شهدوا على فعل الزنا يجب أن يذكروا الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية له فيظن انها اجنبية ويجب أن يشهدوا انا رأينا ذكره يدخل فى فرجها دخول الميل فى المكحلة فلو شهدوا مطلقا انه زنى لا يثبت لانهم ربما يرون المفاخذة زنا بخلاف مالو قذف انسانا فقال زنيت يجب الحد ولا يستفسر ولو أقر على نفسه بالزنا هل يشترط أن يستفسر فيه وجهان (أحدهما) نعم كالشهود (والثانى) لايجب كما فى القذف (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله لافرق بين أن يجىء الشهود متفرقين أو مجتمعين وقال أبو حنيفة رحمه الله اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف حجة الشافعى رحمه الله من وجوه (الاول) ان الاتيان بأربعة شهداء قدر مشترك بين الاتيان بهم مجتمعين أو متفرقين واللفظ الدال على مابه الاشتراك لا اشعار له بما به الامتياز فالآتى بهم متفرقين يكون عاملا بالنص فوجب أن يخرج عن العهدة (الثانى) كل حكم يثبت بشهادة الشهود اذا جاؤا مجتمعين يثبت اذا جاؤا متفرقين كسائر الاحكام بل هذا أولى لانهم اذا جاؤا متفرقين كان أبعد عن التهمة وعن أن يتلقن

بعضهم

موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول واقتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى فبينا الناس كذلك اذ هجمت عليهم نخاض الناس فى حديثى فهلك من هلك وقوله تعالى (عصبة منكم) خبران أى جماعة وهى من العشرة الى الاربعين وكذا العصابة وهم عبد الله بن أبى وزيد بن رفاعة وحسان ابن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لاتحسبوه شرا لكم) استئناف خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعائشة وصفوان رضى الله عنهم تسلية لهم من أول الامر والضمير للافك (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بانزال ثمانى عشرة آية فى نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا (لكل امرئ منهم) أى من أولئك العصبة (ما اكتسب من الاثم) بقدر ماخاض فيه (والذى تولى كبره) أى معظمه وقرئ بضم الكاف وهى لغة فيه (منهم) من العصبة وهو ابن أبى فانه بدأ به وأذاعه بين الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو وحسان ومسطح فانهما شايعاه بالتصريح به فافراد الموصول حينئذ باعتبار

بعضهم من بعض فلذلك قلنا اذا وقعت ريبة للقاضى فى شهادة الشهود فرقهم ليظهر على عورة ان كانت فى شهادتهم (الثالث) انه لايشترط أن يشهدوا معا فى حالة واحدة بل اذا اجتمعوا عند القاضى وكان يتقدم واحد بعد آخر ويشهد فانه تقبل شهادتهم فكذا اذا اجتمعوا على بابه ثم كان يدخل واحد بعد واحد حجة أبى حنيفة رحمه الله من وجهين (الاول) ان الشاهد الواحد لما شهد فقد قذفه ولم يأت بأربعة من الشهداء فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء أقصى مافى الباب انهم عبروا عن ذلك القذف بلفظ الشهادة وذلك لاعبرة به لانه يؤدى الى اسقاط حد القذف رأسا لان كل قاذف لايعجز لفظ الشهادة فيجعل ذلك وسيلة الى اسقاط الحد عن نفسه ويحصل مقصوده من القذف (الثانى) ماروى ان المغيرة بن شعبة شهد عليه بالزنا عند عمر بن الخطاب أربعة أبو بكرة ونافع ونفيع وقال زياد وكان رابعهم رأيت استا تنبو ونفسا يعلو ورجلاها على عاتقه كاذنى حمار ولا أدرى ماوراء ذلك فجلد عمر الثلاثة ولم يسأل هل معهم شاهد آخر فلو قبل بعد ذلك شهادة غيرهم لتوقف لان الحدود مما يتوقف فيها ويحتاط (المسئلة الرابعة) لو شهد على الزنا أقل من أربعة لايثبت الزنا وهل يجب حد القذف على الشهود فيه قولان (أحدهما) لايجب لانهم جاؤا مجىء الشهود ولانا لو حددنا لانسد باب الشهادة على الزنا لان كل واحد لا يأمن ان لا يوافقه صاحبه فيلزمه الحد (والقول الثانى) وهو الاصح وبه قال أبو حنيفة رحمه الله يجب عليهم الحد والدليل عليه الوجهان اللذان ذكرناهما فى المسئلة الثالثة (المسئلة الخامسة) اذا قذف رجل رجلا فجاء بأربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا قال أبو حنيفة رحمه الله يسقط الحد عن القاذف ولا يجب الحد على الشهود وقال الشافعى رحمه الله فى أحد قوليه يحدون وجه قول أبى حنيفة قوله والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء وهذا قد أتى بأربعة شهداء فلا يلزمه الحد ولان الفاسق من أهل الشهادة وقد وجدت شرائط شهادة الزنا من اجتماعهم عند القاضى الا أنه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن المشهود عليه فكذلك وجب اعتبارها فى نفى الحد عنهم ووجه قول الشافعى رحمه الله انهم غير موصوفين بالشرائط المعتبرة فى قبول الشهادة فخرجوا عن ان يكونوا شاهدين فبقوا محض القاذفين وههنا آخر الكلام فى تفسير قوله تعالى ثم لم يأتوا بأربعة شهداء أما قوله تعالى فاجلدوهم ثمانين جلدة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المخاطب بقوله فاجلدوا هم الامام على مابيناه فى آية الزنا أو المالك على مذهب الشافعى أو رجل صالح ينصبه الناس عند فقد الامام (المسئلة الثانية) خص من عموم هذه الآية صور (أحدها) الوالد يقذف ولده أو أحدا من نوافله فلا يجب عليه الحد كما لا يجب عليه القصاص بقتله (الثانية) القاذف اذا كان عبدا فالواجب جلد أربعين وكذا المكاتب وأم الولد ومن بعضه حر وبعضه رقيق فحدهم حد العبيد (الثالثة) من قذف

الفوج أو الفريق أو نحوهما (له عذاب عظيم) أى فى الآخرة أو فى الدنيا أيضا فانهم جلدوا وردت شهادتهم وصار ابن أبى مطرودا مشهودا عليه بالنفاق وحسان أعمى واشل اليدين ومسطح مكفوف البصر وفى التعبير عنه بالذى وتكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطاب مالا يخفى (لولا اذ سمعتموه) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذويه الى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد مافى لولا التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه الى الغيبة فى قوله تعالى (ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا) لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لابطريق الاعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم على وجه المباثة بل بالتوسل بذلك الى وصفهم بما يوجب الاتيان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاء تاما ويزجرهم عن ضده زجرا بليغا فان كون وصف الايمان مما يحملهم على احسان الظن و يكفهم عن اساءته بانفسهم أى بأبناء جنسهم النازلين منزلة أنفسهم كقوله تعالى ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وقوله تعالى ولا تلمزوا أنفسكم مما لاريب فيه فاخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع والتوبيخ عليه ادخل

رقيقة عفيفة أو من زنت في قديم الايام ثم تابت فهي بموجب اللغة محصنة ومع ذلك لايجب الحد بقذفها (المسئلة الثالثة) قالوا أشد الضرب في الحدود ضرب الزنا ثم ضرب شرب الخمر ثم ضرب القاذف لان سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب الا انه عوقب صيانة للاعراض وزجرا عن هتكها (المسئلة الرابعة) قال مالك والشافعي حد القذف يورث فاذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد وقبل العفو يثبت لوارثه حد القذف وكذلك اذا كان الواجب بقذفه التعزير فانه يورث عنه وكذا لو أنشأ القذف بعد موت المقذوف ثبت لوارثه طلب الحد وعند أبي حنيفة رحمه الله حد القذف لايورث ويسقط بالموت حجة الشافعي رحمه الله ان حد القذف هو حق الآدمي لانه يسقط بعفوه ولا يستوفى الا بطلبه ويحلف فيه المدعى عليه اذا أنكروا اذا كان حق الآدمي وجب أن يورث لقوله عليه السلام ومن ترك حقا فلورثته حجة أبي حنيفة رحمه الله انه لو كان موروثا لكان للزوج أو الزوجة فيه نصيب ولانه حق ليس فيه معنى المال والوثيقة فلا يورث كالوكالة والمضاربة (والجواب) عن الاول ان الاصح عند الشافعية انه يرثه جميع الورثة كالمال وفيه وجه ثان أنه يرثه كلهم الا الزوج والزوجة لان الزوجية ترتفع بالموت ولان المقصود من الحد دفع العار عن النسب وذلك لايلحق الزوج والزوجة (المسئلة الخامسة) اذا قذف انسان انسانا بين يدي الحاكم أو قذف امرأته برجل بعينه والرجل غائب فعلى الحاكم أن يبعث الى المقذوف ويخبره بان فلانا قذفك وثبت لك حد القذف عليه كما لو ثبت له مال على آخر وهو لايعلمه يلزمه اعلامه وعلى هذا المعنى بعث النبي صلى الله عليه وسلم انيسا ليخبرها بان فلانا قذفها بابنه ولم يبعثه ليتفحص عن زناها قال الشافعي رحمه الله وليس للامام اذا رمي رجل بزنا أن يبعث اليه فيسأله عن ذلك لان الله تعالى قال ولا تجسسوا وأراد به اذا لم يكن القاذف معينا مثل أن قال رجل بين يدي الحاكم الناس يقولون ان فلانا زنى فلا يبعث الحاكم اليه فيسأله أما قوله تعالى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا فاختلف الفقهاء فيه فقال اكثر الصحابة والتابعين انه اذا تاب قبلت شهادته وهو قول الشافعي رحمه الله وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح رحمهم الله لاتقبل شهادة المحدود في القذف اذا تاب وهذه المسئلة مبنية على ان قوله الا الذين تابوا هل عاد الى جميع الاحكام المذكورة أو اختص بالجملة الاخيرة فعند أبي حنيفة رحمه الله الاستثناء المذكور عقيب الجمل الكثيرة مختص بالجملة الاخيرة وعند الشافعي رحمه الله يرجع الى الكل وهذه المسئلة قد لخصناها في أصول الفقه ونذكر ههنا مايليق بهذا الموضع ان شاء الله تعالى احتج الشافعي رحمه الله على ان شهادته مقبولة بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لاذنب له ومن لاذنب له مقبول الشهادة فالتائب يجب أن يكون أيضا مقبول الشهادة (وثانيها) ان الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالاجماع فالقاذف المسلم اذا تاب عن القذف وجب أن تقبل شهادته لان القذف مع

مع مافيه من التوسل به الى التصريح بتوبيخ الخائضات ثم ان كان المراد بالايمان الايمان الحقيق فايجابه لماذكر واضح والتوبيخ خاص بالمؤمنين وان كان مطلق الايمان الشامل لما يظهره المنافقون أيضا فايجابه له من حيث انهم كانوا يحترزون عن اظهار ماينافي مدعاهم فالتوبيخ حينئذ متوجه الى الكل وتوسيط الظرف بين لولا وفعلها لتخصيص التحضيض باول زمان سماعهم وقصر التوبيخ على تأخير الاتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتردد فيه ليفيد أن عدم الاتيان به رأسا في غاية مايكون من القباحة والشناعة أي كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات أول ماسمعوه ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثم وتردد بمثلهم من آحاد المؤمنين خيرا (وقالوا) في ذلك الآن (هذا افك مبين) أي ظاهر مكشوف كونه افكا فكيف بالصديقة ابنة الصديق أم المؤمنين حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا جاؤا عليه باربعة شهداء) امامن تمام القول المحضض عليه مسوق لحث السامعين على الزام المسمعين وتكذيبهم اثر تكذيب ماسمعوه منهم بقولهم هذا افك مبين وتوبيخهم على تركه اى هلا جاء الخائضون باربعة شهداء

الاسلام أهون حالا من القذف مع الكفر فان قيل المسلمون لايألمون بسبب الكفار لانهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنآن مايلحقه بقذف مسلم مثله فشدد على القاذف من المسلمين زجرا عن الحاق العار والشنآن وأيضا فالتائب من الكفر لايجب عليه الحد والتائب من القذف لايسقط عنه الحد قلنا هذا الفرق ملغى بقوله عليه السلام أنبئهم ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين (وثالثها) أجمعنا على ان التائب عن الكفر والقتل والزنا مقبول الشهادة فكذا التائب عن القذف لان هذه الكبيرة ليست اكبر من نفس الزنا (ورابعها) أن أبا حنيفة رحمه الله يقبل شهادته اذا تاب قبل الحد مع أن الحد حق المقذوف فلا يزول بالتوبة فلأن تقبل شهادته اذا تاب بعد اقامة الحد وقد حسنت حالته وزال اسم الفسق عنه كان أولى (وخامسها) ان قوله الا الذين تابوا استثناء مذكور عقيب جمل فوجب عوده اليها بأسرها ويدل عليه أمور (أحدها) أجمعنا على انه لو قال عبده حر وامرأته طالق ان شاء الله فانه يرجع الاستثناء الى الجميع فكذا فيما نحن فيه فان قيل الفرق ان قوله ان شاء الله يدخل لرفع حكم الكلام حتى لايثبت فيه شئ والاستثناء المذكور بحرف الاستثناء لايجوز دخوله لرفع حكم الكلام رأسا ألاترى انه يجوز أن يقول أنت طالق ان شاء الله فلا يقع شئ ولو قال أنت طالق الا طلاقا كان الطلاق واقعا والاستثناء باطلا لاستحالة دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فثبت انه لايلزم من رجوع قوله ان شاء الله الى جميع ماتقدم صحة رجوع الاستثناء بحرفه الى جميع ماتقدم قلنا هذا فرق في غير محل الجمع لان ان شاء الله جاز دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فلا جرم جاز رجوعه الى جميع الجمل المذكورة والا جاز دخوله لرفع بعض الكلام فوجب جواز رجوعه الى جميع الجمل على هذا الوجه حتى يقتضي أن يخرج من كل واحد من الجمل المذكورة بعضه (وثانيها) ان الواو للجمع المطلق فقوله فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا وأولئك هم الفاسقون صار الجمع كأنه ذكر معا لاتقدم لبعض على البعض فلما دخل عليه الاستثناء لم يكن رجوع الاستثناء الى بعضها اولى من رجوعه الى الباقي اذ لم يكن لبعضها على بعض تقدم في المعنى البتة فوجب رجوعه الى الكل ونظيره على قول أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم فان فاء التعقيب مادخلت على غسل الوجه بل على مجموع هذه الامور من حيث ان الواو لاتفيد الترتيب فكذا ههنا كلمة الامادخلت على واحد بعينه لان حرف الواو لايفيد الترتيب بل دخلت على المجموع فان قيل الواو قد تكون للجمع على ماذكرت وقد تكون للاستئناف وهي في قوله فأولئك هم الفاسقون لانها انما تكون للجمع فيما لايختلف معناه ونظمه جملة واحدة فيصير الكل كالمذكور معا مثل آية الوضوء فان الكل أمر واحد كأنه قال فاغسلوا هذه الاعضاء فان الكل قد تضمنه لفظ الامر واما آية القذف فان ابتداءها أمر وآخرها خبر فلا يجوز أن

يشهدون على ماقالوا (فاذلم يأتوا) بهم واي ما قيل (بالشهداء) لزيادة التقرير (فاولئك) اشارة الى الخائضين ومافيه من معنى البعد للايذان بغلوهم في الفساد وبعد منزلتهم في الشر أي أولئك المفسدون (عندالله) أي في حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة (هم الكاذبون) الكاملون في الكذب المشهود عليهم بذلك المستحقون لاطلاق الاسم عليهم دون غيرهم ولذلك رتب عليه الحد خاصة واما كلام مبتدأ مسوق من جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون ماقالوه قولا لايساعده الدليل أصلا (ولولا فضل الله عليكم) خطاب للسامعين والمسمعين جميعا (ورحمته في الدنيا) من فنون النعم التي من جملتها الامهال للتوبة (والآخرة) من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة (لمسكم) عاجلا (فيما أفضتم فيه) بسبب ماخضتم فيه من حديث الافك والابهام لتهويل أمره والاستهجان بذكره يقال أفاض في الحديث وخاض واندفع وهضب بمعنى (عذاب عظيم) يستحقر دونه التوبيخ والجلد (اذ تلقونه) بحذف احدى التاءين ظرف للمس أي لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم اياه من المخترعين (بالسنتكم) والتلقي

ينظمهما جملة واحدة وكان الواو للاستئناف فيختص الاستثناء به قلنا لم لا يجوز أن تجعل الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط كأنه قيل ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم أي فاجمعوا لهم الجلد والرد والفسق الا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فان الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين (وثالثها) ان قوله وأولئك هم الفاسقون عقيب قوله ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا يدل على أن العلة في عدم قبول تلك الشهادة كونه فاسقا لان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية لا سيما اذا كان الوصف مناسبا وكونه فاسقا يناسب أن لا يكون مقبول الشهادة اذا ثبت ان العلة لرد الشهادة ليست الا كونه فاسقا ودل الاستثناء على زوال الفسق فقد زالت العلة فوجب أن يزول الحكم لزوال العلة (ورابعها) ان مثل هذا الاستثناء موجود في القرآن قال الله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الى قوله الا الذين تابوا ولا خلاف ان هذا الاستثناء راجع الى ما تقدم من أول الآية وان التوبة حاصلة لهؤلاء جميعا وكذلك قوله لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى الى قوله فلم تجدوا ماء فتيمموا وصار التيمم لمن وجب عليه الاغتسال كما انه مشروع لمن وجب عليه الوضوء وهذا الوجه ذكره أبو عبيد في اثبات مذهب الشافعي رحمه الله واحتج أصحاب أبي حنيفة على ان حكم الاستثناء مختص بالجملة الاخيرة بوجوه (أحدها) ان الاستثناء من الاستثناء يختص بالجملة الاخيرة فكذا في جميع الصور وطردا للباب (وثانيها) ان المقتضى لعموم الجمل المتقدمة قائم والمعارض وهو الاستثناء يكفي في تصحيحه تعليقه بجملة واحدة لان بهذا القدر يخرج الاستثناء عن أن يكون لغوا فوجب تعليقه بالجملة الواحدة فقط (وثالثها) ان الاستثناء لو رجع الى كل الجمل المتقدمة لوجب انه اذا تاب ان لا يجلد وهذا باطل بالاجماع فوجب أن يختص الاستثناء بالجملة الاخيرة (والجواب) عن الاول ان الاستثناء من النفي اثبات ومن الاثبات نفي فالاستثناء عقيب الاستثناء لو رجع الى الاستثناء الاول والى المستثنى فبقدر ما نفى من أحدهما أثبت في الآخر فيصير الناقص بالزائد ويصير الاستثناء الثاني عديم الفائدة فلهذا السبب قلنا في الاستثناء من الاستثناء انه يختص بالجملة الاخيرة (والجواب) عن الثاني انا بينا ان واو العطف لا تقتضي الترتيب فلم يكن بعض الجمل متأخرا في التقدير عن البعض فلم يكن تعليقه بالبعض أولى من تعليقه بالباقي فوجب تعليقه بالكل (والجواب) عن الثالث انه ترك العمل به في حق البعض فلا يترك العمل به في حق الباقي واحتج أصحاب أبي حنيفة رحمه الله في المسئلة بوجوه من الاخبار (أحدها) ما روى ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هلال بن امية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الآن يجلد هلال وتبطل شهادته في المسلمين فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان وقوع الجلد به يبطل شهادته من غير شرط التوبة في قبولها (وثانيها) ان قوله عليه السلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدودا في قذف ولم يشترط فيه وجود التوبة منه

(وثالثها) .

والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا أن في الاول معنى الاستقبال وفي الثاني معنى الخطف والاخذ بسرعة وفي الثالث معنى الحذق والمهارة وقرئ تتلقونه على الاصل وتلقونه من لقيه وتلقونه بكسر حرف المضارعة وتلقونه من القاء بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والالق وهو الكذب وتثقفونه من ثقفته اذا طلبته فوجدته وتتقفونه أي تتبعونه (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) أي تقولون قولا مختصا بالافواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب لانه ليس بتعبير عن علم به في قلوبكم كقوله تعالى يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم (وتحسبونه هينا) سهلا لا تبعة له أو ليس له كثير عقوبة (وهو عند الله) والحال انه عنده عز وجل (عظيم) لا يقادر قدره في الوزر واستجرار العذاب (ولولا اذ سمعتموه) من المخترعين او المشايعين لهم (قلتم) تكذيبا لهم وتهويلا لما ارتكبوه (ما يكون لنا) ما يمكننا (أن نتكلم بهذا) وما يصدر عنا ذلك

(وثالثها) ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تجوز شهادة محدود في الاسلام قالت الشافعية هذا معارض بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد والامر للوجوب فاذا علم المحدود وجبت عليه الشهادة ولو لم تكن مقبولة لما وجبت لانها تكون عبثا (وثانيها) قوله عليه السلام نحن نحكم بالظاهر وههنا قد حصل الظهور لان دينه وعقله وعفته الحاصلة بالتوبة تفيد ظن كونه صادقا (وثالثها) ما روى عن عمر بن الخطاب انه ضرب الذين شهدوا على المغيرة ابن شعبة وهم أبو بكرة ونافع ونفيع ثم قال لهم من أكذب نفسه قبلت شهادته ومن لا يفعل لم أجز شهادته فأكذب نافع ونفيع أنفسهما وتابا وكان يقبل شهادتهما واما أبو بكرة فكان لا يقبل شهادته وما أنكر عليه أحد من الصحابة فيه فهذا تمام الكلام في هذه المسئلة اما قوله تعالى وأولئك هم الفاسقون فاعلم انه يدل على أمرين (الاول) ان القذف من جملة الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب الكبيرة (الثاني) انه اسم لمن يستحق العقاب لانه لو كان مشتقا من فعله لكانت التوبة لا تمنع من دوامه كما لا تمنع من وصفه بانه ضارب وبانه رام الى غير ذلك وأما قوله تعالى الا الذين تابوا فاعلم انهم اختلفوا في ان التوبة عن القذف كيف تكون قال الشافعي رحمه الله التوبة منه اكذابه نفسه واختلف اصحابه في معناه فقال الاصطخري يقول كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله وقال أبو اسحق لا يقول كذبت لانه ربما يكون صادقا فيكون قوله كذبت كذبا والكذب معصية والاتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى بل يقول القذف باطل ندمت على ما قلت ورجعت عنه ولا أعود اليه أما قوله وأصلحوا فقال أصحابنا انه بعد التوبة لا بد من مضي مدة عليه في حسن الحال حتى تقبل شهادته وتعود ولايته ثم قدروا تلك المدة بسنة حتى تمر عليه الفصول الاربع التي تتغير فيها الاحوال والطباع كما يضرب للعنين أجل سنة وقد علق الشرع أحكاما بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما واما قوله تعالى فان الله غفور رحيم فالمعنى انه لكونه غفورا رحيما يقبل التوبة وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلا اذ لو كان واجبا لما كان في قبوله غفورا رحيما لانه اذا كان واجبا فهو انما يقبله خوفا وقهرا للعلم بانه لو لم يقبله لصار سفيها ولخرج عن حد الالهية أما اذا لم يكن واجبا فقبله فهنالك تتحقق الرحمة والاحسان وبالله التوفيق

(الحكم الرابع) حكم اللعان ۞ قوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم) اعلم انه سبحانه لما ذكر أحكام قذف الاجنبيات عقبه باحكام قذف الزوجات ثم هذه الآية مشتملة على ابحاث (البحث الاول) في سبب نزوله

بوجه من الوجوه وحاصله نفي وجود التكلم به لا نفي وجوده على وجه الصحة والاستقامة والانبغاء وهذا اشارة الى ما سمعوه وتوسيط الظرف بين لولا وقلتم لما مر من تخصيص التحضيض باول وقت السماع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور عن ذلك الآن ليفيد انه المحتمل للوقوع المفتقر الى التحضيض على تركه وأما ترك القول نفسه رأسا فمما لا يتوهم وقوعه حتى يحضض على فعله ويلام على تركه وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما قيل ان المعنى انه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم وأما ما قيل من أن ظروف الاشياء منزلة منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها فهي ضابطة ربما تستعمل فيما اذا وضع الظرف موضع المظروف بأن جعل مفعولا صريحا للفعل المذكور كما في قوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء أو مقدر كعامة الظروف المنصوبة باضمار اذكر وأما ههنا فلا حاجة اليها اصلا لما تحققت أن مناط التقديم توجيه التحضيض اليه وذلك يتحقق في جميع متعلقات الفعل كما في قوله تعالى فلولا ان كنتم

وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال ابن عباس رحمهما الله لما نزل قوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء قال عاصم بن عدى الانصارى ان دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فان جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج وان قتله قتل به وان قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب وان سكت سكت على غيظ اللهم افتح وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس فأتى عويمر عاصما فقال لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا فى أهل بيتى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وماذاك فقال أخبرنى عويمر ابن عمى بأنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعا وقال لعويمر اتق الله فى زوجتك وابنة عمك ولا تقذفها فقال يا رسول الله أقسم بالله انى رأيت شريكا على بطنها وانى ما قربتها منذ أربعة أشهر وانها حبلى من غيرى فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقى الله ولا تخبرى الا بما صنعت فقالت يا رسول الله ان عويمرا رجل غيور وانه رأى شريكا يطيل النظر الى ويتحدث فحملته الغيرة على ما قال فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نودى الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم وقل أشهد بالله ان خولة لزانية وانى لمن الصادقين ثم قال فى الثانية قل أشهد بالله انى رأيت شريكا على بطنها وانى لمن الصادقين ثم قال فى الثالثة قل أشهد بالله انها حبلى من غيرى وانى لمن الصادقين ثم قال فى الرابعة قل أشهد بالله انها زانية وانى ما قربتها منذ أربعة أشهر وانى لمن الصادقين ثم قال فى الخامسة قل لعنة الله على عويمر يعنى نفسه ان كان من الكاذبين فيما قال ثم قال اقعد وقال لخولة قومى فقامت وقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وان زوجى عويمرا لمن الكاذبين وقالت فى الثانية أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وانه لمن الكاذبين وقالت فى الثالثة أشهد بالله انى حبلى منه وانه لمن الكاذبين وقالت فى الرابعة اشهد بالله انه ما رآنى على فاحشة قط وانه لمن الكاذبين وقالت فى الخامسة غضب الله على خولة ان كان عويمر من الصادقين فى قوله ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الكلبى ان عاصما ذات يوم رجع الى أهله فوجد شريك بن سحماء على بطن امرأته فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمام الحديث كما تقدم (وثالثها) ماروى عكرمة عن ابن عباس لما نزل والذين يرمون المحصنات قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار لو وجدت رجلا على بطنها فانى ان جئت بأربعة من الشهداء يكون قد قضى حاجته وذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار أما تسمعون ما يقول سيدكم فقالوا يا رسول الله لا تلمه فانه رجل غيور فقال سعد يا رسول الله والله انى لاعرف انها من الله وأنها حق ولكنى عجبت منه فقال عليه السلام

غير مدينين ترجعونها (سبحانك) تعجب ممن تفوه به وأصله أن يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى تنزيها له سبحانه عن أن يصعب عليه أمثاله ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه أو تنزيه له تعالى عن أن تكون حرمة نبيه فاجرة فان فجورها تنفير عنه ومخل بمقصود الزواج فيكون تقريرا لما قبله وتمهيدا لقوله تعالى (هذا بهتان عظيم) لعظمة المبهوت عليه واستحالة صدقه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها (يعظكم الله) أى ينصحكم (ان تعودوا لمثله) أى كراهة أن تعودوا أو يزجركم من ان تعودوا أو فى أن تعودوا من قولك وعظته فى كذا فتركه (أبدا) أى مدة حياتكم (ان كنتم مؤمنين) فان الايمان وازع عنه لا محالة وفيه تهييج وتقريع (ويبين الله لكم الآيات) الدالة على الشرائع ومحاسن الاداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتادبوا بها أى ينزلها كذلك أى مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها لا انه يبينها بعد ان لم تكن كذلك وهذا كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أى خلقهما صغيرا وكبيرا ومنه قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار

فان الله يأبى الا ذلك قال فلم يلبثوا الا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم فقال يا رسول الله انى وجدت مع امرأتى رجلا رأيت بعينى وسمعت باذنى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به فقال هلال والله يا رسول الله انى لأرى الكراهة فى وجهك مما أخبرتك به والله يعلم انى لصادق وما قلت الا حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما البينة واما اقامة الحد عليك فاجتمعت الانصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد فبيناهم كذلك اذ نزل عليه الوحى وكان اذا نزل عليه الوحى اربد وجهه وعلا جسده حمرة فلما سرى عنه قال عليه السلام أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا قال فقد كنت أرجو ذلك من الله تعالى فقرأ عليهم هذه الآيات فقال عليه السلام ادعوها فدعيت فكذبت هلالا فقال عليه السلام الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب وأمر بالملاعنة فشهد هلال أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فقال عليه السلام له عند الخامسة اتق الله يا هلال فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال والله لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد الخامسة ثم قال رسول الله أتشهدين فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فلما أخذت فى الخامسة قال لها اتقى الله فان الخامسة هى الموجبة فتفكرت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومى وشهدت الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ثم قال انظروها ان جاءت به اثيبج أصهب أحمش الساقين فهو لهلال وان جاءت به خدلج الساقين أورق جعدا فهو لصاحبه فجاءت به أورق خدلج الساقين فقال عليه السلام لولا الايمان لكان لى ولها شان قال عكرمة لقد رأيته بعد ذلك أمير مصر من الامصار ولا يدرى من أبوه (البحث الثانى) ما يتعلق بالقراءة قرئ ولم تكن بالتاء لان الشهداء جماعة أولانهم فى معنى الانفس ووجه من قرأ أربع أن ينصب لانه فى حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة أحدهم وهى مبتدأ محذوف الخبر فتقديره فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات وقرئ ان لعنة الله وان غضب الله على تخفيف ان ورفع ما بعدها وقرئ ان غضب الله على فعل الغضب وقرئ بنصب الخامستين على معنى وتشهد الخامسة (البحث الثالث) ما يتعلق بالاحكام والنظر فيه يتعلق باطراف (الطرف الاول) فى موجب اللعان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه اذا رمى الرجل امرأته بالزنا يجب عليه الحد ان كانت محصنة والتعزير ان لم تكن محصنة كما فى رمى الاجنبية لا يختلف موجبهما غير انهما يختلفان فى الخلاص ففى قذف الاجنبى لا يسقط الحد عن القاذف الا باقرار المقذوف أو بينة تقوم على زناها وفى قذف الزوجة يسقط عنه الحد بأحد هذين الامرين أو باللعان وانما اعتبر الشرع اللعان فى هذه الصورة دون الاجنبيات لوجهين (الاول) انه لا معرة عليه فى زنا الاجنبية والاولى له ستره أما اذا زنى بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد فلا يمكنه الصبر عليه وتوقيفه على البينة كالمتعذر

لتفخيم شان البيان (والله عليم) باحوال جميع مخلوقاته جلائلها ودقائقها (حكيم) فى جميع تدابيره وافعاله فأنى يمكن صدق ما قيل فى حق حرمة من اصطفاه لرسالته وبعثه الى كافة الخلق ليرشدهم الى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا واظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى والاشعار بعلة الالوهية للعلم والحكمة (ان الذين يحبون) أى يريدون ويقصدون (أن تشيع الفاحشة) أى تنتشر الخصلة المفرطة فى القبح وهى الفرية والرمى بالزنا أو نفس الزنا فالمراد بشيوعها شيوع خبرها أى يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لاشاعتها وانما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة فانها مستتبعة له لا محالة (فى الذين آمنوا) متعلق بتشيع أى تشيع فيما بين الناس وذكر المؤمنين لانهم العمدة فيهم أو بمضمر هو حال من الفاحشة فالموصول عبارة عن المؤمنين خاصة أى يحبون أن تشيع الفاحشة كائنة فى حق المؤمنين وفى شأنهم (لهم) بسبب ما ذكر (عذاب اليم فى الدنيا) من الحد وغيره مما يتفق من البلايا الدنيوية ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى وحسانا ومسطحا حد القذف وضرب صفوان حسانا ضربة بالسيف

فلا جرم خص الشرع هذه الصورة باللعان (الثانى) ان الغالب فى المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته انه لا يقصدها بالقذف الا عن حقيقة فاذا رماها فنفس الرمى يشهد بكونه صادقا الا أن شهادة الحال ليست بكاملة فضم اليها ما يقويها من الايمان كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء (المسئلة الثانية) قال أبو بكر الرازى كان حد قاذف الاجنبيات والزوجات الجلد والدليل عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم لهلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك ابن سحماء ائتنى بأربعة يشهدون لك والا فحد فى ظهرك فثبت بهذا ان حد قاذف الزوجات كان كحد قاذف الاجنبيات الا أنه نسخ عن الازواج الجلد باللعان وروى نحو ذلك فى الرجل الذى قال أرأيتم لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فان تكلم جلدتموه وان قتل قتلتموه وان سكت سكت على غيظ فدلت هذه الاخبار على ان حد قاذف الزوجة كان الجلد وان الله نسخه باللعان (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله اذا قذف الزوج زوجته فالواجب هو الحد ولكن المخلص منه باللعان كما أن الواجب بقذف الاجنبية الحد والمخلص منه بالشهود فاذا نكل الزوج عن اللعان يلزمه الحد للقذف فاذا لاعن ونكلت عن اللعان يلزمها حد الزنا وقال أبو حنيفة رحمه الله اذا نكل الزوج عن اللعان حبس حتى يلاعن وكذا المرأة اذا نكلت حبست حتى لاتلاعن حجة الشافعى وجوه (أحدها) ان الله تعالى قال فى أول السورة والذين يرمون المحصنات يعنى غير الزوجات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ثم عطف عليه حكم الازواج فقال والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم الآية فكما ان مقتضى قذف الاجنبيات الاتيان بالشهود أو الجلد فكذا موجب قذف الزوجات الاتيان باللعان أو الحد (وثانيها) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله والالف واللام الداخلان على العذاب لا يفيدان العموم لانه لا يجب عليها جميع أنواع العذاب فوجب صرفهما الى المعهود السابق والمعهود السابق هو الحد لانه تعالى ذكر فى أول السورة وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين والمراد منه الحد واذا ثبت ان المراد من العذاب فى قوله ويدرأ عنها العذاب هو الحد ثبت انها لو لم تلاعن لحدت وانها باللعان دفعت الحد فان قيل المراد من العذاب هو الحبس قلنا قد بينا ان الالف واللام للمعهود المذكور وأقرب المذكورات فى هذه السورة العذاب بمعنى الحد وأيضا فلو حملناه على الحد لا تصير الآية مجملة أما لو حملناه على الحبس تصير الآية مجملة لان مقدار الحبس غير معلوم (وثالثها) قال الشافعى رحمه الله ومما يدل على بطلان الحبس فى حق المرأة انها تقول ان كان الرجل صادقا فحدونى وان كان كاذبا فخلونى فما بالى والحبس وليس حبسى فى كتاب الله ولا سنة رسوله ولا الاجماع ولا القياس (ورابعها) ان الزوج قذفها ولم يأت بالمخرج من شهادة غيره أو شهادة نفسه فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا

وكف بصرة (والآخرة) من عذاب النار وغير ذلك مما يعلمه الله عز وجل (والله يعلم) جميع الامور التى من جملتها ما فى الضمائر من المحبة المذكورة (وأنتم لا تعلمون) ما يعلمه تعالى بل انما تعلمون ما ظهر لكم من الاقوال والافعال المحسوسة فابنوا أموركم على ما تعلمونه وعاقبوا فى الدنيا على ما تشاهدونه من الاحوال الظاهرة والله سبحانه هو المتولى للسرائر فيعاقب فى الآخرة على ما تكنه الصدور وهذا اذا جعل العذاب الاليم فى الدنيا عبارة عن حد القذف أو منتظماله كما أطبق عليه الجمهور أما اذا ابقى على اطلاقه يراد بالمحبة نفسها من غير أن يقارنها التصدى للاشاعة وهو الانسب بسياق النظم الكريم فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيها على أن عذاب من يباشر الاشاعة ويتولاها أشد وأعظم ويكون الاعتراض التذييلى أعنى قوله تعالى والله يعلم وأنتم لا تعلمون تقريرا لثبوت العذاب الاليم لهم وتعليلا له (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للتنبيه على كمال عظم الجريرة (وأن الله رؤف رحيم) عطف على فضل الله واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار باستتباع صفة الالوهية للرأفة والرحمة وتغيير سبكه وتصديره

بأربعة شهداء فاجلدوهم واذا ثبت ذلك فى حق الرجل ثبت فى حق المرأة لانه لا قائل بالفرق (وخامسها) قوله عليه السلام لخولة فالرجم أهون عليك من غضب الله وهو نص فى الباب حجة أبى حنيفة رحمه الله أما فى حق المرأة فلانها ما فعلت سوى انها تركت اللعان وهذا الترك ليس بينة على الزنا ولا اقرارا منها به فوجب أن لا يجوز رجمها لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الحديث واذا لم يجب الرجم اذا كانت محصنة لم يجب الجلد فى غير المحصن لانه لا قائل بالفرق وأيضا فالنكول ليس بصريح فى الاقرار فلم يجز اثبات الحد به كاللفظ المحتمل للزنا ولغيره (المسئلة الرابعة) قال الجمهور اذا قال لها يا زانية وجب اللعان وقال مالك رحمه الله لا يلاعن الا أن يقول رأيتك تزنى أو ينفى حملا لها أو ولدا منها حجة الجمهور أن عموم قوله والذين يرمون المحصنات يتناول الكل ولانه لا تفاوت فى قذف الاجنبية بين الكل فكذا فى حق قذف الزوجة (الطرف الثانى) الملاعن قال الشافعى رحمه الله من صح يمينه صح لعانه فيجرى اللعان بين الرقيقين والذميين والمحدودين وكذا اذا كان أحدهما رقيقا أو كان الزوج مسلما والمرأة ذمية وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يصح فى صورتين (احداهما) أن تكون الزوجة ممن لا يجب على قاذفها الحد اذا كان أجنبيا نحو أن تكون الزوجة مملوكة أو ذمية (والثانى) أن يكون أحدهما من غير أهل الشهادة بأن يكون محدودا فى قذف أو عبدا أو كافرا ثم زعم ان الفاسق والاعمى مع انهما ليسا من أهل الشهادة يصح لعانهما وجه قول الشافعى رحمه الله ان ظاهر قوله تعالى والذين يرمون أزواجهم يتناول الكل ولا معنى للتخصيص والقياس أيضا ظاهر من وجهين (الاول) ان المقصود دفع العار عن النفس ودفع ولد الزنا عن النفس وكما يحتاج غير المحدود اليه فكذا المحدود محتاج اليه (والثانى) اجمعنا على أنه يصح لعان الفاسق والاعمى وان لم يكونا من أهل الشهادة فكذا القول فى غيرهما والجامع هو الحاجة الى دفع عار الزنا ووجه قول أبى حنيفة رحمه الله النص والمعنى أما النص فما روى عبد الله بن عمرو بن العاص انه عليه السلام قال أربع من النساء ليس بينهن وبين أزواجهن ملاعنة اليهودية والنصرانية تحت المسلم والحرة تحت المملوك والمملوكة تحت الحر أما المعنى فنقول أما فى الصورة الاولى فلانه كان الواجب على قاذف الزوجة والاجنبية الحد بقوله والذين يرمون المحصنات ثم نسخ ذلك عن الازواج وأقيم اللعان مقامه فلما كان اللعان مع الازواج قائما مقام الحد فى الاجنبيات لم يجب اللعان على من لا يجب عليه الحد لو قذفها أجنبى وأما فى الصورة الثانية فالوجه فيه ان اللعان شهادة فوجب أن لا يصح الا من أهل الشهادة وانما قلنا ان اللعان شهادة لوجهين (الاول) قوله تعالى ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله فسمى الله تعالى لعانهم شهادة كما قال واستشهدوا شهيدين من رجالكم وقال فاستشهدوا عليهن أربعة منكم (الثانى) انه عليه السلام حين لاعن بين

بحرف التحقيق لما أن المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة التى هى كمال الرحمة والرحيمية التى هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم كما أنه المراد بالمعطوف عليه وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وما تذرون من الافاعيل التى من جملتها اشاعة الفاحشة وحبها وقرئ خطوات بسكون الطاء وبفتحها أيضا (ومن يتبع خطوات الشيطان) وضع الظاهران موضع ضميريهما حيث لم يقل ومن يتبعها أو ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير والتحذير (فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) علة للجزاء وضعت موضعه كأنه قيل فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لان دأبه المستمر أن يأمر بهما فمن اتبع خطواته فقد امتثل بأمره قطعا والفحشاء ما أفرط قبحه كالفاحشة والمنكر ما ينكره الشرع وضميرانه للشيطان وقيل للشان على رأى من لا يوجب عود الضمير من الجملة الجزائية الى اسم الشرط او على ان الاصل يأمره وقيل هو عائد الى من أى فان ذلك المتبع يأمر الناس بهما لان

شان الشيطان هو الاضلال فمن اتبعه يترقى من رتبة الضلال والفساد الى رتبة الاضلال والافساد (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) بما من جملته هاتيك البيانات والتوفيق للتوبة الماحصة للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها (ما زكا) أى ما طهر من دنسها وقرئ ما زكى بالتشديد أى ما طهر الله تعالى ومن فى قوله تعالى (منكم) بيانية وفى قوله تعالى (من أحد) زائدة وأحد فى حيز الرفع على الفاعلية على القراءة الاولى وفى محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية (أبدا) لا الى نهاية (ولكن الله يزكى) يطهر (من يشاء) من عباده بافاضة آثار فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم (والله سميع) مبالغ فى سمع الاقوال التى من جملتها ما أظهروه من التوبة (عليم) بجميع المعلومات التى من جملتها نياتهم وفيه حث لهم على الاخلاص فى التوبة واظهار الاسم الجليل للايذان باستدعاء الالوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلى (ولا يأتل) أى لا يحلف افتعال من الالية وقيل لا يقصر من الالو والاول هو الاظهر لنزوله فى شأن الصديق رضى الله

الزوجين أمرهما باللعان بلفظ الشهادة ولم يقتصر على لفظ اليمين اذا ثبت ان اللعان شهادة وجب أن لا تقبل من المحدود فى القذف لقوله تعالى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا واذا ثبت ذلك فى المحدود ثبت فى العبد والكافر اما للاجماع على انهما ليسا من أهل الشهادة أو لانه لا قائل بالفرق أجاب الشافعى رحمه الله بان اللعان ليس شهادة فى الحقيقة بل هو يمين لانه لا يجوز أن يشهد الانسان لنفسه ولانه لو كان شهادة لكانت المرأة تأتى بثمان شهادات لانها على النصف من الرجل ولانه يصح من الاعمى والفاسق ولا يجوز شهادتهما فان قيل الفاسق والفاسقة قد يتوبان قلنا وكذلك العبد قد يعتق فتجوز شهادته ثم أكد الشافعى رحمه الله ذلك بان العبد اذا عتق تقبل شهادته فى الحال والفاسق اذا تاب لا تقبل شهادته فى الحال ثم ألزم أبا حنيفة رحمه الله بان شهادة أهل الذمة مقبولة بعضهم على بعض فينبغى أن يجوز اللعان بين الذمى والذمية وهذا كله كلام الشافعى رحمه الله ثم قال بعد ذلك وتختلف الحدود بمن وقعت له ومعناه ان الزوج ان لم يلاعن تنصف حد القذف عليه لرقه وان لاعن ولم تلاعن اختلف حدها باحصانها وعدم احصانها او حريتها ورقها (الطرف الثالث) الاحكام المرتبة على اللعان قال الشافعى رحمه الله يتعلق باللعان خمسة أحكام درء الحد ونفى الولد والفرقة والتحريم المؤبد ووجوب الحد عليها وكلها تثبت بمجرد لعانه ولا يفتقر فيه الى لعانها ولا الى حكم الحاكم فان حكم الحاكم به كان تنفيذا منه لا ايقاعا للفرقة فلنتكلم فى هذه المسائل (المسئلة الاولى) اختلف المجتهدون فى وقوع الفرقة باللعان على أربعة أقوال (أحدها) قال عثمان البتى لا أرى ملاعنة الزوج امرأته تقتضى شيأ يوجب أن يطلقها (وثانيها) قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد لا تقع الفرقة بفراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما (وثالثها) قال مالك والليث وزفر رحمهم الله اذا فرغا من اللعان وقعت الفرقة وان لم يفرق الحاكم (ورابعها) قال الشافعى رحمه الله اذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته ولا تحل له أبدا التعنت أو لم تلتعن حجة عثمان البتى وجوه (أحدها) ان اللعان ليس بصريح ولا كناية عن الفرقة فوجب أن لا يفيد الفرقة كسائر الاقوال التى لا اشعار لها بالفرقة لان أكثر ما فيه أن يكون الزوج صادقا فى قوله وهو لا يوجب تحريما الا ترى انه لو قامت البينة عليها لم يوجب ذلك تحريما فاذا كان كاذبا والمرأة صادقة يثبت انه لا دلالة فيه على التحريم (وثانيها) لو تلاعنا فيما بينهما لم يوجب الفرقة فكذا لو تلاعنا عند الحاكم (وثالثها) ان اللعان قائم مقام الشهود فى قذف الاجنبيات فكما انه لا فائدة فى احضار الشهود هناك الا اسقاط الحد فكذا اللعان لا تأثير له الا اسقاط الحد (ورابعها) اذا كذب الزوج نفسه فى قذفه اياها ثم حد لم يوجب ذلك فرقة فكذا اذا لاعن لان اللعان قائم مقام درء الحد قال وأما تفريق النبى صلى الله عليه وسلم بين المتلاعنين فكان ذلك فى قصة العجلانى وكان قد طلقها ثلاثا بعد اللعان فلذلك فرق بينهما وأما قول أبى حنيفة

عنه حين حلف ان لا ينفق على مسطح بعد وكان ينفق عليه لكونه ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين ويعضده قراءة من قرأ ولا يتأل (أولوا الفضل منكم) فى الدين وكفى به دليلا على فضل الصديق رضى الله تعالى عنه (والسعة) فى المال (أن يؤتوا) أى على ان لا يؤتوا وقرئ بتاء الخطاب على الالتفات (أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) صفات لموصوف واحد جىء بها بطريق العطف تنبيها على ان كلا منها علة مستقلة لاستحقاقه الايتاء وقيل لموصوفات أقيمت هى مقامها وحذف المفعول الثانى لغاية ظهوره أى على ان لا يؤتوهم شيأ (وليعفوا) ما فرط منهم (وليصفحوا) بالاغضاء عنه وقد قرئ الامر ان بتاء الخطاب على وفق قوله تعالى (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أى بمقابلة عفوكم وصفحكم واحسانكم الى من أساء اليكم (والله غفور رحيم) مبالغ فى المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية اليها وفيه ترغيب عظيم فى العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته روى أنه عليه الصلاة والسلام

وهو أن الحاكم يفرق بينهما فلا بد من بيان أمرين (أحدهما) انه يجب على الحاكم أن يفرق بينهما ودليله ما روى سهل بن سعد فى قصة العجلانى مضت السنة فى المتلاعنين أن يفرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدا (والثانى) ان الفرقة لا تحصل الا بحكم الحاكم واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) روى فى قصة عويمر انهما لما فرغا قال عويمر كذبت عليها يا رسول الله ان أمسكتها هى طالق ثلاثا فطلقها ثلاثا قبل ان يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال بهذا الخبر من وجوه (أحدها) انه لو وقعت الفرقة باللعان لبطل قوله كذبت عليها ان أمسكتها لان امساكها غير ممكن (وثانيها) ما روى فى هذا الخبر انه طلقها ثلاث تطليقات فانفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنفيذ الطلاق انما يمكن لو لم تقع الفرقة بنفس اللعان (وثالثها) ما قال سهل بن سعد فى هذا الخبر مضت السنة فى المتلاعنين أن يفرق بينهما ولا يجتمعان أبدا ولو كانت الفرقة واقعة باللعان استحال التفريق بعدها (وثانيها) قال أبو بكر الرازى قول الشافعى رحمه الله خلاف الآية لانه لو وقعت الفرقة بلعان الزوج للاعنت المرأة وهى أجنبية وذلك خلاف الآية لان الله تعالى انما أوجب اللعان بين الزوجين (وثالثها) ان اللعان شهادة لا يثبت حكمه الا عند الحاكم فوجب أن لا يوجب الفرقة الا بحكم الحاكم كما لا يثبت المشهود به الا بحكم الحاكم (ورابعها) اللعان تستحق به المرأة نفسها كما يستحق المدعى بالبينة فلما لم يجز أن يستحق المدعى مدعاه الا بحكم الحاكم وجب مثله فى استحقاق المرأة نفسها (وخامسها) ان اللعان لا اشعار فيه بالتحريم لان أكثر ما فيه انها زنت ولو قامت البينة على زناها أو هى أقرت بذلك فذلك لا يوجب التحريم فكذا اللعان واذا لم يوجد فيها دلالة على التحريم وجب ان لا تقع الفرقة به فلا بد من احداث التفريق اما من قبل الزوج أو من قبل الحاكم أما قول مالك وزفر فحجته انهما لو تراضيا على البقاء على النكاح لم يخليا بل يفرق بينهما فدل على ان اللعان قد أوجب الفرقة أما قول الشافعى رحمه الله فله دليلان (الاول) قوله تعالى ويدرؤا عنها العذاب ان تشهد الآية فدل هذا على انه لا تأثير للعان المرأة الا فى دفع العذاب عن نفسها وان كل ما يجب باللعان من الاحكام فقد وقع بلعان الزوج (الثانى) ان لعان الزوج وحده مستقل بنفى الولد فوجب أن يكون الاعتبار بقوله فى الالحاق لا بقولها ألا ترى انها فى لعانها تلحق الولد به ونحن تنفيه عنه فيعتبر نفى الزوج لا الحاق المرأة ولهذا اذا أكذب الزوج نفسه ألحق به الولد وما دام يبقى مصرا على اللعان فالولد منفى عنه اذا ثبت ان لعانه مستقل بنفى الولد وجب أن يكون مستقلا بوقوع الفرقة لان الفرقة لو لم تقع لم ينتف الولد لقوله عليه السلام الولد للفراش فما دام يبقى الفراش التحق به فلما انتفى الولد عنه بمجرد لعانه وجب انه يزول الفراش عنه بمجرد لعانه وأما الاخبار التى استدل بها أبو حنيفة رحمه الله فالمراد بها ان النبى عليه السلام أخبر عن وقوع الفرقة وحكم بها وذلك لا ينافى أن يكون المؤثر فى الفرقة شيأ آخر وأما الاقيسة التى ذكرها

غدارها على ان اللعان شهادة وليس الامر كذلك بل هو يمين على ما بينا وأما قوله اللعان لا اشعار فيه بوقوع الحرمة قلنا بينته على نفى الولد مقبولة ونفى الولد يتضمن نفى حلية النكاح والله أعلم (المسئلة الثانية) قال مالك والشافعى وأبو يوسف والثورى واسحق والحسن المتلاعنان لا يجتمعان أبدا وهو قول على وعمر وابن مسعود وقال أبو حنيفة ومحمد اذا أكذب نفسه وحد زال تحريم العقد وحلت له بنكاح جديد حجة الشافعى رحمه الله أمور (أحدها) قوله عليه السلام للملاعن بعد اللعان لا سبيل لك عليها ولم يقل حتى تكذب نفسك ولو كان الاكذاب غاية لهذه الحرمة لردها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذه الغاية كما قال فى المطلقة بالثلاث فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره (وثانيها) ما روى عن على وعمر وابن مسعود انهم قالوا لا يجتمع المتلاعنان أبدا وهذا قد روى أيضا مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثالثها) ما روى الزهرى عن سهل بن سعد فى قصة العجلانى مضت السنة انهما اذا تلاعنا فرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدا حجة أبى حنيفة رحمه الله قوله تعالى وأحل لكم ما وراء ذلكم وقوله فانكحوا ما طاب لكم (المسئلة الثالثة) اتفق أهل العلم على ان الولد قد ينفى عن الزوج باللعان وحكى عن بعض من شذ أنه للزوج ولا ينتفى نسبه باللعان واحتج بقوله عليه السلام الولد للفراش وهذا ضعيف لان الاخبار الدالة على ان النسب ينتفى باللعان كالمتواترة فلا يعارضها هذا الواحد (المسئلة الرابعة) قال الشافعى رحمه الله لو أتى أحدهما ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم وقال أبو حنيفة رحمه الله أكثر كلمات اللعان تعمل عمل الكل اذا حكم به الحاكم والظاهر مع الشافعى لانه يدل على انها لا تدرأ العذاب عن نفسها الا بتمام ما ذكره الله تعالى ومن قال بخلاف ذلك فانما يقوله بدليل منفصل (الطرف الرابع) فى كيفية اللعان والآية دالة عليها صريحا فالرجل يشهد أربع شهادات بالله بأن يقول أشهد بالله انى لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا ثم يقول من بعد وعليه لعنة الله ان كان من الكاذبين ويتعلق بلعان الزوج تلك الاحكام الخمسة على قول الشافعى رحمه الله ثم المرأة اذا أرادت اسقاط حد الزنا عن نفسها عليها ان تلاعن ولا يتعلق بلعانها الا هذا الحكم الواحد ثم ههنا فروع (الفرع الاول) أجمعوا على ان اللعان كالشهادة فلا يثبت الا عند الحاكم (الثانى) قال الشافعى رحمه الله يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة وتقام المرأة حتى تشهد والرجل قاعد ويأمر الامام من يضع يده على فيه عند الانتهاء الى اللعنة والغضب ويقول له انى أخاف ان لم تك صادقا ان تبوء بلعنة الله (الثالث) اللعان بمكة بين المقام والركن وبالمدينة عند المنبر وبيت المقدس فى مسجده وفى غيرها فى المواضع المعظمة ولعان المشرك كغيره فى الكيفية وأما الزمان فيوم الجمعة بعد العصر ولا بد من حضور جماعة من الاعيان أقلهم أربعة (الطرف الخامس) فى سائر الفوائد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على

بطلان .

قرأها على أبى بكر رضى الله عنه فقال بلى احب ان يغفر الله لى فرجع الى مسطح نفقته وقال والله لا انزعها ابدا (ان الذين يرمون المحصنات) اى العفائف مما رمين به من الفاحشة (الغافلات) عنها على الاطلاق بحيث لم يخطر ببالهن شئ منها ولا من مقدماتها اصلا ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس فى المحصنات اى السليمات الصدور النقيات القلوب عن كل سوء (المؤمنات) اى المتصفات بالايمان بكل ما يجب ان يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها ايمانا حقيقيا تفصيليا كما ينبئ عنه تأخير المؤمنات عما قبلها مع اصالة وصف الايمان فانه للايذان بان المراد بها المعنى الوصفى المعرب عما ذكر لا المعنى الاسمى المصحح لاطلاق الاسم فى الجملة كما هو المتبادر على تقدير التقديم والمراد بها عائشة الصديقة رضى الله عنها والجمع باعتبار ان رميها رمى لسائر أمهات المؤمنين لاشتراك الكل فى العصمة والنزاهة والانتساب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فى قوله تعالى كذبت قوم نوح المرسلين ونظائره وقيل امهات المؤمنين فيدخل فيهن الصديقة دخولا أوليا واما ما قيل من ان المراد

بطلان قول الخوارج فى ان الزنا والقذف كفر من وجهين (الاول) ان الرامى ان صدق فهى زانية وان كذب فهو قاذف فلا بد على قولهم من وقوع الكفر من أحدهما وذلك يكون ردة فيجب على هذا ان تقع الفرقة ولا لعان أصلا وأن تكون فرقة الردة حتى لا يتعلق بذلك توارث البتة (الثانى) ان الكفر اذا ثبت عليها بلعانه فالواجب ان تقتل لا أن تجلد أو ترجم لان عقوبة المرتد مباينة للحد فى الزنا (المسئلة الثانية) الآية دالة على بطلان قول من يقول ان وقوع الزنا يفسد النكاح وذلك لانه يجب اذا رماها بالزنا أن يكون قوله هذا كانه معترف بفساد النكاح حتى يكون سبيله سبيل من يقر بانها أخته من الرضاع أو بانها كافرة ولو كان كذلك لوجب أن تقع الفرقة بنفس الرمى من قبل اللعان وقد ثبت بالاجماع فساد ذلك (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة دلت الآية على ان القاذف مستحق للعن الله تعالى اذا كان كاذبا وانه قد فسق وكذلك الزانى والزانية يستحقان غضب الله تعالى وعقابه والا لم يحسن منهما ان يلعنا أنفسهما كما لا يجوز ان يدعوا أحدربه أن يلعن الاطفال والمجانين واذا صح ذلك فقد استحق العقاب والعقاب يكون دائما كالثواب ولا يجتمعان فثوابهما أيضا محبط فلا يجوز اذا لم يتوبا أن يدخلا الجنة لان الامة مجمعة على ان من دخل الجنة من المكلفين فهو مثاب على طاعاته وذلك يدل على خلود الفساق فى النار قال أصحابنا لا نسلم أن كونه مغضوبا عليه بفسقه ينافى كونه مرضيا عنه لجهة ايمانه ثم لو سلمناه فلم نسلم ان الجنة لا يدخلها الا مستحق الثواب والاجماع ممنوع (المسئلة الرابعة) انما خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله تغليظا عليها لانها هى أصل الفجور ومنبعه بخلابتها واطماعها ولذلك كانت مقدمة فى آية الجلد واعلم انه سبحانه لما بين حكم الرامى للمحصنات والازواج على ما ذكرنا وكان فى ذلك من الرحمة والنعمة ما لا خفاء فيه لانه تعالى جعل باللعان للمرء سبيلا الى مراده ولها سبيلا الى دفع العذاب عن نفسها ولهما السبيل الى التوبة والانابة فلاجل هذا بين تعالى بقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته عظم نعمه فيما بينه من هذه الاحكام وفيما أمهل وأبقى ومكن من التوبة ولا شبهة فى ان فى الكلام حذفا اذ لا بد من جواب الا أن تركه يدل على انه أمر عظيم لا يكتنه ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به (الحكم الخامس) قصة الافك

قوله تعالى (ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) الكلام فى هذه الآية من وجهين (أحدهما) تفسيره (والثانى) سبب نزوله أما التفسير فاعلم ان الله تعالى ذكر فى هذه الآية ثلاثة أشياء (أولها) انه حكى الواقعة وهو قوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم والافك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان وهو الامر الذى لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الافك وهو القلب لانه قول مأفوك عن وجهه وأجمع المسلمون على ان المراد ما أفك به على عائشة وانما وصف الله تعالى ذلك

هى الصديقة والجمع باعتبار استتباعها للمتصفات بالصفات المذكورة من نساء الامة فيأباه أن العقوبات المترتبة على رمى هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين ولا ريب فى ان رمى غير أمهات المؤمنين ليس بكفر فيجب أن يكون المراد اياهن على أحد الوجهين فانهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات بجعل رميهن كفرا ابرازا لكرامتهن على الله عز وجل وحماية لحمى الرسالة من أن يحوم حوله أحد بسوء حتى ان ابن عباس رضى الله عنهما جعله اغلظ من سائر أفراد الكفر حين سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة رضى الله عنها وهل هو منه رضى الله عنه الا للتهويل أمر الافك والتنبيه على أنه كفر غليظ (لعنوا) بما قالوه فى حقهن (فى الدنيا والآخرة) حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدا (ولهم) مع ما ذكر من اللعن الابدى (عذاب عظيم) هائل لا يقادر قدره لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية وقوله تعالى (يوم تشهد عليهم) الخ اما متصل بما قبله مسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور جناياتهم

الكذب بكونه افكا لانّ المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه (أحدها) ان كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم يمنع من ذلك لانّ الانبياء مبعوثون الى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم فوجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم وكون الانسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنفرات فان قيل كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة وأيضا فلو لم يجز ذلك لكان الرسول اعرف الناس بامتناعه ولو عرف ذلك لما ضاق قلبه ولما سال عائشة عن كيفية الواقعة قلنا (الجواب) عن الاول ان الكفر ليس من المنفرات أما كونها فاجرة فمن المنفرات (والجواب) عن الثانى انه عليه السلام كثيرا ما كان يضيق قلبه من أقوال الكفار مع علمه بفساد تلك الاقوال قال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فكان هذا من هذا الباب (وثانيها) ان المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة انما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور ومن كان كذلك كان الاليق احسان الظن به (وثالثها) انّ القاذفين كانوا من المنافقين واتباعهم وقد عرف ان كلام العدو المفترى ضرب من الهذيان فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحى أما العصبة فقيل انها الجماعة من العشرة الى الاربعين وكذلك العصابة واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح ابن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم أما قوله منكم فالمعنى انّ الذى أتوا بالكذب فى أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون لانّ عبد الله كان من جملة من حكم له بالايمان ظاهرا (ورابعها) انه سبحانه شرح حال المقذوفة ومن يتعلق بها بقوله لا تحسبوه شرّا لكم بل هو خير لكم والصحيح ان هذا الخطاب ليس مع القاذفين بل مع من قذفوه وآذوه فان قيل هذا مشكل لوجهين (أحدهما) انه لم يتقدم ذكرهم (والثانى) انّ المقذوفين هما عائشة وصفوان فكيف تحمل عليهما صيغة الجمع فى قوله لا تحسبوه شرّا لكم (والجواب عن الاول) انه تقدم ذكرهم فى قوله منكم (وعن الثانى) ان المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم ومعلوم انه صلى الله عليه وسلم تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومن يتصل به فان قيل فمن أىّ جهة يصير خيرا لهم مع انه مضرّة فى العاجل قلنا لوجوه (أحدها) انهم صبروا على ذلك الغم طلبا لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم (وثانيها) انه لولا اظهارهم للافك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة فى صدور البعض وعند الاظهار انكشف كذب القوم على مرّ الدهر (وثالثها) انه صار خيرا لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم الى الافك وأوجب عليهم اللعن والذم وهذا غاية الشرف والفضل (ورابعها) صيرورتها بحال تعلق الكفر والايمان بقدحها ومدحها فانّ الله تعالى لما نص على

الموجبة له مع سائر جناياتهم المستتبعة لعقوباتها على كيفية هائلة وهيئة خارقة للعادات فيوم ظرف لما فى الجار والمجرور المتقدم من معنى الاستقرار لا لعذاب وان اغضينا عن وصفه لاخلاله بجزالة المعنى وامّا منقطع عنه مسوق لتهويل اليوم بتهويل ما يحويه على أنه ظرف لفعل مؤخر قد ضرب عنه الذكر صفحا للايذان بقصور العبارة عن تفصيل ما يقع فيه من الطامة التامة والداهية العامة كأنه قيل يوم تشهد عليهم (ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) يكون من الاحوال والاهوال ما لا يحيط به حيطة المقال على أن الموصول المذكور عبارة عن جميع أعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة لا عن جناياتهم المعهودة فقط ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنه تعالى ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها لا انّ كلا منها يخبر بجناياتهم المعهودة فحسب والموصول المحذوف عبارة عنها او عن فنون العقوبات المترتبة عليها كافة لا عن احداها خاصة ففيه من ضروب التهويل بالاجمال والتفصيل ما لا مزيد عليه وجعل الموصول المذكور عبارة عن خصوص جناياتهم المعهودة وجعل

كون تلك الواقعة افكا وبالغ فى شرحه فكل من يشك فيه كان كافرا قطعا وهذه درجة عالية ومن الناس من قال قوله تعالى لا تحسبوه شرّا لكم خطاب مع القاذفين وجعله الله تعالى خيرا لهم من وجوه (أحدها) انه صار ما نزل من القرآن مانعا لهم من الاستمرار عليه فصار مقطعة لهم عن ادامة هذا الافك (وثانيها) صار خيرا لهم من حيث كان هذا الذكر عقوبة معجلة كالكفارة (وثالثها) صار خيرا لهم من حيث تاب بعضهم عنده واعلم ان هذا القول ضعيف لانه تعالى خاطبهم بالكاف ولما وصف أهل الافك جعل الخطاب بالهاء بقوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ومعلوم ان نفس ما اكتسبوه لا يكون عقوبة فالمراد لهم جزاء ما اكتسبوه من العقاب فى الآخرة والمذمة فى الدنيا والمعنى ان قدر العقاب يكون مثل قدر الخوض أما قوله والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ كبره بالضم والكسر وهو عظمه (المسئلة الثانية) قال الضحاك الذى تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عذرها وجلد معهما امرأة من قريش وروى انّ عائشة رضى الله عنها ذكرت حسانا وقالت أرجو له الجنة فقيل أليس هو الذى تولى كبره فقالت اذا سمعت شعره فى مدح الرسول رجوت له الجنة وقال عليه الصلاة والسلام انّ الله يؤيد حسانا بروح القدس فى شعره وفى رواية أخرى وأىّ عذاب أشدّ من العمى ولعل الله جعل ذلك العذاب العظيم ذهاب بصره والاقرب فى الرواية انّ المراد به عبد الله بن أبيّ ابن سلول فانه كان منافقا يطلب ما يكون قدحا فى الرسول عليه السلام وغيره كان تابعا له فيما كان يأتى وكان فيهم من لا يتهم بالنفاق (المسئلة الثالثة) المراد من اضافة الكبر اليه انه كان مبتدئا بذلك القول فلا جرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام من سنّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة وقيل سبب تلك الاضافة شدة الرغبة فى اشاعة تلك الفاحشة وهو قول أبى مسلم (المسئلة الرابعة) قال الجبائى قوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم أى عقاب ما اكتسب ولو كانوا لا يستحقون على ذلك عقابا لما جاز أن يقول تعالى ذلك وفيه دلالة على ان من لم يتب منهم صار الى العذاب الدائم فى الآخرة لانّ مع استحقاق العذاب لا يجوز استحقاق الثواب (والجواب) ان الكلام فى المحابطة قد مرّ غير مرة فلا وجه للاعادة والله أعلم أما سبب النزول فقد روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبي وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة بن مسعود كلهم رووا عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فايتهن خرج اسمها خرج بها معه قالت فاقرع بيننا فى غزوة غزاها قبل غزوة بنى المصطلق فخرج فيها اسمى فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرب من المدينة نزل منزلا ثم أذن بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل

شهادة الجوارح على اخبار الكل بها فقط تحجير للواسع وتهوين لامر الوازع والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم عليها فى الدنيا وتقديم عليهم على الفاعل للمسارعة الى بيان كون الشهادة ضارة لهم مع ما فيه من التشويق الى المؤخر كما مرّ مرارا وقوله تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أى يوم اذ تشهد جوارحهم باعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم الثابت الذى يحق أن يثبت لهم لا محالة وافيا كاملا كلام مبتدأ مسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المبهم المحذوف على وجه الاجمال ويجوز أن يكون يوم تشهد ظرفا ليوفيهم ويومئذ بدلا منه وقيل هو منصوب على أنه مفعول لفعل مضمر أى اذكر يوم تشهد وقرئ يوم يشهد بالتذكير للفصل (ويعلمون) عند معاينتهم الاهوال والخطوب حسبما نطق به القرآن الكريم (ان الله هو الحق) الثابت الذى يحق أن يثبت لا محالة فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها كلماته التامات المنبئة عن الشؤن التى يشاهدونها منطبقة عليها (المبين) المظهر للاشياء كما هى فى أنفسها أو الظاهر أنه هو الحق وتفسيره بظهور ألوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير لهفيها وعدم قدرة

ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى وأقبلت الى رحلى فلمست صدرى فاذا عقد لى من جزع اظفار قد انقطع فرجعت والتمست عقدى وحبسنى طلبه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى فحملوا هودجى وهم يحسبون انى فيه لخفتى فانى كنت جارية حديثة السن فظنوا انى فى الهودج وذهبوا بالبعير فلما رجعت لم أجد فى المكان أحدا فجلست وقلت لعلهم يعودون فى طلبى فنمت وقد كان صفوان بن المعطل يمكث فى العسكر يتتبع أمتعة الناس فيحمله الى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شئ فلما رآنى عرفنى وقال ما خلفك عن الناس فاخبرته الخبر فنزل وتنحى حتى ركبت ثم قاد البعير وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج الناس فى ذكرى فبينا الناس كذلك اذ هجمت عليهم فتكلم الناس وخاضوا فى حديثى وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولحقنى وجع ولم أر منه عليه السلام ما عهدته من اللطف الذى كنت أعرف منه حين اشتكى انما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول كيف تيكم فذاك الذى يريبنى ولا أشعر بعد بما جرى حتى نقهت فخرجت فى بعض الليالى مع أم مسطح لمهم لنا ثم أقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فأنكرت ذلك وقلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت وما بلغك الخبر فقلت وما هو فقال اشهد انك من المؤمنات الغافلات ثم أخبرتنى بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضى فرجعت أبكى ثم دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كيف تيكم فقلت ائذن لى ان آتى أبوىّ فاذن لى فجئت أبوىّ وقلت لامى يا أمه ماذا يتحدث الناس قالت يا بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها ثم قالت ألم تكونى علمت ما قيل حتى الآن فاقبلت أبكى فبكيت تلك الليلة ثم أصبحت أبكى فدخل علىّ أبى وأنا أبكى فقال لامى ما يبكيها قالت لم تكن علمت ما قيل فيها حتى الآن فاقبل يبكى ثم قال اسكتى يا بنية ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ بن أبى طالب عليه السلام واسامة ابن زيد واستشارهما فى فراق أهله فقال أسامة يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم الا خيرا وأما علىّ فقال لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وان تسأل الجارية تصدقك فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة وسألها عن أمرى قالت بريرة يا رسول الله والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قط اكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين اهلها حتى تأتى الداجن فتأكله قالت فقام النبىّ صلى الله عليه وسلم خطيبا على المنبر فقال يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى اهلى يعنى عبد الله بن ابىّ فوالله ما علمت على اهلى الا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على اهلى الا معى فقام سعد بن معاذ فقال اعذرك يا رسول الله منه ان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج فامرتنا فعلناه فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن اخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت والله لا تقدر على قتله فقام

ماسواه على الثواب والعقاب ليس له كثير مناسبة للمقام كان تفسيرا الحق بذى الحق البين أى العادل الظاهر عدله كذلك ولو تتبعت ما فى القرآن المجيد من آيات الوعيد الواردة فى حق كل كفار مريد وجبار عنيد لا تجد شيأ منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد وما ذاك الا لاظهار منزلة النبىّ صلى الله عليه وسلم فى علو الشان والنباهة وابراز رتبة الصديقة رضى الله عنها فى العفة والنزاهة وقوله تعالى (الخبيثات) الخ كلام مستأنف مسوق على قاعدة السنة الالهية الجارية فيما بين الخلق على موجب ان لله تعالى ملكا يسوق الاهل الى الاهل أى الخبيثات من النساء (للخبيثين) من الرجال أى مختصات بهم لا يكدن يتجاوزنهم الى غيرهم على ان اللام للاختصاص (والخبيثون) أيضا (للخبيثات) لان المجانسة من دواعى الانضمام (والطيبات) منهن (للطيبين) منهم (والطيبون) أيضا (للطيبات) منهن بحيث لا يكادون يجاوزونهن الى من عداهن وحيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب الاطيبين وخيرة الاولين والآخرين تبين كون الصديقة رضى الله عنها

أسيد

أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال كذبت لعمر الله لنقتلنه وانك لمنافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا قالت ومكثت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع وأبواى يظنان ان البكاء فالق كبدى فبينا هما جالسان عندى وأنا أبكى اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندى منذ قيل فىّ ما قيل ولقد لبث شهرا لا يوحى الله اليه فى شأنى شيأ ثم قال أما بعد يا عائشة فانه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وان كنت الممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فان العبد اذا تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته فاض دمعى ثم قلت لابى أجب عنى رسول الله فقال والله ما ادرى ما أقول فقلت لامى أجيبى عنى رسول الله فقالت والله لا أدرى ما أقول فقلت وأنا جارية حديثة السن ما أقرأ من القرآن كثيرا انى والله لقد عرفت انكم قد سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به فان قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى وان اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى بريئة لتصدقونى والله لا أجد لى ولكم مثلا الا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون قالت ثم تحولت واضطجعت على فراشى وأنا والله أعلم ان الله تعالى يبرئنى ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحيا يتلى فشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها قالت فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحى على نبيه فاخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحى حتى انه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل الوحى فسجى بثوب ووضعت وسادة تحت رأسه فوالله ما فزعت ولا باليت لعلمى ببراءتى وأما أبواى فوالله ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفسى أبوى ستخرجان فرقا من أن يأتى الله بتحقيق ما قال الناس فلما سرى عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها ان قال ابشرى يا عائشة أما والله لقد برأك الله فقلت بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك فقالت أمى قومى اليه فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمد أحدا الا الله الذى أنزل براءتى فأنزل الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر آيات فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد هذا وكان ينفق عليه لقرابته منه وفقره فانزل الله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فقال أبو بكر بلى والله انى لاحب أن يغفر الله لى فرجع النفقة على مسطح قالت فلما نزل عذرى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل ضرب عبد الله بن أبىّ ومسطحا وحمنة وحسان الحد * واعلم انه سبحانه وتعالى لما ذكر القصة وذكر حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بها من الآداب والزواجر وهى أنواع (الاول) قوله تعالى (لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون

من اطيب الطيبات بالضرورة واتضح بطلان ما قيل فى حقها من الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى (أولئك مبرؤن مما يقولون) على أن الاشارة الى أهل البيت المنتظمين للصديقة انتظاما أوليا وقيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والصديقة وصفوان وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك الموصوفون بعلو الشان مبرؤن مما تقوله أهل الافك فى حقهم من الاكاذيب الباطلة وقيل الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والنساء أى مختصة ولائقة بهم لا ينبغى أن تقال فى حق غيرهم وكذا الخبيثون من الفريقين احقاء بان يقال فى حقهم خبائث القول والطيبات من الكلم للطيبين من الفريقين مختصة وحقيقة بهم وهم احقاء بان يقال فى شأنهم طيبات الكلم أولئك الطيبون مبرؤن مما يقول الخبيثون فى حقهم فمآله تنزيه الصديقة أيضا وقيل خبيثات القول مختصة بالخبيثين من فريق الرجال والنساء لا تصدر عن غيرهم والخبيثون من الفريقين مختصون بخبائث القول متعرضون لها والطيبات من الكلام للطيبين من الفريقين أى مختصة بهم لا تصدر عن غيرهم

والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين) وهذا من جملة الآداب التى كان يلزمهم الاتيان بها ولولا معناه هلا وذلك كثير فى اللغة اذا كان يليه الفعل كقوله لولا أخرتنى وقوله فلولا كانت قرية آمنت فاما اذا وليه الاسم فليس كذلك كقوله لولا أنتم لكنا مؤمنين وقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته والمراد كان الواجب على المؤمنين اذ سمعوا قول القاذف أن يكذبوه ويشتغلوا باحسان الظن ولا يسرعوا الى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة وههنا سؤالات (السؤال الأول) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن المضمر الى الظاهر (الجواب) ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات وفى التصريح بلفظ الايمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضى أن لا يظن بالمسلمين الا خيرا لان دينه يحكم بكون المعصية منشأ للضرر وعقله يهديه الى وجوب الاحتراز عن الضرر وهذا يوجب حصول الظن باحترازه عن المعصية فاذا وجد هذا المقتضى للاحتراز ولم يوجد فى مقابلته راجح يساويه فى القوة وجب احسان الظن وحرم الاقدام على الطعن (السؤال الثانى) ما المراد من قوله بانفسهم الجواب فيه وجهان (الاول) المراد أن يظن بعضهم ببعض خيرا ونظيره قوله ولا تلمزوا أنفسكم وقوله فاقتلوا أنفسكم وقوله اذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ومعناه أى بامثالكم من المؤمنين الذين هم كانفسكم روى ان أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه قال لام أيوب أما ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوأ قال لا قالت ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير منى وصفوان خير منك وقال ابن زيد ذلك معاتبة للمؤمنين اذا المؤمن لا يفجر بامه ولا الام بابنها وعائشة رضى الله عنها هى أم المؤمنين (والثانى) انه جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجرى عليها من الامور فاذا جرى على أحدهم مكروه فكانه جرى على جميعهم عن النعمان بن بشير قال عليه السلام مثل المسلمين فى تواصلهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا وجع بعضه بالسهر والحمى وجع كله وعن أبى بردة قال عليه السلام المؤمنون للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضا (السؤال الثالث) ما معنى قوله هذا افك مبين وهل يحل لمن يسمع ما لا يعرفه أن يقول ذلك (الجواب) من وجهين (الاول) كذلك يجب ان يقول لكنه يخبر بذلك عن قول القاذف الذى لا يستند الى امارة ولا عن حقيقة الشئ الذى لا يعلمه (الثانى) ان ذلك واجب فى أمر عائشة لان كونها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم عن جميع المنفرات كالدليل القاطع فى كون ذلك كذبا قال أبو بكر الرازى هذا يدل على ان الواجب فيمن كان ظاهره العدالة أن يظن به خيرا ويوجب أن يكون عقود المسلمين وتصرفاتهم محمولة على الصحة والجواز ولذلك قال اصحابنا فيمن وجد رجلا مع امرأة اجنبية فاعترفا بالتزويج انه لا يجوز تكذيبهما بل يجب تصديقهما وزعم مالك انه يحدهما ان لم يقيما بينة على النكاح ومن ذلك ايضا ما قال اصحابنا رضى الله عنهم فيمن باع درهما ودينارا بدرهمين ودينارين انه يخالف بينهما

والطيبون من الفريقين مختصون بطيبات الكلام لا يصدر عنهم غيرها أولئك الطيبون مبرؤون مما يقوله الخبيثون من الخبائث أى لا يصدر عنهم مثل ذلك فما كه تنزيه القائلين سبحانك هذا بهتان عظيم (لهم مغفرة) عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) اثر ما فصل الزواجر عن الزنا وعن رمى العفائف عنه شرع فى تفصيل الزواجر عما عسى يؤدى الى أحدهما من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن فى أوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والافاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم خارج مخرج العادة التى هى سكنى كل أحد فى ملكه والا فالآجر والمعير أيضا منهيان عن الدخول بغير اذن وقرئ بيوتا غير بيوتكم بكسر الباء لاجل الياء (حتى تستأنسوا) أى تستأذنوا من يملك الاذن من أصحابها من الاستئناس بمعنى الاستعلام من آنس الشئ اذا أبصره فان المستأنس مستعلم للحال مستكشف أنه هل يؤذن له أو من الاستئناس الذى هو خلاف الاستيحاش لما أن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له

لانا قد أمرنا بحسن الظن بالمؤمنين فوجب حمله على ما يجوز وهو المخالفة بينهما وكذلك اذا باع سيفا محلى فيه مائة درهم بمائتى درهم انا نجعل المائة بالمائة والفضل بالسيف وهو يدل أيضا على قول أبى حنيفة رحمه الله فى ان المسلمين عدول ما لم يظهر منهم ريبة لانا مأمورون بحسن الظن وذلك يوجب قبول الشهادة ما لم يظهر منه ريبة توجب التوقف عنها أو ردها قال تعالى ان الظن لا يغنى من الحق شيأ ۞ (النوع الثانى) قوله تعالى (لولا جاؤا عليه باربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون) وهذا من باب الزواجر والمعنى هلا أتوا على ما ذكروه باربعة شهداء يشهدون على معاينتهم فيما رموه به فاذ لم يأتوا بالشهداء أى فحين لم يقيموا بينة على ما قالوا فاولئك عند الله أى فى حكمه هم الكاذبون فان قيل أليس اذا لم يأتوا بالشهداء فانه يجوز كونهم صادقين كما يجوز كونهم كاذبين فلم جزم بكونهم كاذبين والجواب من وجهين (الاول) ان المراد بذلك الذين رموا عائشة خاصة وهم كانوا عند الله كاذبين (الثانى) المراد فاولئك عند الله فى حكم الكاذبين فان الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف ان لم يأت بالشهود فانه يجب زجره فلما كان شانه شان الكاذب فى الزجر لا جرم أطلق عليه لفظ الكاذب مجازا ۞ (النوع الثالث) قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) وهذا من باب الزواجر أيضا ولولا ههنا لامتناع الشئ لوجود غيره ويقال أفاض فى الحديث واندفع وخاض وفى المعنى وجهان (الاول) ولولا انى قضيت ان أتفضل عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الامهال للتوبة وأن أترحم عليكم فى الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الافك (والثانى) ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة معا فيكون فيه تقديم وتأخير والخطاب للقذفة وهو قول مقاتل وهذا الفضل هو حكم الله تعالى من تأخير العذاب وحكمه بقبول التوبة لمن تاب ۞ (النوع الرابع) قوله (اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وهذا أيضا من الزواجر قال صاحب الكشاف اذ ظرف لمسكم أو لافضتم ومعنى تلقونه يأخذه بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه ومنه قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات وقرئ على الاصل تتلقونه واذ تلقونه بادغام الذال فى التاء وتلقونه من لقيه بمعنى لقفه وتلقونه من القائه بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والالق وهو الكذب وتلقونه محكية عن عائشة وعن سفيان سمعت أمى تقرأ اذ تثقفونه وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود واعلم ان الله تعالى وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها (أحدها) تلقى الافك بالسنتهم وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له ما وراءك فيحدثه بحديث الافك حتى شاع واشتهر فلم يبق بيت ولا ناد الا طار فيه فكانهم سعوا فى اشاعة الفاحشة وذلك من العظائم (وثانيها) انهم كانوا

فاذا أذن له استأنس (وتسلموا على أهلها) عند الاستئذان روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن التسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له دخل والا رجع (ذلكم) أى الاستئذان مع التسليم (خير لكم) من أن تدخلوا بغتة أو على تحية الجاهلية حيث كان الرجل منهم اذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول حييتم صباحا حييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف وروى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أستأذن على أمى قال له نعم قال ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت قال عليه الصلاة والسلام أتحب أن تراها عريانة قال لا قال عليه الصلاة والسلام فاستأذن (لعلكم تذكرون) متعلق بمضمر أى أمرتم به أو قيل لكم هذا كى تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه (فان لم تجدوا فيها أحدا) أى ممن يملك الاذن على أن من لا يملكه من النساء والولدان وجدانه كفقدانه أو أحدا أصلا على أن مدلول النص الكريم عبارة هو النهى عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس اخفاءه مع أن التصرف فى ملك الغير محظور مطلقا

يتكلمون بما لاعلم لهم به وذلك يدل على انه لا يجوز الاخبار الا مع العلم فاما الذى لا يعلم صدقه فالاخبار عنه كالاخبار عما علم كذبه فى الحرمة ونظيره قوله ولا تقف ما ليس لك به علم فان قيل ما معنى قوله بأفواهكم والقول لا يكون الا بالفم قلنا معناه ان الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه باللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجرى على ألسنتكم من غير أن يحصل فى القلب علم به كقوله يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم (وثالثها) انهم كانوا يستصغرون ذلك وهو عظيم من العظائم ويدل على أمور ثلاثة (الاول) يدل على ان القذف من الكبائر لقوله وهو عند الله عظيم (الثانى) نبه بقوله وتحسبونه هينا على ان عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه بل ربما كان ذلك مؤكدا لعظمها من حيث جهل كونها عظيما (الثالث) الواجب على المكلف فى كل محرم أن يستعظم الاقدام عليه اذ لا يأمن انه من الكبائر وقيل لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار

﴿ (النوع الخامس) قوله تعالى (ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) وهذا من باب الآداب أى هلا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا وانما وجب عليهم الامتناع منه لوجوه (أحدها) ان المقتضى لكونهم تاركين لهذا الفعل قائم وهو العقل والدين ولم يوجد ما يعارضه فوجب أن يكون ظن كونهم تاركين للمعصية أقوى من ظن كونهم فاعلين لها فلو انه أخبر عن صدور المعصية لكان قد رجح المرجوح على الراجح وهو غير جائز (وثانيها) وهو انه يتضمن ايذاء الرسول وذلك سبب للعن لقوله تعالى ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة (وثالثها) انه سبب لايذاء عائشة وايذاء أبويها ومن يتصل بهم من غير سبب عرف اقدامهم عليه ولا جناية عرف صدورها عنهم وذلك حرام (ورابعها) انه اقدام على ما يجوز أن يكون سببا للضرر مع الاستغناء عنه والعقل يقتضى التباعد عنه لان القاذف بتقدير كونه صادقا لا يستحق الثواب على صدقه بل يستحق العقاب لانه أشاع الفاحشة وبتقدير كونه كاذبا فانه يستحق العقاب العظيم ومثل ذلك مما يقتضى صريح العقل الاحتراز عنه (وخامسها) انه تضييع للوقت بما لا فائدة فيه وقال عليه الصلاة والسلام من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه (وسادسها) ان فى اظهار محاسن الناس وستر مقابحهم تخلقا باخلاق الله تعالى وقال عليه السلام تخلقوا باخلاق الله فهذه الوجوه توجب على العاقل انه اذا سمع القذف أن يسكت عنه وأن يجتهد فى الاحتراز عن الوقوع فيه فان قيل كيف جاز الفصل بين لولا وبين قلتم بالظرف قلنا الفائدة فيه انه كان الواجب عليهم أن يحترزوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به * أما قوله سبحانك هذا بهتان عظيم ففيه سؤالان (الاول) كيف يليق سبحانك بهذا الموضع (الجواب) من وجوه (الاول) المراد منه التعجب من عظم الامر وانما استعمل فى معنى التعجب لانه يسبح الله عند رؤية العجيب من صانعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه (الثانى) المراد تنزيه الله تعالى عن ان تكون زوجة

وأما حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فثابتة بدلالة النص لان الدخول حيث حرم مع ما ذكر من العلة فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى منه اليه أعنى الاطلاع على العورات أولى (فلا تدخلوها) واصبروا (حتى يؤذن لكم) أى من جهة من يملك الاذن عند اتيانه ومن فسره بقوله حتى يأتى من يأذن لكم أو حتى تجدوا من يأذن لكم فقد أبرز القطعى فى معرض الاحتمال ولما كان جعل النهى مغيى بالاذن مما يوهم الرخصة فى الانتظار على الابواب مطلقا بل فى تكرير الاستئذان ولو بعد الرد دفع ذلك بقوله تعالى (وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا) أى ان أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الامر ممن يملك الاذن أولا فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستئذان كما فى الوجه الاول ولا تلجوا بالاصرار على الانتظار الى أن يأتى الاذن كما فى الثانى فان ذلك مما يجلب الكراهة فى قلوب الناس ويقدح فى المروأة أى قدح (هو) أى الرجوع (ازكى لكم) أى أطهر مما لا يخلو عنه اللج والعناد والوقوف على الابواب من دنس الدناءة والرذالة (والله بما تعملون عليم) فيعلم ما تأتون وما

نبيه فاجرة (الثالث) أنه منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين (الرابع) أنه منزه عن أن لا يعاقب هؤلاء القذفة الظلمة (السؤال الثانى) لم أوجب عليهم أن يقولوا هذا بهتان عظيم مع انهم ما كانوا عالمين بكونه كذبا قطعا والجواب من وجهين (الاول) انهم كانوا متمكنين من العلم بكونه بهتانا لان زوجة الرسول لا يجوز أن تكون فاجرة (الثانى) انهم لما جزموا به مع انهم ما كانوا ظانين له بالقلب كان اخبارهم عن ذلك الجزم كذبا ونظيره قوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ﴿ (النوع السادس) قوله تعالى (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) وهذا من باب الزواجر والمعنى يعظكم الله بهذه المواعظ التى بها تعرفون عظم هذا الذنب وأن فيه الحد والنكال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة لكى لا تعودوا الى مثل هذا الفعل أبدا وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين وقد دخل تحت ذلك من قال ومن سمع فلم ينكر لان حالهما سواء فى أن فعلا ما لا يجوز وان كان من أقدم عليه أعظم ذنبا فبين ان الغرض بما عرفهم من هذه الطريقة أن لا يعودوا الى مثل ما تقدم منهم (وههنا مسائل المسئلة الاولى) استدلت المعتزلة بقوله ان كنتم مؤمنين على ان ترك القذف من الايمان وعلى ان فعل القذف لا يبقى معه الايمان لان المعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط (والجواب) هذا معارض بقوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم أى منكم أيها المؤمنون فدل ذلك على ان القذف لا يوجب الخروج عن الايمان واذا ثبت التعارض حملنا هذه الآية على التهييج فى الاتعاظ والانزجار (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت هذه الآية على انه تعالى أراد من جميع من وعظه مجانبة مثل ذلك فى المستقبل وان كان فيهم من لا يطيع فمن هذا الوجه تدل على انه تعالى يريد من كلهم الطاعة وان عصوا لان قوله يعظكم الله أن تعودوا معناه لكى لا تعودوا لمثله وذلك دلالة الارادة (والجواب) عنه قد تقدم مرارا (المسئلة الثالثة) هل يجوز أن يسمى الله تعالى واعظا لقوله يعظكم الله أن تعودوا الاظهر أنه لا يجوز كما لا يجوز أن يسمى معلما لقوله الرحمن علم القرآن أما قوله تعالى ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم فالمراد من الآيات ما به يعرف المرء ما ينبغى أن يتمسك به ثم بين أنه لكونه عليما حكيما يؤثر بما يجب أن يبينه ويجب أن يطاع لاجل ذلك لان من لا يكون عالما لا يجب قبول تكليفه لانه قد يأمر بما لا ينبغى ولان المكلف اذا أطاعه فقد لا يعلم انه أطاعه وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة وأما من كان عالما لكنه لا يكون حكيما فقد يأمر بما لا ينبغى فاذا أطاعه المكلف فقد يعذب المطيع وقد يثيب العاصى وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة وأما اذا كان عليما حكيما فانه لا يأمر الا بما ينبغى ولا يهمل جزاء المستحقين فلهذا ذكرهاتين الصفتين وخصهما بالذكر وههنا سؤالات (الاول) الحكيم هو الذى لا يأتى بما لا ينبغى وانما يكون كذلك لو كان عالما بقبح القبيح وعالما بكونه غنيا عنه فيكون العليم داخلا فى الحكيم فكان ذكر الحكيم مغنيا عنه هذا على قول المعتزلة وأما على

تذرون مما كلفتموه فيجازيكم عليه (ليس عليكم جناح ان تدخلوا) أى بغير استئذان (بيوتا غير مسكونة) أى غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط بل ليتمتع بها من يضطر اليها كائنا من كان من غير أن يتخذها سكنا كالربط والخانات والحوانيت والحمامات ونحوها فانها معدة لمصالح الناس كافة كما ينبئ عنه قوله تعالى (فيها متاع لكم) فانه صفة للبيوت أو استئناف جار مجرى التعليل لعدم الجناح أى فيها حق تمتع لكم كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الامتعة والرحال والشراء والبيع والاغتسال وغير ذلك مما يليق بحال البيوت وداخليها فلا باس بدخولها بغير استئذان من داخليها من قبل ولا ممن يتولى أمرها ويقوم بتدبيرها من قوام الرباطات والخانات وأصحاب الحوانيت ومتصرفى الحمامات ونحوهم ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال يا رسول الله ان الله تعالى قد أنزل عليك آية فى الاستئذان وانا نختلف فى تجاراتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها الا باذن فنزلت وقيل هى الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز والظاهر أنها من جملة ما ينتظمه البيوت لا أنها المرادة

قول أهل السنة والجماعة فالحكمة هي العلم فقط فذكر العليم الحكيم يكون تكرارا محضا (الجواب) يحمل ذلك على التأكيد (السؤال الثاني) قالت المعتزلة دلت الآية على أنه انما يجب قبول بيان الله تعالى بمجرد كونه عالما حكيما والحكيم هو الذي لا يفعل القبائح فدل الآية على أنه لو كان خالقا للقبائح لما جاز الاعتماد على وعده ووعيده (والجواب) الحكيم عندنا هو العليم وانما يجوز الاعتماد على قوله لكونه عالما بكل المعلومات فان الجاهل لا اعتماد على قوله البتة (السؤال الثالث) قالت المعتزلة قوله يبين الله لكم أى لاجلكم وهذا يدل على ان افعاله معللة بالاغراض ولان قوله لكم لا يجوز حمله على ظاهره لانه ليس الغرض نفس ذواتهم بل الغرض حصول انتفاعهم وطاعتهم وايمانهم فدل هذا على أنه تعالى يريد الايمان من الكل (والجواب) المراد أنه سبحانه فعل بهم ما لو فعله غيره لكان ذلك غرضا ۞ (النوع السابع) قوله تعالى (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) اعلم انه سبحانه لما بين ما على أهل الافك وما على من سمع منهم وما ينبغي أن يتمسكوا به من آداب الدين أتبعه بقوله ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ليعلم ان من أحب ذلك فقد شارك في هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره وليعلم أن أهل الافك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه فكذلك يستحقون العقاب بما أسروه من محبة اشاعة الفاحشة في المؤمنين وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضر بهم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى الاشاعة الانتشار يقال في هذا العقار سهم شائع اذا كان في الجميع ولم يكن منفصلا وشاع الحديث اذا ظهر في العامة (المسئلة الثانية) لاشك ان ظاهر قوله ان الذين يحبون يفيد العموم وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة ولاشك ان هذه الآية نزلت في قذف عائشة الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب اجراؤها على ظاهرها في العموم ومما يدل على انه لا يجوز تخصيصها بقذفة عائشة قوله تعالى في الذين آمنوا فانه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك والذين خصصوه بقذفة عائشة منهم من حمله على عبد الله بن أبي لانه هو الذي سعى في اشاعة الفاحشة قالوا معنى الآية ان الذين يحبون والمراد عبد الله أن تشيع الفاحشة أى الزنا في الذين آمنوا أى في عائشة وصفوان (المسئلة الثالثة) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال انى لاعرف قوما يضربون صدورهم ضربا يسمعه أهل النار وهم الهمازون اللمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم وعنه عليه الصلاة والسلام لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن الا ستره الله يوم القيامة ومن أقال مسلما صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة ومن ستر عورته ستر الله عورته يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه وعن عبد الله بن عمر عنه عليه الصلاة والسلام قال من سره أن

فقط وقوله تعالى (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات (قل للمؤمنين) شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجا أوليا وتلوين الخطاب وتوجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفويض ما في حيزه من الأوامر والنواهي الى رأيه عليه الصلاة والسلام لانها تكاليف متعلقة بامور جزئية كثيرة الوقوع حقيقة بأن يكون الآمر بها والمتصدى لتدبيرها حافظا ومهيمنا عليهم ومفعول الامر أمر آخر قد حذف تعويلا على دلالة جوابه عليه أى قل لهم غضوا (يغضوا من أبصارهم) عما يحرم ويقتصروا به على ما يحل (ويحفظوا فروجهم) الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وتقييد الغض بمن التبعيضية دون الحفظ لما في أمر النظر من السعة وقيل المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر (ذلك) أى ما ذكر من الغض والحفظ (أزكى لهم) أى أطهر لهم من دنس الريبة (ان الله خبير بما يصنعون) لا يخفى عليه شئ مما يصدر عنهم من الافاعيل التي من جملتها اجالة النظر واستعمال سائر

يخرج من النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ويحب أن يؤتى الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه وعن أنس قال قال عليه الصلاة والسلام لا يؤمن العبد حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه من الخير (المسئلة الرابعة) اختلفوا في عذاب الدنيا فقال بعضهم اقامة الحد عليهم وقال بعضهم هو الحد واللعن والعداوة من الله والمؤمنين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي وحسانا ومسطحا وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف وكف بصره وقال الحسن عنى به المنافقين لانهم قصدوا أن يغموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أراد غم رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر وعذابهم في الدنيا هو ما كانوا يتعبون فيه وينفقون لمقاتلة أوليائهم مع أعدائهم وقال أبو مسلم الذين يحبون هم المنافقون يحبون ذلك فأوعدهم الله تعالى العذاب في الدنيا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمجاهدة لقوله جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم والاقرب ان المراد بهذا العذاب ما استحقوه بافكهم وهو الحد واللعن والذم فأما عذاب الآخرة فلاشك انه في القبر عذابه وفي القيامة عذاب النار أما قوله والله يعلم وأنتم لا تعلمون فهو حسن الموقع بهذا الموضع لان محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها الا بالامارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شئ فصار هذا الذكر نهاية في الزجر لان من أحب اشاعة الفاحشة وان بالغ في اخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه وان علمه سبحانه بذلك الذى أخفاه كعلمه بالذى أظهره ويعلم قدر الجزاء عليه (المسئلة الخامسة) الآية تدل على أن العزم على الذنب العظيم عظيم وان ارادة الفسق فسق لانه تعالى علق الوعيد بمحبة اشاعة الفاحشة (المسئلة السادسة) قال الجبائي دلت الآية على ان كل قاذف لم يتب من قذفه فلا ثواب له من حيث استحق هذا العذاب الدائم وذلك يمنع من استحقاق ضده الذى هو الثواب فمن هذا الوجه تدل على ما نقوله في الوعيد واعلم ان حاصله يرجع الى مسئلة المحابطة وقد تقدم الكلام عليه (المسئلة السابعة) قالت المعتزلة ان الله تعالى بالغ في ذم من أحب اشاعة الفاحشة فلو كان تعالى هو الخالق لافعال العباد لما كان مشيع الفاحشة الا هو فكان يجب أن لا يستحق الذم على اشاعة الفاحشة الا هو لانه هو الذى فعل تلك الاشاعة وغيره لم يفعل شيأ منها والكلام عليه أيضا قد تقدم (المسئلة الثامنة) قال أبو حنيفة رحمه الله المصابة بالفجور لا تستنطق لان استنطاقها اشاعة للفاحشة وذلك ممنوع منه ۞ (النوع الثامن) قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم) وفيه وجوه (أحدها) ان جوابه محذوف وكأنه قال لهلكتم أو لعذبكم الله واستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة ويجوز أن يكون الخطاب عاما (والثانى) جوابه في قوله ما زكى منكم من أحد أبدا (والثالث) جوابه لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة وهو قول أبى مسلم والاقرب ان جوابه محذوف لان قوله من بعد ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد

الحواس وتحريك الجوارح وبما يقصدون بذلك فليكونوا على حذر منه في كل ما يأتون وما يذرون (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا ينظرن الى ما لا يحل لهن النظر اليه (ويحفظن فروجهن) بالتستر أو التصون عن الزنا وتقديم الغض لان النظر بريد الزنا ورائد الفساد (ولا يبدين زينتهن) كالحلي وغيرها مما يتزين به وفيه من المبالغة في النهى عن ابداء مواضعها ما لا يخفى (الا ما ظهر منها) عند مزاولة الامور التي لا بد منها عادة كالخاتم والكحل والخضاب ونحوها فان في سترها حرجا بينا وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية والمستثنى هو الوجه والكفان لانها ليست بعورة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ارشادا الى كيفية اخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن ابدائها وقد كانت النساء على عادة الجاهلية يسدلن خمرهن من خلفهن فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن لوسعها فأمرن بارسال خمرهن الى جيوبهن سترا لما يبدو منها وقد ضمن الضرب معنى الالقاء فعدى بعلى وقرئ بكسر الجيم كما تقدم (ولا يبدين زينتهن)

كالمنفصل من الاول فلا يجب أن يكون جوابا للاول خصوصا وقد وقع بين الكلامين كلام آخر والمراد أنه لولا انعامه بان بقى وأمهل ومكن من التلافى لهلكوا لكنه لرأفته لايدع ماهو للعبد اصلح وان جنى على نفسه ۞ (النوع التاسع) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم) قرئ خطوات بضم الطاء وسكونها والخطوات جمع خطوة وهو من خطا الرجل يخطو خطوا فاذا أردت الواحدة قلت خطوة مفتوحة الاول والجمع بفتح أوله وبضم والمراد بذلك السيرة والطريقة والمعنى لاتتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه فى الاصغاء الى الافك والتلقى له واشاعته الفاحشة فى الذين آمنوا والله تعالى وان خص بذلك المؤمنين فهو نهى لكل المكلفين وهو قوله ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ومعلوم ان كل المكلفين ممنوعون من ذلك وانما قلنا انه تعالى خص المؤمنين بذلك لانه توعدهم على اتباع خطواته بقوله ومن يتبع خطوات الشيطان وظاهر ذلك أنهم لم يتبعوه ولو كان المراد به الكفار لكانوا قد اتبعوه فكأنه سبحانه لما بين ماعلى أهل الافك من الوعيد أدب المؤمنين أيضا بأن خصهم بالذكر ليتشددوا فى ترك المعصية لئلا يكون حالهم كحال أهل الافك والفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه والمنكر ماتنكره النفوس فتنفر عنه ولاترتضيه أما قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا فقرأ يعقوب وابن محيصن مازكى بالتشديد واعلم ان الزكى من بلغ فى طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال زكى الزرع فاذا بلغ المؤمن من الصلاح فى الدين الى مايرضاه الله تعالى سمى زكيا ولا يقال زكى الا اذا وجد زكيا كما لا يقال لمن ترك الهدى هداه الله تعالى مطلقا بل يقال هداه الله فلم يهتد واحتج أصحابنا فى مسئلة المخلوق بقوله ولكن الله يزكى من يشاء فقالوا التزكية كالتسويد والتحمير فكما ان التسويد تحصيل السواد فكذا التزكية تحصيل الزكاء فى المحل قالت المعتزلة ههنا تأويلان (احدهما) حمل التزكية على فعل الالطاف (والثانى) حملها على الحكم بكون العبد زكيا قال أصحابنا الوجهان على خلاف الظاهر ثم نقيم الدلالة العقلية على بطلانهما أيضا (أما الوجه الاول) فيدل على فساده وجوه (أحدها) ان فعل اللطف هل يرجح الداعى أولا يرجحه فان لم يرجحه البتة لم يكن به تعلق فلا يكون لطفا وان رجحه فنقول المرجح لابد وأن يكون منتهيا الى حد الوجوب فانه مع ذلك القدر من الترجيح اما أن يمتنع وقوع الفعل عنده أو يمكن أو يجب فان امتنع كان مانعا لاداعيا وان أمكن أن يكون وأن لايكون فكل مايمكن لايلزم من فرض وقوعه محال فليفرض تارة واقعا وأخرى غير واقع فامتياز وقت الوقوع عن وقت اللاوقوع اما أن يتوقف على انضمام قيد اليه أو لايتوقف فان توقف كان المرجح هو المجموع الحاصل بعد انضمام هذا القيد فلا يكون

الحاصل

كثر النهى لاستثناء بعض مواد الرخصة عنه باعتبار الناظر بعد مااستثنى عنه بعض مواد الضرورة باعتبار المنظور (الا لبعولتهن) فانهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا الى جميع بدنهن حتى الموضع المعهود (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن) لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما فى طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب ولهم أن ينظروا منهن مايبدو عند المهنة والخدمة وعدم ذكر الاعمام والاخوال لما أن الاحوط أن يتسترن عنهم حذارا من أن يصفوهن لابنائهم (أو نسائهن) المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات فان الكوافر لايتحرجن عن وصفهن للرجال (أو ماملكت أيمانهن) أى من الاماء فان عبد المرأة بمنزلة الاجنبى منها وقيل من الاماء والعبيد لما روى انه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة رضى الله عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فقال عليه الصلاة والسلام انه ليس عليك باس انما هو أبوك وغلامك (أو التابعين غير

الحاصل أولا مرجحا وان لم يتوقف كان اختصاص أحد الوقتين بالوقوع والآخر باللاوقوع ترجيحا للممكن من غير مرجح وهو محال وأما ان كان اللطف مرجحا موجبا كان فاعل اللطف فاعلا للملطوف فيه فكان تعالى فاعلا لفعل العبد (الثانى) أنه تعالى قال ولكن الله يزكى من يشاء علق التزكية على المشيئة وفعل اللطف واجب والواجب لايتعلق بالمشيئة (الثالث) انه علق التزكية على الفضل والرحمة وخلق الالطاف واجب فلا يكون معلقا بالفضل والرحمة (وأما الوجه الثانى) وهو الحكم بكونه زكيا فذلك واجب لانه لو لم يحكم به لكان كذبا والكذب على الله تعالى محال فكيف يجوز تعليقه بالمشيئة فثبت ان قوله ولكن الله يزكى من يشاء نص فى الباب أما قوله والله سميع عليم فالمراد انه يسمع أقوالكم فى القذف وأقوالكم فى اثبات البراءة عليم بما فى قلوبكم من محبة اشاعة الفاحشة أو من كراهيتها واذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته ۞ قوله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) اعلم انه تعالى كما أدب أهل الافك ومن سمع كلامهم كما قدمناه ذكره فكذلك ادب أبا بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح أبدا قال المفسرون نزلت الآية فى أبى بكر حيث حلف ان لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبى بكر وقد كان يتيما فى حجره وكان ينفق عليه وعلى قرابته فلما نزلت الآية قال لهم أبو بكر قوموا فلستم منى ولست منكم ولا يدخلن على أحد منكم فقال مسطح انشدك الله والاسلام وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا الى أحد فما كان لنا فى أول الامر من ذنب فقال لمسطح ان لم تتكلم فقد ضحكت فقال قد كان ذلك تعجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لايدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بان الله تعالى قد أنزل على كتابا ينهاك فيه أن تخرجهم فكبر أبو بكر وسره وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية عليه فلما وصل الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم قال بلى يارب انى احب أن يغفر لى وقد تجاوزت عما كان فذهب أبو بكر الى بيته وأرسل الى مسطح وأصحابه وقال قبلت ما أنزل الله على الرأس والعين وانما فعلت بكم مافعلت اذ سخط الله عليكم اما اذ عفا عنكم فمرحبا بكم وجعل له مثلى ما كان له قبل ذلك اليوم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى قوله ولا يأتل وجهين (الاول) وهو المشهور انه من ائتلى اذا حلف افتعل من الالية والمعنى لا يحلف قال أبو مسلم هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) ان ظاهر الآية على هذا التأويل يقتضى المنع من الحلف على الاعطاء وهم أرادوا المنع من الحلف على ترك الاعطاء فهذا المتأول قد أقام النفى مكان الايجاب وجعل المنهى عنه مامورا به (وثانيهما) انه قلما يوجد فى الكلام افتعلت مكان افعلت وانما يوجد مكان فعلت وهنا آليت من الالية افعلت فلا يقال افتعلت كما لا يقال من الزمت التزمت ومن أعطيت

اولى الاربة من الرجال) أى اولى الحاجة الى النساء وهم الشيوخ الهم والممسوحون وفى المجبوب والخصى خلاف وقيل هم البله الذين يتتبعون الناس لفضل طعامهم ولايعرفون شيأ من أمور النساء وقرئ غير بالنصب على الحالية (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع أو لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف (ولا يضربن بارجلهن ليعلم مايخفين) اى مايخفينه من الرؤية (من زينتهن) أى ولا يضربن بارجلهن الارض ليتقعقع خلخالهن فيعلم أنهن ذوات خلخال فان ذلك مما يورث الرجال ميلا اليهن ويوهم أن لهن ميلا اليهم وفى النهى عن ابداء صوت الحلى بعد النهى عن ابداء عينها من المبالغة فى الزجر عن ابداء مواضعها مالايخفى (وتوبوا الى الله جميعا) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكل بطريق التغليب لابراز كمال العناية بما فى حيزه من أمر التوبة وأنها من معظمات المهمات الحقيقة بان يكون سبحانه وتعالى هو الآمر بها لما أنه لايكاد يخلو أحد من المكلفين

اعتطت ثم قال فى ياتل ان أصله يأتلى ذهبت الياء للجزم لانه نهى وهو من قولك ما آلوت فلانا نصحا ولم آل فى أمرى جهدا أى ما قصرت ولا بال ولا ياتل واحد فالمراد لا تقصروا فى ان تحسنوا اليهم ويوجد كثيرا افتعلت مكان فعلت تقول كسبت واكتسبت وصنعت واصطنعت ورضيت وارتضيت فهذا التاويل هو الصحيح دون الاول ويروى هذا التاويل أيضا عن أبى عبيدة أجاب الزجاج عن السؤال الاول بان لا تحذف فى اليمين كثيرا قال الله تعالى ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا يعنى ان لا تبروا وقال امرؤ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا • ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح وأجابوا عن السؤال الثانى ان جميع المفسرين الذين كانوا قبل أبى مسلم فسروا اللفظة باليمين وقول كل واحد منهم حجة فى اللغة فكيف الكل ويعضده قراءة الحسن ولا يتال (المسئلة الثانية) أجمع المفسرون على ان المراد من قوله أولوا الفضل أبو بكر وهذه الآية تدل على انه رضى الله عنه كان أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لان الفضل المذكور فى هذه الآية اما فى الدنيا واما فى الدين والاول باطل لانه تعالى ذكره فى معرض المدح له والمدح من الله تعالى بالدنيا غير جائز ولانه لو كان كذلك لكان قوله والسعة تكريرا فتعين أن يكون المراد منه الفضل فى الدين فلو كان غيره مساويا له فى الدرجات فى الدين لم يكن هو صاحب الفضل لان المساوى لا يكون فاضلا فلما اثبت الله تعالى له الفضل مطلقا غير مقيد بشخص دون شخص وجب أن يكون أفضل الخلق ترك العمل به فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقى معمولا به فى حق الغير فان قيل نمنع اجماع المفسرين على اختصاص هذه الآية بابى بكر قلنا كل من طالع كتب التفسير والاحاديث علم ان اختصاص هذه الآية بابى بكر بالغ الى حد التواتر فلو جاز منعه لجاز منع كل متواتر وأيضا فهذه الآية دالة على ان المراد منها أفضل الناس واجمعت الامة على ان الافضل اما أبو بكر أو على فاذا بينا انه ليس المراد عليا تعينت الآية لابى بكر وانما قلنا انه ليس المراد منه عليا لوجهين (الاول) ان ما قبل هذه الآية وما بعدها يتعلق بابنة أبى بكر فيكون حديث على فى البين سمجا (الثانى) انه تعالى وصفه بانه من اولى السعة وان عليا لم يكن من اولى السعة فى الدنيا فى ذلك الوقت فثبت ان المراد منه أبو بكر قطعا واعلم ان الله تعالى وصف ابا بكر فى هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه فى الدين (أحدها) انه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع والواحد اذا كنى عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر انا أعطيناك الكوثر فانظر ان الشخص الذى كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون علو شانه (وثانيها) وصفه بانه صاحب الفضل على الاطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص والفضل يدخل فيه الافضال وذلك يدل على انه رضى الله عنه كما كان فاضلا على الاطلاق كان مفضلا على الاطلاق (وثالثها) ان الافضال افادة ما ينبغى لا لعوض فمن يهب السكين لمن يقتل نفسه لا يسمى مفضلا لانه أعطى ما لا ينبغى ومن أعطى ليستفيد منه عوضا اما ماليا أو مدحا أو ثناء فهو مستفيض والله تعالى قد وصفه

عن نوع تفريط فى اقامة مواجب التكاليف كما ينبغى وناهيك بقوله عليه السلام شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله عز وجل فاستقم كما أمرت لا سيما اذا كان المامور به الكف عن الشهوات وقيل توبوا عما كنتم تفعلونه فى الجاهلية فانه وان جب بالاسلام لكن يجب الندم عليه والعزم على تركه كلما خطر بباله وفى تكرير الخطاب بقوله تعالى (أيها المؤمنون) تاكيد للايجاب وايذان بان وصف الايمان موجب للامتثال حتما وقرئ أيه المؤمنون (لعلكم تفلحون) تفوزون بذلك بسعادة الدارين (وأنكحوا الايامى منكم) بعد ما زجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فانه مع كونه مقصودا بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خير مزجرة عن ذلك وأيامى مقلوب أيايم جمع أيم وهو من لا زوج له من الرجال والنساء بكرا كان أو ثيبا كما يفصح عنه قول من قال

فان تنكحى أنكح وان تتايمى • وان كنت أفتى منكم أتايم

أى زوجوا من لا زوج له من الاحرار والحرائر (والصالحين من عبادكم وامائكم) على أن الخطاب للاولياء والسادات واعتبار الصلاح فى الارقاء لان من

بذلك

بذلك فقال وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى وقال فى حق على انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فعلى أعطى للخوف من العقاب وأبو بكر ما أعطى الا لوجه ربه الاعلى فدرجة أبى بكر أعلى فكانت عطيته فى الافضال أتم وأكمل (ورابعها) انه قال أولوا الفضل منكم فكلمة من للتمييز فكأنه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصفة كونه أولى الفضل والصفة التى بها يقع الامتياز يستحيل حصولها فى الغير والا لما كانت مميزة له بعينه فدل ذلك على ان هذه الصفة حاصلة فيه لا فى غيره البتة (وخامسها) أمكن حمل الفضل على طاعة الله تعالى وخدمته وقوله والسعة على الاحسان الى المسلمين فكأنه كان مستجمعا للتعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وهما من أعلى مراتب الصديقين وكل من كان كذلك كان الله معه لقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ولاجل اتصافه بهاتين الصفتين قال له لا تحزن ان الله معنا (وسادسها) انما يكون الانسان موصوفا بالسعة لو كان جوادا بذولا ولقد قال عليه الصلاة والسلام خير الناس من ينفع الناس فدل على انه خير الناس من هذه الجهة ولقد كان رضى الله عنه جوادا بذولا فى كل شئ ومن جوده انه لما أسلم بكرة اليوم جاء بعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعثمان بن مظعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان أسلموا على يده وكان جوده فى التعليم والارشاد الى الدين والبذل بالدنيا كما هو مشهور فيحق له أن يوصف بانه من أهل السعة وأيضا فهب ان الناس اختلفوا فى انه هل كان اسلامه قبل اسلام على أو بعده ولكن اتفقوا على ان عليا حين أسلم لم يشتغل بدعوة الناس الى دين محمد صلى الله عليه وسلم وان أبا بكر اشتغل بالدعوة فكان أبو بكر أول الناس اشتغالا بالدعوة الى دين محمد ولا شك ان أجل المراتب فى الدين هذه المرتبة فوجب أن يكون أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر من هذه الجهة ولانه عليه السلام قال من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فوجب أن يكون لابى بكر مثل أجر كل من يدعو الى الله فيدل على الافضلية من هذه الجهة أيضا (وسابعها) ان الظلم من ذوى القربى أشد قال الشاعر

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة • على المرء من وقع الحسام المهند

وأيضا فالانسان اذا أحسن الى غيره فاذا قابله ذلك الغير بالاساءة كان ذلك أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من الاجنبى والجهتان كانتا مجتمعتين فى حق مسطح ثم انه آذى أبا بكر بهذا النوع من الايذاء الذى هو أعظم أنواع الايذاء فانظر أين مبلغ ذلك الضرر فى قلب أبى بكر ثم انه سبحانه أمره بان لا يقطع عنه بره وأن يرجع معه الى ما كان عليه من الاحسان وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك ان هذا أصعب من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكافر ومجاهدة النفس أشق ولهذا قال عليه الصلاة والسلام رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (وثامنها) ان الله تعالى

لا صلاح لهم منهم بمعزل من ان يكون خليقا بان يعتنى مولاه بشانه ويشفق عليه ويتكلف فى نظم مصالحه بما لا بد منه شرعا وعادة من بذل المال والمنافع بل حقه أن لا يستبقيه عنده وأما عدم اعتبار الصلاح فى الاحرار والحرائر فلان الغالب فيهم الصلاح على انهم مستبدون فى التصرفات المتعلقة بانفسهم وأموالهم فاذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الاولياء لهم اذ ليس عليهم فى ذلك غرامة حتى يعتبر فى مقابلتها غنيمة عائدة اليهم عاجلة أو آجلة وقيل المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ازاحة لما عسى يكون وازعا من النكاح من فقر أحد الجانبين أى لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فان فى فضل الله عز وجل غنية عن المال فانه غاد ورائح يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب أو وعد منه سبحانه بالاغناء لقوله عليه الصلاة والسلام اطلبوا الغنى فى هذه الآية لكنه مشروط بالمشيئة كما فى قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء (والله واسع) غنى ذو سعة لا يرزؤه اغناء الخلائق اذ لا نفاد لنعمته ولا غاية لقدرته ومع ذلك

لما أمر أبا بكر بذلك لقبه بأولى الفضل وأولى السعة كأنه سبحانه يقول له أنت أفضل من أن تقابل إساءته بشيء وأنت أوسع قلبا من أن تقيم للدنيا وزنا فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ما صدر منه من الاساءة ومعلوم ان مثل هذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو في الدين (وتاسعها) ان الالف واللام يفيدان العموم فالالف واللام في الفضل والسعة يدلان على أن كل الفضل وكل السعة لأبي بكر كما يقال فلان هو العالم يعني قد بلغ في الفضل الى أن صار كأنه كل العالم وما عداه كالعدم وهذا أيضا منقبة عظيمة (وعاشرها) قوله وليعفوا وليصفحوا وفيه وجوه (منها) ان العفو قرينة التقوى وكل من كان أقوى في العفو كان أقوى في التقوى ومن كان كذلك كان أفضل لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم (ومنها) ان العفو والتقوى متلازمان فلهذا السبب اجتمعا فيه أما التقوى فلقوله تعالى وسيجنبها الاتقى وأما العفو فلقوله تعالى وليعفوا وليصفحوا (وحادي عشرها) انه سبحانه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم فاعف عنهم واصفح وقال في حق أبي بكر وليعفوا وليصفحوا فمن هذا الوجه يدل على ان أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع الاخلاق حتى في العفو والصفح (وثاني عشرها) قوله ألا تحبون ان يغفر الله لكم فانه سبحانه ذكره بكناية الجمع على سبيل التعظيم وأيضا فانه سبحانه علق غفرانه له على اقدامه على العفو والصفح فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه ثم قوله يغفر الله لكم بصيغة المستقبل وانه غير مقيد بشيء دون شيء فدلت الآية على انه سبحانه قد غفر له في مستقبل عمره على الاطلاق فكان من هذا الوجه ثاني اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ودليلا على صحة امامته رضي الله عنه فان امامته لو كانت على خلاف الحق لما كان مغفورا له على الاطلاق ودليلا على صحة ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في خبر بشارة العشرة بان أبا بكر في الجنة (وثالث عشرها) انه سبحانه وتعالى لما قال ألا تحبون أن يغفر الله لكم وصف نفسه بكونه غفورا رحيما والغفور مبالغة في الغفران فعظم أبا بكر حيث خاطبه بلفظ الجمع الدال على التعظيم وعظم نفسه سبحانه حيث وصفه بمبالغة الغفران والعظيم اذا عظم نفسه ثم عظم مخاطبه فالعظمة الصادرة منه لاجله لا بد وأن تكون في غاية العظمة ولهذا قلنا بانه سبحانه لما قال انا أعطيناك الكوثر وجب ان تكون العطية عظيمة فدلت الآية على ان أبا بكر ثاني اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المنقبة أيضا (ورابع عشرها) انه سبحانه لما وصفه بانه أولوا الفضل والسعة على سبيل المدح وجب أن يقال انه كان خاليا عن المعصية لان الممدوح الى هذا الحد لا يجوز أن يكون من أهل النار ولو كان عاصيا لكان كذلك لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها واذا ثبت انه كان خاليا عن المعاصي فقوله يغفر الله لكم لا يجوز أن يكون المراد غفران معصية لان المعصية التي لا تكون لا يمكن غفرانها واذا ثبت انه لا يمكن حمل الآية على ذلك وجب

حملها

(عليم) يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (وليستعفف) ارشاد للعاجزين عن مبادي النكاح وأسبابها الى ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء أي ليجتهد في العفة وقمع الشهوة (الذين لا يجدون نكاحا) اى اسباب نكاح أو لا يتمكنون مما ينكح به من المال (حتى يغنيهم الله من فضله) عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى ولطف لهم في استعفافهم وتقوية لقلوبهم وايذان بأن فضله تعالى أولى بالاعفاء وأدنى من الصلحاء (والذين يبتغون الكتاب) بعد ما أمر بانكاح صالحي المماليك الاحقاء بالانكاح أمر بكتابة من يستحقها منهم والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة أي الذين يطلبون المكاتبة (مما ملكت ايمانكم) عبدا كان أو أمة وهي أن يقول المولى لمملوكه كاتبتك على كذا درهما تؤديه الي وتعتق ويقول المملوك قبلته أو نحو ذلك فان أداه اليه عتق قالوا معناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني اذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت علي العتق عنده والتحقيق أن المكاتبة

حملها على وجه آخر فكأنه سبحانه قال والله أعلم ألا تحبون أن يغفر الله لكم لأجل تعظيمكم هؤلاء القذفة العصاة فيرجع حاصل الآية الى انه سبحانه قال يا أبا بكر ان قبلت هؤلاء العصاة فانا أيضا أقبلهم وان رددتهم فانا أيضا اردهم فكأنه سبحانه أعطاه مرتبة الشفاعة في الدنيا فهذا ما حضرنا في هذه الآية والله أعلم (فان قيل) هذه الآية تقدح في فضيلة أبي بكر من وجه آخر وذلك لانه نهاه عن هذا الحلف فدل على صدور المعصية منه (قلنا الجواب) عنه من وجوه (أحدها) ان النهي لا يدل على وقوعه قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا تطع الكافرين والمنافقين ولم يدل ذلك على انه عليه الصلاة والسلام أطاعهم بل دلت الاخبار الظاهرة على صدور هذا الحلف منه ولكن على هذا التقدير لا تكون الآية دالة على قولكم (وثانيها) هب انه صدر عنه ذلك الحلف فلم قلتم انه كان معصية وذلك لان الامتناع من التفضل قد يحسن خصوصا فيمن يسيء الى من أحسن اليه أوفي حق من يتخذه ذريعة الى الافعال المحرمة لا يقال فلو لم تكن معصية لما جاز أن ينهى الله عنه بقوله ولا يأتل أولوا الفضل لانا نقول هذا النهي ليس نهي زجر وتحريم بل هو نهي عن ترك الاولى كأنه سبحانه قال لابي بكر اللائق بفضلك وسعة همتك أن لا تقطع هذا فكان هذا ارشادا الى الاولى لا منعا عن المحرم (المسئلة الثالثة) أجمعوا على ان المراد من قوله أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله مسطح لانه كان قريبا لابي بكر وكان من المساكين وكان من المهاجرين واختلفوا في الذنب الذي وقع منه فقال بعضهم قذف كما فعله عبد الله بن أبي فانه عليه الصلاة والسلام حده وانه تاب عن ذلك وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان تاركا للنكر ومظهرا للرضا وأي الامرين كان فهو ذنب (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة وقالوا انه سبحانه وصفه بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد ان أتى بالقذف وهذه صفة مدح فدل على أن ثواب كونه مهاجرا لم يحبط باقدامه على القذف (المسئلة الخامسة) أجمعوا على ان مسطحا كان من البدريين وثبت بالرواية الصحيحة انه عليه الصلاة والسلام قال لعل الله نظر الى أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم فكيف صدرت الكبيرة منه بعد ان كان بدريا (والجواب) انه لا يجوز أن يكون المراد منه افعلوا ما شئتم من المعاصي فامر بها أو يبيحها الا انه علم بالضرورة ان التكليف كان باقيا عليهم فلو حملناه على ذلك لاقتضى زوال التكليف عنهم ولانه لو كان كذلك لما جاز أن يحد مسطح على ما فعل ويلعن فوجب حمله على أحد أمرين (الاول) انه تعالى اطلع على أهل بدر وقد علم توبتهم وانابتهم فقال افعلوا ما شئتم من النوافل من قليل أو كثير فقد غفرت لكم وأعطيتكم الدرجات العالية في الجنة (الثاني) يحتمل أن يكون المراد انهم يوافون بالطاعة فكأنه قال قد غفرت لكم لعلمي بأنكم تموتون على التوبة والانابة فذكر حالهم في الوقت وأراد العاقبة (المسئلة السادسة) العفو والصفح عن المسيء حسن مندوب اليه وربما وجب ذلك ولو لم يدل عليه

اسم للعقد الحاصل من مجموع كلاميهما كسائر العقود الشرعية المنعقدة بالايجاب والقبول ولا ريب في أن ذلك لا يصدر حقيقة الا من المتعاقدين وليس وظيفة كل منهما في الحقيقة الا الاتيان بأحد شطريه معربا عما يتم من قبله ويصدر عنه من الفعل الخاص به من غير تعرض لما يتم من قبل صاحبه ويصدر عنه من فعله الخاص به الا أن كلا من ذينك الفعلين لما كان بحيث لا يمكن تحققه في نفسه الا منوطا بتحقق الآخر ضرورة أن التزام العتق بمقابلة البدل من جهة المولى لا يتصور تحققه وتحصله الا بالتزام البدل من طرف العبد كما أن عقد البيع الذي هو تمليك المبيع بالثمن من جهة البائع لا يمكن تحققه الا بتملكه به من جانب المشتري لم يكن بد من تضمين أحدهما الآخر وقت الانشاء فكما أن قول البائع بعت انشاء لعقد البيع على معنى أنه ايقاع لما يتم من قبله أصالة ولما يتم من قبل المشتري ضمنا ايقاعا متوقفا على رأيه توقفا شبيها بتوقف عقد الفضولي كذلك قول المولى كاتبتك على كذا انشاء لعقد الكتابة أي ايقاع لما يتم من قبله من التزام العتق بمقابلة البدل أصالة ولما يتم من قبل العبد من التزام البدل ضمنا ايقاعا متوقفا

الاهـذه الآية لكفى الاترى الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فعلق الغفران بالعفو والصفح وعنه عليه الصلاة والسلام من لم يقبل عذر المتنصل كاذبا كان أو صادقا فلا يرد على حوضي يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام أفضل اخلاق المسلمين العفو وعنه أيضا ينادى مناد يوم القيامة الا من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم الا أهل العفو ثم تلا فمن عفا وأصلح فأجره على الله وعنه عليه الصلاة والسلام أيضا لا يكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطعه ويعفو عن ظلمه ويعطى من حرمه (المسئلة السابعة) في هذه الآية دلالة على ان اليمين على الامتناع من الخير غير جائز وانما يجوز اذا جعلت داعية للخير لا صارفة عنه (المسئلة الثامنة) مذهب جمهور الفقهاء أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها أنه ينبغي له أن يأتى الذى هو خير ثم يكفر عن يمينه وقال بعضهم انه يأتى بالذى هو خير وذلك كفارته واحتج ذلك القائل بالآية والخبر أما الآية فهى ان الله تعالى أمر أبا بكر بالحنث ولم يوجب عليه كفارة وأما الخبر فما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وذلك كفارته وأما دليل قول الجمهور فامور (أحدها) قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته وقوله ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم وذلك عام فى الحانث فى الخير وغيره (وثانيها) قوله تعالى فى شأن أيوب حين حلف على امرأته أن يضربها وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وقد علمنا ان الحنث كان خيرا من تركه وامره الله بضرب لا يبلغ منها ولو كان الحنث فيها كفارتها لما أمر بضربها بل كان يحنث بلا كفارة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه (أما الجواب) عما ذكره أولا فهو انه تعالى لم يذكر أمر الكفارة فى قصة أبى بكر لا نفيا ولا اثباتا لان حكمه كان معلوما فى سائر الآيات (والجواب) عما ذكره ثانيا فى قوله وليأت الذى هو خير وذلك كفارته فمعناه تكفير الذنب لا الكفارة المذكورة فى الكتاب وذلك لانه منهى عن نقض الايمان فامره ههنا بالحنث والتوبة وأخبر ان ذلك يكفر ذنبه الذى ارتكبه بالحلف (المسئلة التاسعة) روى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها انها قالت فضلت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بعشر خصال تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا دون غيرى وأبواى مهاجران وجاء جبريل عليه السلام بصورتى فى حريرة وأمره أن يتزوج بى وكنت أغتسل معه فى اناء واحد وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحى وأنا معه فى لحاف واحد وتزوجنى فى شوال وبنى بى فى ذلك الشهر وقبض بين سحرى ونحرى وأنزل الله تعالى عذرى من السماء ودفن فى بيتى وكل ذلك لم يساونى غيرى فيه وقال بعضهم برأ الله أربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد وشهد شاهد من أهلها وبرأ موسى عليه السلام من قول اليهود بالحجر الذى ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر وروى انه لما قربت وفاة عائشة جاء ابن عباس يستاذن عليها

فقالت

على قبوله فاذا قبل تم العقد ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره (فكاتبوهم) والفاء لتضمنه معنى الشرط أو النصب على أنه مفعول لمضمر يفسره هذا والامر فيه للندب لان الكتابة عقد يتضمن الارفاق فلا تجب كغيرها ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم وعند الشافعى رحمه الله لا يجوز الا مؤجلا منجما وقد فصل فى موضعه (ان علمتم فيهم خيرا) أى أمانة ورشدا وقدرة على أداء البدل بتحصيله من وجه حلال وصلاحا لا يؤذى الناس بعد العتق واطلاق العنان (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أمر للموالى ببذل شئ من أموالهم وفى حكمه حط شئ من مال الكتابة ويكفى فى ذلك أقل ما يتمول وعن على رضى الله عنه حط الربع وعن ابن عباس رضى الله عنهما الثلث وهو للندب عندنا وعند الشافعى للوجوب ويرده قوله عليه الصلاة والسلام المكاتب عبد ما بقى عليه درهم اذ لو وجب الحط لسقط عنه الباقى حتما وأيضا لو وجب الحط لكان وجوبه معلقا بالعقد فيكون العقد موجبا ومسقطا معا وأيضا فهو عقد معاوضة فلا يجبر على الحطيطة كالبيع وقيل معنى آتوهم أقرضوهم وقيل هو أمر لهم بان ينفقوا عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا واضافة المال اليه تعالى ووصفه بايتائه

فقالت يجىء الآن فيثنى على فخبره ابن الزبير فقال ما أرجع حتى تأذن لى فاذنت له فدخل فقالت عائشة أعوذ بالله من النار فقال ابن عباس يا أم المؤمنين مالك والنار قد أعاذك الله منها وأنزل براءتك تقرأ فى المساجد وطيبك فقال الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات كنت أحب نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ولم يحب صلى الله عليه وسلم الا طيبا وأنزل بسببك التيمم فقال فتيمموا صعيدا طيبا وروى ان عائشة وزينب تفاخرتا فقالت زينب انا التى أنزل ربى تزويجى وقالت عائشة أنا التى برأنى ربى حين حملنى ابن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب ما قلت حين ركبتها قالت قلت حسبى الله ونعم الوكيل فقالت قلت كلمة المؤمنين ﴿ قوله تعالى (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله ان الذين يرمون المحصنات الغافلات هل المراد منه كل من كان بهذه الصفة أو المراد منه الخصوص أما الاصوليون فقالوا الصيغة عامة ولا مانع من اجرائها على ظاهرها فوجب حمله على العموم فيدخل فيه قذفة عائشة وقذفة غيرها ومن الناس من خالف فيه وذكر وجوها (أحدها) ان المراد قذفة عائشة قالت عائشة رميت وأنا غافلة وانما بلغنى بعد ذلك فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندى اذ أوحى الله اليه فقال أبشرى وقرأ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات (وثانيها) ان المراد جملة أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وانهن لشرفهن خصصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد لاحق به واحتج هؤلاء بأمور (الاول) ان قاذف سائر المحصنات تقبل توبته لقوله تعالى فى أول السورة والذين يرمون المحصنات الى قوله وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا وأما القاذف فى هذه الآية فانه لا تقبل توبته لانه سبحانه قال لعنوا فى الدنيا والآخرة ولم يذكر الاستثناء وأيضا فهذه صفة المنافقين فى قوله ملعونين أينما ثقفوا (الثانى) ان قاذف سائر المحصنات لا يكفر والقاذف فى هذه الآية يكفر لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وذلك صفة الكفار والمنافقين كقوله ويوم يحشر أعداء الله الى النار الآيات الثلاث (الثالث) انه قال ولهم عذاب عظيم والعذاب العظيم يكون عذاب الكفر فدل على ان عقاب هذا القاذف عقاب الكفر وعقاب قذفة سائر المحصنات لا يكون عقاب الكفر (الرابع) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن فسئل عن تفسير هذه الآية فقال من أذنب ذنبا ثم تاب قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة أجاب الاصوليون عنه بأن الوعيد المذكور فى هذه الآية لا بد وأن يكون مشروطا بعدم التوبة لان الذنب سواء كان كفرا أو فسقا فاذا حصلت التوبة صار مغفورا فزال السؤال ومن الناس من ذكر فيه قولا آخر وهو أن هذه الآية نزلت فى مشركى مكة حين كان بينهم وبين رسول الله عهد فكانت المرأة اذا

اباهم للحث على الامتثال بالامر بتحقيق المامور به كما فى قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فان ملاحظة وصول المال اليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقى له من أقوى الدواعى الى صرفه الى الجهة المامور بها وقيل هو أمر باعطاء سهمهم من الصدقات فالامر للوجوب حتما والاضافة والوصف لتعيين المأخذ وقيل هو أمر ندب لعامة المسلمين باعانة المكاتبين بالتصدق عليهم ويحل ذلك للمولى وان كان غنيا لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (ولا تكرهوا فتياتكم) أى اماءكم فان كلا من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والامة وعلى ذلك مبنى قوله عليه الصلاة والسلام ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى ولهذه العبارة فى هذا المقام باعتبار مفهومها الاصلى حسن موقع ومزيد مناسبة لقوله تعالى (على البغاء) وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء لانهن اللاتى يتوقع منهن ذلك غالبا دون من عداهن من العجائز والصغائر وقوله تعالى (ان أردن تحصنا) ليس لتخصيص النهى بصورة ارادتهن التعفف عن الزنا واخراج ما عداها من حكمه كما اذا كان الاكراه بسبب كراهتهن الزنا

خرجت الى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا انما خرجت لتفجر فنزلت فيهم والقول الاول هو الصحيح (المسئلة الثانية) ان الله تعالى ذكر فيمن يرمي المحصنات الغافلات المؤمنات ثلاثة أشياء (أحدها) كونهم ملعونين في الدنيا والآخرة وهو وعيد شديد واحتج الجبائي بان التقييد باللعن عام في جميع القذفة ومن كان ملعونا في الدنيا فهو ملعون في الآخرة والملعون في الآخرة لا يكون من أهل الجنة وهو بناء على المحابطة وقد تقدم القول فيه (وثانيها) قوله يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ونظيره قوله وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا وعندنا البنية ليست شرطا للحياة فيجوز أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علما وقدرة وكلاما وعند المعتزلة لا يجوز ذلك فلا جرم ذكروا في تاويل هذه الآية وجهين (الاول) انه سبحانه يخلق في هذه الجوارح هذا الكلام وعندهم المتكلم فاعل الكلام فتكون تلك الشهادة من الله تعالى في الحقيقة الا أنه سبحانه أضافها الى الجوارح توسعا (الثاني) انه سبحانه يبني هذه الجوارح على خلاف ما هي عليه ويلجئها أن تشهد على الانسان وتخبر عنه باعماله قال القاضي وهذا أقرب الى الظاهر لان ذلك يفيد انها تفعل الشهادة (وثالثها) قوله تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ولا شبهة في أن نفس دينهم ليس هو المراد لان دينهم هو عملهم بل المراد جزاء عملهم والدين بمعنى الجزاء مستعمل كقولهم كما تدين تدان وقيل الدين هو الحساب كقوله ذلك الدين القيم أي الحساب الصحيح ومعنى قوله الحق أي ان الذي نوفيهم من الجزاء هو القدر المستحق لانه الحق وما زاد عليه هو الباطل وقرئ الحق بالنصب صفة للدين وهو الجزاء وبالرفع صفة لله وأما قوله ويعلمون ان الله هو الحق المبين فمن الناس من قال انه سبحانه انما سمي بالحق لان عبادته هي الحق دون عبادة غيره أو لانه الحق فيما يأمر به دون غيره ومعنى المبين يؤيد ما قلنا لان المحق فيما يخاطب به هو المبين من حيث يبين الصحيح بكلامه دون غيره ومنهم من قال الحق من أسماء الله تعالى ومعناه الموجود لان نقيضه الباطل وهو المعدوم ومعنى المبين المظهر ومعناه أن بقدرته ظهر وجود الممكنات فمعنى كونه حقا انه الموجود لذاته ومعنى كونه مبينا انه المعطي وجود غيره ۞ قوله تعالى (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) اعلم ان الخبيثات يقع على الكلمات التي هي القذف الواقع من أهل الافك ويقع أيضا على الكلام الذي هو كالذم واللعن ويكون المراد من ذلك لا نفس الكلمة التي هي من قبل الله تعالى بل المراد مضمون الكلمة ويقع أيضا على الزواني من النساء وفي هذه الآية كل هذه الوجوه محتملة فان حملناها على القذف الواقع من أهل الافك كان المعنى الخبيثات من قول أهل الافك للخبيثين من الرجال وبالعكس والطيبات من قول منكري الافك للطيبين من الرجال وبالعكس وان حملناها على الكلام الذي هو كالذم واللعن فالمعنى ان الذم واللعن معدان للخبيثين من الرجال والخبيثون منهم معرضون للعن والذم وكذا القول في الطيبات وأولئك اشارة الى الطيبين وانهم مبرؤن مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلمات وان

لخصوص الزاني أو لخصوص الزمان أو لخصوص المكان أو لغير ذلك من الامور المصححة للاكراه في الجملة بل للمحافظة على عادتهم المستمرة حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الآمرة بالفجور وقصورهن في معرفة الامور الداعية الى المحاسن الزاجرة عن تعاطي القبائح فان عبد الله بن أبي كانت له ست جوار يكرههن على الزنا وضرب عليهن ضرائب فشكت اثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح ما لا يخفى فان من له أدنى مروأة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من امائه فضلا عن أمرهن به أو اكراههن عليه لا سيما عند ارادتهن التعفف فتأمل ودع عنك ما قيل من أن ذلك لان الاكراه لا يتأتى الا مع ارادة التحصن وما قيل من أنه ان جعل شرطا للنهي لا يلزم من عدمه جواز الاكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي لامتناع المنهي عنه فانهما بمعزل من التحقيق وايثار كلمة ان على اذا مع تحقق الارادة في مورد النص حتما للايذان بوجوب الانتهاء عن الاكراه عند كون ارادة التحصن

حملناه على الزواني فالمعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال وبالعكس على معنى قوله تعالى الزاني لا ينكح الا زانية والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والمعنى ان مثل ذلك الرمي الواقع من المنافقين لا يليق الا بالخبيثات والخبيثين لا بالطيبات والطيبين كالرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه فان قيل فعلى هذا الوجه يلزم أن لا يتزوج الرجل العفيف بالزانية (والجواب) ما تقدم في قوله الزاني لا ينكح الا زانية وقوله أولئك مبرؤن يعني الطيبات والطيبين مما يقوله أصحاب الافك سوى قول من حمله على الكلمات فكأنه قال الطيبون مبرؤن مما يقوله الخبيثون ومتى حمل أولئك على هذا الوجه كان لفظه كمعناه في أنه جمع ومتى حملته على عائشة وصفوان وهما اثنان فكيف يعبر عنهما بلفظ الجمع فجوابه من وجهين (الاول) ان ذلك الرمي قد تعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وبعائشة وصفوان فبرأ الله تعالى كل واحد منهم من التهمة اللائقة به (الثاني) ان المراد به كل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى برأهن من هذا الافك لكي لا يقدح فيهن أحد كما أقدموا على عائشة ونزه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك عن أمثال هذا الامر وهذا أبين كأنه تعالى بين ان الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ولا أحد اطيب ولا أطهر من الرسول فأزواجه اذن لا يجوز أن يكن الا طيبات ثم بين تعالى ان لهم مغفرة يعني براءة من الله ورسوله ورزق كريم في الآخرة ويحتمل أن يكون ذلك خبرا مقطوعا به فيعلم بذلك ان أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام هن معه في الجنة وقد وردت الاخبار بذلك ويحتمل أن يكون المراد بشرط اجتناب الكبائر والتوبة والاول أولى لانا انما نحتاج الى الشرط اذا لم يمكن حمل الآية عليه اما اذا أمكن فلا وجه لطلب الشرط وهذا يدل على ان عائشة رضي الله عنها تصير الى الجنة بخلاف مذهب الرافضة الذين يكفرونها بسبب حرب يوم الجمل فانهم يردون بذلك نص القرآن فان قيل القطع بانها من أهل الجنة اغراء لها بالقبيح قلنا أليس ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلمه الله تعالى بانه من أهل الجنة ولم يكن ذلك اغراء له بالقبيح وكذا العشرة المبشرة بالجنة فكذا ههنا والله أعلم تمت قصة أهل الافك (الحكم السادس) في الاستئذان ۞ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) اعلم انه تعالى عدل عما يتصل بالرمي والقذف وما يتعلق بهما من الحكم الى ما يليق به لان أهل الافك انما وجدوا السبيل الى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمة فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره الا بعد الاستئذان والسلام لان في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به فقال يا أيها الذين آمنوا الخ وفي الآية

في حيز التردد والشك فكيف اذا كانت محققة الوقوع كما هو الواقع وتعليله بان الارادة المذكورة منهن في حيز الشاذ النادر مع خلوه عن الجدوى بالكلية يأباه اعتبار تحققها اباه ظاهرا وقوله تعالى (لتبتغوا عرض الحيوة الدنيا) قيد للاكراه لكن لا باعتبار أنه مدار للنهي عنه بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم كما قبله جيء به تشنيعا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لاجل النزر الحقير أي لا تفعلوا ما أنتم عليه من اكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال فالمراد بالابتغاء الطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل اذ هو الصالح لكونه غاية للاكراه مترتبا عليه لا المطلق المتناول للطلب السابق الباعث عليه (ومن يكرههن) الخ جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهي وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارة ورجوع غائلة الاكراه الى المكرهين اشارة أي ومن يكرههن على ما ذكر من البغاء (فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) أي لهن كما وقع في مصحف ابن مسعود وعليه قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهم وكما ينبئ عنه

سؤالات (السؤال الاول) الاستئناس عبارة عن الانس الحاصل من جهة المجالسة قال تعالى ولا مستأنسين لحديث وانما يحصل ذلك بعد الدخول والسلام فكان الاولى تقديم السلام على الاستئناس فلم جاء على العكس من ذلك (والجواب) عن هذا من وجوه (أحدها) ماروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير انما هو حتى تستأذنوا فاخطأ الكاتب وفى قراءة أبي حتى تستأذنوا لكم والتسليم خير لكم من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير اذن واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك كان صاحبه دامر لعظم ما ارتكب وفى الحديث من سبقت عينه استئذانه فقد دمر واعلم ان هذا القول من ابن عباس فيه نظر لانه يقتضى الطعن فى القرآن الذى نقل بالتواتر ويقتضى صحة القرآن الذى لم ينقل بالتواتر وفتح هذين البابين يطرق الشك الى كل القرآن وانه باطل (وثانيها) ماروى عن الحسن البصرى انه قال ان فى الكلام تقديما وتأخيرا والمعنى حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا وذلك لان السلام مقدم على الاستئناس وفى قراءة عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وهذا أيضا ضعيف لانه خلاف الظاهر (وثالثها) ان تجرى الكلام على ظاهره ثم فى تفسير الاستئناس وجوه (الاول) حتى تستأنسوا بالاذن وذلك لانهم اذا استأذنوا وسلموا أنس أهل البيت ولو دخلوا بغير اذن لاستوحشوا وشق عليهم (الثانى) تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف استفعال من آنس الشئ اذا أبصره ظاهرا مكشوفا والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا واستأنست فلم أر أحدا أى تعرفت واستعلمت فان قيل واذا حمل على الانس ينبغى أن يتقدمه السلام كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول السلام عليكم أأدخل قلنا المستأذن ربما لا يعلم أن أحدا فى المنزل فلا معنى لسلامه والحالة هذه والاقرب أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن فاذا أذن ودخل صار مواجها له فيسلم عليه (والثالث) أن يكون اشتقاق الاستئناس من الانس وهو أن يتعرف هل ثم انسان ولاشك ان هذا مقدم على السلام (والرابع) لو سلمنا ان الاستئناس انما يقع بعد السلام ولكن الواو لا توجب الترتيب فتقديم الاستئناس على السلام فى اللفظ لا يوجب تقديمه عليه فى العمل (السؤال الثانى) ما الحكمة فى ايجاب تقديم الاستئذان (والجواب) ثلث الحكمة هى التى نبه الله تعالى عليها فى قوله ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فدل بذلك على ان الذى لاجله حرم الدخول الا على هذا الشرط هو كون البيوت مسكونة اذ لا يأمن من يهجم عليها بغير استئذان أن يهجم على ما لا يحل له أن ينظر اليه من عورة أو على ما لا يحب القوم أن يعرفه غيرهم من الاحوال وهذا من باب العلل المنبه عليها بالنص ولانه تصرف فى ملك الغير فلابد وان يكون برضاه والا أشبه الغصب (السؤال الثالث) كيف يكون الاستئذان (الجواب) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أألج فقال عليه الصلاة والسلام لامرأة يقال لها روضة قومى الى هذا فعلميه

فانه

قوله تعالى من بعد اكراههن أى كونهن مكرهات على أن الاكراه مصدر من المبنى للمفعول فان توسطه بين اسم ان وخبرها للايذان بان ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة وكان الحسن البصرى رحمه الله اذا قرأ هذه الآية يقول لهن والله لهن والله وفى تخصيصهما بهن وتعيين مدارهما مع سبق ذكر المكرهين أيضا فى الشرطية دلالة بينة على كونهم محرومين منهما بالكلية كأنه قيل لا للمكره ولظهور هذا التقدير اكتفى به عن العائد الى اسم الشرط فتجويز تعلقهما بهم بشرط التوبة استقلالا أو معهن اخلال بجزالة النظم الجليل وتهوين لامر النهى فى مقام التهويل وحاجتهن الى المغفرة المنبئة عن سابقة الاثم اما باعتبار أنهن وان كن مكرهات لا يخلون فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية واما باعتبار أن الاكراه قد يكون قاصرا عن حد الالجاء المزيل للاختيار بالمرة واما لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت فى التجافى عنه والتشديد فى تحذير المكرهين ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة لولا أن تداركهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر فى حقهن فما حال من يكرههن فى استحقاق العذاب (ولقد أنزلنا اليكم آيات

فانه لا يحسن ان يستأذن قولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقالها فقال ادخل فدخل وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اشياء وكان يجيب فقال هل فى العلم ما لا تعلمه فقال عليه الصلاة والسلام لقد آتانى الله خيرا كثيرا وان من العلم ما لا يعلمه الا الله وتلا ان الله عنده علم الساعة الى آخره وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد فصد الله تعالى عن ذلك وعلم الاحسن والاجمل وعن مجاهد حتى تستأنسوا هو التنحنح وقال عكرمة هو التسبيح والتكبير ونحوه (السؤال الرابع) كم عدد الاستئذان (الجواب) روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستئذان ثلاث بالاولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون وبالثالثة يأذنون أو يردون وعن جندب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع وعن أبي سعيد الخدرى قال كنت جالسا فى مجلس من مجالس الانصار فجاء أبو موسى فزعا فقلنا له ما أفزعك فقال أمرنى عمر أن آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال ما منعك أن تأتينى فقلت قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وقد قال عليه الصلاة والسلام اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع فقال لتأتينى على هذا بالبينة أو لاعاقبنك فقال أبي لا يقوم معك الا أصغر القوم قال فقام أبو سعيد فشهد له وفى بعض الاخبار أن عمر قال لابى موسى انى لم أتهمك ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن قتادة الاستئذان ثلاثة الاول يسمع الحى والثانى ليتأهبوا والثالث ان شاؤا أذنوا وان شاؤا ردوا واعلم ان هذا من محاسن الاداب لان فى أول مرة ربما منعهم بعض الاشغال من الاذن وفى المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع أو يقتضى المنع أو يقتضى التساوى فاذا لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ثابت وربما أوجب ذلك كراهة قربه من الباب فلذلك يسن له الرجوع ولذلك يقول يجب فى الاستئذان ثلاثا أن لا يكون متصلا بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقت فاما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار فذاك حرام لانه يتضمن الايذاء والايحاش وكفى بقصة بنى أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (السؤال الخامس) كيف يقف على الباب (الجواب) روى أن أبا سعيد استأذن على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل الباب فقال عليه الصلاة والسلام لا تستأذن وأنت مستقبل الباب وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الايمن أو الايسر فيقول السلام عليكم وذلك لان الدور لم يكن عليها حينئذ ستور (السؤال السادس) ان كلمة حتى للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها فقوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا يقتضى جواز الدخول بعد الاستئذان وان لم يكن من

مبينات) كلام مستأنف جئ به فى تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شؤنها المستوجبة للاقبال الكلى على العمل بمضمونها وصدر بالقسم الذى تعرب عنه اللام لابراز كمال العناية بشأنه أى وبالله لقد أنزلنا اليكم فى هذه السورة الكريمة آيات مبينات لكل ما بكم حاجة الى بيانه من الحدود وسائر الاحكام والآداب وغير ذلك مما هو من مبادى بيانها على أن اسناد التبيين اليها مجازى أو آيات واضحات تصدقها الكتب القديمة والعقول السليمة على أن مبينات من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين وقرئ على صيغة المفعول أى التى بينت وأوضحت فى هذه السورة من معانى الاحكام والحدود وقد جوز أن يكون الاصل مبينا فيها الاحكام فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) عطف على آيات أى وأنزلنا مثلا كائنا من قبيل أمثال الذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة والامثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة والكلمات الجارية على ألسنة الانبياء عليهم السلام فتنتظم قصة عائشة رضى الله عنها الحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مريم رضى الله عنها وسائر الامثال

صاحب البيت اذن فما قولكم فيه (الجواب) من وجوه (أحدها) ان الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان والاستئناس لا يحصل الا اذا حصل الاذن بعد الاستئذان (وثانيها) انا لما علمنا بالنص ان الحكمة فى الاستئذان ان لا يدخل الانسان على غيره بغير اذنه فان ذلك مما يسوءه وعلمنا ان هذا المقصود لا يحصل الا بعد حصول الاذن علمنا ان الاستئذان ما لم يتصل به الاذن وجب أن لا يكون كافيا (وثالثها) ان قوله تعالى فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم فحظر الدخول الا باذن فدل على ان الاذن مشروط باباحة الدخول فى الآية الاولى فان قيل اذا ثبت انه لا بد من الاذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا قلنا روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال رسول الرجل الى الرجل اذنه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى عليه الصلاة والسلام قال اذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له اذن وهذا الخبر يدل على معنيين (أحدهما) ان الاذن محذوف من قوله حتى تستأنسوا وهو المراد منه (والثانى) ان الدعاء اذن اذا جاء مع الرسول وانه لا يحتاج الى استئذان ثان وقال بعضهم ان من قد جرت العادة له باباحة الدخول فهو غير محتاج الى الاستئذان (السؤال السابع) ما حكم من اطلع على دار غيره بغير اذنه (الجواب) قال الشافعى رحمه الله لو فقئت عينه فهى هدر وتمسك بما روى سهل بن سعد قال اطلع رجل فى حجرة من حجر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال لو علمت أنك تنظر الى لطعنت بها فى عينك انما الاستئذان قبل النظر وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من اطلع فى دار قوم بغير اذنهم ففقؤا عينه فقد هدرت عينه قال أبو بكر الرازى هذا الخبر يرد لوروده على خلاف قياس الاصول فانه لا خلاف أنه لو دخل داره بغير اذنه ففقأ عينه كان ضامنا وكان عليه القصاص ان كان عامدا والارش ان كان مخطئا ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق فان صح فمعناه من اطلع فى دار قوم ونظر الى حرمهم ونسائهم فمونع فلم يمتنع فذهبت عينه فى حال الممانعة فهى هدر فاما اذا لم يكن الا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهى ثم جاء انسان ففقأ عينه فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى العين بالعين الى قوله والجروح قصاص واعلم ان التمسك بقوله تعالى والعين بالعين فى هذه المسئلة ضعيف لانا أجمعنا على ان هذا النص مشروط بما اذا لم تكن العين مستحقة فانها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص فلم قلت ان من اطلع فى دار انسان لم تكن عينه مستحقة وهذا أول المسئلة أما قوله انه لو دخل لم يجز فقء عينه فكذا اذا نظر قلنا الفرق بين الامرين ظاهر لانه اذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا فاما اذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه فلا يبعد فى حكم الشرع أن يبالغ ههنا فى الزجر حسما لباب هذه المفسدة وبالجملة فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز (السؤال الثامن)

الواردة فى السورة الكريمة انتظاما واضحا وتخصيص الآيات المبينات بالسوابق وحمل المثل على القصة العجيبة فقط يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى من التمثيلات (وموعظة) تتعظون به وتنزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر ما يخل بمحاسن الآداب فهى عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها من المواعظ بالمعنى المذكور ومدار العطف هو التغاير العنوانى المنزل منزلة التغاير الذاتى وقد خصت الآيات بما بين الحدود والاحكام والموعظة بما وعظ به من قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه وغير ذلك من الآيات الواردة فى شأن الآداب وانما قيل (للمتقين) مع شمول الموعظة للكل حسب شمول الانزال لقوله تعالى أنزلنا اليكم حثا للمخاطبين على الاعتناء بالانتظام فى سلك المتقين ببيان أنهم المغتنمون لآثارها المقتبسون من أنوارها فحسب وقيل المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة جميع ما فى القرآن المجيد من الآيات والامثال والمواعظ فقوله تعالى (الله نور السموات والارض) الخ حينئذ استئناف مسوق لتقرير ما فيها من البيان مع الاشعار بكونه

لما بينتم انه لا بد من الاذن فهل يكفى الاذن كيف كان أو لا بد من اذن مخصوص (الجواب) ظاهر الآية يقتضى قبول الاذن مطلقا سواء كان الآذن صبيا أو امرأة او عبدا أو ذميا فانه لا يعتبر فى هذا الاذن صفات الشهادة وكذلك قبول أخبار هؤلاء فى الهدايا ونحوها (السؤال التاسع) هل يعتبر الاستئذان على المحارم (الجواب) نعم عن عطاء بن يسار أن رجلا سال النبى صلى الله عليه وسلم فقال أستاذن على أختى فقال النبى عليه الصلاة والسلام نعم أتحب ان تراها عريانة وسال رجل حذيفة أستاذن على أختى فقال ان لم تستاذن عليها رأيت ما يسوءك وقال عطاء سالت ابن عباس رضى الله عنهما أستاذن على أختى ومن أنفق عليها قال نعم ان الله تعالى يقول واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستاذنوا كما استاذن الذين من قبلهم ولم يفرق بين من كان أجنبيا أو ذا رحم محرم واعلم ان ترك الاستئذان على المحارم وان كان غير جائز الا أنه أيسر لجواز النظر الى شعرها وصدرها وساقها ونحوها من الاعضاء والتحقيق فيه أن المنع من الهجوم على الغير ان كان لاجل ان ذلك الغير ربما كان منكشف الاعضاء فهذا دخل فيه الكل الا الزوجات وملك اليمين وان كان لاجل انه ربما كان مشتغلا بامر يكره اطلاع الغير عليه وجب أن يعم فى الكل حتى لا يكون له أن يدخل على الزوجة والامة الا باذن (السؤال العاشر) اذا عرض أمر فى دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر فهل يجب الاستئذان (الجواب) كل ذلك مستثنى بالدليل فهذا جملة الكلام فى الاستئذان وأما السلام فهو من سنة المسلمين التى أمروا بها وأمان للقوم وهو تحية أهل الجنة ومجلبة للمودة ونافٍ للحقد والضغينة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله باذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب الى هؤلاء الملائكة وهم ملأ منهم جلوس فقل السلام عليكم فلما فعل ذلك رجع الى ربه فقال هذه تحيتك وتحية ذريتك وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق المسلم على المسلم ست يسلم عليه اذا لقيه ويجيبه اذا دعاه وينصح له بالغيب ويشمته اذا عطس ويعوده اذا مرض ويشهد جنازته اذا مات وعن ابن عمر قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ان سركم أن يسل الغل من صدوركم فأفشوا السلام بينكم أما قوله تعالى ذلكم خير لكم فالمعنى فيه ظاهر اذ المراد أن فعل ذلك خير لكم وأولى لكم من الهجوم بغير اذن لعلكم تذكرون أى لكى تذكروا هذا التاديب فتتمسكوا به ثم قال فان لم تجدوا فيها أى فى البيوت أحدا فلا تدخلوها لان العلة فى الصورتين واحدة وهى جواز أن يكون هناك أحوال مكتومة يكره اطلاع الداخل عليها ثم قال وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا وذلك لانه كما يكون الدخول قد يكرهه صاحب الدار فكذا الوقوف على الباب قد يكرهه فلا جرم كان الاولى والازكى له أن يرجع ازالة للايحاش والايذاء ولما ذكر الله تعالى حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم

فى غاية الكمال على الوجه الذى ستعرفه وأما على الاول فلتحقيق ان بيانه تعالى ليس مقصورا على ما ورد فى السورة الكريمة بل هو شامل لكل ما يحتاج بيانه من الاحكام والشرائع ومباديها وغاياتها المترتبة عليها فى الدنيا والآخرة وغير ذلك مما له مدخل فى البيان وانه واقع منه تعالى على أتم الوجوه وأكملها حيث عبر عنه بالتنوير الذى هو أقوى مراتب البيان واجلاها وعبر عن المنور بنفس النور تنبيها على قوة التنوير وشدة التأثير وايذانا بانه تعالى ظاهر بذاته وكل ما سواه ظاهر باظهاره كما أن النور نير بذاته وما عداه مستنير به وأضيف النور الى السموات والارض للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له وغاية شموله لكل ما يليق به من الامور التى لها مدخل فى ارشاد الناس بواسطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقه من الاجرام العلوية والسفلية فانهما قطران للعالم الجسمانى الذى لا مظهر للنور الحسى سواه أو على شمول البيان لاحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجودات اذ ما من موجود الا وقد بين من أحواله ما يستحق البيان اما تفصيلا أو اجمالا كيف لا ولا ريب فى بيان كونه دليلا على

الدور التي هي غير مسكونة فقال ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة وذلك لان المانع من الدخول الا باذن زائل عنها واختلف المفسرون في المراد من قوله بيوتا غير مسكونة على أقوال (أحدها) وهو قول محمد بن الحنفية انها الخانات والرباطات وحوانيت البياعين والمتاع المنفعة كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الرحال والسلع والشراء والبيع يروى ان أبا بكر قال يارسول الله ان الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان وانا نختلف في تجارتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها الا باذن فنزلت هذه الآية (وثانيها) أنها الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز (وثالثها) الاسواق (ورابعها) انها الحمامات والاولى أن يقال انه لايمتنع دخول الجميع تحت الآية فيحمل على الكل والعلة في ذلك انها اذا كانت كذلك فهي مأذون بدخولها من جهة العرف وكذلك نقول انها لو كانت غير مسكونة ولكنها كانت مغصوبة فانه لايجوز للداخل أن يدخل فيها لكن الظاهر من حال الخانات انها موضوعة لدخول الداخل وأما قوله والله يعلم ما تبدون وما تكتمون فهو وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة (الحكم السابع) حكم النظر

قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) اعلم انه تعالى قال قل للمؤمنين وانما خصهم بذلك لان غيرهم لايلزمه غض البصر عما لايحل له وحفظ الفرج عما لايحل له لان هذه الاحكام كالفرع للاسلام والمؤمنون مامورون بها ابتداء والكفار مامورون قبلها بما تصير هذه الاحكام تابعة له وان كان حالهم كحال المؤمنين في استحقاق العقاب على تركها لكن المؤمن يتمكن من هذه الطاعة من دون مقدمة والكافر لا يتمكن الا بتقديم مقدمة من قبله وذلك لايمنع من لزوم التكاليف له واعلم انه سبحانه أمر الرجال بغض البصر وحفظ الفرج وأمر النساء بمثل ما أمر به الرجال وزادهن أن لا يبدين زينتهن الا لاقوام مخصوصين أما قوله تعالى يغضوا من أبصارهم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الاكثرون من ههنا للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش أن تكون مزيدة ونظيره قوله مالكم من اله غيره وما منكم من أحد عنه حاجزين وأباه سيبويه فان قيل كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفرج قلنا دلالة على ان أمر النظر أوسع ألا ترى ان المحارم لابأس بالنظر الى شعورهن وصدورهن وكذا الجواري المستعرضات وأما أمر الفرج فضيق وكفاك فرقا

ان

وجود الصانع وصفاته وشاهدا بصحة البعث أو على تعلق البيان باهلهما كما قال ابن عباس رضى الله عنهما هادى أهل السموات والارض فهم بنوره يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون هذا وأما حمل التنوير على اخراجه تعالى للماهيات من العدم الى الوجود اذ هو الاصل في الاظهار كما أن الاعدام هو الاصل في الاخفاء أو على تزيين السموات بالنيرين وسائر الكواكب وما يفيض عنهما من الانوار أو بالملائكة عليهم السلام وتزيين الارض بالانبياء عليهم السلام والعلماء والمؤمنين أو بالنبات والاشجار أو على تدبيره تعالى لامورهما وأمور مافيهما فمالا يلائم المقام ولايساعده حسن النظام (مثل نوره) أى نوره الفائض منه تعالى على الاشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين كما يعرب عنه ماقبله من وصف آياته بالانزال والتبيين وقد صرح بكونه نورا أيضا في قوله تعالى وأنزلنا اليكم نورا مبينا وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى وجعله عبارة عن الحق وان شاع استعارته له كاستعارة الظلمة للباطل يأباه مقام بيان شان الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع

أن أبيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ومنهم من قال يغضوا من أبصارهم أى ينقصوا من نظرهم فالبصر اذا لم يكن من عمله فهو مغضوض ممنوع عنه وعلى هذا من ليست بزائدة ولا هي للتبعيض بل هي من صلة الغض يقال غضضت من فلان اذا انقصت من قدره (المسئلة الثانية) اعلم ان العورات على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة فاما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه الا عورته وعورته مابين السرة والركبة والسرة والركبة ليستا بعورة وعند أبي حنيفة رحمه الله الركبة عورة وقال مالك الفخذ ليست بعورة والدليل على انها عورة ماروى عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم مر به في المسجد وهو كاشف عن فخذه فقال عليه السلام غط فخذك فانها من العورة وقال لعلى رضى الله عنه لاتبرز فخذك ولا تنظر الى فخذ حي ولاميت فان كان في نظره الى وجهه وسائر بدنه شهوة أو خوف فتنة بان كان امرد لايحل النظر اليه ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل وان كان كل واحد منهما في جانب من الفراش لما روى أبو سعيد الخدرى انه عليه الصلاة والسلام قال لايفضى الرجل الى الرجل في ثوب واحد ولا تفضى المرأة الى المرأة في ثوب واحد وتكره المعانقة وتقبيل الوجه الا لولده شفقة وتستحب المصافحة لما روى أنس قال قال رجل يارسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له قال لا قال ايلتزمه ويقبله قال لا قال أفيأخذ بيده ويصافحه قال نعم اما عورة المرأة مع المرأة فكعورة الرجل مع الرجل فلها النظر الى جميع بدنها الا مابين السرة والركبة وعند خوف الفتنة لايجوز ولا يجوز المضاجعة والمرأة الذمية هل يجوز لها النظر الى بدن المسلمة قيل يجوز كالمسلمة مع المسلمة والاصح انه لايجوز لانها أجنبية في الدين والله تعالى يقول أو نسائهن وليست الذمية من نسائنا أما عورة المرأة مع الرجل فالمرأة اما ان تكون أجنبية أو ذات رحم محرم او مستمتعة فان كانت اجنبية فاما ان تكون حرة أو أمة فان كانت حرة فجميع بدنها عورة ولا يجوز له أن ينظر الى شئ منها الا الوجه والكفين لانها تحتاج الى ابراز الوجه للبيع والشراء والى اخراج الكف للاخذ والعطاء ونعني بالكف ظهرها وبطنها الى الكوعين وقيل ظهر الكف عورة واعلم انا ذكرنا انه لايجوز النظر الى شئ من بدنها ويجوز النظر الى وجهها وكفها وفي كل واحد من القولين استثناء اما قوله يجوز النظر الى وجهها وكفها فاعلم انه على ثلاثة أقسام لانه اما أن لايكون فيه غرض ولا فيه فتنة واما أن يكون فيه فتنة ولا غرض فيه واما أن يكون فيه فتنة وغرض أما القسم الاول فاعلم انه لايجوز أن يتعمد النظر الى وجه الاجنبية لغير غرض وان وقع بصره عليها بغتة يغض بصره لقوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم وقيل يجوز مرة واحدة اذا لم يكن محل فتنة وبه قال أبو حنيفة رحمه الله ولا يجوز أن يكرر النظر اليها لقوله تعالى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ولقوله عليه السلام ياعلى

عدم سبق ذكر الحق ولان المعتبر في مفهوم النور هو الظهور والاظهار كما هو شان القرآن الكريم وأما الحق فالمعتبر في مفهومه من حيث هو حق هو الظهور لا الاظهار والمراد بالمثل الصفة العجيبة أى صفة نوره العجيبة (كمشكاة) أى كصفة كوة غير نافذة في الجدار في الانارة والتنوير (فيها مصباح) سراج ضخم ثاقب وقيل المشكاة الانبوبة في وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة (المصباح في زجاجة) أى قنديل من الزجاج الصافي الازهر وقرئ بفتح الزاى وكسرها في الموضعين (الزجاجة كأنها كوكب درى) متلألئ وقاد شبيه بالدر في صفائه وزهرته ودرارى الكواكب عظامها المشهورة وقرئ درئ بدال مكسورة وراء مشددة وياء ممدودة بعدها همزة على أنه فعيل من الدرء وهو الدفع أى مبالغ في دفع الظلام بضوئه أو في دفع بعض أجزاء ضيائه لبعض عند البريق واللمعان وقرئ بضم الدال والباقى على حاله وفي اعادة المصباح والزجاجة معرفين اثر سبقهما منكرين والاخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بان يقال كمشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنها كوكب درى من تفخيم شانهما ورفع مكانهما بالتفسير اثر الابهام والتفصيل

لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الآخرة وعن جابر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فامرني ان اصرف بصري ولان الغالب ان الاحتراز عن الاولى لا يمكن فوقع عفوا قصد أو لم يقصد (اما القسم الثاني) وهو أن يكون فيه غرض ولا فتنة فيه فذاك أمور (أحدها) بأن يريد نكاح امرأة فينظر الى وجهها وكفيها روى أبو هريرة رضي الله عنه ان رجلا أراد ان يتزوج امرأة من الانصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر اليها فان في أعين الانصار شيئا وقال عليه الصلاة والسلام اذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها اذا كان انما ينظر اليها للخطبة وقال المغيرة بن شعبة خطبت امرأة فقال عليه السلام نظرت اليها فقلت لا قال فانظر فانه أحرى أن يدوم بينكما فكل ذلك يدل على جواز النظر الى وجهها وكفيها للشهوة اذا أراد أن يتزوجها ويدل عليه أيضا قوله تعالى لا تحل لك النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ولا يعجبه حسنهن الا بعد رؤية وجوههن (وثانيها) اذا أراد شراء جارية فله أن ينظر الى ما ليس بعورة منها (وثالثها) انه عند المبايعة ينظر الى وجهها متاملا حتى يعرفها عند الحاجة اليه (ورابعها) ينظر اليها عند تحمل الشهادة ولا ينظر الى غير الوجه لان المعرفة تحصل به (أما القسم الثالث) وهو أن ينظر اليها للشهوة فذاك محظور قال عليه الصلاة والسلام العينان تزنيان وعن جابر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجاءة فأمرني ان أصرف بصري وقيل مكتوب في التوراة النظرة تزرع في القلب الشهوة ورب شهوة أورثت حزنا طويلا (اما الكلام الثاني) وهو انه لا يجوز للاجنبي النظر الى بدن الاجنبية فقد استثنوا منه صورا (احداها) يجوز للطبيب الامين ان ينظر اليها للمعالجة كما يجوز للختان ان ينظر الى فرج المختون لانه موضع ضرورة (وثانيتها) يجوز أن يتعمد النظر الى فرج الزانيين لتحمل الشهادة على الزنا وكذلك ينظر الى فرجها لتحمل شهادة الولادة والى ثدي المرضعة لتحمل الشهادة على الرضاع وقال أبو سعيد الاصطخري لا يجوز للرجل أن يقصد النظر في هذه المواضع لان الزنا مندوب الى ستره وفي الولادة والرضاع تقبل شهادة النساء فلا حاجة الى نظر الرجال للشهادة (وثالثتها) لو وقعت في غرق أو حرق فله أن ينظر الى بدنها ليخلصها أما اذا كانت الاجنبية أمة فقال بعضهم عورتها ما بين السرة والركبة وقال آخرون عورتها ما لا يبين للمهنة فخرج منه ان رأسها وساعديها وساقيها ونحرها وصدرها ليس بعورة في ظهرها وبطنها وما فوق ساعديها الخلاف المذكور ولا يجوز لمسها ولا لها لمسه بحال لا لحجامة ولا اكتحال ولا غيره لان اللمس أقوى من النظر بدليل ان الانزال باللمس يفطر الصائم وبالنظر لا يفطره وقال أبو حنيفة رحمه الله يجوز أن يمس من الامة ما يحل النظر اليه اما ان كانت المرأة ذات محرم له بنسب أو رضاع أو صهرية فعورتها معه ما بين السرة والركبة كعورة الرجل وقال آخرون بل عورتها ما لا يبدو عند المهنة وهو قول أبي حنيفة رحمه الله فأما

سائر

بعد الاجمال وباثبات ما بعدهما لهما بطريق الاخبار المنبئ عن القصد الاصلي دون الوصف المبني على الاشارة الى الثبوت في الجملة ما لا يخفى ومحل الجملة الاولى الرفع على أنها صفة لمصباح ومحل الثانية الجر على أنها صفة لزجاجة واللام مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنها كوكب دري (توقد من شجرة) أي يبتدأ ايقاد المصباح من شجرة (مباركة) أي كثيرة المنافع بان رويت ذبالته بزيتها وقيل انما وصفت بالبركة لانها تنبت في الارض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين (زيتونة) بدل من شجرة وفي ابهامها ووصفها بالبركة ثم الابدال منها تفخيم لشانها وقرئ توقد بالتاء على أن الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح وقرئ توقد على صيغة الماضي من التفعل أي ابتداء ثقوب المصباح منها وقرئ توقد بحذف احدى التاءين من تتوقد على اسناده الى الزجاجة (لا شرقية ولا غربية) تقع الشمس عليها حينا دون حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتي على قلة أو صحراء واسعة فتقع الشمس عليها حالتي الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد

سائر التفاصيل فستاتي ان شاء الله تعالى في تفسير الآية اما اذا كانت المرأة مستمتعة كالزوجة والامة التي يحل له الاستمتاع بها فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنها حتى الى فرجها غير انه يكره أن ينظر الى الفرج وكذا الى فرج نفسه لانه يروى أنه يورث الطمس وقيل لا يجوز النظر الى فرجها ولا فرق بين أن تكون الامة قنة أو مدبرة أو أم ولد أو مرهونة فان كانت مجوسية أو مرتدة أو وثنية أو مشتركة بينه وبين غيره أو متزوجة أو مكاتبة فهي كالاجنبية روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا زوج أحدكم جاريته عبده أو أجيره فلا ينظر الى ما دون السرة وفوق الركبة وأما عورة الرجل مع المرأة فنظران كان أجنبيا منها فعورته معها ما بين السرة والركبة وقيل جميع بدنه الا الوجه والكفين كهي معه والاول أصح بخلاف المرأة في حق الرجل لان بدن المرأة في ذاته عورة بدليل انه لا تصح صلاتها مكشوفة البدن وبدن الرجل بخلافه ولا يجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة ولا تكرير النظر الى وجهه لما روي عن أم سلمة انها كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وميمونة اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليها فقال عليه الصلاة والسلام احتجبا منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا فقال عليه الصلاة والسلام أفعميا وان انتما ألستما تبصرانه وان كان محرما لها فعورته معها ما بين السرة والركبة وان كان زوجها أو سيدها الذي يحل له وطؤها فلها أن تنظر الى جميع بدنه غير أنه يكره النظر الى الفرج كهو معها ولا يجوز للرجل أن يجلس عاريا في بيت خال وله ما يستر عورته لانه روي انه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال الله أحق أن يستحيى منه وروي انه عليه الصلاة والسلام قال اياكم والتعري فان معكم من لا يفارقكم الا عند الغائط وحين يفضي الرجل الى أهله والله أعلم (المسئلة الثالثة) سئل الشبلي عن قوله يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤوس عن المحرمات وأبصار القلوب عما سوى الله تعالى وأما قوله تعالى ويحفظوا فروجهم فالمراد به عما لا يحل وعن أبي العالية انه قال كل ما في القرآن من قوله يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن من الزنا الا التي في النور يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن أن لا ينظر اليها أحد وهذا ضعيف لانه تخصيص من غير دلالة والذي يقتضيه الظاهر أن يكون المعنى حفظها عن سائر ما حرم الله عليه من الزنا والمس والنظر وعلى انه ان كان المراد حظر النظر فالمس والوطء أيضا مرادان بالآية اذ هما أغلظ من النظر فلو نص الله تعالى على النظر لكان في مفهوم الخطاب ما يوجب حظر الوطء والمس كما ان قوله تعالى ولا تقل لهما أف اقتضى حظر ما فوق ذلك من السب والضرب أما قوله تعالى ذلك أزكى لهم أي تمسكهم بذلك أزكى لهم وأطهر لانه من باب ما يزكون به ويستحقون الثناء والمدح ويمكن أن يقال انه تعالى خص في الخطاب المؤمنين لما أراده من تزكيتهم بذلك ولا يليق ذلك بالكافر أما قوله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن فالقول فيه على ما تقدم فان قيل فلم قدم غض الابصار على حفظ الفروج قلنا لان

ابن جبير وقتادة وقال الفراء والزجاج لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها لكنها شرقية وغربية أي تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية وغربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها اضوأ وقيل لا نابتة في شرق المعمورة ولا في غربها بل في وسطها وهو الشام فان زيتها أجود ما يكون وقيل لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائما فتحرقها ولا في مقنأة تغيب عنها دائما فتتركها نيا وفي الحديث لا خير في شجرة ولا في نبات في مقنأة ولا خير فيهما في مضحى (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) أي هو في الصفاء والانارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مساس نار أصلا وكلمة لو في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هي لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له اجمالا بادخالها على أبعدها منه اما لوجود المانع كما في قوله تعالى أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة واما لعدم الشرط كما في هذه الآية الكريمة

النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشدّ وأكثر ولا يكاد يقدر على الاحتراس
منه أما قوله تعالى ولا يبدين زينتهنّ الا ما ظهر منها فمن الاحكام التى تختص بها النساء فى
الاغلب وانما قلنا فى الاغلب لانه محرّم على الرجل أن يبدى زينته حليا ولباسا الى غير ذلك
للنساء الاجنبيات لما فيه من الفتنة وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المراد
بزينتهنّ واعلم انّ الزينة اسم يقع على محاسن الخلق التى خلقها الله تعالى وعلى سائر ما يتزين
به الانسان من فضل لباس أو حلى وغير ذلك وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة على الخلقة
لانه لا يكاد يقال فى الخلقة انها من زينتها وانما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل وخضاب
وغيره والاقرب انّ الخلقة داخلة فى الزينة ويدل عليه وجهان (الاوّل) انّ الكثير من
النساء ينفردن بخلقتهنّ عن سائر ما يعدّ زينة فاذا حملناه على الخلقة وفينا العموم حقه
ولا يمنع دخول ما عدا الخلقة فيه أيضا (الثانى) انّ قوله وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ
يدل على انّ المراد بالزينة ما يعم الخلقة وغيرها فكأنه تعالى منعهنّ من اظهار محاسن
خلقتهنّ بأن أوجب سترها بالخمار وأما الذين قالوا الزينة عبارة عما سوى الخلقة فقد
حصروه فى أمور ثلاثة (أحدها) الاصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة فى حاجبيها والغمرة
فى خديها والحناء فى كفيها وقدميها (وثانيها) الحلى كالخاتم والسوار والخلخال والدملج
والقلادة والاكليل والوشاح والقرط (وثالثها) الثياب قال الله تعالى خذوا زينتكم عند
كل مسجد وأراد الثياب (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد من قوله الا ما ظهر منها
اما الذين حملوا الزينة على الخلقة فقال القفال معنى الآية الا ما يظهره الانسان فى العادة
الجارية وذلك فى النساء الوجه والكفان وفى الرجل الاطراف من الوجه واليدين
والرجلين فامروا بستر ما لا تؤدى الضرورة الى كشفه ورخص لهم فى كشف ما اعتيد
كشفه وأدت الضرورة الى اظهاره اذ كانت شرائع الاسلام حنيفية سهلة سمحة ولما
كان ظهور الوجه والكفين كالضرورى لاجرم اتفقوا على انهما ليسا بعورة أما القدم
فليس ظهوره بضرورى فلا جرم اختلفوا فى انه هل هو من العورة أم لا فيه وجهان الاصح
انه عورة كظهر القدم وفى صوتها وجهان أصحهما انه ليس بعورة لانّ نساء النبى صلى الله
عليه وسلم كنّ يروين الاخبار للرجال وأما الذين حملوا الزينة على ما عدا الخلقة قالوا انه
سبحانه انما ذكر الزينة لانه لا خلاف انه يحل النظر اليها حال ما لم تكن متصلة باعضاء المرأة
فلما حرم الله سبحانه النظر اليها حال اتصالها ببدن المرأة كان ذلك مبالغة فى حرمة النظر
الى أعضاء المرأة وعلى هذا القول يحل النظر الى زينة وجهها من الوشمة والغمرة وزينة
بدنها من الخضاب والخواتيم وكذا الثياب والسبب فى تجويز النظر اليها انّ سترها فيه
حرج لانّ المرأة لا بدّ لها من مناولة الاشياء بيديها والحاجة الى كشف وجهها فى الشهادة
والمحاكمة والنكاح (المسئلة الثالثة) اتفقوا على تخصيص قوله ولا يبدين زينتهنّ
الا ما ظهر منها بالحرائر دون الاماء والمعنى فيه ظاهر وهو انّ الامة مال فلا بدّ من الاحتياط

لتظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الاحوال بطريق الاولوية لما أن الشئ متى تحقق مع ما ينافيه من وجود المانع أوعدم الشرط فلأن يتحقق بدون ذلك أولى ولذلك لا يذكر معه شئ آخر من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعدّدها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على سبيل الاجمال وهذا أمر مطرد فى الخبر الموجب والمنفى فانك اذا قلت فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا أو بخيلا لا يعطى ولو كان غنيا تريد بيان تحقق الاعطاء فى الاوّل وعدم تحققه فى الثانى فى جميع الاحوال المفروضة والتقدير يعطى لو لم يكن فقيرا ولو كان فقيرا ولا يعطى لو لم يكن غنيا ولو كان غنيا فالجملة مع ما عطفت هى عليه فى حيز النصب على الحالية من المستكن فى الفعل الموجب أو المنفى أى يعطى أو لا يعطى كائنا على جميع الاحوال وتقدير الآية الكريمة يكاد زيتها يضئ لو مسته نار ولو لم تمسسه نار أى يضئ كائنا على كل حال من وجود الشرط وعدمه وقد حذفت الجملة الاولى حسبما هو المطرد فى الباب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة (نور) خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى (على نور) متعلق

فى بيعها وشرائها وذلك لا يمكن الا بالنظر اليها على الاستقصاء بخلاف الحرّة أما قوله تعالى
وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ فالخمر واحدها خمار وهى المقانع قال المفسرون ان نساء
الجاهلية كنّ يشددن خمرهنّ من خلفهنّ وان جيوبهنّ كانت من قدام فكان
ينكشف نحورهنّ وقلائدهنّ فامرن أن يضربن مقانعهنّ على الجيوب ليتغطى بذلك
أعناقهنّ ونحورهنّ وما يحيط به من شعر وزينة من الحلى فى الاذن والنحر وموضع العقدة
منها وفى لفظ الضرب مبالغة فى الالقاء والباء للالصاق وعن عائشة رضى الله عنها ما رأيت
خيرا من نساء الانصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهنّ الى مرطها فصدعت
منه صدعة فاختمرت فاصبحن على رؤسهنّ الغربان وقرئ جيوبهنّ بكسر الجيم لاجل الياء
وكذلك بيوتا غير بيوتكم فاما قوله تعالى ولا يبدين زينتهنّ فاعلم انه سبحانه لما تكلم فى
مطلق الزينة تكلم بعد ذلك فى الزينة الخفية التى نهاهنّ عن ابدائها للاجانب وبين انّ
هذه الزينة الخفية يجب اخفاؤها عن الكل ثم استثنى اثنتى عشرة صورة (أحدها)
أزواجهنّ (وثانيها) آباؤهنّ وان علون من جهة الذكران والاناث كآباء الآباء وآباء
الامهات (وثالثها) آباء أزواجهنّ (ورابعها وخامسها) أبناؤهنّ وأبناء بعولتهنّ ويدخل
فيه أولاد الاولاد وان سفلوا من الذكران والاناث كبنى البنين وبنى البنات (وسادسها)
اخوانهنّ سواء كانوا من الاب أو من الام أو منهما (وسابعها) بنو اخوانهنّ (وثامنها) بنو
أخواتهنّ وهؤلاء كلهم محارم وههنا سؤالات (السؤال الاوّل) أفيحل لذوى المحرم
فى المملوكة والكافرة ما لا يحل له فى المؤمنة (الجواب) اذا ملك المرأة وهى من محارمه فله
أن ينظر منها الى بطنها وظهرها لا على وجه الشهوة بل لامر يرجع الى مزية الملك على
اختلاف بين الناس فى ذلك (السؤال الثانى) كيف القول فى العم والخال (الجواب) القول
الظاهر انهما كسائر المحارم فى جواز النظر وهو قول الحسن البصرى قال لانّ الآية
لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب وقال فى سورة الاحزاب لا جناح عليهنّ فى آبائهنّ الآية
ولم يذكر فيها البعولة ولا ابناءهم وقد ذكروا ههنا وقد يذكر البعض لينبه على الجملة قال
الشعبى انما لم يذكرهما الله لئلا يصفهما العم عند ابنه والخال كذلك ومعناه انّ سائر
القرابات تشارك الاب والابن فى المحرمية الا العم والخال وابناءهما فاذا رآها الاب فربما
وصفها لابنه وليس بمحرم فيقرب تصوّره لها بالوصف من نظره اليها وهذا أيضا من الدلالات
البليغة على وجوب الاحتياط عليهنّ فى التستر (السؤال الثالث) ما السبب فى اباحة نظر
هؤلاء الى زينة المرأة (الجواب) لانهم مخصوصون بالحاجة الى مداخلتهنّ ومخالطتهنّ
ولقلة توقع الفتنة بجهاتهنّ ولما فى الطباع من النفرة عن مجالسة الغرائب وتحتاج المرأة
الى صحبتهم فى الاسفار للنزول والركوب (وتاسعها) قوله تعالى أو نسائهنّ وفيه قولان
(أحدهما) المراد والنساء اللاتى هنّ على دينهنّ وهذا قول أكثر السلف قال ابن عباس
رضى الله عنهما ليس للمسلمة أن تتجرّد بين نساء أهل الذمة ولا تبدى للكافرة الا ما تبدى

بمحذوف هو صفة له مؤكدة لما افاده التنكير من الفخامة والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بما حصل منه وتمهيد لما يعقبه أى ذلك النور الذى عبر به عن القرآن ومثلت صفته العجيبة الشان بما فصل من صفة المشكاة نور عظيم كائن على نور كذلك لا على أنه عبارة عن نور واحد معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ولا عن مجموع نورين اثنين فقط بل عن نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة فان المصباح اذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه الى أصل الشعاع بخلاف المكان المتسع فان الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل اعون شئ على زيادة الانارة وكذلك الزيت وصفاؤه وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها اشراقا ويمده باضاءة مرتبة اخرى عادة هذا وجعل النور عبارة عن النور المشبه به مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل (يهدى الله لنوره) أى يهدى هداية خاصة موصلة الى المطلوب حتما لذلك النور المتضاعف العظيم الشان واظهاره فى مقام الاضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية الناشئة

للاجانب الا أن تكون أمة لها لقوله تعالى أوماملكت أيمانهن وكتب عمر الى أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب من دخول الحمام مع المؤمنات (وتاسعها) المراد بنسائهن جميع النساء وهذا هو المذهب وقول السلف محمول على الاستحباب والاولى (وعاشرها) قوله تعالى أوماملكت أيمانهن وظاهر الكلام يشمل العبيد والاماء واختلفوا فمنهم من أجرى الآية على ظاهرها وزعم انه لا باس عليهن في أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن مايظهرن لذوي محارمهن وهو مروي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما واحتجوا بهذه الآية وهو ظاهر وبما روى أنس انه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مابها قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن مجاهد كان أمهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهن مابقي عليه درهم وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت لذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر وروى ان عائشة رضي الله عنها كانت تمتشط والعبد ينظر اليها وقال ابن مسعود ومجاهد والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم ان العبد لا ينظر الى شعر مولاته وهو قول أبي حنيفة رحمه الله واحتجوا عليه بأمور (أحدها) قوله عليه الصلاة والسلام لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث الا مع ذي محرم والعبد ليس بذي محرم منها فلا يجوز أن يسافر بها واذا لم يجز له السفر بها لم يجز له النظر الى شعرها كالحر الاجنبي (وثانيها) ان ملكها للعبد لا يحلل ما يحرم عليه قبل الملك اذ ملك النساء للرجال ليس كملك الرجال للنساء فانهم لم يختلفوا في انها لا تستبيح بملك العبد منه شيأ من التمتع كما يملكه الرجل من الامة (وثالثها) ان العبد وان لم يجز له أن يتزوج بمولاته الا أن ذلك التحريم عارض كمن عنده أربع نسوة فانه لا يجوز له التزوج بغيرهن فلما لم تكن هذه الحرمة مؤبدة كان العبد بمنزلة سائر الاجانب اذا ثبت هذا ظهر ان المراد من قوله أوماملكت أيمانهن الاماء فان قيل الاماء دخلن في قوله نسائهن فأي فائدة في الاعادة قلنا الظاهر انه عنى بنسائهن وماملكت أيمانهن من في صحبتهن من الحرائر والاماء وبيانه انه سبحانه ذكر أولا أحوال الرجال بقوله ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن الى آخر ماذكر فجاز أن يظن ظان ان الرجال مخصوصون بذلك اذ كانوا ذوي المحارم أو غير ذات المحارم ثم عطف على ذلك الاماء بقوله أوماملكت أيمانهن لئلا يظن ان الاباحة مقصورة على الحرائر من النساء اذ كان ظاهر قوله أو نسائهن يقتضي الحرائر دون الاماء كقوله شهيدين من رجالكم على الاحرار لاضافتهم الينا كذلك قوله أو نسائهن على الحرائر ثم عطف عليهن الاماء فأباح لهن مثل ما أباح في الحرائر (وحادي عشرها) قوله تعالى أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قيل هم الذين يتبعونكم لينالوا من فضل طعامكم ولا حاجة بهم الى النساء لانهم بله لا يعرفون من أمرهن شيأ أو شيوخ صلحاء اذا كانوا معهن غضوا

ابصارهم

من اضافته الى ضميره عز وجل (من يشاء) هدايته من عباده بان يوفقهم لفهم مافيه من دلائل حقيته وكونه من عند الله تعالى من الاعجاز والاخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الايمان به وفيه ايذان بان مناط هذه الهداية وملاكها ليس الا مشيئته تعالى وأن تظاهر الاسباب بدونها بمعزل من الافضاء الى المطالب (ويضرب الله الامثال للناس) في تضاعيف الهداية حسبما يقتضي حالهم فان له دخلا عظيما في باب الارشاد لانه ابراز للمعقول في هيئة المحسوس وتصوير لاوابد المعاني بصورة المأنوس ولذلك مثل نوره المعبر به عن القرآن المبين بنور المشكاة واظهار الاسم الجليل في مقام الاضمار للايذان باختلاف حال ما أسند اليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الامثال الذي هو من قبيل الهداية العامة كما يفصح عنه تعليق الاولى بمن يشاء والثانية بالناس كافة (والله بكل شيء عليم) معقولا كان أو محسوسا ظاهرا كان أو باطنا ومن قضيته أن تتعلق مشيئته بهداية من يليق بها ويستحقها من الناس دون من عداهم لمخالفته الحكمة التي عليها مبنى التكوين والتشريع وأن تكون هدايته العامة على فنون مختلفة وطرائق شتى حسبما تقتضيه

أبصارهم ومعلوم ان الخصي والعنين ومن شاكلهما قد لا يكون له اربة في نفس الجماع ويكون له اربة قوية فيما عداه من التمتع وذلك يمنع من أن يكون هو المراد فيجب أن يحمل المراد على من المعلوم منه انه لا اربة له في سائر وجوه التمتع اما لفقد الشهوة واما لفقد المعرفة واما للفقر والمسكنة فعلى هذه الوجوه الثلاثة اختلف العلماء فقال بعضهم هم الفقراء الذين بهم الفاقة وقال بعضهم المعتوه والابله والصبي وقال بعضهم الشيخ وسائر من لا شهوة له ولا يمتنع دخول الكل في ذلك وروى هشام بن عروة عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها مخنث فاقبل على أخي أم سلمة فقال ياعبد الله ان فتح الله لكم غدا الطائف دللتك على بنت غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال عليه الصلاة والسلام لا يدخلن عليكم هذا فأباح النبي عليه الصلاة والسلام دخول المخنث عليهن حتى ظن انه من غير أولي الاربة فلما علم انه يعرف أحوال النساء وأوصافهن علم انه من أولي الاربة فحجبه وفي الخصي والمجبوب ثلاثة أوجه (أحدها) استباحة الزينة الباطنة معهما (والثاني) تحريمها عليهما (والثالثة) تحريمها على الخصي دون المجبوب (المسئلة الثانية) الاربة الفعلة من الارب كالمشية والجلسة من المشي والجلوس والارب الحاجة والولوع بالشيء والشهوة له والاربة الحاجة في النساء والاربة العقل ومنه الاريب (المسئلة الثالثة) في غير قراءتان قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر غير بالنصب على الاستثناء أو الحال بمعنى أو التابعين عاجزين عنهن والقراءة الثانية بالخفض على الوصفية (وثاني عشرها) قوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الطفل اسم للواحد لكنه وضع ههنا موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبين مابعده انه يراد به الجمع ونظيره قوله تعالى ثم نخرجكم طفلا (المسئلة الثانية) الظهور على الشيء على وجهين (الاول) العلم به كقوله تعالى انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أي ان يشعروا بكم (والثاني) الغلبة له والصولة عليه كقوله فأصبحوا ظاهرين فعلى الوجه الاول يكون المعنى أو الطفل الذين لم يتصوروا عورات النساء ولم يدروا ماهي من الصغر وهو قول ابن قتيبة وعلى الثاني الذين لم يبلغوا ان يطيقوا اتيان النساء وهو قول الفراء والزجاج (المسئلة الثالثة) ان الصغير الذي لم يتنبه لصغره على عورات النساء فلا عورة للنساء معه وان تنبه لصغره ولمراهقته لزم أن تستر عنه المرأة مابين سرتها وركبتها وفي لزوم ستر ما سواه وجهان (أحدهما) لا يلزم لان القلم غير جار عليه (والثاني) يلزم كالرجل لانه يشتهي والمرأة قد تشتهيه وهو معنى قوله أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء واسم الطفل شامل له الى ان يحتلم واما الشيخ ان بقيت له شهوة فهو كالشاب وان لم يبق له شهوة ففيه وجهان (أحدهما) ان الزينة الباطنة معه مباحة والعورة معه مابين السرة والركبة (والثاني) ان جميع البدن معه عورة الا الزينة الظاهرة وههنا آخر الصور التي استثناها الله تعالى قال الحسن هؤلاء وان اشتركوا

أحوالهم والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله واظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة والاشعار بعلة الحكم وبما ذكر من اختلاف حال المحكوم به ذاتا وتعلقا (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) لما ذكر شان القرآن الكريم في بيانه للشرائع والاحكام ومباديها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالها وأشير الى كونه في غاية مايكون من التوضيح والاظهار حيث مثل بما فصل من نور المشكاة وأشير الى أن ذلك النور مع كونه في أقصى مراتب الظهور انما يهتدي بهداه من تعلقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون من عداه عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم في الاهتداء وعدمه والمراد بالبيوت المساجد كلها حسبما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل هي المساجد التي بناها نبي من أنبياء الله تعالى الكعبة التي بناها ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وبيت المقدس الذي بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قبا اللذان بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنكيرها للتفخيم والمراد بالاذن في رفعها الامر ببنائها رفيعة لا كسائر البيوت وقيل هو الامر برفع

فى جواز رؤية الزينة الباطنة فهم على اقسام ثلاثة فأولهم الزوج وله حرمة ليست لغيره يحل له كل شئ منها والحرمة الثانية للابن والاب والاخ والجد وابى الزوج وكل ذى محرم والرضاع كالنسب يحل لهم ان ينظروا الى الشعر والصدر والساقين والذراع واشباه ذلك والحرمة الثالثة هى للتابعين غير اولى الاربة من الرجال وكذا مملوك المرأة فلا بأس أن تقوم المرأة الشابة بين يدى هؤلاء فى درع وخمار صفيق بغير ملحفة ولا يحل لهؤلاء أن يروا منها شعرا ولا بشرا والستر فى هذا كله أفضل ولا يحل للشابة أن تقوم بين يدى الغريب حتى تلبس الجلباب فهذا ضبط هؤلاء المراتب أما قوله تعالى ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فقال ابن عباس وقتادة كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها ومعلوم ان الرجل الذى يغلب عليه شهوة النساء اذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة فى مشاهدتهن وقد علل تعالى ذلك بأن قال ليعلم ما يخفين من زينتهن فنبه به على أن الذى لاجله نهى عنه أن يعلم زينتهن من الحلى وغيره وفى الآية فوائد (الفائدة الاولى) لما نهى عن استماع الصوت الدال على وجود الزينة فلان يدل على المنع من اظهار الزينة أولى (الثانية) انّ المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الاجانب اذ كان صوتها اقرب الى الفتنة من صوت خلخالها ولذلك كرهوا اذان النساء لانه يحتاج فيه الى رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك (الثالثة) تدل الآية على حظر النظر الى وجهها بشهوة اذ كان ذلك أقرب الى الفتنة أما قوله سبحانه وتعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى التوبة وجهان (أحدهما) انّ تكاليف الله تعالى فى كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا ينفك من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعا بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح اذا تابوا واستغفروا (والثانى) قال ابن عباس رضى الله عنهما توبوا مما كنتم تفعلونه فى الجاهلية لعلكم تسعدون فى الدنيا والآخرة فان قيل قد صحت التوبة بالاسلام والاسلام يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة قلنا قال بعض العلماء انّ من أذنب ذنبا ثم تاب عنه لزمه كلما ذكره أن يجدد عنه التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه الى أن يلقى ربه (المسئلة الثانية) قرئ أيه المؤمنون بضم الهاء ووجهه انها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والله أعلم (المسئلة الثالثة) تفسير لعل قد تقدم فى سورة البقرة فى قوله اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون والله أعلم (الحكم الثامن) ما يتعلق بالنكاح ﴿ قوله تعالى

(وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) اعلم انه تعالى لما أمر من قبل بغض الابصار وحفظ الفروج بين من بعد انّ الذى أمر به انما هو فيما لا يحل فبين تعالى بعد ذلك طريق الحل فقال وأنكحوا الايامى منكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الايامى واليتامى

مقدارها بعبادة الله تعالى فيها فيكون عطف الذكر عليه من قبيل العطف التفسيرى وأيا ما كان ففى التعبير عنه بالاذن تلويح بأنّ اللائق بحال المأمور أن يكون متوجها الى المأمور به قبل ورود الامر به ناويا بالحقيقة كانه مستأذن فى ذلك فيقع الامر به موقع الاذن فيه والمراد بذكر اسمه تعالى ما يعم جميع أذكاره تعالى وكلمة فى متعلقة بقوله تعالى (يسبح له) وقوله تعالى (فيها) تكرير لها للتأكيد والتذكير لما بينهما من الفاصلة وللايذان بأنّ التقديم للاهتمام لا لقصر التسبيح على الوقوع فى البيوت فقط وأصل التسبيح التنزيه والتقديس يستعمل باللام وبدونها ايضا كما فى قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى قالوا أريد به الصلوات المفروضة كما ينبئ عنه تعيين الاوقات بقوله تعالى (بالغدو والآصال) أى بالغدوات والعشايا على أن الغدو اما جمع غداة كقنى فى جمع قناة كما قيل أو مصدر أطلق على الوقت حسبما يشعر به اقترانه بالآصال وهو جمع اصيل وهو العشى وهو شامل لاوقات ما عدا صلاة الفجر المؤداة بالغداة ويجوز أن يراد به نفس التنزيه على أنه عبارة عما يقع منه فى اثناء الصلوات وأوقاتها لزيادة شرفه وانافته على سائر أفراده اوعما يقع فى جميع الاوقات

أصلهما ايايم ويتايم فقلبا وقال النضر بن شميل الايم فى كلام العرب كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية الضحاك تقول زوجوا أياما كم بعضكم من بعض وقال الشاعر

فان تنكحى انكح وان تتأيمى • وان كنت افتى منكمو أتأيم

(المسئلة الثانية) قوله تعالى وأنكحوا الايامى أمر وظاهر الامر للوجوب على ما بيناه مرارا فيدل على انّ الولى يجب عليه تزويج موليته واذا ثبت هذا وجب أن لا يجوز النكاح الا بولى امالانّ كل من أوجب ذلك على الولى حكم بانه لا يصح من المولية واما لانّ المولية لو فعلت ذلك لفوتت على الولى التمكن من أداء هذا الواجب وانه غير جائز واما لتطابق هذه الآية مع الحديث وهو قوله عليه الصلاة والسلام اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة فى الارض وفساد كبير قال أبو بكر الرازى هذه الآية وان اقتضت بظاهرها الايجاب الا انه أجمع السلف على انه لم يرد به الايجاب ويدل عليه أمور (أحدها) انه لو كان ذلك واجبا لورد النقل بفعله من النبى صلى الله عليه وسلم ومن السلف مستفيضا شائعا لعموم الحاجة اليه فلما وجدنا عصر النبى صلى الله عليه وسلم وسائر الاعصار بعده قد كان فى الناس أيامى من الرجال والنساء فلم ينكروا عدم تزويجهن ثبت انه ما أريد به الايجاب (وثانيها) أجمعنا على انّ الايم الثيب لو أبت التزوج لم يكن للولى اجبارها عليه (وثالثها) اتفاق الكل على انه لا يجبر على تزويج عبده وأمته وهو معطوف على الايامى فدل على انه غير واجب فى الجميع بل ندب فى الجميع (ورابعها) انّ اسم الايامى ينتظم فيه الرجال والنساء وهو فى الرجال ما أريد به الاولياء دون غيرهم كذلك فى النساء (والجواب) ان جميع ما ذكرته تخصيصات تطرقت الى الآية والعام بعد التخصيص يبقى حجة فوجب أن يبقى حجة فيما اذا التمست المرأة الايم من الولى التزويج وجب وحينئذ ينتظم وجه الكلام (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله الآية تقتضى جواز تزويج البكر البالغة بدون رضاها لانّ الآية والحديث يدلان على أمر الولى بتزويجها ولولا قيام الدلالة على انه لا يزوج الثيب الكبيرة بغير رضاها لكان جائزا له تزويجها أيضا بغير رضاها لعموم الآية قال أبو بكر الرازى قوله تعالى وأنكحوا الايامى لا يختص بالنساء دون الرجال على ما بينا فلما كان الاسم شاملا للرجال والنساء وقد اضمر فى الرجال تزويجهم باذنهم فوجب استعمال ذلك الضمير فى النساء وأيضا فقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم باستئمار البكر بقوله البكر تستأمر فى نفسها واذنها صماتها وذلك أمر وان كان فى صورة الخبر فثبت انه لا يجوز تزويجها الا باذنها (والجواب) اما الاول فهو تخصيص للنص وهو لا يقدح فى كونه حجة والفرق انّ الايم من الرجال يتولى أمر نفسه فلا يجب على الولى تعهد أمره بخلاف المرأة فانّ احتياجها الى من يصلح أمرها فى التزويج أظهر وأيضا فلفظ الايامى وان تناول الرجال والنساء فاذا أطلق لم يتناول الا النساء وانما يتناول الرجال اذا قيد

وافراد طرفى النهار بالذكر لقيامهما مقام كلها لكونهما العمدة فيها بكونهما مشهودين وكونهما أشهر ما يقع فيه المباشرة للاعمال والاشتغال بالاشغال وقرئ والايصال وهو الدخول فى الاصيل وقوله تعالى (رجال) فاعل يسبح وتأخيره عن الظروف لما مرّ مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ولانّ فى وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام وقرئ يسبح على البناء للمفعول باسناده الى أحد الظروف ورجال مرفوع بما ينبئ عنه حكاية الفعل من غير تسمية الفاعل على طريقة قوله

ليبك يزيد ضارع لخصومة

كأنه قيل من يسبح له فقيل يسبح له رجال وقرئ تسبح بتأنيث الفعل مبنيا للفاعل لان جمع التكسير قد يعامل معاملة المؤنث ومبنيا للمفعول على أن يسند الى أوقات الغدو والآصال بزيادة الباء وتجعل الاوقات مسبحة مع كونها مسبحا فيها أو يسند الى ضمير التسبيحة أى تسبح له التسبيحة على المجاز المسوغ لاسناده الى الوقتين كما خرّجوا قراءة أبى جعفر ليجزى قوما أى ليجزى الجزاء قوما بل هذا أولى من ذلك اذ ليس هنا مفعول صريح (لا تلهيهم تجارة) صفة لرجال مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة مفيدة لكمال تبتلهم

(وأما الثانى) فنفى تخصيص الآية بخبر الواحد كلام مشهور (المسئلة الرابعة) قال أبو حنيفة رحمه الله العم والاخ يليان تزويج البنت الصغيرة ووجه الاستدلال بالآية كما تقدم (المسئلة الخامسة) قال الشافعى رحمه الله الناس فى النكاح قسمان منهم من تتوق نفسه فى النكاح فيستحب له أن ينكح ان وجد أهبة النكاح سواء كان مقبلا على العبادة ولم يكن كذلك ولكن لا يجب أن ينكح وان لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم لما روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء أما الذى لا تتوق نفسه الى النكاح فان كان ذلك لعلة به من كبر أو مرض أو عجز يكره له أن ينكح لانه يلتزم ما لا يمكنه القيام بحقه وكذلك اذا كان لا يقدر على النفقة وان لم يكن به عجز وكان قادرا على القيام بحقه لم يكره له النكاح لكن الافضل أن يتخلى لعبادة الله تعالى وقال أبو حنيفة رحمه الله النكاح أفضل من التخلى للعبادة وحجة الشافعى رحمه الله وجوه (أحدها) قوله تعالى وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين مدح يحيى عليه السلام بكونه حصورا والحصور الذى لا يأتى النساء مع القدرة عليهن ولا يقال هو الذى لا يأتى النساء مع العجز عنهن لان مدح الانسان بما يكون عيبا غير جائز واذا ثبت انه مدح فى حق يحيى وجب أن يكون مشروعا فى حقنا لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ولا يجوز حمل الهدى على الاصول لان التقليد فيها غير جائز فوجب حمله على الفروع (وثانيها) قوله عليه الصلاة والسلام استقيموا ولن تحصوا واعلموا ان أفضل أعمالكم الصلاة وتمسك أيضا بما روى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال أفضل أعمال أمتى قراءة القرآن (وثالثها) ان النكاح مباح لقوله عليه الصلاة والسلام أحب المباحات الى الله تعالى النكاح ويحمل الاحب على الاصلح فى الدنيا لئلا يقع التناقض بين كونه أحب وبين كونه مباحا والمباح ما استوى طرفاه فى الثواب والعقاب والمندوب ما ترجح وجوده على عدمه فتكون العبادة أفضل (ورابعها) ان النكاح ليس بعبادة بدليل انه يصح من الكافر والعبادة لا تصح منه فوجب أن تكون العبادة أفضل منه لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والاشتغال بالمقصود أولى (وخامسها) ان الله تعالى سوى بين التسرى والنكاح ثم التسرى مرجوح بالنسبة الى العبادة ومساوى المرجوح مرجوح فالنكاح مرجوح وانما قلنا انه سوى بين التسرى والنكاح لقوله تعالى فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم وذكر كلمة أو للتخيير بين الشيئين والتخيير بين الشيئين امارة التساوى كقول الطبيب للمريض كل الرمان أو التفاح واذا ثبت الاستواء فالتسرى مرجوح ومساوى المرجوح مرجوح فالنكاح يجب أن يكون مرجوحا (وسادسها) ان النافلة أشق فتكون أكثر ثوابا بيان انها أشق ان ميل الطباع الى النكاح أكثر ولولا ترغيب الشرع لما رغب أحد فى النوافل واذا ثبت انها أشق وجب ان تكون أكثر ثوابا لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل العبادات أحمزها وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة أجرك على

الى الله تعالى واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم كائنا ما كان وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها أى لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة (ولا بيع) أى ولا فرد من أفراد البياعات وان كان فى غاية الربح وافراده بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للايذان باناقته على سائر انواعها لان ربحه متيقن ناجز وربح ماعداه متوقع فى ثانى الحال عند البيع فلم يلزم من نفى الهائه ماعداه نفى الهائه ولذلك كررت كلمة لا لتذكير النفى وتأكيده وقد نقل عن الواقدى ان المراد بالتجارة هو الشراء لانه أصلها ومبدؤها وقيل هو الجلب لانه الغالب فيها ومنه يقال تجر فى كذا أى جلبه (عن ذكر الله) بالتسبيح والتحميد (واقام الصلاة) أى اقامتها لمواقيتها من غير تأخير وقد أسقطت التاء

قدرنصبك (وسابعها) لو كان النكاح مساويا للنوافل فى الثواب مع ان النوافل أشق منه لما كانت النوافل مشروعة لانه اذا حصل طريقان الى تحصيل المقصود وكانا فى الافضاء الى المقصود سيين وكان أحدهما شاقا والآخر سهلا فان العقلاء يستقبحون تحصيل ذلك المقصود بالطريق الشاق مع المكنة من الطريق السهل ولما كانت النوافل مشروعة علمنا أنها أفضل (وثامنها) لو كان الاشتغال بالنكاح أولى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة والزراعة أولى من النافلة بالقياس على النكاح والجامع كون كل واحد منهما سببا لبقاء هذا العالم ومحصلا لنظامه (وتاسعها) أجمعنا على انه يقدم واجب العبادة على واجب النكاح فيقدم مندوبها على مندوبه لاتحاد السبب (وعاشرها) ان النكاح اشتغال بتحصيل اللذات الحسية الداعية الى الدنيا والنافلة قطع العلائق الجسمانية واقبال على الله تعالى فاين أحدهما من الآخر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة فرجح الصلاة على النكاح حجة أبى حنيفة رحمه الله من وجوه (الاول) ان النكاح يتضمن صون النفس عن الزنا فيكون ذلك دفعا للضرر عن النفس والنافلة جلب النفع ودفع الضرر أولى من جلب النفع (الثانى) ان النكاح يتضمن العدل والعدل أفضل من العبادة لقوله عليه الصلاة والسلام لعدل ساعة خير من عبادة ستين سنة (الثالث) النكاح سنة مؤكدة لقوله عليه الصلاة والسلام من رغب عن سنتى فليس منى وقال فى الصلاة وانها خير موضوع فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقلل فوجب أن يكون النكاح أفضل (المسئلة السادسة) قوله تعالى وأنكحوا الايامى وان كانت تتناول جميع الايامى بحسب الظاهر لكنهم أجمعوا على انه لابد فيها من شروط وقد تقدم شرحها فى قوله وأحل لكم ماوراء ذلكم أما قوله تعالى منكم فقد حمله كثير من المفسرين على ان المراد هم الاحرار لينفصل الحر من العبد وقال بعضهم بل المراد بذلك من يكون تحت ولاية المأمور من الولد أو القريب ومنهم من قال الاضافة تفيد الحرية والاسلام أما قوله تعالى والصالحين من عبادكم وامائكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهره انه أيضا أمر للسادة بتزويج هذين الفريقين اذا كانوا صالحين وانه لا فرق بين هذا الامر وبين الامر بتزويج الايامى فى باب الوجوب لكنهم اتفقوا على انه اباحة أو ترغيب فاما أن يكون واجبا فلا وفرقوا بينه وبين تزويج الايامى بأن فى تزويج العبد التزام مؤنة وتعطيل خدمة وذلك ليس بواجب على السيد وفى تزويج الامة استفادة مهر وسقوط نفقة وليس ذلك بلازم على المولى (المسئلة الثانية) انما خص الصالحين بالذكر لوجوه (الاول) ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم (الثانى) لان الصالحين من الارقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم ينزلونهم منزلة الاولاد فى المودة فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك (الثالث) أن يكون المراد الصلاح لامر النكاح حتى

المعوضة عن العين الساقطة بالاعلال وعوض عنها الاضافة كما فى قوله • وأخلفوك عد الامر الذى وعدوا • أى عدة الامر (وايتاء الزكاة) أى المال الذى فرض اخراجه للمستحقين وايراده ههنا وان لم يكن مما يفعل فى البيوت لكونه قرينة لا تفارق اقامة الصلاة فى عامة المواضع مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد وكذلك قوله تعالى (يخافون) الخ فانه صفة ثانية لرجال أو حال من مفعول لا تلهيهم وأيا ما كان فليس خوفهم مقصورا على كونهم فى المساجد وقوله تعالى (يوما) مفعول ليخافون لا ظرف له وقوله تعالى (تتقلب فيه القلوب والابصار) صفة ليوما أى تضطرب وتتغير فى أنفسها من الهول والفزع وتشخص كما فى قوله تعالى واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر أو تتغير أحوالها وتتقلب فتتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها وتبصر الابصار بعد أن كانت عمياء أو تتقلب القلوب بين توقع النجاة وخوف الهلاك والابصار من أى ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم (ليجزيهم الله) متعلق بمحذوف يدل عليه ما حكى من أعمالهم المرضية أى يفعلون ما يفعلون من المداومة على التسبيح والذكر وايتاء الزكاة

يقوم العبد بما يلزم لها وتقوم الامة بما يلزم للزوج (الرابع) أن يكون المراد الصلاح في نفس النكاح بأن لا تكون صغيرة فلا تحتاج الى النكاح (المسئلة الثالثة) ظاهر الآية يدل على ان العبد لا يتزوج بنفسه وانما يجوز أن يتولى المولى تزويجه لكن ثبت بالدليل انه اذا أمره بأن يتزوج جاز أن يتولى تزويج نفسه فيكون توليه باذنه بمنزلة أن يتولى ذلك نفس السيد فأما الاماء فلا شبهة في ان المولى يتولى تزويجهن خصوصا على قول من لا يجوز النكاح الا بولي أما قوله تعالى ان يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الاصح ان هذا ليس وعدا من الله تعالى باغناء من يتزوج بل المعنى لا تنظروا الى فقر من يخطب اليكم أو فقر من تريدون تزويجها ففي فضل الله ما يغنيهم والمال غاد ورائح وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح فهذا معنى صحيح وليس فيه ان الكلام قصد به وعد الغنى حتى لا يجوز أن يقع فيه خلف وروى عن قدماء الصحابة ما يدل على انهم رأوا ذلك وعدا عن أبي بكر قال أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى وعن عمر وابن عباس مثله قال ابن عباس التمسوا الرزق بالنكاح وشكا رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاجة فقال عليك بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا فانه أوسع لكم في رزقكم وأوسع لكم في أخلاقكم ويزيد الله في مروءتكم فان قيل فنحن نرى من كان غنيا فيتزوج فيصير فقيرا قلنا الجواب عنه من وجوه (أحدها) ان هذا الوعد مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم والمطلق محمول على المقيد (وثانيها) ان اللفظ وان كان عاما الا أنه يكون خاصا في بعض المذكورين دون البعض وهو في الايامى الاحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون (وثالثها) أن يكون المراد الغنى بالعفاف فيكون المعنى وقوع الغنى بملك البضع والاستغناء به عن الوقوع في الزنا (المسئلة الثانية) من الناس من استدل بهذه الآية على ان العبد والامة يملكان لان ذلك راجع الى كل من تقدم فتقتضى الآية بيان ان العبد قد يكون فقيرا وقد يكون غنيا فان دل ذلك على الملك ثبت انهما يملكان ولكن المفسرين تأولوه على الاحرار خاصة فكأنهم قالوا هو راجع الى الايامى أما اذا فسرنا الغنى بالعفاف فالاستدلال به على ذلك ساقط أما قوله والله واسع عليم فالمعنى انه سبحانه في الافضال لا ينتهي الى حد تنقطع قدرته على الافضال دونه لانه قادر على المقدورات التي لا نهاية لها وهو مع ذلك عليم بمقادير ما يصلحهم من الافضال والرزق

﴿قوله تعالى (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) اعلم انه سبحانه لما ذكر تزويج الحرائر والاماء ذكر حال من يعجز عن ذلك فقال وليستعفف أي وليجتهد في العفة كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه وأما قوله لا يجدون نكاحا فالمعنى لا يتمكنون من الوصول اليه يقال لا يجد المرء الشئ اذا لم يتمكن منه قال الله تعالى فمن لم يجد فصيام شهرين والمراد به بالاجماع من لم يتمكن ويقال في أحدنا هو غير

واجد .

والخوف من غير صارف لهم عن ذلك ليجزيهم الله تعالى (أحسن ما عملوا) أي أحسن جزاء أعمالهم حسبما وعد لهم بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف (ويزيدهم من فضله) أي يتفضل عليهم بأشياء لم توعد لهم بخصوصياتها أو بمقاديرها ولم تخطر ببالهم كيفياتها ولا كمياتها بل انما وعدت بطريق الاجمال في مثل قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عنه عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وغير ذلك من المواعيد الكريمة التي من جملتها قوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فانه تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب وأما عدم سبق الوعد بالزيادة ولو اجمالا وعدم خطورها ببالهم ولو بوجه ما فيأباه نظمها في سلك الغاية والموصول عبارة عمن ذكرت صفاتهم الجميلة كأنه قيل والله يرزقهم بغير حساب ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما في حيز الصلة على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكية كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره تعالى لا التظاهر

واجد للماء وان كان موجودا اذا لم يمكنه أن يشتريه ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال فبين سبحانه وتعالى ان من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف ولينتظر أن يغنيه الله من فضله ثم يصل الى بغيته من النكاح فان قيل أفليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح قلنا لكن من لم يجد المهر والنفقة فبأن لا يجد ثمن الجارية أولى والله أعلم

(الحكم التاسع) في الكتابة ﴿قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) اعلم انه تعالى لما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والاماء مع الرق رغبهم في أن يكاتبوهم اذا طلبوا ذلك ليصيروا أحرارا فيتصرفوا في أنفسهم كالاحرار فقال والذين يبتغون الكتاب وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله والذين يبتغون مرفوع على الابتداء أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم كقولك زيدا فاضربه ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط (المسئلة الثانية) الكتاب والكتابة كالعتاب والمعاتبة وفي اشتقاق لفظ الكتابة وجوه (أحدها) ان أصل الكلمة من الكتب وهو الضم والجمع ومنه الكتيبة سميت بذلك لانها تضم النجوم بعضها الى بعض وتضم ماله الى ماله (وثانيها) يحتمل أن يكون اللفظ مأخوذا من الكتاب ومعناه كتبت لك على نفسي ان تعتق مني اذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي لي بذلك أو كتبت لي كتابا عليك بالوفاء بالمال وكتبت علي العتق وهذا ما ذكره الازهري (وثالثها) انما سمي بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه لانه لا يجوز أن يقع على مال هو في يد العبد حين يكاتب لان ذلك مال لسيده اكتسبه في حال ما كانت يد السيد غير مقبوضة عن كسبه فلا يجوز لهذا المعنى أن يقع هذا العقد حالا ولكنه يقع مؤجلا ليكون متمكنا من الاكتساب وغيره حين ما انقبضت يد السيد عنه ثم من آداب الشريعة أن يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب فسمي لهذا المعنى هذا العقد كتابا لما يقع فيه من الاجل قال تعالى لكل أجل كتاب (المسئلة الثالثة) قال محيي السنة الكتابة أن يقول لمملوكه كاتبتك على كذا ويسمي مالا معلوما يؤديه في نجمين أو أكثر ويبين عدد النجوم وما يؤدي في كل نجم ويقول اذا أديت ذلك المال فأنت حر أو ينوي ذلك بقلبه ويقول العبد قبلت وفي هذا الضبط ابحاث (البحث الاول) قال الشافعي رحمه الله ان لم يقل بلسانه أو لم ينو بقلبه اذا أديت ذلك المال فأنت حر لم يعتق وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا حاجة الى ذلك حجة أبي حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى فكاتبوهم خال عن هذا الشرط فوجب أن تصح الكتابة بدون هذا الشرط واذا صحت الكتابة وجب أن يعتق بالاداء للاجماع حجة الشافعي رحمه الله أن الكتابة ليست عقد معاوضة محضة لان ما في يد العبد فهو ملك السيد والانسان لا يمكنه بيع ملكه بملكه بل قوله كاتبتك كناية في العتق فلا بد فيه من لفظ العتق أو نيته (البحث الثاني) لا تجوز الكتابة الحالة عند الشافعي وتجوز عند أبي حنيفة وجه قول الشافعي رحمه الله أن العبد

الاسباب وللايذان بأنهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم كما أنهم ممن شاء الله تعالى أن يهديهم لنوره حسبما يعرب عنه ما فصل من أعمالهم الحسنة فان جميع ما ذكر من الذكر والتسبيح واقام الصلاة وايتاء الزكاة وخوف اليوم الآخر وأهواله ورجاء الثواب مقتبس من القرآن العظيم الذي هو المعنى بالنور وبه يتم بيان أحوال من اهتدى بهداه على أوضح وجه وأجلاه هذا وقد قيل قوله تعالى في بيوت الخ من تتمة التمثيل وكلمة في متعلقة بمحذوف هي صفة لمشكاة أي كائنة في بيوت وقيل لمصباح وقيل لزجاجة وقيل متعلقة بيوقد والكل مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل كيف لا وان ما بعد قوله تعالى ولو لم تمسسه نار على ما هو الحق أو ما بعد قوله تعالى نور على نور على ما قيل الى قوله تعالى بكل شئ عليم كلام متعلق بالممثل قطعا فتوسيطه بين أجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالاجنبي يؤدي الى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهتدين لنور القرآن الكريم بطريق الاستتباع والاستطراد مع كون بيان حال أضدادهم مقصودا بالذات ومثل هذا مما لا يعهد به في كلام الناس فضلا أن يحمل عليه الكلام المعجز

لا يتصور له ملك يؤديه في الحال واذا عقد حالا توجهت المطالبة عليه في الحال فاذا عجز عن الاداء لم يحصل مقصود العقد كما لو أسلم في شئ لا يوجد عند المحل لا يصح بخلاف ما لو أسلم الى معسر فانه يجوز لانه حين العقد يتصور أن يكون له ملك في الباطن فالعجز لا يتحقق عن أدائه وجه قول أبي حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى فكاتبوهم مطلق يتناول الكتابة الحالة والمؤجلة وأيضا لما كان مال الكتابة بدلا عن الرقبة كان بمنزلة أثمان السلع المبيعة فيجوز عاجلا وآجلا وأيضا أجمعوا على جواز العتق معلقا على مال حال فوجب أن تكون الكتابة مثله لانه بدل عن العتق في الحالين الا أن في أحدهما العتق معلق على شرط الاداء وفي الآخر معجل فوجب أن لا يختلف حكمهما (البحث الثالث) قال الشافعي رحمه الله لا تجوز الكتابة على أقل من نجمين يروى ذلك عن علي وعثمان وابن عمر روى ان عثمان رضي الله عنه غضب على عبده فقال لاضيقن الامر عليك ولا كاتبنك على نجمين ولو جاز على أقل من ذلك لكاتبه على الاقل لان التضييق فيه أشد وانما شرطنا التنجيم لانه عقد ارفاق ومن شرط الارفاق التنجيم ليتيسر عليهم الاداء وقال أبو حنيفة رحمه الله تجوز الكتابة على نجم واحد لان ظاهر قوله فكاتبوهم ليس فيه تقييد (المسئلة الرابعة) تجوز كتابة المملوك عبدا كان أو أمة ويشترط عند الشافعي رحمه الله أن يكون عاقلا بالغا فاذا كان صبيا أو مجنونا لا تصح كتابته لان الله تعالى قال والذين يبتغون الكتاب ولا يتصور الابتغاء من الصبي والمجنون وعند أبي حنيفة رحمه الله تجوز كتابة الصبي ويقبل عنه المولى (المسئلة الخامسة) يشترط أن يكون المولى مكلفا مطلقا فان كان صبيا أو مجنونا أو محجورا عليه بالسفه لا تصح كتابته كما لا يصح بيعه ولان قوله فكاتبوهم خطاب فلا يتناول غير العاقل وعند أبي حنيفة رحمه الله تصح كتابة الصبي باذن الولي (المسئلة السادسة) اختلف العلماء في ان قوله فكاتبوهم أمر ايجاب أو أمر استحباب فقال قائلون هو أمر ايجاب فيجب على الرجل ان يكاتب مملوكه اذا سأله ذلك بقيمته أو أكثر اذا علم فيه خيرا ولو كان بدون قيمته لم يلزمه وهذا قول عمرو بن دينار وعطاء واليه ذهب داود بن علي ومحمد ابن جرير واحتجوا عليه بالآية والاثر أما الآية فظاهر قوله تعالى فكاتبوهم لانه أمر وهو للايجاب ويدل عليه أيضا سبب نزول الآية فانها نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية فكاتبه على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا وأما الاثر فما روى أن عمر أمر أنسا ان يكاتب سيرين أبا محمد ابن سيرين فأبى فرفع عليه الدرة وضربه وقال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وحلف عليه ليكاتبنه ولو لم يكن ذلك واجبا لكان ضربه بالدرة ظلما وما أنكر على عمر أحد من الصحابة فجرى ذلك مجرى الاجماع وقال أكثر الفقهاء انه أمر استحباب وهو ظاهر قول ابن عباس والحسن والشعبي واليه ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي والثوري واحتجوا عليه بقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب من نفسه وانه لا فرق أن يطلب

(والذين كفروا) عطف على ما ينساق اليه ما قبله كأنه قيل الذين آمنوا أعمالهم حالا ومآلا كما وصف والذين كفروا (أعمالهم) أي أعمالهم التي هي من أبواب البر كصلة الارحام وفك العناة وسقاية الحاج وعمارة البيت واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف ونحو ذلك مما لو قارنه الايمان لاستتبع الثواب كما في قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد الآية (كسراب) وهو ما يرى في الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أي يجري (بقيعة) متعلق بمحذوف هو صفة لسراب أي كائن في قاع وهي الارض المنبسطة المستوية وقيل هي جمع قاع كجيرة جمع جار وقرئ بقيعات بتاء ممدودة كديمات اما على أنها جمع قيعة أو على أن الاصل قيعة قد أشبعت فتحة العين فتولد منها ألف (يحسبه الظمآن ماء) صفة أخرى لسراب وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائنا من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه الذي هو المطلع المطمع والمقطع المؤيس (حتى اذا جاءه) أي اذا جاء العطشان ما حسبه ماء وقيل موضعه (لم يجده)

الكتابة أو بطلب بيعه ممن يعتقه في الكفارة فكما لا يجب ذلك فكذا الكتابة وهذه طريقة المعاوضات أجمع وههنا سؤالان (السؤال الاول) كيف يصح أن يبيع ماله بماله قلنا اذا ورد الشرع به فيجب أن يجوز كما اذا علق عتقه على مال يكتسبه فيؤديه أو يؤدي عنه صار سببا لعتقه (السؤال الثاني) هل يستفيد العبد بعقد الكتابة ما لا يملكه لولا الكتابة قلنا نعم لانه لو دفع اليه الزكاة ولم يكاتب لم يحل له أن يأخذها واذا صار مكاتبا حل له واذا دفع الى مولاه حل له سواء أدى فعتق أو عجز فعاد الى الرق ويستفيد أيضا ان الكتابة تبعثه على الجد والاجتهاد في الكسب فلولاها لم يكن ليفعل ذلك ويستفيد المولى الثواب لانه اذا باعه فلا ثواب واذا كاتبه ففيه ثواب ويستفيد أيضا الولاء لانه لو عتق من قبل غيره لم يكن له ولاء واذا عتق بالكتابة فالولاء له فورد الشرع بجواز الكتابة لما ذكرناه من الفوائد أما قوله تعالى ان علمتم فيهم خيرا فذكروا في الخير وجوها (أحدها) ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان علمتم لهم حرفة فلا تدعوهم كلا على الناس (وثانيها) قال عطاء الخير المال وتلا كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا أي ترك مالا قال وبلغني ذلك عن ابن عباس (وثالثها) عن ابن سيرين قال اذا صلى وقال النخعي وفاء وصدقا وقال الحسن صلاحا في الدين (ورابعها) قال الشافعي رحمه الله المراد بالخير الامانة والقوة على الكسب لان مقصود الكتابة قلما يحصل الا بهما فانه ينبغي أن يكون كسوبا يحصل المال ويكون أمينا يصرفه في نجومه ولا يضيعه فاذا فقد الشرطان أو احدهما لا يستحب أن يكاتبه والاقرب انه لا يجوز حمله على المال لوجهين (الاول) أن المفهوم من كلام الناس اذا قالوا فلان فيه خير انما يريدون به الصلاح في الدين ولو أراد المال لقال ان علمتم لهم خيرا لانه انما يقال لفلان مال ولا يقال فيه مال (الثاني) أن العبد لا مال له بل المال لسيده فالاولى أن يحمل على ما يعود على كتابته بالتمام وهو الذي ذكره الشافعي رحمه الله وهو أن يتمكن من الكسب ويوثق به بحفظ ذلك لان كل ذلك مما يعود على كتابته بالتمام ودخل فيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الخير لانه عليه الصلاة والسلام فسره بالكسب وهو داخل في تفسير الشافعي رحمه الله أما قوله وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في المخاطب بقوله وآتوهم على وجوه (أحدها) انه هو المولى يحط عنه جزأ من مال الكتابة أو يدفع اليه جزأ مما أخذ منه وهؤلاء اختلفوا في قدره فمنهم من جعل الخيار له وقال يجب أن يحط قدرا يقع به الاستغناء وذلك يختلف بكثرة المال وقلته ومنهم من قال يحط ربع المال روى عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن انه كاتب غلاما له فترك له ربع مكاتبته وقال ان عليا كان يأمر بذلك ويقول هو قول الله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم فان لم يفعل فالسبع لما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما انه كاتب عبدا له بخمس وثلاثين ألفا ووضع عنه خمسة آلاف ويروى ان عمر كاتب عبدا له فجاء بنجمه فقال له اذهب فاستعن به على أداء مال الكتابة فقال المكاتب لو تركته الى آخر

أي ما حسبه ماء وعلق به رجاءه (شيئا) أصلا لا محققا ولا متوهما كما كان يراه من قبل فضلا عن وجدانه ماء وبه تم بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل وقوله تعالى (ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شأن الظمآن ويظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلا فليست الجملة معطوفة على لم يجده شيئا بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عينا ولا اثرا كما في قوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا كيف لا وان الحكم بأن أعمال الكفرة كسراب يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا حكم بأنها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعة لهم في الآخرة حتى اذا جاؤها لم يجدوها شيئا كأنه قيل حتى اذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعة لهم في الآخرة لم يجدوها شيئا ووجدوا الله أي حكمه وقضاءه عند المجئ وقيل عند العمل فوفاهم أي أعطاهم وافيا كاملا

نجم فقال انى آخاف ان لا ادرك ذلك ثم قرأ هذه الآية وكان ابن عمر يؤخره الى آخر النجوم مخافة أن يعجز (وثانيها) المراد وآتوهم سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات فى قوله وفى الرقاب وعلى هذا فالخطاب لغير السادة وهو قول الحسن والنخعى ورواية عطاء عن ابن عباس وأجمعوا على انه لا يجوز للسيد أن يدفع صدقته المفروضة الى مكاتب نفسه (وثالثها) ان هذا أمر من الله تعالى للسادة والناس أن يعينوا المكاتب على كتابته بما يمكنهم وهذا قول الكلبى وعكرمة والمقاتلين والنخعى وقال عليه الصلاة والسلام من أعان مكاتبا على فك رقبته أظله الله تعالى فى ظل عرشه وروى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم علمنى عملا يدخلنى الجنة قال لان كنت أقصرت الخطبة لقد أعظمت المسئلة اعتق النسمة وفك الرقبة فقال اليسا واحدا فقال لا عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها قالوا ويؤكد هذا القول وجوه (أحدها) أنه أمر باعطائه من مال الله تعالى وما أطلق عليه هذه الاضافة فهو ما كان سبيله الصدقة وصرفه فى وجوه القرب (وثانيها) أن قوله من مال الله الذى آتاكم هو الذى قد صح ملكه للمالك وأمر باخراج بعضه ومال الكتابة ليس بدين صحيح لانه على عبده والمولى لا يثبت له على عبده دين صحيح (وثالثها) أن ما آتاه الله فهو الذى يحصل فى يده ويمكنه التصرف فيه وما سقط عقيب العقد لم يحصل له عليه يد ملك فلا يستحق الصفة بانه من مال الله الذى آتاه فان قيل ههنا وجهان يقدحان فى صحة هذا التأويل (أحدهما) انه كيف يحل لمولاه اذا كان غنيا أن يأخذ من مال الصدقة (والثانى) ان قوله وآتوهم معطوف على قوله فكاتبوهم فيجب أن يكون المخاطب فى الموضعين واحدا وعلى هذا التأويل يكون المخاطب فى الآية الاولى السادات وفى الثانية سائر المسلمين قلنا أما الاول فجوابه أن تلك الصدقة تحل لمولاه وكذلك اذا لم تف الصدقة بجميع النجوم وعجز عن اداء الباقى كان للمولى ما أخذه لانه لم يأخذه بسبب الصدقة ولكن بسبب عقد الكتابة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها منه يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (والجواب) عن الثانى انه قد يصح الخطاب لقوم ثم يعطف عليه بمثل لفظه خطابا لغيرهم كقوله تعالى واذا طلقتم النساء فالخطاب للازواج ثم خاطب الاولياء بقوله فلا تعضلوهن وقوله مبرؤن مما يقولون والقائلون غير المبرئين فكذا ههنا قال للسادة فكاتبوهم وقال لغيرهم وآتوهم أو قال لهم ولغيرهم (المسئلة الثانية) قال الشافعى رحمه الله يجب على المولى ايتاء المكاتب وهو أن يحط عنه جزأ من مال الكتابة أو يدفع اليه جزأ مما أخذ منه وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابه انه مندوب اليه لكنه غير واجب حجة الشافعى رحمه الله ظاهر قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم والامر للوجوب فقيل عليه ان قوله فكاتبوهم وقوله وآتوهم أمران وردا فى صورة واحدة فلم جعلت الاول ندبا والثانى ايجابا وأيضا فقد ثبت أن قوله وآتوهم ليس خطابا مع الموالى بل مع عامة المسلمين حجة أبى حنيفة رحمه الله من حيث

حسابهم اى حساب أعمالهم المذكورة وجزاءها فان اعتقادهم لنفعها بغير ايمان وعملهم بموجبه كفر على كفر موجب للعقاب قطعا وافراد الضميرين الراجعين الى الذين كفروا اما لارادة الجنس كالظمآن الواقع فى التمثيل واما للحمل على كل واحد منهم وكذا افراد ما يرجع الى أعمالهم هذا وقد قيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد فى الجاهلية ولبس المسوح والتمس الدين فلما جاء الاسلام كفر (أو كظلمات) عطف على كسراب وكلمة أو للتنويع اثر ما مثلت أعمالهم التى كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها فى كل واد وناد بما ذكر من حال السراب مع زيادة حساب وعقاب مثلت أعمالهم القبيحة التى ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بظلمات كائنة (فى بحر لجى) أى عميق كثير الماء منسوب الى اللج وهو معظم ماء البحر وقيل الى اللجة وهى أيضا معظمه (يغشاه) صفة أخرى للبحر أى يستره ويغطيه بالكلية (موج) وقوله تعالى (من فوقه موج) جملة من مبتدا وخبر محلها الرفع على أنها صفة لموج أو الصفة هى الجار والمجرور وموج الثانى فاعل له لاعتماده على الموصوف والكلام فيه كما مر فى قوله تعالى نور على نور

السنة والقياس أما السنة فما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده انه عليه الصلاة والسلام قال ايما عبد كاتب على مائة أوقية فاداها الا عشر اواق فهو عبد فلو كان الحط واجبا لسقط عنه بقدره وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت جاءتنى بريرة فقالت ياعائشة انى قد كاتبت أهلى على تسع أواق فى كل عام أوقية فاعينينى ولم تكن قضت من كتابتها شيأ فقالت عائشة رضى الله عنها ارجعى الى أهلك فان أحبوا ان أعطيهم ذلك جميعا ويكون ولاؤك لى فعلت فابوا فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال لا يمنعك ذلك منها ابتاعى وأعتقى فانما الولاء لمن أعتق وجه الاستدلال انها ما قضت من كتابتها شيأ وأرادت عائشة أن تؤدى عنها كتابتها بالكلية وذكرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترك رسول الله النكير عليها ولم يقل انها تستحق أن يحط عنها بعض كتابتها فثبت قولنا وأما القياس فمن وجهين (الاول) لو كان الايتاء واجبا لكان وجوبه متعلقا بالعقد فيكون العقد موجبا له ومسقطا له وذلك محال لتنافى الاسقاط والايجاب (الثانى) لو كان الحط واجبا لما احتاج الى أن يضع عنه بل كان يسقط القدر المستحق كمن له على انسان دين ثم حصل لذلك الآخر على الاول مثله فانه يصير قصاصا ولو كان كذلك لكان قدر الايتاء اما أن يكون معلوما أو مجهولا فان كان معلوما وجب أن تكون الكتابة بألفين فيعتق اذا أدى ثلاثة آلاف والكتابة أربعة آلاف وذلك باطل لان أداء جميعها مشروط فلا يعتق باداء بعضها ولانه عليه السلام قال المكاتب عبد ما بقى عليه درهم وان كان مجهولا صارت الكتابة مجهولة لان الباقى بعد الحط مجهول فيصير بمنزلة من كاتب عبده على ألف درهم الا شيأ وذلك غير جائز والله أعلم (الحكم العاشر) الاكراه على الزنا ﴿ قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) اعلم انه تعالى لما بين ما يلزم من تزويج العبيد والاماء وكتابتهم اتبع ذلك بالمنع من اكراه الاماء على الفجور وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى سبب نزولها على وجوه (الاول) كان لعبد الله بن أبى المنافق ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية (وثانيها) ان عبد الله بن أبى اسر رجلا فراود الاسير جارية عبد الله وكانت الجارية مسلمة فامتنعت الجارية لاسلامها واكرهها ابن أبى على ذلك رجاء أن تحمل من الاسير فيطلب فداء ولده فنزلت (وثالثها) روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء عبد الله بن أبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جارية من اجمل النساء تسمى معاذة فقال يارسول الله هذه لايتام فلان أفلا تأمرها بالزنا فيصيبون من منافعها فقال عليه الصلاة والسلام لا فاعاد الكلام فنزلت الآية قال جابر بن عبد الله جاءت جارية لبعض الناس فقالت ان سيدى يكرهنى على البغاء فنزلت الآية (المسئلة الثانية) الاكراه انما يحصل متى حصل التخويف بما يقتضى تلف النفس فاما

أى يغشاه أمواج متراكمة متراكبة بعضها على بعض وقوله تعالى (من فوقه سحاب) صفة لموج الثانى على أحد الوجهين المذكورين أى من فوق ذلك الموج سحاب ظلمانى ستر أضواء النجوم وفيه ايماء الى غاية تراكم الامواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب (ظلمات) خبر مبتدا محذوف أى هى ظلمات (بعضها فوق بعض) أى متكاثفة متراكمة وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كما أن قوله تعالى نور على نور بيان لغاية قوة النور خلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه ما بعده وقرئ بالجر على الابدال من الاولى وقرئ باضافة السحاب اليها (اذا أخرج) أى من ابتلى بها واضماره من غير ذكره لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة (يده) وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر اليها (لم يكد يراها) وهى أقرب شئ منه فضلا عن أن يراها (ومن لم يجعل الله له نورا) الخ اعتراض تذييلى جئ به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفرة كما فصل وتحقيق أن ذلك لعدم هدايته تعالى اياهم لنوره وايراد الموصول للاشارة بما فى حيز الصلة الى علة الحكم وأنهم ممن لم يشا الله تعالى هدايتهم أى ومن

باليسير من الخوف فلا تصير مكرهة فحال الاكراه على الزنا كحال الاكراه على كلمة الكفر والنص وان كان مختصا بالاماء الا أن حال الحرائر كذلك (المسئلة الثالثة) العرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة قال تعالى فلما جاوزا قال لفتاه وقال تراود فتاها وقال مما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات وفى الحديث ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى (المسئلة الرابعة) البغاء الزنا يقال بغت تبغى بغاء فهى بغى (المسئلة الخامسة) الذى نقول به أن المعلق بكلمة ان على الشئ عدم عند عدم ذلك الشئ والدليل عليه اتفاق أهل اللغة على أن كلمة ان للشرط واتفاقهم على ان الشرط ما ينتفى الحكم عند انتفائه ومجموع هاتين المقدمتين النقليتين يوجب الحكم بان المعلق بكلمة ان على الشئ عدم عند عدم ذلك الشئ واحتج المخالف بهذه الآية فقال انه سبحانه علق المنع من الاكراه على البغاء على ارادة التحصن بكلمة ان فلو كان الامر كما ذكرتموه لزم أن لا ينتفى المنع من الاكراه على الزنا اذا لم توجد ارادة التحصن وذلك باطل فانه سواء وجدت ارادة التحصن أو لم توجد فان المنع من الاكراه على الزنا حاصل (والجواب) لا نزاع ان ظاهر الآية يقتضى جواز الاكراه على الزنا عند عدم ارادة التحصن ولكنه فسد ذلك لامتناعه فى نفسه لانه متى لم توجد ارادة التحصن فى حقها لم تكن كارهة للزنا وحال كونها غير كارهة للزنا يمتنع اكراهها على الزنا فامتنع ذلك لامتناعه فى نفسه وذاته ومن الناس من ذكر فيه جوابا آخر وهو أن غالب الحال ان الاكراه لا يحصل الا عند ارادة التحصن والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب كما أن الخلع يجوز فى غير حالة الشقاق ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع فى حالة الشقاق لا جرم لم يكن لقوله تعالى فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به مفهوم ومن هذا القبيل قوله واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا والقصر لا يختص بحال الخوف ولكنه سبحانه اجراه على سبيل الغالب فكذا ههنا (والجواب) الثالث معناه اذا أردن تحصنا لان القصة التى وردت الآية فيها كانت كذلك على ما روينا أن جارية عبد الله بن أبى اسلمت وامتنعت عليه طلبا للعفاف فاكرهها فنزلت الآية موافقة لذلك نظيره قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا أى واذا كنتم فى ريب (المسئلة السادسة) انه تعالى لما منع من اكراههن على الزنا ففيه ما يدل على أن لهم اكراههن على النكاح فليس لها أن تمتنع على السيد اذا زوجها بل له أن يكرهها على ذلك وهذه الدلالة دلالة دليل الخطاب أما قوله ان أردن تحصنا أى تعففا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا يعنى كسبهن وأولادهن أما قوله ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم فاعلم انه ليس فى الآية انه تعالى غفور رحيم للمكره أو للمكرهة لا جرم ذكروا فيه وجهين (أحدهما) فان الله غفور رحيم بهن لان الاكراه ازال الاثم والعقوبة لان الاكراه عذر للمكرهة أما المكره فلا عذر له فيما فعل (الثانى) المراد فان الله غفور رحيم بالمكره بشرط التوبة وهذا

لم يشا الله ان يهديه لنوره الذى هو القرآن هداية خاصة مستتبعة للاهتداء حتما ولم يوفقه للايمان به (فما له من نور) أى فما له هداية ما من أحد أصلا وقوله تعالى (ألم تر) الخ استئناف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام للايذان بانه تعالى قد أفاض عليه عليه الصلاة والسلام أعلى مراتب النور وأجلاها وبين له من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها والهمزة للتقرير أى قد علمت علما يقينيا شبيها بالمشاهدة فى القوة والرصانة بالوحى الصريح والاستدلال الصحيح (ان الله يسبح له) أى ينزهه تعالى على الدوام فى ذاته وصفاته وأفعاله عن كل ما لا يليق بشانه الجليل من نقص أو خلل (من فى السموات والارض) أى ما فيهما اما بطريق الاستقرار فيهما من العقلاء وغيرهم كائنا ما كان أو بطريق الجزئية منهما تنزيها معنويا تفهمه العقول السليمة فان كل موجود من الموجودات الممكنة مركبا كان أو بسيطا فهو من حيث ماهيته ووجوده وأحواله يدل على وجود صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال مقدس عن كل ما لا يليق بشان من شؤنه الجليلة وقد نبه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية

ضعيف لان على التفسير الاول لا حاجة الى هذا الاضمار وعلى التفسير الثانى يحتاج اليه

* قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) اعلم انه سبحانه لما ذكر فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القرآن بصفات ثلاثة (أحدها) قوله ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات أى مفصلات وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم مبينات بكسر الياء على معنى انها تبين للناس كما قال بلسان عربى مبين أو تكون من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين (وثانيها) قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وفيه وجهان (أحدهما) انه تعالى يريد بالمثل ما ذكر فى التوراة والانجيل من اقامة الحدود فأنزل فى القرآن مثله وهو قول الضحاك (والثانى) قوله ومثلا أى شبها من حالهم بحالكم فى تكذيب الرسل يعنى بينا لكم ما أحللنا بهم من العقاب لتمردهم على الله تعالى فجعلنا ذلك مثلا لكم لتعلموا انكم اذا شاركتموهم فى المعصية كنتم مثلهم فى استحقاق العقاب وهو قول مقاتل (وثالثها) قوله وموعظة للمتقين والمراد به الوعيد والتحذير من فعل المعاصى ولا شبهة فى انه موعظة للكل لكنه تعالى خص المتقين بالذكر للعلة التى ذكرناها فى قوله هدى للمتقين وههنا آخر الكلام فى الاحكام القول فى الالهيات اعلم انه تعالى ذكر مثلين (أحدهما) فى بيان ان دلائل الايمان فى غاية الظهور (الثانى) فى بيان ان أديان الكفرة فى نهاية الظلمة والخفاء أما المثل الاول فهو

* قوله سبحانه وتعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شئ عليم) اعلم أن الكلام فى هذه الآية مرتب على فصول

* (الفصل الاول) * فى اطلاق اسم النور على الله تعالى اعلم ان لفظ النور موضوع فى اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الارض والجدران وغيرهما وهذه الكيفية يستحيل أن تكون الها لوجوه (أحدها) أن هذه الكيفية ان كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالا على حدوثها وان كانت عرضا فمتى ثبت حدوث الجسم لزم حدوث جميع الاعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة انما تثبت بعد اقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال (وثانيها) انا سواء قلنا النور جسم أو أمر حال فى الجسم فهو منقسم لانه ان كان جسما فلا شك فى انه منقسم وان كان حالا فيه فالحال فى المنقسم منقسم وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فانه يفتقر فى تحققه الى تحقق أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره وكل مفتقر فهو فى تحققه مفتقر الى غيره والمفتقر الى الغير ممكن لذاته محدث بغيره فالنور محدث فلا يكون الها (وثالثها) أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى (ورابعها) أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب وذلك على

وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذى هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال وأكد ذلك بايثار كلمة من على ما كان كل شئ مما عز وهان وكل فرد من أفراد الاعراض والاعيان عاقل ناطق ومخبر صادق بعلو شانه تعالى وعزة سلطانه وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضا لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة فى اخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له فى الالوهية ونسبتهم اياه الى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات بان يراد به معنى مجازى شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم حسبما هو المتبادر من قوله تعالى كل قد علم صلاته وتسبيحه يرده أن بعضا من العقلاء وهم الكفرة من الثقلين لا يسبحونه بذلك المعنى قطعا وانما تسبيحهم ما ذكر من الدلالة التى يشاركهم فيها غير العقلاء أيضا وفيه مزيد تخطئة لهم وتعيير ببيان أنهم يسبحونه تعالى باعتبار أخس جهاتهم التى هى الجمادية والجسمية والحيوانية ولا يسبحونه باعتبار أشرفها التى هى الانسانية (والطير) بالرفع

الله محال (وخامسها) ان هذه الانوار لو كانت أزلية لكانت اماأن تكون متحركة
أوساكنة لا جائز أن تكون متحركة لان الحركة معناها الانتقال من مكان الى مكان
فالحركة مسبوقة بالحصول فى المكان الاول لا والازلى يمتنع أن يكون مسبوقا بالغير
فالحركة الازلية محال ولا جائز أن تكون ساكنة لان السكون لو كان أزليا لكان يمتنع
الزوال لكن السكون جائز الزوال لانا نرى الانوار تنتقل من مكان الى مكان فدل ذلك
على حدوث الانوار (وسادسها) ان النور اما أن يكون جسما أو كيفية قائمة بالجسم
والاول محال لانا قد نعقل الجسم جسما مع الذهول عن كونه نيرا ولان الجسم قد يستنير
بعد ان كان مظلما فثبت الثانى لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة الى الجسم والمحتاج
الى الغير لا يكون الها وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون أن الاله
سبحانه هو النور الاعظم وأما المجسمة المعترفون بصحة القرآن فيحتج على فساد قولهم
بوجهين (الاول) قوله ليس كمثله شئ ولو كان نورا لبطل ذلك لان الانوار كلها متماثلة
(الثانى) ان قوله تعالى مثل نوره صريح فى انه ليس ذاته نفس النور بل النور مضاف اليه
وكذا قوله يهدى الله لنوره من يشاء فان قيل قوله الله نور السموات يقتضى ظاهره انه فى
ذاته نور وقوله مثل نوره يقتضى أن لا يكون هو فى ذاته نورا وبينهما تناقض قلنا نظيره هذه
الآية قولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده وعلى هذا الطريق
لا تناقض (الثالث) قوله سبحانه وتعالى وجعل الظلمات والنور وذلك صريح فى أن ماهية
النور مجعولة لله تعالى فيستحيل أن يكون الاله نورا فثبت أنه لا بد من التاويل والعلماء ذكروا
فيه وجوها (أحدها) أن النور سبب للظهور والهداية لما شاركت النور فى هذا المعنى
صح اطلاق اسم النور على الهداية وهو كقوله تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من
الظلمات الى النور وقوله أومن كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا وقال ولكن جعلناه نورا
نهدى به من نشاء من عبادنا فقوله الله نور السموات والارض أى ذو نور السموات
والارض والنور هو الهداية ولا تحصل الا لاهل السموات والحاصل أن المراد الله هادى
أهل السموات والارض وهو قول ابن عباس والاكثرين رضى الله عنهم (وثانيها) المراد
انه مدبر السموات والارض بحكمة بالغة وحجة نيرة فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس
العالم بانه نور البلد فانه اذا كان مدبرهم تدبيرا حسنا فهو لهم كالنور الذى يهتدى به الى
مسالك الطرق قال جرير * وأنت لنا نور وغيث وعصمة * وهذا اختيار الاصم والزجاج
(وثالثها) المراد ناظم السموات والارض على الترتيب الاحسن فانه قد يعبر بالنور على
النظام يقال ما أرى لهذا الامر نورا (ورابعها) معناه منور السموات والارض ثم ذكروا
فى هذا القول ثلاثة أوجه (أحدها) انه منور السماء بالملائكة والارض بالانبياء
(والثانى) منورها بالشمس والقمر والكواكب (والثالث) انه زين السماء بالشمس
والقمر والكواكب وزين الارض بالانبياء والعلماء وهو مروى عن ابى ابن كعب

والحسن.

عطفا على من وتخصيصها بالذكر
مع اندراجها فى جملة ما فى الارض
لعدم استقرار قرارها فيها
واستقلالها بصنع بارع وانشاء
رائع قصد بيان تسبيحها من تلك
الجهة لوضوح انبائها عن كمال
قدرة صانعها ولطف تدبير مبدعها
حسبما يعرب عنه التقييد بقوله
تعالى (صافات) أى تسبحه تعالى
حال كونها صافات أجنحتها فان
اعطاءه تعالى للاجرام الثقيلة
ما تتمكن به من الوقوف فى الجو
والحركة كيف تشاء من الاجنحة
والاذناب الخفيفة وارشادها
الى كيفية استعمالها بالقبض
والبسط حجة نيرة واضحة المكنون
وآية بينة لقوم يعقلون دالة على
كمال قدرة الصانع المجيد وغاية
حكمة المبدئ المعيد وقوله تعالى
(كل قد علم صلاته وتسبيحه)
بيان لكمال عراقة كل واحد مما
ذكر فى التنزيه ورسوخ قدمه فيه
بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر
عنه من الافاعيل فيفعلها عن
قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية
وقد أدمج فى تضاعيفه الاشارة الى
أن لكل واحد من الاشياء
المذكورة مع ما ذكر من التنزيه
حاجة ذاتية اليه تعالى واستفاضة
منه لما يهمه بلسان استعداده
وتحقيقه أن كل واحد من
الموجودات الممكنة فى حد ذاته
بمعزل من استحقاق الوجود لكنه

والحسن وأبى العالية والاقرب هو القول الاول لان قوله فى آخر الآية يهدى الله لنوره
من يشاء يدل على أن المراد بالنور الهداية الى العلم والعمل واعلم أن الشيخ الغزالى رحمه
الله صنف فى تفسير هذه الآية الكتاب المسمى بمشكاة الانوار وزعم أن الله نور فى الحقيقة
بل ليس النور الا هو وأنا أنقل محصل ما ذكره مع زوائد كثيرة تقوى كلامه ثم تنظر فى
صحته وفساده على سبيل الانصاف فقال اسم النور انما وضع للكيفية الفائضة من
الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الاجسام الكثيفة فيقال استنارت الارض ووقع
نور الشمس على الثوب ونور السراج على الحائط ومعلوم أن هذه الكيفية انما اختصت
بالفضيلة والشرف لان المرئيات تصير بسببها ظاهرة منجلية ثم من المعلوم انه كما يتوقف
ادراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة فكذا يتوقف على وجود العين الباصرة اذ
المرئيات بعد استنارتها لا تكون ظاهرة فى حق العميان فقد ساوى الروح الباصرة النور
الظاهر فى كونه ركنا لا بد منه للظهور ثم يرجح عليه فى أن الروح الباصرة هى المدركة وبها
الادراك وأما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الادراك بل عنده الادراك فكان وصف
الاظهار بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر فلا جرم أطلقوا اسم النور على نور العين
المبصرة فقالوا فى الخفاش ان نور عينه ضعيف وفى الاعمش انه ضعف نور بصره وفى
الاعمى انه فقد نور البصر اذا ثبت هذا فنقول أن للانسان بصرا وبصيرة فالبصر هو العين
الظاهرة المدركة للاضواء والالوان والبصيرة هى القوة العاقلة وكل واحد من
الادراكين يقتضى ظهور المدرك فكل واحد من الادراكين نور الا أنهم عدد والنور
العين عيوبا لم يحصل شئ منها فى نور العقل والغزالى رحمه الله ذكر منها سبعة ونحن
جعلناها عشرين (الاول) أن القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا تدرك ادراكها
ولا تدرك آلتها أما انها لا تدرك نفسها ولا تدرك ادراكها فلان القوة الباصرة وادراك
القوة الباصرة ليسا من الامور المبصرة بالعين الباصرة وأما آلتها فهى العين والقوة
الباصرة بالعين لا تدرك العين وأما القوة العاقلة فانها تدرك نفسها وتدرك ادراكها
وتدرك آلتها فى الادراك وهى القلب والدماغ فثبت أن نور العقل أكمل من نور البصر
(الثانى) أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها ومدرك الكليات
وهو القلب أشرف من مدرك الجزئيات أما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلان
القوة الباصرة لو أدركت كل ما فى الوجود فهى ما أدركت الكل لان الكل عبارة عن
كل ما يمكن دخوله فى الوجود فى الماضى والحاضر والمستقبل وأما ان القوة العاقلة تدرك
الكليات فلانا نعرف أن الاشخاص الانسانية مشتركة فى الانسانية ومغايرة
بخصوصياتها وما به المشاركة غير ما به المغايرة فالانسانية من حيث هى انسانية أمر مغاير
لهذه المشخصات فقد عقلنا الماهية الكلية وأما ان ادراك الكليات أشرف فلان
ادراك الكليات ممتنع التغير وادراك الجزئيات واجب التغير ولان ادراك الكلى

مستعد لان يفيض عليه منه
تعالى ما يليق بشأنه من الوجود
وما يتبعه من الكمالات ابتداء
وبقاء فهو مستفيض منه تعالى
على الاستمرار فيفيض عليه فى
كل آن من فيوض الفنون المتعلقة
بذاته وصفاته ما لا يحيط به نطاق
البيان بحيث لو انقطع ما بينه وبين
العناية الربانية من العلاقة لانعدم
بالمرة وقد عبر عن تلك الاستفاضة
المعنوية بالصلاة التى هى الدعاء
والابتهال لتكميل التمثيل
وافادة المزايا المذكورة فيما مر
على التفصيل وتقديمها على التسبيح
فى الذكر لتقدمها عليه فى الرتبة
هذا ويجوز أن يكون العلم على
حقيقته ويراد به مطلق الادراك
وبما ناب عنه التنوين فى كل أنواع
الطير وافرادها وبالصلاة والتسبيح
ما ألهمه الله تعالى كل واحد منها
من الدعاء والتسبيح المخصوصين
به لكن لا على أن يكون الطير
معطوفا على كلمة من مرفوعا
برافعها فانه يؤدى الى أن يراد
بالتسبيح معنى مجازى شامل للتسبيح
المقالى والحالى من العقلاء
وغيرهم وقد عرفت ما فيه بل بفعل
مضمر أريد به التسبيح المخصوص
بالطير معطوف على المذكور كما
مر فى قوله تعالى وكثير من الناس
أى وتسبح الطير تسبيحا خاصا
بها حال كونها صافات أجنحتها
وقوله تعالى كل قد علم صلاته

يتضمن ادراك الجزئيات الواقعة تحته لان ماثبت للماهية ثبت لجميع افرادها ولا ينعكس فثبت ان الادراك العقلى أشرف (الثالث) الادراك الحسى غير منتج والادراك العقلى منتج فوجب ان يكون العقل اشرف اما كون الادراك الحسى غير منتج فلان من أحس بشئ لا يكون ذلك الاحساس سببا لحصول احساس آخر له بل لو استعمل له الحس مرة اخرى لاحس به مرة أخرى ولكن ذلك لا يكون انتاج الاحساس لاحساس آخر وأما أن الادراك العقلى منتج فلانا اذا عقلنا أمورا ثم ركبناها فى عقولنا توسلنا بتركيبها الى اكتساب علوم أخر وهكذا كل تعقل حاصل فانه يمكن التوسل به الى تحصيل تعقل آخر الى ما لانهاية له فثبت أن الادراك العقلى أشرف (الرابع) الادراك الحسى لا يتسع للامور الكثيرة والادراك العقلى يتسع لها فوجب أن يكون الادراك العقلى أشرف أما أن الادراك الحسى لا يتسع لها فلان البصر اذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها فادرك لونا كانه حاصل من اختلاط تلك الالوان السمع اذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التمييز واما أن الادراك العقلى متسع لها فلان كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل وبالعكس وذلك يوجب الحكم بان الادراك العقلى أشرف (الخامس) القوة الحسية اذا ادركت المحسوسات القوية ففى ذلك الوقت تعجز عن ادراك الضعيفة فان من سمع الصوت الشديد ففى تلك الحالة لا يمكنه أن يسمع الصوت الضعيف والقوة العقلية لا يشغلها معقول عن معقول (السادس) القوى الحسية تضعف بعد الاربعين وتضعف عند كثرة الافكار التى هى موجبة لاستيلاء النفس على البدن الذى هو موجب لخراب البدن والقوى العقلية تقوى بعد الاربعين وتقوى عند كثرة الافكار الموجبة لخراب البدن فدل ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات واحتياج القوى الحسية اليها (السابع) القوة الباصرة لا تدرك المرئى مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد والقوة العقلية لا يختلف حالها بحسب القرب والبعد فانها ترقى الى ما فوق العرش وتنزل الى ما تحت الثرى فى اقل من لحظة واحدة بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزها عن القرب والبعد والجهة فكانت القوة العقلية أشرف (الثامن) القوة الحسية لا تدرك من الاشياء الا ظواهرها فاذا أدركت الانسان فهى فى الحقيقة ما ادركت الانسان لانها ما ادركت الا السطح الظاهر من جسمه والا اللون القائم بذلك السطح وبالاتفاق فليس الانسان عبارة عن مجرد السطح واللون فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ فى الباطن أما القوة العاقلة فان باطن الاشياء وظاهرها بالنسبة اليها على السواء فانها تدرك البواطن والظواهر وتغوص فيها وفى اجزائها فكانت القوة العاقلة نورا بالنسبة الى الباطن والظاهر أما القوة الباصرة فهى بالنسبة الى الظاهر نور وبالنسبة الى الباطن ظلمة فكانت القوة العاقلة أشرف من القوة الباصرة (التاسع) ان مدرك القوة العاقلة هو الله تعالى وجميع افعاله ومدرك

القوة

وتسبيحه أى دعاءه وتسبيحه الذين ألهمهما الله عزوجل اياه لبيان كمال رسوخه فيهما وأن صدورهما عنه ليس بطريق الاتفاق بلا روية بل عن علم وايقان من غير اخلال بشئ منهما حسبما ألهمه الله تعالى فان الهامه تعالى لكل نوع من أنواع المخلوقات علوما دقيقة لا يكاد يهتدى اليه جهابذة العقلاء مما لا سبيل الى انكاره أصلا كيف لا وان القنفذ مع كونه أبعد الاشياء من الادراك قالوا انه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبها فيغير المدخل الى جحره حتى روى انه كان بقسطنطينية قبل الفتح الاسلامى رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر الناس بالرياح قبل هبوبها وينتفعون بانذاره بتدارك أمور سفائنهم وغيرها وكان السبب فى ذلك انه كان يقتنى فى داره قنفذا يستدل باحواله على ما ذكر وتخصيص تسبيح الطير بهذا المعنى بالذكر لما أن أصواتها أظهر وجودا وأقرب حملا على التسبيح وقوله تعالى (والله عليم بما يفعلون) أى مايفعلونه اعتراض مقرر لمضمون ماقبله وما على الوجه الاول عبارة عما ذكر من الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسندا الى ضمير العقلاء لما مر غير مرة وعلى الثانى

القوة الباصرة هو الالوان والاشكال فوجب أن تكون نسبة شرف القوة العاقلة الى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى الى شرف الالوان والاشكال (العاشر) القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التى هى معروضات الموجودات والمعدومات ولذلك فان أول حكمه أن الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان وذلك مسبوق لا محالة بتصور مسمى الوجود ومسمى العدم فكانه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الامور من بعض الوجوه وأما القوة الباصرة فانها لا تدرك الا الاضواء والالوان وهما من أخس عوارض الاجسام والاجسام أخس من الجواهر الروحانية فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات وأما متعلق القوة العاقلة فهو جميع الموجودات والمعدومات فكانت القوة العاقلة أشرف (الحادى عشر) القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير وتكثير الواحد والقوة الباصرة لا تقوى على ذلك أما أن القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير فذلك لانها تضم الجنس الى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة وأما انها تقوى على تكثير الواحد فلانها تاخذ الانسان وهى ماهية واحدة فتقسمها الى مفهوماتها والى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة ثم تقسم مقوماته الى الجنس وجنس الجنس والفصل وفصل الفصل وجنس الفصل وفصل الجنس والى سائر الاجزاء المقومة التى لا تعد من الاجناس ولا من الفصول ثم لا تزال تأتى بهذا التقسيم فى كل واحد من هذه الاقسام حتى تنتهى من تلك المركبات الى البسائط الحقيقية ثم تعتبر فى العوارض اللازمة أن تلك العوارض مفردة أو مركبة ولازمة بوسائط أو بوسط أو بغير وسط فالقوة العاقلة كانها نفذت فى اعماق الماهيات وتغلغلت فيها وميزت كل واحد من أجزائها عن صاحبه وأنزلت كل واحد منها فى المكان اللائق به فاما القوة الباصرة فلا تطلع على أحوال الماهيات بل لا ترى الأمر واحدا ولا تدرى ما هو وكيف هو فظهر أن القوة العاقلة أشرف (الثانى عشر) القوة العاقلة تقوى على ادراكات غير متناهية والقوة الحاسة لا تقوى على ذلك بيان الاول من وجوه (الاول) القوة العاقلة يمكنها أن تتوسل بالمعارف الحاضرة الى استنتاج المجهولات ثم انها تجعل تلك النتائج مقدمات فى نتائج أخرى لا الى نهاية وقد عرفت أن القوة الحاسة لا تقوى على الاستنتاج أصلا (الثانى) أن القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الاعداد ولا نهاية لها (الثالث) أن القوة العاقلة يمكنها أن تعقل نفسها وأن تعقل انها عقلت وكذا الى غير النهاية (الرابع) النسب والاضافات غير متناهية وهى معقولة لا محسوسة فظهر أن القوة العاقلة أشرف (الثالث عشر) الانسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى فى ادراك الحقائق وبقوته الحاسة يشارك البهائم والنسبة معتبرة فكانت القوة العاقلة أشرف (الرابع عشر) القوة العاقلة غنية فى ادراكها العقلى عن وجود المعقول فى الخارج والقوة الحاسة محتاجة فى ادراكها الحسى الى

اما عبارة عنها أو عن التسبيح الخاص بالطير معا أو عن تسبيح الطير فقط فالفعل على حقيقته واسناده الى ضمير العقلاء لما مر والاعتراض حينئذ مقرر لتسبيح الطير فقط وعلى الاولين لتسبيح الكل هذا وقد قيل ان الضمير فى قوله تعالى قد علم لله عزوجل وفى صلاته وتسبيحه لكل أى قد علم الله تعالى صلاة كل واحد مما فى السموات والارض وتسبيحه فالاعتراض حينئذ مقرر لمضمونه على الوجهين لكن لا على أن تكون ما عبارة عما تعلق به علمه تعالى من صلاته وتسبيحه بل عن جميع أحواله العارضة له وأفعاله الصادرة عنه وهما داخلتان فيها دخولا أوليا (ولله ملك السموات والارض) لا لغيره لانه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف فى جميعها ايجادا واعداما بدأ واعادة وقوله تعالى (والى الله) أى اليه تعالى خاصة لا الى غيره (المصير) أى رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى فى المعاد اثر بيان اختصاصه به تعالى فى المبدا واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم (ألم تر أن الله يزجى سحابا) الازجاء سوق الشئ برفق وسهولة غلب فى سوق شئ يسير أو غير معتد به ومنه

وجود المحسوس فى الخارج والغنى أشرف من المحتاج (الخامس عشر) هذه الموجودات
الخارجية ممكنة لذواتها وانها محتاجة الى الفاعل والفاعل لا يمكنه الايجاد على سبيل
الاتقان الا بعد تقدم العلم فاذن وجود هذه الاشياء فى الخارج تابع للادراك العقلى وأما
الاحساس بها فلا شك انه تابع لوجودها فى الخارج فاذن القوة الحساسة تبع لتبع
القوة العاقلة (السادس عشر) القوة العاقلة غير محتاجة فى العقل الى الآلات بدليل
أن الانسان لو اختلت حواسه الخمس فانه يعقل أن الواحد نصف الاثنين وأن الاشياء
المساوية لشئ واحد متساوية وأما القوة الحساسة فانها محتاجة الى آلات كثيرة والغنى
أفضل من المحتاج (السابع عشر) الادراك البصرى لا يحصل الا للشئ الذى فى الجهات
ثم انه غير متصرف فى كل الجهات بل لا يتناول الا المقابل أو ما هو فى حكم المقابل واحترزنا
بقولنا فى حكم المقابل عن أمور أربعة (الاول) العرض فانه ليس بمقابل لانه ليس فى
المكان ولكنه فى حكم المقابل لاجل كونه قائما بالجسم الذى هو مقابل (الثانى) رؤية
الوجه فى المرآة فان الشعاع يخرج من العين الى المرآة ثم يرتد منها الى الوجه فيصير الوجه
مرئيا وهو من هذا الاعتبار كالمقابل لنفسه (الثالث) رؤية الانسان قفاه اذا جعل احدى
المرآتين محاذية لوجهه والاخرى لقفاه (والرابع) رؤية ما لا يقابل بسبب انعطاف الشعاع
فى الرطوبات كما هو مشروح فى كتب المناظر وأما القوة العاقلة فانها مبرأة عن الجهات
فانها تعقل الجهة والجهة ليست فى الجهة ولذلك تعقل أن الشئ اما أن يكون فى الجهة
واما أن لا يكون فى الجهة وهذا الترديد لا يصح الا بعد تعقل معنى قولنا ليس فى الجهة
(الثامن عشر) القوة الباصرة تعجز عند الحجاب وأما القوة العاقلة فانها لا يحجبها شئ أصلا
فكانت أشرف (التاسع عشر) القوة العاقلة كالامير والحاسة كالخادم والامير أشرف
من الخادم وتقرير الامارة والخدمة مشهور (العشرون) القوة الباصرة قد تغلط كثيرا
فانها قد تدرك المتحرك ساكنا وبالعكس كالجالس فى السفينة فانه قد يدرك السفينة
المتحركة ساكنة والشط الساكن متحركا ولولا العقل لما تميز خطأ البصر عن صوابه
والعقل حاكم والحس محكوم فثبت بما ذكرنا أن الادراك العقلى أشرف من الادراك
البصرى وكل واحد من الادراكين يقتضى الظهور الذى هو أشرف خواص النور
فكان الادراك العقلى أولى بكونه نورا من الادراك البصرى واذا ثبت هذا فنقول هذه
الانوار العقلية قسمان (أحدهما) واجب الحصول عند سلامة الاحوال وهى التعقلات
الفطرية (والثانى) ما يكون مكتسبا وهى التعقلات النظرية أما الفطرية فليست هى من
لوازم جوهر الانسان لانه حال الطفولية لم يكن عالما البتة فهذه الانوار الفطرية انما
حصلت بعد ان لم تكن فلا بد لها من سبب وأما النظريات فمعلوم أن الفطرة الانسانية قد
يعتريها الزيغ فى الاكثر واذا كان كذلك فلا بد من هاد مرشد ولا مرشد فوق كلام الله
تعالى وفوق ارشاد الانبياء فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل بمنزلة نور الشمس

البضاعة المزجاة فقصه ايماء الى
أن السحاب بالنسبة الى قدرته
تعالى مما لا يعتد به (ثم يؤلف بينه)
أى بين أجزائه بضم بعضها الى
بعض وقرئ يولف بغير همزة (ثم
يجعله ركاما) أى متراكما بعضه فوق
بعض (فترى الودق) أى المطر اثر
تراكمه وتكاثفه وقوله تعالى
(يخرج من خلاله) أى من فتوقه
حال من الودق لان الرؤية بصرية
وفى تعقيب الجعل المذكور
برؤيته خارجا لا بخروجه من
المبالغة فى سرعة الخروج على
طريقة قوله تعالى فقلنا اضرب
بعصاك البحر فانفلق ومن الاعتناء
بتقرير الرؤية ما لا يخفى والخلال
جمع خلل كجبال وجبل وقيل مفرد
كحجاب وحجاز ويؤيده انه قرئ
من خلله (وينزل من السماء) من
الغمام فان كل ما علاك سماء (من
جبال) أى من قطع عظام تشبه
الجبال فى العظم كائنة (فيها) وقوله
تعالى (من برد) مفعول ينزل على
أن من تبعيضية والاوليان لابتداء
الغاية على أن الثانية بدل اشتمال
من الاولى باعادة الجار أى ينزل
مبتدئا من السماء من جبال فيها
بعض برد وقيل المفعول محذوف
ومن برد بيان للجبال أى ينزل
مبتدئا من السماء من جبال فيها
من جنس البرد بردا والاول أظهر
لخلوه عن ارتكاب الحذف

عند العين الباصرة اذ به يتم الابصار فبالحرى أن يسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس
نورا فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور العين وبهذا يظهر معنى قوله
فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا وقوله قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم
نورا مبينا واذا ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن يكون نفسه القدسية
أعظم فى النورانية من الشمس وكما ان الشمس فى عالم الاجسام تفيد النور لغيره
ولا تستفيده من غيره فكذا نفس النبى صلى الله عليه وسلم تفيد الانوار العقلية لسائر
الانفس البشرية ولا تستفيد الانوار العقلية من شئ من الانفس البشرية فلذلك وصف
الله تعالى الشمس بانها سراج حيث قال وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ووصف محمدا صلى
الله عليه وسلم بانه سراج منير اذا عرفت هذا فنقول ثبت بالشواهد العقلية والنقلية ان
الانوار الحاصلة فى أرواح الانبياء مقتبسة من الانوار الحاصلة فى أرواح الملائكة قال
تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده وقال نزل به الروح الامين
على قلبك وقال قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال تعالى ان هو الا وحى يوحى
علمه شديد القوى والوحى لا يكون الا بواسطة الملائكة فاذا جعلنا أرواح الانبياء أعظم
استنارة من الشمس فارواح الملائكة التى هى كالمعادن لانوار عقول الانبياء لا بد وأن
تكون أعظم من أنوار أرواح الانبياء لان السبب لا بد وأن يكون أقوى من المسبب ثم
نقول ثبت ايضا بالشواهد العقلية والنقلية ان الارواح السماوية مختلفة فبعضها
مستفيدة وبعضها مفيدة قال تعالى فى وصف جبريل عليه السلام مطاع ثم أمين واذا كان
هو مطاع الملائكة فالمطيعون لا بد وأن يكونوا تحت أمره وقال وما منا الا له مقام معلوم
واذا ثبت هذا فالمفيد أولى بان يكون نورا من المستفيد للعلة المذكورة ولمراتب الانوار
فى عالم الارواح مثال وهو ان ضوء الشمس اذا وصل الى القمر ثم دخل فى كوة بيت ووقع
على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منها الى حائط آخر نصب عليه مرآة أخرى ثم انعكس
منها الى طشت مملوء من الماء موضوع على الارض ثم انعكس منه الى سقف البيت فالنور
الاعظم فى الشمس التى هى المعدن (وثانيا) فى القمر (وثالثا) ما وصل الى المرآة الاولى
(ورابعا) ما وصل الى المرآة الثانية (وخامسا) ما وصل الى الماء (وسادسا) ما وصل الى
السقف وكل ما كان أقرب الى المنبع الاول فانه أقوى مما هو أبعد منه فكذا الانوار
السماوية لما كانت مرتبة لا جرم كان نور المفيد أشد اشراقا من نور المستفيد ثم تلك
الانوار لا تزال تكون مترقية حتى تنتهى الى النور الاعظم والروح الذى هو أعظم
الارواح منزلة عند الله الذى هو المراد من قوله سبحانه يوم يقوم الروح والملائكة صفا ثم
نقول لا شك ان هذه الانوار الحسية ان كانت سفلية كانت كانوار النيران أو علوية كانت
كانوار الشمس والقمر والكواكب وكذا الانوار العقلية سفلية كانت كالارواح
السفلية التى للانبياء والاولياء أو علوية كالارواح العلوية التى هى الملائكة فانها

والتصريح ببعضية المنزل وقيل
المفعول من جبال على أن من
تبعيضية ومن برد بيان للجبال أى
ينزل من السماء بعض جبال كائنة
فيها من برد أى مشبهة بالجبال فى
الكثرة وأيا ما كان فتقديم الجار
والمجرور على المفعول لما مر غير مرة
من الاعتناء بالمقدم والتشويق
الى المؤخر وقيل المراد بالسماء
المظلة وفيها جبال من برد كما
أن فى الارض جبالا من حجر
وليس فى العقل ما ينفيه من قاطع
والمشهور أن الابخرة اذا تصاعدت
ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة
الباردة من الهواء وقوى البرد
اجتمع هنالك وصار سحابا وان لم
يشتد البرد تقاطر مطرا وان اشتد
فان وصل الى الاجزاء البخارية
قبل اجتماعها نزل ثلجا والا نزل
بردا وقد يبرد الهواء بردا مفرطا
فينقبض وينعقد سحابا وينزل
منه المطر أو الثلج وكل ذلك مستند
الى ارادة الله تعالى ومشيئته
المبنية على الحكم والمصالح
(فيصيب به) أى بما ينزله من البرد
(من يشاء) أن يصيبه به فيناله
ما يناله من ضرر فى نفسه وماله
(ويصرفه عمن يشاء) أن يصرفه
عنه فينجو من غائلته (يكاد
سنا برقه) أى ضوء برق السحاب
الموصوف بما مر من الازجاء
والتأليف وغيرهما واضافة البرق

بأسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره والعدم هو الظلمة الحاصلة والوجود هو النور فكل ماسوى الله مظلم لذاته مستنير بانارة الله تعالى وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى فالحق سبحانه هو الذى أظهرها بالوجود بعد ان كانت فى ظلمات العدم وافاض عليها أنوار المعارف بعد ان كانت فى ظلمات الجهالة فلا ظهور لشئ من الاشياء الا باظهاره وخاصة النور اعطاء الاظهار والتجلى والانكشاف وعند هذا يظهر ان النور المطلق هو الله سبحانه وان اطلاق النور على غيره مجاز اذ كل ماسوى الله فانه من حيث هو هو ظلمة محضة لانه من حيث انه هو عدم محض بل الانوار اذا نظرنا اليها من حيث هى هى فهى ظلمات لانها من حيث هى هى ممكنات والممكن من حيث هو هو معدوم والمعدوم مظلم فالنور اذا نظر اليه من حيث هو هو ظلمة فاما اذا التفت اليها من حيث ان الحق سبحانه أفاض عليها نور الوجود فبهذا الاعتبار صارت أنوارا فثبت انه سبحانه هو النور وان كل ماسواه فليس بنور الا على سبيل المجاز ثم انه رحمه الله تكلم بعد هذا فى أمرين (الاول) انه سبحانه لم أضاف النور الى السموات والارض وأجاب فقال قد عرفت ان السموات والارض مشحونة بالانوار العقلية والانوار الحسية أما الحسية فما يشاهد فى السموات من الكواكب والشمس والقمر وما يشاهد فى الارض من الاشعة المنبسطة على سطوح الاجسام حتى ظهرت به الالوان المختلفة ولولاها لم يكن للالوان ظهور بل وجود وأما الانوار العقلية فالعالم الاعلى مشحون بها وهى جواهر الملائكة والعالم الاسفل مشحون بها وهى القوى النباتية والحيوانية والانسانية وبالنور الانسانى السفلى ظهر نظام عالم السفل كما بالنور الملكى ظهر نظام عالم العلو وهو المعنى بقوله تعالى ليستخلفنهم فى الارض وقال و يجعلكم خلفاء الارض فاذا عرفت هذا عرفت ان العالم باسره مشحون بالانوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية ثم عرفت ان السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج فان السراج هو الروح النبوى ثم ان الانوار النبوية القدسية مقتبسة من الارواح العلوية اقتباس السراج من النور وان العلويات مقتبسة بعضها من بعض وان بينها ترتيبا فى المقامات ثم ترتقى جملتها الى نور الانوار ومعدنها ومنبعها الاول وان ذلك هو الله وحده لا شريك له فاذن الكل نوره فلهذا قال الله نور السموات والارض (السؤال الثانى) فاذا كان الله هو النور فلم احتيج فى اثباته الى البرهان أجاب فقال ان معنى كونه نور السموات والارض معروف بالنسبة الى النور الظاهر البصرى فاذا رأيت خضرة الربيع فى ضياء النهار فلست تشك فى انك ترى الالوان فربما ظننت انك لا ترى مع الالوان غيرها فانك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة الا انك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه وحال عدم وقوعه عليه فلا جرم تعرف ان النور معنى غير اللون يدرك مع الالوان الا انه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى وقد يكون

البقيل الاخبار بوجوده فيه
للايذان بظهوره أمره واستغنائه
عن التصريح به وقرئ بالمد بمعنى
الرفعة والعلو و بادغام الدال فى
السين وبرق بفتح الراء على أنه جمع
برقة وهى مقدار من البرق كالغرفة
و بضمها للاتباع لضمة الباء (يذهب
بالابصار) أى يخطفها من فرط
الاضاءة وسرعة ورودها وفى
اطلاق الابصار مزيد تهويل
لامره وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه
يكاد يذهب بها ولو عند الاغماض
وهذا من أقوى الدلائل على كمال
القدرة من حيث انه توليد للضد
من الضد وقرئ يذهب من
الاذهاب على زيادة الباء (يقلب
الله الليل والنهار) بالمعاقبة بينهما
أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر
أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد
وغيرهما مما يقع فيهما من الامور
التى من جملتها ما ذكر من ازجاء
السحاب وما ترتب عليه (ان فى
ذلك) اشارة الى ما فصل آنفا وما
فيه من معنى البعد مع قرب المشار
اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته
(لعبرة) أى لدلالة واضحة على
وجود الصانع القديم ووحدته
وكمال قدرته واحاطة علمه بجميع
الاشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه عما
لا يليق بشأنه العلى (لأولى الابصار)
لكل من له بصر (والله خلق كل دابة)
أى كل حيوان يدب على الارض

الظهور سبب الخفاء اذا عرفت هذا فاعلم انه كما ظهر كل شئ للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شئ للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شئ لا يفارقه ولكن بقى ههنا تفاوت وهو ان النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس و يحجب فحينئذ يظهر انه غير اللون وأما النور الالهى الذى به يظهر كل شئ لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الاشياء دائما فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والارض ولادرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضرورى به ولكن لما تساوت الاشياء كلها على نمط واحد فى الشهادة على وجود خالقها وان كل شئ يسبح بحمده لا بعض الاشياء وفى جميع الاوقات لا فى بعض الاوقات ارتفعت التفرقة وخفى الطريق اذ الطريق الظاهر معرفة الاشياء بالاضداد فما لا ضد له ولا تغير له بتشابه أحواله فلا يبعد ان يخفى و يكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم باشراق نوره واعلم ان هذا الكلام الذى رويناه عن الشيخ الغزالى رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق الى ان معنى كونه سبحانه نورا انه خالق للعالم وانه خالق للقوى الدراكة وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والارض انه هادى أهل السموات والارض فلا تفاوت بين ما قاله و بين الذى نقلناه عن المفسرين فى المعنى والله أعلم

(الفصل الثانى) فى تفسير قوله عليه الصلاة والسلام ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره وفى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها سبعون ألفا فاقول لما ثبت ان الله سبحانه وتعالى متجل فى ذاته لذاته كان الحجاب بالاضافة الى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوبا اما بحجاب مركب من نور وظلمة واما بحجاب مركب من نور فقط أو بحجاب مركب من ظلمة فقط أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا فى الاشتغال بالعلائق البدنية الى حيث لم يلتفت خاطرهم الى انه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا وذلك لانك قد عرفت أن ماسوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم وانما كان مستنيرا من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هى هى وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات الى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر (القسم الثانى) المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة اعلم ان من نظر الى هذه المحسوسات فاما أن يعتقد فيها انها غنية عن المؤثر أو يعتقد فيها انها محتاجة فان اعتقد انها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة (أما النور) فلانه تصور ماهية الاستغناء عن الغير وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور (وأما الظلمة) فلانه اعتقد حصول ذلك الوصف فى هذه الاجسام مع ان ذلك الوصف لا يليق بهذا

وقرئ خالق كل دابة بالاضافة
(من ماء) هو جزء مادته أو ماء
مخصوص هو النطفة فيكون
تنزيلا للغالب منزلة الكل لان
من الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة
وقيل من ماء متعلق بدابة وليست
صلة لخلق (فمنهم من يمشى على
بطنه) كالحية وتسمية حركتها
مشيا مع كونها زحفا بطريق
الاستعارة أو المشاكلة (ومنهم من
يمشى على رجلين) كالانس والطير
(ومنهم من يمشى على أربع)
كالنعم والوحش وعدم التعرض
لما يمشى على أكثر من أربع
كالعناكب ونحوها من الحشرات
لعدم الاعتداد بها وتذكير الضمير
فى منهم لتغليب العقلاء والتعبير
عن الاصناف بكلمة من ليوافق
التفصيل الاجمال والترتيب
لتقديم ما هو أعرف فى القدرة
(يخلق الله ما يشاء) مما ذكر ومما لم
يذكر بسيطا كان أو مركبا على
ما يشاء من الصور والاعضاء
والهيآت والحركات والطبائع
والقوى والافاعيل مع اتحاد
العنصر واظهار الاسم الجليل
فى موضع الاضمار لتفخيم شان
الخلق المذكور والايذان بأنه
من أحكام الالوهية (ان الله على
كل شئ قدير) فيفعل ما يشاء كما
يشاء واظهار الجلالة لما ذكر مع
تأكيد استقلال الاستئناف

الوصف وهذا ظلمة فثبت ان هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ثم أصناف هذا القسم كثيرة
فان من الناس من يعتقد ان الممكن غنى عن المؤثر ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر
فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها الى حركات الافلاك أو الى
محرك كاتها وكل هؤلاء من هذا القسم (القسم الثالث) الحجب النورية المحضة واعلم انه
لاسبيل الى معرفة الحق سبحانه الا بواسطة تلك الصفات السلبية والاضافية ولانهاية لهذه
الصفات ولمراتبها فالعبد لايزال يكون مترقيا فيها فان وصل الى درجة وبقى فيها كان
استغراقه فى مشاهدة تلك الدرجة حجابا له عن الترقى الى مافوقها ولما كان لانهاية لهذه
الدرجات كان العبد أبدا فى السير والانتقال وأما حقيقته المخصوصة فهى محتجبة عن
الكل فقد اشرنا الى كيفية مراتب الحجب وأنت تعرف انه عليه الصلاة والسلام انما
حصرها فى سبعين ألفا تقريبا لا تحديدا فانها لانهاية لها فى الحقيقة
(الفصل الثالث فى شرح كيفية التمثيل) اعلم انه لابد فى التشبيه من أمرين المشبه
والمشبه به واختلف الناس ههنا فى ان المشبه أى شئ هو وذكروا وجوها (أحدها) وهو
قول جمهور المتكلمين ونصره القاضى ان المراد الهدى التى هى الآيات البينات والمعنى
ان هداية الله تعالى قد بلغت فى الظهور والجلاء الى أقصى الغايات وصارت فى ذلك بمنزلة
المشكاة التى تكون فيها زجاجة صافية وفى الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية فى
الصفاء فان قيل لم شبهه بذلك وقد علمنا ان ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير قلنا انه سبحانه
أراد أن يصف الضوء الكامل الذى يلوح وسط الظلمة لان الغالب على أوهام الخلق
وخيالاتهم انما هو الشبهات التى هى كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل
الذى يظهر فيما بين الظلمات وهذا المقصود لا يحصل من ضوء الشمس لان ضوءها اذا ظهر
امتلأ العالم من النور الخالص واذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلاجرم كان
ذلك المثل ههنا أليق وأوفق واعلم ان الامور التى اعتبرها الله تعالى فى هذا المثال مما
توجب كمال الضوء (فأولها) المصباح لان المصباح اذا لم يكن فى المشكاة تفرقت اشعته اما
اذا وضع فى المشكاة اجتمعت اشعته فكانت أكثر انارة والذى يحقق ذلك ان المصباح
اذا كان فى بيت صغير فانه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر فى البيت الكبير (وثانيها)
ان المصباح اذا كان فى زجاجة صافية فان الاشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من
بعض جوانب الزجاجة الى البعض لما فى الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك
يزداد الضوء والنور والذى يحقق ذلك ان شعاع الشمس اذا وقع على الزجاجة الصافية
تضاعف الضوء الظاهر حتى انه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء فان انعكست تلك
الاشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة الى الجانب الآخر كثرت الانوار والاضواء
وبلغت النهاية الممكنة (وثالثها) ان ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به
فاذا كان ذلك الدهن صافيا خالصا كانت حالته بخلاف حالته اذا كان كدرا وليس فى

الثعلبى (لقد انزلنا آيات مبينات)
أى لكل ما يليق بيانه من الاحكام
الدينية والاسرار التكوينية
(والله يهدى من يشاء) أن يهديه
بتوفيقه للنظر الصحيح فيها وارشاده
الى التأمل فى مطاويها (الى صراط
مستقيم) موصل الى حقيقة الحق
والفوز بالجنة (ويقولون آمنا
بالله وبالرسول) شروع فى بيان
أحوال بعض من لم يشأ الله هدايته
الى الصراط المستقيم قال الحسن
نزلت فى المنافقين الذين كانوا
يظهرون الايمان ويسرون الكفر
وقيل نزلت فى بشر المنافق خاصم
يهوديا فدعاه الى كعب بن
الاشرف واليهودى يدعوه الى
النبى عليه الصلاة والسلام وقيل
فى المغيرة بن وائل خاصم عليا رضى
الله عنه فى أرض وماء فابى أن
يحاكم الى الرسول عليه الصلاة
والسلام وأيا ما كان فصيغة الجمع
للايذان بان للقائل طائفة يساعدونه
ويشايعونه فى تلك المقالة كما يقال
بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد
منهم (وأطعنا) أى أطعناهما فى
الامر والنهى (ثم يتولى) عن
قبول حكمه (فريق منهم من بعد
ذلك) أى من بعد ما صدر عنهم
ما صدر من ادعاء الايمان بالله
وبالرسول والطاعة لهما على
التفصيل وما فى ذلك من معنى

الادهان التى يتقد بها يظهر فيه من الصفاء مثل الذى يظهر فى الزيت فربما يبلغ فى الصفاء
والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد فى اجزائه (ورابعها) ان هذا الزيت
يختلف بحسب اختلاف شجره فاذا كانت لاشرقية ولا غربية بمعنى انها كانت بارزة
للشمس فى كل حالاتها يكون زيتونها اشد نضجا فكان زيته أكثر صفاء وأقرب الى أن
يتميز صفوه من كدره لان زيادة الشمس تؤثر فى ذلك فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة
وتعاونت صار ذلك الضوء خالصا كاملا فيصلح أن يجعل مثلا لهداية الله تعالى (وثانيها)
ان المراد من النور فى قوله مثل نوره القرآن ويدل عليه قوله تعالى قد جاءكم من الله نور
وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن أسلم (وثالثها) ان المراد هو الرسول لانه المرشد
ولانه تعالى قال فى وصفه وسراجا منيرا وهو قول عطاء وهذان القولان داخلان فى القول
الاول لان من جملة أنواع الهداية انزال الكتب وبعثة الرسل قال تعالى فى صفة
الكتب وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان
وقال فى صفة الرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
(ورابعها) ان المراد منه ما فى قلب المؤمنين من معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع ويدل
عليه ان الله تعالى وصف الايمان بانه نور والكفر بانه ظلمة فقال أفمن شرح الله صدره
للاسلام فهو على نور من ربه وقال تعالى ليخرج الناس من الظلمات الى النور وحاصله
انه مثل الهدى على الاهتداء والمقصود من التمثيل ان ايمان المؤمن قد بلغ فى الصفاء عن
الشبهات والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور وهو قول ابى بن كعب
وابن عباس قال أبى مثل نور المؤمن وهكذا كان يقرأ وقيل انه كان يقرأ مثل نور من
آمن به وقال ابن عباس مثل نوره فى قلب المؤمن (وخامسها) ماذكره الشيخ الغزالى رحمه
الله وهو انا بينا ان القوى المدركة أنوار ومراتب القوى المدركة الانسانية خمسة
(أحدها) القوة الحساسة وهى التى تتلقى ما توردها الحواس الخمس وكانها أصل الروح
الحيوانى وأوله اذ به يصير الحيوان حيوانا وهو موجود للصبى الرضيع (وثانيها) القوة
الخيالية وهى التى تستثبت ما أورده الحواس وتحفظه مخزونا عندها لتعرضه على القوة
العقلية التى فوقها عند الحاجة اليه (وثالثها) القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية
(ورابعها) القوة الفكرية وهى التى تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفا فتستنتج من
تأليفها علما بمجهول (وخامسها) القوة القدسية التى تختص بها الانبياء عليهم الصلاة
والسلام وبعض الاولياء وتتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت واليه الاشارة بقوله
تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن
جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا واذا عرفت هذه القوى فهى بجملتها أنوار اذ بها
تظهر أصناف الموجودات وان هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالامور الخمسة التى
ذكرها الله تعالى وهى المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت اما الروح

البعد للايذان بكونه أمرا معتدا
به واجب المراعاة (وما أولئك)
اشارة الى القائلين لا الى الفريق
المتولى منهم فقط لعدم اقتضاء نفى
الايمان عنهم نفيه عن الاولين
بخلاف العكس فان نفيه عن
القائلين مقتض لنفيه عنهم على
أبلغ وجه وآكده وما فيه من
معنى البعد للاشعار ببعد منزلتهم
فى الكفر والفساد أى وما أولئك
الذين يدعون الايمان والطاعة ثم
يتولى بعضهم الذين يشاركونهم
فى العقد والعمل (بالمؤمنين) أى
المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه
اللام أى ليسوا بالمؤمنين المعهودين
بالاخلاص فى الايمان والثبات
عليه (واذا دعوا الى الله ورسوله
ليحكم) أى الرسول (بينهم) لانه
المباشر حقيقة للحكم وان كان
ذلك حكم الله حقيقة وذكر الله
تعالى لتفخيمه عليه السلام
والايذان بجلالة محله عنده تعالى
(اذا فريق منهم معرضون) أى
فاجأ فريق منهم الاعراض عن
المحاكمة اليه عليه السلام
لكون الحق عليهم وعلمهم بانه
عليه السلام يحكم بالحق عليهم
وهو شرح للتولى ومبالغة فيه
(وان يكن لهم الحق) لاعليهم
(يأتوا اليه مذعنين) منقادين
لجزمهم بانه عليه السلام يحكم
لهم والى صلة ليأتوا فان الاتيان

الحساس فاذا نظرت الى خاصيته وجدت أنواره خارجة من عدة ثقب كالعينين والاذنين والمنخرين وأوفق مثال له من عالم الاجسام المشكاة (وأما الثانى) وهو الروح الخيالى فنجد له خواص ثلاثة (الاولى) انه من طينة العالم السفلى الكثيف لان الشئ المتخيل ذو قدر وشكل وحيز ومن شان العلائق الجسمانية أن تحجب عن الانوار العقلية المحضة التى هى التعقلات الكلية المجردة (والثانية) ان هذا الخيال الكثيف اذا صفا ورق وهذب صار موازنا للمعانى العقلية ومؤديا لانوارها وغير حائل عن اشراق نورها ولذلك فان المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعانى العقلية كما يستدل بالشمس على الملك وبالقمر على الوزير وبمن يختم فروج الناس وأفواههم على انه مؤذن يؤذن قبل الصبح (والثالثة) ان الخيال فى بداية الامر محتاج اليه جدا لينضبط بها المعارف العقلية ولا تضطرب فنعم المثالات الخيالية الجالبة للمعارف العقلية وأنت لا تجد شيأ فى الاجسام يشبه الخيال فى هذه الصفات الثلاثة الا الزجاجة فانها فى الاصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة (وأما الثالث) وهو القوة العقلية فهى القوية على ادراك الماهيات الكلية والمعارف الالهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح وقد عرفت هذا حيث بينا كون الانبياء سرجا منيرة (وأما الرابع) وهو القوة الفكرية فمن خواصها انها تأخذ ماهية واحدة ثم تقسمها الى قسمين كقولنا الموجود اما واجب واما ممكن ثم تجعل كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا الى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ثم تفضى بالآخرة الى نتائج وهى ثمراتها ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذور الامثالها حتى تتادى الى ثمرات لانهاية لها فبالحرى أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة واذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف وثباتها فبالحرى أن لا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح بل بشجرة الزيتون خاصة لان لب ثمرتها هو الزيت الذى هو مادة المصابيح وله من بين سائر الادهان خاصية زيادة الاشراق وقلة الدخان واذا كانت الماشية التى يكثر درها ونسلها والشجرة التى تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالذى لا يتناهى الى حد محدود اولى أن يسمى شجرة مباركة واذا كانت شعب الافكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الاجسام فبالحرى أن تكون لا شرقية ولا غربية (وأما الخامس) وهو القوة القدسية النبوية فهى فى نهاية الشرف والصفاء فان القوة الفكرية تنقسم الى ما يحتاج الى تعليم وتنبيه والى ما لا يحتاج اليه ولا بد من وجود هذا القسم قطعا للتسلسل فبالحرى ان يعبر عن هذا القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بانه يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار فهذا المثال موافق لهذا القسم ولما كانت هذه الانوار مرتبة بعضها على بعض فالحس هو الاول وهو كالمقدمة للخيال والخيال كالمقدمة للعقل فبالحرى أن تكون المشكاة كالظرف للزجاجة التى هى كالظرف للمصباح (وسادسها) ما ذكره أبو على بن سينا فانه نزل هذه

والجحى متعديان بالى أو لمذعنين على تضمين معنى الاسراع والاقبال كما فى قوله تعالى فأقبلوا اليه يزفون والتقديم للاختصاص (أفى قلوبهم مرض) انكار واستقباح لاعراضهم المذكور وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم والمتوقعة منهم وترديد المنشئية بينها فمدار الاستفهام ليس نفس ما وليته الهمزة وأم من الامور الثلاثة بل هو منشئيتها له كأنه قيل أذلك أى اعراضهم المذكور لانهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم (أم) لانهم (ارتابوا) فى أمر نبوته عليه السلام مع ظهور حقيتها (أم) لانهم (يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) ثم أضرب عن الكل وأبطلت منشئيته وحكم بان المنشئ أمر آخر من شنائعهم حيث قيل (بل أولئك هم الظالمون) أى ليس ذلك لشئ مما ذكر أما الاولان فلانه لو كان لشئ منهما لاعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحق لهم ولما أتوا اليه عليه السلام مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضا وأما الثالث فلانتفائه رأسا حيث كانوا لا يخافون الحيف أصلا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام فى الامانة والثبات على الحق بل لانهم هم الظالمون يريدون

الامثلة الخمسة على مراتب ادراكات النفس الانسانية فقال لاشك ان النفس الانسانية قابلة للمعارف الكلية والادراكات المجردة ثم انها فى أول الامر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تسمى عقلا هيولانيا وهى المشكاة وفى المرتبة الثانية يحصل فيها العلوم البديهية التى يمكن التوصل بتركيباتها الى اكتساب العلوم النظرية ثم ان امكنة الانتقال ان كانت ضعيفة فهى الشجرة وان كانت أقوى من ذلك فهى الزيت وان كانت شديدة القوة جدا فهى الزجاجة التى تكون كانها الكوكب الدرى وان كانت فى النهاية القصوى وهى النفس القدسية التى للانبياء فهى التى يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار (وفى المرتبة الثالثة) يكتسب من العلوم الفطرية الضرورية العلوم النظرية الا انها لا تكون حاضرة بالفعل ولكنها تكون بحيث متى شاء صاحبها استحضارها قدر عليه وهذا يسمى عقلا بالفعل وهو المصباح (وفى المرتبة الرابعة) أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية حاصلة بالفعل ويكون صاحبها كانه ينظر اليها وهذا يسمى عقلا مستفادا وهو نور على نور لان الملكة نور وحصول ما عليه الملكة نور آخر ثم زعم ان هذه العلوم التى تحصل فى الارواح البشرية انما تحصل من جوهر روحانى يسمى بالعقل الفعال وهو مدبر ما تحت كرة القمر وهو النار (وسابعها) قول بعض الصوفية هو انه سبحانه شبه الصدر بالمشكاة والقلب بالزجاجة والمعرفة بالمصباح وهذا المصباح انما توقد من شجرة مباركة وهى الهامات الملائكة لقوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره وقوله نزل به الروح الامين على قلبك وانما شبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم وانما وصفها بانها لا شرقية ولا غربية لانها روحانية وانما وصفهم بقوله يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار لكثرة علومها وشدة اطلاعها على أسرار ملكوت الله تعالى والظاهر ههنا ان المشبه غير المشبه به (وثامنها) قال مقاتل مثل نوره أى مثل نور الايمان فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة فيها مصباح فالمشكاة نظير صلب عبد الله والزجاجة نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والمصباح نظير الايمان فى قلب محمد أو نظير النبوة فى قلبه (وتاسعها) قال قوم المشكاة نظير ابراهيم عليه السلام والزجاجة نظير اسمعيل عليه السلام والمصباح نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والشجرة النبوة والرسالة (وعاشرها) ان قوله مثل نوره يرجع الى المؤمن وهو قول أبى بن كعب وكان يقرأها مثل نور المؤمن وهو قول سعيد بن جبير والضحاك واعلم ان القول الاول هو المختار لانه تعالى ذكر قبل هذه الآية ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات فاذا كان المراد بقوله مثل نوره أى مثل هداه وبيانه كان ذلك مطابقا لما قبله ولانا لما فسرنا قوله الله نور السموات والارض بانه هادى أهل السموات والارض فاذا فسرنا قوله مثل نوره بان المراد مثل هداه كان ذلك مطابقا لما قبله (الفصل الرابع) فى بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشكاة الكوة فى الجدار غير النافذة هذا هو القول المشهور وذكروا فيه وجوها أخر (أحدها)

أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جحوده فيأبون المحاكمة اليه عليه الصلاة والسلام لعلمهم بانه عليه الصلاة والسلام يقضى عليهم بالحق فمناط النفى المستفاد من الاضراب فى الاولين هو وصف منشئيتهما للاعراض فقط مع تحققهما فى نفسهما وفى الثالث هو الاصل والوصف جميعا هذا وقد خص الارتياب بما له منشأ مصحح لعروضه لهم فى الجملة والمعنى أم ارتابوا بان رأوا منه عليه الصلاة والسلام تهمة فزالت ثقتهم ويقينهم به عليه الصلاة والسلام فمدار النفى حينئذ نفس الارتياب ومنشئيته معا فتأمل فيما ذكر على التفصيل ودع عنك ما قيل وقيل حسبما يقتضيه النظر الجليل (انما كان قول المؤمنين) بالنصب على أنه خبر كان وأن مع ما فى حيزها اسمها وقرئ بالرفع على العكس والاول أقوى صناعة لان الاولى للاسمية ما هو أوغل فى التعريف وذلك هو الفعل المصدر بان اذ لا سبيل اليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين فانه يحتمله كما اذا اعتزلت عنه الاضافة لكن قراءة الرفع أقعد بحسب المعنى وأوفى لمقتضى المقام لما أن مصب الفائدة وموقع البيان فى الجمل هو الخبر فالاحق بالخبرية ما هو أكثر افادة وأظهر

قال ابن عباس وأبو موسى الاشعرى المشكاة القائم الذى فى وسط القنديل الذى يدخل فيه الفتيلة وهو قول مجاهد والقرظى (والثانى) قال الزجاج هى ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التى توضع فيها الفتيلة (الثالث) قال الضحاك انها الحلقة التى يعلق بها القنديل والاول هو الاصح (المسئلة الثانية) زعموا ان المشكاة هى الكوة بلغة الحبشة قال الزجاج المشكاة من كلام العرب ومثلها المسكاة وهى الدقيق الصغير (المسئلة الثالثة) قال بعضهم هذه الآية من المقلوب والتقدير مثل نوره كمصباح فى مشكاة لان المشبه به هو الذى يكون معدنا للنور ومنبعا له وذلك هو المصباح لا المشكاة (المسئلة الرابعة) المصباح السراج وأصله من الضوء ومنه الصبح (المسئلة الخامسة) قرئ زجاجة الزجاجة بالضم والفتح والكسر (أما دوى) فقرئ بضم الدال وكسرها وفتحها (أما الضم) ففيه ثلاثة أوجه (الاول) ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة ومعناه انه يشبه الدر لصفائه ولمعانه وقال عليه الصلاة والسلام انكم لترون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء (الثانى) انه كذلك الا انه بالمد والهمزة وهو قراءة حمزة وعاصم فى رواية أبى بكر وصار بعض أهل العربية الى انه لحن قال سيبويه وهذا أضعف اللغات وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس بمنسوب الى الدر قال أبو على وجه هذه القراءة انه فعيل من الدرء بمعنى الدفع وانه صفة وانه فى الصفة مثل المرىء فى الاسم (والثالث) ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز (أما الكسر) ففيه وجهان (الاول) درىء بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز وهى قراءة أبى عمرو والكسائى قال الفراء هو فعيل من الدرء وهو الدفع كالسكير والفسيق فكان ضوأه يدفع بعضه بعضا من لمعانه (الثانى) بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد وهى قراءة ابن خليد وعتبة بن حماد عن نافع (أما الفتح) ففيه وجوه أربعة (الاول) بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الاعمش (الثانى) بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة (الثالث) بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزا من غير مد ولا ياء عن عاصم (الرابع) كذلك الا انه غير مهموز وياء خفيفة بدل الهمزة ٭ أما قوله توقد القراءة المعروفة توقد بالفتحات الاربعة مع تشديد القاف بوزن تفعل وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك الا أنه بضم الدال وذكر صاحب الكشاف يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة واسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص كذلك الا أنه بالتاء وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها وعن أبى عمرو كذلك الا انه بالتاء وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكنة وكسر القاف وتخفيفها (المسئلة السادسة) قوله كأنها كوكب درى أى ضخم مضىء ودرارى النجوم عظامها واتفقوا على ان المراد به كوكب من الكواكب

دلالة على الحدوث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا ريب فى أن ذلك ههنا فى أن مع ما فى حيزها أتم وأكمل فاذا هو أحق بالخبرية وأما ما تفيده الاضافة من النسبة المطلقة الاجمالية بحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة مجملة وتجعل عنوانا للموضوع فالمعنى انما كان مطلق القول الصادر عن المؤمنين (اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) أى الرسول عليه الصلاة والسلام (بينهم) أى وبين خصومهم سواء كانوا منهم أو من غيرهم (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) أى خصوصية هذا القول المحكى عنهم لا قولا آخر أصلا وأما قراءة النصب فمعناها انما كان قول المؤمنين أى انما كان قولا لهم عند الدعوة خصوصية قولهم المحكى عنهم ففيه من جعل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعا وحضورا فى الاذهان وأحقهما بالبيان مفروغا عنها عنوانا للموضوع وابراز ما هو بخلافها فى معرض القصد الاصلى ما لا يخفى وقرئ ليحكم على بناء الفعل للمفعول مسندا الى مصدره مجاوبا لقوله تعالى اذا دعوا أى ليفعل الحكم كما فى

المضيئة كالزهرة والمشترى والثوابت التى فى العظم الاول (المسئلة السابعة) قوله من شجرة مباركة أى من زيت شجرة مباركة أى كثيرة البركة والنفع وقيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبيا منهم الخليل وقيل المراد زيتون الشام لانها هى الارض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة (المسئلة الثامنة) اختلفوا فى معنى وصف الشجرة بانها لا شرقية ولا غربية على وجوه (أحدها) قال الحسن انها شجرة الزيت من الجنة اذ لو كانت من شجر الدنيا لكانت اما شرقية أو غربية وهذا ضعيف لانه تعالى انما ضرب المثل بما شاهدوه وهم ما شاهدوا شجر الجنة (وثانيها) ان المراد شجرة الزيتون فى الشام لان الشام وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بانها شرقية أو غربية وهذا أيضا ضعيف لان من قال الارض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة ولان المثل مضروب لكل من يعرف الزيت وقد يوجد فى غير الشام كوجوده فيها (وثالثها) انها شجرة تلتف بها الاشجار فلا تصيبها الشمس فى شرق ولا غرب ومنهم من قال هى شجرة يلتف بها ورقها التفافا شديدا فلا تصل الشمس اليها سواء كانت الشمس شرقية أو غربية وليس فى الشجر ما يورق غصنه من أوله الى آخره مثل الزيتون والرمان وهذا أيضا ضعيف لان الغرض صفاء الزيت وذلك لا يحصل الا بكمال نضج الزيتون وذلك انما يحصل فى العادة بوصول اثر الشمس اليه لا بعدم وصوله (ورابعها) قال ابن عباس المراد الشجرة التى تبرز على جبل عال أو صحراء واسعة فتطلع الشمس عليها حالتى الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج قالا ومعناه لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما يقال فلان لا مسافر ولا مقيم اذا كان يسافر ويقيم وهذا القول هو المختار لان الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها فى نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصود التمثيل أكمل وأتم (وخامسها) المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح ما فى قلبه صلى الله عليه وسلم من الدين توقد من شجرة مباركة يعنى واتبعوا ملة أبيكم ابراهيم صلوات الله عليه فالشجرة هى ابراهيم عليه السلام ثم وصف ابراهيم فقال لا شرقية ولا غربية أى لم يكن يصلى قبل المشرق ولا قبل المغرب كاليهود والنصارى بل كان عليه الصلاة والسلام يصلى الى الكعبة (المسئلة التاسعة) وصف الله تعالى زيتها بانه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار لان الزيت اذا كان خالصا صافيا ثم رؤى من بعيد يرى كأن له شعاعا فاذا مسه النار ازداد ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد نورا على نور وهدى على هدى قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وقال كعب الاحبار المراد من الزيت نور محمد صلى الله عليه وسلم أى يكاد نوره يبين للناس قبل أن يتكلم وقال الضحاك يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحكمة قبل الوحى وقال عبد الله بن رواحة

قوله تعالى لقد تقطع بينكم أى وقع التقطع بينكم (وأولئك) اشارة الى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجميل (هم المفلحون) أى هم الفائزون بكل مطلب والناجون من كل محذور (ومن يطع الله ورسوله) استئناف جىء به لتقرير مضمون ما قبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم فى الانتظام فى سلكهم أى ومن يطعهما كائنا من كان فيما أمرا به من الاحكام الشرعية اللازمة والمتعدية وقيل فى الفرائض والسنن والاول هو الانسب بالمقام (ويخش الله ويتقه) باسكان القاف المبنى على تشبيهه بكتف وقرئ بكسر القاف والهاء وباسكان الهاء أى ويخش الله على ما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل (فأولئك) الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والاتقاء (هم الفائزون) بالنعيم المقيم لا من عداهم (وأقسموا بالله) حكاية لبعض آخر من اكاذيبهم مؤكدا بالايمان الفاجرة وقوله تعالى (جهد أيمانهم) نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله الذى هو فى حيز النصب على أنه حال من فاعل أقسموا أى أقسموا به تعالى

لولم تكن فيه آيات مبينة • كانت بديهته تنبئك بالخبر

(المسئلة العاشرة) قوله تعالى نور على نور المراد ترادف هذه الانوار واجتماعها قال أبى ابن كعب المؤمن بين أربع خلال ان أعطى شكروان ابتلى صبروان قال صدق وان حكم عدل فهو فى سائر الناس كالرجل الحى الذى يمشى بين الاموات يتقلب فى خمس من النور كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال الربيع سالت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته (المسئلة الحادية عشرة) قال الجبائى دلت الآية على ان كل من جهل فمن قبله أتى والافالادلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا قال أصحابنا هذه الآية تصريح مذهبنا فانه سبحانه بعد ان بين ان هذه الدلائل بلغت فى الظهور والوضوح الى هذا الحد الذى لا يمكن الزيادة عليه قال يهدى الله لنوره من يشاء يعنى وضوح هذه الدلائل لا يكفى ولا ينفع مالم يخلق الله الايمان ولا يمكن أن يكون المراد من قوله يهدى الله ايضاح الادلة والبيانات لانا لو حملنا النور على ايضاح الادلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضا والا لخرج الكلام عن الفائدة فلم يبق الا حمل الهدى ههنا على خلق العلم أجاب أبو مسلم بن بحر عنه من وجهين (الاول) ان قوله يهدى الله لنوره من يشاء محمول على زيادات الهدى الذى هو كالضد للخذلان الحاصل للضال (الثانى) انه سبحانه يهدى لنوره الذى هو طريق الجنة من يشاء وشبهه بقوله يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات وزيف القاضى عبد الجبار هذين الجوابين (أما الاول) فلان الكلام المتقدم هو فى ذكر الآيات المنزلة فاذا حملناه على الهدى دخل الكل فيه واذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه الا البعض واذا حمل على طريق الجنة لا يكون داخلا فيه أصلا الا من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ولما زيف هذين الجوابين قال الاولى أن يقال انه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغهم حد التكليف واعلم ان هذا الجواب أضعف من الجوابين الاولين لان قوله يهدى الله لنوره من يشاء يفهم منه ان هذه الآيات مع وضوحها لا تكفى وهذا لا يتناول الصبى والمجنون فسقط ما قالوه (المسئلة الثانية عشرة) قوله تعالى ويضرب الله الامثال للناس والمراد للمكلفين من الناس وهو النبى ومن بعث اليه فانه سبحانه ذكر ذلك فى معرض النعمة العظيمة واستدلت المعتزلة به فقالوا انما يكون ذلك نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به وجوابه ما تقدم ثم بين انه سبحانه بكل شئ عليم وذلك كالوعيد لمن لا يعتبر ولا يتفكر فى أمثاله ولا ينظر فى أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات ۞ قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلوة وايتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى)

يجهدون أيمانهم جهدا ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها أى جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين فى الشدة والوكادة وقيل هو مصدر مؤكد لاقسموا أى أقسموا اقسام اجتهاد فى اليمين قال مقاتل من حلف بالله فقد اجتهد فى اليمين (لئن أمرتهم) أى بالخروج الى الغزو لا عن ديارهم وأموالهم كما قيل لانه حكاية لما كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك ائن خرجت خرجنا وان أقمت أقمنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقوله تعالى (ليخرجن) جواب لاقسموا بطريق حكاية فعلهم لا حكاية قولهم وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه السلام بردها حيث قيل (قل) أى ردا عليهم وزجرا لهم عن التفوه بها واظهارا لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها (لا تقسموا) أى على ما ينبئ عنه كلامكم من الطاعة وقوله تعالى (طاعة معروفة) خبر مبتدا محذوف والجملة تعليل للنهى أى لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة لان طاعتكم طاعة نفاقية واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب وانما عبر عنها بمعروفة للايذان بان كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد وقرئ

الاولى) قوله تعالى فى بيوت أذن الله يقتضى محذوفا يكون فيها وذكروا فيه وجوها (أحدها) ان التقدير كمشكاة فيها مصباح فى بيوت أذن الله وهو اختيار كثير من المحققين اعترض أبو مسلم بن بحر الاصفهانى عليه من وجهين (الاول) ان المقصود من ذكر المصباح المثل وكون المصباح فى بيوت أذن الله لا يزيد فى هذا المقصود لان ذلك لا يزيد المصباح انارة واضاءة (الثانى) ان ما تقدم ذكره فيه وجوه تقتضى كونه واحدا كقوله كمشكاة وقوله فيها مصباح وقوله فى زجاجة وقوله كأنها كوكب درى ولفظ البيوت جمع ولا يصح كون هذا الواحد فى كل البيوت (والجواب) عن الاول ان المصباح الموضوع فى الزجاجة الصافية اذا كان فى المساجد كان أعظم وأضخم فكان أضوأ فكان التمثيل به أتم وأكمل (وعن الثانى) انه لما كان القصد بالمثل هو الذى له هذا الوصف فيدخل تحته كل مشكاة فيها مصباح فى زجاجة تتوقد من الزيت وتكون الفائدة فى ذلك أن ضوأها يظهر فى هذه البيوت بالليالى عند الحاجة الى عبادة الله تعالى ولو أن رجلا قال الذى يصلح لخدمتى رجل يرجع الى علم وكفاية وقناعة يلتزم بيته لكان وان ذكره بلفظ الواحد فالمراد النوع فكذا ما ذكره الله سبحانه فى هذه الآية (وثانيها) التقدير توقد من شجرة مباركة فى بيوت أذن الله أن ترفع (وثالثها) وهو قول أبى مسلم انه راجع الى قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم أى ومثلا من الذين خلوا من قبلكم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويكون المراد بالذين خلوا الانبياء والمؤمنين والبيوت المساجد وقد اقتص الله أخبار الانبياء عليهم الصلاة والسلام وذكر أماكنهم فسماها محاريب بقوله اذ تسوروا المحراب ودخل عليها زكريا المحراب فيقول ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات وأنزلنا أقاصيص من بعث قبلكم من الانبياء والمؤمنين فى بيوت أذن الله أن ترفع (ورابعها) قول الجبائى انه كلام مستأنف لا تعلق له بما تقدم والتقدير صلوا فى بيوت أذن الله أن ترفع (وخامسها) وهو قول الفراء والزجاج انه لا حذف فى الآية بل فيه تقديم وتأخير كأنه قال يسبح فى بيوت اذن الله أن ترفع رجال صفتهم كيت وكيت وأما قول أبى مسلم فقد اعترض عليه القاضى من وجهين (الاول) ان قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم المراد منه من خلا من المكذبين للرسل لتعلقه بما تقدم من الاكراه على الزنا ابتغاء للدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت لانها بيوت أذن الله أن يذكر فيها اسمه (الثانى) ان هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية بما تخلل بينهما من قوله تعالى الله نور السموات والارض وأما قول الجبائى فقبل الاضمار لا يجوز المصير اليه الا عند الضرورة وعلى التاويل الذى ذكره الفراء والزجاج لا حاجة اليه فلا يجوز المصير اليه فان قيل على قول الزجاج يتوجه عليه اشكال أيضا لان على قوله يصير المعنى فى بيوت أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكرارا من غير فائدة قلنا ان تحمل مثل هذه الزيادة أولى من تحمل ذلك النقصان قلنا الزيادة لاجل التاكيد كثيرة فكان المصير اليها

بالنصب والمعنى تطيعون طاعة معروفة هذا وحملها على الطاعة الحقيقية بتقدير ما يناسبها من مبتدأ أو خبر أو فعل مثل الذى يطلب منكم طاعة معروفة حقيقية لا نفاقية أو طاعة معروفة أمثل أولى بكن طاعة معروفة أو أطيعوا طاعة معروفة مما لا يساعده المقام (ان الله خبير بما تعملون) من الاعمال الظاهرة والباطنة التى من جملتها ما تظهرونه من الاكاذيب المؤكدة بالايمان الفاجرة وما تضمرونه فى قلوبكم من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها من فنون الشر والفساد والجملة تعليل للحكم بان طاعتهم طاعة نفاقية مشعر بان مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين اخباره تعالى بذلك ووعيد لهم بانه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التى منها نفاقهم (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) كرر الامر بالقول لابراز كمال العناية به والاشعار باختلافهما من حيث ان المقول فى الاول نهى بطريق الرد والتقريع كما فى قوله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون وفى الثانى أمر بطريق التكليف والتشريع واطلاق الطاعة المامور بها عن وصف الصحة والاخلاص ونحوهما بعد وصف طاعتهم بما ذكر للتنبيه على أنها

أولى (المسئلة الثانية) اكثر المفسرين قالوا المراد من قوله فى بيوت المساجد وعن عكرمة فى بيوت قال هى البيوت كلها والاول اولى لوجهين (الاول) ان فى البيوت ما لا يمكن أن يوصف بان الله تعالى أذن أن ترفع (الثانى) انه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة وذلك لا يليق الا بالمساجد ثم للقائلين بان المراد هو المساجد قولان (احدهما) ان المراد أربع مساجد الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة السلام وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ومسجد المدينة بناه النبى صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء الذى أسس على التقوى بناه نبى الله صلى الله عليه وسلم وعن الحسن هو بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل (والثانى) ان المراد هو جميع المساجد والاول ضعيف لانه تخصيص بلا دليل فالاولى حمل اللفظ على جميع المساجد قال ابن عباس رضى الله عنهما المساجد بيوت الله فى الارض وهى تضىء لاهل السماء كما تضىء النجوم لاهل الارض (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى المراد من قوله أن ترفع على اقوال (أحدها) المراد من رفعها بناؤها لقوله بناها رفع سمكها فسواها وقوله واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى المساجد أمر الله أن تبنى (وثانيها) ترفع اى تعظم وتطهر عن الانجاس وعن اللغو من الاقوال عن الزجاج (وثالثها) المراد مجموع الامرين (والقول الثانى) أولى لان قوله فى بيوت أذن الله أن ترفع ظاهره انها كانت بيوتا قبل لرفع فاذن الله أن ترفع (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى المراد من قوله ويذكر فيها اسمه فالقول الاول انه عام فى كل ذكر (والثانى) ان يتلى فيها كتابه عن ابن عباس (والثالث) لا يتكلم فيها بالا ينبغى والاول أولى لعموم اللفظ (المسئلة الخامسة) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يسبح بفتح الباء والباقون بكسرها وعلى القراءة الاولى يكون القول ممتدا الى آخر الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغدو والآصال ثم قال الزجاج رجال مرفوع لانه لما قال يسبح له فيها فكانه قيل من يسبح فقيل يسبح رجال (المسئلة السادسة) اختلفوا فى هذا التسبيح فالاكثرون حملوه على نفس الصلاة ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتى الصبح والعصر فقال كانتا واجبتين فى ابتداء الحال ثم زيد فيهما ومنهم من حمله على التسبيح الذى هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به فى ذاته وفعله واحتج عليه بان الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وهذا الوجه أظهر (المسئلة السابعة) الآصال جمع أصل والاصل جمع أصيل وهو العشى وانما وحد الغدو لانه فى الاصل مصدر لا يجمع والاصيل اسم جمع قال صاحب الكشاف بالغدو أى باوقات الغدو أى بالغدوات وقرئ والايصال وهو الدخول فى الاصيل يقال آصل كاصبح وأظهر قال ابن عباس رحمهما الله ان صلاة الضحى لفى كتاب الله تعالى مذكورة وتلا هذه الآية وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما من أحد

يغدو

ليست من الطاعة فى شىء أصلا وقوله تعالى (فان تولوا) خطاب للمامورين بالطاعة من جهته تعالى وارد لتأكيد الامر بها والمبالغة فى ايجاب الامتثال به والحمل عليه بالترهيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشانه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع كما أشير اليه فى تفسير قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا لاسيما اذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة الى الخطاب بالذات فان فى خطابه تعالى اياهم بالذات بعد أمره تعالى اياهم بوساطته عليه السلام وتصديه لبيان حكم الامتثال بالامر والتولى عنه اجمالا وتفصيلا من افادة ما ذكر من التأكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه وتوهم أنه داخل تحت القول المامور بحكايته من جهته تعالى وأنه أبلغ فى التبكيت تعكيس للامر والفاء لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه السلام للمامور به اليهم وعدم التصريح به للايذان بغاية ظهوره ومسارعته عليه السلام الى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة الى الذكر أى ان تتولوا عن الطاعة اثر ما أمرتم بها (فانما عليه) أى فاعلموا انما عليه عليه السلام (ما حمل) أى أمر به من

يغدو ويروح الى المسجد يؤثره على ما سواه الا وله عند الله نزل يعد له فى الجنة وفى رواية سهل بن سعد مرفوعا من غدا الى المسجد وراح ليعلم خيرا أو ليتعلمه كان كمثل المجاهد فى سبيل الله يرجع غانما (المسئلة الثامنة) اختلفوا فى قوله تعالى لا تلهيهم تجارة فقال بعضهم نفى كونهم تجارا وباعة أصلا وقال بعضهم بل اثبتهم تجارا وباعة وبين انهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات وهذا قول الاكثرين قال الحسن أما والله ان كانوا ليتجرون ولكن اذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شىء فقاموا بالصلاة والزكاة وعن سالم نظر الى قوم من أهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا الى الصلاة فقال هم الذين قال تعالى لا تلهيهم تجارة وعن ابن مسعود مثله واعلم أن هذا القول أولى من الاول لانه لا يقال ان فلانا لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت الا وهو تاجر وان احتمل الوجه الاول وههنا سؤالات (السؤال الاول) لما قال لا تلهيهم تجارة دخل فيه البيع فلم اعاد ذكر البيع قلنا (الجواب) عنه من وجوه (الاول) أن التجارة جنس يدخل تحته انواع الشراء والبيع الا أنه سبحانه خص البيع بالذكر لانه فى الالهاء أدخل لان الربح الحاصل فى البيع يقين ناجز والربح الحاصل فى الشراء شك ومستقبل (الثانى) ان البيع يقتضى تبديل العرض بالنقد والشراء بالعكس والرغبة فى تحصيل النقد أكثر من العكس (الثالث) قال الفراء التجارة لاهل الجلب يقال اتجر فلان فى كذا اذا جلبه من غير بلده والبيع ما باعه على يديه (السؤال الثانى) لم خص الرجال بالذكر (والجواب) لان النساء لسن من أهل التجارات والجماعات (المسئلة التاسعة) اختلفوا فى المراد بذكر الله تعالى فقال قوم المراد الثناء على الله تعالى والدعوات وقال آخرون المراد الصلوات فان قيل فما معنى قوله واقام الصلاة قلنا عنه جوابان (أحدهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد باقام الصلاة اقامتها لمواقيتها (والثانى) يجوز أن يكون قوله واقام الصلاة تفسير الذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفى الصلاة (المسئلة العاشرة) قد ذكرنا فى أول تفسير سورة البقرة فى قوله ويقيمون الصلاة أن اقام الصلاة هو القيام بحقها على شروطها والوجه فى حذف الهاء ما قاله الزجاج يقال اقمت الصلاة اقامة وكان الاصل اقواما ولكن قلبت الواو ألفا فاجتمع ألفان فحذفت احداهما لالتقاء الساكنين فبقى اقمت الصلاة اقاما فادخلت الهاء عوضا من المحذوف وقامت الاضافة ههنا فى التعويض مقام الهاء المحذوفة قال وهذا اجماع من النحويين (المسئلة الحادية عشرة) اختلفوا فى الصلاة فمنهم من قال هى الفرائض ومنهم من ادخل فيه النفل على ما حكيناه فى صلاة الضحى عن ابن عباس والاول أقرب لانه الى التعريف اقرب وكذلك القول فى الزكاة أن المراد المفروض لانه المعروف فى الشرع المسمى بذلك وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد من الزكاة طاعة الله تعالى والاخلاص وكذا فى قوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وقوله ما زكى منكم من أحد وقوله تطهرهم وتزكيهم بها وهذا ضعيف لما تقدم

التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول (وعليكم ما حملتم) أى ما أمرتم به من الطاعة ولعل التعبير عنه بالتحميل للاشعار بثقله وكونه مؤنة باقية فى عهدتهم بعد كأنه قيل وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل وقوله تعالى ما حمل محمول على المشاكلة (وان تطيعوه) أى فيما أمركم به من الطاعة (تهتدوا) الى الحق الذى هو المقصد الاصلى الموصل الى كل خير والمنجى من كل شر وتأخيره عن بيان حكم التولى لما فى تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم وقوله تعالى (وما على الرسول الا البلاغ المبين) اعتراض مقرر لما قبله من أن غائلة التولى وفائدة الاطاعة مقصورتان عليهم واللام اما للجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا أو للعهد أى ما على جنس الرسول كائنا من كان أو ما عليه عليه السلام الا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج الى الايضاح أو الواضح على أن المبين من أبان بمعنى بان وقد علمتم أنه قد فعله بما لا مزيد عليه وانما بقى ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم) استئناف مقرر لما فى قوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا من الوعد الكريم ومعرب

ولانه تعالى علق الزكاة بالايتاء وهـذا لايحمل الا على مايعطى من حقوق المال (المسئلة الثانية عشرة) انه سبحانه بين أن هؤلاء الرجال وان تعبدوا بذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار وذلك الخوف انما كان لعلمهم بانهم ماعبدوا الله حق عبادته واختلفوا فى المراد بتقلب القلوب والابصار على اقوال فالقول الاول ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار لقوله واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر (الثانى) أنها تتغير أحوالها فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لاتفقه وتبصر الابصار بعد أن كانت لاتبصر فكانهم انقلبوا من الشك الى الظن ومن الظن الى اليقين ومن اليقين الى المعاينة لقوله وبدا لهـم من الله مالم يكونوا يحتسبون وقوله لقد كنت فى غفلة من هـذا فكشفنا عنك غطاءك (الثالث) أن القلوب تتقلب فى ذلك اليوم طمعا فى النجاة وحـذرا من الهـلاك والابصار تتقلب من أى ناحية يؤمر بهم أمن ناحية اليمين أم من ناحية الشمال ومن أى ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الايمان أم من قبل الشمائل والمعتزلة لايرضون بهذا التاويل فانهم قالوا ان أهل الثواب لاخوف عليهم البتة فى ذلك اليوم وأهل العقاب لايرجون العفو لكنا بينا فساد هذا المذهب غيرمرة (الرابع) أن القلوب تزول عن اماكنها فتبلغ الحناجر والابصار تصير زرقا قال الضحاك يحشر الكافر وبصره حديد وتزرق عيناه ثم يعمى و يتقلب القلب من الخوف حيث لايجد مخلصا حتى يقع فى الحنجرة فهو قوله اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين (الخامس) قال الجبائى المراد بتقلب القلوب والابصار تغيرهيا تهما بسبب ماينالها من العذاب فتكون مرة بهيئة ماانضج بالنار ومرة بهيئة مااحترق قال ويجوز أن يريد به تقلبها على جمر جهنم وهو معنى قوله تعالى ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة (المسئلة الثالثة عشرة) قوله ليجزيهم الله أحسن ماعملوا أى يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ماعملوا وفيه وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسنات اجمع وهى الطاعات فرضها ونفلها قال مقاتل انما ذكر الاحسن تنبيها على انه لايجازيهم على مساوى أعمالهم بل يغفرها لهم (الثانى) انه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ماعملوا على الواحد عشرا الى سبعمائة (الثالث) قال القاضى المراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وانما يجزيهم الله تعالى باحسن الاعمال وهذا مستقيم على مذهبه فى الاحباط والموازنة أما قوله تعالى ويزيدهم من فضله فالمعنى انه تعالى يجزيهم باحسن الاعمال ولا يقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ماذكره تعالى فى سائر الآيات من التضعيف فان قيل فهذا يدل على ان لفعل الطاعة اثرا فى استحقاق الثواب لانه تعالى ميز الجزاء عن الفضل وأنتم لاتقولون بذلك فان عندكم العبد لايستحق على ربه شيأ قلنا نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذلك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال والله يرزق من يشاء بغير حساب نبه به

على

عنـه بطريق التصريح ومبـين
لتفاصيل ما أجـمل فيه من فنون
السعادات الدينية والدنيوية التى
هى من آثار الاهتداء ومتضمن لما
هو المراد بالطاعـة التى نيط بها
الاهتداء والمراد بالذين آمنوا كل
من اتصف بالايمان بعـد الكفر
على الاطلاق من أى طائفة كان
وفى أى وقت كان لامن آمن من
طائفـة المنافقـين فقط ولامن
آمن بعـد نزول الآية الكريمة
حسب ضرورة عموم الوعد الكريم
للكل كافة فالخطاب فى منكم لعامة
الكفرة لا للمنافقين خاصة ومن
تبعيضـية (وعملوا الصالحات)
عطف على آمنوا داخل معه فى حيز
الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التى
أمر بها ورتب عليها ما انتظم فى سلك
الوعد الكريم كما أشير اليه وتوسيط
الظـرف بين المعطوفين لاظهار
أصالة الايمان وعراقته فى استتباع
الآثار والاحكام وللايذان بكونه
أول ما يطلب منهـم وأهم ما يجب
عليهم وأما تأخيره عنهما فى قوله
تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا
الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما
فلان من هناك بيانيـة والضمير
للذين معه عليه السلام من خلص
المؤمنين ولا ريب فى أنهم جامعون
بين الايمان والاعمال الصالحة
مثابرون عليهـما فلا بد من ورود
بيانهم بعد ذكر نعوتهـم الجليلة

على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة احسانه فكان سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد فى الطاعة ومع ذلك يكونون فى نهاية الخوف فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ويزيدهم الفضل الذى لاحد له فى مقابلة خوفهم ۞ قوله تعالى

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا

ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج

من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن

لم يجعل الله له نورا فماله من نور) اعلم انه سبحانه لما بين حال المؤمن وأنه فى الدنيا يكون فى النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم بين انه فى الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم اتبع ذلك بان بين أن الكافر يكون فى الآخرة فى أشد الخسران وفى الدنيا فى أعظم أنواع الظلمات وضرب لكل واحد منهما مثلا أما المثل الدال على خيبته فى الآخرة فهو قوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة قال الازهرى السراب مايتراءى للعين وقت الضحى الاكبر فى الفلوات شبيه الماء الجارى وليس بماء ولكن الذى ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا يقال سرب الماء يسرب سروبا اذا جرى فهو سارب أما الآل فهو مايتراءى للعين فى أول النهار فيرى الناظر الصغير كبيرا وظاهر كلام الخليل أن الآل والسراب واحد وأما القيعة فقال الفراء هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوى من الارض وقال صاحب الكشاف القيعة بمعنى القاع وقال الزجاج الظمآن قد يخفف همزه وهو الشديد العطش ثم وجه التشبيه أن الذى يأتى به الكافر ان كان من أفعال البر فهو لايستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه عقابا مع انه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصات القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه فيشبه حاله حال الظمآن الذى تشتد حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فاذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه وهـذا المثال فى غاية الحسن قال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا فان قيل قوله حتى اذا جاءه يدل على كونه شيئا وقوله لم يجده شيئا مناقض له قلنا الجواب عنه من وجوه ثلاثة (الاول) المراد معناه انه لم يجده شيئا نافعا كما يقال فلان ماعمل شيئا وان كان قد اجتهد (الثانى) حتى اذا جاءه اى جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه (الثالث) الكناية للسراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء واذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء أما قوله ووجد الله عنده فوفاه حسابه أى وجد عقاب الله الذى توعده الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم الى تيقن الضرر العظيم أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به الى جهنم فيسقونه الحميم والغساق

بكمالها هـذا ومن جعل الخطاب
للنبى عليـه الصلاة والسـلام
وللامة عموما على أن من تبعيضية
أوله عليه السـلام ولمن معه من
المؤمنين خصوصا على أنها بيانية
فقد نأى عما يقتضيه سياق النظم
الكريم وسباقه بمنازل وأبعد عما
يليق بشانه عليه السلام بمراحل
(ليستخلفنهم فى الارض) جواب
للقسم اما بالاضمار أو بتنزيل وعده
تعالى منزلة القسم لتحقق انجازه
لامحالة أى ليجعلنهـم خلفاء
متصرفين فيها تصرف الملوك
فى ممالكهم أو خلفا من الذين لم
يكونوا على حالهـم من الايمان
والاعمال الصالحة (كما استخلف الذين
من قبلهم) هم بنو اسرائيل استخلفهم
الله عز وجل فى مصر والشام بعد
اهلاك فرعون والجبابرة أوهم
ومن قبلهم من الامم المؤمنة التى
أشير اليهم فى قوله تعالى ألم يأتكم
نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد
وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم
الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات الى
قوله تعالى فأوحى اليهـم ربهـم
لنهلكن الظالمين ولنسكننكم
الارض من بعدهم ومحل الكاف
النصب على انه مصـدر تشبيهى
مؤكد للفعل بعد تأكيده بالقسم
وما مصدرية اى ليستخلفنهم استخلافا
كائنا كاستخلافه تعالى للذين من
قبلهم وقرئ كما استخلف على البناء

وهم الذين قال الله تعالى فيهم عاملة ناصبة و يحسبون انهم يحسنون صنعا وقدمنا الى ماعملوا من عمل وقيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين فى الجاهلية ثم كفر فى الاسلام أما قوله والله سريع الحساب فذلك لانه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب وقال بعض المتكلمين معناه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك (واما المثل الثانى) فهو قوله أو كظلمات فى بحر لجى وفى لفظة أو ههنا وجوه (أحدها) اعلم أن الله تعالى بين ان أعمال الكفار ان كانت حسنة فمثلها السراب وان كانت قبيحة فهى الظلمات (وثانيها) تقدير الكلام أن اعمالهم اما كسراب بقيعة وذلك فى الآخرة واما كظلمات فى بحر وذلك فى الدنيا (وثالثها) الآية الاولى فى ذكر أعمالهم وأنهم لا يحصلون منها على شئ والآية الثانية فى ذكر عقائدهم فانها تشبه الظلمات كما قال يخرجهم من الظلمات الى النور أى من الكفر الى الايمان يدل عليه قوله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وأما البحر اللجى فهو ذو اللجة التى هى معظم الماء الغمر البعيد القعر وفى اللجى لغتان كسر اللام وضمها واما تقرير المثل فهو أن البحر اللجى يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت عليه الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى فالواقع فى قعر هذا البحر اللجى يكون فى نهاية شدة الظلمة ولما كانت العادة فى اليد أنها من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظن انه لا يراها فقال تعالى لم يكد يراها وبين سبحانه بهذا بلوغ تلك الظلمة الى اقصى النهايات ثم شبه به الكافر فى اعتقاده وهو ضد المؤمن فى قوله تعالى نور على نور وفى قوله يسعى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم ولهذا قال أبى بن كعب الكافر يتقلب فى خمس من الظلم كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره الى النار وفى كيفية هذا التشبيه وجوه اخر (أحدها) أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل عن الحسن (وثانيها) شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث عن ابن عباس (وثالثها) أن الكافر لا يدرى ولا يدرى انه لا يدرى ويعتقد انه يدرى فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات (ورابعها) أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى ان اظهر الدلائل اذا ذكرت عنده لا يفهمها (وخامسها) قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم أما قوله ظلمات بعضها فوق بعض فروى عن ابن كثير انه قرأ سحاب وقرأ ظلمات بالجر على البدل من قوله أو كظلمات وعنه أيضا انه قرأ سحاب ظلمات كما يقال سحاب رحمة وسحاب عذاب على الاضافة وقراءة الباقين سحاب ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين وتمام الكلام عند قوله سحاب ثم ابتدأ ظلمات أى ما تقدم ذكره ظلمات بعضها فوق بعض أما قوله لم يكد يراها ففيه قولان (أحدهما) أن كاد نفيه اثبات واثباته نفى فقوله وما كادوا يفعلون نفى فى

للمفعول فليس العامل فى الكاف حينئذ الفعل المذكور بل ما يدل هو عليه من فعل مبنى هو للمفعول جار منه مجرى المطاوع فان استخلافه تعالى اياهم مستلزم لكونهم مستخلفين لا محالة كأنه قيل ليستخلفنهم فى الارض فيستخلفن فيها استخلافا أى مستخلفية كائنة كمستخلفية من قبلهم وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى كما سئل موسى من قبل ومن هذا القبيل قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا على أحد الوجهين أى فنبتت نباتا حسنا وعليه قول من قال

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال الا مسحت أو مجلف

أى فلم يبق الا مسحت الخ (وليمكنن لهم دينهم) عطف على ليستخلفنهم منتظم معه فى سلك الجواب وتأخيره عنه مع كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها لما أن النفوس الى الحظوظ العاجلة اميل فتصدير المواعيد بها فى الاستمالة ادخل والمعنى ليجعلن دينهم ثابتا مقررا بحيث يستمرون على العمل باحكامه ويرجعون اليه فى كل ما يأتون وما يذرون والتعبير عن ذلك بالتمكين الذى هو جعل الشئ مكانا لآخر يقال مكن له فى الارض أى جعلها مقرا له ومنه قوله تعالى انا مكنا له فى الارض ونظائره وكلمة فى للايذان بان

اللفظ

اللفظ ولكنه اثبات فى المعنى لانهم فعلوا ذلك وقوله عليه الصلاة والسلام كاد الفقر أن يكون كفرا اثبات فى اللفظ لكنه نفى فى المعنى لانه لم يكفر فكذا ههنا قوله لم يكد يراها معناه أنه رآها (والثانى) ان كاد معناه المقاربة فقوله لم يكد يراها معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أن الذى لم يقارب الوقوع لم يقع أيضا وهذا القول هو المختار والاول ضعيف لوجهين (الاول) أن ما يكون أقل من هذه الظلمات فانه لا يرى فيه شئ فكيف مع هذه الظلمات (الثانى) أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة فى جهالة الكفار وذلك انما يحصل اذا لم توجد الرؤية البتة مع هذه الظلمات أما قوله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فقال أصحابنا انه سبحانه لما وصف هداية المؤمن بانها فى نهاية الجلاء والظهور عقبها بان قال يهدى الله لنوره من يشاء ولما وصف ضلالة الكافر بانها فى نهاية الظلمة عقبها بقوله ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور والمقصود من ذلك أن يعرف الانسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الايمان وظلمة الطريق لا تمنع منه فان الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه وقال القاضى المراد بقوله ومن لم يجعل الله له نورا اى فى الدنيا بالالطاف فما له من نور أى لا يهتدى فيتحير ويحتمل ومن لم يجعل الله له نورا أى خلاصا فى الآخرة وفوزا بالثواب فما له من نور والكلام عليه تزييفا وتقريرا معلوم ۞ قوله تعالى (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والارض والى الله المصير) اعلم انه سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد (فالنوع الاول) ما ذكره فى هذه الآية ولا شبهة فى أن المراد ألم تعلم لان التسبيح لا تتناوله الرؤية بالبصر ويتناوله العلم بالقلب وهذا الكلام وان كان ظاهره استفهاما فالمراد التقرير والبيان فنبه تعالى على ما يلزم من تعظيمه بان من فى السموات يسبح له وكذلك من فى الارض واعلم أنه اما أن يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال واما ان يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح وتتكلم به واما أن يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان والقسم الاول أقرب لان القسم الثانى متعذر لان فى الارض من لا يكون مكلفا لا يسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لا يسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار أما القسم الثالث وهو أن يقال ان من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين فى الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على سبيل الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز فلم يبق الا القسم الاول وذلك لان هذه الاشياء مشتركة فى أن اجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته والهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيها على وجه التوسع فان قيل فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء قلنا لان خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود

ما جعل مقرا له قطعة منها الا كلها للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته من التغيير والتبديل لابتنائه على تشبيهه بالارض فى الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف فى الارض وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة الى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقا لهم اليه وترغيبا لهم فى قبوله عند وروده ولان فى توسيطها بينه وبين وصفه أعنى قوله تعالى (الذى ارتضى لهم) وفى تأخيرها عنه من الاخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى وفى اضافة الدين اليهم وهو دين الاسلام ثم وصفه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه (وليبدلنهم) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الابدال (من بعد خوفهم) أى من الاعداء (أمنا) حيث كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة عشر سنين بل أكثر خائفين ثم هاجروا الى المدينة وكانوا يصبحون فى السلاح ويمسون كذلك حتى قال رجل منهم ما يأتى علينا يوم نأمن فيه فقال عليه الصلاة والسلام لا تغبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة فأنزل الله عز وجل

الصانع سبحانه لان العجائب والغرائب فى خلقهما أكثر وهى العقل والنطق والفهم أما قوله تعالى والطير صافات فلقائل أن يقول ما وجه اتصال هذا بما قبله (والجواب) انه سبحانه لما ذكر أن أهل السموات وأهل الارض يسبحون ذكر ان الذين استقروا فى الهواء الذى هو بين السماء والارض وهو الطير يسبحون وذلك لان اعطاء الجرم الثقيل القوة التى بها يقوى على الوقوف فى جو السماء صافة باسطة اجنحتها بما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل على قدرة الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجودا منها له سبحانه وذلك يؤكد ما ذكرنا من أن المراد من التسبيح دلالة هذه الاحوال على التنزيه لا النطق اللسانى أما قوله كل قد علم صلاته وتسبيحه ففيه ثلاثة أوجه (الاول) المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا ويدل عليه قوله سبحانه والله عليم بما يفعلون وهو اختيار جمهور المتكلمين (والثانى) أن يعود الضمير فى الصلاة والتسبيح على لفظ كل أى انهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح (والثالث) أن تكون الهاء راجعة على ذكر الله يعنى قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التى كلفه اياها وعلى هذين التقديرين فقوله والله عليم استئناف وروى عن ابى ثابت قال كنت جالسا عند محمد بن جعفر الباقر رضى الله عنه فقال لى أتدرى ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قال لا قال فانهن يقدسن ربهن ويسألنه قوت يومهن واستبعد المتكلمون ذلك فقالوا الطير لو كانت عارفة بالله تعالى لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا واشارتنا لكنها ليست كذلك فانا نعلم بالضرورة انها أشد نقصانا من الصبى الذى لا يعرف هذه الامور فبان يمتنع ذلك فيها أولى واذا ثبت انها لا تعرف الله تعالى استحال كونها مسبحة له بالنطق فثبت انها لا تسبح الله الا بلسان الحال على ما تقدم تقريره قال بعض العلماء انا نشاهد ان الله تعالى الهم الطيور وسائر الحشرات اعمالا لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء واذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان انه سبحانه ألهمها الاعمال اللطيفة من وجوه (أحدها) احتيالها فى كيفية الاصطياد فتامل فى العنكبوت كيف يأتى بالحيل اللطيفة فى اصطياد الذباب ويقال ان الدب يستلقى فى ممر الثور فاذا رام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى يثخنه وانه يرمى بالحجارة ويأخذ العصا ويضرب الانسان حتى يتوهم انه مات فيتركه وربما عاود يتشممه ويتجسس نفسه ويصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تعريضا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويستف لبه ويحكى عن الفأر فى سرقته أمور عجيبة (وثانيها) أمر النحل وما لها من الرياسة وبناء البيوت المسدسة التى لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين (وثالثها) انتقال الكراكى من طرف من اطراف العالم الى الطرف الآخر طلبا لما يوافقها من الاهوية ويقال ان من خواص الخيل ان كل واحد منها يعرف صوت الفرس الذى قاتله وقتا ما والكلاب تتصايح بالعبة المعروفة لها والفهد اذا سقى أو شرب من

هذه الآية وأنجز وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وفتح لهم بلاد الشرق والغرب وصاروا الى حال يخافهم كل من عداهم وفيه من الدلالة على صحة النبوة للاخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى وقيل المراد الخوف من العذاب والامن منه فى الآخرة (يعبدوننى) حال من الموصول الاول مقيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف وما انتظم معه فى سلك الوعد (لا يشركون بى شيا) حال من الواو أى يعبدوننى غير مشركين بى فى العبادة شيا (ومن كفر) أى اتصف بالكفر بان ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترهيب والترغيب فان الاصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف زائد على الاصل وقيل كفر بعد الايمان وقيل كفر هذه النعمة العظيمة والاول هو الانسب بالمقام (بعد ذلك) أى بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى الجميل فى حيازتها (فأولئك) البعداء عن الحق التائهون فى تيه الغواية والضلال (هم الفاسقون) الكاملون

الدواء المعروف بخانق الفهد عمد الى زبل الانسان فأكله والتماسيح تفتح افواهها لطائر يقع عليها كالعقعق وينظف ما بين اسنانها وعلى رأس ذلك الطير كالشوك فاذا هم التمساح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك فيفتح فاه فيخرج الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى بعض الثقات المجربين للصيد انه شاهد الحبارى تقاتل الافعى وتنهزم عنه الى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا يزال ذلك دأبه فكان ذلك الشيخ قاعدا فى كن غائر فعل القنصة وكانت البقلة قريبة من مكمنه فلما اشتغل الحبارى بالافعى قلع البقلة فعادت الحبارى الى منبتها ففقدته واخذت تدور حول منبتها دورانا متتابعا حتى خرميتا فعلم الشيخ انه كان يتعالج بأكلها من اللسعة وتلك البقلة كانت هى الجرجير البرى وأما ابن عرس فيستظهر فى قتال الحية بأكل السذاب فان النكهة السذابية مما تنفر منها الافعى والكلاب اذا دودت بطونها أكلت سنبل القمح واذا جرحت اللقالق بعضها بعضا داوت جراحها بالصعتر الجبلى (ورابعها) القنافذ قد تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب انه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بانذاره وكان السبب فيه قنفذا فى داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صانع جيد فى اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان اعوزه الطين ابتل وتمرغ فى التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا أفرخ بالغ فى تعهد الفراخ ويأخذ ذرقها بمنقاره ويرميها عن العش ثم يعلمها القاء الذرق نحو طرف العش واذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له ليتبعها ثم تذهب الى جانب آخر سوى جانب فراخها وناقر الخشب قلما يقع على الارض بل على الشجر ينقر الموضع الذى يعلم أن فيه دودا والغرانيق تصعد فى الجو جدا عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها حفيفا مسموعا يلزم به بعضها بعضا فاذا نامت على جبل فانها تضع رؤسها تحت أجنحتها الا القائد فانه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه واذا سمع جرسا صاح وحال النمل فى الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا أمر عجيب واعلم أن الاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتاب طبائع الحيوان والمقصود أن الأكياس من العقلاء يعجزون عن أمثال هذه الحيل فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال انها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التى يعرفها الناس ولله در شهاب الاسلام السمعانى حيث قال جل جناب الجلال ٭ عن أن يوزن بميزان الاعتزال ٭ أما قوله سبحانه ولله ملك السموات والارض والى الله المصير ففيه وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدا والمعاد فقوله ولله ملك السموات والارض تنبيه على أن الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدان الا عند الانتهاء الى القديم الواجب فدخل فى هذه

فى الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام فان خطابه تعالى للمأمورين بالطاعة على طريق الترهيب من التولى بقوله تعالى فان تولوا الخ وترغيبه تعالى اياهم فى الطاعة بقوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا الخ ووعده تعالى اياهم على الايمان والعمل الصالح بما فصل من الاستخلاف وما يتلوه من الرغائب الموعودة ووعيده على الكفر مما يوجب الامر بالايمان والعمل الصالح والنهى عن الكفر فكأنه قيل فآمنوا واعملوا صالحا وأقيموا الخ وفلا تكفروا وأقيموا وعطفه على أطيعوا الله مما لا يليق بجزالة النظم الكريم (وأطيعوا الرسول) أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذات بما أمرهم به بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعته التى هى طاعته تعالى فى الحقيقة تأكيدا للامر السابق وتقريرا لمضمونه على أن المراد بالمطاع فيه جميع الاحكام الشرعية المنتظمة للآداب المرضية أيضا أى وأطيعوه فى كل ما يأمركم به وينهاكم عنه أو تكميلا لما قبله من الامرين الخاصين المتعلقين بالصلاة والزكاة على أن المراد بما ذكر ما عداهما من الشرائع

القضية بجميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم وأما قوله والى الله المصير فهو عبارة تامة فى معرفة المعاد وهو أنه لا بد من مصير الكل اليه سبحانه وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الاشرف فالاشرف نازلا الى الاخس فالاخس ثم يأخذ من الاخس فالاخس مترقيا الى الاشرف فالاشرف فانه يكون جسما ثم يصير موصوفا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الانسانية ثم الملكية ثم ينتهى الى واجب الوجود لذاته فالاعتبار الاول هو قوله ولله ملك السموات والارض والثانى هو قوله والى الله المصير ﴿ قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار) اعلم أن هذا هو النوع الثانى من الدلائل وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله ألم تر بعين عقلك والمراد التنبيه والازجاء السوق قليلا قليلا ومنه البضاعة المزجاة التى يزجيها كل أحد وازجاء السير فى الابل الرفق بها حتى تسير شيأ فشيأ ثم يؤلف بينه قال الفراء بين لا يصلح الا مضافا الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب واحد فى اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى وينشئ السحاب الثقال والتأليف ضم شئ الى شئ أى يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابا واحدا ثم يجعله ركاما أى مجتمعا والركم جعل شئ فوق شئ حتى تجعله مركوما والودق المطر قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن أبى مسلم الاصفهانى الماء من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كجبال فى جمع جبل وقرئ من خلله (المسئلة الثانية) اعلم أن قوله يزجى سحابا يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيأ بعد شئ ويحتمل أن يغيره من سائر الاجسام لا فى حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثانى يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التى باعتبارها صارت تلك الاجسام سحابا وفى قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجودها متقدما متفرقا اذ التأليف لا يصح الا بين موجودين ثم انه سبحانه يجعله ركاما وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال أهل الطبائع أن تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع فى أكثر الامر يكون من تكاثف البخار وفى الاقل من تكاثف الهواء أما الاول فالبخار الصاعد ان كان قليلا وكان فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ ينحل وينقلب هواء وأما ان كان البخار كثيرا ولم يكن فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة المتصاعدة اما أن تبلغ فى صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء أولا تبلغ فان بلغت فاما أن يكون البرد هناك قويا أولا يكون فان لم يكن البرد هناك قويا تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل انما يكون من

أى وأطيعوه فى سائر ما يأمركم به الخ وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) متعلق على الاول بالامر الاخير المشتمل على جميع الاوامر وعلى الثانى بالاوامر الثلاثة أى افعلوا ماذكر من الاقامة والايتاء والاطاعة راجين أن ترحموا (لا تحسبن الذين كفروا) لما بين حال من أطاعه عليه الصلاة والسلام وأشير الى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عقب ذلك ببيان حال من عصاه عليه الصلاة والسلام ومآل أمره فى الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه فى الفسق تكميلا لامر الترغيب والترهيب والخطاب اما لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان واما للرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى فلا تكونن من المشركين ونظائره للايذان بان الحسبان المذكور من القبح والمحذورية بحيث ينهى عنه من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه ومحل الموصول النصب على أنه مفعول أول للحسبان وقوله تعالى (معجزين) ثانيهما وقوله تعالى (فى الارض) ظرف لمعجزين لكن لا لافادة كون الاعجاز المنفى فيها لا فى غيرها فان ذلك مما لا يحتاج الى البيان بل لافادة شمول عدم الاعجاز لجميع أجزائها أى لا تحسبنهم معجزين الله عز وجل عن

أمثال هذه الغيوم وأما ان كان البرد شديدا فلا يخلو اما أن يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كبارا أو بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجا وان كان على الوجه الثانى نزل بردا وأما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهى اما أن تكون كثيرة أو تكون قليلة فان كانت كثيرة فهى قد تنعقد سحابا ماطرا وقد لا تنعقد أما الاول فذلك لاحد أسباب خمسة (أحدها) اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة (وثانيها) أن تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح (وثالثها) أن تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حينئذ (ورابعها) أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد (وخامسها) لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد فى بعض الجبال صعودا يسيرا حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون فى الشمس وأما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوسا فنزل نزولا متفرقا لا يحس به الا عند اجتماع شئ يعتد به فان لم يجمد كان طلا وان جمد كان صقيعا ونسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر وأما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عندما يبرد الهواء وينقبض وحينئذ يحصل منه الاقسام المذكورة (والجواب) أنا لما دللنا على حدوث الاجسام وتوسلنا بذلك الى كونه قادرا مختارا يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكننا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذى ذكرتموه وأيضا فهب أن الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة فى ذواتها فلا بد لها من مؤثر ثم انها متماثلة فاختصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقا لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة فى هذه الاحوال وخالق السبب خالق المسبب فكان سبحانه هو الذى يزجى سحابا لانه هو الذى خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهواء ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت فى صعودها والتصق بعضها بالبعض فهو سبحانه هو الذى جعلها ركاما فثبت على جميع التقديرات ان وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين أما قوله سبحانه وينزل من السماء من جبال فيها من برد ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى هذه الآية قولان (أحدهما) أن فى السماء جبالا من برد خلقها الله تعالى كذلك ثم ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه أكثر المفسرين قال مجاهد والكلبى جبال من برد فى السماء (والقول الثانى) ان السماء هو الغيم المرتفع على رؤس الناس سمى بذلك لسموه وارتفاعه وانه تعالى أنزل من هذا الغيم الذى هو سماء البرد وأراد بقوله من جبال السحاب العظام لانها اذا عظمت أشبهت الجبال كما يقال فلان يملك

ادراكهم واهلاكهم فى قطر من أقطار الارض بما رحبت وان هربوا منها كل مهرب وقرئ لا يحسبن بياء الغيبة على أن الفاعل كل أحد والمعنى كما ذكر أى لا يحسبن أحد الكافرين معجزين له سبحانه فى الارض أو هو الموصول والمفعول الاول محذوف لكونه عبارة عن أنفسهم كأنه قيل لا يحسبن الكافرون أنفسهم معجزين فى الارض وأما جعل معجزين مفعولا أول وفى الارض مفعولا ثانيا فبمعزل من المطابقة لمقتضى المقام ضرورة أن مصب الفائدة هو المفعول الثانى ولا فائدة فى بيان كون المعجزين فى الارض وقد مر فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة وقوله تعالى (ومأواهم النار) معطوف على جملة النهى بتأويلها بجملة خبرية لان المقصود بالنهى عن الحسبان تحقيق نفى الحسبان كأنه قيل ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم الخ أو على جملة مقدرة وقعت تعليلا للنهى كأنه قيل لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض فانهم مدركون ومأواهم الخ وقيل الجملة المقدرة بل هم مقهورون فتدبر (ولبئس المصير) جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف أى وبالله لبئس المصير هى أى النار والجملة اعتراض تذييلى مقرر

جبالا من مال ووصفت بذلك توسعا وذهبوا الى أن البرد ماء جامد خلقه الله تعالى فى السحاب ثم أنزله الى الارض وقال بعضهم انما سمى الله ذلك الغيم جبالا لانه سبحانه خلقها من البرد وكل جسم شديد متحجر فهو من الجبال ومنه قوله تعالى واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين ومنه فلان مجبول على كذا قال المفسرون والاول أولى لان السماء اسم لهذا الجسم المخصوص فجعله اسما للسحاب بطريقة الاشتقاق مجاز وكما يصح أن يجعل الله الماء فى السحاب ثم ينزله بردا فقد يصح أن يكون فى السماء جبال من برد واذا صح فى القدرة كلا الامرين فلا وجه لترك الظاهر (المسئلة الثانية) قال أبو على الفارسى قوله تعالى من السماء من جبال فيها من برد فمن الاولى لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لان ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى فى السماء والثالثة للتبيين لان جنس تلك الجبال جنس البرد ثم قال ومفعول الانزال محذوف والتقدير وينزل من السماء من جبال فيها من برد الا انه حذف للدلالة عليه أما قوله فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فالظاهر انه راجع الى البرد ومعلوم من حاله أنه قد يضر ما يقع عليه من حيوان ونبات فبين سبحانه أنه يصيب به من يشاء على وفق المصلحة ويصرفه أى يصرف ضرره عمن يشاء بان لا يسقط عليه ومن الناس من حمل البرد على الحجر وجعل نزوله جاريا مجرى عذاب الاستئصال وذلك بعيد أما قوله تعالى يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يكاد سنا برقه على الادغام وقرئ برقه جمع برقة وهى المقدار من البرق وبرقه بضمتين للاتباع كما قيل فى جمع فعلة فعلات كظلمات وسناء برقه على المد والمقصور بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سنى للمرتفع ويذهب بالابصار على زيادة الباء كقوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة عن أبى جعفر المدنى (المسئلة الثانية) وجه الاستدلال بقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ان البرق الذى يكون صفته ذلك لا بد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضى ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم (المسئلة الثالثة) اختلف النحويون فى انك اذا قلت ذهبت بزيد الى الدار فهل يجب أن تكون ذاهبا معه الى الدار فالمنكرون احتجوا بهذه الآية أما قوله يقلب الله الليل والنهار فقيل فيه وجوه منها تعاقبهما ومجىء أحدهما بعد الآخر وهو كقوله وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة ومنها ولوج أحدهما فى الآخر وأخذ أحدهما من الآخر ومنها تغير أحوالهما فى البرد والحر وغيرهما ولا يمتنع فى مثل ذلك أن يريد تعالى معانى الكل لانه فى الانعام والاعتبار أولى وأقوى أما قوله تعالى ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار فالمعنى ان فيما تقدم ذكره دلالة لمن يرجع الى بصيرة فمن هذا الوجه يدل على ان الواجب على المرء أن يتدبر ويتفكر فى هذه الامور ويدل أيضا على فساد التقليد ﴿قوله تعالى﴾ (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ان

الله

لما قبله وفى ايراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيرا لهم اثر نفى فوتهم بالهرب فى الارض كل مهرب من الجزالة ما لا غاية وراءه فلله در شأن التنزيل (يا أيها الذين آمنوا) رجوع الى بيان تتمة الاحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالاوامر والنواهى الواردة فيها وفى الاحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد والخطاب اما للرجال خاصة والنساء داخلات فى الحكم بدلالة النص أو للفريقين جميعا بطريق التغليب روى أن غلاما لاسماء بنت أبى مرثد دخل عليها فى وقت كرهته فنزلت وقيل أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدلج بن عمرو الانصارى وكان غلاما وقت الظهيرة ليدعو عمر رضى الله عنه فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضى الله عنه لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات الا باذن ثم انطلق معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) من العبيد والجوارى (والذين لم يبلغوا الحلم) أى الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ المعهود والتعبير عنه بالحلم

الله على كل شئ قدير لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية وذلك لانه لما استدل أولا باحوال السماء والارض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا باحوال الحيوانات واعلم أن على هذه الآية سؤالات (السؤال الاول) لم قال الله تعالى والله خلق كل دابة من ماء مع ان كثيرا من الحيوانات غير مخلوقة من الماء أما الملائكة فهم أعظم الحيوانات عددا وهم مخلوقون من النور وأما الجن فهم مخلوقون من النار وخلق الله آدم من التراب لقوله خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح لقوله فنفخنا فيه من روحنا وأيضا نرى ان كثيرا من الحيوانات متولدا لا عن النطفة (والجواب) من وجوه (أحدها) وهو الاحسن ما قاله القفال وهو ان قوله من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى ان كل دابة متولدة من الماء فهى مخلوقة لله تعالى (وثانيها) ان أصل جميع المخلوقات الماء على ما روى أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الاصل الاول هو الماء لا جرم ذكره على هذا الوجه (وثالثها) ان المراد من الدابة التى تدب على وجه الارض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجن ولما كان الغالب جدا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء اما لانها متولدة من النطفة واما لانها لا تعيش الا بالماء لا جرم أطلق لفظ الكل تنزيلا للغالب منزلة الكل (السؤال الثانى) لم نكر الماء فى قوله من ماء وجاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى (والجواب) انما جاء ههنا منكرا لان المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة وانما جاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى لان المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم الى أنواع كثيرة (السؤال الثالث) قوله فمنهم ضمير العقلاء وكذلك قوله من فلم استعمله فى غير العقلاء (والجواب) انه تعالى ذكر ما لا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والانس والجن فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل لان جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى من العكس ويقال فى الكلام من أقبلان لرجل وبعير (السؤال الرابع) لم سمى الزحف على البطن مشيا وبين صحة هذا السؤال أن الصبى قد يوصف بانه يحبو ولا يقال انه يمشى وان زحف على حد ما تزحف الحية (والجواب) هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان لا يتمشى له أمر أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين (السؤال الخامس) انه لم يستوف القسمة لانا نجد ما يمشى على أكثر من أربع مثل العناكب والعقارب والرتيلات بل مثل الحيوان الذى له أربعة وأربعون رجلا الذى يسمى دخال الاذن (والجواب) القسم الذى ذكرتم كالنادر فكان ملحقا بالعدم ولان الفلاسفة يقرون بأن ماله قوائم كثيرة فاعتماده اذا مشى على أربع جهات لا غير فكأنه يمشى على

لكونه اظهر دلائله (منكم) أى من الاحرار (ثلاث مرات) أى ثلاثة أوقات فى اليوم والليلة والتعبير عنها بالمرات للايذان بان مدار وجوب الاستئذان مقارنة تلك الاوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا أنفسها (من قبل صلاة الفجر) لظهور أنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث مرات أو الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى أحدها من قبل الخ (وحين تضعون ثيابكم) أى ثيابكم التى تلبسونها فى النهار وتخلعونها لاجل القيلولة وقوله تعالى (من الظهيرة) وهى شدة الحر عند انتصاف النهار بيان للحين والتصريح بمدار الامر أعنى وضع الثياب فى هذا الحين دون الاول والآخر لما أن التجرد عن الثياب فيه لاجل القيلولة لقلة زمانها كما ينبئ عنها ايراد الحين مضافا الى فعل حادث منقض ووقوعها فى النهار الذى هو مئنة لكثرة الورود والصدور ومظنة لظهور الاحوال وبروز الامور ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما فى الوقتين المذكورين فان تحقق التجرد واطراده فيهما أمر معروف لا يحتاج الى التصريح به (ومن بعد صلاة العشاء) ضرورة أنه وقت التجرد

أربع ولان قوله تعالى يخلق الله مايشاء كالتنبيه على سائر الاقسام (السؤال السادس) لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب (والجواب) قدقدم ماهو أعجب وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أوقوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع واعلم أن قوله يخلق الله مايشاء تنبيه على ان الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشى فكذا هى مختلفة بحسب أمور أخر فلنذكر ههنا بعض تلك التقسيمات (التقسيم الاول) الحيوانات قدتشترك فى أعضاء وقدتتباين بأعضاء أما الشركة فمثل اشتراك الانسان والفرس فى أن لهما لحما وعصبا وعظما وأما التباين فاماأن يكون فى نفس العضو أوفى صفته أما التباين فى نفس العضو فعلى وجهين (أحدهما) أن لايكون العضو حاصلا للآخر وان كانت أجزاؤه حاصلة للثانى كالفرس والانسان فان الفرس له ذنب والانسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست الا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر وكل ذلك حاصل للانسان (والثانى) أن لايكون ذلك العضو حاصلا للثانى لابذاته ولابأجزائه مثل أن للسلحفاة صدفا يحيط به وليس للانسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شئ منها للانسان وأما التباين فى صفة العضو فاماأن يكون من باب الكمية أوالكيفية أوالوضع أوالفعل أوالانفعال أما الذى فى الكم فاماأن يتعلق بالمقدار مثل ان عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة أو بالعدد مثل ان أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أوعشرة والذى فى الكيف فكاختلافها فى الالوان والاشكال والصلابة واللين والذى فى الوضع فمثل اختلاف وضع ثدى الفيل فانه يكون قريبا من الصدر وثدى الفرس فانه عند السرة وأما الذى فى الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحا للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك فى الانسان وكون أنفه آلة للقبض دون أنف غيره وأما الذى فى الانفعال فمثل كون عين الخفاش سريعة التحير فى الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك (التقسيم الثانى) الحيوان اماأن يكون مائيا بمعنى ان مسكنه الاصلى هو الماء أوأرضيا أو يكون مائيا ثم يصير أرضيا أما الحيوانات المائية فتغير أحوالها من وجوه (الاول) انه اماأن يكون مكانه وغذاؤه وتنفسه مائيا فلابدل التنفس فى الهواء التنشق المائى فهو يقبل الماء الى باطنه ثم يرده ولايعيش اذا فارقه والسمك كله كذلك ومنه مامكانه وغذاؤه مائى ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية ومنه مامكانه وغذاؤه مائى وليس يتنفس ولايستنشق مثل أصناف من الصدف لاتظهر للهواء ولاتستدخل الماء الى باطنها (الوجه الثانى) الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الانهار الجارية وبعضها مياه البطائح مثل الضفادع وبعضها مأواها مياه البحر (الوجه الثالث) منها لجية ومنها شطية ومنها طينية ومنها صخرية (الوجه الرابع) الحيوان المتنقل فى الماء منه مايعتمد فى غوصه على رأسه وفى السباحة على أجنحته كالسمك ومنه مايعتمد فى السباحة على رجليه كالضفدع

عن اللباس والالتحاف باللحاف وليس المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين مطلقهما المتحقق فى الوقت الممتد المتخلل بين الصلاتين كما فى قوله تعالى وان كنت من قبله لمن الغافلين وقوله تعالى من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى بل مايعرض منهما الطرفى ذلك الوقت الممتد المتصلين بالصلاتين المذكورتين اتصالا عاديا وقوله تعالى (ثلاث عورات) خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى (لكم) متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات أى كائنة لكم والجملة استئناف مسوق لبيان علة وجوب الاستئذان أى هن ثلاثة أوقات يختل فيها التستر عادة والعورة فى الاصل هو الخلل غلب فى الخلل الواقع فيما يهتم حفظه ويعتنى بستره أطلقت على الاوقات المشتملة عليها مبالغة كأنها نفس العورة وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلا من ثلاث مرات (ليس عليكم ولا عليهم) أى على المماليك والصبيان (جناح) أى اثم فى الدخول بغير استئذان لعدم مايوجبه من مخالفة الامر والاطلاع على العورات (بعدهن) أى بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث وهى الاوقات المتخللة بين كل اثنتين منهن وايرادها بعنوان البعدية

ومنه

ومنه مايمشى فى قعر الماء كالسرطان ومنه مايزحف مثل ضرب من السمك لاجناح له وكالدود أما الحيوانات البرية فتغير أحوالها أيضا من وجهين (الاول) أن منها مايتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها مالايتنفس كذلك بل على نحو آخر من مسام مثل الزنبور والنحل (الثانى) أن الحيوانات الارضية منها ماله ماوى معلوم ومنها مالاماواه كيف اتفق الا أن يلد فيقيم للحضانة والواتى لهاماوى فبعضها ماواه شق وبعضها حفر وبعضها ماواه قلة رابية وبعضها ماواه وجه الارض (الثالث) الحيوان البرى كل طائر منه ذوجناح فانه يمشى برجليه ومن جملة ذلك مامشيه صعب عليه كالخطاف الكبير الاسود والخفاش وأما الذى جناحه جلد أوغشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات الحبشية يطير (الرابع) الطير يختلف فبعضها يتعايش معا كالكراكى وبعضها يؤثر التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التى تتنازع على الطعم لاحتياجها الى الاحتيال للصيد ومنافستها فيه ومنها مايتعايش زوجا ويكون معا كالقطا ومنه مايجتمع تارة وينفرد أخرى والحيوانات المنفردة قدتكون مدنية وقدتكون برية صرفة وقدتكون بستانية والانسان من بين الحيوان هو الذى لايمكنه أن يعيش وحده فان أسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية والنحل والنمل وبعض الغرانيق يشارك الانسان فى ذلك لكن النحل والكراكى تطيع رئيسا واحدا والنمل له اجتماع ولارئيس (الخامس) الطير منه آكل لحم ومنه لاقط حب ومنه آكل عشب وقديكون لبعض الطير طعم معين كالنحل فان غذاءه زهر والعنكبوت فان غذاءه الذباب وقديكون بعضه متفق الطعم اما القسم الثالث وهو الحيوان الذى يكون تارة مائيا وأخرى بريا فيقال انه حيوان يكون فى البحر ويعيش فيه ثم انه يبرز الى البر ويبقى فيه (التقسيم الثالث) الحيوان منه ماهو انسى بالطبع كالانسان ومنه ماهو انسى بالمولد كالهرة والفرس ومنه ماهو انسى بالقسر كالفهد ومنه مالا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه مايسرع استئناسه ويبقى مستأنسا كالفيل ومنه مايبطئ كالاسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف انسى وصنف وحشى حتى من الناس (التقسيم الرابع) من الحيوان ماهو مصوت ومنه مالاصوت له وكل مصوت فانه يصير عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتا الا الانسان وأيضا البعض الحيوان شبق يشتد كل وقت كالديك ومنه عفيف له وقت معين (التقسيم الخامس) بحسب الاخلاق بعض الحيوانات هادى الطبع قليل الغضب مثل البقر وبعضه شديد الجهل حاد الغضب كالخنزير البرى وبعضها حليم خدوع كالبعير وبعضها ردىء الحركات مختال كالحية وبعضها جرىء قوى شهم كبير النفس كريم الطبع كالاسد ومنها قوى مختال وحشى كالذئب وبعضها محتال مكار ردىء الحركات كالثعلب وبعضها غضوب شديد الغضب سفيه الا أنه ملق متودد كالكلب وبعضها شديد الكيس مستأنس كالفيل والقرد وبعضها حسود متباه بجماله كالطاوس

مع أن كل وقت من تلك الاوقات قبل عورة من العورات كما أنها بعد أخرى منهن لتوفية حق التكليف والترخص الذى هو عبارة عن رفعه اذ الرخصة انما تتصور فى فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلف والجملة على القراءتين مستأنفة مسوقة لتقرير ماقبلها بالطرد والعكس وقد جوز على القراءة الاولى كونها فى محل الرفع على أنها صفة أخرى لثلاث عورات وأما على القراءة الثانية فهى مستأنفة لاغير اذ لو جعلت صفة لثلاث عورات وهى بدل من ثلاث مرات لكان التقدير ليستأذنكم هؤلاء فى ثلاث عورات لااثم فى ترك الاستئذان بعدهن وحيث كان انتفاء الاثم حينئذ مما لم يعلمه السامع الا بهذا الكلام لم يتسن ابرازه فى معرض الصفة بخلاف قراءة الرفع فان انتفاء الاثم حينئذ معلوم من صدر الكلام وقوله تعالى (طوافون عليكم) استئناف لبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان وهى المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة وفيه دليل على تعليل الاحكام وكذا فى الفرق بين الاوقات الثلاثة وبين غيرها بكونها عورات (بعضكم على بعض) أى بعضكم طائف على بعض طوافا كثيرا أو بعضكم يطوف على بعض (كذلك) اشارة

و بعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار (التقسيم السادس) من الحيوان ما تناسله بان تلد أنثاه حيوانا و بعضها ما تناسله بان تلد أنثاه دودا كالنحل والعنكبوت فانها تلد دودا ثم ان أعضاءه تستكمل بعد و بعضها تناسله بان تبيض أنثاه بيضا واعلم أن العقول قاصرة عن الاحاطة باحوال أصغر الحيوانات على سبيل الكمال ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لانه لو كان الامر بتركيب الطبائع الاربع فذلك بالنسبة الى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات باعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها لا بد وأن يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون وأحسن كلام فى هذا الموضع قوله سبحانه يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شئ قدير لانه هو القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فأى عقل يقف عليها وأى خاطر يصل الى ذرة من أسرارها بل هو الذى يخلق ما يشاء كما يشاء ولا يمنعه منه مانع ولا دافع وأما قوله لقد أنزلنا آيات مبينات فالاولى حمله على كل الادلة والعبر ولما كان القرآن كالمشتمل على كل ذلك صح أن يكون هو المراد أما قوله والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم فاستدلال أصحابنا به كما تقدم (والجواب) أجاب القاضى عنه بأن المراد يهدى من بلغه حد التكليف دون غيره أو يكون المراد من أطاعه واستحق الثواب فيهديه الى الجنة على ما تقدم فى نظائره وجوابنا عن هذا الجواب أيضا كما تقدم فى نظائره والله أعلم ۞ قوله تعالى

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) اعلم أنه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال مقاتل نزلت هذه الآية فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا فى أرض وكان اليهودى يجره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره الى كعب بن الاشرف ويقول ان محمدا يحيف علينا وقد مضت قصتهما فى سورة النساء وقال الضحاك نزلت فى المغيرة بن وائل كان بينه وبين على بن ابى طالب أرض فتقاسما فوقع الى على منها ما لا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعنى أرضك فباعها اياه وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلى اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال على بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى أن يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على فنزلت هذه الآية وقال الحسن نزلت هذه الآية فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر (المسئلة

الى مصدر الفعل الذى بعده وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من تفخيم شأن المشار اليه والايذان ببعد منزلته وكونه من الوضوح بمنزلة المشار اليه حسا أى مثل ذلك التبيين (يبين الله لكم الآيات) الدالة على الاحكام أى ينزلها بينة واضحة الدلالات عليها لا أنه تعالى يبينها بعد أن لم تكن كذلك والكاف مقحمة وقد مر تفصيله فى قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا ولكم متعلق بيبين وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل يبين علل الاحكام وليس بواضح مع أنه مؤد الى تخصيص الآيات بما ذكر ههنا (والله عليم) مبالغ فى العلم بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم (حكيم) فى جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشا ومعادا (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) لما بين فيما مر آنفا حكم الاطفال فى أنه لا جناح عليهم فى ترك الاستئذان فيما عدا الاوقات الثلاثة عقب ببيان حالهم بعد البلوغ دفعا لما عسى يتوهم أنهم وان كانوا اجانب ليسوا كسائر الاجانب بسبب اعتيادهم الدخول أى اذا بلغ الاطفال الاحرار الاجانب

الثانية) قوله ويقولون آمنا الى قوله وما أولئك بالمؤمنين يدل على ان الايمان لا يكون بالقول اذ لو كان به لما صح أن ينفى كونهم مؤمنين وقد فعلوا ما هو ايمان فى الحقيقة فان قيل انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولى فكيف يصح أن يقول فى جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع ان الذى تولى منهم هو البعض قلنا ان قوله وما أولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى وأيضا فلو رجع الى الاول يصح ويكون معنى قوله ثم يتولى فريق منهم أى يرجع هذا الفريق الى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه ثم بين سبحانه أنهم اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وهذا ترك للرضا بحكم الرسول ونبه بقوله تعالى وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين على انهم انما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكوا فاما اذا عرفوه لانفسهم عدلوا عن الاعراض بل سارعوا الى الحكم واذعنوا ببذل الرضا وفى ذلك دلالة على انه ليس بهم اتباع الحق وانما يريدون النفع المعجل وذلك أيضا نفاق أما قوله تعالى أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ففيه سؤالات (السؤال الاول) كلمة أم للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى (والجواب) اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير ألستم خير من ركب المطايا (السؤال الثانى) انهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا فى الدين واذا ارتابوا ففى قلوبهم مرض فالكل واحد فاى فائدة فى التعديد (الجواب) قوله أفى قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله أم ارتابوا اشارة الى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الاسلام فى القلب وقوله أم يخافون أن يحيف الله عليهم اشارة الى أنهم بلغوا فى حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (السؤال الثالث) هب ان هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أم (الجواب) الاقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ثم بين تعالى بقوله بل أولئك هم الظالمون بطلان ما هم عليه لان الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم اذ المرء لا يخلو من أن يكون ظالما لنفسه أو ظالما لغيره ويمكن أن يقال أيضا لما ذكر تعالى فى الاقسام كونهم خائفين من الحيف أبطل ذلك بقوله بل أولئك هم الظالمون أى لا يخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم بامانته وصيانته وانما هم ظالمون يريدون ان يظلموا من له الحق عليهم وهم له جحود وذلك شئ لا يستطيعونه فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأبون المحاكمة اليه ۞ قوله تعالى

(انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة

(فليستأذنوا) اذا أرادوا الدخول عليكم وقوله تعالى (كما استأذن الذين من قبلهم) فى حيز النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق والموصول عبارة عمن قيل لهم لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية ووصفهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم قبل ذكرهم لا باعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل لما أن المقصود بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة ايضاحه ولا يتسنى ذلك الا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع ولا ريب فى أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببال أحد وان كان الامر كذلك فى الواقع وانما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم أى فليستأذنوا استئذانا كائنا مثل استئذان المذكورين قبلهم بان يستأذنوا فى جميع الاوقات ويرجعوا ان قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) الكلام فيه كالذى سبق والتكرير

ان الله خبير بما تعملون قل اطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل
وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) اعلم أنه تعالى
لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن
يسلكه المؤمنون فقال تعالى انما كان قول المؤمنين وفيه مسائل (المسئلة
الاولى) قرأ الحسن قول المؤمنين بالرفع والنصب أقوى لان أولى الاسمين بكونه اسما
لكان أوغلهما فى التعريف وأن يقولوا أوغل لانه لاسبيل عليه للتنكير بخلاف قول
المؤمنين (المسئلة الثانية) قوله انما كان قول المؤمنين معناه كذلك يجب أن يكون قولهم
وطريقتهم اذا دعوا الى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا سمعنا واطعنا فيكون اتيانهم
اليه وانقيادهم له سمعا وطاعة ومعنى سمعنا اجبنا على تأويل قول المسلمين سمع الله لمن
حمده أى قبل واجاب ثم قال ومن يطع الله ورسوله أى فيما ساءه وسره ويخشى الله فيما
صدر عنه من الذنوب فى الماضى ويتقه فيما بقى من عمره فاولئك هم المفلحون وهذه
الآية على ايجازها حاوية لكل ما ينبغى للمؤمنين أن يفعلوه أما قوله واقسموا بالله جهد
ايمانهم لئن أمرتهم ليخرجن فقال مقاتل من حلف بالله فقد أجهد فى اليمين ثم قال لما
بين الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله فقالوا والله لئن أمرتنا ان نخرج من
ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا ثم انه تعالى أمر رسوله أن
ينهاهم عن هذا القسم بقوله قل لا تقسموا ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهى عنه
لان من حلف على القيام بالبر والواجب لا يجوز أن ينهى عنه واذا ثبت ذلك ثبت أن
قسمهم كان لنفاقهم وأن باطنهم خلاف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه
لا يكون الا قبيحا أما قوله طاعة معروفة فهو اما خبر مبتدا محذوف أى المطلوب منكم
طاعة معروفة لا ايمان كاذبة أو مبتدا خبره محذوف أى طاعة معروفة أمثل من قسمكم
بما لا تصدقون فيه وقيل معناه دعوا القسم ولا تغتروا به وعليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها
وقرأ اليزيدى طاعة معروفة بالنصب على معنى أطيعوا طاعة ان الله خبير بما تعملون
أى بصير لا يخفى عليه شئ من سرائركم وانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم
أما قوله قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم
فاعلم انه تعالى صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ
فى تبكيتهم فان تولوا يعنى ان تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فانما على الرسول ما حمل
من تبليغ الرسالة وعليكم ما حملتم من الطاعة وان تطيعوه تهتدوا أى تصيبوا الحق وان
عصيتموه فما على الرسول الا البلاغ المبين والبلاغ بمعنى التبليغ والمبين الواضح والموضح
لما بكم اليه الحاجة وعن نافع انه قرأ فانما عليه ما حمل بفتح الحاء والتخفيف أى فعليه
اثم ما حمل من المعصية ﴿ قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم

للتأكيد والمبالغة فى الامر
بالاستئذان واضافة الآيات الى ضمير
الجلالة لتشريفها (والقواعد من
النساء) أى العجائز اللاتى قعدن عن
الحيض والحمل (اللاتى لا يرجون
نكاحا) أى لا يطمعن فيه لكبرهن
(فليس عليهن جناح أن يضعن
ثيابهن) أى الثياب الظاهرة
كالجلباب ونحوه والفاء فيه لان
اللام فى القواعد بمعنى اللاتى
أو للوصف بها (غير متبرجات بزينة)
غير مظهرات لزينة مما أمر باخفائه
فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن
وأصل التبرج التكلف فى اظهار
ما يخفى من قولهم سفينة بارجة
لا غطاء عليها والبرج سعة العين
بحيث يرى بياضها محيطا بسوادها
كله الا أنه خص بكشف المرأة زينتها
ومحاسنها للرجال (وان يستعففن)
بترك الوضع (خير لهن) من الوضع
لبعده من التهمة (والله سميع)
مبالغ فى سمع جميع ما يسمع فيسمع
ما يجرى بينهن وبين الرجال من
المقاولة (عليم) فيعلم مقاصدهن وفيه

وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيأ ومن كفر بعد ذلك فأولئك
هم الفاسقون) اعلم ان تقدير النظم بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد
الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أى الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح
أن يستخلفهم فى الارض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين كما استخلف عليها من
قبلهم فى زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما وانه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك
هو ان يؤيدهم بالنصرة والاعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم
عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم فيعبدوننى آمنين لا يشركون بى شيأ ولا يخافون فمن
كفر أى من بعد هذا الوعد وارتد فاولئك هم الفاسقون واعلم ان هذه الآية مشتملة على
بيان أكثر المسائل الاصولية الدينية فلنشر الى معاقدها (المسئلة الاولى) قوله تعالى
وعد الله الذين آمنوا منكم يدل على أنه سبحانه متكلم لان الوعد نوع من أنواع الكلام
والموصوف بالنوع موصوف بالجنس ولانه سبحانه ملك مطاع والملك المطاع لا بد وأن
يكون بحيث يمكنه وعد أوليائه ووعيد اعدائه فثبت انه سبحانه متكلم (المسئلة الثانية)
الآية تدل على انه سبحانه يعلم الاشياء قبل وقوعها خلافا لهشام بن الحكم فانه قال
لا يعلمها قبل وقوعها ووجه الاستدلال به انه سبحانه أخبر عن وقوع شئ فى المستقبل
اخبارا على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقا للخبر ومثل هذا الخبر لا يصح الا مع العلم
(المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه حى قادر على جميع الممكنات لانه قال
ليستخلفنهم فى الارض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا
وقد فعل كل ذلك وصدور هذه الاشياء لا يصح الا من القادر على كل المقدورات (المسئلة
الرابعة) الآية تدل على انه سبحانه هو المستحق للعبادة لانه قال يعبدوننى وقالت المعتزلة
الآية تدل على أن فعل الله تعالى معلل بالغرض لان المعنى لكى يعبدونى وقالوا أيضا
الآية دالة على انه سبحانه يريد العبادة من الكل لان من فعل فعلا لغرض فلا بد
وأن يكون مريدا لذلك الغرض (المسئلة الخامسة) دلت الآية على انه تعالى منزه عن
الشريك لقوله لا يشركون بى شيأ وذلك يدل على نفى الاله الثانى وعلى انه لا يجوز عبادة
غير الله تعالى سواء كان كوكبا كما تقوله الصابئة أو صنما كما تقوله عبدة الاوثان (المسئلة
السادسة) دلت الآية على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه أخبر عن الغيب فى قوله
ليستخلفنهم فى الارض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا
وقد وجد هذا المخبر موافقا للخبر ومثل هذا الخبر معجز والمعجز دليل الصدق فدل على صدق
محمد صلى الله عليه وسلم (المسئلة السابعة) دلت الآية على ان العمل الصالح خارج
عن مسمى الايمان خلافا للمعتزلة لانه عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف خارج
عن المعطوف عليه (المسئلة الثامنة) دلت الآية على امامة الائمة الاربعة وذلك لانه
تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم

من الترهيب ما لا يخفى (ليس على
الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج
ولا على المريض حرج) كانت هؤلاء
الطوائف يتحرجون من مؤاكلة
الاصحاء حذارا من استقذارهم
اياهم وخوفا من تأذيهم بافعالهم
وأوضاعهم فان الاعمى ربما سبقت
يده الى ما سبقت اليه عين اكيله وهو
لا يشعر به والاعرج يتفسح فى مجلسه
فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق
على جليسه والمريض لا يخلو عن
حالة تؤذى قرينه وقيل كانوا
يدخلون على الرجل لطلب العلم فاذا لم
يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم الى
بيوت آبائهم وأمهاتهم أو الى بعض
من سماهم الله عز وجل فى الآية
الكريمة فكانوا يتحرجون من ذلك
ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره
ولعل أهله كارهون لذلك وكذا كانوا
يتحرجون من الاكل من أموال
الذين كانوا اذا خرجوا الى الغزو
خلفوا هؤلاء الضعفاء فى بيوتهم
ودفعوا اليهم مفاتيحها واذنوا لهم
ان يأكلوا مما فيها مخافة ان لا يكون

وهو المراد بقوله ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكن لهم دينهم المرضى وأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ومعلوم أن المراد بهذا الوعد بعد الرسول هؤلاء لان استخلاف غيره لا يكون الا بعده ومعلوم انه لا نبى بعده لانه خاتم الانبياء فاذن المراد بهذا الاستخلاف طريقة الامامة ومعلوم أن بعد الرسول الاستخلاف الذى هذا وصفه انما كان فى ايام أبى بكر وعمر وعثمان لان فى ايامهم كانت الفتوح العظيمة وحصل التمكين وظهور الدين والامن ولم يحصل ذلك فى أيام على رضى الله عنه لانه لم يتفرغ لجهاد الكفار لاشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصلاة فثبت بهذا دلالة الآية على صحة خلافة هؤلاء فان قيل الآية متروكة الظاهر لانها تقتضى حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحا ولم يكن الامر كذلك نزلنا عنه لكن لم لا يجوز أن يكون المراد من قوله ليستخلفنهم هو انه تعالى يسكنهم فى الارض ويمكنهم من التصرف لان المراد منه خلافة الله تعالى ومما يدل عليه قوله كما استخلف الذين من قبلهم واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الامامة فوجب أن يكون الامر فى حقهم أيضا كذلك نزلنا عنه لكن ههنا ما يدل على انه لا يجوز حمله على خلافة رسول الله لان من مذهبكم انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا وروى عن على عليه السلام انه قال اترككم كما ترككم رسول الله نزلنا عنه لكن لم لا يجوز أن يكون المراد منه عليا عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر وقال فى حق على عليه السلام والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون نزلنا عنه ولكن نحمله على الائمة الاثنى عشر (والجواب عن الاول) أن كلمة من للتبعيض فقوله منكم يدل على أن المراد بهذا الخطاب بعضهم (وعن الثانى) أن الاستخلاف بالمعنى الذى ذكرتموه حاصل لجميع الخلق فالمذكور ههنا فى معرض البشارة لابد وأن يكون مغايرا له وأما قوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم فالذين كانوا قبلهم قد كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الامامة والخلافة حاصلة فى الصورتين (وعن الثالث) انه وان كان من مذهبنا انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والامر بالاختيار فلا يمتنع فى هؤلاء الائمة الاربعة انه تعالى يستخلفهم وأن الرسول استخلفهم وعلى هذا الوجه قالوا فى أبى بكر ياخليفة رسول الله فالذى قيل انه عليه السلام لم يستخلف أريد به على وجه التعيين واذا قيل استخلف فالمراد على طريقة الوصف والامر (وعن الرابع) أن حمل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الاصل (وعن الخامس) انه باطل لوجهين (أحدهما) قوله تعالى منكم يدل على ان هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الائمة ما كانوا حاضرين (الثانى) انه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ فى العالم ولم يوجد ذلك فيهم فثبت بهذا صحة امامة الائمة الاربعة وبطل قول الرافضة الطاعنين على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بطلان قول الخوارج الطاعنين على عثمان وعلى ولنرجع الى التفسير أما قوله ليستخلفنهم

اذنهم عن طيب نفس منهم وكان غير هؤلاء أيضا يتحرجون من الاكل فى بيوت غيرهم فقيل لهم ليس على الطوائف المعدودة (ولا على أنفسكم) أى عليكم وعلى من يماثلكم فى الاحوال من المؤمنين حرج (ان تأكلوا) أى تأكلوا انتم وهم معكم وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضا يأباه ما قبله وما بعده فان الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتما (من بيوتكم) أى البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الاولاد لان بيتهم كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام أنت ومالك لابيك وقوله عليه الصلاة والسلام ان أطيب مال الرجل من كسبه وان ولده من كسبه (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم) وقرئ بكسر الهمزة والميم وبكسر الاولى وفتح الثانية (أو بيوت اخوانكم أو بيوت اخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت اخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه) من البيوت التى تملكون

فلقائل أن يقول أين القسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم قلنا هو محذوف تقديره وعدهم والله ليستخلفنهم أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال أقسم الله ليستخلفنهم أما قوله كما استخلف الذين من قبلهم يعنى كما استخلف هرون ويوشع وداود وسليمان وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافا كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الانبياء عليهم السلام وقرئ كما استخلف بضم التاء وكسر اللام وقرئ بالفتح أما قوله تعالى وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم فالمعنى انه يثبت لهم دينهم الذى ارتضى لهم وهو الاسلام وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب وليبدلنهم من الابدال بالتخفيف والباقون بالتشديد وقد ذكرنا الفرق بينهما فى قوله تعالى بدلناهم جلودا غيرها أما قوله يعبدوننى لا يشركون بى شيأ ففيه دلالة على ان الذين عناهم لا يتغيرون عن عبادة الله تعالى الى الشرك وقال الزجاج يجوز أن يكون فى موضع الحال على معنى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات فى حال عبادتهم واخلاصهم لله ليفعلن بهم كيت وكيت ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم أما قوله ومن كفر بعد ذلك أى جحد حق هذه النعم فأولئك هم الفاسقون أى العاصون ﴿قوله تعالى (وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض ومأواهم النار ولبئس المصير)﴾ أما تفسير اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ولفظة لعل ولفظة الرحمة فالكل قد تقدم مرارا وأما قوله لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض فالمعنى لا تحسبن يا محمد الذين كفروا سابقين فائتين حتى يعجزوننى عن ادراكهم وقرئ لا يحسبن بالياء المعجمة من تحتها وفيه أوجه (أحدها) أن يكون معجزين فى الارض هما المفعولان والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحدا يعجز الله فى الارض حتى يطمعوا هم فى مثل ذلك (وثانيها) أن يكون فيه ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره فى قوله وأطيعوا الرسول والمعنى لا يحسبن الذين كفروا معجزين (وثالثها) أن يكون الاصل ولا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ثم حذف الضمير الذى هو المفعول الاول وأما قوله ومأواهم النار ولبئس المصير فقال صاحب النظم لا يحتمل أن يكون متصلا بقوله لا تحسبن لان ذلك نفى وهذا ايجاب فهو اذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض بل هم مقهورون ومأواهم النار ﴿قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير

التصرف فيها باذن أربابها على الوجه الذى مر بيانه وقيل هى بيوت المماليك والمفاتح جمع مفتح وجمع المفتاح مفاتيح وقرئ مفتاحه (أو صديقكم) أى أو بيوت صديقكم وان لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية فانهم أرضى بالتبسط واسر به من كثير من الاقرباء روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الصديق أكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والصديق يقع على الواحد والجمع كالخليط والقطين واضرابهما وهذا فيما اذا علم رضا صاحب البيت بصريح الاذن أو بقرينة دالة عليه ولذلك خصص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم وقوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) كلام مستأنف مسوق لبيان حكم آخر من جنس ما بين قبله حيث كان فريق من المؤمنين كبنى ليث بن عمرو من كنانة يتحرجون أن يأكلوا

متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم وان كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث فاذا لم يميز فيدخل تحت قوله يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الكل ويبين ذلك قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم لان ذلك يقال فى الرجال والنساء والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى وذلك لان النساء فى باب حفظ العورة أشد حالا من الرجال فهذا الحكم لما ثبت فى الرجال فثبوته فى النساء بطريق الاولى كما انا نثبت حرمة الضرب بالقياس الجلى على حرمة التأفيف (المسئلة الثانية) ظاهر قوله الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه البالغون والصغار وحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد الصغار واحتجوا بان الكبير من المماليك ليس له أن ينظر من المالكة الا الى ما يجوز للحر أن ينظر اليه قال ابن المسيب لا يغرنكم قوله وما ملكت أيمانكم لا ينبغى للمرأة أن ينظر عبدها الى قرطها وشعرها وشئ من محاسنها وقال آخرون بل البالغ من المماليك له أن ينظر الى شعر مالكته وما شاكله وظاهر الآية يدل على اختصاص عبيد المؤمنين والاطفال من الاحرار باباحة ما حظره الله تعالى من قبل على جماعة المؤمنين بقوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم فانه أباح لهم الا فى الاوقات الثلاثة وجوز دخولهم مع من لم يبلغ بغير اذن ودخول الموالى عليهم بقوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم أى يطوف بعضكم على بعض فيما عدا الاوقات الثلاثة وأكد ذلك بان أوجب على من بلغ الحلم الجرى على سنة من قبلهم من البالغين فى الاستئذان فى سائر الاوقات وألحقهم بمن دخل تحت قوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (المسئلة الثالثة) قوله ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ان أريد به العبيد والاماء اذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمرا لهم فى الحقيقة وان أريد الذين لم يبلغوا الحلم لم يجز أن يكون أمرا لهم ويجب أن يكون أمرا لنا بان نأمرهم بذلك ونبعثهم عليه كما أمرنا بامر الصبى وقد عقل الصلاة أن يفعلها الا على وجه التكليف لهم لكنه تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ ولا يبعد أن يكون لفظ الامر وان كان فى الظاهر متوجها عليهم الا أنه يكون فى الحقيقة متوجها على المولى كقولك للرجل ليخفك أهلك وولدك فظاهر الامر لهم وحقيقة الامر له بفعل ما يخافون عنده (المسئلة الرابعة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الانصار الى عمر ليدعوه فوجده نائما فى البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ عمر فعاد ورد الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام اللهم أيقظه لى ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من عمر شئ وعرف عمر أن الغلام رأى ذلك منه فقال وددت ان الله نهى ابناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا فى هذه الساعات الا باذن ثم انطلق معه الى الرسول صلى

طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفا يأكل معه فان لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيأ وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح الى الرواح وربما كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فاذا أمسى ولم يجد أحدا أكل وقيل كان الغنى منهم يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه فيقول انى أتحرج ان آكل معك وأنا غنى وأنت فقير وقيل كان قوم من الانصار لا يأكلون اذا نزل بهم ضيف الا مع ضيفهم فرخص لهم فى أن يأكلوا كيف شاؤا وقيل كانوا اذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى وأشباهه طعاما على حدة فبين الله تعالى ان ذلك ليس بواجب وقوله تعالى جميعا حال من فاعل تأكلوا واشتاتا عطف عليه داخل فى حكمه وهو جمع شت على انه صفة كالحق يقال أمر شت أى متفرق أو على انه فى الاصل مصدر

الله عليه وسلم فوجده قد نزل عليه يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم فحمد الله تعالى عمر عند ذلك فقال عليه السلام وما ذاك يا عمر فاخبره بما فعل الغلام فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنعه وتعرف اسمه ومدحه وقال ان الله يحب الحليم الحيى العفيف المتعفف ويبغض البذى الجرئ السائل الملحف فهذه الآية احدى الآيات المنزلة بسبب عمر وقال بعضهم نزلت فى أسماء بنت أبى مرثد قالت انا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان فى لحاف واحد وقيل دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فيه فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت الآية (المسئلة الخامسة) قال ابن عمر ومجاهد قوله ليستأذنكم عنى به الذكور دون الاناث لان قوله الذين ملكت أيمانكم صيغة الذكور لا صيغة الاناث وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى فى الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار والصحيح انه يجب اثبات هذا الحكم فى النساء لان الانسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضا اطلاع النساء عليها ولكن الحكم يثبت فى النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه (المسئلة السادسة) من العلماء من قال الامر فى قوله ليستأذنكم على الندب والاستحباب ومنهم من قال انه على الايجاب وهذا أولى لما ثبت ان ظاهر الامر للوجوب ۞ اما قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عمر الحلم بالسكون (المسئلة الثانية) اتفق الفقهاء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا اذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون الغلام بالغا حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة ويستكملها وفى الجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعى وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله فى الغلام والجارية خمس عشرة سنة قال أبو بكر الرازى قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة سنة اذا لم يحتلم لان الله تعالى لم يفرق بين من بلغها وبين من قصر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من جهات كثيرة رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق وعن الصبى حتى يحتلم ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها فان قيل فهذا الكلام يبطل التقدير أيضا بثمانى عشرة سنة أجاب بانا قد علمنا بان العادة فى البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان مبنيا على طريق العادات فقد تجوز الزيادة فيه والنقصان منه وقد وجدنا من بلغ فى ثنتى عشرة سنة وقد بينا ان الزيادة على المعتاد جائزة كالنقصان منه فجعل أبو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان وهى ثلاث سنين وقد حكى عن أبى حنيفة رحمه الله تسع عشرة سنة للغلام وهو محمول على استكمال ثمانى عشرة سنة والدخول فى التاسعة عشرة حجة الشافعى رحمه الله ما روى ابن عمر أنه عرض على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وله أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فاجازه اعترض أبو بكر الرازى عليه فقال هذا الخبر مضطرب

وصفت به مبالغة أى ليس عليكم جناح أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين (فاذا دخلتم) شروع فى بيان الآداب التى تجب رعايتها عند مباشرة ما رخص فيه اثر بيان الرخصة فيه (بيوتا) أى من البيوت المذكورة (فسلموا على أنفسكم) أى على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك (تحية من عند الله) أى ثابتة بامره مشروعة من لدنه ويجوز أن يكون صلة للتحية فانها طلب الحياة التى هى من عنده تعالى وانتصابها على المصدرية لانها بمعنى التسليم (مباركة) مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما (طيبة) تطيب بها نفس المستمع وعن أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال متى لقيت أحدا من أمتى فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين (كذلك يبين الله لكم الآيات) تكرير لتأكيد

لانّ أحدا كان فى سنة ثلاث والخندق فى سنة خمس فكيف يكون تمام سنة ثم مع ذلك فان الاجازة فى القتال لاتعلق لها بالبلوغ لانه قد يرد البالغ لضعفه ويؤذن غير البالغ لقوّته ولطاقته حمل السلاح ويدل على ذلك انه عليه الصلاة والسلام ماسأله عن الاحتلام والسن (البحث الثانى) اختلفوا فى الانبات هل يكون بلوغا فابو حنيفة وأصحابه ماجعلوه بلوغا والشافعى رحمه الله جعله بلوغا قال أبو بكر الرازى رحمه الله ظاهر قوله والذين لم يبلغوا الحلم منكم ينفى أن يكون الانبات بلوغا اذا لم يحتلم كما ينفى كون خمس عشرة سنة بلوغا وكذلك قوله عليه السلام وعن الصبى حتى يحتلم حجة الشافعى رحمه الله تعالى ماروى عطية القرظى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال فنظروا الىّ فلم أكن قد أنبت فاستبقانى قال أبو بكر الرازى هذا الحديث لايجوز اثبات الشرع به وبمثله لوجوه (أحدها) انّ عطية هذا مجهول لايعرف الامن هذا الخبر لاسيما مع اعتراضه على الآية والخبر فى نفى البلوغ الا بالاحتلام (وثانيها) أنه مختلف الالفاظ ففى بعضها انه أمر بقتل من جرت عليه الموسى وفى بعضها من اخضر عذاره ومعلوم أنه لايبلغ هذه الحال الا وقد تقدم بلوغه ولا يكون قد جرت عليه الموسى الا وهو رجل كبير فجعل الانبات وجرى الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذى ذكرنا من السن وهى ثمانى عشرة سنة فاكثر (وثالثها) ان الانبات يدل على القوّة البدنية فالامر بالقتل لذلك لا للبلوغ قال الشافعى رحمه الله هذه الاحتمالات مردودة بماروى ان عثمان بن عفان رضى الله عنه سئل عن غلام فقال هل اخضر عذاره وهذا يدل على ان ذلك كان كالامر المتفق عليه فيما بين الصحابة (البحث الثالث) يروى عن قوم من السلف انهم اعتبروا فى البلوغ أن يبلغ الانسان فى طوله خمسة أشبار وروى عن على عليه السلام انه قال اذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود ويقتص له ويقتص منه وعن ابن سيرين عن أنس قال أتى أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلى عنه وهذا المذهب أخذبه الفرزدق فى قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره ● وسما فادرك خمسة الاشبار

وأكثر الفقهاء لايقولون بهذا المذهب لان الانسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلا وفوق البلوغ ويكون قصيرا فلا عبرة به (المسئلة الثالثة) قال أبو بكر الرازى دلت هذه الآية على ان من لم يبلغ وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح فان الله أمرهم بالاستئذان فى هذه الاوقات وقال عليه السلام مروهم بالصلاة وهم ابناء سبع واضربوهم عليها وهم ابناء عشر وعن ابن عمر رضى الله عنه قال نعلم الصبى الصلاة اذا عرف يمينه من شماله وعن زين العابدين انه كان يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعا والمغرب والعشاء جميعا فقيل له يصلون الصلاة لغير وقتها فقال هذا خير من أن يتناهوا عنها وعن ابن مسعود رضى الله عنه اذا بلغ الصبى عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب عليه السيآت حتى يحتلم ثم قال أبو بكر الرازى انما يؤمر بذلك على

الاحكام المختصة به وتفهيمها (لعلكم تعقلون) أى ما فى تضاعيفها من الشرائع والاحكام وتعملون بموجبها وتحوزون بذلك سعادة الدارين وفى تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الاولين بما يوجبهما من الجزالة ما لا يخفى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) استئناف جىء به فى اواخر الاحكام السابقة تقريرا لها وتأكيد الوجوب مراعاتها

وجه التعليم وليعتاده ويتمرّن عليه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ وأقل نفورا منه وكذلك يجنب شرب الخمر ولحم الخنزير وينهى عن سائر المحظورات لانه لولم يمنع منه فى الصغر لصعب عليه الامتناع بعد الكبر وقال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا قيل فى التفسير أدبوهم وعلموهم (المسئلة الرابعة) قال الاخفش يقال فى الحلم حلم الرجل بفتح اللام يحلم حلما بضم اللام ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم حلما بكسر اللام أما قوله تعالى ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ثلاث مرات يعنى ثلاث أوقات لانه تعالى فسرهن بالاوقات وانما قيل ثلاث مرات للاوقات لانه أراد مرة فى كل وقت من هذه الاوقات لانه يكفيهم أن يستأذنوا فى كل واحد من هذه الاوقات مرة واحدة ثم بين الاوقات فقال من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء يعنى الغالب فى هذه الاوقات الثلاثة أن يكون الانسان متجردا عن الثياب مكشوف العورة (المسئلة الثانية) قوله ثلاث عورات قرأ أهل الكوفة ثلاث بالنصب على البدل من قوله ثلاث مرات وكانه قال فى أوقات ثلاث عورات لكم فلما حذف المضاف أعرب المضاف اليه باعرابه وقراءة الباقين بالرفع أى هى ثلاث عورات فارتفع لانه خبر مبتدا محذوف قال القفال فكان المعنى ثلاث انكشافات والمراد وقت الانكشاف (المسئلة الثالثة) العورة الخلل ومنه اعور الفارس واعور المكان والاعور المختل العين فسمى الله تعالى كل واحدة من تلك الاحوال عورة لان الناس يختل حفظهم وتسترهم فيها (المسئلة الرابعة) الآية دالة على ان الواجب اعتبار العلل فى الاحكام اذا أمكن لانه تعالى نبه على العلة فى هذه الاوقات الثلاثة من وجهين (أحدهما) بقوله تعالى ثلاث عورات لكم (والثانى) بالتنبيه على الفرق بين هذه الاوقات الثلاثة وبين ماعداها بانه ليس ذاك الا لعلة التكشف فى هذه الاوقات الثلاثة وانه لايؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ماعدا هذه الاوقات (المسئلة الخامسة) من الناس من قال ان قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها فهذا يدل على ان الاستئذان واجب فى كل حال وصار ذلك منسوخا بهذه الآية فى غير هذه الاحوال الثلاثة ومن الناس من قال الآية الاولى أريد بها المكلف لانه خطاب لمن آمن وما ذكره الله تعالى فى هذه الآية فهو فيمن ليس بمكلف فقيل فيه ان فى بعض الاحوال لايدخل الا باذن وفى بعضها بغير اذن فلا وجه لحمل ذلك على النسخ لان ما تناولته الآية الاولى من المخاطبين لم تتناوله الآية الثانية أصلا فان قيل بتقدير أن يكون قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه من قد بلغ فالنسخ لازم قلنا لايجب ذلك أيضا لان قوله يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم لايدخل الا من يملك البيوت لحق هذه الاضافة واذا صح ذلك لم يدخل تحته العبيد والاماء فلا يجب النسخ أيضا على هذا القول فاما ان حمل

وتكميلا لها ببيان بعض آخر من جنسها وانما ذكر الايمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبرا له مبتدا مع تضمنه له قطعا تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وايذانا بانه حقيق بان يجعل قرينا للايمان بهما منتظما فى سلكه فقوله تعالى (واذا كانوا معه على أمر جامع) الخ معطوف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة أى انما الكاملون فى الايمان الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم وأطاعوهما فى جميع الاحكام التى من جملتها ما فصل من قبل من الاحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة فى الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما اذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شانه كالجمعة والاعياد والحروب وغيرها من الامور الداعية الى اجتماع اولى الآراء والتجارب ووصف الامر بالجمع للمبالغة وقرئ أمر جميع (لم يذهبوا) أى

الكلام على صغار المماليك فالقول فيه أبين (المسئلة السادسة) قال أبو حنيفة رحمه الله لم يصر أحد من العلماء الى أن الامر بالاستئذان منسوخ وروى عطاء عن ابن عباس انه قال ثلاث آيات من كتاب الله تركهن الناس ولا أرى أحدا يعمل بهن قال عطاء حفظت اثنتين ونسيت واحدة وقرأ هذه الآية وقوله يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وذكر سعيد بن جبير ان الآية الثالثة قوله واذا حضر القسمة أولوا القربى الآية أما قوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض ففيه سؤالات (السؤال الاول) أتقولون فى قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح انه يقتضى الاباحة على كل حال (الجواب) قد بينا ان ذلك هو فى الصغار خاصة فيباح لهم الدخول للخدمة بغير الاذن فى غير الاوقات الثلاثة ومباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم أيضا (السؤال الثانى) فهل يقتضى ذلك اباحة كشف العورة لهم (الجواب) لا وانما أباح الله تعالى ذلك من حيث كانت العادة أن لا تكشف العورة فى غير تلك الاوقات فمتى كشفت المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم اليها فذلك يحرم عليها فان كان الخادم ممن يتناوله التكليف فيحرم عليه الدخول أيضا اذا ظن ان هناك كشف عورة فان قيل أليس من الناس من جوز للبالغ من المماليك أن ينظر الى شعر مولاته قلنا من جوز ذلك أخرج الشعر من أن يكون عورة لحق الملك كما يخرج من أن يكون عورة لحق الرحم اذ العورة تنقسم ففيه ما يكون عورة على كل حال وفيه ما يختلف حاله بالاضافة فيكون عورة مع الاجنبى غير عورة مع غيره على ما تقدم ذكره (السؤال الثالث) اتقولون هذه الاباحة مقصورة على الخدم دون غيرهم (الجواب) نعم وفى قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن دلالة على ان هذا الحكم يختص بالصغار دون البالغين على ما تقدم ذكره وقد نص تعالى على ذلك من بعد فقال واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم والمراد من تجدد منه البلوغ يجب أن يكون بمنزلة من تقدم بلوغه فى وجوب الاستئذان فهذا معنى قوله كما استأذن الذين من قبلهم وقد يجوز أن يظن ظان ان من خدم فى حال الصغر فاذا بلغ يجوز له أن لا يستأذن ويفارق حاله حال من لم يخدم ولم يملك فبين تعالى انه كما حظر على البالغين الدخول الا بالاستئذان فكذلك على هؤلاء اذا بلغوا وان تقدمت لهم خدمة أو ثبت فيهم ملك لهن (السؤال الرابع) الامر بالاستئذان هل هو مختص بالمملوك ومن لم يبلغ الحلم أو يتناول الكل من ذوى الرحم والاجنبى وأيضا لو كان المملوك من ذوى الرحم هل يجب عليه الاستئذان (الجواب) أما الصورة الاولى فنعم اما العموم قوله تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا أو بالقياس على المملوك ومن لم يبلغ الحلم بطريق الاولى وأما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان لعموم الآية (السؤال الخامس) ما محل ليس عليكم (الجواب) اذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك فى محل الرفع على الوصف والمعنى هن ثلاث عورات مخصوصة

من الجمع مع كون ذلك الامر مما لا يوجب حضورهم لا محالة كما عند اقامة الجمعة ولقاء العدو بل يسوغ التخلف عنه (حتى يستأذنوه) عليه الصلاة والسلام فى الذهاب لا على أن نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب بل الغاية هى الاذن المنوط برأيه عليه الصلاة والسلام والاقتصار على ذكره لانه الذى يتم من قبلهم وهو المعتبر فى كمال الايمان لا الاذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره فى ذلك لما أنه كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فان ديدنه التسلل للفرار ولتعظيم ما فى الذهاب بغير اذنه عليه الصلاة والسلام من الجناية وللتنبيه على ذلك عقب بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فقضى بان المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم فى الاول بان الكاملين فى الايمان هم الجامعون بين الايمان بهما وبين الاستئذان وفى أولئك من تفخيم شان

بالاستئذان واذا نصبت لم يكن له محل وكان كلاما مقررا للامر بالاستئذان فى تلك الاحوال خاصة (السؤال السادس) ما معنى قوله طوافون عليكم (الجواب) قال الفراء والزجاج انه كلام مستأنف كقولك فى الكلام انما هم خدمكم وطوافون عليكم والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد وأصله من الطواف والمعنى يطوف بعضكم على بعض بغير اذن (السؤال السابع) بم ارتفع بعضكم (الجواب) بالابتداء وخبره على بعض على معنى طائف على بعض وانما حذف لان طوافون يدل عليه أما قوله والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت امرأة قاعد اذا قعدت عن الحيض والجمع قواعد واذا أردت القعود قلت قاعدة وقال المفسرون القواعد هن اللواتى قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهن فى الازواج والاولى أن لا يعتبر قعودهن عن الحيض لان ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية فالمراد قعودهن عن حال الزوج وذلك لا يكون الا اذا بلغن فى السن بحيث لا يرغب فيهن الرجال (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى النساء لا يرجون كقوله الا أن يعفون (المسئلة الثالثة) لا شبهة انه تعالى لم يأذن فى أن يضعن ثيابهن أجمع لما فيه من كشف كل عورة فلذلك قال المفسرون المراد بالثياب ههنا الجلباب والبرد والقناع الذى فوق الخمار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ أن يضعن جلابيبهن وعن السدى عن شيوخه أن يضعن خمرهن عن رؤسهن وعن بعضهم انه قرأ أن يضعن من ثيابهن وانما خصهن الله تعالى بذلك لان التهمة مرتفعة عنهن وقد بلغن هذا المبلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب ولذلك قال وأن يستعففن خير لهن وانما جعل ذلك أفضل من حيث هو أبعد من المظنة وذلك يقتضى ان عند المظنة يلزمهن أن لا يضعن ذلك كما يلزم مثله فى الشابة (المسئلة الرابعة) حقيقة التبرج تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه من قولهم سفينة بارج لا غطاء عليها والتبرج سعة العين التى يرى بياضها محيطا بسوادها كله لا يغيب منه شئ الا انه اختص بان تتكشف المرأة للرجال بابداء زينتها واظهار محاسنها ۞ قوله تعالى (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم او بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المراد من رفع الحرج عن الاعمى والاعرج والمريض فقال ابن زيد المراد انه لا حرج عليهم ولا اثم فى ترك الجهاد وقال الحسن

المستأذنين ما لا يخفى (فاذا استأذنوك) بيان لما هو وظيفته عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب اثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين وأن الاذن عند الاستئذان ليس بامر محتوم بل هو مفوض الى رأيه عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى بعد ما تحقق أن الكاملين فى الايمان هم المستأذنون فاذا استأذنوك (لبعض شأنهم) أى لبعض أمرهم المهم وخطبهم الملم (فأذن لمن شئت منهم) لما علمت فى ذلك من حكمة ومصلحة (واستغفر لهم الله) فان الاستئذان وان كان لعذر قوى لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة (ان الله غفور) مبالغ فى مغفرة فرطات العباد (رحيم) مبالغ فى افاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعودة فى ضمن الامر بالاستغفار لهم (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم) استئناف مقرر لمضمون ما قبله والالتفات لابراز مزيد الاعتناء

نزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف
لانه تعالى عطف عليه قوله أن تأكلوا فنبه بذلك على انه انما رفع الحرج في ذلك وقال
الاكثرون المراد منه ان القوم كانوا يحظرون الاكل مع هؤلاء الثلاثة وفي هذه المنازل
فالله تعالى رفع ذلك الحظر وازاله واختلفوا في انهم لاى سبب اعتقدوا ذلك الحظر أما في
حق الاعمى والاعرج والمريض فذكروا فيه وجوها (أحدها) انهم كانوا لا يأكلون مع
الاعمى لانه لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذه ولا مع الاعرج لانه لا يتمكن من الجلوس
فالى أن يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين وكذا المريض لانه لا يتأتى له أن يأكل كما يأكل
الصحيح قال الفراء فعلى هذا التأويل تكون على بمعنى في يعني ليس عليكم في مواكلة
هؤلاء حرج (وثانيها) أن العميان والعرجان والمرضى تركوا مواكلة الاصحاء أما الاعمى
فقال اني لا أرى شيئا فربما آخذ الاجود وأترك الاردأ وأما الاعرج والمريض فخافا
أن يفسد الطعام على الاصحاء لامور تعترى المرضى ولاجل أن الاصحاء يتكرهون منهم
ولاجل أن المريض ربما حمله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير وذلك مما يكرهه
ذلك الغير فلهذه الاسباب احترزوا عن مواكلة الاصحاء فالله تعالى أطلق لهم في ذلك
(وثالثها) روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله في هذه الآية أن
المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يسلمون اليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم
قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا لا ندخلها وهم
غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضي الله عنها فعلى هذا معنى
الآية نفي الحرج عن الزمنى في اكلهم من بيت من يدفع اليهم المفتاح اذا خرج الى الغزو
(ورابعها) نقل عن ابن عباس ومقاتل بن حيان نزلت هذه الآية في الحرث بن عمرو وذلك
انه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع
وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل من طعامك بغير اذنك وأما في حق
سائر الناس فذكروا وجهين (الاول) كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات
الى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم واصدقائهم فيطعمونهم منها فلما نزل قوله تعالى
لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة أى بيعا فعند ذلك امتنع الناس
أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية (الثاني) قال قتادة كانت الانصار
في أنفسها قزازة وكانت لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا قال السدى كان الرجل
يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فيتحرج لانه ليس ثم
رب البيت فانزل الله تعالى هذه الرخصة (المسئلة الثانية) قال الزجاج الحرج في اللغة
الضيق ومعناه في الدين الاثم (المسئلة الثالثة) انه سبحانه أباح الاكل للناس من هذه
المواضع وظاهر الآية يدل على ان اباحة الاكل لا تتوقف على الاستئذان واختلف
العلماء فيه فنقل عن قتادة ان الاكل مباح ولكن لا يحمل وجمهور العلماء أنكروا ذلك

بشانه أى لا تجعلوا دعوته عليه
الصلاة والسلام اياكم في الاعتقاد
والعمل بها (كدعاء بعضكم بعضا)
أى لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة
والسلام اياكم على دعاء بعضكم
بعضا في حال من الاحوال وأمر
من الامور التي من جملتها المساهلة
فيه والرجوع عن مجلسه عليه
الصلاة والسلام بغير استئذان فان
ذلك من المحرمات وقيل لا تجعلوا
دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه
كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة
ويرده أخرى فان دعاءه مستجاب
لا مرد له عند الله عز وجل وتقرير
الجملة حينئذ لما قبلها اما من حيث
ان استجابته تعالى لدعائه عليه
الصلاة والسلام مما يوجب
امتثالهم باوامره عليه الصلاة
والسلام ومتابعتهم له في الورود
والصدور أكمل ايجاب واما من
حيث انها موجبة للاحتراز عن
التعرض لسخطه عليه الصلاة
والسلام المؤدى الى مايوجب
هلاكهم من دعائه عليه الصلاة

ثم

ثم اختلفوا على وجوه (الاول) كان ذلك في صدر الاسلام ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة
والسلام لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس منه ومما يدل على هذا النسخ قوله
لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه وكان في أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والاخوة والاخوات فعم بالنهى عن دخول بيوتهن الا
بعد الاذن في الدخول وفي الاكل فان قيل انما أذن تعالى في هذا لان المسلمين لم يكونوا
يمنعون قراباتهم هؤلاء من أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أو غابوا فجاز أن يرخص في ذلك
قلنا لو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الاقارب بالذكر معنى لان غيرهم كهم في
ذلك (الثاني) قال أبو مسلم الاصفهاني المراد من هؤلاء الاقارب اذا لم يكونوا مؤمنين
وذلك لانه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر
يوادون من حاد الله ورسوله ثم انه سبحانه أباح في هذه الآية ما حظره هنالك قال ويدل
عليه ان في هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال حتى تستأنسوا وتسلموا على
أهلها وفي بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك بل أمر أن يسلموا على أنفسهم والحاصل
أن المقصود من هذه الآية اثبات الاباحة في الجملة لا اثبات الاباحة في جميع الاوقات
(الثالث) انه لما علم بالعادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل من يدخل عليهم والعادة
كالاذن في ذلك فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر لان هذه العادة في الاغلب توجد فيهم
ولذلك ضم اليهم الصديق ولما علمنا أن هذه الاباحة انما حصلت في هذه الصورة لاجل
حصول الرضا فيها فلا حاجة الى القول بالنسخ (المسئلة الرابعة) ان الله تعالى ذكر أحد
عشر موضعا في هذه الآية (أولها) قوله ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم وفيه
سؤال وهو أن يقال أى فائدة في اباحة أكل الانسان طعامه في بيته وجوابه المراد في بيوت
أزواجكم وعيالكم اضافه اليهم لان بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفراء وقال ابن
قتيبة اراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الاولاد الى الآباء لان الولد كسب والده وماله كماله
قال عليه السلام ان أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه والدليل
على هذا انه سبحانه وتعالى عدد الاقارب ولم يذكر الاولاد لانه اذا كان سبب الرخصة هو
القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الامهات
(ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الاخوات (وسادسها) بيوت الاعمام
(وسابعها) بيوت العمات (وثامنها) بيوت الاخوال (وتاسعها) بيوت الخالات
(وعاشرها) قوله تعالى أو ما ملكتم مفاتحه وقرئ مفتاحه وفيه وجوه (الاول) قال ابن
عباس رضي الله عنهما وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر
ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها في يده وفي حفظه (الثاني) قال
الضحاك يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لان مال
العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم وواحد المفاتيح مفتح بالكسر

والسلام عليهم وأما ما قيل من ان
المعنى لا تجعلوا نداءه عليه الصلاة
والسلام كنداء بعضكم بعضا
باسمه ورفع الصوت والنداء من
وراء الحجرات ولكن بلقبه المعظم
مثل يارسول الله يانبي الله مع غاية
التوقير والتفخيم والتواضع
وخفض الصوت فلا يناسب المقام
فان قوله تعالى (قد يعلم الله الذين
يتسللون منكم) الخ وعيد للمخالفي
أمره عليه الصلاة والسلام فيما
ذكر من قبل فتوسيطما ذكر بينهما
مما لا وجه له والتسلل الخروج
من البين على التدريج والخفية
وقد للتحقيق كما أن رب تجيء
للتكثير حسبما بين في مطلع سورة
الحجر أى يعلم الله الذين يخرجون من
الجماعة قليلا قليلا على خفية (لواذا)
أى ملاوذة بأن يستتر بعضهم
ببعض حتى يخرج أو بأن يلوذ بمن
يخرج بالاذن اراءة أنه من أتباعه
وقرئ بفتح اللام وانتصابه على
الحالية من ضمير يتسللون أى
ملاوذين أو على أنه مصدر مؤكد

(الحادى عشر) قوله أو صديقكم والمعنى أو بيوت اصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا وكذلك الخليط والقطين والعدو ويحكى عن الحسن انه دخل داره واذا حلقة من اصدقائه وقد أخرجوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الاطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت اسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الصديق أكبر من الوالدين لان أهل جهنم لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل بالاصدقاء فقالوا مالنا من شافعين ولا صديق حميم وحكى ان أخا الربيع بن خثيم فى الله دخل منزله فى حال غيبته فانبسط الى جاريته حتى قدمت اليه ما أكل فلما عاد أخبرته بذلك فلسروره بذلك قال ان صدقت فانت حرة (المسئلة الخامسة) احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على ان من سرق من ذى رحم محرم انه لا يقطع لاباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الأكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم فلا يكون ماله محرزا منهم فان قيل فيلزم أن لا يقطع اذا سرق من مال صديقه قلنا من أراد سرقة ماله لا يكون صديقا له أما قوله تعالى ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو اشتاتا فقال أكثر المفسرين نزلت الآية فى بنى ليث بن عمرو وهم حى من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فان لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيأ وربما كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من البانها حتى يجد من يشاربه فاعلم الله تعالى ان الرجل اذا أكل وحده لا حرج عليه هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وقال عكرمة وأبو صالح رحمهما الله كانت الانصار اذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل الا وضيفه معه فرخص الله لهم أن يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين ومتفرقين وقال الكلبى كانوا اذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما على حدة وكذلك للزمن والمريض فبين الله لهم أن ذلك غير واجب وقال آخرون كانوا يأكلون فرادى خوفا من أن يحصل عند الجمعية ما ينفر أو يؤذى فبين الله تعالى انه غير واجب وقوله جميعا نصب على الحال وأشتاتا جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت قاله المفضل وقيل الشت مصدر بمعنى التفرق ثم يوصف به ويجمع أما قوله تعالى فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم فالمعنى انه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم قال ابن عباس فان لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا واذا دخل المسجد فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا قال قتادة وحدثنا أن الملائكة ترد عليه قال القفال وان كان فى البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وقوله تحية نصب على المصدر كانه قال فحيوا تحية من عند الله أى مما أمركم الله به قال ابن عباس رضى الله عنهما من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله مباركة طيبة قال الضحاك معنى البركة فيه تضعيف الثواب وقال الزجاج أعلم الله سبحانه أن السلام مباركة ثابت لما فيه من الاجر والثواب وانه اذا أطاع الله فيه أكثر خيره وأجزل أبره كذلك

لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة أى يلوذون لواذا والفاء فى قوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) لترتيب الحذر أو الامر به على ما قبلها من علمه تعالى باحوالهم فانه مما يوجب الحذر البتة اى يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتا خلاف سمته وعن اما لتضمنه معنى الاعراض أو حمله على معنى يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الامر اذا صد عنه دونه وحذف المفعول لما أن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير له تعالى لانه الآمر حقيقة أو للرسول عليه الصلاة والسلام لانه المقصود بالذكر (أن تصيبهم فتنة) أى محنة فى الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) أى فى الآخرة وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع واعادة الفعل صريحا للاعتناء بالتهديد والتحذير واستدل به على أن الامر للايجاب فان ترتيب العذابين على مخالفته كما يعرب عنه التحذير عن اصابتهما

يبين الله لكم الآيات أى يفصل الله شرائعه لكم لعلكم تعقلون لتفهموا عن الله أمره ونهيه وروى حميد عن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى فى شئ فعلته لم فعلته ولا قال لى فى شئ تركته لم تركته وكنت واقفا على رأس النبى صلى الله عليه وسلم أصب الماء على يديه فرفع رأسه الى وقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بهن قلت بأبى وأمى أنت يا رسول الله بلى فقال من لقيت من أمتى فسلم عليهم يطل عمرك واذا دخلت بيتا فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الاوابين ﴿ قوله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ألا ان لله ما فى السموات والارض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شئ عليم) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرئ على أمر جميع ثم ذكروا فى قوله على أمر جامع وجوها (أحدها) أن الامر الجامع هو الامر الموجب للاجتماع عليه فوصف الامر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو أو تشاور فى خطب مهم أو الامر الذى يعم ضرره ونفعه وفى قوله اذا كانوا معه على أمر جامع اشارة الى انه خطب جليل لابد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم فمفارقة أحدهم فى هذه الحالة مما يشق على قلبه (وثانيها) عن الضحاك فى أمر جامع الجمعة والاعياد وكل شئ تكون فيه الخطبة (وثالثها) عن مجاهد فى الحرب وغيره (المسئلة الثانية) اختلفوا فى سبب نزوله قال الكلبى كان صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن (المسئلة الثالثة) قال الجبائى هذا يدل على ان استئذانهم الرسول من ايمانهم ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملى الايمان وان تركوا الاستئذان وذلك يدل على ان كل فرض لله تعالى واجتناب محرم من الايمان (والجواب) هذا بناء على أن كلمة انما للحصر وأيضا فالمنافقون انما تركوا الاستئذان استخفافا ولا نزاع فى انه كفر أما قوله تعالى ان الذين يستأذنونك الى قوله ان الله غفور رحيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الذين يستأذنونك المعنى تعظيما لك ورعاية للادب أولئك هم الذين يؤمنون بالله ورسوله أى يعملون بموجب الايمان ومقتضاه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب رضى الله

يوجب وجوب الامتثال به حتما (ألا ان لله ما فى السموات والارض) من الموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا ايجادا واعداما بدأ واعادة (قد يعلم ما أنتم عليه) أيها المكلفون من الاحوال والاوضاع التى من جملتها الموافقة والمخالفة والاخلاص والنفاق (ويوم يرجعون اليه) عطف على ما أنتم عليه أى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للامر اليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق علمه تعالى بيوم رجوعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشئ مستلزم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه وآكده وفيه اشعار بأن علمه تعالى بنفس رجوعهم من الظهور بحيث لا يحتاج الى البيان قطعا ويجوز أن يكون الخطاب أيضا خاصا بالمنافقين على طريقة الالتفات وقرئ يرجعون مبنيا للفاعل (فينبئهم بما عملوا) من الاعمال السيئة التى من جملتها

عنه وذلك لانه استأذن فى غزوة تبوك فى الرجوع الى أهله فاذن له وقال له انطلق فوالله
ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد اذا
استأذنه أصحابه أذن لهم واذا استأذناه لم يأذن لنا فوالله ما نراه يعدل وقال ابن عباس
رضى الله عنهما ان عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العمرة فاذن له ثم قال يا أبا
حفص لا تنسنا من صالح دعائك وفى قوله واستغفر لهم الله وجهان (أحدهما) أن
يستغفر لهم تنبيها على ان الاولى أن لا يقع الاستئذان منهم وان أذن لان الاستغفار يدل
على الذنب وربما ذكر عند بعض الرخص (الثانى) يحتمل انه تعالى أمره بان يستغفر لهم
مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى فى الاستئذان (المسئلة الثانية) قال قتادة نسخت
هذه الآية قوله تعالى لم أذنت لهم (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه فوض الى
رسوله بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه أما قوله تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء
بعضكم بعضا ففيه وجوه (أحدها) وهو اختيار المبرد والقفال ولا تجعلوا أمره اياكم
ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض اذ كان أمره فرضا لازما والذى يدل على هذا
قوله عقيب هذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره (وثانيها) لا تنادوه كما ينادى بعضكم
بعضا يا محمد يا أبا القاسم ولكن قولوا يا رسول الله يا نبى الله عن سعيد بن جبير (وثالثها)
لا ترفعوا أصواتكم فى دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول
الله عن ابن عباس (ورابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم اذا أسخطتموه فان دعاءه
موجب ليس كدعاء غيره والوجه الاول أقرب الى نظم الآية أما قوله تعالى قد يعلم الله
الذين يتسللون منكم لواذا فالمعنى يتسللون قليلا قليلا ونظير تسلل تدرج وتدخل
واللواذ الملاوذة وهى أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا يعنى يتسللون عن الجماعة على سبيل
الخفية واستتار بعضهم ببعض ولواذا حال أى ملاوذين وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل اذا
استأذن فيؤذن له فينطلق الذى لم يؤذن له معه وقرئ لواذا بالفتح ثم اختلفوا على وجوه
(أحدها) قال مقاتل كان المنافقون تثقل عليهم خطبة النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة
فيلوذون ببعض أصحابه ويخرجون من غير استئذان (وثانيها) قال مجاهد يتسللون من
الصف فى القتال (وثالثها) قال ابن قتيبة هذا كان فى حفر الخندق (ورابعها) يتسللون
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن كتابه وعن ذكره وقوله قد يعلم الله معناه التهديد
بالمجازاة أما قوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال
الاخفش عن صلة والمعنى يخالفون أمره وقال غيره معناه يعرضون عن أمره ويميلون عن
سنته فدخلت عن لتضمين المخالفة معنى الاعراض (المسئلة الثانية) كما تقدم ذكر الرسول
فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن القصد هو الرسول فاليه ترجع الكناية وقال أبو بكر الرازى
الاظهر انها لله تعالى لانه يليه وحكم الكناية رجوعها الى ما يليها دون ما تقدمها (المسئلة
الثالثة) الآية تدل على أن ظاهر الامر للوجوب ووجه الاستدلال به أن نقول تارك

المامور

مخالفة الامر فيترتب عليه ما يليق
به من التوبيخ والجزاء وقد مر وجه
التعبير عن الجزاء بالتنبئة فى قوله
تعالى انما بغيكم على أنفسكم
الآية (والله بكل شئ عليم) لا يعزب
عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى
السماء عن النبى صلى الله عليه
وسلم من قرأ سورة النور أعطى من
الاجر عشر حسنات بعدد كل
مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى
والله سبحانه وتعالى أعلم

المامور به مخالف لذلك الامر ومخالف الامر مستحق للعقاب فتارك المامور به مستحق
للعقاب ولا معنى للوجوب الا ذلك انما قلنا ان تارك المامور به مخالف لذلك الامر لان
موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه والمخالفة ضد الموافقة فكانت مخالفة الامر
عبارة عن الاخلال بمقتضاه فثبت ان تارك المأمور به مخالف وانما قلنا ان مخالف الامر
مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم
عذاب أليم فامر مخالف هذا الامر بالحذر عن العقاب والامر بالحذر عن العقاب انما
يكون بعد قيام المقتضى لنزول العقاب فثبت أن مخالف أمر الله تعالى أو أمر رسوله قد
وجد فى حقه ما يقتضى نزول العذاب فان قيل لانسلم أن تارك المامور به مخالف للامر
قوله موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بمقتضاه قلنا
لانسلم أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه فما الدليل عليه ثم انا نفسر موافقة
الامر بتفسيرين (أحدهما) أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على
الوجه الذى يقتضيه الامر فان الامر لو اقتضاه على سبيل الندب وأنت تاتى به على سبيل
الوجوب كان ذلك مخالفة للامر (الثانى) أن موافقة الامر عبارة عن الاعتراف بكون
ذلك الامر حقا واجب القبول فمخالفته تكون عبارة عن انكار كونه حقا واجب
القبول سلمنا ان ما ذكرته يدل على أن مخالفة الامر عبارة عن ترك مقتضاه لكنه معارض
بوجوه أخر وهو أنه لو كان ترك المامور به مخالفة للامر لكان ترك المندوب لا محالة
مخالفة لامر الله تعالى وذلك باطل والا لاستحق العقاب على ما بينتموه فى المقدمة الثانية
سلمنا ان تارك المأمور به مخالف للامر فلم قلت ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله
تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره قلنا لانسلم أن هذه الآية دالة على أمر من يكون
مخالفا للامر بالحذر بل هى دالة على الامر بالحذر عن مخالفة الامر فلم لا يجوز أن
يكون كذلك سلمنا ذلك لكنها دالة على أن المخالف عن الامر يلزمه الحذر فلم قلت ان
مخالف الامر لا يلزمه الحذر فان قلت لفظة عن صلة زائدة فنقول الاصل فى الكلام لا سيما
فى كلام الله تعالى أن لا يكون زائدا سلمنا دلالة الآية على أن مخالف أمر الله تعالى
مامور بالحذر عن العذاب فلم قلت انه يجب عليه الحذر عن العذاب أقصى ما فى الباب
انه ورد الامر به لكن لم قلت ان الامر للوجوب وهذا أول المسئلة فان قلت هب انه
لا يدل على وجوب الحذر لكن لا بد وأن يدل على حسن الحذر وحسن الحذر انما يكون
بعد قيام المقتضى لنزول العذاب قلت لانسلم أن حسن الحذر مشروط بقيام المقتضى
لنزول العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب ولهذا يحسن الاحتياط
وعندنا مجرد الاحتمال قائم لان هذه المسئلة احتمالية لا قطعية سلمنا دلالة الآية على وجود
ما يقتضى نزول العقاب لكن لا فى كل أمر بل فى أمر واحد لان قوله عن أمره لا يفيد الا
أمرا واحدا وعندنا ان أمرا واحدا يفيد الوجوب فلم قلت ان كل أمر كذلك سلمنا أن كل

عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته
عبارة عن الاخلال بذلك لانا نفسر
موافقة الامر بتفسيرين أحدهما
الخ فتكون المخالفة كذلك اه

•(سورة الفرقان مكية وهى
سبع وسبعون آية)•

•(بسم الله الرحمن الرحيم)•
(تبارك الذى نزل الفرقان) البركة
النماء والزيادة حسية كانت أو
معنوية وكثرة الخير ودوامه أيضا
ونسبتها الى الله عز وجل على
المعنى الاول وهو الاليق بالمقام
باعتبار تعاليه عما سواه فى ذاته
وصفاته وأفعاله التى من جملتها
تنزيل القرآن الكريم المعجز
الناطق بعلو شانه تعالى وسمو
صفاته وابتناء أفعاله على أساس
الحكم والمصالح وخلوها عن
شائبة الخلل بالكلية وصيغة
التفاعل للمبالغة فيما ذكر فان
ما لا يتصور نسبته اليه سبحانه
حقيقة من الصيغ كالتكبر
ونحوه لا تنسب اليه تعالى الا
باعتبار غاياتها وعلى المعنى الثانى
باعتبار كثرة ما يفيض منه على
مخلوقاته لا سيما على الانسان من
فنون الخيرات التى من جملتها
تنزيل القرآن المنطوى على جميع
الخيرات الدينية والدنيوية
والصيغة حينئذ يجوز أن تكون
لافادة نماء تلك الخيرات وتزايدها
شيئا فشيئا وآنا فآنا بحسب حدوثها
أو حدوث متعلقاتها ولاستقلالها
بالدلالة على غاية الكمال وتحققها

 بالفعل والاشعار بالتعجب المناسب للانشاء والانباء عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها فى حق غيره تعالى ولا استعمال

أمر كذلك لكن الضمير في قوله عن أمره يحتمل عوده الى الله تعالى وعوده الى الرسول والآية لاتدل الا على أن الامر للوجوب في حق أحدهما فلم قلتم انه في حق الآخر كذلك (الجواب) قوله لم قلتم ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قلنا الدليل عليه أن العبد اذا امتثل أمر السيد حسن أن يقال ان هذا العبد موافق للسيد ويجري على وفق أمره ولو لم يمتثل أمره يقال انه ما وافقه بل خالفه وحسن هذا الاطلاق معلوم بالضرورة من أهل اللغة فثبت أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قوله الموافقة عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذي يقتضيه الامر قلنا لما سلمتم أن موافقة الامر لا تحصل الا عند الاتيان بمقتضى الامر فنقول لاشك أن مقتضى الامر هو الفعل لان قوله افعل لا يدل الا على اقتضاء الفعل واذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الامر فلا توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة لانه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة قوله الموافقة عبارة عن اعتقاد كون ذلك الامر حقا واجب القبول قلنا هذا لا يكون موافقة للامر بل يكون موافقة للدليل الدال على أن ذلك الامر حق فان موافقة الشئ عبارة عن الاتيان بما يقتضي تقرير مقتضاه فاذا دل الدليل على حقية الشئ كان الاعتراف بحقيته يقتضي تقرير مقتضى ذلك الدليل أما الامر فلما اقتضى دخول الفعل في الوجود كانت موافقته عبارة عما يقرر ذلك الدخول وادخاله في الوجود يقتضي تقرير دخوله في الوجود فكانت موافقة الامر عبارة عن فعل مقتضاه قوله لو كان كذلك لكان تارك المندوب مخالفا فوجب أن يستحق العقاب قلنا هذا الالزام انما يصح أن لو كان المندوب مأمورا به وهو ممنوع قوله لم لا يجوز أن يكون قوله فليحذر أمرا بالحذر عن المخالف لا أمرا للمخالف بالحذر قلنا لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتسللون لواذا عن الذين يخالفون أمره وحينئذ يبقى قوله أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ضائعا لان الحذر ليس فعلا يتعدى الى مفعولين قوله كلمة عن ليست بزائدة قلنا ذكرنا اختلاف الناس فيها في المسئلة الاولى قوله لم قلتم ان قوله فليحذر يدل على وجوب الحذر عن العقاب قلنا لا ندعي وجوب الحذر ولكن لا أقل من جواز الحذر وذلك مشروط بوجود ما يقتضي وقوع العقاب قوله لم قلت ان الآية تدل على أن كل مخالف للامر يستحق العقاب قلنا لانه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون معللا به فيلزم عمومه لعموم العلة قوله هب أن أمر الله أو أمر رسوله للوجوب فلم قلتم ان الامر كذلك قلنا لانه لا قائل بالفرق والله أعلم (المسئلة الرابعة) من الناس من قال لفظ الامر مشترك بين الامر القولي وبين الشان والطريق كما يقال أمر فلان مستقيم واذا ثبت ذلك كان قوله تعالى عن أمره يتناول قول الرسول وفعله وطريقته وذلك يقتضي أن كل ما فعله عليه الصلاة والسلام يكون واجبا علينا وهذه المسئلة مبنية على أن الكناية في قوله عن أمره راجعة الى النبي صلى الله عليه وسلم أما لو كانت راجعة الى الله تعالى فالبحث

غيرها من الصيغ في حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين أي فصل بينهما سمي به القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل باحكامه أو بين المحق والمبطل باعجازه أو لكونه مفصولا بعضه من بعض في نفسه أو في انزاله (على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم وايراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه والايذان بكونه عليه الصلاة والسلام في أقصى مراتب العبودية والتنبيه على أن الرسول لا يكون الا عبدا للمرسل ردا على النصارى (ليكون) غاية للتنزيل أي نزله عليه ليكون هو عليه الصلاة والسلام أو الفرقان (للعالمين) من الثقلين (نذيرا) اى منذرا أو انذارا مبالغة أو ليكون تنزيله انذارا وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة وتقديم اللام على عاملها لمراعاة الفواصل وابراز تنزيل الفرقان في معرض الصلة التي حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع انكار الكفرة له لاجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيها على كمال قوة دلائله وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى لا ريب فيه (الذي له ملك السموات والارض) أي له خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا السلطان القاهر والاستيلاء الباهر عليهما المستلزمان للقدرة التامة والتصرف الكلي فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة وأمرا

ساقط بالكلية وتمام تقرير ذلك ذكرناه في أصول الفقه والله أعلم أما قوله تعالى أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فالمراد أن مخالفة الامر توجب أحد هذين الامرين والمراد بالفتنة العقوبة في الدنيا وبالعذاب الاليم عذاب الآخرة وانما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الامرين لان ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد ثم قال الحسن الفتنة هي ظهور نفاقهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما القتل وقيل الزلازل والاهوال وعن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر أما قوله تعالى ألا ان لله ما في السموات والارض فذلك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما وعلى ما بينهما وما فيهما واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو بعقاب وعلمه بما يخفيه ويعلنه وكل ذلك كالزجر عن مخالفة أمره أما قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه فانما أدخل قد لتوكيد علمه بما هم عليه من المخالفة في الدين والنفاق ويرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد وذلك لان قد اذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما في خروجها الى معنى التكثير كما في قول الشاعر

فان يمس مهجور الفناء فربما • أقام به بعد الوفود وفود

والخطاب والغيبة في قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين وقد تقدم في غير موضع أن الرجوع اليه هو الرجوع الى حيث لا حكم الا له فلا وجه لاعادته والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم

• (سورة الفرقان سبع وسبعون آية مكية) •

• (بسم الله الرحمن الرحيم) •

قوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا)

• اعلم ان الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين ولما كان اثبات الصانع واثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدما على الكل لا جرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال تبارك الذي نزل الفرقان على عبده وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج تبارك تفاعل من البركة والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان أحدهما تزايد خيره وتكاثر وهو المراد من قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (والثاني) تزايد عن كل شئ وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله وهو المراد من قوله ليس كمثله شئ واما تعاليه عن كل شئ في ذاته فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شئ من الممكنات وأما تعاليه عن كل شئ في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريا أو كسبيا أو تصورا

ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف والجملة مستانفة مقررة لما قبلها أو على أنه نعت للموصول الاول أو بيان له أو بدل منه وما بينهما ليس باجنبي لانه من تمام صلته ومعلومية مضمونه للكفرة بما لا ريب فيه لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ونظائره أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب (ولم يتخذ ولدا) كما يزعم الذين يقولون في حق المسيح والملائكة ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وهو معطوف على ما قبله من الجملة الظرفية ونظمه في سلك الصلة للايذان بان مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل لا سيما بعد تقرير ما قبله (ولم يكن له شريك في الملك) أي ملك السموات والارض وهو أيضا عطف على الصلة وافراده بالذكر مع أن ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعا للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والرد في نحورهم وتوسيط نفي اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للاول (وخلق كل شئ) أي أحدث كل موجود من الموجودات احداثا جاريا على سنن التقدير حسبما اقتضته ارادته المبنية على الحكم البالغة بان خلق

أو تصد بقاو في قدرته أن يحتاج الى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومثال واما في أفعاله
فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود الامن قبله وقال آخرون أصل
الكلمة تدل على البقاء وهو ماخوذ من بروك البعير ومن بروك الطير على الماء وسميت
البركة بركة لثبوت الماء فيها والمعنى انه سبحانه وتعالى باق في ذاته أزلا وأبدا ممتنع التغير
وباق في صفاته ممتنع التبدل ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع والمصالح
والمبقي لها وجب وصفه سبحانه بانه تبارك وتعالى (المسئلة الثانية) قال أهل اللغة كلمة
الذي موضوعة للاشارة الى الشئ عند محاولة تعريفه بقضية معلومة وعند هذا يتوجه
الاشكال وهو أن القوم ما كانوا عالمين بانه سبحانه هو الذي نزل الفرقان فكيف حسن
ههنا لفظ الذي وجوابه أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزا ظهر بحسب الدليل
كونه من عند الله فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم (المسئلة
الثالثة) لانزاع ان الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث انه سبحانه فرق به بين الحق
والباطل في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبين الحلال والحرام أولانه فرق في النزول
كما قال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وهذا التأويل أقرب لانه قال نزل
الفرقان ولفظة نزل تدل على التفريق وأما لفظة أنزل فتدل على الجمع ولذلك قال
في سورة آل عمران نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والانجيل (واعلم) انه سبحانه
وتعالى لما قال أولا تبارك ومعناه كثرة الخير والبركة ثم ذكر عقبه أمر القرآن دل ذلك
على ان القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات لكن القرآن ليس الا منبعا للعلوم والمعارف
والحكم فدل هذا على ان العلم أشرف المخلوقات وأعظم الاشياء خيرا وبركة (المسئلة
الرابعة) لانزاع ان المراد من العبد ههنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ابن الزبير على عباده
وهم رسول الله وأمته كما قال لقد أنزلنا اليكم قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وقوله ليكون
للعالمين نذيرا فالمراد ليكون هذا العبد نذيرا للعالمين وقول من قال انه راجع الى الفرقان
فاضاف الانذار اليه كما أضاف الهداية اليه في قوله ان هذا القرآن يهدي فبعيد وذلك
لان المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف واذا وصف به القرآن فهو مجاز وحمل
الكلام على الحقيقة اذا أمكن هو الواجب ثم قالوا هذه الآية تدل على أحكام
(الاول) ان العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس
والملائكة لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا الى الملائكة فوجب أن يكون
رسولا الى الجن والانس جميعا ويبطل بهذا قول من قال انه كان رسولا الى البعض دون
البعض (الثاني) أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على انه رسول
للخلق الى يوم القيامة فوجب أن يكون خاتم الانبياء والرسل (الثالث) قالت المعتزلة
دلت الآية على انه سبحانه أراد الايمان وفعل الطاعات من الكل لانه انما بعثه الى
الكل ليكون نذيرا للكل وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والاعراض عن القبيح

كلا منها من مواد مخصوصة على
صور معينة ورتب فيه قوى
وخواص مختلفة الآثار
والاحكام (فقدره) أي هيأه لما
أراد به من الخصائص والافعال
اللائقة به (تقديرا) بديعا لا يقادر
قدره ولا يبلغ كنهه كتهيئة الانسان
للفهم والادراك والنظر والتدبر
في أمور المعاش والمعاد واستنباط
الصنائع المتنوعة ومزاولة
الاعمال المختلفة وهكذا أحوال
سائر الانواع وقيل أريد بالخلق
مطلق الايجاد والاحداث مجازا
من غير ملاحظة معنى التقدير
وان لم يخل عنه في نفس الامر
فالمعنى أوجد كل شئ فقدره في ذلك
الايجاد تقديرا وأما ما قيل من
أنه سمى احداثه تعالى خلقا لانه
تعالى لا يحدث شيأ الا على وجه
التقدير من غير تفاوت ففيه أن
ارتكاب المجاز بحمل الخلق على
مطلق الاحداث لتجريده عن معنى
التقدير فاعتباره فيه بوجه من
الوجوه مخل بالمرام قطعا وقيل
المراد بالتقدير الثاني هو التقدير
للبقاء الى الاجل المسمى وايا ما
كان فالجملة جارية مجرى التعليل
لما قبلها من الجمل المنتظمة مثلها
في سلك الصلة فان خلقه تعالى
لجميع الاشياء على ذلك النمط
البديع كما يقتضي استقلاله تعالى
باتصافه بصفات الالوهية يقتضي
انتظام كل ما سواه كائنا ما كان
تحت ملكوته القاهرة بحيث
لا يشذ عنها شئ من ذلك قطعا

وعارضهم

وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم الآية (الرابع) لقائل أن يقول ان قوله
تبارك كما دل على كثرة الخير والبركة لابد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سببا
لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع
(جوابه) ان هذا الانذار يجري مجرى تاديب الولد وكما أنه كلما كانت المبالغة في تاديب
الولد أكثر كان الاحسان اليه أكثر لما أن ذلك يؤدي في المستقبل الى المنافع العظيمة
فكذا ههنا كلما كان الانذار كثيرا كان رجوع الخلق الى الله أكثر فكانت السعادة
الاخروية أتم وأكثر وهذا كالتنبيه على انه لا التفات الى المنافع العاجلة وذلك لانه
سبحانه لما وصف نفسه بانه الذي يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر
البتة شيأ من منافع الدنيا ثم انه سبحانه وصف ذاته باربع أنواع من صفات الكبرياء
(أولها) قوله الذي له ملك السموات والارض وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده
سبحانه لانه لا طريق الى اثباته الا بواسطة احتياج أفعاله اليه فكان تقديم هذه الصفة
على سائر الصفات كالامر الواجب وقوله له ما في السموات والارض اشارة الى احتياج
هذه المخلوقات اليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها وانه
سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء (وثانيها) قوله ولم يتخذ ولدا فبين سبحانه انه هو
المعبود أبدا ولا يصح أن يكون غيره معبودا ووارثا الملك عنه فتكون هذه الصفة
كالمؤكدة لقوله تبارك ولقوله الذي له ملك السموات والارض وهذا كالرد على
النصارى (وثالثها) قوله ولم يكن له شريك في الملك والمراد انه هو المنفرد بالالهية واذا
عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل ولا يبقى مشغول القلب الا برحمته
واحسانه وفيه الرد على الثنوية والقائلين بعبادة النجوم والقائلين بعبادة الاوثان
(ورابعها) قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا وفيه سؤالات (الاول) هل في قوله وخلق
كل شئ دلالة على انه سبحانه خالق لاعمال العباد (والجواب) نعم من وجهين الاول ان
قوله وخلق كل شئ يتناول جميع الاشياء فيتناول أفعال العباد والثاني وهو أنه تعالى
بعد ان نفى الشريك ذكر ذلك والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلا قال ههنا
أقوام يعترفون بنفي الشركاء والانداد ومع ذلك يقولون انهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر
الله تعالى هذه الآية لتكون معينة في الرد عليهم قال القاضي الآية لا تدل عليه لوجوه
(أحدها) انه سبحانه صرح بكون العبد خالقا في قوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير
وقال فتبارك الله أحسن الخالقين (وثانيها) انه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به
خلق الفساد (وثالثها) انه سبحانه تمدح بانه قدره تقديرا ولا يجوز ان يريد به الا الحسن
والحكمة دون غيره فثبت بهذه الوجوه انه لابد من التاويل لو دلت الآية بظاهرها عليه
فكيف ولا دلالة فيها البتة لان الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول الا ما يظهر فيه
التقدير وذلك انما يظهر في الاجسام لا في الاعراض والجواب اما قوله واذ تخلق وقوله

وما كان كذلك كيف يتوهم كونه ولدا له سبحانه أو شريكا في ملكه (واتخذوا من دونه آلهة) بعدما بين حقيقة الحق في
مطلع السورة الكريمة بذكر تنزيله
تعالى للفرقان العظيم على رسوله
صلى الله عليه وسلم ووصفه تعالى
بصفات الكمال وتنزيهه عما لا يليق
بشانه الجليل عقب ذلك بحكاية
أباطيل المشركين في حق المنزل
سبحانه والمنزل والمنزل عليه على
الترتيب واظهار بطلانها والاضمار
من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة
ما قبله من نفي الشريك عليهم أي
اتخذوا لانفسهم متجاوزين الله
تعالى الذي ذكر بعض شؤنه الجليلة
من اختصاص ملك السموات
والارض به تعالى وانتفاء الولد
والشريك عنه وخلق جميع
الاشياء وتقديرها أبدع تقرير
آلهة (لا يخلقون شيأ) أي
لا يقدرون على خلق شئ من
الاشياء أصلا (وهم يخلقون)
كسائر المخلوقات وقيل لا يقدرون
على أن يختلقوا اشيا وهم يختلقون
حيث تختلقهم عبدتهم بالنحت
والتصوير وقوله تعالى (ولا يملكون
لانفسهم ضرا ولا نفعا) لبيان
ما لم يدل عليه ما قبله من مراتب
عجزهم وضعفهم فان بعض المخلوقين
العاجزين عن الخلق ربما يملك
دفع الضر وجلب النفع في الجملة
كالحيوان وهؤلاء لا يقدرون
على التصرف في ضر ما ليدفعوه
عن أنفسهم ولا في نفع ما حتى
يجلبوه اليهم فكيف يملكون شيأ
منهما لغيرهم وتقديم ذكر الضر
لان دفعه مع كونه أهم في نفسه أول مراتب النفع وأقدمها والتنصيص على قوله تعالى (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا)

أي لا يقدرون على التصرف في شيء منها كاماتة الاحياء واحياء الموتى وبعثهم بعد بيان عجزهم عما هو أهون من هذه الامور

أحسن الخالقين فهما معارضان بقوله الله خالق كل شئ وبقوله هل من خالق غير الله وأما قوله لا يجوز التمدح بخلق الفساد قلنا لم لا يجوز أن يقع التمدح به نظرا الى تقادير القدرة والى ان صفة الايجاد من العدم والاعدام من الوجود ليست الا لله وأما قوله الخلق لا يتناول الا الاجسام فنقول لو كان كذلك لكان قوله خلق كل شئ خطأ لانه يقتضي اضافة الخلق الى جميع الاشياء مع انه لا يصح في العقل اضافته اليها (السؤال الثاني) في الخلق معنى التقدير فقوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا معناه وقدر كل شئ فقدره تقديرا (والجواب) المعنى أحدث كل شئ احداثا يراعى فيه التقدير والتسوية فقدره تقديرا وهيأه لما يصلح له مثاله انه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في باب الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بامثلة الحكمة والتدبير فقدره لامر ما ومصلحة ما مطابقا لما قدر غير متخلف عنه (السؤال الثالث) هل في قوله فقدره تقديرا دلالة على مذهبكم (الجواب) نعم وذلك من وجوه (أحدها) ان التقدير في حقنا يرجع الى الظن والحسبان اما في حقه سبحانه فلا معنى له الا العلم به والاخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة فلما علم في الشئ الفلاني انه لا يقع فلو وقع ذلك الشئ لزم انقلاب علمه جهلا وانقلاب خبره الصدق كذبا وذلك محال والمفضي الى المحال محال فاذن وقوع ذلك الشئ محال والمحال غير مراد فذلك الشئ غير مراد وانه مامور به فثبت ان الامر والارادة لا يتلازمان وظهر ان السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه (وثانيها) انه عند حصول القدرة والداعية الخالصة ان وجب الفعل كان فعل العبد موجب فعل الله تعالى وحينئذ يبطل قول المعتزلة وان لم يجب فان استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب اثبات الصانع وان لم يستغن عن المرجح فالكلام يعود في ذلك المرجح ولا ينقطع الا عند الانتهاء الى واجب الوجود (وثالثها) ان فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع الا الشئ الذي أراد تكوينه وايجاده لكن الانسان لا يريد الا العلم والحق فلا يحصل له الا الجهل والباطل فلو كان الامر بقدرته لما كان كذلك فان قيل انما كان لانه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل قلنا ان اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء الى جهل أول ووقع في قلب الانسان لا بسبب جهل سابق بل الانسان أحدثه ابتداء من غيره ويجب وذلك محال لان الانسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول الا العلم فوجب أن لا يحصل له الا ما قصده وأراده وحيث لم يكن كذلك علمنا ان الكل بقضاء سابق وقدر نافذ وهو المراد من قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا ۞ قوله تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيأ وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) اعلم انه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات

من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الاله يجب أن يكون قادرا على جميع ذلك وفيه ايذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم كأنهم غير عارفين بانتفاء ما نفى عن آلهتهم من الامور المذكورة مفتقرون الى التصريح بذلك (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك) شروع في حكاية أباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معا وابطالها والموصول اما عبارة عن غلاتهم في الكفر والطغيان وهم النضر ابن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم وروى عن الكلبي ومقاتل أن القائل هو النضر بن الحرث والجمع لمشايعة الباقين له في ذلك واما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة والايذان بان ما تفوهوا به كفر عظيم وفي كلمة هذا حط لرتبة المشار اليه اى ما هذا الا كذب مصروف عن وجهه (افتراه) يريدون أنه اختلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أي على اختلاقه (قوم آخرون) يعنون اليهود بان يلقوا اليه أخبار الامم الدارجة وهو يعبر عنها بعبارته وقيل هما جبر ويسار كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وقيل هو عابس وقد مر تفصيله في سورة النحل (فقد جاؤا ظلما) منصوب بجاؤا فان جاء وأتى يستعملان في معنى فعل

فيعدّيان تعديته أو بنزع الخافض أى بظلم قاله الزجاج والتنوين للتفخيم أي جاؤا بما قالوا ظلما هائلا عظيما لا يقادر قدره

الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الاوثان وبين نقصانها من وجوه (أحدها) انها ليست خالقة للاشياء والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد (وثانيها) انها مخلوقة والمخلوق محتاج والاله يجب أن يكون غنيا (وثالثها) انها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا ومن كان كذلك فهو لا يملك لغيره أيضا نفعا ومن كان كذلك فلا فائدة في عبادته (ورابعها) انها لا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا أى لا تقدر على الاحياء والاماتة في زمان التكليف وثانيا في زمان المجازاة ومن كان كذلك كيف يسمى الها وكيف يحسن عبادته مع ان حق من يحق له العبادة ان ينعم بهذه النعم المخصوصة وههنا سؤالات (الاول) قوله واتخذوا من دونه آلهة هل يختص بعبدة الاوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة (والجواب) قال القاضي يبعد أن يدخل فيه النصارى لانهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع فالاقرب ان المراد به عباد الاصنام ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لان لمعبودهم كثرة ولقائل أن يقول قوله واتخذوا صيغة جمع وقوله آلهة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد فلم يكن كون معبود النصارى واحدا مانعا من دخوله تحت هذا اللفظ (السؤال الثاني) احتج بعض أصحابنا بقوله واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيأ وهم يخلقون على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال ان الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيأ وذلك يدل على ان من خلق يستحق أن يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الها أجاب الكعبي عنه بانا لا نطلق اسم الخالق الا على الله تعالى وقال بعض أصحابنا في الخلق انه الاحداث لا بعلاج وفكر وتعب ولا يكون ذلك الا لله تعالى ثم قال وقد قال تعالى ألهم أرجل يمشون بها في وصف الاصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد فاذا قالوا لا قيل فكذلك ما ذكرتم وقد قال تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين هذا كله كلام الكعبي والجواب قوله لا يطلق اسم الخالق على العبد قلنا بل يجب ذلك لان الخلق في اللغة هو التقدير والتقدير يرجع الى الظن والحسبان فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة في العبد مجازا في الله تعالى فكيف يمكنكم منع اطلاق لفظ الخالق على العبد اما قوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها فالعيب انما وقع عليهم بالعجز فلا جرم ان كل من تحقق العجز في حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته وأما قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين فقد تقدم الكلام عليه واعلم أن هذه الآية لا يقوى استدلال أصحابنا بها لاحتمال ان العيب لا يحصل الا بمجموع أمرين أحدهما انهم ليسوا بخالقين والثاني أنهم مخلوقون والعبد وان كان خالقا الا أنه مخلوق فلزم أن لا يكون الها معبودا (السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على البعث الجواب نعم لانه تعالى ذكر النشور ومعناه ان المعبود يجب أن يكون قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للالهية ۞ قوله تعالى (وقال الذين كفروا ان هذا

حيث جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه افكا مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لو اجتمعت الانس والجن على مباراته لعجزوا عن الاتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والاحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والامور الغيبية بحيث لا تناله عقول البشر ولا تفي بفهمه القوى والقدر (وزورا) أى كذبا كبيرا لا يبلغ غايته حيث نسبوا اليه عليه الصلاة والسلام ما هو برىء منه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقب الآخر أو يحصل بسببه بل على أن الثاني هو عين الاول حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري وقد لتحقيق ذلك المعنى فان ما جاؤه من الظلم والزور هو عين ما حكى عنهم لكنه لما كان مغايرا له في المفهوم وأظهر منه بطلانا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لامره (وقالوا أساطير الاولين) بعد ما جعلوا الحق الذي لا محيد عنه افكا مختلقا باعانة البشر بنوا على زعمهم الفاسد كيفية الاعانة والاساطير جمع اسطار أو اسطورة كاحدوثة وهي ما سطره المتقدمون من الخرافات (اكتتبها) أي كتبها لنفسه على الاسناد المجازي أو استكتبها وقرئ على البناء للمفعول

الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السرّ فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) اعلم انه سبحانه تكلم أولا فى التوحيد وثانيا فى الردّ على عبدة الاوثان وثالثا فى هذه الآية تكلم فى مسئلة النبوّة وحكى سبحانه شبههم فى انكار نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم الشبهة الاولى قولهم ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ونظيره قوله تعالى انما يعلمه بشر واعلم انه يحتمل أن يريدوا به انه كذب فى نفسه ويحتمل أن يريدوا به انه كذب فى اضافته الى الله تعالى ثم ههنا بحثان الاوّل قال أبو مسلم الافتراء افتعال من فريت وقد يقال فى تقدير الاديم فريت الاديم فاذا أريد قطع الافساد قيل افريت وافتريت وخلقت واختلقت ويقال فيمن شتم امرأ بما ليس فيه افترى عليه (الثانى) قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث فهو الذى قال هذا القول وأعانه عليه قوم آخرون يعنى عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار غلام عامر بن الحضرمى وجبر مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب وكانوا يقرؤن التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتعهدهم فمن أجل ذلك قال النضر ما قال واعلم انّ الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا وفيه ابحاث (الاوّل) ان هذا القدر انما يكفى جوابا عن الشبهة المذكورة لانه قد علم كل عاقل انه عليه السلام تحدّاهم بالقرآن وهم النهاية فى الفصاحة وقد بلغوا فى الحرص على ابطال أمره كل غاية حتى أخرجهم ذلك الى ما وصفوه به فى هذه الآيات فلو أمكنهم ان يعارضوه لفعلوا ولكان ذلك أقرب الى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه فى هذه الآية وغيرها ولو استعان محمد عليه السلام فى ذلك بغيره لامكنهم أيضا أن يستعينوا بغيرهم لانّ محمدا صلى الله عليه وسلم كأولئك المنكرين فى معرفة اللغة وفى المكنة من الاستعانة فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم انّ القرآن قد بلغ النهاية فى الفصاحة وانتهى الى حدّ الاعجاز ولما تقدّمت هذه الدلالة مرّات وكرات فى القرآن وظهر بسببها سقوط هذا السؤال ظهر ان اعادة هذا السؤال بعد تقدّم هذه الادلة الواضحة لا يكون الا للتمادى فى الجهل والعناد فلذلك اكتفى الله فى الجواب بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا (البحث الثانى) قال الكسائى قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا أى أتوا ظلما وكذبا وهو كقوله لقد جئتم شيأ ادّا فانتصب بوقوع المجىء عليه وقال الزجاج انتصب بنزع الخافض أى جاؤا بالظلم والزور (البحث الثالث) انّ الله تعالى وصف كلامهم بانه ظلم وبأنه زور أمّا انه ظلم فلانهم نسبوا هذا الفعل القبيح الى من كان مبرأ عنه فقد وضعوا الشئ فى غير موضعه وذلك هو الظلم

لانه عليه الصلاة والسلام امى وأصله اكتتبها له كاتب فحذف اللام وأفضى الفعل الى الضمير فصار اكتتبها اياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمى بخصوصه وبنى الفعل للضمير المنفصل فاستتر فيه (فهى تملى عليه) أى تلقى عليه تلك الاساطير بعد اكتتابها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أميا لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة أو تملى على الكاتب على أن معنى اكتتبها أراد اكتتابها أو استكتابها ورجع الضمير المجرور اليه عليه الصلاة والسلام لاسناد الكتابة فى ضمن الاكتتاب اليه عليه الصلاة والسلام (بكرة وأصيلا) أى دائما أو خفية قبل انتشار الناس وحين يأوون الى مساكنهم انظر الى هذه الرتبة من الجراءة العظيمة قاتلهم الله أنى يؤفكون (قل) لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق (أنزله الذى يعلم السرّ فى السموات والارض) وصفه تعالى باحاطة علمه بجميع المعلومات الجلية والخفية للايذان بانطوائها أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التى هى من جملة معلوماته تعالى أى ليس ذلك مما يفترى ويفتعل باعانة قوم وكتابة آخرين من الاحاديث الملفقة وأساطير الاولين بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لا يعزب عن علمه شئ من الاشياء وأودع فيه فنون الحكم والاسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الافهام حيث أعجزكم

واما

وأمّا الزور فلانهم كذبوا فيه وقال أبو مسلم الظلم تكذيبهم الرسول والردّ عليه والزور كذبهم عليه (الشبهة الثانية لهم) قوله تعالى وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وفيه ابحاث (البحث الاوّل) الاساطير ما سطره المتقدّمون كاحاديث رستم واسفنديار جمع اسطار أو اسطورة كاحدوثة اكتتبها انتسخها محمد من أهل الكتاب يعنى عامرا او يسارا وجبرا ومعنى اكتتب ههنا أمر أن يكتب له كما يقال احتجم وافتصد اذا أمر بذلك فهى تملى عليه أى تقرأ عليه والمعنى انها كتبت له وهو أمى فهى تلقى عليه من كتابه ليحفظها لانّ صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب اما قوله بكرة وأصيلا قال الضحاك ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة (البحث الثانى) قال الحسن قوله فهى تملى عليه بكرة وأصيلا كلام الله ذكره جوابا عن قولهم كأنه تعالى قال ان هذه الآيات تملى عليه بالوحى حالا بعد حال فكيف ينسب الى أنه أساطير الاولين وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على انّ ذلك من كلام القوم وأرادوا به ان أهل الكتاب أملوا عليه فى هذه الاوقات هذه الاشياء ولا شك انّ هذا القول أقرب لوجوه أحدها شدّة تعلق هذا الكلام بما قبله فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الاولين فهى تملى عليه وثانيها ان هذا هو المراد بقولهم وأعانه عليه قوم آخرون وثالثها انه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله قل أنزله الذى يعلم السرّ قال صاحب الكشاف وقول الحسن انما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذى فى معنى الانكار وحق الحسن أن يقف على الاولين وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله قل أنزله الذى يعلم السرّ فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما (وفيه ابحاث البحث الاوّل) فى بيان ان هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وتقريره ما قدّمنا انه عليه السلام تحدّاهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بان استعان باحد لكان من الواجب عليهم أيضا أن يستعينوا باحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه فلهذا قال قل أنزله الذى يعلم السرّ وذلك لانّ القادر على تركيب ألفاظ القرآن لا بدّ وأن يكون عالما بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه أحدها انّ مثل هذه الفصاحة لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثانيها) انّ القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثالثها) انّ القرآن مبرأ عن النقص وذلك لا يتأتى الا من العالم على ما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (ورابعها) اشتماله على الاحكام التى هى مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد وذلك لا يكون الا من العالم بكل المعلومات (وخامسها) اشتماله على أنواع العلوم وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات فلما دلّ القرآن من هذه الوجوه على انه ليس الا كلام العالم بكل المعلومات لا جرم اكتفى فى جواب شبههم بقوله قل أنزله الذى يعلم السرّ (البحث الثانى) اختلفوا فى المراد بالسرّ فمنهم من قال المعنى

ناطقة بفصاحته وبلاغته واخبركم بغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لا يهتدى اليها ولا يوقف عليها الا بتوفيق العليم الخبير وقد جعلتموه افكا مفترى من قبيل الاساطير واستوجبتم بذلك أن يصب عليكم سوط العذاب صبا فقوله تعالى (انه كان غفورا رحيما) تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة أى انه تعالى ازلا وأبدا مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون فى حقه مع كمال استيجابه اياها وغاية قدرته تعالى عليها (وقالوا مال هذا الرسول) شروع فى حكاية جنايتهم المتعلقة بخصوصية المنزل عليه وما استفهامية بمعنى انكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء خبرها ما بعدها من الجار والمجرور وفى هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام وتسميته عليه الصلاة والسلام رسولا بطريق الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم وقوله تعالى (يأكل الطعام) حال من الرسول والعامل فيها ما عمل فى الجار من معنى الاستقرار أى أى شئ وأى سبب حصل لهذا الذى يدّعى الرسالة حال كونه يأكل الطعام كما نأكل (ويمشى فى الاسواق) لابتغاء الارزاق كما نفعله على توجيه الانكار والنفى الى السبب فقط مع تحقق المسبب الذى هو مضمون الجملة الحالية كما

ان العالم بكل سر فى السموات والارض هو الذى يمكنه انزال مثل هذا الكتاب وقال أبو مسلم المعنى انه انزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين وقال آخرون المعنى انه يعلم كل سر خفى فى السموات والارض ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن ما يقوله حق ضرورة وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تتهمونه به وهو سبحانه مجازيكم ومجازيه على ما علم منكم وعلمه منه (البحث الثالث) انما ذكر الغفور الرحيم فى هذا الموضع لوجهين الاول قال أبو مسلم المعنى انه انما انزله لاجل الانذار فوجب أن يكون غفورا رحيما غير مستعجل فى العقوبة الثانى انه تنبيه على انهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورا رحيما يمهل ولا يعجل (الشبهة الثالثة) وهى فى نهاية الركاكة ذكروا له صفات خمسة فزعموا أنها تخل بالرسالة احداها قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام وثانيتها قولهم ويمشى فى الاسواق يعنى انه لما كان كذلك فمن اين له الفضل علينا وهو مثلنا فى هذه الامور وثالثتها قولهم لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا يصدقه أو يشهد له ويرد على من خالفه ورابعتها قولهم أو يلقى اليه كنز أى من السماء فينفقه فلا يحتاج الى التردد لطلب المعاش وخامستها قولهم او تكون له جنة يأكل منها قرأ حمزة والكسائى نأكل منها بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى ان لم يكن لك كنز فلا اقل من أن تكون كواحد من الدهاقين فيكون لك بستان تأكل منه وسادستها قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقد تقدمت هذه القصة فى آخر سورة بنى اسرائيل فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه أحدها قوله انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وفيه أبحاث الاول ان هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وبيانه ان الذى يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الاشياء التى ذكروها لا يقدح شئ منها فى المعجزة فلا يكون شئ منها قادحا فى النبوة فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الامثال التى لا فائدة فيها لاجل انهم لما ضلوا وارادوا القدح فى نبوتك لم يجدوا الى القدح فيه سبيلا البتة اذ الطعن عليه انما يكون بما يقدح فى المعجزات التى ادعاها لا بهذا الجنس من القول وفيه وجه آخر وهو انهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق وهذا انما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر وذلك لان الانسان اما ان يكون مستوى الداعى الى الحق والباطل واما ان يكون داعيته الى أحدهما أرجح من داعيته الى الثانى فان كان الاول فحال الاستواء يمتنع الرجحان فيمتنع الفعل وان كان الثانى فحال رجحان احد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعا فثبت ان حال رجحان الضلالة فى قلبه استحال منه قبول الحق وما كان محالا لم يكن عليه قدرة فثبت انهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين قوله تعالى

﴿ تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل

لك

فى قوله تعالى فما لهم لا يؤمنون وقوله ما لكم لا ترجون لله وقارا فكما أن كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر واستبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب نقيضه كذلك كل من الاكل والمشى أمر محقق قد استبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب عدمه خلا أن استبعاد المسبب وانكار السبب ونفيه فى عدم الايمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق وفى الاكل والمشى بطريق التهكم والاستهزاء فانهم لا يستبعدونهما ولا ينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما وانما الذى يستبعدونه الرسالة المنافية لهما على زعمهم يعنون أنه ان صح ما يدعيه فما باله لم يخالف حاله حالنا وهل هو الا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور أنظارهم على المحسوسات فان تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وانما هو بامور نفسانية كما أشير اليه بقوله تعالى قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد (لولا أنزل اليه ملك) أى على صورته وهيئته (فيكون معه نذيرا) تنزل منهم من اقتراح أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب الى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويكون ردءا له فى الانذار وهو يعبر عنه ويفسر ما يقوله للعامة وقوله تعالى (أو يلقى اليه كنز) تنزل من تلك المرتبة

لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا)

اعلم أن هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة فقوله تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك أى من الذى ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا نبه بذلك سبحانه على انه قادر على أن يعطى الرسول كل ما ذكروه ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب المصالح او على وفق المشيئة ولا اعتراض لاحد عليه فى شئ من افعاله فيفتح على واحد ابواب المعارف والعلوم ويسد عليه ابواب الدنيا وفى حق الآخر بالعكس وما ذاك الا أنه فعال لما يريد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس خيرا من ذلك مما عيروك بفقده الجنة لانهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على ان يعطيك جنات كثيرة وقال فى رواية عكرمة خيرا من ذلك أى من المشى فى الاسواق وابتغاء المعاش (المسئلة الثانية) قوله ان شاء معناه انه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك لان الشك لا يجوز على الله تعالى وقال قوم ان ههنا بمعنى اذا أى قد جعلنا لك فى الآخرة جنات وبنينا لك قصورا وانما أدخل ان تنبيها للعباد على انه لا ينال ذلك الا برحمته وانه معلق على محض مشيئته وانه ليس لاحد من العباد على الله حق لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (المسئلة الثالثة) القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومتنزها ويجوز أن يكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل لك جنات فى الآخرة وقصورا فى الدنيا (المسئلة الرابعة) اختلف القراء فى قوله ويجعل فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون فمن جزم فلان المعنى ان شاء يجعل لك جنات ويجعل لك قصورا ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى سيجعل لك قصورا هذا قول الزجاج قال الواحدى وبين القراءتين فرق فى المعنى فمن جزم فالمعنى ان شاء يجعل لك قصورا فى الدنيا ولا يحسن الوقوف على الانهار ومن رفع حسن له الوقوف على الانهار واستأنف ويجعل أى ويجعل لك قصورا فى الآخرة وفى مصحف ابى وابن مسعود تبارك الذى ان شاء يجعل (المسئلة الخامسة) عن طاوس عن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه فى زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك بين ان يعطيك مفاتيح كل شئ لم يعطها احدا قبلك ولا يعطيه احدا بعدك من غير ان ينقصك مما ادخر لك شيئا فقال عليه السلام بل يجمعها جميعا لى فى الآخرة فنزل قوله تبارك الذى ان شاء الآية وعن ابن عباس قال عليه السلام عرض على جبريل بطحاء مكة ذهبا فقلت بل شبعة وثلاث جوعات وذلك لاذكر ومسئلتى لربى وفى رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب

الى اقتراح ان يلقى اليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج الى طلب المعاش ويكون دليلا على صدقه وقوله تعالى (أو تكون له جنة يأكل منها) تنزل من ذلك الى اقتراح ما هو ايسر منه وأقرب من الوقوع وقرئ نأكل بنون الحكاية وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم (وقال الظالمون) هم القائلون الاولون وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه لكونه اضلالا خارجا عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى المسحورية أى قالوا للمؤمنين (ان تتبعون) أى ما تتبعون (الا رجلا مسحورا) قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر وهى الرئة أى بشرا لا ملكا على أن الوصف لزيادة التقرير والاول هو الانسب بحالهم (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) استعظام للاباطيل التى اجترؤا على التفوه بها وتعجيب منها أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الامثال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال الشاذة البعيدة من الوقوع (فضلوا) أى عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشئ يمكن صدوره عمن له أدنى عقل وتمييز فبقوا متحيرين (فلا يستطيعون سبيلا) الى القدح فى نبوتك بأن يجدوا قولا يستقرون عليه وان

قال عليه السلام اشبع يوما واجوع ثلاثا فاحمدك اذا شبعت واتضرع اليك اذا جعت وعن الضحاك لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزياله وقال ان الله يقرؤك السلام ويقول وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام الآية قال فبينما جبريل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وسلم يتحدثان اذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثم قال أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد اتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال ان ربك يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون نبيا عبدا ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير ان ينقصك الله مما اعد لك في الآخرة جناح بعوضة فنظر النبي صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير فاوما بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبيا عبدا قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئا حتى فارق الدنيا اما قوله تعالى بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ما تعلقوا به شبهة علمية في نفس المسئلة بل الذي حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها او يحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولا عقابا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل ثم قال وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وفيه مسائل (الاولى) قال أبو مسلم وأعتدنا أى جعلناها عتيدا ومعدة لهم والسعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن انه اسم من اسماء جهنم (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا على ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى اعدت للمتقين وعلى ان النار التي هي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهي قوله واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله اعتدنا اخبار عن فعل وقع في الماضي فدلت الآية على ان دار العقاب مخلوقة قال الجبائي يحتمل وأعتدنا النار في الدنيا وبها نعذب الكفار والفساق في قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى وأعتدنا أى سنعتدها لهم كقوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار واعلم ان هذا السؤال في نهاية السقوط لان المراد من السعير اما نار الدنيا واما نار الآخرة فان كان الاول فاما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم في الدنيا بنار الدنيا او يعذبهم في الآخرة بنار الدنيا والاول باطل لانه تعالى ما عذبهم بالنار في الدنيا والثاني أيضا باطل لانه لم يقل أحد من الامة انه تعالى يعذب الكفرة في الآخرة بنيران الدنيا فثبت ان المراد نار الآخرة وثبت انها معدة وحمل الآية على ان الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل وعلى ان الحسن قال السعير اسم من أسماء جهنم فقوله واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا صريح في انه تعالى اعد جهنم (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان السعيد من سعد في بطن امه فقالوا ان الذين اعد الله تعالى لهم السعير واخبر عن ذلك وحكم به ان صاروا مؤمنين من اهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من اهل السعير كذبا وانقلب بذلك علمه

كان باطلا في نفسه أو فضلوا عن الحق ضلالا مبينا فلا يجدون طريقا موصلا اليه فان من اعتاد استعمال أمثال هذه الاباطيل لا يكاد يهتدى الى استعمال المقدمات الحقة (تبارك الذى) أى تكاثر وتزايد خير الذى (ان شاء جعل لك) في الدنيا عاجلا شيأ (خيرا) لك (من ذلك) الذى اقترحوه من أن يكون لك جنة تأكل منها بأن يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة وقوله تعالى (جنات تجرى من تحتها الانهار) بدل من خيرا ومحقق لخيريته مما قالوا لان ذلك كان مطلقا عن قيد التعدد وجريان الانهار (ويجعل لك قصورا) عطف على محل الجزاء الذى هو جعل وقرئ بالرفع عطفا على نفسه لان الشرط اذا كان ماضيا جاز في جزائه الرفع والجزم كما في قول القائل

وان أتاه خليل يوم مسئلة
يقول لا غائب مالى ولا حرم

ويجوز أن يكون استئنافا بوعد ما يكون له في الآخرة وقرئ بالنصب على أنه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للايذان بان عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحكم والمصالح وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الاولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وانما الذى له وجه في الجملة هو

جهلا وهذا الانقلاب محال والمؤدى الى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال فثبت ان السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا ثم انه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات احداها قوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السعير مذكر ولكن جاء ههنا مؤنثا لانه تعالى قال رأتهم وقال سمعوا لها وانما جاء مؤنثا على معنى النار (المسئلة الثانية) مذهب اصحابنا ان البنية ليست شرطا في الحياة فالنار على ما هي عليه يجوز ان يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها وعند المعتزلة ذلك غير جائز وهؤلاء المعتزلة ليس لهم في هذا الباب حجة الا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات في حق الرسل فهؤلاء قولهم متناقض بل انكار العادات لا يليق الا بأصول الفلاسفة فعلى هذا قال اصحابنا قول الله تعالى في صفة النار اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا يجب اجراؤه على الظاهر لانه لا امتناع في أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار اما المعتزلة فقد احتاجوا الى التأويل وذكروا فيه وجوها أحدها قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر وقال عليه السلام ان المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما أى لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ويقال دور فلان متناظرة أى متقابلة وثانيها ان النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم وثالثها قال الجبائى ان الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار لان الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار فهو كقوله واسأل القرية أراد أهلها (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعا فكيف قال الله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا والجواب عنه من وجوه أحدها أن التغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله رأيت غضب الامير على فلان اذا رأى ما يدل عليه وكذلك يقال في المحبة فكذا ههنا والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج وثانيها المعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر متقلدا سيفا ورمحا وثالثها المراد تغيظ الخزنة (المسئلة الرابعة) قال عبيد بن عمير ان جهنم لتزفر زفرة لا يبقى أحد الا ترعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسى نفسى (الصفة الثانية للسعير) قوله تعالى واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حين ما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عند ما يلقون فيها نعوذ بالله منه بما لا شئ أبلغ منه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في ضيقا قراءتان التشديد والتخفيف وهو قراءة ابن كثير (المسئلة الثانية) نقل في تفسير الضيق أمور قال قتادة ذكر لنا عبد الله بن عمر قال ان جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط قال الكلبى

الاقتراح الاخير فانه غير مناف للحكمة بالكلية فان بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوتوا في الدنيا مع النبوة ملكا عظيما (بل كذبوا بالساعة) اضراب عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة وانتقال منه الى توبيخهم بحكاية جنايتهم الاخرى للتخلص الى بيان مالهم في الآخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) الخ أى أعتدنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم أو لكل من كذب بها كائنا من كان وهم داخلون في زمرتهم دخولا أوليا ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع ومدار اعتاد السعير لهم وان لم يكن مجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هى العلة القريبة لدخولهم السعير أشير الى سببية تكذيبها لدخولها وقيل هو عطف على وقالوا ما لهذا الخ على معنى بل أتوا باعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد اعتدنا لكل من كذب بها سعيرا فان جراءتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق وقيل هو متصل بما

الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فى تلك الابواب الضيقة قال صاحب الكشاف الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء فى الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله على أهل النار انواع البلاء حيث ضم الى العذاب الشديد الضيق (المسئلة الثالثة) قالوا فى تفسير قوله تعالى مقرنين فى الاصفاد ان أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد يكونون مقرنين فى السلاسل قرنت أيديهم الى اعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الاصفاد ثم انه سبحانه حكى عن اهل النار انهم حين مايشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا والثبور الهلاك ودعاؤهم ان يقولوا واثبوراه أى يقولوا ياثبور هذا حينك وزمانك وروى انس مرفوعا اول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ذريته وهو يقول ياثبوراه وينادون ياثبورهم حتى يردوا النار اما قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا أى يقال لهم ذلك وهم احقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يكن ثم قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب انواع والوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها أو لان ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم فى كل وقت من الاوقات التى لانهاية لها ثبور أو لانهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة فان المعذب اذا صاح وبكى وجد بسببه نوعا من الخفة فيزجرون عن ذلك ويخبرون بان هذا الثبور يزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه قال الكلبى نزل هذا كله فى حق أبى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات ۞ قوله تعالى (قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها مايشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال لرسوله قل أذلك خير أم جنة الخلد ان يلتمسوها بالتصديق والطاعة فان قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى ام الصبر قلنا هذا يحسن فى معرض التقريع كما اذا اعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربا وجيعا ويقول على سبيل التوبيخ هذا أطيب أم ذاك (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بقوله وعد المتقون على أن الثواب غير واجب على الله تعالى لان من قال السلطان وعد فلانا أن يعطيه كذا فانه يحمل ذلك على التفضيل فاما لو كان ذلك الاعطاء واجبا لا يقال انه وعده أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضا على مذهبهم قالوا لانه سبحانه اثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد انما حصل معللا بصفة التقوى والتفضل غير

مختص

تنبيله من الجواب المبنى على التحقيق المنبئ عن الوعد بالجنات فى الآخرة وتنبيها على ان ذلك لا يجدى نفعا ولا يعلى بطائل على طريقة قول من قال

عوجوا النعم فحيوا دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤى وأحجار

والمعنى انهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ماوعدك فى الآخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن الكرامة ليست الا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة الى تكذيبك وقوله تعالى (اذا رأتهم) الخ صفة للسعير أى اذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد كقوله عليه الصلاة والسلام لا تتراءى ناراهما أى لا تتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز كأن بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية اليها لا اليهم للايذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها اياهم حقيقة أو تمثيلا ومن فى قوله تعالى (من مكان بعيد) اشعار بان بعد مابينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة وفيه مزيد تهويل لامرها قال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت

مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبا (المسئلة الثالثة) قال أبو مسلم جنة الخلد هى التى لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال الله تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فان قيل الجنة اسم لدار الثواب وهى مخلدة فاى فائدة فى قوله جنة الخلد قلنا الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال الله الخالق البارئ وما هنا من هذا الباب ۰ أما قوله كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على اثبات الاستحقاق من وجهين الاول أن اسم الجزاء لا يتناول الا المستحق فاما الوعد بمحض التفضيل فانه لا يسمى جزاء والثانى لو كان المراد من الجزاء الامر الذى يصيرون اليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله جزاء وبين قوله مصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع فى كونه جزاء انما النزاع فى أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق وليس فى الآية ما يدل على التعيين (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين الاول أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقا للثواب لان الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع والجمع بينهما محال وما كان ممتنع الوجود ممتنع أن يحصل استحقاقه فاذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان اما ان يخرجه من النار ولا يدخله الجنة وذلك باطل بالاجماع لانهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة اما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار لانه تعالى قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير واما ان يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لان الجنة حق المتقين لقوله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا فجعل الجنة لهم ومختصة بهم وبين انها انما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقا لهم واعطاء حق الانسان لغيره لا يجوز ولما بطلت الاقسام ثبت أن العفو غير جائز (الجواب) اصحابنا لم لا يجوز ان يقال المتقون يرضون بادخال الله أهل العفو فى الجنة فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها الوجه الثانى قالوا المتقى فى عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر واذا اختلفنا فى أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنا أم لا لكنا اتفقنا على انه لا يسمى متقيا ثم قال فى وصف الجنة انها كانت لهم جزاء ومصيرا وهذا للحصر والمعنى انها مصير للمتقين لا لغيرهم واذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها صاحب الكبيرة قلنا اقصى ما فى الباب ان هذا عموم صريح فى الوعيد فتخصه بآيات الوعد (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول ان الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال الله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جوابه من وجهين الاول ان ما وعد الله فهو فى تحققه كأنه قد كان والثانى انه كان مكتوبا فى اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم ۰ أما قوله تعالى لهم فيها مايشاؤن

المتغيظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقيل ان ذلك لزبانيتها فنسب اليها على حذف المضاف (واذا ألقوا منها مكانا) نصب على الظرفية ومنها حال منه لانه فى الاصل صفة له (ضيقا) صفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فان الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة وهو السر فى وصف الجنة بان عرضها السموات والارض وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرئ ضيقا بسكون الياء (مقرنين) حال من مفعول ألقوا اى اذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم الى أعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين مع الشياطين فى السلاسل كل كافر مع شيطان وفى أرجلهم الاصفاد (دعوا هنالك) أى فى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة (ثبورا) أى يتمنون هلاكا وينادونه ياثبوراه تعال فهذا حينك وأوانك (لا تدعوا اليوم

خالدين فهو نظير قوله ولكم فيها ما تشتهى الانفس وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لابد وان يريدوها فاذا سألوها ربهم فان اعطاهم اياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة وان لم يعطها اقدح ذلك فى قوله لهم فيها ما يشاؤن وأيضا فالاب اذا كان ولده فى درجات النيران وأشد العذاب اذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلابد وان يسأل ربه ان يخلصه منه فان فعل الله تعالى ذلك قدح فى أن عذاب الكافر مخلد وان لم يفعل قدح ذلك فى قوله ولكم فيها ما تشتهى انفسكم وفى قوله لهم فيها ما يشاؤن وجوابه ان الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلا عن الالتفات الى حال غيره (المسئلة الثانية) شرط نعيم الجنة ان يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبى

اشد الغم عندى فى سرور ● تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال لهم فيها ما يشاؤن خالدين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون الا فى الجنة فاما فى غيرها فلا يحصل ذلك بل لابد فى الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ولذلك قال عليه السلام من طلب ما لم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل وما هو يا رسول الله فقال سرور يوم ● اما قوله كان على ربك وعدا مسؤلا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) كلمة على للوجوب قال عليه السلام من نذر وسمى فعليه الوفاء بما سمى فقوله كان على ربك يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى والواجب هو الذى لو لم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم أو انه الذى يكون عدمه ممتنعا فان كان الوجوب على التفسير الاول كان تركه محالا لان تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور فلم يكن الله تعالى قادرا على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل وان كان الوجوب على التفسير الثانى وهو ان يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعا يكون القول بالالجاء لازما فلم يكن الله قادرا فان قيل انه ثبت بحكم الوعد فنقول لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبا وعلمه جهلا وذلك محال والمؤدى الى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل والملجأ الى الفعل لا يكون قادرا ولا يكون مستحقا للثناء والمدح هذا تمام السؤال (وجوابه) أن فعل الشئ متقدم على الاخبار عن فعله وعن العلم بفعله فيكون ذلك الفعل فعلا لا على سبيل الالجاء فكان قادرا ومستحقا للثناء والمدح (المسئلة الثانية) قوله وعدا يدل على ان الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره (المسئلة الثالثة) قوله مسؤلا ذكروا فيه وجوها أحدها ان المكلفين سألوه بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك وثانيها أن المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعته كان ذلك قائما مقام

السؤال

ثبورا واحدا) على تقدير قول اما منصوب على أنه حال من فاعل دعوا أى دعوه مقولا لهم ذلك حقيقة بأن يخاطبهم الملائكة به لتنبيههم على خلود عذابهم وأنهم لا يجابون الى ما يدعونه ولا ينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجى أو تمثيلا وتصويرا لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول ولا خطاب أى دعوه حال كونهم أحقاء بان يقال لهم ذلك واما مستأنف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا يكون عند دعائهم المذكور فقيل يقال لهم ذلك اقناطا عما علقوا به أطماعهم من الهلاك وتنبيها على أن عذابهم الملجئ لهم الى استدعاء الهلاك بالمرة أبدى لا خلاص لهم منه أى لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد (وادعوا ثبورا كثيرا) أى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته فى نفسه فان ما يدعونه ثبور واحد فى حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الادعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحدا وادعوه أدعية كثيرة فان ما أنتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء فى كل آن وهذا أدل على فظاعة العذاب وهوله من جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أو لتعدده

السؤال قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة ● سكوتى كلام عندها وخطاب

وثالثها الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن ورابعها وعدا مسؤلا أى واجبا يقال لاعطينك ألفا وعدا مسؤلا أى واجبا وان لم تسأل قاله الفراء وسائر الوجوه اقرب من هذا لان سائر الوجوه اقرب الى الحقيقة وما قاله الفراء مجاز وخامسها مسؤلا أى من حقه ان يكون مسؤلا لانه حق واجب اما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة أو بحكم الوعد على قول أهل السنة ﴿ قوله تعالى (ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما يستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) اعلم ان قوله تعالى ويوم نحشرهم راجع الى قوله واتخذوا من دونه آلهة ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) نحشرهم فنقول كلاهما بالنون والياء وقرئ نحشرهم بكسر الشين (المسئلة الثانية) ظاهر قوله وما يعبدون انها الاصنام وظاهر قوله فيقول أأنتم أضللتم عبادى انه من عبد من الاحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما لان الاضلال وخلافه منهم يصح فلاجل هذا اختلفوا فمن الناس من حمله على الاوثان فان قيل لهم الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى وكيف قدر على الجواب فعند ذلك ذكروا وجهين احدهما ان الله تعالى يخلق فيهم الحياة فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب وثانيهما ان يكون ذلك الكلام لا بالقول اللسانى بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم فى تسبيح الموات وكلام الايدى والارجل وكما قيل سل الارض من شق أنهارك وغرس اشجارك فان لم تجبك حوارا اجابتك اعتبارا وأما الاكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام قالوا ويتأكد هذا القول بقوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون واذا قيل لهم لفظة ما لا تستعمل فى العقلاء أجابوا عنه من وجهين الاول لا نسلم ان كلمة ما لما لا يعقل بدليل انهم قالوا من لما لا يعقل والثانى أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم وقوله تعالى والسماء وما بناها ولا انتم عابدون ما أعبد لا يستقيم الا على احد هذين الوجهين وكيف كان فالسؤال ساقط (المسئلة الثالثة) حاصل الكلام ان الله تعالى يحشر المعبودين ثم يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادى فى الضلال عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بانفسهم قالت المعتزلة وفيه كسر بين لقول من يقول ان الله يضل عباده فى الحقيقة لانه لو كان الامر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا الهنا ههنا قسم ثالث غيرهما هو الحق وهو انك انت أضللتهم فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا اضلالهم الى انفسهم علمنا ان الله تعالى لا يضل أحد

يتجدد الجلود كما لا يخفى وأما ما قيل من أن المعنى انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم فلا يلائم المقام كيف لا وهم انما يدعون هلاكا ينهى عذابهم وينجيهم منه فلابد أن يكون الجواب اقناطا لهم من ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد وتقييد النهى والامر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الايام المعهودة (قل) تقريعا لهم وتهكما بهم وتحسيرا على ما فاتهم (أذلك) اشارة الى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الاحوال الهائلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة أى قل لهم أذلك الذى ذكر من السعير التى أعتدت لمن كذب بالساعة وشأنها كيت وكيت وشأن أهلها ذيت وذيت (خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون) أى وعدها المتقون واضافة الجنة الى الخلد للمدح وقيل للتمييز عن جنات الدنيا والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط (كانت) تلك الجنة (لهم) فى علم الله تعالى أو فى اللوح المحفوظ

من عباده فان قيل لا نسلم ان المعبودين ماتعرضوا لهذا القسم بل ذكروه فانهم قالوا
ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وهذا تصريح بان ضلالهم انما حصل لاجل
مافعل الله بهم وهو انه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا قلنا لو كان الامر كذلك
لكان يلزمهم أن يصير الله محجوجا في يد أولئك المعبودين ومعلوم انه ليس الغرض ذلك بل
الغرض أن يصير الكافر محجوجا مفحما ملزما هذا تمام تقرير المعتزلة في الآية أجاب
اصحابنا بان القدرة على الضلال ان لم تصلح للاهتداء فالاضلال من الله تعالى وان صلحت له
لم يترجح مصدريتها للاضلال على مصدريتها للاهتداء الا لمرجح من الله تعالى وعند ذلك
يعود السؤال وأما ظاهر هذه الآية فهو وان كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر
المطابقة لقولنا (المسئلة الرابعة) ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وان
احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى • بقي على الآية سؤالات (الاول)
مافائدة أنتم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل الجواب ليس السؤال
عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن فاعله فلا بد من
ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه (السؤال الثاني) انه سبحانه كان
عالما في الازل بحال المسؤل عنه فمافائدة هذا السؤال الجواب هذا استفهام على سبيل
التقريع للمشركين كما قال لعيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله
ولان أولئك المعبودين لما برؤا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين
عنهم أشد في حسرتهم وحيرتهم (السؤال الثالث) قال تعالى أم هم ضلوا السبيل
والقياس ان يقال ضل عن السبيل الجواب الاصل ذلك الا أن الانسان اذا كان متناهيا
في التفريط وقلة الاحتياط يقال ضل السبيل أما قوله سبحانك فاعلم انه سبحانه حكى
جوابهم وفي قوله سبحانك وجوه أحدها أنه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم لانهم ملائكة
وانبياء معصومون فما أبعدهم عن الاضلال الذي هو مختص بابليس وحزبه وثانيها انهم
نطقوا بسبحانك ليدلوا على انهم المسبحون المقدسون الموسومون بذلك فكيف يليق بحالهم
ان يضلوا عباده وثالثها قصدوا به تنزيهه عن الانداد سواء كان وثنا أو نبيا أو ملكا ورابعها
قصدوا تنزيهه ان يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم أو ايذاء من كان بريئا
عن الجرم بل انه انما سألهم تقريعا للكفار وتوبيخا لهم اما قوله ما كان ينبغي لنا ان نتخذ
من دونك من أولياء ففيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المعروفة ان نتخذ بفتح النون
وكسر الخاء وعن أبي جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على مالم يسم فاعله قال
الزجاج اخطأ من قرأ ان نتخذ بضم النون لان من انما تدخل في هذا الباب في الاسماء اذا
كانت مفعولا أولا ولا تدخل على مفعول الحال تقول ما اتخذت من أحد وليا ولا يجوز
ما اتخذت أحدا من ولي قال صاحب الكشاف اتخذ يتعدى الى مفعول واحد
كقولك اتخذ وليا والى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى واتخذ الله ابراهيم

أولان ماوعده الله تعالى فهو كائن
لامحالة فحكى تحققه ووقوعه
(جزاء) على اعمالهم حسبما
من الوعد الكريم (ومصيرا)
ينقلبون اليه (لهم فيها مايشاؤن)
أى مايشاؤنه من فنون الملاذ
والمشتهيات وأنواع النعيم كما في
قوله تعالى ولكم فيها ماتشتهي
أنفسكم ولعل كل فريق منهم
يقتنع بما أتيح له من درجات
النعيم ولا تمتد أعناق هممهم الى
مافوق ذلك من المراتب العالية
فلا يلزم الحرمان ولا تساوي
مراتب أهل الجنان (خالدين)
حال من الضمير المستكن في الجار
والمجرور لاعتماده على المبتدا
وقيل من فاعل يشاؤن (كان)
أى مايشاؤنه وقيل الوعد المدلول
عليه بقوله تعالى وعد المتقون
(على ربك وعدا مسؤلا) أى
موعودا حقيقا بان يسأل
ويطلب لكونه مما يتنافس فيه
المتنافسون أو مسؤلا يسأله الناس
في دعائهم بقولهم ربنا وآتنا
ماوعدتنا على رسلك أو الملائكة
بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن
التي وعدتهم ومافي على من معنى
الوجوب لامتناع الخلف في
وعده تعالى ولا يلزم منه الالجاء
الى الانجاز فان تعلق الارادة
بالموعود متقدم على الوعد
الموجب للانجاز وفي التعرض
لعنوان الربوبية مع الاضافة
الى ضميره عليه الصلاة والسلام
من تشريفه والاشعار بانه عليه

خليلا والقراءة الاولى من المتعدى الى واحد وهو من أولياء والاصل ان نتخذ أولياء
فزيدت من لتأكيد معنى النفي والثانية من المتعدى الى مفعولين فالاول مابني له الفعل
والثاني من أولياء ومن للتبعيض أى لا نتخذ بعض أولياء وتنكير أولياء من حيث انهم
أولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (المسئلة الثانية) ذكروا في تفسير هذه الآية
وجوها أولها وهو الاصح الاقوى ان المعنى اذا كنا لانرى أن نتخذ من دونك أولياء
فكيف ندعو غيرنا الى ذلك وثانيها ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم
الكفار كما تولاهم الكفار قال تعالى فقاتلوا أولياء الشيطان يريد الكفرة وقال والذين
كفروا أولياؤهم الطاغوت عن أبي مسلم وثالثها ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من
أولياء أى لما علمنا أنك لاترضى بهذا مافعلناه والحاصل انه حذف المضاف واقيم المضاف
اليه مقامه ورابعها قالت الملائكة انهم عبيدك فلا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دون
اذنك وليا ولا حبيبا فضلا عن أن يتخذ عبد عبدا آخر الها لنفسه وخامسها أن على قراءة أبي
جعفر الاشكال زائل فان قيل هذه القراءة غير جائزة لانه لا مدخل لهم في أن يتخذهم غيرهم
أولياء قلنا المراد انا لانصلح لذلك فكيف ندعوهم الى عبادتنا وسادسها ان هذا قول
الاصنام وانها قالت لا يصح منا أن نكون من العابدين فكيف يمكننا ادعاؤنا أنا من
المعبودين (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه لا تجوز الولاية والعداوة الا باذن الله
فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع • اما قوله
تعالى ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ففيه مسائل (المسئلة
الاولى) معنى الآية انك يا الهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهي توجب الشكر
والايمان لا الاعراض والكفران والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند أنفسهم
لا باضلالنا فانه لولا عنادهم الظاهر والا فمع ظهور هذه الحجة لا يمكن الاعراض عن طاعة
الله تعالى وقال آخرون ان هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام في قوله
ان هي الا فتنتك وذلك لان المجيب قال الهي انت الذي أعطيته جميع مطالبه من الدنيا
حتى صار كالغريق في بحر الشهوات واستغراقه فيها صار صادا له عن التوجه الى طاعتك
والاشتغال بخدمتك فان هي الا فتنتك (المسئلة الثانية) الذكر ذكر الله والايمان به
والقرآن والشرائع أو مافيه حسن ذكرهم في الدنيا والآخرة (المسئلة الثالثة) قال أبو
عبيدة يقال رجل بور ورجلان بور ورجال بور وكذلك الانثى ومعناه هالك وقد يقال
رجل بائر وقوم بور وهو مثل حائر وحور والبوار الهلاك وقد احتج أصحابنا بهذه الآية
في مسئلة القضاء والقدر ولا شك ان المراد منه وكانوا من الذين حكم عليهم في الآخرة
بالعذاب والهلاك فالذي حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك وأثبته في اللوح
المحفوظ وأطلع الملائكة عليه لو صار مؤمنا لصار الخبر الصدق كذبا ولصار العلم جهلا
ولصارت الكتابة المثبتة في اللوح المحفوظ باطلة ولصار اعتقاد الملائكة جهلا وكل ذلك

الصلاة والسلام هو الفائز ز
ذي أثير بغنائم الوعد الكريم
مالا يخفى (ويوم يحشرهم) نصب
على أنه مفعول لمضمر مقدم معطوف
على قوله تعالى قل أذلك الخ أى
واذكر لهم بعد التقريع والتحسير
يوم يحشرهم الله عز وجل وتعليق
التذكير باليوم مع ان المقصود
تذكير ماوقع فيه من الحوادث
الهائلة قد مر وجهه غير مرة
أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد
حذف للتنبيه على كمال هوله
وفظاعة مافيه والايذان بقصور
العبارة عن بيانه أى يوم يحشرهم
يكون من الاحوال والاهوال
مالا يفي ببيانه المقال وقرئ بنون
العظمة بطريق الالتفات من
الغيبة الى التكلم وبكسر الشين
أيضا (ومايعبدون من دون الله)
أريد به مايعم العقلاء وغيرهم اما
لان كلمة ما موضوعة للكل كما ينبئ
عنه أنك اذا رأيت شبحا من بعيد
تقول ماهو أو لانه أريد به الوصف
لا الذات كأنه قيل ومعبوديهم
أو لتغليب الاصنام على غيرها
تنبيها على أنهم مثلها في السقوط
عن رتبة المعبودية أو اعتبارا لغلبة
عبدتها أو أريد به الملائكة
والمسيح وعزير بقرينة السؤال
والجواب أو الاصنام ينطقها الله
تعالى أو تتكلم بلسان الحال كما
قيل في شهادة الايدي والارجل
(فيقول) أى الله عز وجل
للمعبودين اثر حشر الكل تقريعا
للعبدة وتبكيتا لهم وقرئ بالنون
كما عطف عليه وقرئ هذا بالياء

محال ومستلزم المحال محال فصدور الايمان منه محال فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقيا والشقى لا يمكنه أن ينقلب سعيدا ومن وجه آخر وهو انهم ذكروا ان الله تعالى آتاهم اسباب الضلال وهو اعطاء المرادات فى الدنيا واستغراق النفس فيها ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغا وجب البوار فان ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار انما حصل لاجل ذلك السبب فرجع حاصل الكلام الى انه تعالى فعل بالكافر ماصار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقيا وان الشقى لا ينقلب سعيدا * اما قوله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون فاعلم انه قرئ يقولون بالياء والتاء فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم انهم آلهة أى كذبوكم فى قولكم انهم آلهة ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت فالمعنى أنهم كذبوكم بقولهم سبحانك ومثاله قولك كتبت بالقلم * اما قوله فما يستطيعون صرفا ولا نصرا فاعلم انه قرئ يستطيعون بالياء والتاء أيضا بمعنى فما تستطيعون أنتم يا أيها الكفار صرف العذاب عنكم وقيل الصرف التوبة وقيل الحيلة من قولهم انه ليتصرف أى يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب وان يحتالوا لكم * أما قوله تعالى ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ يذقه بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير الظلم (المسئلة الثانية) أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى القطع بوعيد أهل الكبائر فقالوا ثبت أن من للعموم فى معرض الشرط وثبت أن الكافر ظالم لقوله ان الشرك لظلم عظيم والفاسق ظالم لقوله ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون فثبت بهذه الآية أن الفاسق لا يعفى عنه بل يعذب لامحالة والجواب انا لا نسلم ان كلمة من فى معرض الشرط للعموم والكلام فيه مذكور فى أصول الفقه سلمنا انه للعموم ولكن قطعا أم ظاهرا ودعوى القطع ممنوعة فانا نرى فى العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم مع أن المراد هو الاكثر أو لان المراد أقوام معينون والدليل عليه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ثم ان كثيرا من الذين كفروا قد آمنوا فلا دافع له الا أن يقال قوله الذين كفروا وان كان يفيد العموم لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون وعلى التقدير ين ثبت أن استعمال الفاظ العموم فى الاغلب عرف ظاهر واذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة وذلك لا ينفى تجويز العفو سلمنا دلالته قطعا ولكنا أجمعنا على أن قوله ومن يظلم منكم مشروط بأن لا يوجد ما يزيله وعند هذا نقول هذا مسلم لكن لم قلت بأن لم يوجد ما يزيله فان العفو عندنا أحد الامور التى تزيله وذلك هو أحد الثلاثة أول المسئلة سلمنا دلالته على ما قال ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا فان قيل آيات الوعيد أولى لان السارق يقطع على سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقا للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل فاذا ثبت انه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق

الثواب

والاول بالنون على طريق الالتفات الى الغيبة (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) بان دعوتموهم الى عبادتكم كما فى قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله (أم هم ضلوا السبيل) أى عن السبيل بأنفسهم لاخلالهم بالنظر الصحيح واعراضهم عن المرشد فحذف الجار وأوصل الفعل الى المفعول كقوله تعالى وهو يهدى السبيل والاصل الى السبيل أو للسبيل وتقديم الضميرين على الفعلين لان المقصود بالسؤال هو المتصدى للفعل لا نفسه (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا (سبحانك) تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شئ أو اشعارا بأنهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم اضلال عباده أو تنزيه له تعالى من الانداد (ما كان ينبغى لنا) أى ما صح وما استقام لنا (أن نتخذ من دونك) أى متجاوزين اياك (من أولياء) نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فانى يتصور ان نحمل غيرنا على أن يتخذ وليا غيرك فضلا أن نتخذ وليا أو أن نتخذ من دونك أولياء أى أتباعا فان الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع كالمولى يطلق على الاعلى والاسفل ومنه أولياء الشياطين أى أتباعه وقرئ على

الثواب أحبط لما بينا أن الجمع بين الاستحقاقين محال قلنا لا نسلم أن السارق يقطع على سبيل التنكيل الا ترى انه لو تاب فانه يقطع لا على سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة نزلنا عن هذه المقامات ولكن قوله تعالى ومن يظلم منكم انه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب انه لا يعفو عنهم فلم قلت انه لا يعفو عن غيرهم اما قوله تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق ففيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا جواب عن قولهم ماله هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق بين الله تعالى ان هذه عادة مستمرة من الله فى كل رسله فلا وجه لهذا الطعن (المسئلة الثانية) حق الكلام ان يقال الا أنهم بفتح الالف لانه متوسط والمكسورة لا تليق الا بالابتداء فلاجل هذا ذكروا وجوها احدها قال الزجاج الجملة بعد الا صفة لموصوف محذوف والمعنى وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين الا آكلين وماشين وانما حذف لان فى قوله من المرسلين دليلا عليه ونظيره قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم على معنى وما منا أحد وثانيها قال الفراء انها صلة لاسم متروك اكتفى بقوله من المرسلين عنه والمعنى الا من أنهم كقوله وما منا الا له مقام معلوم أى من له مقام معلوم وكذلك قوله وان منكم الا واردها أى الا من يردها فعلى قول الزجاج الموصوف محذوف وعلى قول الفراء الموصول هو المحذوف ولا يجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين وثالثها قال ابن الانبارى تكسر ان بعد الاستثناء باضمار واو على تقدير الا وانهم ورابعها قال بعضهم المعنى الا قيل انهم (المسئلة الثالثة) قرئ يمشون على البناء للمفعول أى يمشيهم حوائجهم أو الناس ولو قرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية اما قوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه أقوال (أحدها) ان هذا فى رؤساء المشركين وفقراء الصحابة فاذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف ان يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه ودليله قوله تعالى لو كان خيرا ما سبقونا اليه وهذا قول الكلبى والفراء والزجاج (وثانيها) ان هذا عام فى جميع الناس روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ويل للعالم من الجاهل وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وويل للمالك من المملوك وويل للشديد من الضعيف وللضعيف من الشديد بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذه الآية (وثالثها) ان هذا فى أصحاب البلاء والعافية هذا يقول لم لم اجعل مثله فى الخلق والخلق وفى العقل وفى العلم وفى الرزق وفى الاجل وهذا قول ابن عباس والحسن (ورابعها) هذا احتجاج عليهم فى تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته اياهم فى البشرية وصفاتها فابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وانواع اذاهم على ما قال ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا والمرسل اليهم يتأذون أيضا من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفا بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيسا مخدوما والاولى حمل الآية على الكل لان بين

البناء للمفعول من المتعدى الى مفعولين كما فى قوله تعالى واتخذ الله ابراهيم خليلا ومفعوله الثانى من أولياء على أن من للتبعيض أى أن نتخذ بعض أولياء وهى على الاول مزيدة وتنكير أولياء من حيث انهم أولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (ولكن متعتهم وآباءهم) استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزههم عن اضلالهم وقد نعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسبابا للضلالة أى ما أضللناهم ولكنك متعتهم وآباءهم بانواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فيها (حتى نسوا الذكر) أى غفلوا عن ذكرك أو عن التذكر فى آلائك والتدبر فى آياتك فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة الى الغواية (وكانوا) أى فى قضائك المبنى على علمك الازلى المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم من الاعمال السيئة (قوما بورا) أى هالكين على أن بورا مصدر وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعوذ فى جمع عائذ والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقوله تعالى (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام

الجميع قدرا مشتركا (المسئلة الثانية) قال أصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر لانه تعالى قال وجعلنا بعضكم لبعض فتنة قال الجبائى هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق ان فلانا لص جعله لصا وهذا التأويل ضعيف لانه تعالى أضاف الجعل الى وصف كونه فتنة لا الى الحكم بكونه كذلك بل العقل يدل على أن المراد غير ما ذكره وذلك لان فاعل السبب فاعل للمسبب فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الادراك الذى يطلعه على الشئ المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لامحالة وكذا القول فى الحسد وسائر الاخلاق والافعال وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذى جعل البعض فتنة للبعض سلمنا ان المراد ما قاله الجبائى ان المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول ان انقلب لزم من انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق الى الكذب وذلك محال فانقلاب ذلك الجعل محال فانقلاب المجعول أيضا محال وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر (المسئلة الثالثة) الوجه فى تعلق هذه الآية بما قبلها ان القوم لما طعنوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم بانه يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى المرافات فانه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشئ من هذه الاشياء أثر فى القدح فيها فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم من حيث انهم كانوا يشتمونه ومن حيث انهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وما كانوا يفهمون الجواب الجيد فلا جرم صبره الله تعالى على كل تلك الاذية وبين انه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض ✽ أما قوله تعالى أتصبرون وكان ربك بصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لو كان المراد من قوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة الخبر لما ذكر عقيبه اتصبرون لان أمر العاجز غير جائز (المسئلة الثانية) المعنى اتصبرون على البلاء فقد علمتم ما وعد الله الصابرين وكان ربك بصيرا أى هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب (المسئلة الثالثة) قوله أتصبرون استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء فى قوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا ۞ قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) اعلم أن قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا هو الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحاصلها لم لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق فى دعواه أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله الينا وتقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شئ وكان له الى تحصيله طريقان أحدهما يفضى اليه قطعا والآخر قد يفضى وقد لا يفضى فالحكيم يجب عليه فى حكمته ان يختار فى تحصيل ذلك المقصود الطريق الاقوى والاحسن

جوابهم وتوجيهه الى العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أى فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون أيها الكفرة (بما تقولون) أى فى قولكم انهم آلهة وقيل فى قولكم هؤلاء أضلونا وبإباء أن تكذيبهم فى هذا القول لا تعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلا وانما الذى يستتبعه تكذيبهم فى زعمهم أنهم آلهتهم وناصروهم وأيا ما كان فالباء بمعنى فى أو هى صلة للتكذيب على أن الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب وقرئ بالياء أى كذبوكم بقولهم سبحانك الآية (فما تستطيعون) أى ما تملكون (صرفا) أى دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أى لا بالذات ولا بالواسطة وقيل حيلة من قولهم انه ليتصرف فى أموره أى يحتال فيها وقيل توبة (ولا نصرا) أى فردا من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب لكن لا على معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم وقرئ يستطيعون على صيغة الغيبة أى ما يستطيع آلهتكم

ولا

ولاشك أن انزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أكثر افضاء الى المقصود فلو أراد الله تعالى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا انه ما أراد تصديقه هذا حاصل الشبهة ثم ههنا مسائل (الاولى) قال الفراء قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا معناه لا يخافون لقاءنا ووضع الرجاء فى موضع الخوف لغة تهامية اذا كان معه جحد ومثله قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا أى لا تخافون له عظمة وقال القاضى لا وجه لذلك لان الكلام متى أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز ومعلوم أن من حال عباد الاصنام انهم كما لا يخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد فكذلك لا يرجون لقاءنا ووعدنا على الطاعة من الجنة والثواب ومعلوم أن من لا يرجو ذلك لا يخاف العقاب أيضا فالخوف تابع لهذا الرجاء (المسئلة الثانية) المجسمة تمسكوا بقوله تعالى لقاءنا انه جسم وقالوا اللقاء هو الوصول يقال هذا الجسم لقى ذلك أى وصل اليه واتصل به وقال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر فدلت الآية على انه سبحانه جسم والجواب على طريقين الاول طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء هو الرؤية وذلك لان الرائى يصل برؤيته الى حقيقة المرئى فسمى اللقاء أحد انواع الرؤية والنوع الآخر الاتصال والمماسة فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية الطريق الثانى وهو كلام المعتزلة قال القاضى تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة فيقال فى الدعاء لقاك الله الخير وقد يقول القائل لم ألق الامير وان رآه من بعد أو حجب عنه ويقال فى الضرير لقى الامير اذا اذن له ولم يحجب وقد يلقاه فى الليلة الظلماء ولا يراه بل المراد من اللقاء ههنا هو المصير الى حكمه حيث لا حكم لغيره فى يوم لا تملك نفس لنفس شيأ لا أنه رؤية البصر واعلم أن هذا الكلام ضعيف لانا لا نفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر وبين الاتصال والمماسة وهو الوصول الى الشئ وقد بينا أن الرائى يصل برؤيته الى المرئى واللفظ الموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة ينطلق على كل واحد من تلك المعانى فيصح قوله لقاك الخير ويصح قول الاعمى لقيت الامير ويصح قول البصير لقيته بمعنى رأيته وما لقيته بمعنى ما وصلت اليه واذا ثبت هذا فنقول قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا مذكور فى معرض الذم لهم فوجب ان يكون رجاء اللقاء حاصلا ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكانى وبين الوصول بالرؤية وقد تعذر الاول فتعين الثانى وقوله المراد من اللقاء الوصول الى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها بل على ان انكارها ليس الا من دين الكفار (المسئلة الثالثة) قوله لولا أنزل معناه هلا انزل قال الكلبى ومقاتل نزلت هذه الآية فى أبى جهل والوليد وأصحابهما الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث ✽ اما قوله تعالى لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا فاعلم أن هذا هو الجواب عن تلك الشبهة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تقرير كونه جوابا وذلك من وجوه (أحدها) أن القرآن لما

أن يصرفوا عنكم العذاب أو يحتالوا لكم ولا أن ينصروكم وترتب ما بعد الفاء على ما قبلها كما مر بيانه (ومن يظلم منكم) أيها المكلفون كدأب هؤلاء حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ما هم عليه من الفساد وتجاوزوا فى اللجاج كل حد معتاد (نذقه) فى الآخرة (عذابا كبيرا) لا يقادر قدره وهو عذاب النار وقرئ يذقه على أن الضمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطا وتعميم الظلم لا يستلزم اشتراك الفاسق للكافر فى اذاقة العذاب الكبير فان الشرط فى اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والاحباط بالطاعة اجماعا وبالعفو عندنا (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق) جواب عن قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق والجملة الواقعة بعد الا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه وأقيمت هى مقامه كما فى قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم والمعنى ما أرسلنا أحدا قبلك من المرسلين الا آكلين وماشين وقيل هى حال والتقدير الا وانهم ليأكلون الخ وقرئ يمشون على البناء للمفعول أى يمشيهم حوائجهم أو الناس

ظهر كونه معجزا فقد ثبتت دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فبعد ذلك يكون اقتراح امثال هذه الآيات لا يكون الا محض الاستكبار والتعنت (وثانيها) أن نزول الملائكة لو حصل لكان أيضا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه بنزول الملك بل لعموم كونه معجزا فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحا لاحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح وهو محض الاستكبار والتعنت (وثالثها) انهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يقول نعم هو رسولي فذلك لا يزيد في التصديق على اظهار المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم لانا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول اذ لا فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول اللهم ان كنت صادقا فاحي هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين أن يقول له صدقت واذا كان التصديق الحاصل بالقول أو الحاصل بالمعجز سيين في كونه تصديقا للمدعى كان تعيين أحدهما محض الاستكبار والتعنت (ورابعها) وهو انا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة أو نقول ان الله تعالى يفعل بحسب المشيئة على ما يقوله أصحابنا فان كان الاول لم يجز لهم أن يعينوا المعجز اذ ربما كان اظهار ذلك المعجز مشتملا على مفسدة لا يعرفها الا الله تعالى وكان التعيين استكبارا وعتوا من حيث انه لما ظنه مصلحة قطع بكونه مصلحة فمن قال ذلك فقد اعتقد في نفسه انه عالم بكل المعلومات وذلك استكبار عظيم وان كان الثاني وهو قول اصحابنا فليس للعبد أن يقترح على ربه فانه سبحانه فعال لما يريد فكان الاقتراح استكبارا وعتوا وخروجا عن حد العبودية الى مقام المنازعة والمعارضة وخامسها وهو أن المقصود من بعثة الانبياء الاحسان الى الخلق فالملك الكبير اذا أحسن الى بعض الضعفاء رحمة عليه فاخذ ذلك الضعيف الى اللجاج والنزاع ويقول لا أريد هذا بل أريد ذلك حسن أن يقال ان هذا المكدى قد استكبر في نفسه وعتا عتوا شديدا من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا ههنا وسادسها يمكن أن يكون المراد ان الله تعالى قال لو علمت أنهم ماذكروا هذا السؤال لاجل الاستكبار والعتو الشديد لاعطيتهم مقترحهم ولكني علمت انهم ذكروا هذا الاقتراح لاجل الاستكبار والتعنت فلو اعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلا جرم لا أعطيهم ذلك وهذا التاويل يعرف من اللفظ (وسابعها) لعلهم سمعوا من أهل الكتاب ان الله تعالى لا يرى في الدنيا وانه تعالى لا ينزل الملائكة في الدنيا على عوام الخلق ثم انهم علقوا ايمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية دالة على أن الله تعالى لا تجوز رؤيته لان رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتوا واستكبارا قالوا وقوله لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ليس الا لاجل سؤال الرؤية حتى لو انهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك والدليل عليه ان الله تعالى ذكر أمر الرؤية في آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو

(وجعلنا بعضكم) تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام بطريق التغليب والمراد بهذا البعض كفارا الامم فان اختصاصهم بالرسل وتبعيتهم لهم مصحح لان يعدوا بعضا منهم وبما في قوله تعالى (لبعض) رسلهم لكن لا على معنى جعلنا مجموع البعض الاول (فتنة) أي ابتلاء ومحنة لمجموع البعض الثاني ولا على معنى جعلنا كل فرد من أفراد البعض الاول فتنة لكل فرد من أفراد البعض الثاني ولا على معنى جعلنا بعضا مبهما من الاولين فتنة لبعض مبهم من الآخرين ضرورة أن مجموع الرسل من حيث هو مجموع غير مفتون بمجموع الامم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الامم ولا بعض مبهم من الاولين ببعض مبهم من الآخرين بل على معنى جعلنا كل بعض معين من الامم فتنة لبعض معين من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الامم الكافرة فتنة لرسولها المعين المبعوث اليها وانما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال هذا وأما تعميم الخطاب لجميع المكلفين وابقاء البعضين على العموم والابهام على معنى وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة لبعض آخر منكم فيأباه قوله تعالى (أتصبرون) فانه غاية للجعل المذكور ومن البين أن ليس ابتلاء كل أحد من آحاد الناس مغيا بالصبر بل بما يناسبه على أن الاقتصار على ذكره من غير تعرض لمعادله عما يدل على أن اللائق بحال المفتونين والمتوقع صدوره عنهم هو الصبر لا غير فلا يبعد أن يكون المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته عليه الصلاة والسلام فانه في حيرة منتابعو ج... كتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم

قوله

قوله ان نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وذكر نزول الملائكة على حدة في آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم لولا انزل علينا الملائكة وهل نرى الملائكة فثبت بهذا ان الاستكبار والعتو في هذه الآية انما حصل لاجل سؤال الرؤية واعلم أن الكلام على ذلك قد تقدم في سورة البقرة والذي نريده ههنا أنا بينا ان قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا يدل على الرؤية واما الاستكبار والعتو فلا يمكن أن يدل ذلك على أن الرؤية مستحيلة لان من طلب شيأ محالا لا يقال انه عتا واستكبر ألا ترى انهم لما قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتوا واستكبارا بل قال انكم قوم تجهلون بل العتو والاستكبار لا يثبت الا اذا طلب الانسان ما لا يليق به ممن فوقه أو كان لا تقابه ولكنه يطلبه على سبيل التعنت وبالجملة فقد ذكرنا وجوها كثيرة في تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة ومما يدل عليه ان موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو لانه عليه السلام طلب الرؤية شوقا وهؤلاء طلبوها امتحانا وتعنتا لا جرم وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة (المسئلة الثالثة) انما قال في أنفسهم لانهم أضمروا الاستكبار في قلوبهم واعتقدوه كما قال ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه وقوله وعتوا عتوا كبيرا أي تجاوزوا الحد في الظلم يقال عتا فلان وقد وصف العتو بالكبر فبالغ في افراطه يعني انهم لم يجترئوا على هذا القول العظيم الا لانهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو أما قوله تعالى يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا فهو جواب لقولهم لولا انزل علينا الملائكة فبين تعالى ان الذي سألوه سيوجد ولكنهم يلقون منه ما يكرهون وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في انتصاب يوم وجهين الاول أن العامل ما دل عليه لا بشرى أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى ويومئذ للتكرير الثاني ان التقدير اذكر يوم يرون الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا في ذلك اليوم فقال ابن عباس يريد عند الموت وقال الباقون يريد يوم القيامة (المسئلة الثالثة) انما يقال للكافر لا بشرى لان الكافر وان كان ضالا مضلا الا انه يعتقد في نفسه انه كان هاديا مهتديا فكان يطمع في ذلك الثواب العظيم ولانهم ربما عملوا ما رجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم ولكنه أبطلها بكفره فبين سبحانه انهم في أول الامر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة وذلك هو النهاية في الايلام وهو المراد من قوله وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (المسئلة الرابعة) حق الكلام ان يقال يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم لكنه قال لا بشرى للمجرمين وفيه وجهان أحدهما أنه ظاهر في موضع ضمير والثاني انه عام فقد تناولهم بعمومه قالت المعتزلة تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو لان قوله لا بشرى للمجرمين نكرة في سياق النفي فيعم جميع أنواع البشرى في جميع الاوقات بدليل أن من أراد تكذيب هذه القضية قال بل له بشرى في الوقت الفلاني فلما كان ثبوت

وعناصيتهم لهم العداوة وايذائهم لهم وأقاويلهم الخارجة عن حدود الانصاف لنعلم صبركم وقوله تعالى (وكان ربك بصيرا) وعد كريم للرسول عليه الصلاة والسلام بالاجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له عليه الصلاة والسلام بالالتفات الى اسم الرب مضافا الى ضميره صلى الله عليه وسلم (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) شروع في حكاية بعض آخر من أقاويلهم الباطلة وبيان بطلانها اثر ابطال أباطيلهم السابقة والجملة معطوفة على قوله تعالى وقالوا ما لهذا الرسول الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر عمن يعتقد المصير الى الله عز وجل ولقاء الشئ عبارة عن مصادفته من غير أن يمنع مانع من ادراكه بوجه من الوجوه والمراد بلقائه تعالى اما الرجوع اليه تعالى بالبعث والحشر أو لقاء حسابه تعالى كما في قوله تعالى اني ظننت اني ملاق حسابيه وبعدم رجائهم اياه عدم توقعهم له أصلا لانكارهم البعث والحساب بالكلية لا عدم أملهم حسن اللقاء ولا عدم خوفهم سوء اللقاء لان عدمهما غير مستلزم لما هم عليه من العتو والاستكبار وانكار البعث والحساب رأسا أي وقال الذين لا يتوقعون الرجوع الينا أو حسابنا المؤدي الى سوء العذاب

البشرى فى وقت من الاوقات يذكر التكذيب هذه القضية علمنا أن قوله تعالى لا بشرى يقتضى نفى جميع أنواع البشرى فى كل الاوقات ثم انه سبحانه أكد هذا النفى بقوله حجرا محجورا لعفو الله من أعظم البشرى والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم البشرى وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم البشرى فوجب أن لا يثبت ذلك لاحد من المجرمين والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة قال المفسرون المراد بالمجرمين ههنا الكفار بدليل قوله انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة (المسئلة الخامسة) فى تفسير قوله حجرا محجورا ذكر سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك اظهارها نحو معاذ الله وقعدك وعمرك وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو أو هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه يقول الرجل للرجل يفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهى من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ومجيئه على فعل أو فعل فى قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد فان قيل لما ثبت انه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجورا قلنا جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا ذيل ذايل فالذيل الهوان وموت مائت وحرام محرّم (المسئلة السادسة) اختلفوا فى ان الذين يقولون حجرا محجورا من هم على ثلاثة أقوال القول الاول انهم هم الكفار وذلك لانهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ثم اذا رأوهم عند الموت ويوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو ونزول الشدة القول الثانى أن القائلين هم الملائكة ومعناه حراما محرما عليكم الغفران والجنة والبشرى أى جعل الله ذلك حراما عليكم ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم ان الكفار اذا خرجوا من قبورهم قالت الحفظة لهم حجرا محجورا وقال الكلبى الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين حجرا محجورا وقال عطية اذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فاذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم بشرونا فيقولون حجرا محجورا القول الثالث وهو قول القفال والواحدى وروى عن الحسن ان الكفار يوم القيامة اذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون حجرا محجورا فتقول الملائكة لا يعاذ من شر هذا اليوم أما قوله تعالى وقدمنا فقد استدلت المجسمة بقوله وقدمنا لان القدوم لا يصح الا على الاجسام وجوابه انه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه لان القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث ولذلك استدل الخليل عليه السلام بأفول الكواكب على حدوثها وثبت ان الله عز وجل لا يجوز أن يكون محدثا فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه أحدها وقدمنا الى ما عملوا من عمل أى وقصدنا الى أعمالهم فان القادم الى الشئ قاصد له فالقصد هو المؤثر فى القدوم اليه واطلق المسبب

على

الذى تستوجبه مقالتهم (لولا أنزل علينا الملائكة) اى هلا أنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة وهو الانسب لقولهم (أو نرى ربنا) من حيث ان كلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم فى المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لقد استكبروا فى أنفسهم) أى فى شأنها حتى اجترؤا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء (وعتوا) اى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان (عتوا كبيرا) بالغا أقصى غاياته حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الالهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا لولا يكلمنا الله ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات الباهرة التى تخر لها صم الجبال فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب حتى منتهم أنفسهم الخبيثة أمانى لا تكاد ترنو اليها أحداق الامم ولا تمتد اليها أعناق الهمم ولا ينالها الا أولو العزائم الماضية من الانبياء عليهم الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى والله لقد استكبروا الآية وفيه من الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والاشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم ما لا يخفى (يوم يرون الملائكة) استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية ما يكون من الشناعة وانما قيل

على السبب مجازا وثانيها المراد قدوم الملائكة الى موضع الحساب فى الآخرة ولما كانوا بأمره يقدمون جاز أن يقول وقدمنا على سبيل التوسع ونظيره قوله فلما آسفونا انتقمنا منهم وثالثها ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها فلما أباد الله أعمالهم وأفسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التى يقدمها الملك فلا جرم قال وقدمنا اما قوله الى ما عملوا من عمل يعنى الاعمال التى اعتقدوها برا وظنوا انها تقربهم الى الله تعالى والمعنى الى ما عملوا من أى عمل كان اما قوله فجعلناه هباء منثورا فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذى لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى كسراب بقيعة كرماد اشتدت به الريح كعصف مأكول قال أبو عبيدة والزجاج الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس وقال مقاتل انه الغبار الذى يستطير من حوافر الدواب اما قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا فاعلم انه سبحانه لما بين حال الكفار فى الخسار الكلى والخيبة التامة شرح وصف أهل الجنة تنبيها على ان الحظ كل الحظ فى طاعة الله تعالى ٭ وههنا سؤالات (الاول) كيف يكون أصحاب الجنة خيرا مستقرا من أهل النار ولا خير فى النار ولا يقال فى العسل هو أحلى من الخل (والجواب) من وجوه الاول ما تقدم فى قوله أذلك خير أم جنة الخلد والثانى يجوز أن يريد انهم فى غاية الخير لان مستقره خير من النار كقول الشاعر

ان الذى سمك السماء بنى لنا ٭ بيتا دعائمه أعز وأطول

الثالث التفاضل الذى ذكر بين المنزلتين انما يرجع الى الموضع والموضع من حيث انه موضع لا شر فيه الرابع هذا التفاضل واقع على هذا التقدير أى لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيرا منه (السؤال الثانى) الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك والجواب من وجوه (الاول) ان المستقر مكان الاستقرار والمقيل زمان القيلولة فهذا اشارة الى انهم من المكان فى أحسن مكان ومن الزمان فى أطيب زمان (الثانى) ان مستقر أهل الجنة غير مقيلهم فانهم يقيلون فى الفردوس ثم يعودون الى مستقرهم (الثالث) أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب الى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة قال ابن مسعود لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وقرأ ابن مسعود ثم ان مقيلهم لالى الجحيم وقال سعيد بن جبير ان الله تعالى اذا أخذ فى فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة الى انتصاف النهار فيقيل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وقال مقاتل يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا ثم يقيلون من يومهم ذلك فى الجنة (السؤال الثالث) كيف يصح القيلولة فى الجنة والنار وعندكم ان أهل الجنة فى الآخرة لا ينامون وأهل النار أبدا فى عذاب يعرفونه وأهل الجنة فى نعيم يعرفونه والجواب قال الله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وليس فى الجنة بكرة وعشى لقوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ولانه اذا لم يكن

يوم يرونهم دون أن يقال يوم ينزل الملائكة ايذانا من أول الامر بان رؤيتهم لهم ليست على طريق الاجابة الى ما اقترحوه بل على وجه آخر غير معهود ويوم منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى (لا بشرى يومئذ للمجرمين) فانه فى معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول الى نفى الجنس للمبالغة فى نفى البشرى وما قيل من انه بمعنى يمنعون البشرى أو يعدمونها تهوين للخطب فى مقام التهويل فان منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفقدونها وأين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن اثبات ضدها كما أن نفى المحبة فى مثل قوله تعالى والله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والمقت دل على ثبوت النذرى لهم على أبلغ وجه وآكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكده بشرى على أن لا غير نافية للجنس وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه أى اذكر يوم رؤيتهم الملائكة ويومئذ على كل حال تكرير للتأكيد والتهويل مع ما فيه من الايذان بأن تقديم الظرف للاهتمام لا للقصر نفى البشرى على ذلك الوقت فقط فان ذلك مخل بتفظيع حالهم وللمجرمين تبيين على انه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالاجرام مع ما هم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق

هنالك شمس لم يكن هنالك نصف النهار ولا وقت القيلولة بل المراد منه بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع وأحسنها كما أن موضع القيلولة يكون أطيب المواضع والله أعلم ﷺ قوله

تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا)

اعلم أن هذا الكلام مبنى على ما استدعوه من انزال الملائكة فبين سبحانه أنه يحصل ذلك فى يوم له صفات (الصفة الاولى) ان فى ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله اذا السماء انفطرت يدل على التشقق وقوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام يدل على الغمام فقوله تشقق السماء بالغمام جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى وفتحت السماء فكانت أبوابا وقوله فهى يومئذ واهية (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا وفى سورة ق والباقون بالتشديد قال أبو عبيدة الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق (المسئلة الثالثة) قال الفراء المراد من قوله بالغمام أى عن الغمام لان السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام وقال القاضى لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تتشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله السماء منفطر به (المسئلة الرابعة) لا بد من أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة فقيل الملائكة فى أيام الانبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها ثم فى ذلك اليوم تتشقق السماء فاذا انشقت خرج من أن يكون حائلا بين الملائكة وبين الارض فنزلت الملائكة الى الارض (المسئلة الخامسة) قوله ونزل الملائكة صيغة عموم فيتناول الكل ولان السماء مقر الملائكة فاذا انشقت وجب أن ينزلوا الى الارض ثم قال مقاتل تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من سكان الدنيا كذلك تتشقق سماء سماء ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ثم ينزل الرب تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس قال تتشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم واعلم أن نزول الرب بالذات باطل قطعا لان النزول حركة والموصوف بالحركة محدث ولانه لا يكون محدثا واما نزول الملائكة الى الارض فعليه سؤال وذلك لانه ثبت أن الارض بالقياس الى سماء الدنيا كحلقة فى فلاة فكيف بالقياس الى الكرسى والعرش فالملائكة هذه المواضع بأسرها كيف تتسع لهم الارض جميعا فلعل الله تعالى يزيد فى طول الارض وعرضها ويبلغها مبلغا يتسع لكل هؤلاء ومن المفسرين من قال الملائكة يكونون فى الغمام منه والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة قال الحسن والغمام سترة بين السماء والارض تعرج الملائكة فيه بنسخ أعمال بنى آدم والمحاسبة تكون فى الارض (المسئلة السادسة) اما نزول الملائكة فظاهر ومعنى تنزيلا توكيد

المؤمنين ثم الالتجاء فى اخراجهم من الحرمان الكلى الى أن نفى البشرى حينئذ لا يستلزم نفيه فى جميع الاوقات فيجوز أن يبشروا بالعفو والشفاعة فى وقت آخر بمعزل عن الحق بعيدا (ويقولون) عطف على ما ذكر من الفعل المنفى المنبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر وغاية هول مطلعه بيان أنهم يقولون عند مشاهدتهم له (حجرا محجورا) وهى كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدو وتوور هجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم فكان المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وكسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما فى قعدك وعمرك وقد قرئ حجرا بالضم والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام ويقترحونه وهم اذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس شديد فظيع ومحجورا صفة لحجرا واردة للتأكيد كما قالوا ذيل ذائل وليل أليل وقيل يقولها الملائكة اقناطا للكفرة بمعنى حراما محرما عليكم الغفران أو الجنة أو البشرى أى جعل الله تعالى ذلك حراما عليكم وليس بواضح (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) بيان لحال ما كانوا يعملونه فى الدنيا من صلة

للنزول ودلالة على اسراعهم فيه (المسئلة السابعة) الالف واللام فى الغمام ليس للعموم فهو للمعهود والمراد ما ذكره فى قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة (المسئلة الثامنة) قرئ وننزل الملائكة وننزل الملائكة ونزل الملائكة ونزلت الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل من تنزل قراءة أهل مكة (الصفة الثانية لذلك اليوم) قوله الملك يومئذ الحق للرحمن قال الزجاج الحق صفة للملك وتقديره الملك الحق يومئذ للرحمن ويجوز الحق بالنصب على تقدير أعنى ولم يقرأ به ومعنى وصفه بكونه حقا انه لا يزول ولا يتغير فان قيل مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة فى قوله يومئذ قلنا لان فى ذلك اليوم لا مالك سواه لا فى الصورة ولا فى المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام واعلم ان هذه الآية دالة على فساد قول المعتزلة فى أنه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لانه لو وجب لاستحق الذم بتركه فكان خائفا من ان لا يفعل فلم يكن ملكا مطلقا وأيضا فقوله الملك يومئذ للرحمن يفيد انه ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة لان كل من استحق عليه شيأ فانه يكون مالكا له ولا يكون هو سبحانه مالكا لذلك المستحق ولانه سبحانه اذا استحق على أحد شيأ أمكنه أن يعفو عنه اما غيره اذا استحق عليه شيأ فانه لا يصح ابراؤه عنه فكانت العبودية ههنا أتم ولان من كفر بالله الى آخر عمره ثم فى آخر عمره عرف الله لحظة ومات فهو سبحانه لو أعطاه ألف ألف سنة أنواع الثواب واراد بعد ذلك أن لا يعطيه لحظة واحدة صار سفيها وهذا نهاية العبودية والذل فكيف يليق بمن هذا حاله ان يقال له الملك يومئذ الحق للرحمن وأيضا فكل من فعل فعلا لو لم يفعله لكان مستوجبا للذم وكان بذلك الفعل مكتسبا للكمال وبتركه مكتسبا للنقصان فلم يكن مالكا بل فقيرا مستحقا فثبت أن قوله سبحانه الملك يومئذ الحق للرحمن غير لائق باصول المعتزلة (الصفة الثالثة) قوله وكان يوما على الكافرين عسيرا فالمعنى ظاهر لانه تعالى عالم بالاحوال قادر على كل ما يريده وأما غيره فالكل فى ربقة العجز ولجام القهر فكان فى نهاية العسر على الكافر (الصفة الرابعة) قوله ويوم يعض الظالم على يديه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام فى الظالم فيه قولان أحدهما انه للعموم والثانى أنه للمعهود والقائلون بالمعهود على قولين الاول قال ابن عباس المراد عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما يدعو اليه جيرته من أهل مكة ويكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه فصنع طعاما ودعا الرسول فقال صلى الله عليه وسلم ما أنا بآكل من طعامك حتى تأتى بالشهادتين ففعل فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه فبلغ أمية بن خلف فقال صبوت يا عقبة وكان خليله فقال اعاذ كرت ذلك لئلا يأكل من طعامى فقال لا أرضى أبدا حتى تأتيه فتبزق فى وجهه وتطأ على عنقه ففعل فقال عليه السلام لا القاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فنزل ويوم يعض الظالم على يديه ندامة يعنى عقبة يقول يا ليتنى لم اتخذ أمية خليلا

وحمم واغاثة ملهوف وقرى ضيف ومن على أسير وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التى لو كانوا عملوها مع الايمان لنالوا ثوابها بتمثيل حالهم وحال أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم الى اشيائهم وقصد ما تحت أيديهم فأنحى عليها بالافساد والتحريق ومزقها كل ممزق بحيث لم يدع لها عينا ولا أثرا أى عمدنا اليها وأبطلناها أى أظهرنا بطلانها بالكلية من غير أن يكون هنالك قدوم ولا شئ يقصد تشبيهه به والهباء شبه غبار يرى فى شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة وهى الغبار ومنثورا صفته شبه به أعمالهم المحبطة فى الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور منه فى الانتشار بحيث لا يمكن نظمه أو مفعول ثالث من حيث انه كالخبر بعد الخبر كما فى قوله تعالى كونوا قردة خاسئين (أصحاب الجنة) هم المؤمنون المشار اليهم فى قوله تعالى قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون الخ (يومئذ) أى يوم اذ يكون ما ذكر من عدم التبشير وقولهم حجرا محجورا وجعل أعمالهم هباء منثورا (خير مستقرا) المستقر المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الاوقات للتجالس والتحادث (وأحسن مقيلا) المقيل المكان الذى يؤوى اليه للاسترواح الى الازواج والتمتع بمغازلتهن سمى بذلك لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالبا وقيل

لقد أضلني عن الذكر أي صرفني عن الذكر وهو القرآن والايمان بعد اذ جاءني مع محمد عليه السلام فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا ولم يقتل يومئذ من الاسارى غيره وغير النضر ابن الحرث الثاني قالت الرافضة هذا الظالم هو رجل بعينه وان المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانا بدلا من اسمه وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله واعلم أن اجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ لانا بينا في أصول الفقه أن الالف واللام اذا دخل على الاسم المفرد لا يفيد العموم بل انما يفيده للقرينة من حيث ان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف فدل ذلك على ان المؤثر في العض على اليدين كونه ظالما وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا القول أولى من التخصيص بصورة واحدة لان هذا الذي ذكرناه يقتضي العموم ونزوله في واقعة أخرى خاصة لا ينافي أن يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها ولان المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم وذلك لا يحصل الا بالعموم وأما قول الرافضة فذلك لا يتم الا بالطعن في القرآن واثبات انه غير وبدل ولا نزاع في انه كفر (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بقوله ويوم يعض الظالم على يديه قالوا الظالم يتناول الكافر والفاسق فدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم (المسئلة الثالثة) قوله يعض الظالم على يديه قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت وقال أهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم يقال عض أنامله وعض على يديه (المسئلة الرابعة) كما بينا ان الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله فلانا ليس شخصا واحدا بل كل من أطيع في معصية الله واستشهد القفال بقوله وكان الكافر على ربه ظهيرا ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا يعني به جماعة الكفار (المسئلة الخامسة) قرئ يا ويلتي بالياء وهو الاصل لان الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى فهذا أوانك وانما قلبت الياء ألفا كما في صحارى وعذارى (المسئلة السادسة) قوله عن الذكر أي عن ذكر الله أو القرآن أو موعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وعزيمته على الاسلام والشيطان اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد ابليس فانه هو الذي حمله على ان صار خليلا لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والانس ويحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وان يكون كلام الله

﴿ قوله تعالى (وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) اعلم أن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكاهم الى الله تعالى وقال يا رب ان قومي اتخذوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أكثر المفسرين انه قول واقع من الرسول صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أن الرسول عليه

لانه يفرغ من الحساب في منتصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وفي وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه على المستقر رمز الى أنه مزين بفنون الزين والزخارف والتفضيل المعتبر فيهما اما لارادة الزيادة على الاطلاق أي هم في أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل واما بالاضافة الى ما للكفرة المتنعمين في الدنيا أو الى ما لهم في الآخرة بطريق التهكم بهم كما مر في قوله تعالى قل أذلك خير الآية هذا وقد جوز أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان اشارة الى أن مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيل من الامكنة والازمنة (ويوم تشقق السماء) أي تتفتح وأصله تتشقق فحذفت احدى التاءين كما في تلظى وقرئ بادغام التاء في الشين (بالغمام) بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة قيل هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الا لبني اسرائيل (ونزل الملائكة تنزيلا) أي تنزيلا عجيبا غير معهود قيل تشقق سماء سماء وتنزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد وقرئ ونزلت الملائكة وننزل وتنزل على صيغة المتكلم من الانزال والتنزيل ونزل الملائكة وأنزل الملائكة ونزل

السلام

السلام يقوله في الآخرة وهو كقوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا والاول أولى لانه موافق للظاهر ولان ما ذكره الله تعالى من قوله وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولا يليق الا اذا كان وقع ذلك القول منه (المسئلة الثانية) ذكروا في المهجور قولين الاول انه من الهجران أي تركوا الايمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه الثاني انه من أهجر أي مهجورا فيه ثم حذف الجار ويؤكده قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون ثم هجرهم فيه انهم كانوا يقولون انه سحر وشعر وكذب وهجر أي هذيان وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجورا اقض بيني وبينه ثم انه تعالى قال مسليا لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعزيا له وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين بين بذلك ان له أسوة بسائر الرسل فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى خالق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا لكل نبي عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولا شك أن تلك العداوة كفر قال الجبائي المراد من الجعل التبيين فانه تعالى لما بين انهم اعداء جاز أن يقول جعلناهم اعداء كما اذا بين الرجل ان فلانا لص يقال جعله لصا كما يقال في الحاكم عدل فلانا وفسق فلانا وجرحه قال الكعبي انه تعالى لما أمر الانبياء بعداوة الكفار وعداوتهم للكفار تقتضي عداوة الكفار لهم فلهذا جاز أن يقول وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين لانه سبحانه هو الذي حمله ودعاه الى ما استعقب تلك العداوة وقال أبو مسلم يحتمل في العدو انه البعيد لا القريب اذ المعاداة المباعدة كما أن النصرة القرب والمظاهرة وقد باعد الله تعالى بين المؤمنين والكافرين والجواب عن الاول ان التبيين لا يسمونه البتة جعلا لان من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال انه جعل الصانع وجعل قدمه والجواب عن الثاني أن الذي أمره الله تعالى به هل له تأثير في وقوع العداوة في قلوبهم أو ليس له تأثير فان كان الاول فقد تم الكلام لان عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم كفر فاذا أمر الله الرسول بما له أثر في تلك العداوة فقد أمره بما له اثر في وقوع الكفر وان لم يكن فيه تأثير البتة كان منقطعا عنه بالكلية فيمتنع اسناده اليه وهذا هو الجواب عن قول أبي مسلم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول ان قول محمد عليه السلام يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا في المعنى كقول نوح عليه السلام رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا وكما أن المقصود من هذا انزال العذاب فكذا ههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة في قوله وما أرسلناك الا رحمة للعالمين جوابه أن نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم وأما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا ما دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين كان ذلك

الملائكة على حذف النون الذي هو فاء الفعل من تنزل (الملك يومئذ الحق للرحمن) أي السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلي العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا وباطنا بحيث لا زوال له أصلا ثابت للرحمن يومئذ فالملك مبتدأ والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدا وفائدة التقييد أن ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عداه من أيام الدنيا فيكون لغيره أيضا تصرف صوري في الجملة وقيل الملك مبتدأ والحق خبره وللرحمن متعلق بالحق أو بمحذوف على التبيين أو بمحذوف هو صفة للحق ويومئذ معمول للملك وقيل الخبر يومئذ والحق نعت للملك وللرحمن على ما ذكروا أياما كان فالجملة بمعناها عاملة في الظرف أي ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقق وقيل الظرف منصوب بما ذكر فالجملة حينئذ استئناف مسوق لبيان أحواله وأهواله وايراده تعالى بعنوان الرحمانية للايذان بان اتصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما في قوله تعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم والمعنى ان الملك الحقيقي يومئذ للرحمن (وكان) ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ في الرحمة لعباده (يوما على الكافرين عسيرا) شديدا لهم وتقديم الجار والمجرور لمراعاة

كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق (المسئلة الثالثة) قوله جعلنا صيغة العظماء والعظيم اذا ذكر نفسه في كل معرض من التعظيم وذكر انه يعطى فلا بد وان تكون تلك العطية عظيمة كقوله ولقد آتيناك سبعا من المثاني وقوله انا أعطيناك الكوثر فكيف يليق بهذه الصيغة ان تكون تلك العطية هي العداوة التي هي منشا الضرر في الدين والدنيا وجوابه ان خلق العداوة سبب لازدياد المشقة التي هي موجبة لمزيد الثواب والله أعلم (المسئلة الرابعة) يجوز أن يكون العدو واحدا وجمعا كقوله فانهم عدو لي وجاء في التفسير أن عدو الرسول صلى الله عليه وسلم أبو جهل اما قوله وكفى بربك هاديا ونصيرا فقال الزجاج الباء زائدة يعني كفى ربك هاديا ونصيرا منصوبان على الحال هاديا الى مصالح الدين والدنيا ونصيرا على الاعداء ونظيره يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴿ قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) اعلم ان هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان أهل مكة قالوا تزعم انك رسول من عند الله افلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود وعن ابن جريج بين أوله وآخره ثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله كذلك لنثبت به فؤادك وبيان هذا الجواب من وجوه أحدها انه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو وانما نزلت التوراة جملة لانها مكتوبة يقرؤها موسى وثانيها أن من كان الكتاب عنده فربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل وثالثها انه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع باسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك اما لما نزل مفرقا منجما لا جرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها أسهل ورابعها انه اذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتماله أذية قومه وعلى الجهاد وخامسها انه لما تم شرط الاعجاز فيه مع كونه منجما ثبت كونه معجزا فانه لو كان ذلك مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجما مفرقا وسادسها كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة لان بسبب ذلك كان ينضم الى الفصاحة الاخبار عن الغيوب وسابعها ان القرآن لما نزل منجما مفرقا وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الامر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت في فؤاده ان القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة وثامنها ان

الفواصل وأما للمؤمنين فيكون يسيرا ٤٧٢ بفضل الله تعالى وقد جاء في الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين والانامل وأكل البنان وحرق الاسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لانها من روادفهما والمراد بالظالم اما عقبة ابن أبي معيط على ما قيل من أنه كان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فدعاه عليه الصلاة والسلام يوما الى ضيافته فأبى عليه الصلاة والسلام أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه فقال صبأت فقال لا ولكن أبى أن يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له فقال اني لا أرضى منك الا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه فأتاه فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فاسر يوم بدر فأمر عليا رضي الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت الانصاري وطعن عليه الصلاة والسلام أبيا يوم أحد في المبارزة فرجع الى مكة ومات واما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا أوليا وقوله تعالى (يقول الخ) حال من فاعل يعض وقوله تعالى (يا ليتني) الخ محكي به ويا اما لمجرد التنبيه من غير قصد الى تعيين المنبه أو المنادى محذوف أى يا هؤلاء ليتني (اتخذت مع الرسول سبيلا) أي طريقا واحدا منجيا من هذه الورطات وهو

السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه الى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن يقال انه تعالى لو أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقا منجما بقي ذلك المنصب العالي عليه فلاجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقا منجما اما قوله كذلك ففيه وجهان الاول انه من تمام كلام المشركين أي جملة واحدة كذلك أي كالتوراة والانجيل وعلى هذا لا يحتاج الى اضمار في الآية وهو ان يقول أنزلناه مفرقا لنثبت به فؤادك الثاني انه كلام الله تعالى ذكره جوابا لهم أي كذلك أنزلناه مفرقا فان قيل ذلك في كذلك يجب أن يكون اشارة الى شيء تقدمه والذي تقدم فهو انزاله جملة فكيف فسر به كذلك أنزلناه مفرقا قلنا لان قولهم لولا نزل عليه جملة واحدة معناه لم نزل مفرقا فذلك اشارة اليه اما قوله تعالى ورتلناه ترتيلا فمعنى الترتيل في الكلام أن يأتي بعضه على أثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل في الاسنان وهو تفلجها يقال ثغر رتل ومرتل وهو ضد المتراص ثم انه سبحانه وتعالى لما بين فساد قولهم بالجواب الواضح قال ولا يأتونك بمثل من الجنس الذي تقدم ذكره من الشبهات الا جئناك بالحق الذي يدفع قولهم كما قال تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق وبين أن الذي يأتي به أحسن تفسيرا لاجل ما فيه من المزية في البيان والظهور ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا ﴿ اما قوله الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الاقدام وصنف على الوجوه وعنه عليه السلام ان الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (المسئلة الثانية) الاقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه الاسئلة على سبيل التعنت وان كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم (المسئلة الثالثة) حمله بعضهم على انهم يمشون في الآخرة مقلوبين وجوههم الى القرار وأرجلهم الى فوق روي ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال آخرون المراد انهم يحشرون ويسحبون على وجوههم وهذا أيضا مروي عن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أولى وقال الصوفية الذين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فاذا ماتوا بقي ذلك التعلق فعبر عن تلك الحالة بأنهم يحشرون على وجوههم الى جهنم ثم بين تعالى انهم شر مكانا من أهل الجنة وأضل سبيلا وطريقا والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وقد تقدم الجواب عنه واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد ونفي الانداد واثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفي احوال القيامة شرع في ذكر القصص على السنة المعلومة (القصة الاولى) ﴿ قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا

طريق الحق ولم تتشعب بي طرق الضلالة أو حصلت في صحبته عليه الصلاة ٤٧٣ والسلام طريقا ولم أكن ضالا الا طريقي قط (ياويلتا) بقلب ياء المتكلم ألفا كما في صحارى ومدارى وقرئ على الاصل ياويلتي أي هلكتي تعالى واحضري فهذا أوانك (ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) يريد من أضله في الدنيا فان فلانا كناية عن الاعلام كما أن الهن كناية عن الاجناس وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم اناثهم وفل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور وفلة عمن يعقل من الاناث والفلان والفلانة من غير العاقل ويختص فل بالنداء الا في ضرورة كما في قوله
• في لجة أمسك فلانا عن فل •
وقوله • خذا حدثاني عن فل وفلان
وليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء واختلفوا في لام فل وفلان فقيل واو وقيل ياء هذا فان أريد بالظالم عقبة ففلان كناية عن أبي وان أريد به الجنس فهو كناية عن علم كل من يضله كائنا من كان من شياطين الانس والجن وهذا التمني منه وان كان مسوقا لابراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته الى الغير وقوله تعالى (لقد أضلني عن الذكر) تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله وتصديره باللام القسمية للمبالغة في بيان خطائه واظهار ندمه وحسرته أي والله لقد أضلني عن ذكر الله تعالى أو عن القرآن أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو كلمة الشهادة (بعد اذ جاءني) وتمكنت منه

ودمرناهم تدميرا) اعلم أنه تعالى لما قال وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا أتبعه بذكر جماعة من الانبياء وعرفه بما نزل بمن كذب من أممهم فقال ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هرون وزيرا والمعنى انت يا محمد باول من أرسلناه فكذب وآتيناه الآيات فرددناه فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هرون ومع ذلك فقد رد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كونه وزيرا لا يمنع من كونه شريكا له فى النبوة لا وجه لقول من قال فى قوله فقلنا اذهبا انه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجرى مجرى قوله اذهبا الى فرعون انه طغى فان قيل ان كونه وزيرا كالمنافى لكونه شريكا بل يجب ان يقال انه لما صار شريكا خرج عن كونه وزيرا قلنا لا منافاة بين الصفتين لانه لا يمتنع أن يشركه فى النبوة ويكون وزيرا وظهيرا ومعينا له (المسئلة الثانية) قال الزجاج الوزير فى اللغة الذى يرجع اليه ويتحصن برأيه والوزر ما يعتصم به ومنه كلا لا وزر أى لا منجى ولا ملجأ قال القاضى ولذلك لا يوصف تعالى بان له وزيرا ولا يقال فيه أيضا بانه وزير لان الالتجاء اليه فى المشاورة والرأى على هذا الحد لا يصح (المسئلة الثالثة) دمرناهم أهلكناهم اهلاكا فان قيل الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقيب ذهاب موسى وهرون اليهم بل بعد مدة مديدة قلنا التعقيب محمول ههنا على الحكم لا على الوقوع وقيل انه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها لانهما المقصود من القصة بطولها أعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا ان حملناه على تكذيب الآيات على تكذيب آيات الالهية فلا اشكال وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وان كان للماضى الا ان المراد هو المستقبل

(القصة الثانية) قصة نوح عليه السلام ۞ قوله تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما) اعلم انه تعالى انما قال كذبوا الرسل اما لانهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل أو لانه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع لان تكذيب الواحد منهم لا يمكن الا بالقدح فى المعجز وذلك يقتضى تكذيب الكل أو لان المراد بالرسل وان كان نوحا عليه السلام وحده ولكنه كما يقال فلان يركب الافراس اما قوله أغرقناهم فقال الكلبى أمطر الله عليهم السماء أربعين يوما وأخرج ماء الارض أيضا فى تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا وجعلناهم أى وجعلنا اغراقهم أو قصتهم آية وأعتدنا للظالمين أى لكل من سلك سبيلهم فى تكذيب الرسل عذابا أليما ويحتمل أن يكون المراد قوم نوح (القصة الثالثة) ۞ قوله تعالى

(وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) عطف عادا على هم فى وجعلناهم أو على الظالمين لان المعنى ووعدنا الظالمين (المسئلة الثانية) قرئ وثمود على تاويل القبيلة واما على المنصرف فعلى تاويل الحى أو لانه اسم للاب الاكبر (المسئلة الثالثة) قال أبو عبيدة

وقوله تعالى (وكان الشيطان للانسان خذولا) أى مبالغا فى الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه الى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اما من جهته تعالى او من تمام كلام الظالم على أنه سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالاضلال الذى هو أخص الاوصاف الشيطانية أو على أنه أراد بالشيطان ابليس لانه الذى حمله على مخالة المضلين ومخالفة الرسول الهادى عليه الصلاة والسلام بوسوسته واغوائه لكن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده فى الدنيا ويمنيه بأنه ينفعه فى الآخرة وهو أوفق بحال ابليس (وقال الرسول) عطف على قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه وبيان ما يحيق بهم فى الآخرة من الاهوال والخطوب وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ما حكى عنهم قدحا فى رسالته عليه الصلاة والسلام أى قالوا اثر ما شاهد منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث الى ربه عز وجل (يارب ان قومى) يعنى الذين حكى عنهم ما حكى من الشنائع (اتخذوا هذا القرآن) الذى من جملته هذه الآيات الناطقة بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الاشارة (مهجورا) أى متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا اليه رأسا ولم يتأثروا بوعيده وفيه تلويح بان من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد

الرس

الرس هو البئر غير المطوية قال أبو مسلم فى البلاد موضع يقال له الرس فجائز أن يكون ذلك الوادى سكنا لهم والرس عند العرب الدفن ويسمى به الحفر يقال رس الميت اذا دفن وغيب فى الحفرة وفى التفسير انه البئر وأى شئ كان فقد أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى (المسئلة الرابعة) ذكر المفسرون فى أصحاب الرس وجوها أحدها كانوا قوما من عبدة الاصنام أصحاب آبار ومواش فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فدعاهم الى الاسلام فتمادوا فى طغيانهم وفى ايذائه فبينما هم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم وثانيها الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود وثالثها هم أصحاب النبى حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهى أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ وهى تنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فاهلكوا ورابعها هم أصحاب الاخدود والرس هو الاخدود وخامسها الرس انطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل كذبوه ورسوه فى بئر أى دسوه فيها وسادسها عن على عليه السلام انهم كانوا قوما يعبدون شجرة الصنوبر وانما سموا بأصحاب الرس لانهم رسوا نبيهم فى الارض وسابعها أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى اليهم نبيا من ولد يهوذا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمنا فشكى الى الله تعالى منهم فحفروا بئرا ورسوه فيها وقالوا نرجو أن يرضى عنا الهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون انين نبيهم يقول الهى وسيدى ترى ضيق مكانى وشدة كربى وضعف قلبى وقلة حيلتى فعجل قبض روحى حتى مات فارسل الله تعالى ريحا عاصفة شديدة الحرة فصارت الارض من تحتهم حجر كبريت متوقد وأظلتهم سحابة سودا فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص وثامنها روى ابن جرير عن الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله بعث نبيا الى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد الا عبد أسود ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئرا فالقوه فيها ثم أطبقوا عليه حجرا ضخما وكان ذلك العبد يحتطب فيشترى له طعاما وشرابا ويرفع الصخرة ويدليه اليه فكان ذلك ما شاء الله فاحتطب يوما فلما أراد أن يحملها وجد نوما فاضطجع فضرب الله على اذنه سبع سنين نائما ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين أخرى ثم هب فحمل حزمته فظن انه نام ساعة من نهار فجاء الى القرية فباع حزمته واشترى طعاما وشرابا وذهب الى الحفرة فلم يجد أحدا وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه وكان ذلك النبى يسألهم عن الاسود فيقولون لا ندرى له حتى قبض الله النبى وقبض ذلك الاسود فقال عليه السلام ان ذلك الاسود لاول من يدخل الجنة (واعلم) أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيئا من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن ولا بخبر قوى الاسناد ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم انهم أهلكوا بسبب كفرهم (المسئلة الخامسة) قال النخعى القرن أربعون سنة وقال على عليه السلام

للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض بينى وبينه وقيل هو من هجر اذا هذى أى جعلوه مهجورا فيه اما على زعمهم الباطل واما بان هجروا فيه اذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد جوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجرا وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا شكوا الى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الاباطيل جعلنا لكل نبى من الانبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة اليها عدوا من مجرمى قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى (وكفى بربك هاديا ونصيرا) وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بالهداية الى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أى كفاك مالك أمرك ومبلغك الى الكمال هاديا لك الى ما يوصلك الى غاية الغايات التى من جملتها تبليغ الكتاب أجله واجراء أحكامه فى أكناف الدنيا الى يوم القيامة ونصيرا لك على

جميع من يعاديك (وقال الذين كفروا) حكاية لاقتراحهم الخاص بالقرآن الكريم بعد حكاية اقتراحهم فى حقه

بل سبعون سنة وقيل مائة وعشرون: (المسئلة السادسة) قوله بين ذلك اى بين ذلك المذكور وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود أما قوله وكلا ضربنا له الامثال فالمراد بيناالهم وازحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيرا ويحتمل وكلا ضربنا له الامثال بان أجبناهم عما أوردوه من الشبه فى تكذيب الرسل كما أورده قومك يا محمد فلما لم ينجع فيهم تبرناهم تتبيرا فحذر تعالى بذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم فى الاستقرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذى نزل بالقوم عاجلا وآجلا (المسئلة السابعة) كلا الاول منصوب بما دل عليه ضربنا له الامثال وهو انذرنا أو حذرنا والثانى بتبرنا لانه فارغ له (المسئلة الثامنة) التتبير التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج التصسة الرابعة ۞ قوله تعالى (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا) واعلم انه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمسا أهلك الله تعالى أربعا باهلها وبقيت واحدة ومطر السوء الحجارة يعنى ان قريشا مروا مرارا كثيرة فى متاجرهم الى الشأم على تلك القرية التى أهلكت بالحجارة من السماء أفلم يكونوا فى مرورهم ينظرون الى آثار عذاب الله تعالى ونكاله بل كانوا قوما كفرة لا يرجون نشورا وذكروا فى تفسير يرجون وجوها أحدها وهو الذى قاله القاضى وهو الاقوى انه محمول على حقيقة الرجاء لان الانسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال الا لرجاء ثواب الآخرة فاذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب وثانيها معناه لا يتوقعون نشورا فوضع الرجاء موضع التوقع لانه انما يتوقع العاقبة من يؤمن وثالثها معناه لا يخافون على اللغة التهامية وهو ضعيف والاول هو الحق ۞ قوله تعالى (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ارأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) اعلم انه سبحانه لما بين مبالغة المشركين فى انكار نبوته وفى ايراد الشبهات فى ذلك بين بعد ذلك انهم اذا رأوا الرسول اتخذوه هزوا فلم يقتصروا على ترك الايمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ويقول بعضهم لبعض أهذا الذى بعث الله رسولا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان الاولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينهما (المسئلة الثانية) جواب اذا هو ما اضمر من القول يعنى واذا رأوك مستهزئين قالوا أبعث الله هذا رسولا وقوله ان يتخذونك جملة اعترضت بين اذا وجوابها (المسئلة الثالثة) اتخذوه هزوا فى معنى استهزؤا به والاصل اتخذوه موضع هزء او مهزوأ به (المسئلة الرابعة) اعلم أن الله

عليه الصلاة والسلام والقائلون هم القائلون أولا وايرادهم بعنوان الكفر لذمهم به والاشعار بعلة الحكم (لولا نزل عليه القرآن) التنزيل ههنا مجرد عن معنى التدريج كما فى قوله تعالى يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ويجوز أن يراد به الدلالة على كثرة المنزل فى نفسه أى هلا أنزل كله (جملة واحدة) كالكتب الثلاثة وبطلان هذه الكلمة الحمقاء مما لا يكاد يخفى على أحد فان الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى اعجازها وأما القرآن الكريم فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقى على مر الدهور المتحقق فى كل جزء من أجزائه المقدرة بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدى ولا ريب فى أن مايدور عليه فلك الاعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الاحوال ومن ضرورة تغيرها وتجددها تغير ما يطابقها حتما على أن فيه فوائد جمة قد أشير الى بعض منها بقوله تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك) فانه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة وبيان الحكمة فى التنزيل التدريجى ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر مؤكد لفعل مضمر معلل بما بعده وذلك اشارة الى ما يفهم من كلامهم أى مثل ذلك التنزيل المفرق الذى قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه لا تنزيلا تعالى

مغايرا له لنقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك فان فيه تيسير الحفظ النظم وفهم المعانى وضبط الاحكام والوقوف على

تعالى أخبر عن المشركين انهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الافعال أحدهما انهم يستهزؤن به وفسر ذلك الاستهزاء بقوله أهذا الذى بعث الله رسولا وذلك جهل عظيم لان الاستهزاء اما ان يقع بصورته أو بصفته أما الاول فباطل لانه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخلقة وبتقدير انه لم يكن كذلك لكنه عليه السلام ما كان يدعى التميز عنهم بالصورة بل بالحجة وأما الثانى فباطل لانه عليه السلام ادعى التميز عنهم فى ظهور المعجز عليه دونهم وانهم ما قدروا على القدح فى حجته ودلالته ففى الحقيقة هم الذين يستحقون ان يهزأ بهم ثم انهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام وذلك يدل على انه ليس للمبطل فى كل الاوقات الا السفاهة والوقاحة وثانيهما انهم كانوا يقولون فيه ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وذلك يدل على أمور (الاول) انهم سموا ذلك اضلالا وذلك يدل على انهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم وفى استعظام صنيعه صلى الله عليه وسلم فى صرفهم عنه وذلك يدل على انهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق فى هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف فى انه لا يكفر الا من يعرف الدلائل لانهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى الى الكفر والضلال وقولهم لولا ان صبرنا عليها يدل أيضا على ذلك (الثانى) يدل هذا القول منهم على جد الرسول عليه السلام واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الاوثان ولولا ذلك لما قالوا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وهكذا كان عليه السلام فانه فى أول الامر بالغ فى ايراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الادب (الثالث) أن هذا يدل على اعتراف القوم بانهم لم يعترضوا البتة على دلائل الرسول صلى الله عليه وسلم وما عارضوها الا بمحض الجحود والتقليد لان قولهم لولا ان صبرنا عليها اشارة الى الجحود والتقليد ولو ذكروا اعتراضا على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والاصرار الذى هو دأب الجهال وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام وانه ما كان فى أيديهم الا مجرد الوقاحة (الرابع) الآية تدل على أن القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين لانهم استهزؤا به أولا ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والاصرار فهذا الكلام الاخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الاول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق الا بالجاهل العاجز فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على انهم كانوا كالمتحيرين فى أمره فتارة بالوقاحة يستهزؤن منه وتارة يصفونه بما لا يليق الا بالعالم الكامل ثم انه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم فى ذلك من ثلاثة أوجه (أولها) قوله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا لانهم لما وصفوه بالاضلال فى قولهم ان كاد ليضلنا بين تعالى انه سيظهر لهم من المضل ومن الضال عند مشاهدة العذاب الذى لا مخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامى والاعراض عن الاستدلال والنظر

تفاصيل ما روعى فيها من الحكم والمصالح المبنية على المناسبة على أنها منوطة بأسبابها الداعية الى شرعها ابتداء أو تبديلا بالنسخ من أحوال المكلفين وكذلك عامة ما ورد فى القرآن المجيد من الاخبار وغيرها متعلقة بأمور حادثة من الاقاويل والافاعيل ومن قضية تجددها تجدد ما يتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية الى حكايتها وابطالها وبيان ما يؤل اليه حالهم فى الآخرة على أنهم فى هذا الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه حيث أمروا بالاتيان بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الارض بما رحبت فكيف لو تحدوا بكلمة وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره ومعنى ترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعى والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناه بيانا فيه ترتيل وتثبيت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلناه بعضه فى اثر بعض وقيل هو الامر بترتيل قراءته بقوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيأ فشيأ فى عشرين أو فى ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل (ولا يأتونك بمثل) من الامثال التى من جملتها ما حكى من اقتراحاتهم القبيحة

الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الامثال أى لايأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان يريدون به القدح فى حقك وحق القرآن (الاجئناك) فى مقابلته ٤٧٨ (بالحق) أى بالجواب الحق الثابت الذى ينحى عليه بالابطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الاجوبة الحقة القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية وقوله تعالى (وأحسن تفسيرا) عطف على الحق أى جئناك باحسن تفسيرا أو على محل بالحق أى آتيناك الحق وأحسن تفسيرا أى بيانا وتفصيلا على معنى أنه فى غاية ما يكون من الحسن فى حد ذاته لأن ما يأتون به له حسن فى الجملة وهذا أحسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب على الحالية أى لايأتونك بمثل الاحال ايتائنا اياك الحق الذى لامحيد عنه وفيه من الدلالة على المسارعة الى ابطال ما أتوا به وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام ما لايخفى وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الاسئلة وبصحة جميع الاجوبة وباشارته منبئ عن بطلان السؤال الاخير وصحة جوابه اذ لولا أن تنزيل القرآن على التدريج لما أمكن ابطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام من تلك الحيثية هذا وقد جوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التى كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من مقارنة الملك والاستغناء عن الاكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لايأتونك بحال عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة الا أعطيناك نحن لسوء

(وثانيها) قوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا والمعنى انه سبحانه بين ان بلوغ هؤلاء فى جهالتهم واعراضهم عن الدلائل انما كان لاستيلاء التقليد عليهم وانهم اتخذوا أهواءهم آلهة فكل مادعاهم الهوى اليه انقادوا له سواء منع الدليل منه أو لم يمنع ثم ههنا ابحاث (الاول) قوله أرأيت كلمة تصلح للاعلام والسؤال وههنا هى تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته (الثانى) قوله اتخذ الهه هواه معناه اتخذ الهه ما يهواه أو الها يهواه وقيل هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه الهه وهذا ضعيف لان قوله اتخذ الهه هواه يفيد الحصر أى لم يتخذ لنفسه الها الاهواه وهذا المعنى لايحصل عند القلب قال ابن عباس الهوى اله يعبد وقال سعيد بن جبير كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فاذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده (الثالث) قوله أفأنت تكون عليه وكيلا أى حافظا تحفظه من اتباع هواه أى لست كذلك (الرابع) نظير هذه الآية قوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله وما أنت عليهم بجبار وقوله لا اكراه فى الدين قال الكلبى نسختها آية القتال (وثالثها) قوله أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون أم ههنا منقطعة معناه بل تحسب وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حتى حقت بالاضراب عنها اليها وهى كونهم مسلوبى الاسماع والعقول لانهم لشدة عنادهم لايصغون الى الكلام واذا سمعوه لايتفكرون فيه فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع البتة فعند ذلك شبههم بالانعام فى عدم انتفاعهم بالكلام وعدم اقدامهم على التدبر والتفكر واقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية واعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وهاهنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال أم تحسب أن أكثرهم فحكم بذلك على الاكثر دون الكل والجواب لانه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق الا انه ترك الاسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل (السؤال الثانى) لم جعلوا أضل من الانعام الجواب من وجوه (أحدها) ان الانعام تنقاد لاربابها وللذى يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن اليها وبين من يسىء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وهؤلاء لاينقادون لربهم ولايميزون بين احسانه اليهم وبين اساءة الشيطان اليهم الذى هو عدوهم ولايطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولايحترزون من العقاب الذى هو أعظم المضار (وثانيها) ان قلوب الانعام كما انها تكون خالية عن العلم فهى خالية عن الجهل الذى هو اعتقاد المعتقد على خلاف ماهو عليه مع التصميم واما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فانهم لايعلمون ولايعلمون انهم لايعلمون بل هم مصرون على انهم يعلمون (وثالثها) أن عدم علم الانعام لايضر باحد أما جهل هؤلاء فانه منشأ للضرر العظيم لانهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا (ورابعها) أن الانعام لاتعرف شيأ ولكنهم عاجزون عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فانهم ليسوا عاجزين عن الطلب والمحروم عن طلب المراتب العالية اذا عجز عنه لايكون فى استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له

من الاحوال الممكنة ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن نعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذى أنت عليه فى الذات والصفات وبإياه الاستثناء المذكور فان المتبادر ٤٧٩ منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحق مترتبا على ما أتوا به من الاباطيل دافعا لها ولاريب فى أن ما آتاه الله تعالى من الملكات السنية اللائقة بالرسالة قد آتاه من أول الامر لا لمقابلة ما حكى عنهم من الاقتراحات لاجل دمغها وابطالها (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم) أى يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها ويجرون الى جهنم وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وأرجلهم الى فوق روى عنه عليه الصلاة والسلام يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا وأما ما قيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم اليها فبعيد لان هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلق بالسفليات أو توجه اليها فى الجملة ومحل الموصول اما النصب أو الرفع على الذم أو الرفع على الابتداء وقوله تعالى (أولئك) بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (شر مكانا وأضل سبيلا) خبره أو اسم الاشارة مبتدأ ثان وشر خبره والجملة خبر للموصول ووصف السبيل بالضلال من باب الاسناد المجازى للمبالغة والمفضل عليه الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه كأنه قيل ان حاملهم على هذه الاقتراحات تحقير مكانه عليه الصلاة والسلام وتضليل

الى خيباره (وخامسها) أن البهائم لاتستحق عقابا على عدم العلم أما هؤلاء فانهم يستحقون عليه أعظم العقاب (وسادسها) أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ما قال وان من شىء الا يسبح بحمده وقال ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات الى قوله والدواب وقال والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه واذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الانعام (السؤال الثالث) انه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث الرسول اليهم فان من شرط التكليف العقل (الجواب) ليس المراد انهم لايعقلون بل انهم لاينتفعون بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت أعمى وأصم ❁ قوله تعالى (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وهو الذى ارسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) اعلم انه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم فى ذلك ذكر بعده أنواعا من الدلائل الدالة على وجود الصانع (النوع الاول) الاستدلال بحال الظل فى زيادته ونقصانه وتغيره من حال الى حال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ألم تر فيه وجهان أحدهما انه من رؤية العين والثانى انه من رؤية القلب بمعنى العلم فان حملناه على رؤية العين فالمعنى ألم تر الى الظل كيف مده ربك وان كان تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وان حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل اذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى فى تمديده غير مرئى بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث ان كل متغير جائز وكل جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه (المسئلة الثانية) المخاطب بهذا الخطاب وان كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام فى المعنى لان المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل وجميع المكلفين مشتركون فى انه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع (المسئلة الثالثة) الناس أكثروا فى تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع الى وجهين الاول ان الظل هو الامر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية فاذن أطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال وظل ممدود واذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه بين انه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم ان الناظر الى الجسم الملون وقت الظل كأنه لايشاهد شيأ سوى الجسم وسوى اللون

سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكانا وأضل سبيلا وقيل هو متصل بقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (ولقد آتينا موسى الكتاب) جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر في قوله تعالى وكفى بربك هاديا ونصيرا بحكاية ما جرى بين من ذكر من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبين قومهم حكاية اجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب لقسم محذوف أي وبالله لقد آتينا موسى التوراة أي أنزلناها عليه بالآخرة (وجعلنا معه) الظرف متعلق بجعلنا وقوله تعالى (أخاه) مفعول أول له وقوله تعالى (هرون) بدل من أخاه أو عطف بيان له على عكس ما وقع في سورة طه وقوله تعالى (وزيرا) مفعول ثان له وقد مرّ تحقيق معنى الوزير أي جعلناه في أول الامر وزيرا له (فقلنا) لهما حينئذ (اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا) هم فرعون وقومه والآيات هي المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدي موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند ارسالهما اليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن اظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الامر به بل انما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أي فذهبا اليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا (فدمرناهم) اثر ذلك التكذيب المستمر (تدميرا) عجيبا هائلا لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود وجل

ونقول الظل ليس أمرا ثابتا ولا يعرف ولا يعرف به الا انه اذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الاجرام لما عرف ان للظل وجودا وماهية لان الاشياء انما تعرف بأضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه سبحانه وتعالى لما أطلع الشمس على الارض وزال الظل فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أي خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع واللذات ثم انا هدينا العقول الى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه أي ازلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فان كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الاظلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا ولان قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه أنواع مصالح العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام هذا أحد التأويلين (التأويل الثاني) وهو انه سبحانه وتعالى لما خلق الارض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الارض ثم انه سبحانه خلق الشمس دليلا عليه وذلك لان بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر وكما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل ويلازمه فكذا الاظلال كأنها مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها واما قوله ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا فاما ان يكون المراد منه انتهاء الاظلال يسيرا يسيرا الى غاية نقصاناتها فسمى ازالة الاظلال قبضا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض اسبابها وهي الاجرام التي تلقي الاظلال وقوله يسيرا هو كقوله ذلك حشر علينا يسير فهذا هو التأويل الملخص (المسئلة الرابعة) وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للاحياء والعقلاء وأما حصول الضوء الخالص أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع فحصول ذلك الظل اما ان يكون من الواجبات أو من الجائزات والاول باطل والا لما تطرق التغيير اليه لان الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات فلا بد له في وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع وماذاك الا من يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالى فان قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه ان يضيء فكيف استدل بالامر العدمي على ذاته وكيف عده من النعم قلنا الظل ليس عدما محضا بل هو اضواء مخلوطة بظلم والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثاني وهو أمر وجودي وفي تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه الى كتب العقلية (النوع الثاني) قوله تعالى وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل

قوله تعالى فدمرناهم على معنى فحكمنا بتدميرهم مع كونه تعسفا ظاهرا مما لا وجه له اذ لا فائدة يعتد بها في حكاية الحكم بتدمير قد وقع وانقضى والتعرض في مطلع القصة لايتاء الكتاب مع أنه كان بعد مهلك القوم ولم يكن له مدخل في هلاكهم كسائر الآيات للايذان من أول الامر ببلوغه عليه الصلاة والسلام غاية الكمال ونيله نهاية الآمال التي هي انجاء بني اسرائيل من ملكة فرعون وارشادهم الى طريق الحق بما في التوراة من الاحكام اذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذي مر بيانه وقرئ فدمرتهم وفدمراهم وفدمرانهم على التأكيد بالنون الثقيلة (وقوم نوح) منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى فدمرناهم أي ودمرنا قوم نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ما قبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لا سيما وقد بين سببه بقوله تعالى (لما كذبوا الرسل) أي نوحا ومن قبله من الرسل أو نوحا وحده لان تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والاسلام وقيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أغرقناهم) وانما يتسنى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان وأما على تقدير كونها حرف وجود لوجود فلا لانه حينئذ جواب لها وجواب لما لا يفسر ما قبله مع أنه مخل بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما أن اهلاكهم ليس بالاغراق فالوجه ما تقدم وقوله تعالى

النهار نشورا اعلم انه تعالى شبه الليل من حيث انه يستر الكل ويغطي باللباس الساتر للبدن ونبه على ما لنا فيه من النفع بقوله والنوم سباتا والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتا لانه سبب للراحة قال أبو مسلم السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه ويقال للعليل اذا استراح من تعب العلة مسبوت وقال صاحب الكشاف السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة قال وهذا كقوله وهو الذي يتوفاكم بالليل وانما قلنا ان تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة لان النشور في مقابلته يأباه قال أبو مسلم وجعل النهار نشورا هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الانسان وفاة فقال الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها كذلك وفق بين القيام من النوم والقيام من الموت في التسمية بالنشور وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها اظهار لنعمه على خلقه لان الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة وعن لقمان أنه قال لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر (النوع الثالث) قوله وهو الذي أرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته وقد تقدم تفسيره في سورة الاعراف ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الريح والرياح قال الزجاج وفي نشرا خمسة أوجه بفتح النون وبضمها وبضم النون والشين وبالباء الموحدة مع ألف المؤنث وبشرا بالتنوين قال أبو مسلم من قرأ بشرا أراد جمع بشير مثل قوله تعالى ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات واما بالنون فهو في معنى قوله والناشرات نشرا وهي الرياح والرحمة الغيث والماء والمطر (المسئلة الثانية) قوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا نص في انه تعالى ينزل الماء من السماء لا من السحاب وقول من يقول السحاب سماء ضعيف لان ذلك بحسب الاشتقاق واما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر (المسئلة الثالثة) اختلفوا في ان الطهور ما هو قال كثير من العلماء الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به والسحور ما يتسحر به وهو مروي أيضا عن ثعلب وأنكر صاحب الكشاف ذلك وقال ليس فعول من التفعيل في شيء والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك ماء طهور كقولك طاهر والاسم قولك طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به النار حجة القول الاول قوله عليه السلام التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام وكذا قوله عليه السلام طهور اناء أحدكم اذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعا ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر اناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام ولانه تعالى قال وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فبين أن المقصود من الماء انما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهورا انه هو المطهر به لانه تعالى ذكره في معرض الانعام فوجب حمله على الوصف الاكمل ولا شك أن المطهر أكمل من الطاهر (المسئلة الرابعة)

 أغرقناهم استئناف مبين لكيفية تدميرهم (وجعلناهم) أي جعلنا اغراقهم أو قصتهم (للناس آية) أي آية عظيمة

يعتبر بها كل من شاهدها أو سمعها وهي مفعول ثان لجعلنا وللناس ظرف لغوله أو متعلق بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر عنها لكان صفة لها (وأعتدنا للظالمين) ٤٨٢ أى لهم والاظهار فى موقع الاضمار للايذان بتجاوزهم الحد فى الكفر

والتكذيب (عذابا أليما) هو عذاب الآخرة اذ لا فائدة فى الاخبار باعتاد العذاب الذى قد أخبر بوقوعه من قبل أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل فى زمرتهم قريش دخولا أوليا ويحتمل العذاب الدنيوى والاخروى (وعادا) عطف على قوم نوح وقيل على المفعول الاول لجعلناهم وقيل على محل الظالمين اذ هو فى معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيد (وثمود) الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرئ وثمودا على تأويل الحى أو على أنه اسم الاب الاقصى (وأصحاب الرس) هم قوم يعبدون الاصنام فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس وهى البئر التى لم تطو بعد اذ انهارت فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث اليهم نبى فقتلوه فهلكوا وقيل هو الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبى عليه السلام ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ أو دمخ فتنقض على صبيانهم فتخطفهم ان أعوزها

الصيد ولذلك سميت مغربا فدعا عليها حنظلة عليه السلام فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوه عليه السلام فاهلكوا انه

اعلم ان الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين أحدهما ما يتعلق بالنبات والثانى ما يتعلق بالحيوان اما أمر النبات فقوله لنحيى به بلدة ميتا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم قال لنحيى به بلدة ميتا ولم يقل ميتة (الجواب) لان البلدة فى معنى البلد فى قوله فسقناه الى بلد ميت (السؤال الثانى) ما المراد من حياة البلد وموتها (الجواب) الناس يسمون ما لا عمارة فيه من الارض مواتا وسقيها المقتضى لعمارتها احياء لها (السؤال الثالث) ان جماعة الطبائعيين وكذا الكعبى من المعتزلة قالوا ان بطبع الارض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى لنحيى به بلدة ميتا فان الباء فى به تقتضى أن للماء تأثيرا فى ذلك (الجواب) الظاهر وان دل عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع واما أمر الحيوان فقوله سبحانه ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم خص الانسان والانعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء (الجواب) لان الطير والوحش تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام لانها قنية الاناسى وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقى انعامهم كالانعام عليهم بسقيهم (السؤال الثانى) ما معنى تنكير الانعام والاناسى ووصفهما بالكثرة (الجواب) معناه ان أكثر الناس يجتمعون فى البلاد القريبة من الاودية والانهار ومناقع المياه فهم فى غنية فى شرب الماء عن المطر وكثير منهم نازلون فى البوادى فلا يجدون المياه للشرب الا عند نزول المطر وذلك قوله لنحيى به بلدة ميتا يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل فى كثيرا أن يرجع الى قوله ونسقيه لان الحى يحتاج الى الماء حالا بعد حال وهو مخالف للنبات الذى يكفيه من الماء قدر معين حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان الى الضرر أقرب والحيوان يحتاج اليه حالا بعد حال ما دام حيا (السؤال الثالث) لم قدم احياء الارض وسقى الانعام على سقى الاناسى (الجواب) لان حياة الاناسى بحياة أرضهم وحياة أنعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم لانهم اذا ظفروا بما يكون سقيا لارضهم ومواشيهم فقد ظفروا أيضا بسقياهم وأيضا فقوله تعالى ولقد صرفناه بينهم يعنى صرف المطر كل سنة الى جانب آخر واذا كان كذلك فلا يسقى الكل منه بل يسقى كل سنة أناسى كثيرا منه (السؤال الرابع) ما الاناسى الجواب قال الفراء والزجاج الانسى والاناسى كالكرسى والكراسى ولم يقل كثيرين لانه قد جاء فعيل مفردا ويراد به الكثرة كقوله وقرونا بين ذلك كثيرا وحسن أولئك رفيقا واعلم ان الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ونحن نشير الى معاقد تلك المسائل فنقول ههنا نظران أحدهما ان الماء مطهر والثانى ان غير الماء هل هو مطهر أم لا (النظر الاول) ان نقول الماء اما أن لا يتغير أو يتغير القسم الاول وهو الذى لا يتغير فهو طاهر فى ذاته مطهر لغيره الا الماء المستعمل فانه عند الشافعى طاهر وليس بمطهر وقال مالك والثورى يجوز الوضوء به وقال أبو حنيفة فى رواية أبي يوسف

وقيل قوم كذبوا رسولهم فرسوه اى دسوه فى بئر (وقرونا) أى أهل قرون قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة وعشرون (بين ذلك) أى بين ذلك المذكور من الطوائف والامم ٤٨٣ وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها

بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على ذلك المذكور وذلك المحسوب (كثيرا) لا يعلم مقدارها الا العليم الخبير ولعل الاكتفاء فى شؤون تلك القرون بهذا البيان الاجمالى لما أن كل قرن منها لم يكن فى الشهرة وغرابة القصة بمثابة الامم المذكورة (وكلا) منصوب بمضمر يدل عليه ما بعده فان ضرب المثل فى معنى التذكير والتحذير والمحذوف الذى عوض عنه التنوين عبارة اما عن الامم التى لم يذكر أسباب هلاكهم واما عن الكل فان ما حكى عن قوم نوح وقوم فرعون تكذيبهم للآيات والرسل لا عدم التأثر من الامثال المضروبة أى ذكرنا وأنذرنا كل واحد من المذكورين (ضربنا له الامثال) أى بينا له القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصى بواسطة الرسل (وكلا) أى كل واحد منهم لا بعضهم دون بعض (تبرنا تتبيرا) عجيبا هائلا لما أنهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له رأسا وتمادوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان وأصل التتبير التفتيت قال الزجاج كل شئ كسرته وفتتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة (ولقد أتوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان

مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الامم المتبرة وعدم اتعاظهم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها أى وبالله لقد أتى قريش

انه نجس فهههنا مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان انه ليس بمطهر ودليلنا قوله عليه السلام لا يغتسل أحدكم فى الماء الدائم وهو جنب ولو بقى الماء كما كان طاهرا مطهرا لما كان للمنع منه معنى ومن وجه القياس ان الصحابة كانوا يتوضؤن فى الاسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك الى الماء ولو كان ذلك الماء مطهرا لجاءوه ليوم الحاجة واحتج مالك بالآية والخبر والقياس اما الآية فمن وجهين (الاول) قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وقوله وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فدلت الآية على حصول وصف المطهرية للماء والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملا وأيضا قوله طهورا يقتضى جواز التطهر به مرة بعد أخرى (والثانى) انه أمر بالغسل مطلقا فى قوله فاغسلوا واستعمال كل المائعات غسل لانه لا معنى للغسل الا امرار الماء على العضو قال الشاعر

• فيا حسنها اذ يغسل الدمع كحلها •

فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل فوجب أن يكون مجزئا له لانه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة (وأما السنة) فما روى انه عليه السلام توضأ فمسح رأسه بفضل ما فى يده وعنه عليه السلام أنه توضأ فأخذ من بلل لحيته فمسح به رأسه وعن ابن عباس انه عليه السلام اغتسل فرأى لمعة فى جسده لم يصبها الماء فأخذ شعرة عليها بلل فأمرها على تلك اللمعة (وأما القياس) فانه ماء طاهر لقى جسدا طاهرا فأشبه ما اذا لقى حجارة أو حديدا وكذا الماء المستعمل فى الكرة الرابعة والمستعمل فى التبرد والتنظف ولانه لا خلاف انه اذا وضع الماء على أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع ثم نزل ذلك الماء بعينه الى بقية الوجه فانه يجزيه مع أن ذلك الماء صار مستعملا فى أعلى الوجه (المسئلة الثانية) الدليل على أن الماء المستعمل طاهر قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ومن السنة انه عليه السلام أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه وقال خلق الماء طهورا لا ينجسه شئ الا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه وقال الشافعى انه عليه السلام توضأ ولا شك انه أصابه ما تساقط منه ولم ينقل انه غسل ثوبه ولا انه غسله ولا أحد من المسلمين فعل ذلك فثبت انهم أجمعوا على انه ليس بنجس ولانه ماء طاهر لقى جسما طاهرا فأشبه ما اذا لاقى حجارة (المسئلة الثالثة) الماء المستعمل اما ان يكون مستعملا فى اعضاء الوضوء أو فى غسل الثياب أما المستعمل فى اعضاء الوضوء فاما أن يكون مستعملا فيما كان فرضا وعبادة أو فيما كان فرضا ولا يكون عبادة أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضا أو فيما لا يكون فرضا ولا عبادة أما القسم الاول وهو المستعمل فيما كان فرضا وعبادة فهو غير مطهر باتفاق أصحاب الشافعى وأما القسم الثانى فهو كالماء الذى استعملته الذمية التى تحت الزوج المسلم أى فى غسل حيضها ليحل للزوج غشيانها وأما القسم الثالث فهو كالماء المستعمل فى الكرة الثانية والثالثة والماء المستعمل فى تجديد الوضوء والماء المستعمل

فى متاجرهـم الى الشام (على القرية التى أمطرت) أى أهلكت بالحجارة وهى قرى قوم لوط وكانت خمس قرى مانجت منها الا واحدة كان أهلها لايعملون العمل الخبيث وأما البواقى فاهلكها الله تعالى بالحجارة وهى المرادة بقوله تعالى

(مطر السوء) وانتصابه اما على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل فى أنبته الله تعالى نباتا حسنا أى امطار السوء أو على أنه مفعول ثان اذ المعنى أعطيت أو أوليت مطر السوء (أفلم يكونوا يرونها) توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة مايوجبه والهمزة لانكار نفى استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار مايوجبها من اتيانهم عليها لالانكار استمرار نفى رؤيتهم وتقرير رؤيتهم اياها والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يكونوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها أو أكانوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها فى مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر فى الاول ترك النظر وعدم الرؤية معا وفى الثانى عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى (بل كانوا لايرجون نشورا) اما اضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ماجرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب انكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لالعدم رؤيتهم لآثارها خلا أنه اكتفى عن التصريح بانكارهم ذلك بذكر مايستلزمه من انكارهم للجزاء الاخروى الذى هو الغاية من خلق العالم وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور أى عدم توقعه كأنه قيل بل كانوا احدها

فى الاغسال المسنونة فلاصحاب الشافعى فى هذين القسمين وجهان وأما القسم الرابع فهو كالماء المستعمل فى الكرة الرابعة وفى التبرد والتنظف فذاك باتفاق أصحاب الشافعى غير مستعمل وهو طاهر مطهر اما الماء المستعمل فى غسل الثياب فاذا غسل ثوبا من نجاسة وطهر بغسلة واحدة يستحب أن يغسله ثلاثا فالمنفصل فى الكرة الثانية والثالثة مطهر على الاصح (القسم الثانى) الماء الذى يتغير فنقول الماء اذا تغير فاما أن يتغير بنفسه أو بغيره أما الاول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به لانه عليه السلام كان يتوضأ من بئر قضاعة وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء وأما المتغير بسبب غيره فذلك الغير اما أن لايكون متصلا به أو يكون متصلا به اما الذى لايكون متصلا به فهو كالووقع بقرب الماء جيفة فصار الماء منتنا بسببها فهو أيضا مطهر وأما اذا تغير بسبب شئ متصل به فذلك المتصل اما أن يكون طاهرا أو نجسا (القسم الاول) اذا كان طاهرا فهو اما أن لايخالطه أو يخالطه فان لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا أيضا مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة ولان الطهورية ثبتت بقوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا والاصل فى الثابت بقاؤه وأما المتغير بسبب شئ يخالطه فذلك المخالط اما أن لايمكن صون الماء عنه أو يمكن اما الذى لايمكن فكالمتغير بالتراب والحمأة والاوراق التى تقع فيه والطحلب الذى يتولد فيه وهذا أيضا مطهر لان الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسر فيكون مرفوعا لقوله ماجعل عليكم فى الدين من حرج وكذا لوجرى الماء فى طريقه على معدن زرنيخ أونورة أوكحل أووقع شئ منها فيه أونبع من معادنها اما اذا تغير الماء بسبب مخالطة مايستغنى الماء عن جنسه نظران كان التغير قليلا بحيث لايضاف الماء اليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلا أودقيق فابيض قليلا جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب لانه لم يسلبه اطلاق اسم الماء وامان كان التغير كثيرا فان استحدث اسما جديدا كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق وان لم يستحدث اسما جديدا فعند الشافعى لايجوز الوضوء به وعند أبى حنيفة يجوز (حجة الشافعى) من وجوه أحدها انه عليه السلام توضأ ثم قال هذا وضوء لايقبل الله الصلاة الا به فذلك الوضوء ان كان واقعا بالماء المتغير وجب أن لايجوز الا به وبالاتفاق ليس الامر كذلك فثبت انه كان بماء غير متغير وهو المطلوب (وثانيها) انه اذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الانسان به فيحتمل أن بعض الاعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء واذا كان كذلك فقد وقع الشك فى حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائما والشك لايعارض اليقين فوجب أن يبقى على الحدث بخلاف ما اذا كان قليلا لايظهر أثره فانه صار كالمعدوم اما اذا ظهر أثره علمنا انه باق فيتوجه ماذكرناه (وثالثها) ان الوضوء تعبد لايعقل معناه فانه لو توضأ بماء الورد لايصح وضوءه ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوءه ومالايعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس (حجة أبى حنيفة) وجوه

ينكرون النشور المستتبع للجزاء الاخروى ولايرون لنفس من النفوس نشورا أصلا مع تحققه حتما وشموله للناس عموما واطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصى حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وانما يحملونه على الاتفاق واما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر الى التوبيخ بما هو أعظم منه من عدم توقع النشور (واذا رأوك ان يتخذونك الاهزوا) أى ما يتخذونك الا مهزوأ به على معنى قصر معاملتهم معه عليه الصلاة والسلام على اتخاذهم اياه عليه الصلاة والسلام هزوا لاعلى معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل مايفعلون بك الا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ان أتبع الا مايوحى الى من سورة الانعام وقوله تعالى (أهذا الذى بعث الله رسولا) محكى بعد قول مضمر هو حال من فاعل يتخذونك أى يستهزئون بك قائلين أهذا الذى الخ والاشارة للاستحقار وابراز بعث الله رسولا فى معرض التسليم بجعله صلة للموصول الذى هو صفته عليه الصلاة والسلام مع كونهم فى غاية النكير لبعثه عليه الصلاة والسلام بطريق التهكم والاستهزاء والا لقالوا أبعث الله هذا رسولا أو أهذا الذى يزعم أنه بعثه الله رسولا (ان كاد) ان مخففة من ان وضمير الشان محذوف أى انه كاد (ليضلنا عن آلهتنا) أى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لاعن عبادتها فقط والعدول الى الاضلال لغاية

أحدها قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا دلت الآية على كون الماء مطهرا والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة (وثانيها) قوله تعالى فاغسلوا أمر بمطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقرير هذا الوجه فيما تقدم (وثالثها) قوله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا علق جواز التيمم بعدم وجدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء لان الماء المتغير ماء مع صفة التغير والموصوف موجود حال وجود الصفة فوجب أن لايجوز له التيمم (ورابعها) قوله عليه السلام فى البحر هو الطهور ماؤه ظاهره يقتضى جواز الطهارة به وان خالطه غيره لان النبى صلى الله عليه وسلم أطلق ذلك (وخامسها) انه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر الهرة وسؤر الحائض وان خالطه شئ من لعابهما (وسادسها) لاخلاف فى جواز الوضوء بماء المد والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين ومايكون فى الصحارى من الحشيش والنبات ومن أجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيرا الى السواد وأخرى الى الحمرة والصفرة فصار ذلك أصلا فى جميع ماخالط الماء اذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء (القسم الثانى) اذا كان المخالط للماء شيأ نجسا فمن الناس من زعم أن الماء لاينجس مالم يتغير بالنجاسة سواء كان قليلا أو كثيرا وهو قول الحسن البصرى والنخعى ومالك وداود واليه مال الشيخ الغزالى فى كتاب الاحياء وقال أبو بكر الرازى مذهب أصحابنا ان كل ماتيقنا فيه جزأ من النجاسة أوغلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولايختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجارى لان ماء البحر لووقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذى فيه النجاسة وكذلك الماء الجارى وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذى اذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر فانما هو كلام فى جهة تغليب الظن فى بلوغ النجاسة الواقعة فى أحد طرفيه الى الطرف الآخر وليس هو كلامنا فى أن بعض المياه الذى فيه النجاسة قد يجوز استعمالها وبعضها لايجوز استعماله هذا كله كلام أبى بكر (وأقول) من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبد الله بن عمر اذا كان الماء أربعين قلة لم ينجسه شئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحوض لايغتسل فيه جنب الا أن يكون فيه أربعون غربا وهو قول محمد بن كعب القرظى وقال مسروق وابن سيرين اذا كان الماء كثيرا لاينجسه شئ وقال سعيد بن جبير الماء الراكد لاينجسه شئ اذا كان قدر ثلاث قلال (وقال الشافعى) اذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه الا ماغير طعمه أوريحه أولونه وان كان أقل ينجس لظهور النجاسة فيه واعلم انه يمكن التمسك لنصرة قول مالك بوجوه أحدها قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ترك العمل به فى الماء الذى تغير لونه أوطعمه أوريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الاصل (وثانيها) قوله عليه السلام خلق الله الماء طهورا لاينجسه شئ الا ماغير طعمه أولونه أوريحه وهو نص فى الباب (وثالثها) قوله تعالى فاغسلوا وجوهكم والمتوضئ بهذا الماء قد غسل

ضلالهم بادعاه أن عبادتها طريق سوى (لولا أن صبرنا عليها) ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا في أمثال هذا
الكلام تجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما أشير اليه في قوله تعالى ولقد همت به الخ وهذا اعتراف منهم بأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة الى الحق واظهار المعجزات واقامة الحجج والبينات الى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم يروى أنه من قول أبي جهل (وسوف يعلمون) جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم وردّ لما ينبئ عنه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى الضلال في ضمن الاضلال أي سوف يعلمون البتة وان تراخى (حين يرون العذاب) الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم (من أضل سبيلا) وفيه مالا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى لايهملهم وان أمهلهم (أرأيت من اتخذ الهه هواه) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الاقوال والافعال وبيان مالهم من المصير والمآل وتنبيه على ان ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه والهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الاول للاعتناء به لانه الذي يدور عليه أمر التعجيب ومن توهم انهما على الترتيب بناء على تساويهما في التعريف فقد
زل منه أن المفعول الثاني في هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة أي أرأيت من جعل هواه الها لنفسه من غير أن ذلك

وجهه فيكون آتيا بما أمر به فيخرج عن العهدة (ورابعها) أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالبا على الآخر أن يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت في الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء وكون أحدهما غالبا على الآخر انما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهي الطعم أو اللون أو الريح فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكا فيها فلا جرم يغلب حكم النجاسة فاذا لم يظهر شئ من ذلك كان الغالب هو الماء وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة (وخامسها) ماروى عن عمر توضأ من جرة نصرانية مع أن نجاسة أواني النصارى معلومة بظن قريب من العلم وذلك يدل على أن عمر لم يعوّل الا على عدم التغير (وسادسها) أن تقدير الماء بمقدار معلوم لو كان معتبرا كالقلتين عند الشافعي وعشر في عشر عند أبي حنيفة رضي الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة لانه لاتكثر المياه هناك لا الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الى آخر عصر الصحابة لم ينقل انهم خاضوا في تقدير المياه بالمقادير المعينة ولا انهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والاماء الذين لايحترزون عن النجاسات (وسابعها) اصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاناء للهرة وعدم منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد أن كانوا يرون انها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لاتنزل الى الآبار (وثامنها) أن الشافعي نص على ان غسالة النجاسات طاهرة اذا لم تتغير ونجسة اذا تغيرت وأي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه وأي معنى لقول القائل ان قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع المخالطة (وتاسعها) انهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ولا خلاف ان مذهب الشافعي اذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وان كان قليلا وأي فرق بين الجاري والراكد وليت شعري الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان (وعاشرها) اذا وقع بول في قلتين ثم فرقتا فكل كوز يؤخذ منه فهو طاهر على قول الشافعي ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل فأي فرق بينه اذا وقع ذلك القليل في ذلك القدر من الماء ابتداء وبينه اذا وصل اليه عند اتصال غيره به (وحادي عشرها) أن الحمامات لم تزل في الاعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الايدي والاواني في ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بان الايدي الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبرا لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك الى حد التواتر لان الامر الذي تشتد حاجة الجمهور اليه يجب بلوغ نقله الى حد التواتر ولما لم يكن كذلك علمنا أنه غير معتبر (وثاني عشرها) أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا أن نحكم بنجاسة الماء ان كان في غاية الكثرة مثل ماء الاودية العظيمة والغدران الكبار فان

بلاحظه وبني عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية على معنى انظر اليه وتعجب منه وقوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) انكار واستبعاد لكونه عليه الصلاة والسلام حفيظا عليه يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده الى الحق طوعا أو كرها والفاء لترتيب الانكار على ماقبله من الحالة الموجبة له كأنه قيل أبعد ماشاهدت غلوّه في طاعة الهوى وعتوّه عن اتباع الهدى تقسره على الايمان شاء أو أبى وقوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) اضراب وانتقال عن الانكار المذكور الى انكار حسبانه عليه الصلاة والسلام لهم ممن يسمع أو يعقل حسبما ينبئ عنه جدّه عليه الصلاة والسلام في الدعوة واهتمامه بالارشاد والتذكير لكن لا على أنه لايقع كالاول بل على أنه لاينبغي أن يقع أي بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ماتتلو عليهم من الآيات حق السماع أو يعقلون مافي تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية الى المحاسن فتعتني بشأنهم وتطمع في ايمانهم وضمير أكثرهم لمن وجمعه باعتبار معناها كما أن الافراد في الضمائر الاول باعتبار لفظها وضمير الفعلين لا لأكثر لا لما أضيف هو اليه وقوله تعالى (ان هم الا كالانعام) الخ جملة مستأنفة
مسوقة لتقرير النكير وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة أي ماهم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات

ذلك بالاجماع باطل فلابد من التقدير بمقدار معين وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة فليس بعضها أولى من بعض فوجب التعارض والتساقط اما تقدير أبي حنيفة بعشر في عشر فمعلوم انه مجرد تحكم وأما تقدير الشافعي بالقلتين بناء على قوله عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا فضعيف أيضا لان الشافعي لماروى هذا الخبر قال أخبرني رجل فيكون الراوي مجهولا ويكون الحديث مرسلا وهو عنده ليس بحجة وأيضا زعم كثير من المحدثين انه موقوف على ابن عمر رضي الله عنه ولمناقضة الرواية لكنه احالة مجهول على مجهول لان القلة غير معلومة فانها تصلح للكوز والجرة ولكل ماتقل باليد وهو أيضا اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل سلمنا كون القلة معلومة لكن في متن الخبر اضطراب فانه روى اذا بلغ الماء قلتين وروى اذا بلغ قلة وروى أربعين قلة وروى اذا بلغ قلتين أو ثلاثا وروى اذا بلغ كوزين سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر لان قوله لم يحمل خبثا لايمكن اجراؤه على ظاهره فان الخبث اذا ورد عليه فقد حمله سلمنا امكان اجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعي وخبث حقيقي والاسم اذا دار بين المسمى اللغوي والمسمى الشرعي كان حمله على المسمى اللغوي أولى لان الاسم حقيقة في المسمى اللغوي مجاز في المسمى الشرعي دفعا للاشتراك والنقل واذا كان كذلك وجب حمله عليه والمسمى اللغوي للخبث المستقذر بالطبع قال عليه السلام مااستخبثته العرب فهو حرام اذا ثبت هذا فنقول معنى قوله لم يحمل خبثا أي لايصير مستقذرا طبعا ونحن نقول بموجبه لكن لم قلت انه لاينجس شرعا سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية لكن قوله لم يحمل خبثا أي يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثره به فيكون هذا دليلا على صيرورته نجسا لا على بقائه طاهرا (لايقال) الجواب عن هذه الاسئلة أن يقال ان الشافعي وان لم يذكر اسم الراوي في بعض المواضع فقد ذكره في سائر المواضع فخرج عن كونه مرسلا ولان سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوي قوله انه موقوف على ابن عمر قلنا لانسلم فان يحيى بن معين قال انه جيد الاسناد فقيل له ان ابن علية وقفه على ابن عمر فقال ان كان ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله القلة مجهولة قلنا لانسلم لان ابن جريج قال في روايته بقلال هجر ثم قال وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين وشيأ قوله في متنه اضطراب قلنا لانسلم لانا وأنتم توافقنا على أن سائر المقادير غير معتبرة فيبقى ماذكرناه معتبرا قوله انه متروك الظاهر قلنا اذا حملناه على الخبث الشرعي اندفع ذلك وذلك أولى لان حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى العقلي لاسيما وفي حمله على المعنى العقلي يلزم التعطيل قوله المراد أنه يضعف عن حمله قلنا صح في بعض الروايات أنه قال اذا كان الماء قلتين لم ينجس ولانه عليه السلام جعل القلتين شرطا لهذا الحكم والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ماذكروه لايبقى للقلتين فائدة (لانا نقول) لاشك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضي تخصيص عموم

قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وعموم قوله ولكن يريد ليطهركم وعموم قوله فاغسلوا وجوهكم وعموم قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لا ينجسه شئ وهذا المخصص لا بد وأن يكون بعيدا عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيأ ليس بحجة لان القلة كما انها مجهولة فكذا القربة مجهولة فانها قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة ولان الروايات أيضا مختلفة فتارة قال اذا بلغ الماء قلتين وتارة أربعين قلة وتارة كربين فاذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر هذا تمام الكلام في نصرة قول مالك واحتج من حكم بنجاسة الماء الذى تقع النجاسة فيه بوجوه (أولها) قوله تعالى ويحرم عليهم الخبائث والنجاسات من الخبائث وقال تعالى انما حرم عليكم الميتة والدم وقال في الخمر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ومر عليه السلام بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ان أحدهما كان لا يستبرئ من البول والآخر كان يمشى بالنميمة فحرم الله هذه الاشياء تحريما مطلقا ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء فوجب تحريم استعمال كل ما تيقن فيه جزء من النجاسة أكثر ما في الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء مطهرا يقتضى جواز الطهارة به ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التى ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر اذا اجتمعا فالغلبة للحاظر ألا ترى ان الجارية بين رجلين لو كان لاحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد ان جهة الحظر فيها أولى من جهة الاباحة وأنه غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا ههنا (وثانيها) قوله عليه السلام لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه من الجنابة ذكره على الاطلاق من غير فرق بين القليل والكثير (وثالثها) قوله عليه السلام اذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا قبل أن يدخلها الاناء فانه لا يدرى أين باتت يده فأمر بغسل اليد احتياطا من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء ومعلوم ان مثلها اذا دخلت الماء لم تغيره ولولا انها تفسده ما كان للامر بالاحتياط منها معنى (ورابعها) قوله عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا يدل بمفهومه على انه اذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث أجاب مالك عن الوجه الاول فقال لا نزاع في أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة اذا وقع في الماء لم يظهر فيه لونه ولا طعمه ولا رائحته فلم قلتم ان تلك النجاسة بقيت ولم لا يجوز أن يقال انها انقلبت عن صفتها وتقريره ما قدمناه وأما قوله عليه السلام لا يبولن أحدكم في الماء الدائم فلم قلتم ان هذا النهى ليس الا لما ذكرتموه بل لعل النهى انما كان لانه ربما شربه انسان وذلك مما ينفر طبعه عنه وليس الكلام في نفرة الطبع وأما قوله اذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا فقد أجمعنا على أن هذا الامر استحباب فالمرتب عليه كيف يكون أمر ايجاب ثم بتقدير أن يكون أمر ايجاب فلم قلتم انه لم يوجب ذلك الايجاب الا لما ذكرتموه وأما قوله

وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات الا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة (بل هم أضل) منها (سبيلا) لما أنها تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعهدها وتعرف من يحسن اليها ممن يسئ اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وتأوى الى معاطنها وهؤلاء لا ينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو أعدى عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى ولانها ان لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولان أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى الى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية الى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولانها غير معطلة لقوة من القوى المودعة بل صارفة اياها الى ما خلقت هى له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الاصلية التى فطر الناس عليها مستحقون بذلك أعظم العقاب وأشد

عليه

عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين فقد سبق الكلام عليه ثم بعد التنزل عن كل ما قلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التى ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم والله أعلم (النظر الثانى) فى ان غير الماء هل هو طهور أم لا فقال الاصم والاوزاعى يجوز الوضوء بجميع المائعات وقال أبو حنيفة يجوز الوضوء بنبيذ التمر فى السفر وقال أيضا تجوز ازالة النجاسة بجميع المائعات التى تزيل اعيان النجاسات وقال الشافعى رضى الله عنه الطهورية مختصة بالماء على الاطلاق ودليله فى صورة الحدث قوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا أوجب التيمم عند عدم الماء ولو جاز الوضوء بالخل أو نبيذ التمر لما وجب التيمم عند عدم الماء وأما فى صورة الخبث فلان الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهورا لانه لا معنى للطهور الا المطهر ولو كان طهورا لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه وكلمة حتى لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول فلو كان الخل طهورا لحصل باستعماله قبول الصلاة وحيث لم يحصل علمنا أن الطهورية فى الخبث أيضا مختصة بالماء ﴿ قوله تعالى ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنهم اختلفوا فى أن الهاء فى قوله ولقد صرفناه الى أى شئ يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو الذى عليه الجمهور انه يرجع الى المطر ثم من هؤلاء من قال معنى صرفناه أنا أجريناه فى الانهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وأنواع المعاش به وقال آخرون معناه انه سبحانه ينزله فى مكان دون مكان وفى عام دون عام ثم فى العام الثانى يقع بخلاف ما وقع فى العام الاول قال ابن عباس ما عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه فى الارض ثم قرأ هذه الآية وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عام بأمطر من عام ولكن اذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى القفار (وثانيها) وهو قول أبى مسلم أن قوله صرفناه راجع الى المطر والرياح والسحاب والاظلال وسائر ما ذكر الله تعالى من الادلة (وثالثها) ولقد صرفناه أى هذا القول بين الناس فى القرآن وسائر الكتب والصحف التى أنزلت على الرسل وهو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع والوجه الاول أقرب لانه أقرب المذكورات الى الضمير (المسئلة الثانية) قال الجبائى قوله تعالى ليذكروا يدل على أنه تعالى مريد من الكل أن يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك وذلك يبطل قول من قال ان الله تعالى مريد لكفر من يكفر قال ودل قوله فأبى أكثر الناس الا كفورا على قدرتهم على فعل هذا التذكر اذ لو لم يقدروا لما جاز أن يقال أبوا أن يفعلوه كما لا يقال فى الزمن أبى أن يسعى وقال الكعبى قوله ولقد صرفناه بينهم ليذكروا حجة

الشكال (ألم تر الى ربك) بيان لبعض دلائل التوحيد اثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه عليه الصلاة والسلام وللايذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى أى ألم تنظر الى بديع صنعه تعالى (كيف مد الظل) أى كيف أنشأ ظلا أى ظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا الا أنه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار الى غروبها فان ذلك مع خلوه عن التصريح بكون نفسه بانشائه تعالى واحداثه يأباه سياق النظم الكريم وأما ما قيل من أن المراد بالظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس وانه أطيب الاوقات فان الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف به الجنة فى قوله تعالى وظل ممدود ففيه بعيد اذ لا ريب فى أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلا بد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس وما ذكر وان كان فى الحقيقة ظلا للافق الشرقى لكنهم لا يعدونه ظلا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ولعل توجيه الرؤية اليه سبحانه وتعالى مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور

على ما يطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره معرفة شؤون الصانع المجيد وقوله تعالى (ولو شاء لجعله ساكنا) جملة
اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من أول الامر على أنه لا مدخل فيما ذكر من الظل للاسباب العادية وانما
المؤثر فيه المشيئة والقدرة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء أى ولو شاء سكونه لجعله ساكنا أى ثابتا على حاله من الطول والامتداد وانما عبر عن ذلك بالسكون لما أن مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الاوضاع بين المظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة وانتقالا وحاصله أنه لا يعتريه اختلاف حال بان لا تنسخه الشمس وأما التعليل بان يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فمداره الغفول عما سبق له النظم الكريم ونطق به صريحا من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الامور الحادثة اليه تعالى بالذات واسقاط الاسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لا بذكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كاقامة الشمس فى مقام واحد على أنها أعظم من ابقاء الظل على حاله فى الدلالة على ما ذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه من فروعها ومستتبعاتها فهى أولى وأحق بالايراد فى معرض البيان وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) عطف على مد داخل
فى حكمه أى جعلناها علامة يستدل بأحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعا

على من زعم أن القرآن وبال على الكافرين وأنه لم يرد بانزاله أن يؤمنوا لان قوله ليذكروا عام فى الكل وقوله فأبى أكثر الناس يقتضى أن يكون هذا الاكثر داخلا فى ذلك العام لانه لا يجوز أن يقال أنزلناه على قريش ليؤمنوا فأبى أكثر بنى تميم الا كفورا واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مرارا (المسئلة الثالثة) قوله فأبى أكثر الناس الا كفورا المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته واحسانه وقيل المراد من الكفور هو الكفر وذلك الكفر انما حصل لانهم يقولون مطرنا بنوء كذا لان من جحد كون النعم صادرة من المنعم وأضاف مثل هذه النعمة الى الافلاك والكواكب فقد كفر واعلم أن تحقيق أن من جعل الافلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الاشياء فلا شك فى كفره وأما من قال الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضى هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطؤه الى حد الكفر (المسئلة الرابعة) قالوا الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له لان كلمة لو دلت على أنه تعالى ما شاء أن يبعث فى كل قرية نذيرا ثم انه تعالى أخبر عن كونه قادرا على ذلك فدل ذلك على ان خلاف معلوم الله مقدور له * أما قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا فالاقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه (أحدها) كأنه تعالى بين له انه مع القدرة على بعثة رسول ونذير فى كل قرية خصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك أتبعه بقوله فلا تطع الكافرين أى لا توافقهم (وثانيها) المراد ولو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة الى كل العالمين ولبعثنا فى كل قرية نذيرا ولكنا قصرنا الامر عليك وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل فقابل هذا الاجلال بالتشدد فى الدين (وثالثها) ان الآية تقتضى مزج اللطف بالعنف لانها تدل على القدرة على أن يبعث فى كل قرية نذيرا مثل محمد وأنه لا حاجة بالحضرة الالهية الى محمد البتة وقوله ولو يدل على انه سبحانه لا يفعل ذلك فبالنظر الى الاول يحصل التأديب وبالنظر الى الثانى يحصل الاعزاز أما قوله فلا تطع الكافرين فالمراد نهيه عن طاعتهم ودلت هذه الآية على أن النهى عن الشىء لا يقتضى كون المنهى عنه مشتغلا به وأما قوله وجاهدهم به جهادا كبيرا فقال بعضهم المراد بذل الجهد فى الاداء والدعاء وقال بعضهم المراد القتال وقال آخرون كلاهما والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وانما قال جهادا كبيرا لانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة * قوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) اعلم أن هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله مرج البحرين أى خلاهما وأرسلهما يقال مرجت الدابة اذا خليتها ترعى وأصل المرج

الارسال

حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات الى نون العظمة لما فى الجعل المذكور العارى عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس
والظل من الدوران المطرد المنبئ عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر فى ايراد
كلمة التراخى وقوله تعالى (ثم قبضناه) عطف على مد داخل فى حكمه وثم للتراخى الزمانى لما أن فى بيان كون القبض والمد مترتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز أن تكون للتراخى الرتبى أى أزلناه بعد ما أنشأناه ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند ايقاع شعاع الشمس موقعه من غير أن يكون له تأثير فى ذلك أصلا وانما عبر عنه بالقبض المنبئ عن جمع المنبسط وطيه لما أنه قد عبر عن احداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالى (الينا) للتنصيص على كون مرجعه اليه تعالى كما أن حدوثه منه عز وجل (قبضا يسيرا) أى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها وقيل ان الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الارض تحتها ألقت القبة ظلها على الارض لعدم النير وذلك مده تعالى اياه ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أى سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل فى الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويتقلص ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير
عسير أو قبضا سهلا عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الاجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر اعدامه باعدام أسبابه

الارسال والخلط ومنه قوله تعالى فهم فى أمر مريج سمى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين قال ابن عباس مرج البحرين اى أرسلهما فى مجاريهما كما ترسل الخيل فى المرج وهما يلتقيان وقوله هذا عذب فرات والمقصود من الفرات البليغ فى العذوبة حتى يصير الى الحلاوة والاجاج نقيضه وانه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ويجعل من عظيم اقتداره برزخا حائلا من قدرته وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما معنى قوله وحجرا محجورا الجواب هى الكلمة التى يقولها المتعوذ وقد فسرناه وهى ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجرا محجورا كما قال لا يبغيان أى لا يبغى أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغى كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما فى صورة الباغى على صاحبه فهو يتعوذ منه وهى من أحسن الاستعارات (السؤال الثانى) لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى ههنا (لا يقال) هذا مدفوع من وجهين الاول ان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون الثانى لعله جعل فى البحار موضعا يكون أحد جانبيه عذبا والآخر ملحا (لانا نقول) أما الاول فضعيف لان هذه الاودية ليس فيها ماء ملح والبحار ليس فيها ماء عذب فلم يحصل البتة موضع التعجب وأما الثانى فضعيف لان موضع الاستدلال لابد وأن يكون معلوما فاما بمحض التجويز فلا يحسن الاستدلال لانا نقول المراد من البحر العذب هذه الاودية ومن الاجاج البحار الكبار وجعل بينهما برزخا أى حائلا من الارض ووجه الاستدلال ههنا بين لان العذوبة والملوحة ان كانت بسبب طبيعة الارض أو الماء فلابد من الاستواء وان لم يكن كذلك فلابد من قادر حكيم يخص كل واحد من الاجسام بصفة خاصة معينة * قوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) واعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه بحثان (الاول) ذكروا فى هذا الماء قولين أحدهما انه الماء الذى خلق منه أصول الحيوان وهو الذى عناه بقوله والله خلق كل دابة من ماء والثانى أن المراد النطفة لقوله خلق من ماء دافق من ماء مهين (البحث الثانى) المعنى انه تعالى قسم البشر قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينسب اليهم فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أى اناثا يصاهرن ونحوه قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وكان ربك قديرا حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والانثى * قوله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا) واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فى عبادة الاوثان وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قيل المراد بالكافر أبو جهل لان الآية نزلت فيه والاولى حمله على العموم لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم

اللفظ ولانه أوفق بظاهر قوله و يعبدون من دون الله (المسئلة الثانية) ذكروا فى الظهير وجوها (أحدها) ان الظهير بمعنى المظاهر كالعوين بمعنى المعاون وفعيل بمعنى مفاعل غير غريب والمعنى ان الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة فان قيل كيف يصح فى الكافر أن يكون معاونا للشيطان على ربه بالعداوة قلنا انه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله ان الذين يؤذون الله (وثانيها) يجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس وأن بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور الله تعالى قال تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى (وثالثها) قال أبو مسلم الاصفهانى الظهير من قولهم ظهر فلان بحاجتى اذا نبذها وراء ظهره وهو من قوله تعالى واتخذتموه وراءكم ظهريا ويقال فيمن يستهين بالشئ نبذه وراء ظهره وقياس العربية أن يقال مظهور أى مستخف به متروك وراء الظهر فقيل فيه ظهير فى معنى مظهور ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره * أما قوله تعالى وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا فتعلق ذلك بما تقدم هو ان الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله والله تعالى بعث رسوله لنفعهم لانه بعثه ليبشرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده فى ايذاء شخص استفرغ جهده فى اصلاح مهماته دينا ودنيا ولا يسألهم على ذلك البتة اجرا * أما قوله الا من شاء فذكروا فيه وجوها متقاربة أحدها لا يسألهم على الاداء والدعاء أجرا الا أن يشاؤا أن يتقربوا بالانفاق فى الجهاد وغيره فيتخذوا به سبيلا الى رحمة ربهم ونيل ثوابه (وثانيها) قال القاضى معناه لا أسألكم عليه أجرا لنفسى وأسألكم أن تطلبوا الاجر لانفسكم باتخاذ السبيل الى ربكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف مثال قوله الا من شاء والمراد الا فعل من شاء واستثناؤه عن الاجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت الا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فافاد فائدتين احداهما قلع شبهة الطمع فى الثواب من أصله كأنه يقول لك ان كان حفظك المال ثوابا فانى أطلب الثواب والثانية اظهار الشفقة البالغة وان حفظك للمال يجرى مجرى الثواب العظيم الذى توصله الى ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا تقربهم اليه وطلبهم عنده الزلفى بالايمان والطاعة وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة فى سبيل الله * أما قوله وتوكل على الحى الذى لا يموت فالمعنى انه سبحانه لما بين ان الكفار متظاهرون على ايذائه وأمره بان لا يطلب منهم أجرا البتة أمره بان يتوكل عليه فى دفع جميع المضار وفى جلب جميع المنافع وانما قال على الحى الذى لا يموت لان من توكل على الحى الذى يموت فاذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعا أما هو سبحانه وتعالى فانه حى لا يموت فلا يضيع المتوكل

كما ذكر الشارح بانشائها ووصفه بالبشر على طريقة قوله تعالى ذلك حشر علينا يسير وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما يعقبه من منافعهم وفى تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذى هو ظل الارض من لطف المسلك مالا مزيد عليه أى هو الذى جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس (والنوم سباتا) أى وجعل النوم الذى يقع فى الليل غالبا قطعا عن الافاعيل المختصة بحال اليقظة عبر عنه بالسبات الذى هو الموت لما بينهما من المشابهة التامة فى انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها (وجعل النهار نشورا) اى زمان بعث من ذلك السبات كبعث الموتى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه أو نفس البعث على طريق المبالغة وفيه اشارة الى أن النوم واليقظة انموذج للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يا بنى كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتنشر (وهو الذى أرسل الرياح) وقرئ بالتوحيد على أن المراد هو الجنس (بشرا) تخفيف بشر جمع بشور أى مبشرين وقرئ بشرى وقرئ نشرا بالنون جمع نشر أى ناشرات للسحاب وقرئ بالتخفيف وبفتح النون أيضا

على

عليه البتة أما قوله وسبح بحمده فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول ومنهم من حمله على الصلاة ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لا يليق به فى توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال كفى بالعلم جمالا وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك أى لا تحتاج معه الى غيره لانه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد كأنه قال ان أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة * قوله تعالى (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بامور (أولها) بانه حى لا يموت وهو قوله وتوكل على الحى الذى لا يموت (وثانيها) انه عالم بجميع المعلومات وهو قوله وكفى به بذنوب عباده خبيرا (وثالثها) انه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله الذى خلق السموات والارض فقوله الذى خلق متصل بقوله الحى الذى لا يموت لانه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والارضين ولكل ما بينهما ثبت انه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار وان النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل الا عليه * وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) الايام عبارة عن حركات الشمس فى السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال الله خلقها فى ستة أيام الجواب يعنى فى مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشئ الذى يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضى قدم الزمان لانا نقول هذا معارض بنفس الزمان لان المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام والمدة المتوهمة التى تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة أيام ومن الناس من قال فى ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بامر مجهول (السؤال الثانى) لم قدر الخلق والايجاد بهذا التقدير الجواب اما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية فى التخصيص قالت المعتزلة بل لا بد من داعى حكمة وهو ان تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين أحدهما ان حصول تلك الحكمة اما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا فان كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا فى كل الازمنة فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وان كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة فى ذلك الوقت الى مخصص آخر ويلزم التسلسل والثانى أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل اليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح فى حصول المصالح واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على

على أنه مصدر وصف به مبالغة وقوله تعالى (بين يدى رحمته) استعارة بديعة اى قدام المطر والالتفات الى نون العظمة فى قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) لابراز كمال العناية بالانزال لانه نتيجة ما ذكر من ارسال الرياح أى أنزلنا بعظمتنا بما رتبنا من ارسال الرياح من جهة الفوق ماء بليغا فى الطهارة وما قيل انه ما يكون طاهرا فى نفسه ومطهرا لغيره فهو شرح لبلاغته فى الطهارة كما ينبئ عنه قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فان الطهور فى العربية اما صفة كما تقول ماء طهور أو اسم كما فى قوله عليه الصلاة والسلام التراب طهور المؤمن وقد جاء بمعنى الطهارة كما فى قولك تطهرت طهورا حسنا كقولك وضوأ حسنا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا صلاة الا بطهور ووصف الماء به اشعار بتمام النعمة فيه وتتميم للنعمة فيما بعده فان الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها فبواطنهم أحق بذلك وأولى (لنحيى به) اى بما أنزلنا من الماء الطهور (بلدة ميتا) بانبات النبات والتذكير لان البلدة بمعنى البلد ولانه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجرى مجرى الجامد والمراد به القطعة من الارض عامرة كانت أو غامرة (ونسقيه) اى ذلك الماء الطهور عند جريانه فى الاودية أو اجتماعه فى الحياض والمناقع أو الآبار (مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) اى أهل البوادى الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الانعام والاناسى وتخصيصهم بالذكر لان أهل القرى والامصار يقيمون

قول المعتزلة أن يقطع الطامع عن أمثال هذه الاسئلة فانه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثنى عشر والسموات بالسبع وكذا الارض وكذا القول فى عدد الصلوات ومقادير النصب فى الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالاقرار بان كل ماقاله الله تعالى حق هو الدين وترك البحث عن هذه الاشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى فى قوله وماجعلنا أصحاب النار الا ملائكة وماجعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا هو الجواب أيضا فى أنه لم يخلقها فى لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انه انما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت قيل تم خلقها يوم الجمعة فجعلها الله تعالى عيدا للمسلمين (السؤال الثالث) مامعنى قوله ثم استوى على العرش ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لان الاستيلاء والقدرة فى أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول ثم فيه الجواب الاستقرار غير جائز لانه يقتضى التغير الذى هو دليل الحدوث ويقتضى التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى ولنبلونكم حتى نعلم فان المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون فان قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى وكان عرشه على الماء قلنا كلمة ثم مادخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات (السؤال الرابع) كيف اعراب قوله الرحمن فاسأل به خبيرا الجواب الذى خلق مبتدا والرحمن خبره أوهو صفة للحى أو الرحمن خبر مبتدا محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله على العرش ثم يبتدئ بالرحمن أى هو الرحمن الذى لا ينبغى السجود والتعظيم الا له ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله فاسأل به خبيرا (السؤال الخامس) مامعنى قوله فاسأل به خبيرا الجواب ذكروا فيه وجوها أحدها قال الكلبى معناه فاسأل خبيرا به وقوله به يعود الى ماذكرنا من خلق السماء والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل لانه لا دليل فى العقل على كيفية خلق الله السموات والارض فلا يعلمها أحد الا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وانما قدم لرؤس الآى وحسن النظم وثانيها قال الزجاج قوله به معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيرا وهو قول الاخفش ونظيره قوله سال سائل بعذاب واقع وقال علقمة بن عبدة

فان تسألونى بالنساء فاننى * بصير بادواء النساء طبيب

(وثالثها) قال ابن جرير الباء فى قوله به صلة والمعنى فسله خبيرا وخبيرا نصب على الحال

فلا يعوزها الشرب غالبا مع أن مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد أنواع النعمة والانعام حيث كانت قنية للانسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها احياء الارض فانه سبب لحياتها وتعيشها وقرئ نسقيه وأسقى وسقى لغتان وقيل أسقاه جعل له سقيا وأناسى جمع انسى أو انسان كظرابى فى ظربان على أن أصله أناسين فقلبت نونه ياء وقرئ أناسى بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل كأنام فى أناعيم (ولقد صرفناه) اى وبالله لقد كررنا هذا القول الذى هو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر لما مر من الغايات الجليلة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية (بينهم) أى بين الناس من المتقدمين والمتأخرين (ليذكروا) ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته فى ذلك ويقوموا بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم انزاله فى بعض البلاد دون غيرها أو فى بعض الاوقات دون بعض أو جعله تارة وابلا وأخرى طلا وحينا ديمة ووقتا رهمة والاول هو الاظهر (فأبى أكثر الناس) ممن سلف وخلف (الا كفورا) اى لم يفعل الا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها أو الا جحودها بان يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا

(ورابعها)

(ورابعها) أن قوله به يجرى مجرى القسم كقوله واتقوا الله الذى تساءلون به أما قوله واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى ويحتمل انهم وان عرفوه لكنهم جحدوه ويحتمل انهم وان اعترفوا به لكنهم جهلوا ان هذا الاسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الاخير قالوا الرحمن اسم من أسماء الله مذكور فى الكتب المتقدمة والعرب ماعرفوه قال مقاتل ان أبا جهل قال ان الذى يقول محمد شعر فقال عليه السلام الشعر غير هذا ان هذا الا كلام الرحمن فقال أبو جهل بخ بخ لعمرى والله انه لكلام الرحمن الذى باليمامة هو يعلمك فقال عليه السلام الرحمن الذى هو اله السماء ومن عنده يأتينى الوحى فقال يا آل غالب من يعذرنى من محمد يزعم أن الله واحد وهو يقول الله يعلمنى والرحمن ألستم تعلمون أنهما الهان ثم قال ربكم الله الذى خلق هذه الاشياء أما الرحمن فهو مسيلمة قال القاضى والاقرب أن المراد انكارهم لله لا للاسم لان هذه اللفظة عربية وهم كانوا يعلمون انها تفيد المبالغة فى الانعام ثم ان قلنا بانهم كانوا منكرين لله كان قولهم وما الرحمن سؤال طالب عن الحقيقة وهو يجرى مجرى قول فرعون وما رب العالمين وان قلنا بانهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم وما الرحمن سؤالا عن الاسم أما قوله أنسجد لما تأمرنا فالمعنى للذى تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير أو لامر لنا وقرئ يأمرنا بالياء كان بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ماهو وزادهم أمره نفورا ومن حقه أن يكون باعثا على الفعل والقبول قال الضحاك فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعثمان بن مظعون وعمرو بن عنبسة ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين فهذا هو المراد من قوله وزادهم نفورا أى فزادهم سجودهم نفورا

﴿قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا)﴾ اعلم أنه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر مالو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن فقال تبارك الذى جعل فى السماء بروجا أما تبارك فقد تقدم القول فيه وأما البروج فهى منازل السيارات وهى مشهورة سميت بالبروج التى هى القصور العالية لانها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره وفيه قول آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن البروج هى الكواكب العظام والاول أولى لقوله تعالى وجعل فيها أى فى البروج فان قيل لم لا يجوز أن يكون قوله فيها راجعا الى السماء دون البروج قلنا لان البروج أقرب فعود الضمير اليها أولى والسراج الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والاعمش وقمرا منيرا وهى جمع ليلة قمراء كأنه قيل وذا قمر منيرا لان الليالى

تعالى والانواء أمارات لجعله تعالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) نبيا ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة لكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الامر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى ليكون للعالمين نذيرا اجلالا لك وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) اى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة واظهار الحق والتشدد معهم كأنه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المداراة معهم والتلطف فى الدعوة لما أنه عليه الصلاة والسلام كان يود أن يدخلوا فى الاسلام ويجتهد فى ذلك بتأليف قلوبهم أشد الاجتهاد (وجاهدهم به) اى بالقرآن بتلاوة مافى تضاعيفه من القوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الامم المكذبة (جهادا كبيرا) فان دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفا وقيل الضمير المجرور لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة وأنت خبير بأن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا عن الجهاد الكبير اللهم الا أن تجعل الباء للملابسة ليكون المعنى وجاهدهم بما ذكر من أحكام القرآن الكريم ملابسا بترك طاعتهم كأنه قيل فجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاءمة والمداراة كما فى قوله تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ

عليهم وقد جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى ولوشئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا من كونه عليه الصلاة والسلام
نذير كافة القرى لانه لو بعث في كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ذلك جهاده وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة وأنت خبير بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فانه بين بنفسه وانما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها في الكيفية (وهو الذى مرج البحرين) اى خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته اذا خلاها (هذا عذب فرات) قامع للعطش لغاية عذوبته (وهذا ملح أجاج) بليغ الملوحة وقرئ ملح فلعله تخفيف مالح كبرد في بارد (وجعل بينهما برزخا) حاجزا غير مرئي من قدرته كما في قوله تعالى بغير عمد ترونها (وحجرا محجورا) وتنافرا مفرطا كأن كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة تدخل البحر وتشقه وتجرى في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم وبالملح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الارض فيكون أثر القدرة في الفصل واختلاف الصفة

تكون قمرا بالقمر فاضافه اليها ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى لقمر كالرشد والرشد والعرب والعرب ● وأما الخلفة ففيها قولان (الاول) انها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر ويأتي خلفه يقال فلان خلفة واختلاف اذا اختلف كثيرا الى متبرزه والمعنى جعلهما ذوى خلفة أي ذوى عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرط في عمل في أحدهما قضاه في الآخر قال أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل يا ابن الخطاب لقد أنزل الله فيك آية وتلا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر مافاتك من النوافل بالليل فاقضه في نهارك ومافاتك من النهار فاقضه في ليلك (القول الثانى) وهو قول مجاهد وقتادة والكسائي يقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان فقوله خلفة أي مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير والقول الاول أقرب أما قوله تعالى أن يذكر فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبي بن كعب يتذكر والمعنى لينظر الناظر في اختلافهما فيعلم انه لا بد في انتقالهما من حال الى حال من ناقل ومغير وقوله أن يذكر راجع الى كل ما تقدم من النعم بين تعالى ان الذين قالوا وما الرحمن لو تفكروا في هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته ولشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر والشكور مصدر شكر يشكر شكورا

قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما انها ساءت مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) اعلم أن قوله وعباد الرحمن مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون واعلم انه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات وقرئ وعباد الرحمن واعلم انه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات (الصفة الاولى) قوله الذين يمشون على الارض هونا وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرئ يمشون هونا حال أو صفة للمشى بمعنى هينين أو بمعنى مشيا هينا الا ان في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمعنى أنهم يمشون بسكينة ووقار وتواضع ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ولا يتبخترون لاجل الخيلاء كما قال ولا تمش في الارض مرحا وعن زيد بن أسلم التمست تفسير هونا فلم أجد فرأيت في النوم

مع أن مقتضى طبيعة كل عنصر التضام والتلاصق والتشابه في الكيفية (وهو الذى خلق من الماء بشرا) هو الماء الذى
خمر به طينة آدم عليه السلام أو جعله جزأ من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الاشكال والهيئات بسهولة أو هو النطفة (فجعله نسبا وصهرا) أى قسمه قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينسب اليهم وذوات صهر أى اناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى (وكان ربك قديرا) مبالغا في القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكرا وانثى (ويعبدون من دون الله) الذى شأنه ما ذكر (مالا ينفعهم ولا يضرهم) أى ماليس من شأنه النفع والضر أصلا وهو الاصنام أو كل ما يعبد من دونه تعالى اذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر (وكان الكافر على ربه) الذى ذكرت آثار ربوبيته (ظهيرا) يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد بالكافر الجنس أو أبو جهل وقيل هينا مهينا لا اعتداد به عنده تعالى من قولهم ظهرت به اذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله تعالى ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم (وما أرسلناك الا مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) للكافرين (قل) لهم (ما أسالكم عليه) أى على تبليغ الرسالة الذى ينبئ عنه الارسال (من أجر) من جهتكم (الا من

فقيل لهم الذين لا يريدون الفساد في الارض وعن ابن زيد لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علوا في الارض (الصفة الثانية) قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أى نسلم منكم تسليما فاقيم السلام مقام التسليم ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكي يمتنعوا ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة ويحتمل أن يكون المراد اظهار الحلم في مقابلة الجهل قال الاصم قالوا سلاما أى سلام توديع لا تحية كقول ابراهيم لابيه سلام عليك ثم قال الكلبي وأبو العالية نسختها آية القتال ولا حاجة الى ذلك لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع (الصفة الثالثة) قوله والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (واعلم) انه تعالى لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين أحدهما ترك الايذاء وهو المراد من قوله يمشون على الارض هونا والآخر تحمل التأذى وهو المراد من قوله واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق في النهار فبين في هذه الآية سيرتهم في الليالى عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع ثم قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وان لم ينم كما يقال بات فلان قلقا ومعنى يبيتون لربهم أن يكونوا في لياليهم مصلين ثم اختلفوا فقال بعضهم من قرأ شيأ من القرآن في صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء الاخيرة والاولى انه وصفهم باحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائما ويبيت قائما قال الحسن يبيتون لله على أقدامهم ويفرشون له وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم خوفا من ربهم (الصفة الرابعة) قوله والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما قال ابن عباس رضى الله عنهما يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول وقال الحسن خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقا من عذاب جهنم وقوله غراما أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما ومنه الغريم لالحاحه والزامه ويقال فلان مغرم بالنساء اذا كان مولعا بهن وسأل نافع بن الازرق ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع وعن محمد بن كعب في غراما انه سأل الكفار عن نعمه فما أدوها اليه فاغرمهم فادخلهم النار واعلم أنه تعالى وصفهم باحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه ايذانا بانهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون الى الله في صرف العذاب عنهم كقوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة اما قوله تعالى انها ساءت مستقرا ومقاما فقوله ساءت في حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وساءت مستقرا حال أو تمييز فان قيل دلت الآية على انهم سألوا الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين احداهما ان عذابها كان غراما وثانيهما انها ساءت مستقرا ومقاما فما الفرق بين الوجهين وأيضا فما الفرق بين المستقر والمقام قلنا المتكلمون

شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) أى الافعل من يريد أن يتقرب اليه تعالى ويطلب الزلفى عنده بالايمان والطاعة حسبما أدعوهم اليهما فصور ذلك بصورة الاجر من حيث انه مقصود الاتيان به واستثنى منه قلعا كليا لشائبة الطمع واظهارا لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا اليهم عائدا اليه عليه الصلاة والسلام وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل (وتوكل على الحى الذى لايموت) فى الاستكفاء عن شرورهم والاغناء عن أجورهم فانه الحقيق بان يتوكل عليه دون الاحياء الذين من شأنهم الموت فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم (وسبح بحمده) ونزهه عن صفات النقصان مثنيا عليه بنعوت الكمال طالبا لمزيد الانعام بالشكر على سوابغه (وكفى به بذنوب عباده) ما ظهر منها وما بطن (خبيرا) اى مطلعا عليها بحيث لايخفى عليه شىء منها فيجزيهم جزاء وافيا (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد سلف تفسيره ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالابدية التى هى من الصفات الذاتية والاشارة الى اتصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتأكيده فان من أنشأ هذه الاجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى أوقات معينة مع كمال قدرته على ابداعها دفعة لحكم

ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة فقوله ان عذابها كان غراما اشارة الى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع وقوله انها ساءت مستقرا ومقاما اشارة الى كونها دائمة ولا شك فى المغايرة اما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من اهل الايمان فانهم يستقرون فى النار ولا يقيمون فيها وأما الاقامة فللكفار واعلم أن قوله انها ساءت مستقرا ومقاما يمكن ان يكون من كلام الله تعالى ويمكن ان يكون حكاية لقولهم (الصفة الخامسة) قوله والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما قرئ يقتروا بكسر التاء وضمها ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وأيضا بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات والقتر والاقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الاسراف والاسراف مجاوزة الحد فى النفقة وذكر المفسرون فى الاسراف والتقتير وجوها (أحدها) وهو الاقوى انه تعالى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وعن وهيب بن الورد قال لعالم ما البناء الذى لا سرف فيه قال ما سترك عن الشمس وأكنك من المطر فقال له فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة فقال له فى اللباس قال ما ستر عورتك ووقاك من البرد وروى أن رجلا صنع طعاما فى املاك فأرسل الى الرسول عليه السلام فقال حق فاجيبوا ثم صنع الثانية فأرسل اليه فقال حق فمن شاء فليجب والا فليقعد ثم صنع الثالثة فارسل اليه فقال رياء ولا خير فيه (وثانيها) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان الاسراف الانفاق فى معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى قال مجاهد لو انفق رجل مثل أبى قبيس ذهبا فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو انفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا فى معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى وذلك قد يكون فى الامساك عن حق الله وهو أقبح التقتير وقد يكون عما لا يجب ولكن يكون مندوبا مثل الرجل الغنى الكثير المال اذا منع الفقراء من اقاربه (وثالثها) المراد بالسرف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وان كان من حلال فان ذلك مكروه لانه يؤدى الى الخيلاء والاقتار هو التضييق فالاكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف وان أكل بقدر الحاجة فذلك اقتار وهذه الصفة صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) القوام قال ثعلب القوام بالفتح العدل والاستقامة وبالكسر ما يدوم عليه الامر ويستقر قال صاحب الكشاف القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء وقرئ قواما

 وأولى من يفوض الامر اليه (الرحمن) مرفوع على المدح أى هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما قرئ بالجر مفيد لزيادة تأكيد ما ذكر من وجوب التوكل عليه تعالى وان لم يتبعه فى الاعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الاعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدا فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما وقد مر تمام التحقيق فى تفسير قوله عز وجل الذين يؤمنون بالغيب الآية وقيل الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن فى استوى (فاسأل به) أى بتفاصيل ما ذكر اجمالا من الخلق والاستواء لا بنفسهما فقط اذ بعد بيانهما لا يبقى الى السؤال حاجة ولا فى تعديته بالباء فائدة فانها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسؤل أمرا خطيرا مهتما بشأنه غير حاصل للسائل وظاهر أن نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك وما قيل من أن التقدير ان شككت فيه فاسأل به خبيرا على أن الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد غيره بمعزل من السداد بل التقدير ان شئت تحقيق ما ذكر أو تفصيل ما ذكر فاسأل معتنيا به (خبيرا) عظيم الشان محيطا بظواهر الامور

بالكسر وهو ما يقام به الشىء يقال انت قوامنا يعنى ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص (المسئلة الثانية) المنصوبان أعنى بين ذلك قواما جائز أن يكونا خبرين معا وان يجعل بين ذلك لغوا وقواما مستقرا وان يكون الظرف خبرا وقواما حالا مؤكدة قال الفراء وان شئت جعلت بين ذلك اسم كان كما تقول كان دون هذا كافيا تريد أقل من ذلك فيكون معنى بين ذلك أى كان الوسط من ذلك قواما أى عدلا وهذا التاويل ضعيف لان القوام هو الوسط فيصير التاويل وكان الوسط وسطا وهذا لغو ﴿ (الصفة السادسة) قوله تعالى (والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ان من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الاشياء من العقاب ثم استثنى من جملتهم التائب وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الامور الخفيفة فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا أليس انه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى (الجواب) ان الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا ومقدما على قتل الموؤدة تدينا وعلى الزنا تدينا فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يضاف الى ذلك كونه مجانبا لهذه الكبائر واجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كانه قال وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق وانتم تقتلون الموؤدة ولا يزنون وانتم تزنون (السؤال الثانى) ما معنى قوله ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ومعلوم انه من يحل قتله لا يدخل فى النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء (الجواب) المقتضى لحرمة القتل قائم أبدا وجواز القتل انما ثبت بالمعارض فقوله حرم الله اشارة الى المقتضى وقوله الا بالحق اشارة الى المعارض (السؤال الثالث) باى سبب يحل القتل (الجواب) بالردة وبالزنا بعد الاحصان وبالقتل قودا على ما فى الحديث وقيل وبالمحاربة وبالبينة وان لم يكن لها شهدت به حقيقة (السؤال الرابع) منهم من فسر قوله ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق بالردة فهل يصح ذلك (الجواب) لفظ القتل عام فيتناول الكل وعن ابن مسعود قلت يارسول الله أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ان تقتل ولدك خشية ان يأكل معك قلت ثم أى قال ان تزنى بحليلة جارك فانزل الله تصديقه (السؤال الخامس) ما الاثام الجواب فيه وجوه أحدها أن الاثام جزاء الاثم بوزن الوبال والنكال وثانيها وهو قول ابى مسلم ان الاثام والاثم واحد والمراد ههنا جزاء الاثام

فأطلق اسم الشئ على جزائه وثالثها قال الحسن الاثام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد أثاما وادفى جهنم وقرأ ابن مسعود أثاما اى شديدا يقال يوم ذو أثام لليوم العصيب أما قوله يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) يضاعف بدل من يلق لانهما فى معنى واحد وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال وكذلك يخلد ويخلد على البناء للمفعول مخففا ومثقلا من الاخلاد والتخليد وقرئ وتخلد بالتاء على الالتفات (المسئلة الثانية) سبب تضعيف العذاب أن المشرك اذا ارتكب المعاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وهذا يدل على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (المسئلة الثالثة) قال القاضى بين الله تعالى ان المضاعفة والزيادة يكون حالهما فى الدوام كحال الاصل فقوله ويخلد فيه أى ويخلد فى ذلك التضعيف ثم ان ذلك التضعيف انما حصل بسبب العقاب على المعاصى فوجب ان يكون عقاب هذه المعاصى فى حق الكافر دائما واذا كان كذلك وجب أن يكون فى حق المؤمن كذلك لان حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره او منفردا والجواب لم لا يجوز أن يكون للاتيان بالشئ مع غيره اثر فى مزيد القبح الا ترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما فى نفسه حسنا وان كان الجمع بينهما قبيحا وقد يكون كل واحد منهما قبيحا ويكون الجمع بينهما اقبح فكذا ههنا (المسئلة الرابعة) قوله ويخلد فيه مهانا اشارة الى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالاذلال والاهانة كما ان الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم أما قوله تعالى الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ففيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت الآية على ان التوبة مقبولة والاستثناء لا يدل على ذلك لانه اثبت انه يضاعف له العذاب ضعفين فيكفى لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين وانما الدال عليه قوله فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات (المسئلة الثانية) نقل عن ابن عباس انه قال توبة القاتل غير مقبولة وزعم ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا وقالوا نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين وقد تقدم الكلام فى ذلك فى سورة النساء (المسئلة الثالثة) فان قيل العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوا قلنا افردهما بالذكر لعلو شأنهما ولما كان لا بد معهما من سائر الاعمال لا جرم ذكر عقيبهما العمل الصالح (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى المراد بقوله فاولئك يبدل الله سيآتهم حسنات على وجوه (أحدها) قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ان التبديل انما يكون فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا فكانه تعالى

يبشرهم

وبواطنها وهو الله سبحانه يطلعك على جلية الامر وقيل فاسأل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه فلا حاجة حينئذ الى ماذكرنا وقيل الضمير للرحمن والمعنى ان أنكروا اطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجئ ما يرادفه فى كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ ومابعده خبرا وقرئ فسل (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) قالوه لما أنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى أو لانهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى ولذلك قالوا (أنسجد لما تأمرنا) أى للذى تأمرنا بسجوده أو لامرك ايانا من غير أى نعرف أن المسجود ماذا وقيل لانه كان معربا لم يسمعوه وقرئ يأمرنا بياء الغيبة على أنه قول بعضهم لبعض (وزادهم) أى الامر بسجود الرحمن (نفورا) عن الايمان (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) هى البروج الاثنا عشر سميت به وهى القصور العالية لانها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من البرج لظهوره (وجعل فيها سراجا) هى الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار (وقمرا منيرا) مضيئا بالليل وقرئ قمرا أى ذا قمر وهى جمع قمراء ولما أن الليالى بالقمر تكون قمراء أضيف اليها ثم حذف وأجرى حكمه على المضاف اليه القائم مقامه كما فى قول حسان رضى الله عنه * بردى يصفق بالرحيق السلسل *

يبشرهم بانه يوفقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب (وثانيها) قال الزجاج السيئة بعينها لا تصير حسنة ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيآت (وثالثها) قال قوم ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ويحتجون بما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليتمنين اقوام أنهم أكثروا من السيآت قيل من هم يارسول الله قال الذين يبدل الله سيآتهم حسنات وعلى هذا القول التبديل فى الآخرة (ورابعها) قال القفال والقاضى انه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما واراد ما يستحق بهما واذا حمل على ذلك كانت الاضافة الى الله حقيقة لان الاثابة لا تكون الا من الله تعالى اما قوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا ففيه سؤالان (السؤال الاول) ما فائدة هذا التكرير الجواب من وجهين (الاول) أن هذا ليس بتكرير لان الاول لما كان فى تلك الخصال بين تعالى أن جميع الذنوب بمنزلتها فى صحة التوبة منها (الثانى) ان التوبة الاولى رجوع عن الشرك والمعاصى والتوبة الثانية رجوع الى الله تعالى للجزاء والمكافأة كقوله تعالى عليه توكلت واليه متاب اى مرجعى (السؤال الثانى) هل تكون التوبة الا الى الله تعالى فما فائدة قوله فانه يتوب الى الله متابا (الجواب) من وجوه (الاول) ماتقدم من أن التوبة الاولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع الى حكم الله تعالى وثوابه (الثانى) معناه ان من تاب الى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم (الثالث) قوله ومن تاب يرجع الى الماضى فانه سبحانه ذكر ان من أتى بهذه التوبة فى الماضى على سبيل الاخلاص فقد وعده بانه سيوفقه للتوبة فى المستقبل وهذا من أعظم البشارات ﴿الصفة السابعة﴾ قوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الزور يحتمل اقامة الشهادة الباطلة ويكون المعنى انهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ويحتمل حضوره مواضع الكذب كقوله تعالى فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ويحتمل حضور كل موضع يجرى فيه ما لا ينبغى ويدخل فيه اعياد المشركين ومجامع الفساق لان من خالط أهل الشر ونظر الى افعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم فى تلك المعصية لان الحضور والنظر دليل الرضا به بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه لان الذى حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر اليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد مجالس الزور التى يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله وقال محمد بن الحنفية الزور الغناء واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله فى الكذب أكثر (المسئلة الثانية) الاصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك ومنهم من فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة وهو ضعيف لان المباحات لا تعد لغوا فقوله واذا مروا باللغو

أى ماء بردى ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) أى ذوى خلفة يخلف كل منهما الآخر بان يقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه أو بأن يعتقبا كقوله تعالى واختلاف الليل والنهار وهى اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس (لمن أراد أن يذكر) أى يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر فى بدائع صنعه فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم بالعباد (أو أراد شكورا) أى أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم أوليكونا وقتين للذاكرين من فاته ورده فى أحدهما تداركه فى الآخر وقرئ أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر (وعباد الرحمن) كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والاخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته والسجود له والاضافة للتشريف وهو مبتدأ خبره ما بعده من الموصول وما عطف عليه وقيل هو ما فى اخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الاشارة وقرئ عباد الرحمن اى عباده المقبولون (الذين يمشون على الارض هونا) أى بسكينة وتواضع وهونا مصدر وصف به ونصبه اما على أنه حال من فاعل يمشون أو على أنه نعت لمصدره أى يمشون هينين ليني الجانب من غير فظاظة أو مشيا هينا وقوله تعالى (واذا خاطبهم الجاهلون) أى السفهاء كما فى قول من قال

ألالايجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا ٥٠٢ (قالوا سلاما) بيان لحالهم فى المعاملة مع غيرهم اثر بيان حالهم

أى باهل اللغو (المسئلة الثالثة) لاشبهة فى أن قوله مروا كراما معناه انهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو واكرامهم لها الايكون الابالاعراض وبالانكار وبترك المعاونة والمساعدة ويدخل فيه الشرك واللغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما لا ينبغى وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة اذا كانت تعرض عند الحلب تكرما كانها لا تبالى بما يحلب منها للغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب وقال الليث يقال تكرم فلان عما يشينه اذا تنزه واكرم نفسه عنها ونظير هذه الآية قوله واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين وعن الحسن لم تسفههم المعاصى وقيل اذا سمعوا من الكفار الشتم والاذى أعرضوا وقيل اذا ذكر النكاح كنوا عنه

(الصفة الثامنة) قوله تعالى (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) قال صاحب الكشاف قوله لم يخروا عليها صما وعميانا ليس بنفى للخرور وانما هو اثبات له ونفى للصم والعمى كما يقال لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء والمعنى انهم اذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها وأقبلوا على المذكر بها وهم فى اكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان حيث لا يفهمونها ولا يبصرون مافيها كالمنافقين ۞ (الصفة التاسعة) قوله تعالى

(والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ذرياتنا بالالف على الجمع وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحدا وجمعا (المسئلة الثانية) انه لاشبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم فى الدين لا فى الامور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهين أحدهما انهم سألوا أزواجا وذرية فى الدنيا يشاركونهم فاحبوا أن يكونوا معهم فى التمسك بطاعة الله تعالى فيقوى طمعهم فى أن يحصلوا معهم فى الجنة فيتكامل سرورهم فى الدنيا بهذا الطمع وفى الآخرة عند حصول الثواب والثانى أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذريتهم بهم فى الجنة ليتم سرورهم بهم (المسئلة الثالثة) فان قيل من فى قوله من أزواجنا ماهى قلنا يحتمل أن تكون بيانية كانه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وهو من قولهم رأيت منك أسدا أى أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح فان قيل لم قال قرة أعين فنكر وقلل قلنا أما التنكير فلاجل تنكير القرة لان المضاف لاسبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كانه قال هب لنا منهم سرورا وفرحا وانما قال أعين دون عيون لانه أراد أعين المتقين وهى قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال تعالى وقليل من عبادى الشكور (المسئلة الرابعة) قال الزجاج اقر الله عينك أى صادف فؤادك مايحبه وقال المفضل فى قرة العين ثلاثة أقوال أحدها برد دمعتها وهى التى تكون مع

فى أنفسهم أى اذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسليما منكم ومتاركة لاخير بيننا وبينكم ولا شر وقيل سدادا من القول يسلمون به من الاذية والاثم وليس فيه تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسختها آية القتال كما نقل عن أبى العالية وقوله تعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) بيان لحالهم فى معاملتهم مع ربهم أى يكونون ساجدين لربهم وقائمين اى يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة وقيل من قرأ شيأ من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل (والذين يقولون) أى فى اعقاب صلواتهم اوفى عامة اوقاتهم (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) اى شرا دائما وهلاكا لازما وفيه من يدمدح لهم ببيان انهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون الى الله تعالى فى صرفه عنهم غير محتفلين باعمالهم كقوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون (انها ساءت مستقرا ومقاما) تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها فى نفسها اثر تعليله بسوء

حال عذابها وقد جوز أن يكون تعليلا للاولى وليس بذاك وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا

والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير ٥٠٣ هو الذى ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا

الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة والثانى نومها لانه يكون مع ذهاب الحزن والوجع والثالث حصول الرضا (المسئلة الخامسة) قوله واجعلنا للمتقين اماما الاقرب انهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم فى الطاعة المبلغ الذى يشار اليهم ويقتدى بهم قال بعضهم فى الآية مايدل على أن الرياسة فى الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقيل نزلت هذه الآيات فى العشرة المبشرين بالجنة (المسئلة السادسة) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا لان الامامة فى الدين لا تكون الا بالعلم والعمل فدل على أن العلم والعمل انما يكون بجعل الله تعالى وخلقه وقال القاضى المراد من السؤال الالطاف التى اذا كثرت صاروا مختارين لهذه الاشياء فيصيرون ائمة والجواب أن تلك الالطاف مفعولة لامحالة فيكون سؤالها عبثا (المسئلة السابعة) قال الفراء قال اماما ولم يقل أئمة كما قال للاثنين انا رسول رب العالمين ويجوز ان يكون المعنى اجعل كل واحد منا اماما كما قال يخرجكم طفلا وقال الاخفش الامام جمع واحده آم كصائم وصيام وقال القفال وعندى ان الامام اذا ذهب به مذهب الاسم وحد كانه قيل اجعلنا حجة للمتقين ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك انواع احسانه اليهم وهى مجموعة فى أمرين المنافع والتعظيم ۞ (اما المنافع) فهى قوله

(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله وهم فى الغرفات آمنون وقال لهم غرف من فوقها غرف والغرفة فى اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة فالمعنى يجزون الجنة وهى جنات كثيرة وقرأ بعضهم أولئك يجزون فى الغرفة وقوله بما صبروا فيه بحثان (البحث الاول) احتج بالآية من ذهب الى ان الجنة بالاستحقاق فقال الباء فى قوله بما صبروا تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك (البحث الثانى) ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال فى معرفة الله تعالى وعلى مشاق الطاعات وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق اذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة لان هذه الصفات اذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر (وثانيهما التعظيم) وهو قوله تعالى (ويلقون فيها تحية وسلاما) قرئ يلقون كقوله ولقاهم نضرة وسرورا يلقون كقوله يلق اثاما والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة فيرجع حاصل التحية الى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع ويرجع السلام الى كون ذلك النعيم خالصا عن شوائب الضرر ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله سلام قولا من رب رحيم ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض ۞ أما قوله (خالدين فيها حسنت

لها قيل ويجوز أن يكون ساءت بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم ان ومستقرا حال او تمييز وهو بعيد خال عما فى الاول من المبالغة فى بيان سوء حالها وكذا جعل التعليلين من جهته تعالى (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضييق الشحيح وقيل الاسراف هو الانفاق فى المعاصى والقتر منع الواجبات والقرب وقرئ بكسر التاء مع فتح الياء وبكسرها مخففة ومشددة مع ضم الياء (وكان بين ذلك) اى بين ماذكر من الاسراف والقتر (قواما) وسطا وعدلا سمى به لاستقامة الطرفين كما سمى به سواء لاستوائهما وقرى بالكسر وهو مايقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان او حال مؤكدة او هو الخبر وبين ذلك لغو وقد جوز ان يكون اسم كان على انه مبنى لاضافته الى غير متمكن ولا يخفى ضعفه فانه بمعنى القوام فيكون كالاخبار بشئ عن نفسه (والذين لا يدعون مع الله الها آخر) شروع فى بيان اجتنابهم عن المعاصى بعد بيان اتيانهم بالطاعات وذكر نفى الاسراف والقتر لتحقيق معنى الاقتصاد والتصريح بوصفهم بنفى الاشراك مع ظهور ايمانهم لاظهار كمال الاعتناء بالتوحيد

والاخلاص وتهويل امر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم أى لا يعبدون معه

تعالى الها اخر (ولا يقتلون النفس التي حرم الله) أي حرمها بمعنى حرم قتلها لحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه مبالغة

في التحريم (الا بالحق) أي لا يقتلونها بسبب من الأسباب الا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها اولا يقتلون قتلاما الا قتلا ملتبسا بالحق أولا يقتلونها في حال من الاحوال الاحال كونهم ملتبسين بالحق (ولا يزنون) أي الذين لا يفعلون شيا من هذه العظائم القبيحة التي جمعهن الكفرة حيث كانوا مع اشراكهم به سبحانه مدا ومين على قتل النفوس المحرمة التي من جملتها الموؤدة مكبين على الزنا لا يرعوون عنه اصلا (ومن يفعل ذلك) أي ماذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين (يلق) في الآخرة وقرئ يلق وقرئ يلقى بالتشديد مجزوما (أثاما) وهو جزاء الاثم كالوبال والنكال وزنا ومعنى وقيل هو الاثم أي يلق جزاء الاثم والتنوين على التقديرين للتفخيم وقرئ أياما أي شدائد يقال يوم ذو أيام لليوم الصعب (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من يلق لاتحادهما في المعنى كقوله

متى تاتنا تلمم بنا في ديارنا

تجد حطبا جزلا ونارا تاججا

وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحالية وكذا ما عطف عليه وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب (ويخلد فيه) أي في ذلك العذاب المضاعف (مهانا) ذليلا مستحقرا جامعا للعذاب الجسماني والروحاني وقرئ يخلد ويخلد مبنيا للمفعول من الاخلاد والتخليد وقرئ تخلد بالتاء على الالتفات المنبئ عن شدة الغضب.

مستقرا ومقاما) فالمراد انه سبحانه لما وعد بالمنافع أولا وبالتعظيم ثانيا بين أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله خالدين فيها ومن صفتهما الخلوص أيضا وهو المراد من قوله حسنت مستقرا ومقاما وهذا في مقابلة قوله ساءت مستقرا ومقاما أي ما أسوأ ذلك وما

أحسن هذا ﴿ اما قوله (قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) فاعلم انه سبحانه لما شرح صفات المتقين وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فدل بذلك على انه تعالى غني عن عباداتهم وأنه تعالى انما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الخليل ما أعبا بفلان أي ما أصنع به كانه يستقله ويستحقره وقال أبو عبيدة ما أعبابه أي وجوده وعدمه عندي سواء وقال الزجاج معناه أي لا وزن لكم عند ربكم والعب في اللغة الثقل وقال أبو عمرو بن العلاء ما يبالي بكم ربي (المسئلة الثانية) في ما قولان أحدهما انها متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كانه قيل وأي عب يعبأ بكم لولا دعاؤكم والثاني ان تكون ما نافية (المسئلة الثالثة) ذكروا في قوله لولا دعاؤكم وجهين أحدهما لولا دعاؤه اياكم الى الدين والطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف الى المفعول وثانيهما أن الدعاء مضاف الى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوها أحدها لولا دعاؤكم لولا ايمانكم وثانيها لولا عبادتكم وثالثها لولا دعاؤكم اياه في الشدائد كقوله فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله ورابعها دعاؤكم يعني لولا شكركم له على احسانه لقوله ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وخامسها ما خلقتكم وبي اليكم حاجة الا أن تسألوني فاعطيكم وتستغفروني فاغفر لكم أما قوله فقد كذبتم فالمعنى اني اذا أعلمتكم أن حكمي أني لا اعتد بعبادي الا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم وهو عقاب الآخرة ونظيره ان يقول الملك لمن استعصى عليه ان من عادتي أن أحسن الى من يطيعني وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك فان قيل الى من يتوجه هذا الخطاب قلنا الى الناس على الاطلاق ومنهم عابدون ومكذبون عاصون فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب وقرئ فقد كذب الكافرون فسوف يكون العذاب لزاما وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت والوجه ان ترك اسم كان غير منطوق به بعدما علم أنه مما توعد به لاجل الابهام و يتناول ما لا يحيط به الوصف ثم قيل هذا العذاب في الآخرة وقيل كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله والله أعلم • تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الامي واله وصحبه أجمعين

• (سورة الشعراء مكية الا أربع آيات فانها مدنية وهي والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها وهي مائتان او ست اوسبع وعشرون آية) •

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزل عليهم من

السماء

ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي الى الكفر كما يفصح عنه قوله تعالى (الامن تاب وامن وعمل عملا صالحا) وذكر الموصوف

مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للاعمال السابقة (فاولئك) اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن الافراد في الافعال الثلاثة باعتبار لفظه أي أولئك الموصوفون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يبدل الله سياتهم حسنات) بان يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل بملكة المعصية ودواعيها في النفس ملكة الطاعة بان يزيل الاولى ويأتي بالثانية وقيل بان يوفقه لاضداد ما سلف منه أو بان يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وقيل يبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا (وكان الله غفورا رحيما) اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والاثبات (ومن تاب) أي عن المعاصي بتركها بالكلية والندم عليها (وعمل صالحا) يتلافى به ما فرط منه أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعات (فانه) بما فعل (يتوب الى الله) أي يرجع اليه تعالى (متابا) أي متابا عظيم الشأن مرضيا عنده تعالى ماحيا للعقاب محصلا للثواب أو يتوب متابا الى الله تعالى الذي يحب التوابين ويحسن اليهم أوفانه يرجع اليه تعالى أو الى ثوابه مرجعا حسنا وهذا تعميم بعد تخصيص (والذين لا يشهدون الزور) لا يقيمون

السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) الطاء اشارة الى طرب قلوب العارفين والسين سرور المحبين والميم مناجاة المريدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ قتادة باخع نفسك على الاضافة وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة (المسئلة الثانية) البخع ان يبلغ بالذبح البخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذابح ولعل للاشفاق (المسئلة الثالثة) قوله طسم تلك آيات الكتاب المبين معناه آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين وتمام تقريره مامر في قوله تعالى ذلك الكتاب ولا شبهة في أن المراد بالكتاب هو القرآن والمبين وان كان في الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف الى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه فان قيل القوم لما كانوا كفارا فكيف تكون آيات القرآن مبينة لهم ما يلزمهم وانما يتبين بذلك الاحكام قلنا ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن ياتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الاعجاز ويعلم به بعد ذلك انه اذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الاحكام أجمع واذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية في كل الاصول والفروع اجمع ولما ذكر الله تعالى انه بين الامور قال بعده لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين منبها بذلك على أن الكتاب وان بلغ في البيان كل غاية فغير مدخل لهم في الايمان لما انه سبق حكم الله بخلافه فلا تبالغ في الحزن والاسف على ذلك لانك ان بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلا فصبره وعزاه وعرفه ان غمه وحزنه لا نفع فيه كما ان وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه ثم بين تعالى انه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها و يخضعون فان قيل كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الاعناق قلنا أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فذكرت الاعناق لبيان موضع الخضوع ثم ترك الكلام على أصله ولما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل خاضعين كقوله لي ساجدين وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالاعناق كما يقال هم الرؤس والصدور وقيل هم جماعات الناس يقال جاءنا عنق من الناس افوج منهم (المسئلة الرابعة) نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف فلعلك باخع نفسك وقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه

معرضين فقد كذبوا فسياتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها

من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين من تمام قوله ان نشأ ننزل عليهم فنبه تعالى على انه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالالجاء رحيم بهم من حيث ياتيهم حالا بعد حال بالقرآن وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الاعراض والتكذيب والاستهزاء ثم عند ذلك زجر وتوعد لان المرء اذا استمر على كفره فليس ينفع فيه الا الزجر الشديد فلذلك قال فقد كذبوا أي

(باللغو) أى ما يجب أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه (مروا كراما) معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم) المنطوية على المواعظ والاحكام (لم يخروا عليها صما وعميانا) أى أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية وانما عبر عن ذلك بنفى الضد تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون وقيل الضمير للمعاصى المدلول عليها باللغو (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فان المؤمن اذا ساعده أهله فى طاعة الله عز وجل وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له فى مناهج الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة حسبما وعد بقوله تعالى ألحقنا بهم ذريتهم ومن ابتدائية أو بيانية وقرئ وذريتنا وتنكير الاعين لارادة تنكير القرة تعظيما وتقليلها لان المراد أعين المتقين ولا ريب فى قلتها نظرا الى غيرها (واجعلنا للمتقين اماما) أى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى اقامة مراسم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو لان المراد واجعل كل واحد منا (والجواب)

بلغوا النهاية فى رد آيات الله تعالى فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن وذلك اما عند نزول العذاب عليهم فى الدنيا أو عند المعاينة أو فى الآخرة فهو كقوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين وقد جرت العادة فيمن يسىء أن يقال له ستعرى حالك من بعد على وجه الوعيد ثم انه تعالى بين انه مع انزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد فى بابه يقال وجه كريم اذا كان مرضيا فى حسنه وجماله وكتاب كريم اذا كان مرضيا فى فوائده ومعانيه والنبات الكريم هو المرضى فيما يتعلق به من المنافع وفى وصف الزوج بالكريم وجهان (أحدهما) ان النبات على نوعين نافع وضار فذكر سبحانه كثرة ما أنبت فى الارض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار (والثانى) أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعا بالكرم ونبه على انه ما أنبت شيأ الا وفيه فائدة وان غفل عنها الغافلون أما قوله ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين فهو كقوله هدى للمتقين والمعنى ان فى ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أى مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فانما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لانه لولم يقدمه لكان ربما قيل انه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ومع ذلك فانه رحيم بعباده فان الرحمة اذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعا والمراد انهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات ثم من اعطاء الصحة والعقل والهداية (المسئلة الثانية) انه تعالى وصف الكفار بالاعراض أولا وبالتكذيب ثانيا وبالاستهزاء ثالثا وهذه درجات من أخذ يترقى فى الشقاوة فانه يعرض أولا ثم يصرح بالتكذيب ثانيا ثم يبلغ فى التكذيب والانكار الى حيث يستهزئ به ثالثا (المسئلة الثالثة) فان قلت ما معنى الجمع بين كم وكل ولم لم يقل كم أنبتنا فيها من زوج كريم قلت قد دل كل على الاحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على ان هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة فهذا معنى الجمع وبه نبه على كمال قدرته فان قلت فحين ذكر الازواج ودل عليها بكلمتى الكثرة والاحاطة وكانت بحيث لا يحصيها الا عالم الغيب فكيف قال ان فى ذلك لآية وهلا قال لآيات قلت فيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك مشارا به الى مصدر أنبتنا فكأنه قال ان فى ذلك الانبات لآية أى آية (والثانى) أن يراد ان فى كل واحد من تلك الازواج لآية (المسئلة الرابعة) احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث فقالوا الذكر هو القرآن لقوله تعالى وهذا ذكر مبارك وبين فى هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين ان القرآن محدث وهكذا الاستدلال بقوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا وبقوله فبأى حديث بعده يؤمنون واذا ثبت انه محدث فله بانى فيكون مخلوقا لا محالة

عن الكل بطريق المعية وانه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد فما ظنك باجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة واما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره فى استدعاء الامامة وانه ليس بثابت جزما بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلنى للمتقين اماما خلا انه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد الى الايجاز على طريقة قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وأبقى اماما على حاله وقيل الامام جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم واعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الاول للايذان بأن كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بان يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شئ من ذلك تتمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما فى قوله الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب فى المزدحم (أولئك) اشارة الى المتصفين بما فصل فى حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به وفيه دلالة على انهم متميزون بذلك

(والجواب) ان كل ذلك يرجع الى هذه الالفاظ ونحن نسلم حدوثها انما ندعى قدم أمر آخر وراء هذه الحروف وليس فى الآية دلالة على ذلك ﴿قوله تعالى (واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون)﴾ اختلف أهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى هل هو كلامه القديم أو هو ضرب من الاصوات فقال أبو الحسن الاشعرى المسموع هو الكلام القديم وكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الاشياء مع أن الدليل دل على انها معلومة ومرئية فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والاصوات مع انه مسموع وقال أبو منصور الماتريدى الذى سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والاصوات وذلك لان الدليل لما دل على أنا رأينا الجوهر والعرض ولا بد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤية ولا علة الا الوجود حكمنا بان كل موجود يصح أن يرى ولم يثبت عندنا انا نسمع الاصوات والاجسام حتى يحكم بانه لا بد من مشترك بين الجسم والصوت فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعا فظهر الفرق اما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان الا حروفا وأصواتا فعند هذا قالوا ان ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به أن الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك الى واسطة وكفى فى الوقت أن يحمله الرسالة التى هى أن ائت القوم الظالمين لان فى بدء البعثة يجب أن يأمره بالدعاء الى التوحيد ثم بعده يأمره بالاحكام ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك الا وقد عرفه أنه ستظهر عليه المعجزات اذا طولب بذلك أما قوله تعالى ان ائت القوم الظالمين فالمعنى أنه تعالى سجل عليهم بالظلم وقد استحقوا هذا الاسم من وجهين من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم ومن وجه ظلمهم لبنى اسرائيل أما قوله قوم فرعون فقد عطف قوم فرعون على القوم الظالمين عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد وأما قوله ألا يتقون فقرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى ألا يتقوننى فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة وقوله ألا يتقون كلام مستأنف أتبعه تعالى ارساله اليهم للانذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيبا لموسى عليه السلام من حالهم فى الظلم والعسف ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم ويحتمل أن يكون ألا يتقون حالا من الضمير فى الظالمين أى يظلمون غير متقين الله وعقابه فادخلت همزة الانكار على الحال ووجه ثالث وهو أن يكون المعنى الا يا ناس اتقون كقوله ألا يسجدوا وأما من قرأ ألا تتقون على الخطاب فعلى طريقة الالتفات اليهم وصرف وجوههم بالانكار والغضب عليهم كما يرى من يشكو من ركب جناية والجانى حاضر فاذا اندفع فى الشكاية وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجانى يوبخه ويعنفه به ويقول له الا تتقى الله الا تستحى من الناس فان قلت فما الفائدة فى هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام فى وقت المناجاة والملتفت اليهم غائبون لا يشعرون قلت اجراء ذلك فى تكليم المرسل اليهم فى معنى اجرائه بحضرتهم والقائه الى مسامعهم

أ كل غير منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة ٥٠٤ وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ

لانه مبلغهم ومنبهه اليهم وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية نزلت فى شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرا لها واعتبارا بموارد ها ﴿ قوله تعالى (قال

رب انى أخاف ان يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فارسل الى هرون ولهم على ذنب فاخاف أن يقتلون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى قوم فرعون طلب موسى عليه السلام أن يبعث معه هرون اليهم ثم ذكر الامور الداعية له الى ذلك السؤال وحاصلها انه لولم يكن هرون لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام وذلك من وجهين الاول ان فرعون ربما كذبه والتكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون فى لسانه حبسة لان عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية الى باطن القلب واذا انقبضا الى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة فى اللسان فالتأذى من التكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب للحبسة فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ثم ثنى بضيق الصدر ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان وأما هرون فهو أفصح لسانا منى وليس فى حقه هذا المعنى فكان ارساله لائقا الثانى أن لهم عندى ذنبا فاخاف أن يبادروا الى قتلى وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة وأما هرون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة (المسئلة الثانية) قرئ يضيق وينطلق بالرفع لانهما معطوفان على خبران وبالنصب لعطفهما على صلة أن والمعنى أخاف أن يكذبون وأخاف أن يضيق صدرى وأخاف أن لا ينطلق لسانى والفرق أن الرفع يفيد ثلاث علل فى طلب ارسال هرون والنصب يفيد علة واحدة وهى الخوف من هذه الامور الثلاثة فان قلت الخوف غم يحصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلا فكيف جاز تعلق الخوف به قلت قد بينا ان التكذيب الذى سيقع يوجب ضيق القلب وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس فتلك الزيادة ما كانت حاصلة فى الحال بل كانت متوقعة فجاز تعليق الخوف عليها أما قوله تعالى فارسل الى هرون فليس فى الظاهر ذكر من الذى يرسل اليه وفى الخبر أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام اليه قال السدى ان موسى عليه السلام سار بأهله الى مصر والتقى بهرون وهو لا يعرفه فقال أنا موسى فتعارفا وأمره أن ينطلق معه الى فرعون لاداء الرسالة فصاحت أمهما لخوفها عليهما فذهبا اليه ويحتمل أن يكون المراد أرسل اليه جبريل لان رسول الله الى الانبياء جبريل عليه السلام فلما كان هو متعينا لهذا الامر حذف ذكره لكونه معلوما وأيضا ليس فى الظاهر انه يرسل لماذا لكن فحوى الكلام يدل على انه طلبه للمعونة فيما سأل كما يقال اذا نابتك نائبة فارسل الى فلان أى ليعينك فيها وليس فى الظاهر انه التمس كون هرون نبيا معه لكن قوله فقولا انا رسول رب العالمين يدل عليه واما قوله ولهم على ذنب فاراد بالذنب قتله القبطى وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة فى سورة القصص واعلم انه ليس فى القماس

خبره قوله تعالى (يجزون الغرفة) والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبينة لما لهم فى الآخرة من السعادة الابدية اثر بيان ما لهم فى الدنيا من الاعمال السنية والغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال أى يثابون أعلى منازل الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقيل هى اسم من أسماء الجنة (بما صبروا) أى بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها) من جهة الملائكة (تحية وسلاما) أى يحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحيى بعضهم بعضا ويسلم عليه وقرئ يلقون من لقى (خالدين فيها) لا يموتون ولا يخرجون (حسنت مستقرا ومقاما) الكلام فيه كالذى مر فى مقابله (قل) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون انما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا أى قل لهم كافة مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر (ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) أى أى عبء يعبأ بكم وأى اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فان ما خلق له الانسان

موسى

معرفته تعالى وطاعته والا فهو وسائر البهائم سواء وقال الزجاج معناه ٥٠٥ أى وزن يكون لكم عنده وقيل معناه ما يصنع

موسى عليه السلام أن يضم اليه هرون ما يدل على انه استعفى من الذهاب الى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه فى الوصول الى المراد واختلفوا فقال بعضهم انه وان كان نبيا فهو غير عالم بانه يبقى حتى يؤدى الرسالة لانه انما أمر بذلك بشرط التمكين وهذا قول الكعبى وغيره من البغداديين لانهم يجوزون دخول الشرط فى تكليف الله تعالى العبد والذى ذهب اليه الاكثرون ان ذلك لا يجوز لانه تعالى اذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور باوقات تمكنه فاذا علم انه غير متمكن منه فانه لا يأمره به واذا صح ذلك فالاقرب فى الانبياء انهم يعلمون اذا حملهم الله تعالى الرسالة انه تعالى يمكنهم من أدائها وانهم سيبقون الى ذلك الوقت ومثل ذلك لا يكون اغراء فى الانبياء وان جاز أن يكون اغراء فى غيرهم (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول قول موسى عليه السلام ولهم على ذنب هل يدل على صدور الذنب منه جوابه لا والمراد لهم على ذنب فى زعمهم ﴿ قوله تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى اسرائيل) اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين الاول أن يدفع عنه شرهم والثانى أن يرسل معه هرون فأجابه الله تعالى الى الاول بقوله كلا ومعناه ارتدع يا موسى عما تظن وأجابه الى الثانى بقوله فاذهبا أى اذهب أنت والذى طلبته وهو هرون فان قيل علام عطف قوله فاذهبا قلنا على الفعل الذى يدل عليه كلا كأنه قال ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهرون وأما قوله انا معكم مستمعون فمن مجاز الكلام يريد انا لكما ولعدو كما كالناصر الظهير لكما عليه اذا حضر واستمع ما يجرى بينكما فاظهركما عليه وأعليكما وأكسر شوكته عنكما وانما جعلنا الاستماع مجازا لان الاستماع عبارة عن الاصغاء وذلك على الله تعالى محال واما قوله انا رسول رب العالمين ففيه سؤال وهو انه هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله انا رسولا ربك جوابه من وجوه (أحدها) ان الرسول اسم للماهية من غير بيان ان تلك الماهية واحدة أو كثيرة والالف واللام لا يفيدان الا الوحدة لا الاستغراق بدليل انك تقول الانسان هو الضحاك ولا تقول كل انسان هو الضحاك ولا أيضا هذا الانسان هو الضحاك واذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد الا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله انا رسول رب العالمين (وثانيها) أن الرسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم * بسر ولا ارسلتهم برسول

فيكون المعنى انا ذو رسالة رب العالمين (وثالثها) انهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الاخوة كأنهما رسول واحد (ورابعها) المراد كل واحد منا رسول (وخامسها) ما قاله بعضهم انه انما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله انا معكما فى قوله تعالى انا أنزلناه وهو ضعيف وأما قوله أن أرسل معنا بنى اسرائيل فالمراد من هذا الارسال التخلية والاطلاق كقولك أرسل البازى يريد خلهم يذهبوا معنا ﴿ قوله

بكم ربى لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام وقيل ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ويجوز أن تكون ما نافية وقوله تعالى (فقد كذبتم) بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما أن ما قبله بيان لحال المؤمنين منهم أى فقد كذبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيها الكفرة ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين وقيل فقد قصرتم فى العبادة من قولهم كذب القتال اذا لم يبالغ فيه وقرئ فقد كذب الكافرون أى الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين وفائدته الايذان بان مناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسى المصحح للاشتراك فى الفوز ليس الا اختلافهما فى الاعمال (فسوف يكون لزاما) أى يكون جزاء التكذيب أو أثره لازما يحيق بكم لا محالة حتى يكبكم فى النار كما تعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها وانما أضمر من غير ذكر للايذان بغاية ظهوره وتهويل أمره والتنبيه على أنه مما لا يكتنهه البيان وقيل يكون العذاب لزاما وعن مجاهد رحمه الله هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفرقان لقى الله تعالى وهو مؤمن

بان الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب

*(سورة الشعراء مكية الا قوله والشعراء الى آخرها وهى مائتان

تعالى (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين) اعلم أن في الكلام حذفا وهو انهما أتياه وقالا ما أمر الله به فعند ذلك قال فرعون ما قال يروى انهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه أولا ثم اساءة موسى اليه ثانيا أما النعم فهي قوله ألم نربك فينا وليدا والوليد الصبي لقرب عهده من الولادة ولبثت فينا من عمرك وعن أبي عمرو بسكون الميم سنين قيل لبث عندهم ثلاثين سنة وقيل وكز القبطي وهو ابن اثنتي عشرة سنة وفر منهم والله أعلم بصحيح ذلك وعن الشعبي فعلتك بالكسر وهي قتله القبطي لانه قتله بالوكز وهو ضرب من القتل وأما الفعلة فلانها وكزة واحدة عدد عليه نعمه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك بقوله وفعلت فعلتك التي فعلت وأما قوله وأنت من الكافرين ففيه وجوه (أحدها) يجوز أن يكون حالا أي قتلته وأنت بذاك من الكافرين بنعمتي (وثانيها) وأنت اذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لانه كان يعاشرهم بالتقية فان الكفر غير جائز على الانبياء قبل النبوة (وثالثها) وأنت من الكافرين معناه وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولي نعمته (ورابعها) وأنت من الكافرين بفرعون والهيته أو من الذين يكفرون في دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها يشهد بذلك قوله تعالى ويذرك والهتك ۞ قوله تعالى (قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل) اعلم ان فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة لا جرم أن موسى عليه السلام ما أنكرها ولم يشتغل بالجواب عنها لانه تقرر في العقول ان الرسول الى الغير اذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بان يكون المرسل اليه أنعم عليه أو لم يفعل ذلك فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر البتة ومثل هذا الكلام الاعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شيء أبلغ منه في الجواب وهو قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤول اليه من القتل لانه فعل الوكزة على وجه التأديب ومثل ذلك ربما حسن وان أدى الى القتل فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافرا أو كافر النعمة فأما قوله ففررت منكم لما خفتكم فالمراد اني فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكا وكان مني في حكم السهو فلم استحق التخويف الذي يوجب الفرار ومع ذلك ففررت منكم عند قولكم ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فبين بذلك انه لا نعمة له عليه في باب تلك الفعلة بل بان يكون مسيئا فيه أقرب من حيث خوف تخويفا أوجب الفرار ثم بين نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار فكأنه قال أسأتم وأحسن الله الي بان وهب لي حكما وجعلني من المرسلين واختلفوا في

وست أو سبع وعشرون آية) ●(بسم الله الرحمن الرحيم)●(طسم) بتفخيم الالف وبامالتها واظهار النون وبادغامها في الميم وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدي على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وهو أظهر من الرفع على الابتداء وقد مر وجهه في مطلع سورة يونس عليه السلام أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وتلك في قوله تعالى (تلك آيات الكتاب المبين) اشارة الى السورة سواء كان طسم مسرودا على نمط التعديد أو اسما للسورة حسبما مر تحقيقه هناك وما في اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار اليه في الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده وعلى تقدير كون طسم مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الاول والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر اعجازه على أنه من ابان بمعنى بان أو المبين للاحكام الشرعية وما يتعلق بها أو الفاصل بين الحق والباطل والمعنى هي آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضا منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الفاضلة (لعلك باخع نفسك) أي قاتل وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح وقرئ باخع نفسك على الاضافة ولعل للاشفاق أي اشفق على نفسك

الحكم

الحكم والاقرب انه غير النبوة لان المعطوف غير المعطوف عليه والنبوة مفهومة من قوله وجعلني من المرسلين فالمراد بالحكم العلم ويدخل في العلم العقل والرأي والعلم بالدين الذي هو التوحيد وهذا أقرب لانه لا يجوز أن يبعثه تعالى الا مع كماله في العقل والرأي والعلم بالتوحيد وقوله فوهب لي ربي حكما كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى وقالت المعتزلة المراد منه الالطاف وهو ضعيف جدا لان الالطاف مفعولة في حق الكل من غير تخصيص ولا تقصير فالتخصيص لا بد فيه من فائدة فأما قوله وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل فهو جواب قوله ألم نربك فينا وليدا يقال عبدت الرجل وأعبدته اذا اتخذته عبدا فان قيل كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلق بين الامرين قلنا بيان التعلق من وجوه (أحدها) انه انما وقع في يده وفي تربيته لانه قصد تعبيد بني اسرائيل وذبح أبنائهم فكأنه عليه السلام قال له كنت مستغنيا عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى أسلافنا (وثانيها) ان هذا الانعام المتأخر صار معارضا بذلك الظلم العظيم على أسلافنا واذا تعارضا تساقطا (وثالثها) ما قاله الحسن انك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت علي فلا نعمة لك بالتربية (ورابعها) المراد أن الذي تولى تربيتي هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك علي لان التربية كانت من قبل أمي وسائر من هو من قومي ليس لك الا انك ما قتلتني ومثل هذا لا يعد انعاما (وخامسها) انك كنت تدعي أن بني اسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد في أن يطعمه و يعطيه ما يحتاج اليه واعلم أن في الآية دلالة على أن كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن اليه ولا يبطل منته لان موسى عليه السلام انما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بينا واختلف العلماء فقال بعضهم اذا كان كافرا لا يستحق الشكر على نعمه على الناس انما يستحق الاهانة بكفره فلو استحق الشكر بانعامه والشكر لا يوجد الا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقا للاهانة وللتعظيم معا واستحقاق الجمع بين الضدين محال وقال آخرون لا يبطل الشكر بالكفر وانما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذي يستحقه على الايمان والآية تدل على هذا القول الثاني (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف انما جمع الضمير في منكم وخفتكم مع افراده في تمنها وعبدت لان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملائه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد فان قلت تلك اشارة الى ماذا وأن عبدت ما محلها من الاعراب قلت تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هي الا بتفسيرها وهي أن عبدت فان أن عبدت عطف بيان ونظيره قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين والمعنى تعبيدك بني اسرائيل نعمة تمنها علي وقال الزجاج ويجوز أن يكون أن في موضع نصب والمعنى انما صارت نعمة علي لان عبدت بني اسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفاني أهلي ۞ قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال

أن تقتلها حسرة على ما فاتك من اسلام قومك (أن لا يكونوا مؤمنين) أي لعدم ايمانهم بذلك الكتاب المبين أو خيفة أن لا يؤمنوا به وقوله تعالى (ان نشأ) الخ استئناف مسوق لتعليل ما يفهم من الكلام من النهي عن التحسر المذكور ببيان أن ايمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أعني قوله تعالى (ننزل عليهم من السماء آية) أي ملجئة لهم الى الايمان قاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أي منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فاقحمت الاعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم في الصيغة أيضا كما في قوله تعالى رأيتهم لي ساجدين وقيل أريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس أي فوج منهم وقرئ خاضعة وقوله تعالى فظلت عطف على ننزل باعتبار محله وقوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين) بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذكر من الآية الملجئة لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على اسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية لابتداء الغاية مجازا

متعلقة بيأتيهم او بمحذوف هو صفة لذكر ٥٠٨ وأيا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان
الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جناياتهم فان الاعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الاطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع واقبح أى ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية أو من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير وتنبههم من الغفلة اتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة الا جددوا اعراضا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء واصرارا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور اى ما يأتيهم من ذكر فى حال من الاحوال الا حال كونهم معرضين عنه (فقد كذبوا) أى كذبوا بالذكر الذى يأتيهم تكذيبا صريحا مقارنا للاستهزاء به ولم يكتفوا بالاعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرا وأخرى أساطير وأخرى شعرا والفاء فى قوله تعالى (فسيأتيهم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها والسين لتأكيد مضمون الجملة وتقريره أى فسيأتيهم البتة من غير تخلف أصلا (أنباء ما كانوا به يستهزؤن) عدل عما يقتضيه سائر ما سلف من الاعراض والتكذيب للايذان بانهما كانا مقارنين للاستهزاء كما اشير اليه حسبما وقع فى قوله تعالى وما تأتيهم

لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون قال لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشئ مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين) اعلم ان فرعون لم يقل لموسى ومارب العالمين الا وقد دعاه موسى الى طاعة رب العالمين يبين ذلك ما تقدم من قوله فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين فلا بد عند دخولهما عليه انهما قالا ذلك فعند ذلك قال فرعون ومارب العالمين ثم ههنا بحثان (الاول) ان فرعون يحتمل أن يقال انه كان عارفا بالله ولكنه قال ما قال طلبا للملك والرياسة وقد ذكر الله تعالى فى كتابه ما يدل على انه كان عارفا بالله وهو قوله قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض فاذا قرئ بفتح التاء من علمت فالمراد أن فرعون علم ذلك وذلك يدل على انه كان عارفا بالله لكنه كان يستأكل قومه بما يظهره من الهيبة والقراءة الاخرى برفع التاء من علمت فهى تقتضى أن موسى عليه السلام هو الذى عرف ذلك وأيضا فان فرعون ان لم يكن عاقلا لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول اليه وان كان عاقلا فهو يعلم بالضرورة انه ما كان موجودا ولا حيا ولا عاقلا ثم صار كذلك وبالضرورة يعلم أن كل ما كان كذلك فلا بد له من مؤثر فلا بد وان يتولد له من هذين العلمين علم ثالث بافتقاره فى تركيبه وفى حياته وعقله الى مؤثر موجد ويحتمل أن يقال انه كان على مذهب الدهرية من ان الافلاك واجبة الوجود فى ذواتها ومتحركة لذواتها وان حركاتها أسباب لحصول الحوادث فى هذا العالم أو يقال انه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار ثم اعتقد انه بمنزلة الاله لاهل اقليمه من حيث استعبدهم وملك ذماتهم وزمام أمرهم ويحتمل أن يقال انه كان على مذهب الحلولية القائلين بان ذات الاله يتدرع بجسد انسان معين حتى يكون الاله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل انسان بالنسبة الى جسده وبهذه التقديرات كان يسمى نفسه الها (البحث الثانى) وهو انه قال لموسى عليه السلام ومارب العالمين واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشئ وتعريف حقيقة الشئ اما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشئ من أجزائها أو بأمر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج أما تعريفها بنفسها فمحال لان المعرف معلوم قبل المعرف فلو عرف الشئ بنفسه لزم أن يكون معلوما قبل أن يكون معلوما وهو محال وأما تعريفها بالامور الداخلة فيها فههنا فى حق واجب الوجود محال لان التعريف بالامور الداخلة لا يمكن الا اذا كان المعرف مركبا وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركبا لان كل مركب فهو محتاج الى كل واحد من أجزائه وكل واحد من اجزائه فهو غيره فكل مركب محتاج الى غيره وكل ما احتاج الى غيره فهو ممكن لذاته وكل مركب فهو ممكن فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركبا فواجب الوجود ليس بمركب واذا لم يكن مركبا استحال تعريفه باجزائه ولما بطل هذان القسمان ثبت انه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود الا بلوازمه

وآثاره

من اية من ايات ربهم الا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف ٥١٣ يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن وأنباء
ماسيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة عبر عنها بذلك اما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم واما لانهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الاحوال الخافية عنهم باستماع الانباء وفيه تهويل له لان النبأ لا يطلق الا على خبر خطير له وقع عظيم اى فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزؤن به قبل من غير أن يتدبروا فى أحواله ويقفوا عليها (أولم يروا) الهمزة للانكار التوبيخى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أفعلوا ما فعلوا من الاعراض من الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا (الى الارض) اى الى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية الى الاقبال على ما أعرضوا عنه والى الايمان به وقوله تعالى (كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) استئناف مبين لما فى الارض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية الى الايمان وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لافادة الاحاطة والكثرة معا ومن كل زوج اى صنف متميز والكريم من كل شئ مرضيه ومحموده اى كثيرا من كل صنف مرضى كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص انباته بالذكر دون ما عداه من الاصناف لاختصاصه

وآثاره ثم ان اللوازم قد تكون خفية وقد تكون جلية ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والارض وما بينهما فقد ثبت انه لا جواب البتة لقول فرعون ومارب العالمين الا ما قاله موسى عليه السلام وهو أنه رب السموات والارض وما بينهما فاما قوله ان كنتم موقنين فمعناه ان كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات الى موجود واجب الوجود فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه الا بما ذكرته لانكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات الى الواجب لذاته وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه الا بآثاره وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء وما ذاك الا السموات والارض وما بينهما فان أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال الا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله ألا تستمعون وانما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى يعنى انا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبنى بالفاعلية والمؤثرية وتمام الاشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية وذلك لانا اذا قلنا فى الشئ انه الذى يلزمه اللازم الفلانى فهذا المذكور اما أن يكون معرفا لمجرد كونه أمرا ما يلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التى عرضت لها هذه الملزومية والاول محال لان كونه أمرا يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفا فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشئ معرفا لنفسه وهو محال والثانى محال لان العلم بأنه أمر ما يلزمه اللازم الفلانى لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة لانه لا يمتنع فى العقل اشتراك الماهيات المختلفة فى لوازم متساوية فثبت أن التعريف بالوصف الخارجى لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه ربا للسموات والارض وما بينهما جوابا عن قوله ومارب العالمين فأجاب موسى عليه السلام بأن قال ربكم ورب آبائكم الاولين وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقا لنا ولآبائنا وذلك لانه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والارضين واجبة لذواتها فهى غنية عن الخالق والمؤثر ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل فى نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لما أن المشاهدة دلت على انهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته وما لم يكن واجبا لذاته استحال وجوده الا لمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر اظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الاول اليه فقال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون يعنى المقصود من سؤال ما طلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية فهذا الذى يدعى الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه فقال موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون فعدل الى طريق ثالث

بالدلالة على القدرة والنعمة معا ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ويكون وصف الكل

أوضح من الثانى وذلك لانه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار والامر ظاهر فى ان هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم الا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه السلام مع نمروذ فانه استدل أولا بالاحياء والاماتة وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله ربكم ورب آبائكم الاولين فأجابه نمروذ بقوله أنا أحيى وأميت فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله رب المشرق والمغرب وأما قوله ان كنتم تعقلون فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت انه لا جواب عن سؤالك الا ما ذكرت لانك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته وقد ثبت انه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته فلم يبق الا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت أن كل من كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال الا ما ذكرته واعلم انا قد بينا فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده ان حقيقة الاله سبحانه من حيث هى هى غير معقولة للبشر واذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة الا أن عدم العلم بتلك الخصوصية لا يقدح فى صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على اثبات أن للعالمين ربا والها ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة فكان موسى عليه السلام يقيم الدلالة على اثبات القدر المحتاج اليه فى صحة دعوى الرسالة وفرعون يطالبه ببيان الماهية وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بانه لا تعلق لذلك السؤال نفيا ولا اثباتا فى هذا المطلوب فهذا تمام القول فى هذا البحث والله أعلم ثم ان موسى عليه السلام لما خشن فى آخر الكلام بقوله ان كنتم تعقلون فعند ذلك قال فرعون لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين فانه لما عجز عن الحجاج عدل الى التخويف فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال أولو جئتك بشئ مبين اى هل تستجيز أن تسجننى مع اقتدارى على أن آتيك بأمر بين فى باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى أنى رسوله فعند ذلك قال فأت به ان كنت من الصادقين وههنا فروع (الفرع الاول) الآية تدل على انه تعالى ليس بجسم لانه لو كان جسما وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازماله لعدوله عن الجواب الحق (الثانى) الواجب على من يدعو غيره الى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة لان موسى عليه السلام لما قال له فرعون انه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه (الثالث) انه يجوز للمسؤل أن يعدل فى جوابه من مثال الى مثال لايضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع (الرابع) ان قيل كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشئ مبين والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم

بالكرم للتنبيه على انه تعالى ما أنبت شيئا الا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا فان الحكيم لا يكاد يفعل فعلا الا وفيه حكمة بالغة وان غفل عنها الغافلون ولم يتوصل الى معرفة كنهها العاقلون (ان فى ذلك) اشارة الى مصدر أنبتنا أو الى كل واحد من تلك الازواج وأياما كان فما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الفضل (لآية) اى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للايمان وازعة عن الكفر (وما كان أكثرهم) اى أكثر قومه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) قيل اى فى علم الله تعالى وقضائه حيث علم أزلا أنهم سيصرفون فيما لا يزال اختيارهم الذى عليه يدور أمر التكليف الى جانب الشر ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين وهو الانسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع تعاضد موجبات الايمان من جهته تعالى وأما نسبة كفرهم الى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر لان ما أشير اليه من التحقيق مما خفى على مهرة العلماء المتقنين كأنه قيل ان فى ذلك لآية باهرة موجبة للايمان وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم فى الكفر والضلالة وانهماكهم فى الغى والجهالة ونسبة عدم الايمان الى أكثرهم لان منهم من سيؤمن (وان ربك لهو العزيز)

قلنا بل يدل ما اراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى انه صادق فى الرسالة فالذى ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع (الخامس) فان قيل كيف قال رب السموات والارض وما بينهما على التثنية والمرجوع اليه مجموع جوابه أريد ما بين الجهتين فان قيل ذكر السموات والارض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب جوابه قد عمم أولا ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لان أقرب الاشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده الى وقت وفاته من حالة الى حالة أخرى ثم خصص المشرق والمغرب لان طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم فى فصول السنة من أظهر الدلائل (السادس) فان قيل لم قال لأجعلنك من المسجونين ولم يقل لأسجننك مع انه أخصر (جوابه) لانه لو قال لأسجننك لا يفيد الا صيرورته مسجونا اما قوله لأجعلنك من المسجونين فمعناه أنى أجعلك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه فى بئر عميقة فردا لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل (السابع) الواو فى قوله أولو جئتك واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين اى جائيا بالمعجزة ۞ قوله تعالى (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الاعمش بكل ساحر عليم (المسئلة الثانية) اعلم أن قوله أولو جئتك بشئ مبين يدل على أن الله تعالى قبل أن ألقى العصا عرفه بأنه يصيرها ثعبانا ولولا ذلك لما قال ما قال فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعبانا ناميا والمراد انه تبين للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات روى انه لما انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون وجعلت تقول يا موسى مرنى بما شئت ويقول فرعون يا موسى أسألك بالذى أرسلك الا أخذتها فعادت عصا فان قيل كيف قال ههنا ثعبان مبين وفى آية أخرى فاذا هى حية تسعى وفى آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان مائل الى الكبر جوابه أما الحية فهى اسم الجنس ثم انها لكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان ويحتمل انه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل انها كانت أولا صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها قال نعم فأراه يده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فاذا هى بيضاء يضئ الوادى من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أمورا ثلاثة (أحدها) قوله ان هذا لساحر عليم وذلك لان الزمان كان

الغالب على كل ما يريده من الامور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى (واذ نادى ربك موسى) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من اعراضهم عن كل ما يأتيهم من الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها اثر بيان اعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام اى واذكر لاولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم اياه زجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق بأضرابهم المكذبين الظالمين حتى يتضح لك أنهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال أولئك فقط بل بمشاهدة اصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحى الناطق بقصتهم وعدم اتعاظهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله تعالى ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين عقيب كل قصة وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر تحريره مرارا (أن ائت) بمعنى اى ائت على أن أن مفسرة او بأن ائت على أنها مصدرية

حذف منها الجار (القوم الظالمين) اي بالكفر والمعاصي واستعباد بني اسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ما ورد

زمان السحرة وكان عند كثير منهم ان الساحر قد يجوز أن ينتهي بسحره الى هذا الحد فلهذا روج عليهم هذا القول وثانيها قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله والمعنى يريد ان يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ومعلوم ان مفارقة الوطن أصعب الامور فنفرهم عنه بذلك وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن المحق (وثالثها) قوله لهم فماذا تأمرون اي فما رأيكم فيه وما الذي أعمله يظهر من نفسه أني متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله أرجئه قرئ أرجئه وأرجه بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال أرجأته وأرجيته اذا أخرته والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل احبسه وذلك محتمل لانك اذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته روى أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل اليه فقالوا له لا تفعل فانك ان قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة ولكن أرجئه وأخاه الى أن تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة ثم اشاروا عليه بانفاذ حاشرين يجمعون السحرة ظنا منهم بانهم اذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم بقولهم بكل سحار عليم فجاؤا بكلمة الاحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه قال صاحب الكشاف فان قلت قوله تعالى قال للملا حوله ما العامل في حوله قلت هو منصوب نصبين نصب في اللفظ ونصب في المحل والعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال ﴿ قوله تعالى (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اليوم المعلوم يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى والميقات ما وقت به اي حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الاحرام (المسئلة الثانية) اعلم أن القوم لما أشاروا بتأخير أمره وبان يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قول موسى عليه السلام رضي فرعون بما قالوه وعمي عما شاهده وحب الشيء يعمي ويصم فجمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضا من لطف الله تعالى في ظهور أمر موسى عليه السلام أما قوله وقيل للناس هل أنتم مجتمعون فالمراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين وأما قوله لعلنا نتبع السحرة فالمراد انا نرجو أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدؤا بطلب الجزاء وهو اما المال واما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله وانكم اذا لمن المقربين لان نهاية مطلوبهم منه

في حيز النداء وانما هو ما فصل في سورة طه من قوله تعالى اني أنا ربك الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى وايراد ما جرى في قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب مختلفة قد مر تحقيقه في أوائل سورة الاعراف عند قوله تعالى قال أنظرني (قوم فرعون) بدل من الاول أو عطف بيان له جيء به للايذان بانهم علم في الظلم كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون والاقتصار على ذكر قومه للايذان بشهرة أن نفسه اول داخل في الحكم (ألا يتقون) استئناف جيء به اثر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم للانذار تعجيبا من غلوهم في الظلم وافراطهم في العدوان وقرئ بتاء الخطاب على طريقة الالتفات المنبئ عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم أدى الى مشافهتهم بذلك وهم وان كانوا حينئذ غيبا لكنهم قد أجروا مجرى الحاضرين في كلام المرسل اليهم من حيث انه مبلغه اليهم واسماعه مبتدأ اسماعهم مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبر وتأمل وقرئ بكسر النون اكتفاء به عن ياء المتكلم وقد جوز أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون نحو ألا يسجدوا (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية ما مضى كأنه قيل فماذا قال موسى عليه السلام فقيل قال متضرعا الى الله عز وجل (رب اني أخاف أن يكذبون) من اول الامر

البذل

(ويضيق صدري ولا ينطلق لساني) معطوفان على أخاف (فارسل) اي جبريل عليه السلام (الى هرون) ليكون معي

البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الامرين ﴿ قوله تعالى (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فالقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون فالقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لا بد من أن يبدأ موسى أو يبدؤا ثم انهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم وقالوا اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى فلما تواضعوا له تواضع هو أيضا لهم فقدمهم على نفسه وقال ألقوا ما أنتم ملقون فان قيل كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصي وذلك سحر وتلبيس وكفر والامر بمثله لا يجوز الجواب لا شبهة في أن ذلك ليس بامر لان مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجري مجرى المغالبة واذا ثبت هذا وجب تاويل صيغة الامر وفيه وجوه أحدها ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما في قوله فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين (وثانيها) لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار جائزا (وثالثها) أن هذا ليس بامر بل هو تهديد اي ان فعلتم ذلك أتينا بما نبطله كقول القائل لئن رميتني لافعلن ولاصنعن ثم يفوق له السهم فيقول له ارم فيكون ذلك منه تهديدا (ورابعها) ما ذكرنا انهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سببا لقبول الحق ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم في كل الاحوال التواضع لان مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة فبأن يفعل الواحد منا أولى أما قوله تعالى فألقوا حبالهم وعصيهم فروى عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصي مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الارض فهاب موسى عليه السلام ذلك فقيل له ألق ما في يمينك فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه فاذا هي كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون كنا نسحر الناس فاذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي وكذلك ان غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين واعلم أن في الاخبار اختلافا فمنهم من كثر الحبال والعصي ومنهم من توسط والله أعلم بعدد ذلك والذي يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد ولان الامر بلغ عند فرعون وقومه في العظم مبلغا يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة وأما قوله وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فالمراد أنهم أظهروا ما يجري مجرى القطع على أنهم يغلبون وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لامر موسى عليه السلام أما قوله فالقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون فالمراد من قوله ما يأفكون ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى وسمى تلك الاشياء افكا مبالغة أما قوله فالقى السحرة

وأتعاضد به في تبليغ الرسالة رتب عليه الصلاة والسلام استدعاءه ذلك على الامور الثلاثة خوف التكذيب وضيق الصدر وازدياد ما كان فيه عليه الصلاة والسلام من حبسة اللسان بانقباض الروح الى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لانها اذا اجتمعت تمس الحاجة الى معين يقوي قلبه وينوب منابه اذا اعتراه حبسة حتى لا تختل دعوته ولا تنقطع حجته وليس هذا من التعلل والتوقف في تلقي الامر في شيء وانما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به وتمهيد عذر فيه وقرئ ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفا على يكذبون فيكونان من جملة ما يخاف منه (ولهم علي ذنب) اي تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه أو سمي باسمه والمراد به قتل القبطي وتسميته ذنبا بحسب زعمهم كما ينبئ عنه قوله لهم وهذا اشارة الى قصة مبسوطة في غير موضع (فأخاف) اي ان أتيتهم وحدي (أن يقتلون) بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغي وليس هذا أيضا تعللا وانما هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها وقوله تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا) حكاية لاجابته تعالى الى الطلبتين الدفع المفهوم من الردع عن الخوف وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب اليهما بطريق التغليب فانه معطوف على مضمر ينبئ عنه الردع كأنه قيل ارتدع يا موسى عما تظن

فاذهب أنت ومن استدعيته وفى قوله ٥١٨ بآياتنا رمز الى انها تدفع ما يخافه وقوله تعالى (انا معكم مستمعون) تعليل للردع

ساجدين فالمراد خروا سجدا لانهم كانوا فى الطبقة العالية من علم السحر فلاجرم كانوا عالمين بمنتهى السحر فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجا عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر وما كان ذلك الا ببركة تحقيقهم فى علم السحر ثم انهم عند ذلك لم يتمالكوا ان رموا بانفسهم الى الارض ساجدين كانهم أخذوا فطرحوا فان قيل فاعل الالقاء ما هو لو صرح به جوابه هو الله تعالى بما حصل فى قلوبهم من الدواعى الجازمة الخالية عن المعارضات ولكن الاولى أن لا تقدر فاعلا لان ألقى بمعنى خر وسقط أما قوله رب موسى وهرون فهو عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعى الربوبية فأرادوا عزله ومعنى اضافته اليهما فى ذلك المقام أنه الذى دعا موسى وهرون عليهما السلام اليه ﴿ قوله تعالى

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) اعلم أنهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس ان هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا الا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فلبس على القوم وبالغ فى التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه (أولها) قوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وهذا فيه ايهام ان مسارعتكم الى الايمان به دالة على انكم كنتم مائلين اليه وذلك يطرق التهمة اليهم فلعلهم قصروا فى السحر حياله (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا تصريح بما رمز به أولا وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطاة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا فى السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام والا ففى قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام وهذه شبهة قوية فى تنفير من يقبل قوله (وثالثها) قوله فلسوف تعلمون وهو وعيد مطلق وتهديد شديد (ورابعها) قوله لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم وليس فى الاهلاك أقوى من ذلك وليس فى الآية أنه فعل ذلك أولم يفعل ثم انهم أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين (الاول) قولهم لاضير انا الى ربنا منقلبون الضر والضير واحد وليس المراد ان ذلك ان وقع لم يضر وانما عنوا بالاضافة الى ما عرفوه من دار الجزاء (واعلم) ان قولهم انا الى ربنا منقلبون فيه نكتة شريفة وهى انهم قد بلغوا فى حب الله تعالى أنهم ما أرادوا شيأ سوى الوصول الى حضرته وأنهم ما آمنوا رغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب وانما مقصودهم محض الوصول الى مرضاته والاستغراق فى أنوار معرفته وهذا أعلى درجات الصديقين (الجواب الثانى) قولهم انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا فهو اشارة منهم الى الكفر والسحر وغيرهما والطمع فى هذا الموضع يحتمل اليقين كقول ابراهيم والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ويحتمل الظن لان المرء لا يعلم ما سيجئ من بعد أما قوله أن كنا

عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى اننى معكما أسمع وأرى وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر ههنا فى المعية وقيل أجريا مجرى الجماعة وباياه ما قبله وما بعده من ضمير التثنية اى سامعون ما يجرى بينكما وبينه فنظهركما عليه مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يسمع ما يجرى بينهم ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة فى الوعد بالاعانة أو استعير الاستماع الذى هو بمعنى الاصغاء للسمع الذى هو العلم بالحروف والاصوات وهو خبر ثان او خبر وحده ومعكم ظرف لغو والفاء فى قوله تعالى (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد الكريم وليس هذا مجرد تأكيد للامر بالذهاب لان معناه الوصول الى المأتى لا مجرد التوجه اليه كالذهاب وافراد الرسول اما باعتبار رسالة كل منهما أو لاتحاد مطلبهما اولانه مصدر وصف به وأن فى قوله تعالى (أن أرسل معنا بنى اسرائيل) مفسرة لتضمن الارسال المفهوم من الرسول معنى القول ومعنى ارسالهم تخليتهم وشأنهم ليذهبوا معهما الى الشام (قال) اى فرعون لموسى عليه السلام بعدما أتياه

وقالاله ما أمرا به يروى أنهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم أنه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك فأديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه ٥١٩ السلام فقال عند ذلك (ألم نربك فينا)

أول المؤمنين فالمراد لان كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف أو يكون المراد من السحرة خاصة أومن رعية فرعون أومن أهل زمانهم وقرئ ان كنا بالكسر وهو من الشرط الذى يجئ به المدل ونظيره قول القائل لمن يؤخر جعله ان كنت عملت لك فوفنى حقى ﴿ قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى اسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين) قرئ أسر بقطع الهمزة ووصلها وسر لما ظهر أمر موسى عليه السلام بما شاهدوه من الآية أمره الله تعالى بأن يخرج ببنى اسرائيل لما كان فى المعلوم من تدبير الله تعالى فى موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم ولم يأمن وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون ببنى اسرائيل ما يؤدى الى الاستئصال فلذلك أمره الله تعالى أن يسرى ببنى اسرائيل وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى ولاشبهة ان فى الكلام حذفا وهو انه أسرى بهم كما أمره الله تعالى ثم ان قوم موسى عليه السلام قالوا لقوم فرعون ان لنا فى هذه الليلة عيدا ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب ثم خرجوا بتلك الاموال فى الليل الى جانب البحر فلما سمع ذلك فرعون أرسل فى المدائن حاشرين ثم انه قوى نفسه ونفس أصحابه بان وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم ووصف قوم نفسه بصفة المدح أما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم (فالصفة الاولى) قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون والشرذمة الطائفة القليلة ومنه قولهم ثوب شراذم للذى بلى وتقطع قطعا ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلا بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة ويجوز أن يريد بالقلة الذلة لاقلة العدد والمعنى انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ثم اختلف المفسرون فى عدد تلك الشرذمة فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا ستمائة ألف مقاتل لاشاب فيهم دون عشرين سنة ولاشيخ يوفى على الستين سوى الحشم وفرعون يقللهم لكثرة من معه وهذا الوصف قد يستعمل فى الكثير عند الاضافة الى ما هو أكثر منه فروى ان فرعون خرج على فرس أدهم حصان وفى عسكره على لون فرسه ثلثمائة ألف (الصفة الثانية) قوله وانهم لنا لغائظون يعنى يفعلون افعالا تغيظنا وتضيق صدورنا واختلفوا فى تلك الافعال على وجوه (أحدها) ما تقدم من أمر الحلى وغيره (وثانيها) خروج بنى اسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بانفسهم (وثالثها) مخالفتهم لهم فى الدين وخروجهم عليهم (ورابعها) ليس الا انهم لم يتخذوا فرعون الها أما الذى وصف فرعون به قومه فهو قوله وانا لجميع حذرون وفيه ثلاث قراآت حذرون

فى حجرنا ومنازلنا (وليدا) اى طفلا عبر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة (ولبثت فينا من عمرك سنين) قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج الى مدين وأقام بها عشر سنين ثم عاد اليهم يدعوهم الى الله عز وجل ثلاثين سنة ثم بقى بعد الغرق خمسين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنتى عشرة سنة وفر منهم على اثر ذلك والله أعلم (وفعلت فعلتك التى فعلت) يعنى قتل القبطى بعدما عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال وبخه بما جرى عليه من قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه وقرئ فعلتك بكسر الفاء لانها كانت نوعا من القتل (وأنت من الكافرين) اى بنعمتى حيث عمدت الى قتل رجل من خواصى أوأنت حينئذ ممن تكفرهم الآن وقد افترى عليه عليه الصلاة والسلام أوجهل أمره عليه الصلاة والسلام حيث كان يعايشهم بالتقية والافأين هو عليه الصلاة والسلام من مشاركتهم فى الدين فالجملة حينئذ حال من احدى التاءين ويجوز أن يكون حكما مبتدأ عليه بانه من الكافرين بالهيته أوممن يكفرون فى دينهم حيث كانت لهم آلهة يعبدونها أومن الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه الجناية

بدعا منه (قال) مجيبا له مصدقا له فى القتل ومكذبا فيما نسبه اليه من الكفر (فعلتها اذا وانا من الضالين) اى من الجاهلين وقد

وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة * واعلم أن الصفة اذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث واذا لم تكن كذلك وهى المشبهة أفادت الثبوت فمن قرأ حذرون ذهب الى انا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم ومن قرأ حاذرون فكانه ذهب الى معنى انا قوم ما عهدنا أن نحذر الا عصرنا هذا وأما من قرأ حادرون بالدال غير المعجمة فكانه ذهب الى نفى الحذر أصلا لان الحادر هو المشمر فاراد انا قوم أقوياء أشداء أو أراد انا مدججون فى السلاح والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن انه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم أما قوله تعالى فاخرجناهم فالمراد انا جعلنا فى قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل فكان الفعل مضافا الى الله تعالى لا محالة وأما قوله من جنات وعيون وكنوز فقال مجاهد سماها كنوزا لانهم لم ينفقوا منها فى طاعة الله تعالى والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية والمعنى انا أخرجناهم من بساتينهم التى فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة والمواضع التى كانوا يتنعمون فيها اما قوله كذلك وأورثناها بنى اسرائيل أما قوله كذلك فيحتمل ثلاثة أوجه النصب على اخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفناه والجر على أنه وصف لمقام كريم اى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم والرفع على انه خبر لمبتدا محذوف اى الامر كذلك أما قوله فأتبعوهم اى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم مشرقين داخلين فى وقت الشروق من شرقت الشمس شروقا اذا طلعت أما قوله فلما تراءى الجمعان اى رأى بعضهم بعضا قال اصحاب موسى انا لمدركون اى لملحقون وقالوا لموسى اوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا كانوا يذبحون ابناءنا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا اى فى هذه الساعة فيقتلوننا وقرئ فلما تراءت الفئتان انا لمدركون بتشديد الدال وكسر الراء من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى ومنه قوله تعالى بل ادارك علمهم فى الآخرة قال الحسن جهلوا علم الآخرة والمعنى انا لمتتابعون فى الهلاك على ايديهم حتى لا يبقى منا احد فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كالمنع مما توهموه ثم قوى نفوسهم بامرين احدهما ان معى ربى وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة (والثانى) قوله سيهدين والهدى هو طريق النجاة والخلاص واذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية فى النصرة

﴿قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه اجمعين ثم أغرقنا الآخرين ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم)﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله ان معى ربى سيهدين بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا فقال وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ولا شبهة فى ان المراد فضرب فانفلق لانه

ترئ كذلك لا من الكافرين كما زعمت افتراء اى من الفاعلين فعل الجهلة والسفهاء أو من المخطئين لانه لم يتعمد قتله بل أراد تأديبه أو الذاهبين عما يؤدى اليه الوكز أو الناسين كقوله تعالى أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى (ففررت منكم) الى ربى (لما خفتكم) أن تصيبونى بمضرة وتؤاخذونى بما لا أستحقه بجنايتى من العقاب (فوهب لى ربى حكما) اى حكمة أو نبوة (وجعلنى من المرسلين) ردا أولا بذلك ما وبخه به قدحا فى نبوته ثم كر على ما عدّه عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح فى دعواه بل نبه على أن ذلك كان فى الحقيقة نقمة فقال (وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى اسرائيل) اى تلك التربية نعمة تمن بها علىّ ظاهرا وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى اسرائيل وقصدك اياهم بذبح أبنائهم فانه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك وقيل انه مقدر بهمزة الانكار اى أو تلك نعمة تمنها علىّ وهى أن عبدت بنى اسرائيل ومحل ان عبدت الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف او بدل من نعمة او الجر باضمار الباء او النصب بحذفها وقيل تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة وأن عبدت عطف بيان لها والمعنى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها علىّ وتوحيد الخطاب فى تمنها وجمعه فيما قبله لان المنة منه خاصة والخوف والفرار منه ومن ملئه (قال فرعون) لما سمع منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه فى أمره وعدم تأثره بما قدمه من

كالمعلوم من الكلام اذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لانه كالعبث ولانه تعالى جعله من معجزاته التى ظهرت بالعصا ولان انفلاقه بضربه أعظم فى النعمة عليه وأقوى لعلمهم ان ذلك انما حصل لمكان موسى عليه السلام واختلفوا فى البحر روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان موسى عليه السلام لما انتهى الى البحر مع بنى اسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا الا يوشع بن نون فانه ضرب دابته وخاض فى البحر حتى عبر ثم رجع اليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر انفرق لى فقال ما امرت بذلك ولا يعبر علىّ العصاة فقال موسى يارب قد أبى البحر أن ينفرق فقيل له اضرب بعصاك البحر فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أى كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل اصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم الى بعض على أرض يابسة وعن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم باولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم وروى أن موسى عليه السلام قال عند ذلك يامن كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ فأما قوله فكان كل فرق كالطود العظيم فالفرق الجزء المنفرق منه وقرئ كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أى المرتفع فى السماء وهو معجز من وجوه (أحدها) ان تفرق ذلك الماء معجز (وثانيها) ان اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا لانه كان لا يمتنع فى الماء الذى ازيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكدا لهذا الاعجاز (وثالثها) انه ان ثبت ماروى فى الخبر انه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذى يتكامل معه عبور بنى اسرائيل فهو معجز ثالث (ورابعها) أن جعل الله فى تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم الى بعض فهو معجز رابع (وخامسها) أن ابقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا ان يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس * اما قوله تعالى وازلفنا ثم الآخرين ففيه بحثان (البحث الاول) قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدى وازلفنا أى وقربنا ثم أى حيث انفلق البحر الآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة أوجه (أحدها) قربناهم من بنى اسرائيل (وثانيها) قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد (وثالثها) قدمناهم الى البحر ومن الناس من قال وأزلفنا أى حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن أظللنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى وقرئ وأزلقنا بالقاف أى أزللنا أقدامهم والمعنى اذهبنا عزهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم فى البحر على خلاف ما جعله لبنى اسرائيل يبسا

الابراق والارعاد شرع فى الاعتراض على دعواه عليه الصلاة والسلام فبدا بالاستفسار عن المرسل فقال (ومارب العالمين) حكاية لما وقع فى عبارته عليه الصلاة والسلام أى أى شئ رب العالمين الذى ادعيت أنك رسوله منكرا لأن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله أنا ربكم الاعلى وقوله ماعلمت لكم من اله غيرى ونطق به وعيده عند تمام اجوبته عليه الصلاة والسلام (قال) موسى عليه السلام مجيبا له (رب السموات والارض وما بينهما) بتعيين ما أراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير وحسم مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته (ان كنتم موقنين) أى ان كنتم موقنين بالاشياء محققين لها علمتم ذلك أو ان كنتم موقنين بشئ من الاشياء فهذا أولى بالايقان لظهوره وانارة دليله (قال) أى فرعون عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفا من تأثيره فى قلوب قومه واذعانهم له (لمن حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا خمسمائة عليهم الاساور وكانت للملوك خاصة (ألا تستمعون) مرائيا لهم أن ما سمعوه من جوابه عليه الصلاة والسلام مع كونه مما لا يليق بأن يعتد به أمر حقيق بأن يتعجب منه كأنه قال ألا تستمعون ما يقوله فاسمعوه وتعجبوا منه حيث يدعى خلاف أمر محقق لا اشتباه فيه يريد به ربوبية نفسه (قال) عليه الصلاة

وأزلفناهم (البحث الثانى) انه تعالى أضاف ذلك الازلاف الى نفسه مع أن اجتماعهم هنالك فى طلب موسى كفر (أجاب) الجبائى عنه من وجهين الاول ان قوم فرعون تبعوا بنى اسرائيل وبنو اسرائيل انما فعلوا ذلك بامر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا اذلك أضافه الى نفسه توسعا وهذا كما يتعب أحدنا فى طلب غلام له فيجوز أن يقول أتعبنى الغلام لما حدث ذلك عند فعله (الثانى) قيل وأزلفنا ثم الآخرين أى أزلفناهم الى الموت لاجل انهم فى ذلك الوقت قربوا من أجلهم وأنشد

وكل يوم مضى أوليلة سلفت • فيها النفوس الى الآجال تزدلف

وأجاب الكعبى عنه من وجهين الاول انه تعالى لما حلم عنهم وترك البحر لهم يبسا وطمعوا فى عبوره جازت الاضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مرارا فيحلم عنه فاذا تمادى فى غيه وأراه قدرته عليه قال له انا أحوجتك الى هذا وصيرتك اليه بحلمى لا يريد بذلك انه أراد ما فعل (الثانى) يحتمل انه أزلفهم أى جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولكى لا يصلوا الى موسى وقومه (والجواب) عن الاول ان الذى فعله بنو اسرائيل هل له أثر فى استجلاب داعية قوم فرعون الى الذهاب خلفهم أوليس له اثر فيه فان كان الاول فقد حصل المقصود لان لفعل الله تعالى أثرا فى حصول الداعية المستلزمة لذلك الازلاف وان لم يكن له فيه أثر البتة فقد زال التعلق فوجب أن لا تحسن الاضافة واما اذا تعب أحدنا فى طلب غلام له فانما يجوز أن يقول اتعبنى ذلك الغلام لما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر فى حصول ذلك التعب لانه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر انه يصير معلوما للسيد ومتى علمه صار علمه داعيا له الى ذلك التعب ومؤثرا فيه فصحت الاضافة وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه الفعل الا بالداعى فالداعى مؤثر فى صيرورة القادر مؤثرا فى ذلك الفعل فلا جرم حسنت الاضافة (والجواب) عن الثانى وهو انه أزلفهم ليغرقهم فهو انه تعالى ما ازلفهم بل هم بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده فكيف يجوز اضافة هذا الازلاف الى الله تعالى اما على قولنا فانه جائز لانه تعالى هو الذى خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف (والجواب) عن الثالث وهو ان حلمه تعالى عنهم حملهم على ذلك فنقول ذلك الحلم هل له أثر فى استجلاب هذه الداعية أم لا وباقى التقرير كما تقدم (والجواب) عن الرابع هو بعينه الجواب عن الثانى والله أعلم • اما قوله تعالى وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين فالمعنى انه تعالى جعل البحر يبسا فى حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لانه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا فى ذلك الماء • اما قوله تعالى ان فى ذلك لآية فالمعنى ان الذى حدث فى البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة فى الدين والدنيا وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له وعلى اعتبار المعتبرين به أبدا فيصير تحذيرا من الاقدام على مخالفة أمر الله تعالى

والسلام تصريحا بما كان مندرجا تحت جوابيه السابقين (ربكم ورب آبائكم الاولين) وحطا له من ادعاء الربوبية الى مرتبة المربوبية (قال) أى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غاظه ذلك وخاف من تأثر قومه منه فأراهم أن ما قاله عليه الصلاة والسلام مما لا يصدر عن العقلاء صدا لهم عن قبوله فقال مؤكدا لمقالته الشنعاء بحرفى التأكيد (ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) ليفتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق وسماه رسولا بطريق الاستهزاء وأضافه الى مخاطبيه ترفعا من أن يكون مرسلا الى نفسه (قال) عليه الصلاة والسلام (رب المشرق والمغرب وما بينهما) قاله عليه الصلاة والسلام تكميلا لجوابه الاول وتفسيرا له وتنبيها على جهلهم وعدم فهمهم لمعنى مقالته فان بيان ربوبيته تعالى للسموات والارض وما بينهما وان كان متضمنا لبيان ربوبيته تعالى للخافقين وما بينهما لكن لما لم يكن فيه تصريح باستناد حركات السموات وما فيها وتغيرات أحوالها وأوضاعها وكون الارض تارة مظلمة وأخرى منورة الى الله تعالى ارشدهم الى طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر فان ذكر المشرق والمغرب منبئ من شروق الشمس وغروبها المنوطين بحركات السموات وما فيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الاوضاع الرصينة وكل ذلك أمور حادثة مفتقرة الى محدث واحد

وأمر رسوله ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه قال عقيب ذلك وما كان أكثرهم مؤمنين وفى ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره فان الذى ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التى تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه فى البحر وغيره فكذلك انت يا محمد لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على ايذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون فى هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم واما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فتعلقه بما قبله ان القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا ثم انه تعالى كان عزيزا قادرا على ان يهلكهم ثم انه تعالى ما أهلكهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله ۞ (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين) اعلم انه تعالى ذكر فى أول السورة شدة حزن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه ثم انه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ثم ذكر عقيبها قصة ابراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضا أن حزن ابراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه لان من عظيم المحنة على ابراهيم عليه السلام ان يرى اباه وقومه فى النار وهو لا يتمكن من انقاذهم الا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم ما تعبدون وكان ابراهيم عليه السلام يعلم انهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شئ كما تقول للتاجر الرقيق ما مالك وانت تعلم أن ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال فاجابوا ابراهيم عليه السلام بقولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين والعكوف الاقامة على الشئ وانما قالوا نظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل واعلم انه كان يكفيهم فى الجواب أن يقولوا نعبد أصناما ولكنهم ضموا اليه زيادة على الجواب وهى قولهم فنظل لها عاكفين وانما ذكروا هذه الزيادة اظهارا لما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الاصنام فقال ابراهيم عليه السلام منبها على فساد مذهبهم هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قال صاحب الكشاف لا بد فى يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل يسمعونكم أى هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه الحجة التى ذكرها ابراهيم عليه السلام ان الغالب من حال من يعبد غيره ان يلتجئ اليه فى المسئلة ليعرف مراده اذا سمع دعاءه ثم يستجيب له فى بذل منفعة أو دفع مضرة فقال لهم فاذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ولو عرف ذلك لما صح أن

قادر عليم حكيم لا كذوات السموات والارض التى ربما يتوهم جهلة المتوهمين باستمرارها استغناءها عن الموجد المتصرف (ان كنتم تعقلون) أى ان كنتم تعقلون شيأ من الاشياء أو ان كنتم من أهل العقل علمتم أن الامر كما قلته وفيه ايذان بغاية وضوح الامر بحيث لا يشتبه على من له عقل فى الجملة وتلويح بانهم بمعزل من دائرة العقل وانهم المتصفون بما رموه عليه الصلاة والسلام به من الجنون (قال) لما سمع اللعين منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تمشية أمره وانه ممن لا يجارى فى حلبة المحاورة ضرب صفحا عن المقاولة بالانصاف ونأى بجانبه الى عدوة الجور والاعتساف فقال مظهرا لما كان يضمره عند السؤال والجواب (لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين) لم يقتنع منه عليه الصلاة والسلام بترك دعوى الرسالة وعدم التعرض له حتى كلفه عليه الصلاة والسلام أن يتخذه الها لغاية عتوه وغلوه فيما فيه من دعوى الالوهية وهذا صريح فى أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الاول ونسبته عليه الصلاة والسلام الى الجنون فى الجواب الثانى كان لنسبته عليه الصلاة والسلام الربوبية الى غيره وأما ما قيل من أن سؤاله كان من حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه بذكر أحواله فلا يساعده النظم

يدل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه فعند هذه الحجة
القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة فعدلوا الى أن قالوا وجدنا آباءنا
كذلك يفعلون وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال
اذ لو قلبنا الامر فذممنا التقليد ومدحنا الاستدلال لكان ذلك مدحا لطريقة الكفار التي
ذمها الله تعالى وذما لطريقة ابراهيم عليه السلام التي مدحها الله تعالى فأجابهم ابراهيم
عليه السلام بقوله أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون أراد به أن الباطل
لا يتغير بأن يكون قديما أو حديثا ولا بأن يكون في فاعليه كثرة أو قلة * أما قوله فانهم عدو لي
الا رب العالمين ففيه أسئلة (السؤال الاول) كيف يكون الصنم عدوا مع انه جماد
جوابه من وجوه (أحدها) انه تعالى قال في سورة مريم في صفة الاوثان كلا سيكفرون
بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا فقيل في تفسيره ان الله يحيي ما عبدوه من الاصنام حتى
يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم فعلى هذا الوجه ان الاوثان ستصير أعداء لهؤلاء
الكفار في الآخرة فاطلق ابراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل
(وثانيها) ان الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها في طلب المنافع ودفع المضار نزلت
منزلة الاحياء العقلاء في اعتقاد الكفار ثم انها صارت أسبابا لانقطاع الانسان عن
السعادة ووصوله الى الشقاوة فلما نزلت هذه الاصنام منزلة الاحياء وجرت مجرى الدافع
للمنفعة والجالب للمضرة لا جرم جرت مجرى الاعداء فلا جرم أطلق ابراهيم عليه السلام
عليها لفظ العدو (وثالثها) المراد من قوله فانهم عدو لي عداوة من يعبدها فان قيل فلم
يقل ان من يعبد الاصنام عدو لي لكون الكلام حقيقة جوابه لان الذي تقدم
ذكره ما عبدوه دون العابدين (السؤال الثاني) لم قال فانهم عدو لي ولم يقل فانها عدو لكم
جوابه انه عليه السلام صور المسئلة في نفسه على معنى اني فكرت في أمري فرأيت
عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها وأراهم انها نصيحة نصح بها نفسه فاذا تفكروا قالوا
ما نصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى للقبول (السؤال الثالث) لم لم يقل
فانهم أعداء لي جوابه العدو والصديق يجيئان في معنى الواحد والجماعة قال

وقوم على ذوي مرة * أراهم عدوا وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو وتحقيق القول فيه ما تقدم في قوله انا رسول رب العالمين
(السؤال الرابع) ما هذا الاستثناء جوابه انه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب
العالمين * قوله تعالى (الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا
مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين)
اعلم انه تعالى لما حكى عنه انه استثنى رب العالمين حكى عنه أيضا ما وصفه به مما يستحق
العبادة لاجله ثم حكى عنه ما سأله عنه أما الاوصاف فاربعة (أولها) قوله الذي خلقني
فهو يهدين واعلم انه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الامرين في قوله الذي خلق فسوى
والذي

الكريم ولا حال فرعون ولا مقاله واللام في المسجونين ٥٢٤ للعهد أي لاجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني حيث
كان يطرحهم في هوة عميقة حتى
يموتوا ولذلك لم يقل لاسجننك
(قال أولو جئتك بشيء مبين) أي
أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء
مبين أي موضح لصدق دعواي
يريد به المعجزة فانها جامعة بين
الدلالة على وجود الصانع
وحكمته وبين الدلالة على صدق
دعوى من ظهرت على يده
والتعبير عنها بالشيء للتهويل
قالوا الواو في أولو جئتك للحال
دخلت عليها همزة الاستفهام أي
جائيا بشيء مبين وقد سلف منا
مرارا أنها للعطف وأن كلمة لو
ليست لانتفاء الشيء في الزمان
الماضي لانتفاء غيره فيه فلا
يلاحظ لها جواب قد حذف
تعويلا على دلالة ما قبلها عليه
ملاحظة قصدية الاعند القصد
الى بيان الاعراب على القواعد
الصناعية بل هي لبيان تحقق
ما يفيده الكلام السابق من
الحكم الموجب أو المنفي على
كل حال مفروض من الاحوال
المقارنة له على الاجمال بادخالها
على أبعدها منه وأشدها منافاة له
ليظهر بثبوته أو انتفائه معه
ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من
الاحوال بطريق الاولوية لما أن
الشيء متى تحقق مع المنافي
القوي فلأن يتحقق مع غيره أولى
ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر
الاحوال ويكتفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة

والذي قدر فهدى واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح
الانتفاع عليه فلنتكلم في الانسان فنقول انه مخلوق فمنهم من قال هو من عالم الخلق
والجسمانيات ومن قلب هو من عالم الامر والروحانيات وتركيب البدن الذي هو من
عالم الخلق مقدم على اعطاء القلب الذي هو من عالم الامر على ما أخبر عنه سبحانه في قوله
فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فالتسوية اشارة الى تعديل المزاج وتركيب الامشاج
ونفخ الروح اشارة الى اللطيفة الربانية النورانية التي هي من عالم الامر وأيضا قال ولقد
خلقنا الانسان من سلالة من طين ولما تمم مراتب تغيرات الاجسام قال ثم أنشأناه خلقا
آخر وذلك اشارة الى الروح الذي هو من عالم الملائكة ولا شك ان الهداية انما تحصل من
الروح فقد ظهر بهذه الآيات ان الخلق مقدم على الهداية أما تحقيقه بحسب المباحث
الحقيقية فهو ان بدن الانسان انما يتولد عند امتزاج المني بدم الطمث وهما انما يتولدان
من الاغذية المتولدة من تركب العناصر الاربعة وتفاعلها فاذا امتزج المني بالدم
فلا يزال ما فيهما من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلا وما في كل واحد منهما من
القوى كاسرا سورة كيفية الآخر فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة
تستحر بالقياس الى البارد وتستبرد بالقياس الى الحار وكذا القول في الرطب واليابس
وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهي
التي تجذب الغذاء ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ثم تقيم تلك الاجزاء بدل
ما تحلل منها ثم تزيد في جوهر الاعضاء طولا وعرضا ثم يفصل عن تلك المواد فضلة يمكن
أن يتولد عنها مثل ذلك ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال
والحفظ والذكر وبعضها فاعلة اما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى
المركوزة في العضلات ومنها قوى انسانية وهي اما مدركة أو عاملة والقوى المدركة هي
القوى القوية على ادراك حقائق الاشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية
ثم انك اذا فتشت عن كل واحد من مركبات هذا العالم الجسماني ومفرداتها وجدت
لها أشياء تلائمها وتكمل حالها وأشياء تنافرها وتفسد حالها ووجدت فيها قوى جذابة
للملائم دفاعة للمنافي فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الاشياء لا يتم الا بالخلق والهداية
اما الخلق فبتصييره موجودا بعد ان كان معدوما وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة
للمنافع والدفاعة للمضار فثبت أن قوله خلقني فهو يهدين كلمة جامعة حاوية لجميع
المنافع في الدنيا والدين ثم ههنا دقيقة وهو انه قال خلقني فذكره بلفظ الماضي وقال
يهدين ذكره بلفظ المستقبل والسبب في ذلك ان خلق الذات لا يتجدد في الدنيا بل لما وقع
بقي الى الامد المعلوم أما هدايته تعالى فهي مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك
هداية في المنافع الدنيوية وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو في المنافع
الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر فبين بذلك انه

لها عند تعددها ليظهر ما ذكر من تحقق الحكم على جميع الاحوال فانك ٥٢٥ اذا قلت فلان جواد يعطي ولو كان فقيرا
تريد بيان تحقق الاعطاء منه على
كل حال من أحواله المفروضة
فتعلق الحكم بأبعدها منه ليظهر
بتحققه معه تحققه مع ما عداه
من الاحوال التي لا منافاة بينها
وبين الحكم بطريق الاولوية
المصححة للاكتفاء بذكر العاطف
عن تفصيلها كأنك قلت فلان
جواد يعطي لو لم يكن فقيرا ولو
كان فقيرا أي يعطي حال كونه
غنيا وحال كونه فقيرا فالحال في
الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين
لا المذكورة على أن الواو للحال
وتصدير المجيء بما ذكر من كلمة
لو دون ان ليس لبيان استبعاده
في نفسه بل بالنسبة الى فرعون
والمعنى أتفعل بي ذلك حال عدم
مجيئي بشيء مبين وحال مجيئي به
(قال فأت به ان كنت من
الصادقين) أي فيما يدل عليه
كلامك من أنك تأتي بشيء مبين
موضح لصدق دعواك أو في دعوى
الرسالة وجواب الشرط محذوف
لدلالة ما قبله عليه (فألقى عصاه
فاذا هي ثعبان مبين) أي ظاهر
ثعبانيته لا أنه شيء يشبهه واشتقاق
الثعبان من ثعبت الماء فانثعب
أي فجرته فانفجر وقد مر بيان
كيفية الحال في سورة الاعراف
وسورة طه (ونزع يده) من جيبه
(فاذا هي بيضاء للناظرين) قبل
لما رأى فرعون الآية الاولى
وقال هل لك غيرها فأخرج يده فقال ما هذه قال فرعون يدك فما فيها فادخلها في ابطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الابصار

وبسد الأفق (قال الملأ حوله) أى مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال (ان هذا الساحر عليم) فائق فى فن

سبحانه هو الذى خلقه بسائر ما تكامل به خلقه فى الماضى دفعة واحدة وانه يهديه الى
مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات فى كل لحظة ولمحة (وثانيها) قوله والذى هو
يطعمنى ويسقين وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق وذلك لانه سبحانه اذا خلق له
الطعام وملكه فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة
والتمييز لم تكمل هذه النعمة وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ماعداهما
(وثالثها) قوله واذا مرضت فهو يشفين وفيه سؤال وهو انه لم قال مرضت دون
أمرضنى وجوابه من وجوه (الاول) ان كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من
الانسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء لو قيل لاكثر الموتى ما سبب
آجالكم لقالوا التخم (الثانى) أن المرض انما يحدث باستيلاء بعض الاخلاط على بعض
وذلك الاستيلاء انما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعى اما الصحة فهى انما تحصل
عند بقاء الاخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها انما يكون بسبب قاهر يقهرها
على الاجتماع وعودها الى الصحة انما يكون أيضا بسبب قاهر يقهرها على العود الى
الاجتماع والاعتدال بعد ان كانت بطباعها مشتاقة الى التفرق والنزاع فلهذا السبب
أضاف الشفاء اليه سبحانه وتعالى وما أضاف المرض اليه (وثالثها) وهو ان الشفاء
محبوب وهو من أصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه
السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه اليه تعالى فان نقضته
بالاماتة فجوابه ان الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال
حصول الموت لا يقع الاحساس به انما الضرر فى مقدماته وذلك هو عين المرض وأيضا
فلانك قد عرفت أن الارواح اذا كملت فى العلوم والاخلاق كان بقاؤها فى هذه
الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (ورابعها) قوله والذى
يميتنى ثم يحيين والمراد منه الاماتة فى الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها والمراد من
الاحياء المجازاة (وخامسها) قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين فهو اشارة
الى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب واعلم ان ابراهيم
عليه السلام جمع فى هذه الالفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق الى آخر الابد فى
الدار الآخرة ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) لم قال والذى أطمع والطمع عبارة عن
الظن والرجاء وانه عليه السلام كان قاطعا بذلك جوابه أن هذا الكلام لا يستقيم
الا على مذهبنا حيث قلنا انه لا يجب على الله لاحد شئ وانه يحسن منه كل شئ
ولا اعتراض لاحد عليه فى فعله وأجاب الجبائى عنه من وجهين (الاول) أن قوله والذى
أطمع ان يغفر لى خطيئتى أراد به سائر المؤمنين لانهم الذين يطمعون ولا يقطعون به
(الثانى) المراد من الطمع اليقين وهو مروى عن الحسن وأجاب صاحب الكشاف بأنه
انما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لامته كيفية الدعاء (واعلم) أن هذه الوجوه ضعيفة

السحر (يريد أن يخرجكم) قسرا (من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه والامتثال بأمرهم أو الى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا فى الرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الاخراج والارض اليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام (قالوا أرجه وأخاه) أخر أمرهما وقيل احبسهما (وابعث فى المدائن حاشرين) أى شرطا يحشرون السحرة (يأتوك) أى الحاشرون (بكل سحار عليم) فائق فى فن السحر وقرئ بكل ساحر (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) هو ما عينه موسى عليه السلام بقوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) قيل لهم ذلك استبطاء لهم فى الاجتماع وحثا لهم على المبادرة اليه (لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين) أى نتبعهم فى دينهم ان كانوا هم الغالبين لا موسى عليه السلام وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة وانما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية

يحملهم على الاهتمام والجد فى المغالبة (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا) أى أجرا عظيما (ان كنا نحن - أما

الغالبين) لا موسى عليه السلام (قال نعم) لكم ذلك (وانكم) مع ذلك (اذا لمن المقربين) عندى قيل قال لهم

أما الاول فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولا والدعاء ثانيا ومن أول المدح الى آخر
الدعاء كلام ابراهيم عليه السلام فجعل الشئ الواحد وهو قوله والذى أطمع أن يغفر لى
خطيئتى يوم الدين كلام غيره مما يبطل نظم الكلام ويفسده وأما الثانى وهو ان الطمع هو
اليقين فهذا على خلاف اللغة وأما الثالث وهو ان الغرض منه تعليم الامة فباطل أيضا
لان حاصله يرجع الى انه كذب على نفسه لغرض تعليم الامة وهو باطل قطعا (السؤال
الثانى) لم أسند الى نفسه الخطيئة مع ان الانبياء منزهون عن الخطايا قطعا وفى جوابه
ثلاثة وجوه (أحدها) انه محمول على كذب ابراهيم عليه السلام فى قوله فعله كبيرهم
وقوله انى سقيم وقوله لسارة انها أختى وهو ضعيف لان نسبة الكذب اليه غير جائز
(وثانيها) انه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لانه ان كان صادقا
فى هذا التواضع فقد لزم الاشكال وان كان كاذبا فحينئذ يرجع حاصل الجواب الى
الحاق المعصية به لاجل تنزيهه عن المعصية (وثالثها) وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك
على ترك الاولى وقد يسمى ذلك خطأ فان من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بألف ألف
دينار فان باعها بدينار قيل انه أخطأ وترك الاولى على الانبياء جائز (السؤال الثالث)
لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وانما تغفر فى الدنيا جوابه لان أثرها يظهر يوم الدين وهو
الآن خفى لا يعلم (السؤال الرابع) ما فائدة لى فى قوله يغفر لى خطيئتى جوابه من وجوه
(أحدها) ان الاب اذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك فى أكثر
الامر انما يكون طلبا للثواب وهربا عن العقاب أو طلبا لحسن الثناء والمحمدة أو دفعا للالم
الحاصل من الرقة الجنسية واذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب
المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه اما لتحصيل ما ينبغى أو لدفع ما لا ينبغى أما الاله سبحانه فانه
كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان واذا
كان كذلك لم يكن عفوه الا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله والذى أطمع أن يغفر لى يعنى
هو الذى اذا غفر كان غفرانه لى ولاجلى لا لاجل أمر عائد اليه البتة (وثانيها) كأنه قال
خلقتنى لا لى فانك حين خلقتنى ما كنت موجودا واذا لم أكن موجودا استحال
تحصيل شئ لاجلى ثم مع هذا فأنت خلقتنى اما لو عفوت كان ذلك العفو لاجلى فلما خلقتنى
أولا مع انى ما كنت محتاجا الى ذلك الخلق فلأن تغفر لى وتعفو عنى حال ما أكون فى أشد
الحاجة الى العفو والمغفرة كان أولى (وثالثها) ان ابراهيم عليه السلام كان لشدة
استغراقه فى بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات الى الوسائط ولذلك لما قال له جبريل
عليه السلام ألك حاجة قال أما اليك فلا فههنا قال أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين
أى لمجرد عبوديتى لك واحتياجى اليك تغفر لى خطيئتى لا ان تغفرها لى بواسطة شفاعة
شافع ❁ قوله تعالى (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى
الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لابى انه كان من الضالين ولا تخزنى يوم

تكونون أول من يدخل علىّ وآخر من يخرج عنى وقرئ نعم بكسر العين وهما لغتان (قال لهم موسى) أى بعد ما قال له السحرة اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى (ألقوا ما أنتم ملقون) ولم يرد به الامر بالسحر والتمويه بل الاذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به الى اظهار الحق وابطال الباطل (فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا) أى وقد قالوا عند الالقاء (بعزة فرعون انا لنحن الغالبون) قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم واتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف) اى تبتلع بسرعة وقرئ تلقف بحذف احدى التاءين من تتلقف (ما يأفكون) أى ما يقلبونه من وجهه وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى أو افكهم تسمية للمأفوك به مبالغة (فألقى السحرة ساجدين) أى اثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد غير متمالكين كأن ملقيا ألقاهم لعلمهم بان مثل ذلك خارج عن حدود السحر وانه أمر الهى قد ظهر على يده عليه الصلاة والسلام لتصديقه وفيه دليل على ان قصارى ما ينتهى اليه همم السحرة هو التمويه

والتزوير وتخييل شئ لا حقيقة له (قالوا آمنا برب العالمين) بدل اشتمال من ألقى او حال باضمار قد وقوله تعالى (رب موسى

يعنون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) اعلم أن الله تعالى لما حكى
عن ابراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسئلته وذلك تنبيه
على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الارواح
البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب
الى عالم الروحانيات أشد كانت مشابهتها للملائكة اتم فكانت أقوى على التصرف
فى أجسام هذا العالم وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها فى ظلمات هذه
الجسمانيات أشد كانت مشابهتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزا وضعفا وأقل تأثيرا فى
هذا العالم فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته
وكبريائه حتى انه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقا فى معرفة الله ومحبته ويصير قريب
المشابهة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشابهة قوة الهية سماوية فيصير مبدأ
لحدوث ذلك الشئ الذى هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن
تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله
تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فان قال قائل
لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء لا سيما وروى عنه أيضا انه قال حسبى من
سؤالى علمه بحالى (فالجواب) انه عليه السلام انما ذكر ذلك حين كان مشتغلا بدعوة
الخلق الى الحق ألا ترى انه قال فانهم عدو لى الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء
لان الشارع لا بد له من تعليم الشرع فاما حين ما خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع
كان يقتصر على قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى (البحث الثانى) فى الامور التى طلبها فى
الدعاء وهى مطالب (المطلوب الاول) قوله رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ولقد
أجابه الله تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين وفيه مطالب أحدها انه لا يجوز
تفسير الحكم بالنبوة لان النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة
اما عين النبوة الحاصلة أو غيرها والاول محال لان تحصيل الحاصل محال والثانى محال
لانه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبيا مرتين بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة
النظرية وذلك بادراك الحق ومن قوله وألحقنى بالصالحين كمال القوة العملية وذلك بان
يكون عاملا بالخير فان كمال الانسان أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وانما
قدم قوله رب هب لى حكما على قوله وألحقنى بالصالحين لما أن القوة النظرية مقدمة على
القوة العملية بالشرف وبالذات وأيضا فانه يمكنه أن يعلم الحق وان لم يعمل بالخير وعكسه
غير ممكن ولان العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ولما كان الروح أشرف من البدن
كان العلم أفضل من العمل وانما فسرنا معرفة الاشياء بالحكم وذلك لان الانسان
لا يعرف حقائق الاشياء الا اذا استحضر فى ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها الى بعض
بالنفى أو بالاثبات وتلك النسبة هى الحكم ثم ان كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب

وهرون) بدل من رب العالمين للتوضيح ودفع ٥٢٨ توهم ارادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك وللاشعار بان
الموجب لايمانهم به تعالى
ما أجراه على أيديهما من المعجزة
القاهرة (قال) أى فرعون
للسحرة (آمنتم له قبل أن آذن
لكم) أى بغير أن آذن لكم كما فى
قوله تعالى لنفد البحر قبل أن
تنفد كلمات ربى لا أن الاذن
منه ممكن أو متوقع (انه لكبيركم
الذى علمكم السحر) فتواطأتم
على ما فعلتم او علمكم شيأ دون شئ
فلذلك غلبكم اراد بذلك التلبيس
على قومه كى لا يعتقدوا انهم
آمنوا عن بصيرة وظهور حق
وقرئ أآمنتم بهمزتين (فلسوف
تعلمون) اى وبال ما فعلتم وقوله
(لاقطعن ايديكم وارجلكم من
خلاف ولا صلبنكم اجمعين)
بيان لما اوعدهم به (قالوا) اى
السحرة (لا ضير) لا ضرر فيه
علينا وقوله تعالى (انا الى ربنا
منقلبون) تعليل لعدم الضير اى
لا ضير فى ذلك بل لنا فيه نفع عظيم
لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه
الله تعالى من تكفير الخطايا
والثواب العظيم اولا ضير علينا
فيما تتوعدنا به من القتل انه
لا بد لنا من الانقلاب الى ربنا
بسبب من اسباب الموت والقتل
أهونها وارجاها وقوله تعالى (انا
نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان
كنا) اى لأن كنا (اول المؤمنين)
اى من اتباع فرعون او من اهل
المشهد تعليل ثان لنفى الضير اى لا ضير علينا فى ذلك انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا اول المؤمنين * الخارجية

الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية فتقل هذا الادراك
يسمى حكمة وحكما وهو المراد من قوله عليه السلام ارنا الاشياء كما هى وأما الصلاح
فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتى الافراط والتفريط وذلك لان
الافراط فى أحد الجانبين تفريط فى الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل الا
بالاعتدال ولما كان الاعتدال الحقيقى شيأ واحدا لا يقبل القسمة البتة والافكار
البشرية فى هذا العالم قاصرة عن ادراك أمثال هذه الاشياء لا جرم لا ينفك البشر
عن الخروج عن ذلك الحد وان قل الا أن خروج المقربين عنه يكون فى القلة
بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشا جدا فقد ظهر من هذا التحقيق
ماقيل حسنات الابرار سيئات المقربين وظهر احتياج ابراهيم عليه السلام الى
أن يقول وألحقنى بالصالحين (المطلب الثانى) لما ثبت أن المراد من الحكم العلم
ثبت أنه عليه السلام طلب من الله أن يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته وهذا يدل على
أن معرفة الله تعالى لا تحصل فى قلب العبد الا بخلق الله تعالى وقوله وألحقنى بالصالحين
يدل على أن كون العبد صالحا ليس الا بخلق الله تعالى وحمل هذه الاشياء على
الالطاف بعيد لان عند الخصم كل ما فى قدرة الله تعالى من الالطاف فقد فعله فلو صرفنا
الدعاء اليه لكان ذلك طلبا لتحصيل الحاصل وهو فاسد (المطلب الثالث) أن الحكم
المطلوب فى الدعاء اما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثانى باطل لان الانسان حال
كونه مستحضرا للعلم بالشئ لا يمكنه أن يكون مستحضرا للعلم بشئ آخر فلو كان المطلوب
بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق فى العلم
بالله كان هذا السؤال طلبا لما يشغله عن الاستغراق فى العلم بالله تعالى وذلك غير جائز
لانه لا كمال فوق ذلك الاستغراق فاذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله ثم ان ذلك العلم
اما ان يكون هو العلم بالله تعالى الذى هو شرط صحة الايمان أو غيره والاول باطل لانه لما
وجب أن يكون حاصلا لكل المؤمنين فكيف لا يكون حاصلا عند ابراهيم عليه السلام
واذا كان حاصلا عنده امتنع طلب تحصيله فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء درجات فى
معرفة الله تعالى أزيد من العلم بوجوده وبانه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز وبانه عالم قادر حى
وما ذاك الا الوقوف على صفات الجلال أو الوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور
تلك المعرفة فى القلب ثم هناك أحوال لا يعبر عنها المقال ولا يشرحها الخيال ومن أراد
أن يصل اليها فليكن من الواصلين الى العين دون السامعين للاثر (المطلوب الثانى) قوله
واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وفيه ثلاث تأويلات (التأويل الاول) انه عليه
السلام ابتدأ بطلب ما هو الكمال الذاتى للانسان فى الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم
الذى هو العلم ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة فاما كمالات
الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية اما الداخلية فهى الخلق الظاهر والخلق الباطن

وقرئ ان كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة او على طريقة قول المدل بامره كقول العامل لمستأجر أخر أجرته ان
كنت عملت لك فوفنى حقى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى) وذلك بعد بضع سنين ٥٢٩ أقام بين أظهرهم يدعوهم الى الحق
ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا
الا عتوا وعنادا حسبما فصل فى
سورة الاعراف بقوله تعالى ولقد
أخذنا آل فرعون بالسنين الآيات
وقرئ بكسر النون ووصل الالف
من سرى وقرئ أن سر من السير
(انكم متبعون) تعليل للامر
بالاسراء أى يتبعكم فرعون
وجنوده مصبحين فأسر بهم معك
حتى لا يدركوكم قبل الوصول
الى البحر فيدخلوا مداخلكم
فأطبقه عليهم فأغرقهم (فأرسل
فرعون) حين أخبر بسيرهم (فى
المدائن حاشرين) جامعين للعساكر
ليتبعوهم (ان هؤلاء) يريد بنى
اسرائيل (لشرذمة قليلون)
استقلهم وهم ستمائة ألف وسبعون
ألفا بالنسبة الى جنوده اذ روى انه
أرسل فى اثرهم ألف ألف وخمسمائة
ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج
فرعون فى جمع عظيم وكانت
مقدمته سبعمائة ألف رجل على
حصان وعلى رأسه بيضة وعن
ابن عباس رضى الله تعالى عنهما
خرج فرعون فى ألف ألف حصان
سوى الاناث (وانهم لنا لغائظون)
أى فاعلون ما يغيظنا (وانا لجميع
حاذرون) يريد أنهم لقلتهم لا يبالى
بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم
ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا
وتضيق صدورنا ونحن قوم من
عادتنا التيقظ والحذر واستعمال
الحزم فى الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى اطفاء نائرة فساده وهذه معاذير اعتذر بها

الى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه وقرئ حذرون فالاول دال على التجدد والثانى على الثبات وقيل
الحاذر المؤدى فى السلاح وقرئ حادرون بالدال المهملة أى أقوياء واشداء وقيل مدججون فى السلاح

قد كسبهم ذلك حدة فى أجسامهم (فأخرجناهم) بأن خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه (من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) كانت لهم جملة ذلك (كذلك) اما مصدر تشبيهى لاخرجنا أى مثل ذلك الاخراج العجيب أخرجناهم أو صفة لمقام كريم أى من مقام كريم كائن كذلك أو خبر لمبتدا محذوف أى الامر كذلك (وأورثناها بنى اسرائيل) أى ملكناها اياهم على طريقة تمليك مال المورث للوارث كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسلموها (فأتبعوهم) أى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس أى طلوعها (فلما تراءى الجمعان) تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر وقرئ تراءت الفئتان (قال أصحاب موسى انا لمدركون) جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفى التأكيد للدلالة على تحقق الادراك واللحاق وتنجزهما وقرئ لمدركون بتشديد الدال من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى أى لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم (قال كلا) ارتدعوا عن ذلك فانهم لايدركونكم (ان معى ربى) بالنصرة والهداية (سيهدين) البتة الى طريق النجاة منهم بالكلية روى أن يوشع عليه السلام قال يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر امامنا

والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية فقول ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو الخلق الظاهر وطلب الامر الروحانى وهو الخلق الباطن وهو المراد بقوله وألحقنى بالصالحين واما الخارجية فهى المال والجاه والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فقول ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو المال وطلب الامر الروحانى وهو الجاه والذكر الجميل الباقى على وجه الدهر وهو المراد بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد اعطاه الله ذلك بقوله وتركنا عليه فى الآخرين فان قيل وأى غرض له فى أن يثنى عليه ويمدح جوابه من وجهين (الاول) وهو على لسان الحكمة أن الارواح البشرية قد بينا أنها مؤثرة فى الجملة الا أن بعضها قد يكون ضعيفا فيعجز عن التأثير فاذا اجتمعت طائفة منها فربما قوى مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه وهذا المعنى مشاهد فى المؤثرات الجسمانية اذا ثبت هذا فالانسان الواحد اذا كان بحيث يثنى عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع الى بسببا لحصول زيادة كمال له (الثانى) وهو على لسان الكمال أن من صار ممدوحا فيما بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل فانه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعيا للغيره الى اكتساب مثل تلك الفضائل (التأويل الثانى) انه سأل ربه أن يجعل من ذريته فى آخر الزمان من يكون داعيا الى الله تعالى وذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (التأويل الثالث) قال بعضهم المراد اتفاق أهل الاديان على حبه ثم ان الله تعالى أعطاه ذلك لانك لاترى أهل دين الا ويتولون ابراهيم عليه السلام وقدح بعضهم فيه بانه لاتقوى الرغبة فى مدح الكافر وجوابه أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر بل المقصود أن يكون ممدوح كل انسان ومحبوب كل قلب (المطلوب الثالث) قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم اعلم انه لما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهى جنة النعيم وشبهها بما يورث لانه الذى يغتنم فى الدنيا فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا (المطلوب الرابع) قوله واغفر لابى انه كان من الضالين واعلم انه لما فرغ عن طلب السعادات الدنيوية والاخروية لنفسه طلبها لاشد الناس التصاقا به وهو أبوه فقال واغفر لابى ثم فيه وجوه (الاول) أن المغفرة مشروطة بالاسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله واغفر لابى يرجع حاصله الى انه دعاء لابيه بالاسلام (الثانى) ان اباه وعده الاسلام كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فدعا له لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وهذا ضعيف لان الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطا لما نهاه الله عنه (الثالث) أن اباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين نمروذ ظاهرا تقية وخوفا فدعا له لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال فى دعائه انه كان من الضالين فلولا اعتقاده فيه

قال عليه السلام ههنا فخاض يوشع عليه السلام الماء وضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فكان ما كان وروى أن مؤمنا
من آل فرعون كان بين يدى موسى عليه السلام فقال أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك

آل فرعون قال عليه السلام أمرت بالبحر ولعلى أومر بما اصنع فأمر بما أمر به وذلك قوله تعالى (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) القلزم او النيل (فانفلق) الفاء فصيحة أى فضرب فانفلق فصار اثنى عشر فرقا بعدد الاسباط بينهن مسالك (فكان كل فرق) حاصل بالانفلاق (كالطود العظيم) كالجبل المنيف الثابت فى مقره فدخلوا فى شعابها كل سبط فى شعب منها (وأزلفنا) أى قربنا (ثم الآخرين) أى فرعون وقومه حتى دخلوا على اثرهم مداخلهم (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) بحفظ البحر على تلك الهيئة الى أن عبروا الى البر (ثم أغرقنا الآخرين) باطباقه عليهم (ان فى ذلك) أى فى جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الاقوال والافعال وما فعل بهم من العذاب والنكال وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لتهويل أمر المشار اليه وتفظيعه كتنكير الآية فى قوله تعالى (لآية) أى آية آية أو آية عظيمة لاتكاد توصف موجبة لان يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبى عليه الصلاة والسلام بشان موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصى ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا

انه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك (المطلوب الخامس) قوله ولا تخزنى يوم يبعثون قال صاحب الكشاف الاخزاء من الخزى وهو الهوان أو من الخزاية وهى الحياء وههنا أبحاث (أحدها) ان قوله ولا تخزنى يدل على انه لا يجب على الله تعالى شئ على ما شاء فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (وثانيها) ان لقائل أن يقول لما قال أولا واجعلنى من ورثة جنة النعيم ومتى حصلت الجنة امتنع حصول الخزى فكيف قال بعده ولا تخزنى يوم يبعثون وأيضا فقد قال تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين فلما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم جوابه كما ان حسنات الابرار سيئات المقربين فكذا درجات الابرار دركات المقربين وخزى كل واحد بما يليق به (وثالثها) قال صاحب الكشاف فى يبعثون ضميرا لعباد لانه معلوم أو ضميرا لضالين اما قوله الا من أتى الله بقلب سليم فاعلم انه تعالى اكرمه بهذا الوصف حيث قال وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم ثم فى هذا الاستثناء وجوه (أحدها) انه اذا قيل لك هل لزيد مال وبنون فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفى المال والبنين عنه واثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك فكذا فى هذه الآية (وثانيها) أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين فى معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الاغنى من أتى الله بقلب سليم لان غنى الرجل فى دينه بسلامة قلبه كما ان غناه فى دنياه بماله وبنيه (وثالثها) ان نجعل من مفعولا لينفع أى لا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث انفقه فى طاعة الله تعالى ومع بنيه حيث أرشدهم الى الدين ويجوز على هذا الا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين أما السليم ففيه ثلاثة أوجه (الاول) وهو الاصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والاخلاق الرذيلة وذلك لانه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغى من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال احد تلك الامور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغى له وهو العلم والخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله الا من أتى الله بقلب سليم أى يكون خاليا عن العقائد الفاسدة والميل الى شهوات الدنيا ولذاتها فان قيل فظاهر هذه الآية يقتضى أن من سلم قلبه كان ناجيا وانه لاحاجة فيه الى سلامة اللسان واليد جوابه أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لامحالة وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب (التأويل الثانى) ان السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى (التأويل الثالث) ان السليم هو الذى سلم واسلم وسالم واستسلم والله أعلم ﴿ قوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم)

رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك أو ان فيما فصل من القصص من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام اياها على ما هي
عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحي الصادق موجبة للايمان

بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام (وما كان أكثرهم) أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصصهم منه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) لا بأن يقيسوا شأنه بشأن موسى عليهما السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصصهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدي الى الايمان قطعا ومعنى ما كان أكثرهم مؤمنين وما أكثرهم مؤمنين على أن كان زائدة كما هو رأي سيبويه فيكون كقوله تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهو اخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ما سمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقرير المامر من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا الخ وايثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الايمان واستمرارهم عليه ويجوز أن يجعل كان بمعنى صار كما فعل ذلك في قوله تعالى وكان من الكافرين فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين فيكون الاخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى أتى أمر الله الآية (وان ربك لهو العزيز) الغالب على كل ما يريده من

اعلم أن ابراهيم عليه السلام ذكر في وصف هذا اليوم أمورا (أحدها) قوله وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين والمعنى أن الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بأنهم المحشورون اليها والنار تكون بارزة مكشوفة للاشقياء بمرأى منهم يتحسرون على انهم المسوقون اليها قال الله تعالى في صفة أهل الثواب وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد وقال في صفة أهل العقاب فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وانما يفعل الله تعالى ذلك ليكون سرورا معجلا للمؤمنين وغما عظيما للكافرين (ثانيها) قوله وقيل لهم أينما كنتم الى قوله وجنود ابليس أجمعون والمعنى اين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله فكبكبوا فيها هم والغاوون أي الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه اذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها وجنود ابليس متبعوه من عصاة الانس والجن (وثالثها) قوله قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين واعلم ان ظاهر ذلك ان من عبد خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام فليس يخلو حال الاصنام من وجهين اما ان يخلقها الله تعالى في الآخرة جمادا يعذب بها اهل النار فحينئذ لا يصح ان تخاطب ويجب حمل قولهم اذ نسويكم برب العالمين على انه ليس بخطاب لهم او يقال انه تعالى يحييها في النار وذلك ايضا غير جائز لانه لا ذنب لها بأن عبدها غيرها فالاقرب انهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة والذي يحمل على أنه خطاب في الحقيقة قولهم وما أضلنا الا المجرمون وأرادوا بذلك من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس وهو كقولهم ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا فاما قولهم فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما نرى لهم أصدقاء لانه لا يتصادق في الآخرة الا المؤمنون واما اهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء واصدقاء لانهم كانوا يعتقدون في اصنامهم انهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم اصدقاء من شياطين الانس اوارادوا انهم ان وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والاصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما تعلق بهم من النفع لان ما لا ينفع فحكمه حكم المعدوم والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك اومن الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص وانما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق فان الرجل الممتحن بارهاق ظالم قد ينهض جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وأما الصديق وهو الصادق في وداده فاعز من بيض الانوق ويجوز أن يريد بالصديق الجمع ثم حكى تعالى عنهم قولهم فلو أن لنا كرة فنكون

من الامور التي من جملتها الانتقام من المكذبين (الرحيم) المبالغ في الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم ايمانهم بعد
مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحي مع كمال استحقاقهم لذلك هذا هو الذي يقتضيه جزالة

النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة الى آخر القصص السبع بل الى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا لا ريب فيه واما ما قيل من أن ضمير أكثرهم لاهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم الا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التي دلت على تابوت يوسف عليه السلام وبنو اسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة في السورة الكريمة سوى قصة ابراهيم عليه السلام انما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله عليهم الصلاة والسلام كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بايديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الايمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ما هم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم ايمان أكثرهم لاسيما بعد الاخبار باهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أولا واخراجهم منها آخرا مع عدم مشاركتهم لهم في شيء مما حكي عنهم من الجنايات أصلا عما يوجب تنزيه التنزيل عن أمثاله فتدبر (واتل عليهم) عطف على المضمر المقدر

من المؤمنين وانهم تمنوا الرجعة الى الدنيا ولو في مثل هذا الموضع في معنى التمني كأنه قيل فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت (قال) الجبائي ان قولهم فنكون من المؤمنين ليس بخبر عن ايمانهم لكنه خبر عن عزمهم لانه لو كان خبرا عن ايمانهم لوجب أن يكون صدقا لان الكذب لا يقع من أهل الآخرة وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك في قوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقد تقدم في سورة الانعام بيان فساد هذا الكلام ثم بين سبحانه أن فيما ذكره من قصة ابراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال وما كان أكثرهم مؤمنين والاكثرون من المفسرين حملوه على قوم ابراهيم ثم بين تعالى أن مع كل هذه الدلائل فاكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يجده من تكذيب قومه فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالامهال لكي يؤمنوا ۞ (القصة الثالثة) قصة نوح عليه السلام قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح الا تتقون اني لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من اجر ان أجري الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم انه تعالى لما قص على محمد صلى الله عليه وسلم خبر موسى وابراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضا نبأ نوح عليه السلام فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره لانه كان يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما ومع ذلك كذبه قومه فقال كذبت قوم نوح وانما قال كذبت لان القوم مؤنث وتصغيرها قويمة انما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين (أحدهما) انهم وان كذبوا نوحا لكن تكذيبه في المعنى يتضمن تكذيب غيره لان طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم انهم كذبوا المرسلين (وثانيهما) أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى اما لانهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة وأما قوله أخوهم فلانه كان منهم من قول العرب يا أخا بني تميم يريدون يا واحدا منهم ثم انه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام انه أولا خوفهم وثانيا أنه وصف نفسه اما التخويف فهو قوله ألا تتقون واعلم أن القوم انما قبلوا تلك الاديان للتقليد والمقلد اذا خوف خاف وما لم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله ألا تتقون ۞ وأما وصفه نفسه فذلك بأمرين (أحدهما) قوله اني لكم رسول أمين وذلك لانه كان فيهم مشهورا بالامانة كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش فكأنه قال كنت امينا من قبل فكيف تتهموني اليوم

عاملا لا ذنادى الخ أى واتل على المشركين (نبأ ابراهيم) أى خبره العظيم الشان حسبما اوحى اليك لتقف على ماذكر من عدم
ابتلائهم بما يأتيهم من الآيات بالحد الفاريقين (اذ قال) منصوب اما على الظرفية للنبأ أى نبأه وقت

(وثانيهما) قوله وما أسألكم عليه من أجر أى على ما أنا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة (فان قيل) ولماذا كرر الامر بالتقوى جوابه لانه فى الاول اراد ألا تتقون مخالفتى وانا رسول الله وفى الثانى ألا تتقون مخالفتى ولست آخذا منكم أجرا فهو فى المعنى مختلف ولا تكرار فيه وقد يقول الرجل لغيره ألا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا ألا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا وانما قدم الامر بتقوى الله تعالى على الامر بطاعته لان تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول ثم ان نوحا عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم انؤمن لك واتبعك الارذلون (قال صاحب الكشاف) وقرئ وأتباعك الارذلون جمع تابع كشاهد واشهاد او جمع تبع كبطل وابطال والواو للحال وحقها ان يضمر بعدها قد فى واتبعك وقد جمع ارذال على الصحة وعلى التكسير فى قولهم الذين هم اراذلنا والرذالة الخسة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة واعلم ان هذه الشبهة فى نهاية الركاكة لان نوحا عليه السلام بعث الى الخلق كافة فلا يختلف الحال فى ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها فاجابهم نوح عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله وما علمى بما كانوا يعملون وهذا الكلام يدل على انهم نسبوهم مع ذلك الى انهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وانما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم فى قوله الذين هم اراذلنا بادى الرأى ثم قال ان حسابهم الا على ربى معناه لا نعتبر الا الظاهر من امرهم دون ما يخفى ولما قال ان حسابهم الا على ربى وكانوا لا يصدقون بذلك اردفه بقوله لو تشعرون ثم قال وما انا بطارد المؤمنين وذلك كالدلالة على ان القوم سألوه ابعادهم لكى يتبعوه أو ليكونوا أقرب الى ذلك فبين أن الذى يمنعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بين أن غرضه بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله ان أنا الا نذير مبين والمراد انى أخوف من كذبنى ولم يقبل منى فمن قبل فهو القريب ومن رده فهو البعيد ثم ان نوحا عليه السلام لما تمم هذا الجواب لم يكن منهم الا التهديد فقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين والمعنى انهم خوفوه بان يقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم وقال رب ان قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا وليس الغرض منه اخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة اعلم ولكنه أراد انى لا أدعوك عليهم لما آذونى وانما أدعوك لاجلك ولاجل دينك ولانهم كذبونى فى وحيك ورسالتك فافتح بينى وبينهم أى فاحكم بينى وبينهم والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق والمراد من هذا الحكم انزال العقوبة عليهم لانه قال عقبه ونجنى ولولا أن المراد انزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى وقد تقدم القول فى قصته مشروحا فى سورة الاعراف وسورة هود ثم قال تعالى فانجيناه ومن معه فى الفلك المشحون (قال صاحب الكشاف) الفلك السفينة وجمعه فلك قال تعالى وترى الفلك فيه مواخر فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد والمشحون المملوء

قوله (لابيه وقومه) أو على المفعولية لاتل على أنه بدل من نبأ أى واتل عليهم وقت قوله لهم (ماتعبدون) على أن المتلو ماقاله لهم فى ذلك الوقت سألهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك ليبنى على جوابهم أن مايعبدونه بمعزل من استحقاق العبادة بالكلية (قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين) لم يقتصروا على الجواب الكافى بان يقولوا أصناما كما فى قوله تعالى ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ماذا أنزل ربكم قالوا الحق ونظائرهما بل أطنبوا فيه باظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصدا الى ابراز مافى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك والمراد بالظلول الدوام وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وصلة العكوف كلمة على وايراد اللام لافادة معنى زائد كانهم قالوا فنظل لاجلها مقبلين على عبادتها او مستديرين حولها وهذا ايضا من جملة اطنابهم (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم (هل يسمعونكم) أى هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف أو يسمعونكم تدعون كقولك سمعت زيدا يقول كيت وكيت فحذف لدلالة قوله تعالى (اذ تدعون) عليه وقرئ هل يسمعونكم من الاسماع اى هل يسمعونكم شيأ من الاشياء أو الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك

يقال

وصيغة المضارع مع اذ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها كأنه قيل لهم استحضروا الاحوال الماضية
التى كنتم تدعونها فيها وأجيبوا هل سمعوا او أسمعوا قط (او ينفعونكم) بسبب عبادتكم لها (أو يضرون)

يقال شحنها عليهم خيلا ورجلا فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم و بين تعالى انه بعد أن انجاهم اغرق الباقين وأن اغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم ۞ (القصة الرابعة) قصة هود عليه السلام قوله تعالى (كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم اخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ان هذا الا خلق الاولين ومانحن بمعذبين فكذبوه فاهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة فى اعادة التفسير ثم انه تعالى ذكر الامور التى تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهى ثلاثة (فاولها) قوله أتبنون بكل ريع آية تعبثون قرئ بكل ريع بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم فيه وجوه أحدها عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علما يعبثون فيه بمن يمر فى الطريق الى هود عليه السلام والثانى أنهم كانوا يبنون فى الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا الى العبث والثالث انهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فاتخذوا فى طريقهم اعلاما طوالا فكان ذلك عبثا لانهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم الرابع بنوا بكل ريع بروج الحمام (وثانيها) قوله وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون المصانع ما آخذ الماء وقيل القصور المشيدة والحصون لعلكم تخلدون ترجون الخلد فى الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد وفى مصحف أبى كأنكم وقرئ تخلدون بضم التاء مخففا ومشددا واعلم أن الاول انما صار مذموما لدلالته اما على السرف أو على الخيلاء والثانى انما صار مذموما لدلالته على الامل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر (وثالثها) قوله واذا بطشتم بطشتم جبارين بين انهم مع ذلك السرف والحرص فان معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين وقد بينا فى غير هذا الموضع ان هذا الوصف فى العباد ذم وان كان فى وصف الله تعالى مدحا فكان من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بانه باطشه بطش جبار وحاصل الامر فى هذه الامور الثلاثة ان اتخاذ الابنية العالية يدل على حب العلو واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو فيرجع الحاصل الى انهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الالهية وهى ممتنعة الحصول للعبد فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان

أى يضرونكم بترككم لعبادتها اذ لا بد للعبادة لاسيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع او دفع ضر (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) اعترفوا بانها بمعزل عما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا الى اظهار أن لا سند لهم سوى التقليد اى ما علمنا او ما رأينا منهم ماذكر من الامور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون اى مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم (قال افرأيتم ما كنتم تعبدون) اى أنظرتم فابصرتم أو تأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه (انتم وآباؤكم الاقدمون) حق الابصار او حق العلم وقوله (فانهم عدو لى) بيان لحال مايعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك اى فاعلموا انهم اعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما انهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه اولان من يغريهم على عبادتهم ويحملهم عليها هو الشيطان الذى هو اعدى عدو الانسان لكنه عليه الصلاة والسلام صور الامر فى نفسه تعريضا بهم فانه انفع فى النصيحة من التصريح واشعارا بانها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون ادعى الى القبول والعدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجمع

ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو شبها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل

كل كفرومعصية ثم لماذكرهود عليه السلام هذه الاشياء قال فاتقوا الله وأطيعون زيادة فى دعائهم الى الآخرة وزجرالهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر ثم وصل بهذا الوعظ مايؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالاجمال أولا ثم التفصيل ثانيا فايقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال امدكم بما تعلمون ثم فصلها من بعد بقوله أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم فبلغ فى دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين اظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده فان قيل لوقال أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد جوابه ليس المعنى بواحد لان المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشرته فهو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم ان هذا الاخلق الاولين فمن قرأ خلق الاولين بالفتح فمعناه ان ماجئت به اختلاق الاولين وتخرصهم كما قالوا أساطير الاولين اوماخلقنا هذا الاخلق القرون الخالية نحيا كحياتهم ونموت كمماتهم ولابعث ولاحساب ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة فمعناه ماهذا الذى نحن عليه من الدين الاخلق الاولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون او ماهذا الذى نحن عليه من الحياة والموت الاعادة لم يزل عليها الناس فى قديم الدهر أوماهذا الذى جئت به من الكذب الاعادة الاولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه ثم قالوا ومانحن بمعذبين أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من انكار المعاد فعند هذا بين الله تعالى انه اهلكهم وقدسبق شرح كيفية الهلاك فى سائر السور والله أعلم ﴿(القصة الخامسة)

قصة صالح عليه السلام قوله تعالى (كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح الا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الاعلى رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين فاتقوا الله واطيعون ولاتطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولايصلحون قالوا انما انت من المسحرين ماأنت الابشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فاصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم أن صالحا عليه السلام خاطب قومه بامور (أحدها) قوله أتتركون فيما ههنا آمنين اى اتظنون انكم تتركون فى دياركم آمنين وتطمعون فى ذلك وان لادار للمجازاة وقوله فيما ههنا آمنين فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله فى جنات وعيون وهذا أيضا اجمال ثم تفصيل فان قيل لم قال ونخل بعدقوله فى جنات والجنة تتناول النخل جوابه من وجهين (الاول) انه خص النخل بافراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على فضله

(لاورب العالمين) استثناء منقطع اى لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو ولبى فى الدنيا والآخرة لايزال يتفضل على بمنافعهما سيمابعرب عنه ماوصفه تعالى به من احكام الولاية وقيل متصل وهو قول الزجاج على ان الضمير لكل معبود وكان من آبائهم من عبد الله تعالى وقوله تعالى (الذى خلقنى) صفة لرب العالمين وجعله مبتدا ومابعده خبرا غير حقيق بجزالة التنزيل وانما وصفه تعالى بذلك وبماعطفه عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين تصريحا بالنعم الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتفصيلا لها لكونها ادخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى (فهو يهدين) أى هو يهدينى وحده الى كل مايهمنى ويصلحنى من امور الدين والدنيا هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع فانه تعالى يهدى كل ماخلقه لما خلق له من امور المعاش والمعاد هداية متدرجة من مبدا ايجاده الى منتهى اجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره اما طبعا واما اختيارا مبدؤها بالنسبة الى الانسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ومنتهاها الهداية الى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم (والذى هو يطعمنى ويسقين) عطف على الصفة الاولى وتكرير الموصول فى المواقع لئلا لانه مع كفاية عطف

على

على سائر الاشجار (والثانى) أن يراد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل والطلع هو الذى يطلع من النخلة كنصل السيف فى جوفه شمار يخ والهضيم اللطيف أيضا من قولهم كشح هضيم وقيل الهضيم اللين النضيج كأنه قال ونخل قد أرطب ثمره (وثانيها) قوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين قرأ الحسن وتنحتون بفتح الحاء وقرئ فرهين وفارهين والفراهة الكيس والنشاط فقوله فارهين حال عن الناحتين (واعلم) أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الخيالية وهى طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية وهى طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة (وثالثها) قوله تعالى ولاتطيعوا أمر المسرفين وهذا اشارة الى انه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ولايجوز التوسع فى طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها فان قيل مافائدة قوله ولايصلحون جوابه فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شئ من الصلاح كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح ثم ان القوم أجابوه من وجهين (أحدهما) قولهم انما أنت من المسحرين وفيه وجوه احدها المسحر هو الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله وثانيها من المسحرين أى من له سحر وكل دابة تأكل فهى مسحرة والسحر أعلى البطن وعن الفراء المسحر من له جوف أراد أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب وثالثها عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة (وثانيهما) قولهم ماانت الابشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين وهذا يحتمل امرين الاول انك بشر مثلنا فكيف تكون نبيا وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون فى الانبياء انهم لو كانوا صادقين لكانوا من جنس الملائكة الثانى أن يكون مرادهم انك بشر مثلنا فلابد لنا فى اثبات نبوتك من الدليل فقال صالح عليه السلام هذه ناقة لها شرب وقرئ بالضم روى أنهم قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا فقعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها فى العظم ووصاهم صالح عليه السلام بامرين الاول قوله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم قال قتادة اذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله وشربهم فى اليوم الذى لاتشرب هى والثانى قوله ولاتمسوها بسوء أى بضرب أوعقر اوغيرهما فيأخذكم عذاب يوم عظيم عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لان الوقت اذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد ثم ان الله تعالى حكى عنهم انهم عقروها روى أن مصدعا ألجاها الى مضيق فرماها بسهم فسقطت ثم ضربها قدار فان قيل لم أخذهم العذاب وقد ندموا جوابه من وجهين الاول انه لم يكن ندمهم ندم التائبين لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل الثانى أن الندم وان كان ندم التائبين ولكن كان ذلك فى غير وقت التوبة بل عند معاينة العذاب وقال تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت الآية واللام فى

ماوقع فى حيز الصلة من الجمل الست على صلة الموصول الاول للايذان بان كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم حقيق بان تجرى عليه تعالى بحيالها ولاتجعل من روادف غيرها (واذا مرضت فهو يشفين) عطف على يطعمنى ويسقين نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الاكل والشرب غالبا ونسبة المرض الى نفسه والشفاء الى الله تعالى مع أنهما منه تعالى لمراعاة حسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فاردت أن أعيبها وقال فاراد ربك أن يبلغا أشدهما وأما الاماتة فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالاحياء بدأ واعادة وقد نيط أمور الآخرة جميعها بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى (والذى يميتنى ثم يحيين) على أن الموت لكونه ذريعة الى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الابدية بمعزل من أن يكون غير مطبوع عنده عليه الصلاة والسلام (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعليما للامة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه الصلاة والسلام من الصغائر وتنبيها لابيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى درجة لايقادر قدرها فان حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه فى طاعة

العذاب اشارة الى عذاب يوم عظيم * (القصة السادسة) قصة لوط عليه السلام ﴿ قوله تعالى (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتاتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين قال انى لعملكم من القالين رب نجنى وأهلى مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) أما قوله تعالى أتاتون الذكران من العالمين فيحتمل عوده الى الآتى أى أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة وهى اتيان الذكران ويحتمل عوده الى المأتى أى أنتم اخترتم الذكران من العالمين لا الاناث منهم وأما قوله تعالى من أزواجكم فيصلح أن يكون تبيينا لما خلق وان يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهن وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم والعادى هو المتعدى فى ظلمه ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون فى جميع المعاصى فهذا من جملة ذاك أو بل أنتم قوم أحقاء بان توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة فقالوا له عليه السلام لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين أى لتكونن من جملة من أخرجناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ الأحوال فقال لهم لوط عليه السلام انى لعملكم من القالين القلى البغض الشديد كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد وقوله من القالين أبلغ من أن يقول انى لعملكم قال كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم ويجوز أن يراد من الكاملين فى قلاكم ثم قال تعالى فنجيناه وأهله والمراد فنجيناه وأهله من عقوبة عملهم الا عجوزا فى الغابرين فان قيل فى الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم جوابه معناه الا عجوزا مقدرا غبورها قيل انها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة قال القاضى عبد الجبار فى تفسيره فى قوله تعالى وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم دلالة على بطلان الجبر من جهات (أحدها) انه لا يقال تذرون الا مع القدرة على خلافه ولذلك لا يقال للمرء لم تذر الصعود الى السماء كما يقال له لم تذر الدخول والخروج (وثانيها) انه قال ما خلق لكم ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذى خلق لهم ما خلقه فيهم واوجبه لا ما لم يفعلوه (وثالثها) قوله تعالى بل أنتم قوم عادون فان كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون الى أنهم تعدوا وهل يقال للاسود انك متعد فى لونك فنقول حاصل هذه الوجوه يرجع الى أن العبد لو لم يكن موجد الافعال نفسه لما توجه المدح والذم والامر والنهى عليه ولهذه الآية فى هذا المعنى خاصية أزيد مما ورد من الامر والنهى والمدح والذم فى قصة موسى عليه السلام وابراهيم ونوح وسائر القصص فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص واذا ثبت

الله تعالى وعبادته فى الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر وفنون المعاصى والخطايا وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث انى سقيم بل فعله كبيرهم وقوله لسارة هى أختى مما لا سبيل اليه لانها مع كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة الى الاستغفار انما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام الى الشأم وأما الاوليان فلانهما وقعتا مكتنفتين بكسر الاصنام ومن البين أن جريان هذه المقالات فيما بينهم كان فى مبادى الامر وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنها انما تغفر فى الدنيا لان أثرها يومئذ يتبين ولان فى ذلك تهويلا له واشارة الى وقوع الجزاء فيه ان لم تغفر (رب هب لى حكما) بعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام لهم فنون الالطاف الفائضة عليه من الله عز وجل من مبدا خلقه الى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحكمة التى هى الكمال فى العلم والعمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق (وألحقنى بالصالحين) ووفقنى من العلوم والاعمال والملكات لما يرشحنى للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها أو اجمع بينى وبينهم فى الجنة ولقد أجابه تعالى حيث قال وانه فى

بطلان

بطلان هذه الوجوه بقى ذلك الوجه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين (الاول) ان الله تعالى لما علم وقوع هذه الاشياء فعدمها محال لان عدمها يستلزم انقلاب العلم جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال واذا كان عدمها محالا كان التكليف بالترك تكليفا بالمحال (الثانى) أن القادر لما كان قادرا على الضدين امتنع أن يترجح أحد المقدورين على الآخر الا لمرجح وهو الداعى أو الارادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر ان كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وان كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله والله أعلم * (القصة السابعة) قصة شعيب عليه السلام ﴿ قوله تعالى (كذب أصحاب الايكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قرئ أصحاب الايكة بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الاضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب وزعم ان أيكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فتوهم قاد اليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة ص بغير ألف لكن قد كتبت فى سائر القرآن على الاصل والقصة واحدة على أن ايكة اسم لا يعرف روى ان أصحاب الايكة كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هى التى حملها المقل فان قيل هلا قال أخوهم شعيب كما فى سائر المواضع جوابه أن شعيبا لم يكن من أصحاب الايكة وفى الحديث ان شعيبا أخا مدين أرسل اليهم والى أصحاب الايكة ثم ان شعيبا عليه السلام أمرهم باشياء (أحدها) قوله أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وذلك لان الكيل على ثلاثة اضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذى هو الايفاء بقوله أوفوا الكيل ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف بقوله ولا تكونوا من المخسرين ولم يذكر الزائد لانه بحيث ان فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلا اثم عليه ثم انه لما أمر بالايفاء بين انه كيف يفعل فقال وزنوا بالقسطاس المستقيم قرئ بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان وقيل القرسطون (وثانيها) قوله تعالى ولا تبخسوا الناس أشياءهم يقال بخسه حقه اذا نقصه اياه وهذا عام فى كل حق يثبت لاحد أن لا يهضم وفى كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتصرف فيه الا باذنه تصرفا شرعيا (وثالثها) قوله تعالى ولا تعثوا فى الارض مفسدين يقال عثا فى الارض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك مع توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتقوا الذى

الآخرة لمن الصالحين (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى جاها وحسن صيت فى الدنيا بحيث يبقى أثره الى يوم الدين ولذلك لا ترى أمة من الامم الا وهى محبة له ومثنية عليه أو صادقا من ذريتى يجدد أصل دينى ويدعو الناس الى ما كنت أدعوهم اليه من التوحيد وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام أنا دعوة أبى ابراهيم (واجعلنى) فى الآخرة (من ورثة جنة النعيم) وقد مر معنى الوراثة فى سورة مريم (واغفر لابى) بالهداية والتوفيق للايمان كما يلوح به تعليله بقوله (انه كان من الضالين) أى طريق الحق وقد مر تحقيق المقام فى تفسير سورة التوبة وسورة مريم بما لا مزيد عليه (ولا تخزنى) بمعاتبتى على ما فرطت أو بنقص رتبتى عن بعض الوراث أو بتعذيبى لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا كل ذلك مبنى على هضم النفس منه عليه الصلاة والسلام أو بتعذيب والدى أو ببعثه فى عداد الضالين بعدم توفيقه للايمان وهو من الخزى بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء (يوم يبعثون) أى الناس كافة والاضمار قبل الذكر لما فى عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه وتخصيصه بالضالين مما يخل بتهويل اليوم (يوم لا ينفع مال ولا بنون) بدل من يوم يبعثون جىء به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء وهو من أعم المفاعيل أى لا ينفع مال وان كان مصروفا فى الدنيا الى وجوه البر والخيرات ولا بنون

وان كانوا اصلها مستأهلين للشفاعة ٥٤٠ أحدا (الا من أتى الله بقلب سليم) أى عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط

نفع كل منهما بالايمان وفيه تأييد لكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لابيه طلبا لهدايته الى الايمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه عليه الصلاة والسلام بعدم نفعه لانه من باب الشفاعة وقيل هو استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف أى الامال من أو بنو من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ليس من جنس المستثنى منه حقيقة بل بضرب من الاعتبار كما فى قوله تحية بينهم ضرب وجيع أى الا حال من أتى الله بقلب سليم على أنها عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل الا سلامة قلب من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف مادل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الاغنى من أتى الله الآية لان غنى المرء فى دينه بسلامة قلبه وقيل الا استثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه (وأزلفت الجنة للمتقين) عطف على لا ينفع وصيغة الماضى فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع فى المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتقطيع أى

قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على مافيها من فنون

خلقكم والجبلة الاولين وقرئ الجبلة بوزن الابلة والجبلة بوزن الخلقة ومعناهن واحد أى ذوى الجبلة والمراد انه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين فلم يكن للقوم جواب الا ما لو تركوه لكان أولى بهم وهو من وجهين (الاول) قولهم انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا فان قيل هل اختلف المعنى بادخال الواو ههنا وتركها فى قصة ثمود جوابه اذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم المسحر والبشرية واذا تركت الواو فلم يقصدوا الا معنى واحدا وهو كونه مسحرا ثم قرروه بكونه بشرا مثلهم (الثانى) قولهم وان نظنك لمن الكاذبين ومعناه ظاهر ثم ان شعيبا عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب ان استمروا على التكذيب فقالوا فأسقط علينا كسفا من السماء وقرئ كسفا بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهى القطعة والسماء السحاب أو الظلة وهم انما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه اذا لم يقع ظهر كذبه فعنده قال شعيب عليه السلام ربى أعلم بما تعملون فلم يدع عليهم بل فوض الامر فيه الى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب انزل الله عليهم العذاب على نحو مااقترحوا من عذاب الظلة ان ارادوا بالسماء السحاب وان ارادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى انه حبس عنهم الريح سبعا وسلط عليهم الرمل فأخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فاظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا وروى ان شعيبا بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة وههنا آخر الكلام فى هذه القصص السبع التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما ناله من الغم الشديد بقى ههنا سؤالان (السؤال الاول) لم لا يجوز ان يقال ان العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم واذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص لان الاعتبار انما يحصل ان لو علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم (الثانى) ان الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ما قال ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ولانه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم فى مواضع كثيرة واذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين والجواب ان الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد صلى الله عليه وسلم تسلية له وازالة للحزن عن قلبه فلما أخبر الله تعالى محمدا انه هو الذى أنزل العذاب عليهم وانه انما أنزله عليهم جزاء على كفرهم علم محمد صلى الله عليه وسلم ان الامر كذلك فحينئذ يحصل به التسلى والفرح له عليه السلام واحتج بعض الناس على القدح فى علم الاحكام بان قال المؤثر فى هذه الاشياء اما الكواكب أو البروج او كون الكوكب فى البرج المعين والاول باطل والا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب والثانى أيضا

باطل ٠

المحاسن فيبتهجون بانهم المحشورون اليها (وبرزت الجحيم للغاوين) الضالين ٥٤١ عن طريق الحق الذى هو الايمان والتقوى

اى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع مافيها من أنواع الاحوال الهائلة ويوقنون بانهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا (وقيل لهم أينما كنتم) فى الدنيا (تعبدون من دون الله) أى أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم وهذا سؤال تقريع وتبكيت لا يتوقع له جواب ولذلك قيل (فكبكبوا فيها) أى ألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى الى أن يستقروا فى قعرها (هم) أى آلهتهم (والغاوون) الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز الى أنهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا غما الى غمهم (وجنود ابليس) أى شياطينه الذين كانوا يغوونهم ويوسوسون اليهم ويسولون لهم ماهم عليه من عبادة الاصنام وسائر فنون الكفر والمعاصى ليجتمعوا فى العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والاول هو الوجه (أجمعون) تأكيد للضمير وماعطف عليه وقوله تعالى (قالوا) الخ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل

ماذا قالوا حين فعل بهم مافعل فقيل قال العبدة (وهم فيها يختصمون) أى قالوا معترفين بخطئهم فى انهماكهم فى الضلالة

باطل والالزم دوام الاثر بدوام البرج والثالث أيضا باطل لان الفلك على قولهم بسيط لا مركب فيكون طبع كل برج مساويا بالطبع البرج الآخر فى تمام الماهية فيكون حال الكوكب وهو فى برجه كحاله وهو فى برج آخر فيلزم أن يدوم ذلك الاثر بدوام الكوكب وللقوم أن يقولوا لم لا يجوز ان يكون صدور الاثر عن الكوكب المعين موقوفا على كونه مسامتا مسامتة مخصوصة لكوكب آخر فاذا انقدت تلك المسامتة فقد شرط التأثير فلا يحصل التأثير ولهم أن يقولوا هذه الدلالة انما تدل على انها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها ولكنها لا تدل على انها ليست مؤثرة بحسب جرى العادة فاذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تأثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وادوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بان الله تعالى انما خلقها لاجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها لتكرير تلك العادات والله أعلم ٭ القول فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام ٭ قوله تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وانه لفى زبر الاولين) اعلم انه تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الانبياء ذكر بعد ذلك مايدل على نبوته وهو من وجهين (الاول) قوله وانه لتنزيل رب العالمين وذلك لانه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين ولانه اخبار عن القصص الماضية من غير تعليم البتة فلا يكون ذلك الا بوحى من الله تعالى وقوله بعد وانه لفى زبر الاولين كأنه مؤكد لهذا الاحتمال وذلك لانه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ماهى موجودة فى زبر الاولين من غير تفاوت أصلا مع انه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد دل ذلك على انه ليس الا من عند الله تعالى فهذا هو المقصود من الآية فاما قوله تعالى وانه لتنزيل رب العالمين فالمراد بالتنزيل المنزل ثم قد كان يجوز فى القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلا من الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال نزل به الروح الامين والباء فى قوله نزل به الروح ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى نزل به الروح جعل الله الروح نازلا به على قلبك أى فهمك اياه واثبته فى قلبك اثبات مالا ينسى كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى والروح الامين جبريل عليه السلام وسماه روحا من حيث خلق من الروح وقيل لانه نجاة الخلق فى باب الدين فهو كالروح الذى تثبت معه الحياة وقيل لانه روح كله لا كالناس الذين فى أبدانهم روح وسماه أمينا لانه مؤتمن على مايؤديه الى الانبياء عليهم السلام والى غيرهم واما قوله على قلبك ففيه قولان (الاول) انه انما قال على قلبك وان كان انما انزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن فى قلبه لا يجوز عليه التغير فيوثق بالانذار الواقع منه الذى بين الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال لتكون من المنذرين (الثانى) أن القلب هو المخاطب فى الحقيقة لانه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الاعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول (أما القرآن) فآيات احداها قوله تعالى فى سورة البقرة فانه نزله على قلبك

منحسرين متحيرين لانقسم والحال أنهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين مخاطبين لمعبوديهم على ان الله
تعالى يجعل الاصنام صالحة للاختصام ٥٤٢ بان يعطيها القدرة على الفهم والنطق (تالله ان كنا لفى ضلال مبين) ان مخففة من
الثقيلة قد حذف اسمها الذى هو
ضمير الشان واللام فارقة بينها
وبين النافية أى ان الشأن كنا فى
ضلال واضح لا خفاء فيه ووصفهم
له بالوضوح للاشباع فى اظهار
ندمهم وتحسرهم وبيان عظم
خطئهم فى رأيهم مع وضوح
الحق كما ينبئ عنه تصدير قسمهم
بحرف التاء المشعرة بالتعجب
وقوله تعالى (اذ نسويكم برب
العالمين) ظرف لكونهم فى
ضلال مبين وقيل لما دل عليه
الكلام أى ضللنا وقيل للضلال
المذكور وان كان فيه ضعف
صناعى من حيث ان المصدر
الموصوف لا يعمل بعد الوصف
وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع
لاستحضار الصورة الماضية أى
تالله لقد كنا فى غاية الضلال
الفاحش وقت تسويتنا اياكم
أيها الاصنام فى استحقاق العبادة
برب العالمين الذى أنتم أدنى
مخلوقاته واذلهم وأعجزهم
وقولهم (وما أضلنا الا المجرمون)
بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم
بصدوره عنهم لكن لا على معنى
قصر الاضلال على المجرمين دون
من عداهم بل على معنى قصر
ضلالهم على كونه بسبب ضلالهم
من غير أن يستقلوا فى تحققه
أو يكون بسبب اضلال الغير كأنه
قيل وما صدر عنا ذلك الضلال
الفاحش الا بسبب اضلالهم والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما فى قوله تعالى ربنا انا أطعنا لهم

وقال ههنا نزل به الروح الامين على قلبك وقال ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب (وثانيها) انه ذكر ان استحقاق الجزاء ليس الا على ما فى القلب من المساعى فقال لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم وقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى فى القلب لانه تعالى قال أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال تعالى وحصل ما فى الصدور (وثالثها) قوله حكاية عن أهل النار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ومعلوم أن العقل فى القلب والسمع منفذ اليه وقال ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ومعلوم ان السمع والبصر لا يستفاد منهما الا ما يؤديانه الى القلب فكان السؤال عنهما فى الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ولم تخف الاعين الا بما تضمر القلوب عند التحديق بها (ورابعها) قوله وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون فخص هذه الثلاثة بالزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها وقد قلنا لا طائل فى السمع والابصار الا بما يؤديان الى القلب ليكون القلب هو القاضى فيه والمتحكم عليه وقال تعالى ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضى فيما يؤدى اليه السمع والبصر (وخامسها) قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فجعل العذاب لازما على هذه الثلاثة وقال لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها وجه الدلالة انه قصد الى نفى العلم عنهم رأسا فلو ثبت العلم فى غير القلب كثباته فى القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات ونحوها كلها ناطقة بأجمعها ان القلب هو المقصود بالزام الحجة وقد بينا ان ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لانهما آلتان للقلب فى تأدية صور المحسوسات والمسموعات (وأما الحديث) فما روى النعمان بن بشير قال سمعته عليه السلام يقول ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب (وأما المعقول) فوجوه (أحدها) ان القلب اذا غشى عليه فلو قطع سائر الاعضاء لم يحصل الشعور به واذا أفاق القلب فانه يشعر بجميع ما ينزل بالاعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الاعضاء تبع للقلب ولذلك فان القلب اذا فرح أو حزن فانه يتغير حال الاعضاء عند ذلك وكذا القول فى سائر الاعراض النفسانية (وثانيها) ان القلب منبع المشاق الباعثة على الافعال الصادرة من سائر الاعضاء واذا كانت المشاق مبادى للافعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب (وثالثها) ان معدن العقل هو القلب واذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب (أما المقدمة الاولى) ففيها النزاع فان طائفة من القدماء ذهبوا الى أن معدن العقل هو الدماغ والذى يدل على قولنا وجوه (الاول) قوله تعالى أولم يسيروا فى الارض فتكون

سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا وعن السدى رحمه الله الاولون الذين اقتدوا بهم وأيا ما كان ففيه اوفر نصيب من التعريض
للذين قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وعن ابن جريج ابليس ٥٤٣ وابن آدم القاتل لانه أول من سن القتل وأنواع
المعاصى (فما لنا من شافعين) كما
للمؤمنين من الملائكة والانبياء
عليهم الصلاة والسلام (ولا صديق
حميم) كما نرى لهم أصدقاء وفما لنا
من شافعين ولا صديق حميم من
الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء
على أن عدمهما كناية عن
عدم نفعهما كما أن عدم المحبة فى
مثل قوله تعالى والله لا يحب
الفساد كناية عن البغض حسبما
ينبئ عنه قوله تعالى الاخلاء
يومئذ بعضهم لبعض عدو الا
المتقين أو وقعنا فى مهلكة
لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على
أن المراد بعدمهما عدم اثرهما
وجمع الشافع لكثرة الشفعاء
عادة كما أن افراد الصديق لقلته
أولصحة اطلاقه على الجمع كالعدو
تشبيها لهما بالمصادر كالحنين
والقبول وكلمة لو فى قوله تعالى
(فلو أن لنا كرة) للتمنى كليت لما
أن بين معنييهما تلاقيا فى معنى
الفرض والتقدير كأنه قيل
فليت لنا كرة أى رجعة الى الدنيا
وقيل هى على أصلها من الشرط
وجوابه محذوف كأنه قيل فلو أن
لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت
وكيت ويأباه قوله تعالى (فنكون
من المؤمنين) لتحتم كونه جوابا
للتمنى مفيدا لترتب ايمانهم على
وقوع الكرة البتة بلا تخلف كما
هو مقتضى حالهم وعطفه على
كرة على طريقة * للبس عباءة وتقر عينى * كما يستدعيه كونها على أصلها انما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم

لهم قلوب يعقلون بها وقوله لهم قلوب لا يفقهون بها وقوله ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل أطلق عليه اسم القلب لما انه معدنه (الثانى) انه تعالى أضاف اضداد العلم الى القلب وقال فى قلوبهم مرض ختم الله على قلوبهم وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم كلا بل ران على قلوبهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضا هو القلب (الثالث) وهو أنا اذا جربنا انفسنا وجدنا علومنا حاصلة فى ناحية القلب ولذلك فان الواحد منا اذا أمعن فى الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب واذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لان التكليف مشروط بالعقل والفهم (الرابع) وهو ان القلب اول الاعضاء تكونا وآخرها موتا وقد ثبت ذلك بالتشريح ولانه متمكن فى الصدر الذى هو أوسط الجسد ومن شأن الملوك المحتاجين الى الخدم أن يكونوا فى وسط المملكة لتكتنفهم الحواشى من الجوانب فيكونوا أبعد من الآفات واحتج من قال العقل فى الدماغ بامور (أحدها) ان الحواس التى هى الآلات للادراك نافذة الى الدماغ دون القلب (وثانيها) ان الاعصاب التى هى الآلات فى الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب (وثالثها) ان الآفة اذا حلت فى الدماغ اختل العقل (ورابعها) أن فى العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل انه خفيف الدماغ خفيف الرأس (وخامسها) ان العقل أشرف فيكون مكانه أشرف والاعلى هو الاشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ (والجواب عن الاول) لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدى آثارها الى الدماغ ثم ان الدماغ يؤدى تلك الآثار الى القلب فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه انا ندرك من أنفسنا انا اذا عقلنا ان الامر الفلانى يجب فعله أو يجب تركه فان الاعضاء تتحرك عند ذلك ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ (وعن الثانى) انه لا يبعد ان يتأدى الاثر من القلب الى الدماغ ثم الدماغ يحرك الاعضاء بواسطة الاعصاب النابتة منه (وعن الثالث) لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطا لوصول تأثير القلب الى سائر الاعضاء (وعن الرابع) ان ذلك العرف انما كان لان القلب انما يعتدل مزاجه بما يستمده من الدماغ من برودته فاذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضا اما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل (وعن الخامس) انه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم (فرع) اعلم ان المعانى التى بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف

وايمانهم معا من غير دلالة على استلزام الكرة ٥٤٤ للايمان أصلا مع أنه مقصود حتما (ان في ذلك) أي فيما ذكر من نبأ ابراهيم
عليه السلام المشتمل على بيان
بطلان ما كان عليه اهل مكة من
عبادة الاصنام وتفصيل ما يؤل
اليه أمر عبدتها يوم القيامة من
اعترافهم بخطئهم الفاحش
وندمهم وتحسرهم على مافاتهم
من الايمان وتمنيهم الرجعة الى
الدنيا ليكونوا من المؤمنين عند
مشاهدتهم لما أزلفت لهم
جنات النعيم و برزت لانفسهم
الجحيم وغشيهم ماغشيهم من
ألوان العذاب وأنواع العقاب
(لآية) أى آية عظيمة لا يقادر
قدرها موجبة على عبدة الاصنام
كافة لاسيما على أهل مكة الذين
يدعون أنهم على ملة ابراهيم
عليه السلام أن يجتنبوا كل
الاجتناب ما كانوا عليه من
عبادتها خوفا أن يحيق بهم مثل
ماحاق بأولئك من العذاب بحكم
الاشتراك فيما يوجبه أوان في ذكر
نبئه وتلاوته عليهم على ماهو عليه
من غير أن تسمعه من أحد لآية
عظيمة دالة على أن ماتتلوه عليهم
وحي صادق نازل من جهة الله
تعالى موجبة للايمان به قطعا
(وما كان أكثرهم مؤمنين) اى
اكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم
النبأ مؤمنين بل هم مصرون على
ماكانوا عليه من الكفر
والضلال واما ان ضميرا كثرهم
لقوم ابراهيم عليه السلام كما
توهموا انما لاسبيل اليه اصلا لظهور انهم ما ازدادوا ايمانا بعمرا منه عليه الصلاة والسلام الاطغيانا وكفرا حتى فتتم .

الى الصدر تارة والى الفؤاد أخرى اما الصدر فقوله تعالى وحصل مافي الصدور وقوله وليبتلي الله مافي صدوركم وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور وان تخفوا مافي صدوركم أو تبدوه وأما الفؤاد فقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد فقال القلب هو العلقة السوداء في جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم والشحم ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان وكيف كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمى قلبا وفؤادا موضعا هو الموضع في الحقيقة للعقل والاختيار وان معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع كما ان سائر الاعضاء مسخرة للقلب فان العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة اليه اعنى العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني فيشبه أن يكون اسم القلب اسما للاجزاء التي تحل فيها هذه المعاني بالحقيقة واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو فهذا هو الكلام في هذا الباب والله الموفق للصواب واما قوله تعالى لتكون من المنذرين فيدخل تحت الانذار الدعاء الى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح لان في الوجهين جميعا يدخل الخوف من العقاب واما قوله تعالى بلسان عربي مبين فالباء اما أن تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين انذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب واسمعيل ومحمد عليهم السلام واما ان تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربي لينذر به لانه لو نزله باللسان الاعجمي لقالوا له ماتصنع بما لا نفهمه فيتعذر الانذار به وفي هذا الوجه ان تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لانك تفهمه و يفهمه قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع اجراس حروف لاتفهم معانيها واما قوله تعالى وانه لفي زبر الاولين فيحتمل هذه الاخبار خاصة و يحتمل أن يكون المراد صفة القرآن و يحتمل صفة محمد صلى الله عليه وسلم و يحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف لان ذكر هذه الاشياء باسرها قد تقدم ﴿ قوله تعالى

(اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون فيقولوا هل نحن منظرون) اعلم ان قوله تعالى أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه وتقريره ان جماعة من علماء بني اسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع في التوراة والانجيل ذكر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته وقد كان مشركو قريش يذهبون الى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لان تطابق الكتب الالهية على نعته و وصفه يدل قطعا على نبوته واعلم انه قرئ يكن بالتذكير وآية بالنصب على انها خبره وأن يعلمه هو الاسم وقرئ تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا وليست كالاولى لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبرا و يجوز مع نصب الآية تأنيث يكن كقوله ثم لم تكن

اجترؤا على تلك العظيمة التي فعلوها به عليه الصلاة والسلام فكيف يعبر عنهم ٥٤٥ بعدم ايمان اكثرهم وانما آمن له لوط
فنجاه الله عز وجل الى الشأم
وقد مر بقية الكلام في آخر قصة
موسى عليه السلام (وان ربك
لهو العزيز الرحيم) أى هو القادر
على تعجيل العقوبة لقومك ولكنه
يمهلهم بحكم رحمته الواسعة
ليؤمن بعض منهم أو من ذرياتهم
(كذبت قوم نوح المرسلين) القوم
مؤنث ولذلك يصغر على قويمة
وقيل القوم بمعنى الامة وتكذيبهم
للمرسلين اما باعتبار اجماع
الكل على التوحيد وأصول
الشرائع التي لاتختلف باختلاف
الازمنة والاعصار واما لان المراد
بالجمع الواحد كما يقال فلان
يركب الدواب ويلبس البرود
وماله الادابة وبردة واذ في قوله
تعالى (اذ قال لهم) ظرف
للتكذيب على أنه عبارة عن
زمان مديد وقع فيه ماوقع من
الجانبين الى تمام الامر كما أن
تكذيبهم عبارة عما صدر عنهم
من حين ابتداء دعوته عليه
الصلاة والسلام الى انتهائها
(أخوهم) أى نسيبهم (نوح
الا تتقون) الله حيث تعبدون
غيره (انى لكم رسول) من جهته
تعالى (أمين) مشهور بالامانة فيما
بينكم (فاتقوا الله وأطيعون)
فيما آمركم به من التوحيد
والطاعة لله تعالى (وما أسألكم
عليه) أى على ما أنا متصد له من
 الدعاء والنصح (من أجر) أصلا (ان أجري) فيما أتولاه (الا على رب العالمين) والفاء في قوله تعالى

فتنتهم الا أن قالوا وأما قوله ولو نزلناه على بعض الاعجمين فاعلم انه تعالى لما بين بالدلائل المذكورة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق لهجته بين بعد ذلك ان هؤلاء الكفار لاتنفعهم الدلائل ولا البراهين فقال ولو نزلناه على بعض الاعجمين يعني انا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وانه معجز لايعارض بكلام مثله وانضم الى ذلك بشارة كتب الله السالفة به فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعرا تارة وسحرا أخرى فلو نزلناه على بعض الاعجمين الذي لايحسن العربية لكفروا به أيضا ولتمحلوا لجحودهم عذرا ثم قال كذلك سلكناه في قلوب المجرمين أى مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا امكناه وقررناه فيها وكيفما فعل بهم فلا سبيل الى ان يتغيروا عماهم عليه من الجحود والانكار وهذا أيضا مما يفيد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم لانه اذا عرف رسول الله اصرارهم على الكفر وانه قد جرى القضاء الازلي بذلك حصل الياس وفي المثل اليأس احدى الراحتين (المسئلة الرابعة) قوله كذلك سلكناه في قلوب المجرمين يدل على ان الكل بقضاء الله وخلقه قال صاحب الكشاف أراد به انه صار ذلك التكذيب متمكنا في قلوبهم اشد التمكن فصار ذلك كالشئ الجبلي والجواب انه اما أن يكون قد فعل الله فيهم مايقتضي رجحان التكذيب على التصديق او مافعل ذلك فيهم فان كان الاول فقد دللنا في سورة الانعام على ان الترجيح لايتحقق مالم ينته الى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود فان لم يفعل فيهم مايقتضي الترجيح البتة امتنع قوله كذلك سلكناه كما ان طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم امتنع اسناد الكفر الى ذلك الطيران (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف فان قلت ماموقع لايؤمنون به من قوله سلكناه في قلوب المجرمين قلت موقعه منه موقع الموضح والمبين لانه مسوق لبيانه مؤكد للجحود في قلوبهم فاتبع مايقرر هذا المعنى من انهم لايزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد ﴿ قوله تعالى (فيقولوا هل نحن منظرون افبعذابنا يستعجلون

افرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون

وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) اعلم انه تعالى لما بين انهم لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وانه يأتيهم العذاب بغتة اتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة فقال فيقولوا هل نحن منظرون كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص لانهم يعلمون في الآخرة ان لاملجأ لكنهم يذكرون ذلك استرواحا فاما قوله تعالى افبعذابنا يستعجلون فالمراد انه تعالى بين انهم كانوا في الدنيا يستعجلون العذاب مع ان حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به ثم بين تعالى ان استعجال العذاب على وجه التكذيب انما يقع منهم ليتمتعوا في الدنيا الا ان ذلك جهل وذلك لان مدة التمتع في الدنيا متناهية قليلة ومدة العذاب الذي يحصل بعد ذلك غير متناهية وليس في العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية وعن ميمون بن

(فاتقوا الله وأطيعون) لترتيب مابعدها ٥٤٦ على ماقبلها من تنزهه عليه الصلاة والسلام من الطمع كما أن تثليثهم السابقة

مهران انه لقى الحسن فى الطواف فقال له عظنى فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال ميمون لقد وعظت فابلغت وقرئ يمتعون بالتخفيف ثم بين انه لم يهلك قرية الا وهناك نذير يقيم عليهم الحجة أما قوله تعالى ذكرى فقال صاحب الكشاف ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة اما لان أنذر وذكر متقاربان فكانه قيل مذكرون تذكرة واما لانها حال من الضمير فى منذرون أى ينذرونهم ذوى تذكرة واما لانها مفعول له على معنى انهم ينذرون لاجل الموعظة والتذكرة أو مرفوعة على انها خبر مبتدا محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى وجعلوا ذكرى لامعانهم فى التذكرة واطنابهم فيها ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة باهلكنا مفعولا له والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين الا بعد ما الزمناهم الحجة بارسال المنذرين اليهم ليكون اهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم وما كنا ظالمين فنهلك قوما غير ظالمين وهذا الوجه عليه المعول فان قلت كيف عزلت الواو من الجملة بعد الا ولم تعزل عنها فى قوله وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم قلت الاصل عزل الواو لان الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف ﴿ قوله تعالى (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) اعلم انه تعالى لما احتج على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بكون القرآن تنزيل رب العالمين وانما يعرف ذلك لوقوعه من الفصاحة فى النهاية القصوى ولانه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت مع انه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة فكان الكفار يقولون لم لا يجوز أن يكون هذا من القاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فاجاب الله تعالى عنه بان ذلك لا يتسهل للشياطين لانهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء ولقائل أن يقول العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يحصل الا بواسطة خبر النبى الصادق فاذا اثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا بفصاحة القرآن واخباره عن الغيب ولا يمكن اثبات كون الفصاحة والاخبار عن الغيب معجزا الا اذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن ذلك لزم الدور وهو باطل وجوابه لا نسلم ان العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد الا من قول النبى وذلك لانا نعلم بالضرورة ان الاهتمام بشان الصديق أقوى من الاهتمام بشان العدو ونعلم بالضرورة أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يلعن الشياطين ويامر الناس بلعنهم فلو كان هذا الغيب انما حصل من القاء الشياطين لكان الكفار أولى بان يحصل لهم مثل هذا العلم فكان يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى فلما لم يكن كذلك علمنا ان الشياطين ممنوعون عن ذلك وانهم معزولون عن تعرف الغيوب ثم انه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فلا تدع مع الله الها آخر وذلك فى الحقيقة خطاب لغيره لان من شان الحكيم اذا أراد ان يؤكد خطاب الغير ان يوجهه الى الرؤساء فى الظاهر وان كان المقصود بذلك هم الاتباع ولانه تعالى أراد ان يتبعه ما يليق بذلك فلهذه العلة

لترتيب مابعدها على أمانته والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقل فى ايجاب التقوى والطاعة فكيف اذا اجتمعا وقرئ ان أجرى بسكون الياء (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون) أى الاقلون جاها ومالا جمع الارذل على الصحة فانه بالغلبة صار جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر وقيل جمع ارذل جمع رذل كالكالب وأكلب وكلب وقرئ وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصابة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادئ الرأى كما ذكر فى موضع آخر وهذا من كمال سخافة عقولهم وقصرهم أنظارهم على حطام الدنيا وكون الاشرف عندهم من هو اكثر منها حظا والارذل من حرمها وجهلهم بأنها لاتزن عند الله تعالى جناح بعوضة وان النعيم هو نعيم الآخرة والاشرف من فاز به والارذل من حرمه (قال وما علمى بما كانوا يعملون) جواب عما أشير اليه من قولهم انهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة أى وما وظيفتى الا اعتبار الظواهر وبناء الاحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشق عن قلوبهم (ان حسابهم) أى ما محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفياتها البارزة والكامنة (الا على ربى) فانه

المطلع على السرائر والضمائر (لو تشعرون) أى بشئ من الاشياء ولو كنتم من ٥٤٧ أهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم

أفرده بالمخاطبة ﴿ قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين انه هو السميع العليم) اعلم انه سبحانه لما بالغ فى تسلية رسوله أولا ثم أقام الحجة على نبوته ثانيا ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه ثالثا أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو ههنا أمور ثلاثة (الاول) قوله وأنذر عشيرتك الاقربين وذلك لانه تعالى بدأ بالرسول فتوعده ان دعا مع الله الها آخر ثم أمره بدعوة الاقرب فالاقرب وذلك لانه اذا تشدد على نفسه اولا ثم بالاقرب فالاقرب ثانيا لم يكن لاحد فيه طعن البتة وكان قوله انفع وكلامه انجع وروى انه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الاقرب فالاقرب وقال يابنى عبد المطلب يابنى هاشم يابنى عبد مناف ياعباس عم محمد ياصفية عمة محمد انى لا املك لكم من الله شيأ سلونى من المال ماشئتم وروى انه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا على رجل شاة وقعب من لبن وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس فاكلوا وشربوا ثم قال يابنى عبد المطلب لو أخبرتكم ان بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم فقال انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد (الثانى) قوله واخفض جناحك واعلم ان الطائر اذا أراد ان ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه واذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب فان قيل المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال لمن اتبعك من المؤمنين جوابه لا نسلم ان المتبعين للرسول هم المؤمنون فان كثيرا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين فاما قوله فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون فمعناه ظاهر قال الجبائى هذا يدل على انه عليه السلام كان بريئا من معاصيهم وذلك يوجب أن الله تعالى أيضا برئ من عملهم كالرسول والا كان مخالفا لله كما لو رضى عمن سخط الله عليه لكان كذلك واذا كان تعالى بريئا من عملهم فكيف يكون فاعلا له ومريدا له الجواب انه تعالى برئ من المعاصى بمعنى انه ما أمر بها بل نهى عنها فاما بمعنى انه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه انه علم وقوعها وعلم ان ماهو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع والا لانقلب علمه جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال وعلم أن ما هو واجب الوقوع فانه لا يراد عدم وقوعه فثبت ماقلناه (والثالث) قوله وتوكل والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره الى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقوله على العزيز الرحيم أى على الذى يقهر اعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم اتبع كونه رحيما على رسوله ماهو كالسبب لتلك الرحمة وهو قيامه وتقلبه فى الساجدين وفيه وجوه (أحدها) المراد ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المتهجدين ليطلع على اسرارهم كما يحكى انه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر مايصنعون لحرصه على مايوجد منهم من الطاعات فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم

كذلك فتقولون ماتقولون (وما أنا بطارد المؤمنين) جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق ايمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعا عنه وقوله (ان أنا الا نذير مبين) كالعلة له أى ما أنا الا رسول مبعوث لانذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الاعزاء أو الاذلاء فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لاستتباع الاغنياء أو ما على الا انذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما على استرضاء بعضكم بطرد الآخرين (قالوا لئن لم تنته يانوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) من المشتومين أو المرميين بالحجارة قالوه فى أواخر الامر ومعنى قوله تعالى (قال رب ان قومى كذبون) تموا على تكذيبى وأصروا على ذلك بعد مادعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى الا فرارا كما يعرب عنه دعاؤه بقوله (فافتح بينى وبينهم فتحا) أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح عليه السلام (ونجنى ومن معى من المؤمنين) أى من قصدهم أو من شؤم أعمالهم (فأنجيناه ومن معه) حسب دعائه (فى الفلك المشحون) أى المملوء بهم وبما لابد لهم منه (ثم أغرقنا بعد) أى بعد انجائهم (الباقين) أى من قومه (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو

العزيز الرحيم) الكلام فيه كالذى مرّ ٥٤٨ خلا أن حمل أكثرهم على أكثر قوم نوح أبعد من الـداد وأبعد (كذبت عاد
المرسلين) انث عادا باعتبار القبيلة وهو اسم أبيهم الاقصى (اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) الكلام فى أن المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه من الزمان ماذا كما مرّ فى صدر قصة نوح عليه السلام أى ألا تتقون الله تعالى فتفعلون ماتفعلون (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجرى الا على ربّ العالمين) الكلام فيه كالذى مرّ وتصدير القصص به للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرّب المدعوّ الى الثواب ويبعده من العقاب وأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام مجمعون على ذلك وان اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الازمنة والاعصار وأنهم متنزهون عن المطامع الدنية والاغراض الدنيوية بالكلية (أتبنون بكل ريع) أى مكان مرتفع ومنه ريع الارض لارتفاعها (آية) علما للمارّة (تعبثون) أى ببنائها اذ كانوا يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فلا يحتاجون اليها أو بروج الحمام أو بنيانا يجتمعون اليه ليعبثوا بمن مرّ عليهم أو قصورا عالية يفتخرون بها (وتتخذون مصانع) أى مآخذ الماء وقيل قصورا مشيدة وحصونا (لعلكم تخلدون) أى راجين أن تخلدوا فى الدنيا أى عاملين عمل من يرجو ذلك فلذلك تحكمون بخ

بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين (وثانيها) المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده اذ كان امامالهم (وثالثها) انه لايخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين فى كفاية أمور الدين (ورابعها) المراد تقلب بصره فيمن يصلى خلفه من قوله صلى الله عليه وسلم أتموا الركوع والسجود فوالله انى لأراكم من خلفى ثم قال انه هو السميع أى لما تقوله العليم أى بما تنويه وتعمله وهذا يدل على ان كونه سميعا أمر مغاير لعلمه بالمسموعات والا لكان لفظ العليم مفيدا فائدته واعلم انه قرئ وتقلبك واعلم ان الرافضة ذهبوا الى ان آباء النبى صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين وتمسكوا فى ذلك بهذه الآية وبالخبر أما هذه الآية فقالوا قوله تعالى وتقلبك فى الساجدين يحتمل الوجوه التى ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى نقل روحه من ساجد الى ساجد كما نقوله نحن واذا احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة انه لامنافاة ولا رجحان وأما الخبر فقوله عليه السلام لم أزل أنقل من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات وكل من كان كافرا فهو نجس لقوله تعالى انما المشركون نجس قالوا فان تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى واذ قال ابراهيم لأبيه آزر قلنا الجواب عنه ان لفظ الاب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق فسموا اسمعيل ابا له مع انه كان عماله وقال عليه السلام ردّوا علىّ أبى يعنى العباس ويحتمل أيضا أن يكون متخذ الاصنام أب أمه فان هذا قد يقال له الاب قال تعالى ومن ذريته داود وسليمان الى قوله وعيسى فجعل عيسى من ذرية ابراهيم مع ان ابراهيم كان جده من قبل الام واعلم انا نتمسك بقوله تعالى لأبيه آزر وماذكروه صرف للفظ عن ظاهره وأما حمل قوله وتقلبك فى الساجدين على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن ۞ قوله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) اعلم ان الله تعالى اعاد الشبهة المتقدمة وأجاب عنها من وجهين (الاوّل) قوله تنزل على كل أفاك أثيم وذلك هو الذى قررناه فيما تقدم ان الكفار يدعون الى طاعة الشيطان ومحمدا عليه السلام كان يدعو الى لعن الشيطان والبراءة عنه (والثانى) قوله يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والمراد انهم كانوا يقيسون حال النبى صلى الله عليه وسلم على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم ان كان الامر على ماذكرتم فكما ان الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك أيضا فلما لم يظهر فى اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغيبات الا الصدق علمنا ان حاله بخلاف حال الكهنة ثم ان المفسرين ذكروا فى الآية وجوها أحدها انهم الشياطين روى انهم كانوا قبل ان حجبوا بالرجم يسمعون الى الملا الاعلى فيختطفون بعض مايتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون

بغيانا (واذا بطشتم) بسوط أو سيف (بطشتم جبارين) متسلطين غاشمين بلا رأفة ٥٤٩ ولا قصد تاديب ولا نظر فى العاقبة (فاتقوا الله) واتركوا هذه الافعال (واطيعون) فيما أدعوكم اليه فانه أنفع لكم (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) من أنواع النعماء وأصناف الآلاء اجملها أوّلا ثم فصلها بقوله (أمدكم بانعام وبنين) باعادة الفعل لزيادة التقرير فان التفصيل بعد الاجمال والتفسير اثر الابهام أدخل فى ذلك (وجنات وعيون انى أخاف عليكم) ان لم تقوموا بشكر هذه النعم (عذاب يوم عظيم) فى الدنيا والآخرة فان كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فانا لن نرعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابله للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه كأنهم قالوا أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشريه أصلا (ان هذا) ماهذا الذى جئتنا به (الا خلق الاولين) أى عادتهم كانوا يلفقون مثله ويسطرونه أو ماهذا الذى نحن عليه من الدين الا خلق الاولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون أو ماهذا الذى نحن عليه من الموت والحياة الا عادة قديمة لم يزل الناس عليها وقرئ خلق الاولين بفتح الخاء أى اختلاق الاولين كما قالوا أساطير الاولين أو ماخلقنا هذا الا خلقهم نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب

به الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحى به اليهم لانهم يسمعونهم مالم يسمعوا وثانيها يلقون الى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة وثالثها الافاكون يلقون السمع الى الشياطين فيلقون وحيهم اليهم ورابعها يلقون المسموع من الشياطين الى الناس وأكثر الافاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم فان قلت يلقون مامحله قلت يجوز أن يكون فى محل النصب على الحال أى تنزل ملقين السمع وفى محل الجر صفة لكل افاك لانه فى معنى الجمع وأن لا يكون له محل بان يستأنف كأن قائلا قال لم تنزل على الافاكين فقيل يفعلون كيت وكيت فان قلت كيف قال وأكثرهم كاذبون بعدما قضى عليهم ان كل واحد منهم أفاك قلت الافاكون هم الذين يكثرون الكذب لا أنهم الذين لا ينطقون الا بالكذب فاراد ان هؤلاء الافاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن وأكثرهم يفترى عليهم ۞ قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون) اعلم ان الكفار لما قالوا لم لا يجوز أن يقال ان الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما انهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ثم انه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهنة فذكر ههنا مايدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون أى الضالون ثم بين تلك الغواية بامرين (الاوّل) انهم فى كل واد يهيمون والمراد منه الطرق المختلفة كقولك انا فى واد وأنت فى واد وذلك لانهم قد يمدحون الشئ بعد أن ذموه وبالعكس وقد يعظمونه بعد ان استحقروه وبالعكس وذلك يدل على انهم لايطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد صلى الله عليه وسلم فانه من أول أمره الى آخره بقى على طريق واحد وهو الدعوة الى الله تعالى والترغيب فى الآخرة والاعراض عن الدنيا (الثانى) انهم يقولون مالا يفعلون وذلك أيضا من علامات الغواة فانهم يرغبون فى الجود ويرغبون عنه وينفرون عن البخل ويصرون عليه ويقدحون فى الناس بادنى شئ صدر عن واحد من أسلافهم ثم انهم لا يرتكبون الا الفواحش وذلك يدل على الغواية والضلالة وأما محمد صلى الله عليه وسلم فانه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين ثم بالاقرب فالاقرب حيث قال الله تعالى له وأنذر عشيرتك الاقربين وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء فقد ظهر بهذا الذى بيناه ان حال محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يشبه حال الشعراء ثم ان الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الاوصاف الذميمة بيانا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بامور اربعة (أحدها) الايمان وهو قوله الا الذين آمنوا (وثانيها) العمل الصالح وهو قوله وعملوا الصالحات (وثالثها) أن يكون شعرهم فى التوحيد والنبوّة ودعوة الخلق الى الحق وهو قوله وذكروا الله كثيرا (ورابعها) أن لا يذكروا هجو أحد

(ومانحن بمعذبين) على مانحن عليه من الاعمال (فكذبوه) أى أصروا على ذلك (فأهلكناهم) بسببه بريح صرصر (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون) الله تعالى (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين) انكار ونفى لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة أو تذكير للنعمة فى تخليته تعالى اياهم وأسباب تنعمهم آمنين وقوله تعالى (فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم) تفسير لما قبله من المبهم والهضيم اللطيف اللين للطف الثمر أو لان النخل أنثى وطلع الاناث ألطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو أو متدل متكسر من كثرة الحمل وافراد النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لان المراد بها غيرها من الاشجار (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) بطرين أو حاذقين من الفراهة وهى النشاط فان الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب وقرئ فرهين وهو أبلغ (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) استعير الطاعة التى هى انقياد الآمر لامتثال الامر وارتسامه أو نسب حكم الآمر الى أمره مجازا (الذين يفسدون فى الارض) وصف موضح لاسرافهم ولذلك عطف (ولا يصلحون) على يفسدون لبيان خلوص افسادهم عن مخالطة الاصلاح (قالوا انما أنت من المسحرين) أى الذين سحروا حتى غلب على عقولهم أو من ذوى السحر أى الرئة

الا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم وهو قوله وانتصروا من بعد ما ظلموا قال الله تعالى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم ثم ان الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وقيل المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير لانهم كانوا يهجون قريشا وعن كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فو الذى نفسى بيده لهو اشد عليهم من رشق النبل وكان يقول لحسان بن ثابت قل وروح القدس معك فأما قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فالذى عندى فيه والله أعلم انه تعالى لما ذكر فى هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من الدلائل العقلية ومن أخبار الانبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ثم ذكر سؤال المشركين فى تسميتهم محمدا صلى الله عليه وسلم تارة بالكاهن وتارة بالشاعر ثم انه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن أولا ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانيا ختم السورة بهذا التهديد العظيم بمعنى ان الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات والتأمل فى هذه البينات فانهم سيعلمون بعد ذلك أى منقلب ينقلبون وقال الجمهور المراد منه الزجر عن الطريقة التى وصف الله بها هؤلاء الشعراء والاول أقرب الى نظم السورة من أولها الى آخرها والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه امهات المؤمنين وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين

(سورة النمل تسعون وثلاث او اربع أو خمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) اعلم ان قوله تلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وابانته انه قد خط فيه كل ما هو كائن فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات وانما نكر الكتاب المبين ليصير مبهما بالتنكير فيكون أفخم له كقوله فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وقرأ ابن أبى عبلة وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فان قلت ما الفرق بين هذا وبين قوله الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين قلت لا فرق لان واو العطف لا تقتضى الترتيب أما قوله هدى وبشرى للمؤمنين فهو فى محل النصب أو الرفع فالنصب على الحال أى هادية ومبشرة والعامل فيه ما فى تلك من معنى الاشارة والرفع على ثلاثة أوجه على معنى هى هدى وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى أن يكون خبرا بعد خبر أى جمعت آياتها آيات الكتاب وانها هدى وبشرى واختلفوا فى وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين (الاول) المراد أن يهديهم الى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما فلهذا اختص به المؤمنون (الثانى) المراد بالهدى

أى من الانس فيكون قوله تعالى (ما أنت الا بشر مثلنا) تأكيدا له (فأت بآية ان كنت من الصادقين) أى فى دعواك (قال هذه ناقة) أى بعدما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه عليه الصلاة والسلام حسبما مر تفصيله فى سورة الاعراف وسورة هود (لها شرب) أى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى والقوت وقرئ بالضم (ولكم شرب يوم معلوم) فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من تعظيم العذاب (فعقروها) أسند العقر الى كلهم لما أن عاقرها عقرها برأيهم ولذلك عمهم العذاب (فأصبحوا نادمين) خوفا من حلول العذاب لا توبة أو عند معاينتهم لمباديه ولذلك لم ينفعهم الندم وان كان بطريق التوبة (فأخذهم العذاب) أى العذاب الموعود (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قيل فى نفى الايمان عن أكثرهم فى هذا المعرض ايماء الى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وان قريشا انما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وأنت خبير بأن قريشا هم المشهورون بعدم ايمان أكثرهم (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) أى أتأتون من بينهم من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم

بالهدى الدلالة ثم ذكروا فى تخصيصه بالمؤمنين وجوها (أحدها) انه انما خصه بالمؤمنين لانه ذكر مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين (وثانيها) ان وجه الاختصاص انهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله انما أنت منذر من يخشاها (وثالثها) المراد من كونها هدى للمؤمنين انها زائدة فى هداهم قال تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى أما قوله الذين يقيمون الصلاة فالاقرب انها الصلوات الخمس لان التعريف بالالف واللام يقتضى ذلك واقامة الصلاة أن يؤتى بها بشرائطها وكذا القول فى الزكاة فانها هى الواجبة واقامتها وضعها فى حقها أما قوله وهم بالآخرة هم يوقنون ففيه سؤال وهو ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لابد وأن يكونوا متيقنين بالآخرة فما الوجه فى ذكره مرة أخرى جوابه من وجهين (الاول) أن يكون من جملة صلة الموصول ثم فيه وجهان الاول أن كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وأما عرفان الحق فاقسام كثيرة لكن الذى يستفاد منه طريق النجاة معرفة المبدا ومعرفة المعاد واما الخير الذى يعمل به فاقسام كثيرة واشرفها قسمان الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله للمؤمنين اشارة الى معرفة المبدا وقوله يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة اشارة الى الطاعة بالنفس والمال وقوله وهم بالآخرة هم يوقنون اشارة الى علم المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدا طرفا أولا ومعرفة المعاد طرفا أخيرا وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطا بينهما الثانى ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة منهم من هو جازم بالحشر والنشر ومنهم من يكون شاكا فيه الا انه يأتى بهذه الطاعات للاحتياط فيقول ان كنت مصيبا فيها فقد فزت بالسعادة وان كنت مخطئا فيها لم يفتنى الا خيرات قليلة فى هذه المدة اليسيرة فمن يأتى بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن فى الحقيقة مهتديا بالقرآن أما من كان جازما بالآخرة كان مهتديا به فلهذا السبب ذكر هذا القيد (الثانى) ان يجعل قوله وهم بالآخرة هم يوقنون جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة وهذا هو الاقرب ويدل عليه انه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذى هو هم حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الايقان الا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق ۞ قوله تعالى

(ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الاخسرون) اعلم انه تعالى لما بين ما للمؤمنين من البشرى أتبعه بما على الكفار من سوء العذاب فقال ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم واختلف الناس فى انه كيف اسند تزيين أعمالهم الى ذاته مع أنه اسنده الى الشيطان فى قوله فزين لهم الشيطان أعمالهم فأما أصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها وذلك لان الانسان لا يفعل البتة الا اذا دعاه الداعى الى الفعل والمعقول من الداعى هو

وغلبة النساء فيهم مع كونهن الحق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الاول كل ما ينكح من الحيوان وعلى الثاني الناس (وتذرون ما خلق لكم ربكم) لاجل استمتاعكم ٥٥٢ وكلمة من في قوله تعالى (من أزواجكم) للبيان ان اريد بما جنس الاناث وهو الظاهر وللتبعيض ان أريد بها العضو المباح منهن تعريضا بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضا (بل أنتم قوم عادون) متعدون متجاوزون الحد في جميع المعاصي وهذا من جملتها وقيل متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات (قالوا لئن لم تنته يالوط) أي عن تقبيح أمرنا أونهينا عنه اومن دعوى النبوة التي من جملة أحكامها التعرض لنا (لتكونن من المخرجين) أي من المنفيين من قريتنا وكأنهم كانوا يخرجون من أخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال (قال اني لعملكم من القالين) أي من المبغضين غاية البغض كأنه يقلي الفؤاد والكبد لشدته وهو أبلغ من ان يقال اني لعملكم قال لدلالته على انه عليه الصلاة والسلام من زمرة الراسخين في بغضه المشهورين في قلاه ولعله عليه الصلاة والسلام أراد اظهار الكراهة في مساكنتهم والرغبة في الخلاص من سوء جوارهم ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه الى الله تعالى قائلا (رب نجني واهلي مما يعملون) أي من شؤم عملهم وغائلته (فنجيناه وأهله أجمعين) اى اهل بيته ومن اتبعه في الدين باخراجهم من بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم (الا عجوزا) هي امرأة لوط استثنيت

العلم والاعتقاد والظن بكون الفعل مشتملا على منفعة وهذا الداعي لابد وان يكون من فعل الله تعالى لوجهين (الاول) انه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه الى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال (الثاني) وهو ان العلم اما أن يكون ضروريا أو كسبيا فان كان ضروريا فلابد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسبا لان المكتسب ان كان شاعرا به فهو متصور له وتحصيل الحاصل محال وان لم يكن شاعرا به كان غافلا عنه والغافل عن الشيء يمتنع أن يكون طالبا له فان قلت هو مشعور به من وجه دون وجه قلت فالمشعور به غير ما هو غير مشعور به فيعود التقسيم المتقدم في كل واحد من هذين الوجهين واذا ثبت ان التصور غير مكتسب البتة والعلم الضروري هو الذي يكون حضور كل واحد من تصوريه كافيا في حصول التصديق فالتصورات غير كسبية وهي مستلزمة للتصديقات فاذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لا محالة ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق البتة فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب ثم ان تلك التصديقات البديهية ان كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية لان لازم الضروري ضروري وان لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الاشياء التي فرضناها علوما نظرية كذلك بل هي اعتقادات تقليدية لانه لا معنى لاعتقاد المقلد الا اعتقاد تحصيل يفعله ابتداء من غير أن يكون له موجب فثبت بهذا أن العلوم بأسرها ضرورية وثبت ان مبادي الافعال هي العلوم فافعال العباد بأسرها ضرورية والانسان مضطر في صورة مختار فثبت أن الله تعالى هو الذي زين لكل عامل عمله والمراد من التزيين هو انه يخلق في قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب اجراء هذه الآية على ظاهرها أما المعتزلة فانهم ذكروا في تاويلها وجوها (أحدها) ان المراد زينا لهم أمر الدين وما يلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بان بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب لان التزيين من الله تعالى للعمل ليس الا وصفه بانه حسن وواجب وحميد العاقبة وهو المراد من قوله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ومعنى فهم يعمهون يدل على ذلك لان المراد فهم يعدلون وينصرفون عما زينا من أعمالهم (وثانيها) انه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا انعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة الى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف فكأنه تعالى زين بذلك أعمالهم واليه اشارة الملائكة عليهم السلام في قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر (وثالثها) ان امهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فاسند اليه والجواب عن الاول أن قوله تعالى أعمالهم صيغة عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسنا كان العمل أو قبيحا ومعنى التزيين قد قدمناه وعن الثاني ان الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الامور اثر في ترجيح فاعلية المعصية على تركها اوليس لها فيه أثر

فان

من أهله فلا يضره كونها كافرة لان لها شركة في الاهلية بحق الزواج (في الغابرين) اي مقدرا كونها من الباقين في العذاب لانها كانت مائلة الى القوم راضية بفعلهم وقد أصابها الحجر في الطريق فأهلكها ٥٥٣ كما مر في سورة الحجر وسورة هود وقيل كانت فيمن بقي في القرية ولم تخرج مع لوط عليه السلام (ثم دمرنا الآخرين) أهلكناهم أشد اهلاك وأفظعه (وأمطرنا عليهم مطرا) اى مطرا غير معهود قيل أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة فأهلكتهم (فساء مطر المنذرين) اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف اليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذب أصحاب ليكة المرسلين) الأيكة الغيضة التي تنبت ناعم الشجر وهي غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وكان أجنبيا منهم ولذلك قيل (اذ قال لهم شعيب ألا تتقون) ولم يقل أخوهم وقيل الأيكة الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل وقرئ بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهي اسم بلدهم وانما كتبت ههنا وفي ص بغير ألف اتباعا للفظ اللافظ (اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أوفوا الكيل) اى أتموه (ولا تكونوا من المخسرين) اى حقوق الناس بالتطفيف (وزنوا) اى الموزونات (بالقسطاس المستقيم) بالميزان السوي وهو ان كان عربيا فان كان من القسط

فان كان الاول فقد دللنا على ان الترجيح متى حصل فلا بد وان ينتهي الى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وان لم يكن فيه اثر صارت هذه الاشياء بالنسبة الى اعمالهم كصرير الباب ونعيق الغراب وذلك يمنع من اسناد فعلهم اليها وهذا بعينه هو الجواب من التاويل الثالث الذي ذكروه والله أعلم أما قوله تعالى فهم يعمهون فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق أما قوله أولئك الذين لهم سوء العذاب ففيه وجهان (الاول) انه القتل والاسر يوم بدر (والثاني) مطلق العذاب سواء كان في الدنيا أو في الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه وأما قوله هم الاخسرون ففيه وجهان (الاول) انه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بان يسلب عنه الصحة والسلامة في الدنيا ويسلم في الآخرة الى العذاب العظيم (الثاني) المراد انهم خسروا منازلهم في الجنة لو أطاعوا فانه لا مكلف الا وعين له منزل في الجنة لو أطاع فاذا عصى عدل به الى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل ۞ قوله تعالى (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم

اذ قال موسى لاهله اني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم

تصطلون فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين

ياموسى انه أنا الله العزيز الحكيم) أما قوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم فمعناه لتؤتاه وتلقاه من عند أي حكيم وأي عليم وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الاقاصيص واذ منصوب بمضمر وهو اذكر كانه قال على اثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز أن ينتصب بعليم فان قيل الحكمة اما أن تكون نفس العلم واما أن يكون العلم داخلا فيها فلما ذكر الحكمة فلم ذكر العلم جوابه الحكمة هي العلم بالامور العملية فقط والعلم أعم منه لان العلم قد يكون عمليا وقد يكون نظريا والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية فذكر الحكمة المشتملة على العلوم العملية ثم ذكر العليم وهو البالغ في كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصونا عن كل التغيرات وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة الا في علمه سبحانه وتعالى واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة أنواعا من القصص (القصة الاولى) قصة موسى عليه الصلاة والسلام أما قوله اذ قال موسى لاهله فيدل على انه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ابنة شعيب عليه السلام وقد كنى الله تعالى عنها بالاهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا أما قوله اني آنست نارا فالمعنى انهما كانا يسيران ليلا وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفي مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة في أمر الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال اني آنست نارا وقد اختلفوا فقال بعضهم المراد أبصرت ورأيت وقال آخرون بل المراد صادفت ووجدت فآنست به والاول أقرب لانهم لا يفرقون بين

فقعلاس بتكرير العين والافعلال وقرئ بضم القاف (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) اى لا تنقصوا اشيامن حقوقهم اى حق كان وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم فيها (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) بالقتل والغارة وقطع الطريق (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين) اى وذوى الجبلة الاولين وهم من تقدمهم من الخلائق وقرئ بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة (قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا) ادخال الواو بين الجملتين للدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب (وان نظنك لمن الكاذبين) اى فيما تدعيه من النبوة (فاسقط علينا كسفا من السماء) اى قطعا وقرئ بسكون السين وهو أيضا جمع كسفة وقيل الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء اما السحاب أو المظلة ولعله جواب لما أشعر به الامر بالتقوى من التهديد (ان كنت من الصادقين) فى دعواك ولم يكن طلبهم ذلك الا لتصميمهم على الجحود والتكذيب والا لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه (قال ربى اعلم بما تعملون) من الكفر والمعاصى وبما تستحقون بسببه من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة (فكذبوه) اى فتموا على تكذيبه وأصروا عليه (فأخذهم عذاب يوم الظلة) حسبما اقترحوا أما ان أرادوا بالسماء السحاب فظاهر وأما ان أرادوا المظلة فلان نزول العذاب من جهتها وفى اضافة العذاب الى يوم الظلة دون نفسها ايذان بان لهم يومئذ عذابا آخر غير عذاب الظلة

قول القائل آنست بصرى ورأيت ببصرى أما قوله سآتيكم منها بخبر فالخبر ما يخبر به عن حال الطريق لانه كان قد ضل ثم فى الكلام حذف وهو انه لما أبصر النار توجه اليها وقال سآتيكم منها بخبر يعرف به الطريق أما قوله أو آتيكم بشهاب قبس فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة وأضاف الشهاب الى القبس لانه يكون قبسا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلا أو صفة لما فيه من معنى القبس ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) سآتيكم منها بخبر ولعلى آتيكم منها بخبر كالمتدافعين لان احدهما ترج والآخر تيقن قلنا قد يقول الراجى اذا قوى رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة (السؤال الثانى) كيف جاء بسين التسويف جوابه عدة منه لاهله انه يأتيهم به وان أبطأ أو كانت المسافة بعيدة (السؤال الثالث) لماذا أدخل أو بين الامرين وهلا جمع بينهما لحاجته اليهما معا جوابه بنى الرجاء على انه ان لم يظفر بهذين المقصودين ظفر باحدهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ثقة بعادة الله تعالى لانه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وأما قوله تعالى لعلكم تصطلون فالمعنى لكى تصطلوا وذلك يدل على حاجة بهم الى الاصطلاء وحينئذ لا يكون كذلك الا فى حال برد * أما قوله تعالى نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ففيه ابحاث (البحث الاول) أن أن هى المفسرة لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك (البحث الثانى) اختلفوا فى النار على وجوه (أحدها) أن بورك بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من فى النور وذلك هو الله سبحانه ومن حولها يعنى الملائكة وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وان كنا نقطع بان هذه الرواية موضوعة مختلقة (وثانيها) من فى النار هو نور الله ومن حولها الملائكة وهو مروى عن قتادة والزجاج (وثالثها) ان الله تعالى ناداه بكلام سمعه من الشجرة فى البقعة المباركة فكانت الشجرة محلا للكلام والله هو المتكلم له بان فعله فيه دون الشجرة ثم ان الشجرة كانت فى النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال بورك من فى النار ومن حولها وهو قول الجبائى (ورابعها) من فى النار هو موسى عليه السلام لقربه منها ومن حولها يعنى الملائكة وهذا أقرب لان القريب من الشئ قد يقال انه فيه (وخامسها) قول صاحب الكشاف بورك من فى النار اى من فى مكان النار ومن حول مكانها ومكانها هى البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ويدل عليه قراءة أبى تباركت الارض ومن حولها وعنه أيضا بوركت النار (البحث الثالث) السبب الذى لاجله بوركت البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الامر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولا واظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات فى قوله ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وحقت أن تكون كذلك فهى مبعث الانبياء صلوات الله عليهم ومهبط

الوحى

وذلك بان سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليها فاخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا روى أن شعيبا عليه السلام بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بالصيحة والرجفة وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة (انه كان عذاب يوم عظيم) اى فى الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) هذا آخر القصص السبع التى أوحيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن الحرص على اسلام قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على فواته تحقيقا لمضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا بالحق الآية فان كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة لا بان يتدبروا فيها ويعتبروا بما فى كل واحدة منها من الدواعى الى الايمان والزواجر عن الكفر والطغيان ولا بان يتأملوا فى شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هى عليه مع علمهم بانه عليه الصلاة والسلام لم يسمع شيأ منها من أحد أصلا واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيأ يزجرهم عن ذلك قطعا كما حقق

الوحى وكفاتهم أحياء وأمواتا (البحث الرابع) انه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله بورك من فى النار ومن حولها يدل على أنه قد قضى أمر عظيم تنتشر البركة منه فى أرض الشام كلها وقوله وسبحان الله رب العالمين فيه فائدتان (احداهما) انه سبحانه نزه نفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ليكون ذلك مقدمة فى صحة رسالة موسى عليه السلام (الثانية) أن يكون ذلك ايذانا بان ذلك الامر مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الامور وعظائم الوقائع أما قوله انه أنا الله العزيز الحكيم فقال صاحب الكشاف الهاء فى انه يجوز أن يكون ضمير الشان وأنا الله مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر وأن يكون راجعا الى ما دل عليه ما قبله يعنى ان مكلمك أنا والله بيان لانا والعزيز الحكيم صفتان للتعيين وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوى القادر على ما يبعد من الاوهام كقلب العصا حية الفاعل ما أفعله بحكمة وتدبير فان قيل هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى عليه السلام انه من الله جوابه لاهل السنة فيه طريقان (الاول) انه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحروف والاصوات فعلم بالضرورة انه صفة الله تعالى (الثانى) قول أئمة ما وراء النهر وهو انه عليه السلام سمع الصوت من الشجرة فنقول انما عرف ان ذلك من الله تعالى لامور (أحدها) ان النداء اذا حصل فى النار أو الشجرة علم انه من قبل الله تعالى لان أحدا منا لا يقدر عليه وهو ضعيف لاحتمال أن يقال الشيطان دخل فى النار والشجرة ثم نادى (وثانيها) يجوز فى نفس النداء أن يكون قد بلغ فى العظم مبلغا لا يكون الا معجزا وهو أيضا ضعيف لانا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلا قدر الا ويجوز صدوره منهم (وثالثها) انه قد اقترن به معجز دل على ذلك فقيل ان النار كانت مشتعلة فى شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز وهذا هو الاصح والله أعلم * قوله تعالى (وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) اعلم أن أكثر ما فى هذه الآيات قد مر شرحه ولنذكر ما هو من خواص هذا الموضع يقال علام عطف قوله وألق عصاك جوابه على بورك لان المعنى نودى ان بورك من فى النار وان ألق عصاك كلاهما تفسير لنودى أما قوله كأنها جان فالجان الحية الصغيرة سميت جانا لانها تستتر عن الناس وقرأ الحسن جأن على لغة من يجد من التقاء الساكنين فيقول شأبة ودأبة أما قوله ولم يعقب معناه لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا مر بعد الفرار وانما خاف لظنه ان ذلك لامر أريد به ويدل عليه انى لا يخاف لدى المرسلون وقال بعضهم المراد انى اذا

فى خاتمة قصة موسى عليه السلام (وانه) اى ماذكر من الآيات الكريمة الناطقة بالقصص المحكية أو القرآن الذى هى من جملته
(لتنزيل رب العالمين) اى منزل من جهته ٥٥٦ تعالى سمى به مبالغة ووصفه تعالى بربوبية العالمين للايذان بأن تنزيله من
أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل
كقوله تعالى وما أرسلناك الارحمة
للعالمين (نزل به) اى أنزله (الروح
الامين) اى جبريل عليه السلام
فانه أمين وحيه تعالى وموصله
الى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام
وقرئ بتشديد الزاى ونصب
الروح والامين اى جعل الله
تعالى الروح الامين نازلا به (على
قلبك) اى روحك وان أريد به
العضو فتخصيصه به لان المعانى
الروحانية تنزل أولا على الروح ثم
تنتقل منه الى القلب لما بينهما
من التعلق ثم تتصعد الى الدماغ
فينتقش بها اللوح المتخيلة (لتكون
من المنذرين) متعلق بنزل به اى
أنزله لتنذرهم بما فى تضاعيفه من
العقوبات الهائلة وايثار ما عليه
النظم الكريم للدلالة على انتظامه
عليه الصلاة والسلام فى سلك
اولئك المنذرين المشهورين
فى حقية الرسالة وتقرر وقوع
العذاب المنذر (بلسان عربى
مبين) واضح المعنى ظاهر المدلول
لئلا يبقى لهم عذر ما وهو أيضا
متعلق بنزل به وتأخيره للاعتناء
بأمر الانذار وللايماء الى أن مدار
كونه من جملة المنذرين
المذكورين عليهم السلام مجرد
انزاله عليه عليه الصلاة والسلام
لا انزاله باللسان العربى وجعله
متعلقا بالمنذرين كما جوزه
الجمهور يؤدى الى أن غاية الانزال كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط

أمرتهم باظهار معجز فينبغى أن لايخافوا فيما يتعلق باظهار ذلك والا فالمرسل قد يخاف
لا محالة أما قوله تعالى الا من ظلم معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الانبياء
من ترك الافضل أو الصغيرة ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى
وهو من التعريضات اللطيفة قال الحسن رحمه الله كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطى
ثم بدل فانه عليه السلام قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى وقرئ الا من ظلم بحرف التنبيه
أما قوله تعالى ثم بدل حسنا بعد سوء فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب وعن أبى بكر
فى رواية عاصم حسنا أما قوله فى تسع آيات فهو كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق
بمحذوف والمعنى اذهب فى تسع آيات الى فرعون ولقائل أن يقول كانت الآيات احدى
عشرة ثنتان منها اليد والعصا والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع
والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم أما قوله فلما جاءتهم آياتنا
مبصرة فقد جعل الابصار لها وهو فى الحقيقة لمتأمليها وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها
او جعلت كأنها لظهورها تبصر فتهتدى وقرأ على بن الحسين وقتادة مبصرة وهو نحو
مجبنة ومبخلة اى مكانا يكثر فيه التبصر أما قوله واستيقنتها أنفسهم فالواو فيها واو الحال
وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الانفس انهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم
وضمائرهم والاستيقان أبلغ من الايقان أما قوله ظلما وعلوا فأى ظلم أفحش من ظلم من
استيقن انها آيات بينة من عند الله تعالى ثم كابر بتسميتها سحرا بينا وأما العلو فهو التكبر
والترفع عن الايمان بما جاء به موسى كقوله فاستكبروا وكانوا قوما عالين وقرئ عليا وعليا
بالضم والكسر كما قرئ عتيا والله أعلم (القصة الثانية) قصة داود وسليمان عليهما الصلاة
والسلام ﴿ قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير
من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من
كل شئ ان هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير
فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم
لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى
أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى
برحمتك فى عبادك الصالحين) أما قوله تعالى علما فالمراد طائفة من العلم أو علما سنيا عزيزا
فان قيل أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك أعطيته فشكر جوابه ان الشكر
باللسان انما يحسن موقعه اذا كان مسبوقا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك
المعصية وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات ولما كان الشكر باللسان يجب كونه
مسبوقا بهما فلا جرم صار كأنه قال ولقد آتيناهما علما فعملا به قلبا وقالبا وقالا باللسان
الحمد لله الذى فعل كذا وكذا وأما قوله تعالى الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده
المؤمنين

من هود وصالح وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فساده كيف لا والطامة الكبرى فى باب الانذار ما أنذره نوح وموسى عليهما
السلام وأشد الزواجر تأثيرا فى قلوب المشركين ما أنذره ابراهيم عليه ٥٥٧ السلام لانتمائهم اليه وادعائهم أنهم على
ملته عليه الصلاة والسلام
(وانه لفى زبر الاولين) اى وان
ذكره أو معناه لفى الكتب
المتقدمة فان أحكامه التى
لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب
تبدل الاعصار من التوحيد
وسائر ما يتعلق بالذات والصفات
مسطورة فيها وكذا ما فى تضاعيفه
من المواعظ والقصص وقيل
الضمير لرسول الله صلى الله عليه
وسلم وليس بواضح (أولم يكن لهم
آية) الهمزة للانكار والنفى
والواو للعطف على مقدر يقتضيه
المقام كأنه قيل أغفلوا عن ذلك
ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل
من رب العالمين وأنه فى زبر الاولين
على أن لهم متعلق بالكون قدم
على اسمه وخبره للاهتمام به او
بمحذوف هو حال من آية قدمت
عليها لكونها نكرة وآية خبر
الكون قدم على اسمه الذى هو
قوله تعالى (أن يعلمه علماء بنى
اسرائيل) لما مر مرارا من
الاعتناء بالمقدم والتشويق الى
المؤخر اى أن يعرفوه بنعوته
المذكورة فى كتبهم ويعرفوا من
أنزل عليه وقرئ تكن بالتأنيث
وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا
وفيه ضعف حيث وقع النكرة
اسما والمعرفة خبرا وقد قيل
فى تكن ضمير القصة وآية أن يعلمه
جملة واقعة موقع الخبر ويجوز
أن يكون لهم آية هى جملة الشان وأن يعلمه بدلا من آية ويجوز مع نصب آية تأنيث تكن كما فى قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا أن

المؤمنين ففيه ابحاث (احدها) ان الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت
مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير (وثانيها) فى الآية دليل على
علو مرتبة العلم لانهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك
كشكرهما على العلم (وثالثها) أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن
التواضع (ورابعها) ان الظاهر يقتضى أن تلك الفضيلة ليست الا ذلك العلم ثم العلم بالله
وبصفاته أشرف من غيره فوجب أن يكون هذا الشكر ليس الا على هذا العلم ثم ان هذا
العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين فاذن
الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر
بباله شئ من الشبهات ولا يغفل القلب عنه فى حين من الاحيان ولا ساعة من الساعات
أما قوله تعالى وورث سليمان داود فقد اختلفوا فيه فقال الحسن المال لان النبوة عطية
مبتدأة ولا تورث وقال غيره بل النبوة وقال آخرون بل الملك والسياسة ولو تأمل الحسن
لعلم أن المال اذا ورثه الولد فهو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى ولذلك يرث الولد اذا كان
مؤمنا ولا يرث اذا كان كافرا أو قاتلا لكن الله تعالى جعل سبب الارث فيمن يرث الموت
على شرائط وليس كذلك النبوة لان الموت لا يكون سببا لنبوة الولد فمن هذا الوجه
يفترقان وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته كما يرث الولد
المال اذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه انه تعالى لو فصل فقال وورث سليمان داود ماله
لم يكن لقوله وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير معنى واذا قلنا وورث مقامه من النبوة
والملك حسن ذلك لان تعليم منطق الطير يكون داخلا فى جملة ما ورثه وكذلك قوله تعالى
وأوتينا من كل شئ لان وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله ان هذا
لهو الفضل المبين لا يليق أيضا الا بما ذكرنا دون المال الذى قد يحصل للكامل والناقص
وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق الا بما ذكرناه فبطل بما ذكرنا قول من
زعم انه لم يرث الا المال فاما اذا قيل ورث المال والملك معا فهذا لا يبطل بالوجوه التى
ذكرناها بل بظاهر قوله عليه السلام نحن معاشر الانبياء لا نورث فأما قوله يا أيها الناس
فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس الى التصديق بذكر المعجزة
التى هى علم منطق الطير قال صاحب الكشاف المنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف
المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب كتابه باصلاح المنطق وما أصلح فيه الا مفردات الكلم
وقالت العرب نطقت الحمامة فالذى علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم
بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه وأما قوله تعالى وأوتينا من كل شئ فالمراد كثرة
ما أوتى وذلك لان الكل والبعض الكثير يشتركان فى صفة الكثرة والمشاركة سبب لجواز
الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله وأوتيت من كل شئ أما قوله
ان هذا لهو الفضل المبين فهو تقرير لقوله الحمد لله الذى فضلنا والمقصود منه الشكر

والحمدة كما قال عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر فان قيل كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين جوابه من وجهين الاول أن يريد نفسه وأباه والثانى أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح فيصير ذلك التعظيم واجبا وأما قوله وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فالحشر هو الاحضار والجمع من الاماكن المختلفة والمعنى انه جعل الله تعالى كل هذه الاصناف جنوده ولا يكون كذلك الا بأن يتصرف على مراده ولا يكون كذلك الا مع العقل الذى يصح معه التكليف أو يكون بمنزلة المراهق الذى قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا ان الله تعالى جعل الطير فى أيامه مماله عقل وليس كذلك حال الطيور فى أيامنا وان كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التى خصت بالحاجة اليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره وأما قوله تعالى فهم يوزعون معناه يحبسون وهذا لا يكون الا اذا كان فى كل قبيل منها وازع ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه فالظاهر يشهد بهذا القدر والذى جاء فى الخبر من انهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع ❁ أما قوله تعالى حتى اذا أتوا على وادى النمل فقيل هو واد بالشام كثير النمل ويقال لم عدى أتوا بعلى فجوابه من وجهين (الاول) ان اتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء (والثانى) أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشئ اذا بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادى وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وبضم النون والميم وكان الاصل النمل بوزن الرجل والنمل الذى عليه الاستعمال تخفيف عنه ❁ أما قوله تعالى قالت نملة فالمعنى انها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد فان الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرا وهو غلام حدث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة رضى الله عنه كانت أنثى فقيل له من أين عرفت فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله قالت نملة ولو كان ذكرا لقال قال نملة وذلك لان النملة مثل الحمامة والشاة فى وقوعها على الذكر والانثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى ❁ أما قوله تعالى ادخلوا مساكنكم فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل لا جرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى ادخلوا مساكنكم فان قلت لا يحطمنكم ما هو قلت يحتمل أن يكون جوابا للامر وأن يكون نهيا بدلا من الامر والمعنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة لا أرينك ههنا ❁ وفى هذه الآية تنبيه على أمور (أحدها) ان من يسير فى الطريق لا يلزمه التحرز وانما يلزم من فى الطريق التحرز (وثانيها) ان النملة قالت وهم لا يشعرون كأنها عرفت ان النبى معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات الا على سبيل السهو وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الانبياء عليهم السلام (وثالثها) ما رأيت

قالوا وقرئ تعلمه بالتاء (ولو نزلناه) كما هو بنظمه الرائق المعجز (على بعض الاعجمين) الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية وهو جمع أعجمى على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة وقرئ الاعجميين وفى لفظ البعض اشارة الى كون ذلك واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة خارقة للعادات (ما كانوا به مؤمنين) مع انضمام اعجاز القراءة الى اعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى المكابرة وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الاعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذاك فانه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم فى المكابرة والعناد (كذلك سلكناه) اى مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه اى أدخلنا القرآن (فى قلوب المجرمين) ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية من حيث النظم المعجز ومن حيث الاخبار عن الغيب وقد انضم اليه اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على تضمنها للبشارة بانزاله وبعثة من أنزل عليه باوصافه فقوله تعالى (لا يؤمنون به) جملة مستأنفة مسوقة لبيان انهم لا يتأثرون بامثال تلك الامور الداعية الى الايمان به بل يستمرون على ماهم عليه (حتى يروا العذاب الاليم) الملجئ الى الايمان به حين لا ينفعهم الايمان (فيأتيهم بغتة) اى فجأة فى الدنيا والآخرة (وهم لا يشعرون)

فى بعض

فى بعض الكتب ان تلك النملة انما أمرت غيرها بالدخول لانها خافت على قومها انها اذا رأت سليمان فى جلالته فربما وقعت فى كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله لا يحطمنكم سليمان فأمرتها بالدخول فى مساكنها لئلا ترى تلك النعم فلا تقع فى كفران نعمة الله تعالى وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة (ورابعها) قرئ مسكنكم ولا يحطمنكم بتخفيف النون وقرئ لا يحطمنكم بفتح الطاء وكسرها وأصلها يحتطمنكم ❁ أما قوله تعالى فتبسم ضاحكا من قولها يعنى تبسم شارعا فى الضحك يعنى انه قد تجاوز حد التبسم الى الضحك وانما ضحك لامرين أحدهما اعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وعلى شهرة حاله وحالهم فى باب التقوى وذلك قولها وهم لا يشعرون والثانى سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا من سماعه لكلام النملة واحاطته بمعناه ❁ أما قوله تعالى أوزعنى فقال صاحب الكشاف حقيقة أوزعنى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأكفه من أن ينقلب عنى حتى أكون شاكرا لك أبدا وهذا يدل على مذهبنا فان عند المعتزلة كل ما أمكن فعله من الالطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث وأما قوله تعالى وعلى والدى فذلك لانه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه ومعنى قوله وأن أعمل صالحا ترضاه طلب الاعانة فى الشكر وفى العمل الصالح ثم قال وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فلما طلب فى الدنيا الاعانة على الخيرات طلب أن يجعل فى الآخرة من الصالحين وقوله برحمتك يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد (واعلم) أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة الى ثواب الآخرة أولا ثم طلب ثواب الآخرة ثانيا أما وسيلة الثواب فهى أمران أحدهما شكر النعمة السالفة والثانى الاشتغال بسائر أنواع الخدمة أما الاشتغال بشكر النعمة السالفة فهى قوله تعالى رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ولما كان الانعام على الآباء انعاما على الابناء لان انتساب الابن الى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن لا جرم اشتغل بشكر نعم الله على الآباء بقوله وعلى والدى وأما الاشتغال بسائر أنواع الخدمة فقوله وأن أعمل صالحا ترضاه وأما طلب ثواب الآخرة فقوله وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فان قيل درجات الانبياء أعظم من درجات الاولياء والصالحين فما السبب فى ان الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين وقال سليمان أدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين جوابه الصالح الكامل هو الذى لا يعصى الله تعالى ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية والله اعلم ❁ قوله تعالى (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا او لأذبحنه او ليأتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم

بانيانه (فيقولوا هل نحن منظرون) تحسرا على مافات من الايمان وتمنيا للامهال لتلافى ما فرطوه وقيل معنى كذلك سلكناه مثل تلك الحالة وتلك الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فى قلوبهم وقوله تعالى لا يؤمنون به فى موقع الايضاح والتلخيص له أو فى موقع الحال اى سلكناه فيها غير مؤمن به والاول هو الانسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الايمان وتآخذ مبادى الهداية والارشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله تعالى ما كانوا به مؤمنين ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله تعالى أدخلنا الشرك والتكذيب فى قلوب المجرمين (أفبعذابنا يستعجلون) بقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم وقولهم فأتنا بما تعدنا ونحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الانظار فالفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الاليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافى ما لا يخفى على أحد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وانما قدم الجار والمجرور للايذان بان مصب الانكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى مع مافيه من رعاية الفواصل (أفرأيت) لما كانت الرؤيا من أقوى أسباب

لا يهتدون) اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير أوهم ذلك انه انما تفقده لامر يختص به ذلك الطير واختلفوا فيما لاجله تفقده على وجوه (احدها) قول وهب انه أخل بالنوبة التى كان ينوبها فلذلك تفقده (وثانيها) انه تفقده لان مقاييس الماء كانت اليه وكان يعرف الفصل بين قريبه و بعيده فلحاجة سليمان الى ذلك طلبه وتفقده (وثالثها) انه كان يظله من الشمس فلما فقد ذلك تفقده أما قوله فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين فأم هى المنقطعة نظر الى مكان الهدهد فلم يبصره فقال مالى لا أراه على معنى انه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ثم لاح له انه غائب فاضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة مالاح له ومثله قولهم انها الابل أم شاء أما قوله لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فهذا لا يجوز أن يقوله الافيمن هو مكلف أوفيمن قارب العقل فيصلح لان يؤدب ثم اختلفوا فى قوله لاعذبنه فقال ابن عباس انه نتف الريش والالقاء فى الشمس وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس وقيل أن يلقى للنمل فتأكله وقيل ايداعه القفص وقيل التفريق بينه و بين الفه وقيل لالزمنه صحبة الاضداد وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لالزمنه خدمة أقرانه أما قوله فمكث فقد قرئ بفتح الكاف وضمها غير بعيد غير زمان بعيد كقولك عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على اسراعه خوفا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرا له أما قوله أحطت بما لم تحط به ففيه تنبيه لسليمان على ان فى أدنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحط به فيكون ذلك لطفا له فى ترك الاعجاب والاحاطة بالشئ علما أن يعلم من جميع جهاته أما قوله وجئتك من سبا بنبا يقين فاعلم ان سبا قرئ بالصرف ومنعه وقد روى بسكون الباء وعن ابن كثير فى رواية سبا بالالف كقولهم ذهبوا أيدى سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسما للحى أو للاب الاكبر صرف ثم سميت مدينة مأرب بسبا وبينها و بين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام والنبأ الخبر الذى له شأن وقوله من سبا بنبا من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ وشرط حسنه صحة المعنى ولقد جاء ههنا زائدا على الصحة فحسن لفظا ومعنى ألا ترى انه لو وضع مكان بنبا بخبر لكان المعنى صحيحا ولكن لفظ النبا أولى لما فيه من الزيادة التى يطابقها وصف الحال أما قوله انى وجدت امرأة تملكهم فالمرأة بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها ملك ارض اليمن وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى تملكهم راجع الى سبا فان أريد به القوم فالامر ظاهر وان أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها وأما قوله وأوتيت من كل شئ ففيه سؤال وهو انه كيف قال وأوتيت من كل شئ مع قول سليمان وأوتينا من كل شئ فكأن الهدهد سوى بينهما جوابه أن قول سليمان عليه السلام يرجع الى ما أوتى من النبوة والحكمة ثم الى الملك وأسباب الدنيا واما قول الهدهد فلم يكن الا الى ما يتعلق بالدنيا واما قوله ولها عرش عظيم ففيه سؤال وهو انه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان

وايضا

الاخبار بالشئ وأشهرها شاع استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظرون وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهى متقدمة فى المعنى على الهمزة وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة كما هو رأى الجمهور أى فاخبرنى (ان متعناهم سنين) متطاولة بطول الاعمار وطيب المعايش (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما أغنى عنهم) اى شئ أو أى اغناء أغنى عنهم (ما كانوا يمتعون) اى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن ما مصدرية أو ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها وأيا ما كان فالاستفهام للانكار والنفى وقيل ما نافية اى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب وتخفيفه والاول هو الاولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الاغناء على أبلغ وجه وآكده كأن كل من من شأنه الخطاب قد كلف أن يخبر بان تمتعهم ماذا أفادهم واى شئ أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يخبر بشئ من ذلك أصلا وقرئ يمتعون من الامتاع

وأيضا فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى فى الوصف بالعظيم (والجواب) عن الاول يجوز أن يستصغر حالها الى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش ويجوز أن لا يكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الامراء شئ لا يكون مثله عند السلطان وعن الثانى ان وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالاضافة الى عروش ابناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض * واعلم ان ههنا بحثين (البحث الاول) أن الملاحدة طعنت فى هذه القصة من وجوه (أحدها) ان هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بكلام لا يصدر ذلك الكلام الا من العقلاء وذلك يجر الى السفسطة فانا لو جوزنا ذلك لما امنا فى النملة التى نشاهدها فى زماننا هذا ان تكون اعلم بالهندسة من اوقليدس وبالنحو من سيبويه وكذا القول فى القملة والصئبان ويجوز أن يكون فيهم الانبياء والتكاليف والمعجزات ومعلوم ان من جوز ذلك كان الى الجنون اقرب (وثانيها) ان سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد فى تلك اللحظة اللطيفة من الشام الى اليمن ثم رجع اليه (وثالثها) كيف خفى على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال ان الجن والانس كانوا فى طاعة سليمان وانه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ومع انه يقال انه لم يكن بين سليمان و بين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الا مسيرة ثلاثة ايام (ورابعها) من اين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه والجواب عن الاول ان ذلك الاحتمال قائم فى أول العقل وانما يدفع ذلك بالاجماع وعن البواقى ان الايمان بافتقار العالم الى القادر المختار يزيل هذه الشكوك (البحث الثانى) قالت المعتزلة قوله يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم يدل على ان فعل العبد من جهته لانه تعالى اضاف ذلك الى الشيطان بعد اضافته اليهم ولانه اورده مورد الذم ولانه بين انهم لا يهتدون والجواب من وجوه (احدها) ان هذا قول الهدهد فلا يكون حجة (وثانيها) انه متروك الظاهر فانه قال فصدهم عن السبيل وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل اذ لو كان مصدودا ممنوعا لسقط عنه التكليف فلم يبق ههنا الا التمسك بفصل المدح والذم والجواب قد تقدم عنه مرارا فلا فائدة فى الاعادة والله أعلم ۞ قوله تعالى (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما يخفون وما يعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم قال سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن فى قوله تعالى ألا يسجدوا قراآت احداها قراءة من قرأ بالتخفيف ألا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال * ألا يا اسلمى يا دارمى على البلى * وثانيها بالتشديد أراد

(وما اهلكنا من قرية) من القرى المهلكة (الا لها منذرون) قد أنذروا أهلها الزاما للحجة (ذكرى) أى تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لانها فى معنى الانذار كأنه قيل مذكرون ذكرى أو على أنه مصدر مؤكد لفعل هو صفة لمنذرون أى الا لها منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرفع على أنها صفة منذرون باضمار ذوو أو بجعلهم ذكرى لامعانهم فى التذكرة أو خبر مبتدا محذوف والجملة اعتراضية وضمير لها للقرى المدلول عليها بمفردها الواقع فى حيز النفى على معنى أن لكل منذرين أعم من أن يكون لكل قرية منها منذر واحد أو اكثر (وما كنا ظالمين) فنهلك غير الظالمين وقبل الانذار والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع ان اهلاكهم قبل الانذار ليس بظلم اصلا على ما تقرر من قاعدة اهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد (وما تنزلت به الشياطين) ردا لما زعمه الكفرة فى حق القرآن الكريم من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الامين (وما ينبغى لهم) أى وما يصح وما يستقيم لهم ذلك (وما يستطيعون) ذلك أصلا (انهم عن السمع) لكلام الملائكة (لمعزولون) لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة فى صفاء الذوات

والاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق والاقتباس بصور العلوم الربانية والمعارف النورانية كيف لا ونفوسهم خبيثة
ظلمانية شريرة بالذات غير مستعدة
الا القبول ما لا خير فيه أصلا من
فنون الشرور فمن أين لهم أن
يحوموا حول القرآن الكريم
المنطوي على الحقائق الرائقة
الغيبية التي لا يمكن تلقيها الا من
الملائكة عليهم الصلاة السلام
(فلا تدع مع الله الها آخر
فتكون من المعذبين) خوطب به
النبي عليه الصلاة والسلام مع
ظهور استحالة صدور المنهي
عنه عنه عليه الصلاة والسلام
تهييجا وحثا على ازدياد الاخلاص
ولطفا لسائر المكلفين ببيان أن
الاشراك من القبح والسوء بحيث
ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه
فكيف بمن عداه (وانذر)
العذاب الذي يستتبعه الشرك
والمعاصي (عشيرتك الاقربين)
الاقرب منهم فالاقرب فان
الاهتمام بشأنهم أهم روى أنه لما
نزلت صعد الصفا وناداهم فخذا
فخذا حتى اجتمعوا اليه فقال لو
أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل
خيلا أكنتم مصدقي قالوا نعم
قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب
شديد وروى أنه قال يا بني عبد
المطلب يا بني هاشم يا بني عبد
مناف افتدوا أنفسكم من النار
فاني لا أغني عنكم شيأ ثم قال
يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة
بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد ويا

فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا والحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة
ويكون المعنى فهم لا يهتدون الى أن يسجدوا (وثالثها) وهي حرف عبد الله وقراءة
الاعمش هلا بقلب الهمزة هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى الا تسجدون على الخطاب
(ورابعها) قراءة أبي ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم سركم
وما تعلنون (المسئلة الثانية) قال أهل التحقيق قوله ألا يسجدوا يجب أن يكون بمعنى
الامر لانه لو كان بمعنى المنع من السجدة لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون
المسجود له وهو كونه قادرا على اخراج الخبء عالما بالاسرار معنى (المسئلة الثالثة)
الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم اما القدرة فقوله يخرج الخبء في
السموات والارض وسمى المخبوء بالمصدر وهو يتناول جميع أنواع الارزاق والاموال
واخراجه من السماء بالغيث ومن الارض بالنبات واما العلم فقوله ويعلم ما يخفون
وما تعلنون واعلم ان المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة
هكذا الاله يجب أن يكون قادرا على اخراج الخبء وعالما بالخفيات والشمس ليست
كذلك فهي لا تكون الها واذا لم تكن الها لم يجز السجود لها اما انه سبحانه وتعالى يجب
أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور فلانه واجب لذاته فلا تختص قادريته
وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض وأما ان الشمس ليست كذلك فلانها
جسم متناه وكل ما كان متناهيا في الذات كان متناهيا في الصفات واذا كان كذلك
فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على اخراج الخبء عالمة بالخفيات فاذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم
من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار فرجع حاصل الدلالة الى ما ذكره
ابراهيم عليه السلام في قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ وفي قوله لله الذي
يخرج الخبء في السموات والارض وجه آخر وهو ان هذا اشارة الى ما استدل به
ابراهيم عليه السلام في قوله ربي الذي يحيي ويميت وفي قوله ان الله يأتي بالشمس من
المشرق فأت بها من المغرب وذلك لانه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق
بعد افولها في المغرب فهذا هو اخراج الخبء في السموات وهو المراد من قول ابراهيم
عليه السلام لا أحب الآفلين ومن قوله فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من
المغرب ومن قول موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وحاصله يرجع الى أن أفول
الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها
والمتصرف فيها أولى وأما اخراج الخبء من الارض فهو يتناول اخراج النطفة من
الصلب والترائب وتكوين الجنين منه فان قيل ان ابراهيم وموسى عليهما السلام قدما
دلالة الانفس على دلالة الآفاق فان ابراهيم قال ربي الذي يحيي ويميت ثم قال فان الله
يأتي بالشمس من المشرق وموسى عليه السلام قال ربكم ورب آبائكم الاولين ثم قال
رب المشرق والمغرب فلم كان الامر ههنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء

صفية عمة محمد اشترين أنفسكن من النار فاني لا أغني عنكن شيأ (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) الارض

أي لين جانبك لهم مستعار من حال الطائر فانه اذا أراد أن يحط خفض جناحه ومن للتبيين لان من اتبع أعم ممن
اتبع لدين أو غيره أو للتبعيض
على أن المراد بالمؤمنين المشارفون
للايمان أو المصدقون باللسان
فحسب (فان عصوك) ولم يتبعوك
(فقل اني بريء مما تعملون)
أي مما تعملونه أو من أعمالكم
(وتوكل على العزيز الرحيم) الذي
يقدر على قهر أعدائه ونصر
أوليائه يكفك شر من يعصيك
منهم ومن غيرهم وقرئ فتوكل على
انه بدل من جواب الشرط (الذي
يراك حين تقوم) أي الى التهجد
(وتقلبك في الساجدين) وترددك
في تصفح أحوال المتهجدين كما
روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل
طاف عليه الصلاة والسلام تلك
الليلة ببيوت أصحابه لينظر
ما يصنعون حرصا على كثرة
طاعتهم فوجدها كبيوت
الزنابير لما سمع منها من دندنتهم
بذكر الله تعالى والتلاوة أو
تصرفك فيما بين المصلين بالقيام
والركوع والسجود والقعود
اذا أممتهم وانما وصف الله تعالى
ذاته بعلمه بحاله عليه الصلاة
والسلام التي بها يستأهل ولايته
بعد أن عبر عنه بما ينبئ عن قهر
أعدائه ونصر أوليائه ومن وصفي
العزيز الرحيم تحقيقا للتوكل
وتوطينا لقلبه عليه (انه هو
السميع) لما تقوله (العليم) بما
تنويه وتعمله (هل أنبئكم على

الارض جوابه ان ابراهيم وموسى عليهما السلام ناظرا مع من ادعى الهية البشر فلا
جرم ابتدآ بابطال الهية البشر ثم انتقلا الى ابطال الهية السموات وههنا المناظرة مع
من ادعى الهية الشمس لقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فلا جرم
ابتدأ بذكر السماويات ثم بالارضيات اما قوله الله لا اله الا هو رب العرش العظيم فالمراد
منه انه سبحانه لما بين افتقار السموات والارض وما بينهما الى المدبر ذكر بعد ذلك ان
ما هو أعظم الاجسام فهي مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على انه سبحانه هو المنتهي في
القدرة والربوبية الى ما لا مزيد عليه والله أعلم (المسئلة الرابعة) قيل من أحطت الى
العظيم كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة (المسئلة الخامسة) الحق أن سجدة التلاوة
واجبة في القراءتين جميعا وهو قول الشافعي وأبي حنيفة رحمة الله عليهما لانهم أجمعوا
على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة وهذا واحد منها ولان مواضع السجدة اما
امر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها واحدى القراءتين أمر بالسجود والاخرى
ذم للتارك فثبت ان الذي ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد
غير ملتفت اليه (المسئلة السادسة) يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين جوابه نعم اذا
خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم ابتدأ ألا يسجدوا وان شاء وقف على ألا يا ثم ابتدأ
اسجدوا واذا شدد لم يقف الا على العرش العظيم أما قوله سننظر فمن النظر الذي هو
التأمل وأراد أصدقت أم كذبت الا أن أم كنت من الكاذبين أبلغ لانه اذا كان معروفا
بالكذب كان متهما بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به وانما قال فألقه اليهم على لفظ الجمع
لانه قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه اليهم الى الذين هذا دينهم أما قوله
ثم تول عنهم أي تنح عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك
ويرجعون من قوله تعالى يرجع بعضهم الى بعض القول ويقال دخل عليها من كوة
وألقى اليها الكتاب وتوارى في الكوة ۞ قوله تعالى (قالت يا أيها الملأ اني ألقي الي
كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين قالت
يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة
وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين) اعلم ان قوله قالت يا أيها الملأ اني
ألقي الي كتاب كريم يعني أن يقال ان الهدهد ألقى اليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت
روى انها كانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من
كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة ۞ اما قوله كتاب
كريم ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) حسن مضمونه وما فيه (وثانيها) وصفه بالكريم لانه
من عند ملك كريم (وثالثها) ان الكتاب كان مختوما وقال عليه السلام كرم الكتاب
ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاتخذ
لنفسه خاتما اما قوله انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ففيه أبحاث (البحث

من تنزل الشياطين) أي تتنزل بحذف احدى التاءين وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله

صلى الله عليه وسلم بعد بيان امتناع تنزلهم ٥٦٤ بالقرآن ودخول حرف الجر على من الاستفهامية لما أنها ليست موضوعة للاستفهام بل الاصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل والاصل أهل وقوله تعالى (تنزل على كل أفاك أثيم) قصر لتنزلهم على كل من اتصف بالافك الكثير والاثم الكبير من الكهنة والمتنبئة وتخصيص له بهم بحيث لا يتخطاهم الى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شئ من تلك الاوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام (يلقون) أى الافاكون (السمع) الى الشياطين فيتلقون منهم أوهاما وأمارات لنقصان علمهم فيضمون اليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع وذلك قوله تعالى (وأكثرهم كاذبون) أى فيما قالوه من الاقاويل وقد ورد فى الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى اذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة أو يلقون السمع أى المسموع من الشياطين الى الناس وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم والاظهر أن الاكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى وأما فى أكثره فهم كاذبون وما قاله وأما فى أكثره فهم كاذبون وما قاله وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب الى أكثرهم كون أقلهم صادقين

الاول) انه استئناف وتبيين لما ألقى اليها كأنها لما قالت انى ألقى الى كتاب كريم قيل لها ممن هو وما هو فقالت انه من سليمان وانه كيت وكيت وقرأ عبد الله وانه من سليمان وانه بسم الله عطفا على انى وقرئ انه من سليمان وانه بالفتح وفيه وجهان (أحدهما) انه بدل من كتاب كأنه قيل ألقى الى انه من سليمان (وثانيهما) ان يريد انه من سليمان ولانه بسم الله كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره ببسم الله وقرأ أبى ان من سليمان وان بسم الله على ان المفسرة وان فى ان لا تعلوا مفسرة ايضا ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهى مجاوزة الحد (البحث الثانى) يقال لم قدم سليمان اسمه على قوله بسم الله الرحمن الرحيم (جوابه) حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو بسم الله الرحمن الرحيم وانما ذكرت بلقيس ان هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما فى الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع فى الحكاية (البحث الثالث) ان الانبياء عليهم السلام لا يطيلون بل يقتصرون على المقصود وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود وذلك لان المطلوب من الخلق اما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع سبحانه وتعالى واثبات كونه عالما قادرا حيا مريدا حكيما رحيما وأما قوله ألا تعلوا على فهو نهى عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر وأما قوله وأتونى مسلمين فالمراد من المسلم اما المنقاد أو المؤمن فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوى كل ما لا بد منه فى الدين والدنيا فان قيل النهى عن الاستعلاء والامر بالانقياد قبل اقامة الدلالة على كونه رسولا حقا يدل على الاكتفاء بالتقليد جوابه معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لان رسول سليمان الى بلقيس كان الهدهد ورسالة الهدهد معجز والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعى فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر فى الكتاب دليلا آخر اما قوله يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى فالفتوى هى الجواب فى الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى فى السن أى أجيبونى فى الامر الفتى وقصدت بالانقطاع اليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ما كنت قاطعة أمرا أى لا أبت أمرا الا بمحضركم • أما قوله قالوا نحن أولوا قوة فالمراد قوة الاجسام وقوة الآلات والمراد بالبأس النجدة والثبات فى الحرب وحاصل الجواب ان القوم ذكروا أمرين أحدهما اظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر انها ان ارادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد والآخر قولهم والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين وفى ذلك اظهار الطاعة لها ان ارادت السلم ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا والله أعلم ﴿ قوله تعالى (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم

على الاطلاق وليس معنى الافاك من لا ينطق الا بالافك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الافك فلا ينافيه أن يصدق نادرا فى بعض الاحايين وقيل الضمير للشياطين أى يلقون السمع أى ٥٦٥ المسموع من الملأ الاعلى قبل أن رجموا من بعض المغيبات الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به اليهم اذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو افهامهم ولا سبيل الى حمل القاء السمع على تسمعهم وانصاتهم الى الملأ الاعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور لما أن يلقون كما صرحوا به اما حال من ضمير تنزل مفيد لمقارنة التنزل للالقاء أو استئناف مبين للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولا ريب فى ان القاء السمع الى الملأ الاعلى بمعزل من احتمال أن يقارن التنزل أو يكون غرضا منه لتقدمه عليه قطعا وانما المحتمل لهما الالقاء بالمعنى الاول فالمعنى على تقدير كونه حالا تنزل الشياطين على الافاكين ملقين اليهم ما سمعوه من الملأ الاعلى وعلى تقدير كونه جوابا عن سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون اليهم ما سمعوه وحمله على استئناف الاخبار كما فعله بعضهم غير سديد لان ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل وأما على تقدير كون ضمير يلقون للافاكين فهو صفة لكل أفاك لانه فى معنى الجمع سواء أريد بالقاء السمع الاصغاء الى الشياطين أو القاء المسموع الى الناس ويجوز أن يكون استئناف اخبار بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من

ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) اعلم انهم لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم اظهرت رأيها وهو ان الملوك اذا دخلوا قرية بالقهر افسدوها اى خربوها واذلوا اعزتها فذكرت لهم عاقبة الحرب واما قوله وكذلك يفعلون فقد اختلفوا أهو من كلامها او من كلام الله تعالى كالتصويب لها والاقرب انه من كلامها وانها ذكرته تأكيدا لما وصفته من حال الملوك فاما الكلام فى صفة الهدية فالناس اكثروا فيها لكن لاذكر لها فى الكتاب وقولها فناظرة بم يرجع المرسلون فيه دلالة على انها لم تثق بالقبول وجوزت الرد وارادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان ولما وصلت الهدايا الى سليمان عليه السلام ذكر أمرين الاول قوله أتمدونن بمال فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال اما قوله بل انتم بهديتكم تفرحون ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) ان الهدية اسم للمهدى كما ان العطية اسم للمعطى فتضاف الى المهدى والى المهدى له والمضاف اليه ههنا هو المهدى اليه والمعنى ان الله تعالى آتانى الدين الذى هو السعادة القصوى وآتانى من الدنيا ما لا مزيد عليه فكيف يستمال مثلى بمثل هذه الهدية بل انتم تفرحون بما يهدى اليكم لكن حالى خلاف حالكم (وثانيها) بل انتم بهديتكم هذه التى اهديتموها تفرحون من حيث انكم قدرتم على اهداء مثلها (وثالثها) كأنه قال بل انتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها (الثانى) قوله ارجع اليهم فقيل ارجع خطاب للرسول وقيل للهدهد محملا كتابا آخر اما قوله تعالى لا قبل أى لا طاقة وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة أى لا يقدرون ان يقابلوهم وقرأ ابن مسعود لا قبل لهم بهم والضمير فى منها لسبا والذل ان يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك والصغار أن يقعوا فى اسر واستعباد ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد ان كانوا ملوكا ﴿ قوله تعالى (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) اعلم ان فى قوله تعالى قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها دلالة على انها عزمت على اللحوق بسليمان ودلالة على ان امر ذلك العرش كان مشهورا فأحب ان يحصل عنده قبل حضورها واختلفوا فى غرض سليمان عليه السلام من احضار ذلك العرش على وجوه (احدها) ان المراد ان يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنضم هذه الدلالة الى سائر الدلائل التى سلفت (وثانيها) اراد ان يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر ثم يعرض عليها حتى انها هل تعرفه أو تنكره والمقصود اختبار عقلها وقوله تعالى قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى كالدلالة على ذلك (وثالثها) قال قتادة اراد ان يأخذه قبل اسلامها لعلمه انها اذا اسلمت لم يحل له اخذ مالها

الشياطين والقائهم الى الناس يكون بعد التنزيل وأن يكون استئنافا مبنيا على السؤال على التقدير الاول فقط كأنه قيل
مايفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون اليهم ٥٦٦ أسماعهم ليحفظوا مايوحون به اليهم وقوله تعالى وأكثرهم كاذبون

على التقدير الاول استئناف فقط وعلى الثانى يحتمل الحالية من ضمير يلقون أى يلقون ماسمعوه من الشياطين الى الناس والحال انهم فى أكثر أقوالهم كاذبون فتدبر (والشعراء يتبعهم الغاوون) استئناف مسوق لابطال ما قالوا فى حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام بعد ابطال ما قالوا انه من قبيل مايلقى الشياطين على الكهنة من الاباطيل بما مر من بيان أحوالهم المضادة لاحواله عليه الصلاة والسلام والمعنى أن الشعراء يتبعهم أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لايستمرون على وتيرة واحدة فى الافعال والاقوال والاحوال لاغيرهم من أهل الرشد المهتدين الى طريق الحق الثابتين عليه وقوله تعالى (ألم تر انهم فى كل واد يهيمون) استشهاد على أن الشعراء انما يتبعهم الغاوون وتقرير له والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للقصد الى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لاتختص برؤية راء دون راء أى ألم تر أن الشعراء فى كل واد من أودية القيل والقال وفى كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفى كل ظاهره

(ورابعها) ان العرش سرير المملكة فأراد ان يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها اليه أما قوله قال عفريت من الجن فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذى يعفر اقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد أما قوله قبل ان تقوم من مقامك فالمعنى من مجلسك ولا بد فيه من عادة معلومة حتى يصح ان يوقت فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس وقيل الوقت الذى يخطب فيه الناس وقيل الى انتصاف النهار وأما قوله لقوى اى على حمله امين آتى به كما هو لا اختزل منه شيأ * أما قوله قال الذى عنده علم من الكتاب ففيه بحثان (الاول) اختلفوا فى ذلك الشخص على قولين قيل كان من الملائكة وقيل كان من الانس فمن قال بالاول اختلفوا قيل هو جبريل عليه السلام وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ومن قال بالثانى اختلفوا على وجوه (أحدها) قول ابن مسعود انه الخضر عليه السلام (وثانيها) وهو المشهور من قول ابن عباس انه آصف بن برخيا وزير سليمان وكان صديقا يعلم الاسم الاعظم اذا دعا به أجيب (وثالثها) قول قتادة رجل من الانس كان يعلم اسم الله الاعظم (ورابعها) قول ابن زيد كان رجلا صالحا فى جزيرة فى البحر خرج ذلك اليوم ينظر الى سليمان (وخامسها) بل هو سليمان نفسه والمخاطب هو العفريت الذى كلمه واراد سليمان عليه السلام اظهار معجزة فتحداهم أولا ثم بين للعفريت انه يتأتى له من سرعة الاتيان بالعرش مالا يتهيأ للعفريت وهذا القول أقرب لوجوه (أحدها) ان لفظة الذى موضوعة فى اللغة للاشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام فوجب انصرافه اليه أقصى مافى الباب أن يقال كان آصف كذلك أيضا لكنا نقول ان سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه لانه هو النبى فكان صرف هذا اللفظ الى سليمان عليه السلام أولى (الثانى) أن احضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام وانه غير جائز (الثالث) أن سليمان عليه السلام لو افتقر فى ذلك الى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان فى أعين الخلق (الرابع) أن سليمان قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر وظاهره يقتضى أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان (البحث الثانى) اختلفوا فى الكتاب فقيل اللوح المحفوظ والذى عنده علم منه جبريل عليه السلام وقيل كتاب سليمان أو كتاب بعض الانبياء ومعلوم فى الجملة ان ذلك مدح وان لهذا الوصف تأثيرا فى نقل ذلك العرش فلذلك قالوا انه الاسم الاعظم وان عنده وقعت الاجابة من الله تعالى فى أسرع الاوقات * اما قوله تعالى انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ففيه بحثان (الاول) آتيك فى الموضعين يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل (الثانى) اختلفوا فى قوله قبل أن يرتد اليك طرفك على وجهين الاول انه أراد المبالغة فى السرعة كما تقول لصاحبك افعل ذلك فى لحظة وهذا قول مجاهد الثانى أن نجريه على

مسلك من مسالك الغى والضلال يهيمون على وجوههم لايهتدون الى سبيل معين من السبل بل يتحيرون فى فيافى الغواية
والسفاهة ويتيهون فى تيه المجون والوقاحة ديدنهم تمزيق الاعراض ٥٦٧ المحمية والقدح فى الانساب الطاهرة السنية

والنسيب بالحرم والغزل والابتهار والتردد بين طرفى الافراط والتفريط فى المدح والهجاء (وانهم يقولون مالا يفعلون) من الافاعيل غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشئ من الامور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الاخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات الانسية مستقرا على المنهاج القويم مستمرا على الصراط المستقيم ناطقا بكل أمر رشيد داعيا الى صراط العزيز الحميد مؤيدا بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق اعجز كل منطيق ماهر وبكت كل مفلق ساحر هذا وقد قيل فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون من الشعراء أن أتباع الشعراء الغاوون وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ولا ريب فى أن تعليل عدم كونه عليه الصلاة والسلام منهم بكون أتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين مما لايليق بشأنه العالى وقيل الغاوون الراوون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع

ظاهره والطرف تحريك الاجفان عند النظر فاذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد الى المرئى واذا غمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد الى العين فهذا هو المراد من ارتداد الطرف (وههنا سؤال) وهو انه كيف يجوز والمسافة بعيدة ان ينقل العرش فى هذا القدر من الزمان وهذا يقتضى اما القول بالطفرة أو حصول الجسم الواحد دفعة واحدة فى مكانين (جوابه) ان المهندسين قالوا كرة الشمس مثل كرة الارض مائة واربعة وستين مرة ثم ان زمان طلوعها زمان قصير فاذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذى بين الشام واليمن كانت اللمحة كثيرة فلما ثبت عقلا امكان وجود هذه الحركة السريعة وثبت انه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال ثم انه عليه السلام لما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر والكلام فى تفسير الابتلاء قد مر غير مرة ثم انه عليه السلام بين أن نفع الشكر عائد الى الشاكر لا الى الله تعالى اما انه عائد الى الشاكر فلوجوه (أحدها) انه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر (وثانيها) انه يستمد به المزيد على ما قال لئن شكرتم لازيدنكم (وثالثها) أن المشتغل بالشكر مشتغل بالمنعم والمعرض عن الشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة فى الشرف ثم قال ومن كفر فان ربى غنى كريم غنى عن شكره لايضره كفره كريم لاينقطع عنه نعمه بسبب اعراضه عن الشكر ﴿ قوله تعالى

(قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين)

اعلم ان قوله نكروا معناه اجعلوا العرش منكرا مغيرا عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه وذلك لانه لو ترك على ما كان لعرفته لامحالة وكان لاتدل معرفتها به على ثبات عقلها واذا غيرد لت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل ولا يمتنع صحة ما قيل ان سليمان عليه السلام ألقى اليه ان فيها نقصان عقل لكى لايتزوجها او لاتحظى عنده على وجه الحسد فأراد عند ذكرنا اختبار عقلها اما قوله ننظر فقرئ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف واختلفوا فى أتهتدى على وجهين أحدهما اتعرف انه عرشها ام لا كما قدمنا (الثانى) اتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال أم تكون من الذين لايهتدون وذلك كالذم ولا يليق الا بطريقة الدلالة فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار منتقلا من المكان البعيد الى هناك وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام ويعرف بذلك أيضا فضل عقلها الاغراض كانت له فعند ذلك سألها أما قوله أهكذا عرشك فاعلم ان هكذا ثلاث كلمات حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الاشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فقالت كأنه هو ولم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت فى محل التوقف أما قوله وأوتينا العلم من قبلها ففيه

ابن عبد مناف وابو عزة الجمحى ومن ثقيف أمية بن أبي الصلت قالوا نحن نقول مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم وقرئ والشعراء بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ يتبعهم ٥٦٨ على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيها لبعه بعضد (الا الذين

آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عزوجل ويكون أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد فى الدنيا والترغيب عن الركون اليها والزجر عن الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها الفانية ولو وقع منهم فى بعض الاوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن ابى سلمى والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب ابن مالك رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فو الذى نفسى بيده لهو اشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك (وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون) تهديد شديد ووعيد أكيد لما فى سيعلم من تهويل متعلقه وفى الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم وفى اى منقلب ينقلبون من الابهام والتهويل وقد قاله ابو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد اليه وقرئ اى منفلت ينفلتون من الانفلات بمعنى النجاة والمعنى ان الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون ان ليس لهم وجه من وجوه الانفلات * عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الشعراء

سؤالان وهو ان هذا الكلام كلام من وايضا فعلى أى شئ عطف هذا الكلام وعنه جوابان (الاول) أنه كلام سليمان وقومه وذلك لان بلقيس لما سئلت عن عرشها ثم انها اجابت بقولها كأنه هو فالظاهر ان سليمان وقومه قالوا انها قد اصابت فى جوابها وهى عاقلة لبيبة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم واوتينا نحن العلم بالله وبقدرته قبل علمها ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى فى ان خصهم بمزية التقدم فى الاسلام (الثانى) انه من كلام بلقيس موصولا بقولها كأنه هو والمعنى وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة ثم ان قوله وصدها ما كانت تعبد من دون الله الى آخر الآية يكون من كلام رب العزة * أما قوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله ففيه وجهان (الاول) المراد وصدها عبادتها لغير الله عن الايمان (الثانى) وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وايصال الفعل وقرئ أنها بالفتح على انه بدل من فاعل صد او بمعنى لانها واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا لو كان تعالى خلق الكفر فيها لم يكن الصاد لها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة الكفار بل كان يكون الصاد لها عن الايمان تجدد خلق الله الكفر فيها والجواب أما على التأويل الثانى فلا شك فى سقوط الاستدلال وأما على الاول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار صار سببا لحصول الداعية المستلزمة للكفر وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقا لقولنا والله أعلم ﴿ قوله تعالى (قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما حكى اقامتها على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الامر ما صار داعيا لها الى الاسلام وهو قوله قيل لها ادخلى الصرح والصرح القصر كقوله ياهامان ابن لى صرحا وقيل صحن الدار وقرأ ابن كثير عن سأقيها بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقا فأجرى عليه الواحد والممرد المملس روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضا ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الانس والجن والطير وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وزعموا ان الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى اليه باسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان الى ملك هو اشد فقالوا ان فى عقلها نقصانا وانها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ومعلوم من حال الزجاج الصافى انه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماء راكدا فكشفت عن ساقيها للخوض فاذا هى أحسن الناس ساقا وقدما وهذا على طريقة من يقول تزوجها وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه وحصل كشف الساق على سبيل التبع فلما قيل لها هو

صرح

كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح ٥٦٩ وشعيب وابراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام

* (سورة النمل مكية وهى ثلاث أو أربع وتسعون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(طس) بالتفخيم وقرئ بالامالة والكلام فيه كالذى مر فى نظائره من الفواتح الشريفة ومحله على تقدير كونه اسما للسورة وهو الاظهر الاشهر الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذا طس أى مسمى به والاشارة اليه قبل ذكره قد مر وجهها فى فاتحة سورة يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على أن ما بعده خبره ضعيف لما ذكر هنالك (تلك) اشارة الى نفس السورة لانها التى نوهت بذكر اسمها لا الى آياتها لعدم ذكرها صريحا ولان اضافتها اليها تأبى اضافتها الى القرآن كما سيأتى وما فى اسم الاشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره (آيات القرآن) والجملة مستأنفة مقررة لما أفاده التسمية من نباهة شأن المسمى والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل عند نزول السورة حسبما ذكر فى فاتحة فاتحة الكتاب أى تلك السورة آيات القرآن المعروف بعلو الشأن أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص (وكتاب) أى كتاب عظيم الشأن (مبين) مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام وأحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب

صرح ممرد من قوارير استترت وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة فقالت رب انى ظلمت نفسى فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقيل حسبت ان سليمان عليه السلام يغرقها فى اللجة فقالت ظلمت نفسى بسوء ظنى بسليمان واختلفوا فى انه هل تزوجها أم لا وانه تزوجها فى هذه الحال أو قبل ان كشفت عن ساقيها والاظهر فى كلام الناس انه تزوجها وليس لذلك ذكر فى الكتاب ولا فى خبر مقطوع بصحته ويروى عن ابن عباس انها لما أسلمت قال لها اختارى من قومك من أزوجك منه فقالت مثلى لا ينكح الرجال مع سلطانى فقال النكاح من الاسلام فقالت ان كان كذلك فزوجنى ذا تبع ملك همدان فزوجها اياه ثم ردهما الى اليمن ولم يزل بها ملكا والله أعلم ﴿ (القصة الثالثة) قصة صالح عليه السلام قوله تعالى (ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) قرئ أن اعبدوا الله بالضم على اتباع النون الباء اما قوله فاذا هم فريقان ففيه قولان أحدهما المراد فريق مؤمن وفريق كافر الثانى المراد قوم صالح قبل أن يؤمن منهم أحد اما قوله يختصمون فالمعنى ان الذين آمنوا انما آمنوا لانهم نظروا فى حجته فعرفوا صحتها واذا كان كذلك فلا بد وأن يكون خصما لمن لم يقبلها واذا كان هذا الاختصام فى باب الدين دل ذلك على ان الجدال فى باب الدين حق وفيه ابطال التقليد أما قوله ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ففيه بحثان (الاول) فى تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان أحدهما ان الذين كذبوا صالحا عليه السلام لما لم يتبعهم الحجاج توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين على وجه الاستهزاء فعنده قال صالح لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل الى رحمة الله تعالى وثوابه فلماذا تعدلون عنه الى استعجال عذابه وثانيهما انهم كانوا يقولون بجهلهم ان العقوبة التى يعدها صالح ان وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم وقال هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فان استعجال الخير أولى من استعجال الشر (البحث الثانى) أن المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب فاما وصف العذاب بانه سيئة فهو مجاز وسبب هذا التجوز اما لان العقاب من لوازمه أولانه

بشبهه فى كونه مكروها واما وصف الرحمة بانها حسنة فمنهم من قال انه حقيقة ومنهم من قال انه مجاز والاول أقرب ثم ان صالحا عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد وهو قولهم اطيرنا بك اى تشاءمنا بك لان الذى يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وبشؤم من معك قال صاحب الكشاف كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيمن وان مر بارحا تشأم فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببا للخير والشر وهو قدر الله وقسمته فاجاب صالح عليه السلام بقوله طائركم عند الله أى السبب الذى منه يجىء خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره ان شاء رزقكم وان شاء حرمكم وقيل بل المراد ان جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب والاقرب الوجه الاول لان القوم أشاروا الى الامر الحاصل فيجب فى جوابه أن يكون فيه لا فى غيره ثم بين أن هذا جهل منهم بقوله بل أنتم قوم تفتنون فيحتمل ان غيرهم دعاهم الى هذا القول ويحتمل أن يكون المراد ان الشيطان يفتنكم بوسوسته ثم انه سبحانه قال وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض والاقرب أن يكون المراد تسعة جمع اذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ويحتمل انهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفتهم وأحوالهم لا لاختلاف النسب فبين تعالى أنهم يفسدون فى الارض ولا يمزجون ذلك الفساد بشىء من الصلاح فلهذا قال يفسدون فى الارض ولا يصلحون ثم بين تعالى أن من جملة ذلك ما هموا به من أمر صالح عليه السلام أما قوله تقاسموا بالله فيحتمل أن يكون أمرا أو خبرا فى محل الحال باضمار قد أى قالوا متقاسمين والبيات مباغتة العدو ليلا أما قوله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله يعنى لولى صالح ما شهدنا مهلك أهله حلفنا انهم أماتم نحضر وقرئ مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والمكان والزمان ثم انه سبحانه قال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون وقد اختلفوا فى مكر الله تعالى على وجوه (أحدها) أن مكر الله اهلاكهم من حيث لا يشعرون شبهه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روى انه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة (وثانيها) جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الاحجار ولا يرون راميا (وثالثها) أن الله تعالى أخبر صالحا بمكرهم فتحرز عنهم فذاك مكر الله تعالى فى حقهم أما قوله أنا دمرناهم استئناف ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة أو خبر مبتدا محذوف تقديره هى تدميرهم أو نصبه على معنى لانا أو على انه خبر كان أى كان عاقبة مكرهم الدمار اما قوله خاوية فهو حال عمل فيها مادل عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر خاوية بالرفع على خبر المبتدا

أوله سبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام أو ظاهر الاعجاز على أنه من أبان بمعنى بان ولقد فخم شأنه الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعا فى بابه ممتازا عن غيره بالنظم المعجز كما يعرب عنه قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج ووصف الكتابية المعربة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الالهية فكأنه كلها وقدم الوصف الاول ههنا نظرا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابية وعكس فى سورة الحجر نظرا الى ما ذكر هنالك من الوجه وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ وابانته أنه خط فيه ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه لا يساعده اضافة الآيات اليه اذ لا عهد باشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة اذ هما باعتبار ابانته فلا بد من اعتبارها بالنسبة الى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا الى الناظرين فيه وقرئ وكتاب بالرفع على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه اى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) فى حيز النصب على الحالية من الآيات على أنهما مصدران أقيما مقام الفاعل للمبالغة كأنهما نفس الهدى والبشارة والعامل معنى الاشارة أى هادية ومبشرة أو الرفع على أنهما بدلان من الآيات أو خبران آخران لتلك أو لمبتدا محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنها تزيدهم هدى قال تعالى فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون

المحذوف

المحذوف والله اعلم ﴿القصة الرابعة﴾ قصة لوط عليه السلام قوله تعالى (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) قال صاحب الكشاف واذكر لوطا أو وأرسلنا لوطا لدلالة ولقد أرسلنا عليه واذ بدل على الاول ظرف على الثانى أما قوله أتأتون الفاحشة فهو على وجه التنكير وان كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ اما قوله وأنتم تبصرون ففيه وجوه (أحدها) انهم كانوا لا يتحاشون من اظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لاجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر فى توبيخه لهم ما له عظم ذلك الفعل (وثانيها) ان المراد بصر القلب أى تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا اليها وان الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهى مضادة لله فى حكمته (وثالثها) تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم فان قلت فسرت تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء وجهلاء قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بانها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها ثم انه تعالى بين جهلهم بان حكى عنهم انهم اجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح ان يكون جوابا له فقال فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فجعلوا الذى لاجله يخرجون انهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا بأن يوجب تنعيمهم وتعظيمهم أولى لكن فى المفسرين من قال انما قالوا ذلك على وجه الهزؤ ثم بين تعالى أنه نجاه واهله الا امرأته واهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحا والله اعلم وههنا آخر القصص فى هذه السورة والله اعلم ﴿القول فى خطاب الله عز وجل مع محمد صلى الله عليه وسلم﴾ قوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون) فى هذه الآية قولان (الاول) انه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على اهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم ونجاهم (الثانى) أنه مبتدأ فانه تعالى لما ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام وكان محمد صلى الله عليه وسلم كالمخالف لمن قبله فى أمر العذاب لان عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم وبان يسلم على الانبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة فاما قوله آلله خير أما يشركون فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شىء الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرئ يشركون بالياء والتاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك فى عدة فصول (الفصل الاول) فى الرد على عبدة

وأما معنى تبشيرها اياهم فظاهر لانها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) صفة مادحة لهم وتخصيصهما بالذكر لانهما قرينتا الايمان وقطرا العبادات البدنية والمالية مستتبعان لسائر الاعمال الصالحة وقوله تعالى (وهم بالآخرة هم يوقنون) جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الايقان لا من عداهم لان تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب أو هو من تتمة الصلة والواو حالية أو عاطفة له على الصلة الاولى وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم أوحديون فيه (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة) بيان لاحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين أى لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الاعمال الصالحة والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القرآن (زينا لهم أعمالهم) القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام حفت النار بالشهوات أو الاعمال الحسنة ببيان حسنها فى انفسها حالا واستتباعها الفنون المنافع مآلا واضافتها اليهم باعتبار أمرهم بها وايجابها عليهم (فهم يعمهون) يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار فى الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر أو فى الضلال والاعراض عنها والفاء على الاول لترتيب المسبب على

الاوثان وحدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لاصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة مالامنفعة منه البتة ثم انه سبحانه وتعالى ذكر أنواعا ﴿(النوع الاول) مايتعلق بالسموات قوله تعالى (أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفرق بين أم وأم في أما يشركون وأمن خلق ان الاولى متصلة لان المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والحديقة البستان عليه سور من الاحداق وهو الاحاطة وقيل ذات لان المعنى جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال النساء ذهبت والبهجة الحسن لان الناظر يبتهج به أاله مع الله أغيره يقرن به ويجعل شريكا له وقرئ أالها مع الله بمعنى تدعون أو تشركون (المسئلة الثانية) انه تعالى بين انه الذى اختص بأن خلق السموات والارض وجعل السماء مكانا للماء والارض للنبات وذكر أعظم النعم وهى الحدائق ذات البهجة ونبه تعالى على أن هذا الانبات فى الحدائق لا يقدر عليه الا الله تعالى لان أحدنا لو قدر عليه لما احتاج الى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة واذا كان تعالى هو المختص بهذا الانعام وجب أن يخص بالعبادة ثم قال بل هم قوم يعدلون وقد اختلفوا فيه فقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية أول سورة الانعام (المسئلة الثالثة) يقال ماحكمة الالتفات فى قوله فأنبتنا جوابه انه لا شبهة للعاقل فى أن خالق السموات والارض ومنزل الماء من السماء ليس الا الله تعالى وربما عرضت الشبهة فى ان منبت الشجرة هو الانسان فان الانسان يقول أنا الذى ألقى البذر فى الارض الحرة وأسقيها الماء واسعى فى تشميسها وفاعل السبب فاعل للمسبب فاذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائما لاجرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة الى قوله فأنبتنا وقال ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لان الانسان قد يأتى بالبذر والسقى والكرب والتشميس ثم لا يأتى على وفق مراده والذى يقع على وفق مراده فانه يكون جاهلا بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلا لها فلهذه النكتة حسن الالتفات ههنا ﴿(النوع الثانى) مايتعلق بالارض قوله (أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) قال صاحب الكشاف أمن جعل وما بعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه واعلم انه تعالى ذكر من منافع الارض أمورا أربعة (المنفعة الاولى) كونها قرارا وذلك لوجوه (الاول) انه دحاها وسواها للاستقرار (الثانى) انه تعالى جعلها متوسطة فى الصلابة والرخاوة فليست فى الصلابة كالحجر الذى يتألم الانسان بالاضطجاع عليه وليست فى الرخاوة كالماء الذى يغوص فيه (الثالث) انه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت

السبب وعلى الثانى الترتيب ضد المسبب على السبب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وفيه ايذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتمكيسهم فى الامور (أولئك) اشارة الى المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده أى أولئك الموصوفون بالكفر والعمه (الذين لهم سوء العذاب) أى فى الدنيا كالقتل والاسر يوم بدر (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) أى أشد الناس خسرانا لفوات الثواب واستحقاق العقاب (وانك لتلقى القرآن) كلام مستأنف قد سيق بعد بيان بعض شؤن القرآن الكريم تمهيدا لما يعقبه من الاقاصيص وتصديره بحرفى التأكيد لابراز كمال العناية بمضمونه أى لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين (من لدن حكيم عليم) أى أى حكيم وأى عليم وفى تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام فى معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فان من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما فى رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل وللاشعار بأن ما فى القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والاخبار الغيبية وقوله تعالى (اذ قال موسى لاهله) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوته بعض من القرآن الذى يلقاه عليه الحيوانات

الحيوانات (الرابع) انه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ولما حصلت المنافع (الخامس) أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فانها لو كانت متحركة لكانت اما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الارض (السادس) انه سبحانه جعلها كفاتا للاحياء والاموات وانه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح (المنفعة الثانية للارض) قوله وجعل خلالها أنهارا فاعلم ان أقسام المياه المنبعثة عن الارض أربعة (الاول) مياه العيون السيالة وهى تنبعث من أبخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الارض بقوة ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزأ (الثانى) ماء العيون الراكدة وهى تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت الى وجه الارض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها ان يطرد تاليها سابقها (الثالث) مياه القنى والانهار وهى متولدة عن أبخرة ناقصة القوة عن ان تشق الارض فاذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الابخرة منفذا تندفع اليه بأدنى حركة (الرابع) مياه الآبار وهى نبعية كمياه الانهار الا انه لم يجعل له ميل الى موضع يسيل اليه ونسبة القنى الى الآبار نسبة العيون السيالة الى العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الارض لما اجتمعت تلك الابخرة فى باطنها ولولا اجتماعها فى باطنها لما حدثت هذه العيون فى ظاهرها (المنفعة الثالثة للارض) قوله وجعل لها رواسى والمراد منها الجبال فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات انما تكون فى الجبال أو فيما يقرب منها أما العيون فلان الارض اذا كانت رخوة نشفت الابخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به فاذن هذه الابخرة لا تجتمع الا فى الارض الصلبة والجبال أصلب الارض فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوأ ماء ويكون الجبل فى حقنه الابخرة مثل الانبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيأ من البخار يتحلل ونفس الارض التى تحته كالقرعة والعيون كالاذناب والبخار كالقوابل ولذلك فان أكثر العيون انما تتفجر من الجبال وأقلها فى البرارى وذلك الاقل لا يكون الا اذا كانت الارض صلبة وأما أن أكثر السحب تكون فى الجبال فلوجوه ثلاثة (أحدها) أن فى باطن الجبال من النداوات ما لا يكون فى باطن الارضين الرخوة (وثانيها) أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الانداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الارضين (وثالثها) أن الابخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل واذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب فى الجبال أكثر لان المادة فيها ظاهرا وباطنا أكثر والاحتقان أشد والسبب المحلل وهو الحر أقل فلذلك كانت السحب فى الجبال أكثر وأما المعدنيات المحتاجة الى أبخرة يكون اختلاطها بالارضية أكثر والى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شئ لها فى هذا

الصلاة والسلام من لدنه عز وجل تقريرا لما قبله وتحقيقا له أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لاهله فى وادى طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فاصلد زنده فبدا له من جانب الطور نار (انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر) أى عن حال الطريق وقد كانوا ضلوه والسين للدلالة على نوع بعد فى المسافة وتأكيد الوعد والجمع ان صح أنه لم يكن معه عليه الصلاة والسلام الا امرأته لما كنى عنها بالاهل أو للتعظيم مبالغة فى التسلية (أو آتيكم بشهاب قبس) بتنوينهما على أن الثانى بدل من الاول أو صفة له لانه بمعنى مقبوس أى شعلة نار مقبوسة أى مأخوذة من أصلها وقرئ بالاضافة وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذى هو القبس الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء لان من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه من صيغة الترجى والترديد للايذان بأنه ان لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله تعالى فانه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين (لعلكم تصطلون) رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة (فلما جاءها نودى) من جانب الطور (أن بورك) معناه أى بورك على أن أن مفسرة لما فى النداء من معنى القول أو بأن بورك على أنها مصدرية حذف عنها الجار جريا على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة ولا ضير فى فقدان التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لما أن

الدعاء يخالف غيره فى كثير من الاحكام (من فى النار ومن حولها) أى من فى مكان النار وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله

المعنى كالجبال (المنفعة الرابعة للارض) قوله وجعل بين البحرين حاجزا فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط وأيضا فلينتفع بذلك الحاجز وأيضا المؤمن فى قلبه بحران بحر الايمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا لكى لا يفسد أحدهما بالآخر وقال بعض الحكماء فى قوله مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان قال عند عدم البغى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فعند عدم البغى فى القلب يخرج الدين والايمان بالشكر فان قيل ولم جعل البحر ملحا قلنا لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته فى الارض وأحدث الوباء العام واعلم ان اختصاص البحر بجانب من الارض دون جانب أمر غير واجب بل الحق ان البحر منتقل فى مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن الى قرن لان استمداد البحر فى الاكثر من الانهار والانهار تستمد فى الاكثر من العيون وأما مياه السماء فان حدوثها فى فصل بعينه دون فصل ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب ان يتشابه أحوالها فى بقاع واحدة باعيانها تشابها مستمرا فان كثيرا من العيون يغور وكثيرا ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من تصوب الاودية والانهار فيعرض بسبب ذلك تصوب البحار واذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الانهار هنالك فحصلت البحار من ذلك الجانب ثم انه سبحانه لما بين انه هو المختص بالقدرة على خلق الارض التى فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالالهية ونبه بقوله تعالى بل أكثرهم لا يعقلون على عظيم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر ﴿(النوع الثالث) ما يتعلق باحتياج الخلق اليه سبحانه وهو قوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أاله مع الله قليلا ما تذكرون) اعلم انه سبحانه نبه فى هذه الآية على أمرين (أحدهما) قوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه قال صاحب الكشاف الضرورة الحالة المحوجة الى الالتجاء والاضطرار افتعال منها يقال اضطره الى كذا والفاعل والمفعول مضطر واعلم ان المضطر هو الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر الى التضرع الى الله تعالى وعن السدى الذى لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر * فان قيل قد عم المضطرين بقوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه وكم من مضطر يدعو فلا يجاب * جوابه قد بينا فى أصول الفقه ان المفرد المعرف لا يفيد العموم وانما يفيد الماهية فقط والحكم المثبت للماهية يكفى فى صدقه ثبوته فى فرد واحد من أفراد الماهية وأيضا فانه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر انه يستجيب فى الحال وتمام القول فى شرائط الدعاء والاجابة مذكور فى قوله تعالى وقال ربكم ادعونى استجب لكم فاما قوله تعالى ويكشف السوء فهو كالتفسير للاستجابة فانه لا يقدر أحد على كشف ما دفع اليه من فقر الى غنى ومرض الى صحة وضيق الى سعة الا القادر الذى لا يعجز والقاهر الذى لا ينازع (وثانيهما) قوله ويجعلكم خلفاء الارض فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط وقرئ يذكرون بالياء مع

سبحانه نودى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ومن حول مكانها وقرئ تباركت الارض ومن حولها والظاهر عمومه لكل من فى ذلك الوادى وحواليه من ارض الشأم الموسومة بالبركات لكونها مبعث الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكفاتهم أحياء وأمواتا ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله تعالى فيها موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم دينى تنتشر بركاته فى أقطار الشام وهو تكليمه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام واستنباؤه له واظهار المعجزات على يده عليه الصلاة والسلام (وسبحان الله رب العالمين) تعجيب لموسى عليه الصلاة والسلام من ذلك وايذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الامور وعظائم الشؤن ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين (ياموسى انه أنا الله) استئناف مسوق لبيان آثار البركة المذكورة والضمير اما للشأن وأنا الله جملة مفسرة له واما راجع الى المتكلم وأنا خبره والله بيان له وقوله تعالى (العزيز الحكيم) صفتان لله تعالى ممهدتان لما أريد اظهاره على يده من المعجزات

أى أنا القوى القادر على ما لا تناله الاوهام من الامور العظام التى من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله

الادغام

بحكمة بالغة وتدبير رصين (والق) عطف على بورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى أن بورك وأن ألق (عصاك)

الادغام وبالتاء مع الادغام وبالحذف وما مزيدة أى يذكرون تذكرا قليلا والمعنى نفى التذكر والقلة تستعمل فى معنى النفى ﴿(النوع الرابع) ما يتعلق أيضا باحتياج الخلق ولكنه حاجة خاصة فى وقت خاص قوله تعالى (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته أاله مع الله تعالى الله عما يشركون) اعلم انه تعالى نبه فى هذه الآية على امرين (الاول) قوله أمن يهديكم والمراد يهديكم بالنجوم فى السماء والعلامات فى الارض اذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر (الثانى) قوله ومن يرسل الرياح فانه سبحانه هو الذى يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه الى حيث يشاء فان قيل لا نسلم انه تعالى هو الذى يحرك الرياح فان الفلاسفة قالت الرياح انما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الاسود المرتفع مما احترق بالنار بل كل جسم أرضى يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان قالوا وتولد الرياح من الادخنة على وجهين أحدهما أكثرى والآخر أقلى أما الاكثرى فهو انه اذا صعدت أدخنة كثيرة الى فوق فعند وصولها الى الطبقة الباردة اما أن ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء أو لا ينكسر فان انكسر فلا محالة ينقل وينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح وان لم ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء فلا بد وأن يتصاعد الى أن يصل الى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لا يتمكن من الصعود بسبب حركة النار فترجع تلك الادخنة وتصير ريحا لا يقال لو كان اندفاع هذه الادخنة بسبب حركة الهواء العالى لما كانت حركتها الى أسفل بل الى جهة حركة الهواء العالى لانا نقول الجواب من وجهين (أحدهما) انه ربما أوجبت هيئة صعود تلك الادخنة وهيئة لحوق المادة بها أن يتحرك الى خلاف جهة المتحرك المانع كالسهم يصيب جسما متحركا فيعطفه تارة الى جهته ان كان الحابس كما يقدر على صرف المتحرك عن متوجهه يقدر أيضا على صرفه الى جهة حركة نفسه وتارة الى خلاف تلك الجهة اذا كان المفارق يقدر على الحبس ولا يقدر على الصرف (الثانى) انه ربما كان صعود بعض الادخنة من تحت مانعا للادخنة النازلة من فوق الى أن تسفل ذلك فلاجل هذا السبب يتحرك الى سائر الجوانب واعلم ان لاهل الاسلام ههنا مقامين (الاول) أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين (الاول) ان الاجزاء الدخانية أرضية فهى أثقل من الاجزاء البخارية المائية ثم ان البخار لما يبرد ينزل على الخط المستقيم مطرا فالدخان لما برد فلم ذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة (الثانى) ان حركة تلك الاجزاء الى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية واذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة ثم ان الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الاشجار ورمى الجدار بل الجبال فتلك الاجزاء الدخانية عند ما تحركت حركتها الطبيعية التى لها وهى الحركة الى السفل وجب أن تهدم السقف

حسبما نطق به قوله تعالى وأن ألق عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول كتبت اليه أن حج وأن اعتمر وان شئت أن حج واعتمر والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما فى قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه بعد قوله تعالى اخرج عليهن كأنه قيل فألقاها فانقلبت حية تسعى فأبصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب وقوله تعالى (كأنها جان) أى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية اما من مفعول رأى مثل تهتز كما أشير اليه أو من ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرئ جأن على لغة من جد فى الهرب من التقاء الساكنين (ولى مدبرا) من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وانما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك لامر أريد به كما ينبئ عنه قوله تعالى (ياموسى لا تخف) أى من غيرى ثقة بى أو مطلقا لقوله تعالى (انى لا يخاف لدى المرسلون) فانه يدل على نفى الخوف عنهم مطلقا لكن لا فى جميع الاوقات بل حين يوحى اليهم كوقت الخطاب فانهم حينئذ مستغرقون فى مطالعة شؤن الله عز وجل لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلا وأما فى سائر الاحيان فهم أخوف الناس منه

سبحانه أو لا يكون لهم عندى سوء عاقبة ليخافوا منه (الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم) استثناء منقطع استدرك

ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء و يسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلا عن أن يهدمه فثبت فساد ماذكروه (المقام الثانى) هب ان الامر كما ذكروه ولكن الاسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى فانه لولا الشمس وتأثيرها فى تصعيد الابخرة والادخنة ولولا طبقات الهواء والا لما حدثت هذه الامور ومعلوم ان من وضع أسبابا فأدته الى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذى فعل تلك المنافع فعلى جميع الاحوال لابد من شهادة هذه الامور على مدبر حكيم واجب لذاته قطعا لسلسلة الحاجات ﴿(النوع الخامس) ما يتعلق بالحشر والنشر قوله تعالى (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) اعلم انه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله أمن يبدأ الخلق ثم يعيده لان نعم الآخرة بالثواب لا تتم الا بالاعادة بعد الابتداء والابلاغ الى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم ومعلوم انها لا تتم الا بالارزاق فلذلك قال ومن يرزقكم من السماء والارض ثم قال أإله مع الله منكرا لما هم عليه ثم بين بقوله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين أن لا برهان لكم فاذن هم مبطلون وهذا يدل على انه لابد فى الدعوى من البرهان وعلى فساد التقليد • فان قيل كيف قيل لهم أمن يبدأ الخلق ثم يعيده وهم منكرون للاعادة • جوابه كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الاعادة دلالة ظاهرة قوية فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الانكار وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى ﴿ قوله تعالى (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون بل أدرك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) اعلم انه تعالى لما بين انه المختص بالقدرة فكذلك بين انه المختص بعلم الغيب واذا ثبت ذلك ثبت انه هو الاله المعبود لان الاله هو الذى يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب • فان قيل الاستثناء حكمه اخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية ههنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عن من فى السموات والارض فوجب كونه ممن فى السموات والارض وذلك يوجب كونه تعالى فى المكان • والجواب هذه الآية متروكة الظاهر لان من قال انه تعالى فى المكان زعم انه فوق السموات ومن قال انه ليس فى مكان فقد نزهه عن كل الامكنة فثبت بالاجماع انه تعالى ليس فى السموات والارض فاذن وجب تاويله فنقول انه تعالى ممن فى السموات والارض كما يقول المتكلمون الله تعالى فى كل مكان على معنى ان علمه فى الاماكن كلها • لا يقال ان كونه فى السموات والارض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وارادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير جائزة لانا نقول كونهم فى السموات والارض كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم فى تلك الاحياز فكذلك حاصل مجازا وهو كونهم عالمين بتلك الامكنة فاذا حملنا هذه الغيبة

على

نه ما عسى يختلج فى الخلد من نفى الخوف عن كلهم مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم وان صدر عنهم شئ من ذلك فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام من وكزه القبطى والاستغفار وتسميتها ظلما لقوله عليه الصلاة والسلام رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له (وأدخل يدك فى جيبك) لانه كان مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لانه يجاب أى يقطع (تخرج بيضاء من غير سوء) أى آفة كبرص ونحوه (فى تسع ايات) فى جملتها أو معها على أن التسع هى الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الاخيرين واحدا ولا يعد الفلق منها لانه لم يبعث به الى فرعون أو اذهب فى تسع آيات على أنه استئناف بالارسال فيتعلق به (الى فرعون وقومه) وعلى الاولين يتعلق بنحو مبعوثا أو مرسلا (انهم كانوا قوما فاسقين) تعليل للارسال أى خارجين عن الحدود فى الكفر والعدوان (فلما جاءتهم آياتنا) وظهرت على يد موسى

(مبصرة) بينة اسم فاعل أطلق على المفعول اشعارا بانها لفرط وضوحها وانارتها كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو ذات تبصر من حيث انها تهدى والعمى لا تهتدى فضلا عن

الهداية أو مبصرة كل من ينظر اليها ويتأمل فيها وقرئ مبصرة أى مكانا يكثر فيه التبصر (قالوا هذا سحر مبين) واضح سحريته (وجحدوا بها) أى كذبوا بها (واستيقنتها أنفسهم) الواو للحال أى وقد استيقنتها أى علمتها أنفسهم علما يقينيا (ظلما) أى للآيات كقوله تعالى بما كانوا بآياتنا يظلمون ولقد ظلموا بها أى ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا وقيل ظلما لانفسهم وليس بذاك (وعلوا) أى استكبارا عن الايمان بها كقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما اما على العلة من جحدوا بها أو على الحالية من فاعله أى جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) من الاغراق على الوجه الهائل الذى هو عبرة للعالمين وانما لم يذكر تنبيها على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر (ولقد آتينا داود وسليمان علما) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان قصتهما عليهما الصلاة والسلام من جملة القرآن الكريم لقيه عليه الصلاة والسلام من لدنه تعالى كقصة موسى عليه السلام وتصديره بالقسم لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه أى آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والاحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة

على المعنى المجازى وهو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء أما قوله وما يشعرون فهو صفة لاهل السموات والارض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر فى جملة الغيب متى البعث بقوله أيان يبعثون فأيان بمعنى متى وهى كلمة مركبة من أى والآن وهو الوقت وقرئ إيان بكسر الهمزة أما قوله بل أدرك علمهم فى الآخرة فاعلم ان كلام صاحب الكشاف فيه مرتب على ثلاثة ابحاث (البحث الاول) فيه اثنتا عشرة قراءة بل ادرك بل اذرك بل ادارك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادّرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام بلى ادرك بلى أأدرك أم تدارك أم أدرك (البحث الثانى) ادارك أصله تدارك فادغمت التاء فى الدال وادّرك افتعل (البحث الثالث) معنى أدرك علمهم انتهى وتكامل وادّرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه (أحدها) ان أسباب استحكام العلم وتكامله بان القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها وهم شاكون جاهلون وذلك قوله بل هم فى شك منها بل هم منها عمون يريد المشركين ممن فى السموات والارض لانهم لما كانوا من جملتهم نسب فعلهم الى الجميع كما يقال بنو فلان فعلوا كذا وانما فعله ناس منهم • فان قيل الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وان العباد لا علم لهم بشئ منه وان وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بانكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة • والجواب كأنه سبحانه قال كيف يعلمون الغيب مع انهم شكوا فى ثبوت الآخرة التى دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشئ الظاهر كيف يعلم الغيب الذى هو أخفى الاشياء (الوجه الثانى) ان وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لاجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا فى اثبات ما الطريق اليه واضح ظاهر (الوجه الثالث) أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك أدركت الثمرة لان تلك غايتها التى عندها تعدم وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا فى الهلاك أما وجه قراءة من قرأ بل أأدرك على الاستفهام فهو انه استفهام على وجه الانكار لادراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم تدارك لان أم هى التى بمعنى بل والهمزة وأما من قرأ بلى أدرك فانه لما جاء بلى بعد قوله وما يشعرون ان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله أدرك علمهم فى الآخرة على سبيل التهكم الذى معناه المبالغة فى نفى العلم فكأنه قال شعورهم بوقت الآخرة انهم لا يعلمون كونها فيرجع الى نفى الشعور على أبلغ ما يكون وأما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها واذا أنكر علمهم بكونها لم يحصل لهم شعور بوقت كونها • فان قلت هذه الاضرابات الثلاث ما معناها قلت ما هى الا بيان درجاتهم وصفهم أولا بانهم لا يشعرون وقت البعث ثم بانهم لا يعلمون ان

لوس ومنطق الطير أو علماً شأنه عزيز (وقالا) أى قال   ٥٧٨   كل واحد منهما شكرا لما أوتيه من العلم (الحمد لله
الذى فضلنا) بما آتانا من العلم
(على كثير من عباده المؤمنين)
على ان عبارة كل منهما فضلنى الا
أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة
المتكلم مع الغير ايجازا فان حكاية
الاقوال المتعددة سواء كانت
صادرة عن المتكلم أو عن غيره
بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز
ومن الاول قوله تعالى يا ايها
الرسل كلوا من الطيبات واعملوا
صالحا وقد مر فى سورة قد أفلح
المؤمنون وبهذا ظهر حسن
موقع العطف بالواو اذ المتبادر
من العطف بالفاء ترتب حمد كل
منهما على ايتاء ما أوتى كل منهما
لا على ايتاء ما أوتى نفسه فقط
وقيل فى العطف بالواو اشعار بأن
ما قالاه بعض ما أحدث فيهما ايتاء
العلم وشئ من مواجبه فأضمر ذلك
ثم عطف عليه التحميد كأنه قيل
ولقد آتيناهما علما فعملا به وعلماه
وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد
لله الآية فتأمل والكثير المفضل
عليه من لم يؤت مثل علمهما وقيل
من لم يؤت علما ويأباه تبيين
الكثير بالمؤمنين فان خلوهم من
العلم بالمرة مما لا يمكن وفى
تخصيصهما الاكثر بالذكر رمز الى
أن البعض مفضلون عليهما وفيه
أوضح دليل على فضل العلم وشرف
اهله حيث شكرا على العلم وجعلاه
أساس الفضل ولم يعتبرا دونه
ما أوتيا من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله

القيامة كائنة ثم بانهم يخبطون فى شك وريبة ثم عماهم وهو أسوأ حالا وهو العمى وفيه نكتة
وهى انه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة
والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم ۞ قوله تعالى (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا
أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين قل سيروا
فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما
يمكرون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض
الذى تستعجلون وان ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وان ربك
ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين)
اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى حال المبدا تكلم بعده فى حال المعاد وذلك لان الشك فى المعاد
لا ينشأ الا من الشك فى كمال القدرة أو فى كمال العلم فاذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل
الممكنات وعالما بكل المعلومات ثبت انه تعالى يمكنه تمييز اجزاء بدن كل واحد من المكلفين
عن اجزاء بدن غيره وثبت انه قادر على أن يعيد التركيب والحياة اليها واذا ثبت امكان
ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بين الله تعالى هذين الاصلين فيما قبل هذه الآية لا جرم
لم يحكه فى هذه الآية يحكى عنهم انهم تعجبوا من اخراجهم أحياء وقد صاروا ترابا
وطعنوا فيه من وجهين (الاول) قولهم لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا أى هذا كلام كما قيل
لنا فقد قيل لمن قبلنا ولم يظهر له أثر فهو اذن من أساطير الاولين يريدون ما لا يصح من
الاخبار فان قيل ذكر ههنا لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا وفى آية أخرى لقد وعدنا نحن
وآباؤنا هذا فما الفرق قلنا التقديم دليل على ان المقدم هو المقصود الاصلى وان الكلام
سيق لاجله ثم انه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الاصلين ومن الظاهر ان
كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت انهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها
وكان سبب ذلك الاعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير لا جرم
اقتصر على بيان ان الدنيا فانية زائلة فقال قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة
المجرمين وفيه سؤالان (السؤال الاول) لم لم يقل كيف كانت عاقبة المجرمين جوابه لان
تأنيثها غير حقيقى ولان المعنى كيف كان آخر أمرهم (السؤال الثانى) لم لم يقل عاقبة
الكافرين جوابه الغرض ان يحصل التخويف لكل العصاة ثم انه تعالى صبر رسوله على
ما يناله من هؤلاء الكفار فقال ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون فجمع بين
ازالة الغم عنه بكفرهم وبين ازالة الخوف من جانبهم وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم
وقوله ولا تكن فى ضيق أى فى حرج قلب يقال ضاق الشئ ضيقا وضيقا بالفتح والكسر
والضيق مخفف الضيق ويجوز ان يراد فى امر ضيق من مكرهم (الوجه الثانى) للكفار
قولهم متى هذا الوعد وقوله ان كنتم صادقين دل على انهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية
فاجاب

ويتواضعوا ويعتقدوا أنهم وان فضلوا على كثير فقد فضل عليهم كثير   ٥٧٩   وفوق كل ذى علم عليم ونعم ما قال أمير المؤمنين عمر
رضى الله عنه كل الناس أفقه من
عمر (وورث سليمان داود) أى
النبوة والعلم أو الملك بأن قام
مقامه فى ذلك دون سائر بنيه
وكانوا تسعة عشر (وقال) تشهيرا
لنعمة الله تعالى وتنويها بها
ودعاء للناس الى التصديق بذكر
المعجزات الباهرة التى أوتيها
(يا أيها الناس علمنا منطق الطير
وأوتينا من كل شئ) المنطق فى
المتعارف كل لفظ يعبر به عما فى
الضمير مفردا كان أو مركبا وقد
يطلق على كل ما يصوت به من المفرد
والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال
نطقت الحمامة وكل صنف من
أصناف الطير يتفاهم أصواته
والذى علمه سليمان عليه السلام
من منطق الطير هو ما يفهم بعضه
من بعض من معانيه وأغراضه
ويحكى أنه مر على بلبل فى شجرة
يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال
لاصحابه أتدرون ما يقول قالوا
الله ونبيه أعلم قال يقول اذا أكلت
نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء
وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول
ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس
فقال يقول كما تدين تدان وصاح
هدهد فقال يقول استغفروا الله
يا مذنبين وصاح طيطوى فقال
يقول كل حى ميت وكل جديد
بال وصاح خطاف فقال يقول
قدموا خيرا تجدوه وصاح قرى
فاخبر أنه يقول سبحان ربى الاعلى وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الاعلى مل‌ء سمائه وأرضه وقال الحدأة

فأجاب الله تعالى بقوله عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون وهو عذاب
يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء فى ولا تلقوا بأيديكم او ضمن معنى فعل يتعدى باللام
نحو دنا لكم وازف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقرأ الاعرج ردف لكم بوزن ذهب
وهما لغتان والكسر افصح وههنا بحثان (البحث الاول) ان عسى ولعل فى وعد الملوك
ووعيدهم يدلان على صدق الامر وانما يعنون بذلك اظهار وقارهم وانهم لا يعجلون
بالانتقام لوثوقهم بان عدوهم لا يفوتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (الثانى) انه قد
ثبت بالدلائل العقلية ان عذاب الحجاب أشد من عذاب النار ولذلك قال كلا انهم عن
ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فقدم الحجاب على الجحيم ثم انهم كانوا محجوبين
فى الحال فكان سبب العذاب بكماله حاصلا الا ان الاشتغال بالدنيا واللذات كالمانع عن
ادراك ذلك الالم كما ان العضو الخدر اذا مسته النار فان سبب الالم حاصل فى الحال لكنه
لا يحصل الشعور بذلك الالم لقيام العائق فاذا زال العائق عظم البلاء فكذا ههنا اذا زال
البدن عظم عذاب الحجاب فقوله سبحانه عسى ان يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون
يعنى المقتضى له والمؤثر فيه حاصل وتمامه انما يحصل بعد الموت ثم انه سبحانه بين السبب
فى ترك تعجيل العذاب فقال وان ربك لذو فضل على الناس والفضل الافضال ومعناه
انه متفضل عليهم بتأخير العقوبة وان أكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها وهذه
الآية تبطل قول من قال انه لا نعمة لله على الكفار ثم بين سبحانه انه مطلع على ما فى قلوبهم
فقال وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وههنا بحث عقلى وهو انه قدم ما تكنه
صدورهم على ما يعلنون من العلم ۞ والسبب ان ما تكنه صدورهم هو الدواعى والقصود
وهى اسباب لما يعلنون وهى افعال الجوارح والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول فهذا هو
السبب فى ذلك التقديم قرئ تكن يقال كننت الشئ واكننته اذا سترته واخفيته يعنى
انه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم اما قوله وما من غائبة
فقال صاحب الكشاف سمى الشئ الذى يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما
بمنزلتها فى العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية فى انها اسماء غير صفات ويجوز
ان يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية فى قولهم ويل للشاعر من راوية السوء
كأنه تعالى قال وما من شئ شديد الغيبوبة والخفاء الا وقد علمه الله تعالى واحاط به واثبته
فى اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة ۞ قوله تعالى (ان هذا
القرآن يقص على بنى اسرائيل اكثر الذى هم فيه يختلفون وانه لهدى ورحمة للمؤمنين
ان ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله انك على الحق المبين انك
لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم
ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) اعلم انه سبحانه لما تمم الكلام فى اثبات المبدا

تقول كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول ٥٨٠ من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والديك يقول اذكروا الله

والمعاد ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى فى اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن لاجرم بين الله تعالى أولا كونه معجزة من وجوه (أحدها) ان الاقاصيص المذكورة فى القرآن موافقة لما كانت مذكورة فى التوراة والانجيل مع العلم بانه عليه الصلاة والسلام كان أميا وانه لم يخالط أحدا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم فاذن لا يكون ذلك الا من قبل الله تعالى واختلفوا فقال بعضهم أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا وقال آخرون أراد به ما حرفه بعضهم وقال بعضهم بل أراد به اخبار الانبياء والاول أقرب (وثانيها) قوله وانه لهدى ورحمة للمؤمنين وذلك لان بعض الناس قال انا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله مالم نجده فى شئ من الكتب ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها ووجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة عن جمع كتاب على هذا الوجه فعلمنا انه ليس الا من عند الله تعالى فكان القرآن معجزا من هذه الجهة (وثالثها) انه هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه فى الفصاحة الى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز ثم انه تعالى لما بين كونه معجزا دالا على الرسالة ذكر بعده أمرين (الاول) قوله ان ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم والمراد ان القرآن وان كان يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون لكن لا تكن أنت فى قيدهم فان ربك هو الذى يقضى بينهم أى بين المصيب والمخطئ منهم وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال وهو العزيز أى القادر الذى لا يمتنع العليم بما يحكم فلا يكون الا الحق فان قيل القضاء والحكم شئ واحد فقوله يقضى بحكمه كقوله يقضى بقضائه ويحكم بحكمه والجواب معنى قوله بحكمه أى بما يحكم به وهو عدله لانه لا يقضى الا بالعدل أو أراد بحكمه ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (الثانى) انه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بان يتوكل على الله ولا يلتفت الى أعداء الله ويشرع فى تمشية مهمات الرسالة بقلب قوى فقال فتوكل على الله ثم علل ذلك بامرين (أحدهما) قوله انك على الحق المبين وفيه بيان ان الحق حقيق بنصرة الله تعالى وانه لا يخذل (وثانيهما) قوله انك لا تسمع الموتى وانما حسن جعله سببا للامر بالتوكل وذلك لان الانسان مادام يطمع فى أحد أن يأخذ منه شيأ فانه لا يقوى قلبه على اظهار مخالفته فاذا قطع طمعه عنه قوى قلبه على اظهار مخالفته فالله سبحانه وتعالى قطع محمدا صلى الله عليه وسلم عنهم بان بين له انهم كالموتى وكالصم وكالعمى فهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون الى شئ من الدلائل وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على اظهار الدين كما ينبغى فان قيل ما معنى قوله اذا ولوا مدبرين جوابه هو تأكيد لحال الاصم لانه اذا تباعد عن الداعى بان تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته أما قوله تعالى ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا

يا غافلين والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب تقول فى البعد عن الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربى القدوس وأراد عليه الصلاة والسلام بقوله علمنا وأوتينا بالنون التى يقال لها نون الواحد المطاع بيان حاله وصفته من كونه ملكا مطاعا لكن لا تجبرا وتكبرا بل تمهيدا لما أراد منهم من حسن الطاعة والانقياد له فى أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة السير وبقوله من كل شئ كثرة ما أوتيه كما يقال فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شئ ويراد به كثرة قصاده وغزارة علمه ومثل قوله تعالى وأوتيت من كل شئ وقال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما يهمه من امر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والانس والشياطين والريح (ان هذا) اشارة الى ما ذكر من التعليم والايتاء (لهو الفضل) والاحسان من الله تعالى (المبين) الواضح الذى لا يخفى على أحد أو ان هذا الفضل الذى أوتيه لهو الفضل المبين على أنه عليه الصلاة والسلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى أقول هذا القول شكرا لا فخرا ولعله عليه الصلاة والسلام رتب على كلامه ذلك دعوة الناس الى الغزو فان أخبارهم بإيتاء كل شئ من الاشياء التى

فالمعنى

من جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو ومما ينبئ عن ذلك فمعنى قوله (٥٨١) تعالى (وحشر لسليمان جنوده) جمع له عساكره (من الجن

فالمعنى ما يهدى اسماعك الا الذين علم الله انهم يؤمنون بآياته أى يصدقون بها فهم مسلمون أى مخلصون من قوله بلى من أسلم وجهه لله يعنى جعله سالما لله تعالى خالصا له والله أعلم ﴿قوله تعالى (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اعلم أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم ثم فرع عليهما القول بامكان الحشر ثم بين الوجه فى كون القرآن معجزا ثم فرع عليه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم تكلم الآن فى مقدمات قيام القيامة وانما أخر تعالى الكلام فى هذا الباب عن اثبات النبوة لما ان هذه الاشياء لا يمكن معرفتها الا بقول النبى الصادق وهذا هو النهاية فى جودة الترتيب واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة وتارة الامور التى تقع عند قيام القيامة فذكر أولا من علامات القيامة دابة الارض والناس تكلموا فيها من وجوه (احدها) فى مقدار جسمها وفى الحديث ان طولها ستون ذراعا وروى أيضا ان رأسها تبلغ السحاب وعن أبى هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب (وثانيها) فى كيفية خلقتها فروى لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنب كبش وخف بعير (وثالثها) فى كيفية خروجها عن على عليه السلام انها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج الا ثلثها وعن الحسن لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام (ورابعها) فى موضع خروجها سئل النبى صلى الله عليه وسلم من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى المسجد الحرام وقيل تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية (وخامسها) فى عدد خروجها فروى انها تخرج ثلاث مرات تخرج باقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا فبين الناس فى أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم الا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون (واعلم) انه لا دلالة فى الكتاب على شئ من هذه الامور فان صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل والا لم يلتفت اليه أما قوله تعالى واذا وقع القول عليهم فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور اشراطها أما دابة الارض فقد عرفتها وأما قوله تكلمهم فقرئ تكلمهم من الكلم وهو الجرح روى ان الدابة تخرج من الصفا ومعها عصى موسى عليه السلام وخاتم سليمان فتضرب المؤمن بين عينيه بعصى موسى عليه السلام فتنكت

والانس والطير) بمباشرة مخاطبيه فانهم كانوا رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم بتعميم الناس للكل تغليبا وتقديم الجن على الانس فى البيان للمسارعة الى الايذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الامر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير (فهم يوزعون) أى يحبس أوائلهم على أواخرهم أى يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر وفيه اشعار بكمال مسارعتهم الى السير وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع وهذا اذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو روى أن معسكره عليه الصلاة والسلام كان مائة فرسخ فى مائة خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له عليه الصلاة والسلام ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وابريسم فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسى

نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضئ لها وجهه وتنكت الكافر فى أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه واعلم انه يجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضا على معنى التكثير يقال فلان مكلم أى مجرح وقرأ أبي تنبئهم وقرأ ابن مسعود تكلمهم بان الناس والقراءة بان مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك أو هى حكاية لقول الله تعالى بين به انه أخرج الدابة لهذه العلة ٭ فان قيل اذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول بآياتنا ٭ جوابه ان قولها حكاية لقول الله تعالى او على معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها بالله تعالى اضافت آيات الله الى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا وانما هى خيل مولاه وبلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار اى تكلمهم بان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ٭ واما قوله ويوم نحشر من كل امة فوجا ممن يكذب بآياتنا فاعلم ان هذا من الامور الواقعة بعد قيام القيامة فالفرق بين من الاولى والثانية ان الاولى للتبعيض والثانية للتبيين كقوله من الاوثان اما قوله فهم يوزعون معناه يحبس اولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا فى النار وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد اطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك وقوله حتى اذا جاؤا قال اكذبتم بآياتى فهذا وان احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله اجمع او بشئ منها اما قوله ولم تحيطوا بها علما فالواو للحال كأنه قال اكذبتم بها بادى الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى احاطة العلم بكنهها اما قوله أماذا كنتم تعملون فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم فاى شئ كنتم تعملون بعد ذلك كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل ثم قال ووقع القول عليهم يريد ان العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله هذا يوم لا ينطقون ثم انه سبحانه بعد ان خوفهم باحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا اما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر فى العقول ان التقليب من النور الى الظلمة ومن الظلمة الى النور لا يحصل الا بقدرة قاهرة عالية واما وجه دلالته على الحشر فلانه لما ثبتت قدرته تعالى فى هذه الصورة على القلب من النور الى الظلمة وبالعكس فأى امتناع فى ثبوت قدرته على القلب من الحياة الى الموت مرة ومن الموت الى الحياة أخرى وأما وجه دلالته على النبوة فلانه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين وفى بعثة الانبياء والرسل الى الخلق منافع عظيمة فالمانع من بعثتهم الى الخلق لاجل تحصيل تلك المنافع فقد ثبت ان هذه الكلمة الواحدة كافية فى اقامة الدلالة على تصحيح الاصول الثلاثة التى منها امتثال كفرهم واستحقاقهم العذاب ثم فى الآية سؤالان (السؤال الاول) ما السبب فى ان جعل الابصار للنهار وهو لاهله جوابه تنبيها على كمال هذه الصفة فيه (السؤال الثانى) لما قال جعل لكم الليل

من ذهب وفضة فيقعد الانبياء عليهم الصلاة والسلام على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير باجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى اليه وهو يسير بين السماء والارض انى قد زدت فى ملكك لا يتكلم أحد بشئ الا ألقته الريح فى سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فألقته الريح فى أذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال انما مشيت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل داود (حتى اذا أتوا على وادى النمل) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هى غاية لما قبلها كالتى فى قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل الآية وهى ههنا غاية لما ينبئ عنه قوله تعالى فهم يوزعون من السير كأنه قيل فساروا حتى اذا أتوا الخ ووادى النمل واد بالشام كثير النمل على ما قاله مقاتل رضى الله عنه وبالطائف على ما قاله كعب رضى الله عنه وقيل هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وتعدية الفعل اليه بكلمة على اما لان اتيانهم كان من فوق واما لان المراد بالاتيان عليه قطعه من قولهم اتى على الشئ اذا أنفده وبلغ آخره ولعلهم ارادوا أن ينزلوا عند

لتسكنوا

لتسكنوا فيه فلم يقل والنهار لتبصروا فيه جوابه لان السكون فى الليل هو المقصود من الليل وأما الابصار فى النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة الى جلب المنافع الدينية والدنيوية واما قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون خص المؤمنين بالذكر وان كانت ادلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ما تقدم فى نظائره ۞ قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين) اعلم ان هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة أما قوله ويوم ينفخ فى الصور ففيه وجوه (أحدها) انه شئ شبيه بالقرن وان اسرافيل عليه السلام ينفخ فيه باذن الله تعالى فاذا سمع الناس ذلك الصوت وهو فى الشدة بحيث لا تحتمله طباعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور وهذا قول الاكثرين (وثانيها) يجوز أن يكون تمثيلا لدعاء الموتى فان خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة (وثالثها) ان الصور جمع الصورة وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والاول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه أما قوله ففزع من فى السموات ومن فى الارض فاعلم انه انما قال ففزع ولم يقل فيفزع للاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وانه كائن لا محالة لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد فزعهم عند النفخة الاولى أما قوله الا من شاء الله فالمراد الا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وقيل الشهداء وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر موسى منهم لانه صعق مرة ومثله قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وليس فيه خبر مقطوع والكتاب انما يدل على الجملة أما قوله وكل أتوه داخرين فقرئ أتوه وأتاه ودخرين وداخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر وقيل معنى الاتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز أن يراد رجوعهم الى أمر الله وانقيادهم له ۞ قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ انه خبير بما يفعلون) اعلم ان هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهى تسيير الجبال والوجه فى حسبانهم انها جامدة فلان الاجسام الكبار اذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد فى السمت والكيفية ظن الناظر اليها انها واقفة مع انها تمر مرا حثيثا أما قوله صنع الله فهو من المصادر المؤكدة كقوله وعد الله وصبغة الله الا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى انه لما قدم ذكر هذه الامور التى لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الاشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب قال القاضى عبد الجبار فيه دلالة على ان القبائح ليست من خلقه والا وجب وصفها بانها متقنة ولكن الاجماع مانع منه والجواب ان الاتقان لا يحصل الا فى المركبات فيمتنع وصف الاعراض بها والله أعلم ۞ قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون

منتهى الوادى اذ حينئذ يخافهم ما فى الارض لا عند سيرهم فى الهواء وقوله تعالى (قالت نملة) جواب اذا كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادى فرت منهم فصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها فتبعها فى الفرار فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فاجروا مجراهم حيث جعلت هى قائلة وما عداها من النمل مقولا لهم حيث قيل (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) مع أنه لا يمتنع ان يخلق الله تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وهو الاصل كالرجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع فى السبع وقرئ بضم النون والميم قيل كانت نملة عرجاء تمشى وهى تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية وقرئ مسكنكم وقوله تعالى (لا يحطمنكم سليمان وجنوده) نهى فى الحقيقة للنمل عن التأخر فى دخول مساكنهم وان كان بحسب الظاهر نهيا له عليه الصلاة والسلام ولجنوده عن الحطم كقولهم لا أرينك ههنا فهو استئناف أو بدل من الامر كقول من قال فقلت له ارحل لا تقيمن عندنا لا جواب له فان النون لا تدخله فى السعة وقرئ لا يحطمنكم بالنون الخفيفة وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها وأصله لا يحتطمنكم وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) حال من فاعل يحطمنكم مفيدة لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم بمكانهم حتى لو شعروا بذلك لم يحطموا وأرادت بذلك الايذان بانها عارفة بشؤن سليمان وسائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام

ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون) اعلم ان الله تعالى لما تكلم فى علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف اما أن يكون مطيعا أو عاصيا أما المطيع فهو الذى جاء بالحسنة وله أمران (أحدهما) ان له ما هو خير منها وذلك هو الثواب ❁ فان قيل الحسنة التى جاء العبد بها يدخل فيها معرفة الله تعالى والاخلاص فى الطاعات والثواب انما هو الاكل والشرب فكيف يجوز ان يقال الاكل والشرب خير من معرفة الله جوابه من وجوه (أحدها) ان ثواب المعرفة النظرية الحاصلة فى الدنيا هى المعرفة الضرورية الحاصلة فى الآخرة ولذة النظر الى وجهه الكريم سبحانه وتعالى وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هى هذه اللذة ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الاكل والشرب خيرا من معرفة الله تعالى وانه باطل (وثانيها) ان الثواب خير من العمل من حيث ان الثواب دائم والعمل منقض ولان العمل فعل العبد والثواب فعل الله تعالى (وثالثها) فله خير منها أى له خير حاصل من جهتها وهو الجنة (السؤال الثانى) الحسنة لفظة مفردة معرفة وقد ثبت انها لا تفيد العموم بل يكفى فى تحققها حصول فرد واذا كان كذلك فلتحملها على أكمل الحسنات شأنا وأعلاها درجة وهو الايمان فلهذا قال ابن عباس من افراد الحسنة كلمة الشهادة وهذا يوجب القطع بان لا يعاقب أهل الايمان ❁ جوابه ذلك الخير هو أن لا يكون عقابه مخلدا (الامر الثانى) للمطيع هو انهم آمنون من كل فزع لا كما قال بعضهم ان أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر فان قيل أليس انه تعالى قال فى أول الآية ففزع من فى السموات ومن فى الارض فكيف نفى الفزع ههنا جوابه ان الفزع الاول هو ما لا يخلو منه أحد عند الاحساس لشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وان كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر اليه كما قيل يدخل الرجل بصدر هياب وقلب وجاب وان كانت ساعة اعزاز وتكرمة وأما الثانى فالخوف من العذاب ❁ أما قراءة من قرأ من فزع بالتنوين فهى تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب وأما ما يلحق الانسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الاهوال فلا ينفك منه أحد وفى الاخبار ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف وهو خوف النار وأمن يعدى بالجار وبنفسه كقوله تعالى أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله فهذا شرح حال المطيعين اما شرح حال العصاة فهو قوله ومن جاء بالسيئة قيل السيئة الاشراك وقوله فكبت وجوههم فى النار فاعلم انه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل فكبوا فى النار كقوله فكبكبوا ويجوز ان يكون ذكر الوجوه ايذانا بانهم يلقون على وجوههم فيها مكبوبين اما قوله هل تجزون الا ما كنتم تعملون فيجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب باضمار القول ❁ قوله تعالى (انما أمرت ان اعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شئ وأمرت ان اكون من المسلمين وان اتلو القرآن فمن

لمن عصمتهم عن الظلم والايذاء وقيل هو استئناف أى فهم سليمان ما قالته والقوم لا يشعرون بذلك (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها واهتدائها الى تدبير مصالحها ومصالح بنى نوعها وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده فى باب التقوى والشفقة فيما بين أصناف المخلوقات التى هى أبعدها من ادراك أمثال هذه الامور وروايتها جاء بما خصه الله تعالى به من ادراك همسها وفهم مرادها روى أنها أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم فى الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن (وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) أى اجعلنى ازع شكر نعمتك عندى وأكفه وأرتبطه بحيث لا ينفلت عنى حتى لا أنفك عن شكرك أصلا وقرئ بفتح ياء أوزعنى (التى أنعمت على وعلى والدى) أدرج فيه ذكرهما تكثيرا للنعمة فان الانعام عليهما انعام عليه مستوجب للشكر (وأن أعمل صالحا ترضاه) اتماما للشكر واستدامة للنعمة (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) فى جملتهم الجنة التى هى دار الصالحين (وتفقد الطير) أى تعرف أحوال الطير فلم ير الهدهد فيما بينها (فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) كأنه قال أولا مالى لا أراه لساتر ستره أو لسبب آخر ثم بدا له أنه غائب فأضرب عنه فأخذ يقول أهو غائب (لاعذبنه عذابا شديدا) قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه وقيل بجعله مع ضده فى قفص وقيل بالتفريق بينه وبين الفه (أو لاذبحنه) ليعتبر به أبناء جنسه (أو ليأتينى بسلطان مبين) بحجة تبين عذره والحلف فى الحقيقة على أحد الاولين على تقدير عدم الثالث وقرئ ليأتيننى بنونين أولاهما مفتوحة مشددة

اهتدى

اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال قل يا محمد انى أمرت بأشياء (الاول) انى أمرت أن اخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكا وان الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمدا بان يقول لهم هذه الدلائل التى ذكرتها لكم ان لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد أفادت لى ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها فانى مصر عليها غير مرتاب فيها ثم انه وصف الله تعالى بأمرين (أحدهما) انه رب هذه البلدة والمراد مكة وانما اختصها من بين سائر البلاد باضافة اسمه اليها لانها أحب بلاده اليه وأكرمها عليه وأشار اليها اشارة تعظيم لها دالا على انها موطن نبيه ومهبط وحيه أما قوله الذى حرمها فقرئ التى حرمها وانما وصفها بالتحريم لوجوه (أحدها) انه حرم فيها أشياء على من يحج (وثانيها) أن اللاجئ اليها آمن (وثالثها) لا ينتهك حرمتها الا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وانما ذكر ذلك لان العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا ان تلك الفضيلة ليست من الاصنام بل من الله تعالى فكأنه قال لما علمت وعلمتم انه سبحانه هو المتولى لهذه النعم وجب على أن أخصه بالعبادة (وثانيهما) وصف الله تعالى بقوله وله كل شئ وهذا اشارة الى ما تقدم من الدلائل المذكورة فى هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقا لجميع النعم فاجمل ههنا تلك المفصلات وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول ان كل العالم له وكل الناس فى طاعته (الثانى) أمر بان يكون من المسلمين (الثالث) أمر بان يتلو القرآن عليهم لقد قام بكل ذلك صلوات الله عليه أتم قيام فمن اهتدى فى هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهى التوحيد والحشر والنبوة فانما يهتدى لنفسه أى منفعة اهتدائه راجعة اليه ومن ضل فلا على وما أنا الا رسول منذر ثم انه سبحانه ختم هذه الخاتمة فى نهاية الحسن وهى قوله وقل الحمد لله على ما اعطانى من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقنى من القيام باداء الرسالة وبالانذار سيريكم آياته القاهرة فتعرفونها لكن حين لا ينفعكم الايمان وما ربك بغافل عما تعملون لانه من وراء جزاء العاملين ❁ والله أعلم ❁ تم تفسير السورة والحمد لله رب العالمين ❁ وصلاته على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ❁ والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

(سورة القصص مكية كلها الا قوله الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله لا نبتغى الجاهلين وقيل الا آية وهى ان الذى فرض عليك القرآن الآية وهى سبع أو ثمان وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قيل انه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير الى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها فنزل ليتغدى ويصلى فلم يجد الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الارض كما يرى الماء فى الزجاجة فيجئ الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان عليه السلام وما سخر له من كل شئ وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع الا بعد العصر وذلك قوله تعالى (فمكث غير بعيد) أى زمانا غير مديد وقرئ بضم الكاف وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان عليه السلام فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال بحق الله الذى قواك وأقدرك على الا رحمتنى فتركته وقالت ثكلتك أمك ان نبى الله قد حلف ليعذبنك قال وما استثنى قالت بلى قال أو ليأتينى بعذر مبين فلما قرب من سليمان عليه السلام أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الارض تواضعا له فلما دنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمده اليه فقال يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) اعلم ان قوله تعالى طسم كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها وتلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اما اللوح واما الكتاب الذى وعد الله انزاله على محمد صلى الله عليه وسلم فبين أن آيات هذه السورة هي آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه مبين لانه بين فيه الحلال والحرام أولانه بين بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد أولانه بين صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أولانه يبين خبر الاولين والآخرين أولانه بين كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال أما قوله تعالى نتلوا عليك أى على لسان جبريل عليه السلام لانه كان يتلو على محمد حتى يحفظه وقوله من نبإ موسى وفرعون فهو مفعول نتلوا عليك أى نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محقين كقوله تنبت بالدهن وقوله لقوم يؤمنون فيه وجهان (أحدهما) انه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضا لكنه خص المؤمنين بالذكر لانهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله هدى للمتقين (والثانى) يحتمل انه تعالى علم أن الصلاح في تلاوته هو ايمانهم وتكون ارادته لمن لا يؤمن كالتبع قوله تعالى ان فرعون علا في الارض قرئ فرعون بضم الفاء وكسرها والكسر أحسن وهو كالقسطاس والقسطاس علا استكبر وتجبر وتعظم وبغى والمراد به قوة الملك والعلو في الارض يعنى أرض مملكته ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله وجعل أهلها شيعا أى فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم مخالفته أو يشيع بعضهم بعضا في استخدامه أو اصنافا في استخدامه أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له اطوع أو المراد ما فسره بقوله يستضعف طائفة منهم أى يستخدمهم ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فهذا هو المراد بالشيع ❁ قوله يستضعف طائفة منهم تلك الطائفة بنو اسرائيل وفى سبب ذبح الابناء وجوه (أحدها) ان كاهنا قال له يولد مولود في بنى اسرائيل في ليلة كذا يذهب ملكك على يده فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وعند أكثر المفسرين بقى هذا العذاب في بنى اسرائيل سنين كثيرة قال وهب قتل القبط في طلب موسى عليه السلام تسعين ألفا من بنى اسرائيل قال بعضهم في هذا دليل على حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فما وجه القتل وهذا السؤال قد يذكر في تزييف علم الاحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف ان كان زيد في علم الله وفى قضائه من السعداء فلا حاجة الى الطاعة وان كان من الاشقياء فلا فائدة في الطاعة وأيضا فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته وأيضا فجواب المنجم ان

النجوم ·

تعالى فارتعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم سأله (فقال احطت بما لم تحط به) اى علما ومعرفة وحفظته من جميع جهاته وقرئ أحطت بادغام الطاء في التاء باطباق و بغير اطباق ولا خفاء في أنه لم يرد بما ادعى الاحاطة به ماهو من حقائق العلوم ودقائق المعارف التى تكون معرفتها والاحاطة بها من وظائف أرباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين حتى يكون اثباتها لنفسه بين يدى نبي الله سليمان عليه السلام تعديا عن طوره وتجاوزا عن دائرة قدره ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام جناية على جنابه فيحتاج الى الاعتذار عنه بأن ذلك كان منه بطريق الالهام فكافحه عليه الصلاة والسلام بذلك مع ما أوتى عليه الصلاة والسلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له عليه الصلاة والسلام في علمه وتنبيها على أن في أدنى خلقه تعالى وأضعفهم من أحاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه ويكون لطفا له في ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء بل أراد به ماهو من الامور المحسوسة التى لا تعد الاحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف ادراكها الا على مجرد احساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشاهده ولم يسمع خبره من غيره قطعا فعبر عنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه الصلاة والسلام وترغيبه في الاصغاء الى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل والى تلقي مالا تعلمه أميل ثم أيده بقوله (وجئتك من سبا بنبا يقين) حيث فسر ابهامه نوع تفسير وأراه عليه الصلاة والسلام أنه

النجوم دلت على انه يولد ولد لولم يقتل لصار كذا وكذا وعلى هذا التقدير لا يكون السعى في قتله عبثا واعلم ان هذا الوجه ضعيف لان اسناد مثل هذا الخبر الى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل ولو جوزناه لبطلت دلالة الاخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو باجماع المسلمين باطل (وثانيها) وهو قول السدى ان فرعون رأى في منامه ان نارا أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بنى اسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو اسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر فأمر بقتل الذكور (وثالثها) ان الانبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بنى اسرائيل وهذا الوجه هو الاولى بالقبول قال صاحب الكشاف يستضعف حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستأنف ويذبح بدل من يستضعف وقوله انه كان من المفسدين يدل على ان ذلك القتل ما حصل منه الا الفساد وانه لا أثر له في دفع قضاء الله تعالى اما قوله ونريد أن نمن فهو جملة معطوفة على قوله ان فرعون علا في الارض لانها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرا لنبإ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصا له واللفظ في قوله ونريد للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالا من يستضعف أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم فان قيل كيف يجتمع استضعافهم وارادة الله تعالى المن عليهم واذا أراد الله شيأ كان ولم يتوقف الى وقت آخر قلنا لما كانت منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت ارادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم أما قوله ونجعلهم أئمة أى متقدمين في الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة الى الخير وعن قتادة ولاة كقوله وجعلكم ملوكا ونجعلهم الوارثين يعنى لملك فرعون وأرضه وما في يده اما قوله ونمكن لهم في الارض فاعلم انه يقال مكن له اذا جعل له مكانا يقعد عليه فوطأه ومهده ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم في الارض وهى أرض مصر والشام ان ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم وقوله ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون قرئ ويرى فرعون وهامان وجنودهما أى يرون منهم ما كانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بنى اسرائيل ۞ قوله تعالى (وأوحينا الى ام موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون) اعلم انه تعالى لما قال ونريد أن نمن على الذين استضعفوا أتبع ذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله وأوحينا الى ام موسى والكلام في هذا الوحى ذكرناه في سورة طه في قوله ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى وقوله أن أرضعيه

كان بصدد اقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبا الذى هو الخبر الخطير والشان الكبير ووصفه بما وصفه والانبا اذا صدر عنه عليه الصلاة والسلام مع ما حكى عنه ما حكى من الجد والشكر واستدعاء الايزاع حتى يليق بالحكمة الالهية تنبيه عليه الصلاة والسلام على تركه وسبأ منصرف على أنه اسم لحي سموا باسم أبيهم الاكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه أول من سبى وقرئ بفتح الهمزة غير منصرف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث وعلى هذه القراءة يجوز أن يراد به القبيلة والمدينة وأما على القراءة الاولى فالمراد هو الحي لا غير وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل انباء الهدهد ليس بامر بديع لابد له من حكمة داعية اليه البتة وان استحال خلو أفعاله تعالى من الحكم والمصالح لما أن المسافة بين محطه عليه الصلاة والسلام وبين مأرب وان كانت قصيرة لكن مدة ما بين نزوله عليه الصلاة والسلام هنالك وبين مجىء الهدهد بالخبر أيضا قصيرة نعم اختصاص الهدهد بذلك مع كون الجن أقوى منه مبنى على حكم بالغة يستأثر بها علام الغيوب وقوله تعالى (انى وجدت امرأة تملكهم) استئناف لبيان ما جاء به من النبا وتفصيل له اثر الاجمال وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها اورث الملك من أربعين أبا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الامة وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس وايثار وجدت على رأيت لما أشير اليه من الايذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه الصلاة والسلام بابراز

نفسه فى معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبأ على
أنه اسم الحى أو لأهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنه اسم لها (وأوتيت من كل شئ) اى من الاشياء التى ٥٨٨

يحتاج اليها الملوك (ولها عرش عظيم) قيل كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضا وسمكا وقيل ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام اما بالنسبة الى حالها أو الى عروش أمثالها من الملوك وقد يجوز أن لا يكون لسليمان عليه السلام مثله وأياما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه الصلاة والسلام لما مر من ترغيبه عليه الصلاة والسلام فى الاصغاء الى حديثه وتوجيه عزيمته عليه الصلاة والسلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التى هى عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصى (فصدهم) بسبب ذلك (عن السبيل) اى سبيل الحق والصواب فان تزيين أعمالهم لا يتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم ومن ضرورته نسبة طريق الحق الى العوج (فهم)
بسبب ذلك (لا يهتدون) اليه وقوله تعالى (ألا يسجدوا لله) مفعول له اما للصد أو للتزيين على حذف

كالدلالة على انها أرضعته وليس فى القرآن حد ذلك فاذا خفت عليه أن يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء فألقيه فى اليم قال ابن جريج ان بعد أربعة أشهر صاح فألقى فى اليم والمراد باليم ههنا النيل ولا تخافى ولا تحزنى والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله فى المستقبل والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل فى الماضى فكأنه قيل ولا تخافى من هلاكه ولا تحزنى بسبب فراقه فانا رادوه اليك لتكونى أنت المرضعة له وجاعلوه من المرسلين الى أهل مصر والشام وقصة الالقاء فى اليم قد تقدمت فى سورة طه وقال ابن عباس ان أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لام موسى عليه السلام فلما حست بالطلق أرسلت اليها وقالت لها قد نزل بى ما نزل ولينفعنى اليوم حبك اياى فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام الى الارض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت يا هذه ما جئتك الا لقتل مولودك ولكنى وجدت لابنك هذا حبا شديدا فاحتفظى بابنك فانى أراه عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء الى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس فلفته ووضعته فى تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع فدخلوا فاذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا لم دخلت القابلة عليك قالت انها حبيبة لى دخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع اليها عقلها فقالت لاخت موسى أين الصبى قالت لا أدرى فسمعت بكاء فى التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فأخذته ثم ان أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله فى قلبها أن تتخذ له تابوتا ثم تقذف التابوت فى النيل فذهبت الى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتا فقال لها ما تصنعين به فقالت ابن لى أخشى عليه كيد فرعون اخبؤه فيه وما عرفت انه يفشى ذلك الخبر فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه فجعل لله تعالى انه ان رد عليه بصره ولسانه فانه لا يدلهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى وألقته فى النيل وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها الى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الاطباء والسحرة فى أمرها فقالوا أيها الملك لا تبرأ هذه الا من قبل البحر يوجد منه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا فى شهر كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون الى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على الشاطئ اذ أقبل

النيل

اللام منه أى فصدهم لأن لا يسجدوا لله تعالى أو زين لهم أعمالهم ٥٨٩ لأن لا يسجدوا أو بدل على حاله من أعمالهم وما
بينهما اعتراض أى زين لهم أن لا يسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدون باسقاط الخافض ولا مزيدة كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والمعنى فهم لا يهتدون الى أن يسجدوا لله تعالى وقرئ الا يا اسجدوا على التنبيه والنداء والمنادى محذوف اى ألا يا قوم اسجدوا كما فى قوله

الا يا اسلمى يا دارمى على البلى

ونظائره وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام ويوقف على لا يهتدون ويكون أمرا بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذما على تركه وأياما كان فالسجود واجب وقرئ هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرئ هلا تسجدون بمعنى الا تسجدون على الخطاب (الذى يخرج الخبء فى السموات والارض) أى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما كائنا ما كان وتخصيص هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرده تعالى باستحقاق السجود له من بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لما أنه أرسخ فى معرفته والاحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التى من جملتها ما أودعه الله تعالى فى نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الارض وأشار بعطف قوله
(ويعلم ما تخفون وما تعلنون) على يخرج الى أنه تعالى يخرج ما فى العالم الانسانى من الخفايا كما يخرج ما فى العالم

النيل بتابوت تضربه الامواج وتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فنظرت آسية فرأت نورا فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته وفتحته فاذا هى بصبى صغير فى المهد واذا نور بين عينيه فألقى الله محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن ان هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر فرقا منك فهم فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله اما قوله فالتقطه آل فرعون فالالتقاط اصابة الشئ من غير طلب والمراد بآل فرعون جواريه اما قوله ليكون لهم عدوا وحزنا فالمشهور ان هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا والا نقض قوله وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك ونقض قوله وألقيت عليك محبة منى ونظير هذه اللام قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم وقول الشاعر • لدوا للموت وابنوا للخراب • واعلم أن التحقيق ماذكره صاحب الكشاف وهو ان هذه اللام هى لام التعليل على سبيل المجاز وذلك لان مقصود الشئ وغرضه يؤل اليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤل اليه الشئ على سبيل التشبيه كاطلاق لفظ الاسد على الشجاع والبليد على الحمار قرأ حمزة والكسائى حزنا بضم الحاء وسكون الزاى والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السقم والسقم اما قوله كانوا خاطئين ففيه وجهان (أحدهما) قال الحسن معنى كانوا خاطئين ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون انه الذى يذهب بملكهم وأما جمهور المفسرين فقالوا معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ خاطين بتخفيف خاطئين أى خاطين الصواب الى الخطا وبين تعالى انها التقطته ليكون قرة عين لها ولهما جميعا قال ابن اسحق ان الله تعالى ألقى محبته فى قلبها لانه كان فى وجهه ملاحة كل من رآه أحبه ولانها حين فتحت التابوت رأت النور ولانها لما فتحت التابوت رأته يمتص أصبعه ولان ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال ما كان لها ولد فأحبته قال ابن عباس لما قالت قرة عين لى ولك فقال فرعون يكون لك وأما أنا فلا حاجة لى فيه فقال عليه السلام والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها قال صاحب الكشاف قرة عين خبر مبتدا محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدأ ولا تقتلوه خبرا ولو نصب لكان أقوى وقراءة ابن مسعود دليل على انه خبر قرأ لا تقتلوه قرة عين لى ولك وذلك لتقديم لا تقتلوه ثم قالت المرأة عسى أن ينفعنا فنصيب منه خيرا أو نتخذه ولدا لانه أهل للتبنى أما قوله وهم لا يشعرون فأكثر المفسرين على انه ابتداء كلام من الله تعالى أى لا يشعرون ان هلاكهم بسببه وعلى يده وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل وقال ابن عباس يريد لا يشعرون الى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام وقال آخرون

هذا من تمام كلام المرأة أى لا يشعر بنو اسرائيل وأهل مصر انا التقطناه وهذا قول الكلبي ﴿ قوله تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون) ذكروا فى قوله فؤاد أم موسى فارغا وجوها (أحدها) قال الحسن فارغا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام (وثانيها) قال أبو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والاشفاق كقوله وأفئدتهم هواء (وثالثها) قال صاحب الكشاف فارغا صفرا من العقل والمعنى انها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف (ورابعها) قال الحسن ومحمد بن اسحق فارغا من الوحى الذى أوحينا اليها أن ألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك فجاءها الشيطان فقال لها كرهت ان يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت اهلاكه ولما أتاها خبر موسى عليه السلام انه وقع فى يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله اليها (وخامسها) قال أبو عبيدة فارغا من الحزن لعلمها بانه لا يقتل اعتمادا على تكفل الله بمصلحته قال ابن قتيبة وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغا من الحزن والله تعالى يقول لولا أن ربطنا على قلبها وهل يربط الا على قلب الجازع المحزون ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يمتنع انها لشدة ثقتها بوعد الله لم تخف عند اظهار اسمه وأيقنت انها وان أظهرت فانه يسلم لاجل ذلك الوعد الا انه كان فى المعلوم ان الاظهار يضر فربط الله على قلبها ويحتمل قوله ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها بالوحى فأمنت وزال عن قلبها الحزن فعلى هذا الوجه يصح ان يتأول على أن قلبها سلم من الحزن على موسى أصلا وفيه وجه ثالث وهو انها لما سمعت أن امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته ان كادت لتبدى به بأنه ولدها لانها لم تملك نفسها فرحا بما سمعت لولا انا سكنا ما بها من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله تعالى لا بتبنى امرأة فرعون اللعين وبعطفها وقرئ فرغا أى خاليا من قولهم أعوذ بالله من صفر الاناء وفرغ الفناء وفرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أى هدر يعنى بطل قلبها من شدة ما ورد عليها أما قوله ان كادت لتبدى به فاعلم ان على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن فقد ذكرنا تفسير قوله ان كادت لتبدى وأما على قول من فسر الفراغ بحصول الخوف فذكروا وجوها (أحدها) قال ابن عباس كادت تخبر بأن الذى وجدتموه ابنى وقال فى رواية عكرمة كادت تقول وا ابناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع وقال الكلبى ذلك حين سمعت الناس يقولون انه ابن فرعون وقال السدى لما أخذ ابنها كادت تقول هو ابنى فعصمها الله تعالى ثم قال لولا أن ربطنا على قلبها بالهام الصبر كما يربط على الشئ المنفلت ليستقر ويطمئن لتكون من المؤمنين المصدقين بوعد الله وهو قوله انا رادوه اليك أما قوله وقالت لاخته قصيه أى اتبعى أثره وانظرى الى أين وقع والى من صار وكانت أخته لابيه وأمه واسمها مريم فبصرت به قال ابن عباس رضى الله

عنهما

الكبير من الخبايا لما أن المراد يظهر ما تخفونه من الاحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة الى العلم الالهى وقرئ ما يخفون وما يعلنون على صيغة الغيبة بلا التفات واخراج الخبء يعم اشراق الكواكب واظهارها من آفاقها بعد استتارها وراءها وانزال الامطار وانبات النبات بل الانشاء الذى هو اخراج ما فى الشئ بالقوة الى الفعل والابداع الذى هو اخراج ما فى الامكان والعدم الى الوجود وغير ذلك من غيوبه عز وجل وقرئ الخب بتخفيف الهمزة بالحذف وقرئ الخبا بتخفيفها بالقلب وقرئ الا تسجدون لله الذى يخرج الخبء من السماء والارض ويعلم سركم وما تعلنون (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) الذى هو أول الاجرام وأعظمها وقرئ العظيم بالرفع على أنه صفة الرب واعلم أن ما حكى من الهدهد من قوله الذى يخرج الخبء الى هنا ليس داخلا تحت قوله احطت بما لم تحط به وانما هو من العلوم والمعارف التى اقتبسها من سليمان عليه السلام أورده بيانا لما هو عليه واظهارا لتصلبه فى الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه الصلاة والسلام نحو قبول كلامه وصرف عنان عزيمته عليه السلام الى غزوها وتسخير ولايتها (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية كلام

عنهما أبصرته قال المبرد أبصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله عن جنب أى عن بعد وقرئ عن جانب وعن جنب والجنب الجانب اى نظرت نظرة من ورة متجانبة وهم لا يشعرون بحالها وغرضها ﴿ قوله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) اعلم ان قوله وحرمنا عليه المراضع من قبل يقتضى تحريما من قبله فاذا لم يصح بالتعبد والنهى لتعذر التمييز فلا بد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل انه تعالى مع حاجته الى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرضع أو أحدث فى لبنهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع فى لبن أمه لذة لما تعوده فلا جرم كان يكره لبن غيرها وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أى الثدى أو الرضاع وقوله من قبل أى من قبل ان رددناه الى أمه ومن قبل مجىء أخت موسى عليه السلام ومن قبل ولادته فى حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته هل أدلكم على اهل بيت يكفلونه لكم اى يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه فى تربيته واغذائه ولا يخونونكم فيه والنصح اخلاص العمل من شائبة الفساد وقال السدى انها لما قالت وهم له ناصحون دل ظاهر ذلك على ان اهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على اهله فقالت ما اعرفه ولكنى انما قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه وكل ما روى فى هذا الباب يدل على ان فرعون كان بمنزلة آسية فى شدة محبته لموسى عليه السلام لا على ما قال من زعم انها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى فرددناه الى امه بهذا الضرب من اللطف كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق اى فيما كان وعدها من انه يرده اليها ولقد كانت عالمة بذلك ولكن ليس الخبر كالعيان فتحققت بوجود الموعود ولكن اكثرهم لا يعلمون فيه وجوه اربعة (احدها) ولكن اكثر الناس فى ذلك العهد وبعده لا يعلمون لاعراضهم عن النظر فى آيات الله (وثانيها) قال الضحاك ومقاتل يعنى اهل مصر لا يعلمون ان الله وعدها برده اليها (وثالثها) هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغا (ورابعها) ان يكون المعنى انا انما رددناه اليها لتعلم ان وعد الله حق والمقصود الاصلى من ذلك الرد هذا الغرض الدينى ولكن الاكثر لا يعلمون ان هذا هو الغرض الاصلى وان ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان انك لامه قالت لا قال فما بالك قبل ثديك من بين النسوة قالت ايها الملك انى امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحى صبى الا اقبل على ثديى قالوا صدقت فلم يبق احد من آل فرعون الا اهدى اليها واتحفها بالذهب والجواهر ﴿ قوله

الهدهد كأنه قيل فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك فقيل قال (سننظر) اى فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد أى سنتعرف بالتجربة البتة (أصدقت أم كنت من الكاذبين) كان مقتضى الظاهر أم كذبت وايثار ما عليه النظم الكريم للايذان بأن كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فان مساق هذه الاقاويل الملفقة على ترتيب انيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلا لاسيما بين يدى نبى عظيم الشان لا يكاد يصدر الا عمن له قدم راسخ فى الكذب والافك وقوله تعالى (اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم) استئناف مبين لكيفية النظر الذى وعده عليه الصلاة والسلام وقد قاله عليه الصلاة والسلام بعدما كتب كتابه فى ذلك المجلس او بعده وتخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الاقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة ولئلا يبقى له عذر أصلا (ثم تول عنهم) أى تنح الى مكان قريب تتوارى فيه (فانظر) أى تأمل وتعرف (ماذا يرجعون) أى ماذا يرجع بعضهم الى بعض من القول وجمع الضمائر لما أن مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل الى الاسلام (قالت) أى بعد ما ذهب الهدهد بالكتاب فألقاه اليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به

تعالى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) اعلم أن فى قوله بلغ أشده واستوى قولين (أحدهما) انهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية (والثانى) وهو الاصح انهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) وهو الاقرب ان الاشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية (وثانيها) الاشد عبارة عن كمال القوة والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة (وثالثها) الاشد عبارة عن البلوغ والاستواء عبارة عن كمال الخلقة (ورابعها) قال ابن عباس الاشد ما بين الثمانية عشر سنة الى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة الى الاربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان ومن الاربعين يأخذ فى النقصان وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما حق لان الانسان يكون فى أول العمر فى النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان ثم يأخذ فى الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر الى العشرين ومن العشرين الى الثلاثين يكون التزايد قليلا والقوة قوية جدا ثم من الثلاثين الى الاربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الاربعين الى الستين يأخذ فى الانتقاص الخفى ومن الستين الى آخر العمر يأخذ فى الانتقاص البين الظاهر و يروى انه لم يبعث نبى الا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة لان الانسان يكون الى رأس الاربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الانسان منجذبا اليها فاذا انتهى الى الاربعين أخذت القوى الجسمانية فى الانتقاص والقوة العقلية فى الازدياد فهنالك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى واحد الاشد قال الفراء الاشد واحدها شد فى القياس ولم يسمع لها بواحد وقال أبو الهيثم واحدة الاشد شدة كما ان واحدة الانعم نعمة والشدة القوة والجلادة أما قوله آتيناه حكما وعلما ففيه وجهان (الاول) انها النبوة وما يقترن بها من العلوم والاخلاق وعلى هذا التقدير ليس فى الآية دليل على ان هذه النبوة كانت قبل قتل القبطى أو بعده لان الواو فى قوله ودخل المدينة لا تفيد الترتيب (الثانى) آتيناه الحكمة والعلم قال تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وهذا القول أولى لوجوه (أحدها) ان النبوة أعلى الدرجات البشرية فلا بد وان تكون مسبوقة بالكمال فى العلم والسيرة المرضية التى هى أخلاق الكبراء والحكماء (وثانيها) ان قوله وكذلك نجزى المحسنين يدل على انه انما أعطاه الحكم والعلم مجازاة على احسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل (وثالثها) ان المراد بالحكم والعلم لو كان هو

به لغاية ظهوره روى أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه الى الهدهد فوجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع الحميرى كما مر فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فعند ذلك قالت لاشراف قومها (يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) وصفته بالكرم لكرم مضمونه او لكونه من عند ملك كريم او لكونه مختوما او لغرابة شأنه ووصوله اليها على منهاج غير معتاد (انه من سليمان) استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه فقالت انه من سليمان (وانه) اى مضمونه أو المكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) وفيه اشارة الى سبب وصفها اياه بالكرم وقرئ أنه وأنه بالفتح على حذف اللام كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وبكونه مصدرا باسم الله تعالى وقيل على انه بدل من كتاب

النبوة لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله وكذلك نجزى المحسنين لان قوله وكذلك اشارة الى ما تقدم ذكره من الحكم والعلم ثم بين انعامه عليه قبل قتل القبطى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المدينة فالجمهور على انها هى المدينة التى كان يسكنها فرعون وهى قرية على رأس فرسخين من مصر وقال الضحاك هى عين شمس (المسئلة الثانية) اختلفوا فى معنى قوله على حين غفلة من أهلها على اقوال (فالقول الاول) ان موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم فى دينه ودين آبائه علم ان فرعون وقومه على الباطل فتكلم بالحق وعاب دينهم واشتهر ذلك منه حتى آل الامر الى ان أخافوه وخافهم وكان له من بنى اسرائيل شيعة يقتدون به ويسمعون منه و بلغ فى الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون الا خائفا فدخلها يوما على حين غفلة من أهلها ثم الاكثرون على انه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والاول أولى لانه تعالى أضاف الغفلة الى أهلها واذا دخل المرء مستترا لاجل خوف لا تضاف الغفلة الى القوم (القول الثانى) قال السدى ان موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون و يلبس مثل ما يلبس ويدعى موسى ابن فرعون فركب يوما فى أثره فأدركه المقيل فى موضع فدخلها نصف النهار وقد خلت الطرق فهو قوله على حين غفلة (القول الثالث) قال ابن زيد ليس المراد من قوله على حين غفلة من أهلها حصول الغفلة فى تلك الساعة بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره فان موسى حين كان صغيرا ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته فاراد فرعون قتله فجئ بجمر فأخذه وطرحه فى فيه فمنه عقدة لسانه فقال فرعون لا أقتله ولكن أخرجوه عن الدار والبلد فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر والقوم نسوا ذكره وذلك قوله على حين غفلة ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الروايات على بعض لانه ليس فى القرآن ما يدل على شئ منها اه (المسئلة الثالثة) قال تعالى فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه قال الزجاج قال هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية أى وجد فيها رجلين يقتتلان اذا نظر الناظر اليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ثم اختلفوا فقال مقاتل الرجلان كانا كافرين الا أن أحدهما من بنى اسرائيل والآخر من القبط واحتج عليه بأن موسى عليه السلام قال له فى اليوم الثانى انك لغوى مبين والمشهور أن الذى من شيعته كان مسلما لانه لا يقال فيمن يخالف الرجل فى دينه وطريقه انه من شيعته وقيل ان القبطى الذى سخر الاسرائيلى كان طباخ فرعون استسخره لحمل الحطب الى مطبخه وقيل الرجلان المقتتلان أحدهما السامرى وهو الذى من شيعته والآخر طباخ فرعون والله أعلم بكيفية الحال فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه أى سأله أن يخلصه منه واستنصره عليه فوكزه موسى عليه السلام الوكز الدفع بأطراف الاصابع وقيل بجمع الكف وقرأ ابن مسعود فلكزه موسى وقال بعضهم الوكز فى

كتاب أو خبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام اى مضمونه ان لا تعلوا أو النصب باسقاط الخافض اى بأن لا تعلوا على وقرئ ان لا تغلوا بالغين المعجمة اى لا تتجاوزوا حدكم (وائتونى مسلمين) اى مؤمنين وقيل منقادين والاول هو الاليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام على أن الايمان مستتبع للانقياد حتما روى أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان ابن داود الى بلقيس ملكة سبا السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وائتونى مسلمين وليس الامر فيه بالاسلام قبل اقامة الحجة على رسالته حتى يتوهم كونه استدعاء للتقليد فان القاء الكتاب اليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على رسالة مرسلها دلالة بينة (قالت) كررت حكاية قولها للايذان بغاية اعتنائها بما فى حيزه من قولها (يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى) اى أجيبونى فى أمرى الذى حزبنى وذكرت لكم خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى الحوادث المشكلة غالبا تهويلا للامر ورفعا لمحلهم بالاشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة وقولها (ما كنت قاطعة أمرا) اى من الامور المتعلقة بالملك (حتى تشهدون)

 اى الا بمحضركم و بموجب آرائكم استعطاف لهم واستمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى

والتدبير (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولها كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا (نحن أولو قوة) فى الاجساد والآلات والعدد (وأولو بأس شديد) اى نجدة وشجاعة مفرطة وبلاء فى الحرب (والامر اليك) اى هوموكول اليك (فانظرى ماذا تامرين) ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نمتثل به ونتبع رأيك أوأرادوا نحن من أبناء الحرب لامن أبناء الرأى والمشورة واليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما أحست منهم الميل الى الحراب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام وذلك قوله تعالى (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) من القرى على منهاج المقاتلة والحراب (أفسدوها) بتخريب عماراتها واتلاف مافيها من الاموال (وجعلوا اعزة أهلها اذلة) بالقتل والاسر والاجلاء وغير ذلك من فنون الاهانة والاذلال (وكذلك يفعلون) تأكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلى وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا اثر قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى (وانى مرسلة اليهم بهدية) تقرير لرأيها بعدما زيفت آراءهم وأتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للايذان بأنها مزمعة على رأيها لايلويها عنه صارف الاولى

الصدر واللكز فى الظهر وكان عليه السلام شديد البطش وقال بعض المفسرين فوكزه بعصاه قال المفضل هذا غلط لانه لايقال وكزه بالعصا فقضى عليه أى أماته وقتله (المسئلة الرابعة) احتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (أحدها) ان ذلك القبطى اما ان يقال انه كان مستحق القتل أولم يكن كذلك فان كان الاول فلم قال هذا من عمل الشيطان ولم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله ولم قال فى سورة أخرى فعلتها اذا وأنا من الضالين وان كان الثانى وهوان ذلك القبطى لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنبا (وثانيها) ان قوله وهذا من عدوه يدل على انه كان كافرا حربيا فكان دمه مباحا فلم استغفر عنه والاستغفار عن الفعل المباح غيرجائز لانه يوهم فى المباح كونه حراما (وثالثها) ان الوكز لايقصد به القتل ظاهرا فكان ذلك القتل قتل خطا فلم استغفر منه والجواب عن الاول لم لايجوز أن يقال انه كان لكفره مباح الدم اماقوله هذا من عمل الشيطان ففيه وجوه (أحدها) لعل الله تعالى وان أباح قتل الكافر الا انه قال الاولى تأخيرقتلهم الى زمان آخر فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله هذا من عمل الشيطان معناه اقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان (وثانيها) ان قوله هذا اشارة الى عمل المقتول لاالى عمل نفسه فقوله هذا من عمل الشيطان أى عمل هذا المقتول من عمل الشيطان المراد منه بيان كونه مخالفا لله تعالى مستحقا للقتل (وثالثها) ان يكون قوله هذا اشارة الى المقتول يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه يقال فلان من عمل الشيطان أى من أحزابه اما قوله رب أنى ظلمت نفسى فاغفرلى فعلى نهج قول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا والمراد أحد وجهين اما على سبيل الانقطاع الى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك ذنب قط أومن حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب أماقوله فاغفرلى أى فاغفرلى ترك هذا المندوب وفيه وجه آخر وهوان يكون المراد رب انى ظلمت نفسى حيث قتلت هذا الملعون فان فرعون لوعرف ذلك اقتلنى به فاغفرلى أى فاستره على ولاتوصل خبره الى فرعون فغفرله أى ستره عن الوصول الى فرعون ويدل على هذا التأويل انه على عقبه قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولو كانت اعانة المؤمن ههنا سببا للمعصية لما قال ذلك وأما قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين فلم يقل انى صرت بذلك ضالا ولكن فرعون لما ادعى انه كان كافرا فى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرا فى ذلك الوقت واعترف بأنه كان ضالا أى متحيرا لايدرى مايجب عليه أن يفعله ومايدبر به فى ذلك أماقوله ان كان كافرا حربيا فلم استغفر من قتله قلنا كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراما فى ذلك الوقت أوان كان مباحا لكن الاولى تركه على ماقررناه قوله ذلك القتل كان قتل خطا قلنا لانسلم فلعل الرجل كان ضعيفا وموسى عليه السلام كان فى نهاية الشدة فوكزه كان قاتلا قطعا ثم ان سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الاسرائيلى من يده بدون ذلك الوكز الذى كان

ولاينثنيها عاطف اى وانى مرسلة اليهم رسلا بهدية عظيمة (فناظرة بم يرجع المرسلون) حتى أعمل بما يقتضيه الحال روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن الاساور والاطواق والقرطة راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلا من أشراف قومها المنذر بن عمرو وآخر ذارأى وعقل وقالت ان كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر ان نظر اليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وان رأيته بشا لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفاته من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والانس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت اليهم نفوسهم ورموا بما معهم

الاولى تركه فلهذا أقدم على الاستغفار على أنا وان سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لادليل البتة على انه كان رسولا فى ذلك الوقت فيكون ذلك صادرا منه قبل النبوة وذلك لانزاع فيه (المسئلة الخامسة) قالت المعتزلة الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصى الى الله تعالى لانه عليه السلام قال هذا من عمل الشيطان فنسب المعصية الى الشيطان فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لامن الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى وقول صاحب موسى عليه السلام وما أنسانيه الا الشيطان وقوله تعالى لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة اماقوله رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ففيه وجوه (أحدها) ان ظاهره يدل على انه قال انك لما أنعمت على بهذا الانعام فانى لاأكون معاونا لاحد من المجرمين بل أكون معاونا للمسلمين وهذا يدل على ان ما أقدم عليه من اعانة الاسرائيلى على القبطى كان طاعة لامعصية اذلو كانت معصية لنزل الكلام منزلة ما اذا قيل انك لما أنعمت على بقبول توبتى عن تلك المعصية فانى أكون مواظبا على مثل تلك المعصية (وثانيها) قال القفال كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لايظاهر مجرما والباء للقسم أى بنعمتك على (وثالثها) قال الكسائى والفراء انه خبر ومعناه الدعاء كأنه قال فلا تجعلنى ظهيرا قال الفراء وفى حرف عبد الله فلا تجعلنى ظهيرا واعلم أن فى الآية دلالة على انه لايجوز معاونة الظلمة والفسقة وقال ابن عباس لم يستثن ولم يقل فلن أكون ظهيرا ان شاء الله فابتلى به فى اليوم الثانى وهذا ضعيف لانه فى اليوم الثانى ترك الاعانة وانما خاف منه ذلك العدو فقال ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض لانه وقع منه ﴿ قوله تعالى (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين فلما ان اراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض وما تريد أن تكون من المصلحين وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين) اعلم ان عند موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفا من أن يظهر انه هو القاتل فيطلب به وخرج على استتار فاذا الذى استنصره وهو الاسرائيلى بالامس يستصرخه يطلب نصرته بصياح وصراخ قال له موسى انك لغوى مبين قال أهل اللغة الغوى يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعل أى انك لمغوية وانى فانى وقعت بالامس فيما وقعت فيه بسببك ويجوز أن يكون بمعنى الغاوى واحتج به من قدح فى عصمة الانبياء عليهم السلام فقال كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه انك لغوى مبين والجواب من وجهين (الاول) ان قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظا جفاة ألاترى الى قولهم بعد مشاهدة الآيات اجعل لنا الها كما لهم آلهة فالمراد بالغوى المبين

ولما وقفوا بين يديه نظر اليهم بوجه طلق وقال ماوراءكم وقال أين الحق وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه
فقال لهم ان فيه كذا وكذا ثم آمر بالارضة فأخذت شعرة ونفذت فى الدرة فجعل رزقها فى الشجرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فى الجزعة فجعل رزقها فى الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الاخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله تعالى (فلما جاء سليمان) اى الرسول (قال) اى مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب وقيل للرسول ومن معه ويؤيده انه قرئ فلما جاؤا والاول أولى لما فيه من تشديد الانكار والتوبيخ وتعميمهما لبلقيس وقومها ويؤيده الافراد فى قوله تعالى ارجع اليهم (أتمدونن بمال) وهو انكار لامدادهم اياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شانه وسعة سلطانه وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتحقير وقوله تعالى (فما آتانى الله) اى مما رأيتم آثاره من النبوة والملك الذى لا غاية وراءه (خير مما آتاكم) اى من المال الذى من جملته ماجئتم به فلا حاجة لى الى هديتكم ولا وقع لها عندى تعليل للانكار ولعله عليه الصلاة والسلام انما قال لهم هذه المقالة الى آخرها بعدما جرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحق وغيرها كما أشير اليه لا أنه عليه الصلاة والسلام خاطبهم بها أول ما جاؤه كما يفهم من ظاهر قوله تعالى فلما

ذلك (الثانى) انه عليه السلام انما سماه غويا لان من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد واختلفوا فى قوله تعالى قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا أهو من كلام الاسرائيلى أو القبطى فقال بعضهم لما خاطب موسى الاسرائيلى بأنه غوى ورآه على غضب ظن لما هم بالبطش أنه يريده فقال هذا القول وزعموا انه لم يعرف قتله بالامس للرجل الا هو وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف وقال آخرون بل هو قول القبطى وقد كان عرف القصة من الاسرائيلى والظاهر هذا الوجه لانه تعالى قال فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى فهذا القول اذن منه لا من غيره وأيضا فقوله ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض لا يليق الا بأن يكون قولا للكافر واعلم ان الجبار الذى يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر فى العواقب ولا يدفع بالتى هى أحسن وقيل المتعظم الذى لا يتواضع لامر أحد ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث فى المدينة وانتهى الى فرعون وهموا بقتله اما قوله وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال صاحب الكشاف يسعى يجوز ارتفاعه وصفا لرجل وانتصابه حالا عنه لانه قد تخصص بقوله من أقصى المدينة والائتمار التشاور يقال الرجلان يأتمران لان كل واحد منهما يأمر صاحبه بشئ أو يشير عليه بأمر والمعنى يتشاورون بسببك وأكثر المفسرين على ان هذا الرجل مؤمن آل فرعون فعلى وجه الاشفاق أسرع اليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك أما قوله فخرج منها خائفا يترقب أى خائفا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ ثم التجأ الى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال رب نجنى من القوم الظالمين وهذا يدل على ان قتله لذلك القبطى لم يكن ذنبا والا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم اياه ليقتلوه قصاصا ۞ قوله تعالى (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بينى وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل) اعلم أن الناس اختلفوا فى قوله ولما توجه تلقاء مدين فقال بعضهم انه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى وأخذ يمشى من غير معرفة فأوصله الله تعالى الى مدين وهذا قول ابن عباس وقال آخرون

لما

جاء الخ وقرئ أتمدونى بالادغام وبنون واحدة وبنونين وحذف الياء وقوله تعالى (بل انتم بهديتكم تفرحون)
اضراب عما ذكر من انكار الامداد بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التى اهدوها اليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها كما ينبئ عنه ما ذكر من حديث الحق والجزعة وتغيير زى الغلمان والجوارى وغير ذلك وفائدة الاضراب التنبيه على ان امداده عليه الصلاة والسلام بالمال منكر قبيح وعدّ ذلك مع انه لا قدر له عنده عليه الصلاة والسلام مما يتنافس فيه المتنافسون اقبح والتوبيخ به ادخل وقيل المضاف اليه المهدى اليه والمعنى بل أنتم بما يهدى اليكم تفرحون حبا لزيادة المال لما أنكم لا تعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا (ارجع) أفرد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الامداد ونحوه للكل اى ارجع أيها الرسول (اليهم) اى الى بلقيس وقومها (فلنأتينهم) اى فوالله لنأتينهم (بجنود لا قبل لهم بها) أى لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرئ بهم (ولنخرجنهم) عطف على جواب القسم (منها) من سبا (اذلة) اى حال كونهم أذلة بعدما كانوا فيه من العز والتمكين وفى جمع القلة تأكيد لذلتهم وقوله تعالى (وهم صاغرون) اى أسارى مهانون حال اخرى مفيدة لكون اخراجهم بطريق الاسر لا بطريق الاجلاء وعدم وقوع جواب القسم لانه

لما خرج قصد مدين لانه وقع فى نفسه أن بينهم وبينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم عليه السلام وهو كان من بنى اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدى لما أخذ موسى عليه السلام فى المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح فقال لا تفعل واتبعنى فاتبعه نحو مدين واحتج من قال انه خرج وما قصد مدين بأمرين (أحدهما) قوله ولما توجه تلقاء مدين ولو كان قاصدا للذهاب الى مدين لقال ولما توجه الى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال توجه تلقاء مدين علمنا انه لم يتوجه الا الى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب الى أين ينتهى (والثانى) قوله عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل وهذا كلام شاك لا عالم والاقرب أن يقال انه قصد الذهاب الى مدين وما كان عالما بالطريق ثم انه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لانه يبعد من موسى عليه السلام فى عقله وذكائه أن لا يسأل ثم قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين بغير زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر أما قوله عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل فهو نظير قول جده ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى سيهدين وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاما فى الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع الا ما ذكره ابراهيم عليه السلام وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين الطاهرين ولما ورد ماء مدين وهو الماء الذى يسقون منه وكان بئرا فيما روى وورده مجيئه والوصول اليه وجد عليه اى فوق شفيره ومستقاه أمة جماعة كثيرة العدد من الناس من اناس مختلفين ووجد من دونهم فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تذودان والذود الدفع والطرد فقوله تذودان أى تحبسان ثم فيه اقوال (الاول) تحبسان أغنامهما واختلفوا فى علة ذلك الحبس على وجوه (أحدها) قال الزجاج لان على الماء من كان أقوى منهما فلا يتمكنان من السقى (وثانيها) كانتا تكرهان المزاحمة على الماء (وثالثها) لئلا تختلط أغنامهما باغنامهم (ورابعها) لئلا تختلطا بالرجال (القول الثانى) كانتا تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما (والقول الثالث) تذودان الناس عن غنمهما (القول الرابع) قال الفراء تحبسانها عن أن تتفرق وتتسرب قال ما خطبكما أى ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أى مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبا كما يسمى المشؤن شأنا فى قولك ما شأنك فقالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير وذلك يدل على ضعفهما عن السقى من وجوه (أحدها) ان العادة فى السقى للرجال والنساء يضعفن عن ذلك (وثانيها) ما ظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير (وثالثها) قولهما لا نسقى حتى يصدر الرعاء (ورابعها) انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء (وخامسها) قولهما وأبونا شيخ كبير ودلالة ذلك على انه لو كان قويا حضر ولو حضر لم يتأخر السقى فعند ذلك سقى لهما قبل صدر الرعاء وعادتا الى أبيهما قبل الوقت المعتاد

كان معلقا بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة ٥٩٨ بدلالة الحال عليه كأنه قيل ارجع اليهم فليأتوا مسلمين والا فلنأتينهم الخ (قال

قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال فالمعنى فى القراءة الاولى حتى ينصرفوا عن الماء ويرجعوا عن سقيهم وصدر ضد ورد ومن قرأ بضم الياء فالمعنى فى القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم اما قوله فسقى لهما أى سقى غنمهما لاجلهما وفى كيفية السقى أقوال (أحدها) انه عليه السلام سأل القوم أن يسمحوا فسمحوا (وثانيها) قال قوم عمد الى بئر على رأسه صخرة لا يقلها الا عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فنحاها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر (وثالثها) أن القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك فى القرآن والله أعلم بالصحيح منه لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على انها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته وقال تعالى ثم تولى الى الظل وفيه دلالة على انه سقى لهما فى شمس وحر وفيه دلالة أيضا على كمال قوة موسى عليه السلام قال الكلبى أتى موسى أهل الماء فسألهم دلوا من ماء فقالوا له ان شئت ائت الدلو فاستق لهما قال نعم وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلا حتى يخرجوه من البئر فأخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب فى الحوض ودعا بالبركة ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما فان قيل كيف ساغ لنبى الله الذى هو شعيب أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية قلنا ليس فى القرآن ما يدل على ان أباهما كان شعيبا والناس مختلفون فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما ان أباهما هو يثرون ابن أخى شعيب وشعيب مات بعد ما عمى وهو اختيار أبى عبيد (وقال) الحسن انه رجل مسلم قبل الدين من شعيب على أنا وان سلمنا انه كان شعيبا عليه السلام لكن لا مفسدة فيه لان الدين لا يأباه وأما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر لاسيما اذا كانت الحالة حالة الضرورة واما قوله قال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فالمعنى انى لاى شئ أنزلت الى من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير وانما عدى فقير باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب (واعلم) أن هذا الكلام يدل على الحاجة اما الى الطعام أو الى غيره الا أن المفسرين حملوه على الطعام قال ابن عباس يريد طعاما يأكله وقال الضحاك مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاما الا بقل الارض وروى أن موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك فان قيل انه عليه السلام لما بقى معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام أليس انه عليه السلام قال لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى قوة سوى قلنا اما رفع الصوت بذلك لاسماع المرأتين وطلب الطعام فذلك لا يليق بموسى عليه السلام البتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك فى نفسه مع ربه تعالى وفى الآية وجه آخر كأنه قال رب انى بسبب ما أنزلت الى من خير الدين صرت فقيرا فى الدنيا لانه كان عند فرعون فى ملك وثروة فقال ذلك رضا بهذا البدل وفرحا به وشكرا له وهذا التأويل أليق

يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها) قاله عليه الصلاة والسلام لما دنا مجئ بلقيس اليه عليه الصلاة والسلام يروى أنه لما رجعت رسلها اليها بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قالت قد علمت والله ما هذا بملك ولا لنا به من طاقة وبعثت الى سليمان عليه السلام انى قادمة اليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو اليه من دينك ثم آذنت بالرحيل الى سليمان عليه السلام فشخصت اليه فى اثنى عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف ويروى انها أمرت فجعل عرشها فى آخر سبعة أبيات بعضها فى بعض فى آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الابواب ووكلت به حرسا يحفظونه ولعله أوحى الى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يريها بعض ما خصه الله عز سلطانه به من اجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرته تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم لا وتقييد الاتيان به بقوله تعالى (قبل ان يأتونى مسلمين) لما ان ذلك ابدع واغرب وابعد من الوقوع عادة وادل على عظم قدرة الله تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام وليكون اختبارها واطلاعها على بدائع المعجزات فى اول مجيئها وقيل لانها اذا اتت مسلمة لم يحل له اخذ مالها بغير رضاها (قال عفريت) اى مارد خبيث (من الجن) بيان له

بحال

اذ يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر لاقرانه وكان اسمه ذكوان أو صخرا ٥٩٩ (انا آتيك به) اى بعرشها (قبل أن

بحال موسى عليه السلام اما قوله تعالى فجاءته احداهما تمشى على استحياء فقوله على استحياء فى موضع الحال أى مستحيية قال عمر بن الخطاب قد استترت بكم قميصها وقيل ماشية على بعد مائلة عن الرجال (وقال) عبد العزيز بن أبى حازم على اجلال له ومنهم من يقف على قوله تمشى ثم يبتدئ فيقول على استحياء قالت ان أبى يدعوك يعنى انها على الاستحياء قالت هذا القول لان الكريم اذا دعا غيره الى الضيافة يستحيى لاسيما المرأة وفى ذلك دلالة على أن شعيبا لم يكن له معين سواهما وروى انهما لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه لى اما الاختلاف فى أن ذلك الشيخ كان شعيبا عليه السلام او غيره فقد تقدم والاكثرون على انه شعيب وقال محمد بن اسحق فى البنتين اسم الكبرى صفورا والصغرى ليا وقال غيره صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا والتى جاءت الى موسى عليه السلام هى الكبرى على قول الاكثرين وقال الكلبى هى الصغرى وليس فى القرآن دلالة على شئ من هذه التفاصيل اما قوله قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ففيه اشكالات (أحدها) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشى معها وهى أجنبية فان ذلك يورث التهمة العظيمة وقال عليه السلام اتقوا مواضع التهم (وثانيها) انه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الاجرة عليه فان ذلك غير جائز فى المروءة ولا فى الشريعة (وثالثها) انه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وانه عليه السلام كان فى نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعى فكيف يليق بمروءة مثله طلب الاجرة على ذلك القدر من السقى من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة (ورابعها) كيف يليق بشعيب النبى عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفا أو فاسقا (والجواب) عن الاول أن نقول اما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى فى الاخبار وما كانت الا مخبرة عن أبيها وأما المشى مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع والجواب عن الثانى ان المرأة وان قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب اليهم طلبا للاجرة بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ وروى انها لما قالت ليجزيك كره ذلك ولما قدم اليه الطعام امتنع وقال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا وأيضا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ الى حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب عن الثالث فان الضرورات تبيح المحظورات والجواب عن الرابع لعله عليه السلام كان قد علم بالوحى طهارتهما او براءتهما فكان يعتمد عليها أما قوله فلما جاءه قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقام يمشى والجارية امامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام انى من عنصر ابراهيم عليه السلام فكونى من خلفى حتى لا ترفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل لى

تقوم من مقامك) أى من مجلسك للحكومة وكان يجلس الى نصف النهار وآتيك اما صيغة المضارع أو الفاعل وهو الانسب لمقام ادعاء الاتيان به لا محالة وأوفق لما عطف عليه من الجملة الاسمية اى انا آت به فى تلك المدة البتة (وانى عليه) أى على الاتيان به (لقوى) لا يثقل على حمله (أمين) لا اختزل منه شيأ ولا أبدله (قال الذى عنده علم من الكتاب) فصل عما قبله للايذان بما بين القائلين ومقاليهما وكيفيتى قدرتهما على الاتيان به من كمال التباين اولاسقاط الاول عن درجة الاعتبار قيل هو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وقيل رجل كان عنده اسم الله الاعظم الذى اذا سئل به اجاب وقيل الخضر او جبريل او ملك ايده الله عز وجل به عليهم السلام وقيل هو سليمان نفسه عليه السلام وفيه بعد لا يخفى والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح وتنكير علم للتفخيم والرمز الى أنه علم غير معهود ومن ابتدائية (انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) الطرف تحريك الاجفان وفتحها للنظر الى شئ وارتداده انضمامها ولكونه امرا طبيعيا غير منوط بالقصد اوثر الارتداد على الرد ولما لم يكن بين هذا الوعد والمجازة مدة تما كما فى وعد العفريت استغنى عن التأكيد وطوى عند الحكاية ذكر الاتيان به للايذان بأنه امر

منحقق غنى عن الاخبارية وثمى فالفاء الفصيحة لاداخلة على جملة معطوفة على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط كما فى قوله عزوجل فقلنا اضرب بعصاك البحر ٦٠٠ فانفلق ونظائره بل داخلة على الشرطية حيث قيل (فلما رآه مستقرا عنده) اى رأى العرش حاضرا لديه كما فى قوله عزوجل فلما رأينه أكبرنه للدلالة على كمال ظهوره ماذكر من تحققه واستغنائه عن الاخبار به ببيان ظهوره ما يترتب عليه من رؤية سليمان عليه السلام اياه واستغنائه أيضا عن التصريح به اذ التقدير فأتاه به فرآه فلما رآه الخ فحذف ما حذف لما ذكر وللايذان بكمال سرعة الاتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة والسلام اياه شئ ما أصلا وفى تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيد لهذا المعنى لايهامه انه لم يتوسط بينهما ابتداء الاتيان ايضا كأنه لم يزل موجودا عنده مع مافيه من الدلالة على دوام قراره عنده منتظما فى سلك ملكه (قال) اى سليمان عليه السلام تلقيا للنعمة بالشكر جريا على سنن أبناء جنسه من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وخلص عباده (هذا) اى حضور العرش بين يديه فى هذه المدة القصيرة او التمكن من احضاره بالواسطة أو بالذات كما قيل (من فضل ربى) اى تفضله على من غير استحقاق له من قبلى (ليبلونى أأشكر) بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتى ولا قوة وأقوم بحقه (أم أكفر) بان أجد لنفسى مدخلا فى البين أو أقصر فى اقامة مواجبه كما هو شان سائر النعم الفائضة على العباد (ومن شكر فانما يشكر لنفسه)

فلما دخل على شعيب فاذا الطعام موضوع فقال شعيب تناول يافتى فقال موسى عليه السلام أعوذ بالله قال شعيب ولم قال لانا من أهل بيت لانبيع ديننا بملء الارض ذهبا فقال شعيب ولكن عادتى وعادة آبائى اطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل وانما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال لوشئت لاتخذت عليه أجرا والفرق أن أخذ الاجرة على الصدقة لايجوز أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه أما قوله وقص عليه القصص فالقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص قال الضحاك لما دخل عليه قال له من أنت ياعبد الله فقال انا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف فى اليم وقتل القبطى وانهم يطلبونه ليقتلوه فقال شعيب لاتخف نجوت من القوم الظالمين أى لاسلطان له بأرضنا فلسنا فى مملكته وليس فى الآية دلالة على انه قال ذلك عن الوحى أو على ما تقتضيه العادة فان قيل المفسرون قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب فى ألف ألف وستمائة ألف فالملك الذى هذا شأنه كيف يعقل أن لايكون فى ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته قلنا هذا وان كان نادرا الا انه ليس بمحال أما قوله قالت احداهما ياأبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين ففيه مسائل (الاولى) وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقى وبالامانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها الى أبيها (المسئلة الثانية) انما جعل خير من استأجرت اسما والقوى الامين خبرا مع ان العكس أولى لان العناية هى سبب التقديم (المسئلة الثالثة) القوة والامانة لايكفيان فى حصول المقصود مالم ينضم اليهما الفطنة والكياسة فلم أهمل أمر الكياسة ويمكن أن يقال انها داخلة فى الامانة عن ابن مسعود رضى الله عنه أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف وأبو بكر فى عمر أما قوله قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين فلا شبهة فى أن هذا اللفظ وان كان على الترديد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة فى أن العقد وقع على أقل الاجلين فكانت الزيادة كالتبرع والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى أن الحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا ويدل على انه قد كان جائزا فى تلك الشريعة ان يشرط للولى منفعة وعلى انه كان جائزا فى تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى أن عقد النكاح لاتفسده الشروط التى لايوجبها العقد ثم قال على ان تأجرنى ثمانى حجج تأجرلى من أجرته اذا كنت له أجيرا وثمانى حجج ظرفه أومن أجرته كذا اذا أثبته اياه ومنه أجركم الله ورحمكم وثمانى حجج مفعول به ومعناه رعية ثمانى حجج ثم قال وما أريد ان أشق عليك وفيه وجهان (الاول) لاأريد أن أشق عليك بالزام أتم الاجلين فان قيل ما حقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الامر قلنا حقيقته ان الامر اذا تعاظمك فكأنه

لانه يرتبط به عتيده ويستجلب به مزيده ويحط به عن ذمته عبء الواجب آ ٦٠ ويتخلص عن وصمة الكفران (ومن كفر) اى لم يشكر (فان ربى غنى) عن شكره (كريم) بترك تعجيل العقوبة والانعام مع عدم الشكر أيضا (قال) أى سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكى سابقا ولاحقا من كلامه عليه الصلاة والسلام تنبيها على ما بين السابق واللاحق من المخالفة لما أن الاول من باب الشكر لله تعالى والثانى أمر لخدمه (نكروا لها عرشها) أى غيروا هيئته بوجه من الوجوه (ننظر) بالجزم على أنه جواب الامر وقرئ بالرفع على الاستئناف (أتهتدى) الى معرفته أو الى الجواب اللائق بالمقام وقيل الى الايمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها لتقدم عرشها من مسافة طويلة فى مدة قليلة وقد خلفته مغلقة عليه الابواب موكلة عليه الحراس والحجاب ويأباه تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير فان ذلك مما لادخل فيه للتنكير (أم تكون) أى بالنسبة الى علمنا (من الذين لايهتدون) أى الى ماذكر من معرفة عرشها أو الجواب الصواب فان كونها فى نفس الامر منهم وان كان أمرا مستمرا لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار (فلما جاءت) شروع فى حكاية التجربة التى قصدها سليمان عليه السلام أى فلما جاءت بلقيس سليمان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه (قيل) أى من جهة

شق عليك ظنك باثنين تقول تارة اطيقه وتارة لااطيقه (الثانى) لاأريد ان اشق عليك فى الرعى ولكنى أساهلك فيها وأسامحك بقدر الامكان ولا أكلفك الاحتياط الشديد فى كيفية الرعى وهكذا كان الانبياء عليهم السلام آخذين بالاسمح فى معاملات الناس ومنه الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكى فكان خير شريك لايدارى ولايشارى ولايمارى ثم قال ستجدنى ان شاء الله من الصالحين وفيه وجهان (الاول) يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب (والثانى) يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة وانما قال ان شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته * فان قيل فالعقد كيف ينعقد مع هذا الشرط فانك لوقلت امرأتى طالق ان شاء الله لاتطلق * قلنا هذا مما يختلف بالشرائع اما قوله تعالى قال ذلك بينى وبينك فاعلم ان ذلك مبتدأ وبينى وبينك خبره وهو اشارة الى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام يريد ذلك الذى قلته وعاهدتنى عليه قائم بيننا جميعا لايخرج كلانا عنه لاأنا عما شرطت على ولا انت عما شرطت على نفسك ثم قال أيما الاجلين قضيت من الاجلين أطولهما الذى هو العشر أو أقصرهما الذى هو الثمان فلا عدوان على أى لايعتدى على فى طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعنى ان شاء هذا وان شاء هذا ويكون اختيار الاجل الزائد موكولا الى رأيه من غير أن يكون لاحد عليه اجبار ثم قال والله على مانقول وكيل والوكيل هو الذى وكل اليه الامر ولما استعمل الوكيل فى معنى الشاهد عدى بعلى لهذا السبب ۞ قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى انا الله رب العالمين وان ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولاتخف انك من الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين) اعلم انه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تزوج صغراهما وقضى أوفاهما أى قضى أوفى الاجلين وقال مجاهد قضى الاجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس يدل على ان ذلك الايناس حصل عقيب مجموع الامرين ولايدل على انه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الاجل فبطل ماقاله القاضى من ان ذلك يدل على انه لم يزد عليه وقوله وسار بأهله ليس فيه دلالة على انه خرج منفردا معها وقوله امكثوا فيه دلالة على الجمع أما قوله انى آنست نارا فقد مر تفسيره فى سورة طه وسورة النمل أما قوله لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ففيه ابحاث (الاول) قال صاحب الكشاف الجذوة باللغات الثلاث وقد قرئ بهن جميعا وهو العود الغليظ كانت فى رأسه نار أولم تكن قال الزجاج الجذوة القطعة الغليظة من الحطب (الثانى) قد حكينا فى سورة طه انه أظلم عليه الليل فى

العصرا وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر فوجد وابرداشديدا فعنده
ابصر نارا بعيدة فسار اليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله آتيكم منها بخبر أو آتيكم
من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفى قوله لعلى آتيكم منها بخبر دلالة على
انه ضل وفى قوله لعلكم تصطلون دلالة على البرد أما قوله فلما أتاها نودى من شاطئ الواد
الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى انا الله رب العالمين فاعلم ان شاطئ
الوادى جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطئ الوادى من قبل الشجرة وقوله من
الشجرة بدل من قوله من شاطئ الوادى بدل الاشتمال لان الشجرة كانت نابتة على
الشاطئ كقوله لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم وانما وصف البقعة بكونها مباركة لانه
حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى اياه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) احتجت
المعتزلة على قولهم ان الله تعالى متكلم بكلام يخلقه فى جسم بقوله من الشجرة فان هذا
صريح فى أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله
سبحانه وهو تعالى منزه أن يكون فى جسم فثبت انه تعالى انما يتكلم بخلق الكلام فى
جسم (اجاب) القائلون بقدم الكلام فقالوا لنا مذهبان (الاول) قول أبى منصور
الماتريدى وائمة ماوراء النهر وهو ان الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع
انما المسموع هو الصوت والحروف وذلك كان مخلوقا فى الشجرة ومسموعا منها وعلى هذا
التقدير زال السؤال (الثانى) قول أبى الحسن الاشعرى وهو ان الكلام الذى ليس
بحرف ولا صوت يمكن ان يكون مسموعا كما ان الذات التى ليست بجسم ولا عرض يمكن
أن تكون مرئية فعلى هذا القول لا يبعد انه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع
الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الامرين واحتج أهل السنة بأن
محل قوله انى انا الله رب العالمين لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة انى انا الله
والمعتزلة أجابوا بأن هذا انما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو
أصل المسئلة أجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل منى فانى مسموم ففاعل
ذلك الكلام هو الله تعالى فان كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون
الله قد قال لا تأكل منى فانى مسموم وهذا باطل وان كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن
تكون الشجرة قد قالت انى انا الله وكل ذلك باطل (المسئلة الثانية) يحتمل أن يقال انه
تعالى خلق فيه علما ضروريا بأن ذلك الكلام كلام الله والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا لانه
لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى لانه
يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى انه الله
تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل أن يقال انه تعالى لما أسمعه الكلام الذى ليس
بحرف ولا صوت عرف ان مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل أن
يقال ان ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى فى انه يعلم ان مثل ذلك

لايكون

سليمان عليه السلام بالذات أو بالواسطة ٢ ٠ ٦ (أهكذا عرشك) لم يقل أهذا عرشك لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ما هو المقصود من
الامر بالتنكير من ابراز العرش فى
معرض الاشكال والاشتباه حتى
يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه
الصلاة والسلام بسخافة العقل
(قالت كأنه هو) فأنبأت عن كمال
رجاحة عقلها حيث لم تقل هو
هو مع علمها بحقيقة الحال تلويحا
بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة
فى الصفات مع اتحاد الذات
ومراعاة لحسن الادب فى محاورته
عليه الصلاة والسلام (وأوتينا
العلم من قبلها وكنا مسلمين) من تتمة
كلامها كأنها ظنت أنه عليه
الصلاة والسلام أراد بذلك اختبار
عقلها واظهار معجزة لها فقالت
أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى
وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة
التى شاهدناها بما سمعناه من
المنذر من الآيات الدالة على ذلك
وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه
من الدلالة على كمال رزانة رأيها
ورصانة فكرها ما لا يخفى وقوله
تعالى (وصدها ما كانت تعبد من
دون الله) بيان من جهته تعالى
لما كان يمنعها من اظهار ما ادعته
من الاسلام الى الآن أى صدها
عن ذلك عبادتها القديمة للشمس
وقوله تعالى (انها كانت من قوم
كافرين) تعليل لسببية عبادتها
المذكورة للصد أى انها كانت
من قوم راسخين فى الكفر ولذلك
لم تكن قادرة على اظهار اسلامها
وهى بين ظهرانيهم الى أن دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرئ أنها بالفتح على البدلية من

لايكون الا من الله تعالى ويحتمل أن يكون المعجز هو انه رأى النار فى الشجرة الرطبة فعلم
انه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة الا الله تعالى ويحتمل أن يصح ما يروى
ان ابليس لما قال له كيف عرفت أنه نداء الله تعالى قال لانى سمعته بجميع أجزائى فلما
وجد حس السمع من جميع الاجزاء علم ان ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى
وهذا انما يصح على مذهبنا حيث قلنا البنية ليست شرطا (المسئلة الثالثة) قال فى سورة
النمل نودى ان بورك من فى النار ومن حولها وقال ههنا نودى انى أنا الله رب العالمين وقال
فى طه نودى انى أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا أنه حكى
فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء (المسئلة الرابعة) قال الحسن ان موسى عليه
السلام نودى نداء الوحى لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى فاستمع لما يوحى قال
الجمهور ان الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما
وسائر الآيات وأما الذى تمسك به الحسن فضعيف لان قوله فاستمع لما يوحى لم يكن بالوحى
لانه لو كان ذلك أيضا بالوحى لانتهى آخر الامر الى كلام يسمعه المكلف لا بالوحى والا لزم
التسلسل بل المراد من قوله فاستمع لما يوحى وصيته بأن يتشدد فى الامور التى تصل اليه فى
مستقبل الزمان بالوحى أما قوله وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم
يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين فقد تقدم تفسير كل ذلك وقوله كأنها جان
صريح فى انه تعالى شبهها بالجان ولم يقل انه فى نفسه جان فلا يكون هذا مناقضا لكونه
ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار وقد تقدم الكلام
فى خوفه ومعنى لم يعقب لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وقال وهب انها لم تدع
شجرة ولا صخرة الا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير اسنانها وسمع قعقعة
الصخر فى جوفها فحينئذ ولى واختلفوا فى العصا على وجوه (أحدها) قالوا ان شعيبا
كانت عنده عصى الانبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل اذا دخلت ذلك البيت فخذ
عصا من تلك العصى فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الانبياء
تتوارثها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فقال أرنى العصا فلمسها وكان مكفوفا
فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده الا هى سبع مرات فعلم ان له شأنا (وروى) أيضا ان
شعيبا عليه السلام أمر ابنته أن تأتى بعصا لاجل موسى عليه السلام فدخلت البيت
وأخذت العصا وأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت ان تأخذ غيرها
فلم يقع فى يدها غيرها فلما رأى الشيخ ذلك رضى به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه
السلام فلما لقيه قال أعطنى العصا قال موسى هى عصاى فأبى ان يعطيه اياها فاختصما
ثم توافقا على أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشى فقضى بينهما فقال
ضعوها على الارض فمن حملها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام
بسهولة فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين (وثانيها) روى ابن صالح عن ابن عباس قال

فاعل صد أو على التعليل بحذف اللام هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى وأوتينا العلم ٣ ٠ ٦ الى قوله تعالى من قوم كافرين من كلام
سليمان عليه السلام وملائه كأنهم
لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا
لاسلامها فقالوا استحسانا لشأنها
أصابت فى الجواب وعلمت قدرة
الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت
من المنذر من الآيات المتقدمة
وبما عاينت من هذه الآية
الباهرة من أمر عرشها ورزقت
الاسلام فعطفوا على ذلك قولهم
وأوتينا العلم الخ أى وأوتينا نحن
العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة
ما جاء من عنده قبل علمها ولم نزل
على دين الاسلام شكرا لله تعالى
على فضلهم عليها وسبقهم الى العلم
بالله تعالى والاسلام قبلها وصدها
عن التقدم الى الاسلام عبادة
الشمس ونشؤها بين ظهرانى
الكفرة فمما لا يخفى ما فيه من
البعد والتعسف (قيل لها ادخلى
الصرح) الصرح القصر وقيل
صحن الدار روى أن سليمان عليه
السلام أمر قبل قدومها فبنى له
على طريقها قصر من زجاج
أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى
فيه من دواب البحر السمك وغيره
ووضع سريره فى صدره فجلس
عليه وعكف عليه الطير والجن
والانس وانما فعل ذلك ليزيدها
استعظاما لامره وتحققا لنبوته
وثباتا على الدين وزعموا أن الجن
كرهوا أن يتزوجها فتفضى اليه
بأسرارهم لانها كانت بنت جنية
وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان عليه السلام الى ملك

هو أشد وأقطع فقالوا ان في عقلها شيئا وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش
واتخذ الصرح ليتعرف ساقها
ورجلها (فلما رأته) وهو حاضر
بين يديها كما يعرب عنه الامر
بدخولها وأحاطت بتفاصيل
أحواله خبرا (حسبته لجة
وكشفت عن ساقيها) وتشمرت
لئلا تبتل أذيالها فاذا هي أحسن
الناس ساقا وقدما خلا أنها شعراء
قيل هي السبب في اتخاذ النورة
أمر بها الشياطين فاتخذوها
واستنكحها عليه الصلاة والسلام
وأمر الجن فبنوا لها سيلحين
وغمدان وكان يزورها في الشهر
مرة و يقيم عندها ثلاثة أيام وقيل
بل زوجها ذا تبع ملك همدان
وسلطه على اليمن وأمر زوبعة
أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له
المصانع وقرئ سأقيها حملا للمفرد
على الجمع في سؤق وأسؤق (قال)
عليه الصلاة والسلام حين رأى
ما اعتراها من الدهشة والرعب
(انه) أي ما توهمته ماء (صرح
ممرد) أي مملس (من قوارير) من
الزجاج (قالت) حين عاينت تلك
المعجزة أيضا (رب انى ظلمت نفسى)
بما كنت عليه الى الآن من عبادة
الشمس وقيل بظنى بسليمان
حيث ظنت أنه يريد اغراقها في
اللجة وهو بعيد (وأسلمت مع
سليمان) تابعة له مقتدية به وما في
قوله تعالى (لله رب العالمين) من
الالتفات الى الاسم الجليل ووصفه
بربوبية العالمين لاظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التي من

كان في دار يبرون ابن أخي شعيب بيت لا يدخله الا يبرون وابنته التي زوجها من موسى
عليه السلام وانها كانت تكنسه وتنظفه وكان في ذلك البيت ثلاثة عشر عصا وكان
ليبرون أحد عشر ولدا من الذكور فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت واخراج
عصا من تلك العصى فرجع موسى ذات يوم الى منزله فلم يجد أهله واحتاج الى عصا لرعيه
فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصى وخرج بها فلما علمت المرأة بذلك انطلقت
الى أبيها وأخبرته بذلك فسر بذلك يبرون وقال لها ان زوجك هذا نبي وان له مع هذه
العصا لشأنا (وثالثها) في بعض الاخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب
وأصبح من الغد وأراد الرعي قال له شعيب عليه السلام اذهب بهذه الاغنام فاذا بلغت
مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وان كان الكلأ بها أكثر فان بها تنينا
عظيما فأخشى عليك وعلى الاغنام منه فذهب موسى بالاغنام فلما بلغ مفرق الطريق
أخذت الاغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى
عشبا كثيرا ثم ان موسى عليه السلام نام والاغنام ترعى واذا بالتنين قد جاء فقامت عصا
موسى عليه السلام فقاتلته حتى قتلته وعادت الى جنب موسى وهي دامية فلما استيقظ
موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولا فارتاح لذلك وعلم ان لله تعالى
في تلك العصا قدرة وآية وعاد الى شعيب عليه السلام وكان ضريرا فمس الاغنام فاذا هي
أحسن حالا مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم
ان لموسى عليه السلام وعصاه شأنا فأراد أن يجازي موسى عليه السلام على حسن رعيه
اكراما وصلة لابنته فقال انى وهبت لك من السخال التي تضعها أغنامي في هذه السنة
كل أبلق وبلقاء فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ان اضرب بعصاك الماء الذي
تسقى الغنم منه ففعل ثم سقى الاغنام منه فما أخطأت واحدة منها الا وضعت حملها ما بين
أبلق وبلقاء فعلم شعيب ان ذلك رزق ساقه الله تعالى الى موسى عليه السلام وامرأته فوفى
له شرطه (ورابعها) قال بعضهم تلك العصا هي عصا آدم عليه السلام وان جبريل عليه
السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى أتى بها موسى عليه
السلام ليلا (وخامسها) قال الحسن ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا أي
أخذها من عرض الشجر يقال اعترض اذا لم يتخير وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي
شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض لانه
ليس في القرآن ما يدل عليها والاخبار متعارضة والله أعلم بها أما قوله تعالى اسلك يدك
في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فاعلم ان الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات
(أحدها) هذه (وثانيها) قوله في طه واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء (وثالثها)
قوله في النمل وأدخل يدك في جيبك قال العزيزي في غريب القرآن اسلك يدك في جيبك
أدخلها فيه أما قوله واضمم اليك جناحك من الرهب فأحسن الناس كلاما فيه

صاحب

جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس (ولقد أرسلنا) عطف على قوله تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما مسوق لما سبق
هوله من تقرير أنه عليه الصلاة
والسلام يلقى القرآن من لدن
حكيم عليم فان هذه القصة أيضا
من جملة القرآن الكريم الذى
لقيه عليه الصلاة والسلام واللام
جواب قسم محذوف أي وبالله
لقد أرسلنا (الى ثمود أخاهم صالحا)
وأن في قوله تعالى (أن اعبدوا
الله) مفسرة لما في الارسال من
معنى القول أو مصدرية حذف
عنها الباء وقرئ بضم النون اتباعا
لها للباء (فاذاهم فريقان
يختصمون) ففاجؤا التفرق
والاختصام فآمن فريق وكفر
فريق والواو لمجموع الفريقين
(قال) عليه الصلاة والسلام
للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد
منهم ما شاهد من نهاية العتو
والعناد حتى بلغوا من المكابرة
الى أن قالوا له عليه الصلاة
والسلام يا صالح ائتنا بما تعدنا
ان كنت من الصادقين (يا قوم لم
تستعجلون بالسيئة) أي بالعقوبة
السيئة (قبل الحسنة) أي التوبة
فتؤخرونها الى حين نزولها حيث
كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون
ان وقع ايعاده تبنا حينئذ والا
فنحن على ما كنا عليه (لولا
تستغفرون الله) هلا تستغفرونه
تعالى قبل نزولها (لعلكم ترحمون)
بقبولها اذ لا امكان للقبول عند
النزول (قالوا اطيرنا) أصله تطيرنا
والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنهم كانوا اذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فان مر سانحا تيمنوا وان مر بارحا تشاءموا

صاحب الكشاف قال فيه معنيان (أحدهما) ان موسى عليه السلام لما قلب الله له
العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له ان اتقاءك
بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك
مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران اجتناب ما هو غضاضة عليك
واظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لان يدى الانسان بمنزلة جناحي الطائر واذا
أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه اليه (الثانى) أن يراد بضم جناحه
اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب
استعارة من فعل الطائر لانه اذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما والا فجناحاه مضمومان
اليه مشمران ومعنى قوله من الرهب من أجل الرهب أي اذا أصابك الرهب عند رؤية
الحية فاضمم اليك جناحك وقوله اسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن
خولف بين العبارتين وانما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك ان الغرض
في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثانى اخفاء الرهب فان قيل قد جعل الجناح وهو
اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما اليه وذلك قوله واضمم اليك جناحك
وقوله واضمم يدك الى جناحك فما التوفيق بينهما قلنا المراد بالجناح المضموم هو اليد
اليمنى وبالمضموم اليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح هذا كله
كلام صاحب الكشاف وهو في نهاية الحسن أما قوله تعالى فذانك قرئ مخففا ومشددا
فالمخفف مثنى ذا والمشدد مثنى ذانك قوله برهانان من ربك حجتان نيرتان على صدقه في
النبوة وصحة ما دعاهم اليه من التوحيد وظاهر الكلام يقتضى انه تعالى أمره بذلك قبل
لقاء فرعون حتى عرف ما الذى يظهره عنده من المعجزات لانه تعالى حكى بعد ذلك عن
موسى عليه السلام انه قال انى قتلت منهم نفسا فأخاف ان يقتلون قال القاضي واذا كان
كذلك فيجب أن يكون في حال ظهور البرهانين هناك من دعاه الى رسالته من أهله
أو غيرهم اذ المعجزات انما تظهر على الرسل في حال الارسال لا قبله وانما تظهر لكي يستدل
بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف لانه ثبت انه لابد في اظهار المعجزة من حكمة ولا
حكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعى وأما كونه لا حكمة ههنا فلا نسلم
فلعل هناك أنواعا من الحكم والمقاصد سوى ذلك لاسيما وهذه الآيات متطابقة على انه
لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد ۞ قوله تعالى (قال رب انى قتلت منهم نفسا
فأخاف ان يقتلون وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى انى أخاف
ان يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما
ومن اتبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا
بهذا في آبائنا الاولين وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة
الدار انه لا يفلح الظالمون) اعلم انه تعالى لما قال فذانك برهانان من ربك الى فرعون

ومثله تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين الى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوى قلبه ويزيل خوفه فقال رب انى قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون وأخى هرون هو أفصح منى لسانا لانه كان فى لسانه حبسة اما فى أصل الخلقة واما لاجل انه وضع الجمرة فى فيه عند ما نتف لحية فرعون أما قوله فأرسله معى ردأ يصدقنى ففيه ابحاث (البحث الاول) الردء اسم ما يستعان به فعل بمعنى مفعول به كما أن الدفء اسم لما يدفأ به يقال ردأت الحائط اردؤه اذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط (البحث الثانى) قرأ نافع ردا بغير همز والباقون بالهمز وقرأ عاصم وحمزة يصدقنى برفع القاف ويروى ذلك أيضا عن أبى عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبى عمرو فمن رفع فالتقدير ردأ مصدقا لى ومن جزم كان على معنى الجزاء يعنى ان أرسلته صدقنى ونظيره قوله فهب لى من لدنك وليا يرثنى بجزم الثاء من يرثنى وروى السدى عن بعض شيوخه ردأ كيما يصدقنى (البحث الثالث) الجمهور على ان التصديق لهرون وقال مقاتل المعنى كى يصدقنى فرعون والمعنى أرسل معى أخى حتى يعاضدنى على اظهار الحجة والبيان فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون (البحث الرابع) ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وانما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ألا ترى الى قوله وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى وفائدة الفصاحة انما تظهر فيما ذكرناه لا فى مجرد قوله صدقت (البحث الخامس) قال الجبائى انما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هرون بأمر الله تعالى والا كان لا يدرى هل يصلح هرون للبعثة أم لا فلم يكن ليسأل ما لا يأمن أن يجاب أو لا يكون حكمة ويحتمل أيضا أن يقال انه سأله لا مطلقا بل مشروطا على معنى ان اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعى فى دعائه (البحث السادس) قال السدى ان نبيين وآيتين أقوى من نبى واحد وآية واحدة قال القاضى والذى قاله من جهة العادة أقوى فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبى ونبيين لان المبعوث اليه ان نظر فى أيهما كان علم وان لم ينظر فالحالة واحدة هذا اذا كانت طريقة الدلالة فى المعجزتين واحدة فأما اذا اختلفت وأمكن فى احداهما ازالة الشبهة ما لا يمكن فى الاخرى فغير ممتنع أن يختلفا ويصح عند ذلك أن يقال انهما بمجموعهما أقوى من احداهما على ما قاله السدى لكن ذلك لا يتأتى فى موسى وهرون عليهما السلام لان معجزتهما كانت واحدة لا متغايرة أما قوله سنشد عضدك بأخيك فاعلم ان العضد قوام اليد وبشدتها تشتد يقال فى دعاء الخير شد الله عضدك وفى ضده فت الله فى عضدك ومعنى سنشد عضدك بأخيك سنقويك به فاما أن يكون ذلك لان اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الامور واما لان الرجل شبه باليد فى اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة أما قوله ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما

فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببا لهما من قدر الله تعالى وقسمته أو من عمل العبد أى تشاءمنا (بك وبمن معك) فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا أو لم نزل فى اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم (قال طائركم) أى سببكم الذى منه ينالكم ما ينالكم من الشر (عند الله) وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده وقوله تعالى (بل أنتم قوم تفتنون) أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم الطيرة اضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما يحيق بهم الى ذكر ما هو الداعى اليه (وكان فى المدينة) وهى الحجر (تسعة رهط) أى اشخاص وبهذا الاعتبار وقع تمييزا للتسعة لا باعتبار لفظه والفرق بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو من السبعة الى العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة وأسماؤهم حسبما نقل عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم ابن غنم ورئاب بن مهرج ومصدع ابن مهرج وعمير بن كردبة وعاصم ابن مخرمة وسبيط بن صدقة وسمعان ابن صفى وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء أشرافهم (يفسدون فى الارض) لا فى المدينة فقط افسادا بحتا لا يخالطه شئ ما من الاصلاح كما ينطق به قوله تعالى (ولا يصلحون) أى لا يفعلون شيئا من الاصلاح أو لا يصلحون شيئا من الاشياء (قالوا) استئناف لبيان بعض ما فعلوا من الفساد فالمقصود

فالمقصود أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر فان قيل بين تعالى ان السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون اليهما لاجل الآيات أوليس فرعون قد وصل الى صلب السحرة وان كانت هذه الآيات ظاهرة قلنا ان الآية التى هى قلب العصا حية كما أنها معجزة فهى أيضا تمنع من وصول ضرر فرعون الى موسى وهرون عليهما السلام لانهم اذا علموا انه متى ألقاها صارت حية عظيمة وان أراد ارسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الاقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول اليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الامرين وأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صلبوا وليس فى القرآن ما يدل عليه وان سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال فلا يصلون اليكما فالمنصوص انهم لا يقدرون على ايصال الضرر اليهما وايصال الضرر الى غيرهما لا يقدح فيه ثم قال أنتما ومن اتبعكما الغالبون والمراد اما الغلبة بالحجة والبرهان فى الحال أو الغلبة فى الدولة والمملكة فى ثانى الحال والاول أقرب الى اللفظ أما قوله فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات فقد بينا فى سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد أما قوله قالوا ما هذا الا سحر مفترى فقد اختلفوا فى مفترى فقال بعضهم المراد انه اذا كان سحرا وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى وقال الجبائى المراد انه منسوب الى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا اليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين أى ما حدثنا بكونه فيهم ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين فى ذلك وقد سمعوا أمثاله أو يريدوا انهم لم يسمعوا بمثله فى فظاعته أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به واعلم ان هذه الشبهة ساقطة لان حاصلها يرجع الى التقليد ولان حال الاولين لا يخلو من وجهين اما أن لا يورد عليهم مثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار فان من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضا عليها وانما وجد منه العناد صح أن يقول ربى اعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعا ومن هو على الباطل ويضم اليه طريقة الوعيد والتخويف وهو قوله ومن تكون له عاقبة الدار من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن وقوله وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت فان قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لان الدنيا قد تكون خاتمتها بخير فى حق البعض وبشر فى حق البعض الآخر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر قلنا انه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازا الى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها الا الخير ليبلغوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف

أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح عليه الصلاة والسلام وكان ذلك غب ما أنذرهم بالعذاب وقوله تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام الخ (تقاسموا بالله) اما أمر مقول لقالوا أو ماض وقع بدلا منه أو حالا من فاعله باضمار قد وقوله تعالى (لنبيتنه وأهله) أى لنباغتن صالحا وأهله ليلا ونقتلنهم وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض وقرئ بياء الغيبة وضم التاء على أن تقاسموا فعل ماض (ثم لنقولن لوليه) أى لولى صالح وقرئ بالتاء والياء كما قبله (ما شهدنا مهلك أهله) أى ما حضرنا هلاكهم أو وقت هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلا أن تولى اهلاكهم وقرئ مهلك بفتح اللام فيكون مصدرا (وانا لصادقون) من تمام المقول أو حال أى نقول ما نقول والحال انا لصادقون فى ذلك لان الشاهد للشئ غير المباشر له عرفا أو لانا ما شاهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم جميعا كقولك ما رأيت ثمة رجلا بل رجلين (ومكروا مكرا) بهذه المواضعة (ومكرنا مكرا) أى أهلكناهم اهلاكا غير معهود (وهم لا يشعرون) أو جازيناهم مكرهم من حيث لا يحتسبون (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) شروع فى بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى فتفكر فى أنه كيف كان عاقبة مكرهم وقوله تعالى (أنا دمرناهم) اما بدل من عاقبة مكرهم على أنه فاعل كان وهى تامة وكيف حال أى فانظر كيف

حصل اى على أى وجه حدث تدميرنا اياهم واما خبر لمبتدا محذوف والجملة مبينة لما فى عاقبة مكرهم من

الابهام أى هى تدميرنا اياهم (وقومهم) الذين لم يكونوا معهم فى مباشرة التبييت (أجمعين) بحيث لم يشذ منهم شاذ واما تعليل لما ينبئ عنه الامر بالنظر فى كيفية عاقبة مكرهم من غاية الهول والفظاعة بحذف الجار أى لانا دمرناهم الخ وقيل كان ناقصة اسمها عاقبة مكرهم خبرها كيف كان فالاوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى انا دمرناهم الخ تعليلا لما ذكر وقرئ انا دمرناهم الخ بالكسر على الاستئناف روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا ومن معه وقيل جاؤا بالليل شاهرى سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة مل‌ء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون راميا (فتلك بيوتهم) جملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى (خاوية) أى خالية أو ساقطة متهدمة (بما ظلموا) أى بسبب ظلمهم المذكور حال من بيوتهم

فاذن عاقبتها الاصلية هى عاقبة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لانها من نتائج تحريف الفجار ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله انه لا يفلح الظالمون والمراد انهم لا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية فى زجرهم عن العناد الذى ظهر منهم ﴿قوله تعالى (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فاوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) اعلم ان فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى ان يتعلق فى دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر ههنا شبهتين (الاولى) قوله ما علمت لكم من اله غيرى وهذا فى الحقيقة يشتمل على كلامين (أحدهما) نفى اله غيره (والثانى) اثبات الهية نفسه فاما الاول فقد كان اعتماده على أن ما لا دليل عليه لم يجز اثباته أما انه لا دليل عليه فلان هذه الكواكب والافلاك كافية فى اختلاف أحوال هذا العالم السفلى فلا حاجة الى اثبات صانع وأما أن ما لا دليل عليه لم يجز اثباته فالامر فيه ظاهر واعلم ان المقدمة الاولى كاذبة فانا لا نسلم انه لا دليل على وجود الصانع وذلك لانا اذا عرفنا بالدليل حدوث الاجسام عرفنا حدوث الافلاك والكواكب وعرفنا بالضرورة ان المحدث لا بد له من محدث فحينئذ نعرف بالدليل ان هذا العالم له صانع والعجب ان جماعة اعتمدوا فى نفى كثير من الاشياء على أن قالوا الادليل عليه فوجب نفيه قالوا وانما قلنا انه لا دليل عليه لانا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلا فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق الى أن كل ما لا يعرف عليه دليل وجب نفيه وان فرعون لم يقطع بالنفى بل قال لا دليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذبا فى دعواه ففرعون على نهاية جهله أحسن حالا من هذا المستدل أما الثانى وهو اثباته الهية نفسه فاعلم انه ليس المراد منه انه كان يدعى كونه خالقا للسموات والارض والبحار والجبال وخالقا لذوات الناس وصفاتهم فان العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضى زوال العقل بل الاله هو المعبود فالرجل كان ينفى الصانع ويقول لا تكليف على الناس الا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لامره فهذا هو المراد من ادعائه الالهية لا ما ظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والارض لاسيما وقد دللنا فى سورة طه فى تفسير قوله فمن ربكما يا موسى على أنه كان عارفا بالله تعالى وانه كان يقول ذلك ترويجا على الاغمار من الناس (الشبهة الثانية) قوله فاوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه من الكاذبين وههنا ابحاث (الاول) تعلقت المشبهة بهذه الآية فى أن الله تعالى فى السماء

والعامل معنى الاشارة وقرئ خاوية بالرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم

(لآية) لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) أى ما من شأنه ان يعلم من الاشياء أو لقوم يتصفون بالعلم (وأنجينا الذين آمنوا) صالحا ومن معه من المؤمنين (وكانوا يتقون) أى الكفر والمعاصى اتقاء مستمرا فلذلك خصوا بالنجاة (ولوطا) منصوب بمضمر معطوف على أرسلنا فى صدر قصة صالح داخل معه فى حيز القسم أى وارسلنا لوطا وقوله تعالى (اذ قال لقومه) ظرف للارسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الارسال وما جرى بينه وبين قومه من الاقوال والاحوال وقيل انتصاب لوطا باضمار اذكر واذ بدل منه وقيل بالعطف على الذين آمنوا أى وأنجينا لوطا وهو بعيد (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح والسماجة وقوله تعالى (وأنتم تبصرون) جملة حالية من فاعل تأتون مفيدة لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ فان تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع وتبصرون من بصر القلب أى أتفعلونها والحال انكم تعلمون علما يقينيا بكونها كذلك وقيل يبصرها بعضكم من بعض لما كانوا يعلنون بها (أئنكم لتأتون الرجال شهوة) تثنية للانكار وتكرير للتوبيخ وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح وتحلية الجملة بحرفى التأكيد للايذان بان مضمونها مما لا يصدق وقوعه احد لكمال

قالوا ولولا أن موسى عليه السلام دعاه الى ذلك لما قال فرعون هذا القول والجواب ان موسى عليه السلام دل فرعون بقوله رب السموات والارض ولم يقل هو الذى فى السماء دون الارض فأوهم فرعون انه يقول ان الهه فى السماء وذلك أيضا من خبث فرعون ومكره ودهائه (الثانى) اختلفوا فى ان فرعون هل بنى هذا الصرح فقال قوم انه بناه قالوا انه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون الف بناء سوى الاتباع والاجراء وامر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان احد من الخلق فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد من عماله الا وقد هلك ويروى فى هذه القصة ان فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فاراد الله ان يفتنهم فردت اليهم وهى ملطوخة بالدم فقال قد قتلت اله موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه ومن الناس من قال انه لم يبن ذلك الصرح لانه يبعد من العقلاء أن يظنوا انهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الارض ومن شك فى ذلك خرج عن حد العقل وهكذا القول فيما يقال من رمى السهم الى السماء ورجوعه متلطخا بالدم فان كل من كان كامل العقل يعلم انه لا يمكنه ايصال السهم الى السماء وان من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التى حكاها الله تعالى فى القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل فيصير ذلك مشرعا قويا لمن أحب الطعن فى القرآن فالاقرب انه كان اوهم البناء ولم يبن او كان هذا من تتمة قوله ما علمت لكم من اله غيرى يعنى لا سبيل الى اثباته بالدليل فان حركات الكواكب كافية فى تغيير هذا العالم ولا سبيل الى اثباته بالحس فان الاحساس به لا يمكن الا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل اليه ثم قال عند ذلك لهامان ابن لى صرحا ابلغ به اسباب السموات وانما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الاشياء قرر انه لا دليل على الصانع ثم انه رتب النتيجة عليه فقال وانى لاظنه من الكاذبين فهذا التأويل اولى مما عداه (الثالث) انما قال اوقد لى يا هامان على الطين ولم يقل اطبخ لى الآجر واتخذه لانه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة ولان هذه العبارة أليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وامر هامان وهو وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام دليل التعظم والتجبر والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد اما قوله واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق فاعلم ان الاستكبار بالحق انما هو لله تعالى وهو المتكبر فى الحقيقة أى المبالغ فى كبرياء الشان قال عليه السلام فيما حكى عن ربه الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما القيته فى النار وكل مستكبر سواه فاستكباره

بعده من العقر وايراد المفعول بعنوان الرسولية لتربية التقبيح وتحقيق المباينة بينها وبين الشهرة التي علل بها الاتيان

بغير الحق (المسئلة) الثانية قال الجبائي الآية تدل على انه تعالى ما أعطاه الملك والا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب لا كما ادعى ملوك بني امية عند تغلبهم ان ملكهم من الله تعالى فان الله تعالى قد بين في كل غاصب لحكم الله انه أخذ ذلك بغير حق واعلم ان هذا ضعيف لان وصول ذلك الملك اليه اما ان يكون منه او من الله تعالى أو لا منه ولا من الله تعالى فان كان منه فلم لم يقدر عليه غيره فربما كان العاجز أقوى واعقل بكثير من المتولي للامر وان كان من الله تعالى فقد صح الغرض وان كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر واعلم ان هذا اظهر من ان يرتاب فيه العاقل أما قوله وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى الا انهم كانوا ينكرون البعث فلاجل ذلك تمردوا وطغوا اما قوله فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فهو من الكلام المفخم الذي دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقارا لهم واستقلالا لعددهم وان كانوا الكثير الكثير والجم الغفير بحصيات اخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر ونحو ذلك قوله وألقينا فيها رواسي شامخات وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى وليس الغرض منه الا تصوير ان كل مقدور وان عظم فهو حقير بالقياس الى قدرته اما قوله وجعلناهم أئمة يدعون الى النار فقد تمسك به الاصحاب في كونه تعالى خالقا للخير والشر قال الجبائي المراد بقوله وجعلناهم أي بينا ذلك من حالهم وسميناهم به ومنه قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وتقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله جعله فاسقا وبخيلا لا انه خلقهم أئمة لانهم حال خلقه لهم كانوا اطفالا (وقال الكعبي) انما قال وجعلناهم أئمة من حيث خلى بينهم وبين ما فعلوه ولم يعاجل بالعقوبة ومن حيث كفروا ولم يمنعهم بالقسر وذلك كقوله زادتهم رجسا لما زادوا عندها ونظيره ذلك ان الرجل يسئل ما يثقل عليه وان أمكنه فاذا بخل به قيل للسائل جعلت فلانا بخيلا اى قد بخلته وقال أبو مسلم معنى الامامة التقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين واعلم أن الكلام فيه قد تقدم في سورة مريم في قوله انا أرسلنا الشياطين على الكافرين ومعنى دعوتهم الى النار دعوتهم الى موجباتها من الكفر والمعاصي فان أحدا لا يدعو الى النار البتة وانما جعلهم الله تعالى ائمة في هذا الباب لانهم بلغوا في هذا الباب أقصى النهايات ومن كان كذلك استحق أن يكون اماما يقتدى به في ذلك الباب ثم بين تعالى ان ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله ويوم القيامة لا ينصرون او يكون معناه ويوم القيامة لا ينصرون كما ينصر الائمة الدعاة الى الجنة اما قوله واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة معناه لعنة الله والملائكة لهم وامر تعالى بذلك فيها للمؤمنين وبين انهم يوم القيامة من المقبوحين اى المبعدين الملعونين والقبح هو الابعاد قال الليث يقال قبحه الله اى نحاه عن

(من دون النساء) متجاوزين النساء اللاتي هن محال الشهوة (بل أنتم قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين بقبحه او تجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أى بل أنتم قوم سفهاء ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة لقوم لكونهم في حيز الخطاب (فما كان جواب قومه الا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) يتنزهون عن افعالنا أو عن الاقذار ويعدون فعلنا قذرا وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه استهزاء وقد مر في سورة الاعراف ان هذا الجواب هو صدر عنهم في المرة الاخيرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالامر والنهي لا انه لم يصدر عنهم كلام اخر غيره (فأنجيناه واهله الا امرأته قدرناها) أى قدرنا أنها (من الغابرين) أى الباقين في العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) غير معهود (فساء مطر المنذرين) قد مر بيان كيفية ما جرى عليهم من العذاب غير مرة (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) اثر ما قص الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام قصص الانبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة اقدارهم وصحة أخبارهم وبين على ألسنتهم حقية الاسلام والتوحيد وبطلان كل

الكفر والاشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى في مهاوي الردى وشرح صدره عليه الصلاة

كل خير وقال ابن عباس رضي الله عنهما من المشوهين بسواد الوجه وزرقة العين وعلى الجملة فالاقلون حملوا القبح على القبح الروحاني وهو الطرد والابعاد من رحمة الله تعالى والباقون حملوه على القبح في الصور وقيل فيه انه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين ثم بين تعالى ان الذي يجب التمسك به ما جاء به موسى عليه السلام فقال ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى والكتاب هو التوراة ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس من حيث يستبصر به في باب الدين وهدى من حيث يستدل به ومن حيث ان المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب ووصفه بانه رحمة لانه من نعم الله تعالى على من تعبد به وروى ابو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما اهلك الله تعالى قرنا من القرون بعذاب من السماء ولا من الارض منذ انزل التوراة غير اهل القرية التي مسخها قردة اما قوله لعلهم يتذكرون فالمراد لكي يتذكروا وقال القاضي وذلك يدل على ارادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك او لم يختره ففيه ابطال مذهب الجبرة الذين يقولون ما أراد التذكر الا ممن يتذكر فاما من لا يتذكر فقد كره ذلك منه ونص القرآن دافع لهذا القول قلنا أليس انكم حملتم قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم على العاقبة فلم لا يجوز حمله ههنا على العاقبة فان عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك في الآخرة ﴿ قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) اعلم ان في الآية سؤالات (السؤال الاول) الجانب موصوف والغربي صفة فكيف اضاف الموصوف الى الصفة الجواب هذه مسئلة خلافية بين النحويين فعند البصريين لا يجوز اضافة الموصوف الى الصفة الا بشرط خاص سنذكره وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقا حجة البصريين ان اضافة الموصوف الى الصفة تقتضي اضافة الشئ الى نفسه وهذا غير جائز فذاك أيضا غير جائز بيان الملازمة انك اذا قلت جاءني زيد الظريف فلفظ الظريف يدل على شئ معين في نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة فاذا نصصت على زيد عرفنا ان ذلك الشئ الذي حصلت له الظرافة هو زيد اذا ثبت هذا فلو أضفت زيدا الى الظريف كنت قد أضفت زيدا الى زيد واضافة الشئ الى نفسه غير جائزة فاضافة الموصوف الى صفته وجب أن لا تجوز الا انه جاء على خلاف هذه القاعدة ألفاظ وهي قوله تعالى في هذه الآية وما كنت بجانب الغربي وقوله وذلك دين القيمة وقوله حق اليقين ولدار الآخرة ويقال صلاة الاولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء فقالوا التأويل فيه بجانب المكان الغربي ودين الملة القيمة وحق الشئ اليقين ودار الساعة الآخرة وصلاة الساعة الاولى ومسجد

والسلام بما في تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية ونور قلبه بانوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك فحوى ما نطق به قوله عز وجل وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم أمره عليه الصلاة والسلام بان يحمده تعالى على ما أفاض عليه من تلك النعم التي لا مطمع وراءها لطامع ولا مطمح من دونها لطامح ويسلم على كافة الانبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليه أخبارهم التي هي من جملة المعارف التي أوحيت اليه عليه الصلاة والسلام أداء لحق تقدمهم واجتهادهم في الدين وقيل هو أمر للوط عليه السلام بان يحمده تعالى على اهلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك ولا يخفى بعده (آلله خير أما يشركون) اى آلله الذي ذكرت شؤونه العظيمة خير أم ما يشركونه به تعالى من الاصنام ومرجع الترديد الى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم اذ من البين أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير ما حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير الا خيره ولا اله غيره وقرئ تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى الكفرة وهو الأليق بما بعده من سياق النظم الكريم المبني على خطابهم وجعله من جملة القول المأمور به يأباه

قوله تعالى فأنبتنا الخ فانه صريح فى أن ٦١٢ التبكيت من قبله عز وجل بالذات وحمله على انه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما
أمر به بعبارته كما فى قوله تعالى
قل ياعبادى الذين أسرفوا على
انفسهم تعسف ظاهر من غير داع
اليه وأم فى قوله تعالى (أم من
خلق السموات والارض) منقطعة
ومافيها من كلمة بل على القراءة
الاولى للاضراب والانتقال من
التبكيت تعريضا الى التصريح
به خطابا على وجه أظهر منه لمزيد
التأكيد والتشديد واما على القراءة
الثانية فلتثنية التبكيت وتكرير
الالزام كنظائرها الآتية والهمزة
لتقريرهم اى حملهم على الاقرار
بالحق على وجه الاضطرار فانه
لا يتمالك احد ممن له ادنى تمييز
ولا يقدر على ان لا يعترف بخيرية من
خلق جميع المخلوقات وافاض
على كل منها مايليق به من منافعه
من اخس تلك المخلوقات وأدناها
بل بأن لاخيرية فيه بوجه من
الوجوه قطعا ومن مبتدأ خبره
محذوف مع ام المعادلة للهمزة
تعويلا على ماسبق فى الاستفهام
الاول خلا ان تشركون ههنا
بتاء الخطاب على القراءتين معا
وهكذا فى المواضع الاربعة
الآتية والمعنى بل امن خلق
قطرى العالم الجسمانى ومبدأى
منافع مابينهما (وانزل لكم)
التفات الى خطاب الكفرة على
القراءة الاولى لتشديد التبكيت
والالزام اى انزل لاجلكم
ومنفعتكم (من السماء ماء) اى
نوعا منه هو المطر (فأنبتنا به حدائق) اى بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط (ذات بهجة) اى ذات حسن ورونق يبتهج به رحمة

المكان الجامع وبقلة الحبة الخضراء ثم قالوا فى هذه المواضع المضاف اليه ليس هو النعت بل المنعوت الا انه حذف المنعوت واقيم النعت مقامه فههنا ينظر ان كان ذلك النعت كالمتعين لذلك المنعوت حسن ذلك والا فلا الا ترى انه ليس لك أن تقول عندى جيد على معنى عندى درهم جيد ويجوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه لان الفقيه يعلم انه لا يكون الا من الناس والجيد قد يكون درهما وقد يكون غيره واذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربى لان الشئ الموصوف بالغربى الذى يضاف اليه الجانب لا يكون الا مكانا أو مايشبهه فلاجرم حسنت هذه الاضافة وكذا القول فى البواقى والله أعلم (السؤال الثانى) مامعنى قوله اذ قضينا الى موسى الامر (الجواب) الجانب الغربى هو المكان الواقع فى شق الغرب وهو المكان الذى وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له فى الالواح والامر المقضى الى موسى عليه السلام الوحى الذى أوحى اليه والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يقول وما كنت حاضر المكان الذى أوحينا فيه الى موسى عليه السلام ولا كنت من جملة الشاهدين للوحى اليه أو على الموحى اليه وهم لان الشاهد لابد وان يكون حاضرا وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات (السؤال الثالث) لما قال وما كنت بجانب الغربى ثبت انه لم يكن شاهدا لان الشاهد لابد أن يكون حاضرا فما الفائدة فى اعادة قوله وما كنت من الشاهدين (الجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع فانه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى (السؤال الرابع) كيف يتصل قوله ولكنا أنشأنا قرونا بهذا الكلام ومن أى وجه يكون استدراكا له (الجواب) معنى الآية ولكنا أنشأنا بعد عهد موسى عليه السلام الى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذى أنت فيه فاندرست العلوم فوجب ارسالك اليهم فأرسلناك وعرفناك أحوال الانبياء واحوال موسى فالحاصل كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب فاذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال ان فى اخبارك عن هذه الاشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال أولم تأتهم بينة مافى الصحف الاولى اما قوله وما كنت ثاويا فى أهل مدين فالمعنى ماكنت مقيما فيهم واما قوله تتلو عليهم آياتنا ففيه وجهان (الاول) قال مقاتل يقول لم تشهد اهل مدين فتقرأ على اهل مكة خبرهم ولكنا كنا مرسلين أى ارسلناك الى اهل مكة وأنزلنا عليك هذه الاخبار ولولا ذلك لما علمتها (الثانى) قال الضحاك يقول انك يا محمد لم تكن الرسول الى اهل مدين تتلو عليهم الكتاب وانما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين فى كل زمان رسولا فأرسلنا الى اهل مدين شعيبا وارسلناك الى العرب لتكون خاتم الانبياء أما قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ولكن

النظار (ما كان لكم) أى ماصح وما أمكن لكم (أن تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمرها ٦١٣ وسائر صفاتها البديعة خير أم ما تشركون
وقرئ أمن بالتخفيف على أنه بدل
من الله وتقديم صلتى الانزال على
مفعوله لما مر مرارا من التشويق
الى المؤخر والالتفات الى التكلم
فى قوله تعالى فأنبتنا لتأكيد
اختصاص الفعل بذاته تعالى
والايذان بان انبات تلك الحدائق
المختلفة الاصناف والاوصاف
والالوان والطعوم والروائح
والاشكال مع مالها من الحسن
البارع والبهاء الرائع بماء واحد
مما لا يكاد يقدر عليه الا هو وحده
حسبما ينبئ عنه تقييدها بقوله
تعالى ما كان لكم الخ سواء كانت
صفة لها أو حالا وتوحيد وصفها
الاول أعنى ذات بهجة لما أن المعنى
جماعة حدائق ذات بهجة على نهج
قولهم النساء ذهبت وكذا الحال
فى ضمير شجرها (أإله مع الله) أى
أإله آخر كائن مع الله الذى ذكر
بعض أفعاله التى لا يكاد يقدر
عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكا
له تعالى فى العبادة وهذا تبكيت
لهم بنفى الالوهية عما يشركونه به
تعالى فى ضمن النفى الكلى على
الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفى
الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فان
أحدا ممن له تمييز فى الجملة كما لا يقدر
على انكار انتفاء الخيرية عنه
بالمرة لا يكاد يقدر على انكار
انتفاء الالوهية عنه رأسا لاسيما بعد
ملاحظة انتفاء أحكامها عما
سواه تعالى وهكذا الحال فى المواقع الاربعة الآتية وقيل المراد نفى أن يكون معه تعالى إله آخر فيما ذكر من الخلق وماعطف

رحمة من ربك اى علمناك رحمة وقرأ عيسى بن عمر بالرفع اى هى رحمة وذكر المفسرون فى قوله اذ نادينا وجوها اخر (احدها) اذ نادينا أى قلنا لموسى ورحمتى وسعت كل شئ الى قوله أولئك هم المفلحون (وثانيها) قال ابن عباس اذ نادينا امتك فى اصلاب ابائهم يا امة محمد اجبتكم قبل ان تدعونى واعطيتكم قبل ان تسألونى وغفرت لكم قبل ان تستغفرونى قال وانما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا لميقات ربه (وثالثها) قال وهب لما ذكر الله لموسى فضل امة محمد صلى الله عليه وسلم قال رب ارنيهم قال انك لن تدركهم وان شئت اسمعتك اصواتهم قال بلى يارب فقال سبحانه يا امة محمد فأجابوه من اصلاب آبائهم فاسمعه الله تعالى اصواتهم ثم قال اجبتكم قبل ان تدعونى الحديث كما ذكره ابن عباس (ورابعها) روى سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا قال كتب الله كتابا قبل ان يخلق الخلق بالفى عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يا امة محمد ان رحمتى سبقت غضبى اعطيتكم قبل ان تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى من لقينى منكم يشهد أن لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ادخلته الجنة اما قوله لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك فالانذار هو التخويف بالعقاب على المعصية (واعلم) انه تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله وما كنت بجانب الغربى وما كنت ثاويا فى أهل مدين وما كنت بجانب الطور فجمع تعالى بين كل ذلك لان هذه الثلاثة هى الاحوال العظيمة التى اتفقت لموسى عليه السلام اذ المراد بقوله اذ قضينا الى موسى الامر انزال التوراة حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله وما كنت ثاويا اول امره والمراد نادينا وسط امره وهو ليلة المناجاة ولما بين تعالى انه عليه السلام لم يكن فى هذه الاحوال حاضرا بين تعالى انه بعثه وعرفه هذه الاحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك واختلفوا فيه فقال بعضهم لم يبعث اليهم نذير منهم (وقال بعضهم) حجة الانبياء كانت قائمة عليهم ولكنه مابعث اليهم من يجدد تلك الحجة عليهم وقال بعضهم لا يبعد وقوع الفترة فى التكاليف فبعثه الله تعالى تقريرا للتكاليف وازالة لتلك الفترة اما قوله ولولا أن تصيبهم مصيبة الآية فقال صاحب الكشاف لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء فى قوله فيقولوا للعطف وفى قوله فنتبع جواب لولا لكونها فى حكم الامر من قبل ان الامر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد والمعنى ولولا انهم قائلون اذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى هلا ارسلت الينا رسولا محتجين علينا بذلك لما ارسلنا اليهم يعنى انما ارسلنا الرسول ازالة لهذا العذر وهو كقوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك واعلم انه تعالى لم يقل ولولا أن يقولوا هذا العذر لما ارسلنا بل قال ولولا أن تصيبهم مصيبة فيقولوا هذا العذر لما ارسلنا وانما قال ذلك لنكتة وهى انهم لولم

عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفي فقط كيف لا وهم لا ينكرونه حسبما ينطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق

يعاقبوا امثلا وقد عرفوا ببطلان دينهم لما قالوا ذلك بل انما يقولون ذلك اذا نالهم العقاب فيدل ذلك على انهم لم يذكروا هذا العذر تأسفا على كفرهم بل لانهم ما اطاقوا العذاب وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائي على وجوب فعل اللطف قال لو لم يجب ذلك لم يكن لهم أن يقولوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك اذ من الجائز أن لا يبعث اليهم وان كانوا لا يختارون الايمان الا عنده على قول من خالف في وجوب اللطف كما من أن الجائز اذا كان في المعلوم لو خلق له لم يكن الا أن يفعل ذلك (المسئلة الثانية) احتج الكعبي به على ان الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الامر كما يقوله أهل السنة من انه تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا انه ليس المراد من قوله لا يسأل عما يفعل ما يظنه اهل السنة واذا ثبت انه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى والا لكان للكافر اعظم حجة على الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال القاضي فيه ابطال القول بالجبر من جهات (احداها) ان اتباعهم وايمانهم موقوف على ان يخلق الله ذلك فيهم سواء ارسل الرسول اليهم ام لا (وثانيها) انه اذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء ارسل الرسول أم لا (وثالثها) اذا اراد ذلك وجب ارسل الرسول اليهم ام لا فاى فائدة في قولهم هذا لو كانت افعالهم خلقا لله تعالى فيقال للقاضي هب انك نازعت في الخلق والارادة ولكنك وافقت في العلم فاذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا فان لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وان وجب لزمك ما أوردته علينا واعلم ان الكلام وان كان قويا حسنا الا انه اذا توجه عليه النقض الذي لا محيص عنه فكيف يرضى العاقل بان يعول عليه ﴿ قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا اوتي مثل

ما اوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل

كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا

لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى

القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به

يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا امنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون

اجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون واذا سمعوا

اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) اعلم انه تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك بين ايضا انه بعد الارسال الى أهل مكة قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون باخرى فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد اما قوله فلما جاءهم الحق من عندنا أى جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا لولا

السموات والارض ليقولن الله بل باشرا كهم به تعالى في العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الالوهية كأنه قيل أاله آخر مع الله في خواص الالوهية حتى يجعل شريكا له تعالى في العبادة وقيل المعنى أغيره يقرن به ويجعل له شريكا في العبادة مع تفرده تعالى بالخلق والتكوين فالانكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفي كما في الوجهين السابقين والاول هو الاظهر الموافق لقوله تعالى وما كان معه من اله والاوفق بحق المقام لافادته نفي وجود اله آخر معه تعالى رأسا لا نفي معيته في الخلق وفروعه فقط وقرئ أاله بتوسيط مدة بين الهمزتين وباخراج الثانية بين بين وقرئ أالها باضمار فعل يناسب المقام مثل أتدعون أو أتشركون (بل هم قوم يعدلون) اضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب الى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم أى بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الامور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذي هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذي هو الاشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد خال عن الافادة (أم من جعل الارض قرارا) قيل هو بدل من أم من خلق السموات الخ وكذا ما بعده من الجمل الثلاث اوفى

وحكم الكل واحد والاظهر أن كل واحدة منها اضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها الى التبكيت بوجه آخر

أوتي مثل ما أوتي موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن ان الله كلمه وكتب له في الالواح وغيرها من الآيات لجاؤا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما أشبه ذلك (واعلم) ان الذي اقترحوه غير لازم لانه لا يجب في معجزات الانبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل اليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد اذ الصلاح قد يكون في انزاله مجموعا كالتوراة ومفرقا كالقرآن ثم انه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل واختلفوا في أن الضمير في قوله أولم يكفروا الى من يعود وذكروا وجوها (احدها) ان اليهود أمروا قريشا أن يسألوا محمدا ان يؤتى مثل ما أوتي موسى عليه السلام فقال تعالى أولم يكفروا بما أوتي موسى يعني اولم تكفروا يا هؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة (وثانيها) ان الذين اوردوا هذا الاقتراح كفار مكة والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام الا انه تعالى جعلهم كالشيء الواحد لانهم في الكفر والتعنت كالشيء الواحد (وثالثها) قال الكلبي ان مشركي مكة بعثوا رهطا الى يهود المدينة ليسألوهم عن محمد وشأنه فقالوا انا نجده في التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط اليهم واخبروهم بقول اليهود قالوا انه كان ساحرا كما ان محمدا ساحر فقال تعالى في حقهم أولم يكفروا بما أوتي موسى (ورابعها) قال الحسن قد كان للعرب أصل في ايام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أولم يكفر آباؤهم بان قالوا في موسى وهرون ساحران (وخامسها) قال قتادة أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا ساحران (وسادسها) وهو الاظهر عندي ان كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم انهم لما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل بل بما أوتي جميع الانبياء من قبل فعلمنا انه لا غرض لكم من هذا الاقتراح الا التعنت ثم انه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتي موسى من وجهين (الاول) قولهم ساحران تظاهرا قرأ ابن كثير وأبو عمرو واهل المدينة ساحران بالالف وقرأ اهل الكوفة بغير الف وذكروا في تفسير الساحرين وجوها (احدها) المراد هرون وموسى عليهما السلام تظاهرا اى تعاونا وقرئ اظاهرا على الادغام وسحران بمعنى ذوي سحر وجعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله سحران بان المراد هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالالف لان المظاهرة بالناس وأفعالهم أشبه منها بالكتب وجوابه انا بينا أن قوله سحران يمكن حمله على الرجلين وبتقدير أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوى الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز تعاونا كما تقول تظاهرت الاخبار وهذا التأويل انما تصح اذا حملنا قوله

ادخل في الالزام بجهة من الجهات أى جعلها بحيث يستقر عليها الانسان والدواب بابداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم (وجعل خلالها) أوساطها (أنهارا) جارية ينتفعون بها (وجعل لها رواسي) أى جبالا ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها المعادن وينبع في حضيضها الينابيع ويتعلق بها من المصالح ما لا يحصى (وجعل بين البحرين) أى العذب والمالح أو خليجي فارس والروم (حاجزا) برزخا مانعا من الممازجة وقد مر في سورة الفرقان والجعل في المواقع الثلاثة الاخيرة ابداعي وتأخير مفعوله عن الظرف لما مر مرارا من التشويق (أاله مع الله) في الوجود أو في ابداع هذه البدائع على ما مر (بل أكثرهم لا يعلمون) أى شيأ من الاشياء ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) وهو الذي أحوجته شدة من الشدائد والجأته الى اللجاء والضراعة الى الله عز وجل اسم مفعول من الاضطرار الذي هو افتعال من الضرورة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هو المجهود وعن السدي رحمه الله تعالى من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفروا اللام للجنس لا للاستغراق حتى يلزم اجابة كل مضطر (ويكشف السوء) وهو الذي يعتري الانسان مما يسوءه (ويجعلكم خلفاء الارض) أى خلفاء فيها بان

ورثكم مكانها والتصرف فيها من قبلكم من الامم وقيل المراد بالخلافة الملك والتسلط (أإله مع الله) الذي يفيض على
كافة الانام هذه النعم الجسام (قليلا ما تذكرون) أي تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تتذكرون وما مزيدة لتأكيد معنى القلة التي أريد بها العدم أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى وفي تذييل الكلام بنفي التذكر عنهم ايذان بان مضمونه مركوز في ذهن كل ذكي وغبي وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف الا على التوجه اليه وتذكره وقرئ تتذكرون على الاصل ويذكرون وتذكرون بالتاء والياء مع الادغام (أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر) أي في ظلمات الليالي فيهما على أن الاضافة للملابسة أو في مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتي لا منار بها (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) وهي المطر ولئن صح أن السبب الاكثري في تكون الريح معاودة الادخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لانكسار حرها وتموجها الهواء فلا ريب في أن الاسباب الفاعلية والقابلية لذلك كله من خلق الله عز وجل والفاعل للسبب فاعل للمسبب قطعا (أإله مع الله) نفي لأن يكون معه اله آخر وقوله تعالى (تعالى الله عما يشركون) تقرير وتحقيق له واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم أي تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالالوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال المقتضية ليكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته عما يشركون أي عن وجود ما يشركونه به تعالى لا مطلقا

أو لم يكفر وا بما أوتي موسى اما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام ولا شك ان ذلك أليق بمساق الآية (الثاني) قولهم انا بكل كافرون أي بما انزل على محمد وموسى وسائر الانبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق الا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة في انهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوه فما الذي يمنع من مثله في محمد صلى الله عليه وسلم وان ظهرت حجته ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فقال قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه وهذا تنبيه على عجزهم عن الاتيان بمثله قال الزجاج اتبعه بالجزم على الشرط ومن قرأ اتبعه بالرفع فالتقدير انا اتبعه ثم قال فان لم يستجيبوا لك قال ابن عباس يريد فان لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج وقال مقاتل فان لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب افضل منهما وهذا اشبه بالآية فان قيل الاستجابة تقتضي دعاء فأين الدعاء ههنا قلنا قوله فأتوا بكتاب أمر والامر دعاء الى الفعل ثم قال فاعلم انما يتبعون اهواءهم يعني قد صار وا ملزمين ولم يبق لهم شئ الا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد وانه لا بد من الحجة والاستدلال ان الله لا يهدي القوم الظالمين وهو عام يتناول الكافر لقوله ان الشرك لظلم عظيم واحتج الاصحاب به في ان هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين (وقالت المعتزلة) الالطاف منها ما يحسن فعلها مطلقا ومنها ما لا يحسن الا بعد الايمان والدليل عليه قوله والذين اهتدوا زادهم هدى فقوله ان الله لا يهدي القوم الظالمين محمول على القسم الثاني ولا يجوز حمله على القسم الاول لانه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ان عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم فبان يكون عدم الهداية عذرا لهم أولى ولما بين تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدلالة قال ولقد وصلنا لهم القول وتوصيل القول هو اتيان بيان بعد بيان وهو من وصل البعض بالبعض وهذا القول الموصل يحتمل ان يكون المراد منه انا نزلنا القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك اقرب الى التذكير والتنبيه فانهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب الى التذكر وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابا عن قولهم هلا أوتي محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتي موسى كتابه كذلك ويحتمل أن يكون المراد وصلنا اخبار الانبياء بعضها ببعض واخبار الكفار في كيفية هلاكهم تكثيرا للمواضع الاتعاظ والانزجار ويحتمل أن يكون المراد بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزا مرة بعد أخرى لعلهم يتذكرون ثم انه تعالى لما أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال الذين آتيناهم الكتاب من قبله أي من قبل القرآن اسلموا بمحمد فمن لا يعرف الكتب أولى بذلك واختلفوا في المراد بقوله الذين آتيناهم الكتاب وذكروا فيه وجوها (احدها) قال قتادة انها نزلت في اناس من اهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدا امنوا به من جملتهم سلمان وعبد

الله .

فان وجوده مما لا مرد له بل عن وجوده بعنوان كونه الها وشريكا له تعالى أو عن اشراكهم (أمن يبدأ الخلق ثم
يعيده) أي بل أمن يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث (ومن يرزقكم من السماء والارض) أي بأسباب سماوية وأرضية قدرتها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التي عليها بني أمر التكوين خير أم ما تشركونه به في العبادة من جماد لا يتوهم قدرته على شئ ما أصلا (أإله) آخر موجود (مع الله) حتى يجعل شريكا له في العبادة وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم) أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم اثر تبكيت أي هاتوا برهانا عقليا أو نقليا يدل على أن معه تعالى الها لا على أن غيره تعالى يقدر على شئ مما ذكر من أفعاله تعالى كما قيل فانهم لا يدعونه صريحا ولا يلتزمون كونه من لوازم الالوهية وان كان منها في الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له وفي اضافة البرهان الى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من ايهام أن لهم برهانا وأنى لهم ذلك (ان كنتم صادقين) أي في تلك الدعوى (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله) بعدما حقق تفرده تعالى بالالوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة والرحمة الشاملة العامة عقبه بذكر ما هو من لوازمه وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من أمر
البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على استحالة علم الغيب من أهل

الله بن سلام (وثانيها) قال مقاتل نزلت في اربعين رجلا من أهل الانجيل وهم أصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر (وثالثها) قال رفاعة بن قرظة نزلت في عشرة انا احدهم وقد عرفت ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكل من حصل في حقه تلك الصفة كان داخلا في الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد ايمانهم وهو قولهم امنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين فقوله انه الحق من ربنا يدل على التعليل يعني أن كونه حقا من عند الله يوجب الايمان به وقوله انا كنا من قبله مسلمين بيان لقوله آمنا به لانه يحتمل أن يكون ايمانا قريب العهد وبعيده فاخبروا أن ايمانهم به متقادم وذلك لما وجدوه في كتب الانبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه ثم انه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وذكروا فيه وجوها (أحدها) انهم يؤتون أجرهم مرتين بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبعد بعثته وهذا هو الاقرب لانه تعالى لما بين انهم آمنوا به بعد البعثة وبين أيضا انهم كانوا مؤمنين به قبل البعثة ثم اثبت الاجر مرتين وجب أن ينصرف الى ذلك (وثانيها) يؤتون الاجر مرتين مرة بايمانهم بالانبياء الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومرة أخرى بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم اجران أجر على الصفح وأجر على الايمان يروى انهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه قال السدي اليهود عابوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول سلام عليكم ثم قال ويدرؤن بالحسنة السيئة والمعنى بالطاعة المعصية المتقدمة ويحتمل أن يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الاذى ويحتمل أن يكون المراد من الحسنة امتناعهم من المعاصي لان نفس الامتناع حسنة ويدفع به ما لولاه لكان سيئة ويحتمل التوبة والانابة والاستقرار عليها ثم قال ومما رزقناهم ينفقون واعلم انه تعالى مدحهم اولا بالايمان ثم بالطاعات البدنية في قوله ويدرؤن بالحسنة السيئة ثم بالطاعات المالية في قوله ومما رزقناهم ينفقون (قال) القاضي دل هذا المدح على أن الحرام لا يكون رزقا جوابه ان كلمة من للتبعيض فدل على انهم استحقوا المدح بانفاق بعض ما كان رزقا وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله ثم لما بين كيفية اشتغالهم بالطاعات والافعال الحسنة بين كيفية اعراضهم عن الجهال فقال واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه واللغو ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه اعراضا جميلا فلذلك قال تعالى وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم وما أحسن ما قال الحسن رحمه الله في أن هذه الكلمة تحية بين المؤمنين وعلامة الاحتمال من الجاهلين ونظيره هذه الآية قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم أكد تعالى ذلك بقوله حاكيا عنهم لا نبتغي الجاهلين والمراد لا نجازيهم بالباطل على باطلهم قال قوم نسخ ذلك

السموات والارض متعلقه بكونه سبحانه ٦١٨ وتعالى منهم كأنه قيل ان كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم من يعلم الغيب

بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المنافقة مندوب وان كان القتال واجبا ﴿ قوله تعالى (انك لا تهتدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون) اعلم أن فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء مسائل (المسئلة الاولى) هذه الآية لا دلالة فى ظاهرها على كفر أبى طالب ثم قال الزجاج أجمع المسلمون على انها نزلت فى أبى طالب وذلك أن اباطالب قال عند موته يامعشر بنى عبد مناف أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال عليه السلام ياعم تأمرهم بالنصح لانفسهم وتدعها لنفسك قال فماتريد يا ابن أخى قال أريد منك كلمة واحدة فانك فى آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا اله الا الله أشهد لك بها عند الله تعالى قال يا ابن أخى قد علمت انك صادق ولكنى أكره ان يقال خرع عند الموت ولولا ان يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة ومسبة بعدى لقلتها ولاقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك ولكنى سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (المسئلة الثانية) انه تعالى قال فى هذه الآية انك لا تهدى من أحببت وقال فى اية أخرى وانك لتهدى الى صراط مستقيم ولا تنافى بينهما فان الذى اثبته وأضافه اليه الدعوة والبيان والذى نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدر وهو نور يقذف فى القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية (المسئلة الثالثة) احتج الاصحاب بهذه الآية فى مسئلة الهدى والضلال فقالوا قوله انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء يقتضى ان تكون الهداية فى الموضعين بمعنى واحد لانه لو كان المراد من الهداية فى قوله انك لا تهدى شيأ وفى قوله ولكن الله يهدى من يشاء شيأ آخر لاختل النظم ثم اما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة او الدعوة الى الجنة اوتعريف طريق الجنة وخلق المعرفة فى القلوب على سبيل الالجاء اوخلق المعرفة فى القلوب لاعلى سبيل الالجاء لاجائز ان يكون المراد بيان الادلة لانه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهى غير الهداية التى نفى الله عموميتها وكذا القول فى الهداية بمعنى الدعوة الى الجنة واما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهى ايضا غير مرادة من الآية لانه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لانه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقا على المشيئة فمن وجب عليه داء عشرة دنانير لا يجوز ان يقول انى اعطى عشرة دنانير ان شئت واما الهداية بمعنى الالجاء والقسر فغير جائز لان ذلك عندهم قبيح من الله تعالى فى حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل او الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه على المشيئة ولما بطلت الاقسام لم يبق الا ان المراد انه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ولا يسأل عما يفعل ومتى اوردت الكلام على

ومتصل على أن المراد بمن فى السموات والارض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما فان ذلك معنى مجازى عام له تعالى ولاولى العلم من خلقه ومن موصولة او موصوفة (ومايشعرون أيان يبعثون) أى متى ينشرون من القبور مع كونه مما لابد لهم منه ومن أهم الامور عندهم وأيان مركبة من أى وآن وقرئ بكسر الهمزة والضمير للكفرة وان كان عدم الشعور بما ذكر عاما لئلا يلزم التفكيك بينه وبين ماسياتى من الضمائر الخاصة بهم قطعا وقيل الكل لمن واسناد خواص الكفرة الى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم (بل ادارك علمهم فى الآخرة) لما نفى عنهم علم الغيب وا كد ذلك بنفى شعورهم بوقت ماهو مصيرهم لامحالة بولغ فى تأكيده وتقريره بأن أضرب عنه وبين أنهم فى جهل أفحش من جهلهم بوقت بعثهم حيث لايعلمون أحوال الآخرة مطلقا مع تعاضد أسباب معرفتها على أن معنى ادارك علمهم فى الآخرة تدارك وتتابع علمهم فى شأن الآخرة التى ماذكر من البعث حال من أحوالها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بشئ مما سيكون فيها قطعا لكن لاعلى معنى أنه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى شيأ فشيأ بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية هذا

والسمعية منزلة نفسه واجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كلما لحظوها مجرى ٦١٩ تتابعها الى الانقطاع ثم أضرب وانتقل

هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضى عذرا عن ذلك اما قوله وهو أعلم بالمهتدين فالمعنى انه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدى بعد ومن لايهتدى ثم انه سبحانه بعد ان ذكر شبههم وأجاب عنها بالاجوبة الواضحة وبين أن وضوح الدلائل لا يكفى مالم ينضم اليه هداية الله تعالى حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهى قولهم ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا قال المبرد الخطف الانتزاع بسرعة روى أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال للرسول الله صلى الله عليه وسلم انا لنعلم ان الذى تقوله حق ولكن يمنعنا من ذلك تخطف العرب ايانا من أرضنا أى يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من ارضنا فاجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه (الاول) قوله أولم نمكن لهم حرما آمنا اى أعطيناكم مسكنا لاخوف لكم فيه اما لان العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه فانه يروى ان العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة وما كانوا يتعرضون البتة لسكان الحرم أو لقوله تعالى ومن دخله كان آمنا اما قوله يجبى اليه ثمرات كل شئ فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خاليا عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ومعنى يجبى يجمع من قولهم جبيت الماء فى الحوض اذا جمعته قرا أهل المدينة تجبى بالتاء وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقى فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ومعنى الكلية الكثرة كقوله واوتيت من كل شئ وحاصل الجواب انه تعالى لما جعل الحرم آمنا وا كثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الاوثان فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى قال القاضى ولو أن الرسول قال لهم ان الذى ذكرتم من التخطف لو كان حقا لم يكن عذرا لكم فى ان لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا أو قال لهم ان تخطفهم لكم بالقتل وغيره وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لانقطعوا ايضا ولو قال لهم ماقدر مضرة التخطف فى جنب العقاب الدائم الذى أخوفكم منه ان بقيتم على كفركم لانقطعوا لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم فى انهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة ان ذلك لا يجرى ان آمنوا ومثل ذلك اذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ماذكرنا فلذلك قدمه الله تعالى والآية دالة على صحة الحجاج الذى يتوصل به الى ازالة شبهة المبطلين بقى ههنا بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف فى انتصاب رزقا ان جعلته مصدرا جاز أن ينتصب بمعنى ماقبله لان معنى يجبى اليه ثمرات كل شئ ويرزق ثمرات كل شئ واحد وان يكون مفعولا له وان جعلته بمعنى مرزوق كان حالا من الثمرات لتخصيصها بالاضافة كما ينتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة (الثانى) احتج الاصحاب بقوله رزقا من لدنا فى أن فعل العبد خلق الله تعالى وبيانه أن تلك الارزاق انما كانت تصل اليهم لان الناس كانوا يحملونها اليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقا لله تعالى لما صحت تلك الاضافة فان قيل سبب تلك الاضافة انه تعالى هو الذى ألقى تلك الدواعى فى قلوب من ذهب بتلك

عن بيان عدم علمهم بها الى بيان ماهو أسوأ منه وهو حيرتهم فى ذلك حيث قيل (بل هم فى شك منها) أى فى شك مريب من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير فى أمر لايجد عليه دليلا فضلا عن الامور التى ستقع فيها ثم أضرب عن ذلك الى بيان أن ماهم فيه أشد وأفظع من الشك حيث قيل (بل هم منها عمون) بحيث لايكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالكلية وقرئ بل أدرك علمهم بمعنى انتهى وفنى وقد فسره الحسن البصرى باضمحل علمهم وقيل كلتا الصيغتين على معناهما الظاهر أى تكامل واستحكم أو تم أسباب علمهم بان القيامة كائنة لامحالة من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون فى ذلك وقوله تعالى بل هم فى شك منها اضراب وانتقال من وصفهم بمطلق الجهل الى وصفهم بالشك وقوله تعالى بل هم منها عمون اضراب من وصفهم بالشك الى وصفهم بما هو أشد منه وأفظع من العمى وأنت خبير بأن تنزيل أسباب العلم منزلة العلم سنن مسلوك لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة وقيل المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكم بهم فيكون وصفا لهم بالجهل مبالغة والاضرابان على ماذكر أصل ادارك تدارك وبه قرأ أبى

الارزاق اليهم فلما تلك الدواعى ان اقتضت الرجحان فقد بينا فى غير موضع انه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود وان لم يحصل الرجحان انقطعت الاضافة بالكلية واعلم انه تعالى انما بين أن تلك الارزاق ما وصلت اليهم الا من الله تعالى لاجل انهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون أحدا سوى الله تعالى ولا يرجون أحدا غير الله تعالى فيبقى نظرهم منقطعا عن الخلق متعلقا بالخالق وذلك يوجب كمال الايمان والاعراض بالكلية عن غير الله تعالى والاقبال بالكلية على طاعة الله تعالى ﴿ قوله تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون) اعلم أن هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة وذلك لانه تعالى لما بين لاهل مكة ما خصوا به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالامم الماضية الذين كانوا فى نعم الدنيا فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود أن الكفار لما قالوا انا لا نؤمن خوفا من زوال نعمة الدنيا فالله تعالى بين لهم أن الاصرار على عدم قبول الايمان هو الذى يزيل هذه النعم لا الاقدام على الايمان قال صاحب الكشاف البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها اما بحذف الجار وايصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها واما بتضمين بطرت معنى كفرت فاما قوله فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ففى هذا الاستثناء وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يسكنها الا المسافر ومار الطريق يوما أو ساعة (وثانيها) يحتمل ان شؤم معاصى المهلكين بقى أثره فى ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها الا قليلا وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها واذا لم يبق للشئ مالك معين قيل انه ميراث الله لانه الباقى بعد فناء خلقه ثم انه سبحانه لما ذكر انه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها فكان سائلا أورد السؤال من وجهين (الاول) لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد صلى الله عليه وسلم مع انهم كانوا مستغرقين فى الكفر والعناد (الثانى) لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مع تمادى القوم فى الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم فأجاب عن السؤال الاول بقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وحاصل الجواب انه تعالى قدم بيان ان عدم البعثة يجرى مجرى العذر للقوم فوجب ان لا يجوز اهلاكهم الا بعد البعثة ثم ذكر المفسرون وجهين (احدهما) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا أى فى القرية التى هى أمها وأصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها رسولا لالزام الحجة وقطع المعذرة (الثانى) وما كان ربك مهلك القرى التى فى الارض حتى يبعث فى أم القرى يعنى مكة رسولا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ومعنى يتلو عليهم آياتنا يؤدى ويبلغ وأجاب عن السؤال الثانى

قابدلت التاء دالا وسكنت فتعذر الابتداء ٦٢٠ فاجتلبت همزة الوصل فصار اداراك وقرئ بل ادرك وأصله افتعل وبل أأدرك بهمزتين وبل آادرك بألف بينهما وبل ادرك بالتخفيف والنقل وبل ادّرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام وبلى ادرك وبلى أأدرك وأم تدارك وأم أدرك فهذه ثنتا عشرة قراءة فما فيه استفهام صريح او مضمن من ذلك فهو انكار ونفى وما فيه بلى فاثبات لشعورهم وتفسير له بالادراك على وجه التهكم الذى هو أبلغ وجوه النفى والانكار وما بعده اضراب عن التفسير مبالغة فى النفى ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عمون او ردّ وانكار لشعورهم (وقال الذين كفروا) بيان لجهلهم بالآخرة وعمههم منها بحكاية انكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز صلته والاشعار بعلة حكمهم الباطل فى قولهم أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) أى أنخرج من القبور اذا كنا ترابا كما ينبئ عنه مخرجون ولا مساغ لأن يكون هو العامل فى اذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقييد الاخراج بوقت كونهم ترابا ليس لتخصيص الانكار بالاخراج حينئذ فقط فانهم منكرون للاحياء بعد الموت مطلقا وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار بتوجيهه الى الاخراج فى حالة منافية له وقوله تعالى وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل بجزئه

بقوله وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم انهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله انهم وان لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنا ﴿ قوله تعالى (وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) اعلم ان هذا هو الجواب الثالث عن تلك الشبهة لان حاصل شبهتهم ان قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى ان ذلك خطأ عظيم لان ما عند الله خير وأبقى أما انه خير فلوجهين (أحدهما) ان المنافع هناك اعظم (وثانيهما) انها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر واما انها أبقى فلانها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهى بغير المتناهى كان عدما فكيف ونصيب كل أحد بالقياس الى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس الى البحر فظهر من هذا ان منافع الدنيا لا نسبة لها الى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال افلا تعقلون يعنى ان من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل ورحم الله الشافعى حيث قال من اوصى بثلث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان أعقل الناس من اعطى القليل واخذ الكثير وما هم الا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله انما اخذه من هذه الآية ثم انه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو انا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهى الى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضى ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف اذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب فى ان نعم الآخرة راجحة عليها وهذا هو المراد بقوله أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه فهو يكون كمن اعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا ثم يكون فى الآخرة من المحضرين للعذاب والمقصود انهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم يحصل عقيب دنيا كم مضرة العقاب لكان العقل يقتضى ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى لكنت من المحضرين فانهم لمحضرون وفى لفظه اشعار به لان الاحضار مشعر بالتكليف والالزام وذلك لا يليق بمجالس اللذة انما يليق بمجالس الضرر والمكاره ﴿ قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء يومئذ

مع الخبر مقام الفصل بالتأكيد وتكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى ٦٢١ الانكار وتحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ اذا كنا بهمزة واحدة مكسورة وقرئ انا لمخرجون على الخبر (لقد وعدنا هذا) أى الاخراج (نحن وآباؤنا من قبل) أى من قبل وعده عليه الصلاة والسلام وتقديم الموعود على نحن لانه المقصود بالذكر وحيث أخر قصد به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الانكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد وقوله تعالى (ان هذا الا اساطير الاولين) تقرير اثر تقرير (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) بسبب تكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم اليه من الايمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فان فى مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لاولى الابصار وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم (ولا تحزن عليهم) لاصرارهم على الكفر والتكذيب (ولا تكن فى ضيق) فى حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم فان الله تعالى يعصمك من الناس وقرئ بكسر الضاد وهو أيضا مصدر ويجوز أن يكون المفتوح مخففا من ضيق وقد قرئ كذلك اى

لا تمكن فى أمر ضيق (و يقولون متى هـذا الوعد) اى العذاب العاجل الموعود (ان كنتم صادقين) فى اخباركم باتيانه والجمع
باعتبار شركة المؤمنين فى الاخبار بذلك ٦٢٢ (قل عسى أن يكون ردف لكم) أى تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد
كالباء فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة أو الفعل مضمن معنى فعل يعدى باللام وقرئ بفتح الدال وهى لغة فيه (بعض الذى تستعجلون) وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وانما يطلقونها اظهارا للوقار واشعارا بأن الرمز من امثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك مجرى وعد الله تعالى ووعيده وايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقق الوعد (وان ربك لذو فضل على الناس) أى لذو افضال وانعام على كافة الناس ومن جملة انعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصى التى من جملتها استعجال العذاب (ولكن اكثرهم لا يشكرون) لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء (وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم) أى ما تخفيه وقرئ بفتح التاء من كننت الشئ اذا سترته (وما يعلنون) من الافعال والاقوال التى من جملتها ما حكى عنهم من استعجال العذاب وفيه ايذان بان لهم قبائح غير ما يظهرونه وأنه تعالى يجازيهم على الكل
وتقديم السر على العلن قد مر سره فى سورة البقرة عند قوله تعالى أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون خاطبهم

فهم لا يتساءلون) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية انه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء (أحدها) قوله و يوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا ابطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا فى العبادة وتزعمون انه يشفع أين هو لينصركم و يخلصكم من هذا الذى نزل بكم ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول والمراد من القول هو قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ومعنى حق عليه القول أى حق عليه مقتضاه واختلفوا فى أن الذين حق عليهم هذا القول من هم فقال بعضهم الرؤساء الدعاة الى الضلال وقال بعضهم الشياطين قوله ربنا هؤلاء الذين أغوينا هؤلاء مبتدأ والذين اغوينا صفته والراجع الى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره اغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا والمراد كما ان غيينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعنى ان اغواءنا لهم ما ألجأهم الى الغواية بل كانوا مختارين بالاقدام على تلك العقائد والاعمال وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان انه قال ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم وقال تعالى لابليس ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فقوله الا من اتبعك يدل على ان ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لا من قبل الجاء الشيطان الى ذلك ثم قال تبرأنا اليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا ايانا يعبدون انما كانوا يعبدون أهواءهم والحاصل انهم يتبرؤن منهم كما قال تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وأيضا فلا يمتنع فى قوله تعالى أين شركائى ان يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيروهم بمكان الطاعة بمنزلة الشريك لله تعالى واذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا الهنا هؤلاء ما عبدونا انما عبدوا أهواءهم الفاسدة (وثانيها) قوله تعالى وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم والاقرب أن هذا على سبيل التقرير لانهم يعلمون انه لا فائدة فى دعائهم لهم فالمراد انهم لو دعوهم لم يوجد منهم اجابة فى النصرة وأن العذاب ثابت فيهم وكل ذلك على وجه التوبيخ وفى ذكره ردع وزجر فى دار الدنيا فأما قوله تعالى لو أنهم كانوا يهتدون فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ما أبصروه فى الآخرة (وثانيها) لو انهم كانوا مهتدين فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا فى الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون اذا رأوا العذاب ويؤكد ذلك قوله تعالى لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وعندى أن الجواب غير محذوف وفى تقريره وجوه (احدها) ان الله تعالى اذا

(ومامن غائبة فى السماء والارض) أى من شائبة فيهما وهما من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كما فى الراوية او اسمان لما يغيب ويخفى والتاء للنقل الى الاسمية (الا فى كتاب مبين) أى بين أو مبين لما فيه ٦٢٣ لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل هو
القضاء العدل بطريق الاستعارة (ان هـذا القرآن يقص على بنى اسرائيل اكثر الذى هم فيه يختلفون) من جملته ما اختلفوا فى شان المسيح وتحزبوا فيه أحزابا ورككبوا متن العتو والغلو فى الافراط والتفريط والتشبيه والتنزيه ووقع بينهم التناكد فى أشياء حتى بلغ المشاقة الى حيث لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن الكريم ببيان كنه الامر لو كانوا فى حيز الانصاف (وانه لهدى ورحمة للمؤمنين) على الاطلاق فيدخل فيهم من آمن من بنى اسرائيل دخولا اوليا (ان ربك يقضى بينهم) أى بين بنى اسرائيل (بحكمه) بما يحكم به وهو الحق او بحكمته ويؤيده أنه قرئ بحكمه (وهو العزيز) فلا يرد حكمه وقضاؤه (العليم) بجميع الاشياء التى من جملتها ما يقضى به والفاء فى قوله تعالى (فتوكل على الله) لترتيب الامر على ماذكر من شؤنه عز وجل فانها موجبة للتوكل عليه وداعية الى الامر به أى فتوكل على الله الذى هذا شانه فانه موجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره اليه وقوله تعالى (انك على الحق المبين) تعليل صريح للتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق
البين او الفاصل بينه و بين الباطل او بين المحق والمبطل فان كونه عليه الصلاة والسلام كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى

خاطبهم بقوله ادعوا شركاءكم فههنا يشتد الخوف عليهم و يلحقهم شئ كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيأ فقال تعالى ورأوا العذاب لو انهم كانوا يهتدون شيأ اما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيأ لا جرم ما رأوا العذاب (وثانيها) انه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهى الاصنام انهم لا يجيبون الذين دعوهم قال فى حقهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون أى هذه الاصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الاحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم ما رأت العذاب فان قيل قوله ورأوا العذاب ضمير لا يليق الا بالعقلاء فكيف يصح عوده الى الاصنام قلنا هذا كقوله فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وانما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أى والكفار علموا حقيقة هذا العذاب فى الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك النظم من الآية (الامر الثالث) من الامور التى يسأل الله الكفار عنها قوله و يوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء أى فصارت الانباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدى اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس فى المشكلات لانهم يتساوون جميعا فى عمى الانباء عليهم والعجز عن الجواب وقرئ فعميت واذا كانت الانبياء لهول ذلك يتعتعون فى الجواب عن مثل هذا السؤال و يفوضون الامر الى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك انت علام الغيوب فما ظنك بهؤلاء الضلال (قال) القاضى هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لان فعلهم لو كان خلقا من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والارادة لما عميت عليهم الانباء ولقالوا انما اتينا فى تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لان الشيطان كان له أن يقول انما اغويت بخلقك فى الغواية وانما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم فى ذلك قوية والعذر ظاهرا (والجواب) ان القاضى لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب الا ويعيد استدلاله بها وكما أن وجه استدلاله فى الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو ان علم الله تعالى بعدم الايمان مع وقوع الايمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الايمان اذا امر بادخال الايمان فى الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين والذى اعتمد القاضى عليه فى دفع هذا الحرف فى كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول انه يمكن وخطأ قول من يقول انه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب الا السكوت فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهرا فثبت أن الاشكال مشترك والله أعلم ۞ قوله تعالى (فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى
أن يكون من المفلحين وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى

عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون) اعلم انه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ اتبعه بذكر من يتوب منهم فى الدنيا ترغيبا فى التوبة وزجرا عن الثبات على الكفر فقال فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وفى عسى وجوه (أحدها) انه من الكرام تحقيق والله أكرم الاكرمين (وثانيها) ان يراد ترجى التائب وطمعه كأنه قال فليطمع فى الفلاح (وثالثها) عسى أن يكونوا كذلك ان داموا على التوبة والايمان لجواز ان لا يدوموا وعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة اخرى ويقولون لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفى فأجاب الله تعالى عنه بقوله وربك يخلق ما يشاء ويختار والمراد انه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لا اعتراض عليه البتة وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت انه حكيم مطلق علم انه كل ما فعله كان حكمة وصوابا فليس لاحد أن يعترض عليه وقوله ما كان لهم الخيرة والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر والخيرة أيضا اسم للمختار يقال محمد خيرة الله فى خلقه اذا عرفت هذا فنقول فى الآية وجهان (الاول) وهو الاحسن أن يكون تمام الوقف على قوله ويختار ويكون ما نفيا والمعنى وربك يخلق ما يشاء ويختار ليس لهم الخيرة اذ ليس لهم ان يختاروا على الله أن يفعل (والثانى) أن يكون ما بمعنى الذى فيكون الوقف عند قوله وربك يخلق ما يشاء ثم يقول ويختار ما كان لهم الخيرة (قال) أبو القاسم الانصارى وهذا متعلق المعتزلة فى ايجاب الصلاح والاصلح عليه وأى صلاح فى تكليف من علم انه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله فان قيل لما كلفه استوجب على الله ما هو الافضل لان المستحق أفضل من المتفضل به قلنا اذا علم قطعا انه لا يحصل ذلك الافضل قد ورطه فى العقاب الابدى لا يكون رعاية للمصلحة ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لان ذلك التفاوت انما يحصل فى حق من يستنكف من تفضله اما الذى ما حصل الذات والصفات الا بخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستنكف من تفضله ثم قال سبحان الله وتعالى عما يشركون والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والاذلال مفوض اليه ليس لاحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره فى النبوة ولما بين عله بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال وهو الله لا اله الا هو وفيه تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات يجازى المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين ويحتمل أيضا انه لما بين فساد طريق المشركين من قوله ويوم يناديهم فيقول أين شركائى ختم الكلام فى ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان أن

وتصيرته وتأييده لا محالة وقوله تعالى (انك لا تسمع الموتى) الخ تعليل آخر للتوكل الذى هو عبارة عن التبتل الى الله تعالى وتفويض الامر اليه والاعراض ٦٢٤ عن التشبث بما سواه وقد علل أولا بما يوجبه من جهته تعالى أعنى قضاءه بالحق وعزته وعلمه تعالى وثانيا بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعنى كونه عليه الصلاة والسلام على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى اعانته تعالى وتأييده للمحق ثم علل ثالثا بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة ايجابه للاعراض عن التشبث بما سواه تعالى فان كونهم كالموتى والصم والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأسا وداع الى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى وانما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع واطلاق الاسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشئ من المسموعات ولعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فان القلب مشعر من المشاعر أشير الى بطلانه بالمرة ثم بين بطلان مشعرى الاذن والعين كما فى قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها والا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية (ولا تسمع الصم الدعاء) أى الدعوة الى أمر من الامور وتقييد النفى بقوله تعالى (اذا ولوا مدبرين) لتكميل التشبيه وتأكيد النفى فانهم مع صممهم عن الدعاء الى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ولا ريب فى أن الاصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صماخه قريبا منه فكيف اذا كان خلفه بعيدا منه

الحمد

الحمد والثناء لا يليق الا به اما قوله له الحمد فى الاولى والآخرة فهو ظاهر على قول الا ان الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلا واحسانا فله الحمد فى الاولى والآخرة ويؤكد ذلك قول أهل الجنة الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين اما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة واما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم قال القاضى انه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضا بما فعله بهم فى الدنيا من التمكين والتيسير والالطاف وسائر النعم لانهم باساءتهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر وهذا فيه نظر لان أهل الآخرة مضطرون الى معرفة الحق فاذا علموا بالضرورة ان التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة ان الاشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم فى استحقاق الثواب أفترى أن الانسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة كلا بل لا بد أن يتوبوا وان يشتغلوا بالشكر ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب اما قوله وله الحكم فهو اما فى الدنيا أو فى الآخرة فاما فى الدنيا فحكم كل أحد سواه انما نفذ بحكمه فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الامة حكم الرسول فهو الحاكم فى الحقيقة واما فى الآخرة فلا شك انه هو الحاكم لانه الذى يتولى الحكم بين العباد فى الآخرة فينتصف للمظلومين من الظالمين اما قوله واليه ترجعون فالمعنى والى محل حكمه وقضائه ترجعون فان كلمة الى لانتهاء الغاية وهو تعالى منزه عن المكان والجهة ۞ قوله تعالى

(قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون فصل عقيب ذلك بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة فنبه على أن الوجه فى كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان لان المرء فى الدنيا وفى حال التكليف مدفوع الى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج اليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولاجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه فاما فى الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم الى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات فبين تعالى انه لا قادر على ذلك الا الله تعالى وانما قال أفلا تسمعون أفلا تبصرون لان الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا

وقرئ ولا يسمع الصم الدعاء (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) هداية موصلة الى المطلوب كما فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت فان الاهتداء منوط بالبصر وعن متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه ٦٢٥ معنى الصرف وقيل بالعمى يقال عمى عن كذا وفيه بعد وايراد الجملة الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية وقرئ وما أنت تهدى العمى (ان تسمع) اى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا (الا من يؤمن بآياتنا) اى من من شأنهم الايمان بها وايراد الاسماع فى النفى والاثبات دون الهداية مع قربها بأن يقال ان تهدى الا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو اسماع الآيات التنزيلية (فهم مسلمون) تعليل لايمانهم بها كأنه قيل فانهم منقادون للحق وقيل مخلصون لله تعالى من قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله (واذا وقع القول عليهم) بيان لما أشير اليه بقوله تعالى بعض الذى تستعجلون من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجئ الساعة وما فيها من فنون الاهوال التى كانوا يستعجلونها وبوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للايذان بشدة وقعها وتأثيرها واسناده الى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث انها مصداق للقول الناطق بمجيئها وقد أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما فى قوله تعالى أتى أمر الله اى اذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذى لا يكادون يسمعونه ومصداقه (أخرجنا لهم دابة من الارض) وهى الجساسة وفى التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد ابهامه بالتنوين التفخيمى

لمن الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان مالا يخفى وقد ورد في الحديث أن طولها ستون ذراعا لا يدركها
طالب ولا يفوتها هارب وروى أن لها ٦٢٦ أربع قوائم ولها زغب وريش وجناحان وعن ابن جريج في وصفها رأس

نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبي قوله أفلا تسمعون معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله أفلا تبصرون معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطا والضلال قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الاشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد فان قيل هلا قال بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لان المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة وانما قرن بالضياء أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل أفلا تبصرون لان غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لاغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضله في الآخر وهو النهار ولاداء الشكر على المنفعتين معا واعلم انه وان كان السكون في النهار ممكنا وابتغاء فضل الله بالليل ممكنا الا أن الاليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به ﴿ قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين أولا ثم ذكر التوحيد ودلائله ثانيا عاد الى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم في الآخرة فقال ويوم يناديهم اى في القيامة فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون والمعنى أين الذين ادعيتم الهيتهم لتخلصكم أو أين قولكم تقربنا الى الله زلفى وقد علموا أن لا اله الا الله فيكون ذلك زائدا في غمهم اذا خوطبوا بهذا القول أما قوله تعالى ونزعنا من كل أمة شهيدا فالمراد ميزنا واحدا ليشهد عليهم ثم قال بعضهم هم الانبياء يشهدون بانهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا في ايضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائدا في غمهم وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ويدخل في جملتهم الانبياء وهذا أقرب لانه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بان ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الاحوال التي لم يوجد فيها النبي وهي أزمنة الفترات والازمنة التي حصلت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله وضل عنهم غاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يفترون من الباطل والكذب ﴿ قوله تعالى (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين قال انما أوتيته على علم عندي أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم

نور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه الرجل وباقي خلقها خلق الطير وروى عن علي رضى الله عنه أنه قال ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير الى أنه رجل والمشهور أنها دابة وروى لا تخرج الا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه فيها كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن رضى الله عنه لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضى الله عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج كل يوم الا ثلثها وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعني المسجد الحرام وروى أنها تخرج ثلاث خرجات تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرا طويلا فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة على الله تعالى وأكرمها فما يهولهم الا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم
يقفون نظارة وقيل تخرج من الصفا وروى بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب

موسى

الارض تحتهم فتحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام
فتضرب المؤمن في مسجده بالعصا فتنكت نكتة بيضاء فتفشو حتى ٦٢٧ يضيء لها وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن

موسى عليه السلام وظاهر ذلك يدل على انه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضا حمله على القرابة قال الكلبي انه كان ابن عم موسى عليه السلام لانه كان قارون بن يصهر بن قاهث ابن لاوى وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن اسحق انه كان عم موسى عليه السلام لان موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون بن يصهر بن قاهث وعن ابن عباس انه كان ابن خالته ثم قيل انه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان اقرأ بني اسرائيل للتوراة الا انه نافق كما نافق السامري ه أما قوله فبغى عليهم ففيه وجوه (أحدها) انه بغى بسبب ماله وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الايمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله (والثاني) انه من الظلم قيل ملكه فرعون على بني اسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال بغى عليهم اى طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الرابع) قال الضحاك طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوافقهم في أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب بغيه عليهم انه زاد عليهم في الثياب شبرا وهذا يعود الى التكبر (السابع) قال الكلبي بغيه عليهم انه حسد هرون على الحبورة روى ان موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح وكان لموسى الرسالة فوجد قارون من ذلك في نفسه فقال يا موسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست في شيء ولا أصبر أنا على هذا فقال موسى عليه السلام والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له فقال والله لا أصدقك أبدا حتى تأتيني بآية أعرف بها ان الله جعل ذلك لهرون قال فامر موسى عليه السلام رؤساء بني اسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه فجاؤا بها فألقاها موسى عليه السلام في قبة له وكان ذلك بأمر الله تعالى فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى يا قارون أما ترى ما صنع الله لهرون فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومعه ناس كثير وولى هرون الحبورة والمذبح والقربان فكان بنو اسرائيل يأتون بهداياهم الى هرون فيضعها في المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها واعتزل قارون باتباعه وكان كثير المال والتبع من بني اسرائيل فما كان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى ه أما قوله وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ففيه ابحاث (الاول) قال الكعبي ألستم تقولون ان الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف الله مال قارون الى نفسه بقوله وآتيناه وأجاب بانه لا حجة في انه كان حراما ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك وكان هذا الظفر طريق التملك أو وصل اليه بالارث من جهات ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملا (البحث الثاني) المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو

وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم أنت يا فلان من أهل الجنة وأنت يا فلان من أهل النار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاي هذه وروى أبو هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتتكلم بالعربية بلسان ذلق وذلك قوله تعالى (تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) اى تكلمهم بانهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات وقيل بآياته التي من جملتها خروجها بين يدي الساعة والاول هو الحق كما ستحيط به علما وقرئ بأن الناس الآية واضافة الآيات الى نون العظمة لانها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها وقيل لانها حكاية منها لقول الله عز وجل وقيل لاختصاصها به تعالى واثرتها عنده كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا وانما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك
مضاف محذوف اى بآيات ربنا ووصفهم بعدم الايقان بها مع أنهم كانوا جاحدين بها للايذان بانه كان من حقهم أن يوقنوا بها

ويقطعوا ببعضها وقد اتصفوا بنقيضه وقرئ ان الناس بالكسر على اضمار القول أو اجراء الكلام مجراه والكلام في الاضافة
كالذي سبق وقيل هو استئناف مسوق ٦٢٨ من جهته تعالى لتعليل اخراجها أو تكليمها ورده الجمع بين صيغتي

الماضي والمستقبل فانه صريح في كونه حكاية لعدم ايقانهم السابق في الدنيا والمراد بالناس اما الكفرة على الاطلاق أو مشركو مكة وقد روي عن وهب أنها تخبر كل من تراه ان أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرئ تكلمهم من الكلم الذي هو الجرح والمراد به ما نقل من الوسم بالعصا والخاتم وقد جوز كون القراءة المشهورة أيضا منه لمعنى التكثير ولا يخفى بعده (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) بيان اجمالي لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلي الشامل لكافة الخلق وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مرارا أي واذكر لهم وقت حشرنا اي جمعنا من كل أمة من أمم الانبياء عليهم الصلاة والسلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة فمن تبعيضية لان كل أمة منقسمة الى مصدق ومكذب وقوله تعالى (ممن يكذب بآياتنا) بيان للفوج اي فوجا مكذبين بها (فهم يوزعون) اي يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم ما لا يخفى

ما يفتح به وقيل هي الخزائن وقياسه واحدها مفتح بفتح الميم ويقال ناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في اخوة يوسف عليه السلام ونحن عصبة وكانوا عشرة لان يوسف وأخاه لم يكونا معهم * اذا عرفت معنى الالفاظ فنقول ههنا قولان أحدهما ان المراد بالمفاتح المفاتيح وهي التي يفتح بها الباب قالوا كانت مفاتيحه من جلود الابل وكل مفتاح مثل اصبع وكان لكل خزانة مفتاح وكان اذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ومن الناس من طعن في هذا القول من وجهين (الاول) ان مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ولو انا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها اعداد قليلة من المفاتيح فأي حاجة الى تكثير هذه المفاتيح (الثاني) أن الكنوز هي الاموال المدخرة في الارض فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح والجواب عن الاول ان المال اذا كان من جنس العروض لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة الى هذا الحد وأيضا فهذا الذي يقال ان تلك المفاتيح بلغت ستين حملا ليس مذكورا في القرآن فلا تقبل هذه الرواية وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة وكان كل واحد منها معينا لشيء آخر فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد وعن الثاني أن ظاهر الكنز وان كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق (القول الثاني) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار أبي مسلم أن المراد من المفاتح العلم والاحاطة كقوله وعنده مفاتح الغيب والمراد آتيناه من الكنوز ما ان حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولي القوة والهداية اي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها ثم انه تعالى بين انه كان في قومه من وعظه بأمور (أحدها) قوله لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين والمراد أن لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلا وقال بعضهم انه لا يفرح بالدنيا الا من رضي بها واطمأن اليها فاما من يعلم انه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبي

أشد الغم عندي في سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة والظاهر انه كان مقرا بالآخرة والمراد أن يصرف المال الى ما يؤديه الى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله ولا تنس نصيبك من الدنيا وفيه وجوه (أحدها) لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا فلاجل ذلك ما كان يتفرغ

للتنعم

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ٦٢٩ ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة

وهكذا يحشر قادة سائر الامم بين أيديهم الى النار (حتى اذا جاؤا) الى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب (قال) اي الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب والالتفات لتربية المهابة (أكذبتم بآياتي) الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله تعالى (ولم تحيطوا بها علما) جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للانكار والتوبيخ اي أكذبتم بها بادئ الرأي غير ناظرين فيها نظرا يؤدي الى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتما وهذا نص في أن المراد بالآيات فيما سلف في الموضعين هي الآيات القرآنية لانها هي المنطوية على دلائل الصحة وشواهد الصدق التي لم يحيطوا بها علما مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على كذبتم اي أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها (أم ماذا كنتم تعملون) اي أم أي شيء كنتم تعملون بها أو أم أي شيء كنتم تعملون غير ذلك بمعنى انه لم يكن لهم عمل غير ذلك كأنهم لم يخلقوا الا للكفر والمعاصي مع أنهم ما خلقوا الا للايمان والطاعة يخاطبون بذلك تبكيتا ثم يكبون في النار وذلك قوله تعالى (ووقع القول عليهم) اي حل بهم العذاب الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله (بما ظلموا)

للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال الى الآخرة بين له بهذا الكلام انه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الانفاق في طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب قال عليه السلام فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة والنار (ورابعها) قوله وأحسن كما أحسن الله اليك لما أمره بالاحسان بالمال أمره بالاحسان مطلقا ويدخل فيه الاعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر وانما قال كما أحسن الله اليك تنبيها على قوله ولئن شكرتم لأزيدنكم (وخامسها) قوله ولا تبغ الفساد في الارض والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل ان هذا القائل هو موسى عليه السلام وقال آخرون بل مؤمنو قومه وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال انما أوتيته على علم عندي وفيه وجوه (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبي كان قارون اقرأ بني اسرائيل للتوراة فقال انما أوتيته لفضل علمي واستحقاقي لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبا (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) ان يكون قوله انما أوتيته على علم عندي اي الله أعطاني ذلك مع كونه عالما بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله عندي اي عندي ان الامر كذلك كما يقول المفتي عندي ان الامر كذلك اي مذهبي واعتقادي ذلك ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا وفيه وجهان (الاول) يجوز أن يكون هذا اثباتا لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لانه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له أولم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثاني) يجوز أن يكون نفيا لعلمه بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندي فتصلف بالعلم وتعظم به قيل أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين أما قوله وأكثر جمعا فالمعنى أكثر جمعا للمال أو أكثر جماعة وعددا وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم وانه تعالى اذا أراد اهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه اضعافا فاما قوله ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فالمراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به الى السؤال فان قيل كيف الجمع بينه وبين قوله

فوربك لنسألنهم أجمعين قلنا يحمل ذلك على وقتين على ماقررنا، وذكر أبو مسلم وجها آخر فقال السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتقرير والتبكيت وقد يكون للاستعتاب وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله ثم لا يؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ۞ قوله تعالى (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) أما قوله فخرج على قومه في زينته فيدل على انه خرج باظهر زينة وأكملها وليس في القرآن الا هذا القدر الا ان الناس ذكروا وجوها مختلفة في كيفية تلك الزينة قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الارجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب وقال بعضهم بل خرج في تسعين ألفا هكذا وقال آخرون بل على ثلثمائة والاولى ترك هذه التقديرات لانها متعارضة ثم ان الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون من هذه الامور والاموال والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم لان الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاثة قال صاحب الكشاف ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى اما قوله ولا يلقاها الا الصابرون فقال المفسرون لا يوفق لها والضمير في يلقاها الى ماذا يعود فيه وجهان (احدهما) الى مادل عليه قوله آمن وعمل صالحا يعني هذه الاعمال لا يؤتاها الا الصابرون (والثاني) قال الزجاج يعني ولا يلقى هذه الكلمة وهي قولهم ثواب الله خير الا الصابرون على اداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله في كل ماقسم من المنافع والمضار واما قوله فخسفنا به وبداره الارض ففيه وجهان (احدهما) انه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الارض جزاء على عتوه وبطره والفاء تدل على ذلك لان الفاء تشعر بالعلية (وثانيها) قيل ان قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بني اسرائيل وقال ان موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت قال نبرطل فلانة البغي حتى تنسبه الى نفسها فيرفضه بنو اسرائيل فجعل لها طستا من ذهب مملوا ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يابني اسرائيل من سرق قطعناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وان أحصن

بسبب ظلمهم الذي هو تكذيبهم بآيات الله (فهم لا ينطقون) لانقطاعهم عن الجواب بالكلية وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الاليم (ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) الرؤية قلبية لا بصرية لان نفس الليل والنهار وان كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات اي ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الاظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار (والنهار مبصرا) اي ليبصروا بما فيه من الاضاءة طرق التقلب في أمور المعاش فبولغ فيه حيث جعل الابصار الذي هو حال الناس حالا له ووصفا من أوصافه التي جعل عليها بحيث لا ينفك عنها ولم يسلك في الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار في الابصار (ان في ذلك) اي في جعلهما كما وصفا وما في اسم الاشارة من معنى البعد للاشعار ببعد درجته في الفضل (لآيات) اي عظيمة كثيرة (لقوم يؤمنون) دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وان من تأمل في تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائقة تحار في فهمها العقول ولا يحيط بها الا الله عز وجل وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل الحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالانتباه الذي هو مثل الحياة قضى بان الساعة آتية لاريب فيها

رجمناه

رجمناه فقال قارون وان كنت أنت قال وان كنت أنا قال فان بني اسرائيل يقولون انك فجرت بفلانة فاحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله تعالى فقالت كذبوا بل جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي فخر موسى ساجدا يبكي وقال يارب ان كنت رسولك فاغضب لي فاوحى الله عز وجل اليه أن مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يابني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما بعثني الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال ياأرض خذيهم فاخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاعناق وقارون وأصحابه يتضرعون الى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت اليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فانطبقت الارض عليهم فاوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ما أفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم اما وعزتي لو دعوني مرة واحدة لوجدوني قريبا مجيبا فاصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم انما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ثم ان قارون يخسف به كل يوم مائة قامة قال القاضي اذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الارض الى الارض السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع ماروي على وجه المبالغة في الزجر واما قولهم انه تعالى قال لو استغاث بي لاغثته فان صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فاما وهو ثابت على ماهو عليه مع انه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لان موسى عليه السلام ما فعله الا عن أمره فبعيد وقولهم انه يتجلجل في الارض أبدا فبعيد لانه لابد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات والذي عندي في أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة لانها من باب اخبار الآحاد فلا تفيد اليقين وليست المسئلة مسئلة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ثم انها في أكثر الامر متعارضة مضطربة فالاولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب اما قوله وما كان من المنتصرين فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر أي منعه منه فامتنع ۞ قوله تعالى (واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجرا لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعيا الى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته والى اظهار الطاعة والانقياد لانبياء الله ورسله اما قوله ويكأن الله فاعلم ان وي كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ واظهار التندم فلما قالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا وي ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب

وأن الله يبعث من في القبور قضاء متقنا وجزم بانه تعالى قد جعل هذا انموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانا عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى (ويوم ينفخ في الصور) اما معطوف على يوم يحشر منصوب بناصبه أو بمضمر معطوف عليه والصور هو القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والارض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره الى العرش متى يؤمر قال قلت يارسول الله ما الصور قال القرن قال قلت كيف هو قال عظيم والذي نفسي بيده ان عظم دارة فيه كعرض السماء والارض فيؤمر بالنفخ فيه فينفخ نفخة لا يبقى عندها في الحياة أحد غير من شاء الله تعالى وذلك قوله تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت الا بعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون والذي يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه أن المراد بالنفخ ههنا هي النفخة الثانية وبالفزع في قوله تعالى (ففزع من في السموات ومن في الارض) مايعتري الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الامور الهائلة الخارقة للعادات في الانفس

والا^ فاق من الرعب والنهيب الضرور بين الجبليين وايراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه أعنى ينفخ مضارعا
للدلالة على تحقق وقوعه اثر النفخ ولعل ٦٣٢ تأخير بيان الاحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان مايقع
بعدها من حشر المكذبين من
كل أمة لتثنية التهويل بتكرير
التذكير ايذانا بان كل واحد
منهما طامة كبرى وداهية دهياء
حقيقة بالتذكير على حيالها
ولو روعى الترتيب الوقوعى
لربما توهم أن الكل داهية
واحدة قد أمر بذكرها كامر
فى قصة البقرة (الامن شاء الله)
اى أن لايفزع قيل هم جبريل
وميكائيل واسرافيل وعزرائيل
عليهم السلام وقيل الحور والخزنة
وحملة العرش (وكل) اى كل
واحد من المبعوثين عند النفخة
(أتوه) حضروا الموقف بين يدى
رب العزة جل جلاله للسؤال
والجواب والمناقشة والحساب
وقرئ أتاه باعتبار لفظ الكل كما
أن القراءة الاولى باعتبار معناه
وقرئ آتوه اى حاضروه (داخرين)
اى صاغرين وقرئ دخرين وقوله
تعالى (وترى الجبال) عطف على
ينفخ داخل فى حكم التذكير وقوله
عز وجل (تحسبها جامدة) اى
ثابتة فى أماكنها امابدل منه أو
حال من ضمير ترى أو من مفعوله
وقوله تعالى (وهى تمر مر السحاب)
حال من ضمير الجبال فى تحسبها
أو فى جامدة اى تراها رأى العين
ساكنة والحال أنها تمر مر السحاب
التى تسيرها الرياح سيرا حثيثا
وذلك أن الاجرام العظام اذا
تحركت نحو سمت لاتكاد تتبين حركتها وعليه قول من قال

مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ويضيق على من يشاء لا لهوانه من يضيق عليه بل
لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة (قال سيبويه) سألت الخليل عن هذا الحرف فقال ان وى
مفصولة من كان وان القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ماسلف منهم وى وذكر الفراء
وجهين (احدهما) ان المعنى ويلك فحذف اللام وانما جاز هذا الحذف لكثرتها فى الكلام
وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كانه قال ويلك اعلم أن الله وهذا قول قطرب حكاه عن
يونس (الثانى) وى منفصلة من كان وهو للتعجب بقول الرجل لغيره وى أما ترى مابين
يديك فقال الله وى ثم استأنف كأن الله يبسط فالله تعالى اتخذ كرهاتعجيبا لخلقه قال
الواحدى وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ماقالوه
لكتبوها منفصلة وأجاب الاولون بأن خط المصحف لا يقاس عليه ثم قالوا لولا ان من الله
علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون وهذا تأكيد لماقبله أما قوله تلك الدار
الآخرة فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق
الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلب اليهما وعن على عليه
السلام ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل
تحتها قال صاحب الكشاف ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله ان فرعون
علا فى الارض والفساد لقارون لقوله ولا تبغ الفساد فى الارض ويقول من لم يكن مثل
فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله والعاقبة للمتقين كما تدبره على بن
أبى طالب عليه السلام ۞ قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة
فلا يجزى الذين عملوا السيآت الا ما كانوا يعملون ان الذى فرض عليك القرآن لرادك
الى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين وما كنت ترجو أن يلقى
اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله
بعد اذ أنزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر
لا اله الا هو كل شئ هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) اعلم أنه تعالى لما بين ان الدار
الآخرة ليست لمن يريد علوا فى الارض ولا فسادا بل هى للمتقين بين بعد ذلك مايحصل
لهم فقال من جاء بالحسنة فله خير منها وفيه وجوه (احدها) المعنى من جاء بالحسنة حصل له
من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شئ هو أفضل من تلك الحسنة ومعناه انهم يزادون
على ثوابهم وقد مر تفسيره فى آخر النمل واما قوله ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا
السيآت الا ما كانوا يعملون فظاهره أن لايزادوا على مايستحقون واذا صح ذلك
فى السيآت دل على ان المراد فى الحسنات بما هو خير منها ماذكرناه من مزيد الفضل على
الثواب قال صاحب الكشاف تقدير الآية ومن جاء بالسيئة فلا يجزون الا ما كانوا
يعملون لكنه كرر ذلك لان فى اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين لحالهم وزيادة

تبغيض

بارعن مثل الطود تحسب أنهم • وقوف لحاج والركاب تهملج وقد ادمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب
فى تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما فى قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن ٦٣٣ المنفوش وهذا أيضا مما يقع بعد النفخة
الثانية عند حشر الخلق يبدل
الله عز وجل الارض غير
الارض ويغيرها ثم يسير
الجبال عن مقارها على ماذكر
من الهيئة الهائلة ليشاهدها
أهل المحشر وهى وان اندكت
وتصدعت عند النفخة الاولى
لكن تسييرها وتسوية الارض
انما يكونان بعد النفخة الثانية
كما نطق به قوله تعالى ويسألونك
عن الجبال فقل ينسفها ربى
نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى
فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون
الداعى وقوله تعالى يوم تبدل
الارض غير الارض والسموات
وبرزوا لله الواحد القهار فان
اتباع الداعى الذى هو اسرافيل
عليه السلام وبروز الخلق لله
تعالى لايكون الا بعد النفخة
الثانية وقد قالوا فى تفسير قوله
تعالى ويوم نسير الجبال وترى
الارض بارزة وحشرناهم ان
صيغة الماضى فى المعطوف مع
كون المعطوف عليه مستقبلا
للدلالة على تقدم الحشر على
التسيير والرؤية كأنه قيل
وحشرناهم قبل ذلك هذا وقد
قيل ان المراد هى النفخة الاولى
والفزع هو الذى يستتبع
الموت لغاية شدة الهول كما فى
قوله تعالى فصعق من فى السموات
ومن فى الارض الآية فيختص
أثرها بمن كان حيا عنده وقوعها دون من مات قبل ذلك من الامم وجوز أن يراد بالاتيان داخرين

تبغيض للسيئة الى قلوب السامعين وهذا من فضله العظيم انه لايجزى بالسيئة الامثلها
ويجزى بالحسنة عشر أمثالها وههنا سؤالان (السؤال الاول) قال تعالى ان أحسنتم
أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها كرر ذلك الاحسان واكتفى بذكر الاساءة مرة واحدة
وفى هذه الآية كرر ذكر الاساءة مرتين واكتفى فى ذكر الاحسان بمرة واحدة فما السبب
الجواب لان هذا المقام مقام الترغيب فى الدار الآخرة فكانت المبالغة فى الزجر عن
المعصية لائقة بهذا الباب لان المبالغة فى الزجر عن المعصية مبالغة فى الدعوة الى
الآخرة واما الآية الاخرى فهى شرح حالهم فكانت المبالغة فى ذكر محاسنهم اولى
(السؤال الثانى) كيف قال لاتجزى السيئة الامثلها مع ان المتكلم بكلمة الكفر اذا
مات فى الحال عذب أبد الآباد والجواب لانه كان على عزم انه لو عاش أبدا لقال ذلك
فعومل بمقتضى عزمه (قال الجبائى) وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى
أن يعذب الاطفال عذابا دائما بغير جرم قلنا لا يجوز أن يفعله وليس فى الآية مايدل
عليه ثم انه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى فى ذلك شرح له مايتصل
بأحواله فقال ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قال أبو على الذى فرض
عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت الى معاد وتنكير المعاد لتعظيمه كأنه قال الى
معاد وأى معاد أى ليس لغيرك من البشر مثله وقيل المراد به مكة ووجهه أن يراد برده
اليها يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت فى ذلك اليوم معادا له شأن عظيم لاستيلاء
رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وقهره لاهلها واظهار عز الاسلام واذلال حزب
الكفر والسورة مكية فكان الله تعالى وعده وهو بمكة فى اذى وغلبة من أهلها أنه
يهاجر منها ويعيده اليها ظاهرا ظافرا وقال مقاتل انه عليه السلام خرج من الغار
وسار فى غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع الى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة
والمدينة وعرف الطريق الى مكة واشتاق اليها وذكر مولده ومولد أبيه فنزل جبريل عليه
السلام وقال تشتاق الى بلدك ومولدك فقال عليه السلام نعم فقال جبريل عليه السلام
فان الله تعالى يقول ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد يعنى الى مكة ظاهرا
عليهم وهذا أقرب لان ظاهر المعاد انه كان فيه وفارقه وحصل العود وذلك لايليق
الا بمكة وان كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب قال أهل التحقيق وهذا أحد مايدل
على نبوته لانه اخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزا ثم قال قل ربى اعلم من جاء
بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ووجه تعلقه بما قبله ان الله تعالى لما وعد رسوله الرد الى
معاد قال قل للمشركين ربى أعلم من جاء بالهدى يعنى نفسه ومايستحقه من الثواب فى
المعاد والاعزاز بالاعادة الى مكة ومن هو فى ضلال مبين يعنيهم ومايستحقون من العقاب
فى معادهم ثم قال لرسوله وما كنت ترجوان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ففى كلمة
الا وجهان (أحدهما) انها للاستثناء ثم قال صاحب الكشاف هذا كلام محمول على

رجوعهم الى أمره تعالى وانقيادهم له ولاريب في أن ذلك مما ينبغي أن ينزه ساحة التنزيل عن أمثاله وابعد من هذا ما قيل ان المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق وهي التي أريدت بقوله تعالى ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق فيسير الله تعالى عندها الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا وترج الارض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الموثقة في البحر أو كالقنديل المعلق ترجحه الارواح فانه مما لا ارتباط له بالمقام قطعا والحق الذي لا محيد عنه ما قدمناه ومما هو نص في الباب ما سيأتي من قوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أي صنع الله ذلك صنعا على أنه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور وما ترتب عليه جميعا قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الافاعيل وتهويل أمرها والايذان بأنها ليست بطريق اخلال نظام العالم وافساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يدعو اليها داعية أو يكون لها عاقبة بل هي من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجليلة التي لاجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادي الابداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى (الذي أتقن كل شيء) أي أحكم خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمة وقوله تعالى (انه خبير بما تفعلون) تعليل لكون ما ذكر صنعا محكما له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر

المعنى كأنه قيل وما ألقي اليك الكتاب الا رحمة من ربك ويمكن أيضا اجراؤه على ظاهره أي وما كنت ترجو الا أن يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك أي ما كنت ترجو الا على هذا (والوجه الثاني) ان الا بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن رحمة من ربك ألقي اليك ونظيره قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك خصصك به ثم انه كلفه بأمور (أحدها) كلفه بأن لا يكون مظاهرا للكفار فقال فلا تكونن ظهيرا للكافرين (وثانيها) ان قال ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك الميل الى المشركين قال الضحاك وذلك حين دعوه الى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطرا من مالهم أي لا تلتفت الى هؤلاء ولا تركن الى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله وادع الى ربك أي الى دين ربك واراد التشدد في دعاء الكفار والمشركين فلذلك قال ولا تكونن من المشركين لان من رضي بطريقتهم أو مال اليهم كان منهم (ورابعها) قوله ولا تدع مع الله الها آخر وهذا وان كان واجبا على الكل الا أنه تعالى خاطبه به خصوصا لاجل التعظيم فان قيل الرسول كان معلوما منه ان لا يفعل شيأ من ذلك البتة فما فائدة هذا النهي قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلا في أمورك فان من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد ثم بين انه لا اله الا هو أي لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع الا هو كقوله رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ اله سواه ثم قال كل شيء هالك الا وجهه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في قوله كل شيء هالك فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم والمعنى ان الله تعالى يعدم كل شيء سواه ومنهم من فسر الهلاك باخراجه عن كونه منتفعا به اما بالاماتة أو بتفريق الاجزاء وان كانت اجزاؤه باقية فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء اجزائه بل خروجه عن كونه منتفعا به ومنهم من قال معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك في ذاته فان كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم فكان قابلا للهلاك فأطلق عليه اسم الهلاك نظرا الى هذا الوجه واعلم ان المتكلمين لما أرادوا اقامة الدلالة على ان كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا ثبت ان العالم محدث وكل ما كان محدثا فان حقيقته قابلة للعدم والوجود وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبدا لان الامكان من لوازم الماهية ولازم الماهية لا يزول قط الا انا لما تطرنا في هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض لانهم انما أقاموا الدلالة على حدوث الاجسام والاعراض فلو قدروا على اقامة الدلالة على ان ما سوى الله تعالى اما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم الا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز فالدليل الذي بين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ما سوى الله تعالى الا بعد قيام الدلالة على نفي ذلك القسم الثالث واهم في نفي هذا القسم الثالث طريقان (أحدهما)

قولهم

أفعال المكلفين وبواطنها مما يدعو الى اظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والارض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل ليتحققوا بمشاهدة ذلك أن وعد الله حق لا ريب فيه وقرئ خبير بما يفعلون وقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) بيان لما أشير اليه باحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها أي من جاء منكم أو من أولئك الذين أتوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ما هو خير منها اما باعتبار أنه أضعافها واما باعتبار دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس رضي الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة (وهم) أي الذين جاؤا بالحسنات (من فزع) أي عظيم هائل لا يقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيآت وهو الذي في قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر وعن الحسن رحمه الله تعالى حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن جريج حين يذبح الموت وينادي المنادي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت (يومئذ) أي يوم اذ ينفخ في الصور (آمنون) لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ولا يلحقهم ضرره أصلا وأما الفزع الذي يعتري كل من في السموات ومن في الارض غير من استثناه الله تعالى فانما هو التهيب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهي والاهوال ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وان كان

قولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها في الكتب الكلامية (والثاني) قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى في نفي المكان والزمان والامكان ولو كان كذلك لصار مثلا لله تعالى وهو ضعيف لاحتمال أن يقال انهما وان اشتركا في هذا السلب الا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهيته وحقيقته واذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلي لا يفي باثبات ان كل شيء هالك الا وجهه والذي يعتمد عليه في هذا الباب ان نقول ثبت ان صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته والا لاشتركا في الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا عما به المشاركة وعما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر الى جزئه ثم ان الجزأين ان كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضا ويلزم التسلسل وهو محال وان لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر اليهما أولى أن لا يكون واجبا فثبت ان واجب الوجود واحد وان كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح وافتقاره الى المرجح اما حال عدمه أو حال وجوده فان كان الاول ثبت انه محدث وان كان الثاني فافتقار الموجود الى المؤثر اما حال حدوثه أو حال بقائه والثاني باطل لانه يلزم ايجاد الموجود وهو محال فثبت ان الافتقار لا يحصل الا حال الحدوث وثبت ان كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزا أو قائما بالمتحيز أو لا متحيزا ولا قائما بالمتحيز فان نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته فاعلم ان هناك فرقا قويا واذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت ان كل ما كان محدثا كان قابلا للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر ان كل شيء هالك الا وجهه بمعنى كونه قابلا للهلاك والعدم ثم ان الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لانه سبحانه حكم بكونها هالكة في الحال وعلى ما قلناه فهي هالكة في الحال وعلى ما قلتموه انها ستهلك لا انها هالكة في الحال فكان قولنا أولى وأيضا فالممكن اذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقا للوجود ولا للعدم من ذاته فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالانسان الفقير الذي استعار ثوبا من رجل غني فان الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيرا كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي وانما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح انها ابدا هالكة من حيث هي هي أما الذين حملوه على انها ستعدم فقد احتجوا بان قالوا الهلاك في اللغة له معنيان أحدهما خروج الشيء عن أن يكون منتفعا به والثاني الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الاول لان هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال لانها وان تفرقت اجزاؤها فانها منتفع بها لان النفع المطلوب كونها بحيث يمكن ان يستدل بها على وجود الصانع القديم وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة واذا تعذر حمل الهلاك

آمنا من لحوق الضرر والامن يستعمل بالجار وبدونه كما في قوله تعالى أفأمنوا مكر الله وقرئ من فزع يومئذ بالاضافة مع كسر الميم وفتحها أيضا والمراد هو الفزع المذكور في القراءة الاولى لا بجميع الافزاع الحاصلة يومئذ ومدار الاضافة كونه أعظم الافزاع وأكبرها كأن ماعداه ليس بفزع بالنسبة اليه (ومن جاء بالسيئة) قيل هو الشرك (فكبت وجوههم في النار) أي كبوا فيها على وجوههم منكوسين أو كبت فيها أنفسهم على طريقة ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) على الالتفات للتشديد أو على اضمار القول أي مقولا لهم ذلك (انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها) أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ذلك بعد ما بين لهم أحوال المبدا والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبيها لهم على أنه قد أتم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه ولم يبق له عليه الصلاة والسلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عز وجل والاستغراق في مراقبته غير مبال بهم ضلوا ام رشدوا صلحوا أو فسدوا ليحملهم ذلك على أن يهتموا بأمور أنفسهم ولا يتوهموا من شدة اعتنائه عليه الصلاة والسلام بأمر دعوتهم أنه عليه الصلاة والسلام يظهر لهم ما يلجئهم الى الايمان لا محالة ويشتغلوا بتدارك أحوالهم ويتوجهوا نحو التدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والبلدة هي مكة المعظمة وتخصيصها بالاضافة لتفخيم شأنها واجلال

سورة

على هذا الوجه وجب حمله على الفناء أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التي يكون الشيء مطلوبا لاجلها فاذا امات الانسان قيل هلك لان الصفة المطلوبة منه حياته وعقله واذا تمزق الثوب قيل هلك لان المقصود منه صلاحيته للبس فاذا تفرقت اجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لاجلها كانت منتفعا بها انتفاعا خاصا فلا جرم صح اطلاق اسم الهالك عليها فاما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقمر من حيث هو قمر فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء اجزاء العالم بقوله يوم تبدل الارض غير الارض وهذا صريح بان تلك الاجزاء باقية الا انها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الموضع (المسئلة الثانية) احتج أهل التوحيد بهذه الآية على ان الله تعالى شيء قالوا لانه استثنى من قوله كل شيء استثناء يخرج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت اللفظ فوجب كونه شيأ يؤكده ماذكرناه في سورة الانعام وهو قوله قل أي شيء أكبر شهادة قل الله واحتجاجهم على انه ليس بشيء بقوله ليس كمثله شيء والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شيء ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيأ جوابه ان الكاف صلة زائدة (المسئلة الثالثة) استدلت المجسمة بهذه الآية على ان الله تعالى جسم من وجهين الاول قالوا الآية صريحة في اثبات الوجه وذلك يقتضي الجسمية والثاني قوله واليه ترجعون وكلمة الى لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل الا في الاجسام والجواب لو صح هذا الكلام يلزم ان يفنى جميع اعضائه وان لا يبقى منه الا الوجه وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة وهو بيان بن سمعان وذلك لا يقول به عاقل ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الامر كذا أي حقيقته ومنهم من قال الوجه صلة والمراد كل شيء هالك الا هو وأما كلمة الى فالمعنى والى موضع حكمه وقضائه ترجعون (المسئلة الرابعة) استدلت المعتزلة به على ان الجنة والنار غير مخلوقتين قالوا لان الآية تقتضي فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا وهذا يناقض قوله تعالى في صفة الجنة أكلها دائم والجواب هذا معارض بقوله تعالى في صفة الجنة أعدت للمتقين وفي صفة النار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ثم اما أن يحمل قوله كل شيء هالك على الاكثر كقوله وأوتيت من كل شيء أو يحمل قوله أكلها دائم على ان زمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة الى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه (المسئلة الخامسة) قوله كل شيء هالك يدل على ان الذات ذات بالفعل لانه حكم بالهلاك على الشيء فدل على ان الشيء في كونه شيأ قابل للهلاك فوجب أن لا يكون المعدوم شيأ والله أعلم والحمد لله رب العالمين

مكانها والتعرض لتحريمه تعالى اياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم اثر تعظيم مع ما فيه من الاشعار بعلة الامر وموجب الامتثال به كما في قوله تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ومن الرمز الى غاية شناعة مافعلوا فيها ألا يرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وارادة الالحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطي أفجر أفراد الفجور وأشنع آحاد الالحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الاوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله أنى يؤفكون وقرئ حرمها بالتخفيف وقوله تعالى (وله كل شيء) أي خلقا وملكا وتصرفا من غير أن يشاركه شيء في شيء من ذلك تحقيق للحق وتنبيه على أن افراد مكة بالاضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات (وأمرت أن أكون من المسلمين) أي أثبت على ما كنت عليه من كوني من جملة الثابتين على ملة الاسلام والتوحيد أي الذين أسلموا وجوههم لله خالصة من قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله (وأن أتلو القرآن) أي أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيأ فشيأ أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الارشاد فيكون ذلك تنبيها على كفايته في الهداية والارشاد من غير حاجة الى اظهار معجزة أخرى فمعنى قوله تعالى (فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه) حينئذ فمن اهتدى بالايمان به

سورة العنكبوت مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها الى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل الى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس وهي سبعون أو تسع وستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) في تفسير الآية وفيما يتعلق بالتفسير مسائل (المسئلة الاولى) في تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الاول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وكان المراد منه أن يرده الى مكة ظاهرا غالبا على الكفار ظافرا طالبا للثار وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثاني) هو أنه تعالى لما قال في أواخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان في الدعاء اليه الطعان والحراب والضراب لان النبي عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد ان لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال أحسب الناس ان يتركوا (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة كل شيء هالك الا وجهه ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال له الحكم واليه ترجعون يعني ليس كل شيء هالكا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع الى الله اذا تبين هذا فاعلم ان منكري الحشر يقولون لا فائدة في التكاليف فانها مشاق في الحال ولا فائدة لها في المآل اذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال فلا فائدة فيها فلما بين الله انهم اليه يرجعون بين ان الامر ليس على ما حسبوه بل حسن التكليف ليثيب الشكور ويعذب الكفور فقال أحسب الناس ان يتركوا غير مكلفين من غير عمل يرجعون به الى ربهم (المسئلة الثانية) في حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجي وانقدم عليه كلاما كليا في افتتاح السور بالحروف فنقول الحكيم اذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الاشغال يقدم على الكلام المقصود شيأ غيره ليلتفت المخاطب بسببه اليه ويقبل بقلبه عليه ثم يشرع في المقصود اذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاما له معنى مفهوم كقول القائل اسمع واجعل بالك الي وكن لي وقد يكون شيأ هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويا زيد وألا يا زيد وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتا غير مفهوم كمن يصفر خلف انسان ليلتفت اليه وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الانسان بيديه ليقبل السامع عليه ثم ان موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم كان المقدم على المقصود أكثر ولهذا ينادي القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بياء فيقال يا زيد والغافل ينبه أولا فيقال ألا يا زيد اذا ثبت هذا فنقول ان النبي صلى الله عليه وسلم وان كان يقظان الجنان لكنه انسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم ان يقدم

والعمل بما فيه من الشرائع والاحكام وعلى الاول ممن اهتدى باتباعه اياى فيما ذكر من العبادة والاسلام وتلاوة القرآن فانما منافع اهتدائه عائدة اليه لا الىّ (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عن العمل بما فيه أو بمخالفتى فيما ذكر (فقل) فى حقه (انما أنا من المنذرين) وقد خرجت عن عهدة الانذار فليس علىّ من وبال ضلاله شئ وانما هو عليه فقط (وقل الحمد لله) أى على ما أفاض علىّ من نعمائه التى أجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها الى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين النيرة وقوله تعالى (سيريكم آياته) من جملة الكلام المأمور به أى سيريكم البتة فى الدنيا آياته الباهرة التى نطق بها القرآن كخروج الدابة وسائر الاشراط وقد عد منها وقعة بدر ويأباه قوله تعالى (فتعرفونها) أى فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لا تنفعكم المعرفة لانهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيريكم فى الآخرة وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبئ عنه اضافة الرب الى ضمير النبىّ عليه الصلاة والسلام وتخصيص الخطاب أولا به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانيا للكفرة تغليبا أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيآت فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة وقرئ عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض فكان

على الكلام المقصود حروفا هى كالمنبهات ثم ان تلك الحروف اذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم فى افادة المقصود الذى هو التنبيه من تقديم الحروف التى لها معنى لان تقديم الحروف اذا كان لاقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاما منظوما وقولا مفهوما فاذا سمعه السامع ربما يظن انه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه أما اذا سمع منه صوتا بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بان ما سمعه ليس هو المقصود فاذن تقديم الحروف التى لا معنى لها فى الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة فان قال قائل فما الحكمة فى اختصاص بعض السور بهذه الحروف فنقول عقل البشر عن ادراك الاشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الاشياء لكن نذكر ما يوفقنا الله فنقول كل سورة فى أوائلها حروف التهجى فان فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى الم ذلك الكتاب الم الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب المص كتاب أنزل اليك يس والقرآن ص والقرآن ق والقرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل الكتاب الا ثلاث سور كهيعص الم أحسب الناس الم غلبت الروم والحكمة فى افتتاح السور التى فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هى ان القران عظيم والانزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا وكل سورة فى أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظا أو لم يكن فكان الواجب أن يكون فى أوائل كل سورة منبه وأيضا فقد وردت سور فيها ذكر الانزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وقوله سورة أنزلناها وقوله تبارك الذى نزل الفرقان وقوله انا أنزلناه فى ليلة القدر لانا نقول جوابا عن الاول لا ريب فى ان كل سورة من القرآن لكن السورة التى فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فان قوله تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن مع انها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما وكتاب آخر يرد منه عليه فيه انا كتبنا اليك كتبا فيها أوامرنا فامتثلها لا شك ان عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الاول وعن الثانى ان قوله الحمد لله وتبارك الذى تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج الى منبه بخلاف الاوامر والنواهى وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح وسورة أنزلناها قد بينا انها بعض من القرآن فيها ذكر انزالها وفى السورة التى ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم فى النفس وأثقل وأما قوله تعالى انا أنزلناه فنقول هذا ليس واردا على مشغول القلب بشئ غيره بدليل انه ذكر الكناية فيها وهى ترجع الى مذكور سابق أو معلوم وقوله انا أنزلناه الهاء راجع الى معلوم عند النبىّ صلى الله عليه وسلم

والمعنى وما ربك بغافل عن أعمالهم فيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجبة له والله تعالى أعلم ٭ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وهود وصالح وابراهيم وشعيب عليهم الصلاة والسلام ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادى لا اله الا الله

٭(سورة القصص مكية وقيل الا قوله الذين آتيناهم الكتاب الى قوله الجاهلين وهى ثمان وثمانون آية)٭

٭(بسم الله الرحمن الرحيم)٭

(طسم تلك آيات الكتاب المبين) قد مر ما يتعلق به من الكلام بالاجمال والتفصيل فى أشباهه (نتلوا عليك) أى نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام ويجوز أن تكون التلاوة مجازا من التنزيل (من نبأ موسى وفرعون) مفعول نتلوا أى بعض نبئهما (بالحق) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل نتلوا أو من مفعوله أو صفة لمصدره أى نتلو عليك بعض نبئهما ملتبسين أو ملتبسا بالحق أو تلاوة ملتبسة بالحق (لقوم يؤمنون) متعلق بنتلو وتخصيصهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل لانهم المنتفعون به (ان فرعون علا فى الارض) استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أى انه تجبر وطغى فى أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان (وجعل أهلها شيعا) أى فرقا يشيعونه فى كل ما يريده من الشر والفساد

فكان منبها له فلم ينبه واعلم ان التنبيه قد حصل فى القرآن بغير الحروف التى لا يفهم معناها كما فى قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم وقوله يا أيها النبىّ اتق الله ويا أيها النبىّ لم تحرم لانها أشياء هائلة عظيمة فان تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذى يكون للبعيد الغافل عنها تنبيها وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن وذلك لان القرآن ثقله وعبؤه بما فيه من التكاليف والمعانى وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا يعنى لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذى فى السور التى فيها ذكر القرآن المشتمل على الاوامر والنواهى فان قيل مثل هذا الكلام وفى معناه ورد فى سورة التوبة وهو قوله تعالى أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يقدم عليه حروف التهجى فنقول الجواب عنه فى غاية الظهور وهو ان هذا ابتداء كلام ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال أحسب وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون فى أول الكلام لا فى اثنائه وأما الم غلبت الروم فسيجئ فى موضعه ان شاء الله تعالى هذا تمام الكلام فى الحروف (المسئلة الثالثة) فى اعراب الم وقد ذكر تمام ذلك فى سورة البقرة مع الوجوه المنقولة فى تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه ان الحروف لا اعراب لها لانها جارية مجرى الاصوات المنبهة (المسئلة الرابعة) فى سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال الاول انها نزلت فى عمار بن ياسر وعياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة الثانى انها نزلت فى أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون الثالث انها نزلت فى مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر (المسئلة الخامسة) فى التفسير قوله أحسب الناس ان يتركوا يعنى أظنوا انهم يتركون بمجرد قولهم آمنا وهم لا يفتنون لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية واختلف أئمة النحو فى قوله أن يقولوا فقال بعضهم ان يتركوا بأن يقولوا وقال بعضهم أن يتركوا يقولون آمنا ومقتضى ظاهر هذا انهم يمنعون من قولهم آمنا كما يفهم من قول القائل تظن انك تترك أن تضرب زيدا أى تمنع من ذلك وهذا بعيد فان الله لا يمنع أحدا من أن يقول آمنت ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم (المسئلة السادسة) فى الفوائد المعنوية وهى ان المقصود الاقصى من الخلق العبادة والمقصد الاعلى فى العبادة حصول محبة الله كما ورد فى الخبر لا يزال العبد يتقرب الىّ بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله لكن للقلب ترجمان وهو اللسان وللسان مصدقات هى الاعضاء ولهذه المصدقات مزكيات فاذا قال الانسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله فى الجنان فلا بد له من شهود فاذا استعمل الاركان فى الاتيان بما عليه بنيان

الايمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل فى سبيل الله نفسه وماله وزكى بترك ما سواه أعماله زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله فيحرر فى جرائد المحبين اسمه ويقرر فى أقسام المقربين قسمه واليه الاشارة بقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعنى أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا تزكية بل لابد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين * (فائدة ثانية) * وهى ان أدنى درجات العبد أن يكون مسلما فان ما دونه دركات الكفر فالاسلام أول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضا فى شغله ماضيا فى فعله فينتقل من خدمة الى خدمة أعلى منها مرتبة ومنهم من يكون كسلانا متخلفا فينتقل من خدمة الى خدمة أدنى منها ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ومنهم من يقطع رسمه ويمحى عن الجرائد اسمه فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابدا مقبلا على العبادة مقبولا للسعادة فينتقل من مرتبة المؤمنين الى درجة الموقنين وهى درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلا بالخلاعة فينتقل الى مرتبة دونه وهى مرتبة العصاة ومنزلة القساة وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العباد محروما ويلحق بأهل العناد مرجوما ومنهم من يبقى فى أول درجة الجنة وهم البله فقال الله بشارة للمطيع الناهض أحسب الناس أن يتركوا يعنى أظنوا انهم يتركون فى أول المقامات لا بل ينتقلون الى أعلى الدرجات كما قال تعالى والذين أوتوا العلم درجات فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة * وقال بضده للكسلان أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا امنا يعنى اذا قال آمنت ويتخلف بالعصيان يترك ويرضى منه لا بل ينتقل الى مقام أدنى وهو مقام العاصى أو الكافر ۞ ثم قال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم آمنا بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم العبادات وفى قوله فليعلمن الله الذين صدقوا وجوه (الاول) قول مقاتل فليرين الله الثانى فليظهرن الله الثالث فليميزن الله فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان فكيف يمكن أن يقال يعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك ان علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع فقبل التكليف كان الله يعلم ان زيدا مثلا سيطيع وعمرا سيعصى ثم وقت التكليف والاتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الاتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه فى شئ من الاحوال وانما المتغير المعلوم ولنبين هذا بمثال من المحسوسات ولله المثل الاعلى وهو ان المرآة الصافية الصقيلة اذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابسا ثوبا أبيض ظهر فيها زيد فى ثوب أبيض واذا عبر عليها عمرو فى لباس أصفر يظهر فيها

أو يشيع بعضهم بعضا فى طاعته أو أصنافا فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل ويسخره فيه من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الاعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب

لئلا تتفق كلمتهم (يستضعف طائفة منهم) وهم بنو اسرائيل والجملة اما حال من فاعل جعل أو صفة لشيعا أو استئناف وقوله تعالى (يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم) بدل منها وكان ذلك لما أن كاهنا قال له يولد فى بنى اسرائيل مولود يذهب ملكك على يده وما ذاك الا لغاية حمقه اذ لو صدق فما فائدة القتل وان كذب فما وجهه (انه كان من المفسدين) أى الراسخين فى الافساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الانبياء عليهم الصلاة والسلام (ونريد أن نمن) أى نتفضل (على الذين استضعفوا فى الارض) على الوجه المذكور بانجائهم من بأسه وصيغة المضارع فى نريد حكاية حال ماضية وهو معطوف على ان فرعون علا الخ لتناسبهما فى الوقوع فى حيز التفسير للنبا أو حال من يستضعف بتقدير المبتدا أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وليس من ضرورة مقارنة الارادة للاستضعاف مقارنة المراد له لما أن تعلق الارادة للمن تعلق استقبالى على أن منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت فى شرف الوقوع جاز اجراؤها مجرى الواقع المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لابانة قدر النعمة فى المنة بذكر

كذلك فهل يقع فى ذهن أحد ان المرآة فى كونها حديدا تغيرت أو يقع له انها فى تدويرها تبدلت أو يذهب فهمه الى انها فى صقالتها اختلفت أو يخطر بباله انها عن مكانها انتقلت لا يقع لاحد شئ من هذه الاشياء ويقطع بان المتغير الخارجات فافهم علم الله من هذا المثال بل اعلى من هذا المثال فان المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله فليعلمن الله الذين صدقوا يعنى يقع من يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم وليعلمن الكاذبين يعنى من قال أنا مؤمن وكان صادقا عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقا كذلك يبين وفى قوله الذين صدقوا بصيغة الفعل وقوله الكاذبين باسم الفاعل فائدة مع ان الاختلاف فى اللفظ أدل على الفصاحة وهى ان اسم الفاعل يدل فى كثير من المواضع على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الامر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن اسم الفاعل يفهم ذلك اذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبى العهد بالاسلام فى أوائل ايجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين الذين صدقوا بصيغة الفعل أى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر الكاذبين بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال يوم ينفع الصادقين صدقهم بلفظ اسم الفاعل وذلك لان فى اليوم المذكور الصدق قد رسخ فى قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك فى أوائل الاسلام ۞ ثم قال تعالى (أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا ساء ما يحكمون) لما بين حسن التكليف بقوله احسب الناس ان يتركوا بين ان من كلف بشئ ولم يأت به يعذب وان لم يعذب فى الحال فسيعذب فى الاستقبال ولا يفوت الله شئ فى الحال ولا فى المآل وهذا ابطال مذهب من يقول التكاليف ارشادات والايعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزا عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والايعاد والله لا يخلف الميعاد وأما الامهال فلا يفضى الى الاهمال والتعجيل فى جزاء الاعمال شغل من يخاف الفوت لولا الاستعجال ثم قال تعالى ساء ما يحكمون يعنى حكمهم بانهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سئ فان الحكم الحسن لا يكون الا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فان الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه فحكمهم حكم فى غاية السوء والرداءة ۞ ثم قال (من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم) لما بين بقوله أحسب الناس أن العبد لا يترك فى الدنيا سدى وبين فى قوله أم حسب الذين يعملون السيئات ان من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله

أتباعا مسخرين لآخرين (ونجعلهم الوارثين) لجميع ما كان منتظما فى سلك ملك فرعون وقومه وراثة معهودة فيما بينهم كما ينبئ عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها عليه زمانا لانحطاط رتبتها عن الامامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من روادفه أعنى قوله تعالى (ونمكن لهم فى الارض) الخ أى نسلطهم على مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاؤن وأصل التمكين أن تجعل للشئ مكانا يتمكن فيه (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم) أى من أولئك المستضعفين (ما كانوا يحذرون) ويجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم وقرئ يرى بالياء ورفع ما بعده على الفاعلية (وأوحينا الى أم موسى) بالهام أو رؤيا (أن ارضعيه) ما أمكنك اخفاؤه (فاذا خفت عليه) بان يحس به الجيران عند بكائه وينموا عليه (فألقيه فى اليم) فى البحر وهو النيل (ولا تخافى) عليه ضيعة بالغرق ولا شدة (ولا تحزنى انا رادوه اليك) عن قريب بحيث تأمنين عليه (وجاعلوه من المرسلين) والجملة تعليل للنهى عن الخوف والحزن وايثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أى انا فاعلون لرده وجعله من المرسلين لا محالة روى أن بعض

٨١ را س القوابل الموكلات من قبل فرعون بحبالى بنى اسرائيل كانت مصافية لام موسى عليه السلام فقالت لها لينفعنى

وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انا ذكرنا فى مواضع ان الاصول الثلاثة وهى الاول وهو الله تعالى ووحدانيته والاصل الآخر وهو اليوم الآخر والاصل المتوسط وهو النبى المرسل من الاول الموصل الى الآخر لا يكاد ينفصل فى الذكر الالهى بعضها عن بعض فقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا فيه اشارة الى الاصل الاول يعنى أظنوا أنه يكفى الاصل الاول وقوله وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم يعنى بارسال الرسل وايضاح السبل فيه اشارة الى الاصل الثانى وقوله أم حسب الذين يعملون السيئات مع قوله من كان يرجو لقاء الله فيه اشارة الى الاصل الثالث وهو الآخر (المسئلة الثانية) ذكر بعض المفسرين فى تفسير لقاء الله انه الرؤية وهو ضعيف فان اللقاء والملاقاة بمعنى وهو فى اللغة بمعنى الوصول حتى ان جدارين اذا تواصلا فقد تلاقى أحدهما الآخر (المسئلة الثالثة) قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله من كان يرجو لقاء الله من كان يخاف الله وهو أيضا ضعيف فان المشهور فى الرجاء هو توقع الخير لا غير ولانا أجمعنا على ان الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله واذا كان واردا لهذا لا يكون لغيره دفعا للاشتراك (المسئلة الرابعة) يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر فان كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد فى الاخبار وذلك لان القائل اذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه ان متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى انه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل أما قلت ما قلت و وصل السلطان ولم يظهر الخير فلو لم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا فى المثال واذا ثبت هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء (المسئلة الخامسة) قوله من كان يرجو شرط وجزاؤه فان أجل الله لآت والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتيا له وهذا باطل فما الجواب عنه نقول المراد من ذكر اتيان الاجل وعد المطيع بما بعده من الثواب يعنى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك ان من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتيا على وجه يثاب هو (المسئلة السادسة) قال وهو السميع العليم ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما وذلك لانه سبق القول فى قوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا وسبق الفعل بقوله وهم لا يفتنون وبقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وبقوله أم حسب الذين يعملون السيئات ولا شك ان القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصود والعلم يشملهما فقال وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال ممن كذب وأيضا عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهى ان العبد له ثلاثة أمور هى أصناف حسناته أحدها عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وانما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه

حبك اليوم فعالجتها فلما وقع الى الارض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه فى قلبها ثم قالت ماجئتك الا لاقبل مولودك وأخبر فرعون ولكنى وجدت لابنك فى قلبى محبة ما وجدت مثلها لاحد فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة فألقته فى تنور مسجور ولم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيأ فخرجوا وهى لا تدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى الله تعالى اليها ما أوحى وقد روى انها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى بالقار من داخله والفاء فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون) فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة مترتبة على ما قبلها من الامر بالالقاء قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وايذانا بكمال سرعة الامتثال أى فألقته فى اليم بعد ما جعلته فى التابوت حسبما أمرت به فالتقطه آل فرعون أى أخذوه أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من اكرم الناس اليه وكان بها برص شديد عجزت الاطباء عن علاجه فقالوا لا تبرأ الا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الانس يوم كذا وساعة كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون فى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم   وجوارحه

وجوارحه وهو يرى فاذا أتى بهذه الاشياء يجعل الله لمسموعه مالا أذن سمعت ولمرئيه مالا عين رأت ولعمل قلبه مالا خطر على قلب أحد كما وصف فى الخبر فى وصف الجنة ﷺ ثم قال تعالى (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين) لما بين ان التكليف حسن واقع وان عليه وعدا وايعادا ليس لهما دافع بين ان طلب الله ذلك من المكلف ليس لنفع يعود اليه فانه غنى مطلقا ليس شئ غيره يتوقف كماله عليه ومثل هذا كثير فى القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الآية السابقة مع هذه الآية توجبان اكثار العبد من العمل الصالح واتقانه له وذلك لان من يفعل فعلا لاجل ملك ويعلم ان الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه واذا علم ان نفعه له ومقدر بقدر عمله يكثر منه فاذا قال الله انه سميع عليم فالعبد يتقن عمله و يخلصه له واذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول هذا يدل على ان الجزاء على العمل لان الله تعالى لما قال من جاهد فانما يجاهد لنفسه فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده مالولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق وبيانه هو ان الله تعالى لما بين ان المكلف اذا جاهد ينبيه فاذا أتى به هو يكون جهادا نافعا له ولا نزاع فيه وانما النزاع فى ان الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ولا يجوز أن يحسن الى أحد الا بالعمل ولا دلالة للآية عليه (المسئلة الثالثة) قوله فانما يقتضى الحصر فينبغى أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فان من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه حتى ان الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فان انتفاع الولد انتفاع للاب والحصر ههنا معناه ان جهاده لا يصل الى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى ان الله لغنى عن العالمين وفيه مسائل (الاولى) تدل الآية على ان رعاية الاصلح لا يجب على الله لانه بالاصلح لا يستفيد فائدة والا لكان مستكملا بتلك الفائدة وهى غيره وهى من العالم فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجا اليه وهو غنى عن العالمين وأيضا أفعاله غير معللة لما بينا (المسئلة الثانية) تدل الآية على انه ليس فى مكان وليس على العرش على الخصوص فانه من العالم والله غنى عنه والمستغنى عن المكان لا يمكن دخوله فى مكان لان الداخل فى المكان يشار اليه بانه ههنا أو هنالك على سبيل الاستقلال وما يشار اليه بأنه ههنا أو هنالك يستحيل ان لا يوجد لا ههنا ولا هنالك والا لجوز العقل ادراك جسم لا فى مكان وانه محال (المسئلة الثالثة) لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم والا لكان هو فى قادريته محتاجا الى قدرة هى غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجا وهو غنى نقول لم قلتم ان قدرته من العالم وهذا لان العالم كل موجود سوى الله بصفاته أى كل موجود هو خارج عن مفهوم الاله الحى القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر والعلم ليس خارجا عن مفهوم العالم (المسئلة

ابن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بنى اسرائيل من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمته حكاه السهيلى وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل فاذا بتابوت فى النيل تضربه الامواج فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروا بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فأعياهم فنظرت آسية فرأت نورا فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا هى بصبى صغير فى مهده واذا نور بين عينيه وهو يمص ابهامه لبنا فألقى الله تعالى محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعته وقيل لما نظرت الى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن أن هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر فرقا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتى واللام فى قوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) لام العاقبة ابرز مدخولها فى معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له فى الترتب عليه بالغرض الحامل عليه وقرئ حزنا وهما لغتان كالسقم والسقم جعل عليه الصلاة والسلام نفس الحزن ايذانا بقوة سببيته لحزنهم (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) أى فى كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو فى أن قتلوا لاجله ألوفا ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون روى أنه ذبح فى طلبه عليه الصلاة والسلام تسعون ألف وليد أو كانوا

الرابعة) الآية فيها بشارة وفيها انذار اما الانذار فلان الله اذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شئ عليه لغنائه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم واما البشارة فلانه اذا كان غنيا فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده لا شئ عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام ﴿ ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون) لما بين اجمالا أن من يعمل صالحا فلنفسه بين مفصلا بعض التفصيل ان جزاء المطيع الصالح عمله فقال والذين آمنوا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) انها تدل على أن الاعمال مغايرة للايمان لان العطف يوجب التغاير (المسئلة الثانية) انها تدل على أن الاعمال داخلة فيما هو المقصود من الايمان لان تكفير السيئات والجزاء بالاحسن معلق عليها وهي ثمرة الايمان ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك في أن عروقها وأغصانها منها والماء الذي يجرى عليها والتراب الذي حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل الا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الايمان وأيضا الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والاشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وان غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالايمان (المسئلة الثالثة) الايمان هو التصديق كما قال وما أنت بمؤمن لنا أي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل ان علم مفصلا انه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الاجمال فيما لم يعلم والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحا بأمره ولو نهى عنه لما كان صالحا فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الامر والنهي فالصدق عمل صالح في نفسه ويأمر الله به لذلك فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الامر والنهي وعندهم الامر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسئلة بطولها في الاصول (المسئلة الرابعة) العمل الصالح باق لان الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف يقال فسدت الزروع اذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد صالحة أي باقية على ما ينبغي اذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لانه عرض ولا يبقى بالعامل أيضا لانه هالك كما قال تعالى كل شئ هالك فبقاؤه لا بد من أن يكون بشئ باق لكن الباقي هو وجه الله لقوله كل شئ هالك الا وجهه فينبغي أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحا وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحا فالعمل الصالح هو الذي أتى به المكلف مخلصا لله (المسئلة الخامسة) هذا يقتضي أن تكون النية شرطا في الصالحات من الاعمال وهي قصد الايقاع لله ويندرج فيها النية في الصوم خلافا لزفر وفي الوضوء خلافا لابي حنيفة رحمه الله (المسئلة السادسة) العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى والعمل الصالح يرفعه لكنه لا يرتفع الا بالكلم الطيب فانه يصعد

بنفسه

مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم فالجملة اعتراضية لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به وقرئ خاطين على انه تخفيف خاطئين أو على انه بمعنى متعدين الصواب الى الخطا (وقالت امرأة فرعون) أي لفرعون حين أخرجته من التابوت (قرة عين لي ولك) أي هو قرة عين لنا لما انهما لما رأياه أحباه او لما ذكر من برء ابنته من البرص بريقه وفي الحديث انه قال لك لا لي ولو قال لي كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها (لا تقتلوه) خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده (عسى أن ينفعنا) فان فيه مخايل اليمن ودلائل النجابة وذلك لما رأت فيه من العلامات المذكورة (أو نتخذه ولدا) أي نتبناه فانه خليق بذلك (وهم لا يشعرون) حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته كيت وكيت وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا من الالتقاط ورجاء النفع منه والتبني له وقوله تعالى ان فرعون الآية اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم وقيل حال من أحد ضميري نتخذه على أن الضمير للناس أي وهم لا يعلمون انه لغيرنا وقد تبنيناه (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون كقوله تعالى وأفئدتهم هواء أي خلاء لا عقول فيها ويعضده انه قرئ فرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أي هدر وقيل فارغا من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى او لسماعها ان فرعون

بنفسه كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ولهذا قدم الايمان على العمل وههنا لطيفة وهي ان أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وانما ترتفع بغيرها والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين في الآية وعمل القلب وهو الفكر ينزل اليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل الى السماء الدنيا ويقول هل من تائب والتائب النادم بقلبه وكذلك قوله عليه السلام يقول الله عز وجل انا عند المنكسرة قلوبهم يعني بالفكرة في عجزه وقدرتي وحقارته وعظمتي ومن حيث العقل من تفكر في آلاء الله وجد الله وحضر في ذهنه فعلم ان لعمل القلب يأتي الله وعمل اللسان يذهب الى الله وعمل الاعضاء يوصل الى الله وهذا تنبيه على فضل عمل القلب (المسئلة السابعة) ذكر الله من أعمال العبد نوعين الايمان والعمل الصالح وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيآت والجزاء بالاحسن حيث قال لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن فتكفير السيآت في مقابلة الايمان والجزاء بالاحسن في مقابلة العمل الصالح وهذا يقتضي أمورا (الاول) المؤمن لا يخلد في النار لان بايمانه تكفر سيآته فلا يخلد في العذاب (الثاني) الجزاء الاحسن المذكور ههنا غير الجنة وذلك لان المؤمن بايمانه يدخل الجنة اذ تكفر سيآته ومن كفرت سيآته أدخل الجنة فالجزاء الاحسن يكون غير الجنة وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يبعد أن يكون هو الرؤية (الامر الثالث) هو ان الايمان يستر قبح الذنوب في الدنيا فيستر الله عيوبه في الاخرى والعمل الصالح يحسن حال الصالح في الدنيا فيجزيه الله الجزاء الاحسن في العقبى فالايمان اذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصي ويسترها ويحمل صاحبها على الندم والله أعلم (المسئلة الثامنة) قوله لنكفرن عنهم سيآتهم يستدعي وجود السيآت حتى تكفر والذين آمنوا وعملوا الصالحات بأسرها من أين يكون لهم سيئة فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان وعد الجميع بأشياء لا يستدعي وعد كل واحد بكل واحد من تلك الاشياء مثاله اذا قال الملك لاهل بلد اذا أطعتموني أكرم آباءكم واحترم أبناءكم وانعم عليكم وأحسن اليكم لا يقتضي هذا انه يكرم آباء من توفي أبوه أو يحترم ابن من لم يولد له ولد بل مفهومه انه يكرم أب من له أب ويحترم ابن من له ابن فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثاني) ما من مكلف الا وله سيئة أما غير الانبياء فظاهر واما الانبياء فلان ترك الافضل منهم كالسيئة من غيرهم ولهذا قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم (المسئلة التاسعة) قوله ولنجزينهم أحسن يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم وعلى الوجه الاول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون ونجزيهم عليها الا أنه يختار منها أحسنها ويجزي عليه ويترك الباقي وعلى الوجه

عطف عليه وتبناه وقرئ مؤسى بالهمز اجراء للضمة في جارة الواو مجرى ضمتها فهمزت كما في وجوه (ان كادت لتبدي به) أي انها كادت لتظهر بموسى أي بأمره وقصته من فرط الحيرة والدهشة أو الفرح بتبنيه (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر والثبات (لتكون من المؤمنين) أي المصدقين بوعد الله تعالى أو من الواثقين بحفظه لا بتبني فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه (وقالت لاخته) مريم والتعبير عنها بأخوته عليه الصلاة والسلام دون أن يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالامر (قصيه) اي اتبعي اثره وتتبعي خبره (فبصرت به) أي ابصرته (عن جنب) عن بعد وقرئ بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى (وهم لا يشعرون) انها تقصه وتتعرف حاله او انها أخته (وحرمنا عليه المراضع) اي منعناه أن يرتضع من المرضعات والمراضع جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع أو مرضع وهو الرضاع أو موضعه أعني الثدي (من قبل) أي من قبل قصها أثره (فقالت) عند رؤيتها لعدم قبوله الثدي واعتناء فرعون بأمره وطلبهم من يقبل ثديها (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) اي لاجلكم (وهم له ناصحون) لا يقصرون في ارضاعه وتربيته روي ان هامان لما سمعه منها قال انها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت انما أردت وهم للملك ناصحون فامرها فرعون بان تأتي بمن يكفله فأتت بامه وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعلله

الثانى . معناه قريب من معنى قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وقوله فله خير منها (المسئلة العاشرة) ذكر حال المسئ مجملا بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا اشارة الى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن مجملا بقوله ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ومفصلا بهذه الآية ليكون ذلك اشارة الى ان رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله ﴿ ثم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وفى الآية مسائل (الاولى) ما وجه تعلق الآية بما قبلها نقول لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها وبين ثواب من حقق التكاليف اصولها وفروعها تحريضا للمكلف على الطاعة ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه فقال الانسان ان انقاد لاحد ينبغى أن ينقاد لابويه ومع هذا لو أمرا بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شئ من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله (المسئلة الثانية) فى القراءة قرئ حسنا واحسانا وحسنا أظهر ههنا ومن قرأ احسانا فمن قوله تعالى وبالوالدين احسانا والتفسير على القراءة المشهورة هو ان الله تعالى وصى الانسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتى بالفعل والقول ونكر حسنا ليدل على الكمال كما يقال ان لزيد مالا (المسئلة الثالثة) فى قوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا دليل على أن متابعتهم فى الكفر لا تجوز وذلك لان الاحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن الى الوالدين فاتباع العبد أبويه لاجل الاحسان اليهما يفضى الى ترك الاحسان اليهما وما يفضى وجوده الى عدمه باطل فالاتباع باطل وأما اذا امتنع من الشرك بقى على الطاعة والاحسان اليهما من الطاعة فيأتى به فترك هذا الاحسان صورة يفضى الى الاحسان حقيقة (المسئلة الرابعة) الاحسان بالوالدين مأمور به لانهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازا والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالارادة وسبب بقائه بالاعادة للسعادة فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ثم قال تعالى وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما فقوله ما ليس لك به علم يعنى التقليد فى الايمان ليس بجيد فضلا عن التقليد فى الكفر فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلا لان العلم بصحة قولهما محال الحصول فاذا لم يشرك تقليدا ويستحيل الشرك مع العلم فالشرك لا يحصل منه قط ثم قال تعالى الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون يعنى عاقبتكم ومآلكم الىّ وان كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والاولاد والاقارب والعشائر ولا شك ان من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة وحضوره بين يدى غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضى من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه فى زمان آخر ثم قوله تعالى فأنبئكم فيه لطيفة وهى ان الله تعالى يقول لا تظنوا أنى غائب

فدفعه اليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه فقد أبى كل ثدى الا ثديك فقالت انى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى الا قبلنى فقرره فى يدها واجرى عليها فرجعت به الى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى (فرددناه الى أمه كى تقر عينها) بوصول ولدها اليها (ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم ان وعد الله) اى جميع ما وعده من رده وجعله من المرسلين (حق) لا خلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه (ولكن اكثرهم لا يعلمون) ان الامر كذلك فيرتابون فيه أو أن الغرض الاصلى من الرد علمها بذلك وما سواه تبع وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون (ولما بلغ اشده) اى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشوه وذلك من ثلاثين الى أربعين سنة فان العقل يكمل حينئذ وروى انه لم يبعث نبى الا على رأس الاربعين (واستوى) اى اعتدل قده او عقله (آتيناه حكما) اى نبوة (وعلما) بالدين أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه وهو أوفق لنظم القصة لانه تعالى استنبأه بعد الهجرة فى المراجعة (وكذلك) ومثل ذلك الذى فعلنا بموسى وامه (نجزى المحسنين) على احسانهم (ودخل المدينة) أى مصر من قصر فرعون وقيل منف اوحابين أو عين شمس من نواحيها (على حين غفلة من اهلها) فى وقت لا يعتاد دخولها اولا يتوقعونه فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته) اى ممن

عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين فى الحال اعتمادا على غيبتى وعدم علمى بمخالفتكم اياى فانى حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه ﴿ ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى اعادة الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة أخرى نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتديا وضالا بقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدى مفصلا بقوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولما تم ذلك ذكر قسمين آخرين هاديا ومضلا فقوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا يقتضى أن يهتدى بهما وقوله وان جاهداك لتشرك بيان اضلالهما وقوله الى مرجعكم فأنبئكم بطريق الاجمال تهديد المضل وقوله والذين آمنوا على سبيل التفصيل وعد الهادى فذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة لبيان حال المهتدى ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذى يدل عليه هو أنه قال أولا لنكفرن عنهم سيئاتهم وقال ثانيا لندخلنهم فى الصالحين والصالحون هم الهداة لانه مرتبة الانبياء ولهذا قال كثير من الانبياء ألحقنى بالصالحين (المسئلة الثانية) قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية والمعمول له وهو وجه الله باق والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الامور الدنيوية فان فى الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفى الآخرة بقاء الفاعل بالفعل (المسئلة الثالثة) قيل فى معنى قوله لندخلنهم فى الصالحين لندخلنهم فى مقام الصالحين أو فى دار الصالحين والاولى ان يقال لا حاجة الى الاضمار بل يدخلهم فى الصالحين أى يجعلهم منهم ويدخلهم فى عدادهم كما يقال الفقيه داخل فى العلماء (المسئلة الرابعة) قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد وما فيه يتطرق اليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك ترابا بخلاف الانسان فانه يصير ترابا أو شيأ آخر وعلى هذا فالعالم العلوى ليس بفاسد فهو صالح فقوله تعالى لندخلنهم فى الصالحين أى فى المجردين الذين لا فساد لهم ﴿ ثم قال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده . وكافر مجاهر بكفره وعناده . ومذبذب بينهما يظهر الايمان بلسانه ويضمر الكفر فى فؤاده . والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وبين أحوالهما بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات الى قوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات بين القسم الثالث وقال ومن الناس من يقول آمنا بالله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ومن الناس من يقول آمنا ولم يقل آمنت

شايعه على دينه وهم بنو اسرائيل (وهذا من عدوه) أى من مخالفيه دينا وهم القبط والاشارة على الحكاية (فاستغاثه الذى من شيعته) اى سأله ان يغيثه بالاعانة كما ينبئ عنه تعديته بعلى وقرئ استعانه (على الذى من عدوه فوكزه موسى) أى ضرب القبطى بجمع كفه وقرئ فلكزه اى فضرب به صدره (فقضى عليه) فقتله وأصله انهى حياته من قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر (قال هذا من عمل الشيطان) لانه لم يكن مامورا بقتل الكفار أولانه كان مامونا فيما بينهم فلم يكن له اغتيالهم ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ وانما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفر منه جريا على سنن المقربين فى استعظام ما فرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر (انه عدو مضل مبين) ظاهر العداوة والاضلال (قال) توسيطه بين كلاميه عليه الصلاة والسلام لابانة ما بينهما من المخالفة من حيث انه مناجاة ودعاء بخلاف الاول (رب انى ظلمت نفسى) أى بقتله (فاغفر لى ذنبى (فغفر له) ذلك (انه هو الغفور الرحيم) أى المبالغ فى مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم (قال رب بما انعمت علىّ) اما قسم محذوف الجواب اى اقسم بانعامك علىّ بالمغفرة لاتوبن (فلن اكون) بعد هذا أبدا (ظهيرا للمجرمين) واما استعطاف

اى بحق انعامك على اعصمنى فلن اكون معينا لمن تؤدى معاونته الى الجرم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فابتلى به مرة أخرى وهذا يؤيد الاول وقيل معناه بما أنعمت على من القوة أعين أولياءك فلن أستعملها فى مظاهرة أعدائك (فاصبح فى المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستقادة او الاجناد (فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه) أى يستغيثه برفع الصوت من الصراخ (قال له موسى انك لغوى مبين) اى بين الغواية تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما ان أراد) موسى (ان يبطش بالذى هو عدو لهما) أى لموسى وللاسرائيلى اذ لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا اعداء لبنى اسرائيل على الاطلاق وقرئ يبطش بضم الطاء (قال) أى الاسرائيلى ظانا انه عليه الصلاة والسلام يبطش به حسبما توهمه تسميته اياه غويا (ياموسى اتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس) قالوا لما سمع القبطى قول الاسرائيلى علم ان موسى هو الذى قتل ذلك الفرعونى فانطلق الى فرعون فاخبره بذلك وأمر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل قاله القبطى (ان تريد) أى ما تريد

مع انه وحد الافعال التى بعده كقوله تعالى فاذا أوذى فى الله وقوله جعل فتنة الناس وذلك لان المنافق كان يشبه نفسه بالمؤمن ويقول ايمانى كايمانك فقال آمنا يعنى أنا والمؤمن حقا آمنا اشعارا بان ايمانه كايمانه وهذا كما ان الجبان الضعيف اذا خرج مع الابطال فى القتال وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم فيصح من السامع لكلامه ان يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا وهذا الرد يدل على انه يفهم من كلامه ان خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم لانه لا يصح الانكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال وكذ قول القائل انا والملك ألفيناه لا نا واستقبلناه ينكر لان المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا اظهار كون ايمانهم كايمان المحقين كان الواحد يقول آمنا أى أنا والمحق (المسئلة الثانية) قوله فاذا أوذى فى الله هو فى معنى قوله وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى غير ان المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها فقال هناك أوذوا فى سبيلى وقال ههنا أوذى فى الله ولم يقل فى سبيل الله واللطيفة فيه ان الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه وكان يمكنه ان يظهر موافقتهم ان بلغ الايذاء الى حد الاكراه ويكون قلبه مطمئنا بالايمان فلا يترك الله ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة (المسئلة الثالثة) قوله جعل فتنة الناس كعذاب الله قال الزمخشرى جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما ان عذاب الله صارف عن الكفر وقيل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله وبالجملة معناه انهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الاليم الدائم حتى ترددوا فى الامر وقالوا ان آمنا نتعرض للتأذى من الناس وان تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد الا عند التساوى ومن أين الى أين تعذيب الناس لا يكون شديدا ولا يكون مديدا لان العذاب ان كان شديدا كعذاب النار وغيره يموت الانسان فى الحال فلا يدوم التعذيب وان كان مديدا كالحبس والحصر لا يكون شديدا وعذاب الله شديد وزمانه مديد وأيضا عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع وأيضا عذاب الناس عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده عذاب أليم والمشقة اذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذابا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابا (المسئلة الرابعة) قال فتنة الناس ولم يقل عذاب الناس لان فعل العبد ابتلاء وامتحان من الله وفتنة تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الايمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا وهذا اشارة الى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحانا من الانسان كالصبر على العبادات (المسئلة الخامسة) لو قال قائل هذا يقتضى منع

(الا أن تكون جبارا فى الارض) وهو الذى يفعل كل ما يريده من الضرب والقتل ولا ينظر فى العواقب وقيل المتعظم الذى لا يتواضع لامر الله تعالى (وما تريد أن تكون من المصلحين) بين الناس بالقول والفعل (وجاء رجل من أقصى المدينة) أى كائن من آخرها أو جاء من آخرها (يسعى) أى يسرع صفة لرجل أو حال منه على ٦٤٩ أن الجار والمجرور صفة له لا متعلق بجاء فان تخصصه يلحقه بالمعارف قيل هو مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل شمعان (قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) أى يتشاورون بسببك فان كلا من المتشاورين يأمر الآخرين ويأتمر (فاخرج) أى من المدينة (انى لك من الناصحين) اللام للبيان لما أن معمول الصلة لا يتقدمها (فخرج منها) أى من المدينة (خائفا يترقب) لحوق الطالبين (قال رب نجنى من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم (ولما توجه تلقاء مدين) أى نحو مدين وهى قرية شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن ابراهيم ولم تكن تحت سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه وكان لا يعرف الطرق فعن له ثلاث طرائق فاخذ فى الوسطى وجاء الطلاب فشرعوا فى الاخريين وقيل خرج حافيا لا يعيش الا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدميه وقيل جاء ملك على فرس وبيده عنزة فانطلق به الى مدين (ولما ورد ماء مدين) أى وصل اليه وهو بئر كانوا يسقون منها (وجد عليه) اى فوق شفيرها (أمة) جماعة كثيفة

(من الناس يسقون) أى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى فى موضع أسفل منهم (امرأتين تذودان) أى تمنعان ما معهما من الاغنام عن التقدم الى البئر كيلا تختلط باغنامهم مع عدم الفائدة فى التقدم (قال

المؤمن من اظهار كلمة الكفر بالاكراه لان من أظهر كلمة الكفر بالاكراه احترازا عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله فنقول ليس كذلك لان من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لان عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل فى باطنه الايمان ثم قال تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم يعنى دأب المنافق انه ان رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر المعية وادعى التبعية وفيه فوائد نذكرها فى مسائل (الاولى) قال ولئن جاء نصر من ربك ولم يقل من الله مع ان ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله أوذى فى الله وقوله كعذاب الله وذلك لان الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة (المسئلة الثانية) لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال ولئن جاء نصر من ربك لا النصر لو جاءهم ما كانوا يقولون انا كنا معكم وهذا يقتضى ان يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء النصر لكن النصر لا يجىء الا للمؤمن كما قال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين ولان غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر لان النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل ان أحد الجيشين ان انهزم فى الحال ثم كر المنهزم كرة اخرى وهزموا الغالبين لا يطلق اسم المنصور الا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وان كسر فى الحال فالعاقبة للمتقين فالنصر لهم فى الحقيقة (المسئلة الثالثة) فى ليقولن قراءتان احداهما الفتح حملا على قوله من يقول آمنا يعنى من يقول آمنا اذا أوذى يترك ذلك القول واذا جاء النصر يقول انا كنا معكم وثانيتهما الضم على الجمع اسنادا للقول الى الجميع الذين دل عليهم المفهوم فان المنافقين كانوا جماعة ثم بين الله تعالى انهم أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم لان التلبيس انما يكون عند ما يخالف القول القلب فالسامع يبنى الامر على قوله ولا يدرى ما فى قلبه فيلتبس الامر عليه وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور وهو أعلم بما فى صدر الانسان من الانسان فلا يلتبس عليه الامر وهذا اشارة الى أن الاعتبار بما فى القلب فالمنافق الذى يظهر الايمان ويضمر الكفر كافر والمؤمن المكره الذى يظهر الكفر ويضمر الايمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين ولما بين انه أعلم بما فى قلوب العالمين بين انه يعلم المؤمن المحق وان لم يتكلم والمنافق وان تكلم فقال وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين وقد سبق تفسيره لكن فيه مسئلة واحدة وهى ان الله قال هناك فليعلمن الذين صدقوا وقال ههنا وليعلمن الله الذين آمنوا فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن والكافر فى قوله كاذب فانه يقول الله أكثر من واحد والمؤمن فى قوله صادق فانه كان يقول الله واحد ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر فكان الحاصل هناك قسمين صادق وكاذب ١

عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه من التأخر والذود (ما خطبكما) ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر والذود ولم لا تباشران السقي كدأب هؤلاء (قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء) أي عادتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزا عن مساجلتهم وحذرا عن مخالطة ٦٥٠ الرجال لا أنا لا نسقي اليوم الى تلك الغاية وحذف مفعول السقي والذود والاصدار لما أن الغرض هو بيان تلك الافعال أنفسها اذ هي التي دعت موسى عليه السلام الى ما صنع في حقهما من المعروف فانه عليه الصلاة والسلام انما رحمهما لكونهما على الذياد للعجز والعفة وكونهم على السقي غير مبالين بهما وما رحمهما لكون مذودهما غنما ومسقيهم ابلا مثلا وقرئ لا نسقي من الاسقاء ويصدر من الصدور والرعاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرخال وأما الرعاء فجمع قياسي كصيام وقيام وقوله تعالى (وأبونا شيخ كبير) ابلاء منهما للعذر اليه عليه السلام في توليهما للسقي بأنفسهما كأنهما قالتا انا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقي الى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء (فسقى لهما) رحمة عليهما والكلام في حذف مفعوله كما مر آنفا وروي أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله الا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجراحة والجوع ولعله عليه الصلاة والسلام زاحمهم في السقي لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عليه الصلاة والسلام عن ذلك فان الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام غب ما شاهد حالهما سارع الى السقي لهما وقد روي أنه دفعهم عن الماء الى أن سقى لهما وقيل كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة وروي أنه عليه

وكان ههنا المنافق صادقا في قوله فانه كان يقول الله واحد فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال وليعلمن المنافقين واعتبر أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال وليعلمن الله الذين آمنوا ۞ ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون) لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت الى الكفر بالفتنة وبين ان عذاب الله فوقها وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر في الذل وعلى الايذاء لاي شيء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب بموافقتنا فكان جواب المؤمن أن يقول خوفا من عذاب الله على خطيئة مذهبكم فقالوا لا خطيئة فيه وان كان فيه خطيئة فعلينا وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) ولنحمل صيغة أمر والمأمور غير الآمر فكيف يصح أمر النفس من الشخص فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء أي ان اتبعتمونا حملنا خطاياكم كما قال صاحب الكشاف هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود فيقول ليكن منك العطاء وليكن مني الدعاء فقوله ولنحمل أي ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طلب وايجاب (المسألة الثانية) قال وما هم بحاملين من خطاياهم وقال بعد هذا وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فههنا نفى الحمل وههنا أثبت الحمل فكيف الجمع بينهما فنقول قول القائل فلان حمل عن فلان يفيد ان حمل فلان خف واذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيأ فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزارا بسبب اضلالهم ويحملون أوزارا بسبب ضلالتهم كما قال النبي عليه السلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء (المسألة الثالثة) الصيغة أمر والامر لا يدخله التصديق والتكذيب فكيف يفهم قوله انهم لكاذبون نقول قد تبين ان معناه شرط وجزاء فكأنهم قالوا ان تتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا في هذا فانهم لا يحملون شيأ ۞ ثم قال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كان قولهم ولنحمل خطاياكم صادرا لاعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) ان قولهم ولنحمل خطاياكم كان عن اعتقاد أن لا حشر فاذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) انهم لما قالوا ان تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم لم افتريتم ۞ ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الاليم وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصا بالنبي وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك بل

الصلاة والسلام ما لهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكان لا ينزعها الا أربعون فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة وروى غنمهما وأصدرهما (ثم تولى الى الظل) الذي كان هناك (فقال رب اني لما أنزلت الي) أي أي شيء أنزلته الي (من خير) جل أو قل وحمله الاكثرون على الطعام بمعونة المقام (فقير) أي محتاج ٦٥١ ولتضمنه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما أنزلت الي من خير عظيم هو خير الدارين صرت فقيرا في الدنيا لانه كان في سعة من العيش عند فرعون قاله عليه الصلاة والسلام اظهارا للتبجح والشكر على ذلك (فجاءته احداهما) قيل هي كبراهما واسمها صفوراء أو صفراء وقيل صغراهما واسمها صفيراء أي جاءته عقيب ما رجعتا الى أبيهما روي أنهما لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبي فادعيه لي وقوله تعالى (تمشي) حال من فاعل جاءت وقوله تعالى (على استحياء) متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشي أي جاءته تمشي كائنة على استحياء فمعناه انها كانت على استحياء حالتي المشي والمجيء معا لا عند المجيء فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءته متخفرة أي شديدة الحياء وقيل قد استترت بكم درعها (قالت) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيئها اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت له عليه الصلاة والسلام فقيل قالت (ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أي جزاء سقيك لنا أسندت الدعوة الى أبيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى روي أنه عليه الصلاة والسلام أجابها فانطلقا وهي أمامه فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشي خلفي وانعتي لي الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليهما

قبله كان كذلك كما قال تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم ذكر من جملة من كان قبلهم جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم ابراهيم عليه السلام وغيرهما ثم قال تعالى فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما وفي الآية مسائل (الاولى) ما الفائدة في ذكر مدة لبثه نقول كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الاسلام واصرارهم على الكفر فقال ان نوحا لبث ألف سنة تقريبا في الدعاء ولم يؤمن من قومه الا قليل وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك وأيضا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فان العذاب يلحقهم (المسألة الثانية) قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي فاذا قال القائل لفلان علي عشرة الا ثلاثة فكأنه قال علي سبعة اذا علم هذا فقوله ألف سنة الا خمسين عاما كقوله تسعمائة وخمسين سنة فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة الى غيرها فنقول قال الزمخشري فيه فائدتان (احداهما) ان الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فان من قال عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريبا لا تحقيقا فاذا قال الا شهرا أو الا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هي ان ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان انه صبر كثيرا فالنبي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه واذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الاعداد التي لها اسم مفرد موضوع فان مراتب الاعداد هي الآحاد الى العشرة والعشرات الى المائة والمآت الى الالف ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ومائة ألف وألف ألف (المسألة الثالثة) قال بعض الاطباء العمر الانساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذي في الانسان ممكن لذاته والا لما بقي ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لان المؤثر فيه ان كان واجب الوجود فظاهر الدوام وان كان غيره فله مؤثر وينتهي الى الواجب وهو دائم فتأثيره يجوز أن يكون دائما فاذا البقاء ممكن في ذاته فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم والا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لا نزاع بيننا وبينهم لانهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعيا بل هو عطاء الهي وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة فضلا عن مائة أو أكثر ۞ قوله تعالى (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) فيه اشارة الى لطيفة وهي ان الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم والا لعذب من ظلم وتاب فان الظلم وجد منه وانما يعذب على الاصرار على الظلم فقوله وهم ظالمون يعني أهلكهم وهم على ظلمهم ولو كانوا تركوه لما أهلكهم ۞ قوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) في الراجع اليه الهاء في قوله جعلناها وجهان (أحدهما) انها راجعة الى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه (أحدها) انها اتخذت قبل

السلام (فلما جاءه وقص عليه القصص) أي ما جرى عليه من الخبر المقصوص فإنه مصدر سمي به المفعول كالعلل (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام ويستظهر ٦٥٢ برأيه لا ليأخذ بمعروفه أجرا حسبما صرحت به الآية ألا يرى إلى ما روي أن شعيبا لما قدم إليه طعاما قال إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبا ولا نأخذ على المعروف ثمنا ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل لمعروف مبتدأ كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب عليه السلام ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم لا سيما في دار نبي من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس بمستنكر منه عليه الصلاة والسلام أن يقبل الأجر لاضطرار الفقر والفاقة وقد روي عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بدعائه ليسمعها ولذلك قيل له ليجزيك الخ ولعله عليه السلام إنما فعله ليكون ذريعة إلى استدعائه لا إلى استيفاء الأجر (قالت إحداهما) وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى عليهما السلام (يا أبت استأجره) أي لرعي الغنم والقيام بأمرها (إن خير من استأجرت القوي الأمين) تعليل جار مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة في ذلك جعل خيرا اسما لأن وذكر الفعل على صيغة الماضي للدلالة على أنه أمين مجرب روي أن شعيبا عليه السلام قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت ما شاهدت منه عليه السلام من إقلال الحجر ونزع الدلو وأنه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه وقال (قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني) أي تكون أجيرا لي أو تثيبني من أجرت كذا إذا

ظهور الماء ولولا إعلام الله نوحا وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) أن نوحا أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المزعجة والحيوانات المؤذية ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والثاني) أنها راجعة إلى الواقعة أو إلى النجاة أي جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين ۞ ثم قال تعالى (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) لما فرغ من الإشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفي إبراهيم وجهان من القراءة أحدهما النصب وهو المشهور والثاني الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم والأول فيه وجهان أحدهما أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر إبراهيم والثاني أنه منصوب بمذكور وهو قوله ولقد أرسلنا فيكون كأنه قال وأرسلنا إبراهيم وعلى هذا في الآية مسائل (الأولى) قوله إذ قال لقومه ظرف أرسلنا أي أرسلنا إبراهيم إذ قال لقومه لكن قوله لقومه اعبدوا الله دعوة والإرسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلا قبله نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الإرسال أمر ممتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا وهذا كما يقول القائل وقفنا للأمير إذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج لكن لما كان الوقوف ممتدا إلى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثاني) هو أن إبراهيم بمجرد هداية الله إياه كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الإرسال ولما كان هو مشتغلا بالدعاء إلى الإسلام أرسله الله تعالى وقوله اعبدوا الله واتقوه إشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره فقوله اعبدوا الله إشارة إلى الإثبات وقوله واتقوه إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ويمكن أن يقال اعبدوا الله إشارة إلى الإتيان بالواجبات وقوله واتقوه إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل في الأول الاعتراف بالله وفي الثاني الامتناع من الشرك ثم قوله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يعني عبادة الله وتقواه خير والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلا واعتبارا أما عقلا فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكنا قطعا للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذ لنا إله وأما التشريك فبطلانه عقلا لو كون خلافه خيرا هو أن شريك الواجب إن لم يكن واجبا فكيف يكون شريكا وإن كان واجبا لزم وجود واجبين فيشتركان في الوجوب ويتباينان في الإلهية وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل وأما اعتبارا فلأن الشرف لمن يكون ملكا أو قريب ملك لكن الإنسان لا يكون ملكا للسموات والأرضين فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى واسجد واقترب

أثبته إياه فقوله تعالى (ثماني حجج) على الأول ظرف وعلى الثاني مفعول به على تقدير مضاف أي رعية ثماني حجج ونقل عن المبرد أنه يقال أجرت داري ومملوكي غير ممدود وآجرت ممدودا والأول أكثر فعلى هذا يكون المفعول الثاني محذوفا والمعنى على أن تأجرني نفسك وقوله تعالى ثماني حجج ظرف كالوجه الأول (فإن أتممت عشرا) ٦٥٣ في الخدمة والعمل (فمن عندك) أي فهو من عندك بطريق التفضل لا من عندي بطريق الإلزام عليك وهذا من شعيب عرض لرأيه على موسى عليهما السلام واستدعاء منه للعقد لا إنشاء وتحقيق له بالفعل (وما أريد أن أشق عليك) بإلزام إتمام العشر أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال واشتقاق المشقة من الشق فإن ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك في إطاقته ويوزع رأيك في مزاولته (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراده عليه الصلاة والسلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى (قال ذلك بيني وبينك) مبتدأ وخبر أي ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم وثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منا لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك وقوله تعالى (أيما الأجلين) أي أكثرهما أو أقصرهما (قضيت) أي وفيتكه بأداء الخدمة فيه (فلا عدوان علي) تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيرة أي لا عدوان علي بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين وتعميم انتفاء العدوان لكلا الأجلين بصدد المشارطة مع عدم تحقق العدوان في أكثرهما رأسا للقصد إلى التسوية بينهما في الانتفاء أي كما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الأجلين قضيت فلا إثم علي يعني كما لا إثم علي في قضاء الأكثر لا إثم علي في

وقال لن يتقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم وقال لا يزال العبد يتقرب بالعبادة إلي فالمعطل لا ملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده ملكا فلا مرتبة له أصلا وأما المشرك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة فإذن من يقول إن ربي لا مثل له ولا شيء أعلى مرتبة ممن يقول سيدي صنم منحوت عاجز مثله فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خيرا لكم أي خير للناس إن كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات ۞ ثم قال تعالى (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه وذلك لأن المعبود إنما يعبد لأحد أمور إما لكونه مستحقا للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع وإما لكونه نافعا في الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله إليه كالمستخدم بأجرة وإما لكونه نافعا في المستقبل كمن يخدم غيره متوقعا منه أمرا في المستقبل وإما لكونه خائفا منه فقال إبراهيم إنما تعبدون من دون الله أوثانا إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثانا لا شرف لها ۞ قوله تعالى (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل وهذا لأن النفع إما في الوجود وإما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ولا نفع في البقاء لأن ذلك بالرزق وليس منهم ذلك ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال فابتغوا عند الله الرزق فقوله الله إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله الرزق إشارة إلى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفي الآية مسائل (الأولى) قال لا يملكون لكم رزقا نكرة وقال فابتغوا عند الله الرزق معرفا فما الفائدة فنقول قال الزمخشري قال لا يملكون لكم رزقا نكرة في معرض النفي أي لا رزق عندهم أصلا وقال معرفة عند الإثبات عند الله أي كل الرزق عنده فاطلبوه منه وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها والرزق من الأوثان غير معلوم فقال لا يملكون لكم رزقا لعدم حصول العلم به وقال فابتغوا عند الله الرزق الموعود به ثم قال فاعبدوه أي اعبدوه لكونه مستحقا للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق وإليه ترجعون أي اعبدوه لكونه مرجعا منه يتوقع الخير لا غير ۞ ثم قال تعالى (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين) لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال وإن تكذبوا وفي المخاطب في هذه الآية وجهان (أحدهما) أنه قوم إبراهيم والآية حكاية عن قوم إبراهيم كأن إبراهيم قال لقومه إن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما علي من التبليغ فإن الرسول ليس عليه إلا البلاغ والبيان (والثاني) أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيرا ما يقول الحاكي

قضاء الاقصر فقط وقرئ اى الاجلين ما قضيت فما مزيدة لتأكيد القضاء كما أنها فى القراءة الاولى مزيدة لتأكيد ابهام أى وشياعها وقرئ ايما بسكون الياء كقول من قال تنظرت نصرا والسماكين أيهما • على من الغيث استهلت مواطره (والله على ما نقول) من الشروط الجارية بيننا (وكيل) شاهد وحفيظ فلا سبيل لاحد منا الى الخروج عنه أصلا وليس ماحكى عنهما عليهما الصلاة والسلام تمام ما جرى بينهما من الكلام فى انشاء عقد النكاح وعقد الاجارة وايقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة اجمالا من غير تعرض لبيان مواجب العقدين فى تلك الشريعة تفصيلا روى أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى وكانت عنده عصى الانبياء عليهم الصلاة والسلام فأخذ عصا هبط بها آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ولم يزل الانبياء يتوارثونها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فمسها وكان مكفوفا فضنّ بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده الا هى سبع مرات فعلم أن له شأنا وقيل أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا وقيل أودعها شعيبا ملك فى صورة رجل فأمر بنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فردّها سبع مرات فلم يقع فى يدها غيرها فدفعها اليه ثم ندم لانها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام وعن الحسن رضى الله تعالى عنه ما كانت الاعصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبى رحمه الله الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح

لاى شئ حكيت هذه الحكاية فالنبى عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب فقال فى اثناء حكايتهم يا قوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم وعلى الوجه الاول فى الآية مسائل (الاولى) ان قوله فقد كذب أمم كيف يفهم مع ان ابراهيم لم يسبقه الا قوم نوح وهم امة واحدة والجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان قبل نوح كان أقوام كقوم ادريس وقوم شيث وآدم (والثانى) ان نوحا عاش ألفا وأكثر وكان القرن يموت ويجئ أولاده والآباء يوصون الابناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمما (المسئلة الثانية) ما البلاغ وما المبين فنقول البلاغ هو ذكر المسائل والابانة هى اقامة البرهان عليه (المسئلة الثالثة) الآية تدل على ان تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لان الرسول اذا بلغ شيأ ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين فلا يكون آتيا بما عليه

۞ ثم قال تعالى (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير) لما بين الاصل الاول وهو التوحيد وأشار الى الاصل الثانى وهو الرسالة بقوله وما على الرسول الا البلاغ المبين شرع فى بيان الاصل الثالث وهو الحشر وقد ذكرنا مرارا ان الاصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض فى الذكر الالهى فاينما يذكر الله تعالى منها اثنين يذكر الثالث وفى الآية مسائل (الاولى) الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال أولم يروا كيف يبدأ الله فنقول المراد العلم الواضح الذى كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لان الخلق الاول لا يكون من مخلوق والا لما كان الخلق الاول خلقا أول فهو من الله هذا ان قلنا ان المراد اثبات نفس الخلق وان قلنا ان المراد بالبدء خلق الآدمى أولا وبالاعادة خلقه ثانيا فنقول العاقل لا يخفى عليه ان خالق نفسه ليس الا قادر حكيم يصور الاولاد فى الارحام ويخلقه من نطفة فى غاية الاتقان والاحكام فذلك الذى خلق أولا معلوم ظاهر فاطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية وقال اولم يروا أى ألم يعلموا علما ظاهرا واضحا كيف يبدئ الله الخلق يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب ينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة اليكم فان من نحت حجارات ووضع شيأ بجنب شئ ففرقه أمرما فانه يقول وضعه شيأ بجنب شئ فى هذه النوبة أسهل على لان الحجارات منحوتة ومعلوم ان آية واحدة منها تصلح لان تكون بجنب الاخرى وعلى هذا المخرج خرج كلام الله فى قوله وهو أهون واليه الاشارة بقوله ان ذلك على الله يسير (المسئلة الثانية) قال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال أولم يروا ان الله خلق أو بدأ الخلق والكيفية غير معلومة فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم وهو انه خلقه ولم يك شيأ مذكورا وانه خلقه من نطفة هى من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف فى حصول العلم بامكان الاعادة فان الاعادة مثله (المسئلة الثالثة) لم قال ثم يعيده ان ذلك على الله يسير فابرز اسمه مرة أخرى ولم يقل ان ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير ابرازه ولم مع اقامة البرهان على انه يسير فاكده

باظهار

قال له شعيب صلوات الله وسلامه عليهما اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلا وان كان بها اكثر الا أن فيها تنينا اخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين فلم يقدر على كفها ومشى على اثرها فاذا اعشب وريف لم ير مثله فنام فاذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب عليهما السلام مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بالشأن ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا وقال له انى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحى اليه فى المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما اخطأت واحدة الا وضعت أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه والفاء فى قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل) فصيحة أى فعقدا العقدين وباشر موسى ما التزمه فلما أتم الاجل (وسار بأهله) نحو مصر باذن من شعيب عليهما السلام روى أنه عليه الصلاة والسلام قضى أبعد الاجلين ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود الى مصر فاستأذنه فى ذلك فأذن له فخرج بأهله (آنس من جانب الطور) أى أبصر من الجهة التى تلى الطور (نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) أى بخبر الطريق وقد كانوا ضلوه (أو جذوة) أى عود غليظ سواء كانت فى رأسه نار أو لا قال قائلهم

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها
جزل الجذى غير خوّار ولا دعر

وقال

والقى على قبس من النار جذوة • شديدا عليها حرها والتهابها

ولذلك بين بقوله تعالى (من النار) وقرئ بكسر الجيم وبضمها وكلها لغات (لعلكم تصطلون) أى تستدفئون (فلما أتاها) أى النار التى آنسها (نودى من شاطئ الوادى الايمن) أى أتاه النداء

باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضا بكون ذلك يسيرا فان الانسان اذا سمع لفظ الله وفهم معناه انه الحى القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شئ العالم بعلم محيط بذرات كل جسم نافذ الارادة لا راد لما أراده يقطع بجواز الاعادة ۞ ثم قال تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير) الآية المتقدمة كانت اشارة الى العلم الحدسى وهو الحاصل من غير طلب فقال أولم يروا على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه وقال فى هذه الآية ان لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا فى اقطار الارض لتعلموا بالعلم الفكرى وهذا لان الانسان له مراتب فى الادراك بعضهم يدرك شيأ من غير تعليم واقامة برهان له وبعضهم لا يفهم الا بابانة وبعضهم لا يفهمه أصلا فقال ان كنتم لستم من القبيل الاول فسيروا فى الارض أى سيروا افكاركم فى الارض وأجيلوا ذهنكم فى الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفى الآية مسائل (الاولى) قال فى الآية الاولى بلفظ الرؤية وفى هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه نقول العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما تبين والرؤية أتم من النظر لان النظر يفضى الى الرؤية يقال نظرت فرأيت والمفضى الى الشئ دون ذلك الشئ فقال فى الاول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا فى الارض لتحصل لكم الرؤية (المسئلة الثانية) ذكر هذه الآية بصيغة الامر وفى الآية الاولى بصيغة الاستفهام لان العلم الحدسى ان حصل فالامر به تحصيل الحاصل وان لم يحصل فلا يحصل الا بالطلب لان بالطلب يصير الحاصل فكريا فيكون الامر به تكليف ما لا يطاق واما العلم الفكرى فهو مقدور فورد الامر به (المسئلة الثالثة) أبرز اسم الله فى الآية الاولى عند البدء حيث قال كيف يبدئ الله وأضمره عند الاعادة وفى هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال ثم الله ينشئ لان فى الآية الاولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند اليه البدء فقال كيف يبدئ الله ثم قال ثم يعيده كما يقول القائل ضرب زيد عمرا ثم ضرب بكرا ولا يحتاج الى اظهار اسم زيد اكتفاء بالاول وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل اما علمت كيف خرج زيد اسمع منى كيف خرج ولا يظهر اسم زيد واما اظهاره عند الانشاء ثانيا حيث قال ثم الله ينشئ مع انه كان يكفى أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فالحكمة بالغة وهى ما ذكرنا ان مع اقامة البرهان على امكان الاعادة أظهر اسمه ما من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهرا مبرزا ليقع فى ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ ارادته ويعترف بوقوع بدئه وبجواز اعادته فان قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة نقول لوجهين أحدهما ان الله كان مظهرا مبرزا بقرب منه وهو فى قوله كيف يبدئ الله الخلق ولم يكن بينهما الا لفظ الخلق واما ههنا فلم يكن مذكورا عند البدء فاظهره وثانيهما ان الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لان الدلائل منحصرة فى الآفاق وفى الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى

من الشاطئ الايمن بالنسبة الى موسى عليه السلام (فى البقعة المباركة) متصل بالشاطئ أو صلة لنودى (من الشجرة) بدل اشتمال من شاطئ لانها كانت نابتة على الشاطئ ٦٥٦ (أن ياموسى انى انا الله رب العالمين) وهذا وان خالف لفظا لما فى طه والنمل لكنه موافق له فى المعنى المراد (وأن ألق عصاك) عطف على أن ياموسى وكلاهما مفسر لنودى والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها واشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أى فالقاها فصارت ثعبانا فاهتزت فلما رآها تهتز (كأنها جان) أى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها (ولى مدبرا) أى منهزما من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع (ياموسى) أى قيل ياموسى (أقبل ولا تخف انك من الآمنين) من المخاوف فانه لا يخاف لدى المرسلون (اسلك يدك فى جيبك) أى أدخلها فيه (تخرج بيضاء من غير سوء) أى عيب (واضمم اليك جناحك) اى يديك المبسوطتين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع بادخال اليمنى تحت العضد الايسر واليسرى تحت الايمن او بادخالهما فى الجيب فيكون تكريرا لغرض آخر هو ان يكون ذلك فى وجه العدو اظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة ويجوز ان يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا استعارة من حال الطائر فانه اذا خاف نشر جناحيه واذا أمن واطمأن ضمهما اليه (من الرهب) أى من أجل الرهب اى اذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلدا وضبطا النفس وقرئ بضم الراء وسكون الهاء وبضمهما والكل لغات (فذانك) اشارة الى العصا واليد وقرئ بتشديد النون فالمخفف مثنى ذاك والمشدد مثنى ذلك

الآفاق وفى أنفسهم وفى الآية الاولى اشار الى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه وفى الآية الثانية اشار الى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله قل سيروا فى الارض وعندهما تم الدليلان فاكده باظهار اسمه وأما الدليل الاول فاكده بالدليل الثانى فلم يقل ثم الله يعيده (المسئلة الرابعة) فى الآية الاولى ذكر بلفظ المستقبل فقال أولم يروا كيف يبدئ وههنا قال بلفظ الماضى فقال فانظروا كيف بدأ ولم يقل كيف يبدأ فنقول الدليل الاول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم بيدء الخلق فقال ان كان ليس لكم علم بان الله فى كل حال يبدأ خلقا فانظروا الى الاشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بان الله بدأ خلقا ويحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشئ كما بدأ ذلك (المسئلة الخامسة) قال فى هذه الآية ان الله على كل شئ قدير وقال فى الآية الاولى ان ذلك على الله يسير وفيه فائدتان (احداهما) ان الدليل الاول هو الدليل النفسى وهو وان كان موجبه العلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه يحصل العلم العام لانه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته الى الله ووجوده منه وبالنظر الى الآفاق علم حاجة غيره اليه ووجوده منه فتم علمه بان كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين ان الله على كل شئ قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو اعادته على الله يسير (الثانية) هى انا بينا ان العلم الاول أتم وان كان الثانى أعم وكون الامر يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل أن القائل يقول فى حق من يحمل مائة من انه قادر عليه ولا يقول انه سهل عليه فاذا سئل عن حمل عشرة أمنان يقول ان ذلك عليه سهل يسير فنقول قال الله تعالى ان لم يحصل لكم العلم التام بان هذه الامور عند الله سهل يسير فسيروا فى الارض لتعلموا انه مقدور ونفس كونه مقدورا كاف فى امكان الاعادة ۞ ثم قال تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلا وحكمة واثابة أهل الانابة فضلا ورحمة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع ان رحمته سابقة كما قال عليه السلام حاكيا عنه سبقت رحمتى غضبى فنقول ذلك لوجهين أحدهما ان السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الايعاد وعقبه بالرحمة وكما ذكر بعد اثبات الاصل الاول وهو التوحيد التهديد بقوله وان تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب كذلك ذكر بعد اثبات الاصل الآخر التهديد بذكر التعذيب وذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا يحقق قوله سبقت رحمتى غضبى وذلك لان الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يمحضه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه (المسئلة الثانية) اذا كان ذكر هذا التخويف العاصى وتفريح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وقوله يعذب من يشاء لا يزجر الكافر لجواز أن يقول لعلى

لاأكون

(برهانان) حجتان نيرتان وبرهان فعلان لقولهم أبره الرجل اذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل اذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء برهاء وبرهرهة ونظيره تسمية الحجة سلطانا من السليط وهو الزيت لانارتها وقيل هو فعلال لقولهم برهن ومن فى قوله تعالى (من ربك) متعلقة بمحذوف هو صفة لبرهانان أى كائنتان منه تعالى ٦٥٧ (الى فرعون وملائه) واصلان ومنتهيان اليهم (انهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن حدود الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن نرسلك اليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين (قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بمقابلتها (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ) اى معينا وهو فى الاصل اسم ما يعان به كالدفء وقرئ ردا بالتخفيف (يصدقنى) بتلخيص الحق وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة (انى أخاف أن يكذبون) ولسانى لا يطاوعنى عند المحاجة وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند اليه اسناد الفعل الى السبب وقرئ يصدقنى بالجزم على أنه جواب الامر (قال سنشد عضدك بأخيك) أى سنقويك به فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الامور ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد (ونجعل لكما سلطانا) أى تسلطا وغلبة وقيل حجة وليس بذاك (فلا يصلون اليكما) باستيلاء أو محاجة (بآياتنا) متعلق بمحذوف قد صرح به فى مواضع أخر أى اذهبا بآياتنا أو بنجعل أى نسلطكما بآياتنا أو بمعنى لا يصلون أى تمتنعون منهم بها وقيل هو قسم وجوابه لا يصلون وقيل هو بيان للغالبون فى قوله تعالى (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) بمعنى أنه صلة لما بينه او صلة له على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) أى واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى والمراد بها العصا واليد اذ هما اللتان أظهرهما

لأأكون ممن يشاء الله عذابه فنقول هذا أبلغ فى التخويف وذلك لان الله أثبت بهذا انفاذ مشيئته اذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والايعاد انه شاء تعذيب أهل العناد فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصى فانه لا يدل على كمال مشيئته لانه لا يفيد انه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر اذا لم يحصل مراده فى تلك الصورة يمكن أن يحصل فى صورة أخرى ولنضرب له مثلا فنقول اذا قيل ان الملك يقدر على ضرب كل من فى بلاده وقال من خالفنى أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه واذا قيل انه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين فاذا قال من خالفنى أضربه يقع فى وهم المخالف انه لا يقدر على ضرب فلان المطيع فلا يقدر على أيضا لكونى مثله وفى هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام لان الامن الكلى من الله يوجب الجراءة فيفضى الى صيرورة المطيع عاصيا (المسئلة الثالثة) قال ثم اليه تقلبون مع أن هذه المسئلة قد سبق اثباتها وتقريرها فلم أعادها فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا انه فات فان اليه ايابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ولهذا قال بعدها وما أنتم بمعجزين يعنى لا تفوتون الله بل الانقلاب اليه ولا يمكن الانفلات منه وفى تفسير هذه الآية لطائف (احداها) هى اعجاز المعذب عن التعذيب اما بالهرب منه أو بالثبات له والمقاومة معه للدفع وذكر الله القسمين فقال وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء يعنى بالهرب لو صعدتم الى محل السماك فى السماء أو هبطتم الى موضع السموك فى الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع فى الاعجاز بالهرب وأما بالثبات فكذلك لان الاعجاز اما أن يكون بالاستناد الى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال فانكم مالكم من دون الله ولى يشفع ولا نصير يدفع فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال ما أنتم بمعجزين ولم يقل لا تعجزون بصيغة الفعل وذلك لان نفى الفعل لا يدل على نفى الصلاحية فان من قال ان فلانا لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله انه ليس بخياط (الثالثة) قدم الارض على السماء والولى على النصير لان هربهم الممكن فى الارض فان كان يقع منهم هرب يكون فى الارض ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود فى السماء وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقى الى غيره والشفاعة أجمل ولان ما من أحد فى الشاهد الا ويكون له شفيع يتكلم فى حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادى الملك لاجله ۞ ثم قال تعالى (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم) لما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال والذين كفروا بآيات الله ولقائه اشارة الى الكفار

موسى عليه السلام اذ ذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قد مر سره فى سورة طه (قالوا ما هذا الا سحر مفترى) اى سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله او سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى او سحر موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر (وما سمعنا بهذا) أى السحر او ادعاء النبوة (فى آبائنا الاولين) أى واقعا فى أيامهم (وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى

من عنده) يريد به نفسه وقرئ قال بغير واو لانه جواب عن مقالهم ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد (ومن تكون له عاقبة الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا وعاقبتها الاصلية هى الجنة لانها خلقت مجازا الى الآخرة ومزرعة لها والمقصود بالذات منها الثواب وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيآت الغواة وقرئ يكون بالياء التحتانية (انه لا يفلح الظالمون) أى لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون من محذور (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) قاله للعين بعد ما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان من أمرهم ما كان (فأوقد لى يا هامان على الطين) أى اصنع آجرا (فاجعل لى) منه (صرحا) أى قصرا رفيعا (لعلى اطلع الى اله موسى) كأنه توهم أنه لو كان لكان جسما فى السماء يمكن الرقى اليه ثم قال (وانى لأظنه من الكاذبين) أو أراد أن يبنى له رصدا يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولته وقيل المراد بنفى العلم نفى المعلوم كما فى قوله تعالى قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض فان معناه بما ليس فيهن وهذا من خواص العلوم الفعلية فانها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ولا كذلك العلوم الانفعالية قيل أول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك أمر باتخاذه

بالله فان الله فى كل شئ آية دالة على وحدانيته فاذا أشرك كفر بآيات الله واشارة الى المنكر للحشر فان من انكره كفر بلقاء الله فقال أولئك يئسوا من رحمتى لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة لان من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم واذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلا للرحمة فاذا جعلوا الهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة الى طريق متعين فيئسوا من رحمة الله ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقا للامر عليهم وهذا كما ان الملك اذا قال أعذب من يخالفنى فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل الى فاذا أحضره بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت أم لا فاذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الاشراك والعذاب الاليم يناسب انكار الحشر ثم ان فى الآية فوائد (احداها) قوله أولئك يئسوا حتى يكون منبئا عن حصر الناس فيهم وقال أيضا وأولئك لهم عذاب أليم لذلك ولو قال وأولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتى ولهم عذاب أليم ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله أولئك مرة واحدة كان يكفى فى افادة ما ذكرتم قلنا لا وذلك لانه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب كان يذهب وهم أحد الى أن هذا المجموع منحصر فيهم فلا يوجد المجموع الا فيهم ولكن واحد منهما وحده يمكن أن يوجد فى غيرهم فاذا قال أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب افاد ان كل واحد لا يوجد الا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة اضافها الى نفسه فقال رحمتى وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته واعلاما للعباد بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم بقوله أولئك يئسوا لحرمها عليهم ولو طمعوا لاباحها لهم فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الامرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى أن لا يكون العذاب الاليم لمن يكفر بالله واعترف بالحشر أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول معنى الآية انهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون الا للكافر بالحشر واما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمنا بالله لان الايمان به لا يصح الا اذا صدقه فيما قاله والحشر من جملة ذلك ثم قال (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) لما أتى ابراهيم عليه السلام ببيان الاصول الثلاثة وأقام البرهان عليه بقى الامر من جانبهم اما الاجابة او الاتيان بما يصلح أن يكون جوابه فلم يأتوا الا بقولهم اقتلوه أو حرقوه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) كيف سمى قولهم اقتلوه جوابا مع انه ليس بجواب فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وانما معناه لا أقابله بالجواب وانما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثانى) هو ان الله أراد بيان ضلالتهم وهو انهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع انه ليس بجواب فتبين انهم

على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظيم ولذلك نادى هامان باسمه بيا فى وسط الكلام (واستكبر هو وجنوده فى الارض) أرض مصر (بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا انهم الينا لا يرجعون) بالبعث للجزاء وقرئ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع رجوعا والاول من رجع رجعا وهو الانسب بالمقام (فأخذناه وجنوده) عقيب ما بلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات

(فنبذناهم فى اليم) قد مر تفصيله وفيه من تفخيم شأن الاخذ وتهويله واستحقار المأخوذين المنبوذين ما لا يخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم فى كف وطرحهم فى البحر ونظيره قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وبينها للناس ليعتبروا بها (وجعلناهم) أى صيرناهم فى عهدهم (أئمة يدعون) الناس (الى النار) الى ما يؤدى اليها من الكفر والمعاصى أى قدوة يقتدى بهم أهل الضلال لما صرفوا اختيارهم الى تحصيل تلك الحالة وقيل سميناهم أئمة دعاة الى النار كما فى قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا فالانسب حينئذ أن يكون الجعل بعدهم فيما بين الامم وتكون الدعوة الى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الالطاف الصارفة عن ذلك (ويوم القيامة لا ينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) طردا وابعادا من الرحمة ولعنا من اللاعنين حيث لا يزال يلعنهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون خلفا عن سلف (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين المبعدين وقيل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجه قاله ابن عباس رضى الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه اذا جعله قبيحا وقال أبو عبيدة من المقبوحين من المهلكين ويوم القيامة اما متعلق بالمقبوحين على أن اللام للتعريف

لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لان من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم انه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات اما اذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه (المسئلة الثانية) القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضا هم فيكون الآمر نفس المأمور فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه فحصل الامر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد لان كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو ان الجواب لا يكون الا من الاكابر والرؤساء فاذا قال اعيان بلد كلاما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت الى عدم قول العبيد والارذال فكان جواب قومه وهم الرؤساء ان قالوا لاتباعهم وأعوانهم اقتلوه لان الجواب لا يباشره الا الاكابر والقتل لا يباشره الا الاتباع (المسئلة الثالثة) أو يذكر بين أمرين الثانى منهما ينفك عن الاول كما يقال زوج أو فرد ويقال هذا انسان او حيوان بمعنى ان لم يكن انسانا فهو حيوان ولا يصح ان يقال هذا حيوان أو انسان اذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيوانا فهو انسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو انسان الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الاستعمال على خلاف ما ذكر شائع ويكون أو مستعملا فى موضع بل كما يقول القائل أعطنيه دينارا او دينارين وكما يقول القائل أعطه دينارا بل دينارين قال الله تعالى قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثانى) هو انا نسلم ما ذكرتم والامر هنا كذلك لان التحريق فعل مفض الى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره فى النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيا يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات فكذلك ههنا قالوا اقتلوه او لا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار وان ترك مقالته خلوا سبيله وان أصر خلوا فى النار مقيله ثم قال تعالى فأنجاه الله من النار اختلف العقلاء فى كيفية الانجاء بعضهم قال برد النار وهو الاصح الموافق لقوله تعالى يا نار كونى بردا وبعضهم قال خلق فى ابراهيم كيفية استبرد معها النار وقال بعضهم ترك ابراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع اذى النار عنه والكل ممكن والله قادر عليه وأنكر بعض الاطباء الكل أما سلب الحرارة عن النار قالوا الحرارة فى النار ذاتية كالزوجية فى الاربعة لا يمكن أن تفارقها وأما خلق كيفية تستبرد النار فلان المزاج الانسانى له طرفا تفريط وافراط فلو خرج عنهما لا يبقى انسانا أو لا يعيش مثلا المزاج ان كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون انسانا فان صار أحد عشر لا يكون انسانا وان صارت الاجزاء الباردة خمسة يبقى انسانا فاذا صارت أربعة لا يبقى انسانا لكن البرودة التى يستبرد معها النار مزاج المعتدل فلو حصل فى الانسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج واما الثالث فمحال أن تكون القطنة فى النار والنار كما هى والقطنة كما هى ولا تحترق فنقول الآية

لا بمعنى الذى أو بمحذوف يفسره ذلك كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة نحو لعملكم من القالين (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (من بعد ما اهلكنا القرون الاولى) هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون ايتائها بعد اهلاكهم للاشعار بمساس الحاجة الداعية اليه تمهيد لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى انزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان اهلاك القرون الاولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤدين الى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الامم المستدعين لتشريع الجديد بتقرير الاصول الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الامم الخالية الموجبة للاعتبار كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة الى ايتائها (بصائر للناس) أى أنوارا لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عميا عن الفهم والادراك بالكلية فان البصيرة نور القلب الذى به يستبصر كما أن البصر نور العين الذى به تبصر (وهدى) أى هداية الى الشرائع والاحكام التى هى سبل الله تعالى (ورحمة) حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف اى ذا بصائر الخ وقيل على العلة أى آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة (لعلهم يتذكرون) ليكونوا على حال يرجى منه التذكر وقد مر تحقيق القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى (وما كنت بجانب الغربي) شروع فى بيان أن انزال القرآن الكريم أيضا واقع فى زمان شدة مساس الحاجة اليه واقتضاء الحكمة له البتة وقد صدر بتحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله

ردّ عليهم والعقل موافق للنقل اما الاول فلوجهين (أحدهما) أن الحرارة فى النار تقبل الاشتداد والضعف فان النار فى الفحم اذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وان لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة كانت فى النار فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض اخر من ذلك عليها الى أن ينتهى الى حد لا يؤذى الانسان ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثانى) وهو ان فى أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كان الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البردة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى نارا وهو نور غير محرق واما الثانى فأيضا ممكن وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الانسانية فى المزاج الذى مثل مزاج الجد (وثانيهما) ان نقول على أصلكم لا يلزم المحال لان الكيفية التى ذكرناها تكون فى ظاهر الجلد كالاجزاء الرشية عليه ولا يتادى الى القلب والاعضاء الرئيسة الا ترى ان الانسان اذا مس الجد زمانا ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار فى احراق يده مثل ما تؤثر فى احراق يد من اخرج يده من جيبه ولهذا يحترق يده قبل يد هذا فاذا جاز وجود كيفية فى ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالاحراق زمانا فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا يحترق واما الثالث فمجرد استبعاد ببيان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لانه معجز والمعجز ينبغى أن يكون خارقا للعادة ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون يعنى فى انجائه من النار لآيات وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال فى انجاء نوح وأصحاب السفينة جعلناها آية وقال ههنا الآيات بالجمع لان الانجاء بالسفينة شئ تتسع له العقول فلم يكن فيه من الآية الا بسبب اعلام الله اياه بالاتخاذ وقت الحاجة فانه لولا اعلامه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما فى الغيب وبسبب ان الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة وأما الانجاء من النار فعجيب فقال فيه آيات (المسئلة الثانية) قال هناك آية للعالمين وقال ههنا القوم يؤمنون خص الآيات بالمؤمنين لان السفينة بقيت اعواما حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد واما تبريد النار لم يبق فلم يظهر لمن بعده الا بطريق الايمان به والتصديق وفيه لطيفة وهى ان الله لما برد النار على ابراهيم بسبب اهتدائه فى نفسه وهدايته لابناء جنسه وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم اسوة حسنة فى ابراهيم فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة فقال ان فى ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون (المسئلة الثالثة) قال هناك جعلناها وقال ههنا جعلناه لان السفينة ما صارت آية فى نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية وأما تبريد النار فهو فى نفسه آية اذا وجدت لا يحتاج الى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية ثم قال تعالى (وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم

النار

عز وجل ببيان أن الوقوف على ما فصل من الاحوال لا يتسنى الا بالمشاهدة او التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين انه بوحى من علام الغيوب لا محالة على طريقة قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم الآية أى وما كنت بجانب الجبل الغربي او المكان الغربي الذى وقع فيه الميقات على حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه او الجانب الغربي على اضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع (اذ قضينا الى موسى الامر) أى عهدنا اليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وايتاء التوراة (وما كنت من الشاهدين) أى من جملة الشاهدين للوحى وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى فى ميقاته وكتبة التوراة له فى الالواح فتخبره للناس (ولكنا انشأنا قرونا) أى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة (فتطاول عليهم العمر) وتمادى الامد فتغيرت الشرائع والاحكام وعميت عليهم الانباء لاسيما على آخرهم فاقتضى الحال التشريع الجديد فأوحينا اليك فحذف المستدرك اكتفاء بذكر ما يوجبه ويدل عليه وقوله تعالى (وما كنت ثاويا فى أهل مدين) نفى لاحتمال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصة بالسماع ممن شاهدها أى وما كنت مقيما فى أهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى (تتلو عليهم) أى تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم (آياتنا) الناطقة بالقصة اما حال من المستكن فى ثاويا او خبر ثان لكنت (ولكنا كنا مرسلين) اياك وموحين اليك تلك الآيات ونظائرها (وما كنت بجانب الطور اذ نادينا) أى وقت ندائنا موسى انى أنا الله رب العالمين واستنبائنا اياه وارسالنا له الى فرعون (ولكن رحمة من ربك) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس وقيل علمناك وقيل عرفناك ذلك وليس بذاك كما ستعرفه

النار ومالكم من ناصرين) لما خرج ابراهيم من النار عاد الى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه وقال اذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه فليس هذا الا تقليدا فان بين بعضكم وبعض مودة فلا يريد أحدكم ان يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله انما اتخذتم مودة بينكم يعنى ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق وهو أن يقال قوله انما اتخذتم مودة بينكم أى مودة بين الاوثان وبين عبدتها وتلك المودة هى ان الانسان مشتمل على جسم وعقل ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ثم ان من غلبت فيه الجسمية لا يلتفت الى اللذات العقلية ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت الى اللذات الجسمانية كالمجنون اذا احتاج الى قضاء حاجته من أكل أو شرب أو اراقة ماء وهو بين قوم من الاكابر فى مجمع يحصل ما فيه لذة جسمه من الاكل واراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت الى اللذة العقلية من حسن السيرة وحمد الاوصاف ومكرمة الاخلاق والعاقل يحمل الالم الجسمانى ويحصل اللذة العقلية حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والالم العقلى اذا ثبت هذا فهم كانوا قليلى العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم ولا يمينهم ولا يسارهم ولا قدامهم ولا وراءهم ولا يكون جسما من الاجسام ولا شيأ يدخل فى الاوهام ورأوا الاجسام المناسبة للغالب فيهم مزينة بجواهر فودّوها فاتخاذهم الاوثان كان مودة بينهم وبين الاوثان ثم قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض يعنى يوم يزول عمى القلوب وتتبين الامور للبيب والعقول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودى ويقول المعبود ما هؤلاء عبدتى ويلعن بعضكم بعضا ويقول هذا لذاك أنت أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادتك ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون بل هم مجتمعون فى النار كما كانوا مجتمعين فى هذه الدار كما قال تعالى ومأواكم النار ثم قال تعالى ومالكم من ناصرين يعنى ليس تلك النار مثل ناركم التى أنجى الله منها ابراهيم ونصره فأنتم فى النار ولا ناصر لكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال قبل هذا ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير على لفظ الواحد وقال ههنا على لفظ الجمع ومالكم من ناصرين والحكمة فيه انهم لما أرادوا احراق ابراهيم عليه السلام قالوا نحن ننصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم فقال انتم ادعيتم ان لهؤلاء ناصرين فمالكم ولهم اى للاوثان وعبدتها من ناصرين واما هنالك فما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله ولا نصير (المسئلة الثانية) قال هناك مالكم من دون الله من ولى ولا نصير وما ذكر الولى ههنا فنقول قد بينا ان المراد بالولى الشفيع يعنى ليس لكم شافع ولا نصير دافع وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الاوثان أى مالكم

والالتفات الى اسم الرب للاشعار بعلة الرحمة وتشريفه عليه الصلاة والسلام بالاضافة وقد اكتفى عن ذكر المستدرك ههنا بذكر ما يوجبه من جهته تعالى كما اكتفى عنه فى الاول بذكر ما يوجبه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تنصيصا على ما هو المقصود واشعارا بأنه المراد فيهما أيضا ٦٦٢ ولله در شأن التنزيل وقوله تعالى (لتنذر قوما) متعلق بالفعل المعلل بالرحمة فهو ماذكرنا من ارساله عليه الصلاة والسلام بالقرآن حتما لما أنه المعلل بالانذار لا تعليم ماذكر وقرئ رحمة بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى (ما أتاهم من نذير من قبلك) صفة لقوما أى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة او بينك وبين اسمعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى اسرائيل (لعلهم يتذكرون) أى يتعظون بانذارك وتغيير الترتيب الوقوعى بين قضاء الامر والثواء فى أهل مدين والنداء للتنبيه على أن كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحى الالهى ولو ذكر أولا نفى ثوائه عليه الصلاة والسلام فى أهل مدين ثم نفى حضوره عليه الصلاة والسلام عند النداء ثم نفى حضوره عند قضاء الامر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل دليل واحد على ماذكر كما مر فى قصة البقرة (ولولا أن تصيبهم مصيبة) أى عقوبة (بما قدمت أيديهم) أى بما اقترفوا من الكفر والمعاصى (فيقولوا) عطف على تصيبهم داخل فى حيز لولا الامتناعية على أن مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه لا امتناع المعطوف عليه وانما ذكره فى حيزها للايذان بأنه السبب الملجئ لهم الى قولهم (ربنا لولا أرسلت الينا رسولا) أى هلا أرسلت الينا رسولا مؤيدا من عندك بآيات (فنتبع آياتك) الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية (ونكون من المؤمنين) بها وجواب لولا الاولى محذوف ثقة بدلالة الحال العذاب

كالكم لم يقل شفيع لانهم كانوا معترفين ان كلهم ليس لهم شافع لانهم كانوا يدعون ان آلهتهم شفعاء كما قال تعالى عنهم هؤلاء شفعاؤنا والشفيع لا يكون له شفيع فما نفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة الى نفيه لاعترافهم به واما هنا فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون ان لانفسهم شفعاء فنفى (المسئلة الثالثة) قال هنا مالكم من دون الله فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصرا وولياهو الله وليس لهم غيره ولى وناصر وقال ههنا مالكم من ناصرين من غير استثناء فنقول كان ذلك واردا على انهم فى الدنيا فقال لهم فى الدنيا الا تظنوا انكم تعجزون الله فمالكم أحد ينصركم بل الله تعالى ينصركم ان تبتم فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض وعدم الناصر عام لان التوبة فى ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقا ثم قال تعالى (فآمن له لوط) يعنى لما رأى لوط معجزته آمن (وقال) ابراهيم (انى مهاجر الى ربى) أى الى حيث أمرنى بالتوجه اليه (انه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع أعدائى عن ايذائى بعزته وحكيم لا يأمرنى الا بما يوافق لكمال حكمته وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله آمن له لوط أى بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية وبقاؤه الى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى ان أبا بكر لما قبل دين محمد صلى الله عليه وسلم وكان ثبر القلب قبله قبل الكل من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر فنقول ان لوطا لما رأى معجزته آمن برسالته واما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته واليه اشار بقوله فآمن له لوط وما قال فآمن لوط (المسئلة الثانية) ما تعلق قوله وقال انى مهاجر الى ربى بما تقدم فنقول لما بالغ ابراهيم فى الارشاد ولم يهتد قومه وحصل اليأس الكلى حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة لان الهادى اذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لانه ان دام على الارشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضى بأفعالنا واذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة (المسئلة الثالثة) قال مهاجر الى ربى ولم يقل مهاجر الى حيث أمرنى ربى مع أن المهاجرة الى الرب توهم الجهة فنقول قوله مهاجر الى حيث امرنى ربى ليس فى الاخلاص كقوله الى ربى لان الملك اذا صدر منه أمر برواح الاجناد الى الموضع الفلانى ثم ان واحدا منهم سافر اليه لغرض نفسه يصيبه فقد هاجر الى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصا لوجهه فقال مهاجر الى ربى يعنى توجهى الى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلبا للجهة انما هو طلب لله ثم قال تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم ان اثر رحمة الله فى أمرين فى الامان من سوء

عليه والمعنى لولا قولهم هذا عند اصابة عقوبة بجناياتهم التى قدموها ما أرسلناك لكن لما كان قولهم ذلك محققا لا محيد عنه أرسلناك قطعا لمعاذيرهم بالكلية (فلما جاءهم) أى أهل مكة ٦٦٣ (الحق من عندنا) وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام (قالوا) تعنتا واقتراحا (لولا أوتى) يعنونه عليه الصلاة والسلام (مثل ما أوتى موسى) من الكتاب المنزل جملة وأما اليد والعصا فلا تعلق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) رد عليهم واظهار لكون ماقالوه تعنتا محضا لا طلبا لما يرشدهم الى الحق أى ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتى موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى (قالوا) استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الانكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى (سحران) خبر لمبتدأ محذوف أى هما يعنون ما أوتى محمد وما أوتى موسى عليهما السلام سحران (تظاهرا) أى تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وذلك أنهم بعثوا رهطا منهم الى رؤساء اليهود فى عيدلهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا انا نجده فى التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى (وقالوا انا بكل) اى بكل واحد من الكتابين (كافرون) تصريح بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا وذلك لغاية عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان وقرئ ساحران تظاهرا يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الجليل فتأمل ودع عنك ماقيل وقيل ألا ترى الى قوله تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) مما أوتياه من التوراة والقرآن وسميتموهما سحرين

العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل الى المؤمن فى الدار الآخرة قطعا بحكم وعد الله نفى العذاب عنه لنفيه الشرك واثبات الثواب لاثباته الواحد ولكن هذا ليس بواجب الحصول فى الدنيا فان كثيرا ما يكون الكافر فى رغد والمؤمن جائع فى يومه متفكر فى أمر غده لكنهما مطلوبان فى الدنيا اما دفع العذاب العاجل فلانه ورد فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم قوله وقنا عذاب الفقر والنار فعذاب الفقر اشارة الى دفع العذاب العاجل واما الثواب العاجل ففى قوله ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة اذا علم هذا فنقول ان ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار ولما أتى به مرة بعد مرة مع اصرار القوم على التكذيب واضرارهم به بالتعذيب أعطاه الجزاء الآخر وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله ووهبنا له اسحق ويعقوب وفى الآية لطيفة وهى ان الله بدل جميع أحوال ابراهيم فى الدنيا باضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيدا فريدا فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب وكان اولا لا جاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه فكثر ماله حتى كان له من المواشى ما علم الله عدده حتى قيل انه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس باطواق ذهب واما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد ان كان خاملا حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لا يقال الا فى مجهول بين الناس ثم ان الله تعالى قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين يعنى ليس له هذا فى الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجا ليكثر من سيئاته بل هذا له عجالة وله فى الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين فان كون العبد صالحا أعلى مراتبه لما بينا أن الصالح هو الباقى على ما ينبغى يقال الطعام بعد صالح أى هو باق على ما ينبغى ومن بقى على ما ينبغى لا يكون فى عذاب ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفى الآية مسئلتان (احداهما) أن اسمعيل كان من اولاده الصالحين وكان قد أسلم لامر الله بالذبح وانقاد لحكم الله فلم يذكر فيقال هو مذكور فى قوله وجعلنا فى ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه لانه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الاولاد والاحفاد فذكر من الاولاد واحدا وهو الاكبر ومن الاحفاد واحدا وهو الاظهر كما يقول القائل ان السلطان فى خدمته الملوك والامراء الملك الفلانى والامير الفلانى ولا يعدد الكل لان ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر فيظن انه ليس معه غير المذكورين (المسئلة الثانية) ان الله تعالى جعل فى ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوى

فانه نص فيما ذكر وقوله تعالى (اتبعه) جواب للامر أى ان تأتوا به اتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته
وسنوح محجته لان الاتيان بما هو اهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والافحام (ان كنتم صادقين) اى فى انهما سحران مختلقان وفى ايراد كلمة ان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم (فان لم يستجيبوا لك) أى فان لم يفعلوا ما كلفتهم من الاتيان بكتاب اهدى منهما كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايذانا بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن امره عليه الصلاة والسلام لهم بالاتيان بما ذكر دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والاستجابة تتعدى الى الدعاء بنفسه والى الداعى باللام فيحذف الدعاء عنده ذلك غالبا ولا يكاد يقال استجاب الله له دعاءه (فاعلم أنما يتبعون اهواءهم) الزائغة من غير ان يكون لهم متمسك ما اصلا اذ لو كان لهم ذلك لاتوا به (ومن اضل ممن اتبع هواه) استفهام انكارى للنفى اى لا اضل ممن اتبع هواه (بغير هدى من الله) اى هو اضل من كل ضال وان كان ظاهر السبك لنفى الاضل لا لنفى المساوى كما مر فى نظائره مرارا وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقريع والاشباع فى التشنيع والتضليل والا فمقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) الذين ظلموا انفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى والاعراض عن الآيات الهادية الى الحق المبين (ولقد وصلنا لهم القول) وقرئ بالتخفيف اى انزلنا القرآن عليهم متواصلا بعضه اثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة اومتتابعا وعدا ووعيدا قصصا وعبرا ومواعظ ونصائح (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون بما فيه (الذين آتيناهم الكتاب من قبله)

بين ولديه فكيف صارت النبوة فى اولاد اسحق أكثر من النبوة فى اولاد اسمعيل فنقول الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى القيامة قسمين والناس جمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله فيه انبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحدا بعد واحد ومجتمعين فى عصر واحد كلهم من ورثة اسحق عليه السلام ثم فى القسم الثانى من الزمان أخرج من ذريته ولده الآخر وهو اسمعيل واحدا جمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين اولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل مثل ذلك المقدار ۞ ثم قال تعالى (ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ائنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرنى على القوم المفسدين) الاعراب فى لوط والتفسير كما ذكرنا فى قوله وابراهيم اذ قال لقومه وههنا مسائل (الاولى) قال ابراهيم لقومه اعبدوا الله وقال عن لوط ههنا انه قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة فنقول لما ذكر الله لوطا عند ذكر ابراهيم وكان لوط فى زمان ابراهيم لم يذكر عن لوط انه أمر قومه بالتوحيد مع ان الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها هاهنا ذكرها الله على سبيل الاختصار فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ولم يذكر عنه الامر بالتوحيد وان كان قاله فى موضع آخر حيث قال اعبدوا الله ما لكم من اله غيره لان ذلك كان قد أتى به ابراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن ابراهيم وأما المنع من عمل قوم لوط كان مختصا بلوط فان ابراهيم لم يظهر ذلك ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره (المسئلة الثانية) لم سمى ذلك الفعل فاحشة فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ثم ان الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله فى الانسان فمصلحة الشهوة الفرجية هى بقاء النوع بتوليد الشخص وهذه المصلحة لا تحصل الا بوجود الولد وبقائه بعد الاب فانه لو وجد ومات قبل الاب كان يفنى النوع بفناء القرن الاول لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضى الى بقاء النوع لانا بينا ان البقاء بالوجود وبقاء الولد بعد الاب لكن الزنا وان كان يفضى الى وجود الولد ولكن لا يفضى الى بقائه لان المياه اذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع ويهلك فلا يحصل مصلحة البقاء فاذا الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التى لاجلها خلقت فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة واذا كان الزنا فاحشة مع انه يفضى الى وجود الولد ولكن لا يفضى الى بقائه فاللواطة التى لا تفضى الى وجوده اولى بأن تكون فاحشة (المسئلة الثالثة) الآية دالة على وجوب الحد فى اللواطة لانها مع الزنا اشتركت فى كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة واشتراكهما فى الفاحشة يناسب الزجر

عنه

أى من قبل ايتاء القرآن (هم به يؤمنون) وهم مؤمنو أهل الكتاب وقيل أربعون من أهل الانجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع
جعفر من الحبشة وثمانية من الشأم (واذا يتلى) أى القرآن (عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا) أى الحق الذى كنا نعرف حقيته
وهو استئناف لبيان ما أوجب ايمانهم وقوله تعالى (انا كنا من قبله) أى من قبل نزوله (مسلمين) بيان لكون ايمانهم به أمرا متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة وأنهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن (أولئك) الموصوفون بما ذكر من النعوت (يؤتون أجرهم مرتين) مرة على ايمانهم بكتابهم ومرة على ايمانهم بالقرآن (بما صبروا) بصبرهم وثباتهم على الايمانين أو على الايمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم من أهل دينهم ومن المشركين (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أى يدفعون بالطاعة المعصية لقوله عليه الصلاة والسلام وأتبع السيئة الحسنة تمحها (ومما رزقناهم ينفقون) فى سبيل الخير (واذا سمعوا اللغو) من اللاغين (أعرضوا عنه) عن اللغو تكرما كقوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما (وقالوا) لهم (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) بطريق المتاركة والتوديع (لا نبتغى الجاهلين) لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم (انك لا تهدى) هداية موصلة الى البغية لا محالة (من أحببت) من الناس ولا تقدر على أن تدخله فى الاسلام وان بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت فى السعى كل حد معهود (ولكن الله يهدى من يشاء) أن يهديه فيدخله فى الاسلام (وهو أعلم بالمهتدين) بالمستعدين لذلك والجمهور على أنها نزلت فى أبى طالب فانه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج بها لك عند الله فقال له يا ابن أخى قد علمت انك لصادق ولكنى أكره أن يقال

عنه فالشرع زاجر هنالك الشرع زاجر ههنا وهذا وان كان قياسا الآن جامعه مستفاد من الآية ووجه آخر وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها امطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلا فوجب أن يعذب من أتى به بامطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم قوله ما سبقكم بها من أحد يحتمل وجهين أحدهما ان قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر والثانى ان قبلهم ربما أتى به واحد فى الندرة لكنهم بالغوا فيه فقال لهم ما سبقكم بها من أحد كما يقال ان فلانا سبق البخلاء فى البخل وسبق اللئام فى اللؤم اذا زاد عليهم ثم قال تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل بيانا لما ذكرنا يعنى تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التى هى بقاء النوع حتى يظهر انه قبيح لم يستر قبحه مصلحة وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى أتأتون الرجال شهوة من دون النساء يعنى اتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله وتأتون فى ناديكم المنكر يعنى ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضمون اليه قبح الاظهار وقوله فما كان جواب قومه فى التفسير كقوله فى قصة ابراهيم وما كان جواب قومه وفى الآية مسائل (الاولى) قال قوم ابراهيم اقتلوه أو حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله وما هددوه مع ان ابراهيم كان اعظم من لوط فان لوطا كان من قومه فنقول ان ابرهيم كان يقدح فى دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى والقدح فى الدين صعب فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم الى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون ان هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم ابراهيم قول ابراهيم فقالوا انك تقول ان هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب فان كنت صادقا فائتنا بالعذاب فان قيل ان الله تعالى قال فى موضع آخر فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وقال ههنا فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا فكيف الجمع فنقول لوط كان ثابتا على الارشاد مكررا عليهم التغيير والنهى والوعيد فقالوا اولا ائتنا ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ثم ان لوطا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال انصرنى على القوم المفسدين فان الله لا يحب المفسدين حتى ينجز النصر واعلم ان نبيا من الانبياء ما طلب هلاك قوم الا اذا علم ان عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا يعنى المصلحة اما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم فانهم يضلون فى الحال وفى المآل فانهم يوصون الاولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع فكذلك لوط لما رأى انهم يفسدون فى الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله بطلت المصلحة حالا ومآلا فعدمهم صار خيرا فطلب العذاب ۞ ثم قال تعالى (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال

٨٤ س را

بنزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة بعدى لقلتها ولا قررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكنى سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) نزلت فى الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب وانما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد عليهم بقوله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا) أى ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرما ذا أمن لحرمة البيت الحرام الذى تتناحر العرب حوله وهم آمنون (يجبى اليه) وقرئ تجبى أى يجمع ويحمل اليه (ثمرات كل شئ) من كل أوب والجملة صفة أخرى لحرما دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة (رزقا من لدنا) فاذا كان حالهم ما ذكر وهم عبدة أصنام فكيف يخافون التخطف اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة التوحيد (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا أى قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله تعالى اذ لو علموا لما خافوا غيره وانتصاب رزقا على أنه مصدر مؤكد لمعنى يجبى أو حال من ثمرات على أنه بمعنى مرزوق لتخصصها بالاضافة ثم بين أن الامر بالعكس وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أى وكثير من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء فى الامن وخفض العيش والدعة حتى أشروا فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم (فتلك مساكنهم) خاوية بما ظلموا (لم تسكن من بعدهم) من بعد تدميرهم (الا قليلا) أى الا زمانا قليلا اذ لا يسكنها الا المارة يوما أو بعض يوم أو لم يبق من يسكنها الا قليلا من شؤم معاصيهم (وكنا نحن الوارثين)

ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) لما دعا لوط على قومه بقوله رب انصرنى استجاب الله دعاءه وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين فجاؤا ابراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا انا مهلكو أهل هذه القرية يعنى أهل سدوم وفى الآية لطيفتان (احداهما) ان الله جعلهم مبشرين ومنذرين لكن البشارة أثر الرحمة والانذار بالاهلاك أثر الغضب ورحمته سبقت غضبه فقدم البشارة على الانذار وقال جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم قال انا مهلكو (الثانية) حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا انا نبشرك لانك رسول أو لانك مؤمن أو لانك عادل وحين ذكروا الاهلاك عللوا وقالوا ان أهلها كانوا ظالمين لان ذا الفضل لا يكون فضله بعوض والعادل لا يكون عذابه الا على جرم وفيه مسئلتان (احداهما) لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الانذار نقول لما أراد الله اهلاك قوم وكان فيه اخلاء الارض عن العباد قدم على ذلك اعلام ابراهيم بأنه تعالى يملأ الارض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على اهلاك قوم من أبناء جنسه (والثانية) قال فى قوم نوح فأخذهم الطوفان وقد قلت ان ذلك اشارة الى انهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وههنا قال ان أهلها كانوا ظالمين ولم يقل وانهم ظالمون فنقول لا فرق فى الموضعين فى كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم لكن هناك الاخبار من الله وعن الماضى حيث قال فأخذهم وكانوا ظالمين فقال أخذهم وهم عند الوقوع فى العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فالملائكة ذكروا ما يحتاجون اليه فى ابانة حسن الامر من الله بالاهلاك فقالوا انا مهلكوهم لان الله أمرنا وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين فحسن أمر الله عند كل أحد وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا اليه فان الكلام عن الملك بغير اذنه سوء أدب فنحن ما احتجنا الا الى هذا القدر وهو انهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بيانا لحسن الامر وأما انهم ظالمون فى وقتنا هذا أو يبقون كذلك فلا حاجة لنا اليه ثم ان ابراهيم لما سمع قولهم قال لهم ان فيها لوطا اشفاقا عليه ليعلم حاله أو لان الملائكة لما قالوا انا مهلكو وكان ابراهيم يعلم ان الله لا يهلك قوما وفيهم رسوله فقال تعجبا ان فيها لوطا فكيف يهلكون فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها يعنى نعلم ان فيها لوطا فننجيه وأهله ونهلك الباقين وههنا لطيفة وهو ان الجماعة كانوا أهل الخير أعنى ابراهيم والملائكة وكل واحد كان يزيد على صاحبه فى كونه خيرا أما ابراهيم فلما سمع قول الملائكة انا مهلكو أظهر الاشفاق على لوط ونسى نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحا وقال ان فيها لوطا ثم ان الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه وقالوا انك ذكرت لوطا وحده ونحن ننجيه وننجى معه أهله ثم استثنوا من الاهل امرأته وقالوا الا امرأته كانت من الغابرين أى من المهلكين وفى استعمال الغابر فى المهلك وجهان وذلك لان الغابر

لفظ

منهم اذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ذات ايديهم وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو بجعلها ظرفا بنفسها كقولك زيد ظنى مقيم أو باضمار زمان مضاف اليه أو بجعله مفعولا لبطرت بتضمين معنى كفرت (وما كان ربك مهلك القرى) بيان للعناية الربانية اثر بيان اهلاك القرى المذكورة أى وما صح وما استقام بل استحال فى سنته المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الانذار بل كانت عادته أن لا يهلكها (حتى يبعث فى أمها) أى فى أصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها لكون أهلها أفطن وأنبل (رسولا يتلو عليهم آياتنا) الناطقة بالحق ويدعوهم اليه بالترغيب والترهيب وذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة بأن يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك والالتفات الى نون العظمة لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (وما كنا مهلكى القرى) عطف على ما كان ربك وقوله تعالى (الا وأهلها ظالمون) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى وما كنا مهلكين لاهل القرى بعد ما بعثنا فى أمها رسولا يدعوهم الى الحق ويرشدهم اليه فى حال من الاحوال الا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الاهلاك بموجب السنة الالهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الاهلاك عقيب البعث وقد مر تحقيقه فى سورة بنى اسرائيل (وما أوتيتم من شئ) من أمور الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) أى فهو شئ شأنه أن يتمتع ويتزين به أياما قلائل (وما عند الله) وهو الثواب (خير) فى نفسه من ذلك لانه لذة خالصة عن شوائب الالم وبهجة كاملة عارية عن سمة الهم (وأبقى) لانه أبدى (أفلا تعقلون) ألا تتفكرون فلا تعقلون هذا الامر الواضح فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وقرئ بالياء على الالتفات المبنى على اقتضاء سوء صنيعهم

لفظ مشترك فى الماضى وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى ويقال الفعل ماض وغابر أى باق وعلى الوجه الاول نقول ان ذكر الظالمين سبق فى قولهم انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين ثم جرى ذكر لوط بتذكير ابراهيم وجواب الملائكة فقالت الملائكة انها من الغابرين أى الماضى ذكرهم لا من الذين ننجى منهم أو نقول المهلك يفنى ويمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا انها من الغابرين أى من الراضين الماضين لا من الباقين المستمرين وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالاهلاك كان الكل فى الهلاك الا من ننجى منه فقالوا انا ننجى لوطا وأهله وأما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك ۞ ثم قال تعالى (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) ثم انهم جاؤا من عند ابراهيم الى لوط على صورة البشر فظنهم بشرا فخاف عليهم من قومه لانهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسئ بهم أى جاءه ما ساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعا كناية عن العجز فى تدبيرهم قال الزمخشرى يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز وذلك لان من طال ذراعه يصل الى ما لا يصل اليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجها معقولا غير ذلك وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضا والقلب هو المعتبر من الانسان فكأن الانسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ويقال فى الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ثم ان الملائكة لما رأوا خوفه فى أول الامر وحزنه بسبب تدبيرهم فى ثانى الامر قالوا لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر فى أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول القائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم انا منجوك وأهلك وانا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له انهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفى الآية مسائل (احداها) انه تعالى قال من قبل ولما جاءت رسلنا ابراهيم وقال ههنا ولما أن جاءت رسلنا فما الحكمة فيه فنقول حكمة بالغة وهى ان الواقع فى وقت المجئ هناك قول الملائكة انا مهلكو وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لانهم بشروا أولا ولبثوا ثم قالوا انا مهلكو وأيضا فالتأنى واللبث بعد المجئ ثم الاخبار بالاهلاك حسن فان من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئا من الجناية ينبغى أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير اذا علم هذا فقوله ههنا ولما أن جاءت رسلنا يفيد الاتصال يعنى خاف حين المجئ فان قلت هذا باطل بما ان هذه الحكاية جاءت فى سورة هود وقال ولما جاءت رسلنا لوطا من غير أن

الاعراض عن مخاطبتهم (أفمن وعدناه وعدا حسنا) أى وعدا بالجنة فان حسن الوعد بحسن الموعود (فهو لاقيه) أى مدركه لامحالة لاستحالة الخلف فى وعده تعالى ولذلك جى بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة وعطفت بالفاء المنبئة عن معنى السببية (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذى هو مشوب ٦٦٨ بالآلام منغص بالاكدار مستتبع للتحسر على الانقطاع ومعنى الفاء الاولى ترتيب انكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ماقبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ماعند الله تعالى أى أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين وقوله تعالى (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) عطف على متعناه داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لانكار التشابه ومقرر له كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو أحضرناه يوم القيامة النار أو العذاب وايثار الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتما وفى جعله من جملة المحضرين من التهويل مالا يخفى وثم للتراخى فى الزمان أو فى الرتبة وقرئ ثم هو بسكون الهاء تشبيها للمنفصل بالمتصل (ويوم يناديهم) منصوب بالعطف على يوم القيامة لاختلافهما عنوانا وان اتحدا ذاتا أو باضمار اذكر (فيقول) تفسير للنداء (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى الذين كنتم تزعمونهم شركائى فحذف المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام عليهما (قال) استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل فماذا صدر عنهم حينئذ فقيل قال (الذين حق عليهم القول) وهم شركاؤهم من الشياطين أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بأن أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوا عنه ومعنى حق عليهم القول أنه ثبت مقتضاه وجعل وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وغيره من آيات الوعيد وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله

فنقول هنالك جاءت حكاية ابراهيم بصيغة أخرى حيث قال هنالك ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى فقوله هنالك ولقد جاءت لايدل على ان قولهم انا أرسلنا كان فى وقت المجىء وقوله ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم دل على ان حزنه كان وقت المجىء اذا علم هذا فنقول هنالك قد حصل ماذكرنا من المقصود بقوله فى حكاية ابراهيم ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ثم قالوا لاتخف ولاتحزن انا أرسلنا الى قوم لوط فحصل تأخير الانذار وبقوله فى حكاية لوط ولما جاءت رسلنا حصل بيان تعجيل الحزن وأما هنا لما قال فى قصة ابراهيم ولما جاءت قال فى حكاية لوط ولما أن جاءت لما ذكرنا من الفائدة (المسئلة الثانية) قال هنا انا منجوك وأهلك وقال لابراهيم لننجينه بصيغة الفعل فهل فيه فائدة قلنا مامن حرف ولاحركة فى القرآن الا وفيه فائدة ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولاتصل الى أكثرها وما أوتى البشر من العلم الا قليلا والذى يظهر لعقلى الضعيف ان هنالك لما قال لهم ابراهيم ان فيها لوطا وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا انا منجوك أى ذلك واقع منا كقوله تعالى انك ميت لضرورة وقوعه (المسئلة الثالثة) قولهم لاتخف ولاتحزن لايناسبه انا منجوك لان خوفه ما كان على نفسه نقول بينهما مناسبة فى غاية الحسن وهى ان لوطا لما خاف عليهم وحزن لاجلهم قالوا له لاتخف علينا ولاتحزن لاجلنا فانا ملائكة ثم قالوا له يالوط خفت علينا وحزنت لاجلنا ففى مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك وفى مقابلة حزنك نزيل حزنك ولانتركك تتفجع فى أهلك فقالوا انا منجوك وأهلك (المسئلة الرابعة) القوم عذبوا بسبب ماصدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر كما ان الدال على الخير كفاعله وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت واحدة منهم ثم انهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا انهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء واختلفوا فى ذلك فقال بعضهم حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وانما يكون الامر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ثم اعلم ان كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع ابراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا انا منجوك ثم قالوا انا منزلون على أهل هذه القرية ولم يعللوا التنجية فما قالوا انا منجوك لانك نبى أو عابد وعللوا الاهلاك بقولهم بما كانوا يفسقون وقالوا انها كانوا كما قالوا هنالك ان أهلها كانوا ظالمين ثم قال تعالى ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون أى من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الاسود وهى بين القدس والكرك وفيها مسائل (احداها) جعل الله الآية فى نوح وابراهيم بالنجاة حيث قال فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال فأنجاه الله من النار ان فى ذلك لآيات

للاتباع أيضا لاصالتهم فى الكفر واستحقاق العذاب حسبما يشعر به قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم ومسارعتهم الى الجواب مع كون السؤال للعبدة انما لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالاضلال وجزمهم بان العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا وانما لان العبدة قد قالوه اعتذارا وهؤلاء انما قالوا ما قالوا ٦٦٩ ردا لقولهم الا أنه لم يحك قول العبدة ايجازا لظهوره (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى هم الذين أغويناهم فحذف الراجع الى الموصول ومرادهم بالاشارة بيان أنهم يقولون مايقولون بمحضر منهم وأنهم غير قادرين على انكاره ورده وقوله تعالى (أغويناهم كما غوينا) هو الجواب حقيقة وما قبله تمهيد له أى ما أكرهناهم على الغى وانما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لابالقسر والالجاء فغووا باختيارهم غيا مثل غينا باختيارنا ويجوز أن يكون الذين صفة لاسم الاشارة وأغويناهم الخبر (تبرأنا اليك) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى هوى منهم وهو تقرير لماقبله ولذلك لم يعطف عليه وكذا قوله تعالى (ما كانوا ايانا يعبدون) أى ما كانوا يعبدوننا وانما كانوا يعبدون أهواءهم وقيل ما مصدرية متصلة بقوله تعالى تبرأنا أى تبرأنا من عبادتهم ايانا (وقيل ادعوا شركاءكم) امانهكما بهم أو تبكيتا لهم (فدعوهم) لفرط الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة (ورأوا العذاب) قد غشيهم (لوأنهم كانوا يهتدون) لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب أو الى الحق لما لقوا مالقوا وقيل لو للتمنى أى تمنوا لو أنهم كانوا مهتدين (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) عطف على ماقبله سئلوا أولا عن اشراكهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك (فعميت عليهم الانباء يومئذ) أى صارت كالعمى عنهم لاتهتدى اليهم وأصله فعموا عن الانباء وقد عكس

وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شىء نقول نعم اما ابراهيم فلأن الآية كانت فى النجاة لان فى ذلك الوقت لم يكن اهلاك وأما فى نوح فلان الانجاء من الطوفان الذى علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهى ومابه النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقى آية وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس فى البلاد فجعل الآية الامر الباقى وهو ههنا البلاد وهنالك السفينة وههنا لطيفة وهى ان الله تعالى آية قدرته موجودة فى الانجاء والاهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها أثر الرحمة وأخر آيات الاهلاك لانها أثر الغضب ورحمته سابقة (المسئلة الثانية) قال فى السفينة وجعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لان الانجاء بالسفينة أمر يسع له كل عقل وقد يقع فى وهم جاهل ان الانجاء بالسفينة لايفتقر الى أمر آخر وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بارادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفى زمان دون زمان فهى بينة لايمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول فى السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك الى أن يقال له فمن أين علم انه يحتاج اليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم (المسئلة الثالثة) قال هنالك للعالمين وقال ههنا لقوم يعقلون قلنا لان السفينة موجودة فى جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله واذا ركبوها يطلبون من الله النجاة ولايثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا الى الله تعالى طلبا للنجاة وأما أثر الهلاك فى بلاد لوط ففى موضع مخصوص لايطلع عليه الا من يمر بها ويصل اليها ويكون له عقل يعلم ان ذلك من الله المريد بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده فى زمان بعد زمان ۞ ثم قال تعالى (والى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولاتعثوا فى الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع فى الثالثة وقال والى مدين أخاهم واختلف المفسرون فى مدين فقال بعضهم انه اسم رجل فى الاصل وحصل له ذرية فاشتهر فى القبيلة كتميم وقيس وغيرهما وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم اليه واشتهر فى القوم والاول كأنه أصح وذلك لان الله أضاف الماء الى مدين حيث قال ولما ورد ماء مدين ولو كان اسما للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقية والاصل فى الاضافة التغاير حقيقة وقوله أخاهم قيل لان شعيبا كان منهم نسبا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الله تعالى فى نوح ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقدم نوحا فى الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك فى ابراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولا وأضاف اليهم أخاهم شعيبا فنقول الاصل فى جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان المرسل لايبعث رسولا الى غير معين وانما

للمبالغة والتنبيه على ان ما يحضر الذهن يفيض عليه و يصل اليقين من خارج فاذا أخطا يكن له حيلة الى استحضاره وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالانباء اما ما طلب منهم مما أجابوا به الرسل أو جميع الانباء وهى داخلة فيه دخولا أوليا واذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يفوضون العلم فى ذلك المقام الهائل الى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤل فما ظنك بأولئك الضلال من الامم (فهم لا يتساءلون) لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأن الكل سواء فى الجهل (فأما من تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) أى جمع بين الايمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلحين) أى الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام أو للترجى من قبل التائب بمعنى فليتوقع الافلاح (وربك يخلق ما يشاء) أن يخلقه (ويختار) ما يشاء اختياره من غير ايجاب عليه ولا منع له أصلا (ما كان لهم الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير والمراد نفى الاختيار المؤثر عنهم وذلك مما لا ريب فيه وقيل المراد أنه ليس لاحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ويؤيده ما روى أنه نزل فى قول الوليد بن المغيرة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم والمعنى لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسل اليهم وقيل معناه ويختار الذى كان لهم فيه الخير والصلاح (سبحان الله) أى تنزه بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار (وتعالى عما يشركون) عن اشراكهم أو عن مشاركة ما يشركونه به (وربك يعلم ما تكن صدورهم) كعداوة رسول الله ذكرهم صلى الله عليه وسلم وحقده (وما يعلنون) كالطعن فيه (وهو الله) أى المستحق للعبادة (لا اله الا هو) لا أحد يستحقها الا هو

يحصل قوم أو شخص يحتاجون الى انباء من المرسل فيرسل اليهم من يختاره غير أن قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالنبى فقيل قوم نوح وقوم لوط وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله والى مدين أخاهم شعيبا وقال والى عاد أخاهم هودا (المسئلة الثانية) لم يذكر عن لوط انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك قلنا قد ذكرنا ان لوطا كان له قوم وهو كان من قوم ابراهيم وفى زمانه وابراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق من ابراهيم فلم يذكره عن لوط وانما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها وان كان هو أيضا يأمر بالتوحيد اذ ما من رسول الا ويكون أكثر كلامه فى التوحيد وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلا أيضا فى التوحيد فبدأ به وقال اعبدوا الله (المسئلة الثالثة) الايمان لا يتم الا بالتوحيد والامر بالعبادة لا يفيده لان من يعبد الله ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله اعبدوا الله فنقول هذا الامر يفيد التوحيد وذلك لان من يرى غيره يخدم زيدا وعمرو هناك وهو أكبر أو هو سيد زيد فاذا قال له اخدم عمرا يفهم منه انه يأمره بصرف الخدمة اليه وكذا اذا كان لواحد دينار واحد وهو يريدان يعطيه زيدا فاذا قيل له أعطه عمرا يفهم منه لا تعطه زيدا فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب اعبدوا الله ففهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد وضعها فى عبادة غير الله فقال لهم شعيب ضعوها فى موضعها وهو عبادة الله ففهم منه التوحيد ثم قال وارجوا اليوم الآخر قال الزمخشرى معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة اذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلا ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا * وقوله وارجوا اليوم الآخر فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا يدل على صحة مذهبنا فان عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلا ولا يجب عليه ذلك لان العابد قد وصل اليه من النعم ما لو زاد على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيده وان زاده يكون احسانا منه اليه وانعاما عليه فنقول قوله وارجوا اليوم الآخر بعد قوله اعبدوا الله يدل على التفضل لا على الوجوب فان الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به (المسئلة الثانية) قال وارجوا اليوم الآخر ولم يقل وخافوه مع ان ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس لفسقه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه الا القليل من عباده فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الاثبات وقال اعبدوا ولم يذكره بطريق النفى وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لان عبادة الله يرجى منها الخير فى الدارين وفيه وجه آخر وهو ان الله حكى فى حكاية ابراهيم انه قال انكم اتخذتم الاوثان مودة بينكم فى الحياة الدنيا وأما فى الآخرة فتكفرون بها قال ههنا لا تكونوا كالذين سبق

(له الحمد فى الاولى والآخرة) لانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها على الخلق كافة يحمده المؤمنون فى الآخرة كما حمدوه فى الدنيا بقولهم الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده ابتهاجا بفضله والتذاذا بحمده (وله الحكم) أى القضاء النافذ فى كل شئ من غير مشاركة فيه لغيره (واليه ترجعون) بالبعث لا الى غيره (قل) تقريرا لما ذكر (أرأيتم) أى أخبرونى (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما من السرد وهو المتابعة والاطراد والميم مزيدة كما فى دلامص من الدلاص يقال درع دلاص أى ملساء لينة (الى يوم القيامة) باسكان الشمس تحت الارض أو تحريكها حول الافق الغائر (من اله غير الله) صفة لاله (يأتيكم بضياء) صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والالزام كما فى قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض وقوله تعالى فمن يأتيكم بماء معين ونظائرهما خلا أنه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل اله الخ لارادة التبكيت والالزام على زعمهم وقرئ بضئاء بهمزتين (أفلا تسمعون) هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا بموجبه (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة) باسكانها فى وسط السماء أو بتحريكها على مدار فوق الافق (من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من متاعب الاشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه لكونه مقصودا بذاته ظاهر الاستتباع لما نيط به من المنافع (أفلا تبصرون) هذه المنفعة الظاهرة التى لا تخفى على من له بصر (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بأنواع المكاسب (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل أو لكى تعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها (ويوم يناديهم) منصوب باذكر (فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) تقريع اثر

ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ثم قال ولا تعثوا فى الارض مفسدين يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائما أى قياما ويكون قوله ولا تعثوا فى الارض مفسدين كقول القائل اجلس قعودا لان العيث والفساد بمعنى وجمع الاوامر والنواهى فى قوله اعبدوا الله وقوله ولا تعثوا ثم ان قومه كذبوه بعد ما بلغ وبين فحكى الله عنهم ذلك بقوله فكذبوه فأخذتهم الرجفة فاصبحوا فى دارهم جاثمين * وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما حكى عن شعيب أمر ونهى والامر لا يصدق ولا يكذب فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تقربوه وهذه الاشياء فيها اخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به (المسئلة الثانية) قال ههنا وفى الاعراف فأخذتهم الرجفة وقال فى هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة نقول لا تعارض بينهما فان الصيحة كانت سببا للرجفة اما لرجفة الارض اذ قيل ان جبريل صاح فتزلزلت الارض من صيحته واما لرجفة الافئدة فان قلوبهم ارتجفت منها والاضافة الى السبب لا تنافى الاضافة الى سبب السبب اذ يصح أن يقال روى فقوى وان يقال شرب فقوى فى صورة واحدة (المسئلة الثالثة) حيث قال فأخذتهم الصيحة قال فى ديارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال فى دارهم فنقول المراد من الدار هو الديار والاضافة الى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ الواحد اذا أمن الالتباس وانما اختلف اللفظ للطيفة وهى ان الرجفة هائلة فى نفسها فلم يحتج الى مهول وأما الصيحة فغير هائلة فى نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة فى الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج الى معظم لامرها وقيل ان الصيحة كانت أعم حيث عمت الارض والجو والزلزلة لم تكن الا فى الارض فذكر الديار هناك غير ان هذا ضعيف لان الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة فهم ما أصبحوا جاثمين الا فى ديارهم ۞ ثم قال تعالى (وعادا وثمود) أى وأهلكنا عادا وثمود لان قوله تعالى فأخذتهم الرجفة دل على الاهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الامر وما تعتبرون منه ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) فقوله وزين لهم الشيطان أعمالهم يعنى عبادتهم لغير الله وصدهم عن السبيل يعنى عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعنى بواسطة الرسل يعنى فلم يكن لهم فى ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبل ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفا عليهم أى وأهلكنا قارون وفرعون وهامان ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال فى عاد وثمود وكانوا مستبصرين أى بالرسل ثم قال تعالى (فاستكبروا) أى عن عبادة الله وقوله (فى الارض) اشارة الى ما يوضح قلة عقلهم فى استكبارهم وذلك لان من فى الارض أضعف أقسام المكلفين ومن ١

تقريع للاشعار بانه لاشئ أجلب لغضب الله عزوجل من الاشراك كما لاشئ أدخل فى مرضاته من توحيده سبحانه وقوله تعالى (ونزعنا) عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على التحقق او حال من فاعله باضمار قد والالتفات

فى السماء أقواهم ثم ان من فى السماء لايستكبر على الله وعن عبادته فكيف من فى الارض ثم قال تعالى (وما كانوا سابقين) أى ما كانوا يفوتون الله لانا بينا فى قوله تعالى وما أنتم بمعجزين فى الارض ان المراد ان أقطار الارض فى قبضة قدرة الله ۞ ثم قال تعالى (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب وقيل انه كان بحجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر وفيه اشارة الى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله الى الغشاء الذى على منفذ الاذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس والعذاب بالخسف وهو الغمر فى التراب والعذاب بالاغراق وهو بالماء فحصل العذاب بالعناصر الاربعة والانسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه فاذا أراد الله هلاك الانسان جعل ما منه وجوده سببا لعدمه وما به بقاؤه سببا لفنائه ● ثم قال تعالى وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعنى لم يظلمهم بالهلاك وانما هم ظلموا أنفسهم بالاشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أى ما كان يضعهم فى غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم فى عبادة الوثن مع خسته ۞ ثم قال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه فى الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لايجير آويا ولا يريح ثاويا وفى الآية لطائف نذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى اختيار هذا المثل من بين سائر الامثال فنقول فيه وجوه (الاول) ان البيت ينبغى أن يكون له أمور حائط حائل وسقف مظل وباب يغلق وأمور ينتفع بها ويرتفق وان لم يكن كذلك فلابد من أحد أمرين اما حائط حائل يمنع من البرد واما سقف مظل يدفع عنه الحر فان لم يحصل منهما شئ فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لايجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار فان لم تجتمع هذه الامور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع فان من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء فاذا كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معانى البيت شئ كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الاوثان أولياء من معانى الاولياء شئ (الثانى) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء والنار والتراب والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوى ولا الماء ولا النار والخباء الذى هو بيت من الشعر أو الخيمة التى هى من ثوب ان كان لايدفع شيأ يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لايظل فان

الى نون العظمة لابراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله أى أخرجنا (من كل أمة) من الامم (شهيدا) نبيا يشهد عليهم بما كانوا عليه كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد (فقلنا) لكل أمة من تلك الامم (هاتوا برهانكم) على صحة ما كنتم تدينون به (فعلموا) يومئذ (أن الحق لله) فى الالهية لايشاركه فيها أحد (وضل عنهم) أى غاب عنهم غيبة الضائع (ما كانوا يفترون) فى الدنيا من الباطل (ان قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث وقيل كان موسى عليه السلام ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان أقرأ بنى اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى وقال اذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فمالى وروى انه لما جاوزبهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهرون وجد قارون فى نفسه وحسدهما فقال لموسى الامر لكما ولست على شئ الى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال لاأصدقك حتى تأتى بآية فأمر رؤساء بنى اسرائيل أن يجئ كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل اليه فيها فكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا فاذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر فقال قارون ما هو بأعجب مما تصنع من السحر وذلك قوله تعالى

(فبغى عليهم) فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره أو ظلمهم قيل وذلك حين ملكه فرعون على بنى اسرائيل وقيل حسدهم وذلك ماذكر منه فى حق موسى وهرون عليهما السلام (وآتيناه من الكنوز) أى الاموال المدخرة (ما ان مفاتحه) أى مفاتح

الشمس بشعاعها تنفذ فيه فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الامر فى الغير فان لم يكن كذلك فيكون نافذ الامر فى العابد فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم ان أرادوا أجلوه وان أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى مراتب البيت انه ان لم يكن سبب ثبات وارتفاق لايصير سبب شتات وافتراق لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت فان العنكبوت لودام فى زاوية مدة لايقصد ولا يخرج منها فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغى أن يستحق الثواب فان لم يستحقه فلا أقل من أن لايستحق بسببها العذاب والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب (المسئلة الثانية) مثل الله اتخاذهم الاوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) ان نسجه فيه فائدة له لولاه لما حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه واتخاذهم الاوثان وان كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التى هى خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثانى) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذه ذلك بيتا أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الاوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتا وكلاهما باطل (المسئلة الثالثة) كان هذا المثل صحيح فى الاول فهو صحيح فى الآخر فان بيت العنكبوت اذا هبت ريح لايرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثورا فكذلك أعمالهم للاوثان كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (المسئلة الرابعة) قال مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ولم يقل آلهة اشارة الى ابطال الشرك الخفى أيضا فان من عبد الله رياء لغيره فقد اتخذ وليا غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتا ۞ ثم انه تعالى قال (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) اشارة الى ما بينا ان كل بيت ففيه اما فائدة الاستظلال أو غير ذلك وبيته يضعف عن افادة ذلك لانه يخرب بأدنى شئ ولا يبقى منه عين ولا أثر فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون ۞ ثم قال تعالى (ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم) قال الزمخشرى هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث انهم لا يدعون من دونه من شئ بمعنى ما يدعون ليس بشئ وهو عزيز حكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشئ أصلا وهذا يفهم منه انه جعل ما نافية وهو صحيح والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل انى أعلم ان الله واحد حق يعنى أعلم هذه الجملة وان كما نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شئ فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على اعدامه واهلاكهم لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا لو قال قائل

صناديقه وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح بالفتح (لتنوء بالعصبة أولى القوة) خبران والجملة صلة ما وهو ثانى مفعولى آتى وناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة والعصابة الجماعة الكثيرة وقرئ لينوء بالياء على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه كما مر فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (اذ قال له قومه) منصوب بتنوء وقيل بيغى ورد بأن البغى ليس مقيدا بذلك الوقت وقيل بآتيناه ورد بأن الايتاء أيضا غير مقيد به وقيل بمضمر فقيل هو اذكر وقيل هو أظهر الفرح ويجوز أن يكون منصوبا بما بعده من قوله تعالى قال انما أوتيته وتكون الجملة مقررة لبغيه (لاتفرح) أى لاتبطر والفرح فى الدنيا مذموم مطلقا لانه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فان العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لامحالة يوجب الترح حتما ولذلك قال تعالى ولا تفرحوا بما آتاكم وعلل النهى ههنا بكونه مانعا من محبته عزوعلا فقيل (ان الله لايحب الفرحين) أى بزخارف الدنيا (وابتغ) وقرئ واتبع (فيما آتاك الله) من الغنى (الدار الآخرة) أى ثواب الله تعالى فيها بصرفه الى ما يكون وسيلة اليه (ولا تنس) أى لاتترك ترك المنسى (نصيبك من الدنيا) وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك (وأحسن) أى الى عباد الله تعالى (كما أحسن الله اليك) فيما أنعم به عليك وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله اليك بالانعام (ولا تبغ الفساد فى الارض) نهى عما كان عليه من الظلم والبغى (ان الله لايحب المفسدين) لسوء أفعالهم (قال) مجيبا لناصحيه (انما أوتيته على علم عندى) كأنه يريد به الرد على قولهم كما أحسن الله اليك لانبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الاموال والذخائر من غير سبب

واستحقاق من قبله أى فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم فى موقع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها وقيل علم الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل علم فتح الكنوز والدفائن وعندى صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك جاز هذا عندى أى فى ظنى ورأيى (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءة فى التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام وسماعا من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتروا به أورد لادعائه العلم وتعظمه به بنفى هذا العلم منه فالمعنى أعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال استعلام بل يعذبون بها بغتة كأن قارون لما هدد بذكر اهلاك من قبله ممن كان أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأن بين أن ذلك لم يكن مما يختص أولئك المهلكين بل الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالة (فخرج على قومه) عطف على قال وما بينهما اعتراض وقوله تعالى (فى زينته) اما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أى فخرج عليهم كائنا فى زينته قيل خرج على بغلة شهباء عليه الارجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الاحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج وقيل فى تسعين ألفا عليهم المعصفرات وهو أول يوم رئى فيه المعصفر (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا) من المؤمنين جريا على سنن الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) وعن قتادة أنهم تمنوه ليتقربوا به الى الله تعالى وينفقوه فى سبل الخير وقيل كان المتمنون قوما كفارا (انه لذو حظ عظيم) تعليل لتمنيهم وتأكيد له (وقال الذين أوتوا العلم) أى بأحوال الدنيا والآخرة كما

ما رتب عليه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق هو أنه لما قال ان مثلهم كمثل العنكبوت فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الاوثان التى اتخذها وهى تحت تسخيرى وانما هى صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعى وضرى وخيرى وشرى ووجودى ودوامى فله سجودى واعظامى فقال الله تعالى ان الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لان الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر الا باذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود الا الله ولا اله سواه ﷺ ثم قال تعالى (وتلك الامثال نضربها للناس) قال الكافرون كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت فقال الامثال تضرب للناس ان لم تكونوا كالانعام يحصل لكم منه ادراك ما يوجب نفرتكم عما أنتم فيه وذلك لان التشبيه يؤثر فى النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل فاذا قال الحكيم لمن يغتاب انك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لانك وقعت فى هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع فى ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه ان كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر اذا قال له انه يوجب العذاب ويورث العقاب ﷺ ثم قال تعالى (وما يعقلها الا العالمون) يعنى حقيقتها وكون الامر كذلك لا يعلمه الا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه وفيه معنى حكمى وهو ان العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم وذلك لان العاقل اذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهرا وكون المدرك عاقلا ولا يحتاج الى كونه عالما بأشياء قبله وأما الدقيق فيحتاج الى علم سابق فلا بد من علم ثم انه قد يكون دقيقا فى غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله اذا كان عالما اذا علم هذا فقوله وما يعقلها الا العالمون يعنى هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها الا العلماء • ثم انه تعالى لما أمر الخلق بالايمان وأظهر الحق بالبرهان • ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصا فيها ما عبر وأنذرهم على كفرهم باهلاك من غبر • وبين ضعف دلائلهم بالتمثيل • ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل • وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين ﷺ بقوله (خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين) يعنى ان لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا فى صحة دينكم • ولا يؤثر شكهم فى قوة يقينكم • فان خلق الله السموات والارض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر • وبرهان باهر • وان لم يؤمن به على وجه الارض كافر • وفى الآية مسئلة نبينها تفسير الآية وهى ان الله تعالى كيف خص الآية فى خلق السموات والارض بالمؤمنين مع ان فى خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال الله تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى أن قال لآيات لقوم يعقلون فنقول خلق السموات والارض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب وبيانه من حيث النقل والعقل أما النقل فقوله

يبغى وانما لم يوصفوا بارادة ثواب الآخرة تنبيها على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضى الاعراض عن الاولى والاقبال على الثانية حتما وأن تمنى المتمنين ليس الا لعدم علمهم بهما كما ينبغى (ويلكم) دعاء بالهلاك شاع استعماله فى الزجر عما لا يرتضى (ثواب الله فى الآخرة (خير) مما تتمنونه (لمن آمن وعمل صالحا) فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى (ولا يلقاها) أى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء والثواب فانه بمعنى المثوبة أو الجنة أو الايمان والعمل الصالح فانهما فى معنى السيرة والطريقة (الا الصابرون) أى على الطاعات وعن الشهوات (فخسفنا به وبداره الارض) روى انه كان يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره فعمد الى أن يفضح موسى عليه السلام بين بنى اسرائيل فجعل لبغى من بغايا بنى اسرائيل ألف دينار وقيل طشتا من ذهب مملوءة ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون ولو كنت قال ولو كنت قال ان بنى اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فاحضرت فناشدها عليه السلام أن تصدق فقالت جعل لى قارون جعلا على أن أرميك بنفسى فخر موسى ساجدا لربه يبكى ويقول يارب ان كنت رسولك فاغضب لى فاوحى اليه أن مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يا بنى اسرائيل ان الله بعثنى الى قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وهم يناشدونه عليه الصلاة والسلام بالله تعالى وبالرحم وهو لا يلتفت اليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فأصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم انما دعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله (فما

تعالى ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون أخرج أكثر الناس عن العلم بكون خلقهما بالحق مع انه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وأما العقل فهو ان العاقل أول ما ينظر الى خلق السموات والارض ويعلم ان لهما خالقا وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك بل يقول انه خلقهما متقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق لان ما لا يكون على وجه الاحكام يفسد ويبطل فيكون باطلا واذا علم انه خلقهما متقنا يقول انه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات فى الارض ولا فى السموات ولا يعجز عن جمعها كجمع اجزاء الكائنات والمبدعات فيجوز بعث من فى القبور وبعثة الرسول ويعلم وحدانية الله لانه لو كان أكثر من واحد لفسدتا [illegible] موجودان فيحصل له الايمان بتمامه • من خلق ما خلقه على أحسن نظامه • ثم ان الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله ﷺ بقوله تعالى (اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) يعنى ان كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحى اليك لتعلم أن نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى اقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال اتل وما قال عليهم لان التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم الا تسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ان الرسول اذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة فى قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبى المرسل ليس كذلك فان الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام • مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام • وقسم يكون فيه قانون كلى تحتاج اليه الرعية فى جميع الاوقات كما اذا كتب الملك كتابا فيه انا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا اليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فليكن ذلك كمنوال ينسج عليه وال بعد وال • فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال • وكثيرا ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ويكون نصب الاعين فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلى فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ الى حد التواتر وينقله قرن الى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت فى الصدور على مرور الدهور (الوجه الثانى) هو ان الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تتكرر قراءته الا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى الا لغيره ثم اذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها الا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئم ومل وكتاب لا يكرر عليه الا للنفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتكرر أيضا للنفس المتكلم فان كثيرا ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب وألذ وأثبت فى القلب وأنفذ حتى يكاد يبكى من رقته دما ولو أورثه البكاء عمى

كان له من فئة) جماعة مشفقة (ينصرونه من دون الله) بدفع العذاب عنه (وما كان من المنتصرين) أي الممتنعين منه بوجه من الوجوه
يقال نصره من عدوه فانتصر أي منعه فامتنع ٦٧٦ (وأصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (بالامس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأن
الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي يفعل كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يقتضي القبض وويكأن عند البصريين مركب من وي للتعجب وكأن للتشبيه والمعنى ما أشبه الامر أن الله يبسط الخ وعند الكوفيين من ويك بمعنى ويلك وأن وتقديره ويك اعلم أن الله وانما يستعمل عند التنبه على الخطا والتندم والمعنى انهم قد تنبهوا على خطائهم في تمنيهم وتندموا على ذلك (لولا أن من الله علينا) بعدم اعطائه ايانا ما تمنيناه واعطائنا مثل ما أعطاه اياه وقرئ لولا منّ الله علينا (لخسف بنا) كما خسف به وقرئ لخسف بنا على البناء للمفعول وبنا هو القائم مقام الفاعل وقرئ لانخسف بنا كقولك انقطع به وقرئ لتخسف بنا (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله وبما وعدوا من ثواب الآخرة (تلك الدار الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها (نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض) أي غلبة وتسلطا (ولا فسادا) أي ظلما وعدوانا على العباد كدأب فرعون وقارون وفي تعليق الموعد بترك ارادتهما لا بترك أنفسهما مزيد تحذير منهما وعن علي رضي الله عنه ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها (والعاقبة) الحميدة (للمتقين) أي الذين يتقون ما لا يرضاه الله تعالى من الافعال والاقوال (من جاء بالحسنة فله) بمقابلتها (خير منها) ذاتا ووصفا وقدرا (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) وضع فيه الموصول والظاهر الله
موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير اسناد السيئة اليهم (الا ما كانوا يعملون) أي الا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه

اذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة (المسئلة الثانية) لم خصص بالامر هذين الشيئين تلاوة الكتاب واقامة الصلاة فنقول لوجهين (أحدهما) ان الله أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله الى الخلق فاذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ألا ترى ان الرسول اذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله فاذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك الي وأقم الصلاة لوجهي (الوجه الثاني) هو ان العبادات المختصة بالعبد ثلاثة قلبية وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيأ لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمرا والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان فلم يؤمر به لعدم امكان تكراره لكن الذكر يمكن التكرار والعبادة البدنية كذلك فأمره بهما فقال اتل الكتاب وأقم الصلاة (المسئلة الثالثة) كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لان ارادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله اتل ما أوحى اليك بعيد من الفهم وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما ما دام العبد في الصلاة لانه لا يمكنه الاشتغال بشيء منهما فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا والا لا يكون مدحا كاملا للصلاة لان غيرها من الاشغال كثيرا ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره فنقول المراد ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقا وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد بها الا بعدا ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى عن الامرين مطلقا وهي التي أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعا وتجب عليه الاعادة وهذا ظاهر فان من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لا يصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره اذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الاول) هو ان من كان يخدم ملكا عظيم الشأن كثير الاحسان ويكون عنده بمنزلة ويرى عبدا من عباده قد طرده طردا لا يتصور قبوله • وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله يستحيل من ذلك المقرب عرفا ان يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد اذا صلى لله صار عبدا له وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثاني) هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف اذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الاشياء عرفا فكذلك العبد اذا صلى لبس لباس التقوى لانه واقف بين يدي

ما كانوا يعملون مبالغة في المماثلة (ان الذي فرض عليك القرآن) أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به (لرادك الى معاد)
أي معاد تمتد اليه أعناق الهمم وترنو اليه أحداق الامم وهو المقام ٦٧٧ المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه وقيل هو مكة
المعظمة على أنه تعالى قد وعده وهو بمكة في أذية وشدة من أهلها أنه يهاجر به منها ثم يعيده اليها بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق الى مولده ومولد آبائه وحرم ابراهيم عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فقال له أتشتاق الى مكة قال نعم فأوحاها اليه (قل ربي أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه أعلم أي يعلم وقيل بأعلم على أنه بمعنى عالم (ومن هو في ضلال مبين) وما استحقه من العذاب والاذلال يعني بذلك نفسه والمشركين وهو تقرير للوعد السابق وكذا قوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب) أي سيردك الى معادك كما ألقى اليك الكتاب وما كنت ترجوه (الا رحمة من ربك) ولكن ألقى اليك رحمة منه ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قيل وما ألقي اليك الكتاب الا رحمة أي لاجل الترحم (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) بمداراتهم والتحمل عنهم والاجابة الى طلبتهم (ولا يصدنك) أي الكافرون (عن آيات الله) أي عن قراءتها والعمل بها (بعد اذ أنزلت اليك) وفرضت عليك وقرئ يصدنك من أصد المنقول من صد اللازم (وادع) الناس (الى ربك) الى عبادته وتوحيده
(ولا تكونن من المشركين) بمساعدتهم في الامور (ولا تدع مع الله الها آخر) هذا وما قبله للتهييج والالهاب وقطع أطماع المشركين
عن مساعدته عليه الصلاة والسلام لهم واظهار أن المنهي عنه في القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا

الله واضع يمينه على شماله على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيبة ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته الى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب الى الجسم فاذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر ثم ان الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فاذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصبا له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب الا في ذلك الموضع فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك فكذلك العبد اذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين اذ صار من أصحاب اليمين فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه اشارة الى عصمة الله يعني من صلى عصمه الله من الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الاخبار وهو ان من يكون بعيدا عن الملك كالسوقي والمنادي والمتعيش لا يبالي بما فعل من الافعال يأكل في دكان الهراس والرواس ويجلس مع أوباش الناس فاذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما اذا صار واحدا من الجندارية والقواد والرواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطي ما كان يفعله فاذا ازدادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميرا حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الاكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان كذلك العبد اذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى واسجد واقترب فاذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصي والمناهي فبتكرر الصلاة والسجود تزداد مكانته حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر وفي الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو ان المراد من قوله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو انها تنهى عن التعطيل والاشراك والتعطيل هو انكار وجود الله والاشراك اثبات ألوهية لغير الله فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لان الفاحش هو القبيح الظاهر القبح لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شيء الا وفيه آية على الله ظاهرة وانكار الظاهر ظاهر الانكار فالقول بأن لا اله قبيح والاشراك منكر وذلك لان الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفسا الى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول فالمشرك الذي يقول الملائكة بنات الله ونسب الى من لم يلد ولا يجوز أن يكون له ولد ولدا كيف لا يكون قوله منكرا فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء وهذا المنكر وذلك لان العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول الله أكبر فبقوله الله ينفي التعطيل وبقوله أكبر ينفي التشريك لان الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك فاذا قال بسم الله نفى التعطيل واذا قال الرحمن الرحيم نفى الاشراك لان الرحمن من يعطي الوجود بالخلق بالرحمة والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة فاذا قال الحمد لله رب العالمين اثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله رب العالمين خلاف

(لا اله الا هو) وحده (كل شئ هالك الا وجهه) الا ذاته فان ما عداه كائنا ما كان ممكن فى حد ذاته عرضة للهلاك والعدم (له الحكم) أى القضاء النافذ فى الخلق (واليه ترجعون) ٦٧٨ عند البعث للجزاء بالحق والعدل • عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والارض الا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا

•(سورة العنكبوت مكية وهى تسع وستون آية)•

•(بسم الله الرحمن الرحيم)•

(الم) الكلام فيه كالذى مر مرارا فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا أن ما بعده لا يحتمل أن يتعلق به تعلقا اعرابيا (أحسب الناس) الحسبان ونظائره لا يتعلق بمعانى المفردات بل بمضامين الجمل المفيدة لثبوت شئ لشئ أو انتفاء شئ من شئ بحيث يتحصل منها مفعولاه اما بالفعل كما فى عامة المواقع واما بتنوع تصرف فيها كما فى الجمل المصدرة بأن والواقعة صلة للموصول الاسمى أو الحرفى فان كلا منها صالحة لان يسبك منها مفعولاه لان قوله تعالى احسب الناس (أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) فى قوة أن يقال أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة بمجرد أن يقولوا آمنا أو أن يقال أحسبوا تركهم غير مفتونين بقولهم آمنا حاصلا متحققا والمعنى انكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض ما تشتهيه النفس ووظائف الطاعات وفنون المصائب فى الانفس والاموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب مراتب أعمالهم فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار روى أنها نزلت فى ناس من الصحابة

الاشراك فاذا قال اياك نعبد بتقديم اياك نفى التعطيل والاشراك وكذا بقوله واياك
نستعين فاذا قال اهدنا الصراط نفى التعطيل لان طالب الصراط له مقصد والمعطل
لا مقصد له وبقوله المستقيم نفى الاشراك لان المستقيم هو الاقرب والمشرك يعبد الاصنام
ـق يعبد صورة صورها اله العالمين ويظنون انهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة
أقرب وعلى هذا الى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا اله الا الله فينفى الاشراك والتعطيل
(وههنا لطيفة) وهى ان الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله فى قوله أشهد أن لا اله
الا الله ليعلم المصلى انه من أول الصلاة الى آخرها مع الله فان قال قائل فقد بقى من الصلاة
قوله وأشهد أن محمدا رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم فنقول هذه الاشياء فى
آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة وذلك لان الصلاة ذكر الله لا غير لكن العبد
اذا وصل بالصلاة الى الله وحصل مع الله لا يقع فى قلبه انه استقل واستبد واستغنى عن
الرسول كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت الى النواب والحجاب فقال أنت فى
هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد صلى الله عليه وسلم وغير مستغن عنه فقل مع ذكرى محمد
رسول الله ثم اذا علمت ان هذا كله ببركة هدايته فاذكر احسانه بالصلاة عليه ثم اذا رجعت
من معراجك وانتهيت الى اخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامى كما هو ترتيب المسافرين
واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فان أولها وقوف بين يدى الله كوقوف المملوك بين
يدى السلطان ثم ان آخرها جثو بين يدى الله كما يجثو بين يدى السلطان من أكرمه
بالاجلاس كأن العبد لما وقف واثنى على الله أكرمه الله وأجلسه فجثا وفى هذا الجثو
لطيفة وهى ان من جثا فى الدنيا بين يدى ربه هذا الجثو لا يكون له جثو فى الآخرة
ولا يكون من الذين قال الله فى حقهم ونذر الظالمين فيها جثيا ۞ ثم قال تعالى (ولذكر الله
أكبر والله يعلم ما تصنعون) لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب واقامة الصلاة بين ما يوجب
أن يكون الاتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم فقال ولذكر الله أكبر وأنتم اذا ذكرتم آباءكم
بما فيهم من الصفات الحسنة تنبشوا لذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم لكن ذكر الله
أكبر فينبغى أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم وأما الصلاة فكذلك لان الله يعلم ما تصنعون
وهذا أحسن صنعكم فينبغى أن يكون على وجه التعظيم وفى قوله ولذكر الله أكبر مع
حذف بيان ما هو أكبر منه لطيفة وهى ان الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لان ما نسب الى
غيره بالكبر فله اليه نسبة اذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وانما يقال هذا الجبل أكبر من
ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله له الكبر لا لغيره وهذا كما يقال فى الصلاة
الله أكبر أى له الكبر لا لغيره ۞ ثم قال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن
الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن
له مسلمون وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من
يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون) لما بين الله طريقة ارشاد المشركين ونفع من انتفع
وحصل

رضوان الله تعالى عليهم أجمعين جزعوا من أذية المشركين وقيل فى عمار قد عذب فى الله وقيل فى مهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما رماه عامر بن الحضرمى بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه ٦٧٩ أبواه وامرأته وهو أول من استشهد يومئذ من المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى الى باب الجنة من هذه الامة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) متصل بقوله تعالى أحسب أو بقوله تعالى لا يفتنون والمعنى ان ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية فيما بين الامم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافها والمعنى أن الامم الماضية قد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا الآيات وعن النبى عليه الصلاة والسلام قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه (فليعلمن الله الذين صدقوا) أى فى قولهم آمنا (وليعلمن الكاذبين) فى ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما ينفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات الى الاسم الجليل لادخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أى فوالله ليتعلقن علمه بالامتحان تعلقا حاليا يتميز به الذين صدقوا فى الايمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ويترتب عليه

وحصل الناس ممن امتنع بين طريقة ارشاد أهل الكتاب فقال ولا تجادلوا أهل الكتاب
الا بالتى هى أحسن قال بعض المفسرين المراد منه لا تجادلوهم بالسيف وان لم يؤمنوا
الا اذا ظلموا وحاربوا أى اذا ظلموا ازدادوا على كفرهم وفيه معنى ألطف منه وهو ان المشرك
جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالاخشن ويبالغ فى تهجين مذهبه وتوهين
شبهه ولهذا قال تعالى فى حقهم صم بكم عمى وقال لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان
لا يسمعون بها الى غير ذلك وأما أهل الكتاب فجاؤا بكل حسن الا الاعتراف بالنبى عليه
السلام فوحدوا وآمنوا بانزال الكتب وارسال الرسل والحشر فلمقابلة احسانهم
يجادلون أولا بالاحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب الى الضلال آباؤهم بخلاف المشرك
ثم على هذا فقوله الا الذين ظلموا تبين له حسن آخر وهو أن يكون المراد الا الذين أشركوا
منهم باثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة فانهم ضاهوهم فى القول المنكر فهم الظالمون لان
الشرك ظلم عظيم فيجادلون بالاخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ثم انه تعالى بين
ذلك الاحسن فقدم محاسنهم بقوله وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا
والهكم واحد ونحن له مسلمون فيلزمنا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتى فى كتبكم فهو دليل
مضى • ثم بعد ذلك ذكر دليلا قياسيا فقال وكذلك أنزلنا اليك الكتاب يعنى كما أنزلنا على من
تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس ثم قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به لوجود النص
ومن هؤلاء كذلك واختلف المفسرون فقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن
بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله ومن هؤلاء أى من أهل مكة وقال
بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا من
أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين هم فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وهذا
أقرب فان قوله هؤلاء صرفه الى أهل الكتاب أولى لان الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين
ههنا اذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والاعراض عنهم لاصرارهم على الكفر
وههنا وجه آخر أولى وأقرب الى العقل والنقل وأقرب الى الاحسن من الجدال المأمور
به وهو ان نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الانبياء وبقوله ومن هؤلاء أى من أهل
الكتاب وهو أقرب لان الذين آتاهم الكتاب فى الحقيقة هم الانبياء فان الله ما آتى الكتاب
الا للانبياء كما قال تعالى أولئك الذين آتيناهم الكتاب وقال وآتينا داود زبورا وقال
وآتانى الكتاب واذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص لان كل الانبياء آمنوا بكل
الانبياء واذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله بن سلام
واثنين أو ثلاثة معه أو عددا قليلا ويكون المراد بقوله ومن هؤلاء غير المذكورين وعلى
ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركون وتكلم فيهم
وفرغ منهم والثانى أهل الكتاب وهو بعد فى بيان أمرهم والوقت وقت جريان ذكرهم
فاذا قال هؤلاء يكون منصرفا الى أهل الكتاب الذين هو فى وصفهم واذا قال أولئك يكون

منصرفا الى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه وذلك لان الخلاف فى الانبياء والائمة قريب من الخلاف فى فضيلة الرؤساء والملوك فاذا اختلف حزبان فى فضيلة ملكين أو رئيسين وأدى الاختلاف الى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبى صلى الله عليه وسلم نحن آمنا بالانبياء وهم آمنوا بى فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم امنوا ثم قال تعالى وما يجحد بآياتنا الا الكافرون تنفيرا لهم عما هم عليه يعنى انكم امنتم بكل شئ وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة الا هذه المسئلة الواحدة وبانكارها تلحقون بهم وتبطلون مزاياكم فان الجاحد بآية يكون كافرا ۞ ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب وذلك لان المجادل اذا ذكر مسئلة مختلفا فيها كقول القائل الزكاة تجب فى مال الصغير فاذا قيل له لم فيقول كما تجب النفقة فى ماله ولا يذكر أولا الجامع بينهما فان قنع الطالب بمجرد التشبيه ويدرك من نفسه الجامع فذاك وان لم يدرك أو لم يقنع يبدى الجامع فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله وكذلك أنزلنا اليك ثم ذكر الجامع وهو المعجزة فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة الا بالمعجزة وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة فيعرف كونه منزلا ۞ وقوله تعالى (اذا لارتاب المبطلون) فيه معنى لطيف وهو ان النبى اذا كان قارئا كاتبا ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه فان جميع كتبة الارض وقرائها لا يقدرون عليه لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل فى الابطال وهذا كقوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله أى من مثل محمد عليه السلام وكقوله الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ۞ ثم قال تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) قوله فى صدور الذين أوتوا العلم اشارة الى انه ليس من مخترعات الآدميين لان من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبى وخاطرى واذا حفظه من غيره يقول انه فى قلبى وصدرى فاذا قال فى صدور الذين أوتوا العلم لا يكون من صدر أحد منهم والجاهل يستحيل منه ذلك فلا ظهور له من الصدور ويلتحقون عند هذه الامة بالمشركين فظهوره من الله ۞ ثم قال تعالى (وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) قال ههنا الظالمون ومن قبل قال الكافرون مع ان الكافر ظالم ولا تنافى بين الكلامين وفيه فائدة وهى انهم قبل بيان المعجزة قيل لهم ان لكم المزايا فلا تبطلوها بانكار محمد فتكونوا كافرين فلفظ الكافر هناك كان بليغا يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ثم بعد بيان المعجزة قال لهم ان جحدتم هذه الآية لزمكم انكار ارسال الرسل فتلتحقون فى أول الامر بالمشركين حكما وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين أى مشركين كما بينا ان الشرك ظلم عظيم فهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك اللفظ هناك أبلغ ۞ ثم قال تعالى

اجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليميزن اوليجازين وقرئ وليعلمن من الاعلام أى وليعرفنهم الناس أو ليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) أى يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم وهو سادّ مسدّ مفعولى حسب لاشتماله على مسند ومسند اليه وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بانكار حسبانهم متروكين غير مفتونين الى التوبيخ بانكار ما هو أبطل من الحسبان الاول وهو حسبانهم أن لا يجازوا بسيئاتهم وهم وان لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا نفوسهم بذلك لكنهم حيث أصروا على المعاصى ولم يتفكروا فى العاقبة نزلوا منزلة من يطمع فى ذلك كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده (ساء ما يحكمون) أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك أو بئس حكما يحكمونه حكمهم ذلك (من كان يرجو لقاء الله) أى يتوقع ملاقاة جزائه ثوابا أو عقابا أو ملاقاة حكمه يوم القيامة وقيل

(وقالوا)

يرجو لقاء الله عز وجل فى الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول الى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتى ويذر فاما أن يلقاه ببشر وكرامة لما رضى من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه ٦٨١ (فان أجل الله) الاجل عبارة عن غاية

(وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين) لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبى عليه السلام ذكر شبهتهم وهى بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس فقالوا انك تقول انه أنزل اليك كتاب كما أنزل الى موسى وعيسى وليس كذلك لان موسى أوتى تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيأ منها ثم ان الله تعالى أرشد نبيه الى أجوبة هذه الشبهة منها قوله انما الآيات عند الله ووجهه ان النبى صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة لان الرسول يرسل أولا ويدعو الى الله ثم ان توقف الخلق فى قبوله أو طلبوا منه دليلا فالله ان رحمهم بين رسالته وان لم يرحمهم لا يبين فقال انا الساعة رسول وأما الآية فالله ان أراد ينزلها وان لم يرد لا ينزلها وهذا لان ما هو من ضرورات الشئ اذا خلق الله الشئ لا بد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الانسان فلا يخلق الله انسانا الا ويكون قد خلق مكانا أو يخلقه معه لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله اذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته ان تعلم له معجزة ولهذا علم وجود رسل كشيث وادريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فان قيل علم رسالتهم نقول من ثبتت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له الى معجزة لان رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم لم ينزل عليه آية وهذا لانهم طلبوا سبق الآية وليست شرطا حتى تسبقها بلى ان كان لهم سؤال فطريقه ان يقولوا بها المدعى نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبى وتكذيب النبى ونعلم بها كونك نبيا ونؤمن بك فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله ان ينزل آية ثم قوله وانما أنا نذير مبين معناه ان الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها الا تتعلق بى ما أنا الا نذير وليس لى عليه حكم بشئ ثم انه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر وقال هب ان انزال الآية شرط لكنه وجد وهو فى نفس الكتاب ۞ فقال تعالى (أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعنى ان كان انزال الآية شرطا فلا يشترط الا انزال آية وقد أنزل وهو القرآن فانه معجزة ظاهرة باقية وقوله أولم يكفهم عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية وذلك لان القائل اذا قال اما يكفى للمسئ أن لا يضرب حتى يتوقع الاكرام ينبئ عن ان ترك الضرب فى حقه كثير فكذلك قوله أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب وهذا لان القرآن معجز أتم من كل معجزة تقدمت لوجوه (أحدها) ان تلك المعجزات وجدت وما دامت فان قلب العصا ثعبانا واحياء الميت لم يبق لنا منه أثر فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الاشياء لا يمكن اثباتها معه بدون الكتاب واما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثانى) هو ان قلب العصا ثعبانا كان فى مكان واحد ولم يره من لم يكن فى ذلك المكان واما القرآن فقد وصل الى المشرق والمغرب وسمعه كل احد وههنا لطيفة وهى ان آيات النبى عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لان من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الارض لان

زمان ممتد عينت لامر من الامور وقد يطلق على كل ذلك الزمان والاول هو الاشهر فى الاستعمال أى فان الوقت الذى عينه تعالى لذلك (لآت) لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لان اجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائما فلا بد من اتيان ذلك الجزء أيضا البتة واتيان وقته موجب لاتيان اللقاء حتما والجواب محذوف أى فليختر من الاعمال ما يؤدى الى حسن الثواب وليحذر ما يسوقه الى سوء العذاب كما فى قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى وقيل فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو ما يوجب القربة والزلفى (وهو السميع) لاقوال العباد (العليم) بأحوالهم من الاعمال الظاهرة والعقائد (ومن جاهد) فى طاعة الله عز وجل (فانما يجاهد لنفسه) لعود منفعتها اليها (ان الله لغنى عن العالمين) فلا حاجة له الى طاعتهم وانما أمرهم بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) الكفر بالايمان والمعاصى بما يتبعها من الطاعات (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن

٨٦ را س بجزاء أعمالهم لا بجزاء أحسن أعمالهم فقط (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أى بايتاء والديه وايلائهما فعلا ذا حسن أو ما هو فى حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى وقولوا للناس حسنا ووصى يجرى مجرى أمر معنى وتصرفا غير

أنه يستعمل فيما كان في المأمور به نفع عائد الى المأمور أو غيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقلنا احسن بوالديك حسنا وقيل
انتصاب حسنا بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أى وقلنا أولهما أو افعل بهما حسنا وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف
على بوالديه وقرئ حسنا واحسانا ٦٨٢ (وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم) أى بالالهية عبر عن نفيها بنفي العلم بها

الخسوف اذا وقع عم وذلك لان نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة فى قطر وسقط ايوان كسرى فى قطر وانهدت الكنيسة بالروم فى قطر آخر اعلاما بانه يكون أمر عام (الثالث) هو ان غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول انه سحر عمل بدواء والقرآن لا يمكن هذا القول فيه ثم انه تعالى قال (ان فى ذلك لرحمة) اشارة الى انا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق وهذا لانا بينا أن اظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق فى ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب لان النبي لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقوله (وذكرى) اشارة الى انه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعنى هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لان المعجزة كانت غضبا على الكافرين لانها قطعت أعذارهم وعلمت انكارهم ثم قال تعالى (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا) لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق اذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينكم كل ذلك انذار وتهديد بقيده تقريراوتأكيداثم بين كونه كافيا بكونه عالما بجميع الاشياء فقال (يعلم ما فى السموات والارض) وههنا مسئلة وهى ان الله تعالى قال فى آخر الرعد ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب فأخر شهادة أهل الكتاب وفى هذه السورة قدمها حيث قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به أى من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم ان شهادة الله أقوى فى الزام من شهادة غير الله وههنا الكلام مع أهل الكتاب وشهادة المرء على نفسه هو اقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو الزم عليهم ثم انه تعالى لما بين الطريقين فى ارشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد الى الكلام الشامل لهما والانذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون) أى الذين آمنوا بما سوى الله لان ما سوى الله باطل لانه هالك بقوله كل شئ هالك الا وجهه وكل ما هالك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل فمن امن بما سوى الله فقد آمن بالباطل وفيه مسائل (الاولى) قوله أولئك هم الخاسرون يقتضى الحصر أى من أتى بالايمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسرا فنقول يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما الا يكون آتيا بالآخر اما الآتي بالايمان بما سوى الله فلانه أشرك بالله فجعل غير الله مثله فجعل الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون انكار الله وكفرا به واما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بان العالم ليس له اله موجد فوجود العالم من نفسه فيكون قائلا بأن العالم واجب والواجب اله

للايذان بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وان لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه (فلا تطعهما) فى ذلك فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا بد من اضمار القول ان لم يضمر فيما قبل وفى تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدتهما فى التكليف اشعار بان موجب النهي فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الاولوية (الى مرجعكم) أى مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عق (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن أجازى كلا منكم بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر والآية نزلت فى سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه عند اسلامه حيث حلفت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية أن لا تنتقل من الضح الى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا التى فى سورة لقمان وسورة الاحقاف وقيل نزلت فى عياش ابن أبي ربيعة المخزومى وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل والحرث أخواه لامه اسماء فنزلا بعياش وقالا له ان من دين محمد صلى الله عليه وسلم صلة الارحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تاوى بيتا حتى تراك فاخرج
معنا وفتلا منه فى الذروة والغارب واستشار عمر رضى الله عنه فقال هما يخدعانك ولك على أن اقسم مالى   فيكون
بيني وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضى الله عنه فقال له عمر رضى الله عنه أما اذا عصيتني فخذ ناقتي فليس فى الدنيا

بعير يلحقها فان رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا الى البيداء قال أبو جهل ان ناقتي قد كلت فاحملني معك فنزل ليوطئ لنفسه
وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به الى أمه فقالت لا تزال فى عذاب حتى ترجع عن دين محمد (والذين
آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى فى زمرة الراسخين ٦٨٣ فى الصلاح والكمال فى الصلاح منتهى

فيكون قائلا بأن غير الله اله فيكون اثباتا لغير الله وايمانا به (المسئلة الثانية) اذا كان الايمان بما سوى الله كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو فى قول القائل قم ولا تقعد واقرب منى ولا تبعد نقول نعم فيه فائدة غيرها وهو أنه ذكر الثانى لبيان قبح الاول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول بالباطل قبيح (المسئلة الثالثة) هل يتناول هذا أهل الكتاب أى هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله نقول نعم لانهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا انها من عند غير الله يكون كمن رأى شخصا يرمى حجارة فقال ان رامى الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد فكذلك هم لما قطعوا بان مظهر المعجزة هو الله وقالوا بان محمدا مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون ايمانا بالباطل واذا قالوا بان من أظهر المعجزة ليس باله مع انهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونوا قائلين بان ذلك المخصوص الذى هو الله ليس باله فيكون كفرا به وهذا لا يرد علينا فيمن يقول فعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد فانه أيضا ينسب فعل الله الى الغير كان المعجزة فعل الله وهم نسبوها الى غيره لان هذا القائل جهل النسبة كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين راميها فيظن أن راميها زيد فيقول زيد هو رامى هذه الحجارة ثم اذا رأى راميها بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بان يقول هو زيد واما اذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامى الحجارة زيد يقطع بانه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من حيث انهم كانوا معاندين عالمين بان الله مظهر تلك المعجزة ويقولون بانها من عند غير الله ثم قوله هم الخاسرون كذلك بأتم وجوه الخسران وهذا لان من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون فهم لما عبدوا غير الله افنوا العمر ولم يحصل لهم فى مقابلته شئ ما أصلا من المنافع واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها ثم قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الانذار لان من خسر لا يحصل له فى مقابلة قدر الخسران شئ من المنافع والا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه مثاله اذا خسر واحد من العشرة درهما لا ينبغى أن يكون حصل له فى مقابلة الدرهم ما يساوى نصف درهم والا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم فاذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب والا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم فقوله وأولئك هم الخاسرون تهديد عظيم فقالوا ان كان علينا عذاب فأتنا به اظهارا لقطعهم بعدم العذاب ثم انه أجاب بان العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم لانه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغيرا منقلبا ولكونه رحيما لا يكون غضوبا منزعجا ولولا ذلك الاجل المسمى الذى اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة

درجات المؤمنين وغاية مأمول أنبياء الله المرسلين قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وأدخلني برحمتك فى عبادك الصالحين وقال فى حق ابراهيم عليه السلام وانه فى الآخرة لمن الصالحين أوفى مدخل الصالحين وهو الجنة (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله) أى فى شأنه تعالى بأن عذبهم الكفرة على الايمان (جعل فتنة الناس) أى ما يصيبه من أذيتهم (كعذاب الله) فى الشدة والهول فيرتد عن الدين مع أنه لا قدر لها عند نفحة من عذابه تعالى أصلا (ولئن جاء نصر من ربك) أى فتح وغنيمة (ليقولن) بضم اللام نظرا الى معنى من كما أن الافراد فيما سبق بالنظر الى لفظها وقرئ بالفتح (انا كنا معكم) أى مشايعين لكم فى الدين فاشركونا فى المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا اذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى (أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) أى بأعلم منهم بما فى صدورهم من الاخلاص والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والاخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الاوفق لما سبق
ولما لحق من قوله تعالى (وليعلمن الله الذين آمنوا) اى بالاخلاص (وليعلمن المنافقين) سواء كان كفرهم باذية الكفرة أولا أى
ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان

حملهم لهـم عليه بالاذية والوعيد ووصفهم بالكفر ههنا دون ماسبق لما أن مساق الكلام لبيان جناياتهم وفيماسبق لبيان
جناية من أضلوه واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهـم (اتبعوا سبيلنا) أى اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين عبر عن
ذلك بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر ٦٨٤ تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا (ولنحمل
خطاياكم) أى ان كان ذلك
خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث كما
تقولون وانما أمروا أنفسهم
بالحمل عاطفين له على أمرهم
بالاتباع للمبالغة و تعليق الحمل
بالاتباع والوعد بتخفيف الاوزار
عنهم ان كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله
تعالى (وماهم بحاملين من خطاياهم
من شئ) وقرئ من خطيئتهم أى
وماهم بحاملين شيأ من خطاياهم
التى التزموا أن يحملوا كلها على أن
من الاولى للتبيين والثانية مزيدة
للاستغراق والجملة اعتراض أو
حال (انهم لكاذبون) حيث
أخبروا فى ضمن وعدهم بالحمل بانهم
قادرون على انجاز ما وعدوا فان
الكذب كما يتطرق الى الكلام
باعتبار منطوقه يتطرق اليه
باعتبار ما يلزم مدلوله كما مر فى قوله
تعالى أنبؤنى بأسماء هؤلاء ان
كنتم صادقين (وليحملن أثقالهم)
بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى
الآخرة من المضرة لانفسهم بعد
بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا
والتعبير عن الخطايا بالاثقال
للايذان بغاية ثقلها وكونها فادحة
واللام جواب قسم مضمر أى
وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة
(وأثقالا) أخر (مع أثقالهم) لما
تسببوا بالاضلال والحمل على
الكفر والمعاصى من غير أن
ينتقص من أثقال من أضلوه شئ

وحكمة فيكون غضو بامنقلبا فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك
فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعيذون به منه كما قال
تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ۞ ثم قال تعالى (وليأتينهم بغتة)
اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة لان العذاب أقرب المذكورين
ولان سؤالهم كان العذاب فقال انه ليأتينهم وقال بعضهم ليأتينهم بغتة اى الاجل لان
الآتى بغتة هو الاجل وأما العذاب بعد الاجل يكون معاينة وقد ذكرنا ان فى كون العذاب
أو الاجل آتيا بغتة حكمة وهى انه لو كان وقته معلوما لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه
بوقته فيفسق ويفجر معتمدا على التوبة قبل الموت ۞ وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يحتمل
وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل اتيته على غفلة منه بحيث
لم يدر فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثانى) هو كلام يفيد فائدة مستقلة وهى ان
العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هـذا الامر ويظنون ان العذاب لا يأتيهم أصلا ۞ ثم
قال تعالى (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) ذكر هذا للتعجب وهذا لان
من توعد بامر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات
واما من توعد باغراق أو احراق ويقطع بان المتوعد قادر لا يخلف الميعاد لا يخطر ببال
العاقل ان يقول له هات ماتتوعدنى به فقال ههنا يستعجلونك بالعذاب والعذاب بنار
جهنم المحيطة بهم فقوله ويستعجلونك أولا اخبار عنهم وثانيا تعجب منهم ۞ ثم ذكر كيفية
احاطة جهنم فقال تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وفيه
مسئلتان (الاولى) لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام فنقول لان
المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربع فان من
دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد
من أسفل فى العادة العاجلة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التى تحت
القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم (المسئلة الثانية) قال
من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل
ذكر المضاف اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق فنقول لان نزول النار من فوق
سواء كان من سمت الرؤس وسواء كان من موضع آخر عجيب فلهذا لم يخصه بالرأس وأما
بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب والا فمن جوانب القدم فى الدنيا يكون شعل وهى
تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الارجل حيث لم ينطفئ بالدوس وما فوق على الاطلاق
۞ ثم قال تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب
أرواحهم وهو ان يقال لهم على سبيل التنكيل والاهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون وجعل
ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب فان عملهم كان
سببا لجعل الله اياه سببا لعذابهم وهذا كثير النظير فى الاستعمال ۞ ثم قال تعالى (ياعبادى

ما أصلا (وليسئلن يوم القيامة) سؤال تقريع وتبكيت (عما كانوا يفترون) أى يختلقونه فى الدنيا من الذين
الاكاذيب والاباطيل التى من جملتها كذبهم هـذا (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) نوح

فى بيان افتتان الانبياء عليهم الصلاة والسلام باذية أممهم اثر بيان افتتان المؤمنين باذية الكفار تأكيدا للانكار على الذين
يحسبون أن يتركوا بمجرد الايمان بلا ابتلاء وحثا لهم على الصبر فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة
أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلأن يصبر هؤلاء أولى وأحرى ٦٨٥ قالوا كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين
عاما بعث على رأس أربعين سنة
ودعا قومه تسعمائة وخمسين سنة
وعاش بعد الطوفان ستين سنة
وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة
سنة ولعل ما عليه النظم الكريم
للدلالة على كمال العدد فان
تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما
يقرب منه ولما فى ذكر الالف من
تخييل طول المدة فان المقصود من
القصة تسلية رسول الله صلى الله
عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه
من مكابدة ما يناله من الكفرة
واظهار ركاكة رأى الذين
يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء
واختلاف المميزين لما فى التكرير
من نوع بشاعة (فأخذهم
الطوفان) أى عقيب تمام المدة
المذكورة والطوفان يطلق على
كل ما يطوف بالشئ على كثرة
وشدة من السيل والريح والظلام
وقد غلب على طوفان الماء (وهم
ظالمون) أى والحال أنهم مستمرون
على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من
نوح عليه السلام من الآيات ولم
يرعووا عما هم عليه من الكفر
والمعاصى هـذه المدة المتمادية
(فأنجيناه) أى نوحا عليه السلام
(وأصحاب السفينة) أى ومن
ركب فيها معه من أولاده وأتباعه
وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين
وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم
ذكور ونصفهم أناث (وجعلناها)
أى السفينة أو الحادثة والقصة

الذين آمنوا) وجه التعلق هو ان الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل
الكتاب على حدة وجمعهما فى الانذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزادهم
وسعوا فى ايذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطبا للمؤمنين ياعبادى الذين
آمنوا (ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون) ان تعذرت العبادة عليكم فى بعضها فهاجروا
ولا تتركوا عبادتى بحال وبهذا علم أن الجلوس فى دار الحرب حرام والخروج منها واجب
حتى لو حلف بالطلاق انه لا يخرج لزمه الخروج ودع حتى يقع الطلاق ثم فى الآية مسائل
(احداها) ياعبادى لم يرد الا المخاطب مع المؤمنين مع أن الكافر داخل فى قوله ياعبادى
نقول ليس داخلا فى قوله ياعبادى نقول ليس داخلا فيه لوجوه (أحدها) أن من قال
فى حقه عبادى ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم
سلطان والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلا فى قوله ياعبادى (الثانى) هو ان
الخطاب بعبادى أشرف منازل المكلف وذلك لان الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسما اعظيما
وهو اسم الخلافة كما قال تعالى انى جاعل فى الارض خليفة والخليفة أعظم الناس
قدارا وأتم ذوى الباس اقتدارا ثم ان ابليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم بل أقدم
عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى فازلهما الشيطان ثم ان من أولاده الصالحين من
سمى بعبادى فانخنس منهم الشيطان وتضاءل كما قال تعالى ان عبادى ليس لك عليهم
سلطان وقال هو بلسانه لاغوينهم أجمعين الا عبادك فعلم أن المكلف اذا كان عبد الله
يكون أعلى درجة مما اذا كان خليفة لوجه الارض ولعل آدم كداود الذى قال الله
تعالى فى حقه انا جعلناك خليفة فى الارض لم يتخلص من يد الشيطان الا وقت ما قال
الله تعالى فى حقه عبدى وعند ما ناداه بقوله ربنا ظلمنا أنفسنا واجتباه بهذا النداء كما قال
فى حق داود واذكر عبدنا داود ذا الايد اذا علم هـذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح
لما هو أعظم من الخلافة فلا يدخل فى قوله ياعبادى الا المؤمن (الثالث) هو ان هـذا
الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله وذلك لان الله تعالى قال ادعونى أستجب لكم
فالمؤمن دعا ربه بقوله ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا
فاجابه الله تعالى بقوله ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
فالاضافة بين الله وبين العبد بقول العبد الهى وقول الله عبدى تأكدت بدعاء العبد
لكن الكافر لم يدع فلم يجب فلا يتناول ياعبادى غير المؤمنين (المسئلة الثانية) اذا كان
عبادى لا يتناول الا المؤمنين فما الفائدة فى قوله الذين آمنوا مع ان الوصف انما يذكر لتمييز
الموصوف كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون ويا أيها الرجال العقلاء تمييزا عن
الكافرين والجهال فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان ان فيه الوصف كما يقال
الانبياء المكرمون والملائكة المطهرون مع ان كل نبى مكرم وكل ملك مطهر وانما يقال
لبيان ان فيهم الاكرام والطهارة ومثل هـذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل فههنا ذكر

(آية للعالمين) يتعظون بها (وابراهيم) نصب بالعطف على نوحا وقيل باضمار اذكر وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين ابراهيم
(اذ قال لقومه) على الاول ظرف للارسال أى أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال الى

درجة التكميل حيث تصدى لارشاد الخلق الى طريق الحق وعلى الثانى بدل اشتمال من ابراهيم (اعبدوا الله) أى وحده (واتقوه) أن تشركوا به شيأ (ذلكم) أى ماذكر من العبادة والتقوى (خير لكم) أى مما أنتم عليه ومعنى التفضيل مع انه لاخيرية فيه قطعا باعتبار زعمهم الباطل ٦٨٦ (ان كنتم تعلمون) أى الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر أو ان كنتم تعلمون شيأ من الاشياء بوجه من الوجوه فان ذلك كاف فى الحكم بخيرية ماذكر من العبادة والتقوى (انما تعبدون من دون الله أوثانا) بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة الى الدين الحق أى انما تعبدون من دونه تعالى أوثانا هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك (وتخلقون افكا) أى وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله أو تعملونها وتنحتونها للافك وقرئ تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلقون بحذف احدى التاءين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرئ افكا على انه مصدر كالكذب واللعب أو نعت بمعنى خلقا ذا افك (ان الذين تعبدون من دون الله) بيان لشرية ما يعبدونه من حيث انه لا يكاد يجديهم نفعا (لا يملكون لكم رزقا) أى لا يقدرون على أن يرزقوكم شيأ من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فانه هو الرزاق ذو القوة المتين (واعبدوه) وحده (واشكروا له) على نعمائه متوسلين الى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعتيد ومستجلبين للمزيد (اليه ترجعون) أى بالموت ثم بالبعث لا الى غيره فافعلوا ما أمرتكم به وقرئ ترجعون من رجع رجوعا (وان تكذبوا) أى تكذبونى فيما أخبرتكم به من أن أنكم اليه ترجعون بالبعث (فقد كذب أمم من قبلكم) تعليل للجواب أى فلا تضرونى بتكذيبكم فان من قبلكم من الامم

لبيان انهم مؤمنون (المسئلة الثالثة) اذ قال ياعبادى فهم يكونون عابدين فما الفائدة فى الامر بالعبادة بقوله فاعبدون فنقول فيه فائدتان (احداهما) المداومة أى يامن عبدتمونى فى الماضى اعبدونى فى المستقبل (الثانية) الاخلاص أى يامن تعبدنى أخلص العمل لى ولا تعبد غيرى (المسئلة الرابعة) الفاء فى قوله فاياى تدل على انه جواب لشرط فما ذلك فنقول قوله ان أرضى واسعة اشارة الى عدم المانع من عبادته فكأنه قال اذا كان لا مانع من عبادتى فاعبدونى وأما الفاء فى قوله تعالى فاعبدون فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فاكرموه فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله فاياى وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون (المسئلة الخامسة) قال العبد مثل هذا فى قوله اياك نعبد وقال عقيبه واياك نستعين والله تعالى وافقه فى قوله فاياى فاعبدون ولم يذكر الاعانة نقول بل هى مذكورة فى قوله ياعبادى لان المذكور بعبادى لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبيل عنه كان فى غاية الاعانة (المسئلة السادسة) قدم الله الاعانة وأخر العبد الاستعانة قلنا لان العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض فان الغرض سابق على الفعل فى الادراك وذلك لان من يبنى بيتا للسكنى يدخل فى ذهنه أولا فائدة السكنى فيحمله على البناء لكن الغرض فى الوجود لا يكون الا بعد فعل الواسطة فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهى سابقة فى ادراكه وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود فان الاعانة قبل العبادة ۞ ثم قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان فقال لهم ان ما تكرهون لابد من وقوعه فان كل نفس ذائقة الموت والموت مفرق الاحباب فالاولى أن يكون ذلك فى سبيل الله فيجازيكم عليه فان الى الله مرجعكم وفيه وجه أرق وأدق وهو ان الله تعالى قال كل نفس اذا كانت غير متعلقة بغيرها فهى للموت ثم الى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى لا يذوقون فيها الموت اذا ثبت هذا فمن يريد ان لا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فان النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير ان كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله كل نفس ذائقة الموت وكل شئ هالك الا وجهه فاذا التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى فاياى فاعبدون أى تعلقوا بى ولا تتبعوا النفس فانها ذائقة الموت ثم الينا ترجعون أى اذا تعلقتم بى فرجوعكم رجوع الىّ وليس بموت كما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء وقال عليه السلام المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار الى دار فعلى هذا الوجه أيضا يتبين وجه التعلق ۞ ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم اجر العاملين) بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع اليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله وان جهنم لمحيطة بالكافرين فبين أن للمؤمنين الجنات فى مقابلة ما ان للكافرين النيران وبين أن فيها غرفا تجرى من تحتها الانهار فى مقابلة ما بين

قد كذبوا من قبلى من الرسل وهم شيث وادريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيأ وانما ضروا أنفسهم حيث تسببوا لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم (وما على الرسول الا البلاغ المبين) ٦٨٧ أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله والهمزة لانكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر أى ألم ينظروا ولم يعلموا علما جاريا مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك وقرئ بصيغة الخطاب لتشديد الانكار وتأكيده وقرئ يبدأ وقوله تعالى (ثم يعيده) عطف على أولم يروا لا على يبدئ لعدم وقوع الرؤية عليه فهو اخبار بانه تعالى يعيد الخلق قياسا على الابتداء وقد جوز العطف على يبدأ بتأويل الاعادة بانشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فان ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب (ان ذلك) أى ما ذكر من الاعادة (على الله يسير) اذ لا يفتقر فعله الى شئ أصلا (قل سيروا فى الارض) أمر لابراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك أى سيروا فيها (فانظروا كيف بدأ الخلق) أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة واخلاق شتى فان ترتيب النظر على السير فى الارض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الاولى

ان تحت الكافرين النار وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى نعم أجر العاملين فى مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله ذوقوا ما كنتم تعملون ثم فى الآيتين اختلافات فيها لطائف منها انه تعالى ذكر فى العذاب أن فوقهم عذابا أى نارا ولم يذكر ههنا فوقهم شيأ وانما ذكر ما فوق من غير اضافة وهو الغرف وذلك لان المذكور فى الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان لكن الكافر فى الدرك الاسفل من النار فيكون فوقه طبقات من النار فاما المؤمنون فيكونون فى أعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيأ اشارة الى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم وأما قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف لا ينافى لان الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهى فوقهم ومنها ان هناك ذكر من تحت أرجلهم النار وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء وذلك لان النار لا تؤلم اذا كانت تحت مطلقا ما لم تكن فى مسامتة الاقدام ومتصلة بها اما اذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وان كانت تحتها أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل فى وهدة لا تؤلم واما الماء اذا كان تحت الغرفة فى أى وجه كان وعلى أى بعد كان يكون ملتذا به فقال فى النار من تحت أرجلهم ليحصل الالم بها وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان ومنها ان هناك قال ذوقوا الايلام قلوبهم بلفظ الامر وقال ههنا نعم أجر العاملين لتفريح قلوبهم لا بصيغة الامر وذلك لان لفظ الامر يدل على انقطاع التعلق بعده فان من قال لاجيره خذ أجرتك يفهم منه ان بذلك ينقطع تعلقه عنه واما اذا قال ما تم أجرتك عندى أو نعم مالك من الاجر يفهم منه ان ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك ذوقوا ما كنتم تعملون فان قال قائل ذوقوا اذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع قلنا ليس كذلك لان الله اذا قال ذوقوا دل على انه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائما ولا ينقص ولا يزداد وأما المؤمن اذا أعطاه شيأ فلا يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم فى النعم واليه الاشارة بقوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أى الذى يصل الى الكافر يدوم من غير زيادة والذى يصل الى المؤمن يزداد على الدوام وأما الخلود وان لم يذكره فى حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص ۞ ثم قال تعالى (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ذكر امرين الصبر والتوكل لان الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضى لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشئ بقى الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل فيصبر على ما يصيبه من الاذى فى الحال ويتوكل فيما يحتاج اليه فى الاستقبال واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان الا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله فمن علم ما سواه علم انه زائل فيهون عليه الصبر اذ الصبر على الزائل هين واذا علم الله علم انه باق يأتيه بارزاق فان فاته شئ فانه يتوكل على حى باق وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب فان قوله ياعبادى كان لبيان انه لا مانع من العبادة ومن يؤذى فى بقعة فليخرج منها فحصل الناس على

التي شاهدتموها والتعبير عن الاعادة التي هي محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤن الله تعالى حقيقة ٦٨٨ واسما من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من العدم الى الوجود ولا فرق بينهما الا بالاولية والآخرية وقرئ النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على انها مصدر مؤكد لينشئ بحذف الزوائد والاصل الانشاءة أو بحذف العامل أي ينشئ فينشؤن النشاءة الآخرة كما في قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا والجملة معطوفة على جملة سيروا في الارض داخلة معها في حيز القول واظهار الاسم الجليل وايقاعه مبتدأ مع اضماره في بدأ لابراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الاعادة بالاشارة الى علة الحكم وتكرير الاسناد وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) تعليل لما قبله بطريق التحقيق فان من علم قدرته تعالى على جميع الاشياء التي من جملتها الاعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته عليها ولا في وقوعها بعدما أخبر به (يعذب) أي بعد النشأة الآخرة (من يشاء) ان يعذبه وهم المنكرون لها حتما (ويرحم من يشاء) أن يرحمه وهم المصدقون بها والجملة تكملة لما قبلها وتقديم التعذيب لما ان الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب (واليه تقلبون) عند ذلك لا الى غيره فيفعل بكم ما يشاء من التعذيب والرحمة (وما أنتم بمعجزين) له تعالى عن اجراء حكمه وقضائه عليكم (في الارض ولا في السماء) أي بالتواري في الارض أو الهبوط في مهاويها ولا بالتحصن في السماء التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقي فيها كما في قوله تعالى ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات

قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه يترك الاوطان ويفارق الاخوان وعاجز وهو صابر على تحمل الاذى ومواظب على عبادة الله تعالى ثم قال تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم) لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التي لا تدخر شيئا لغد ويأتيها كل يوم برزق رغد وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في كأين لغات أربع غير هذه كائن على وزن راع وكأين على وزن ريع وكي على رع ولم يقرأ الا كأين وكائن قراءة ابن كثير (المسئلة الثانية) كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي التي تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ولم تكتب الا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب لان كأي يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأي رجل يكون فقد حذف المضاف اليه ويقال رأيت رجلا لا كأي رجل وحينئذ لا يكون كأي مركبا فاذا كان كأي ههنا مركبا كتبت بالنون للتمييز كما تكتب معديكرب وبعلبك موصولا للفرق وكما تكتب ثمة بالهاء تمييزا بينها وبين ثمت (المسئلة الثالثة) كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من الا نادرا وكم يستعمل كثيرا من غير من يقال كم رجلا وكم من رجل وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأي التي ليست مركبة وذلك لان كأي اذا لم تكن مركبة لا يجوز ادخال من بعدها اذ لا يقال رأيت رجلا لا كأي من رجل والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق وقوله تعالى (لا تحمل رزقها) قيل لا تحمل لضعفها وقيل هي كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر (الله يرزقها واياكم) بطريق القياس أي لا شك في ان رزقها ليس الا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا فان قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات في الصحراء سبب والحيوان يسعى اليه ويرعى فنقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظرا الى الرزق والى المرتزق والى مجموع الرزق والمرتزق أما بالنظر الى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق وأما بالنظر الى المرتزق فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لابد من تشبهه بالاعضاء حتى يصير الحشيش عظما ولحما وشحما وما ذاك الا بحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وارادته فهو الذي يرزقها وأما بالنظر الى المرتزق والرزق فلأن الله لو لم يهد الحيوان الى الغذاء ليعرفه من الشم ما كان يحصل له اغتذاء الا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعا من أنواع الغذاء حتى يوضع في فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك فان كثيرا ما يكون البعير لا يعرف الخبز ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض اليه اذا أكل منه اليوم شبعا وترك بقية يجدها غدا ما مد اليه أحد يدا والانسان ان لم يأخذ اليوم لا يبقى له غدا شئ وأيضا حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج الى أجناس اللباس وأنواع الاطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضا قوت الحيوان مهيأ وقوت الانسان يحتاج الى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل

الحاجة

والارض فانفذوا أو القلاع الذاهبة فيها وقيل في السماء صفة لمحذوف معطوف على أنتم أي ولا من في السماء (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الارض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم (والذين كفروا بآيات الله) اي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته ٦٨٩ وأفعاله فيدخل فيها النشأة الاولى الدالة على تحقق البعث والآيات الناطقة به دخولا أوليا وتخصيصها بدلائل وحدانيته تعالى لا يناسب المقام (ولقائه) الذي تنطق به تلك الآيات (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه (يئسوا من رحمتي) أي ييأسون منها يوم القيامة وصيغة الماضي للدلالة على تحققه أو يئسوا منها في الدنيا لانكارهم البعث والجزاء (وأولئك لهم عذاب أليم) وفي تكرير اسم الاشارة وتكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالاليم من الدلالة على كمال فظاعة حالهم ما لا يخفى أي أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه وباليأس من رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك الاوصاف القبيحة عذاب لا يقادر قدره في الشدة والايلام (فما كان جواب قومه) بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى (الا أن قالوا اقتلوه او حرقوه) وقرئ بالرفع على العكس وقد مر ما فيه في نظائره وليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج ابراهيم عليه السلام الا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل ان ذلك هو الذي استقر عليه جوابهم بعد اللتيا والتي في المرة الاخيرة والا فقد صدر عنهم من الخرافات والاباطيل ما لا يحصى (فأنجاه الله من النار) الفاء فصيحة أي فألقوه في النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه عليه الصلاة والسلام بردا وسلاما حسبما بين في موضع آخر وقد مر في سورة الانبياء بيان كيفية

الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة فنقول نحن لا نقول ان الجمع يقدح في التوكل بل قد يكون الزراع الحاصد متوكلا والراكع الساجد غير متوكل لان من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده في الله انه ان كان يريد يرزق من غير زرع وان كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ومن يصلي وقلبه مع ما في يد زيد وعمر وهو غير متوكل وأما قوله حاجات الانسان كثيرة فنقول مكاسبه كثيرة أيضا فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعي وغيره وبعينه كالناطور وبلسانه كالحادي والمنادي وبفهمه كالمهندس والتاجر وبعلمه كالطبيب والفقيه وبقوة جسمه كالعتال والحمال والحيوان لا مكاسب له فالرغيف الذي يحتاج اليه الانسان غدا أو بعد غد بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب فهو أولى بالتوكل وأيضا الله تعالى خلق الانسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه فان الله ملك الانسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل في ملكه شاء أم أبى حتى ان نتاج الانعام وثمار الاشجار تدخل في الملك وان لم يرده مالك النعم والشجر واذا مات قرن ينتقل ذلك الى قرن آخر فهم شاؤا أم أبوا وليس كذلك حال الحيوان أصلا فان الحيوان ان لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه فاذن الانسان لو توكل كان أقرب الى العقل من توكل الحيوان ثم قال وهو السميع العليم سميع اذا طلبتم الرزق يسمع ويجيب عليم ان سكتم لا يخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم ثم قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) نقول لما بين الله الامر للمشرك مخاطبا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله يا عبادي الذين آمنوا وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون ارشادا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن فان السيد اذا كان له عبدان أو الوالد اذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ينصح أولا المفسد فان لم يسمع يقول معرضا عنه ملتفتا الى الرشيد ان هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية في قلبه ثم اذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه ان هذا أخاك العجب منه انه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده يكون هذا الكلام أيضا داعيا له الى سبيل الرشاد مانعا له من ذلك الفساد فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم انهم ان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ثم لا يؤمنون وفي الآية لطائف (احداها) ذكر في السموات والارض الخلق وفي الشمس والقمر التسخير وذلك لان مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فاذا الحكمة في تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) في لفظ التسخير وذلك لان التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافية

الفائه عليه الصلاة والسلام فيها وانجائه تعالى اياه تتصلا فيل لم ينتفع يومئذ بالنار فى موضع أصلا (ان فى ذلك) أى فى انجائه منها (لآيات) بينة عجيبة هى حفظه تعالى اياه من حرها واخمادها فى زمان يسير وانشاء روض فى مكانها (لقوم يؤمنون) وأما من عداهم فهم عن اجتلائها غافلون ومن ٦٩٠ الفوز بمغانم آثارها محرومون (وقال) أى ابراهيم عليه السلام مخاطبا لهم (انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا) أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف أى أوثانا آلهة ويجوز أن يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف او بتأويلها بالمودودة أو بجعلها نفس المودة مبالغة أى اتخذتم أوثانا سبب المودة بينكم او مودودة او نفس المودة وقرئ مودة منونة منصوبة ناصبة الظرف وقرئت بالرفع والاضافة على أنها خبر مبتدا محذوف أى هى مودودة أو نفس المودة او سبب مودة بينكم والجملة صفة أوثانا أو خبران على أن ما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الاول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرئ لقد تقطع بينكم على أحد الوجهين وقرئ انما مودة بينكم والمعنى أن اتخاذكم اياها مودة بينكم ليس الا فى الحياة وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتم ما فعلتم لاجل مودتكم لها انتصارا مى كما ينبئ عنه قوله تعالى وانصروا آلهتكم (ثم يوم القيامة) تنقلب الامور وتبدل التواد تباغضا والتلاطف تلاعنا حيث (يكفر بعضكم) وهم العبدة (ببعض) وهم الاوثان (ويلعن بعضكم بعضا) أى يلعن كل فريق منكم ومن الاوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر (ومأواكم النار) أى هى منزلكم الذى تأوون اليه ولا ترجعون منه أبدا (وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى ولا

لانها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين فالحكمة فى تسخيرهما تحركهما فى قدر ما يتنفس الانسان الاقامن الفراسخ ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركتان احداهما حركتها من المشرق الى المغرب فى كل يوم وليلة مرة والاخرى حركتها من المغرب الى المشرق والدليل عليها ان الهلال يرى فى جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ثم يبعد منه الى جانب الشرق حتى يرى القمر فى نصف الشهر فى مقابلة الشمس والشمس على افق المغرب والقمر على أفق المشرق وحركة اخرى حركة الاوج وحركة المائل والتدوير فى القمر ولولا الحركة التى من المغرب الى المشرق لما حصلت الفصول ثم اعلم ان أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ونحن نقول لابعد فى ذلك ان لم يقولوا بالطبيعة فان الله تعالى فاعل مختار ان أراد أن يحركهما فى الفلك والفلك ساكن يجوز وان اراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر وسنذكر تمام البحث فى قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والارض والآخر تسخير الشمس والقمر لان الايجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات فخلق السموات والارض اشارة الى ايجاد الذوات وتسخير الشمس والقمر اشارة الى ايجاد الصفات وهى الحركة وغيرها فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ثم قال تعالى فأنى يؤفكون يعنى هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع أن من علت عظمته وجبت خدمته ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والارض ولا حقارة فوق حقارة الجماد لان الجماد دون الحيوان والحيوان دون الانسان والانسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات ثم قال تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لان كمال الخلق ببقائه وبقاء الانسان بالرزق فقال المعبود اما ان يعبد لاستحقاقه العبادة وهذه الاصنام ليست كذلك والله مستحقها واما لكونه على الشأن والله الذى خلق السموات على الشأن جلى البرهان فله العبادة واما لكرمه ولى الاحسان والله يرزق الخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضا وقوله لمن يشاء اشارة الى كمال الاحسان وذلك لان الملك اذا أمر الخازن باعطاء شخص شيأ فاذا أعطاه يكون له منة يسيرة حقيرة لان الآخذ يقول هذا ليس بارادته وانما هو بأمر الملك واما ان كان مختارا بأن قال له الملك ان شئت فأعطه وان شئت فلا تعطه فان اعطاه يكون له منة جلية لا قليلة فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو احسان تام يستوجب شكرا تاما وقوله تعالى (ويقدر له) أى يضيق له ان أراد ثم قال تعالى (ان الله بكل شئ عليم) أى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الارزاق وفى اثبات العلم ههنا لطائف (احداها) أن الرازق الذى هو كامل المشيئة اذا رأى عبده محتاجا وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق

القيمونى فيها وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع أى ما لاحد منكم من ناصر أصلا (فآمن له لوط) أى صدقه فى جميع مقالاته لا فى نبوته وما دعا اليه من التوحيد فقط فانه كان منزها عن الكفر وما قيل انه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغى أن يحمل على ما ذكرنا وعلى أن يراد بالايمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى اليها ٦٩١ الا هم الافراد الكمل ولوط هو ابن أخيه عليهما السلام (وقال انى مهاجر) أى من قومى (الى ربى) الى حيث أمرنى ربى (انه هو العزيز) الغالب على أمره فيمنعنى من اعدائى (الحكيم) الذى لا يفعل فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى الا بما فيه صلاحى روى أنه هاجر من كوثى سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه الى حران ثم منها الى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم (ووهبنا له اسحق ويعقوب) ولدا ونافلة حين أيس من عجوز عاقر (وجعلنا فى ذريته النبوة) فكثر منهم الانبياء (والكتاب) أى جنس الكتاب المتناول للكتب الاربعة (وآتيناه أجره) بمقابلة هجرته الينا (فى الدنيا) باعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل اليه والثناء والصلاة عليه الى آخر الدهر (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح (ولوطا) منصوب اما بالعطف على نوحا او على ابراهيم والكلام فى قوله تعالى (اذ قال لقومه) كالذى مر فى قصة ابراهيم عليه السلام (انكم لتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح وقرئ أئنكم (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) استئناف مقرر لكمال قبحها فان اجماع جميع أفراد العالمين على التحاشى عنها ليس الا لكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرضون للسابلة أى بالفاحشة حيث روى أنهم كانوا كثيرا ما يفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل النساء بالاعراض عن

ولا يؤخر الرازق الرزق الا لنقصان فى نفوذ مشيئته كالملك اذا أراد الاطعام والطعام لا يكون بعد قد استوى أو لعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهى أن لله باثبات العلم استوعب ذكر الصفات التى هى صفات الاله ومن أنكرها كفر وهى أربعة الحياة والقدرة والارادة والعلم واما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعا لا كافرا وقد استوفى الاربع لان قوله خلق السموات والارض اشارة الى كمال القدرة وقوله يبسط الرزق لمن يشاء اشارة الى نفوذ مشيئته وارادته وقوله ان الله بكل شئ عليم اشارة الى شمول علمه والقادر المريد العالم لا يتصور الا حيا ثم انه تعالى لما قال الله يبسط الرزق ذكر اعترافهم بذلك فقال (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله) يعنى هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله ثم قال تعالى (قل الحمد لله) وهو يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون كلاما معترضا فى اثناء كلام كأنه قال فأحيا به الارض من بعد موتها (بل أكثرهم لا يعقلون) فذكر فى اثناء هذا الكلام الحمد لذكر النعمة كما قال القائل

ان الثمانين وبلغتها • قد أحوجت سمعى الى ترجمان

(الثانى) أن يكون المراد منه كلاما متصلا وهو انهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هى من الله (الثالث) أن يكون المراد انهم يقولون انه من الله ويقولون بالهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم وأكثرهم لا يعقلون هذا التناقض أو فساد هذا التناقض ثم قال تعالى (وما هذه الحيوة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) لما بين انهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها الا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون اليه ليس بشئ بقوله وما هذه الحياة الدنيا الا لهو وفى الآية مسائل (الاولى) ما الفرق بين اللهو واللعب حتى يصح عطف أحدهما على الآخر فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) ان كل شغل يفرض فان المكلف اذا أقبل عليه لزمه الاعراض عن غيره ومن لا يشغله شان عن شان هو الله تعالى فالذى يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو فالدنيا لعب أى اقبال على الباطل ولهو اى اعراض عن الحق (الثانى) هو ان المشتغل بشئ يرجح ذلك الشئ على غيره لا محالة حتى يشتغل به فاما ان يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتى به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية فالاول لعب والثانى لهو والدليل عليه هو ان الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهى فى العرف والعود وغيره من الاوتار تسمى آلات الملاهى لانها

الحرث واتيان ما ليس بحرث وقيل تتعاطون السبيل بالقتل وأخذ المال (وتأتون فى ناديكم) أى تفعلون فى مجلسكم الجامع لاصحابكم (المنكر) كالجماع والضراط وحل الازار وغيرهما مما لا خير فيه من الافاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الخذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ ٦٩٢ العلك والسواك بين الناس وحل الازار والسباب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل (فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) أى فما كان جوابا من جهتهم شئ من الاشياء الا هذه الكلمة الشنيعة أى لم يصدر عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب وأما ما فى سورة الاعراف من قوله تعالى وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم الآية وما فى سورة النمل من قوله تعالى فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم الآية فهو الذى صدر عنهم بعد هذه المرة وهى المرة الاخيرة من مرات المقاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف (قال رب انصرنى) أى بانزال العذاب الموعود (على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والاصرار عليها واستعجال العذاب بطريق الاستهزاء وانما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب عليهم (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أى بالبشارة بالولد والنافلة (قالوا) أى لابراهيم عليه السلام فى تضاعيف الكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر (انا مهلكو أهل هذه القرية) أى قرية سدوم والاضافة لفظية لان المعنى على الاستقبال (ان أهلها كانوا ظالمين) تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى

تلهى الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة وللبعض لهو يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية (المسألة الثانية) قال الله تعالى فى سورة الانعام وما الحياة الدنيا ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا وما هذه فنقول لان المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا حيث قال تعالى فأحيا به الارض من بعد موتها فقال هذه والمذكور قبلها هنالك الآخرة حيث قال يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال وما الحياة الدنيا (المسألة الثالثة) قال هنالك الا لعب ولهو وقال ههنا الا لهو ولعب فنقول لما كان المذكور هنالك من قبل الآخرة واظهارهم للحسرة ففى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الابعد وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو (المسألة الرابعة) قال هنالك وللدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهى الحيوان فنقول لما كان الحال هنالك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى رادع قوى فقال الآخرة خير ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى رادع قوى فقال لا حياة الا حياة الآخرة وهذا كما أن العاقل اذا عرض عليه شيئان فقال فى أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحا فحسب ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشئ يكون ترجيحا مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلا فيها (المسألة الخامسة) قال هنالك خير للذين يتقون ولم يقل ههنا الا لهى الحيوان لان الآخرة خير للمتقى فحسب أى المتقى عن الشرك واما الكافر فالدنيا جنته فهى خير له من الآخرة واما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم (المسألة السادسة) كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك فنقول الحيوان مصدر حى كالحياة لكن فيه مبالغة ليست فى الحياة والمراد بالدار الآخرة هى الحياة الثانية فكأنه قال الحياة الثانية هى الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وكانت هى محل الادراك التام الحق كما قال تعالى يوم تبلى السرائر أطلق عليها الاسم المستعمل فى النامى المدرك (المسألة السابعة) قال فى سورة الانعام أفلا تعقلون وقال ههنا لو كانوا يعلمون وذلك لان المثبت هنالك كون الآخرة خيرا وانه ظاهر لا يتوقف الا على العقل والمثبت ههنا أن لا حياة الا حياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم نافع ۞ ثم قال تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) اشارة الى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا وبيان ذلك هو انهم اذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا

(قال ان فيها لوطا) فكيف تهلكونها (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله) ارادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها بل عمن لم يتعرض له ابراهيم عليه السلام من أتباعه المؤمنين وأنهم معتنون بشأنهم أتم اعتناء حسبما ينبئ عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم أى والله لننجينه وأهله (الا امرأته كانت من الغابرين) ٦٩٣ أى الباقين فى العذاب أو القرية (ولما أن جاءت رسلنا) المذكورون بعد مفارقتهم لابراهيم عليه السلام (لوطا سئ بهم) اعتراه المساءة بسببهم مخافة أن يتعرض له قومه بسوء وكلمة أن صلة لتأكيد ما بين الفعلين من الاتصال (وضاق بهم ذرعا) أى ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم ضاقت يده وبازائه رحب ذرعه بكذا اذا كان مطيقا به قادرا عليه وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع (وقالوا) ريثما شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللتيا والتى حتى آلت به الحال الى أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد (لا تخف) اى من قومك علينا (ولا تحزن) اى على شئ وقيل باهلاكنا اياهم (انا منجوك وأهلك) مما يصيبهم من العذاب (الا امرأتك كانت من الغابرين) وقرئ لننجينك ومنجوك من الانجاء وأياما كان فمحل الكاف الجر على المختار ونصب أهلك باضمار فعل او بالعطف على محلها باعتبار الاصل (انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء) استئناف مسوق لبيان ما أشير اليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم والرجز العذاب الذى يقلق المعذب اى يزعجه من قولهم ارتجز اذا ارتجس واضطرب وقرئ منزلون بالتشديد (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم المستمر (ولقد تركنا منها) اى من القرية (آية بينة) هى قصتها العجيبة وآثار ديارها الخربة وقيل الحجارة الممطورة فانها كانت باقية بعدها وقيل الماء الاسود على وجه الارض

الى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا فاذا أنجاهم وأرجاهم عادوا الى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا ۞ ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) وفيه وجهان (أحدهما) ان اللام لام كى أى يشركون ليكون اشراكهم كفرا بنعمة الانجاء وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون وبال عملهم حين زوال أملهم (والثانى) أن تكون اللام لام الامر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد كما قال تعالى اعملوا ما شئتم وكما قال اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون فساد ما تعملون ۞ ثم قال تعالى (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) التفسير ظاهر وانما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها فنقول الانسان فى البحر يكون على أخوف ما يكون وفى بيته يكون على آمن ما يكون لا سيما اذا كان بيته فى بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم فى تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الامن العظيم وهى كونهم فى مكة فانها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهى حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفيها يعنى انكم فى أخوف ما كنتم دعوتم الله وفى آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله وهذا متناقض لان دعاءكم فى ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان الا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير فهذه النعمة العظيمة التى حصلت وقد اعترفتم بأنها لا تكون الا من الله كيف تكفرون بها والاصنام التى قطعتم فى حال الخوف ان لا أمن منها كيف آمنتم بها فى حال الامن ۞ ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين) لما بين الله الامور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين انهم أظلم من يكون لان الظلم على ما بين وضع الشئ فى غير موضعه فاذا وضع واحد شيئا فى موضع ليس هو موضعه يكون ظالما فاذا وضعه فى موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لان عدم الامكان أقوى من عدم الحصول لان كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا فلو كان ذلك فى حق ملك مستقل فى الملك لكان ظلما يستحق من الملك العقاب الاليم فكيف اذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك وأيضا من كذب صادقا يجوز عليه الكذب يكون ظالما فمن يكذب صادقا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله فاذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله فى تصديق نبيه والنبى فى رسالة ربه والقرآن المنزل من الله الى الرسول والعجب من المشركين انهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالالهية ولم يقبلوا ذا حسب منعوت مبعوث بالرسالة والآية تحتمل وجها آخر وهو ان الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أى انى جئت بالرسالة وقلت انها من الله

(القوم يعقلون) يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار وهو متعلق اما بتركنا او ببينة (والى مدين أخاهم شعيبا) متعلق بمضمر معطوف على أرسلنا في قصة نوح عليه السلام أي وأرسلنا الى مدين شعيبا (فقال ياقوم اعبدوا الله) وحده (وارجوا اليوم الآخر) أي توقعوه وما سيقع فيه من ٦٩٤ فنون الاهوال وافعلوا اليوم من الاعمال ماتأمنون غائلته وقيل وارجوا ثوابه بطريق اقامة المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا في الارض مفسدين فكذبوه فاخذتهم الرجفة) أي الزلزلة الشديدة وفي سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أي صيحة جبريل عليه السلام فانها الموجبة للرجفة بسبب تمويجها للهواء وما يجاورها من الارض (فاصبحوا في دارهم) أي بلدهم اومنازلهم والافراد لامن اللبس (جاثمين) باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) منصوبان باضمار فعل ينبئ عنه ماقبله اى أهلكنا وقرئ ثمودا بتاويل الحي (وقد تبين لكم من مساكنهم) أي وقد ظهر لكم اهلاكنا اياهم من جهة مساكنهم بالنظر اليها عند اجتيازكم بها ذهابا الى الشام وايابا منه (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من فنون الكفر والمعاصي (فصدهم عن السبيل) السوي الموصل الى الحق (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا ذلك اومتبينين أن العذاب لاحق بهم باخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا مالقوا (وقارون وفرعون وهامان) معطوف على عادا قيل تقديم قارون لشرف نسبه (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين) مفلتين فائتين من قولهم سبق طالبه اذا فاته ولم يدركه ولقد أدركهم امر الله عز وجل اى ادراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك (فكلا) تفسير لماينبئ عنه عدم سبقهم بطريق الابهام

وهذا كلام الله وأنتم كذبتموني فالحال دائر بين أمرين اما انا مفتر متنبئ ان كان هذا من عند غير الله أوأنتم مكذبون بالحق ان كان من عنده لكني معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا اقدم على الافتراء لان جهنم مثوى للكافرين والمتنبئ كافر وأنتم كذبتموني فجهنم مثوا كم اذهي مثوى للكافرين وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى وانا أواياكم لعلى هدى أوفي ضلال مبين ۞ ثم قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا أى من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة وان الله لمع المحسنين اشارة الى ما قال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فقوله لنهدينهم اشارة الى الحسنى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى المعية والقربة التي تكون للمحسن زيادة على حسناته وفيه وجه آخر حكمي وهو أن يكون المعنى والذين جاهدوا فينا أى الذين نظروا في دلائلنا لنهدينهم سبلنا أى لنحصل فيهم العلم بنا ولنبين هذا فضل بيان فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا ان النظر كالشرط للعلم الاستدلالي والله يخلق في الناظر علما عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك في المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة واذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية وعلى هذا يكون الترتيب حسنا أيضا وذلك لان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال انهم لم ينظروا فلم يهتدوا وانما هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيدا يتقرب وهم الكفار ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريبا منه يعلم الاشياء منه ولا يعلمه من الاشياء ومن يكون مع الشئ كيف يطلبه فقوله ومن أظلم اشارة الى الاول وقوله والذين جاهدوا فينا اشارة الى الثاني وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى الثالث والله أعلم باسرار كتابه والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين

(سورة الروم ستون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول فنقول لما قال الله تعالى في السورة المتقدمة ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وكان يجادل المشركين بنسبتهم الى عدم العقل كما في قوله صم بكم عمي فهم لا يعقلون وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الاله كما قال والهنا والهكم واحد وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به أى أبغض المشركون أهل الكتاب

اى فكل واحد من المذكورين (اخذنا بذنبه) اى عاقبناه بجنايته لابعضهم دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول (فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا) تفصيل للاخذاى ريحا عاصفا فيها حصباء وقيل ملكا رماهم بها وهم قوم لوط (ومنهم من اخذته الصيحة) كمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) كقارون (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح ٦٩٥ وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم) بما فعل بهم فان ذلك محال من جهته تعالى (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالاستمرار على مباشرة مايوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصي (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) اى فيما اتخذوه معتمدا ومتكلا (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) فيما نسجته في الوهن والخور بل ذلك اوهن من هذا لان له حقيقة وانتفاعا في الجملة اومثلهم بالاضافة الى الموحد كمثله بالاضافة الى رجل بنى بيتا من حجر وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب في الاستعمال التانيث وتاؤه كتاء طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبوتات وأما العكاب والعكب والاعكب فاسماء الجموع (وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت) حيث لا يرى شئ يدانيه في الوهن والوهي (لو كانوا يعلمون) اى شيأ من الاشياء لجزموا ان هذا مثلهم او ان دينهم اوهى من ذلك ويجوز ان يجعل بيت العنكبوت عبارة عن دينهم تحقيقا للتمثيل فالمعنى وان اوهن مايعتمد به في الدين دينهم (ان الله يعلم مايدعون من دونه من شئ) على اضمار القول اى قل للكفرة ان الله الخ وما استفهامية منصوبة بيدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين اونافية ومن مزيدة وشئ مفعول يدعون اومصدرية وشئ عبارة عن المصدر اوموصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون عائده المحذوف وقرئ تدعون بالتاء والكلام على الاولين تجهيل لهم وتأكيد للمثل وعلى الاخيرين وعيد لهم (وهو العزيز الحكيم) تعليل على المعنيين فان اشراك مالا يعتد

وتركوا اجماعهم وكانوا من قبل يراجعونهم في الامور فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك فانزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب في المحب فيبتليه ويسلط عليه الاعادي وقد يختار تعجيل العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قبل يوم المعاد للمعادي وفي الآية مسائل (الاولى) ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فان في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما في قوله تعالى الم ذلك الكتاب المص كتاب طه ما أنزلنا عليك القرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل من الرحمن الرحيم يس والقرآن ص والقرآن الا هذه السورة وسورتين اخريين ذكرناهما في العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما في موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو ان السورة التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم بيانه في العنكبوت وهذه ذكر في اوائلها ما هو معجزة وهو الاخبار عن الغيب فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها ليتنبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الاسماع (المسئلة الثانية) قوله تعالى في أدنى الارض أى أرض العرب لان الالف واللام للتعريف والمعهود عندهم أرضهم ۞ وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) أية فائدة في ذكره مع أن قوله سيغلبون بعد قوله غلبت الروم لا يكون الا من بعد الغلبة فنقول الفائدة فيه اظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لان من غلب بعد غلبه لا يكون الا ضعيفا فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعد ما غلبوا دل على أن ذلك بأمر الله فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا في ضعفهم ويتذكروا انه ليس بزحفهم وانما ذلك بأمر الله تعالى وقوله في أدنى الارض لبيان شدة ضعفهم أى انتهى ضعفهم الى أن وصل عدوهم الى طريق الحجاز وكسروهم وهم في بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا الى المدائن وبنوا هنالك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله (المسئلة الثالثة) قال تعالى في بضع سنين قيل هي ما بين الثلاثة والعشرة أبهم الوقت مع أن المعجزة في تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن له في اظهارها لان الكفار كانوا معاندين والامور التي تقع في البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن انكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضي الله عنه أن الروم ستغلب وانكره أبي بن خلف وغيره وناحبوا أبابكر أى خاطروه على عشرة قلائص الى ثلاث سنين فقال عليه السلام لابي بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده في الابل وماده في الاجل فجعلا القلائص مائة والاجل سبعا وهذا يدل على علم النبي عليه السلام بوقت الغلبة ۞ ثم

القاصية كالمعدوم البحت وان من هذه صفاته قادر على مجازاتهم (وتلك الامثال) اى هذا المثل وامثاله (نضربها للناس) تقريبا لما بعد من أفهامهم (ومايعقلها) على ماهى عليه من الحسن واستتباع الفوائد (الا العالمون) الراسخون فى العلم المتدبرون فى الاشياء على ماينبغى وعنه عليه الصلاة والسلام انه تلا هذه فقال العالم من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سخطه (خلق الله السموات والارض بالحق) اى محقا مراعيا للحكم والمصالح على انه حال من فاعل خلق او ملتبسة بالحق الذى لامحيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على انه حال من مفعوله فانها مع اشتمالها على جميع مايتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤنه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى (ان فى ذلك لآية للمؤمنين) دالة لهم على ماذكر من شؤنه سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والارشاد فى خلقهما للكل لانهم المنتفعون بذلك (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) تقربا الى الله تعالى بقراءته وتذكرا لما فى تضاعيفه من المعانى وتذكيرا للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الاحكام ومحاسن الآداب

قال تعالى (لله الامر من قبل ومن بعد) أى من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها يعنى ان أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وان أراد غلبهم غلبهم بعدها وما قدر هذه المدة لعجز وانما هى ارادة نافذة وبنيا على الضم لما قطعا عن الاضافة لان غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر اما النصب ففى قولك جئت قبله أو بعده واما الجر ففى قولك من قبله ومن بعده فبنينا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه فى الاعراب وهو الرفع ۞ (ويومئذ يفرح المؤمنون) قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم والاصح انهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لان غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر ولو كان المراد ماذكروه لما صح لان فى ذلك اليوم بعينه لم يصل اليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده ۞ ثم قال تعالى (بنصر الله ينصر من يشاء) فقدم المصدر على الفعل حيث قال بنصر الله ينصر وقدم الفعل على المصدر فى قوله وأيدك بنصره وذلك لان المقصود ههنا بيان أن النصرة بيد الله ان أراد نصر وان لم يرد لا ينصر وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هنالك اظهار النعمة عليه بأنه نصره فالمقصود هنالك الفعل ووقوعه فقدم هنالك الفعل ثم بين ان ذلك الفعل مصدره عند الله والمقصود ههنا كون المصدر عند الله ان أراد فعل فقدم المصدر ۞ ثم قال تعالى (وهو العزيز الرحيم) ذكر من اسمائه هذين الاسمين لانه ان لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره وان نصر المحب فذلك لرحمته عليه أو نقول ان نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب وان لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته فى الآخرة واصلة اليه ۞ ثم قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعنى سيغلبون وعدهم الله وعدا ووعد الله لاخلف فيه ۞ قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون وعده وانه لاخلف فى وعده ۞ ثم قال تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) يعنى علمهم منحصر فى الدنيا وأيضا لا يعلمون الدنيا كما هى وانما يعلمون ظاهرها وهى ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهى مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) والمعنى هم عن الآخرة غافلون وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم والا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمرى فاذا قال هو شغلنى فلان فيقول ماشغلك ولكن انت اشتغلت ۞ ثم قال تعالى (أولم يتفكروا فى أنفسهم) لما صدر من الكفار الانكار بالله عند انكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون والانكار بالحشر كما قال تعالى وهم عن الآخرة هم غافلون بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله والا فأسباب التذكر حاصلة وهو انفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر اما الوحدانية فلان الله خلقهم على أحسن تقويم ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف

ومكارم الاخلاق (وأقم الصلوة) أى داوم على اقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره عليه الصلاة والسلام باقامتها متضمنا الامر الامة بها علل بقوله تعالى (ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) كأنه قيل وصل بهم ان الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ومعنى نهيها عنهما أنها سبب

للانتهاء عنهما لانها مناجاة لله تعالى فلابد أن تكون مع اقبال تام على طاعته واعراض كلى عن معاصيه قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروى أنس رضى الله عنه أن فتى من الانصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لايدع شيأ من الفواحش الا ركبه فوصف له عليه الصلاة والسلام حاله فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب وحسن حاله (ولذكر الله أكبر) أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وانما عبر عنها به كما فى قوله تعالى فاسعوا الى ذكر الله للايذان بأن مافيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيآت وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته (والله يعلم ماتصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولا تجادلوا أهل الكتاب) من اليهود

ألف جزء وهو ان الله تعالى خلق للانسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به اعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه والآخر لخروج الطعام منه فاذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لايخرج منه ذرة ولا بالرشح وتمسكه الماسكة الى أن ينضج نضجا صالحا ثم يخرج من المنفذ الآخر وخلق تحت المعدة عروقا دقاقا صلابا كالمصفاة التى يصفى بها الشئ فينزل منها الصافى الى الكبد وينصب الثفل الى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجها الى الخروج ومايدخل فى الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية والعبرية عربية مفسودة فى الاكثر يقال اوصى ميشا ولالها يل الى غير ذلك فالماسار يقا معناها ما ساريق اشتمل عليه الكبد وانضجه نضجا آخر ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة الى الكبد فضل ماء مشروب ليرقق وينذرق فى العروق الدقاق المذكورة وفى الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد الى الكلية ومعه دم يسير تغتذى به الكلية وغيرها ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق كبير ثم يتشعب ذلك النهر الى جداول والجداول الى سواق والسواقى الى رواضع ويصل فيها الى جميع البدن فهذه حكمة واحدة فى خلق الانسان وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختارا قادرا كاملا عالما شاملا علمه ومن يكون كذلك يكون واحدا والا لكان عاجزا عند ارادة شريكه ضد ماأراده واما دلالة الانسان على الحشر فذلك لانه اذا تفكر فى نفسه يرى قواه صائرة الى الزوال واجزاءه مائلة الى الانحلال فله فناء ضرورى فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثا واليه اشار بقوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وهذا ظاهر لان من يفعل شيأ للعبث فلو بالغ فى احكامه واتقانه يضحك منه فاذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لابد منها ثم انه تعالى ذكر بعد دليل الانفس دليل الآفاق فقال (ما خلق الله السموات والارض ومابينهما الا بالحق وأجل مسمى) فقوله الا بالحق اشارة الى وجه دلالتها على الوحدانية وقد بينا ذلك فى قوله خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين ونعيده فان التكرير فى الذهن يفيد التقرير لذى الذهن فنقول اذا كان بالحق لايكون فيها بطلان فلا يكون فيها فساد لان كل فاسد باطل واذا لم يكن فيها فساد لاتكون آلهة والا لكان فيها فساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقوله وأجل مسمى يذكر بالاصل الآخر الذى انكروه ۞ ثم قال تعالى (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) يعنى لايعلمون انه لابد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء اما فى اسعاد أو شقاء وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم ههنا دلائل الانفس على دلائل الآفاق وفى قوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم قدم دلائل الآفاق وذلك لان المفيد اذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فان فهمه السامع المستفيد فذاك والا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة واما المستفيد فانه يفهم اولا

والنصارى (الا بالتى هى أحسن) أى بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالاناة على وجه لايدل على الضعف ولا يؤدى الى اعطاء الدنية وقيل منسوخ بآية السيف (الا الذين

ظلموا منهم) بالافراط في الاعتداء والعناد أو باثبات الولد وقولهم يد الله مغلولة ونحو ذلك فانه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم
(وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا) من القرآن (وأنزل اليكم) أي وبالذي أنزل اليكم من التوراة والانجيل وقد مر تحقيق كيفية
الايمان بهما في خاتمة سورة البقرة ٦٩٨ وعن النبي عليه الصلاة والسلام لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا
بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم (والهنا والهكم واحد) لا شريك له في الالوهية (ونحن له مسلمون) مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله (وكذلك) تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذي بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه في الفضل أي مثل ذلك الانزال البديع الموافق لانزال سائر الكتب (أنزلنا اليك الكتاب) أي القرآن الذي من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى (فالذين آتيناهم الكتاب) من الطائفتين (يؤمنون به) أريد بهم عبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتابين خاصة كأن من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه أو من تقدم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا في كتابيهما وتخصيصهم بايتاء الكتاب للايذان بان من بعدهم من معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ايمانهم به مترتب على انزاله على الوجه المذكور (ومن هؤلاء) أي

الابين ثم يرتقي الى فهم ذلك الاخفى الذي لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الابين المذكور آخرا فالمذكور من المفيد آخرا مفهوم عند السامع أولا اذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوبا الى السامع حيث قال أولم يتفكروا في أنفسهم يعني فيما فهموه أولا ولم يرتقوا الى ما فهموه ثانيا وأما في قوله سنريهم الامر منسوب الى المفيد المسمع فذكر أولا الآفاق فان لم يفهموه فالانفس لان دلائل الانفس لا ذهول للانسان عنها وهذا الترتيب مراعى في قوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم أي يعلمون الله بدلائل الانفس في سائر الاحوال ويتفكرون في خلق السموات والارض بدلائل الآفاق (المسئلة الثانية) وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل الا امكانه وأما وقوعه فلا يعلم الا بالسمع لان الله قادر على ابقاء الحادث أبدا كما انه يبقي الجنة والنار بعد احداثهما أبدا والخلق دليل امكان العدم لان المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم فاذا أخبر الصادق عن أمر له امكان وجب على العاقل التصديق والاذعان ولان العالم لما كان خلقه بالحق فينبغي أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لان هذه الحياة ليست الا لعبا ولهوا كما بين بقوله تعالى وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وخلق السموات والارض للهو واللعب عبث والعبث ليس بحق وخلق السموات والارض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه (المسئلة الثالثة) قال ههنا كثيرا من الناس وقال من قبل ولكن أكثر الناس وذلك لان من قبل لم يذكر دليلا على الاصلين وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولا شك في أن الايمان بعد الدليل أكثر من الايمان قبل الدليل فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك الاكثر جمع فلا يبقى الاكثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كثيرا وقبله ولكن أكثرهم ثم بعد الدليل الذي لا يمكن الذهول عنه والدليل الذي لا يقع الذهول عنه وان أمكن هو السموات والارض لان من البعيد أن يذهل الانسان عن السماء التي فوقه والارض التي تحته ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم وحكاية أشكالهم ۞ فقال تعالى (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وقال في الدليلين المتقدمين أولم يروا ولم يقل أولم يسيروا اذ لا حاجة هنالك الى السير بحضور النفس والسماء والارض وقال ههنا أولم يسيروا فينظروا وذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لان من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم ينفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم واعلم ان اعتقاد الانسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو في أعوانه اذ بها المباشرة وقوة مالية اذ بها التأهب للمباشرة وقوة ظهر به يستند اليها عند الضعف والفتور وهي

ومن العرب أو أهل مكة على الاول أو ممن في عصره عليه الصلاة والسلام على الثاني (من يؤمن به) أي بالقرآن
(وما يجحد بآياتنا) عبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت الى نون

العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجحد بها (الا الكافرون) المتوغلون في الكفر المصممون عليه فان ذلك يصدهم عن
التأمل فيما يؤديهم الى معرفة حقيتها وقيل هم كعب بن الاشرف وأصحابه (وما كنت تتلو من قبله) أي ما كنت قبل انزالنا اليك
الكتاب تقدر على أن تتلو شيأ (من كتاب ولا تخطه) أي ولا تقدر على أن تخطه (بيمينك) ٦٩٩ حسبما هو المعتاد أو ما كانت عادتك
أن تتلوه ولا أن تخطه (اذا لارتاب المبطلون) أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب الاوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلا وتسميتهم مبطلين في ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين في اتباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك (بل هو) أي القرآن (آيات بينات) واضحات ثابتة راسخة (في صدور الذين أوتوا العلم) من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا) مع كونها كما ذكر (الا الظالمون) المتجاوزون للحدود في الشر والمكابرة والفساد (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام وقرئ آية (قل انما الآيات عند الله) ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لاحد في ذلك قطعا (وانما أنا نذير مبين) ليس من شأني الا الانذار بما أوتيت من الآيات (أولم يكفهم) كلام مستأنف وارد من جهته تعالى ردا على اقتراحهم وبيانا لبطلانه والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أقصر ولم يكفهم آية مغنية عن

بالحصون والعمائر فقال تعالى كانوا أشد منهم قوة في الجسم وأكثر منهم مالا لانهم أثاروا الارض أي حرثوها ومنه بقرة تثير الارض وقيل منه سمي ثورا وأنتم لا حراثة لكم فمالهم كانت أكثر وعمارتهم كانت أكثر لان أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة وعمارة أهل مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم وقوله فما كان الله ليظلمهم يعني لم يظلمهم بالتكليف فان التكليف شريف لا يؤثر له الا محل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها في موضع خسيس وهو عبادة الاصنام واتباع ابليس فكان الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوا له وهو الربح لانه تعالى قال خلقتكم لتربحوا علي لا لاربح عليكم والوضع في موضع كان الخلق له ليس بظلم وأما هم فوضعوا أنفسهم في مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا الا للربح فهم كانوا ظالمين وهذا الكلام منا وان كان في الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة وهو ان هذا الوضع كان بمشيئة الله وارادته لكنه كان منهم ومضافا اليهم ۞ ثم قال تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) كما قال للذين أحسنوا الحسنى وقوله تعالى أن كذبوا قيل معناه بأن كذبوا أي كان عاقبتهم ذلك بسبب انهم كذبوا وقيل معناه أساؤا وكذبوا فكذبوا يكون تفسير الاساءة وفي هذه الآية لطائف (احداها) قال في حق الذين أحسنوا للذين أحسنوا الحسنى وقال في حق من أساء ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى اشارة الى أن الجنة لهم من ابتداء الامر فان الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار فاذا كانت الجنة لهم من الابتداء ومن له شئ كلما يزداد وينمو فيه فهو له لان ملك الاصل يوجب ملك الثمرة فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين وأما الذين أساؤا فالسوأى وهي جهنم في العاقبة مصيرهم اليها (الثانية) ذكر الزيادة في حق المحسن ولم يذكر الزيادة في حق المسئ لان جزاء سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق وذكر في المسئ أن له السوأى بأنه كذب لان الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ وأما السوأى للمسئ فعدل والعادل اذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلا فذكر السبب في التعذيب وهو الاصرار على التكذيب ولم يذكر السبب في الثواب ۞ ثم قال تعالى (الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون) لما ذكر أن عاقبتهم الى الجحيم وكان في ذلك اشارة الى الاعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدؤا الخلق يعني من خلق بالقدرة والارادة لا يعجز عن الرجعة والاعادة فاليه ترجعون ثم بين ما يكون وقت الرجوع اليه ۞ فقال (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) في ذلك اليوم يتبين افلاسهم ويتحقق ابلاسهم والابلاس يأس مع حيرة يعني يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو احدى الراحتين وهذا لان الطامع اذا انقطع بالياس فاذا كان المرجو أمرا غير ضروري يستريح الطامع من

من الآيات (أنا أنزلنا عليك الكتاب) الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل عن مدارستها
وممارستها (يتلى عليهم) في كل زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في مكان

دون مكان اويتلى على اليهود بتحقيق مافى ايديهم من نعتك ونعت دينك (ان فى ذلك) الكتاب العظيم الشان الباقى على مر الدهور (لرحمة) أى نعمة عظيمة (وذكرى) أى تذكرة (لقوم يؤمنون) أى لقوم همهم الايمان لا التعنت كاولئك المقترحين وقيل ان ناسا من المؤمنين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف فيها بعض ما يقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم الى ما جاء به غير نبيهم فنزلت (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) بما صدر عنى وعنكم (يعلم ما فى السموات والارض) أى من الامور التى من جملتها شأنى وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيدا (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله تعالى (وكفروا بالله) مع تعاضد موجبات الايمان به (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان بأن ضيعوا الفطرة الاصلية والادلة السمعية الموجبة للايمان والآية من قبيل المجادلة بالتى هى أحسن حيث لم يصرح بنسبة الايمان بالباطل والكفر بالله والخسران اليهم بل ذكر على منهاج الابهام كما فى قوله تعالى وانا او اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين (ويستعجلونك بالعذاب) على طريقة الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد وقولهم امطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب ونحو ذلك (ولولا أجل مسمى) قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه فى اللوح (لجاءهم العذاب) المعين لهم حسبما استعجلوا به قيل المراد بالاجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم الى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بآجالهم وفيه بعد ظاهر لما أنهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعى ولا كانوا يستعجلون به (وليأتينهم) جملة مستأنفة مبينة لما أشير اليه فى الجملة السابقة من مجىء العذاب عند محل الاجل أى وبالله ليأتينهم العذاب الذى عين لهم عند

الانتظار وان كان ضروريا لابقاء له بدونه ينفطر فؤاده أشد انفطار ومثل هذا اليأس هو الابلاس ولنبين حال المجرم وابلاسه بمثال وهو ان نقول مثله مثل من يكون فى بستان وحواليه الملاعب والملاهى • ولديه ما يفتخر به ويباهى • فيخبره صادق بمجىء عدو لا يرده راد • ولا يصده صاد • اذا جاءه لا يبقيه ريثما • ولا يترك له الى الخلاص طريقا • فينصح عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو مجنون ان هذه الشجرة التى أنت تحتها لها من الخواص دفع الاعادى عمن يكون تحتها فيقبل ذلك الغافل على استيفاء ملاذه معتمدا على الشجرة بقول ذلك الصبى فيجيئه العدو ويحيط به فأول ما يريه من الاهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرا آيسا • مفتقرا بائسا • فكذلك المجرم فى دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبى الصادق بأن الله يجزيه • ويأتيه عذاب يخزيه • فقال له الشيطان والنفس الامارة بالسوء ان هذه الاخشاب التى هى الاوثان دافعة عنك كل باس • وشافعة لك عند خمود الحواس • فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى اذا جاءته الطامة الكبرى فأول ما أرته القاء الاصنام فى النار فلا يجد الى الخلاص من طريق • ويحيق عليه عذاب الحريق • فييأس حينئذ أى اياس • ويبلس أشد ابلاس • واليه الاشارة بقوله تعالى ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم ﷺ ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) ثم بين أمرا آخر يكون فى ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى فى آية أخرى وامتازوا اليوم أيها المجرمون فكأن هذه الحالة مترتبة على الابلاس فكأنه أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق فى الجنة وفريق فى السعير وأعاد قوله ويوم تقوم الساعة لان قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيدا للتخويف ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة فى الخطب لتذكير أهواله ﷺ ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) أى فى جنة يسرون بكل مسرة (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) يعنى لا غيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقال لا يفتر عنهم العذاب وفى الآيتين مسائل فيها لطائف (المسئلة الاولى) بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين وذلك لان المؤمن يوصل اليه الثواب قبل أن يوصل الى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل الى الثواب فيكون انكى ولو أدخل الكافر النار أولا لكان يظن أن الكل فى العذاب مشتركون فقدم ذلك زيادة فى ايلامهم (المسئلة الثانية) ذكر فى المؤمن العمل الصالح ولم يذكر فى الكافر العمل السيئ لان العمل الصالح معتبر مع الايمان فان الايمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية الا بايمانه وعمله الصالح وأما الكافر فهو فى الدركات بمجرد كفره فلو قال والذين كفروا وعملوا السيئات فى العذاب محضرون لكان العذاب لمن

حلول الاجل (بغتة) أى فجأة (وهم لا يشعرون) أى باتيانه ولعل المراد باتيانه كذلك أنه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والاجابة الى مسئولهم فان ذلك اتيان برأيهم وشعورهم لا أنه يأتيهم وهم غارون آمنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الامم بياتا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن اتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وفيه دلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة أى يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذى لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وان العذاب لمحيط بهم أى سيحيط بهم وانما جىء بالجملة الاسمية دلالة على تحقق الاحاطة واستمرارها وتنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فان الكفر والمعاصى الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل ان الكفر والمعاصى هى النار فى الحقيقة لكنها ظهرت فى هذه النشأة بهذه الصورة وقد مر تفصيله فى سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق ولام الكافرين اما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للاشعار بعلة الحكم او للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا (يوم يغشاهم العذاب) ظرف لمضمر قد طوى ذكره ايذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل يوم يغشاهم العذاب الذى أشير اليه باحاطة جهنم بهم يكون من الاحوال ١
والاهوال ما لا يفى به المقال وقيل ظرف للاحاطة (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى من جميع جهاتهم (ويقول) أى الله عز وجل ويعضده القراءة بنون العظمة أو بعض ملائكته بأمره (ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا على الاستمرار

يصدر منه المجموع فان قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور فى القسمين فنقول له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة بل هو فى الاول فى العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور وفى الآخرة هو فى الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد (المسئلة الثالثة) قال فى الاول فى روضة على التنكير وقال فى الآخر فى العذاب على التعريف لتعظيم الروضة بالتنكير كما يقال لفلان مال وجاه أى كثير وعظيم (المسئلة الرابعة) قال فى الاول يحبرون بصيغة الفعل ولم يقل محبورون وقال فى الآخر محضرون بصيغة الاسم ولم يقل يحضرون لان الفعل ينبئ عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله يحبرون يعنى يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به واما الكفار فهم اذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين ﷺ ثم قال تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) لما بين الله تعالى عظمته فى الابتداء بقوله ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وعظمته فى الانتهاء وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى أمر بتنزيهه عن كل سوء وبحمده على كل حال فقال فسبحان الله أى سبحوا الله تسبيحا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى معنى سبحان الله واما لفظه فسبحان اسم للمصدر الذى هو التسبيح سمى التسبيح بسبحان وجعل علما له واما المعنى فقال بعض المفسرين المراد منه الصلاة أى صلوا وذكروا انه اشار الى الصلوات الخمس وقال بعضهم أراد به التنزيه أى نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال وهذا أقوى والمصير اليه أولى لانه يتضمن الاول وذلك لان التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن وبالاركان معهما جميعا وهو العمل الصالح والاول هو الاصل والثانى ثمرة الاول والثالث ثمرة الثانى وذلك لان الانسان اذا اعتقد شيئا ظهر من قلبه على لسانه واذا قال ظهر صدقه فى مقاله من أحواله وأفعاله واللسان ترجمان الجنان والاركان برهان اللسان لكن الصلاة أفضل أعمال الاركان وهى مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان وهو تنزيه فى التحقيق فاذا قال نزهونى وهذا نوع من أنواع التنزيه والامر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أيضا هذا أمرا بالصلاة ثم ان قولنا يناسب ما تقدم وذلك لان الله تعالى لما بين أن المقام الاعلى والجزاء الاوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون قال اذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والايمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الاركان والكل تنزيهات وتحميدات فسبحان الله أى فأتوا بذلك الذى هو الموصل الى الحبور فى

من السماآت التى من جملتها الاستعجال بالعذاب (ياعبادى الذين آمنوا) خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذى لا يتمكنون من
اقامة أمور الدين كما ينبغى لممانعة من جهة الكفرة وارشاد لهم الى الطريق الاسلم (ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون) أى

اذا لم يتسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتيسر لكم اظهار دينكم فهاجروا الى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه عليه الصلاة والسلام من فر بدينه من أرض الى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب شرط محذوف اذ المعنى ان أرضى واسعة ان لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) جملة مستأنفة جىء بها حثا على المسارعة فى الامتثال بالامر أى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكربه فراجعة الى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد من التزود والاستعداد لها وقرئ يرجعون (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لننزلنهم (من الجنة غرفا) أى علالى وهو مفعول ثان للتبوئة وقرئ لنثوينهم من الثواء بمعنى الاقامة فانتصاب غرفا حينئذ اما باجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف الموقت بالمبهم كما فى قوله تعالى لاقعدن لهم صراطك المستقيم (تجرى من تحتها الانهار) صفة لغرفا (خالدين فيها) أى فى الغرف أو فى الجنة (نعم أجر العاملين) أى الاعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه وقرئ فنعم (الذين صبروا) اما صفة للعاملين أو نصب على المدح أى صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون)

الرياض والحضور على الحياض (المسئلة الثانية) خص بعض الاوقات بالامر بالتسبيح وذلك لان أفضل الاعمال أدومها لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون والانسان مادام فى الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته الى التسبيح لكونه محتاجا الى أكل وشرب وتحصيل ما كول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى الى أوقات اذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهى الاول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح فى أول الليل ووسطه ولم يامر بالتسبيح فى آخر الليل لان النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم كما قال ومن آياته منامكم بالليل فاذا صلى فى أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين الى التسبيح ثم اذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات واذا صلى أربعا فى أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات فاذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة الى التسبيح وبقى من الليل والنهار سبع ساعات وهى مابين نصف الليل وثلثيه لان ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات ومابينهما السبع وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيرا واليه أشار تعالى بقوله قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه وزيادة القليل على النصف هى ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة الى النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيقول الله عبدى صرف جميع أوقات تكليفه فى تسبيحى فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التى ادعيتم بقولكم نحن نسبح بحمدك ونقدس لك على سبيل الانحصار بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم فى أعلى عليين واعلم ان فى وضع الصلاة فى أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة أما فى عدد الركعات فما تقدم من كون الانسان يقظان فى سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة وأما على مذهب أبى حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى فنقول هو مأخوذ من أن الانسان ينبغى أن يقلل نومه فلا ينام الا ثلث الليل مأخوذا من قوله تعالى ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ويفهم من هذا ان قيام ثلثى الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ذكر بلفظ التوبة واذا كان كذلك يكون الانسان يقظان فى عشرين ساعة فامر بعشرين ركعة وأما النبى عليه السلام فلما كان من شأنه ان لا ينام أصلا كما قال تنام عيناى ولا ينام قلبى جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فامر به والى هذا أشار تعالى فى قوله ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا أى كل الليل لك للتسبيح فصار هو فى أربع وعشرين ساعة مسبحا فصار من الذين لا يفترون طرفة عين وأما فى أوقاتها فما تقدم أيضا ان الاول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح فى أول النهار وآخره وأما الليل فاعتبر أوله

ووسطه

أى ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون الا على الله تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) روى أن النبى عليه الصلاة والسلام لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة الى المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت أى وكم

من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا تدخره وانما تصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها واياكم) ثم انها مع ضعفها وتوكلها واياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها واياكم الا الله تعالى لان رزق الكل باسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة (وهو السميع) المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا (العليم) المبالغ فى العلم فيعلم ضمائركم (ولئن سألتهم) أى أهل مكة (من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) اذ لا سبيل لهم الى انكاره ولا الى التردد فيه (فأنى يؤفكون) انكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده تعالى فى الالهية مع اقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير (الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (من عباده ويقدر له) أى يقدر لمن يشاء أن يقدره منهم كائنا من كان على أن الضمير مبهم حسب ابهام مرجعه أو يقدر لمن يبسطه له على التعاقب (ان الله بكل شئ عليم) فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدره له أو فيعلم ان كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله) معترفين بانه الموجد للممكنات باسرها أصولها وفروعها ثم انهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شئ ما أصلا (قل الحمد لله) على

ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه وذلك لان الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لانا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذى يكون الانسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته فى نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة الى الرابعة والخامسة ليكون فى وسط الليل المعتبر كما أن الظهر فى وسط النهار وأما النبى صلى الله عليه وسلم لما كان ليله نهارا ونومه انتباها قال لولا ان أشق على أمتى لامرتهم بالسواك وتأخير العشاء الى نصف الليل ليكون الاربع فى نصف الليل كما ان الاربع فى نصف النهار وأما التفصيل فالذى يتبين لى أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما فى أول الليل ويؤدى ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ولما كان المؤدى من تسبيح النهار فى أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل فى أوله ركعة لان سبح النهار طويل مثل ضعف سبح الليل لان المؤدى فى النهار عشرة والمؤدى فى الليل من تسبيح الليل خمس (المسئلة الثالثة) فى فضيلة التسبيحة والحمدلة فى المساء والصباح ولنذكرها من حيث النقل والعقل أما النقل فأخبرنى الشيخ الورع الحافظ الاستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسندا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لبعض أصحابه أتعجز عن أن تأتى وقت النوم بألف حسنة فتوقف فقال النبى عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة وسمعته يقول رحمه الله مسندا من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر مرات الحمد لله وعشر مرات الله أكبر أدخل الجنة وأما العقل فهو ان الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله أما الاولى فهى صفات كمال وجلال خلافها النقص فاذا أدرك المكلف الله بانه لا يجوز أن يخفى عليه شئ لكونه عالما بكل شئ فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده واذا عرفه بانه لا يعجز عن شئ لكونه قادرا على كل شئ فقد نزهه عن العجز واذا علم انه لا يجرى فى ملكه الا مايشاء لكونه مريد الكل كائن فقد وصفه ونزهه واذا ظهر له انه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه واذا بان له انه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه واذا لاح له انه لا يجوز أن يكون عرضا أو جسما أو فى مكان لكونه واجبا بريئا عن جهات الامكان فقد نزهه لكن صفاته السلبية والاضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لافنى فيها عمره ولا يدرك كنهها فاذا قال قائل مستحضرا بقلبه سبحان الله منتبها لما يقوله من كونه منزها له عن كل نقص فاتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الاجمال يقوم مقام اتيانه به على سبيل التفصيل لكن لا ريب فى ان من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفى به الاعمار فيقول هذا العبد أتى بتسبيحى طول عمره ومدة بقائه فاجازيه بان أطهره عن

ان جعل الحق بحيث لايجترئ المبطلون على جحوده وانه أظهر حجتك عليهم وقبل على ان عصمك من أمثال هذه الضلالات ولا يخفى بعده (بل أكثرهم لايعقلون) أى شيأ من الاشياء فلذلك لايعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وقيل لايعقلون ماتريد بتحميدك عند مقالهم ذلك (وماهذه الحيوة الدنيا) اشارة تحقير وازدراء للدنيا وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء (الالهو ولعب) أى الا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون به ساعة ثم يتفرقون عنه (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) أى لهى دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها أوهى فى ذاتها حياة للمبالغة والحيوان مصدر حى سمى به ذو الحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واوا والمافى بناء فعلان من معنى الحركة و الاضطراب اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة فى هذا المقام المقتضى للمبالغة (لو كانوا يعلمون) أى لما آثروا عليها الدنيا التى أصلها عدم الحياة ثم مايحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال (فاذا ركبوا فى الفلك) متصل بمادل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشئ المتحرك وهو متعد بنفسه كما فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها واستعماله ههنا وفى أمثاله بكلمة فى للايذان بان المركوب فى نفسه من قبيل الامكنة وحركته قسرية غير ارادية كما مر فى سورة هود والمعنى انهم

كل ذنب وأزينه بخلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لاانتهاء لها وكما أن العبد ينزه الله فى أول النهار وآخره ووسطه فان الله تعالى يطهره فى أوله وهو دنياه وفى آخره وهو عقباه * وفى وسطه وهو حالة كونه فى قبره الذى يحويه الى أوان حشره وهو مغناه * وأما الثانية وهو صفات الفعل فالانسان اذا نظر الى خلق الله السموات يعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله فاذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله وكذلك القمر وكل كوكب والارض وكل نبات وكل حيوان يقول الحمد لله لكن الانسان لوحمد الله على كل شئ على حدة لايفى عمره به فاذا استحضر فى ذهنه النعم التى لاتعد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الاجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ويقول عبدى استغرق عمره فى حمدى وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم ان الانسان اذا استغرق فى صفات الله قد يدعوه عقله الى التفكر فى الله تعالى بعد التفكر فى آلاء الله فكل مايقع فى عقله من حقيقته فينبغى أن يقول الله أكبر مما أدركه لان المدركات وجهات الادراكات لانهاية لها فان أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذى أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركه من وجه آخر يفنى عمره ولايفى بادراك جميع الوجوه التى يظن الظان انه يدرك بها بتلك الوجوه فاذا قال مع نفسه الله أكبر أى من كل ماأتصوره بقوة عقلى وطاقة ادراكى يكون متوغلا فى العرفان واليه الاشارة بقوله العجز عن درك الادراك ادراك ويقول القائل المستيقظ سبحان الله والحمد لله والله أكبر مفيد لهذه الفوائد لكن شرطه أن يكون كلاما معتبرا وهو الذى يكون من صميم القلب لاالذى يكون من طرف اللسان (المسئلة الرابعة) قوله وعشيا عطف على حين أى سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وقوله وله الحمد فى السموات والارض كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو ان الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله اذا سبحوه وهذا كما فى قوله تعالى يمنون عليك أن أسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان (المسئلة الخامسة) قدم الامساء على الاصباح ههنا وأخره فى قوله وسبحوه بكرة وأصيلا وذلك لان ههنا أول الكلام ذكر الحشر والاعادة من قوله الله يبدأ الخلق ثم يعيده الى قوله فأولئك فى العذاب محضرون وآخر هذه الآية أيضا ذكر الحشر والاعادة بقوله وكذلك تخرجون والامساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة (المسئلة السادسة) فى تعلق اخراج الحى من الميت والميت من الحى بما تقدم عليه هو ان عند الاصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج الانسان من اليقظة الى النوم واختلف المفسرون فى قوله يخرج الحى من الميت فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة

والبيضة

على ماوصفوا من الاشراك فاذا ركبوا فى البحر ولقوا شدة (دعوا الله مخلصين له الدين) أى كائنين على صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث لايدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنه لايكشف الشدائد عنهم الاهو (فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون) أى فاجؤا المعاودة الى الشرك (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) أى يشاركون الاشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة الانجاء التى حقها أن يشكروها (فسوف يعلمون) أى عاقبة ذلك وغائلته حين يرون العذاب (أولم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (أنا جعلنا) أى بلدهم (حرما آمنا) مصونا من النهب والتعدى سالما أهله من كل سوء (ويتخطف الناس من حولهم) أى والحال أنهم يختلسون من حولهم قتلا وسبيا اذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب (أفبالباطل يؤمنون) أى أبعد ظهور الحق الذى لاريب فيه بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق (وبنعمة الله يكفرون) وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به غيره وتقديم الصلة فى الموضعين لاظهار كمال شناعة مافعلوا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان زعم أن له شريكا أى هو أظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم دالا على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (أوكذب بالحق لما جاءه) أى بالرسول او بالقرآن وفى لما تسفيه لهم بانهم لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا الى التكذيب آثر ذى أثير (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) تقرير لثوائهم فيها كقول من قال * ألستم خير من ركب المطايا * أى ألا يستوجبون الثواء فيها وقد فعلوا مافعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح أو انكار واستبعاد لاجترائهم على ماذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا هذه الجراءة

والبيضة من الدجاجة وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ويمكن ان يقال المراد يخرج الحى من الميت أى اليقظان من النائم والنائم من اليقظان وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أى احياء الميت عنده وامانة الحى كتنبيه النائم وتنويم المتنبه ثم قال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وفى هذا معنى لطيف وهو ان الانسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا لكن الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لايتحرك ولايحس والارض الميتة لايكون فيها نماء ثم ان النائم بالانتباه يتحرك ويحس والارض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وانماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك احياء الميت سهل عليه والى هذا أشار بقوله وكذلك تخرجون ۞ ثم قال تعالى (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الاسواء وذكر ان الحمد له على خلق جميع الاشياء وبين قدرته على الامانة والاحياء بقوله فسبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون ذكر ماهو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الانسان من تراب وتقريره هو ان التراب أبعد الاشياء عن درجة الاحياء وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ومن حيث فعله فانه ثقيل والارواح التى بها الحياة خفيفة ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة والى خلف والى قدام والى فوق والى اسفل وفى الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الاجسام لان العناصر أبعد من المركبات لان المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لان الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الارواح والنار أقرب لانها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات التى ينبت فى الارض ولايبرز ولايرتفع ثم النبات وأعلى مراتبها وهى مرتبة الاشجار التى تقبل التعظيم ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها دم سائل ولاهى الى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الانعام ولاسيما الفرس تشبه العتال والجمال والساعى ثم الانسان وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الاشياء عن مرتبة الاحياء حيا هو فى أعلى المراتب لايكون الامنزها عن العجز والجهل ويكون له الحمد على انعام الحياة ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة وفى الآية لطيفتان (احداهما) قوله اذا وهى للمفاجأة يقال خرجت فاذا أسد بالباب وهو اشارة

٨٩ را س

(والذين جاهدوا فينا) أي في شأننا ولوجهنا خالصا أطلق المجاهدة ليعم جهاد الاعادي الظاهرة والباطنة (لنهدينهم سبلنا) سبل السير الينا والوصول الى جنابنا أو لنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وفي الحديث من عمل بما علم ٧٠٦ ورّثه الله علم مالم يعلم (وان الله لمع المحسنين) معية النصر والمعونة • عنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين

•(سورة الروم مكية الاقوله فسبحان الله الآية وهي ستون أو تسع وخمسون آية)•

•(بسم الله الرحمن الرحيم)•

(الم) الكلام فيه كالذى مر في أمثاله من الفواتح الكريمة (غلبت الروم في أدنى الارض) أي أدنى أرض العرب منهم اذ هي الارض المعهودة عندهم وهي أطراف الشام أوفي أدنى أرضهم من العرب على أن اللام عوض عن المضاف اليه قال مجاهد هي أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم الى فارس وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الاردن وفلسطين وقرئ أداني الارض (وهم) أي الروم (من بعد غلبهم) أي من بعد مغلوبيتهم وقرئ بسكون اللام وهي لغة كالجلب والجلب (سيغلبون) أي سيغلبون فارس (في بضع سنين) روي أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى وقيل بالجزيرة كامر فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر اخواننا على اخوانكم فلنظهرن عليكم فقال أبو بكر رضي الله عنه لا يقرّر الله أعينكم فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبيّ بن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه فناحبه على عشر قلائص من كل منهما وجعلا الاجل ثلاث

الى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لانه صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم انسانا وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهي ان الله تعالى يخلق أولا انسانا فينبهه انه يحيي حيوانا ونامياو غير ذلك لانه خلق أولا حيوانا ثم يجعله انسانا فخلق الانواع هو المراد الاول ثم تكون الانواع فيها الاجناس بتلك الارادة الاولى فالله تعالى جعل المرتبة الاخيرة في الشئ البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة الى مرتبة من المراتب التي ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله بشر اشارة الى القوة المدركة لان البشر بشر لا بحركته فان غيره من الحيوانات أيضا كذلك وقوله تنتشرون الى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب اما الادراك فلكثافته وجوده وأما الحركة فلثقله وجموده وقوله تنتشرون اشارة الى ان العجيبة غير مختص بخلق الانسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلا عن خلق البشر وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) وهي ان الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال خلقكم من تراب نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ماقيل ان المراد من قوله خلقكم انه خلق أصلكم (والثاني) أن نقول ان كل بشر مخلوق من التراب اما آدم فظاهر واما نحن فلانا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذي هو بالقوة بعض من الاعضاء والغذاء امامن لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها واما من النبات والحيوان أيضا له غذاء هو النبات لكن النبات من التراب فان الحبة من الحنطة والنواة من التمرة لا تصير شجرة الا بالتراب وينضم اليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو (المسئلة الثانية) قال تعالى في موضع آخر وخلق من الماء بشرا وقال من ماء مهين وههنا قال من تراب فكيف الجمع قلنا أما على الجواب الاول فالسؤال زائل فان المراد منه آدم وأما على الثاني فنقول ههنا قال ماهو أصل أول وفي ذلك الموضع قال ماهو أصل ثان لان ذلك التراب الذي صار غذاء يصير مائعا وهو المني ثم ينعقد ويتكون يخلق الله منه انسانا أونقول الانسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لا ينبت الا بالماء ففي النبات الذي هو أصل غذاء الانسان تراب وماء فان جعل التراب أصلا والماء لجمع اجزائه المتفتتة فالامر كذلك وان جعل الاصل هو الماء والتراب لتثبيت اجزائه الرطبة من السيلان فالامر كذلك فان قال قائل الله تعالى يعلم كل شئ فهو يعلم أن الاصل ماذا هو منهما وانما الامر عندنا مشتبه يجوز هذا وذاك فان كان الاصل هو التراب فكيف قال من الماء بشرا وان كان الماء فكيف قال خلقكم من تراب وان كانا هما أصلين فلم لم يقل خلقكم منهما فنقول فيه لطيفة وهي أن كون التراب أصلا والماء أصلا ليس لذاتيهما وانما هو بجعل الله تعالى فان الله نظرا الى قدرته كان له أن يخلق أول مايخلق الانسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة الى الكامل لا الكامل يكون وسيلة الى الناقص فخلق التراب والماء أولا وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل

سنين فاخبر به أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع مابين الثلاث الى التسع فزايده في الخطر وماده في الاجل فجعلاها مائة قلوص الى تسع سنين ومات أبيّ من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر للفريقين يوم بدر فأخذ أبو بكر ٧٠٧ الخطر من ذرية أبيّ فجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث اخبرت عن الغيب الذي لا يعلمه الا العليم الخبير وقرئ غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى ان الروم غلبت على ريف الشأم وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض بلادهم فاضافة الغلب حينئذ الى الفاعل (لله الامر من قبل ومن بعد) أي في أول الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين اخرا ليس الا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الايام نداولها بين الناس وقرئ من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير مضاف اليه واقتطاعه كأنه قيل قبلا وبعدا بمعنى أولا وآخرا (ويومئذ) أي يوم اذ يغلب الروم على فارس ويحل ماوعده الله تعالى من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفار وقيل نصر الله اظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس وقيل نصره تعالى أنه ولّى بعض الظالمين بعضا وفرّق بين كلمتهم حتى تناقصوا وتفانوا وفلّ كل منهما

للذى هو أكمل من كل كائن وهو الانسان فان كان كونهما أصلين ليس أمرا ذاتيا لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الاصل التراب وتارة الماء ليعلم انه بارادته واختياره فان شاء جعل هذا أصلا وان شاء جعل ذلك أصلا وان شاء جعلهما أصلين (المسئلة الثالثة) قال الحكماء ان الانسان مركب من العناصر الاربعة وهي التراب والماء والهواء والنار وقالوا التراب فيه لثباته والماء لاستمساكه فان التراب يتفتت بسرعة والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب والنار للنضج والالتئام بين هذه الاشياء فهل هذا صحيح أم لا فان كان صحيحا فكيف اعتبر الامرين فحسب ولم يقل في موضع آخر انه خلقكم من نار ولا من ريح فنقول أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه الا اذا قالوا بأنه بالطبيعة كذلك واما ان قالوا بأن الله بحكمته خلق الانسان من هذه الاشياء فلا ننازعهم فيه وأما الآيات فنقول ماذكرتم لا يخالف هذا لان الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب فالاصل الموجود أولا هما لا غير فلذلك خصهما ولان المحسوس من العناصر في الغالب هو التراب والماء ولاسيما كونهما في الانسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر ثم قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) لما بين الله خلق الانسان بين انه لما خلق الانسان ولم يكن من الاشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالاشخاص وجعله بحيث يتوالد فاذا مات الاب يقوم الابن مقامه لئلا يوجب فقد الواحد ثلمة في العمارة لا تنسد وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله خلق لكم دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع كما قال تعالى خلق لكم مافي الارض وهذا يقتضي أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لاتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه الينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى أما النقل فهذا وغيره واما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها واما المعنى فلان المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبي لكن الصبي لم يكلف فكان يناسب ان لا تؤهل المرأة للتكليف لكن النعمة علينا ما كانت تتم الا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ولولا ذلك لظهر الفساد (المسئلة الثانية) قوله من أنفسكم بعضهم قال المراد منه ان حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم ويدل عليه قوله لتسكنوا اليها يعني ان الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه اليه (المسئلة الثالثة) يقال سكن اليه للسكون القلبي و يقال سكن عنده للسكون الجسماني لان كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للاجسام والى للغاية وهي للقلوب

شوكة الآخر وفى ذلك قوة وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى والاول هو الانسب لقوله تعالى (ينصر من يشاء) أى من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فانه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الامر ٧٠٨ من قبل ومن بعد (وهو العزيز) المبالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائنا من كان (الرحيم) المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أى فريق كان والمراد بالرحمة هى الدنيوية اما على القراءة المشهورة فظاهر لما ان كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الاخروية واما على القراءة الاخيرة فلان المسلمين وان كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لان ما قبله فى معنى الوعد كأنه قيل وعد الله وعدا (لا يخلف الله وعده) أى وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد جوز أن تكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه قيل وعد الله وعدا غير مخلف (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ما سبق من شؤنه تعالى (يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا) وهو ما يشاهدونه من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لاهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها الا تمتعهم بزخارفها وتنعمهم بملاذها كما قيل فانهما ليسا مما علموه منها بل من أفعالهم المترتبة على علومهم وتنكير ظاهر للتحقير والتخسيس دون الوحدة كأنهم أى يعلمون ظاهرا حقيرا خسيسا من الدنيا فلا (وهم عن الآخرة) التى هى الغاية القصوى والمطلب الاسنى (هم غافلون) لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا ما يؤدى

(المسئلة الرابعة) قوله وجعل بينكم مودة ورحمة فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ورحمة حالة حاجة صاحبه اليه وهذا لان الانسان يحب مثلا ولده فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك وما ذلك لسبب المحبة وانما هو لسبب الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين أحدهما كون الزوج من جنسه والثانى ما تفضى اليه الجنسية وهو السكون اليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما يفضى الى الآخر فالمودة تكون أولا ثم انها تفضى الى الرحمة ولهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله ان فى ذلك يحتمل أن يقال المراد ان فى خلق الازواج لآيات ويحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات (اما الاول) فلا بد له من فكر لان خلق الانسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الارادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الام فان دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى الى هلاك الام وهلاك الولد أيضا لان الولد لو سل من موضع ضيق بغير اعانة الله لمات (واما الثانى) فكذلك لان الانسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوى الارحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك الا بفكر ۞ ثم قال تعالى

(ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين) لما بين دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والارض فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات انه بسبب ما فى العناصر من الكيفيات وما فى السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والارض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بدا من أن يقول ذلك بقدرة الله وارادته ثم لما أشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الانفس بالاختلاف الذى بين ألوان الانسان فان واحدا منهم مع كثرة عددهم وصغر حجم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها متشبهات فى الصورة والثانى اختلاف كلامهم فان عربيين هما أخوان اذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوبا عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمة بالغة وذلك لان الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الاصوات وأما اللمس والشم والذوق

الى معرفتها من أحوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون وايرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للاولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر للاولى ٧٠٩ وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريرا لجهالتهم وتشبيها لهم بالبهائم المقصور ادراكاتها من الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التى هى مبادى العلم بأمور الآخرة واشعارا بان العلم المذكور وعدم العلم رأسا سيان (أولم يتفكروا) انكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (فى أنفسهم) ظرف للتفكر وذكره مع ظهور استحالة كونه فى غيرها لتحقيق أمره وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والارض وما بينهما) الخ متعلق اما بالعلم الذى يؤدى اليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذى يترتب عليه كما فى قوله تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر عليه ولم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلقهما وما بينهما من المخلوقات التى هم من جملتها ملتبسة بشئ من الاشياء (الا) ملتبسة (بالحق) أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه اثر ما علموه والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق أن يثبت لا محالة لابتنائه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح الذى هو استشهاد المكلفين بذواتهن وصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عز وجل ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التى من جملتها احياؤهم

فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والاول أصح ثم قال تعالى لآيات للعالمين لما كان خلق السموات والارض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التى يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الالوان كذلك واختلاف الاصوات كذلك قال للعالمين لعموم العلم بذلك ۞ ثم قال تعالى (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار فذكر من اللوازم أمرين ومن المفارقة أمرين وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله منامكم بالليل والنهار قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهى القيلولة ثم قال وابتغاؤكم أى فيهما فان كثيرا ما يكتسب الانسان بالليل وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ويدل عليه آيات أخر منها قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا وقوله وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ويكون التقدير هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله فأخر الابتغاء وقرنه فى اللفظ بالفضل اشارة الى أن العبد ينبغى أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله وقوله ولتبتغوا من فضله (المسئلة الثانية) قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار فى الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون الا لحاجة فلا يتعب الا محتاج فى الحال أو خائف من المآل (المسئلة الثالثة) قال آيات لقوم يسمعون وقال من قبل لقوم يتفكرون وقال للعالمين فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل انهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهو اختلاف الالسنة والالوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لا يدوم لزوالهما فى بعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الالسنة والالوان فانهما يدومان بدوام الانسان فجعلهما آيات عامة وأما قوله لقوم يتفكرون فاعلم ان من الاشياء ما يعلم من غير تفكر ومنها ما يكفى فيه مجرد الفكرة ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج الى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها ما يحتاج الى بعض الناس فى تفهمه الى أمثلة حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الازواج لا يقع لاحد أنه بالطبع الا اذا كان جامد الفكر خامد الذكر فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية واما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج الى مرشد بغير فكرة فقال لقوم يسمعون ويجعلون بالهم الى كلام المرشد ۞ ثم قال تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) لما ذكر

بعد الفناء بالحياة الابدية ومجازاتهم بحسب أعمالهم غب ما تبين المحسن من المسيء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم ٧١٠ واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب فى المصنوعات من الآيات والدلائل والامارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله وقد مر تحقيقه فى أوائل سورة هود عليه السلام وقوله تعالى (وأجل مسمى) عطف على الحق أى وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لا بد لها من أن تنتهى اليه لا محالة وهو وقت قيام الساعة هذا وقد جوز أن يكون قوله تعالى فى أنفسهم صلة للتفكر على معنى أولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات اليهم وهم أعلم بشؤنها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الاهمال وأنه لا بد لها من انتهاء الى وقت يجازيها فيه الحكيم الذى دبر أمرها على الاحسان احسانا وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت وأنت خبير بأن أمر معاد الانسان ومجازاته بما عمل من الاساءة والاحسان هو المقصود بالذات والمحتاج الى الاثبات فجعله ذريعة الى اثبات معاد ما عداه مع كونه بمعزل من الجزاء تعكيس للامر فتدبر وقوله تعالى (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) تذييل

العرضيات التى للانفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق وقال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء وفى الآية مسائل (احداها) لما قدم دلائل الانفس ههنا قدم العرضيات التى للانفس وأخر العرضيات التى للآفاق كما أخر دلائل الآفاق بقوله ومن آياته خلق السموات والارض (المسئلة الثانية) قدم لوازم الانفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الالسنة والالوان ثم المنام والابتغاء وقدم فى الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل وذلك لان الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة واما اللوازم فيه فقريبة واما السموات والارض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم فقدم ماهو أعجب لكونه أدخل فى كونه آية ونزيده بيانا فنقول الانسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز عن غيره وهو يتغير فى الاحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة والسماء والارض ثابتان لا يتغيران ثم يرى فى بعض الاحوال امطار هاطلة وبروق هائلة والسماء كما كانت والارض كذلك فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمرا مع تغير المحل ويزيل أمرا مع ثبات المحل (المسئلة الثالثة) كما قدم السماء على الارض قدم ماهو من السماء وهو البرق والمطر على ماهو من الارض وهو الانبات والاحياء (المسئلة الرابعة) كما ان فى انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك فى تقديم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لان البرق اذا لاح فالذى لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له والذى له صهريج أو مصنع يحتاج الى الماء أو زرع يسوى مجارى الماء وأيضا العرب من أهل البوادى فلا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم أن فوائد البرق وان لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهى ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية وأما كونه آية فظاهر فان فى السحاب ليس الا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال فى غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة الى الهواء والماء فالهواء ألطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كماس جسم جسما بعنف وهذا كما ان النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الاشجار فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ثم انا نقول هب ان الامر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الامور الحادثة العجيبة لا بد له من سبب وينتهى الى واجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك (المسئلة الخامسة) قال ههنا القوم يعقلون لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى

مقررا لما قبله ببيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ما ذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والاعراض عن التفكر فيما يرشدهم الى معرفتها من خلق السموات والارض وما بينهما من المصنوعات بل هم ٧١١ منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث (أولم يسيروا) توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا (فى الارض) وقوله تعالى (فينظروا) عطف على يسيروا داخل فى حكم التقرير والتوبيخ والمعنى انهم قد ساروا فى أقطار الارض وشاهدوا (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم المهلكة كعاد وثمود وقوله تعالى (كانوا أشد منهم قوة) الخ بيان لمبدأ أحوالهم ومآلها يعنى أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة (وأثاروا الارض) أى قلبوها للزراعة والحرث وقيل لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك (وعمروها) أى عمرها أولئك بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها مما يعد عمارة لها (أكثر مما عمروها) أى عمارة أكثر كما وكيفا وزمانا من عمارة هؤلاء اياها كيف لا وهم أهل واد غير ذى زرع لا تبسط لهم فى غيره وفيه تهكم بهم حيث كانوا مغترين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضيق عطنهم اذ مدار أمرها على التبسط فى البلاد والتسلط على العباد والتقلب فى أكناف الارض بأصناف التصرفات وهم ضعفة ملجؤن الى واد لا نفع فيه يخافون أن يتخطفهم الناس (وجاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات أو الآيات الواضحات (فما كان الله ليظلمهم) أى فكذبوهم فأهلكهم فما كان الله ليهلكهم

الاوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لان المطرد أقرب الى الطبيعة من المختلف لكن البرق والمطر ليس أمرا مطردا غير متخلف اذ يقع ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن له عقل ان لم يتفكر تفكرا تاما ﴿ ثم قال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون) لما ذكر من العوارض التى للسماء والارض بعضها ذكر من لوازمها البعض وهى قيامها فان الارض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد وهذا من اللوازم فان الارض لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه فان قيل انها تتحرك فى مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على انها فى مكانها لا تخرج عنه وهذه آية ظاهرة لان كونهما فى الموضع الذى هما فيه وعلى الموضع الذى هما عليه من الامور الممكنة وكونهما فى غير ذلك الموضع جائز فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحا للجائز على غيره وذلك لا يكون الا بفاعل مختار والفلاسفة قالوا كون الارض فى المكان الذى هى فيه طبيعى لها لانها أثقل الاشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها فى مكانها ان كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيما بطبعهما فنقول قد تقدم مرارا ان القول بالطبيعة باطل والذى نزيده ههنا انكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه فى الطبع فيجوز حصول مقعره فى موضع محدبه وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لا سيما على السماء الدنيا فانها محددة الجهات على مذهبكم أيضا والارض كانت تجوز عليها الحركة الدورية كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس الا بفاعل مختار وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الله من كل باب أمرين أما من الانفس فقوله خلق لكم استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والارض فى قوله خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان اختلاف اللسان واختلاف الالوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والامطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الارض لان الواحد يكفى للاقرار بالحق والثانى يفيد الاستقرار بالحق ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام بلى ولكن ليطمئن قلبى (المسئلة الثانية) قوله بأمره أى بقوله قوما أو بارادته قيامهما وذلك لان الامر عند المعتزلة موافق للارادة وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع فى الامر الذى للتكليف لا فى الامر الذى للتكوين فانا لا نتنازعهم فى أن قوله كن وكونوا ويا نار كونى موافق للارادة (المسئلة الثالثة) قال ههنا ومن آياته أن تقوم وقال قبله ومن آياته يريكم ولم يقل ان يريكم وان قال بعض المفسرين ان أن مضمر هنالك معناه من آياته ان يريكم ليصير

من غيرجرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع أن اهلاكه تعالى اياهم بلا جرم ليس من الظلم فى شئ على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لاظهار كمال نزاهته تعالى ٧١٢ عن ذلك بابرازه فى معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى وقد مر فى سورة الانفال وسورة آل عمران (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بان اجترؤا على اقتراف ما يوجبه من المعاصى العظيمة (ثم كان عاقبة الذين أساؤا) أى عملو السيئات وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالاساءة والاشعار بعلة الحكم (السوأى) أى العقوبة التى هى أسوأ العقوبات وأفظعها التى هى العقوبة بالنار فانها تأنيث الاسوا كالحسنى تأنيث الاحسن أو مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوأى وهى مرفوعة على أنها اسم كان وخبرها عاقبة وقرئ على العكس وهو أدخل فى الجزالة وقوله تعالى (أن كذبوا بآيات الله) علة لما أشير اليه من تعذيبهم الدنيوى والاخروى أى لأن كذبوا أو بان كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته الظاهرة على أيديهم وقوله تعالى (وكانوا بها يستهزؤن) عطف على كذبوا داخل معه فى حكم العلية وايراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وقد قيل وقيل (الله يبدؤا الخلق) أى ينشئهم (ثم يعيده) بعد الموت بالبعث (ثم اليه ترجعون) الى موقف الحساب والجزاء والالتفات للمبالغة فى الترهيب وقرئ بالياء (ويوم تقوم الساعة) التى هى وقت اعادة الخلق ورجعهم اليه (يبلس المجرمون) أى يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته من فأبلس اذا سكت وأيس من أن يحتج وقرئ

كالمصدر بأن وذلك لان القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدرا لان المستقبل ينبئ عن التجدد وفى البرق لما كان ذلك من الامور التى تتجدد فى زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيأ من الحروف المصدرية (المسئلة الرابعة) ذكر ستة دلائل وذكر فى أربعة منها ان فى ذلك لآيات ولم يذكر فى الاول وهو قوله ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا فى الآخر وهو قوله ومن آياته أن تقوم السماء والارض اما فى الاول فلان قوله بعده ومن آياته أن خلق لكم أيضا دليل الانفس فخلق الانفس وخلق الازواج من باب واحد على ما بيناه غير انه تعالى ذكر من كل باب امرين للتقرير بالتكرير فاذا قال ان فى ذلك لآيات كان عائدا اليهما واما فى قيام السماء والارض فنقول فى الآيات السماوية ذكر انها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان فى أول الامر ظاهرا ففى آخر الامر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يميز أحدا عن أحد فى ذلك وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الاعادة وقال ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون وفيها مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه العطف بثم وبم تعلق ثم فنقول معناه والله أعلم انه تعالى اذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم انه اذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الاجداث يخرجون أحياء (المسئلة الثانية) قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يا فلان اصعد الى الجبل فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل فيقال دعاه من الجبل ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الارض اذا كان الداعى هو الله فالمدعو يدعى من الارض يعنى أنتم تكونون فى الارض فيدعوكم منها فتخرجون (المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذا أنتم قد بينا انه للمفاجأة يعنى يكون ذلك بكن فيكون (المسئلة الرابعة) قال ههنا اذا أنتم تخرجون وقال فى خلق الانسان أولا ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فنقول هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه فاذا هو بشر وأما فى الاعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا ثم ۞ ثم قال تعالى (وله من فى السموات والارض كل له قانتون) لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التى هى الاصل الآخر والوحدانية التى هى الاصل الاول أشار اليها بقوله وله من فى السموات والارض يعنى لا شريك له أصلا لان كل من فى السموات وكل من فى الارض ونفس السموات والارض له وملكه فكل له منقادون قانتون والشريك يكون منازعا مماثلا فلا شريك له أصلا ثم ذكر المدلول الآخر فقال تعالى (وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى فى نظركم الاعادة أهون من الابداء لان من يفعل فعلا أولا يصعب عليه ثم اذا فعل بعد ذلك مثله يكون اهون وقيل المراد هو هين عليه كما قيل فى قول القائل الله أكبر أى كبير وقيل المراد هو أهون عليه أى الاعادة أهون على الخالق

بفتح اللام من أبلسه اذا ألجمه وأسكته (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها فى مقابلة الجمع اى لم يكن لواحد منهم شفيع أصلا (وكانوا بشركائهم كافرين) اى بالهيتهم وشركتهم لله سبحانه حيث وقفوا على كنه أمرهم وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقيل كانوا ٧١٣ فى الدنيا كافرين بسببهم وليس بذاك اذ ليس فى الاخبار به فائدة يعتد بها (ويوم تقوم الساعة) أعيد لتهويله وتفظيع ما يقع فيه وقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) تهويل له اثر تهويل وفيه رمز الى أن التفرق يقع فى بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من بدئهم واعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن الآخر بل تفرقهم الى فريقى المؤمنين والكافرين كما فى قوله تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير وذلك بعد تمام الحساب وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) تفصيل وبيان لاحوال ذينك الفريقين والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وتنكيرها للتفخيم والمراد بها الجنة والحبور السرور يقال حبره اذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين واختلفت فيه الاقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن بكر ابن عياش التيجان على رؤسهم وعن وكيع السماع فى الجنة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم وفى آخر

٩٠ را س القوم اعرابى فقال يا رسول الله هل فى الجنة من سماع قال عليه الصلاة والسلام يا أعرابى ان فى الجنة لنهرا حافتاه الابكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الراوى فسألت

من الابداء لان فى البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحما ثم عظاما ثم يخلق بشرا ثم يخرج طفلا يترعرع الى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله واما فى الاعادة فيخرج بشرا سويا بكن فيكون أهون عليه والوجه الاول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لان فى البدء خلق الاجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الامر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ولنبين هذا فنقول الهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل والاهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الاولى فاذا قال قائل ان الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع الى موضع وعلم السامع له ذلك فاذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون أولى يكون ذلك كلاما معقولا مبقى على حقيقته ۞ ثم قال تعالى (وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون فى الآخر تعب كما يقال ان نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الاولوية من غير لزوم تعب فى الآخر فقوله وله المثل الاعلى اشارة الى أن كونه أهون بالمعنى الثانى لا يفهم منه الاول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهى ان الله تعالى قال فى موضع آخر هو على هين وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا وذلك لان المعنى الذى قال هناك انه هين هو خلق الولد من العجوز وانه صعب على غيره وليس بهين الا عليه فقال هو على هين يعنى لا على غيرى واما ههنا المعنى الذى ذكر انه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدئ أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر فالتقديم هناك كان للحصر وقوله تعالى وله المثل الاعلى فى السموات والارض على الوجه الاول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة اليكم له معنى وعلى الوجه الذى ذكرناه له معنى اما على الوجه الاول فلما قال وله المثل الاعلى وكان ذلك مثلا مضروبا لمن فى الارض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الاعلى من أمثلة الناس وهم أهل الارض ولا يفيد أن له المثل الاعلى من أمثلة الملائكة فقال وله المثل الاعلى فى السموات والارض يعنى هذا مثل مضروب لكم وله المثل الاعلى من هذا المثل ومن كل مثل يضرب فى السموات واما على الوجه الثانى فمعناه أن له المثل الاعلى أى فعله وان شبه بفعلكم ومثل به لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الاعلى وهو منقول عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقيل المثل الاعلى أى الصفة العليا وهى لا اله الا الله وقوله تعالى وهو العزيز الحكيم أى كامل القدرة على الممكنات شامل العلم بجميع الموجودات فيعلم الاجزاء فى الامكنة ويقدر على جمعها وتأليفها ۞ ثم قال تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الوحدانية أيضا بالمثل بعد الدليل ومعناه أن من يكون له مملوك لا يكون شريكا له فى ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد

أبا الدرداء رضى الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح وروى ان فى الجنة لاشجارا عليها أجراس من فضة فاذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله تعالى ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الاشجار فتحرك تلك الاجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التى من جملتها هذه الايات الناطقة بما فصل (ولقاء الآخرة) صرح بذلك مع اندراجه فى تكذيب الآيات للاعتناء بامره وقوله تعالى (فاولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للايذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم فى سلك المشاهدات ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر أى أولئك الموصوفون بما فصل من القبائح (فى العذاب محضرون) على الدوام لايغيبون عنه أبدا (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون) اثر مابين حال فريق المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات ومالهما من الثواب والعذاب أمروا بما ينجى من الثانى ويفضى الى الاول من تنزيه الله عزوجل عن كل مالا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الاول على الثانى لما أن التخلية متقدمة على التحلية والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها اى اذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى أى نزهوه عماذكر سبحانه أى تسبيحه اللائق به فى هذه الاوقات واحمدوه فان الاخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والارض فى معنى الامر به على أبلغ وجه وآكده وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والاشعار بان حقهما أن يجمع بينهما كما ينبئ عنه قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى فسبح بحمد ربك وقوله صلى الله

الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ينبغى أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ثم ان كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم واما المخالفة فموجودة أيضا وهى مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله من أنفسكم يعنى ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله مما ملكت ايمانكم يعنى عبيدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طارئا بل للنقل والزوال اما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لاخروج له من ملك الله بوجه من الوجوه فاذا لم يجز أن يكون مملوك يمينكم شريكا لكم مع انه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه بل هو فى الحال مثلكم فى الآدمية حتى انكم ليس لكم تصرف فى روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذى هو مملوك من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله من شركاء فيما رزقناكم يعنى الذى لكم هو فى الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذى من الله فهو فى الحقيقة له فاذا لم يجز أن يكون لكم شريك فى مالكم من حيث الاسم فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله فأنتم فيه سواء اى هل أنتم ومماليككم فى شئ مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك فى شئ مما يملكه لكن كل شئ فهو لله فما تدعون الهيته لايملك شيأ أصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل اليكم منه واما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك لان المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الاحرار واذا لم يكن للمملوك مع مساواته اياكم فى الحقيقة والصفة عندكم حرمة فكيف يكون حال المماليك الذين لامساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه والى هذا أشار بقوله تخافونهم كخيفتكم أنفسكم (المسئلة الثانية) بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لان الاغيار اذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولاملك فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة وقدرة لانهم عبيد والعبد المملوك لايقدر على شئ فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم فكيف تخافونهم خوفا أكثر من خوفكم بعضا من بعض حتى تعبدوهم للخوف ثم قال تعالى كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون اى نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والامثلة والمحاكات الاقناعية لقوم يعقلون يعنى لايخفى الامر بعد ذلك الاعلى من لايكون له عقل ﴿﴾ ثم قال تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين) اى لايجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل ثم بين أن ذلك بارادة الله بقوله فمن يهدى من أضل الله اى هؤلاء أضلهم

عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وقوله عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بافضل مما جاء به الا أحد قال مثل ماقال أو زاد عليه وقوله عليه الصلاة والسلام كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لايحصى من الآيات والاحاديث وتخصيصهما بتلك الاوقات للدلالة على أن مايحدث فيها من آيات قدرته وأحكام رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتنزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتما وقوله تعالى وعشيا عطف على حين تمسون وتقديمه على حين تظهرون لمراعاة الفواصل وتغيير الاسلوب لما أنه لايجئ منه الفعل بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر فى ذلك أنه ليس من الاوقات التى تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالاوقات المذكورة فان كلا منها وقت تتغير فيه الاحوال تغيرا ظاهرا اما فى المساء والصباح فظاهر وأما فى الظهيرة فلانها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مر فى سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلاة لاشتمالها عليهما وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء وتصبحون صلاة الفجر وعشيا صلاة العصر وتظهرون صلاة الظهر ولذلك ذهب الحسن الى أنها مدنية اذ كان يقول ان الواجب بمكة ركعتان فى اى وقت اتفقتا وانما فرضت الخمس بالمدينة والجمهور على أنها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج وفى آخره هن خمس صلوات كل يوم وليلة وعن النبى صلى الله عليه وسلم من سره أن يكال له بالقفيز الاوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين

أضلهم الله فلا هادى لهم فينبغى أن لايحزنك قولهم وههنا لطيفة وهى ان قوله فمن يهدى من أضل الله مقو لما تقدم وذلك لانه لما قال لان الله لاشريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفا على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذى لايقدر عبده على تصرف يخالف رضاه فقال ان ذلك ليس باستقلاله بل بارادة الله ومالهم من ناصرين لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لايغنى عنهم شيأ فلا ناصر لهم ﴿﴾ ثم قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله) اى اذا تبين الامر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت اليهم وأقم وجهك للدين وقوله فأقم وجهك للدين اى أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه اى ذاته بصفاته وقوله حنيفا اى مائلا عن كل ماعداه اى أقبل على الدين ومل عن كل شئ أى لايكون فى قلبك شئ آخر فتعود اليه وهذا قريب من معنى قوله ولاتكونوا من المشركين ثم قال تعالى فطرت الله اى الزم فطرة الله وهى التوحيد فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ألست بربكم فقالوا بلى وقوله تعالى لاتبديل لخلق الله فيه وجوه قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقيا لايسعد وقيل لاتبديل لخلق الله اى الوحدانية مترسخة فيهم لاتغيرها حتى ان سألتهم من خلق السموات والارض يقولون الله لكن الايمان الفطرى غير كاف ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لاتبديل لخلق الله اى ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا للانسان فانه ينتقل عنه الى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لاخروج للخلق عن العبادة والعبودية وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف وقول المشركين ان الناقص لايصلح لعبادة الله وانما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله وقول النصارى ان عيسى كان يحل الله فيه وصار الها فقال لاتبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لاخروج لهم عن ذلك ﴿﴾ ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذى لاعوج فيه (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن ذلك هو الدين المستقيم ثم قال تعالى (منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) لما قال حنيفا أى مائلا عن غيره قال منيبين اليه اى مقبلين عليه والخطاب فى قوله فأقم وجهك مع النبى والمراد جميع المؤمنين وقوله واتقوه يعنى اذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة اى كونوا عابدين عند حصول القربة كما كنتم قبل ذلك ثم انه تعالى قال ولاتكونوا من المشركين قال المفسرون يعنى ولا تشركوا بعد الايمان اى ولا تقصدوا بذلك غير الله وههنا وجه آخر وهو ان الله بقوله منيبين أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الاشراك

تصبحون الآية وعنه عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله تعالى وكذلك تخرجون أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته وقرئ حينا تمسون وحينا تصبحون اى تمسون فيه وتصبحون فيه (يخرج الحى من الميت) كالانسان من النطفة والطير من البيضة (ويخرج الميت من الحى) النطفة والبيضة من الحيوان (ويحيى الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (وكذلك) ومثل ذلك الاخراج (تخرجون) من قبوركم وقرئ تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده (ومن آياته) الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح مما سبق فان دلالة بدء خلقهم على اعادتهم أظهر من دلالة اخراج الحى من الميت واخراج الميت من الحى ومن دلالة احياء الارض بعد موتها عليها (أن خلقكم) اى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مرارا من أن خلقه عليه الصلاة والسلام منطو على خلق ذرياته انطواء اجماليا (من تراب) لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم (ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) اى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الارض وهذا مجمل ما فصل فى قوله تعالى يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء (أن خلق لكم) اى لاجلكم (من أنفسكم أزواجا) فان خلق أصل ازواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ما عرفته من التحقيق أو من جنسكم لا من جنس آخر وهو الاوفق لقوله تعالى (لتسكنوا اليها) اى لتألفوها وتميلوا اليها وتطمئنوا بها فان المجانسة من دواعى التضام والتعارف كما أن المخالفة من

الظاهر وبقوله ولا تكونوا من المشركين أراد اخراج العبد عن الشرك الخفى اى لا تقصدوا بعملكم الا وجه الله ولا تطلبوا به الا رضا الله فان الدنيا والآخرة تحصل وان لم تطلبوها اذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا يعنى لم يجتمعوا على الاسلام وذهب كل أحد الى مذهب ويحتمل أن يقال وكانوا شيعا يعنى بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار وكل واحد بما فى نظره فرح وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه وانما يكون فرحه بان يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لان كل ما لدينا نافد لقوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وانما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم وبكون ما أوتوا من فضله الذى لا نفاد له ولذلك قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا لا بما عندهم فان كل ما عند العبد فهو نافد أما فى الدنيا فظاهر وأما فى الآخرة فلان ما وصل الى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول ولكن الله يجدد له مثله الى الابد من فضله الذى لا نفاد له فالذى لا نفاد له هو فضله ۞ ثم قال تعالى (واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون) لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل بين ان لهم حالة يعرفون بها وان كانوا ينكرونها فى وقت وهى حالة الشدة فان عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع الى الله ويجد نفسه محتاجة الى شئ ليس كهذه الاشياء طالبة به النجاة ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون يعنى اذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلانى بفلان وبسبب الصنم الفلانى لا بل ينبغى أن لا يعتقد انه تخلص بسبب فلان اذا كان ظاهرا فانه شرك خفى مثاله رجل فى بحر أدركه الغرق فيهيئ الله له لوحا يسوقه اليه ريح فيتعلق به وينجو فيقول تخلصت بلوح أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله اليه رجلا فيعينه فيقول خلصنى زيد فهذا اذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفى وان كان بمعنى ان الله خلصنى على يد زيد فهو أخفى وفيه مسائل (الاولى) قوله تعالى أذاقهم فيه لطيفة وذلك لان الذوق يقال فى القليل فان فى العرف من أكل مأكولا كثيرا لا يقول ذقت ويقال فى النفى ما ذقت فى بيته طعاما نفيا للقليل ليلزم نفى الكثير بالاولى ثم ان تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستقرة فى الآخرة اذلهم فى الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال فى العذاب ذوقوا مس سقر ذوقوا ما كنتم تعملون ذق انك أنت العزيز الكريم لان عذاب الله الواصل الى العبد بالنسبة الى الرحمة الواصلة الى عبيد آخرين فى غاية القلة (المسئلة الثانية) قوله تعالى منه اى من الضر فى هذا التخصيص ما ذكرنا من الفائدة وهى ان الرحمة غير مطلقة لهم انما هى عن ذلك الضر وحده واما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة (المسئلة الثالثة) قال ههنا اذا فريق منهم وقال فى العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ولم يقل

فريق

أسباب التفرق والتنافر (وجعل بينكم) اى بين الازواج اما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور اى جعل بينكم وبينهن كما مر فى قوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وقيل أو بين أفراد الجنس اى بين الرجال والنساء ويأباه قوله تعالى (مودة ورحمة) فان المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعا اى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه لكم توادا وتراحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال تعالى ورحمة منا (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم والقاء المودة والرحمة بينهم وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلته (لآيات) عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيف تلك الافاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أن ما ذكر ليس بآية فذة كما ينبئ عنه قوله تعالى ومن آياته بل هى مشتملة على آيات شتى (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من أمر البعث وما يتلوه من الجزاء (خلق السموات والارض) اما من حيث ان القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة على اعادة ما كان حيا قبل ذلك واما من حيث ان خلقهما وما فيهما ليس الا لمعاش البشر ومعاده كما يفصح عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا وقوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا (واختلاف ألسنتكم) اى لغاتكم بان علم كل صنف لغته وألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس

فريق وذلك لان المذكور ههنا ضر معين وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة الى الخلق قليل والذى لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقا لقلة من خرج من المشركين واما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البر والبحر والامراض والاهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الانواع اذا جمع فهو خلق عظيم وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين واما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم فلما كان الناجى من الضر من المؤمنين جمعا كثيرا جعل الباقى فريقا ۞ ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) قد تقدم تفسيره فى العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا فى قوله فتمتعوا وعدمه هنالك فى قوله وليتمتعوا فسوف يعلمون فنقول لما كان الضر المذكور هنالك ضرا واحدا جاز أن لا يكون فى ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر فالحاضر يصح خطابه بانه منهم فخاطب ۞ ثم قال تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم اى المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون الى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار اى ما أنزلنا بما يقولون سلطانا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أم للاستفهام ولا يقع الا متوسطا كما قال قائلهم

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل * وبين النقا آأنت أم أم سالم

فما الاستفهام الذى قبله فنقول تقديره اذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول أهم يتبعون الاهواء من غير علم أم لهم دليل على ما يقولون وليس الثانى فيتعين الاول (المسئلة الثانية) قوله فهو يتكلم مجاز كما يقال ان كتابه لينطق بكذا وفيه معنى لطيف وهو ان المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له لان الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكان المتكلم لم يتكلم به وما لا دليل عليه لا يقبل فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز اثبات التكلم للدليل وحسن ۞ ثم قال تعالى (واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا فاذا آتاه رضى واذا منعه سخط وقنط ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك بل ينبغى أن يعبد الله فى الشدة والرخاء فمن الناس من يعبد الله فى الشدة كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ومن الناس من يعبده اذا آتاه نعمة كما قال تعالى واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها والاول كالذى يخدم مكرها لمخافة العذاب والثانى كالذى يخدم أجيرا لتوقع الاجر وكلاهما لا يكونان من المثبتين فى ديوان المرتبين فى الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن فكذلك القسمان لا يكونان من

المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم وفيه مسئلة وهي أن قوله تعالى فرحوا بها اشارة الى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل اليهم لا بمن وصل منه اليهم فان قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به في قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة فكيف ذلك فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث انها مضافة الى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما اذا كان من الله وهو كما أن الملك لو حط عند أمير رغيفا على السماط أو أمر الغلمان بان يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الامير به ولو أعطى الملك فقيرا غير ملتفت اليه رغيفا أو زبدية طعام أيضا يفرح لكن فرح الامير يكون ذلك من الملك وفرح الفقير يكون ذلك رغيفا وزبدية ثم قال تعالى وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم لم يذكر عند النعمة سببا لها لتفضله بها وذكر عند العذاب سببا لان الاول يزيد في الاحسان والثاني يحقق العدل * قوله اذا هم يقنطون اذا للمفاجأة أي لا يصبرون على ذلك قليلا لعل الله يفرج عنهم وانه يذكرهم به ۞ ثم قال تعالى (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اى لم يعلموا أن الكل من الله فالمحقق ينبغي أن لا يكون نظره على ما يوجد بل الى من يوجد وهو الله فلا يكون له تبدل حال وانما يكون عنده الفرح الدائم ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ولذلك قال ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ۞ ثم قال تعالى (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغي أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شئ من الدنيا كما هو عادة المد وكر المتسلس يعبد الله اذا كان في الخوانق والرباطات للرغيف والزبدية واذا خلا بنفسه لا يذكر الله بقوله واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وبين أنه ينبغي أن يكون في حالة بسط الرزق وقدره عليه نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الارشاد الى تعظيم الله والايمان قسمان تعظيم لامر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وفيه وجه آخر هو ان الله تعالى لما بين ان الله يبسط الرزق ويقدر فلا ينبغي أن يتوقف الانسان في الاحسان فان الله اذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق واذا قدر لا يزداد بالامساك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تخصيص الاقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الاصناف الثمانية في الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان اليه على كل من له مال سواء كان زكويا أو لم يكن وسواء كان بعد الحول أو قبله لان المقصود ههنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان اليهم وان لم يكن للمحسن مال زائد أما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لا شئ له اذا بقي في ورطة الحاجة حتى

نطقكم وأشكاله فانك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجه (وألوانكم) ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما أو تخطيطات الاعضاء وهيآتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الاشخاص حتى ان التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والامور المتلاقية لهما في التخلق يختلفان في شئ من ذلك لا محالة وان كانا في غاية التشابه وانما نظم هذا في سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والارض مع كونه من الآيات الانفسية المتعلقة بالانتظام في سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم (ان في ذلك) اى فيما ذكر من خلق السموات والارض واختلاف الالسنة والالوان (لآيات) عظيمة في أنفسها كثيرة في عددها (للعالمين) اى المتصفين بالعلم كما في قوله تعالى وما يعقلها الا العالمون وقرئ بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة (ومن آياته منامكم بالليل والنهار) لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم من فضله) فيهما فان كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع في الملوين وان كان الاغلب وقوع الاول في الاول والثاني في الثاني أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة في ذلك خلا أنه فصل بين القرينين الاولين بالقرينين الاخيرين لانهما زمان والزمان مع ما وقع فيه كشئ واحد مع اعانة اللف على الاتحاد (ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) اى شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون في تضاعيف هذا البيان ويستدلون بذلك على شؤونه تعالى (ومن آياته يريكم البرق) الفعل اما مقدر بان كما في قول من قال * الا أيهذا الزاجري أحضر الوغى * اى أن أحضر أو منزل منزلة المصدر

بلغ

بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته وان لم يكن عليه زكاة وكذلك من انقطع في مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها ايصاله الى مأمن يلزمه ذلك وان لم تكن عليه زكاة والفقير داخل في المسكين لان من أوصى للمساكين شيأ يصرف الى الفقراء أيضا واذا نظرت الى الباقين من الاصناف رأيتهم لا يجب صرف المال اليهم الا على الذين وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك في العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ثم اعلم أن على مذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث قال المسكين من له شئ ما فنقول وان كان الامر كذلك لكن لا نزاع في أن اطلاق المسكين على من لا شئ له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه والفقير يدخل في ذلك بالطريق الاولى (المسئلة الثانية) في تقديم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجبا سواء كان في شدة ومخمصة أو لم يكن كان مقدما على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة الا اذا كان في شدة ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدما على من حاجته مختصة بموضع دون موضع (المسئلة الثالثة) ذكر الاقارب في جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذوا القربى ولم يذكر المسكين بلفظ ذي المسكنة وذلك لان القرابة لا تتجدد فهي شئ ثابت وذو كذا لا يقال الا في الثابت فان من صدر منه رأي صائب مرة أو حصل له جاه يوما واحدا أو وجد منه فضل في وقت لا يقال ذو رأي وذو جاه وذو فضل واذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيرا يقال له ذو الراي وذو الفضل فقال ذا القربى اشارة الى أن هذا حق متأكد ثابت وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال مسكينا ذا متربة فان المسكين يدوم له كونه ذا متربة مادامت مسكنته أو يكون كذلك في أكثر الامر (المسئلة الرابعة) قال فآت ذا القربى حقه ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم لان العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولا للتشريك والاولى لكون التشريك واردا على الكلام كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى اذا قال الملك خل فلانا يدخل وفلانا أيضا يكون في التعظيم فوق ما اذا قال خل فلانا وفلانا يدخلان والى هذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله بئس خطيب القوم أنت حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى ولم يقل ومن عصى الله ورسوله (المسئلة الخامسة) قوله ذلك خير يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير في نفسه وان لم يقس الى غيره لقوله تعالى وافعلوا الخير فاستبقوا الخيرات والثاني أولى لعدم احتياجه الى اضمار ولكونه أكثر فائدة لان الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة عند نزول درجة ما يقاس اليه كما يقال السكوت خير من الكذب وما هو خير في نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع (المسئلة السادسة) قوله تعالى للذين يريدون وجه الله اشارة الى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل فان من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله وقوله

وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدي خير من أن تراه أو هو على حاله صفة لمحذوف اى آية يريكم بها البرق كقول من قال * وما الدهر الا تارتان فمنهما * أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح * أى فمنهما تارة أموت فيها وأخرى ابتغي فيها أو ومن آياته شئ أو سحاب يريكم البرق (خوفا) من الصاعقة أو للمسافر (وطمعا) في الغيث أو للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فان اراءتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم اياه أو للمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو اراءة خوف وطمع أو على تأويل الخوف والطمع بالاخافة والاطماع كقولك فعلته رغما للشيطان أو على الحال نحو كلمته شفاها (وينزل من السماء ماء) وقرئ بالتخفيف (فيحيي به الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فانها من الظهور بحيث يكفي في ادراكها مجرد العقل عند استعماله في استنباط أسبابها وكيفية تكونها (ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره) اى بارادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها بالامر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادي والاسباب وليس المراد باقامتهما انشاءهما لانه قد بين حاله بقوله تعالى ومن آياته خلق السموات والارض ولا اقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فان ذلك من تتمات انشائهما وان لم يصرح به تعويلا على ما ذكر في غير موضع من قوله تعالى خلق السموات بغير عمد ترونها الآية بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه الى أجلهما الذي نطق به قوله تعالى ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث في الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به في الذكر

ايضافقيل (ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون) فانه كلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء
أجل قيامهما مترتب على تعداد آياته الدالة عليه غير منتظم فى سلكها كما قيل كأنه قيل ومن آياته قيام السموات
والارض على هيآتهما بأمره تعالى الى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم اذا دعاكم اى بعد انقضاء الاجل من الارض وأنتم فى قبوركم دعوة واحدة بأن قال أيها الموتى اخرجوا فاجأتم الخروج منها وذلك قوله تعالى يومئذ يتبعون الداعى ومن الارض متعلق بدعاكم اذ يكفى فى ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع الى لا بتخرجون لان ما بعد اذا لا يعمل فيما قبلها (وله) خاصة (من فى السموات والارض) من الملائكة والثقلين خلقا وملكا وتصرفا ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه (كل له قانتون) اى منقادون لفعله لا يمتنعون عليه فى شأن من شؤنه تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) بعد موتهم وتكريره لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده من قوله تعالى (وهو أهون عليه) اى بالاضافة الى قدركم والقياس على أصولكم والا فهما عليه سواء وقيل أهون بمعنى هين وتذكير الضمير مع رجوعه الى الاعادة لما أنها مؤولة بان يعيد وقيل هو راجع الى الخلق وليس بذاك وأما ما قيل من أن الانشاء بطريق التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين الفعل والترك والاعادة
من قبيل الواجب الذى لا بد من فعله حتما فكان أقرب الى الحصول من الانشاء المتردد بين الحصول
وعدمه فبمعزل من التحصيل اذ ليس المراد بأهونية الفعل أقربيته الى الوجود باعتبار كثرة الامور الداعية للفاعل الى ايجاده
وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به

وجه الله اى يكون عطاؤه لله لا غير فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله وانما أراد مخلوق الله
(المسئلة السابعة) كيف قال وأولئك هم المفلحون مع ان للافلاح شرائط أخر وهى
المذكورة فى قوله قد أفلح المؤمنون فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح فقوله
والذين هم للزكاة فاعلون وقوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون الى غير ذلك عطف
على المفلح اى هذا مفلح وذاك مفلح وذلك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الافلاح لمن يتصدق
ولا يصلى فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أى نظرا الى علمه ثم اذا حد فى الزنا على
سبيل النكال وقطعت يده فى السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل انما كان ذلك
لانه أتى بالفسق فكذلك ايتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح اللهم الا اذا وجد مانع من
ارتكاب محظور أو ترك واجب (المسئلة الثامنة) لم يذكر غيره من الافعال كالصلاة
وغيرها فنقول الصلاة مذكورة من قبل لان الخطاب ههنا بقوله فآت مع النبى صلى الله
عليه وسلم وغيره تبع وقد قال له من قبل فأقم وجهك للدين حنيفا وقال منيبين اليه
واتقوه وأقيموا الصلاة (المسئلة التاسعة) قوله تعالى وأولئك هم المفلحون يفهم منه
الحصر وقد قال فى أول سورة البقرة وأولئك هم المفلحون اشارة الى من أقام الصلاة
وآتى الزكاة وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة فلو كان المفلح منحصرا
فى أولئك المذكورين فى سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحا فنقول هذا
هو ذلك لانا بينا أن قوله فأقم وجهك للدين متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى
المال وأراد وجه الله فقد ثبت انه مؤمن يقيم الصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار
مثل المذكور فى البقرة ﴿﴾ ثم قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند
الله) ذكر هذا تحريضا يعنى أنكم اذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك
لا يربو عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام ان الصدقة تقع
فى يد الرحمن فتربو حتى تصير مثل الجبل فينبغى أن يكون اقدامكم على الزكاة أكثر ﴿﴾ وقوله
تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) اى أولئك
ذوو الاضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما آتى فى كونه
حسنة لا فى المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفا يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه
أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشر مرات على وجه
التفضل فبالرغيف الواحد يكون له قصر فى الجنة فيه من كل شىء ثوابا نظرا الى الرحمة
وعشر قصور مثله نظرا الى الفضل مثاله فى الشاهد ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها
درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرما بل اذا اجرت عادته بانه يعطى على مثل ذلك ألفا
فاذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب ﴿﴾ ثم قال تعالى (الله الذى خلقكم) اى
أوجدكم (ثم رزقكم) اى أبقاكم فان لعرض مخلوق وليس يبقى (ثم يميتكم ثم يحييكم
هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء) جمع فى هذه الآية بين اثبات الاصلين

بل اسهلية تأتيه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجبا بالغير ولا تفاوت فى ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق
الايجاب أو بطريق الاختيار (وله المثل الاعلى) أى الوصف الاعلى العجيب الشأن من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر
صفات الكمال التى ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها ومن فسره بقول لا اله الا الله أراد به الوصف بالوحدانية
(فى السموات والارض) متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى انه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وقيل متعلق بالاعلى وقيل بمحذوف هو حال منه أو من المثل أو من ضميره فى الاعلى (وهو العزيز) القادر الذى لا يعجز عن بدء ممكن واعادته (الحكيم) الذى يجرى الافعال على سنن الحكمة والمصلحة (ضرب لكم مثلا) يتبين به بطلان الشرك (من أنفسكم) أى منتزعا من أحوالها التى هى أقرب الامور اليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونه بطريق الاولوية وقوله تعالى (هل لكم) الخ تصوير للمثل أى هل لكم (مما ملكت أيمانكم) من العبيد والاماء (من شركاء فيما رزقناكم) من الاموال وما يجرى مجراها مما تتصرفون فيها فمن الاولى ابتدائية والثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفى المستفاد من الاستفهام فقوله تعالى (فأنتم فيه سواء) تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين فى التصرف فيما ذكر من غير مزية لهم عليها على أن هناك محذوفا معطوفا على أنتم لا أنه عام للفريقين بطريق التغليب أى هل ترضون لانفسكم والحال أن عبيدكم أمثالكم فى البشرية وأحكامها أن يشاركوكم فيما
رزقناكم وهو معار لكم فأنتم وهم فيه سواء شرع يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خبرا آخر

الحشر والتوحيد اما الحشر فبقوله ثم يحييكم والدليل قدرته على الخلق ابتداء وأما
التوحيد فبقوله هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ﴿﴾ ثم قال تعالى (سبحانه
وتعالى عما يشركون) فقوله سبحانه اى سبحوه تسبيحا اى نزهوه ولا تصفوه بالاشراك وقوله
وتعالى أى لا يجوز عليه ذلك وهذا لان من لا يتصف بشىء قد يجوز عليه فاذا قال سبحوه
اى لا تصفوه بالاشراك واذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك ﴿﴾ ثم انه تعالى قال
(ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم
يرجعون) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو ان الشرك سبب الفساد كما قال تعالى لو كان
فيهما آلهة الا الله لفسدتا واذا كان الشرك سببه جعل الله اظهارهم الشرك مورثا
لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم لفسدت السموات والارض كما قال تعالى
تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا والى هذا أشار بقوله
تعالى ليذيقهم بعض الذى عملوا واختلفت الاقوال فى قوله فى البر والبحر فقال بعض
المفسرين المراد خوف الطوفان فى البر والبحر وقال بعضهم عدم انبات بعض الاراضى
وملوحة مياه البحار وقال آخرون المراد من البحر المدن فان العرب تسمى المدائن بحورا
لكون مبنى عمارتها على الماء ويمكن أن يقال ان ظهور الفساد فى البحر قلة مياه العيون
فانها من البحار واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون
فى العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقا وعصيانا وذلك لان المعصية فعل لا يكون لله
بل يكون للنفس فالفاسق مشرك بالله بفعله غاية ما فى الباب ان الشرك بالفعل لا يوجب
الخلود لان أصل المرء قلبه ولسانه فاذا لم يوجد منهما الا التوحيد يزول الشرك البدنى
بسببهما ﴿﴾ وقوله تعالى ليذيقهم بعض الذى عملوا فقد ذكرنا ان ذلك ليس تمام جزائهم وكل
موجب افترائهم وقوله لعلهم يرجعون يعنى كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن
من أضله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شىء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع
كما ان السيد اذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام يقول القائل لم لا تؤدبه بالكلام
فاذا قال لا ينفع ربما يقع فى وهمه انه لا يبعد عن نفع فاذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق
كلام السيد ويطمئن قلبه ﴿﴾ ثم قال تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة
الذين من قبل) لما بين حالهم بظهور الفساد فى أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم
هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كافعالهم فقال قل سيروا فى الارض
فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل اى قوم نوح وعاد وثمود وهذا ترتيب فى غاية
الحسن وذلك لانه فى وقت الامتنان والاحسان قال الله الذى خلقكم ثم رزقكم اى
آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال ظهر الفساد فى البر والبحر أى قال
رزقكم ثم قال تعالى سيروا فى الارض أى هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم فكأنه قال
أعطاكم الوجود والبقاء وسلب منكم الوجود والبقاء أما سلب البقاء فباظهار الفساد

لانتم أوحال من ضمير الفاعل فى سواء أى تهابون أن تستبدّوا بالتصرف فيه بدون رأيهم (كخيفتكم أنفسكم) أى خيفة كائنة
مثل خيفتكم من الاحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون مافصل من الجملة الاستفهامية أى لاترضون بأن
يشارككم فيما هو معار لكم مما لككم وهم أمثالكم فى البشرية غير مخلوقة لكم لله تعالى فكيف تشركون به

سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه الذاتية مخلوقه بل مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل الواضح (نفصل الآيات) أى نبينها ونوضحها لاتفصيلا أدنى منه فان التمثيل تصوير للمعانى المعقولة بصورة المحسوس وابراز لأوابد المدركات على هيئة المانوس فيكون فى غاية الايضاح والبيان (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم فى تدبر الامور وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لانهم المنتفعون بها (بل اتبع الذين ظلموا) اعراض عن مخاطبتهم ومحاولة ارشادهم الى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل لم يعقلوا شيأ من الآيات المفصلة بل اتبعوا (اهواءهم) الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشئ فى غير موضعه أو ظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (بغير علم) أى جاهلين بطلان ماأتوا مكبين عليه لايلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم اذا اتبع الباطل علمه ببطلانه (فمن يهدى من أضل الله) أى خلق فيه الضلال بصرف اختياره الى كسبه أى لايقدر بانه
على هدايته أحد (ومالهم) أى لمن أضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى (من ناصرين) يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من

وأماسلب الوجود فبالاهلاك وعند الاعطاء قدم الوجود على البقاء لان الوجود أولا ثم البقاء وعند السلب قدم البقاء وهو الاستمرار ثم الوجود ﴿ وقوله (كان أكثرهم مشركين) يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) ان الهلاك فى الاكثر كان بسبب الشرك الظاهر وان كان بغيره أيضا كالاهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثانى) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا نافيا لكنهم قليلون وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى كما قال تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل كان على الصغار والمجانين ولكن أكثرهم كانوا مشركين ﴿ ثم قال تعالى (فأقم وجهك للدين القيم) لمانهى الكافر عما هو عليه أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ماهو مكلف به فانه أمر به أشرف الانبياء وللمؤمنين فى التكليف مقام الانبياء كما قال عليه الصلاة والسلام ان الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين وقد ذكرناه مرارا ﴿ وقوله (من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) يحتمل وجهين الاول أن يكون قوله من الله متعلقا بقوله يأتى والثانى أن يكون المراد لامرد له من الله أى الله لايرده وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ يصدعون) اى يتفرقون ﴿ ثم اشار الى التفرق بقوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا ولم يقل ومن آمن وذلك لان العمل الصالح به يكمل الايمان فذكره تحريضا للمكلف عليه واما الكفر اذا جاء فلا زينة للعمل معه ووجه آخر وهو ان الكفر قسمان (أحدهما) فعل وهو الاشراك والقول به (والثانى) ترك وهو عدم النظر والايمان فالعاقل البالغ اذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالايمان فهو كافر سواء قال بالشرك أولم يقل لكن الايمان لابد له من العمل الصالح فان الاعتقاد الحق عمل القلب وقول لا اله الا الله عمل اللسان وشئ منه لابد منه (المسئلة الثانية) قال فعليه فوحد الكناية وقال فلانفسهم جمعها اشارة الى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته اما الغضب فمسبوق بالرحمة لازم لمن أساء (المسئلة الثالثة) قال فعليه كفره ولم يبين وقال فى المؤمن فلانفسهم يمهدون تحقيقا لكمال الرحمة فانه عند الخير بين وفصل بشارة وعند غيره اشار اليه اشارة ﴿ ثم قال تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لنفسه الخير وعمله الصالح وهو الجزاء الذى يجازيه به الله والملك اذا كان كبيرا كريما ووعد عبدا من عباده بأنى أجازيك يصل اليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله من فضله يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء ثم انى لاأجازيك من العدل وانما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ﴿ ثم قال تعالى (انه لايحب الكافرين) أوعدهم بوعيد ولم يفصله لماعينا وان كان عند المحقق هذا الاجمال فيه كالتفصيل فان عدم المحبة من الله غاية العذاب وافهم ذلك ممن يكون له معشوق فانه اذا أخبر العاشق

شياطينه وا فانه على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ماهو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع (فأقم وجهك للدين) تمثيل لاقباله على
الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه بترتيب اسبابه فان من اهتم بشئ محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره وقوم له
وجهه مقبلا به عليه اى فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يمينا وشمالا وقوله تعالى (حنيفا) حال من المأمور
أو من الدين (فطرت الله) الفطرة الخلقة وانتصابها على الاغراء أى الزموا أو عليكم فطرة الله فان الخطاب للكل كما يفصح عنه قوله تعالى منيبين والافراد فى أقم لما أن الرسول عليه الصلاة والسلام امام الامة فأمره عليه السلام مستتبع لامرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الاخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر أى فطر الله فطرة وقوله تعالى (التى فطر الناس عليها) صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالامر فان خلق الله الناس على فطرته التى هى عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من ادراكه أو عن ملة الاسلام من موجبات لزومها والتمسك بها قطعا فانهم لوخلوا وما خلقوا عليه أدى بهم اليها وما اختاروا عليها دينا آخر ومن غوى منهم فباغواء شياطين الانس والجن ومنه قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم ان يشركوا بى غيرى وقوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى (لاتبديل لخلق الله)
تعليل للامر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به أى لاصحة ولا استقامة لتبديله بالاخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه
عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لايقدر أحد على أن يغيره فلابد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس

بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته واذا قيل له انه قال الى أحب فلانا كيف يكون سروره وفيه لطيفة وهى أن الله عندما أسند الكفر والايمان الى العبد قدم الكافر فقال من كفر فعليه كفره وعندما أسند الجزاء الى نفسه قدم المؤمن فقال ليجزى الذين آمنوا ثم قال تعالى انه لايحب الكافرين لان قوله من كفر فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله من عمل صالحا لتحريض المؤمن فالنهى كالابعاد والتحريض للتقريب والابعاد مقدم عند الحكيم الرحيم واما عند ماذكر الجزاء بدأ بالاحسان اظهارا للكرم والرحمة فان قال قائل هذا انما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله فى كثير من المواضع قدم ايمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الاثابة فنقول ان كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة وماذكر على خلافه لايكون فى درجة ماورد به القرآن فلنبين من جملته مثالا وهو قوله تعالى يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة قدم المؤمن على الكافر وههنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله يومئذ يصدعون أى يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضا قدم الكافر فى الذكر لانه قال من قبل ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون فذكر الكافر وابلاسه ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فكان ذكر المؤمن وحده لابد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله يبلس المجرمون وقوله فى حق المؤمن فى روضة يحبرون لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال واما الذين كفروا ﴿ ثم قال تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) لماذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر انه بسبب العمل الصالح لماذكرنا غير مرة أن الكريم لايذكر لاحسانه عوضا ويذكر لاضراره سببا لئلا يتوهم به الظلم فقال يرسل الرياح مبشرات قيل بالمطر كما قال تعالى نشرا بين يدى رحمته أى قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح لولم تهب لظهر الوباء والفساد ﴿ ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ماذكرنا أى ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الابدان وليذيقكم من رحمته بالمطر وقد ذكرنا أن الاذاقة تقال فى القليل ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزرا قال وليذيقكم وأما فى الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) لما أسند الفعل الى الفلك عقبه بقوله بأمره أى الفعل ظاهرا عليه ولكنه بأمر الله ولذلك لما قال ولتبتغوا مسندا الى العباد ذكر بعده من فضله أى لا استقلال لشئ بشئ وفى الآية مسائل (الاولى) فى الترتيب فنقول فى الرياح فوائد منها اصلاح الهواء ومنها اثارة السحاب ومنها اجريان الفلك بها فقال مبشرات باصلاح الهواء فان اصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الامطار بعده

القطرة بإزالتها رأسا ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من ادراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الاول
مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة في كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها
وعدم الاخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان (ذلك) اشارة الى الدين المأمور باقامة الوجه له

أو الى لزوم فطرة الله المستفاد من الاغراء أو الى الفطرة ان فسرت بالملة والتذكير بتأويل المذكور أو باعتبار الخبر (الدين القيم) المستوى الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيصدون عنه صدودا (منيبين اليه) حال من الضمير في الناصب المقدر لفطرة الله أو في أقم لعمومه للامة حسبما أشير اليه وما بينهما اعتراض أى راجعين اليه من أناب اذا رجع مرة بعد أخرى وقوله تعالى (واتقوه) أى من مخالفة أمره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى (وأقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين) المبدلين لفطرة الله تعالى تبديلا (من الذين فرقوا دينهم) بدل من المشركين باعادة الجار وتفريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم وفائدة الابدال التحذير عن الانتماء الى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين وقرئ فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به (وكانوا شيعا) أى فرقا تشايع كل منها امامها الذى أضلها (كل حزب بما لديهم) من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل (فرحون) مسرورون ظنا منهم أنه حق

وأنى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من تفريق دينهم وكونهم شيعا وقد جوز أن يكون فرحون
صفة لكل على أن الخبر هو الظرف المقدم أعنى من الذين فرقوا ولا يخفى بعده (واذا مس الناس ضر) أى شدة (دعوا ربهم

ثم جريان الفلك فانه موقوف على اختيار من الآدمى باصلاح السفن والقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها (المسئلة الثانية) قال في قوله تعالى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذى عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته نخاطب ههنا تشريفا ولان رحمته قريب من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم وأيضا قال هنالك بعض الذى عملوا وقال ههنا من رحمته فأضاف ما أصابهم الى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن الى رحمته وفيه معنيان (أحدهما) ما ذكرنا ان الكريم لا يذكر لاحسانه ورحمته عوضا وان وجد فلا يقول أعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك منى وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندى (وثانيهما) ان ما يكون بسبب فعل العبد قليل فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة وأما اذا قال من رحمته كان غاية البشارة ومعنى ثالث وهو انه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما لنقصان ثوابهم في الآخرة وأما في حق الكفار فاذا قال بما فعلتم ينبئ عن نقصان عقابهم وهو كذلك (المسئلة الثالثة) قال هنالك لعلهم يرجعون وقال ههنا ولعلكم تشكرون قالوا واشارة الى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم (المسئلة الرابعة) انما أخر هذه الآية لان في الآيات التى قد سبق ذكرها قلنا انه ذكر من كل باب اثنين فذكر من المنذرات يريكم البرق والحادث في الجو في أكثر الامر نار وريح فذكر الرياح ههنا تذكيرا وتقريرا للدلائل ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة ان لم يكن مطر ذكر هنالك خوفا وطمعا أى قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا مبشرات لان تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم وحكمه به حكم جازم ۞ ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) لما بين الاصلين ببراهين ذكر الاصل الثالث وهو النبوة فقال ولقد أرسلنا من قبلك رسلا أى ارسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها وهو ان الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاؤا أيضا بالبينات وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين وفى قوله تعالى وكان حقا وجهان (أحدهما) فانتقمنا وكان الانتقام حقا واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أى علينا نصركم أيها المؤمنون (والوجه الثانى) وكان حقا علينا أى نصر المؤمنين كان حقا علينا وعلى الاول لطيفة وعلى الآخر أخرى أما على الاول فهو انه لما قال فانتقمنا بين انه لم يكن ظلما وانما كان عدلا حقا وذلك لان الانتقام لم يكن الا بعد كون بقائهم غير مفيد الا زيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرا من وجودهم الخبيث وعلى الثانى تأكيد

منيبين اليه) راجعين اليه من دعاء غيره (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) خلاصا من تلك الشدة (اذا فريق منهم بربهم) الذى كانوا دعوه
منيبين اليه (يشركون) أى فاجأ فريق منهم الاشراك وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى
فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد أى مقيم على الطريق القصد أو متوسط في الكفر لانزجاره في الجملة (ليكفروا بما

آتيناهم) اللام فيه للعاقبة وقيل للامر التهديدى كقوله تعالى (فتمتعوا) غير أنه التفت فيه للمبالغة وقرئ وليتمتعوا (فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم وقرئ بالياء على أن تمتعوا ماض والالتفات الى الغيبة في قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم) للايذان بالاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (سلطانا) أى حجة واضحة وقيل ذا سلطان أى ملكا معه برهان (فهو يتكلم) تكلم دلالة كما في قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق أو تكلم نطق (بما كانوا به يشركون) باشراكهم به تعالى أو بالامر الذى بسببه يشركون (واذا أذقنا الناس رحمة) أى نعمة من صحة وسعة (فرحوا بها) بطرا وأشرا لا حمدا وشكرا (وان تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم (اذا هم يقنطون) فاجؤا القنوط من رحمته تعالى وقرئ بكسر النون (أولم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة (فآت ذا القربى حقه) من الصلة والصدقة وسائر

المبرات (والمسكين وابن السبيل) ما يستحقانه والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أو لمن بسط له كما تؤذن به الفاء (ذلك خير
للذين يريدون وجه الله) ذاته وجهته ويقصدون بمعروفهم اياه تعالى خالصا أو جهة التقرب اليه لا جهة أخرى (وأولئك هم

البشارة لان كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبئ عن اللزوم فاذا قال حقا أكد ذلك المعنى وقد ذكرنا ان النصر هو الغلبة التى لا تكون عاقبتها وخيمة فان احدى الطائفتين اذا انهزمت أولا ثم عادت آخرا لا يكون النصر الا للمنهزم وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم الا نصرة فالكافر ان هزم المسلم في بعض الاوقات لا يكون ذلك نصرة اذ لا عاقبة له ۞ ثم قال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شئ قدير) بين دلائل الرياح على التفصيل الاول في ارسالها قدرة وحكمة اما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذى يشقه البق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار واما الحكمة ففى نفس الهبوب فيما يفضى اليه من اثارة السحب ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعا ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة وما يفضى اليه من انبات الزرع وادرار الضرع حكمة بالغة ثم انه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة وقوله تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم هو تأكيد كما في قوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبل المطر والاولى ان يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله أى من قبل ارسال الرياح وذلك لان بعد الارسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس فقبل المطر اذا هبت الريح لا يكون مبلسا فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل انهم كانوا مبلسين لان من قبله قد يكون راجيا غالبا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله أى من قبل ما ذكرنا من ارسال الريح وبسط السحاب ثم لما فصل قال فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى لما ذكر الدلائل قال لمحيى باللام المؤكدة وباسم الفاعل فان الانسان اذا قال ان الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله انه معطيك لان الثانى يفيد انه أعطاك فكان وهو معط متصفا بالعطاء والاول يفيد انه سيتصف به ويتبين هذا بقوله انك ميت فانه آكد من قوله انك تموت وهو على كل شئ قدير تأكيد لما يفيد الاعتراف ۞ ثم قال تعالى (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) لما بين انهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين ان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم الى الحال لا الى المآل وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال في الآية الاولى يرسل الرياح على طريقة الاخبار

المضعفون) حيث حصلوا بإعطاء النعيم المقيم (وما آتيتم من ربا) زيادة خالية عن العوض عند المعاملة وقرئ أتيتم بالقصر أى غشيتموه أو رهقتموه من اعطاء ربا (ليربو فى أموال الناس) ليزيد ويزكو فى أموالهم (فلا يربو عند الله) أى لا يبارك فيه وقرئ لتربوا أى لتزيدوا أو لتصيروا ذوى ربا ٧٢٦ (وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله) أى تبتغون به وجهه تعالى خالصا

(فأولئك هم المضعفون) أى ذوو الاضعاف من الثواب ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم بالبركة وقرئ بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة ما لا يخفى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ) أثبت له تعالى لوازم الالوهية وخواصها ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له تعالى من الاصنام وغيرها مؤكدا بالانكار على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقد جوز أن يكون الموصول صفة والخبر هل من شركائكم والرابط قوله تعالى من ذلكم لانه بمعنى من أفعاله ومن الاولى والثانية تفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفى وكل منها مستقلة بالتأكيد وقرئ تشركون بصيغة الخطاب (ظهر الفساد فى البر والبحر) كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق واخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار أو الضلالة والظلم وقيل المراد بالبحر قرى السواحل

عن الارسال وقال ههنا ولئن أرسلنا الا على طريقة الاخبار عن الارسال لان الرياح من رحمته وهى متواترة والريح من عذابه وهو تعالى رؤف بالعباد يمسكها ولذلك نرى الرياح النافعة تهب فى الليالى والايام فى البرارى والآكام وريح السموم لا تهب الا فى بعض الازمنة وفى بعض الامكنة (المسئلة الثانية) سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الانواع كثيرة الافراد فجمعها فان كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارة فى أعوام بل الضارة فى الغالب لا تهب فى الدهور (الثانى) هو ان النافعة لا تكون الا رياحا فان ما يهب مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجرى السفن وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو ان الريح المضرة اما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها اما الكيفية فهى اذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم وهذا لا يكون للريح فى هبوبها وانما يكون بسبب ان الهواء الساكن فى بقعة فيها حشائش رديئة أو فى موضع غائر وهو حار جدا أو تكون متكونة فى أول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة لان ذلك الهواء الساكن اذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كاللهيب ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حارا ولا متكيفا لان المكث الطويل شرط التكيف الا ترى انك لو أدخلت اصبعك فى نار واخرجتها بسرعة لا تتأثر والحديد اذا امكث فيها يذوب فاذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد فى ذلك الوقت غيره من جنسه وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد وأما الكمية فالرياح اذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان ومياه العيون اذا اجتمعت تصير نهرا عظيما لا تسده السدود ولا يرده الجلمود ولا شك ان فى ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير فلهذا قال فى المضرة ريح وفى النافعة رياح ﴾ ثم انه تعالى لما علم رسوله أنواع الادلة وأصناف الامثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا واباؤه الا كفرا واصرارا قال له فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الترتيب فنقول ارشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم ارشاد الاصم صعب فانه لا يسمع الكلام وانما يفهم ما يفهمه بالاشارة لا غير والافهام بالاشارة صعب ثم ارشاد الاعمى أيضا صعب فانك اذا قلت له الطريق على يمينك يدور الى يمينه لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب وارشاد الاصم أصعب فلهذا تكون المعاشرة مع الاعمى أسهل من المعاشرة مع الاصم الذى لا يسمع شيأ لان غاية الافهام بالكلام فان ما لا يفهم بالاشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالاشارة فان المعدوم والغائب لا اشارة اليهما فقال أولا لا تسمع الموتى ثم قال ولا الاصم ولا تهدى الاعمى الذى دون الاصم (المسئلة الثانية) قال فى الصم اذا ولوا مدبرين ليكون ادخل فى الامتناع وذلك لان الاصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى ولا يكون نظره الى المشير

وقرى البحور (بما كسبت أيدى الناس) بشؤم معاصيهم أو بكسبهم اياها وقيل ظهر الفساد فى البر بقتل قابيل أخاه هابيل وفى البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى بعض جزائه فان تمامه فى الآخرة

والادم للعلة أو للعاقبة وقرئ لنذيقهم بالنون (لعلهم يرجعون) عما كانوا عليه (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لتشاهدوا آثارهم (كان أكثرهم مشركين) استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم أو كان الشرك فى أكثرهم وما دونه من المعاصى فى قليل منهم ٧٢٧ (فأقم وجهك للدين القيم) اى البليغ الاستقامة

(من قبل أن يأتى يوم لا مرد له) لا يقدر أحد على رده (من الله) متعلق بيأتى أو بمرد لانه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق ارادته القديمة بمجيئه (يومئذ يصدعون) أصله يتصدعون أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره وهو النار المؤبدة (ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) أى يسوون منزلا فى الجنة وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) متعلق بيصدعون وقيل بيمهدون أى يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزى كلا منهما بحسب أعمالهم وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات أبرز ذلك فى معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما أن الاثابة بطريق التفضل لا الوجوب وأشير الى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى (انه لا يحب الكافرين) فان عدم محبته تعالى كناية عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة (ومن آياته أن يرسل الرياح) أى الشمال والصبا والجنوب فانها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا

فانه يسمع ولا يفهم (المسئلة الثالثة) قال فى الاصم لا تسمع الصم الدعاء ولم يقل فى الموتى ذلك لان الاصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوى ولكن صوت الداعى لا يبلغ ذلك الحد فقال انك داع لست بمجئ الى الايمان والداعى لا يسمع الاصم الدعاء (المسئلة الرابعة) قال وما أنت بهادى العمى أى ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وانما ينظم بيتا وبيتين أى ليس شغله ذلك فقوله انك لا تسمع الموتى نفى ذلك عنه وقوله وما أنت بهادى العمى يعنى ليس شغلك ذلك وما أرسلت له ﴾ ثم قال تعالى (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) لما نفى اسماع الميت والاصم وأثبت اسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيا سميعا وهو كذلك لان المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت فى قلبه العقائد الحقة ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الافعال الحسنة وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الايمان غير ان بعضهم يخالف ارادة الله وقوله ان تسمع الا من يؤمن دليل على انه يؤمن فيسمعه النبى صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم قالوا سمعنا وأطعنا ﴾ ثم قال تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف) لما أعاد من الدلائل التى مضت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا وذكر أحوال الريح من أوله الى آخره أعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمى وذكر أحواله فقال خلقكم من ضعف أى مبناكم على الضعف كما قال تعالى خلق الانسان من عجل ومن ههنا كما تكون فى قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنيا أى من حالة فقره ﴾ ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف اشارة الى حالة كان فيها جنينا وطفلا مولودا ورضيعا ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف وقوله ثم جعل من بعد ضعف قوة اشارة الى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله وقوله (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) اشارة الى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هى تمام الضعف ثم بين بقوله يخلق ما يشاء ان هذا ليس طبعا بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى فى دلائل الآفاق فيبسطه فى السماء كيف يشاء وقوله وهو العليم القدير لم قدم العلم على القدرة وقال من قبل وهو العزيز الحكيم فالعزة اشارة الى تمام القدرة والحكمة الى العلم فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا فنقول هناك المذكور الاعادة بقوله وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة تكون بكن فيكون فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير تبشير وانذار لانه اذا كان عالما بأعمال الخلق كان عالما بأحوال المخلوقات فان عملوا خيرا علمه وان عملوا شرا علمه ثم اذا كان قادرا فاذا علم الخير أثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة

وقرئ الريح على ارادة الجنس (مبشرات) بالمطر (وليذيقكم من رحمته) وهى المنافع التابعة لها وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذى هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة معطوفة على مبشرات على المعنى كأنه قيل

ليبشركم بها وليذيقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الارسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا ارسلها لا لامر آخر لا تعلق له بمنافعكم (ولتجرى الفلك) بسوقها (بأمره ولتبتغوا من فضله) بتجارة البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة الله فيها ذكر من الغايات الجليلة (ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم) كما أرسلناك الى قومك (فجاؤهم بالبينات) اى جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك والفاء فى قوله تعالى (فانتقمنا من الذين أجرموا) فصيحة أى فكذبوهم فانتقمنا منهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان المحذوف والاشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم واشعار بأن الانتقام من الكفرة لاجلهم وقد يوقف على حقا على أنه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق وما لحق من أحوال الرياح وأحكامها لانذار الكفرة وتحذيرهم عن الاخلال بمواجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بارسالها كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك الامم من الانتقام (الله الذى يرسل الرياح) استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال الرياح (فتثير سحابا فيبسطه) متصلا تارة (فى السماء) فى جوها (كيف يشاء) سائرا وواقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب الى غير ذلك (ويجعله كسفا) تارة أخرى أى قطعا وقرئ بسكون السين على أنه مخفف جمع كسفة أو مصدر وصف به (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) فى التارتين (فاذا أصاب به من يشاء من عباده) أى بلادهم وأراضيهم

والعقاب اللذين هما بالقدرة قدم العلم وأما فى الآخرة فالعلم بتلك الاحوال مع العقاب فقال وهو العليم الحكيم والى مثل هذا أشار فى قوله فتبارك الله أحسن الخالقين عقيب خلق الانسان فنقول أحسن اشارة الى العلم لان حسن الخلق بالعلم والخلق المفهوم من قوله الخالقين اشارة الى القدرة ثم لما بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها ۞ فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) قيل ما لبثوا فى الدنيا غير ساعة وقيل ما لبثوا فى القبور وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا الى وقت النشور (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق الى الباطل ومن الصدق الى الكذب (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) من الملائكة وغيرهم (لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) ونحن نبين ما هو المعنى اللطيف فى هاتين الآيتين فنقول الموعود بوعد اذا ضرب له اجل يستكثر الاجل ويريد تعجيله والموعد بوعيد اذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها لكن المجرم اذا حشر علم ان مصيره الى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والابقاء فى القبر والمؤمن اذا حشر علم ان مصيره الى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما ان مدة لبثنا قليل واليه الاشارة بقوله يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ويقول الآخر لبثنا مديدا واليه الاشارة بقوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث يعنى كان فى كتاب الله ضرب الاجل الى يوم البعث ونحن صبرنا الى يوم البعث (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) يعنى طلبكم التأخير لانكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به فصار مصيركم الى النار فتطلبون التأخير ۞ ثم قال تعالى (فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) أى لا يطلب منهم الاعتاب وهو ازالة العتب يعنى التوبة التى تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لانها لا تقبل منهم ۞ ثم قال تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار والى انه لم يبق من جانب الرسول تقصير فان طلبوا شيأ آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل بل لا يجوز للمستدل أن يشرع فى دليل آخر بعد ما ذكر دليلا جيدا مستقيما ظاهر الاغبار عليه وعانده الخصم لانه اما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أولا يعترف فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح فى الدليل أو المستدل اما بأن الدليل فاسد واما بان المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبى عليه الصلاة والسلام وان لم يعترف يكون الشروع فى غيره موهما ان الخصم ليس معاندا فيكون اجتراؤه على العناد فى الثانى أكثر لانه يقول العناد افاد فى الاول حيث التزم ذكر دليل آخر فان قيل فالانبياء عليهم السلام ذكروا أنواعا من الدلائل نقول سردوها سردا ثم قرروها فردا فردا كمن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثانى كذا

والثالث

(اذا هم يستبشرون) فاجؤا الاستبشار بمجىء الخصب (وان كانوا) ان مخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف أى وان الشان كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) أى المطر (من قبله) تكرير للتأكيد والايذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الارسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح وأقرب من ذلك أن يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس الى الاستبشار بالاشارة الى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار بشهادة اذا الفجائية (لمبلسين) خبر كانوا واللام فارقة أى آيسين (فانظر الى آثار رحمة الله) المترتبة على تنزيل المطر من النبات والاشجار وأنواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرئ أثر بالتوحيد وقوله تعالى (كيف يحيى) أى الله تعالى (الارض بعد موتها) فى حيز النصب بنزع الخافض وكيف معلق لانظر أى فانظر الى احيائه البديع للارض بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وأيا ما كان فالمراد بالامر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث وقرئ تحيى بالتأنيث على الاسناد الى ضمير الرحمة (ان ذلك) العظيم الشان الذى ذكر بعض شؤنه (لمحيى الموتى) لقادر على احيائهم فانه احداث لمثل ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن احياء الارض احداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية أو لمحييهم البتة وقوله تعالى (وهو على كل شئ قدير) تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الاشياء التى من جملتها احياؤهم لما أن نسبة قدرته الى الكل سواء (ولئن

والثالث كذا وفى مثل هذا الواجب عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يريد بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الاتيان بجميع ما وعد من الدلائل فتنحط درجته فاذن لكل مكان مقال ۞ والى هذا وقعت الاشارة بقوله تعالى (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون) وفى توحيد الخطاب بقوله ولئن جئتهم والجمع فى قوله ان أنتم لطيفة وهى ان الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاء بها يقولون أنتم كلكم ايها المدعون للرسالة مبطلون ۞ ثم بين تعالى ان ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فان قيل من لا يعلم شيأ أية فائدة فى الاخبار عن الطبع على قلبه نقول المعنى هو ان من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ۞ ثم انه تعالى سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله (فاصبر ان وعد الله حق) أى ان صدقك يبين بقوله (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اشارة الى وجوب مداومة النبى عليه الصلاة والسلام على الدعاء الى الايمان فانه لو سكت لقال الكافر انه متقلب الرأى لا ثبات له والله أعلم بالصواب ۞ واليه المرجع والمآب ۞ والحمد لله رب العالمين ۞ وصلاته على سيد المرسلين ۞ وآله وصحبه أجمعين

۞ (سورة لقمان عليه السلام مكية كلها الا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ولو أن ما فى الارض من شجرة الآيتين او الا آية نزلت بالمدينة وهى الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لان الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهى ثلاث وقيل أربع وثلاثون آية) ۞

۞ (بسم الله الرحمن الرحيم) ۞

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم) وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو ان الله تعالى لما قال ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل اشارة الى كونه معجزة وقال ولئن جئتهم بآية اشارة الى انهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله الم تلك آيات الكتاب الحكيم أى هذه آيات ولم يؤمنوا بها والى هذا أشار بعد هذا بقوله واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا ۞ وقوله (هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فقوله هدى أى بيانا وفرقانا وأما التفسير فقد سبق فى تفسير قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى وكما قيل هنالك ان المعنى بذلك هذا كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ويمكن ان يقال كما قلنا هنالك ان تلك اشارة الى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند انزال هذه الآيات التى نزلت مع الم تلك آيات الكتاب الحكيم لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك اشارة الى الكل أى آيات القرآن تلك آيات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال فى سورة البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم فلما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر فى أحواله فقال هدى ورحمة وقال هنالك هدى للمتقين فقوله هدى فى مقابلة قوله الكتاب وقوله ورحمة فى مقابلة قوله الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على

٩٢ را س ١

أرسلنا ريحا فرأوه) أى الاثر المدلول عليه بالآثار أو النبات المعبر عنه بالآثار فانه اسم جنس يعم القليل والكثير (مصفرا) بعد خضرته وقد جوز أن يكون الضمير ٧٣٠ للسحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر ولا يخفى بعده واللام فى لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط والفاء فى فرأوه فصيحة واللام فى قوله تعالى (لظلوا) لام جواب القسم الساد مسد الجوابين أى وبالله لئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفار فرأوه مصفرا لظلوا (من بعده يكفرون) من غير تلعثم وفيه من ذمهم بعد تقنيطهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الافراط والتفريط ما لا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى فى كل حال ويلجؤا اليه بالاستغفار اذا احتبس عنهم القطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا الى الشكر بالطاعة اذا أصابهم برحمته ولا يفرطوا فى الاستبشار وأن يصبروا على بلائه اذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه فعكسوا الامر وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يرديهم (فانك لا تسمع الموتى) لما أنهم مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتى السوء نبوّ أسماعهم عن الحق واعراضهم عن الاصغاء اليه ولو كان فيهم احداهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جمعوهما فان الاصم المقبل الى المتكلم ربما يفطن من أوضاعه وحركاته لشئ من كلامه وان لم يسمعه أصلا وأما اذا كان معرضا عنه فلا يكاد يفهم منه شيأ وقرئ بالياء المفتوحة ورفع الصم (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) فقوله سموا عميا اما لفقدهم المقصود الحقيقى من الابصار أو لعمى قلوبهم وقرئ تهدى العمى (ان تسمع) أى ما تسمع (الا من يؤمن

معنى ذى الحكمة كقوله تعالى فى عيشة راضية أى ذات رضا (المسئلة الثانية) قال هنالك للمتقين وقال ههنا للمحسنين لانه لما ذكر انه هدى ولم يذكر شيأ آخر قال للمتقين أى يهتدى به من يتقى الشرك والعناد والتعصب وينظر فيه من غير عناد ولما زاد ههنا رحمة قال للمحسنين أى المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الاحسان فالمحسن هو الآتى بالايمان والمتقى هو التارك للكفر كما قال تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ومن جانب الكفر كان متقيا وله الجنة ومن أتى بحقيقة الايمان كان محسنا وله الزيادة لقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولانه لما ذكر انه رحمة قال للمحسنين لان رحمة الله قريب من المحسنين (المسئلة الثالثة) قال هنالك الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وقال ههنا الذين يقيمون الصلاة ولم يقل يؤمنون لما بينا ان المتقى هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمنا والمحسن هو الآتى بحق الايمان ويلزمه ان لا يكون كافرا فلما كان المتقى دالا على المؤمن فى الالتزام صرح بالايمان هنالك تبيينا ولما كان المحسن دالا على الايمان بالتنصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى الذين يقيمون الصلاة قد ذكرنا ما فى الصلاة مرارا وما فى الزكاة والقيام بها وذكرنا فى تفسير الانفال فى أوائلها ان الصلاة ترك التشبه بالسيد فانها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة وترك التشبه لازم على العبد أيضا فى أمور لا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه والزكاة تشبه بالسيد فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات والتشبه لازم على العبد أيضا فى أمور كما أن عبد العالم لا يلبس بلباس الاجناد وعبد الجندى لا يلبس بلباس الزهاد وبهما تتم العبودية ۞ ثم قال تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار انهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ثم ان فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الاول) ان ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثانى) هو ان الحديث اذا كان لهوا لا فائدة فيه كان أقبح (الثالث) هو ان اللهو قد يقصد به الاحماض كما ينقل عن ابن عباس انه قال أحمضوا ونقل عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال روحوا القلوب ساعة فساعة رواه الديلمى عن أنس مرفوعا ويشهد له ما فى مسلم يا حنظلة ساعة وساعة والعوام يفهمون منه الامر بما يجوز من المطايبة والخواص يقولون هو أمر بالنظر الى جانب الحق فان الترويح به لا غير فلما لم يكن قصدهم الا الاضلال لقوله ليضل عن سبيل الله كان فعله أدخل فى القبح ثم قوله تعالى بغير علم عائد الى الشراء أى يشترى بغير علم ويتخذها أى يتخذ السبيل هزوا أولئك لهم عذاب مهين قوله مهين اشارة الى أمر يفهم منه الدوام وذلك لان الملك اذا أمر بتعذيب عبد من عبيده فالجلاد ان علم انه ممن يعود الى خدمة الملك ولا يتركه الملك فى الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه وان علم انه لا يعود الى ما كان عليه وأمره قد انقضى فانه لا يكرمه

بآياتنا) فان ايمانهم يدعوهم الى التدبر فيها وتلقيها بالقبول أو الامن يشارف الايمان بها ويقبل عليها اقبالا لائقا (فهم مسلمون) منقادون لما تأمرهم به من الحق (الله الذى خلقكم من ضعف) مبتدأ وخبر أى ٧٣١ ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا أى خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة (ثم جعل من بعد ضعف قوة) وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بابدانكم (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) اذا أخذ منكم السن وقرئ بضم الضاد فى الكل وهو أقوى لقول ابن عمر رضى الله عنهما قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقرأنى من ضعف وهما لغتان كالفقر والفقر والتنكير مع التكرير لان المتقدم غير المتأخر (يخلق ما يشاء) من الاشياء التى من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة (وهو العليم القدير) المبالغ فى العلم والقدرة فان الترديد فيما ذكر من الاطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة (ويوم تقوم الساعة) أى القيامة سميت بها لانها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لانها تقع بغتة وصارت علما لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة (يقسم المجرمون ما لبثوا) أى فى القبور أو فى الدنيا والاول هو الاظهر لان لبثهم مغيا بيوم البعث كما سيأتى وليس لبثهم فى الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفى الحديث ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون وهو محتمل للساعة والايام والاعوام وقيل لا يعلم أهى أربعون سنة أو أربعون ألف سنة (غير ساعة) استقلوا مدة لبثهم نسيانا أو كذبا أو تخمينا (كذلك كانوا يؤفكون) مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق والصدق (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) فى الدنيا من الملائكة والانس

فقوله عذاب مهين اشارة الى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر فان عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين ۞ ثم قال تعالى (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) أى يشترى الحديث الباطل والحق الصراح يأتيه مجانا يعرض عنه واذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث ان المشترى يطلب المشترى مع انه يطلبه يبذل الثمن ومن يأتيه الشئ لا يطلبه ولا يبذل شيأ ثم ان الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأى شئ يجده ويشتريها وهم ما كانوا يطلبونها واذا جاءتهم مجانا ما كانوا يسمعونها ثم ان فيه أيضا مراتب (الاولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (والثانى) الاستكبار ومن يشترى حكاية رستم وبهرام ويحتاج اليها كيف يكون مستغنيا عن الحكمة حتى يستكبر عنها وانما يستكبر الشخص عن الكلام اذا كان يقول انا أقول مثله فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التى من عند الله (الثالث) قوله تعالى كأن لم يسمعها شغل المتكبر الذى لا يلتفت الى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله كأن فى أذنيه وقرا أدخل فى الاعراض ۞ ثم قال تعالى (فبشره بعذاب أليم) أى له عذاب مهين فبشره انت به وأوعده أو يقال اذا كان حاله هذا فبشره بعذاب أليم ۞ وقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم) لما بين حال من اذا تتلى عليه الآيات ولى بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما ان ذلك له مراتب من التولية والاستكبار فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل به فان من سمع شيأ وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم ان هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف (احداها) توحيد العذاب وجمع الجنات اشارة الى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالاضافة الى المعرف اشارة الى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها ايصالا للراحة الى القلب ولا يبين النقمة وانما ينبه عليها تنبيها (الثالثة) قال عذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون وانما أشار الى الخلود بقوله مهين وصرح فى الثواب بالخلود بقوله خالدين فيها (الرابعة) أكد ذلك بقوله وعد الله حقا ولم يذكره هنالك (الخامسة) قال هنالك لغيره فبشره بعذاب وقال ههنا بنفسه وعد الله ثم لم يقل أبشركم به لان البشارة لا تكون الا بأعظم ما يكون لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله وانما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ولولا قوله منه لما عظمت البشارة ولو كانت منه مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير اضافة فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نقول البشارة هنالك لم تكن بالجنة وحدها بل بها وبما ذكر بعدها الى قوله تعالى نزلا من غفور رحيم والنزل ما يهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو العزيز الحكيم كامل

(لقد لبثتم في كتاب الله) في علمه أو قضائه أو ما كتبه وعينه او في اللوح او القرآن وهو قوله تعالى ومن ورائهم برزخ (الى يوم البعث) ردوا بذلك ما قالوه وأيدوه باليمين كأنهم ٧٣٢ من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذي كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون أنه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرون لذلك زمانا مديدا وان لم يعتقدوا تحققه فرد العالمون مقالتهم ونبهوهم على أنهم لبثوا الى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها او بكتوهم بالاخبار بوقوعها حيث قالوا (فهذا يوم البعث) الذي كنتم توعدون في الدنيا (ولكنكم كنتم لا تعلمون) أنه حق فتستعجلون به استهزاء والفاء جواب شرط محذوف كما في قول من قال

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا
ثم القفول فقد جئنا خراسانا

(فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) أي عذرهم وقرئ تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وان توسط بينهما فاصل (ولا هم يستعتبون) لا يدعون الى ما يقتضي اعتابهم أي ازالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا اليه في الدنيا من قولهم استعتبني فلان فاعتبته أي استرضاني فارضيته (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي وبالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنا لهم كل صفة كأنها في غرابتها مثل وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشان كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم ويفعل بهم من رد اعتذارهم (ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بامثال ذلك (ليقولن الذين كفروا) لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين للنبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (ان أنتم الا مبطلون) الا مزورون (كذلك) مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل

القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل كامل العلم يفعل الافعال كما ينبغي فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر ۞ ثم قال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها) بين عزته وحكمته بقوله خلق السموات بغير عمد اختلف قول العلماء في السموات فمنهم من قال انها مبسوطة كصفيحة مستوية وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال انها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالي رحمه الله قال نحن نوافقهم في ذلك فان لهم عليها دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز وان كان في الباب خبر نؤوله بما يحتمله فضلا من أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحا بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى كل في فلك يسبحون والفلك اسم لشيء مستدير بل الواجب ان يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بايجاب وطبع واذا علم هذا فنقول السماء في مكان وهو فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس الا بقدرة مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد أي ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهي لا تزول الا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى ان السموات باسرها ومجموعها لا مكان لها لان المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكنا والحيز ما يشار الى ما فيه بسببه يقال ههنا وهناك وعلى هذا قالوا ان من يقع من شاهق جبل فهو في الهواء في حيز اذ يقال له هو ههنا وهناك وليس في مكان اذ لا يعتمد على شيء فاذا حصل على الارض حصل في مكان اذا علم هذا فالسموات ليست في مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله ترونها فيه وجهان (أحدهما) انه راجع الى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثاني) انه راجع الى العمد أي بغير عمد مرئية وان كان هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وارادته ۞ ثم قال تعالى (وألقى في الارض رواسي ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) أي جبالا راسية ثابتة ان تميد أي كراهية ان تميد وقيل المعنى أن لا تميد واعلم ان الارض ثباتها بسبب ثقلها والا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تنبت للزراعة كما ترى الاراضي الرملة ينتقل الرمل الذي فيها من موضع الى موضع ثم قال تعالى وبث فيها من كل دابة أي سكون الارض فيه مصلحة حركة الدواب فاسكنا الارض وحركنا الدواب ولو كانت الارض متزلزلة وبعض الاراضي يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التي لا تعيش في موضع تقع في ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب اما اذا كانت الارض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك في المواضع التي تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ثم قال تعالى وأنزلنا من السماء ماء هذه نعمة أخرى انعمها الله على عباده وتمامها بسكون الارض لان البذر اذا لم يثبت الى ان ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الارض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات والعدول من المغايبة الى النفس فيه فصاحة وحكمة اما الفصاحة فمذكورة في باب

يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فان الجهل المركب يمنع ادراك الحق ويوجب تكذيب المحق (فاصبر) على ما تشاهده منهم من الاقوال الباطلة والافعال السيئة (ان وعد الله حق) وقد ٧٣٣ وعدك بالنصرة واظهار الدين واعلاء كلمة الحق ولا بد من انجازه والوفاء به لا محالة (ولا يستخفنك) لا يحملنك على الخفة والقلق (الذين لا يوقنون) بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم اياها وايذائهم لك بأباطيلهم التي من جملتها قولهم ان أنتم الا مبطلون فانهم شاكون ضالون ولا يستبدع منهم أمثال ذلك وقرئ بالنون الخفيفة وقرئ ولا يستحقنك من الاستحقاق أي لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين وأياما كان فظاهر النظم الكريم وان كان نهيا للكفرة عن استخفافه عليه السلام واستحقاقه لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن التأثر من استخفافهم والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية كما في قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا • عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والارض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته

سورة لقمان مكية وقيل الا الآيتين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة فان وجوبهما بالمدينة وهو ضعيف لانه ينافي شرعيتهما بمكة وقيل الا ثلاثا من قوله ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام وهي أربع أو ثلاث وثلاثون آية

• (بسم الله الرحمن الرحيم) •

(الم تلك آيات الكتاب) سلف بيانه في نظائره (الحكيم) أي ذي الحكمة لاشتماله عليها أو هو وصف له بنعته تعالى أو أصله الحكيم منزله او قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن في الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل

الالتفات من ان السامع اذا سمع كلاما طويلا من نمط واحد ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه الا ترى انك اذا قلت قال زيد كذا وكذا وقال خالد كذا وكذا وقال عمرو كذا ثم ان بكرا قال قولا حسنا يستطاب لما قد تكرر القول مرارا واما الحكمة فمن وجهين (أحدهما) أن خلق الارض ثقيلا والسماء في غير مكان قد يقع لجاهل انه بالطبع وبث الدواب يقع لبعضهم انه باختيار الدابة لان لها اختيارا فنقول الاول طبيعي والآخر اختياري للحيوان ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعا فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارا اذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالى فقال وأنزلنا من السماء (الثاني) هو ان انزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان متكثرة في كل مكان فأسنده الى نفسه صريحا ليتنبه الانسان لشكر نعمته فيزيده من رحمته وقوله تعالى فأنبتنا فيها من كل زوج أي من كل جنس وكل جنس فتحته زوجان لان النبات اما أن يكون شجرا واما ان يكون غير شجر والذي هو الشجر اما أن يكون مثمرا واما أن يكون غير مثمر والمثمر كذلك ينقسم قسمين وقوله تعالى كريم أي ذي كرم لانه يأتي كثيرا من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للمبغض ۞ ثم قال تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) يعني الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق ۞ ثم قال تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين) أي بين أو مبين للعاقل انه ضلال وهذا لان ترك الطريق والحيد عنه ضلال ثم ان كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد الى ورائه فانه يكون غاية الضلال فالمقصد هو الله تعالى فمن يطلبه ويلتفت الى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال لكن من وجهه الى الله قد يصل الى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ومن يطلبه ولا يلتفت الى ما سواه يكون كالذي على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب واما الذي تولى لا يصل الى المقصود أصلا وان دام في السفر والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعباداتهم في غير موضعها او الواضعون أنفسهم في عبادة غير الله ۞ ثم قال تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم باشراك من لا يخلق شيئا بمن خلق كل شيء بقوله هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه وبين أن المشرك ظالم ضال ذكر ما يدل على ان ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وان لم يكن هناك نبوة وهذا اشارة الى معنى وهو ان اتباع النبي عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه اظهارا للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة بل يدرك بالعقل معناه وما يأتي به النبي عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وانه أدركها بالحكمة وقوله ولقد آتينا لقمان الحكمة عبارة عن توفيق العمل بالعلم فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة وان أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول حصول العمل على وفق المعلوم والذي يدل على ما ذكرنا ان من تعلم شيئا ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وانما

بمعنى مفعل كما قالوا أعقدت اللبن فهو عقيد أى معقد وهو قليل وقيل بمعنى فاعل (هدى ورحمة) بالنصب على الحالية من الآيات والعامل فيهما معنى الاشارة وقرئتا بالرفع ٧٣٤ على انهما خبران آخران لاسم الاشارة أو لمبتدا محذوف (للمحسنين) أى العاملين

يكون مجنونا الا ترى ان من يلقى نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال انه حكيم وان ظهر ان فعله مصلحة وخلوه عن مفسدة لعدم علمه به أولا ومن يعلم ان الالقاء فيه اهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان وتتكسر أعضاؤه لا يقال انه حكيم وان علم ما يكون فى فعله ثم الذى يدل على ما ذكرنا قوله تعالى أن اشكر لله فان أن فى مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله ايتاء الحكمة بقوله أن اشكر لله وهو كذلك لان من جملة ما يقال ان العمل موافق للعلم لان الانسان اذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر فان اشتغل بالاهم كان عمله موافقا لعلمه وكان حكمة وان أهمل الاهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة فى شئ لكن شكر الله أهم الاشياء فالحكمة أول ما تقتضى ذلك ثم ان الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع الا الشاكر ۞ بقوله (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله (ومن كفر فان الله غنى حميد) أى الله غير محتاج الى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو فى نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه وفى الآية مسائل ولطائف (الاولى) فسر الله ايتاء الحكمة بالامر بالشكر لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغي ان يكون قد أوتى الحكمة والجواب ان قوله تعالى أن اشكر لله أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بان جعلناه من الشاكرين وفى الكافر الامر بالشكر أمر تكليف (المسئلة الثانية) قال فى الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل وفى الكفران ومن كفر فان الله غنى وان كان الشرط يجعل الماضى والمستقبل فى معنى واحد كقول القائل من دخل دارى فهو حر ومن يدخل دارى فهو حر فنقول فيه اشارة الى معنى وارشاد الى أمر وهو ان الشكر ينبغي أن يتكرر فى كل وقت لتكرر النعمة فمن شكر ينبغي أن يكرر والكفر ينبغي ان ينقطع فمن كفر ينبغي ان يترك الكفران ولان الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل أبدا يكون منه شئ فى العدم يريد الشاكر ادخاله فى الوجود كما قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك وكما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فأشار اليه بصيغة المستقبل تنبيها على أن الشكر بكماله لم يوجد وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقال بصيغة الماضى (المسئلة الثالثة) قال تعالى هنا ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران وقال فى سورة الروم ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون فنقول هنالك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون وههنا الذكر للترغيب لان وعظ الاب للابن يكون بطريق اللطف والوعد وقوله ومن عمل صالحا يحقق ما ذكرنا أولا لان المذكور فى سورة الروم لما كان بعد اليوم الذى لا مرد له تكون الاعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضى ومن عمل وههنا لما كان المذكور فى الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله ومن كفر فان الله غنى عن حمد الحامدين حميد فى ذاته من غير حمدهم وانما الحامد ترتفع

للمحسنات فان أريد بها مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة قوله

الالمعى الذى يظن بك الظن
كأن قد رأى وقد سمعا

وان أريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من بين سائر شعبها لاظهار فضلها وانافتها على غيرها وتخصيص الوجه الاول بصورة كون الموصول صفة للمحسنين والوجه الاخير بصورة كونه مبتدأ مما لا وجه له (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطرى العلم والعمل وقد مر ما فيه من المقال فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن الناس) محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه او بتقدير الموصوف ومن فى قوله تعالى (من يشترى لهو الحديث) موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذى يشترى أو فريق يشترى على أن مناط الافادة والمقصود بالاصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين كما مر فى قوله تعالى

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الآيات ولهو الحديث ما يلهى عما يعنى من المهمات كالاحاديث التى لا أصل لها والاساطير التى لا اعتداد بها والمضاحك وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام والاضافة بمعنى من التبيينية ان

أريد بالحديث المنكر وبمعنى التبعيضية ان أريد به الاعم من ذلك وقيل نزلت الآية فى النضر بن الحرث اشترى كتب الاعاجم وكان يحدث بها قريشا ويقول ان كان محمد عليه الصلاة والسلام يحدثكم ٧٣٥ بحديث عاد وثمود فانا احدثكم بحديث

مرتبته بكونه حامدا لله تعالى ۞ ثم قال تعالى (واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا فى نفسه وحين جعلناه واعظا لغيره وهذا لان علو مرتبة الانسان بان يكون كاملا فى نفسه ومكملا لغيره فقوله أن اشكر اشارة الى الكمال وقوله واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه اشارة الى التكميل وفى هذا لطيفة وهى ان الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبى عليه السلام الذى أرشد الاجانب والاقارب فان ارشاد الولد امر معتاد واما تحمل المشقة فى تعليم الاباعد فلا ثم انه فى الوعظ بدأ بالاهم وهو المنع من الاشراك وقال ان الشرك لظلم عظيم اما انه ظلم فلانه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم فى عبادة الخسيس اولانه وضع العبادة فى غير موضعها وهى غير وجه الله وسبيله واما انه عظيم فلانه وضع فى موضع ليس موضعه ولا يجوز أن يكون موضعه وهذا لان من يأخذ مال زيد ويعطى عمرا يكون ظالما من حيث انه وضع مال زيد فى يد عمرو ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق واما الاشراك فوضع المعبودية فى غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودا أصلا ۞ ثم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها فى الصورة بين انها غير ممتنعة بل هى واجبة لغير الله فى بعض الصور مثل خدمة الابوين ثم بين السبب فقال حملته أمه يعنى لله على العبيد نعمة الايجاد ابتداء بالخلق ونعمة الابقاء بالرزق وجعل بفضله للام ماله صورة ذلك وان لم يكن لها حقيقة فان الحمل به يظهر الوجود وبالرضاع يحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أى صارت بقدرة الله سبب وجوده وفصاله فى عامين أى صارت بقدرته أيضا سبب بقائه فاذا كان منها ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما له شبه العبادة من الخدمة فان الخدمة لها صورة العبادة فان قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب فى حق الام فنقول خص الام بالذكر وفى الاب ما وجد فى الام فان الاب حمله فى صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو ابلغ وقوله أن اشكر لى ولوالديك لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله فان الوجود فى الحقيقة من الله وفى الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال أن اشكر لى ولوالديك ثم بين الفرق وقال الى المصير يعنى نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتى فى الدنيا والآخرة فان الى المصير او نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وقت المصير الى ۞ ثم قال تعالى (وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) يعنى ان خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله اما اذا أفضى اليه فلا تطعهما وقد

رستم واسفنديار والاكاسرة وقيل كان يشترى القيان ويحملهن على معاشرة من أراد الاسلام ومنعه عنه (ليضل عن سبيل الله) أى دينه الحق الموصل اليه تعالى أو عن قراءة كتابه الهادى اليه تعالى وقرئ ليضل بفتح الياء أى ليثبت ويستمر على ضلاله أو ليزداد فيه (بغير علم) أى بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض (ويتخذها) بالنصب عطفا على يضل والضمير للسبيل فانه مما يذكر ويؤنث وهو دين الاسلام أو القرآن أى ويتخذها (هزوا) مهزوا به وقرئ ويتخذها بالرفع عطفا على يشترى وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار اليه للايذان ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للاضلال (لهم عذاب مهين) لما اتصفوا به من اهانتهم الحق بايثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه (واذا تتلى عليه) أى على المشترى أفرد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأول باعتبار لفظها من بعد ما جمع فيما بينهما باعتبار معناها (آياتنا) التى هى آيات الكتاب الحكيم وهدى ورحمة للمحسنين (ولى)

أعرض عنها غير معتد بها (مستكبرا) مبالغا فى التكبر (كأن لم يسمعها) حال من ضمير ولى أو من ضمير مستكبرا والاصل كأنه فحذف ضمير الشأن وخففت المثقلة أى مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز الى أن من سمعها لا يتصور منه التولية

ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت وقال ههنا واتبع سبيل من أناب الي يعني صاحبهما بجسمك فان حقهما على جسمك واتبع سبيل النبي عليه السلام بعقلك فانه مربي عقلك كما ان الوالد مربي جسمك ❊ ثم قال تعالى (يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السموات أو في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) لما قال فأنبئكم بما كنتم تعملون وقع لابنه ان ما يفعل في خفية يخفى فقال يا بني انها أي الحسنة والسيئة ان كانت في الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فتكن بالفاء لافادة الاجتماع يعني ان كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله لان الفاء للاتصال بالتعقيب (المسئلة الثانية) لو قيل الصخرة لابد من ان تكون في السموات او في الارض فما الفائدة في ذكرها ولان القائل لو قال هذا رجل أو امرأة او ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلا في أحد القسمين فكيف يفهم هذا فنقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ما قاله بعض المفسرين وهو ان المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لا في الارض ولا في السماء (والثاني) ما قاله الزمخشري وهو ان فيه اضمارا تقديره فتكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الارض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز أما الثاني فلما بينتم ان من قال هذا في دار زيد أو في غيرها او في دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة في قوله او في غيرها واما الاول فلان قول القائل هذا في دار زيد او في دار عمرو او في غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الاخص او نقول خفاء الشئ يكون بطرق منها ان يكون في غاية الصغر ومنها ان يكون بعيدا ومنها ان يكون في ظلمة ومنها ان يكون من وراء حجاب فان انتفت الامور باسرها بان يكون كبيرا قريبا في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العادة فاثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله انها ان تك مثقال حبة اشارة الى الصغر وقوله فتكن في صخرة اشارة الى الحجاب وقوله او في السموات اشارة الى البعد فانها ابعد الابعاد وقوله او في الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض اظلم الاماكن وقوله يأت بها الله ابلغ من قول القائل يعلمها الله لان من يظهر له الشئ ولا يقدر على اظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشئ ويظهره لغيره فقوله يأت بها الله أي يظهرها الله للاشهاد وقوله ان الله لطيف أي نافذ القدرة خبير أي عالم ببواطن الامور ❊ ثم قال تعالى (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور) لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته امره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصا وبهذا يعلم ان الصلاة كانت في سائر الملل غير ان هيئتها اختلفت ثم قال تعالى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر أي اذا كملت انت في نفسك بعبادة الله فكمل

والاستكبار لما فيها من الامور الموجبة للاقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول من قال ❊ كأنك لم تجزع على ابن طريف ❊ (كأن في أذنيه وقرا) حال من ضمير لم يسمعها أي مشبها حاله حال من في أذنيه ثقل مانع من السماع ويجوز ان يكونا استئنافين وقرئ في أذنيه بسكون الذال (فبشره بعذاب ٧٣٦ أليم) أي فأعلمه بان العذاب المفرط في الايلام لاحق به لا محالة وذكر البشارة للتهكم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى اثر بيان حال الكافرين بها أي الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها (لهم) بمقابلة ما ذكر من ايمانهم وأعمالهم (جنات النعيم) أي نعيم جنات فعكس للمبالغة والجملة خبر ان والاحسن ان يجعل لهم هو الخبر لان وجنات النعيم مرتفعا به على الفاعلية وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم لاشتماله على ضميريهما والعامل ما تعلق به اللام (وعد الله حقا) مصدران مؤكدان الاول لنفسه والثاني لغيره لان قوله تعالى لهم جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقا فدل على معنى الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعا لهم جنات النعيم (وهو العزيز) الذي لا يغلبه شئ ليمنعه من انجاز وعده او تحقيق وعيده (الحكيم) الذي لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة (خلق السموات بغير عمد) الخ استئناف مسوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وابطال أمر الاشراك وتبكيت أهله والعمد جمع عماد كأهب جمع اهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط اذا دعمته أي بغير دعائم على ان الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى (ترونها) استئناف جيء به للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى لها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك او صفة لعمد أي خلقها

غيرك فان شغل الانبياء وورثتهم من العلماء هو ان يكملوا في انفسهم ويكملوا غيرهم فان قال قائل كيف قدم في وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهي عن المنكر وقبل قدم النهي عن المنكر على الامر بالمعروف فانه اول ما قال يا بني لا تشرك ثم قال يا بني اقم الصلاة فنقول هو كان يعلم من ابنه انه معترف بوجود الله فما امره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف فان المشرك بالله لا يكون نافيا الله في الاعتقاد وان كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكر والمعروف في معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لانه ورد في التفسير ان ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى اسلم واما ههنا فأمره امرا مطلقا والمعروف مقدم على المنكر ثم قال تعالى واصبر على ما أصابك يعني ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه وقوله ان ذلك من عزم الامور أي من الامور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول كما تقول أكلي في النهار رغيف خبز أي مأكولي ❊ ثم قال تعالى (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور) لما امره بان يكون كاملا في نفسه مكملا لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين (احدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثاني) التبختر في النفس بسبب كونه كاملا في نفسه فقال ولا تصعر خدك للناس تكبرا ولا تمش في الارض مرحا تبخترا ان الله لا يحب كل مختال يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر فخور يعني من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال اقم الصلاة ثم قال وأمر بالمعروف وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال ولا تصعر خدك ثم قال ولا تمش في الارض مرحا لان في طرف الاثبات من لا يكون كاملا لا يمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال وفي طرف النفي من يكون متكبرا على غيره يكون متبخترا لانه لا يتكبر على الغير الا عند اعتقاده انه اكبر منه من وجه واما من يكون متبخترا في نفسه قد لا يتكبر ويتوهم انه يتواضع للناس فقدم نفي التكبر ثم نفي التبختر لانه لو قدم نفي التبختر لزم منه نفي التكبر فلا يحتاج الى النهي عنه ومثاله انه لا يجوز أن يقال لا تفطر ولا تأكل لان من لا يفطر لا يأكل ويجوز أن يقال لا تأكل ولا تفطر لان من لا يأكل قد يفطر بغير الاكل ولقائل أن يقول ان مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أي لا تفطر بان تأكل ولا يكون نهيين بل واحدا ❊ ثم قال تعالى (واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير) لما قال ولا تمش في الارض مرحا وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذي يخالف غاية الاختلاف وهو مشي المتماوت الذي يرى من نفسه الضعف تزهدا فقال واقصد في مشيك أي كن وسطا بين الطرفين المذمومين وفي الآية مسائل (الاولى) هل للامر بالغض من الصوت مناسبة مع

بغير عمد مرئية على أن التقييد للرمز الى أنه تعالى عمدها بعمد لا ترونها هي عمد القدرة (وألقى في الارض رواسي) بيان لصنعه البديع في قرار الارض اثر بيان صنعه الحكيم في قرار السموات أي ألقى فيها جبالا ثوابت وقد مر ما فيه من الكلام في سورة الرعد (أن تميد بكم) كراهة أن تميل بكم فان بساطة أجزائها تقتضي تبدل ٧٣٧ أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشئ من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص (وبث فيها من كل دابة) من كل نوع من أنواعها (وأنزلنا من السماء ماء) هو المطر (فأنبتنا فيها) بسبب ذلك الماء (من كل زوج كريم) من كل صنف كثير المنافع والالتفات الى نون العظمة في الفعلين لابراز مزيد الاعتناء بأمرها (هذا) أي ما ذكر من السموات والارض وما تعلق بهما من الامور المعدودة (خلق الله) أي مخلوقه (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به المعبودية وماذا نصب بخلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته وأروني متعلق به وقوله تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين) اضراب عن تبكيتهم بما ذكر الى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعي للاعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيئا فيهتدوا به الى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم باشراكهم واضعون للشئ في غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب

الخالد (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من اولاد آزر ابن أخت أيوب عليه السلام أو خالته وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل

مبعثه وقيل كان قاضيا فى بنى اسرائيل والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا والحكمة فى عرف العلماء استكمال النفس الانسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الافعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهورا وكان يسرد الدرع فلم ٧٣٨ يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال

له داود عليه السلام بحق ما سميت حكيما وأن داود عليه السلام قال له يوما كيف أصبحت فقال أصبحت فى يدى غيرى فتفكر داود فيه فصعق صعقة وأنه أمره مولاه بان يذبح شاة ويأتى باطيب مضغتين منها فاتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بان يأتى باخبث مضغتين منها فاتى بهما أيضا فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شئ اذا طابا وأخبث شئ اذا خبثا ومعنى (أن اشكر لله) أى اشكر له تعالى على أن أن مفسرة فان ايتاء الحكمة فى معنى القول وقوله تعالى (ومن يشكر) الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالامر أى ومن يشكر له تعالى (فانما يشكر لنفسه) لان منفعته التى هى ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها (ومن كفر فان الله غنى) عن كل شئ فلا يحتاج الى الشكر ليتضرر بكفر من كفر (حميد) حقيق بالحمد وان لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى مشكورا لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال عليه الصلاة والسلام الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده فاثباته له تعالى اثبات للشكر له قطعا (واذ قال لقمان لابنه) أنعم وقيل أشكم وقيل ماثان (وهو يعظه يا بنى) تصغير اشفاق وقرئ يا بنى باسكان الياء وبكسرها (لا تشرك بالله) قيل كان ابنه كافرا فلم يزل به حتى أسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما (ان الشرك لظلم عظيم) تعليل للنهى أو للانتهاء عن الشرك

الامر بالقصد فى المشى فنقول نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها وفى كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يحصيه عد ولا يعلمها احد والذى يظهر وجوه (الاول) هو ان الانسان لما كان شريفا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرا فاقدر الله الانسان على تحصيلها بالمشى فان عجز عن ادراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشيا اليه فان عجز عن ابلاغ كلامه اليه يكتب اليه وبعض الحيوانات يشارك الانسان فى تحصيل المطلوب بالصوت كما ان الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى الى غيرها والانسان يميز البعض عن البعض فاذا كان المشى والصوت مفضيين الى المقصود والحكيم لما أرشده الى احدهما أرشده الى الآخر (الثانى) هو أن الانسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه الا لله وقد اشار اليه بقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل أى اصلح ضميرك فان الله خبير بقى الامران فقال واقصد فى مشيك واغضض من صوتك اشارة الى التوسط فى الافعال والاقوال (الثالث) هو ان لقمان أراد ارشاد ابنه الى السداد فى الاوصاف الانسانية والاوصاف التى هى للملك الذى هو أعلى مرتبة منه والاوصاف التى للحيوان الذى هو أدنى مرتبة منه فقوله وأمر بالمعروف وانه عن المنكر اشارة الى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لا يأمر ملكا آخر بشئ ولا ينهاه عن شئ وقوله ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا الذى هو اشارة الى عدم التكبر والتبختر اشارة الى المكارم التى هى صفة الملائكة فان عدم التكبر والتبختر صفتهم وقوله واقصد فى مشيك واغضض من صوتك اشارة الى المكارم التى هى صفة الحيوان ثم قال تعالى ان أنكر الاصوات لصوت الحمير وفيه مسائل (الاولى) لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشى نقول اما على قولنا ان المشى والصوت كلاهما موصلان الى شخص مطلوب ان أدركه بالمشى اليه فذاك والا فيوقفه بالنداء فنقول رفع الصوت يؤذى السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذى داخل الاذن واما السرعة فى المشى فلا تؤذى أو ان كانت تؤذى فلا تؤذى غير من فى طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولان المشى يؤذى آلة المشى والصوت يؤذى آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فان الكلام ينتقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشى وأما على قولنا الاشارة بالمشى والصوت الى الافعال والاقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى (المسئلة الثانية) كيف يفهم كونه انكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد اشد تنفيرا نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما ان المراد ان انكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم فى أكثر الامر لمصلحة وعمارة فلا ينكر بخلاف صوت الحمير وهذا هو

(ووصينا الانسان بوالديه) الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد فى أثناء وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهى عن الشرك وقوله تعالى (حملته أمه) الى قوله فى عامين اعتراض بين المفسر والمفسر وقوله تعالى (وهنا) حال من أمه أى ذات وهن او مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تهن وهنا وقوله تعالى ٧٣٩ (على وهن) صفة للمصدر أى كائنا على وهن أى تضعف ضعفا فوق ضعف فانها لا تزال يتضاعف ضعفها وقرئ وهنا على وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا (وفصاله فى عامين) اى فطامه فى تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند ابى حنيفة رحمهما الله تعالى هى ثلاثون شهرا وقد بين وجهه فى موضعه وقرئ وفصله (أن اشكر لى ولوالديك) تفسير لوصينا وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال له من أبر امك ثم امك ثم امك ثم قال بعد ذلك ثم اباك (الى المصير) تعليل لوجوب الامتثال اى الى الرجوع لا الى غيرى فاجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر (وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به) أى بشركته له تعالى فى استحقاق العبادة (علم فلا تطعهما) فى ذلك (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع وتقتضيه المروءة (واتبع سبيل من أناب الى) بالتوحيد والاخلاص فى الطاعة (ثم الى مرجعكم) أى مرجعك ومرجعهما ومرجع من أناب الى (فأنبئكم) عند رجوعكم (بما كنتم تعملون) بان أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير والشر وقوله تعالى (يا بنى) الخ شروع فى حكاية بقية وصايا لقمان اثر تقرير ما فى مطلعها من النهى عن الشرك وتأكيده بالاعتراض (انها ان تك مثقال حبة من خردل) أى ان الخصلة من الاساءة او الاحسان ان تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل وقرئ برفع مثقال

الجواب الثانى (المسئلة الثالثة) أنكر هو أفعل التفضيل فمن أى باب هو نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه بمعنى أشد طاعة فان افعل لا يجئ فى مفعل ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب الا ماشذ كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول وأحمق من فلان من باب العيوب وعلى هذا فهو فى باب أفعل كأشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر او نقول هو من باب اشغل مأخوذا من نكر الشئ فهو منكر وهذا انكر منه وعلى هذا فله معنى لطيف وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكور ويمكن ان يقال هو من نكير كاجدر من جدير ۞ ثم قال تعالى (ألم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات والارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) لما استدل بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكاية لقمان ان معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة وما جاء به النبى عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الاخلاق كلها حكمة بالغة ولو كان تعبدا محضا للزم قبوله فضلا عن انه على وفق الحكمة استدل على الوحدانية بالنعمة لانا بينا مرارا ان الملك يخدم لعظمته وان لم ينعم ويخدم لنعمته أيضا فلما بين انه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد والقائه فى الارض الرواسى وذكر بعض النعم بقوله وأنزلنا من السماء ماء ذكر بعده عامة النعم فقال سخر لكم ما فى السموات أى سخر لاجلكم ما فى السموات فان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامر الله وفيها فوائد لعباده وسخر ما فى الارض لاجل عباده وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وهى ما فى الاعضاء من السلامة وباطنة وهى ما فى القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ألا ترى أن العين والاذن شحم وغضروف ظاهر واللسان والانف لحم وعظم ظاهر وفى كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم وكذلك كل عضو وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائما وهذا أحسن مما قيل فان على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الانفس فقوله ما فى السموات وما فى الارض يكون اشارة الى النعم الآفاقية وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة يكون اشارة الى النعم الانفسية وفيهما أقوال كثيرة مذكورة فى جميع كتب التفاسير ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه معقولا منقولا وان لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغا معقولا ۞ ثم قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله) يعنى لما ثبتت الوحدانية بالخلق والانعام فمن الناس من يجادل فى الله ويثبت غيره اما الها أو منعما (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب وبيانه هو ان العلم تدخل فيه الاشياء الواضحة اللائحة التى تعلم من غير هداية هاد ثم الهدى يدخل فيه الذى يكون

على ان الضمير للقصة وكان تامة والتأنيث لاضافة المثقال الى الحبة كما فى قول من قال * كما شرقت صدر القناة من الدم *
أولان المراد به الحسنة أو السيئة (فتكن فى صخرة او فى السموات أو فى الارض) اى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر
والقماءة فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة او حيث كانت فى العالم العلوى او السفلى ٧٤٠ (يأت بها
الله) أى يحضرها و يحاسب عليها (ان الله لطيف) يصل علمه الى كل خفى (خبير) بكنهه و بعد ما أمره بالتوحيد الذى هو أول ما يجب على الانسان فى ضمن النهى عن الشرك ونبهه على كمال علم الله تعالى وقدرته أمره بالصلاة التى هى أكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلا له (يابنى اقم الصلاة) تكميلا لنفسك (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) تكميلا لغيرك (واصبر على ما أصابك) من الشدائد والمحن لاسيما فيما أمرت به (ان ذلك) اشارة الى كل ما ذكر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل (من عزم الامور) أى مما عزمه الله تعالى وقطعه على عباده من الامور لمزيد مزيتها مصدر أطلق على المفعول وقد جوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى فاذا عزم الامر أى جد والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الامر والنهى وايذان بأن ما بعدها ليس بمثابته (ولا تصعر خدك للناس) أى لاتمله ولا تولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين من الصعر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه وقرئ ولاتصاعر وقرئ ولاتصعر من الافعال والكل بمعنى مثل علاه وعالاه وأعلاه (ولاتمش فى الارض مرحا) اى فرحا مصدر وقع موقع الحال أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تمرح مرحا ولاجل والوجه

فى كتاب والذى يكون من الهام و وحى فقال تعالى يجادل ذلك المجادل لامن علم واضح ولامن هدى أتاه من هاد ولامن كتاب وكان الاول اشارة الى من أوتى من لدنه علما كما قال تعالى وعلمك مالم تكن تعلم (والثانى) اشارة الى مرتبة من هدى الى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى علمه شديد القوى (والثالث) اشارة الى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين وقال فى هذه السورة هدى ورحمة للمحسنين وقال فى السجدة ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل فالكتاب هدى لقوم النبى عليه السلام والنبى هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الامين فقال تعالى يجادل من يجادل لابعلم آتيناه من لدنا كشفا ولا بهدى أرسلناه اليه وحيا ولا بكتاب يتلى عليه وعظا ثم فيه لطيفة أخرى وهو انه تعالى قال فى الكتاب ولا كتاب منير لان المجادل منهم من كان يجادل من كتاب ولكن محرف مثل التوراة بعد التحريف فلو قال ولا كتاب لكان لقائل ان يقول لايجادل من غير كتاب فان بعض ما يقولون فهو فى كتابهم ولان المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن كتابهم فقال ولا كتاب منير فان ذلك الكتاب مظلم ولما لم يحتمل فى المرتبة الاولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير او حق أو غير ذلك ﴿ ثم قال تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهى فى غاية القبح فان النبى عليه السلام يدعوهم الى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم فكيف مابين كلام الله وكلام الجهلاء ثم ان ههنا شيأ آخر وهو انهم قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا يعنى نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل والقول أدل من الفعل لان الفعل يحتمل أن يكون جائزا ويحتمل أن يكون حراما وهم تعاطوه ويحتمل أن يكون واجبا فى اعتقادهم والقول بين الدلالة فلو سمعنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله لكان الواجب الاخذ بالقول فكيف والقول من الله والفعل من الجهال ﴿ ثم قال تعالى (أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) استفهاما على سبيل التعجب فى الانكار يعنى الشيطان يدعوهم الى العذاب والله يدعو الى الثواب وهم مع هذا يتبعون الشيطان ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور) لما بين حال المشرك والمجادل فى الله بين حال المسلم المستسلم لامر الله فقوله ومن يسلم وجهه الى الله اشارة الى الايمان وقوله وهو محسن اشارة الى العمل الصالح فتكون الآية فى معنى قوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى اى تمسك بحبل لاانقطاع له وترقى بسببه الى أعلى المقامات وفى الآية مسائل (الاولى) قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله وقال فى سورة البقرة بلى من أسلم وجهه لله فعدى ههنا بالى وهنالك باللام قال الزمخشرى معنى قوله أسلم لله أى جعل نفسه لله سالما أى خالصا

المرح والبطر (ان الله لايحب كل مختال فخور) تعليل للنهى او موجبه وتأخير الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال وهو بمقابلة الماشى مرحا لرعاية الفواصل (واقصد فى مشيك) بعد الاجتناب عن المرح فيه أى توسط بين الدبيب والاسراع وعنه عليه الصلاة والسلام سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن ٧٤١ وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما كان اذا مشى أسرع فالمراد به ما فوق دبيب المتماوت وقرئ بقطع الهمزة من أقصد الرامى اذا سدد سهمه نحو الرمية (واغضض من صوتك) وانقص منه واقصر (ان أنكر الاصوات) أى أوحشها (لصوت الحمير) تعليل للامر على أبلغ وجه وآكده مبنى على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق وافراط فى التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه وافراد الصوت مع اضافته الى الجمع لما ان المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الاجناس وقوله تعالى (ألم تروا ان الله سخر لكم مافى السموات ومافى الارض) رجوع الى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على اصرارهم على ماهم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد والمراد بالتسخير اما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له اعم من أن يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء و يستعمله حسبما يريد كعامة ما فى الارض من الاشياء المسخرة للانسان المستعملة له من الجماد والحيوان أولا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل فى استعماله كجميع ما فى السموات من الاشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشا أو معادا واما جعله منقادا للامر مذللا على أن معنى لكم لاجلكم فان جميع ما فى السموات و الارض من الكائنات مسخرة

والوجه بمعنى النفس والذات ومعنى قوله يسلم وجهه الى الله يسلم نفسه الى الله كما يسلم واحد متاعا الى غيره ولم يزد على هذا ويمكن أن يزاد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم الى الله لان الى للغاية واللام للاختصاص يقول القائل أسلمت وجهى اليك أى توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لان التوجه الى الشئ قبل الوصول وقوله أسلمت وجهى لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التى تدل على المسافة وقطعها للوصول اذا علم هذا فنقول فى البقرة قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة الامن كان هودا أو نصارى فقال الله ردا عليهم تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله أى أنتم مع انكم تتركون الله للدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمنا قليلا تدخلون ومن كان بكليته لله لايدخلها هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولاشك أن النقض بالصورة التى هى الزم أولى فأورد عليهم المخلص الذى ليس له أمر الا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لايدخلها ثم بين كذبهم وقال بلى و بين أن له فوق الجنة درجة وهى العندية بقوله فله أجره عند ربه واما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول الى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الاولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة ﴿ ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أوثق العرى جانب الله لان كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لاانقطاع له ثم قال تعالى (والى الله عاقبة الامور) يعنى استمسك بعروة توصله الى الله وكل شئ عاقبته اليه فاذا حصل فى الحال ما اليه عاقبته تكون عاقبته فى غاية الحسن وذلك لان من يعلم أن عاقبة الامور الى واحد ثم يقدم اليه الهدايا قبل الوصول اليه يجد فائدته عند القدوم عليه والى هذا وقعت الاشارة بقوله وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ﴿ ثم قال تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) لما بين حال المسلم رجع الى بيان حال الكافر فقال ومن كفر فلا يحزنك أى لاتحزن اذا كفر كافر فان من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لايحزن بل قد يورث المكذب على الزيادة فى التكذيب اذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل واما اذا كان لايرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب فقال فلا يحزنك كفره فان المرجع الى فانبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله ان الله عليم بذات الصدور أى لايخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أضمرته صدورهم وذات الصدور وهى المهلكات ثم ان الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال نمتعهم قليلا أى بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله ثم نضطرهم أى نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بانفسهم عذابا غليظا فيضطرون الى عذاب النار فرارا من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار وفيه وجه آخر لطيف وهو انهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الامر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدى ربهم بمحضر الانبياء

لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الانسان حسبما يشاء وان كان مسخرا له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقد مر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة وقرئ أصبغ بالصاد وهو جار فى كل سين قارنت الغين أو الخاء او القاف كما تقول فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سالغ صالغ وقرئ نعمة (ومن الناس من يجادل فى الله) فى توحيده وصفاته (بغير علم) مستفاد من دليل (ولا هدى) من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام (ولا كتاب منير) أنزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد (واذا قيل لهم) أى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى (اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يريدون به عبادة الاصنام (أولو كان الشيطان يدعوهم) أى آباءهم لا أنفسهم كما قيل فان مدار انكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون أنفسهم كذلك أى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك (الى عذاب السعير) فهم متوجهون اليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيأ ولا يهتدون من سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن يسلم وجهه الى الله) بأن فوض اليه مجامع أموره واقبل عليه بكليته وحيث عدى باللام قصد معنى الاختصاص وقرئ بالتشديد (وهو محسن) اى فى اعماله آتيا بها جامعة بين الحسن الذاتى والوصفى وقد مر فى آخر سورة النحل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تعلق بأوثق ما يتعلق به من الاسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد ان يترقى الى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه (والى الله)

وهو يتحقق بقوله تعالى فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ثم قال تعالى

(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) الآية متعلقة بما قبلها من وجهين (أحدهما) انه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين انهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضى أن يكون الحمد كله لله لان خالق السموات والارض يحتاج اليه كل ما فى السموات والارض وكون الحمد كله لله يقتضى ان لا يعبد غيره لكنهم لا يعلمون هذا (والثانى) ان الله تعالى لما سلى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم أى لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم الينا قال وليس لا يتبين الا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لانهم معترفون بان خالق السموات والارض من الله وهذا يصدقك فى دعوى الوحدانية ويبين كذبهم فى الاشراك فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب مكذبيك بل أكثرهم لا يعلمون أى ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالا للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يكون فى ضميره من يعطى بل يريد ان له عطاء ومنعا فكذلك ههنا قال لا يعلمون أى ليس لهم علم وعلى الاول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو انهم لا يعلمون ان الحمد كله لله والثانى أبلغ لان قول القائل فلان لا علم له بكذا دون قوله فلان لا علم له وكذا قوله فلان لا ينفع زيدا ولا يضره دون قوله فلان لا يضر ولا ينفع ﷺ ثم قال تعالى (لله ما فى السموات والارض ان الله هو الغنى الحميد) ذكر بما يلزم منه وهو أنه يكون له ما فيهما والامر كذلك عقلا وشرعا اما عقلا فلان ما فى السموات المخلوقة مخلوق واضافة خلقه الى من منه خلق السموات والارض لازم عقلا لانها ممكنة والممكن لا يقع ولا يوجد الا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب اهل السنة او بواسطة كما يقوله غيرهم وكيفما فرض فكله من الله لان سبب السبب سبب واما شرعا فلان من ملك أرضا وحصل منها شئ ثما يكون ذلك لمالك الارض فكذلك كل ما فى السموات والارض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والارض واذا كان الامر كذلك تحقق ان الحمد كله لله ثم قوله تعالى ان الله هو الغنى الحميد فيه معان لطيفة (أحدها) ان الكل لله وهو غير محتاج اليه غير منتفع به وفيها منافع فهى لكم خلقها فهو غنى لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على ان الحمد كله لله ولا تصلح العبادة الا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال انه غنى عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين وحميد فى نفسه فيتبين به اصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات وما فيها والارض وما فيها اذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غنى الا الله فهو الغنى المطلق وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون

لا الى أحد غيره (عاقبة الامور) فيجازيه احسن الجزاء (ومن كفر فلا يحزنك كفره) فانه لا يضرك فى الدنيا ولا فى الآخرة وقرئ فلا يحزنك من احزن المنقول من حزن بكسر الزاى وليس بمستفيض (الينا مرجعهم) لا الى غيرنا (فننبئهم بما عملوا) فى الدنيا من الكفر والمعاصى بالعذاب والعقاب والجمع فى الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما ان الافراد فى الاول باعتبار لفظها (ان الله عليم بذات الصدور) تعليل للتنبئة المعبر بها عن التعذيب (نمتعهم قليلا) تمتيعا أو زمانا قليلا فان ما يزول وان كان بعد أمد طويل بالنسبة الى ما يدوم قليل (ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) يثقل عليهم ثقل الاجرام الغلاظ أو يضم الى الاحراق الضغط والتضييق (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لغاية وضوح الامر بحيث اضطروا الى الاعتراف به (قل الحمد لله) على ان جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضا (بل أكثرهم لا يعلمون) شيأ من الاشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم وقيل لا يعلمون أن ذلك يلزمهم (لله ما فى السموات والارض) فلا يستحق العبادة فيهما غيره (ان الله هو الغنى) عن العالمين (الحميد) المستحق للحمد وان لم يحمده أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال (ولو أنما فى الارض من شجرة أقلام) اى لو أن الاشجار اقلام وتوحيد الشجرة لما ان المراد تفصيل الآحاد (والبحر يمده من بعده) اى من بعد نفاده (سبعة أبحر) اى والحال ان البحر المحيط بسعته يمده الابحر السبعة مدا لا ينقطع ابدا وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات

الحميد المطلق الا الغنى المطلق فهو الحميد وعلى هذا الحميد بمعنى المحمود والله اذا قيل له الحميد لا يكون معناه الا الواصف أى وصف نفسه او عباده بأوصاف حميدة والعبد اذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ويحتمل كونه عابدا شاكرا له ﷺ ثم قال تعالى (ولو أنما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) لما قال تعالى لله ما فى السموات والارض وكان ذلك موهما لتناهى ملكه لانحصار ما فى السموات وما فى الارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن فى قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال ولو أن ما فى الارض من شجرة اقلام ويكتب بها والابحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ووجهها ان العجائب بقوله كن وكن كلمة واطلاق اسم السبب على المسبب جائز يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ويقال للدواء فى حق المريض هذا شفاؤك ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لانه كان امرا عجيبا وصنعا غريبا لوجوده من غير أب فان قال قائل الآية واردة فى اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شئ فى التوراة ولم يبق شئ لم يذكره فقال الذى فى التوراة بالنسبة الى كلام الله تعالى ليس الا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية وقيل أيضا انها نزلت فى واحد قال للنبى عليه السلام انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وتقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فنزلت الآية دالة على انه خير كثير بالنسبة الى العباد وبالنسبة الى الله وعلومه قليل وقيل ايضا انها نزلت ردا على الكفار حيث قالوا بان ما يورده محمد سينفد فقال انه كلام الله وهو لا ينفد وما ذكرتم من اسباب النزول ينافى ما ذكرتم من التفسير لانها تدل على أن المراد الكلام فنقول ما ذكرتم من اختلاف الاقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا لانه اذا اصلح جوابا لهذه الاشياء التى ذكرتموها وهى متباينة علم انها عامة وما ذكرنا لا ينافى هذا لان كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الاتيان بمثله واذا قلنا بان عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه ● لا يقال انك جعلت الكلام مخلوقا ● لانا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب واما الكلمات فهى من صفات الله تعالى واعلم ان الآية وان كانت نازلة على ترتيب غير الذى هو مكتوب ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله فانه بأمر الرسول كتب كذلك وأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن مع سبق الترتيب الذى فيه ثم ان الآية فيها لطائف (الاولى) قال ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام وحد الشجرة وجمع الاقلام ولم يقل ولو أن ما فى الارض من الاشجار اقلام ولا قال ولو أن ما فى الارض من شجرة قلم اشارة الى التكثير يعنى ولو ان بعدد كل شجرة اقلاما (الثانية) قوله والبحر يمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ثم قوله يمده من بعده سبعة أبحر اشارة الى بحار غير موجودة يعنى لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر اخر وقوله سبعة ليس لانحصارها فى سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بألف بحر والسبعة خصصت بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر المعدودات فى العادة

الله (ما نفدت كلمات الله) ونفدت تلك الاقلام والمداد كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى وقرئ يمده من الامداد بالياء والتاء واسناد المد الى الابحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه اعظم منها واطم لانها هى المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية

والبها تنصب الانهار العظام اولا ومنها ينصب الى البحر المحيط ثانيا وايثار جمع القلة فى الكلمات للايذان بان ماذكر لايفى بالقليل
منها فكيف بالكثير (ان الله عزيز) لايعجزه شئ (حكيم) لايخرج عن علمه وحكمته امر فلا تنفد كلماته المؤسسة عليهما
(ماخلقكم ولابعثكم الاكنفس واحدة) اى الا كخلقها وبعثها فى سهولة التأتى اذ لايشغله شان عن شان
لان مناط وجود الكل تعلق
ارادته الواجبة مع قدرته
الذاتية حسبما يفصح عنه قوله تعالى
انما امرنا لشئ اذا اردناه ان نقول
له كن فيكون (ان الله سميع) يسمع
كل مسموع (بصير) يبصر كل
مبصر لايشغله علم بعضها عن علم
بعض فكذلك الخلق والبعث
(الم تر) قيل الخطاب لرسول
الله صلى الله عليه وسلم وقيل عام
لكل احد ممن يصلح للخطاب وهو
الاوفق لماسبق ومالحق اى ألم
تعلم علما قويا جاريا مجرى الرؤية
(أن الله يولج الليل فى النهار ويولج
النهار فى الليل) أى يدخل كل
واحد منهما فى الآخر ويضيفه
اليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة
ونقصانا (وسخر الشمس والقمر)
عطف على يولج والاختلاف
بينهما صيغة لما أن ايلاج أحد
الملوين فى الآخر متجدد فى كل
حين واما تسخير النيرين فأمر
لاتعدد فيه ولاتجدد وانما التعدد
والتجدد فى آثاره وقد أشير الى
ذلك حيث قيل (كل يجرى) أى
بحسب حركته الخاصة وحركته
القسرية على المدارات اليومية
المتخالفة المتعددة حسب تعدد
الايام جريا مستمرا (الى اجل
مسمى) قدره الله تعالى لجريهما
وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن
رحمه الله فانه لاينقطع جريهما الاحينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق
الاستطراد وعلى تقدير

والذى يدل عليه وجوه (الاول) هو ان ماهو معلوم عند كل احد لحاجته اليه هو الزمان
والمكان لان المكان فيه الاجسام والزمان فيه الافعال لكن المكان منحصر فى سبعة
أقاليم والزمان فى سبعة أيام ولان الكواكب السيارة سبعة وكان المنجمون ينسبون
اليها أمورا فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة فى العادة فاستعملت
فى كل كثير (الثانى) هو أن الآحاد الى العشرة وهى العقد الاول ومابعده يبتدأ من
الآحاد مرة اخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر ثم المئات من العشرات والالوف من
المئات اذا علم هذا فنقول أقل مايلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة لانه يحتاج الى
طرفين مبدأ ومنتهى ووسط ولهذا يقال اقل مايكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف
فاذا كانت الثلاثة هو القسم الاول من العشرة التى هو العدد الاصلى تبقى السبعة
القسم الاكثر فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ولهذا فان المعدودات فى العبادات
من التسبيحات فى الانتقالات فى الصلوات ثلاثة والمرار فى الوضوء ثلاثة تيسيرا للامر
على المكلف اكتفاء بالقسم الاول اذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام المؤمن يأكل
فى معى والكافر يأكل فى سبعة امعاء اشارة الى قلة الاكل وكثرته من غير ارادة السبعة
بخصوصها ويحتمل أن يقال ان لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير ثم على هذا فقولنا للجنة
ثمانية ابواب اشارة الى زيادتها فان فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على
كثرة غيرها والذى يدل على ماذكرنا فى السبعة ان العرب عند الثامن يزيدون واوا يقول
الفراء انها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد بالسبعة يتم فى العرف ثم
بالثامن استئناف جديد (اللطيفة الثالثة) لم يقل فى الاقلام المدد لوجهين (أحدهما)
هو ان قوله ولو ان مافى الارض من شجرة اقلام بين ان المراد منه هو أن يكون بعدد كل
شجرة موجودة اقلام فتكون الاقلام أكثر من الاشجار الموجودة وقوله فى البحر والبحر
يمده سبعة أبحر اشارة الى ان البحر لو كان أكثر من الموجود لاستوى القلم والبحر فى المعنى
(والثانى) هو ان النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فانه هو النافد والقلم الواحد يمكن
ان يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد فى البحر الذى هو كالمداد ثم قال تعالى (ان الله عزيز
حكيم) لماذكر ان ملكوته كثير اشار الى مايحقق ذلك فقال انه عزيز حكيم أى كامل
القدرة فيكون له مقدورات لانهاية لها والا لانتهت القدرة الى حيث لاتصلح للايجاد وهو
حكيم كامل العلم ففى علمه مالانهاية له فتحقق ان البحر لو كان مدادا لما نفد مافى علمه وقدرته
ثم قال تعالى (ماخلقكم ولابعثكم الاكنفس واحدة) لمابين كمال قدرته وعلمه ذكر مايبطل
استبعادهم للحشر وقال ماخلقكم ولابعثكم الاكنفس واحدة ومن لانفاد لكلماته
يقول للموتى كونوا فيكونوا ثم قال تعالى (ان الله سميع بصير) سميع لمايقولون بصير بما
يعملون فاذا كونه قادرا على البعث ومحيطا بالاقوال والافعال يوجب ذلك الاجتناب
التام والاحتراز الكامل ثم قال تعالى (ألم تران الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى
الليل

اختصاصه به عليه الصلاة والسلام يجوز أن يكون حالا من الشمس والقمر فان جريانهما الى يوم القيامة من جملة مافى حيز رؤيته
عليه الصلاة والسلام هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما فى فلكهما والاجل المسمى عن منتهى دورتهما
وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهرا فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية ايلاج أحد الملوين فى
الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف
جريان الشمس على مداراتها
اليومية فكلما كان جريانها
متوجها الى سمت الرأس تزداد
القوس التى هى فوق الارض
كبرا فيزداد النهار طولا بانضمام
بعض أجزاء الليل اليه الى أن يبلغ
المدار الذى هو أقرب المدارات
الى سمت الرأس وذلك عند بلوغها
الى رأس السرطان ثم ترجع
متوجهة الى التباعد عن سمت
الرأس فلاتزال القسى التى هى
فوق الارض تزداد صغرا فيزداد
النهار قصرا بانضمام بعض أجزائه
الى الليل الى أن يبلغ المدار الذى
هو أبعد المدارات اليومية عن
سمت الرأس وذلك عند بلوغها
برج الجدى وقوله تعالى (وأن الله
بماتعملون خبير) عطف على أن
الله يولج الخ داخل معه فى حيز
الرؤية على تقديرى خصوص
الخطاب وعمومه فان من شاهد
مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير
الفائق لايكاد يغفل عن كون
صانعه عزوجل محيطا بجلائل
اعماله ودقائقها (ذلك) اشارة الى
ماتلى من الآيات الكريمة وما
فيه من معنى البعد للايذان
ببعد منزلته فى الفضل وهو مبتدأ
خبره قوله تعالى (بأن الله هو الحق)
أى بسبب بيان أنه تعالى هو الحق
الهيته فقط ولاجله لكونها ناطقة
 بحقية التوحيد (وأن مايدعون من دونه الباطل) أى ولاجل بيان بطلان الهية مايدعونه من دونه تعالى لكونها
بذلك شهادة بينة لاريب فيها وقرئ بالتاء شاهدة والتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقية الالهية به تعالى مستتبعة

الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى وأن الله بماتعملون خبير) يحتمل أن
يقال ان وجه الترتيب هو ان الله تعالى لما قال ألم تر أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى
الارض على وجه العموم ذكر منها بعض ماهو فيهما على وجه الخصوص بقوله يولج
الليل فى النهار وقوله وسخر الشمس والقمر اشارة الى مافى السموات وقوله بعد هذا ألم تر أن
الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله اشارة الى مافى الارض ويحتمل أن يقال ان وجهه هو أن
الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول ومايهلكنا الا الدهر والدهر هو بالليالى
والايام قال الله تعالى هذه الليالى والايام التى تنسبون اليها الموت والحياة هى بقدرة الله
تعالى فقال الم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ثم ان قائلا لو قال ان
ذلك اختلاف سير الشمس تارة تكون القوس التى هى فوق الارض أكثر من التى تحت
الارض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس فيكون بالعكس وتارة
يتساويان فيتساويان فقال تعالى وسخر الشمس والقمر يعنى ان كنتم لاتعترفون بأن هذه
الاشياء كلها فى أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة الى الله تعالى
فالآجال ان كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس الا بالله وقدرته
وفى الآية مسائل (الاولى) ايلاج الليل فى النهار يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال
المراد ايلاج الليل فى زمان النهار أى يجعل فى الزمان الذى كان فيه النهار الليل وذلك
لان الليل اذا كان مثلا اثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا فى زمان كان فيه
النهار (وثانيهما) أن يقال المراد ايلاج زمان الليل فى النهار اى يجعل زمان الليل فى النهار
وذلك لان الليل اذا كان كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة اذا قصر صار زمان الليل موجودا
فى النهار ولا يمكن غير هذا لان ايلاج الليل فى النهار محال الوجود فماذكرنا من الاضمار
لابد منه لكن الاول أولى لان الليل والنهار أفعال والافعال فى الازمنة لان الزمان ظرف
فقولنا الليل فى زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل فى النهار لان الثانى يجعل الظرف
مظروفا اذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى يولج الليل فى النهار أى يوجده فى وقت كان فيه
النهار والله تعالى قدم ايجاد الليل على ايجاد النهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى
وجعلنا الليل والنهار آيتين وقوله وجعل الظلمات والنور وقوله واختلاف الليل والنهار
ومن جنسه قوله خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهذا اشارة الى مسئلة
حكمية وهى أن الظلمة قد يظن بها انها عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت
وليس كذلك اذ فى الازل لم يكن نهار ولانور ولاحياة لممكن ولايمكن أن يقال كان فيه
موت أوظلمة أوليل فهذه الامور كالاعمى والاصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر
وعدم السمع اذ الحجر والشجر لابصر لهما ولا سمع ولا يقال لشئ منهما انه أصم أوأعمى
اذا علم هذا فنقول مايتحقق فيه العمى والصمم لابد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما
والا لما كان يقال له أعمى وأصم ومايكون فيه اقتضاء شئ ويترتب عليه مقتضاه لاتطلب ١

للدلالة على بطلان الهية ماعداه لابراز كمال الاعتناء بامر التوحيد وللايذان بان الدلالة على بطلان ماذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال أيضا (وأن الله هو العلي الكبير) أي وبيان أنه تعالى هو المترفع عن كل شيء المتسلط عليه فان ما في تضاعيف الآيات الكريمة مبين لاختصاص ٧٤٦ العلو والكبرياء به تعالى أي بيان هذا وقبل ذلك أي ماذكر من سعة العلم

النفس لهسببا لان من يرى المتعيش في السوق لايقول لم دخل السوق ومابنيت على خلاف المقتضى تطلب النفس لهسببا كمن يرى ملكا في السوق يقول لم دخل السوق فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولايقول لم صار فلان بصيرا واذا كان كذلك قدم الله تعالى ماتطلب النفس سببه وهو الليل الذي هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالبا سببه ثم ذكر بعده الامر الآخر (المسئلة الثانية) قال يولج بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر سخر بصيغة الماضي لان ايلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم (المسئلة الثالثة) قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس لما بينا ان تقديم الليل كان لان الانفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار وههنا كذلك لان الشمس لما كانت أكبر وأعظم كانت أعجب والنفس تطلب سبب الامر العجيب أكثر مما تطلب سبب الامر الذي لايكون عجيبا (المسئلة الرابعة) ماتعلق قوله تعالى وان الله بما تعملون خبير بما تقدم نقول لما كان الليل والنهار محل الافعال بين ان مايقع في هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لايخفى على الله (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ألم تر يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه الاكثرون وكأنه ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لافائدة للخطاب معهم لاصرارهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ناظرون اليه (الوجه الثاني) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولايعين أحدا فيقول لجمع عظيم يا مسكين الى الله مصيرك فمن نصيرك ولماذا تقصيرك فقوله ألم تر يكون خطابا من ذلك القبيل أي يا أيها الغافل ألم تر هذا الامر الواضح ﴿ ثم قال تعالى (ذلك بان الله هو الحق وان مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير) ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله ان الله هو الغني الحميد وقوله ان الله عزيز حكيم وقوله ان الله سميع بصير وأشار الى الارادة والكمال بقوله مانفدت كلمات الله وبقوله يولج الليل في النهار وعلى الجملة فقوله هو الغني اشارة الى كل صفة سلبية فانه اذا كان غنيا لايكون عرضا محتاجا الى الجوهر في القوام ولا جسما محتاجا الى الحيز في الدوام ولا شيأ من الممكنات المحتاجة الى الموجد وذكر بعده جميع الاوصاف الثبوتية صريحا وتضمنا فان الحياة في ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أي ذلك الاتصاف بانه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذي لازوال له وهو الثبوت فان المذهب الصحيح ان وجوده غير حقيقته فكل ماعداه فله زوال نظرا اليه والله له الثبوت والوجود نظرا اليه فهو الحق وماعداه الباطل لان الباطل هو الزائل يقال بطل ظله اذا زال واذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاما لانقص فيه ثم اعلم ان الحكماء

وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري تعالى به بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته أو الثابت الهيته وأنت خبير بان حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وان كانت صالحة لمناطية ماذكر من الاحكام المعدودة لكن بطلان الهية الاصنام لادخل له في المناطية قطعا فلامساغ لنظمه في سلك الاسباب بل هو تعكيس للامر ضرورة أن الاحكام المذكورة هي المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله) باحسانه في تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وغاية حكمته وشمول انعامه والباء اما متعلقة بتجري أو بمقدر هو حال من فاعله أي ملتبسة بنعمته تعالى وقرئ الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون (ليريكم من آياته) أي بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) تعليل لما قبله أي ان فيما ذكر لآيات عظيمة في ذاتها كثيرة في عددها لكل من يبالغ في الصبر على المشاق فيتعب نفسه في التفكر في الانفس والآفاق ويبالغ في الشكر على نعمائه وهما

صفتا المؤمن فكأنه قيل لكل مؤمن (واذا غشيهم) اي علاهم وأحاط بهم (موج كالظلل) كالظلل من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال (دعوا الله مخلصين له الدين) لزوال ماينازع الفطرة من الهوى

والتقليد بما دهاهم من الدواهي والشدائد (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) أي مقيم على القصد السوي الذي هو التوحيد أو متوسط في الكفر لانزجاره في الجملة (ومايجحد بآياتنا الا كل ختار) غدار فانه نقض للعهد الفطري أو رفض لما كان في البحر والختر أشد الغدر وأقبحه (كفور) مبالغ في كفران نعم الله تعالى ٧٤٧ (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزي

قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الاشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ماليس له ماينبغي أن يكون له كالصبي والمريض والاعمى (والمكتفي) وهو الذي أعطى مايدفع به حاجته في وقته كالانسان والحيوان الذي له من الآلات مايدفع به حاجته في وقتها لكنها في التحلل والزوال (والتام) ماحصل له كل ماجاز له وان لم يحتج اليه كالملائكة المقربين لهم درجات لاتزداد ولاينتقص الله منها لهم شيأ كما قال جبريل عليه السلام لو دنوت انملة لاحترقت لقوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم (وفوق التمام) هو الذي حصل له ماجاز له وحصل لما عداه ماجاز له أو احتاج اليه لكن الله تعالى حاصل له كل مايجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال فهو تام وحصل لغيره كل ماجاز له أو احتاج اليه فهو فوق التمام اذا ثبت هذا فنقول قوله هو الحق اشارة الى التمام وقوله وأن الله هو العلي الكبير أي فوق التمام وقوله وهو العلي أي في صفاته وقوله الكبير أي في ذاته وذلك ينافي أن يكون جسما في مكان لانه يكون حينئذ جسدا مقدرا بمقدار فيمكن فرض ماهو أكبر منه فيكون صغيرا بالنسبة الى المفروض لكنه كبير مطلقا أكبر من كل مايتصور ﴿ ثم قال تعالى (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) لما ذكر آية سماوية بقوله ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية وأشار الى السبب والمسبب فقوله الفلك تجري اشارة الى المسبب وقوله بنعمة الله اشارة الى السبب أي الى الريح التي هي بأمر الله ليريكم من آياته يعني يريكم باجرائها بنعمته من آياته أي بعض آياته ﴿ ثم قال تعالى (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) صبار في الشدة شكور في الرخاء وذلك لان المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء وعند النعم والآلاء فيصبر اذا أصابته نقمة ويشكر اذا أتته نعمة وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر اشارة الى أن التكاليف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام الصوم صبر والافعال شكر على المعروف ﴿ ثم قال تعالى (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد ومايجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) لما ذكر الله ان في ذلك لآيات ذكر ان الكل معترفون به غير ان البصير يدركه أولا ومن في بصيرته ضعف لايدركه أولا فاذا غشيه موج ووقع في شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصا أي يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه فاذا نجاه من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله فمنهم مقتصد وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله ومايجحد بآياتنا الا كل ختار كفور وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله موج كالظلل وحد الموج وجمع الظلل وقيل في معناه كالجبال وقيل كالسحاب اشارة الى عظم الموج ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول واذا نظرت في الجرية الواحدة

والد عن ولده) أي لايقضي عنه وقرئ لايجزي من أجزأ اذا أغنى والعائد الى الموصوف محذوف أي لايجزي فيه (ولا مولود) عطف على والد أو هو مبتدأ خبره (هو جاز عن والده شيا) وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لايجزي وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة (ان وعد الله) بالثواب والعقاب (حق) لايمكن اخلافه أصلا (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور) أي الشيطان المبالغ في الغرور بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة (ان الله عنده علم الساعة) علم وقت قيامها لما روي ان الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة واني قد ألقيت حباتي في الارض فمتى السماء تمطر وحمل امرأتي ذكر أم أنثى وما أعمل غدا وأين أموت فنزلت وعنه عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية (وينزل الغيث) في ابانه الذي قدره والى محله الذي عينه في علمه وقرئ ينزل من الانزال (ويعلم مافي الارحام) من ذكر أو أنثى تام أو ناقص (وما تدري نفس) من النفوس (ماذا تكسب غدا) من خير أو شر وربما تعزم على شيء منهما فتفعل

خلافه (وما تدري نفس بأي ارض تموت) كما لا تدري في أي وقت تموت روي أن ملك الموت مر على سليمان عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدني فمر الريح ان تحملني وتلقيني

بلاد الهند فقمل ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دوام نظرى اليه تعجبا منه حيث كنت أمرت بان أقبض روحه بالهند وهو عندك ونسبة العلم الى الله تعالى والدراية الى العبد للايذان بأنه ان أعمل حيله وبذل فى التعرّف وسعه لم يعرف ماهو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره ٧٤٨ مما لم ينصب له دليل عليه وقرئ بأية أرض وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل
فى كلتهن (ان الله عليم) مبالغ فى العلم فلا يعزب عن علمه شئ من الاشياء التى من جملتها ماذكر (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها • عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر

•(سورة السجدة مكية وهى ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون)•

•(بسم الله الرحمن الرحيم)•

(الم) اما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذا مسمى بالم والاشارة اليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرّها واما مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الاعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الاول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدا محذوف أى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر لالم أى المسمى به تنزيل الكتاب وقد مرّ مرارا أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لاعهد بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها وقوله تعالى (لاريب فيه) خبر ثالث على الوجه الاول وثان على الاخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بمضمر هو حال من الضمير المجرور اى كائنا منه تعالى لا بتنزيل لان المصدر لايعمل فيما بعد الخبر والاوجه حينئذ أنه الخبر ولاريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض والضمير

من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة (المسئلة الثانية) قال فى العنكبوت فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله ثم قال فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وقال ههنا فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكرههنا أمرا عظيما وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك فى قلوبهم فخرج منهم مقتصد أى فى الكفر وهو الذى انزجر بعض الانزجار أو مقتصد فى الاخلاص فبقى معه شئ منه ولم يبق على ماكان عليه من الاخلاص وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الامر فذكر اشراكهم حيث لم يبق عنده أثر (المسئلة الثالثة) قوله وما يجحد بآياتنا فى مقابلة قوله تعالى ان فى ذلك لآيات يعنى يعترف بها الصبار الشكور ويجحدها الختار الكفور والصبار فى موازنة الختار لفظا ومعنى والكفور فى موازنة الشكور أما لفظا فظاهر وأما معنى فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر والغدر لايكون الا من قلة الصبر لان الصبور ان لم يعهد مع أحد لايعهد منه الاضرار فانه يصبر ويفوّض الامر الى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد فينقضه وأما ان الكفور فى مقابلة الشكور معنى فظاهر ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ) لما ذكر الدلائل من أول السورة الى آخرها وعظ بالتقوى لانه تعالى لما كان واحدا أوجب التقوى البالغة فان من يعلم ان الامر بيد اثنين لايخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الامر بيد أحدهما لا غير ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذى يحكم الله فيه بين العباد وذلك لان الملك اذا كان واحدا ويعهد منه انه لايعلم شيأ ولا يستعرض عباده لايخاف منه مثل ما يخاف اذا علم ان له يوم استعراض واستكشاف ثم أكده بقوله لايجزى والد عن ولده وذلك لان المجرم اذا علم أن له عند الملك من يتكلم فى حقه ويقضى ما يخرج عليه بر فد من كسبه لايخاف مثل ما يخاف اذا علم انه ليس له من يقضى عنه ما يخرج عليه ثم ذكر شخصين فى غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالادنى على الاعلى وذكر الولد والوالد جميعا فيه لطيفة وهى ان من الامور ما يبادر الاب الى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لايبادر الى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الوالد الى تحمله عن الولد ومنها ما يبادر الولد الى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد الى تحمله عن الولد كالاهانة فان من يريد احضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الاهانة عن والده ويحضر هو بدله فاذا انتهى الامر الى الايلام يهون على الاب أن يدفع الايلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله لايجزى والد عن ولده فى دفع الآلام ولا مولود هو جاز عن والده شيأ فى دفع الاهانة وفى قوله لايجزى وقوله ولا مولود هو جاز لطيفة أخرى وهى انا ذكرنا ان الفعل يتاتى وان كان ممن لاينبغى ولا يكون من شأنه لان الملك اذا كان يخيط شيأ يقال انه يخيط ولا يقال هو خياط وكذلك من يحيك شيأ ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك اذا علمت هذا فنقول الابن

فيه راجع الى مضمون الجملة كأنه قيل لاريب فى ذلك اى فى كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى (ام يقولون افتراه) فان قولهم هذا انكار منهم لكونه من رب العالمين فلا بد أن يكون مورده حكما مقصود الافادة لاقيدا للحكم بنفى الريب عنه وقد ردّ عليهم ذلك وأبطل حيث جىء بأم المنقطعة انكارا له وتعجيبا منه ٧٤٩ لغاية ظهور بطلانه واستحالة كونه مفترى ثم أضرب عنه الى بيان حقية ما أنكروه حيث قيل (بل هو الحق من ربك) باضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام بعد اضافته فيما سبق الى العالمين تشريفا له عليه الصلاة والسلام ثم أيد ذلك ببيان غايته حيث قيل (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) فان بيان غاية الشئ وحكمته لاسيما عند كونها غاية حميدة مستتبعة لمنافع جليلة فى وقت شدة الحاجة اليها مما يقرر وجود الشئ ويؤكده لامحالة ولقد كانت قريش أضل الناس وأحوجهم الى الهداية بارسال الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث اليهم من رسول قبله عليه الصلاة والسلام أى ما أتاهم من نذير من قبل انذارك أو من قبل زمانك والترجى معتبر من جهته عليه الصلاة والسلام أى لتنذرهم راجيا لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم واعلم أن ماذكر من التأييد انما يتسنى على ماذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ وأما على سائر الوجوه فلا تأييد أصلا لان قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الاول وخبر ثالث على الوجهين الاخيرين وأياما كان فكونه من رب العالمين حكم مقصود الافادة لاقيد لحكم آخر فتدبر (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) مرّ بيانه فيما سلف (مالكم من دونه من ولى ولا شفيع) أى مالكم اذا جاوزتم رضاه تعالى أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه اى مالكم سواه ولى ولا شفيع بل هو الذى يتولى

من شأنه أن يكون جازيا عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزى لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال فى الوالد لايجزى وقال فى الولد ولا مولود هو جاز ۞ ثم قال تعالى (ان وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقا لليوم يعنى اخشوا يوما هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثانى) أن يكون تحقيقا لعدم الجزاء يعنى لايجزى والد عن ولده لان الله وعد بأن لاتزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق فلا يجزى والاول أحسن وأظهر ۞ ثم قال تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) يعنى اذا كان الامر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق ۞ ثم قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الدنيا لاينبغى أن تغركم بنفسها ولا ينبغى أن تغتروا وان حملكم على محبتها غارّ من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا الى نفسها فيميل اليها ومنهم من يوسوس فى صدره الشيطان ويزين فى عينه الدنيا ويؤمله ويقول انك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة فنهاهم عن الامرين وقال كونوا قسما ثالثا وهم الذين لايلتفتون الى الدنيا ولا الى من يحسن الدنيا فى الاعين ۞ ثم قال تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير) يقول بعض المفسرين ان الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك لان الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق الى المغرب كم مرة ويعلم انه أين هو ولا يعلمه غيره ولانه يعلم انه يوجد بعد هذه السنين ذرة فى برية لايسلكها أحد ولا يعلمه غيره فلا وجه لاختصاص هذه الاشياء بالذكر وانما الحق فيه ان نقول لما قال الله اخشوا يوما لايجزى والد عن ولده وذكرانه كائن بقوله ان وعد الله حق كان قائلا قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مرارا على البعث (أحدهما) احياء الارض بعد موتها كما قال تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وقال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وقال ههنا يا أيها السائل انك لاتعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على احياء الارض حيث قال وهو الذى ينزل الغيث وقال ويحيى الارض (وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وقال تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة الى غير ذلك فقال ههنا ويعلم ما فى الارحام اشارة الى ان الساعة وان كنت لاتعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها وكما هو قادر على الخلق فى الارحام كذلك يقدر على الخلق من الرخام ثم قال لذلك الطالب علمه يا أيها السائل انك تسأل عن الساعة أيان مرساها فلك أشياء أهم منها لاتعلمها فانك

مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على أن الشفيع عبارة عن الناصر مجازا فاذا خذلكم لم يبق لكم ولى ولا نصير (أفلا تتذكرون) أى ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالانكار على الاول متوجه الى عدم السماع وعدم التذكر معا وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع (يدبر الامر من السماء الى الارض) قيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثارها وأحكامها الى الارض (ثم يعرج اليه) أى يثبت فى علمه موجودا بالفعل (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى فى برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية باثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج اليه فى زمان هو كألف سنة مما تعدون فان ما بين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام وقيل يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الالف لالف آخر وقيل يدبر أمر الدنيا جميعا الى قيام الساعة ثم يعرج اليه الامر كله عند قيامها وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلا من السماء الى الارض بالوحى ثم لا يعرج اليه خالصا الا فى مدة متطاولة لقلة المخلصين والاعمال الخلص وأنت خبير بأن قلة الاعمال الخالصة لا تقتضى بطء عروجها الى السماء بل قلته وقرئ يعدون بالياء (ذلك) اشارة الى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر الكائنات على ما ذكر من الوجه البديع وهو مبتدأ خبره ما بعده أى ذلك العظيم الشان (عالم الغيب والشهادة) فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة (العزيز) الغالب على أمره (الرحيم) على عباده وهما خبران آخران وفيه ايماء الى

لا تعلم معاشك ومعادك ولا تعلم ماذا تكسب غدا مع انه فعلك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع انه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون فالله ما أعلمك كسب غدك مع ان لك فيه فوائد تبنى عليها الامور من يومك ولا أعلمك أين تموت مع ان لك فيه اغراضا تهيئ أمورك بسبب ذلك العلم وانما لم يعلمك لكى تكون فى كل وقت بسبب الرزق راجعا الى الله تعالى متوكلا على الله ولا أعلمك الارض التى تموت فيها كى لا تأمن الموت وأنت فى غيرها فاذا لم يعلمك ما تحتاج اليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك اليه وهى الساعة وانما الحاجة الى العلم بأنها تكون وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه ثم قال تعالى ان الله عليم خبير لما خصص أولا علمه بالاشياء المذكورة بقوله ان الله عنده علم الساعة ذكر أن علمه غير مختص بها بل هو عليم مطلقا بكل شئ وليس علمه علما بظاهر الاشياء فحسب بل هو خبير علمه واصل الى بواطن الاشياء والله أعلم بالصواب

●(سورة السجدة وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية)●

●(بسم الله الرحمن الرحيم)●

(الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) لما ذكر الله تعالى فى السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الاصل الآخر وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة فى هذه السورة فقال الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه وقد علم ما فى قوله الم وفى قوله لا ريب فيه من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال من رب العالمين وقال من قبل هدى ورحمة للمحسنين وقال فى البقرة هدى للمتقين وذلك لان من يرى كتابا عند غيره فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما فى الكتاب فيقول ما هذا الكتاب فاذا قيل هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو ولا يقول أولا هذا الكتاب تصنيف من ثم يقول فماذا هو واذا علم هذا فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لان كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس الى مطالعته ۞ ثم قال تعالى (أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) يعنى أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ثم أجاب وبين ان الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الانذار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف قال لتنذر قوما ما أتاهم من نذير مع أن النذر سبقوه الجواب من وجهين (احدهما) معقول والآخر منقول أما المنقول فهو أن قريشا كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد فانهم كانوا من أولاد ابراهيم وجميع أنبياء بنى اسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم الى زمان محمد بلا دين ولا شرع وان كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعنى ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصا بالعرب بل أهل الكتاب أيضا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وانما

أنه تعالى متفضل فى جميع ما ذكر فاعل بالاحسان (الذى أحسن كل شئ خلقه) خبر آخر أو نصب على المدح أى حسن كل مخلوق خلقه اذ ما من مخلوق خلقه لا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الى حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن أى يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وايقان وقرئ خلقه على أنه بدل اشتمال من كل شئ والضمير للمبدل منه أى حسن خلق كل شئ وقيل بدل الكل على أن الضمير لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق أى حسن كل مخلوقاته وقيل هو مفعول ثان لاحسن على تضمينه معنى أعطى أى أعطى كل شئ خلقه اللائق به بطريق الاحسان والتفضل وقيل هو مفعوله الاول وكل شئ مفعوله الثانى والخلق بمعنى المخلوق وضميره لله سبحانه على تضمين الاحسان معنى الالهام والتعريف والمعنى ألهم خلقه كل شئ مما يحتاجون اليه وقال أبو البقاء عرف مخلوقاته كل شئ يحتاجون اليه فيؤل الى معنى قوله تعالى الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى (وبدأ خلق الانسان) من بين جميع المخلوقات (من طين) على وجه بديع تحار العقول فى فهمه حيث برأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لخروج كل فرد منها من القوة الى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قربا وبعدا كما ينبئ عنه قوله تعالى (ثم جعل نسله) الخ أى ذريته سميت بذلك لانها تنسل وتنفصل منه (من سلالة من ماء مهين) هو المنى الممتهن (ثم سواه) أى عدله بتكميل اعضائه فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى (ونفخ فيه من روحه) أضافه اليه تعالى تشريفا له وايذانا بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأنا له مناسبة الى حضرة الربوبية وأن أقصى ما تنتهى اليه العقول

أتى الرسل آباءهم وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذى عليه الاكثرون ان آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفارا ولان النبى أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب وقال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وأما المعقول وهو ان الله تعالى أجرى عادته على ان أهل عصر اذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا ثم انه اذا أراد طهرهم بازالة الشرك والكفر من قلوبهم وان أراد طهر وجه الارض باهلاكهم ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الارض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال لتنذر قوما ما أتاهم أى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير (المسئلة الثانية) لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفى ما عداه فقوله لتنذر قوما ما أتاهم يوجب أن يكون انذاره مختصا بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلا الى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا اليهم نقول هذا فاسد من وجوه (أحدها) ان التخصيص لا يوجب نفى ما عداه (والثانى) انه وان قال به قائل لكنه وافق غيره فى أن التخصيص ان كان له سبب غير نفى ما عداه لا يوجب نفى ما عداه وههنا وجد ذلك لان انذارهم كان أولى ألا ترى أنه تعالى قال وأنذر عشيرتك الاقربين ولم يفهم منه انه لا ينذر غيرهم أو لم يؤمر بانذار غيرهم وانذار المشركين كان أولى لان انذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا الا بسبب انكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لاجل ذلك (الثالث) هو ان على ما ذكرنا لا يرد ما ذكره أصلا لان أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون مرسلا الى الكل على درجة سواء وبهذا يتبين حسن ما اخترناه وقوله لعلهم يهتدون يعنى تنذرهم راجيا أنت اهتداءهم ۞ ثم قال تعالى (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام) لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء الى التوحيد واقامة الدليل فقال الله الذى خلق السموات والارض الله مبتدأ وخبره الذى خلق يعنى الله هو الذى خلق السموات والارض ولم يخلقهما الا واحد فلا اله الا واحد وقد ذكرنا ان قوله تعالى فى ستة أيام اشارة الى ستة أحوال فى نظر الناظرين وذلك لان السموات والارض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظرا الى خلقه ذات السموات حالة ونظرا الى خلقه صفاتها أخرى ونظرا الى ذات الارض والى صفاتها كذلك ونظرا الى ذوات ما بينهما والى صفاتها كذلك فهى ستة أشياء فى ستة أحوال وانما ذكر الايام لان الانسان اذا نظر الى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والايام أشهر الازمنة والا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره ان يوما ولدت فيه ● كان يوما مباركا وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج عن مراده لان المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته ۞ ثم قال تعالى (ثم استوى على

البشرية من معرفته هذا القدر الذى يعبر عنه تارة بالاضافة اليه تعالى واخرى بالنسبة الى أمره تعالى كما فى قوله تعالى قل الروح من أمر ربى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) ٧٥٢ الجعل ابداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا انها مع كونها فى انفسها نعما جليلة لا يقادر قدرها وسائل الى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بأن تصرفوا كلا منها الى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما وقوله تعالى (قليلا ما تشكرون) بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلى على ان القلة بمعنى النفى كما ينبئ عنه ما بعده اى شكرا قليلا او زمانا قليلا تشكرون وفى حكاية احوال الانسان من مبدا فطرته الى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية احواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبئ عن استعداده للفهم وصلاحيته له من الجزالة ما لا غاية وراءه (وقالوا) كلام مستأنف مسوق لبيان اباطيلهم بطريق الالتفات ايذانا بأن ما ذكر من عدم شكرهم بتلك النعم موجب للاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (ائذا ضللنا فى الارض) اى صرنا ترابا مخلوطا بترابها بحيث لا نتميز منه او غبنا فيها بالدفن وقرئ ضللنا بكسر اللام من باب علم وصللنا بالصاد المهملة من صل اللحم اذا أنتن وقيل من الصلة وهى الارض أى صرنا من جنس الصلة ولا

العرش) اعلم أن مذهب العلماء فى هذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك التعرض الى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والاول أسلم والى الحكمة أقرب أما انه أسلم فذلك لان من قال أنا لا أتعرض الى بيان هذا أولا أعرف المراد من هذا لا يكون حاله الا حال من لا يتكلم عند عدم وجوب الكلام أولا يعلم شيأ لم يجب عليه أن يعلمه وذلك لان الاصول ثلاثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أجمعنا واتفقنا ان العلم به واجب والعلم بتفصيله انه متى يكون غير واجب ولهذا قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة ان الله عنده علم الساعة فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الاجمال وتعاليه عن وصمات الامكان وصفات النقصان ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هى وصفة الاستواء مما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض اليه لم يترك واجبا وأما من يتعرض اليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالاول غاية ما يلزمه انه لا يعلم والثانى يكاد أن يقع فى أن يكون جاهلا مركبا وعدم العلم والجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد فى ان السكوت خير من الكذب وأما انه أقرب الى الحكمة فذلك لان من يطالع كتابا صنفه انسان وكتب له شرحا والشارح دون المصنف فالظاهر انه لا يأتى على جميع ما أتى عليه المصنف ولهذا كثيرا ما ترى ان الانسان يورد الاشكالات على المصنف المتقدم ثم يجيء من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وانما أراد كذا وكذا واذا كان حال الكتب الحادثة التى تكتب عن علم قاصر كذلك فما ظنك بالكتاب العزيز الذى فيه كل حكمة يجوز أن يدعى جاهل انى علمت كل سر فى هذا الكتاب وكيف ولو ادعى عالم انى علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلانى يستقبح منه ذلك فكيف من يدعى انه علم كل ما فى كتاب الله ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لان تأخير البيان الى وقت الحاجة جائز ولعل فى القرآن ما لا يحتاج اليه أحد غير نبيه فبينه له لا لغيره اذا ثبت هذا علم أن فى القرآن ما لا يعلم وهذا أقرب الى ذلك الذى لا يعلم للتشابه البالغ الذى فيه لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفى بعض ما يعلم قطعا انه ليس بمراد وهذا لان قائلا اذا قال ان هذه الايام أيام قرء فلانة يعلم انه لا يريد أن هذه الايام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الايام أيام سفر فلانة وانما المراد منحصر فى الطهر أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصا فى ذاته لاستحالة ذلك والجلوس والاستقرار المكانى من ذلك الباب فيجب القطع بنفى ذلك والتوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثانى) خطر ومن يذهب اليه فريقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكانى (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والاول جهل محض والثانى يجوز أن يكون جهلا والاول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفرا والثانى وان كان جهلا فليس بجهل يورث بدعة وهذا كما ان واحدا اذا اعتقد أن الله يرحم الكفار

قيل القائل أبى بن خلف ولرضاهم بقوله أسند القول الى الكل والعامل فى اذا ما يدل عليه قوله تعالى (ائنا لفى خلق جديد) وهو نبعث او يجدد خلقنا والهمزة لتذكير الانكار السابق وتأكيده وقرئ انا على الخبر وأياما كان فالمنفى على تأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما هو المتبادر من تقدم الهمزة على ان ٧٥٣ فانهما مؤخرة عنها فى الاعتبار وانما تقديمها عليها لاقتضائها الصدارة (بل هم بلقاء ربهم كافرون) اضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث الى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه وهو كفرهم بالوصول الى العاقبة وما يلقونه فيها من الاحوال والاهوال جميعا (قل) بيانا للحق وردا على زعمهم الباطل (يتوفاكم ملك الموت) لا كما تزعمون أن الموت من الاحوال الطبيعية العارضة للحيوان بموجب الجبلة أى يقبض أرواحكم بحيث لا يدع فيكم شيأ أولا يترك منكم أحدا على أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم (الذى وكل بكم) اى بقبض أرواحكم واحصاء آجالكم (ثم الى ربكم ترجعون) بالبعث للحساب والجزاء (ولو ترى اذ المجرمون) وهم القائلون ائذا ضللنا فى الارض الآية أو جنس المجرمين وهم من جملتهم (ناكسو رؤسهم عند ربهم) من الحياء والخزى عند ظهور قبائحهم التى اقترفوها فى الدنيا (ربنا) أى يقولون ربنا (أبصرنا وسمعنا) أى صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لادراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عميا وصما لا ندرك شيأ (فارجعنا) الى الدنيا (نعمل) عملا (صالحا) حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى (انا موقنون) ادعاء منهم لصحة الافئدة والاقتدار على فهم معانى الآيات والعمل بموجبها كما أن ما قبله ادعاء لصحة مشعرى البصر والسمع كأنهم قالوا وأيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيأ أصلا وانما

ولا يعاقب أحدا منهم يكون جهلا وبدعة وكفرا واذا اعتقد انه يرحم زيدا الذى هو مستور الحال لا يكون بدعة غايته ما يكون انه اعتقاد غير مطابق (ومما قيل فيه) ان المراد منه استوى على ملكه والعرش يعبر به عن الملك يقال الملك قعد على سرير المملكة بالمدة القلانية وان لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة اشارة الى البخل مع انهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ولو كان مراد الله ذلك لكان كذبا جل كلام الله عنه ثم لهذا فضل تقرير وهو ان الملوك على درجات فمن يملك مدينة صغيرة أو بلادا يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ومن يكون سلطانا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك فى خدمته يكون له سرير يجلس عليه وقدامه كرسى يجلس عليه وزيره فالعرش والكرسى فى العادة لا يكون الا عند عظمة المملكة فلما كان ملك السموات والارض فى غاية العظمة عبر عما ينبئ فى العرف عن العظمة ومما ينبهك لهذا قوله تعالى انا خلقنا وانا زينا ونحن أقرب ونحن نزلنا أيظن أو يشك مسلم فى أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجد له محملا غير ان العظيم فى العرف لا يكون واحدا وانما يكون معه غيره فكذلك الملك العظيم فى العرف لا يكون الا ذا سرير يستوى عليه فاستعمل ذلك مريدا للعظمة ومما يؤيد هذا ان المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الارض حتى لم يبق له مكان أيظن انهم يريدون به انه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ولا سيما من يقول بان الهه فى مكان كيف يخرج الانسان عن المكان فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش وان كان التنزه عن المكان واجبا له وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والارض ثم القصة انه استوى على الملك وهذا كما يقول القائل فلان أكرمنى وانعم على مرارا ويحكى عنه أشياء ثم يقول انه ما كان يعرفنى ولا كنت فعلت معه ما يجازينى بهذا فنقول ثم للحكاية لا للمحكى (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا أما النقل فكثير مذكور فى كتب اللغة منها ديوان الادب وغيره مما يعتبر النقل عنه واما الاستعمال فقول القائل

فقد استوى بشر على العراق • من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا فكلمة ثم معناها ما ذكرنا كأنه قال خلق السموات والارض ثم ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش فانه أعظم من الكرسى والكرسى وسع السموات والارض (والوجه الثالث) قيل ان المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد انه فى مكان وذلك لان الانسان يقول استقر رأى فلان على الخروج ولا يشك أحد انه لا يريد ان الرأى فى مكان وهو الخروج لما أن الرأى لا يجوز فيه أن يقال انه متمكن أو هو مما يدخل فى مكان اذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن حتى اذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم

عدلوا فى الجملة الاسمية المؤكدة اظهارا لثباتهم على الايقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد فى الاستدعاء طمعا فى الاجابة
الى ما سألوه من الرجعة وأنى لهم ذلك ويجوز أن يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له أى ابصرنا ما يبصرونه ويسمعونه فانهم
حينئذ يشاهدون الكفر والمعاصى على صور منكرة هائلة ويخبرهم الملائكة بأن مصيرهم الى النار لا محالة ٧٥٤

منه التمكن وكونه فى مكان واذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك فى فلان فقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغى أن يفهم كونه فى مكان ما لم يعلم انه مما يجوز عليه أن يكون فى مكان أولا يجوز فاذن فهم كونه فى مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون فى مكان فجواز كونه فى مكان ان استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشئ على نفسه وهو محال ثم الذى يدل على انه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكانا له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى وان الله لهو الغنى وهذا يقتضى أن يكون غنيا على الاطلاق وكل ما هو فى مكان فهو فى بقائه محتاج الى مكان لان بديهة العقل حاكمة بان الحيز ان لم يكن لا يكون المتحيز باقيا فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج اليه فى استمراره فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استقراره وهو غنى بالنص (الثانى) قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى فاذن لا يكون فى ذلك الوقت فى مكان فجاز عليه أن لا يكون فى مكان وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون فى مكان (الثالث) قوله تعالى وهو معكم ووجه التمسك به هو ان على اذا استعمل فى المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع اذا استعملت فى متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو واذا استعمل هذا فان كان الله فى مكان ونحن متمكنون فقوله ان الله معنا وقوله وهو معكم كان ينبغى أن يكون للاقتران وليس كذلك فان قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله اليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلانى مع الملك الفلانى أى بالاعانة والنصر فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير يقول القائل لولا فلان على فلان لاشرف فى الهلاك ولاشرف على الهلاك وكذلك يقال لولا فلان على املاك فلان أو على أرضه لما حصل له شئ منها ولا أكل حاصلها بمعنى الاشراف والنظر فكيف لا تقول فى استوى على العرش انه استوى عليه بحكمه كما تقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ولو كان فى مكان لاحاط به المكان وحينئذ فاما أن يرى واما أن لا يرى لا سبيل الى الثانى بالاتفاق لان القول بأنه فى مكان ولا يرى باطل بالاجماع وان كان يرى فيرى فى مكان أحاط به فتدركه الابصار وأما اذا لم يكن فى مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الابصار اما ذا لم ير فظاهر وأما اذا رؤى فلان البصر لا يحيط به فلا يدركه وانما قلنا ان البصر لا يحيط به لان كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضناه عدم المكان ولو تدبر الانسان القرآن لوجده مملوأ من عدم جواز كونه فى مكان كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على انه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان وذلك لان كلمة ثم للتراخى فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله اما أن يكون فى مكان أو لا يكون فان كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزليا ثم ان هذا القائل يدعى مضادة الفلاسفة فيصير فلسفيا يقول بقدم سماء من

فالمعنى ابصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا ان مردنا الى النار وهو الانسب لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وأنت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون باظهار مدلول ما أخبروا به من الوعد والوعيد لا بالاخبار بانهم صادقون حتى يسمعوه وقيل وسمعنا قول رسل أى سمعناه سمع طاعة واذعان ولا يقدر لترى مفعول اذ المعنى لو تكون منك رؤية فى ذلك الوقت أو يقدر ما ينبئ عنه صلة اذ والمضى فيها وفى لو باعتبار أن الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا لا يقادر قدره والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة الى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور البديعة والدواهى الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن علل عموم الخطاب بالقصد الى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور الى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا تختص رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل فى هذا الخطاب فقد

نأى عن تحقيق الحق لان المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه الجواب المحذوف لا بيان كمال ظهورها السموات
فانه مسوق مساق المسلمات فتدبر (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) مقدر بقول معطوف على ما قدر قبل قوله تعالى ربنا

أبصرنا الخ اى ونقول لو شئنا اى لو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بان نعطى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدى به الى
الايمان والعمل الصالح لاعطيناها اياه فى الدنيا التى هى دار الكسب وما أخرناه الى دار الجزاء (ولكن حق القول منى) أى
سبقت كلمتى حيث قلت لابليس عند قوله لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ٧٥٥ فالحق والحق أقول لاملأن جهنم

السموات (والثانى) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضى الى حدوث البارى أو يبطل دلائل حدوث الاجسام وان لم يكن مكان وما حصل فى مكان بطل العقل وجوده بلا مكان ولو جاز له أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزليا فاما أن يكون فى الازل ساكنا أو متحركا لا نهما فرعا الحصول فى مكان واذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم لانه ان سلم انه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم فى الازل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان فلا يتم دليله فى حدوث العالم فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ثم ان هذا القائل يقول انك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس فى مكان ولا يعلم انه جعله معدوما حيث أحوجه الى مكان وكل محتاج نظرا الى عدم ما يحتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيه لطال الكلام

• ثم قال تعالى (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون) لما ذكر أن الله خالق السموات والارض قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والارض واحد هو اله السموات وهذه الاصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا اله غير الله ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة الا باذن الله فعبادتكم لهذه الاصنام باطلة لا نافعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم ثم قال تعالى أفلا تتذكرون ما علمتموه من انه خالق السموات والارض وخلق هذه الاجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الاصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الاشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة ۞ ثم قال تعالى (يدبر الامر من السماء الى الارض) لما بين الله تعالى الخلق بين الامر كما قال تعالى الا له الخلق والامر والعظمة تتبين بهما فان من يملك مماليك كثيرين عظماء تكون له عظمة ثم اذا كان أمره نافذا فيهم يزداد فى أعين الخلق وان لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته وقوله تعالى (ثم يعرج اليه) معناه والله أعلم ان أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج اليه اعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الامر فان العمل أثر الامر ۞ وقوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فيه وجوه (أحدها) ان نزول الامر وعروج العمل فى مسافة ألف سنة مما تعدون وهو فى يوم فان بين السماء والارض مسيرة خمسمائة سنة فينزل فى مسيرة خمسمائة سنة ويعرج فى مسيرة خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة (ثانيها) هو ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة فقوله تعالى فى يوم كان مقداره ألف سنة يعنى يدبر الامر فى زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه وكم تكون سنة منه وكم يكون دهر منه وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لان تلك اذا كانت اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بالالف أو بالخمسين ألفا لا يتفاوت الا ان المبالغة تكون فى الخمسين أكثر وسنذكر فائدتها فى موضعها ان شاء الله

منك وممن تبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله تعالى (لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فبموجب ذلك القول لم نشأ اعطاء الهدى على العموم بل منعناه من اتباع ابليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم الى الغى باغوائه ومشيئتنا لافعال العباد منوطة باختيارهم اياها فلم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأ اعطاءه لكم وانما أعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتى من قوله تعالى انما يؤمن بآياتنا الآية فيكون مناط عدم مشيئة اعطاء الهدى فى الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول وانما قيدنا المشيئة بما مر من التعلق الفعلى بافعال العباد عند حدوثها لان المشيئة الازلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم اجمالا متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطا بتحققها وانما مناطه علمه تعالى ازلا بصرف اختيارهم فيما سيأتى الى الغى وايثارهم له على الهدى فلو اريدت هى من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم فمن توهم أن المعنى ولو شئنا لاعطينا كل نفس ما عندنا من

اللطف الذى لو كان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم اختيار الكفر وايثاره فقد اشتبه عليه الشؤن والفاء فى
قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الامر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبله من نفى الرجع الى الدنيا أو على الوعيد المحكى والباء فى قوله

تعالى (بما نسيتم لقاء يومكم هذا) للايذان بان تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد أيضا بسبب موجب له من قبلهم كأنه قيل لا رجع لكم الى الدنيا أو حق وعيدى فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكر فيه والاستعداد له بالكلية (انا نسيناكم) ٧٥٦ أى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالمرة وقوله تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) تكرير لتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المطوى للذوق والاشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا وعدم نظم الكل فى سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها فى استيجاب العذاب وفى ابهام المذوق أولا وبيانه ثانيا بتكرير الامر وتوسيط الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد فى الانتقام منهم ما لا يخفى وقوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا) استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لايتاء الهدى والاشعار بعدم ايمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كأنه قيل انكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها عملا صالحا ولو رجعناكم الى الدنيا كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانما يؤمن بها (الذين اذا ذكروا بها) أى وعظوا (خروا سجدا) آثر ذى أثير من غير تردد ولا تلعثم فضلا عن التسويف الى معاينة ما نطقت به من الوعد والوعيد أى سقطوا على وجوههم (وسبحوا بحمد ربهم) أى ونزهوه عند ذلك عن كل ما لا يليق به من الامور التى من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التى أجلها الهداية بايتاء الآيات والتوفيق للاهتداء بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الاضافة الى ضميرهم للاشعار بعلة التسبيح والتحميد وبانهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (وهم لا يستكبرون) أى والحال أنهم خاضعون له تعالى

تعالى (وفى هذه اللطيفة) وهو ان الله ذكر فى الآية المتقدمة عالم الاجسام والخلق وأشار الى عظمة الملك وذكر فى هذه الآية عالم الارواح والامر بقوله يدبر الامر والروح من عالم الامر كما قال تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وأشار الى دوامه بلفظ يوم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال فى العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول وانما الواقع فى الزمان يمتد فيوجد فى أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة فأشار هناك الى عظمة الملك بالمكان وأشار الى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره (واعلم) ان ظاهر قوله يدبر الامر فى يوم يقتضى أن يكون أمره فى يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره فى زمان حادث فيكون حادثا وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف وكلمة كن فكيف فهم من كلمة على كونه فى مكان ولم يفهم من كلمة فى كون أمره فى زمان ثم بين ان هذا الملك العظيم النافذ الامر غير غافل فان الملك اذا كان آمرا ناهيا مطاعا فى أمره ونهيه ولكن يكون غافلا لا يكون مهيبا عظيما كما يكون مع ذلك خبيرا يقظا لا يخفى عليه أمور الممالك والمماليك فقال (ذلك عالم الغيب والشهادة) وأيضا ذكر من قبل عالم الاشباح بقوله خلق السموات وعالم الارواح بقوله يدبر الامر من السماء الى الارض قال عالم الغيب يعلم ما فى الارواح والشهادة يعلم ما فى الاجسام أو نقول قال عالم الغيب اشارة الى ما لم يكن بعد والشهادة اشارة الى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لانه أقوى وأشد انباء عن كمال العلم ثم قال تعالى (العزيز الرحيم) لما بين انه عالم ذكر انه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ثم قال تعالى (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله خلق السموات والارض وما بينهما وأتمه بتوابعه ومكمله لا تمه ذكر الدليل الدال عليها من الانفس بقوله الذى أحسن كل شئ يعنى أحسن كل شئ مما ذكره وبين ان الذى بين السموات والارض خلقه وهو كذلك لانك اذ نظرت الى الاشياء رأيتها على ما ينبغى صلابة الارض للنبات والثبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانفاذ لسهولة الاستطراق وسيلان الماء لنقدر عليه فى كل موضع وحركة النار الى فوق لانها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شئ هناك يقبل الاحتراق وقوله وبدأ خلق الانسان من طين قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمى أصله منى والمنى أصله غذاء والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانية بالآخرة ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو طين وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الاول ظاهر لان آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة وعلى التفسير الثانى هو ان أصله من الطين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هى من ماء مهين فان قال قائل التفسير الثانى غير

صحيح لان قوله بدأ خلق الانسان ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الانسان من طين فنقول لا بل التفسير الثانى أقرب الى الترتيب اللفظى فانه تعالى بدأ بذكر الامر من الابتداء فى خلق الانسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم يبعد أن يقال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) عائد الى آدم أيضا لان كلمة ثم للتراخى فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة وذلك بعد خلق آدم واعلم ان دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر ودلائل الانفس أدل على نفاذ الارادة فان التغييرات فيها كثيرة واليه الاشارة بقوله ثم جعل نسله ثم سواه أى كان طينا فجعله منيا ثم جعله بشرا سويا وقوله تعالى ونفخ فيه من روحه اضافة الروح الى نفسه كاضافة البيت اليه للتشريف واعلم ان النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بان عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون ان كل أحد روحه روح الله بقوله ونفخ فيه من روحه أى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل دارى وعبدى ولم يقل أعطاه من جسمه لان الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون) وفيه مسائل (الاولى) قال وجعل لكم مخاطبا ولم يخاطب من قبل وذلك لان الخطاب يكون مع الحى فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه من بعده وقال جعل لكم فان قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما فى قوله تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب فنقول هناك لم يذكر الامور المرتبة وانما أشار الى تمام الخلق وههنا ذكر الامور المرتبة وهى كون الانسان طينا ثم ماء مهينا ثم خلقا مسوى بأنواع القوى مقوى فخاطب فى بعض المراتب دون البعض (المسئلة الثانية) الترتيب فى السمع والابصار والافئدة على مقتضى الحكمة وذلك لان الانسان يسمع أولا من الابوين أو الناس أمورا فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الامور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك ادراك تام وذهن كامل فيستخرج الاشياء من قلبه ومثاله شخص يسمع من استاذ شيئا ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ثم يصير له أهلية التصنيف فيكتب من قلبه كتابا فكذلك الانسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الامور الخفية (المسئلة الثالثة) ذكر فى السمع المصدر وفى البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل واحد فان الانسان لا يضبط فى زمان واحد كلامين والاذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أى جانب كان يصل اليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بادراك البعض دون البعض واما الابصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فانها تتحرك الى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى ما يريد دون غيره واذا كان

لا يستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح والتحميد (تتجافى جنوبهم) أى تنبو وتتنحى (عن المضاجع) أى الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون بالليل قال أنس رضى الله عنه نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى عليه الصلاة والسلام ٧٥٧ وعن أنس أيضا رضى الله عنه انه قال نزلت فى أناس من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام كانوا يصلون من صلاة المغرب الى صلاة العشاء وهى صلاة الاوابين وهو قول أبى حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والاوزاعى وجماعة لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه عليه الصلاة والسلام اذا جمع الله الاولين والآخرين جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا الى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى (يدعون ربهم) حال من ضمير جنوبهم أى داعين له تعالى على الاستمرار (خوفا) من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته (وطمعا) فى رحمته (ومما رزقناهم) من المال (ينفقون) فى وجوه البر والحسنات (فلا تعلم نفس) من النفوس لا ملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عمن عداهم (ما أخفى لهم) أى لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة (من قرة أعين) مما تقر به أعينهم

وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله عزوجل أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله
ما اطلعتم عليه اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقرئ ما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم على صيغة
المتكلم وما أخفى لهم على البناء للفاعل ٧٥٨ وهو الله سبحانه وقرئ قرات أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة
وما موصولة أو استفهامية
علق عنها الفعل (جزاء بما كانوا
يعملون) أى جزوا جزاء أو أخفى
لهم للجزاء بما كانوا يعملونه
فى الدنيا من الاعمال الصالحة قيل
هؤلاء القوم أخفوا أعمالهم
فأخفى الله تعالى ثوابهم (أفمن
كان مؤمنا كمن كان فاسقا) أى
ابعد ظهور ما بينهما من التباين
البين يتوهم كون المؤمن الذى
حكيت اوصافه الفاضلة كالفاسق
الذى ذكرت احواله (لا يستوون)
التصريح به مع افادة الانكار
لنفى المشابهة بالمرة على ابلغ وجه
وآكده لبناء التفصيل الآتى
عليه والجمع باعتبار معنى من كان
الافراد فيما سبق باعتبار لفظها
وقوله تعالى (اما الذين آمنوا
وعملوا الصالحات فلهم جنات
المأوى) تفصيل لمراتب الفريقين
فى الآخرة بعد ذكر أحوالهما فى
الدنيا وأضيفت الجنة الى المأوى
لانها المأوى الحقيقى وانما الدنيا
منزل مرتحل عنه لا محالة وقيل
المأوى جنة من الجنات وأيا ما
كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز
الى ماذكر من تجافيهم عن
مضاجعهم التى هى مأواهم فى
الدنيا (نزلا) اى ثوابا وهو فى الاصل
ما يعد للنازل من الطعام والشراب
وانتصابه على الحالية (بما كانوا
يعملون) فى الدنيا من الاعمال
الصالحة او بأعمالهم (وأما الذين فسقوا) اى خرجوا عن الطاعة (فمأواهم) اى ملجؤهم ومنزلهم (النار) من
مكان جنات المأوى للمؤمنين (كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها) استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى

كذلك فلم يكن للمحل فى السمع تأثير والقوة مستبدة فذكر القوة فى الاذن وفى العين
والفؤاد للمحل نوع اختيار فذكر المحل لان الفعل يسند الى المختار ألا ترى انك تقول سمع
زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو الا نادرا لما بينا ان المختار هو
الاصل وغيره آلته فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار
آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته فذكر فى السمع المصدر الذى هو القوة وفى الابصار
والافئدة الاسم الذى هو محل القوة ولان السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا
لا يسمع الانسان فى زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك فى زمان واحد صورتين
وأكثر ويستبينهما (المسئلة الرابعة) لم قدم السمع ههنا والقلب فى قوله تعالى ختم الله على
قلوبهم وعلى سمعهم فنقول ذلك يحقق ماذكرنا وذلك لان عند الاعطاء ذكر الادنى وارتقى
الى الاعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ماهو أشرف منه وهو القلب وعند السلب
قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ماهو دونه وهو السمع الذى يسمعون به ممن له قلب يفهم
الحقائق ويستخرجها وقد ذكرنا هنالك ماهو السبب فى تأخير الابصار مع أنها فى الوسط
فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب
قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرها متأخرة ثم قال تعالى (وقالوا أئذا ضللنا
فى الارض) لما قال قليلا ما تشكرون بين عدم شكرهم باتيانهم بضده وهو الكفر وانكار
قدرته على احياء الموتى وقد ذكرنا ان الله تعالى فى كلامه القديم كلما ذكر أصلين من
الاصول الثلاثة لم يترك الاصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله تنزيل الكتاب
الى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وذكر الوحدانية بقوله الله الذى خلق الى
قوله وجعل لكم السمع والابصار ذكر الاصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى وقالوا أئذا
ضللنا فى الارض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو للعطف على ما سبق منهم فانهم قالوا
محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن (المسئلة الثانية) ان الله
تعالى قال فى تكذيبهم الرسول فى الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال فى تكذيبهم
اياه فى الحشر وقالوا بلفظ الماضى وذلك لان تكذيبهم اياه فى رسالته لم يكن قبل وجوده
وانما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعنى هم فيه وأما انكارهم للحشر كان سابقا
صادرا منهم ومن آبائهم فقال وقالوا (المسئلة الثالثة) انه تعالى صرح بذكر قولهم فى
الرسالة حيث قال أم يقولون وفى الحشر حيث قال وقالوا أئذا ولم يصرح بذكر قولهم فى
الوحدانية وذلك لانهم كانوا مصرين فى جميع الاحوال على انكار الحشر والرسول واما
الوحدانية فكانوا يعترفون بها فى المعنى ألا ترى ان الله تعالى قال ولئن سألتهم من خلق
السموات والارض ليقولن الله فلم يقل قالوا ان الله ليس بواحد وان كانوا قالوه فى الظاهر
(المسئلة الرابعة) لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذى
لاريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والارض وخلق الانسان

انه يضرب بهم لهب النار فيرتفعون الى طبقاتها حتى اذا قربوا من بابها وأرادوا ان يخرجوا منها يضرب بهم اللهب فيهوون الى
قعرها وهكذا يفعل بهم ابدا وكلمة فى للدلالة على انهم مستقرون فيها وانما الاعادة من بعض طبقاتها الى بعض (وقيل لهم) تشديدا
عليهم وزيادة فى غيظهم (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به) اى بعذاب النار ٧٥٩ (تكذبون) على الاستمرار فى الدنيا
(ولنذيقنهم من العذاب الادنى)
اى عذاب الدنيا وهو ما محنوا به
من السنة سبع سنين والقتل
والاسر (دون العذاب الاكبر)
الذى هو عذاب الآخرة (لعلهم)
لعل الذين يشاهدونه وهم فى
الحياة (يرجعون) يتوبون عن
الكفر روى ان الوليد بن عقبة
فاخر عليا رضى الله عنه يوم بدر
فنزلت هذه الآيات (ومن اظلم
ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض
عنها) بيان اجمالى لحال من قابل
آيات الله تعالى بالاعراض بعد
بيان حال من قابلها بالسجود
والتسبيح والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد
الاعراض عنها عقلا مع غاية
وضوحها وارشادها الى سعادة
الدارين كما فى بيت الحماسة
ولا يكشف الغماء الا ابن حرة
يرى غمرات الموت ثم يزورها
أى هو اظلم من كل ظالم وان كان
سبك التركيب على نفى الاظلم من
غير تعرض لنفى المساوى وقد مر
مرارا (انا من المجرمين) اى من
كل من اتصف بالاجرام وان هانت
جريمته (منتقمون) فكيف بمن
هو أظلم من كل ظالم واشد جرما
من كل مجرم (ولقد آتينا موسى
الكتاب) اى التوراة عبر عنها
باسم الجنس لتحقيق المجانسة بينها
وبين الفرقان والتنبيه على ان
ايتاءه لرسول الله صلى الله عليه
وسلم كايتائها لموسى عليه السلام (فلا تكن فى مرية من لقائه) من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله وانك لتلقى القرآن
والمعنى انا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل مالقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت

من طين ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل نقول فى الجواب ذكر دليله أيضا وذلك
لان خلق الانسان ابتداء دليل على قدرته على اعادته ولهذا استدل الله على امكان الحشر
بالخلق الاول كما قال ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة
وكذلك خلق السموات كما قال تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن
يخلق مثلهم بلى ۞ وقوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) أى أئنا كائنون فى خلق جديد
أو واقعون فيه (بل هم بلقاء ربهم كافرون) اضراب عن الاول يعنى ليس انكارهم لمجرد
الخلق ثانيا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا
بالعذاب والثواب أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم فانهم أنكروه
لانكروا المفضى اليه ثم بين ما يكون لهم من الموت الى العذاب ۞ فقال تعالى (قل
يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) يعنى لا بد من الموت ثم من الحياة بعده واليه الاشارة
بقوله (ثم الى ربكم ترجعون) وقوله الذى وكل بكم اشارة الى انه لا يغفل عنكم واذا جاء
أجلكم لا يؤخركم اذ لا شغل له الا هذا وقوله يتوفاكم ملك الموت ينبئ عن بقاء الارواح
فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الاخذ والاعدام المحض ليس بأخذ ثم ان الروح الزكى
الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم
كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم والاول ينمو ويزيد ويزداد صفاؤه وقوته
والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته والحكماء يقولون ان الارواح الطاهرة
تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به والارواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق
الثانى فان أرادوا ما ذكرنا فقد وافقونا والا فتغير النظر فى ذلك بحسب ارادتهم فقد
يكون قولهم حقا وقد يكون غير حق فان قيل هم أنكروا الاحياء والله ذكر الموت وبينهما
مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) ان ذلك دليل الاحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم
قالوا ما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك فقال الملك يقبض الروح والاجزاء
تتفرق فجمع الاجزاء لا يبعد فيه وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضا فقوله قل
يتوفاكم ملك الموت أى الارواح معلومة فترد الى أجسادها ۞ ثم قال تعالى (ولو ترى
اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا
انا موقنون) لما ذكر أنهم يرجعون الى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال
بقوله ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم يعنى لو ترى حالهم وتشاهدها تستقبحها لترى
عجبا وقوله ترى يحتمل أن يكون خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفيا لصدره فانهم
كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحد كما يقول القائل ان فلانا
كريم ان خدمته ولو لحظة يحسن اليك طول عمرك ولا يريد به خاصا وقوله عند ربهم
لبيان شدة الخجالة لان الرب اذا أساء اليه المربوب ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الخجالة
۞ ثم قال تعالى ربنا أبصرنا وسمعنا يعنى يقولون أو قائلين ربنا أبصرنا وحذف يقولون

مثله ونظيره وقيل من لقائه موسى الكتاب أومن لقائك موسى وعنه عليه الصلاة والسلام رأيت ليلة أسري بي موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة (وجعلناه) أي الكتاب الذي آتيناه موسى (هدى لبني اسرائيل) قيل لم يتعبد بما في التوراة ولد اسمعيل (وجعلنا منهم أئمة يهدون) ٧٦٠ بقيتهم بما في تضاعيف الكتاب من الحكم والاحكام الى طريق الحق او يهدونهم

الى ما فيه من دين الله وشرائعه (بأمرنا) اياهم بذلك او بتوفيقنا له (لما صبروا) هي لما التي فيها معنى الجزاء نحو أحسنت اليك لما جئتني والضمير للائمة تقديره لما صبروا جعلناهم ائمة او هي ظرف بمعنى الحين اي جعلناهم ائمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد في نصرة الدين او صبرهم عن الدنيا وقرئ لما صبروا اي لصبرهم (وكانوا بآياتنا) التي في تضاعيف الكتاب (يوقنون) لامعانهم فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناك هدى لامتك ولنجعلن منهم ائمة يهدون مثل تلك الهداية (ان ربك هو يفصل) اي يقضي (بينهم) قيل بين الانبياء واممهم وقيل بين المؤمنين والمشركين (يوم القيامة) فيميز بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من امور الدين (اولم يهد لهم) الهمزة للانكار والواو للعطف على منوي يقتضيه المقام وفعل الهداية اما من قبيل فلان يعطي في ان المراد ايقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول واما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل ما دل عليه قوله تعالى (كم اهلكنا) اي أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم اولم يبين لهم مآل امرهم كثرة اهلاكنا (من قبلهم من القرون) مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرئ نهد لهم بنون العظمة وقد جوز

اشارة الى غاية خجالتهم لان الخجل العظيم الخجلة لا يتكلم وقوله ربنا أبصرنا وسمعنا أي أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا الى الدنيا نعمل صالحا وقولهم انا موقنون معناه انا في الحال آمنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لا يكون الا عند التكليف به وهو في الدنيا فارجعنا للعمل وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل في الآخرة كالعمل الصالح أونقول المراد منه انهم ينكرون الشرك كما قالوا وما كنا مشركين فقالوا ان هذا الذي جرى علينا ما جرى الا بسبب ترك العمل الصالح وأما الايمان فانا موقنون وما أشركنا ۞ ثم قال تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) جوابا عن قولهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا وبيانه هو أنه تعالى قال اني لو أرجعتكم الى الايمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين اني ما أردت وما شئت ايمانكم فلا أردكم وقوله ولو شئنا لآتينا صريح في ان مذهبنا صحيح حيث نقول ان الله ما أراد الايمان من الكافر وما شاء منه الا الكفر ۞ ثم قال تعالى (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم) أي وقع القول وهو قوله تعالى لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو أن الله تعالى لم يفعل فعلا خاليا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف في انه هل قصد الفعل للحكمة أوفعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحث فحمله تلك الحكمة على الفعل واذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكيم حكمة افعاله بأسرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الاجمال فكل ضرب يكون في العالم وقد اخفى حكمته تخرج من تقسيم عقلي وهو أن الفعل اما أن يكون خيرا محضا أوشرا محضا أوخيرا مشوبا بشر وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره متساويان اذا علم هذا فخلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوي وخلق عالما فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلي ولم يخلق عالما فيه شر محض ثم ان العالم السفلي الذي هو عالمنا وان كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الاول الذي خيره غالب فانك اذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار تجد المنافع أكثر واذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر وكيف لا والمؤمن يقابل الكافر ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلا من أول عمره الى آخره كالانبياء عليهم السلام والاولياء والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلا غاية ما في الباب ان الكفر يحبط خيره ولا ينفعه انه يستحيل نظرا الى العادة أن يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه في عمره وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضية للخيرات اذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم ان ترك خلق هذا القسم ان كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لاجل الشر القليل لا يناسب الحكمة ألا ترى أن

أن يكون الفاعل على القراءة الاولى ايضا ضميره تعالى فيكون قوله تعالى كم اهلكنا الخ استئنافا مبينا لكيفية هدايته تعالى

(يمشون في مساكنهم) اي يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم والجملة حال من ضمير لهم وقرئ يمشون للتكثير (ان في ذلك) اي فيما ذكر من كثرة اهلاكنا للامم الخالية العاتية أوفي مساكنهم (لآيات) عظيمة في أنفسها كثيرة في عددها (أفلا يسمعون) هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ ٧٦١ (أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) اي التي جرز نباتها اي قطع وأزيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن (فنخرج به) من تلك الارض (زرعا تأكل منه) اي من ذلك الزرع (انعامهم) كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها وقرئ يأكل بالياء (وأنفسهم) كالحبوب التي يقتاتها الانسان والثمار (أفلا يبصرون) اي ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله (ويقولون) كان المسلمون يقولون ان الله سيفتح لنا على المشركين أويفصل بيننا وبينهم وكان أهل مكة اذا سمعوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيبا واستهزاء (متى هذا الفتح) اي النصر أوالفصل بالحكومة (ان كنتم صادقين) في أن الله تعالى ينصركم أويفصل بيننا وبينكم (قل) تبكيتا لهم وتحقيقا للحق (يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولاهم ينظرون) يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسئل عنه لكونه أمرا بينا غنيا عن الاخبار به وكذا ايمانهم

التاجر اذا طلب منه درهم بدينار فلو امتنع وقال في هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له لكن في مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار في ملكك وكذلك الانسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب الى مخالفة الحكمة فاذا نظر الى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف لخلق العالم الذي يقع فيه الشر والى هذا أشار بقوله اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقال الله تعالى في جوابهم اني أعلم ما لا تعلمون أي أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لان الخير فيه كثير ثم بين لهم خيره بالتعليم كما قال تعالى وعلم آدم الاسماء كلها يعني أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب فقوله تعالى أتجعل فيها من يفسد فيها اشارة الى الشر وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله وعلم آدم الاسماء فان قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها يعني لو شئنا لخلصنا الخير من الشر لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة لان ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة وان كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فخلقه لما فيه من الخير الكثير وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح ان الخير في القضاء والشر في القدر فالله قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل ۞ وقوله (من الجنة والناس) لانه تعالى قال لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك وهذا اشارة الى أن النار لمن في العالم السفلي والذين في العالم العلوي مبرؤن عن دخول النار وهم الملائكة وهذا يقتضي أن لا يكون ابليس من الملائكة وهو الصحيح ۞ وقوله (أجمعين) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأكيدا وهو الظاهر (والثاني) أن يكون حالا أي مجموعين فان قيل كيف جعل جميع الانس والجن مما يملأ بهم النار نقول هذا لبيان الجنس أي جهنم تملأ من الجن والانس لا غير أمنا للملائكة ولا يقتضي ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس فان قيل فهذا يقتضي أن تكون جهنم ضيقة تملأ ببعض الخلق نقول هو كذلك وانما الواسع الجنة التي هي من الرحمة الواسعة والله أعلم ولما بين الله تعالى بقوله ولو شئنا لآتينا انهم لا رجوع لهم قال لهم اذا علمتم انكم لا رجوع لكم (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) وفي تفسير الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله فذوقوا بما نسيتم لقاء يحتمل أن يكون منصوبا بذوقوا أي ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسي هو الميثاق الذي أخذ منهم بقوله ألست بربكم قالوا بلى أو بما في الفطرة من

واستنظارهم يومئذ وانما المحتاج الى البيان عدم نفع ذلك الايمان وعدم الانظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأني بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه الاول ظاهر واما على الاخيرين فالموصول عبارة عن

المقتولين يومئذ لاعن كافة الكفرة كما فى الوجه الاول كيف لا وقد نفع الايمان الطلقاء يوم الفتح وناسا آمنوا يوم بدر (فأعرض عنهم) ولا تبال بتكذيبهم (وانتظر) النصرة عليهم وهلاكهم (انهم منتظرون) قيل اى الغلبة عليكم كقوله تعالى فتربصوا انا معكم متربصون والاظهر أن يقال انهم منتظرون ٧٦٢ هلاكهم كما فى قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام الآية ويقرب منه ماقيل وانتظر عذابنا انهم منتظروه فان استعجالهم المذكور وعكوفهم على ماهم عليه من الكفر والمعاصى فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لامحالة وقرئ على صيغة المفعول على معنى أنهم أحقاء بان ينتظر هلاكهم أوفان الملائكة ينتظرونه • عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل وتبارك الذى بيده الملك أعطى من الاجر كأنما أحيا ليلة القدر وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام

•(سورة الاحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية)•

•(بسم الله الرحمن الرحيم)•

(يا أيها النبى اتق الله) فى ندائه عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فان له بابا واسعا وعرضا عريضا لاينال مداه (ولا تطع الكافرين) اى المجاهرين بالكفر (والمنافقين) المضمرين له اى فيما يعود بوهن فى الدين واعطاء دنية فيما بين المسلمين روى أن أبا سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الاعور السلمى قدموا عليه عليه الصلاة والسلام فى الموادعة التى كانت بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبى ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارفض ذكر آلهتنا وقل انها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق يقول

الوحدانية فينسى بالاقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوبا بقوله نسيتم اى بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا وعلى هذا لو قال قائل النسيان لايكون الا فى المعلوم أولا اذا جهل آخرا نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ولما ترك وه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان اشارة الى كونهم منكرين لامر ظاهر كمن ينكر أمرا كان قد علمه (المسئلة الثانية) قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون اشارة الى اليوم اى فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون اشارة الى اللقاء اى فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون اشارة الى العذاب اى فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ثم قال انا نسيناكم اى تركناكم بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعله الناسى قطعا لرجائكم ثم ذكر مايلزم من تركه اياهم كما يترك الناسى وهو خلود العذاب لان من لايخلصه الله فلا خلاص له فقال وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ۞ ثم قال تعالى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون) اشارة الى أن الايمان بالآيات كالحاصل وانما ينساه البعض فاذا ذكر بها خر ساجدا له يعنى انقادت أعضاؤه له وسبح بحمده يعنى ويحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك وهم لايستكبرون يعنى وكان قلبه خاشعا لايتكبر ومن لايستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقا ۞ ثم قال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) يعنى بالليل قليلا ما يهجعون وقوله يدعون ربهم اى يصلون فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى أو يطلبونه وهذا لاينافى الاول لان الطلب قد يكون بالصلاة والحمل على الاول أولى لانه قال بعده ومما رزقناهم ينفقون وفى أكثر المواضع التى ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقوله خوفا وطمعا يحتمل أن يكون مفعولا له ويحتمل أن يكون حالا اى خائفين طامعين كقولك جاؤنى زورا أى زائرين وكان فى الآية الاولى اشارة الى المرتبة العالية وهى العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى اذا ذكروا بها خروا فانه يدل على ان عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وان لم يكن خوف وطمع وفى الآية الثانية اشارة الى المرتبتين الاخيرتين وهى العبادة خوفا كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعا فى بره ثم بين مايكون لهم جزاء فعلهم ۞ فقال (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) يعنى مما تقر العين عنده ولا تلتفت الى غيره يقال ان هذا لايدخل فى عينى يعنى عينى تطلع الى غيره فاذا لم يبق تطلع للعين الى شئ آخر لم يبق للعين مسرح الى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد وهذا فيه لطيفة وهى ان من العبد شيأ وهو العمل الصالح ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والاكرام فلله تعالى أن يقول جزاء الاحسان احسان وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن فى مقابلته فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض وله أن

ذلك على النبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت اى اتق الله فى نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تساعد الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا اليك (ان الله كان عليما حكيما) مبالغا فى العلم والحكمة فيعلم جميع الاشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك الا بما فيه مصلحة ولا ينهاك ٧٦٣ الا عما فيه مفسدة ولا يحكم الا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للامر والنهى مؤكد لوجوب الامتثال بهما (واتبع) اى فى كل ماتأتى وتذر من أمور الدين (ما يوحى اليك من ربك) من الآيات التى من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالامر (ان الله كان بما تعملون خبيرا) قيل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقيل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات ولا يخفى بعده نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب وأياما كان فالجملة تعليل للامر وتأكيد لوجوبه أما على الوجهين الاولين فبطريق الترغيب والترهيب كأنه قيل ان الله خبير بما تعملونه من الامتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثوابا وعقابا وأما على الوجه الاخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل ان الله خبير بما يعمله كلا الفريقين فيرشدك الى مافيه صلاح حالك وانتظام أمرك ويطلعك على مايعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك بما ينبغى لك أن تعمله فى دفعها وردها فلابد من اتباع الوحى والعمل بمقتضاه حتما (وتوكل على الله) اى فوض جميع أمورك اليه (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا اليه كل الامور (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) شروع فى القاء الوحى الذى أمر عليه الصلاة والسلام باتباعه وهذا مثل ضربه الله تعالى تمهيدا لما يعقبه من قوله

يقول جعلت الاول تفضلا لا أطلب عليه جزاء فاذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شئ لانى أبرأته مما عليه من النعم فكان هو آتيا بالحسنة ابتداء وجزاء الاحسان احسان فاجعل الثواب جزاء كلاهما جائز لكن غاية الكرم أن يجعل الاول هبة ويجعل الثانى مقابلا وعوضا لان العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء وانما الله يتفضل يثق ولكن لايطمئن قلبه واذا قيل له الاول غير محسوب عليك والذى أتيت به أنت به بادولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم اذا عرف ان هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا استحق به جزاء فاذا أثابه الله تعالى يقول الذى أتيت به كان جزاء وهذا ابتداء احسان من الله تعالى يستحق حمدا وشكرا فيأتى بحسنة فيقول الله انى أحسنت اليه جزاء فعله الاول وما فعلت أولا لا أطلب له جزاء فيجازيه ثالثا فيشكر العبد ثالثا فيجازيه رابعا وعلى هذا لاتنقطع المعاملة بين العبد والرب ومثله فى الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما الى الآخر هدية ونسيها والمهدى اليه يتذكرها فأهدى الى المهدى عوضا فرآه المهدى الاول ابتداء لنسيانه ماأهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة وهذه هدية ماعوضتها فيعوض ويعوض عنه المحب الآخر ويتسلسل الامر بينهما ولا ينقطع التهادى والتحاب بخلاف من أرسل الى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث اليه المهدى اليه عوضا يقول المهدى هذا عوض ما أهديت اليه فيسكت ويترك الاهداء فينقطع واعلم أن التكاليف يوم القيامة وان ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لاترتفع بل العبد يعبد ربه فى الجنة أكثر مما يعبده فى الدنيا وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال فى حقهم يسبحون الليل والنهار لايفترون غاية مافى الباب ان العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى بمقتضى الطبع ومن جملة الاسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وان قرب العبد منه بل تزداد لذتها ۞ ثم قال تعالى (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوى الفريقان ثم بين انهما لايستويان ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل فقال أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى اشارة الى ماذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض أو غرض فلما آمن العبد وعمل صالحا قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بان أعطاه الجنة ثم قال تعالى نزلا اشارة الى أن بعدها أشياء لان النزل مايعطى الملك النازل وقت نزوله قبل أن يجعل له راتبا أو يكتب له خبزا وقوله بما كانوا يعملون يحقق ماذكرنا وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها اشارة الى حال الكافر وقد ذكرنا مرارا ان

تعالى (وما جعل ازواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم) وتنبيها على أن كون المظاهر منها أما
وكون الدعى ابنا اى بمنزلة الام والابن في الآثار والاحكام المعهودة فيما بينهم في الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين في جوف واحد
وقيل هو ردّ لما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الاريب له قلبان ولذلك قيل لابى معمر أو لجميل بن أسد الفهرى
ذو القلبين اى ما جمع الله تعالى
قلبين في رجل وذكر الجوف لزيادة
التقرير كما في قوله تعالى ولكن
تعمى القلوب التى في الصدور
ولا زوجية ولا امومة في امرأة
ولا دعوة وبنوة في شخص لكن
لا بمعنى نفى الجمع بين حقيقة
الزوجية والامومة ونفى الجمع بين
حقيقة الدعوة والبنوة كما في
القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين
أحكام الزوجية وأحكام الامومة
ونفى الجمع بين أحكام الدعوة
وأحكام البنوة على الاطلاق بل
بمعنى نفى الجمع بين حقيقة
الزوجية وأحكام الامومة ونفى
الجمع بين حقيقة الدعوة وأحكام
البنوة لابطال ما كانوا عليه من
اجراء احكام الامومة على
المظاهر منها واجراء أحكام
البنوة على الدعى ومعنى الظهار
أن يقول لزوجته أنت علىّ
كظهر أمى مأخوذ من الظهر
باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك
وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب
لانه كان طلاقا في الجاهلية وهو
في الاسلام يقتضى الطلاق أو
الحرمة الى أداء الكفارة كما
عدّى آلى بها وهو بمعنى حلف
وذكر الظهار الكناية عن البطن
الذى هو عموده فان ذكره قريب
من ذكر الفرج أو للتغليظ في
التحريم فانهم كانوا يحرمون اتيان
الزوجة وظهرها الى السماء وقرئ اللاء وقرئ اللائى وقرئ تظاهرون بحذف احدى التاءين من تتظاهرون
وتظاهرون بادغام التاء الثانية في الظاء وتظهرون من اظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد

العمل الصالح له مع الايمان اثرا ما الكفر اذا جاء فلا التفات الى الاعمال فلم يقل واما
الذين فسقوا وعملوا السيآت لان المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة
الكفر والعمل لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه وقوله في حق المؤمنين لهم بلام التمليك
زيادة اكرام لان من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده
واذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية اليه وليس له استرداده بحكم
قوله وكذلك في قوله لهم جنات ألا ترى انه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه انه
يخرجه منها قال اسكن أنت وزوجك الجنة ولم يقل لكما الجنة وفي الآخرة لما لم يكن
للمؤمنين خروج عنها قال لكم الجنة ولهم جنات وقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها
أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا اشارة الى معنى حكمى وهو ان المؤلم اذا تمكن والالم اذا
استمر لم يبق به شعور تام ولهذا قال الاطباء ان حرارة حمى الدق بالنسبة الى حرارة الحمى
البلغمية نسبة النار الى الماء المسخن ثم ان المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به
الحمى البلغمية لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية وكذلك الانسان
اذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد فاذا صبر زمانا طويلا تثلج يده ويبطل عنه ذلك الالم
الشديد مع فساد مزاجه اذا علمت هذا فقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها
اشارة الى أن الالم لا يسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يتجدد وقوله ذوقوا
عذاب النار الذى كنتم به تكذبون يقرر ما ذكرنا ومعناه انهم في الدنيا كانوا يكذبون
بعذاب النار فلما ذاقوه كان أشد ايلاما لان من لا يتوقع شيأ فيصيبه يكون أشد تأثيرا
ثم انهم في الآخرة كما هم في الدنيا يجزمون أن لا عذاب الا وقد وصل اليهم ولا يتوقعون
شيأ آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الاول وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب
فوق ما نحن فيه فاذن معنى قوله تعالى ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ليس
مقتصرا على تكذيبهم الذى كان في الدنيا بل كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها
وقيل لهم ذوقوا عذابا كذبتم به من قبل اما في الدنيا بقولكم لا عذاب في الآخرة واما
في الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه ۞ ثم لما هددهم قال تعالى (ولنذيقنهم من
العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون) يعنى قبل عذاب الآخرة نذيقهم
عذاب الدنيا فان عذاب الدنيا لا نسبة له الى عذاب الآخرة لان عذاب الدنيا لا يكون
شديدا ولا يكون مديدا فان العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت المعذب ويستريح منه
فلا يمتد وان أراد المعذب أن يمتد عذاب المعذب لا يعذبه بعذاب في غاية الشدة وأما
عذاب الآخرة فشديد ومديد وفي الآية مسئلتان (احداهما) قوله تعالى ولنذيقنهم من
العذاب الادنى العذاب الادنى في مقابلته العذاب الاقصى والعذاب الاكبر في مقابلته
العذاب الاصغر فما الحكمة في مقابلة الادنى بالاكبر فنقول حصل في عذاب الدنيا
أمران أحدهما انه قريب والآخر انه قليل صغير وحصل في عذاب الآخرة أيضا
أمران

وتظهرون من ظهر ظهورا وأدعياء جمع دعى وهو الذى يدعى ولدا على الشذوذ لاختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتقى
واتقياء كأنه شبه به في اللفظ فجمع جمعه كقتلاء وأسراء (ذلكم) اشارة الى ما يفهم مما ذكر من الظهار والدعاء أو الى الاخير
الذى هو المقصود من مساق الكلام اى دعاؤكم بقولكم هذا ابنى (قولكم بأفواهكم) فقط من غير أن يكون له
مصداق وحقيقة في الاعيان
فاذن هو بمعزل من استتباع
أحكام البنوة كما زعمتم (والله
يقول الحق) المطابق للواقع
(وهو يهدى السبيل) اى سبيل
الحق لا غير فدعوا اقوالكم
وخذوا بقوله عز وجل (ادعوهم
لآبائهم) اى انسبوهم اليهم
وخصوهم بهم وقوله تعالى (هو
أقسط عند الله) تعليل له والضمير
لمصدر ادعوا كما في قوله تعالى
اعدلوا هو أقرب للتقوى وأقسط
أفعل تفضيل قصد به الزيادة
مطلقا من القسط بمعنى العدل
اى الدعاء لآبائهم بالغ في العدل
والصدق في حكم الله تعالى
وقضائه (فان لم تعلموا آباءهم)
فتنسبوهم اليهم (فاخوانكم)
فهم اخوانكم (في الدين
ومواليكم) وأولياؤكم فيه اى
فادعوهم بالاخوة الدينية
والمولوية (وليس عليكم جناح)
اى اثم (فيما أخطأتم) اى فيما
فعلتموه من ذلك مخطئين بالسهو
أو النسيان أو سبق اللسان
(ولكن ما تعمدت قلوبكم) اى
ولكن الجناح فيما تعمدت
قلوبكم بعد النهى أو ما تعمدت
قلوبكم فيه الجناح (وكان الله
غفورا رحيما) لعفوه عن المخطئ
وحكم التبنى بقوله هو ابنى اذا
كان عبدا للقائل العتق على كل
حال ولا يثبت نسبه منه الا اذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتبنى ولم يقر قبله بنسبه من غيره (النبى أولى
بالمؤمنين من أنفسهم) اى في كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به الاطلاق فيجب عليهم أن يكون عليه الصلاة والسلام

أمران أحدهما انه بعيد والآخر انه عظيم كثير لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذى يصلح
للتخويف به فان العذاب العاجل وان كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر
مما يحترز من العذاب الشديد اذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض
الناس ويستبعد الثواب العظيم الآجل واما في عذاب الآخرة فالذى يصلح للتخويف به
هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا العذاب الادنى ليحترز العاقل
عنه ولو قال لنذيقنهم من العذاب الاصغر ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا
وقال في عذاب الآخرة الاكبر لذلك المعنى ولو قال دون العذاب الابعد الاقصى لما حصل
التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين
الوصف الذى هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة (المسئلة
الثانية) قوله تعالى لعلهم يرجعون اهل هذه للترجى والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة
فيه نقول فيه وجهان (احدهما) معناه لنذيقنهم اذاقة الراجين كقوله تعالى
انا نسيناكم يعنى تركناكم كما يترك الناسى حيث لا يلتفت اليه أصلا فكذلك ههنا نذيقهم
على الوجه الذى يفعل بالراجى من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب اذاقة
يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ونزيد وجها آخر من عندنا وهو ان كل فعل يتلوه أمر
مطلوب من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الامر كما يقال فلان اتجر ليربح ثم ان
هذا التعليل ان كان في موضع لا يحصل الجزم بحصول الامر من الفعل نظرا الى نفس
الفعل وان حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء
كذا كما يقال يتجر رجاء أن يربح وان حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك في صحة قولنا
يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظرا الى التجارة وان كان الجزم حاصلا نظرا الى الفعل
لا يصح أن يقال يرجو وان كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حز رقبة عدوه
رجاء أن يموت لا يصح لحصوله الجزم بالموت عقيب الحز نظرا اليه وان أمكن أن لا يموت
نظرا الى قدرة الله تعالى ويصح قولنا قوله تعالى في حق ابراهيم والذى أطمع أن يغفر لى
خطيئتى مع انه كان عالما بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه
الطمع وكذلك قوله تعالى وارجوا اليوم الآخر مع أن الجزم به لازم اذا علم ما ذكرنا
فنقول في كل صورة قال الله تعالى لعلهم فان نظرنا الى الفعل لا يلزم الجزم فان من
التعذيب لا يلزم الرجوع لزوما بينا فصح قولنا يرجو وان كان علمه حاصلا بما يكون غاية
ما في الباب ان الرجاء في أكثر الامر استعمل فيما لا يكون الامر معلوما فأوهم أن لا يجوز
الاطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجى يجوز في حق الله تعالى ولا يلزم منه
عدم العلم وانما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادا من الفعل
فيصح حقيقة الترجى في حقه على ما ذكرنا من المعنى ۞ ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر
بآيات ربه ثم أعرض عنها) يعنى لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من

أحب اليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها روى
أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناس نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت وقرئ وهو أب لهم
اى فى الدين فان كل نبى أب لامته من حيث انه أصل فيما به الحياة الابدية ولذلك صار المؤمنون اخوة (وأزواجه

أمهاتهم) اى منزلات منزلة
الامهات فى التحريم واستحقاق
التعظيم وأما فيما عدا ذلك فهن
كالاجنبيات ولذلك قالت عائشة
رضى الله عنها لسنا أمهات
النساء (وأولو الارحام) اى
ذوو القرابات (بعضهم أولى
ببعض) فى التوارث وهو نسخ
لما كان فى صدر الاسلام من
التوارث بالهجرة والموالاة
فى الدين (فى كتاب الله) فى اللوح
أو فيما أنزله وهو هذه الآية أو آية
المواريث أو فيما فرض الله تعالى
(من المؤمنين والمهاجرين) بيان
لاولى الارحام أو صلة لاولى اى
أولو الارحام بحق القرابة أولى
بالميراث من المؤمنين بحق الدين
ومن المهاجرين بحق الهجرة
(الا أن تفعلوا الى أوليائكم
معروفا) استثناء من أعم ما تقدر
الاولوية فيه من النفع والمراد
بفعل المعروف التوصية أو
منقطع (كان ذلك فى الكتاب
مسطورا) اى كان ما ذكر من
الآيتين ثابتا فى اللوح أو القرآن
وقيل فى التوراة (واذ أخذنا من
النبيين ميثاقهم) اى اذكر وقت
أخذنا من النبيين كافة عهودهم
بتبليغ الرسالة والدعاء الى الدين
الحق (ومنك ومن نوح وابراهيم
وموسى وعيسى ابن مريم)
وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم

النعم أولا والنقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد لان من يكفر بالله ظالم فان الله لذوى
البصائر ظاهر لا يحتاج المستبصر الباطن الى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شئ كما
قال تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد اى دليلك الله لا تحتاج بانير الباطن الى
دليل على الله ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله فسائر
الموجودات سواء كان فيها نفع أو ضر كاف فى معرفة الله كما قال تعالى سنريهم آياتنا
فى الآفاق وفى أنفسهم فان لم يكفهم ذلك فيسبغه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فالاول الذى
لا يحتاج الى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج الى دليل فهو متوسط والثالث الذى
لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذى لم تقنعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه
آخر وهو الذى اذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته فان الاكثر كان من صفتهم انهم
اذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين اليه فهذا الماء عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال ومن
أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴿ ثم قال تعالى (انا من المجرمين منتقمون) اى لما لم
ينفعهم العذاب الادنى فانا منتقم منهم بالعذاب الاكبر ﴿ ثم قال تعالى (ولقد آتينا موسى
الكتاب) لما قرر الاصول الثلاثة على ما ينبغى عاد الى الاصل الذى بدأ به وهو الرسالة
المذكورة فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير وقال قل ما كنت بدعا من الرسل بل كان
قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبى صلى الله عليه وسلم ووجود من
كان على دينه الزاما لهم وانما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لان اليهود
ما كانوا يوافقون على نبوته واما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك
بالمجمع عليه ﴿ وقوله (فلا تكن فى مرية من لقائه) قيل معناه فلا تكن فى شك من لقائه
موسى فانك تراه وتلقاه وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن فى شك من لقائه
الكتاب فانك تلقاه كما لقى موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل
لتسلية النبى عليه السلام فانه لما أتى بكل آية وذكرها وأعرض عنها قومه حزن عليهم
فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقى ما لقيت وأوذى كما أوذيت وعلى هذا فاختيار
موسى عليه السلام لحكمة وهى أن أحدا من الانبياء لم يؤذه قومه الا الذين لم يؤمنوا به
وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان من لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره
ومن آمن به من بنى اسرائيل أيضا آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله
جهرة ومثل قولهم اذهب أنت وربك فقاتلا ثم بين له ان هدايته غير خالية عن المنفعة كما
انه لم تخل هدايته موسى ﴿ فقال (وجعلناه هدى لبنى اسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون
بأمرنا) بحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك
هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم
اهتديتم ثم بين ان ذلك يحصل بالصبر ﴿ فقال (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فكذلك
اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق ﴿ ثم قال تعالى (ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة

فى النبيين اندراجا بينا للايذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى فيما
العزم من الرسل وتقديم نبينا عليهم الصلاة والسلام لابانة خطره الجليل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) اى عهدا عظيم الشأن

أو مؤكدا باليمين وهذا هو الميثاق الاول بعينه وأخذه هو أخذه والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى
تفخيما لشأنه كما فى قوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ اثر قوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا
وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ما هو داع الى ما ذكر من أخذ

الميثاق وغاية له لا بأخذنا فان
المقصود تذكير نفس الميثاق ثم
بيان الغرض منه بيانا قصديا كما
ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات
الى الغيبة اى فعل الله ذلك
ليسأل يوم القيامة الانبياء ووضع
الصادقين موضع ضميرهم للايذان
من أول الامر بانهم صادقون
فيما سئلوا عنه وانما السؤال
لحكمة تقتضيه اى ليسأل
الانبياء الذين صدقوا عهودهم
عما قالوه لقومهم أو عن تصديقهم
اياهم تبكيتا لهم كما فى قوله تعالى
يوم يجمع الله الرسل فيقول
ماذا أجبتم أو المصدقين لهم عن
تصديقهم فان مصدق الصادق
صادق وتصديقه صدق واما
ما قيل من أن المعنى ليسأل
المؤمنين الذين صدقوا عهدهم
حين أشهدهم على أنفسهم عن
صدقهم عهدهم فيأباه مقام
تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى
(وأعد للكافرين عذابا أليما)
عطف على ما ذكر من المضمر لا على
أخذنا كما قيل والتوجيه بان بعثة
الرسل وأخذ الميثاق منهم لاثابة
المؤمنين أو بان المعنى ان الله
تعالى أكد على الانبياء الدعوة
الى دينه لاجل اثابة المؤمنين
تعسف ظاهر مع أنه مفض الى
كون بيان اعداد العذاب الاليم
للكافرين غير مقصود بالذات ثم

فيما كانوا فيه يختلفون) هذا يصلح جوابا السؤال وهو انه لما قال تعالى وجعلنا منهم أئمة
يهدون كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقا وسبيل الحق
واحد فقال فيهم هداة والله بين المبتدع من المتبع كما بين المؤمن من الكافر يوم القيامة
وفيه وجه آخر وهو ان الله تعالى بين انه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين
المختلفين من الامم فينبغى أن لا يأمن من آمن وان لم يجتهد فان المبتدع معذب كالكافر
غاية ما فى الباب ان عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم ﴿ ثم قال تعالى (أولم يهد لهم
كم أهلكنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا ان قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب تقرير
لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم واعادة لبيان ما سبق فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من
قبلك ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد فقال تعالى أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم
﴿ وقوله (يمشون فى مساكنهم) زيادة ابانة اى مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم
تمشون فيها وتبصرونها ﴿ وقوله تعالى (ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه السمع
لانهم ما كان لهم قوة الادراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم فقال أفلا يسمعون يعنى
ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشئ ويفهمه ﴿ ثم قال تعالى (أولم يروا انا نسوق الماء
الى الارض الجرز) لما بين الاهلاك وهو الاماتة بين الاحياء ليكون اشارة الى أن الضر
والنفع بيد الله والجرز الارض اليابسة التى لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع
عنها الماء والنبات ﴿ ثم قال تعالى (فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) قدم
الانعام على الانفس فى الاكل لوجوه (أحدها) ان الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب
ولا يصلح للانسان (والثانى) وهو ان الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه وأما غذاء
الانسان فقد يحصل من الحيوان فكأن الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من
الحيوان (الثالث) اشارة الى أن الاكل من ذوات الدواب والانسان يأكل بحيوانيته
أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة ﴿ ثم قال تعالى (أفلا يبصرون) لان الامر
يرى بخلاف حال الماضين فانها كانت مسموعة ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر
بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين) الى آخر السورة فصار ترتيب
آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة فى أولها بقوله لتنذر قوما وفى آخرها بقوله
ولقد آتينا موسى الكتاب وذكر التوحيد بقوله الذى خلق السموات والارض وقوله
الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين وفى آخر السورة ذكره بقوله
أولم يهد لهم وقوله أولم يروا انا نسوق وذكر الحشر فى أولها بقوله وقالوا أئذا ضللنا
فى الارض وفى آخرها بقوله ويقولون متى هذا الفتح ﴿ وقوله تعالى (قل يوم الفتح لا ينفع
الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون) اى لا يقبل ايمانهم فى تلك الحالة لان الايمان
المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا ولا ينظرون اى لا يمهلون بالاعادة الى الدنيا ليؤمنوا
فيقبل ايمانهم ثم لما بين المسائل واتقن الدلائل ولم ينفعهم ﴿ قال تعالى (فأعرض عنهم)

يجوز عطفه على ما دل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين الآية (يا أيها الذين آمنوا
اذكروا نعمة الله عليكم) ان جعل النعمة مصدرا فالجار متعلق بها والا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها اى كائنة عليكم

(اذ جاءتكم جنود) ظرف لنفس النعمة اولثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على أنه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثنى عشر ألفا فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باقبالهم ضرب الخندق على المدينة باشارة ٧٦٨ سلمان الفارسى ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق فى المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب الى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لاحرب بينهم الا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن ابى وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بنى محارب قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا ضيقا فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع فخرج على بن ابى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التى اقتحموا منها فأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلما ليرى مكانه فقال له على رضى الله عنه يا عمرو انى أدعوك الى الله ورسوله والاسلام قال لاحاجة لى اليه قال فانى أدعوك الى النزال قال يا ابن أخى والله لا أحب أن أقتلك قال على لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك وكان غيورا مشهورا بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره أوضرب وجهه ثم أقبل على على فتناولا وتجاولا فضربه على رضى الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبد الدار ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى قتله أيضا على رضى الله عنه وقيل لم يكن بينهم

اى لاتناظرهم بعد ذلك وانما الطريق بعد هذا القتال ٭ وقوله (وانتظر انهم منتظرون) يحتمل وجوها (أحدها) وانتظر هلاكهم فانهم منتظرون هلاكك وعلى هذا فرق بين الانتظارين لان انتظار النبى صلى الله عليه وسلم بامر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فانهم منتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فانهم منتظرونه بلفظهم استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا وقالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين الى غير ذلك والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين

٭(سورة الاحزاب سبعون وثلاث آيات وهى مدنية باجماع)٭

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله تعالى (يا أيها النبى اتق الله) فى تفسير الآية مسائل (الاولى) فى الفرق بين النداء والمنادى بقوله يارجل ويا أيها الرجل وقد قيل فيه ماقيل ونحن نقول قول القائل يارجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضا وينبئ عن خطر خطب المنادى له أوغفلة المنادى (اما الثانى) فمذكور (واما الاول) فلان قوله ياأى جعل المنادى غير معلوم أولا فيكون كل سامع متطلعا الى المنادى فاذا خص واحدا كان فى ذلك انباء الكل لتطلعهم اليه واذا قال يازيد أو يارجل لايلتفت الى جانب المنادى الا المذكور اذا علم هذا فنقول يا أيها لايجوز حمله على غفلة النبى لان قوله النبى ينافى الغفلة لان النبى عليه السلام خبير فلا يكون غافلا فيجب حمله على خطر الخطب (المسئلة الثانية) الامر بالشئ لايكون الا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به اذ لايصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبى عليه السلام كان متقيا فما الوجه فيه نقول فيه وجهان (أحدهما) منقول وهو انه أمر بالمداومة فانه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا الى أن أجيئك ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم اى دم على ما أنت عليه (والثانى) وهو معقول لطيف وهو ان الملك يتقى منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبى لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الاول ولا بالمعنى الثانى واما الثالث فالمخلص لايأمنه مادام فى الدنيا وكيف والامور الدنيوية شاغلة والآدمى فى الدنيا تارة مع الله وأخرى مقبل على مالا بد منه وان كان معه الله والى هذا أشار بقوله انما أنا بشر مثلكم يوحى الى يعنى يرفع الحجاب عنى وقت الوحى ثم أعود اليكم كانى منكم فالامر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثانى) هو ان النبى عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة الى ماهو فيه تركا للافضل فكان له فى كل ساعة تقوى متجددة فقوله اتق الله على هذا أمر بما ليس فيه والى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله من

استوى

الا الترامى بالنبل والحجارة حتى انزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى (فارسلنا عليهم ريحا) عطف على جاءتكم مسوق لبيان النعمة اجمالا وسيأتى بقيتها فى آخر القصة (وجنودا لم تروها) وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا الفا بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب فى وجوههم وأمر الملائكة ٧٦٩ فقلعت الاوتاد وقطعت الاطناب وأطفأت النيران واكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الاسدى اما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق وترتيب مبادى الحرب وقيل من التجائكم اليه ورجائكم من فضله وقرئ بالياء أى بما يعمله الكفار أى من التحزب والمحاربة أومن الكفر والمعاصى (بصيرا) ولذلك فعل مافعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض مقرر لما قبله (اذجاؤكم) بدل من اذجاءتكم (من فوقكم) من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد قائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير (ومن أسفل منكم) أى من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من الاحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وكانوا عشرة آلاف (واذ زاغت الابصار) عطف على ماقبله داخل معه فى حكم التذكير أى حين مالت عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا وقيل عدلت عن كل شئ فلم تلتفت الا الى عدوها لشدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) لان الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة وهى منتهى الحلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب

استوى يوماه فهو مغبون ولانه طلب من ربه بامر الله اياه به زيادة العلم حيث قال وقل رب زدنى علما وأيضا الى هذا وقعت الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام انه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة يعنى يتجدد له مقام يقول الذى أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيأ اذا علم هذا فالنبى صلى الله عليه وسلم بحكم انما أنا بشر مثلكم كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فامره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد الا الحق وزاد الله به درجته فكان ذلك بشارة له اى يا أيها النبى أنت ما بقيت فى الدرجة التى يقنع منك بتقوى مثل تقوى الآحاد أوتقوى الاوتاد بل لايقنع منك الابتقوى تنسيك نفسك ألا ترى ان الانسان اذا كان يخاف فوت مال ان هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه فكذلك النبى عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لايبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيدا وعمرا اخف عمرا فان زيدا لايقدر عليك اذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمرا بالخوف من عمرو فانه يخافه وانما يكون ذلك نهيا عن الخوف من زيد فى ضمن الامر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيدا ۞ ثم قوله تعالى (ولاتطع الكافرين والمنافقين) يقرر قولنا اى اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم (المسئلة الثالثة) لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع ان النبى صلى الله عليه وسلم ينبغى أن لايطيع أحدا غير الله نقول لوجهين (أحدهما) ان ذكر الغير لاحاجة اليه لان غيرهما لايطلب من النبى عليه الصلاة والسلام الاتباع ولايتوقع أن يصير النبى عليه الصلاة والسلام مطيعا له بل يقصد اتباعه ولايكون عنده الامطاعا (والثانى) هو أنه تعالى لما قال ولاتطع الكافرين والمنافقين منعه من طاعة الكل لان كل من طلب من النبى عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أومنافق لان من يامر النبى عليه الصلاة والسلام بامر أمر ايجاب معتقدا على انه لولم يفعله يعاقبه بحق يكون كافرا ۞ ثم قال تعالى (ان الله كان عليما حكيما) اشارة الى أن التقوى ينبغى أن تكون عن صميم قلبك لاتخفى فى نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذى يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف فى نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم وقوله حكيما اشارة الى دفع وهم متوهم وهو أن متوهما لوقال اذا قال الله شيأ وقال جميع الكافرين والمنافقين مع انهم أقارب النبى عليه الصلاة والسلام شيأ آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجهامعقولا فاتباعهم لايكون الامصلحة فقال الله تعالى انه حكيم ولا تكون المصلحة الا فى قول الحكيم فاذا أمرك الله بشئ فاتبعه ولومنعك أهل العالم عنه ۞ وقوله تعالى (واتبع مايوحى اليك من ربك) يقرر ماذكرنا من انه حكيم فاتباعه هو الواجب ۞ ثم قال تعالى (ان الله كان بما تعملون خبيرا) لما قال انه عليم بما فى قلوب العباد بين انه عالم خبير باعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم ۞ ثم قال تعالى

٩٧ را س

نوجيبها وان لم تبلغ الحناجر حقيقة والخطاب فى قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) لمن يظاهر الايمان على الاطلاق أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة حيث ظنّ المخلصون الثبت القلوب أن الله تعالى ينجز وعده فى اعلاء دينه كما يعرب عنه ما سيحكى عنهم من قولهم هذا ما وعدنا الله ورسوله

وصدق الله ورسوله الآية أو يمتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكى عنهم مما لا خير فيه والجملة معطوفة على زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار وقرئ الظنون بغير ألف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل كما تزاد فى القوافى (هنالك) ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أى فى ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض (ابتلى المؤمنون) أى عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل (وزلزلوا زلزالا شديدا) من الهول والفزع وقرئ بفتح الزاى (واذ يقول المنافقون) عطف على اذ زاغت وصيغة المضارع لما مرّ من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته (والذين فى قلوبهم مرض) أى ضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله) من اعلاء الدين والظفر (الا غرورا) أى وعد غرور وقيل قولا باطلا والقائل معتب بن قشير وأضرابه راضون به قال يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا ما هذا الا وعد غرور (واذ قالت طائفة منهم) هم أوس ابن قيظى وأتباعه وقيل عبد الله ابن أبىّ وأشياعه (يا أهل يثرب) هو اسم المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة فى ناحية منها وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام أن تسمى بها كراهة لها وقال هى طيبة فلان أو طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام ونداؤهم اياهم بعنوان اهليتهم لها ترشيح لما بعده من الامر

(وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) يعنى اتق الله وان توهمت من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعا ينفع ولا يضر معه شئ وان ضر لا ينفع معه شئ ۞ ثم قال تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت فى أبى معمر كان يقول لى قلبان اعلم وافهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ۞ وقال الزمخشرى قوله (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ما جعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال ان الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبى اتق الله فكان ذلك أمرا له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتقى ويخاف شيأ خوفا شديدا لا يدخل فى قلبه شئ آخر الا ترى ان الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكان الله تعالى قال يا أيها النبى اتق الله حق تقاته ومن حقها ان لا يكون فى قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقى بأحدهما الله وبالآخر غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك الا بصرف القلب عن جهة الله الى غيره وذلك لا يليق بالمتقى الذى يدعى أنه يتقى الله حق تقاته ثم ذكر للنبى عليه الصلاة والسلام انه لا ينبغى أن يتقى أحدا ولا مثل ما اتقيت فى حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه يعنى مثل تلك التقوى لا ينبغى أن تدخل فى قلبك ثم لما ذكر النبى عليه الصلاة والسلام بتلك الحالة ذكر ما يدفع عنه السوء ۞ فقال (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) أى وما جعل الله دعىّ المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوى على اندفاع القبح وهو قوله وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم أى انكم اذا قلتم لازواجكم أنت علىّ كظهر أمى فلا تصير هى اما باجماع الكل اما فى الاسلام فلانه ظهار لا يحرم الوطء وأما فى الجاهلية فلانه كان طلاقا حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد فاذا كان قول القائل لزوجته أنت أمى أو كظهر أمى لا يوجب صيرورة الزوجة اما كذلك قول القائل للدعى أنت ابنى لا يوجب كونه ابنا فلا تصير زوجته زوجة الابن فلم يكن لاحد أن يقول فى ذلك شيأ فلم يكن خوفك من الناس له وجه كيف ولو كان أمرا مخوفا ما كان يجوز أن تخاف غير الله أوليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغى أن تخاف أحدا ۞ ثم قال تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم) فيه لطيفة وهو ان الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شئ كان فيقال (والثانى) كلام يقال فيكون كما قيل والاول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين اذا قالوا شيأ جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذى يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب لان الكلام المعتبر هو الذى يعتمد عليه والذى لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغى أن يحترز عن التخلق بأخلاقها فقول القائل هذا ابن

بالرجوع اليها (لا مقام لكم) لا موضع اقامة لكم أو لا اقامة لكم ههنا يريدون المعسكر وقرئ بضم الميم أى لا قيام أو لا موضع قيام لكم (فارجعوا) اى الى منازلكم بالمدينة مرادهم الامر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجا لمقالهم وايذانا بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لا قيام لكم فى دين محمد عليه الصلاة

والسلام فارجعوا الى ما كنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه الى اعدائه أو لا مقام لكم فى يثرب فارجعوا كفارا ليتسنى لكم المقام بها والاول هو الانسب لما بعده فان قوله تعالى (ويستأذن فريق منهم النبى) معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مرّ من استحضار الصورة وهم بنو حارثة وبنو سلمة استأذنوه عليه الصلاة والسلام فى الرجوع ممتثلين بأمرهم وقوله تعالى (يقولون) بدل من يستأذن أو حال من فاعله أو استئناف مبنىّ على السؤال عن كيفية الاستئذان (ان بيوتنا عورة) أى غير حصينة معرضة للعدو والسرّاق فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع الى العسكر والعورة فى الاصل الخلل اطلقت على المختل مبالغة وقد جوّز أن تكون تخفيف عورة من عورت الدار اذا اختلت وقد قرئ بها والاول هو الانسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيق (وما هى بعورة) والحال انها ليست كذلك (ان يريدون) ما يريدون بالاستئذان (الا فرارا) من القتال (ولو دخلت عليهم) أسند الدخول الى بيوتهم وأوقع عليهم لما أن المراد فرض دخولها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقا كما هو المفهوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقا كما هو المفهوم لو أسند الى الجار والمجرور (من أقطارها) أى من جميع جوانبها لا من بعضها دون بعض فالمعنى لو كانت بيوتهم مختلة بالكلية ودخلها كل من أراد من أهل الدعارة والفساد (ثم سئلوا)

فلان مع انه ليس ابنه ليس كلاما فان الكلام فى الفؤاد وهذا فى الفم لا غير واللطيفة هى ان الله تعالى ههنا قال ذلكم قولكم بأفواهكم وقال فى قوله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يعنى نسبة الشخص الى غير الاب قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضا فى قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم ۞ ثم قال تعالى (والله يقول الحق) اشارة الى معنى لطيف وهو ان العاقل ينبغى ان يكون قوله اما عن عقل أو عن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغى أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعا وان لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولدا وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثانى لقيام الفراش ونقول انه ابنه وفى الدعى لم توجد الحقيقة ولا ورد الشرع به لانه لا يقول الا الحق وهذا خلاف الحق لان أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو انهم قالوا هذه زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هى لك حلال وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواههم كأصوات البهائم وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله وهو يهدى السبيل يؤكد قوله والله يقول الحق يعنى يجب اتباعه لكونه حقا ولكونه هاديا وقوله تعالى ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق فيه لطيفة وهو ان الكلام الذى بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذى يوجد لا عن قلب ثم ان الكلام الذى بالقلب قد يكون حقا وقد يكون باطلا لان من يقول شيأ عن اعتقاد قد يكون مطابقا فيكون حقا وقد لا يكون فيكون باطلا فالقول الذى بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقا وقد يكون باطلا لانه يتبع الوجود وقول الله حق لانه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون فاذن قول الله خير من أقوالكم التى عن قلوبكم فكيف تكون نسبته الى أقوالكم التى بأفواهكم فاذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغى وتتركوا قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبى عليه الصلاة والسلام بزينب لم يكن حسنا يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم ۞ ثم قال تعالى (وهو يهدى السبيل) اشارة الى أن اتباع ما أنزل الله خير من الاخذ بقول الغير ۞ ثم بين الهداية وقال (ادعوهم لآبائهم) أرشد وقال (هو أقسط عند الله) أى أعدل فانه وضع الشئ فى موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون ترك الاضافة للعموم أى أعدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) ان يكون ما تقدم منويا كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان ۞ ثم تمم الارشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) يعنى قولوا لهم اخواننا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان ۞ ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يا بنىّ بطريق الشفقة وقول القائل لغيره يا أبى بطريق التعظيم فانه مثل الخطا الا ترى ان اللغو فى اليمين مثل الخطا وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان فى قول القائل ابنى والسهو فى قوله ابنى من غير قصد

من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة (الفتنة) أى الردة والرجعة الى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الايمان والطاعة (لآتوها) لاعطوها غير مبالين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرئ لأتوها بالقصر أى لفعلوها وجاؤها (وما تلبثوا بها) بالفتنة أى ما ألبثوها وما أخروها (الا يسيرا) ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد الا يسيرا والاول هو اللائق بالمقام هذا وأما تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المتحزبة مع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل فقيه ضرب من فساد الوضع لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان أنهم اذا دعوا الى الحق تعللوا بشئ يسير وان دعوا الى الباطل سارعوا اليه آثر ذى أثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول عليهم من جهة العساكر المذكورة واسناد سؤال الفتنة والدعوة الى الكفر الى طائفة أخرى مع أن العساكر هم المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الاعراض عن الحق المجدون فى الدعاء الى الكفر والضلال بمعزل من التقريب (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار) فان بنى حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين فشلوا أن لا يعود والمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن (وكان عهد الله مسئولا) مطلوبا مقتضى حتى يوفى به وقيل مسئولا عن الوفاء به ومجازى عليه (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) فانه لا بد لكل شخص من حتف أنف او قتل سيف فى وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه وسلم

الى اثبات النسب سواء ﴿﴾ وقوله (ولكن ما تعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ما سبق وهو الجناح يعنى ما تعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفورا رحيما) يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاما شافيا فى المغفرة والرحمة فى مواضع ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى ان العبد اذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال انه غفر له والرحمة هو ان يميل اليه بالاحسان لعجز المرحوم اليه لا لعوض فان من مال الى انسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه وكذا من أحسن الى غيره رجاء فى خيره أو عوضا عما صدر منه آنفا من الاحسان لا يقال رحمه اذا علم هذا فالمغفرة اذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها انه ستر عيبه ثم رآه مفلسا عاجزا فرحمه وأعطاه ما كفاه واذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال اليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه ﴿﴾ ثم قال تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) تقرير الصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكان هذا جواب عن سؤال وهو ان قائلا لو قال هب ان الادعياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابنا اذا كان لدعيه شئ حسن لا يليق بمروأته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفا فقال الله تعالى النبى أولى بالمؤمنين جوابا عن ذلك السؤال وتقريره هو ان دفع الحاجات على مراتب دفع حاجة الاجانب ثم دفع حاجة الاقارب الذين على حواشى النسب ثم دفع حاجة الاصول والفصول ثم دفع حاجة النفس والاول عرفا دون الثانى وكذلك شرعا فان العاقلة تحمل الدية عنهم ولا تحملها عن الاجانب والثانى دون الثالث أيضا وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير واليه أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله ابدأ بنفسك ثم بمن تعول اذا علمت هذا فالانسان اذا كان معه ما يغطى به احدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شقى بدنه فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لاحد أن يقول له لم فعلت فضلا من أن يقول بئسما فعلت اللهم الا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما اذا وقى الانسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذى هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا فمن يعكس الامر يقال له لم فعلت واذا تبين هذا فالنبى صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه فى برد مفرط قاصدا به تربية شعره ولا يعلم انه يؤذى رأسه الذى لا نبات لشعره الا منه فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها الى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة الا من الرسول عليه الصلاة والسلام فلو دفع الانسان حاجته لا للعبادة فهو ليس دفعا للحاجة لان دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن أن يكون حاجة واذا كان للعبادة فترك النبى الذى منه يتعلم كيفية العبادة فى الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال أمر الرأس فتبين أن النبى صلى الله عليه

القتل (واذن لا تمتعون الا قليلا) أى وان نفعكم الفرار مثلا فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع الا تمتعا قليلا وزمانا قليلا (قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة) أى أو يصيبكم بسوء ان أراد بكم رحمة فاختصر الكلام أو حمل الثانى على الاول لما فى العصمة من معنى المنع (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع عنهم الضرر (قد يعلم الله المعوقين منكم) أى المثبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) من منافقى المدينة (هلم الينا) وهو صوت سمى به فعل متعد نحو احضر أو قرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال أى قربوا أنفسكم الينا وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون من المعسكر متوجهون نحو المدينة (ولا يأتون البأس) أى الحراب والقتال (الا قليلا) أى اتيانا أو زمانا أو بأسا قليلا فانهم يعتذرون ويثبطون ما أمكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ولا تراهم يبارزون ويقاتلون الا شيأ قليلا اذا اضطروا اليه كقوله تعالى ما قاتلوا الا قليلا وقيل انه من تتمة كلامهم معناه ولا يأتى أصحاب محمد حرب الاحزاب ولا يقاومونهم الا قليلا (أشحة عليكم) أى بخلاء عليكم بالمعاونة أو النفقة فى سبيل الله أو الظفر والغنيمة جمع شحيح ونصبه على الحالية من فاعل يأتون أو من المعوقين أو على الذم (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم) فى أحداقهم (كالذى يغشى عليه من الموت) صفة لمصدر ينظرون أو حال من فاعله أو لمصدر تدور أو حال من أعينهم أى ينظرون نظرا كائنا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا ولو اذا بك أو ينظرون كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دورانا كائنا

وسلم اذا أراد شيأ حرم على الامة التعرض اليه فى الحكمة الواضحة ﴿﴾ ثم قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) تقريرا آخر وذلك لان زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ما جعلها الله تعالى فى حكم الام الا لقطع نظر الامة عما تعلق به غرض النبى عليه الصلاة والسلام فاذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات فى التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره فلو قال قائل كيف قال وأزواجه أمهاتهم وقال من قبل وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن امهاتكم اشارة الى أن غير من ولدت لا تصير اما بوجه ولذلك قال تعالى فى موضع آخر ان امهاتهم الا اللائى ولدنهم فنقول قوله تعالى فى الآية المتقدمة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل جواب عن هذا معناه ان الشرع مثل الحقيقة ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة الى الشريعة كما ان امرأتين اذا ادعت كل واحدة ولدا بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت احداهما دون الاخرى حكم لها بالولد وان تبين ان التى حلفت دون البلوغ أو بكر ببينة لا يحكم لها بالولد فعلم ان عند عدم الوصول الى الحقيقة يرجع الى الشرع لا بل فى بعض المواضع على الندور تغلب الشريعة الحقيقة فان الزانى لا يجعل أبا لولد الزنا اذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه أمى قول يفهم لا عن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة وأما قول الشارع حق والذى يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها الا ترى ان الام ما صارت أما الا بخلق الله الولد فى رحمها ولو خلقه فى جوف غيرها لكانت الام غيرها فاذا كان هو الذى يجعل الام الحقيقية اما فله أن يسمى امرأة أما ويعطيها حكم الامومة والمعقول فى جعل أزواجه أمهاتنا هو ان الله تعالى جعل زوجة الاب محرمة على الابن لان الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها فان تزوج الابن بمن كانت تحت الاب يفضى ذلك الى قطع الرحم والعقوق لكن النبى عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الاب وأولى بالارضاء فان الاب يربى فى الدنيا فحسب والنبى عليه الصلاة والسلام يربى فى الدنيا والآخرة فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء فان قال قائل فلم لم يقل ان النبى أبوكم ويحصل هذا المعنى أو لم لم يقل ان أزواجه أزواج أبيكم فنقول لحكمة وهى ان النبى لما بينا أنه اذا أراد زوجة واحد من الامة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبى عليه الصلاة والسلام فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد ولانه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الاب لقوله عليه الصلاة والسلام ابدأ بنفسك ثم بمن تعول ولذلك فان المحتاج الى القوت لا يجب عليه صرفه الى الاب ويجب عليه صرفه الى النبى عليه الصلاة والسلام ثم ان أزواجه لهم حكم زوجات الاب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا اخواتهن ولا امهاتهن وان كان الكل يحرم من فى الام الحقيقية والرضاعية ﴿﴾ ثم قال تعالى (واولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب

كدوران عينه أو تدور أعينهم كائنة كعينه (فاذا ذهب الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) ضربوكم (بالسنة حداد) وقالوا وفروا قسمتنا فانا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان وقرئ صلقوكم (أشحة على الخير) نصب على الحالية أو الذم ويؤيده القراءة بالرفع (أولئك) الموصوفون بما ذكر من صفات السوء (لم يؤمنوا) بالاخلاص (فاحبط الله أعمالهم) أى اظهر بطلانها اذلم يثبت لهم اعمال فتبطل أو ابطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبع المنفعة دنيوية أصلا (وكان ذلك) الاحباط (على الله يسيرا) هينا وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شئ عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر حبوطها لكمال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا) أى هؤلاء لجبنهم يظنون أن الاحزاب لم ينهزموا ففروا الى داخل المدينة (وان يأت الاحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون فى الاعراب) تمنوا أنهم خارجون الى البدو حاصلون بين الاعراب وقرئ بدى جمع باد كغاز وغزى (يسألون) كل قادم من جانب المدينة وقرئ يساءلون أى يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك أو يتساءلون الاعراب كما يقال رأيت الهلال وتراءيناه فان صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما أسندت اليه فاعلا من وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكور وتقاتره (عن أنبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا الا قليلا) رياء وخوفا من التعيير (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) خصلة حسنة حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا القدر عسق

سطورا) اشارة الى الميراث وقوله الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا اشارة الى الوصية يعنى ان أوصيتم فغير الوارثين أولى وان لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم فان قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية بما ذكرت نقول تعلق قوى خفى لايتبين الالمن هداه الله بنوره وهو ان غير النبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته لا يصيرله مال الغير وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته والنبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته كان يصيرله مال الغير اذا أراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته كان الله تعالى عوض النبى عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير وعوض المؤمنين بان ما تركه يرجع اليهم حتى لا يكون حرج على المؤمنين فى ان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد شيأ يصيرله ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع اليهم فقال تعالى وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض يعنى بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالارث والنبى لا توارث بينه وبين أقاربه فينبغى أن يكون له بدل هذا أنه أولى فى حياته بما فى أيديكم (الثانى) هو ان الله تعالى ذكر دليلا على ان النبى عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو ان أولى الارحام بعضهم أولى ببعض ثم اذا أراد أحدبر أمه صديق فيوصى له بشئ فيصير أولى من قريبه وكانه بالوصية قطع الارث وقال هذا مالى لا ينتقل عنى الا الى من أريده فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ما أراده ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله كان ذلك فى الكتاب مسطورا فيه وجهان (أحدهما) فى القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثانى) فى اللوح المحفوظ ۞ ثم قال تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبى اتق الله وأكده بالحكاية التى خشى فيها الناس لكى لا يخشى فيها أحدا غيره وبين أنه لم يرتكب أمرا يوجب الخشية بقوله النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم أكده بوجه آخر وقال واذ أخذنا من النبيين كأنه قال اتق الله ولا تخف أحدا واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين فى انهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين ارسالهم وأمرهم بالتبليغ (المسئلة الثانية) خص بالذكر أربعة من الانبياء وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى لان موسى وعيسى كان لهما فى زمان نبينا قوم وامة فذكرهما احتجاجا على قومهما وابراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه فى الشعائر بعضها ونوح لانه كان أصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الارشاد للاولاد ولهذا لم يكن فى زمانه اهلاك قوم ولا تعذيب وأما نوح فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للانذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا (المسئلة الثالثة) فى كثير من المواضع يقول الله

من الحديد وقرئ بكسر الهمزة وهى لغة فيها (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) اى ثواب الله ولقاءه أو أيام الله واليوم الآخر خصوصا وقيل هو مثل قولك أرجو زيدا وفضله فان اليوم الآخر من أيام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدل من لكم والاكثرون على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه (وذكر الله) أى وقرن بالرجاء ذكر الله (كثيرا) أى ذكرا كثيرا أو زمانا كثيرا فان المثابرة على ذكره تعالى تؤدى الى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الائتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم (ولما رأى المؤمنون الاحزاب) بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشؤن واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم (قالوا هذا) مشيرين الى ما شاهدوه من حيث هو من غير أن يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من أحكام اللفظ كما مر فى قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وجعله اشارة الى الخطب أو البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر ثم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو (ما وعدنا الله ورسوله) فان ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء الى قوله تعالى ألا ان نصر الله قريب وقوله عليه الصلاة والسلام سيشتد الامر باجتماع الاحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم وقوله عليه الصلاة والسلام ان الاحزاب سائرون اليكم بعد تسع ليال أو عشر وقرئ بكسر الراء وفتح الهمزة (وصدق الله ورسوله) أى ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله أو صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء واظهار الاسم للتعظيم (وما زادهم) أى ما رأوه (الا ايمانا) بالله تعالى وبمواعيده (وتسليما) لاوامره ومقاديره (من المؤمنين) أى المؤمنين بالاخلاص مطلقا لا الذين حكيت محاسنهم

عيسى بن مريم والمسيح بن مريم اشارة الى أنه لا أب له اذ لو كان لوقع التعريف به وقوله وأخذنا منهم ميثاقا غليظا غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا فى الارسال كما قال تعالى ولنسئلن المرسلين وهذا لان الملك اذا أرسل رسولا وأمره بشئ وقبله فهو ميثاق فاذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله فى أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظا للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا هو الاخبار بأنهم مسؤلون عنها كما قال النبى عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسؤل وكما ان الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الانبياء قائمين بأمور أممهم وارشادهم الى سبيل الرشاد ثم قال تعالى (ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما) يعنى أرسل الرسل وعاقبة المكلفين اما حساب واما عذاب لان الصادق محاسب والكافر معذب وهذا كما قال على عليه السلام الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب وهذا مما يوجب الخوف العام فيتأكد قوله يا أيها النبى اتق الله ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) تحقيقا لما سبق من الامر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لان فى واقعة اجتماع الاحزاب واشتداد الامر على الاصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبى عليه السلام الخندق كان الامر فى غاية الشدة والخوف بالغا الى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغى ان لا يخاف العبد غير ربه فانه كاف أمره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل ممكن فكان قادرا على أن يقهر المسلمين بالكفار مع انهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم وقوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها اشارة الى ما فعل الله بهم من ارسال ريح باردة عليهم فى ليلة شاتية وارسال الملائكة وقذف الرعب فى قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل فى جوف الليل والحكاية مشهورة وقوله وكان الله بما تعملون بصيرا اشارة الى ان الله علم التجاءكم اليه ورجاءكم فضله فنصركم على الاعداء عند الاستعداء وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فان قوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها أى الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون فان كان لا يظهر لكم وجه الامن فلا تلتفتوا الى عدم ظهوره لكم لانكم لا ترون الاشياء فلا تخافون غير الله والله بصير بما تعملون فلا تقولوا بأنا نفعل شيأ وهو لا يبصره فانه بكل شئ بصير وقوله اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم بيان لشدة الامر وغاية الخوف وقيل من فوقكم أى من جانب الشرق ومن أسفل منكم من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الابصار أى مالت عن سننها

خاصة (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمقاتلة لاعداء الدين وهم رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن ٧٧٦ نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من صدقنى اذا قال لك الصدق ومحل ما عاهدوا النصب اما بطرح الخافض عنه وايصال الفعل اليه كما فى قولهم صدقنى سن بكره أى فى سنه واما بجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال لكوماته • نجزنى الاعداء ان لم تصرى • وقالوا له سنفى بك وحيث وفوا به فقد صدقوه ولو كانوا نكثوه لكذبوه ولكان مكذوبا (فمنهم من قضى نحبه) تفصيل حال الصادقين وتقسيم لهم الى قسمين والنحب النذر وهو أن يلتزم الانسان شيأ من أعماله ويوجبه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية أى فبعضهم أو فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر عم أنس بن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالهم الاختيارية التى هى المقاتلة المغياة بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر وهو الموت شهيدا أو كان مستعارا لالتزامه على ما سيأتى (ومنهم) أى وبعضهم أو وبعض منهم (من ينتظر) أى قضاء نحبه لكونه موقتا كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم مستمرون على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقتال الى

فلم تلتفت الى العدو لكثرته وبلغت القلوب الحناجر كناية عن غاية الشدة وذلك لان القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى الى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى حتى اذا بلغت الحلقوم وقوله وتظنون بالله الظنونا الالف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لان عند الامر العظيم كل أحد يظن شيأ ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة لان المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام ظنوا بالله خيرا ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا وقوله ان يتبعون الا الظن فان قال قائل المصدر لا يجمع فما الفائدة فى جمع الظنون فنقول لاشك فى انه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدرا كما يقال ضربته سياطا وأدبته مرارا فكأنه قال ظننتم ظنا بعد ظن أى ما ثبتم على ظن فالفائدة هى ان الله تعالى لو قال تظنون ظنا جاز أن يكونوا مصيبين فاذا قال ظنونا تبين ان فيهم من كان ظنه كاذبا لان الظنون قد تكذب كلها وقد يكذب بعضها اذا كانت فى أمر واحد مثاله اذا رأى جمع من بعيد جسما وظن بعضهم أنه زيد وآخرون انه عمرو وقوم ثالث انه بكر ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئى شجر أو حجر وقد يكون أحدهم مصيبا ولا يمكن ان يكونوا كلهم مصيبين فقوله الظنونا أفادت فيهم من أخطأ الظن ولو قال تظنون بالله ظنا ما كان يفيد هذا ثم قال تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق والامتحان من الله ليس لاستبانة الامر له بل لحكمة أخرى وهى أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد أظهار الامر لغيره من الملائكة والانبياء كما أن السيد اذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالما بأنه يخالفه فيبين الامر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لاحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله وزلزلوا أى ازعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وبذكر الله تطمئن مرة أخرى وهم المؤمنون حقا ثم قال تعالى (واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا) فسر الظنون وبينها فظن المنافقون ان ما قال الله ورسوله كان زورا ووعدهما كان غرورا حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم أى لا وجه لاقامتكم مع محمد كما يقال لا اقامة على الذل والهوان أى لا وجه لها ويثرب اسم للبقعة التى هى المدينة فارجعوا أى عن محمد واتفقوا مع الاحزاب تخرجوا من الاحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أى فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على

حين نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقى وهو القتال الى الموت شهيدا هذا ويجوز أن يكون النحب مستعارا لالتزام الموت شهيدا اما بتنزيل التزام أسبابه التى هى أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه واما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه وايراد الالتزام عليه وهو الانسب بمقام المدح وأياما كان ففى وصفهم بالانتظار ٧٧٧ المنبئ عن الرغبة فى المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم الى الشهادة وأما ما قيل من أن النحب استعير للموت لانه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان فمسخ للاستعارة وذهاب برونقها واخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية (وما بدلوا) عطف على صدقوا وفاعله فاعله أى وما بدلوا عهدهم وما غيروه (تبديلا) أى تبديلا ما لا أصلا ولا وصفا بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون أما الذين قضوا فظاهر وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الاول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثانى لهم فى الحكم ويجوز أن يكون ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج الى البيان حالهم وقد روى أن طلحة رضى الله عنه ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام أوجب طلحة الجنة وفى رواية أوجب طلحة وعنه عليه الصلاة والسلام فى رواية جابر رضى الله عنه من سره أن ينظر الى شهيد يمشى على الارض فلينظر الى طلحة ابن عبيد الله وفى رواية عائشة رضى الله عنها من سره ان ينظر الى شهيد يمشى على الارض وقد قضى نحبه فلينظر الى طلحة وهذا يشير الى أنه من الاولين حكما (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ما هو داع الى وقوع ما حكى من الاحوال والاقوال على التفصيل وغايته كما مر فى قوله

أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله وما هى بعورة وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف ثم قال تعالى (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا) اشارة الى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لان من يفعل فعلا لغرض فاذا فاته الغرض لا يفعله كمن يبذل المال لكى لا يؤخذ منه بيته فاذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الاحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضا وليس رجوعهم عنك الا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة وقوله ولو دخلت عليهم احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت وقوله وما تلبثوا بها يحتمل أن يكون المراد الفتنة الا يسيرا فانها تزول وتكون العاقبة للمتقين ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أى ما تلبثوا بالمدينة الا يسيرا فان المؤمنين يخرجونهم ثم قال تعالى (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسؤلا قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) بيانا لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا واظهروا عذرا وندما وذكروا ان القتال لا يزل لهم قدما ثم هددهم بقوله وكان عهد الله مسؤلا وقوله قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل اشارة الى ان الامور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار وما قدره الله كائن فمن أمر بشئ اذا خالفه يبقى فى ورطة العقاب آجلا ولا ينتفع بالمخالفة عاجلا ثم قال تعالى (واذا لا تمتعون الا قليلا) كأنه يقول ولو فررتم منه فى يومكم مع انه غير ممكن لمادمتم بل لا تمتعون الا قليلا فالعاقل لا يرغب فى شئ قليل مع انه يفوت عليه شيأ كثيرا فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار الا قليلا ثم قال تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) بيانا لما تقدم من قوله لن ينفعكم الفرار وقوله ولا يجدون لهم من دون الله تقرير لقوله من ذا الذى يعصمكم أى ليس لكم ولى يشفع لمحبته اياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء اذا أتاكم ثم قال تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا أشحة عليكم) اى الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا الينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم وجهان (أحدهما) انهم المنافقون الذين كانوا يقولون للانصار لا تقاتلوا واسلموا محمدا الى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لاهل المدينة تعالوا الينا وكونوا معنا وهلم بمعنى تعال أو احضر ولا تجمع فى لغة الحجاز وتجمع فى غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلممن وقوله ولا يأتون البأس الا قليلا يؤيد الوجه الاول وهو ان المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (أحدهما) لا يأتون البأس بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى أشحة عليكم أى بخلاء حيث لا ينفقون فى سبيل الله شيأ (وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت

تعالى ليسال الصادقين عن صدقهم كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا (ويعذب المنافقين) بما صدر عنهم من الاعمال والاقوال المحكية (ان شاء) تعذيبهم (أو يتوب عليهم) ان تابوا وقيل متعلق بما قبله من نفى التبديل المنطوق واثباته المعرّض ٧٧٨ به كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل لصدقوا وقيل لما يفهم من قوله تعالى وما زادهم الا ايمانا وتسليما وقيل لما يستفاد من قوله تعالى ولما رأى المؤمنون الاحزاب كأنه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية فتأمل وبالله التوفيق (ان الله كان غفورا رحيما) أى لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث الى التوبة وقوله تعالى (ورد الله الذين كفروا) رجوع الى حكاية بقية القصة وتفصيل تتمة النعمة المشار اليها اجمالا بقوله تعالى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها معطوف اما على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزى الله كأنه قيل اثر حكاية الامور المذكورة وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الخ واما على أرسلنا وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والافهام وداهية تامة تحاكت منها الركب وزلت الاقدام وتفصيل ما صدر عن فريقى أهل الايمان واهل الكفر والنفاق من الاحوال والاقوال لاظهار عظم النعمة وابانة خطرها الجليل ببيان وصولها اليهم عند غاية احتياجهم اليها أى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (بغيظهم) حال من الموصول أى ملتبسين به وكذا قوله تعالى (لم ينالوا خيرا) بتداخل أو تعاقب وقد أى غير ظافرين بخير أو الثانية بيان للاولى أو استئناف (وكفى الله المؤمنين القتال) بما ذكر من ارسال الريح والجنود (وكان

الحضور معكم وقوله أشحة عليكم أى بانفسهم وأبدانهم ۞ ثم قال تعالى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد اشحة على الخير) اشارة الى غاية جبنهم ونهاية تروعهم واعلم ان البخل شبيه الجبن فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذى يدل عليه هو ان الجبان يبخل بماله ولا ينفقه فى سبيل الله لانه لا يتوقع الظفر فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا انفاق لا بدل له فيتوقف فيه وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه اخراج المال فى القتال طمعا فيما هو اضعاف ذلك واما بالنفس والبدن فكذلك فان الجبان يخاف قرنه ويتصور القتل فيجبن ويترك الاقدام واما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم وقوله تعالى فاذا ذهب الخوف سلقوكم أى غلبوكم بالسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الاوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالاياب وقوله أشحة على الخير قبل الخير المال ويمكن ان يقال معناه انهم قليلوا الخير فى الحالتين كثيروا الشر فى الوقتين فى الاول يبخلون وفى الآخر كذلك ۞ ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) يعنى لم يؤمنوا حقيقة وان أظهروا الايمان لفظا فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يأتون بها مع المسلمين وقوله وكان ذلك على الله يسيرا اشارة الى ما يكون فى نظر الناظر كما فى قوله تعالى وهو أهون عليه وذلك لان الاحباط اعدام واهدار واعدام الاجسام اذا نظر الناظر يقول الجسم اعدامه بتفريق اجزائه فان من أحرق شيأ يبقى منه رماد وذلك لان الرماد ان فرقته الريح يبقى منه ذرات وهذا مذهب بعض الناس والحق هو ان الله يعدم الاجسام ويعيد ما يشاء منها وأما العمل فهو فى العين معدوم ان كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكما فالعمل اذا لم يعتبر فهو معدوم فى الحقيقة بخلاف الجسم ۞ ثم قال تعالى (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون فى الاعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) أى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين مع انهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال تعالى ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا ۞ ثم قال تعالى (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما) لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو انهم قالوا هذا ما وعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا وصدق الله ورسوله فى مقابلة قولهم ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وقولهم وصدق الله ورسوله ليس اشارة الى ما وقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وانما هى اشارة الى بشارة وهو انهم قالوا هذا ما وعدنا الله

الله قويا) على احداث كل ما يريد (عزيزا) غالبا على كل شئ (وأنزل الذين ظاهروهم) اى عاونوا الاحزاب المردودة (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة (من صياصيهم) من حصونهم جمع صيصية وهى ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبى وشوكة الديك (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم ٧٧٩ وأولادهم للاسر حسبما ينطق به قوله تعالى (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التى انهزم فيها الاحزاب ورجع المسلمون الى المدينة ووضعوا السلاح فقال أتنزع لأمتك والملائكة ما وضعوا السلاح ان الله يأمرك أن تسير الى بنى قريظة وانا عامد اليهم فاذن فى الناس أن لا يصلوا العصر الا ببنى قريظة فحاصروهم احدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمى فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم فكبر النبى عليه الصلاة والسلام وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة الى تسعمائة وأسر سبعمائة وقرئ تأسرون بضم السين كما قرئ الرعب بضم العين ولعل تأخير المفعول فى الجملة الثانية مع أن مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما فى قوله تعالى ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وقوله تعالى فريقا كذبوا وفريقا يقتلون لمراعاة الفواصل (وأورثكم أرضهم وديارهم) أى حصونهم (وأموالهم) نقودهم وأثاثهم ومواشيهم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار فقالت الانصار فى ذلك فقال عليه الصلاة والسلام انكم فى منازلكم فقال عمر رضى الله عنه أما تخمس كما خمست يوم

وقد وقع وصدق الله فى جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله ما زادهم الا ايمانا بوقوعه وتسليما عند وجوده ۞ ثم قال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) اشارة الى وفائهم بعهدهم الذى عاهدوا الله انهم لا يفارقون نبيه الا بالموت فمنهم من قضى نحبه أى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ومنهم من هو بعد فى القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فانهم قالوا لا نولى الادبار فبدلوا اقوالهم وولوا أدبارهم وقوله ليجزى الله الصادقين بصدقهم أى بصدق ما وعدهم فى الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله ان شاء ذلك فيمنعهم من الايمان أو يتوب عليهم ان أراد وانما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبى عليه السلام عن ايمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله وكان الله غفورا حيث ستر ذنوبهم ورحيما حيث رحمهم ورزقهم الايمان فيكون هذا فيمن آمن بعده أو نقول ويعذب المنافقين مع انه كان غفورا رحيما لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال ورد الله الذين كفروا بغيظهم أى مع غيظهم لم يشفوا صدرا ولم يحققوا أمرا وكفى الله المؤمنين القتال أى لم يحوجهم الى قتال وكان الله قويا غير محتاج الى قتالهم عزيزا قادرا على استئصال الكفار واذلالهم ۞ ثم قال تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) أى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من قلاعهم وقذف فى قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبى فريقا تقتلون وهم الرجال وتأسرون فريقا وهم الصبيان والنسوان فان قيل هل فى تقديم المفعول حيث قال فريقا تقتلون وتأخيره حيث قال وتأسرون فريقا فائدة قلت قد أجبنا ان ما من شئ من القرآن الا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر والذى يظهر من هذا والله أعلم ان القائل يبدأ بالاهم فالاهم والاعرف فالاعرف والاقرب فالاقرب والرجال كانوا مشهورين فكان القتل واردا عليهم والاسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبى والاسر أظهر من القتل لانه يبقى فيظهر لكل أحد انه أسير فقدم من المحلين ما هو اشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الآخر وان شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله فريقا تقتلون فعل ومفعول والاصل فى الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل اما انها جملة فعلية فلانها لو كانت اسمية لكان الواجب فى فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقا تقتلون

بدر فقال عليه الصلاة والسلام لا انما جعلت هذه لى طعمة دون الناس قالوا رضينا بما صنع الله ورسوله (وأرضا لم تطؤها) أى أورثكم فى علمه وتقديره أرضا لم تقبضوها بعد كفارس والروم وقيل كل أرض تفتح الى يوم القيامة وقيل خيبر (وكان الله على كل شئ قديرا) فقد شاهدتم بعض ٧٨٠ مقدوراته من ايراث الاراضى التى تسلمتموها فقيسوا عليها ما عداها (يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا) أى السعة والتنعم فيها (وزينتها) وزخارفها (فتعالين) أى أقبلن بارادتكن واختياركن لاحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمنى وذهب يكلمنى وقام يهددنى (أمتعكن) بالجزم جوابا للامر وكذا (وأسرحكن) أى أعطكن المتعة وأطلقكن (سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار وقرئ بالرفع على الاستئناف روى أنهن سألنه عليه الصلاة والسلام ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة تخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكرلهن الله ذلك فنزل لا يحل لك النساء من بعد واختلف فى أن هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق اليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أولا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم الى أنه لم يكن تفويض الطلاق وانما كان تخييرا لهن بين الارادتين على أنهن ان أردن الدنيا فارقهن عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه قوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن وذهب آخرون الى أنه كان تفويضا للطلاق اليهن حتى لو أنهن اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف فى حكم

والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول وههنا كذلك لانه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وانه قذف فى قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون الى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم انهم هم المقتولون فأما اذا قال فريقا سمع سبق فى قلوبهم الرعب الى سمعه يستمع الى اتمام الكلام واذا كان الاول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على الاصل فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم اذا عرف حالهم وما يجيء بعده يكون مصروفا اليهم ولو قال بعد ذلك وفريقا تأسرون فمن سمع فريقا ربما يظن ان يقال فيهم يطلقون أولا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى وكذلك الكلام فى قوله وأنزل الذين ظاهروهم وقوله وقذف فان قذف الرعب قبل الانزال لان الرعب صار سبب الانزال ولكن لما كان الفرح فى انزالهم أكثر قدم الانزال على قذف الرعب والله أعلم ۞ ثم قال تعالى (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شئ قديرا) فيه ترتيب على ما كان فان المؤمنين أولا تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التى كانت فى بيوتهم وقوله وأرضا لم تطؤها قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ الى يوم القيامة وكان الله على كل شئ قديرا هذا يؤكد قول من قال ان المراد من قولهم وأرضا لم تطؤها هو ما سيؤخذ بعد بنى قريظة ووجهه هو ان الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوى الاتكال على الله تعالى وقال أليس الله ملككم هذه فهو على كل شئ قدير يملككم غيرها ۞ ثم قال تعالى (يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) وجه التعلق هو ان مكارم الاخلاق منحصرة فى شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله والى هذا أشار عليه السلام بقوله الصلاة وما ملكت أيمانكم ثم ان الله تعالى لما أرشد نبيه الى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله يا أيها النبى اتق الله ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن فى النفقة وفى الآية مسائل فقهية منها ان التخيير هل كان واجبا على النبى عليه السلام أم لا فنقول التخيير قولا كان واجبا من غير شك لانه ابلاغ الرسالة لان الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة وأما التخيير معنى فمبنى على ان الامر للوجوب أم لا والظاهر انه للوجوب ومنها ان واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقا والظاهر انه لا يصير فراقا وانما تبين المختارة نفسها بابانة من جهة النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ومنها ان واحدة منهن ان اختارت نفسها وقلنا بأنها لا تبين الا بابانة من جهة النبى عليه السلام فهل كان يجب على النبى عليه

التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم اذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شئ أصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعى وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان وروى عن زيد بن ثابت أنها ان اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وان اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن على رضى الله عنه أنها ان اختارت زوجها فواحدة رجعية وان اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضا أنها ان اختارت زوجها لا يقع شئ أصلا وعليه اجماع فقهاء الامصار ٧٨١ وقد روى عن عائشة رضى الله عنها خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقا وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الامر والمتعة فى المطلقة التى لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة عندنا وفيما عداها مستحبة وهى درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار الا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الاقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم (وان كنتن تردن الله ورسوله) أى تردن رسوله وذكر الله عز وجل للايذان بجلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى (والدار الآخرة) أى نعيمها الذى لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعا (فان الله أعد للمحسنات منكن) بمقابلة احسانهن (أجرا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لان كلهن محسنات وتجريد الشرطية الاولى عن الوعيد للمبالغة فى تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه وهو السر فيما ذكر من تقديم التمتيع على التسريح وفى وصف السراح بالجميل (يا نساء النبى) تلوين للخطاب وتوجيه له اليهن لاظهار الاعتناء بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالاضافة اليه عليه الصلاة والسلام لانها التى

السلام الطلاق أم لا الظاهر نظرا الى منصب النبى عليه السلام انه كان يجب لان الخلف فى الوعد من النبى غير جائز بخلاف واحد منا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد ومنها ان المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا والظاهر انها لا تحرم والا لا يكون التخيير ممكنا لها من التمتع بزينة الدنيا ومنها ان من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبى عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا الظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى ان النبى عليه السلام لا يباشره أصلا بمعنى انه لو أتى به لعوقب أو عوتب وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا اشارة الى ان النبى عليه الصلاة والسلام غير ملتفت الى جانبهن غاية الالتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ومنها قوله عليه السلام أسرحكن سراحا جميلا اشارة الى ما ذكرنا فان السراح الجميل مع التأذى القوى لا يجتمع فى العادة فعلم ان النبى عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل ان التسريح الجميل منه ومنها قوله وان كنتن تردن الله اعلاما لهن بأن فى اختيار النبى عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هى الدين وقوله أعد للمحسنات منكن أى لمن عمل صالحا منكن وقوله تردن الله ورسوله والدار الآخرة فيه معنى الايمان وقوله للمحسنات لبيان الاحسان حتى تكون الآية فى المعنى كقوله تعالى ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن وقوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاجر العظيم الكبير فى الذات الحسن فى الصفات الباقى فى الاوقات وذلك لان العظيم فى الاجسام لا يطلق الا على الزائد فى الطول وفى العرض وفى العمق حتى لو كان زائدا فى الطول يقال له طويل ولو كان زائدا فى العرض يقال له عريض وكذلك العميق فاذا وجدت الامور الثلاثة قيل عظيم فيقال جبل عظيم اذا كان عاليا ممتدا فى الجهات وان كان مرتفعا فحسب يقال جبل عال اذا عرفت هذا فأجر الدنيا فى ذاته قليل وفى صفاته غير خال عن جهة قبح لما فى ما كوله من الضرر والثقل وكذلك فى مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم ۞ ثم قال تعالى (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) لما خيرهن النبى صلى الله عليه وسلم واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقى عما يسوء النبى عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التى هى أصعب على الزوج من كل ما تأتى به زوجته واوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (احداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما فى الزنا من المفاسد وزوجة النبى تعذب ان أتت به لذلك ولايذاء قلبه والازراء بمنصبه وعلى هذا بنات النبى عليه السلام كذلك ولان امرأة لو كانت تحت النبى صلى الله عليه وسلم وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبى عليه السلام ويكون ذلك الغير خيرا عندها من النبى وأولى والنبى أولى من النفس التى هى أولى من الغير فقد نزلت منصب النبى مرتبتين فتعذب من العذاب

يدور عليها ما يرد عليهن من الاحكام (من يأت منكن بفاحشة) بكبيرة (مبينة) ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين وقرئ بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترفن من الكبائر وقيل هى عصيانهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه

أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لاجله وقرئ تات بالفوقانية (يضاعف لها العذاب ضعفين) أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثلية لان الذنب منهن أقبح فان زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الانبياء عليهم الصلاة والسلام بما ٧٨٢ لا يعاتب به الامم وقرئ يضعف على البناء للمفعول ويضاعف ونضعف بنون العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب (وكان ذلك على الله يسيرا) لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبى عليه الصلاة والسلام بل يدعوه اليه لمراعاة حقه (ومن يقنت منكن) وقرئ بالتاء أى ومن يدم على الطاعة (لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) مرة على الطاعة والتقوى وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة وقرئ يعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على أن فيه ضمير اسم الله تعالى (وأعتدنا لها) فى الجنة زيادة على أجرها المضاعف (رزقا كريما) مرضيا (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) أصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع فى النفى مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل والشرف (ان اتقيتن) مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله أو ان اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكن (فلا تخضعن بالقول) عند مخاطبة الناس أى لا تجبن بقولكن خاضعا لينا على سنن قول المريبات والمومسات (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فجور وريبة وقرئ بالجزم عطفا على محل فعل النهى على أنه نهى لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الاطماع بالقول الخاضع كأنه قيل فلا تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب (وقلن قولا معروفا) بعيدا عن الريبة والاطماع بجد وخشونة من غير تخنث أو قولا حسنا مع كونه خشنا (وقرن فى

ضعفين (ثانيهما) ان هذا اشارة الى شرفهن لان الحرة عذابها ضعف عذاب الامة اظهارا لشرفها ونسبة النبى الى غيره من الرجال نسبة السادات الى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتى هن امهات المؤمنين وام الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة وزوجته مأمورة محكومة له وتحت طاعته فصارت زوجة الغير بالنسبة الى زوجة النبى عليه السلام كالامة بالنسبة الى الحرة واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك فى قوة قوله لئن أشركت ليحبطن عملك من حيث ان ذلك ممكن الوقوع فى اول النظر ولا يقع فى بعض الصور جزما وفى بعض يقع جزما من مات فقد استراح وفى البعض يتردد السامع فى الامرين فقوله تعالى من يأت منكن بفاحشة عندنا من القبيل الاول فان الانبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة وقوله تعالى وكان ذلك على الله يسيرا أى ليس كونكن تحت النبى عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الاعزة بسبب كثرة أوليائهم واعوانهم أو شفعائهم واخوانهم ۞ ثم قال تعالى (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا) بيانا لزيادة ثوابهن كما بين زيادة عقابهن (نؤتها أجرها مرتين) فى مقابلة قوله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين مع لطيفة وهى ان عند ايتاء الاجر ذكر المؤتى وهو الله وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال يضاعف اشارة الى كمال الرحمة والكرم كما ان الكريم الحى عند النفع يظهر نفسه وفعله وعند الضر لا يذكر نفسه وقوله تعالى (واعتدنا لها رزقا كريما) وصف رزق الآخرة بكونه كريما مع أن الكريم لا يكون الا وصفا للرازق اشارة الى معنى لطيف وهو ان الرزق فى الدنيا مقدر على أيدى الناس التاجر يسترزق من السوقة والمعاملين والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم فالرزق فى الدنيا لا يأتى بنفسه وانما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله الى الاغيار واما فى الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك فى الظاهر فهو الذى يأتى بنفسه فلاجل هذا لا يوصف فى الدنيا بالكريم الا الرازق وفى الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق ۞ ثم قال تعالى (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا اجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة الى الاماء فقال لستن كأحد ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس يعنى ليس فيه مجرد كونه انسانا بل وصف أخص موجود فيه وهو كونه عالما وعاملا أو نسيبا أو حسيبا فان الوصف الاخص اذا وجد لا يبقى التعريف بالاعم فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علمه يقول رأيت زيدا أو عمرا فكذلك قوله تعالى لستن كأحد من النساء يعنى فيكن غير ذلك أمر لا يوجد فى غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين وكما ان محمدا عليه السلام ليس كأحد من الرجال كما قال عليه السلام لست كأحدكم كذلك قرائبه اللاتى يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة ۞ ثم قوله تعالى (ان اتقيتن فلا

بيوتكن) أمر من قر يقر من باب علم وأصله اقررن فحذفت الراء الاولى وألقيت فتحتها على ما قبلها كما فى قولك ظلن او من قار يقار اذا اجتمع وقرئ بكسر القاف من وقر يقر وقارا اذا ثبت واستقر وأصله اوقرن ففعل به ما فعل بعدن من وعد أو من قر يقر حذفت احدى رائى اقررن ونقلت كسرتها الى القاف كما تقول ظلن ٧٨٣ (ولا تبرجن) أى لا تتبخترن فى مشيكن (تبرج الجاهلية الاولى) أى تبرجا مثل تبرج النساء فى الجاهلية القديمة وهى ما بين آدم ونوح وقيل ما بين ادريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذى ولد فيه ابراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما السلام والجاهلية الاخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الاولى جاهلية الكفر والجاهلية الاخرى الفسوق فى الاسلام ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام لابى الدرداء ان فيك جاهلية قال جاهلية كفر أو جاهلية اسلام قال بل جاهلية كفر (وأقمن الصلوة وآتين الزكوة) أمرهن بهما لانافتهما على غيرهما وكونهما أصل الطاعات البدنية والمالية (وأطعن الله ورسوله) أى فى كل ما تأتين وما تذرن لا سيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) أى الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لامرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح (أهل البيت) مرادا بهم من حواهم بيت النبوة (ويطهركم) من اوضار الاوزار والمعاصى (تطهيرا) بليغا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبى عليه الصلاة والسلام من أهل بيته قاضية ببطلان رأى الشيعة فى تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضوان الله عليهم وأما

تخضعن بالقول) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متعلقا بما قبله على معنى لستن كأحد ان اتقيتن فان الاكرم عند الله هو الاتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقا بما بعده على معنى ان اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهى الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهى المحادثة مع الرجال والانقياد فى الكلام للفاسق ۞ وقوله تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فسق وقوله تعالى (وقلن قولا معروفا) أى ذكر الله وما تحتجن اليه من الكلام والله تعالى لما قال فلا تخضعن بالقول ذكر بعده وقلن اشارة الى أن ذلك ليس أمرا بالايذاء والمنكر بل القول المعروف عند الحاجة هو المأمور به لا غيره ۞ ثم قال تعالى (وقرن فى بيوتكن) من القرار واسقاط أحد حرفى التضعيف كما قال تعالى فظلتم تفكهون وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد وقوله (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغنجن ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله تعالى الجاهلية الاولى فيه وجهان (أحدهما) ان المراد من كان فى زمن نوح والجاهلية الاخرى من كان بعده (وثانيهما) ان هذه ليست أولى تقتضى أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل أين الاكاسرة الجبابرة الاولى ۞ ثم قال تعالى (وأقمن الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله) يعنى ليس التكليف فى النهى فقط حتى يحصل بقوله تعالى لا تخضعن ولا تبرجن بل فيه وفى الاوامر فأقمن الصلاة التى هى ترك التشبه بالجبار المتكبر وآتين الزكاة التى هى تشبه بالكريم الرحيم وأطعن الله أى ليس التكليف منحصرا فى المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فانتهين عنه ۞ ثم قال تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به وانما نفعه لكن وأمره تعالى اياكن لمصلحتكن وقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس ويطهركم فيه لطيفة وهى ان الرجس قد يزول عينا ولا يطهر المحل فقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس أى يزيل عنكم الذنوب ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة ثم ان الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله ليذهب عنكم الرجس ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم واختلف الاقوال فى أهل البيت والاولى ان يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلى منهم لانه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبى عليه السلام وملازمته للنبى ۞ ثم قال تعالى (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله) أى القرآن (والحكمة) أى كلمات النبى عليه السلام اشارة الى ما ذكرنا من ان التكاليف غير منحصرة فى الصلاة والزكاة وما ذكر الله فى هذه الآية فقال واذكرن ما يتلى لتعلمن الواجبات كلها فتأتين بها والمحرمات بأسرها فتنتهين عنها (ان الله كان لطيفا خبيرا) اشارة الى انه خبير بالبواطن لطيف فعلمه يصل الى كل شئ ومنه اللطيف الذى يدخل فى المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة ۞ ثم قال تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين

ثم تمسكوا به من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات غدوة وعليه مرط مرحل من شعر أسود وجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت فانما يدل على كونهم من أهل البيت لا على أن من عداهم ليسوا ٧٨٤ كذلك ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها في مقابلة النص (واذكرن ما يتلى في بيوتكن) أى اذكرن للناس بطريق العظة والتذكير ما يتلى في بيوتكن (من آيات الله والحكمة) من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع وهو تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى وما شاهدن من برحاء الوحى مما يوجب قوة الايمان والحرص على الطاعة حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها مع أنه الانسب لكونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبى عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما (ان الله كان لطيفا خبيرا) يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك فعل ما فعل من الامر والنهى أو يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته (ان المسلمين والمسلمات) أى الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والاناث (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين (والقانتين والقانتات) المداومين على الطاعات القائمين بها (والصادقين والصادقات) في القول والعمل (والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن المعاصى (والخاشعين والخاشعات) المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم والمتصدقين

والمؤمنات) لما أمرهن ونهاهن بين ما يكون لهن وذكر لهن عشر مراتب الاولى الاسلام والانقياد لامر الله والثانية الايمان بما يرد به أمر الله فان المكلف أولا يقول كل ما يقوله اقبله فهذا الاسلام فاذا قال الله شيأ وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو ايمان ثم اعتقاده يدعوه الى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة الثالثة المذكورة بقوله (والقانتين والقانتات) ثم اذا آمن وعمل صالحا كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح اخاه فيصدق في كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله (والصادقين والصادقات) ثم ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى (والصابرين والصابرات) ثم انه اذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فنعه منه بقوله (والخاشعين والخاشعات) أو نقول لما ذكر هذه الحسنات اشار الى ما يمنع منها وهو اما حب الجاه أو حب المال من الامور الخارجية أو الشهوة من الامور الداخلة والغضب منهما يكون لانه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فقوله والخاشعين والخاشعات أى المتواضعين الذين لا يميلهم الجاه عن العبادة ۞ ثم قال تعالى (والمتصدقين والمتصدقات) أى الباذلين الاموال الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم اياها ۞ ثم قال تعالى (والصائمين والصائمات) اشارة الى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله ۞ ثم قال تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات) أى الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية ۞ ثم قال تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) يعنى هم في جميع هذه الاحوال يذكرون الله ويكون اسلامهم وايمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا وفي قوله بعد هذا يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وقال من قبل لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا لان الاكثار من الافعال البدنية غير ممكن أو عسر فان الانسان أكله وشربه وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائما بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار والى هذا اشار بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ولان جميع الاعمال صحتها بذكر الله تعالى وهى النية ۞ ثم قال تعالى (أعد الله لهم مغفرة) تمحو ذنوبهم وقوله (وأجرا عظيما) ذكرناه فيما تقدم ۞ ثم قال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) قيل ان الآية نزلت في زينب حيث أراد النبى صلى الله عليه وسلم تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت الا النبى عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به والاوجه أن يقال ان الله تعالى لما أمر نبيه بان يقول لزوجاته انهن مخيرات فهم منه ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله الى شئ يمكنه النبى عليه السلام من ذلك ويترك النبى عليه السلام حق نفسه لحظ غيره فقال

والمتصدقين) بما وجب في مالهم (والصائمين والصائمات) الصوم المفروض (والحافظين فروجهم والحافظات) عن الحرام (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) بقلوبهم وألسنتهم (أعد الله لهم) بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة (مغفرة) لما اقترفوا من الصغائر لانهن مكفرات بما عملوا من الاعمال الصالحة (وأجرا عظيما) على ٧٨٥ ما صدر عنهم من الطاعات والآية وعد لهن ولامثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال الحميدة روى أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فنزلت وقيل السائلة أم سلمة وروى أنه لما نزل في نساء النبى عليه الصلاة والسلام ما نزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شئ فنزلت وعطف الاناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضرورى وأما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضروريا ولذلك ترك في قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن مدار اعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات (اذا قضى الله ورسوله أمرا) أى اذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم أمره عليه الصلاة والسلام أو للاشعار بان قضاءه عليه الصلاة والسلام قضاء الله عز وجل لانه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ابن حارثة فأبت هى وأخوها عبد الله وقيل في أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وهبت نفسها للنبى عليه الصلاة والسلام فزوجها من زيد فسخطت هى وأخوها وقالا انما أردنا رسول الله فزوجنا عبده (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أن يختاروا من أمرهم ما شاؤا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام

فقال في هذه الآية لا ينبغى أن يظن ظان ان هوى نفسه متبعه وان زمام الاختيار بيد الانسان كما في الزوجات بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما أراد النبى هو الحق ومن خالفهما في شئ فقد ضل ضلالا مبينا لان الله هو المقصد والنبى هو الهادى الموصل فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادى فهو ضال قطعا ۞ ثم قال تعالى (واذ تقول للذى أنعم الله عليه) وهو زيد انعم الله عليه بالاسلام (وأنعمت عليه) بالتحرير والاعتاق (أمسك عليك زوجك) هم زيد بطلاق زينب فقال له النبى أمسك أى لا تطلقها (واتق الله) قيل في الطلاق وقيل في الشكوى من زينب فان زيدا قال فيها انها تتكبر على بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) من انك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من أن يقولوا أخذ زوجة الغير أو الابن (والله أحق أن تخشاه) ليس اشارة الى أن النبى خشى الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحدا معه وانت تخشاه وتخشى الناس أيضا فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله ۞ ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) أى لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لان الزوجة ما دامت في نكاح الزوج فهى تدفع حاجته وهو محتاج اليها فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك اذا كان في العدة له بها تعلق لامكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره واما اذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضى منها الوطر وهذا اوفق لما في الشرع لان التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز فلهذا قال فلما قضى وكذلك قوله (لكى لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا) أى اذا طلقوهن وانقضت عدتهن وفيه اشارة الى أن التزويج من النبى عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبى عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبى وقوله (وكان أمر الله مفعولا) أى مقضيا ما قضاه كائن ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع انه كان مبينا للشرع مشتمل على فائدة كان خاليا عن المفاسد فقال (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل) يعنى كان شرع من تقدمه كذلك كان يتزوج الانبياء بنسوة كثيرة ابكار ومطلقات الغير (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى كل شئ بقضاء وقدر والقدر التقدير وبين المفعول والمقدور وفرق مقول بين القضاء والقدر فالقضاء ما كان مقصودا في الاصل والقدر ما يكون تابعا له مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول لم جئت الى هذه القرية انى ما جئت الى هذه القرية وانما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت في طريقى وان كان قد جاءها ودخلها اذا عرفت هذا فان الخير كله بقضاء وما في العالم من الضرر بقدر فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهى ويغضب ليكون اجتهاده في تغليب العقل والدين

واختيارهم تلو الاختياره وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما في سياق النفي وقيل الضمير الثاني للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقرئ تكون بالتاء (ومن يعص الله ورسوله) في أمر من الامور ويعمل فيه برأيه (فقد ضل) طريق الحق (ضلالا مبينا) أي بين الانحراف ٧٨٦ عن سنن الصواب (واذ تقول) أي واذكر وقت قولك (للذي أنعم الله عليه) بتوفيقه للاسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته (وأنعمت عليه) بالعمل بما وفقك الله له من فنون الاحسان التي من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة وايراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من اظهار خلاف ما في ضميره اذ هو انما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام وكلاهما مما لا يتصور في حق زيد (أمسك عليك زوجك) أي زينب وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أبصرها بعدما أنكحها اياه فوقعت في نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع في نفسه كراهة صحبتها فأتى النبي عليه الصلاة والسلام وقال أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أرابك منها شيء قال لا والله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها لشرفها تتعظم علي فقال له أمسك عليك زوجك (واتق الله) في أمرها فلا تطلقها اضرارا وتعللا بتكبرها (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها ان طلقها أو ارادة طلاقها (وتخشى الناس) تعييرهم اياك به (والله أحق أن تخشاه) ان كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست المعاتبة على الاخفاء وحده بل على الاخفاء مخافة قالة الناس واظهار ما ينافي اضماره فان الاولى في امثال ذلك أن يصمت أو يفوض الامر الى ربه (فلما قضى زيد منها وطرا) بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لي

عليهما امثالا عليه بأبلغ وجه فأفضى ذلك في البعض الى أن زنى وقتل فالله لم يخلقهما فيه مقصودا منه القتل والزنا وان كان ذلك بقدر الله اذا علمت هذا ففي قوله تعالى أولا وكان أمر الله مفعولا وقوله ثانيا وكان أمر الله قدرا مقدورا لطيفة وهي انه تعالى لما قال زوجناكها قال وكان أمر الله مفعولا أي تزويجنا زينب اياك كان مقصودا متبوعا مقضيا مراعى ولما قال سنة الله في الذين خلوا اشارة الى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال وكان أمر الله قدرا مقدورا أي كان ذلك حكما تبعا فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الاشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد ان يخلق ما ينضج الاشياء وهو لا يكون الا محرقا بالطبع فخلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار في افعاله أو يقع شئ لا باختياره ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أي وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة انضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق ألا ترى انها لم تحرق ابراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض ارادته أو لحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل فنقول ما كان في مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر ثم بين الذين خلوا بقوله (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه) يعني كانوا هم أيضا مثلك رسلا ثم ذكر حالهم انهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله (ولا يخشون أحدا الا الله) فصار كقوله فبهداهم اقتده وقوله (وكفى بالله حسيبا) أي محاسبا فلا تخش غيره او محسوبا فلا تلتفت الى غيره ولا تجعله في حسابك ۞ ثم قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) لما بين الله ما في تزوج النبي عليه السلام بزينب من الفوائد بين انه كان خاليا من وجوه المفاسد وذلك لان ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصرا في التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى ان زيدا لم يكن ابنا له لا بل أحد من الرجال لم يكن ابن محمد فان قال قائل النبي كان أبا أحد من الرجال لان الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى وان كانوا اخوة رجالا ونساء والصبي داخل فيه فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبي عليه السلام ابن كبير يقال انه رجل (والثاني) هو انه تعالى قال من رجالكم ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ثم انه تعالى لما نفى كونه أبا عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الابوة من بعض الوجوه فقال (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالاب للامة في الشفقة من جانبه وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى فان النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم والاب ليس كذلك ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله (وخاتم النبيين) وذلك لان النبي الذي يكون بعده نبي ان ترك شيأ من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده واما من لا نبي

بعده

فيك (زوجناكها) وقرئ زوجتكها والمراد الامر بتزويجها منه عليه الصلاة والسلام وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى تولى نكاحي وأنتن زوجكن أولياؤكن وقيل كان زيد السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة ايمانه ٧٨٧ (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) ضيق ومشقة (في أزواج أدعيائهم) أي في حق تزوجهن (اذا قضوا منهن وطرا) فان لهم في رسول الله اسوة حسنة وفيه دلالة على أن حكمه عليه الصلاة والسلام وحكم الامة سواء الا ما خصه الدليل (وكان أمر الله) أي ما يريد تكوينه من الامور أو مأموره الحاصل بكن (مفعولا) مكونا لا محالة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله (ما كان على النبي من حرج) أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون له ضيق (فيما فرض الله له) أي قسم له وقدر من قولهم فرض له في الديوان كذا ومنه فروض العساكر لاعطياتهم (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا مؤكد لما قبله من نفي الحرج أي سن الله ذلك سنة (في الذين خلوا) مضوا (من قبل) من الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم في باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وقوله تعالى (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي قضاء مقضيا وحكما مبتوتا اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة الى تقرير نفي الحرج وتحقيقه (الذين يبلغون رسالات الله) صفة للذين خلوا أو مدح لهم بالنصب أو بالرفع وقرئ رسالة الله (ويخشونه) في كل ما يأتون ويذرون لا سيما في أمر تبليغ الرسالة حيث لا يحرفون منها حرفا ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم (ولا يخشون أحدا الا الله) في وصفهم بقصرهم

بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى اذ هو كالوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد وقوله (وكان الله بكل شئ عليما) يعني علمه بكل شئ دخل فيه أن لا نبي بعده فعلم أن من الحكمة اكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك من حيث ان قول النبي صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا لكن اذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة الا ترى انه ذكر بقوله ما فهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقي في النفوس شئ ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع انه في بعض الملل لا يؤكل وكذلك الارنب ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن السورة أصلها ومبناها على تاديب النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع أهله وأقاربه بقوله يا أيها النبي قل لازواجك والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به انبياءه المرسلين فارشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا كما قال لنبيه يا أيها النبي اتق الله (ثم ههنا لطيفة) وهي ان المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر اما النبي لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال اتق الله فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الاولياء سيئة الانبياء وقوله ذكرا كثيرا قد ذكرنا ان الله في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة اذ لا مانع من الذكر على ما بينا وقوله تعالى (وسبحوه بكرة وأصيلا) أي اذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم اياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحة بكرة وأصيلا اشارة الى المداومة وذلك لان مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام لو أن أولكم وآخركم ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم ۞ ثم قال تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) يعني هو يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح ليخرجكم من الظلمات الى النور يعني يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بان اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول الى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فان أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحيما بشارة لجميع المؤمنين واشارة الى أن قوله يصلي عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحي ۞ ثم قال تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) لما بين الله عنايته في الاولى بين عنايته في الآخرة وذكر السلام لانه هو الدليل على الخيرات فان من لقي غيره وسلم عليه دل على

الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد ما التصريح فى قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (وكفى بالله حسيبا) كافيا للمخاوف فينبغى أن لا يخشى غيره أو محاسبا على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يكون حق الخشية منه ٧٨٨ تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) أى على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينتقض عمومه بكونه عليه الصلاة والسلام أبا للطاهر والقاسم وابراهيم لانهم لم يبلغوا الحلم ولو بلغوا لكانوا رجالا له عليه الصلاة والسلام لا لهم (ولكن رسول الله) أى كان رسول الله وكل رسول أبو أمته لكن لا حقيقة بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الابدية وما زيد الا واحد من رجالكم الذين لا ولاد بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام فحكمه حكمهم وليس للتبنى والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص (وخاتم النبيين) أى كان آخرهم الذى ختموا به وقرئ بكسر التاء أى كان خاتمهم ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين وأياما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيا ولم يكن هو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين كما يروى أنه قال فى ابراهيم حين توفى لو عاش لكان نبيا ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام لان معنى كونه خاتم النبيين أنه لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل انما ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا الى قبلته كأنه بعض أمته (وكان الله بكل شئ عليما) ومن جملته هذه الاحكام والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) بما هو أهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس (ذكرا كثيرا) وهو يعم الاوقات والاحوال (وسبحوه) ونزهوه عما لا يليق به (بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره على أن تخصيصهما بالذكر ليس

المصافاة بينهما وان لم يسلم دل على المنافاة وقوله يوم يلقونه أى يوم القيامة وذلك لان الانسان فى دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفى أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه وأما فى الآخرة فلا شغل لاحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء ثم قال تعالى (وأعد لهم أجرا كريما) لو قال قائل الاعداد انما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة الى الشئ عليه وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الاعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك اذا قيل له فلان واصل فاذا أراد اكرامه يهيئ له بيتا وانواعا من الاكرام ولا يقول بأنه اذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه فكذلك الله لكمال الاكرام أعد للذاكر أجرا كريما والكريم قد ذكرناه فى الرزق أى أعد له أجرا يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه الا بقدر وقوله تحيتهم يوم يلقونه سلام مناسب لحالهم لانهم لما ذكروا الله فى دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفوه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم فى الدنيا فأحسن اليهم بالرحمة كما قال تعالى هو الذى يصلى عليكم وقال وكان بالمؤمنين رحيما والمتعارفان اذا التقيا وكان أحدهما شفيقا بالآخر والآخر معظما له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما الا السلام وأنواع الاكرام ثم قال تعالى (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبى عليه السلام من ربه فقوله فى ابتدائها يا أيها النبى اتق الله اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع ربه وقوله يا أيها النبى قل لازواجك اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وقوله يا أيها النبى انا أرسلناك اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى شاهدا يحتمل وجوها (أحدها) انه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا وعلى هذا فالنبى بعث شاهدا أى متحملا للشهادة ويكون فى الآخرة شهيدا أى مؤديا لما تحمله (ثانيها) انه شاهد أن لا اله الا الله (وعلى هذه اللطيفة) وهو ان الله جعل النبى شاهدا على الوحدانية والشاهد لا يكون مدعيا فالله تعالى لم يجعل النبى فى مسئلة الوحدانية مدعيا لها لان المدعى من يقول شيئا على خلاف الظاهر والوحدانية أظهر من الشمس والنبى عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهدا له فى مجازاة كونه شاهدا لله فقال تعالى والله يشهد انك لرسوله (وثالثها) انه شاهد فى الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد فى الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله ومبشرا ونذيرا وداعيا فيه ترتيب حسن وذلك من حيث ان النبى عليه السلام أرسل شاهدا بقول لا اله الا الله ويرغب فى ذلك بالبشارة فان لم يكف ذلك يرهب بالانذار ثم لا يكتفى بقولهم لا اله الا الله بل يدعوهم الى سبيل الله كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك وقوله وسراجا منيرا أى مبرهنا على ما يقول مظهرا له بأوضح الحجج

لقصر التسبيح عليهما دون سائر الاوقات بل لابانة فضلهما على سائر الاوقات لكونهما مشهودين كافراد التسبيح من بين الاذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيل كلا الفعلين متوجه اليهما كقولك صم وصل يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلاة (هو الذى يصلى عليكم) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من ٧٨٩ الامرين فان صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه وقوله تعالى (وملائكته) عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المغنى عن التأكيد بالمنفصل لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمة أولا والاستغفار ثانيا فان استعمال اللفظ الواحد فى معنيين متغايرين مما لا مساغ له بل على أن يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقيا له وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم فان كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له أو الترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ولا ريب فى أن استغفار الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل فاعتباره بنزع الى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر (ليخرجكم من الظلمات الى النور) متعلق بيصلى أى يعتنى بأموركم هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية الى نور الطاعة وقوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما ولذلك يفعل بكم ما يفعل من الاعتناء باصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم الى الايمان والطاعة أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين مظهر وضع موضع المضمر مدحا لهم واشعارا بعلة الرحمة وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) بيان للاحكام الآجلة

وهو المراد بقوله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة (وفيه لطائف احداها) قوله تعالى وداعيا الى الله باذنه حيث لم يقل وشاهدا باذنه ومبشرا باذنه وعند الدعاء قال وداعيا باذنه وذلك لان من يقول عن ملك انه ملك الدنيا لا غيره لا يحتاج فيه الى اذن منه فانه وصفه بما فيه وكذلك اذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشرا ونذيرا ولا يحتاج الى اذن من الملك فى ذلك وأما اذا قال تعالوا الى سماطه واحضروا على خوانه يحتاج فيه الى اذنه فقال تعالى وداعيا الى الله باذنه ووجه آخر وهو أن النبى يقول انى أدعوا الى الله والولى يدعو الى الله والاول لا اذن له فيه من أحد والثانى مأذون من جهة النبى عليه السلام كما قال تعالى قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وقال عليه الصلاة والسلام رحم الله عبدا سمع مقالتى فأداها كما سمعها والنبى عليه السلام هو المأذون من الله فى الدعاء اليه من غير واسطة (اللطيفة الثانية) قال فى حق النبى عليه السلام سراجا ولم يقل انه شمس مع انه أشد اضاءة من السراج لفوائد منها أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فاذا انطفأ الاول يبقى الذى أخذ منه وكذلك ان غاب والنبى عليه السلام كان كذلك اذ كل صحابى اخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وفى الخبر لطيفة وان كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهى ان النبى عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لان النجم لا يؤخذ منه نور بل له فى نفسه نور اذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه وكذلك الصحابى اذا مات فالتابعى يستنير بنور النبى عليه السلام ولا يأخذ منه الا قول النبى عليه السلام وفعله فأنوار المجتهدين كلهم من النبى عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبى عليه السلام أيضا سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور ممن اختار وليس كذلك فان مع نص النبى عليه السلام لا يعمل بقول الصحابى فيؤخذ من النبى النور ولا يؤخذ من الصحابى فلم يجعله سراجا وهذا يوجب ضعفا فى حديث سراج الامة والمحدثون ذكروه وفى تفسير السراج وجه آخر وهو ان المراد منه القرآن وتقديره انا أرسلناك وسراجا منيرا عطفا على محل الكاف أى وأرسلنا سراجا منيرا وعلى قولنا انه عطف على مبشرا ونذيرا يكون معناه وذا سراج لان الحال لا يكون الا وصفا للفاعل أو المفعول والسراج ليس وصفا لان النبى عليه السلام لم يكن سراجا حقيقة أو يكون كقول القائل رأيته أسدا أى شجاعا فقوله سراجا أى هاديا مبينا كالسراج يرى الطريق ويبين الامر وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على مفهوم تقديره انا أرسلناك شاهدا ومبشرا فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه وأما البشارة فانها ذكرت ابانة للكرم ولانها غير واجبة لولا الامر وقوله تعالى (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) هو مثل قوله وأعد لهم أجرا عظيما فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبيرة كيف اذا كان مع ذلك كبارة أخرى وقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين)

لرحمة الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التى هى الاعتناء بأمرهم وهدايتهم الى الطاعة أى ما يحيون به على أنه مصدر أضيف الى مفعوله يوم لقائه عند الموت أو عند ٧٩٠ البعث من القبور أو عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة أو تكرمة لهم كما فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم أو اخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة وقوله تعالى (وأعد لهم أجرا كريما) بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك ولعل ايثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلا وأجرهم أجر كريم أو ولهم أجر كريم للمبالغة فى الترغيب والتشويق الى الموعود ببيان أن الاجر الذى هو المقصد الاقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع ما فيه من مراعاة الفواصل (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا) على من بعثت اليهم تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم وتتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ما هم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وما عليهم وهو حال مقدرة (ومبشرا ونذيرا) تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكافرين بالنار (وداعيا الى الله) أى الى الاقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الايمان به من صفاته وأفعاله (باذنه) أى بتيسيره أطلق عليه مجازا لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة ايذانا بأنها أمر صعب المنال وخطب فى غاية الاعضال لا يتأتى الا بامداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وادخال للاعناق فى قلادة غير معهودة (وسراجا منيرا) يستضاء به

اشارة الى الانذار يعنى خالفهم ورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى (ودع أذاهم) أى دعه الى الله فانه يعذبهم بأيديكم وبالنار ويبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى الله كاف عبده قال بعض المعتزلة لا يجوز تسمية الله بالوكيل لان الوكيل أدون من الموكل وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا حجة عليه وشبهته واهية من حيث ان الوكيل قد يوكل للترفع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا يتبين اذا نظرت فى الامور التى لاجلها لا يكفى الوكيل الواحد منها أن لا يكون قويا قادرا على العمل كالملك الكثير الاشغال يحتاج الى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله ومنها أن لا يكون عالما بما فيه التوكيل ومنها أن لا يكون غنيا والله تعالى عالم قادر غير محتاج فيكفى وكيلا ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى فى هذه السورة ذكر مكارم الاخلاق وأدب نبيه على ما ذكرناه لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلما ذكر للنبى مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه فكما بدأ الله فى تأديب النبى عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق بجانب الله بقوله يا أيها النبى اتق الله وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد يا أيها النبى قل لازواجك وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا كذلك بدأ فى ارشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم كما ثلث فى تأديب النبى بجانب الامة ثلث فى حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم فقال بعد هذا يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى وبقوله يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وفى الآية مسائل (احداها) اذا كان الامر على ما ذكرت من ان هذا ارشاد الى ما يتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتى طلقن قبل المسيس بالذكر فنقول هذا ارشاد الى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها ما دونها وبيانه هو ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ولهذا قال الله تعالى فى حق الممسوسة وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا واذا أمر الله بالتمتع والاحسان مع من لا مودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة اليها بالافضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن فى الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لا تفى بها الاقلام ولا تكفى لها الاوراق وهذا مثل قوله تعالى فلا تقل لهما أف لو قال لا تضربهما أو لا تشتمهما ظن انه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم اما اذا قال لا تقل لهما أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لما أمر بالاحسان مع من لا مودة معها علم منه الاحسان مع الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقوله اذا نكحتم المؤمنات التخصيص بالذكر ارشاد الى

في ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بانواره الى مناهج الرشد والهداية (وبشر المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم ٧٩١ (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) أى على مؤمنى سائر الامم فى الرتبة والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والاحسان (ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهى عن مداراتهم فى أمر الدعوة واستعمال لين الجانب فى التبليغ والمسامحة فى الانذار كنى عن ذلك بالنهى عن طاعتهم مبالغة فى الزجر والتنفير عن المنهى عنه بنظمه فى سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهى على التهييج والالهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل (ودع أذاهم) أى لا تبال باذيتهم لك بسبب تصلبك فى الدعوة والانذار (وتوكل على الله) فى كل ما تأتى وما تذر من الشؤون التى من جملتها هذا الشان فانه تعالى يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) موكولا اليه الامور فى كل الاحوال واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتعليل الحكم وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى ولما وصف عليه الصلاة والسلام بنعوت خمسة قوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحا وهو الامر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة مقابل المبشر عليه وهو الامر بالتبشير حسبما ذكر آنفا وقوبل النذير بالنهى عن مداراة الكفار والمنافقين والمسامحة فى انذارهم كما حققته وقوبل الداعى الى الله باذنه بالامر بالتوكل عليه من حيث انه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فان من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهانا نيرا يهدى الخلق من ظلمات

ان المؤمن ينبغى أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصينا لدينه وقوله ثم طلقتموهن تمسك به فى ان تعليق الطلاق بالنكاح لا يصح لان التطليق حينئذ لا يكون الا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم وهى للتراخى وقوله فما لكم عليهن من عدة بين ان العدة حق الزوج فيها غالب وان كان لا يسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى وقوله تعتدونها أى تستوفون أنتم عددها فمتعوهن قيل بانه مختص بالمفوضة التى لم يسم لها اذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة وقيل بانه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب اختلف العلماء فيه فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة ايضا ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشئ وقوله تعالى وسرحوهن سراحا جميلا الجمال فى التسريح أن لا يطالبها بما آتاها ۞ ثم قال تعالى (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) ذكر للنبى عليه السلام ما هو الاولى فان الزوجة التى أوتيت مهرها أطيب قلبا من التى لم تؤت والمملوكة التى سباها الرجل بنفسه أطهر من التى اشتراها الرجل لانه لا يدرى كيف حالها ومن هاجرت من أقارب النبى عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ومن الناس من قال بان النبى عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه اعطاء المهر أولا وذلك لان المرأة لها الامتناع الى أن تأخذ مهرها والنبى عليه السلام ما كان يستوفى ما لا يجب له والوطء قبل ايتاء الصداق غير مستحق وان كان حلالا لنا وكيف والنبى عليه السلام اذا طلب شيأ حرم الامتناع على المطلوب والظاهر ان الطالب فى المرة الاولى انما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبى عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر للزم ان يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا وقال ويؤكد هذا قوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى يعنى حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها وقوله تعالى ان اراد النبى أن يستنكحها اشارة الى ان هبتها نفسها لا بد معها من قبول وقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين قال الشافعى رضى الله عنه معناه اباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك وقال ابو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبدا والترجيح يمكن أن يقال بان على هذا فالتخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم معناه ان ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك واما حكم امتك فعندنا علمه ونبينه لهم وانما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبى عليه الصلاة والسلام فان له فى النكاح خصائص ليست

النبي الى نور الرشاد حقيق بان يكتفى به عن كل ماسواه (يا أيها الذين امنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن)
أى تجامعوهن وقرئ تماسوهن بضم التاء (فما لكم عليهن من عدة) بايام يتربصن فيها بانفسهن (تعتدونها) تستوفون
عددها من عددت الدراهم فاعتدها ٧٩٢ وحقيقته عدها لنفسه وكذلك كلته فاكتاله والاسناد الى الرجال للدلالة على
أن العدة حق الازواج كما أشعر به
قوله تعالى فما لكم وقرئ
تعتدونها على ابدال احدى
الدالين بالتاء أو على أنه من
الاعتداء بمعنى تعتدون فيها
والخلوة الصحيحة فى حكم المس
وتخصيص المؤمنات مع عموم
الحكم للكتابيات للتنبيه على أن
المؤمن من شانه أن يتخير لنطفته
ولا ينكح الا مؤمنة وفائدة ثم
ازاحة ماعسى يتوهم أن تراخى
الطلاق ريثما تمكن الاصابة يؤثر
فى العدة كما يؤثر فى النسب
(فمتعوهن) أى ان لم يكن مفروضا لها
فى العقد فان الواجب للمفروض
لها نصف المفروض دون المتعة
فانها مستحبة عندنا فى رواية وفى
أخرى غير مستحبة (وسرحوهن)
أخرجوهن من منازلكم اذ ليس
لكم عليهن عدة (سراحا جميلا) من
غير ضرار ولا منع حق ولا مساغ
لتفسيره بالطلاق السنى لانه انما
يتسنى فى المدخول بهن (يا أيها
النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى
آتيت أجورهن) أى مهورهن
فانها أجور الابضاع وايتاؤها اما
اعطاؤها معجلة أو تسميتها فى العقد
وأياما كان فتقييد الاحلال له
عليه الصلاة والسلام به ليس
لتوقف الحل عليه ضرورة أنه يصح
العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل
أو المتعة على تقديرى الدخول
وعدمه بل لايثار الافضل والاولى
له عليه الصلاة والسلام كتقييد احلال المملوكة بكونها مسبية فى قوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) فان
المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه فى قوله تعالى (وبنات عمك وبنات عماتك

لغيره وكذلك فى السرارى وقوله تعالى لكيلا يكون عليك حرج أى تكون فى فسحة
من الامر فلا يبقى للتشغل قلب فينزل الروح الأمين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ
رسالات ربك بجدك واجتهادك وقوله تعالى وكان الله غفورا رحيما يغفر الذنوب جميعا
ويرحم العبيد ۞ ثم قال تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن
عزلت فلا جناح عليك) لما بين انه أحل له ماذكر من الازواج بين انه أحل له وجوه المعاشرة
بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم وذلك لان النبى عليه السلام بالنسبة الى
أمته نسبة السيد المطاع والرجل وان لم يك نبيا فالزوجة فى ملك نكاحه والنكاح عليها رق
فكيف زوجات النبى عليه السلام بالنسبة اليه فاذن هن كالمملوكات له ولا يجب القسم
بين المملوكات والارجاء التأخير والايواء الضم ومن ابتغيت ممن عزلت يعنى اذا طلبت من
كنت تركتها فلا جناح عليك فى شئ من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجبا مع انه
ضعيف بالنسبة الى المفهوم من الآية قال المراد ترجى من تشاء أى تؤخرهن اذا شئت اذ
لا يجب القسم فى الاول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهن وان ابتغيت ممن عزلت فلا
جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والاول أقوى ۞ ثم قال تعالى (ذلك أدنى أن تقر
أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) يعنى اذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك
القسم تقر أعينهن لتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف مالو وجب عليك ذلك فليلة تكون
عند احداهن تقول ماجاء فى لهوى قلبه انما جاء فى لامر الله وايجابه عليه ويرضين بما آتيتهن
من الارجاء والايواء اذ ليس لهن عليك شئ حتى لا يرضين ۞ ثم قال تعالى (والله يعلم مافى
قلوبكم وكان الله عليما حليما) أى ان أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب
فانه عليم فان لم يعاتبهن فى الحال فلا يغترن فانه حليم لا يعجل ۞ ثم قال تعالى (لا يحل لك
النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) لما لم يوجب الله على نبيه
القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ماجازاهن به من تحريم غيرهن على
النبى عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله ولا أن تبدل بهن وفيه مسائل (المسئلة
الاولى) قوله لا تحل لك النساء من بعد قال المفسرون من بعدهن والاولى أن يقال لا تحل
لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران
والنقص والحرمان (المسئلة الثانية) قوله ولا أن تبدل بهن يفيد حرمة طلاقهن اذ لو كان
جائزا لجاز أن يطلق الكل وبعدهن اما ان يتزوج بغيرهن او لا يتزوج فان لم يتزوج يدخل
فى زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبى وكيف وهو يقول النكاح سنتى وان
تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل (المسئلة الثالثة) من المفسرين
من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك
النساء غير اللاتى ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات
خالك وبنات خالاتك واما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله ولا أن

وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) ويحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه عليه الصلاة والسلام خاصة ويعضده قول أم
هانئ بنت أبى طالب خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرنى ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لانى لم أهاجر معه
كنت من الطلقاء (وامرأة مؤمنة) بالنصب عطفا على مفعول أحللنا اذ ليس ٧٩٣ معناه انشاء الاحلال الناجز بل اعلام مطلق
الاحلال المنتظم لما سبق ولحق
وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره
محذوف أى أحللناها لك أيضا (ان
وهبت نفسها للنبى) أى ملكته
بضعها بأى عبارة كانت بلا مهر
ان اتفق ذلك كما ينبئ عنه تنكيرها
لكن لا مطلقا بل عند ارادته عليه
الصلاة والسلام استنكاحها
كما نطق به قوله عز وجل (ان أراد
النبى أن يستنكحها) أى أن يتملك
بضعها كذلك أى بلا مهر فان
ذلك جار منه عليه الصلاة والسلام
مجرى القبول وحيث لم يكن هذا
نصا فى كون تمليكها بلفظ الهبة
لم يصلح أن يكون مناطا للخلاف فى
انعقاد النكاح بلفظ الهبة ايجابا
أو سلبا واختلف فى اتفاق هذا
العقد فعن ابن عباس رضى الله
عنهما لم يكن عنده عليه الصلاة
والسلام أحد منهن بالهبة
وقيل الموهوبات أربع ميمونة بنت
الحرث وزينب بنت خزيمة الانصارية
وأم شريك بنت جابر وخولة بنت
حكيم وايراده عليه الصلاة
والسلام فى الموضعين بعنوان
النبوة بطريق الالتفات للتكرمة
والايذان بانها المناط لثبوت
الحكم فيختص به عليه الصلاة
والسلام حسب اختصاصها به
كما ينطق به قوله تعالى (خالصة لك)
أى خلص لك احلالها خالصة أى
خلوصا فان الفاعلة فى المصادر
غير عزيز كالعافية والكاذبة أو خالص لك احلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة
خالصة وهى قوله تعالى (من دون المؤمنين) على الاول أن الاحلال المذكور فى المادة المعهودة غير متحقق فى حقهم وانما

تبدل بهن منع من شغل الجاهلية فانهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن
زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته وعلى التفسيرين وقع خلاف فى مسئلتين
احداهما حرمة طلاق زوجاته والثانية حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الاول حرم
الطلاق ومن فسر على الثانى حرم التزوج بالكتابيات (المسئلة الرابعة) قوله ولو أعجبك
حسنهن أى حسن النساء قال الزمخشرى قوله ولو أعجبك فى معنى الحال ولا يجوز أن
يكون ذو الحال قوله من أزواج لغاية التنكير فيه ولكون ذى الحال لا يحسن أن يكون
نكرة فاذن هو النبى عليه السلام يعنى لا تحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج
وأنت معجب بحسنهن (المسئلة الخامسة) ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام
من انه اذا رأى واحدة فوقعت فى قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها
وهذه المسئلة حكمية وهى ان النبى عليه السلام وسائر الانبياء فى أول النبوة تشتد عليهم
برحاء الوحى ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع
ففى أول الامر أحل الله من وقع فى قلبه تفريغا للقلبه وتوسيعا الصدره لئلا يكون مشغول
القلب بغير الله ثم لما استأنس بالوحى وبهن على لسانه الوحى نسخ ذلك اما لقوته عليه
السلام للجمع بين الامرين واما انه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا فلم يبق له
التفات الى غير الله فلم يبق له حاجة الى احلال التزوج بمن وقع بصره عليها (المسئلة
السادسة) اختلف العلماء فى أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا فقال الشافعى نسخ وقد
قالت عائشة مامات النبى الا وأحل له النساء وعلى هذا فالناسخ قوله يا أيها النبى انا أحللنا
لك أزواجك الى أن قال وبنات عمك وقال وامرأة مؤمنة على قول من يقول لا يجوز نسخ
الكتاب بخبر الواحد اذ الناسخ غير متواتر ان كان خبرا ۞ ثم قال تعالى (الا ما ملكت يمينك)
لم يحرم عليه المملوكات لان الايذاء لا يحصل بالمملوكة ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين
ضرتين فى بيت لحصول التسوية بينهما وامكان المخاصمة ويجوز أن يجمع الزوجة وجمعا
من المملوكات لعدم التساوى بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد ۞ ثم قال تعالى (وكان الله
على كل شئ رقيبا) أى حافظا عالما بكل شئ قادرا عليه لان الحفظ لا يحصل الا بهما
۞ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير
ناظرين اناه) لما ذكر الله تعالى فى النداء الثالث يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا بيانا
لحاله مع أمته العامة قال للمؤمنين فى هذا النداء لا تدخلوا ارشادا لهم وبيانا لحالهم
مع النبى عليه السلام من الاحترام ثم ان حال الامة مع النبى على وجهين (أحدهما)
فى حال الخلوة والواجب هناك عدم ازعاجه وبين ذلك بقوله لا تدخلوا بيوت النبى
(وثانيهما) فى الملا والواجب هناك اظهار التعظيم كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا صلوا
عليه وسلموا تسليما وقوله الى طعام غير ناظرين اناه أى لا تدخلوا بيوت النبى الى طعام
الا أن يؤذن لكم ۞ ثم قال تعالى (ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا

المحقق هناك الاحلال بمهر المثل وعلى الثانى أن احلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه احلال البعض المعدود على الوجه المعهود وقرئ خالصة بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى ذلك خلوص لك وخصوص أو هى أى تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لا تتجاوز 794 المؤمنين حيث لا تحل لهم بغير مهر ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم) أى على المؤمنين (فى أزواجهم) أى فى حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الاحلال المذكور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه مالم يفرض عليه عليه الصلاة والسلام تكرمة له وتوسعة عليه أى قد علمنا ما ينبغى أن يفرض عليهم فى حق أزواجهم (وما ملكت أيمانهم) وعلى أى حد وأى صفة يحق أن يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص (لكيلا يكون عليك حرج) اى ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له عليه الصلاة والسلام لا باعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لان مدار انتفاء الحرج هو الاول لا الثانى الذى هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره (وكان الله غفورا) لما يعسر التحرز عنه (رحيما) ولذلك وسع الامر فى مواقع الحرج (ترجى من تشاء منهن) أى تؤخرها وتترك مضاجعتها (وتؤوى اليك من تشاء) وتضم اليك من تشاء منهن وتضاجعها او تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرئ ترجى بالهمزة والمعنى واحد (ومن ابتغيت) أى طلبت (ممن عزلت) طلقت بالرجعة (فلا جناح عليك) فى شئ مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لانه اما ان يطلق او يمسك فاذا امسك ضاجع او ترك وقسم او لم يقسم واذا طلق فاما أن يخلى المعزولة

ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق

واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان

لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما) لما بين من حال النبى انه داع الى الله بقوله وداعيا الى الله قال ههنا لا تدخلوا الا اذا دعيتم يعنى كما انكم ما دخلتم الدين الا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه الا بعد دعائه وقوله غير ناظرين منصوب على الحال والعامل فيه على ما قاله الزمخشرى لا تدخلوا قال وتقديره لا تدخلوا بيوت النبى الا ماذونين غير ناظرين وفى الآية مسائل (الاولى) قوله الا أن يؤذن لكم الى طعام اما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا الى طعام الا أن يؤذن لكم فلا يكون منعا من الدخول فى غير وقت الطعام بغير الاذن واما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا الا أن يؤذن لكم الى طعام فيكون الاذن مشروطا بكونه الى الطعام فان لم يؤذن لكم الى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد فى الدخول لاستماع كلام لا لاكل طعام لا يجوز نقول المراد هو الثانى ليعم النهى عن الدخول وأما قوله فلا يجوز الا بالاذن الذى الى طعام نقول قال الزمخشرى الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام ويدخلون من غير اذن فمنعوا من الدخول فى وقته بغير اذن والاولى أن يقال المراد هو الثانى لان التقديم والتأخير خلاف الاصل وقوله الى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفى ما عداه لا سيما اذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخول بيته باذنه الى طعامه جاز دخوله الى غير طعامه باذنه فان غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام فان من الجائز أن يتكلم معه وقتما يدعوه الى طعام ويستقضيه فى حوائجه ويعلمه مما عنده من العلوم مع زيادة الاطعام فاذا رضى بالكل فرضاه بالبعض أقرب الى الفعل فيصير من باب لا تقل لهما أف وقوله غير ناظرين يعنى أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ (المسئلة الثانية) قوله تعالى ولكن اذا دعيتم فادخلوا فيه لطيفة وهى أن فى العادة اذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير اذن لا تدخلها الا باذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء فقال لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين اذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا واذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا وأناه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله الا أن يؤذن يفيد الجواز وقوله ولكن اذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب فقوله ولكن اذا دعيتم ليس تأكيدا بل هو يفيد فائدة جديدة (المسئلة الثالثة) لا يشترط فى الاذن التصريح به بل اذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال الا أن يؤذن من غير بيان فاعل فالاذن ان كان الله أو النبى أو العقل المؤيد بالدليل جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى أو صديقكم وحد الصداقة لما ذكرنا فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع فى بيت عائشة من بيوت النبى عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الاهل أو هى محتاجة الى اطفاء حريق فيها أو غير ذلك جاز

أو يمتعها وروى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت مما آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وارجى خمسا وآوى اربعا وروى انه كان يسوى بينهن مع ما اطلق له وخير الا سودة فانها وهبت ليلتها لعائشة رضى الله عنهن وقالت لا تطلقنى حتى احشر فى زمرة نسائك 795 (ذلك) اى ما ذكر من تفويض الامر الى مشيئتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) اى اقرب الى قرة عيونهن ورضاهن جميعا لانه حكم كلهن فيه سواء ثم ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان رجحت بعضهن علمن انه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرئ تقر بضم التاء ونصب اعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلهن تأكيد لنون يرضين وقرئ بالنصب على أنه تأكيد لهن (والله يعلم ما فى قلوبكم) من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى احسانها (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم فيعلم كل ما تبدونه وتخفونه (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فانه امهال لا اهمال (لا يحل لك النساء) بالياء لان تأنيث الجمع غير حقيقى ولوجود الفصل وقرئ بالتاء (من بعد) اى من بعد التسع وهو فى حقه كالاربع فى حقنا وقال ابن عباس وقتادة من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترنك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران (ولا أن تبدل) أى تتبدل بحذف احدى التاءين (بهن) أى بهؤلاء التسع (من ازواج) بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها اخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق أراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتى توفى عليه الصلاة والسلام عنهن وهن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وام حبيبة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبى

جاز الدخول (المسئلة الرابعة) قوله فاذا طعمتم فانتشروا كان بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبى عليه السلام فى عرس زينب والنبى عليه السلام لم يقل له شيأ فوردت الآية جامعة لآداب منها المنع من اطالة المكث فى بيوت الناس وفى معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده وقوله ولا مستأنسين لحديث قال الزمخشرى هو عطف على غير ناظرين مجرور ويحتمل أن يكون منصوبا عطفا على المعنى فان معنى قوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبى الا ان يؤذن لكم لا تدخلوها هاجمين فعطف عليه ولا مستأنسين ثم ان الله تعالى بين كون ذلك أدبا وكون النبى حليما بقوله ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق اشارة الى أن ذلك حق وأدب وقوله كان اشارة الى تحمل النبى عليه السلام ثم ذكر الله أدبا آخر وهو قوله واذا سألتموهن متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب لما منع الله الناس من دخول بيوت النبى عليه السلام وكان فى ذلك تعذر الوصول الى الماعون بين ان ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب وقوله ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن يعنى العين روزنة القلب فاذا لم تر العين لا يشتهى القلب أما ان رأت العين فقد يشتهى القلب وقد لا يشتهى فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر ثم ان الله تعالى لما علم المؤمنين الادب أكده بما يحملهم على محافظته فقال وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه وقوله تعالى ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا قيل سبب نزوله ان بعض الناس قيل هو طلحة ابن عبيد الله قال لئن عشت بعد محمد لانكحن عائشة وقد ذكرنا ان اللفظ العام لا يغير معناه سبب النزول فان المراد أن ايذاء الرسول حرام والتعرض لنسائه فى حياته ايذاء فلا يجوز ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقا ثم أكده بقوله ان ذلكم كان عند الله عظيما أى ايذاء الرسول ﴿ ثم قال تعالى (ان تبدوا شيأ أو تخفوه فان الله كان بكل شئ عليما) يعنى ان كنتم لا تؤذونه فى الحال وتعزمون على ايذائه أو نكاح أزواجه بعده فالله عليم بذات الصدور ﴿ ثم ان الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن) وفى الآية مسائل (الاولى) فى الحجاب اوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال فلم لم يستثن الرجال عن الجناح ولم يقل لا جناح على آبائهن فنقول قوله تعالى فاسئلوهن من وراء حجاب امر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون الا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن ثم أمر الرجال بتركهن كذلك ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والابناء (وفيه لطيفة) وهى ان عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب وفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الاولى وعند الاستثناء قال تعالى لا جناح عليهن عند رفع الحجاب عنهن فالرجال أولى بذلك

امة وصفية بنت حيي الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الاسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية وقال عكرمة المعنى لا يحل لك النساء من بعد الاجناس الاربعة اللاتى احللناهن لك بالصفة التى تقدم ذكرها من الاعرابيات والغرائب أو من الكتابيات أو من الاماء بالنكاح ٧٩٦ ويأباه قوله تعالى ولا أن تبدل بهن فان معنى احلال الاجناس المذكورة احلال نكاحهن فلابد أن يكون معنى التبدل بهن احلال نكاح غيرهن بدل احلال نكاحهن وذلك انما يتصور بالنسخ الذى ليس من الوظائف البشرية (ولو أعجبك حسنهن) أى حسن الازواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل لا من مفعوله وهو من أزواج لتوغله فى التنكير قيل تقديره مفروضا اعجابك بهن وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم وقيل هى أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر ابن أبى طالب أى هى ممن أعجبه عليه الصلاة والسلام حسنهن واختلف فى أن الآية محكمة او منسوخة قيل بقوله تعالى ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء وقيل بقوله تعالى انا أحللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضى الله عنها ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء وقال أنس رضى الله عنه مات عليه الصلاة والسلام على التحريم (الا ما ملكت يمينك) استثناء من النساء لانه يتناول الازواج والاماء وقيل منقطع (وكان الله على كل شئ رقيبا) حافظا مهيمنا فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطى حلاله الى حرامه (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى) شروع فى بيان ما يجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبى عليه الصلاة والسلام اثر بيان ما يجب مراعاته عليه عليه الصلاة والسلام من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى

(المسئلة الثانية) قدم الآباء لان اطلاعهم على بناتهم أكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات فى حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر انما الكلام فى بنى الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بنى الاخوات لان بنى الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم انما هم أزواج خالات أبنائهم وبنى الاخوة آباؤهم محارم أيضا ففى بنى الاخوات مفسدة ما وهى ان الابن ربما يحكى خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الاخوة (المسئلة الثالثة) لم يذكر الله من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن لوجهين أحدهما أن ذلك علم من بنى الاخوة وبنى الاخوات لان من علم أن بنى الاخ للعمات محارم علم أن بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الحال فى أمر الخال ثانيهما أن الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الحال فى ابن الخال (المسئلة الرابعة) ولا نسائهن مضافة الى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات فى وجه (المسئلة الخامسة) ولا ما ملكت أيمانهن هذا بعد الكل فان المفسدة فى التكشف لهم ظاهرة ومن الائمة من قال المراد من كان دون البلوغ ۞ ثم قوله تعالى (واتقين الله) عند المماليك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور وقوله (ان الله كان على كل شئ شهيدا) فى غاية الحسن فى هذا الموضع وذلك لان ما سبق اشارة الى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم فقال ان الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا ۞ ثم قال تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى) لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر الى وجوه نسائه احتراما كمل بيان حرمته وذلك لان حالته منحصرة فى اثنتين حالة خلوته وذكر ما يدل على احترامه فى تلك الحالة بقوله لا تدخلوا بيوت النبى وحالة يكون فى ملأ والملأ اما الملأ الاعلى واما الملأ الادنى أما فى الملأ الاعلى فهو محترم فان الله وملائكته يصلون عليه وأما فى الملأ الادنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وفى الآية مسائل (الاولى) الصلاة الدعاء يقال فى اللغة صلى عليه أى دعا له وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى فانه لا يدعو له لان الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث فقال الشافعى رضى الله عنه استعمل اللفظ بمعان وقد تقدم فى تفسير قوله هو الذى يصلى عليكم وملائكته والذى نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هنالك هو الذى يصلى عليكم وملائكته جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة اليهم فقال يصلون وفيه تعظيم النبى عليه الصلاة والسلام وهذا لان افراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلا للمذكور على المعطوف كما ان الملك اذا قال يدخل فلان وفلان أيضا يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخلان اذا علمت هذا فقال فى حق النبى عليه السلام انهم يصلون اشارة الى أنه فى الصلاة على النبى عليه السلام كالاصل وفى الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ثم ان الملائكة يوافقونه فهم

(الا أن يؤذن لكم) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا تدخلوها فى حال من الاحوال الا حال كونكم مأذونا لكم وقيل من أعم الاوقات أى لا تدخلوها فى وقت من الاوقات الا وقت أن يؤذن لكم ورد عليه بأن النحاة نصوا على أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول لا يقال آتيك أن يصيح الديك وانما يقال آتيك ٧٩٧ صياح الديك وقوله تعالى (الى طعام) متعلق بيؤذن بتضمين معنى الدعاء للاشعار بأنه لا ينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وان تحقق الاذن كما يشعر به قوله تعالى (غير ناظرين اناه) أى غير منتظرين وقته أو ادراكه وهو حال من فاعل لا تدخلوا على أن الاستثناء واقع على الوقت والحال معا عند من يجوزه أو من المجرور فى لكم وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون جاريا على غير من هو له بلا ابراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرئ بالامالة لانه مصدر أنى الطعام أى ادرك (ولكن اذا دعيتم فادخلوا) استدراك من النهى عن الدخول بغير اذن وفيه دلالة بينة على أن المراد بالاذن الى الطعام هو الدعوة اليه (فاذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا ولا تلبثوا لانه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى عليه الصلاة والسلام فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه مخصوصة بهم و بأمثالهم والا لما جاز لاحد أن يدخل بيوته عليه الصلاة والسلام باذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لامر مهم (ولا مستأنسين لحديث) أى لحديث بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين أو مقدر بفعل أى ولا تدخلوا أو لا تمكثوا مستأنسين الخ (ان ذلكم) أى الاستئناس الذى كنتم تفعلونه من قبل (كان يؤذى النبى) لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وايجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصده عن الاشتغال بما يعنيه (فيستحيى منكم) أى من اخراجكم لقوله تعالى (والله لا يستحيى من الحق) فانه يستدعى

فى الصلاة على النبى عليه السلام يصلون بالاضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفى المؤمنين ليس كذلك (المسئلة الثانية) هذا دليل على مذهب الشافعى لان الامر للوجوب فتجب الصلاة على النبى عليه السلام ولا تجب فى غير التشهد فتجب فى التشهد (المسئلة الثالثة) سئل النبى عليه السلام كيف نصلى عليك يا رسول الله فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد (المسئلة الرابعة) اذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة الى صلاتنا نقول الصلاة عليه ليس لحاجته اليها والا فلا حاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه وانما هو لاظهار تعظيمه كما ان الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له اليه وانما هو لاظهار تعظيم منا شفقة علينا ليثيبنا عليه ولهذا قال عليه السلام من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا (المسئلة الخامسة) لم يترك الله النبى عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الامة حيث قال وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وقوله وسلموا تسليما أمر فيجب ولم يجب فى غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا سلام عليك أيها النبى فى التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لانها كانت مؤكدة بقوله ان الله وملائكته يصلون على النبى ۞ ثم قال تعالى (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) فصل الاشياء تتبين بعض اضدادها فبين حال مؤذى النبى ليبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لان البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره ألا ترى أن الملك اذا تغير على مملوك ان كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خبير المجرم أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك فى غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ولا سيما اذا لم يكن فى الدنيا ملك غير سيده وقوله فى الدنيا والآخرة اشارة الى بعد لا رجاء للقرب معه لان المبعد فى الدنيا يرجو القربة فى الآخرة فاذا أبعد فى الآخرة فقد خاب وخسر لان الله اذا أبعده وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ثم انه تعالى لم يحصر جزاءه فى الابعاد بل أوعده بالعذاب بقوله وأعد لهم عذابا مهينا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر ايذاء الله وايذاء الرسول وذكر عقيبه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء ايذاء الله لان من آذى الملك يبعده عن بابه اذا كان لا يأمر بعذابه والتعذيب جزاء ايذاء الرسول لان الملك اذا آذى بعض عبيده كبير يستوفى منه قصاصه لا يقال فعلى هذا من يؤذى الله ولا يؤذى الرسول لا يعذب لانا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لان من آذى الله فقد آذى الرسول وأما على الوجه الآخر وهو ان من يؤذى النبى عليه السلام ولا يؤذى الله كمن عصى من غير انبراك كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر فقد آذى النبى عليه السلام غير ان الله تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه

أن يكون المستحيا منه امرا حقا متعلقا بهم لا بأنفسهم وما ذاك الا اخراجهم فينبغى أن لا يترك حياء ولذلك لم يتركه تعالى وأمركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة وقرئ لا يستحى بحذف الياء الاولى والقاء حركتها الى ما قبلها (واذا سألتموهن) الضمير للنساء اللاتى المدلول عليهن

بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام (متاعا) أى شيأ يتمتع به من الماعون وغيره (فاسألوهن) أى المتاع (من وراء حجاب) أى ستر روى أن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل انه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه فأصابت يد رجل منهم يد عائشة رضى الله عنها فكره النبى ذلك فنزلت (ذلكم) أى ما ذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى أكثر تطهيرا من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) أى وما صح وما استقام لكم (ان تؤذوا رسول الله) أى ان تفعلوا فى حياته فعلا يكرهه ويتأذى به (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أى من بعد وفاته أو فراقه (ان ذلكم) اشارة الى ما ذكر من ايذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الشر والفساد (كان عند الله عظيما) أى أمرا عظيما وخطبا هائلا لا يقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا ما لا يخفى ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد حيث قال (ان تبدوا شيأ) مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) فى صدوركم (فان الله كان بكل شئ عليما) فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصى البادية والخافية لا محالة وفى هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة فى الوعيد

بكونه يبعده عن الباب (المسئلة الثانية) أكد العذاب بكونه مهينا لان من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان أمر بحبسه فى موضع مميزا أو أمر بضربه رجلا كبيرا يدل على ان الامر هين وان أمر بضربه على ملا وحبسه بين المفسدين ينبئ عن شدة الامر فمن آذى الله ورسوله من المخلدين فى النار فيعذب عذابا مهينا وقوله أعد لهم للتأكيد لان السيد اذا عذب عبده حالة الغضب من غير اعداد يكون دون ما اذا أعد له قيدا وغلا فان الاول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فاذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثانى ❁ ثم قال تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) لما كان الله تعالى مصليا على نبيه لم ينفك ايذاء الله عن ايذائه فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين انكم ان أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبى كما صليت عليه لا ينفك ايذاؤكم عن ايذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون ايذائكم ايذاء الرسول كما ان ايذائى ايذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك ايذاء أحد منهم عن ايذاء الآخر كما يكون حال الاصدقاء الصادقين فى الصداقة وقوله بغير ما اكتسبوا احتراز عن الامر بالمعروف من غير عنف زائد فان من جلد مائة على شرب الخمر أو عدد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضا ومن جلد على الزنا أو حد على الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ويمكن ان يقال لم يؤذ أصلا لان ذلك اصلاح حال المضروب وقوله فقد احتملوا بهتانا البهتان هو الزور وهو لا يكون الا فى القول والايذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمنا بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتانا فنقول المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول وهذا لان الله تعالى أراد اظهار شرف المؤمن فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن وايذاء الله بأن يشرك وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج فى وجوده الى موجد وهو قول ذكر ايذاء المؤمن بالقول وعلى هذا خص الايذاء القولى بالذكر لانه أعم وأتم وذلك لان الانسان لا يقدر ان يؤذى الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ ما يحتاج اليه فيؤذيه بالقول ولان الفقير الغائب لا يمكن ايذاؤه بالفعل ويمكن ايذاؤه بالقول بان يقول فيه ما يصل اليه فيتأذى والوجه الثانى فى الجواب هو أن نقول قوله بعد ذلك واثما مبينا مستدرك فكأنه قال احتمل بهتانا ان كان بالقول واثما مبينا كيفما كان الايذاء وكيفما كان فان الله خص الايذاء القولى بالذكر لما بينا انه أعم ولانه أتم لانه يصل الى القلب فان الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل فى القلب والآذان سبيله ثم قال تعالى (يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) لما ذكر أن من يؤذى المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن ايذاء المؤمن أمر المؤمن باجتناب المواضع التى فيها التهم الموجبة للتأذى لئلا يحصل الايذاء الممنوع منه ولما كان الايذاء القولى مختصا بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب الايذاء القولى

(لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن) استئناف لبيان من لا يجب الاحتجاب منهم روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب يا رسول الله أو نكلمهن أيضا من وراء الحجاب فنزلت وانما لم يذكر العم والخال لانهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى واله آبائك

ابراهيم واسمعيل واسحق أو لانه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الاخوة وأبناء الاخوات فان مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة لما انهن عمات لابناء الاخوة وخالات لابناء الاخوات وقيل لانه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لابنائهما (ولا نسائهن) أى نساء المؤمنات (ولا ما ملكت أيمانهن) من العبيد والاماء وقيل من الاماء خاصة وقد مر فى سورة النور (واتقين الله) فى كل ما تأتين وما تذرن لا سيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (ان الله كان على كل شئ شهيدا) لا تخفى عليه خافية ولا تتفاوت فى علمه الاحوال (ان الله وملائكته) وقرئ وملائكته بالرفع عطفا على محل ان واسمها عند الكوفيين وحملا على حذف الخبر ثقة بدلالة ما بعده عليه على رأى البصريين (يصلون على النبى) قيل الصلاة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال ابن عباس رضى الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه أيضا يصلون يبركون وقال أبو العالية صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له فينبغى أن يراد بها فى يصلون معنى مجازى عام يكون كل واحد من المعانى المذكورة فردا حقيقيا له أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ويهتمون باظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) اعتنوا أنتم أيضا بذلك فانكم أولى به (وسلموا تسليما) قائلين اللهم صل على محمد وسلم أو نحو ذلك

القولى وهو النساء فان ذكرهن بالسوء يؤذى الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فان من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه وكان فى الجاهلية تخرج الحرة والامة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم فأمر الله الحرائر بالتجلبب ❁ وقوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) قيل يعرفن انهن حرائر فلا يتبعن ويمكن ان يقال المراد يعرفن انهن لا يزنين لان من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها فيعرفن انهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن ❁ وقوله (وكان الله غفورا رحيما) يغفر لكم ما قد سلف برحمته ويثيبكم على ما تأتون به راحما عليكم ❁ وقوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) لما ذكر حال المشرك الذى يؤذى الله ورسوله والمجاهر الذى يؤذى المؤمنين ذكر حال المسر الذى يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق ولما كان المذكور من قبل أقواما ثلاثة نظرا الى اعتبار أمور ثلاثة وهم المؤذون الله والمؤذون الرسول والمؤذون المؤمنين ذكر من المسرين ثلاثة نظرا الى اعتبار أمور ثلاثة (أحدها) المنافق الذى يؤذى الله سرا (والثانى) الذى فى قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذى يؤذى النبى عليه السلام بالارجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء وان كانوا قوما واحدا الا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا فى مقابلة قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حيث ذكر أصنافا عشرة وكلهم يوجد فى واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله لنغرينك بهم أى لنسلطنك عليهم لتخرجهم من المدينة ثم لا يجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت او الاخراج ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم فاذا أغريناك لا يجاورونك ❁ والاول كقول القائل يخرج فلان ويقرأ اشارة الى أمرين والثانى كقوله يخرج فلان ويدخل السوق ففى الاول يقرأ وان لم يخرج وفى الثانى لا يدخل الا اذا خرج والاستثناء فيه لطيفة وهى ان الله تعالى وعد النبى عليه السلام انه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده اظهارا لشوكته ولو كان النفى بارادة الله من غير واسطة النبى لاخلى المدينة عنهم فى أقل آن كن فيكون ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبى لا يقع ذلك الا بزمان وان لطف فقال ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا وهو أن يتهيؤا ويتأهبوا للخروج ❁ ثم قال تعالى (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) أى فى ذلك القليل الذى يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك واذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ولا يجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون ❁ ثم قال تعالى (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) يعنى هذا ليس بدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى

وقيل المراد بالتسليم انقياد أمره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه وقيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على وقوله عليه الصلاة والسلام من ذكرت عنده فلم يصل على ٨٠٠ فدخل النار فأبعده الله ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال وكل الله تعالى بى ملكين فلا اذكر عند مسلم فيصلى على الا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ولا أذكر عند مسلم فلا يصلى على الا قال ذانك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب فى كل مجلس مرة وان تكرر ذكره عليه الصلاة والسلام كما قيل فى آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك فى كل دعاء فى أوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب فى العمر مرة وكذا قال فى اظهار الشهادتين والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شانه عليه الصلاة والسلام أن يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع وأما الصلاة عليه فى الصلاة بان يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد فليست بشرط فى جواز الصلاة عندنا وعن ابراهيم النخعى رحمه الله ان الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما فى التشهد وهو السلام عليك أيها النبى وأما الشافعى رحمه الله فقد جعلها شرطا وأما الصلاة على غير الانبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا وتكره استقلالا لانه فى العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل مع كونه عزيزا جليلا (ان الذين يؤذون الله ورسوله) أريد بالايذاء أما فعل ما يكرهانه من الكفر والمعاصى مجازا لاستحالة حقيقة التأذى فى حقه تعالى وقيل فى ايذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين

الاحكام اما الافعال والاخبار فلا تنسخ ۞ ثم قال تعالى (يسئلك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله) لما بين حالهم فى الدنيا انهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال يسئلك الناس عن الساعة أى عن وقت القيامة قل انما علمها عند الله لا تبين لكم فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها فى كل وقت ۞ ثم قال تعالى (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) اشارة الى التخويف وذلك لان قول القائل الله يعلم متى يكون الامر الفلانى ينبئ عن ابطاء الامر ألا ترى أن من يطالب مديونا بحقه فان استمهله شهرا أو شهرين ربما يصبر ذلك وان قال له اصبر الى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجىء فلان ويمكن أن يكون مجىء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا يعنى هى فى علم الله فلا تستبطؤها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث قال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ولهذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة ۞ ثم قال تعالى (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا) يعنى كما انهم ملعونون فى الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله وأعد لهم سعيرا كما قال تعالى لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا خالدين فيها أبدا مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لخروجهم ۞ وقوله (لا يجدون وليا ولا نصيرا) لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لان المعذب لا يخلصه من العذاب الا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ولا ولى لهم يشفع ولا نصير يدفع ۞ ثم قال تعالى (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا) لما بين انه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين ان بعض أعضائهم أيضا لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الانسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كى لا يصيب وجهه وفى الآخرة تقلب وجوههم فى النار فما ظنك بسائر اعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية له يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة لحصول علمهم بأن الخلاص ليس الا للمطيع ثم يقولون انا أطعنا سادتنا وكبراءنا يعنى بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الاكابر فبدلنا الخير بالشر فلا جرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ثم انهم يطلبون بعض التشفى بتعذيب المضلين ويقولون ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا أى بسبب ضلالهم واضلالهم وفى قوله تعالى ضعفين ولعنا كثيرا معنى لطيف وهو ان الدعاء لا يكون الا عند عدم حصول الامر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم ضعفين وزيادة اللعن بقولهم

يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقيل قول الذين يلحدون فى آياته وفى ايذاء الرسول عليه الصلاة والسلام هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد وقيل طعنهم فى نكاح صفية والحق هو العموم فيهما وان ما ايذاؤه عليه الصلاة والسلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه والايذان بجلالة مقداره عنده تعالى وأن ايذاءه عليه الصلاة والسلام ايذاء له سبحانه (لعنهم الله) طردهم وأبعدهم من رحمته (فى الدنيا والآخرة) بحيث لا يكادون ٨٠١ ينالون فيهما شيأ منها (وأعد لهم) مع ذلك (عذابا مهينا) يصيبهم فى الآخرة خاصة (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل وتقييده بقوله تعالى (بغير ما اكتسبوا) أى بغير جناية يستحقون بها الاذية بعد اطلاقه فيما قبله للايذان بان اذى الله ورسوله لا يكون الا غير حق وأما اذى هؤلاء فمنه ومنه (فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) أى ظاهرا بينا قيل انها نزلت فى منافقين كانوا يؤذون عليا رضى الله عنه ويسمعونه ما لا خير فيه وقيل فى أهل الافك وقال الضحاك والكلبى فى زناة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون الا للاماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر أيضا جهلا او تجاهلا لاتحاد الكل فى الزى واللباس والظاهر عمومه لكل ما ذكر ولما سيأتى من أراجيف المرجفين (يا أيها النبى) بعد ما بين سوء حال المؤذين زجرا لهم عن الايذاء

١٠١ ر س أمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع ايذاءهم فى الجملة من التستر والتميز عن مواقع الايذاء فقيل (قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها وقيل هى الملحفة وكل ما يتستر به أى يغطين بها وجوههن وأبدانهن اذا برزن لداعية من الدواعى ومن للتبعيض لما مر من أن المعهود التلفع ببعضها وارخاء بعضها وعن السدى تغطى احدى عينيها وجبهتها والشق الآخر الا العين (ذلك) أى ما ذكر من التغطى (أدنى) أقرب (أن يعرفن) ويميزن عن الاماء والقينات اللاتى

بقولهم لعنا كثيرا ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) لما بين الله تعالى ان من يؤذى الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك اشارة الى ايذاء هو كفر أرشد المؤمنين الى الامتناع من ايذاء هو دونه وهو لا يورث كفرا وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبى عليه السلام وبحكمه بالفئ لبعض وغير ذلك فقال يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى وحديث ايذاء موسى مختلف فيه قال بعضهم هو ايذاؤهم اياه بنسبته الى عيب فى بدنه وقال بعضهم قارون قرر مع امرأة فاحشة حتى تقول عند بنى اسرائيل ان موسى زنى بى فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله فى قلبها انها صدقت ولم تقل ما لقنت وبالجملة الايذاء المذكور فى القرآن كاف وهو انهم قالوا له اذهب انت وربك فقاتلا وقولهم لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد الى غير ذلك فقال للمؤمنين لا تكونوا أمثالهم اذا طلبكم الرسول الى القتال اى لا تقولوا اذهب أنت وربك فقاتلا ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه واذا أمركم الرسول بشئ فأتوا منه ما استطعتم وقوله فبرأه الله مما قالوا على الاول ظاهر لانه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى مروا بهرون عليهم فرأوه غير مجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذى رموه به وعلى ما ذكرنا فبرأه الله مما قالوا أى أخرجه عن عهدة ما طلبوا باعطائه البعض اياهم واظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حججهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم ۞ وقوله (وكان عند الله وجيها) أى ذا وجاهة ومعرفة والوجيه هو الرجل الذى يكون له وجه أى يكون معروفا بالخير وكل أحد وان كان عند الله معروفا لكن المعرفة المجردة لا تكفى فى الوجاهة فان من عرف غيره لكونه خادما له وأجيرا عنده لا يقال هو وجيه عند فلان وانما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) أرشدهم الى ما ينبغى أن يصدر منهم من الافعال والاقوال اما الافعال فالخير واما الاقوال فالحق لان من اتى بالخير وترك الشر فقد اتقى

هنّ مواقع تعرّضهم وايذائهم (فلا يؤذين) من جهة أهل الريبة بالتعرض لهنّ (وكان الله غفورا) لما سلف منهنّ من التفريط (رحيما) بعباده حيث يراعى من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات (لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للايذاء (والذين فى قلوبهم مرض) عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه (والمرجفون فى المدينة) من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الاراجيف الملفقة المستتبعة للاذية وأصل الارجاف التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة وصفت به الاخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم واجلائهم او بما يضطرهم الى الجلاء ولنحرضنك على ذلك (ثم لا يجاورونك) عطف على جواب القسم وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم ما يصيبهم (فيها) اى فى المدينة (الاقليلا) زمانا او جوارا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه (ملعونين) نصب على الشتم او الحال على أن الاستثناء وارد عليه أيضا على راى من يجوّزه كما مرّ فى قوله تعالى غير ناظرين اناه ولا سبيل الى انتصابه عن قوله تعالى (أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) لان ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى سنّ الله ذلك فى الامم الماضية سنة وهى أن يقتل الذين نافقوا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا فى توهين أمرهم بالارجاف ونحوه أينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أصلا لابتنائها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه عليه الصلاة والسلام عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لما أن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وسائر الكتب (قل انما علمها عند الله) لا يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله تعالى (وما يدريك) خطاب مستقل له عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت الامر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجىء عن قريب أى اى شىء يعلمك بوقت قيامها أى لا يعلمك به شىء أصلا (لعل الساعة تكون قريبا) أى شيأ قريبا أو تكون الساعة فى وقت قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز أن يكون

الله ومن قال الصدق قال قولا سديدا ثم وعدهم على الامرين بأمرين على الخيرات باصلاح الاعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدا فى الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب ❁ ثم قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) فطاعة الله هى طاعة الرسول ولكن جمع بينهما لبيان شرف فعل المطيع فانه بفعل الواحد اتخذ عند الله عهدا وعند الرسول يدا وقوله فقد فاز فوزا عظيما جعله عظيما من وجهين (أحدهما) انه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب حتى ان من أراد أن يضرب غيره سوطا ثم نجا منه لا يقال فاز فوزا عظيما لان العذاب الذى نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الامر تفاوتا كثيرا (والثانى) انه وصل الى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الابدى ❁ ثم قال تعالى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) لما أرشد الله المؤمنين الى مكارم الاخلاق وأدب النبى عليه السلام بأحسن الآداب بين أن التكليف الذى وجهه الله الى الانسان أمر عظيم فقال انا عرضنا الامانة أى التكليف وهو الامر بخلاف ما فى الطبيعة واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الارض لان الارض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه الجبل لا يطلب منه السير والارض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا فى الملائكة لان الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالاكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه وفى الآية مسائل (الاولى) فى الامانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمى أمانة لان من قصر فيه فعليه الغرامة ومن وفر فله الكرامة ومنهم من قال هو قول لا اله الا الله وهو بعيد فان السموات والارض والجبال بالسنتها ناطقة بأن الله واحد لا اله الا هو ومنهم من قال الاعضاء فالعين أمانة ينبغى أن يحفظها والاذن كذلك واليد كذلك والرجل والفرج واللسان ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم (المسئلة الثانية) فى العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أى قابلنا الامانة

التذكير باعتبار ان الساعة فى معنى اليوم او الوقت وفيه تهديد للمستعجلين وتبكيت للمتعنتين والاظهار فى حيز الاضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجملة كما أشير اليه (ان الله لعن الكافرين) على الاطلاق أى طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة (وأعدّ لهم) مع ذلك (سعيرا) نارا شديدة الاتقاد يقاسونها فى الآخرة (خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا) يحفظهم (ولا نصيرا) يخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم فى النار) ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيرا وقيل مفعول لاذكر أى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة الى جهة كلحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة الى جهة أو من حال الى حال أو يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرئ تقلب بحذف احدى التاءين من تتقلب وتقلب باسناد الفعل الى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب باسناده الى السعير وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الاعضاء ففيه مزيد تفظيع للامر وتهويل للخطب ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد وقوله تعالى (يقولون) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كأنه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على ما فاتهم (ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فلا نبتلى بهذا العذاب أو حال من ضمير وجوههم أو من نفسها أو هو العامل فى يوم (وقالوا) عطف على يقولون والعدول الى صيغة الماضى للاشعار بان قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضربا من التشفى بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم فى تلك الورطة وان علموا عدم قبوله فى حق خلاصهم منها (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرئ ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار والافهم فى مقام التحقير والاهانة (فأضلونا السبيلا) بما زينوا لنا من الاباطيل والالف للاطلاق كما فى وأطعنا الرسولا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أى مثلى العذاب الذى آتيتناه لانهم ضلوا وأضلوا (والعنهم لعنا كبيرا) أى شديدا عظيما وقرئ كثيرا وتصدير الدعاء بالنداء مكررا للمبالغة فى الجؤار واستدعاء الاجابة (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قيل نزلت

على السموات فرجحت الامانة على أهل السموات والارض (المسئلة الثالثة) فى السموات والارض وجهان (أحدهما) أن المراد هى بأعيانها (والثانى) المراد أهلوها ففيه اضمار تقديره انا عرضنا الامانة على أهل السموات والارض (المسئلة الرابعة) قوله فأبين أن يحملنها لم يكن اباؤهن كاباء ابليس فى قوله تعالى فأبى أن يكون مع الساجدين من وجهين (أحدهما) ان هناك السجود كان فرضا وههنا الامانة كانت عرضا (وثانيهما) ان الاباء كان هناك استكبارا وههنا استصغارا استصغرن أنفسهن بدليل قوله وأشفقن منها (المسئلة الخامسة) ما سبب الاشفاق نقول الامانة لا تقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزا صعب الحفظ كالاوانى من الجواهر التى تكون عزيزة سريعة الانكسار فان العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها فى الاول لامانه من هلاكها وفى الثانى لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثانى) أن يكون الوقت زمان نهب وغارة فلا يقبل العاقل فى ذلك الوقت الودائع والامر كان كذلك لان الشيطان وجنوده كانوا فى قصد المكلفين اذ العرض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الامانة والاتيان بما يجب كايداع الحيوانات التى تحتاج الى العلف والسقى وموضع مخصوص يكون برسمها فان العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع فى صندوق أو فى زاوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج الى تربية وتنمية (المسئلة السادسة) كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الاشياء فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن ولهذا قال تعالى انه كان ظلوما جهولا (والثانى) ان الاشياء نظرت الى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن والانسان نظر الى جانب المكلف وقال المودع عالم قادر لا يعرض الامانة الا على أهلها واذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها وقال اياك نعبد واياك نستعين (المسئلة السابعة) قوله تعالى انه كان ظلوما جهولا فيه وجوه (أحدها) ان المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الاخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب (ثالثها) انه كان ظلوما جهولا أى كان من شأنه الظلم والجهل يقال

في شان زيد وزينب وما سمع فيه من قالة الناس (فبرأه الله مما قالوا) أي فاظهر براءته عليه الصلاة والسلام مما قالوا في حقه أي من مضمونه ومؤداه الذي هو الامر المعيب وذلك أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بان دفع اليها مالا عظيما فاظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بان أقرت المومسة بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل بقارون ما فعل كما فصل في سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هرون عند خروجه معه الى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول وقيل احياه الله تعالى فاخبرهم ببراءته وقيل قذفوه بعيب في بدنه من برص أو أدرة لفرط تستره حياء فاطلعهم الله تعالى على براءته بان فر الحجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله والقصة مشهورة (وكان عند الله وجيها) ذا قربة ووجاهة وقرئ وكان عبدا لله وجيها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى في كل ما تأتون وما تذرون لا سيما في ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذي رسوله عليه الصلاة والسلام (وقولوا) في كل شان من الشؤون (قولا سديدا) قاصدا الى الحق من سد يسد سدادا يقال سدد السهم نحو الرمية اذا لم يعدل به عن سمتها والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب الجائر عن العدل والقصد (يصلح لكم أعمالكم) يوفقكم للاعمال الصالحة أو يصلحها بالقبول والاثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم) ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل (ومن يطع الله ورسوله) في الاوامر والنواهي التي من جملتها هذه التكليفات (فقد فاز) في الدارين (فوزا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) لما بين عظم شان طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الاليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شان ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الايذان بان ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالامانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها

فرس شموس ودابة جموع وماء طهور أي من شأنه ذلك فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الامانة بقي بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وترك الجهل كما قال تعالى في حق آدم عليه السلام وعلم آدم الاسماء كلها وقال في حق المؤمنين عامة والراسخون في العلم يقولون آمنا به وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء (رابعها) انه كان ظلوما جهولا في ظن الملائكة حيث قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وبين علمه عندهم حيث قال تعالى أنبئوني بأسماء هؤلاء وقال بعضهم في تفسير الآية ان المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك والمدرك منه من يدرك الكلي والجزئي مثل الآدمي ومنه من يدرك الجزئي كالبهائم تدرك الشعير الذي تأكله ولا تتفكر في عواقب الامور ولا تنظر في الدلائل والبراهين ومنه من يدرك الكلي ولا يدرك الجزئي كالملائكة يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والاكل قالوا والى هذا اشار الله تعالى بقوله ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن الا على مدرك الامرين اذ له لذات بأمور جزئية فيمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هي مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته واما غيره فان كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الامر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان المخاطب يسمى مكلفا لما ان المكلف مخاطب فسمي المخاطب مكلفا وفي الآية لطائف (الاولى) الامانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أمينا عليها والقول قول الامين فهو فائز بقي أولاده أخذوا الامانة منه والآخذ من الامين ليس بمؤتمن ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان فالمؤمن اتخذ عند الله عهدا فصار أمينا من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز ولهذا قال تعالى ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات أي كما تاب على آدم في قوله تعالى فتاب عليه والكافر صار آخذا للامانة من المؤتمن فبقي في ضمانه ثم ان المؤمن اذا أصاب الامانة في يده شئ بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والامين لا يضمن ما فات بغير تقصير والكافر اذا أصاب الامانة في يده شئ ضمن وان كان بقضاء الله وقدره لانه يضمن ما فات وان لم

والمحافظة عليها وأدائها من غير اخلال بشئ من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة الى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض عليهن لاظهار مزيد الاعتناء بامرها والرغبة في قبولهن لها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالاباء والاشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الاجسام الثقيلة التي يستعمل فيها القوى الجسمانية التي أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة والمعنى ان تلك الامانة في عظم الشان بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام التي هي مثل في القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وادراك لأبين قبولها وأشفقن منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق روما لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه (وحملها الانسان) اى عند عرضها عليه اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده أو تكليفه اياها يوم الميثاق أي تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة وهو اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطري أو عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى (انه كان ظلوما جهولا) اعتراض وسط بين الحمل وغايته للايذان من أول الامر بعدم وفائه بما عهده وتحمله أي انه كان مفرطا في الظلم مبالغا في الجهل أي بحسب غالب افراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا والى الفريق الاول أشير بقوله عز وجل (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أي حملها الانسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فان التعذيب وان لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة الى بعض أفراده ترتب الاغراض على الافعال المعللة بها أبرز في معرض الغرض اى كان عاقبة حمل الانسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من افراده لخيانتهم الامانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية والى الفريق الثاني اشير بقوله تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) اى كان عاقبة حمله لها ان يتوب الله تعالى على هؤلاء من افراده اى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الانسان بحكم جبلته وتداركهم لها

يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الاشياء الثلاثة بالذكر لانها أشد الامور وأحملها للاثقال اما السموات فلقوله تعالى وخلقنا فوقكم سبعا شدادا واما الارض والجبال فلا تخفى شدتها وصلابتها ثم ان هذه الاشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الامانة عليها واكتفى بشدتهن وقوتهن فامتنعن لانهن وان كن اقوياء الا أن أمانة الله تعالى فوق قوتهن وحملها الانسان مع ضعفه الذي قال الله تعالى فيه وخلق الانسان ضعيفا ولكن وعده بالاعانة على حفظ الامانة بقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه فان قيل فالذي يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر نقول قال الله تعالى انا أعين من يستعين بي ويتوكل علي والكافر لم يرجع الى الله تعالى فتركه مع نفسه فبقي في عهدة الامانة (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى فأبين أن يحملنها وقوله تعالى وحملها الانسان اشارة الى أن فيه مشقة بخلاف ما لو قال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن في الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لا يستحق أجرة فقال تعالى وحملها اشارة الى انه مما يستحق الاجر عليه أي على مجرد حمل الامانة واما على رعايتها احق الرعاية فيستحق الزيادة فان قيل فالكل حملوها غاية ما في الباب ان الكافر لم يات بشئ زائد على الحمل فينبغي أن يستحق الاجر على الحمل فنقول الفعل اذا كان على وفق الاذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الاجرة الا ترى انه لو قال احمل هذا الى الضيعة التي على الشمال فحمل ونقلها الى الضيعة التي على الجنوب لا يستحق الاجرة ويلزمه ردها الى الموضع الذي كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الاذن فغرم وزالت حسناته التي عملها بسببه ۞ ثم قال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أي حملها الانسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمي التكليف امانة والامانة من حكمها اللازم ان الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم ان الامين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والاجر على الحفظ احسان والعدل قبل الاحسان وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لم عطف المشرك على المنافق ولم يعد اسمه

بالتوبة والانابة والالتفات الى الاسم الجليل اولا لتهويل الخطب وتربية المهابة والاظهار فى موقع الاضمار ثانيا لابراز مزيد
الاعتناء بامر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه والله تعالى اعلم وجعل الامانة التى شانها ان تكون من جهته
تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير الوعد
الكريم الذى ينبئ عنه قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما بجعل تعظيم شان الطاعة ذريعة الى ذلك بان من
قام بحقوق مثل هذا الامر العظيم الشان ٨٠٦ وراعاها فهو جدير بان يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم والجهل أولا
وتعليل الحمل بتعذيب فريق
والتوبة على فريق ثانيا وقيل
المراد بالامانة مطلق الانقياد
الشامل للطبيعى والاختيارى
وبعرضها استدعاؤها الذى يعم
طلب الفعل من المختار وارادة
صدوره من غيره وبحملها الخيانة
فيها والامتناع عن ادائها فيكون
الاباء امتناعا عن الخيانة واتيانا
بالمراد فالمعنى ان هذه الاجرام مع
عظمها وقوتها أبين الخيانة
لامانتها واتين بما أمرناهن به
كقوله تعالى أتينا طائعين وخانها
الانسان حيث لم يات بما أمرناه به
انه كان ظلوما جهولا وقيل انه
تعالى لما خلق هذه الاجرام خلق
فيها فهما وقال لها انى فرضت
فريضة وخلقت جنة لمن اطاعنى
فيها ونارا لمن عصانى فقلن نحن
مسخرات لما خلقتنا لانحتمل
فريضة ولانبغى ثوابا ولاعقابا ولما
خلق آدم عليه السلام عرض
عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما
لنفسه بتحمله مايشق عليه جهولا
بوخامة عاقبته وقيل المراد بالامانة العقل او التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وباباهن الاباء الطبيعى
الذى هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية
والشهوية هذا قريب من التحقيق فتامل والله الموفق وقرئ ويتوب الله على الاستئناف (وكان الله غفورا رحيما) مبالغا فى
المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم واثاب بالفوز على طاعاتهم * قال عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة
الاحزاب وعلمها اهله وماملكت يمينه اعطى الامان من عذاب القبر والله اعلم

تعالى لم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال ويتوب الله ولو قال
ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلا لانقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله
كالكلام المستأنف ويجب هنا ذكر الفاعل فقال ويتوب الله ويحقق هذا قراءة من قرأ
ويتوب الله بالرفع (المسئلة الثانية) ذكر الله فى الانسان وصفين الظلوم والجهول
وذكر من أوصافه وصفين فقال (وكان الله غفورا رحيما) اى كان غفورا للظلوم رحيما
على الجهول وذلك لان الله تعالى وعد عباده بانه يغفر الظلم جميعا الا الظلم العظيم الذى هو
الشرك كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم واما الوعد فقوله تعالى ان الله
لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء واما الرحمة على الجهل فلان
الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسئ بقوله ماعلمت (وههنا
لطيفة) وهى ان الله تعالى اعلم عبده بأنه غفور رحيم
وبصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ثم عرض عليه
الامانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعله فيما
يجبرها من الغفران والرحمة والله اعلم
والحمد لله رب العالمين وصلى الله
على سيدنا محمد النبى
الامى وآله

(تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع أوله سورة سبا)